مناهل العرفان

في

علوم القرآن

طبق ماقرره مجلس الأزهر الأعلى فى دراسة تخصص الكليات الأزهرية

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ

محمد عبد العظيم الزرقاني

مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بتخصص الدعوة والإرشاد

بكلية أصول الدين سابقاً

جميع الحقوق محفوظة

الجزء الأول

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. آمِينَ.

تصدير الطبعة الثالثة وفهرسها

١ - التصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ » . أما بعد ، فهاهى الطبعة الثالثة من كتاب « مناهل العرفان فى علوم القرآن » أقدِّمها لقرّائى الأكرمين بعد أن أعدْتُ النظر فيه ، رجاءَ أن أُدركَ الكمال أو أُقارب ، فزدتُ وحذفت ، وقدّمتُ وأخَّرتُ ، وصححت واستدركت ، ثم هيَّأ الله ـ تباركت آلاؤه ـ مطبعةً عاونتنى على حسن إخراجه ، فضبطته وشكلته ، ونظَّمته وصقَلته . ولولا أزمة الورق الحادة للبس الكتاب حُلَّةً أبهى من هذه الحُلَّة . ولكن إذا سلم لك الجوهر واللباب ، فلا عليك من القشر والإهاب .

« خُذْ بِنَصْلِ السيفِ واتركْ غِمْدَهُ واعتبر فضلَ الفتى دونَ الحُلَلْ »

على أن الذنب فى ذلك هو ذنب هذه الحرب الضَّروس الطاحنة ، التى طغت وبغت ، وطمَّتْ وعمَّتْ ، حتى لم ينجُ من شرها شرق ولا غرب ، ولا ضيِّق ولا رحب ، بل قعدت للناس بكل صراط ، وأثّرت فى جميع المرافق حتى أدوات الطبع (بالطبع) .

لطف الله بالبلاد والعباد ، وأخرج الإسلام من هذه المحنة قوىَّ السِّناد ، رفيع العماد ، عالى الكلمة ، مسموع الصوت ، حتى يفىء الجميع إلى بُحبوحته ، ويتفيَّئُوا وارفَ ظلاله وسلامه ، وأمنه وإيمانه ، وعدله ورحمته ، ويسره وسماحته ، وحتى يعلموا أن نهضة العلم جناية على الإنسانية جائحة ، إن لم تسايرها نهضة روحية صالحة ، توفِّق بين مطالب الروح والجسد ،

وتؤاخى بين إنسان الشرق والغرب، وتستأصل النُّعرَات الجنسية والطائفية ، وتنظم من الكل جبهةً متحدةً على صراط الحق والخير ، « حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ » .

وهل توجد هذه المزايا مجتمعةً إلا فى الإسلام؟ وهل يوجد الإسلام بغير القرآن؟ وهل يفهم القرآن إلا « بعلوم القرآن » ؟ وهو موضوع كتابنا الآن ؟ « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * » .

محاولاتى :

ولقد حاولت فى هذا التأليف أموراً خمسة :

أولها ـ أن تكون كتابتى من النَّسَق الأزهرى الجديد فى تفكيره وفى تعبيره ، بحيث يتيسر فهمه وهضمه للقراء من أبناء هذا الجيل، سواء منهم المحقِّق الأزهرىّ والمثقَّف المدنى ، فإن لكل زمان لغةً ولساناً ، ومنطقاً وبرهاناً . « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

على أننى فى هذه المحاولة لا أدَّعى أننى أنشأت وابتكرت ، ولا أحدثت وابتدعت. بل قُصَارَاىَ أننى فهمت وأحسنت العرض إذا كنت قد وُفِّقْتُ . أما المادة نفسها فالفضل فيها لعلماء هذه الأمة الذين أبْلَوْا فى جمعها بلاءً حسناً ، ولم يخرجوا من الدنيا إلا بعد أن شقُّوا لنا الطريق ، وقرّبوا البعيد ، وجمعوا الشتيت ، وتركوا من خلفهم ثروةً علمية هائلة ، وكنوزاً ثقافية زاخرة ، لا يوجد مثلها ولا قريبٌ منها فى أيَّة أمة من أمم الأرض إلى يوم الناس هذا ! وأعتقد أننا لو أحسنَّا القيام على هذه التركة لكان لنا شأن غير هذا الشأن ، ومكانة وسلطان لا يدانيهما مكانة ولا سلطان !

ولـكن ماقضى كان . ولعل المستقبل القريب يكون أسعد من هذا الحاضر الحزين الأسوان ! .

ثانيها — أن أعالج شبهات عصرنا الراهن علاجاً ينحى الأذى عن طريق عشاق الحق، وطلاب الحقيقة ، ورواد البحث ، ومريدى الإسلام .

ولقد التزمت فى علاج هذه الشبهات أدب الباحث وواجب المناظر . ورأيت لمثل هذا الاعتبار أن أرخى الستر على أسماء أصحاب هذه الشبه خصوصاً المعاصرين منهم . وتعمدت هذه السياسية محاسنةً لهم عسى أن يرعوُوا، وحباً فى سلام البحث وهدوئه عسى أن يسلموا ويهدءوا ، وغضاً من شأنهم إن كان لهم شأن كيلا يقلدوا ، فإننا أصبحنا فى زمان افتتن كثيرمن الناس فيه بالأسماء والرتب، والأموال والنسب. وباتوا لا يعرفون الرجال بالحق إنما يعرفون الحق بالرجال،فالباطل إن صدر من فلان النابه فهو عندهم حقٌّ وزين، والحقٌّ إن جاء به فلان الخامل فهو عندهم باطل وشين! وهكذا اختلت الضوابط واتقلبت الموازين ! .

ثالثها — أن أظهر عند كل مناسبة جلال التآخى بين الإسلام والعلم ، لتنـكشف تلك الدسيسة الرخيصة المفضوحة التى خيَّلَت إلى المخدوعين أنَّ بين الدين والعلم خصومةً قائمة ، وحرباً طاحنة ، وعداوة متأصلة ، كأن الدين رديف الجهل ، وكأن العلم حليف الـكفر ! « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً » .

رابعها ـ أن أُجَلِّىَ أسرار التشريع وحكمه كلمـا دعانى المقام ، ليعلم من لم يكن يعلم أن هذا الدين هو حاجة الإنسانية ، ودواء البشرية، وكمال الفرد، وصلاح الجماعة، ولتنقطع أنفاس تلك الدعاية الضالة، دعاية فصل الدين عن السياسة، والثقافة الدينية عن الثقافة المدنية،

وقوانين العدل ودساتير الحكم عن مقررات العقيدة وشعائر العبادة! وهى أخبث الدعوات وأفسقها فيما نعلم!.

ولئن صحّ أن يقال هذا فى أديانٍ قاصرة عن الوفاء بحاجات الإنسانية فى مناحى الإصلاح البشرى، فما كان يصحُّ أن يقال هذا فى دين الإسلام بحال من الأحوال، لأنه دين عقيدة وعمل، وعبادة وقيادة، وعلم وخلق، وحكم وعدل، ورحمة وحق، ومصحف، وسيف، ودنيا وآخرة!

ومنْ كان فى ريب فليسأل التاريخ عن جليل الآثار التى تركها الحكم الإسلامى الصالح فى أتباعه ومن انضوى تحت لوائهم من الأقليات الأجنبية، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم الطائفية.

بل ليسألوا العالم وأحداثه، والدهر وتصاريفه: أىُّ الحكمين كان أنجح فى تربية الأفراد، وأنجع فى إصلاحات الجماعات، وأهدى سبيلاً فى الاعتدال والاستدلال؟ أحكم السماء أم حكم الأرض؟ وقانون الخالق أم قوانين الخلق؟ وتشريع العليم الحكيم المنزه عن الغرض والهوى، أم تشاريع الإنسان القاصر النظر والاطلاع، المتأثر بطغيان الغرائز وجموح القوى؟ « وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَٱحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ ٱللهُ إِلَيْكَ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟ »

وإن لم يكفهم هذا فليسألوا المنصفين من مشاهير الغرب، كغوستاف لوبون الفرنسى وبرناردشو الانجليزى، وأمثالهما من الذين درسوا الإسلام وبحثوه، ثم حكموا له وأنصفوه، وأطروه وامتدحوه. « والفضل ماشهدت به الأعداء »!.

ولنمسك القلم عن الجولان فى هذا الميدان،فالكلمة هنا للتصدير والتنوير،لاللمقارنة والتنظير . وحسبنا أن نردِّد قول الشاعر العربى :

« ملكنا فكانَ العفوُ منا سجيةً فلمّا ملكتمْ سالَ بالدمِ أبطَحُ »
« فحسبكمو هذا التفاوتُ بيننا وكلُّ إناءٍ بالذى فيهِ ينضحُ »

خامسها : أن أنفخ الروح من بوق هذا الكتاب فى الكرام القارئين ، لاسيما طلابى الأعزاء الذين هم على وشك النزول إلى ميادين الدعوة والإرشاد،فأوقظ هِمماً أخاف أن تكون قد نامت ، وأحيي عزائم معاذ الله أن تكون قد ماتت . والروح هى كل شىء ! هى القوة الدافعة ، وهى الحياة الرائعة ! والروح الصحيحة لاتوجد إلا فى القرآن بل الروح الصحيحة هى القرآن ! « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا » !

إن الإسلام لايريد من المسلم ولا يرضى له أن يكون هيكلاً جامداً،ولا أن يكون تمثالاً هامداً ، فإن الإسلام عدوُّ الهياكل والجمود ، خصيم التماثيل والهمود .

إنما يريد الإسلام أن يكون المسلم روحاً يبعث الروح ، وحياةً يملأُ الدنيا حياة ، ورسولاً من رسل السلام والرحمة والنجاة ! أجلْ . ويريد الإسلام أن يكون أهل العلم من أتباعه أصحاب همم علية، ونفوس أبية ،لا يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً ،ولا يريدون بعلمهم عرض هذا الأدنى. إنما همهم وراثة الأنبياء فى إصلاح العالم؛وتبليغ دعوة الإسلام على وجهها لطبقات الخلق ، وتنفيذ أحكام الله فى الأقضية وسائر شئون الحكم . « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » !

وهنا فى هذه الآية الحكيمة تتجلى رسالة العالم والطالب . ويالها رسالة ! ثم يالها أمانة ! نسأل الله السلامة والإعانة .

رجائى

تلك محاولاتى وأهدافى، فإذا كنت قد أصبتها فذلك الفضل من الله، « وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللهِ » . وإن كانت الثانية فإنما هى نفسى ، وأستغفر الله .

ورجائى من كل ناظر يطّلع على عيبٍ أن يدلّنى عليه ، ويرشدنى إليه . فالدين النصيحة ، والمسلمون بخيرٍ ماتعاونوا . ومانجح سلفنا الصالح وكانوا خير أمة أخرجت للناس إلا بهذه الفضيلة. وإنه ليحلولى أن أقول هنا ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه: « رحمَ اللهُ رجلاً أهدَى إلىّ عيوبَ نفسى » .

شكرى

وإنى لمدينٌ ببالغ الشكر ، وسابغ الحمد، لأولئك السادة الأماجد الذين طوّقوا عنقى بجليل معاونتهم وتشجيعهم ، وجميل تقريظهم وتقديرهم .

ولا أزال أحفظ بالإجلال والإكبار ، ما لقيته فى هذه المناسبة السعيدة من بعض رجالات الدولة، وكبار العلماء ورؤساء الجماعات الإسلامية، وأصحاب المجلات والصحف اليومية ، وإخوانى أبناء الأقطار الشقيقة ، خصوصاً الذين عملوا منهم على ترجمة هـــذا الكتاب ونقله فى دقّة وأمانة إلى بعض اللغات الشرقية .

وأعتذر عن عدم نشر تقاريظهم والتنويه بفضلهم فى هذه المرة ، لخجل فى طبعى ، وضيقٍ فى طبع الكتاب .

عجل الله الفرجَ للأنام، وأعاد عهد الرخاء واليسر والسلام ، وجعل العاقبة للإسلام وبلاد الإسلام « إِنَّ ٱللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ . قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكلّ شَىْءٍ قَدْراً » ؟

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمدُ للهِ ٱلَّذى أنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً » ، والصلاة والسلام على من أرسله الله بالقرآن رحمة للعالمين وفرجاً ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحابته ، وأتباعه ومحبيه وأمته .

أما بعد ، فهذا كتاب « مناهل العرفان فى علوم القرآن » . كتبته تحقيقاً لرغبة طلابى المتخصصين فى الدعوة والإرشاد من كلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية . مستمدًّا معارفه ـ بعد فتوح الله وتوفيقه ـ مما كتب علماء الإسلام قديماً وحديثاً ، فى القرآن الكريم وعلومه ، والتفسير ومقدماته ، وعلم تاريخ التشريع ، وعلمى الكلام والأصول ، وعلوم اللغة العربية ومعاجمها ، وعلمى الفلسفة والاجتماع ، وعلمى النفس والأخلاق ، وبعض البحوث المنثورة هنا وهناك ، فى غضون الرسائل والمجلات ، من عربية صميمة ، ومترجمة منقولة .

وإلى الله تعالى أضرع ، أن يكتب لى فيه النجاح والتوفيق والقبول ، وأن يحقق به النفع المرجوّ والأثر المأمول . « إنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاء » .

مُقَدِّمة

فى القرآن وعلومه ومنهجى فى التأليف

القرآن الكريم : كتاب ختم الله به الكتب، وأنزله على نبى ختم به الأنبياء، بدين عام خالد ختم به الأديان .

فهو دستورُ الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض ، أنهى إليه مُنزِلُه كلَّ تشريع ، وأودعه كلَّ نهضة ، وناط به كلَّ سعادة .

وهو حجة الرسول وآيته الكبرى : يقوم فى فم الدنيا شاهداً برسالته، ناطقاً بنبوته ، دليلا على صدقه وأمانته .

وهو ملاذُ الدين الأعلى : يستند الإسلامُ إليه فى عقائده وعباداته، وحِكَمه وأحكامه وآدابه وأخلاقه ، وقصصه ومواعظه ، وعلومه ومعارفه . !

وهو عماد لغة العرب الأسمى : تدين له اللغة فى بقائها وسلامتها، وتستمدُّ علومَها منه على تنوعها وكثرتها ، وتفوق سائر اللغات العالمية به فى أساليبها ومادّتها .

وهو ــ أولاً وآخراً ــ القوّة المحوِّلة التى غيَّرت صورة العالم ، ونقلت حدود الممالك ، وحوّلت مجرى التاريخ ، وأنقذت الإنسانية العاثرة ، فكأنما خلقت الوجود خلقاً جديداً . !

لذلك كله ، كان القرآنُ الكريم موضعَ العناية الكبرى من الرسول ﷺ وصحابته ، ومن سلفِ الأمة وخلفَها جميعاً إلى يوم الناس هذا .

وقد اتخذت هذه العناية أشكالا مختلفة ، فتارة ترجع إلى لفظه وأدائه ، وأخرى إلى أسلوبه وإعجازه ، وثالثة إلى كتابته ورسمه ، ورابعة إلى تفسيره وشرحه إلى غير ذلك.

ولقد أفرد العلماء كل ناحية من هذه النواحى بالبحث والتأليف ، ووضعوا من أجلها العلوم ودوّنوا الكتب ، وتباروا فى هذا الميدان الواسع أشواطاً بعيدة ، حتى زَخَرت المكتبةُ الإسلامية بتُراث مجيدمن آثار سلفنا الصالح ،وعلمائنا الأعلام .وكانت هذه الثروة ولاتزال مفخرة نتحدّى بها أُمم الأرض ، ونُفحم بها أهل الملل والنِّحَل فى كل عصر ومِصر !

وهكذا أصبح بين أيدينا الآن مصنفات متنوعة ، ومَوْسوعات قيِّمة ، فيما نسميه علم القــراءات ، وعلم التجويد ، وعلم النسخ العثمانى ، وعلم التفسير ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم غريب القرآن ، وعلم إعجاز القرآن ، وعلم إعراب القرآن ، وماشا كل ذلك من العلوم الدينية والعربية ، مما يعتبر بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب ، وبات هذا المظهر معجزة جديدة مصدِّقة لقوله سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

ولقدأنجبت تلك العلومُ الآنفة وليداً جديدا،هو مزيج منها جميعاً، وسليل لها جميعاً، فيه مقاصدها وأغراضها وخصائصها وأسرارها ، و « الولد سرُّ أبيه » .

وقد أسموْه (علوم القرآن) وهو موضوع دراستنا فى هذا الكتاب إن شاءَ الله .

وسأحاول فيما أكتبه أن أمزُج بين حاجة الأزهريين إلى البحث والتحليل، وبين رغبات جماهير القراءالمعاصرين فى تقريب الأسلوب وتعبيد السبيل، ماوسعنى الإمكان. وسأضطر بسبب ذلك إلى شىء من الإسهاب والتطويل ، ولكنها تضحية ضئيلة بجانب تأدية رسالتنا فى وجوب الاتصال الدينى بالجماهير .

وسأعرِض — بعون الله وتأييده — لعلاج الشبهات التى أطلق بخورَها أعداء الإسلام ، وسددوا سهامها الطائشة إلى القرآن ، ولكن عنـــد المناسبة وسنوح الفرصة .

وسأجتزئ في كل مبحث ببعض أمثلة من القرآن الكريم ، دون أن أحاول ما حاوله سلف الكاتبين من استيعاب كل فرد لكل نوع ؛ فإن حبل ذلك طويل وثقيل ، على حين أن الناظر يكفيه الإيضاح بقليل من التمثيل .

وسأجعل نقاط المنهج المقرر عناوين بارزة بين المباحث التى يقوم عليها هذا الكتاب مقتفياً فى الغالب أثر تلك النقط فى التسمية وفى الترتيب . « وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » .

المبحث الأول

فى معنى علوم القرآن

يقتضينا منهجُ البحث التحليلى لهذا المركب الإضافى ، أن نتحدث عن طرفيه ، وعن الإضافة بينهما ، ثم عن المراد بهذا المركب بعد نقله وتسمية هذا الفن المدوّن به .

(١) أما العلوم : فجمع علم ، والعلم فى اللغة مصدر يرادف الفهم والمعرفة ؛ ويرادف الجزم أيضاً فى رأى . ثم تداولت هذا اللفظَ اصطلاحاتٌ مختلفة :

فالحكماء : يريدون به صورة الشيء الحاصلة فى العقل ، أو حصول الصورة فى العقل ، أو تعلق النفس بالشيء على جهة انكشافه . والتحقيق عندهم هو الإطلاق الأول.

والمتكلمون : يعرّفون العلم : بأنه صفة يتجلّى بها الأمر لمن قامت به ، وهو مراد من قال منهم : « إنه صفة توجب لمحلها تميزاً لا يحتمل النقيض » ولو كان هذا التمييز بوساطة الحواس كما هو رأى الأشعرى .

ويطلق العلم فى لسان الشرع العام : على معرفة الله تعالى وآياته ، وأفعاله فى عباده وخلقه . قال الإمام الغزالى فى الإحياء : « قد كان العلم يطلق على العلم بالله تعالى وآياته وبأفعاله فى عباده وخلقه ، فتصرفوا فيه بالتخصيص حتى اشتهر فى المناظرة مع الخصوم

فى المسائل الفقهية وغيرها . ولكن ماورد فى فضل العلم والعلماء أكثره فى المعنى الأول» اهـ وهو يفيد أن العلم الشرعى الخاص يطلق على أخص من هذا الذى ذكره الغزالى فى لسان الشرع العام ، ولكن بحسب مايقتضيه المقام . بل لقد نص الغزالى نفسه فى الإحياء أيضاً على أن الناس اختلفوا فى العلم الذى هو فريضة على كل مسلم، وقال : إنهم تفرّقوا فيه إلى عشرين فرقة . ثم ذهب إلى أن المراد به علم المعاملة الشامل لما يصلح الظاهر من عبادات وعادات إسلامية ، ولما يُصلح الباطن من عقائد الإسلام وأخلاقه .

والماديون : يزعمون أن العلم ليس إلا خصوص اليقينيات التى تستند إلى الحسّ وحده . وسنناقش مذهبهم فى مبحث نزول القرآن .

ولسنا بسبيل بيان تلك الاصطلاحات الآنفة الذكر ، فلها علومها وكتبها ومباحثُها، إنما هو عرْض عام ، يعرف منه كيف أن لفظاً واحداً - هو العلم - أنهكته الاصطلاحات المتعددة، وتداولته النقول المتنوعة، فلا تقعن فى لبس إذا ورد عليك فى صورة شبه متعارضة.

العلم فى عرف التدوين العام :

والذى يعنينا كثيراً هو العلم فى اصطلاح آخر ، هو اصطلاح علماء التدوين ؛ لأننا بصدد الكلام فى علوم القرآن كفنّ مدوّن .

(قالوا : يطلق العلم على المسائل المضبوطة بجهة واحدة) والغالب أن تكون تلك المسائل نظريةً كلية ، وقد تكون ضروريةً ، وقد تكون جزئيةً . أقول : وقد تكون شخصية أيضاً كمسائل علم الحديث رواية ، فإنها فى الواقع قضايا شخصية موضوعها ذات النبى ﷺ .

وقال السعد فى « المقاصد » وعبد الحكيم على المطول : ما يفيد أن العلم المدون قد يطلق على طائفة من التصورات، أى المفردات التى يتصورها العقل مضبوطة بجهة واحدة.

وأقول : يمكن أن نستخلص من ذلك كله (أن العلم فى عرف التدوين العام يقال على المعلومات المنضبطة بجهة واحدة) سواء أكانت وحدة الموضوع أم وحدة الغاية ؛ وسواء

أكانت تلك المعلومات تصورات كعلم البديع ، أم تصديقات . وسواء أكانت تلك التصديقات قضايا كلية ـ وهو الغالب ـ أم جزئية أم شخصية كعلم الحديث رواية .

هذا كله إطلاق واحد من إطلاقات ثلاثة لعلماء التدوين . والإطلاق الثانى عندهم : هو الإدراك أى إدراك تلك المعارف السالفة . والإطلاق الثالث : هو على ما يسمونه ملكة الاستحصال أى التى تستحصل بها تلك المعارف . أو ملكة الاستحضار أى التى تستحضر بها المعارف بعد حصولها . وأول هذه الإطلاقات هو أولاها بالقبول لأنه المتبادر من نحو قولهم : « تعلمتُ علماً من العلوم ، وموضوع العلم كذا » والتبادر ـ كما يقولون ـ أمارة الحقيقة . ذلك ما أردنا بسطه فى الكلام على لفظ « علوم » من قولنا : « علوم القرآن » .

٢ ـ أما لفظ القرآن : فهو فى اللغة مصدر مرادف للقراءة ، ومنه قوله تعالى : « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبى ﷺ ، من باب إطلاق المصدر على مفعوله . ذلك ما نختاره استناداً إلى موارد اللغة ، وقوانين الاشتقاق ، وإليه ذهب اللحيانى وجماعة . أما القول بأنه وصف من القَرْء بمعنى الجمع ، أو أنه مشتق من القرائن . أو أنه مشتق من قرنت الشىء بالشىء ، أو أنه مرتجل أى موضوع من أول الأمر عَلماً على الكلام المعجز المنزل ، غير مهموز ولا مجرد من أل ، فكل أولئك لا يظهر له وجه وجيه ، ولا يخلو توجيه بعضه من كُلْفة ، ولا من بعد عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة.

وعلى الرأى المختار فلفظ قرآن مهموز ؛ وإذا حذف همزه ، فإنما ذلك للتخفيف ، وإذا دخلته « أل » بعد التسمية فإنما هى للمح الأصل لا للتعريف .

ويقال للقرآن : فرقان أيضاً ، وأصله مصدر كذلك ، ثم سمى به النظم الكريم ، تسمية للمفعول أو الفاعل بالمصدر ، باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق

بعضه عن بعض فى النزول ، أو فى السور والآيات . قال تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً » ثم إن هذين الاسمين هما أشهر أسماء النظم الكريم . بل جعلهما بعض المفسرين مرجع جميع أسمائه ، كما ترجع صفات الله على كثرتها إلى معنى الجلال والجمال . ويلى هذين الاسمين فى الشهرة : هذه الأسماء الثلاثة: الكتاب ، والذكر والتنزيل . وقد تجاوز صاحب البرهان حدود التسمية ، فبلغ بعدتها خمسة وخمسين ، وأسرف غيره فى ذلك حتى بلغ بها نيفاً وتسعين ، كما ذكره صاحب التبيان . واعتمد هذا وذاك على إطلاقات واردة فى كثير من الآيات والسور ، وفاتهما أن يفرقا بين ما جاء من تلك الألفاظ على أنه اسم ، وما ورد على أنه وصف ، ويتضح ذلك لك على سبيل التمثيل ، فى عدهما من الأسماء، لفظ « قرآن » ولفظ « كريم » أخذا من قوله تعالى « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » كما عدًّا من الأسماء لفظ « ذكر » ولفظ « مبارك » اعتماداً على قوله تعالى : « وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ » على حين أن لفظ قرآن وذكر فى الآيتين ، مقبول كونهما اسمين. أما لفظ كريم ومبارك؛ فلاشك أنهما وصفان كما ترى. والخطب فى ذلك سهل يسير ، بيد أنه مسهب طويل ، حتى لقد أفرده بعضهم بالتأليف . وفيما ذكرناه كفاية « وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ » .

القرآن فى الاصطلاح

معلوم أن القرآن كلام الله ، وأن كلام الله غير كلام البشر ، ما فى ذلك ريب . ومعلوم أيضاً أن الإنسان له كلام ، قد يراد به المعنى المصدرى ، أى التكلم ، وقد يراد به المعنى الحاصل بالمصدر ، أى المتكلَّم به . وكل من هذين المعنيين : لفظى ونفسى . فالكلام البشرى اللفظى بالمعنى المصدرى : هو تحريك الإنسان للسانه وما يساعده فى إخراج الحروف من المخارج. والكلام اللفظى بالمعنى الحاصل بالمصدر : هو تلك الكلمات

المنطوقة ، التي هي كيفية في الصوت الحسي ، وكلا هذين ظاهر لا يحتاج إلى توضيح . أما الكلام النفسي بالمعنى المصدري، فهو تحضير الإنسان في نفسه بقوته المتكلمة الباطنة، للكلمات التي لم تبرز إلى الجوارح ؛ فيتكلم بكلمات متخيَّلة يرتِّبها في الذهن بحيث إذا تلفظ بها بصوت حسي كانت طبق كلماته اللفظية . والكلام النفسي بالمعنى الحاصل بالمصدر : هو تلك الكلمات النفسية والألفاظ الذهنية المترتبة ترتباً ذهنيًّا منطبقاً عليه الترتُّب الخارجي .

ومن الكلام البشري النفسي بنوعيه قوله تعالى: « فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا » . ومنه الحديث الشريف الذي رواه الطبراني عن أمِّ سلمةَ أنها سمعت رسول الله ﷺ وقد سأله رجل فقال : « إنِّي لأُحدِّثُ نَفْسِي بالشيء لَوْ تَكلَّمْتُ بِهِ لأحبطتُ أجري » فقال عليه السلام : « لَا يَلْقَى ذٰلِكَ الكَلَامَ إلَّا مُؤمنٌ » فأنت ترى أن النبي ﷺ سمَّى ذلك الشيء الذي تحدثت به النفس كلاماً، مع أنه كلمات ذهنية لم ينطق بها الرجل مخافة أن يحبط بها أجره . وهذا الإطلاق من الرسول يحمل على الحقيقة لأنها الأصل ولا صارف عنها .

كذلكم القرآن كلام الله ـ ولله المثل الأعلى ـ قد يطلق ويراد به الكلام النفسي، وقد يطلق ويراد به الكلام اللفظي. والذين يطلقونه إطلاق الكلام النفسي هم المتكلمون فحسب ، لأنهم المتحدثون عن صفات الله تعالى النفسية من ناحية ، والمقررون لحقيقة أن القرآن كلام الله غير مخلوق من ناحيةٍ أخرى . أما الذين يطلقونه إطلاق الكلام اللفظي ، فالأصوليون والفقهاء وعلماء العربية ، وإن شاركهم فيه المتكلمون أيضاً ، بإطلاق ثالث عندهم كما يتبين لك بعد . وإنما عُنِيَ الأصوليون والفقهاء بإطلاق القرآن على الكلام اللفظي ، لأن غرضهم الاستدلال على الأحكام وهو لا يكون إلا بالألفاظ. وكذلك علماء العربية يعنيهم أمر الإعجاز ، فلا جرم كانت وجهتهم الألفاظ .

والمتكلمون يُعْنَوْنَ أيضاً بتقرير وجـوب الإيمان بكتب الله المنزلة ومنها القرآن ، وبإثبات نبوّة الرسول ﷺ بمعجزة القرآن . وبدهى أن ذلك كله مناطه الألفاظ ، فلا بدع أن ساهموا فى هذا الإطلاق الثالث .

القرآن عند المتكلمين

ثم إن المتكلمين حين يطلقونه على الكلام النفسى يلاحظون أمرين :

(أحدهما : أن القرآن عَلَمَ أى كلام ممتاز عن كل ماعداه من الكلام الإلٰهى .

ثانيهما : أنه كلام الله ، وكلام الله قديم غير مخلوق ، فيجب تنزهه عن الحوادث وأعراض الحوادث)

وقد علمت أن الكلام النفسى البشرى يطلق بإطلاقين أحدهما : على المعنى المصدرى وثانيهما على المعنى الحاصل بالمصدر. فكذلك كلام الله النفسى . يطلق بإطلاقين أحدهما : على نظير المعنى المصدرى للبشر . وثانيهما : على نظير المعنى الحاصل بالمصدر للبشر . وإنما قلنا (على نظير) لما هو مقرر من وجوب تنزه الكلام الإلٰهى النفسى عن الخلق وأشباه الخلق . فعرفـوه بالمعنى الأول الشبيه بالمعنى المصدرى البشرى . وقالوا : « إنه الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الحكمية . من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس » .

وهذه الكلمات أزلية مجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية . وهى مترتبة غير متعاقبة . كالصورة تنطبع فى المرآة مترتبةً غـير متعاقبة . وقالوا فى تعريفهم هذا : إنها حكمية لأنها ليست ألفاظاً حقيقية مصوّرة بصورة الحروف والأصوات . وقالوا : إنها أزلية ، ليثبتوا لها معنى القدم . وقالوا : إنها مجردة عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية لينفوا عنها أنها مخلوقة . وكذلك قالوا : إنها غير متعاقبة ، لأن التعاقب يستلزم الزمان ، والزمان حادث . وأثبتوا لها الترتب ، ضرورة أن القرآن حقيقة مترتبة بل ممتازة بكمال ترتبها وانسجامها .

إذا عرفت هذا الإطلاقَ الأول عند المتكلمين ، سهُـل عليك أن تعرف إطلاقهم الثانى للقرآن الـكريم (وهو أنه تلك الـكلمات الحـكمية الأزلية المترتبة فى غير تعاقب المجردةُ عن الحروف اللفظية والذهنية والروحية . وهو تعريف للقرآن كلام الله بما يشبه المعنى الحاصل بالمصدر لـكلام البشر النفسى . ذانك إطلاقان اختص بهما المتـكلمون كما رأيت .

وهناك إطلاق ثالث للقرآن يقول به المتكلمون أيضاً لـكن يشاركهم فيـه الأصوليون والفقهاء وعلماء العربية . ذلك أنه هو :

« اللفظ المنزّل على النبى ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس » المتازُ بخصائصه التى سنذكرها بعد قليل .

فهو مظاهر وصور لتلك الـكلمات الحـكميّة الأزلية ، التى أشرنا إليها آنفاً .

ويطلق القرآن إطلاقاً رابعاً على النقوش المرقومة بين دفّتى المصحف ، باعتبـار أن النقوش دالة على الصفة القديمة ، والـكلمات الغيبية ، واللفظ المنزل . وهذا إطلاق شرعى عام . ولنضرب لك مثلًا يوضح ذلك المقام الذى ضلّتْ فيه الأفهام ، وزلّتْ فيه الأقدام .

رجل شاعر ، كشرف الدين البوصِيرى ـ رحمه الله ـ لا ريب أنه كان يحمل فى نفسه قوّة شاعرةً ، يستطيع أن يصوغ بهـا ماشاء من غُرر القصائد ، وعندما اتجهت شاعريّتُه فعلًا ، أن يمتدح أفضل الخليقة صلوات الله وسلامه عليـه بقصيدته المعروفة بالهمزيّة ، لا شك أنه عالج النظم فى نفسه ، واستحضر المعانى والألفاظ والأوزان ، حتى تمثل له ذلك القصيـــدُ فى نفسه وتأثرت نفسه به ، على وجـه إذا تـكلم به بصوت حسى كان عين نظمه المقفّى الموزون . ثم لاشك أنه نطق بقصيده بعــد ، ثم كتبه بعد أن أنشده . فهذا الاسم الشهير بالهمزية فى مدح خير البرية ، يمكن أن نقرب

به الإطلاقات الأربعة التى أطلقنا بها القرآن الكريم : يصح أن نطلق الهمزية على القوة الشاعرة لذلك الرجل باعتبار اتجاهها إلى هذا النظم الخاص ، الذى تمثَّل فى نفسه من قبل أن يأخذ صورة اللفظ والنقش. ويصح أن نطلقها على هذا النظم الخاص، الذى تمثل فى نفسه من قبل أن يظهر بمظهر الألفاظ والنقوش كذلك . ويصح أن نطلقها على هذا النظم بعد أن تمثَّل أصواتاً ملفوظة وحروفاً موزونةً . ويصح أن نطلقها على هذا النظم متمثلًا فى صورته المرسومة ، ونقوشه المكتوبة .

القرآن عند الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية

أظننى قد أطلت عليك ولكن المقام دقيق وخطير ، فلا تضق ذرعا بهذا التطويل والتمثيل ، ثم استمع لما وعدتك إياه من بيان (معنى القرآن على أنه اللفظ المنزل على النبى ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس)

هذا الإطلاق كما علمت — ينسب إلى علماء الأصول والفقه واللغة العربية . ويوافقهم عليه المتكلمون أيضا. غير أن هؤلاء الذين أطلقوه على اللفظ المنزل الخ اختلفوا فى تعريفه : فمنهم من أطال فى التعريف وأطنب ، بذكر جميع خصائص القرآن الممتازة . ومنهم من اختصر فيه وأوجز . ومنهم من اقتصد وتوسط . فالذين أطنبوا عرفوه (بأنه الكلام المعجزُ المنزلُ على النبى ﷺ ، المكتوبُ فى المصاحف ، المنقولُ بالتواتر ، المتعبد بتلاوته) وأنت ترى أن هذا التعريف جمع بين الإعجاز ، والتنزيل على النبى ﷺ ، والكتابة فى المصاحف ، والنقل بالتواتر ، والتعبد بالتلاوة . وهى الخصائص العظمى التى امتاز بها القرآن الكريم . وإن كان قد امتاز بكثير سواها . ولا يخفى عليك أن هذا التعريف كان يكفى فيه ذكر بعض تلك الأوصاف ويكون جامعاً مانعاً ، غير أن مقام التعريف مقام إيضاح وبيان ، فيناسبه الإطناب لغرض زيادة ذلك والبيان . لذلك استباحوا لأنفسهم أن يزيدوا فيه ويسهبوا .

والذين اختصروا وأوجزوا فى التعريف : منهم من اقتصر على ذكر وصف

واحد هو الإعجاز . ووجهة نظرهم فى هذا الاقتصار أن الإعجاز هو الوصف الذاتى للقرآن، وأنه الآية الكبرى على صدق النبى ﷺ ، والشاهد العدل على أن القرآن كلام الله .

ومنهم من اقتصر على وصفين : هما الإنزال والإعجاز ، وحجتهم أن ما عدا هذين الوصفين ليس من الصفات اللازمة للقرآن . بدليل أن القرآن قد تحقق فعلًا بهما دون سواهما على عهد النبوّة .

ومنهم من اقتصر على وصفى النقل فى المصاحف والتواتر ، لأنهما يكفيان فى تحصيل الغرض ، وهو بيان القرآن وتمييزه عن جميع ماعداه .

والذين توسطوا : منهم من عرض لإنزال الألفاظ ، وللكتابة فى المصاحف وللنقل بالتواتر فحسب ، موجِّهاً رأيه بأن المقصود هو تعريف القرآن لمن لم يدركه زمن النبوة، وأن ماذكره من الأوصاف هو من اللوازم البينة لأُولئك الذين لم يدركوها ، بخلاف الإعجاز فإنه غير بيِّن بالنسبة لهم ، وليس وصفاً لازماً لما كان أقل من سورة من القرآن .

ومن أولئك الذين توسطوا مَنْ عرض للإنزال والنقل بالتواتر والتعبد بالتلاوة فقط، مستنداً إلى أن ذلك هو الذى يناسب غرض الأُصوليين. وعرّفوه بأنه: (اللفظ المنزل على النبى ﷺ ، المنقول عنه بالتواتر ، المتعبد بتلاوته) فاللفظ جنس فى التعريف، يشمل المفرد والمركب . ولاشك أن الاستدلال على الأَحكام كما يكون بالمركبات يكون بالمفردات، كالعامّ والخاص والمطلق والمقيد . وخرج بالمنزل على النبى ﷺ ما لم ينزل أصلًا مثل كلامنا، ومثل الحديث النبوى،وما نزل على غير النبى ﷺ كالتوراة والإنجيل. وخرج بالمنقول تواتراً جميعُ ما سوى القرآن من منسوخ التلاوة والقراءات غير المتواترة ، سواء أ كانت مشهورة نحو قراءة ابن مسعود « متتابعات » عقيب قوله تعالى « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » أم كانت آحادية كقراءة ابن مسعود أيضاً لفظ «مُتَتَابِعَاتٍ» عقيب قوله سبحانه « وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » فإن شيئاً

من ذلك لا يسمى قرآناً، ولا يأخذ حكمه. وخرجت الأحاديث القدسية إذا تواترت بقولهم «المتعبد بتلاوته».

هل القرآن عَلَمُ شخص؟

أسلفنا أن القرآن يطلق على الصفة القديمة، ويطلق على الكلمات الحكمية الأزلية، وهذان الإطلاقان لا تعدد فيهما ألبتة، لا حقيقة ولا اعتباراً. بل هما منزهان عنه، لأن التعدد من أمارات الحدوث. كيف وهما قديمان؟!

وإذاً فلفظ القرآن علم شخص بهذين الإطلاقين لا محالة. أما إذا أُريد بالقرآن «اللفظ المنزل» فهنا يكون الخلاف. فالرأى السائد أنه علم شخص، مدلوله تلك الآيات المنزلة الممتازة بخصائصها العليا من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس. وهذه الألفاظ المعيَّنة لا يقدح فى تشخصها اختلاف المتلفظين ولا تعدد القارئين، كما لا يقدح فى تشخص محمود مثلا أن يكون فى مكة أو فى المدينة، ولا أن يتقلب فى أطوار مختلفة من طفولة إلى شيخوخة، ومن صحة إلى مرض، ومن حياة إلى موت، ونحو ذلك. وبعضهم يجعله علمَ جنس، نظراً إلى تعدد هذه الألفاظ المنزلة بتعدد قارئيها وكاتبيها. وهذا مردود من وجهين:

أحدهما: أن علم الجنس ضرورة نحوية اقتضتها أحكام لفظية، كامتناع إضافته، ودخول أل عليه. ولا ضرورة هنا لفظية.

ثانيهما: أن علم الجنس نكرة فى المعنى. وأفراده منتشرة متعددة حقيقة لا اعتباراً. والتعدد الملحوظ هنا اعتبارى لا حقيقى. للقطع بأن مايقرؤه أو يكتبه كل منا فهو القرآن عينه لا فرد من أفراده.

هل يُصاغ للأعلام تعاريف

بقى علينا أن نتساءل: إذا كان القرآن علَماً فكيف ساغ أن يُصاغ له تعريف

بل تعاريف على نحو ماسبق ؟ مع أن التعاريف لاتكون إلا للكليات ، والعَلَم جزئى مركب من الماهية ومشخصاتها. والمشخصات لايمكن معرفتها إلا بالاطلاع عليها بالحواس كالإشارة مثلا ، أو بالتعبير عنها باسم عَلم ؟

ولنا على ذلك أجوبة ثلاثة :

أولها : أنا نمنع أن التعاريف لا تكون إلا للكليات . لم لايجوز أن تعرف الجزئيات بأمور كلية لا يتحقق مجموعها فى الخارج إلا فى هذا الشخص بخصوصه . وهذا الجواب قريب مما ذكره صاحب التلويح؛ إذ قال : « الحق أن الشخص يمكن أن يُحَدَّ بما يفيد امتيازه عن جميع ماعداه بحسب الوجود ، لا بما يفيد تعينَه وتشخُّصَه بحيث لا يمكن اشتراكه بين كثيرين بحسب العقل . فإن ذلك إنما يحصل بالإشارة لا غير » اهـ .

ثانيها : أنا نسلم أن التعاريف لا تكون إلا للكليات . لكن ماذكروه ليس بتعريف حقيقى إنما هو ضابط مميِّز ، وليس بمعرِّف .

ثالثها : أن هذا تعريف على رأى الأصوليين الذين لايشترطون فى التعاريف أجناساً ولافصولا . بل الحد عندهم هو الجامع المانع مطلقاً . وعليه فيصح أن يحد الشخص عند الأصوليين دون المناطقة .

إطلاق القرآن على الكل وعلى أبعاضه

لاشك أن القرآن يطلق على الكل وعلى أبعاضه . فيقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله: إنه قرأ قرآناً . وكذلك يقال لمن قرأ ولو آية منه : إنه قرأ قرآناً . لكنهم اختلفوا : فقيل: إن لفظ قرآن حقيقة فى كل منهما، وإذاً يكون مشتركاً لفظياً. وقيل: هو موضوع للقدر المشترك بينهما ، وإذاً يكون مشتركاً معنوياً ، ويكون مدلوله حينئذ كلياً .

وقد يقال : إن إطلاقه على الكل حقيقة وعلى البعض مجاز . والتحقيق أنه مشترك لفظى ، بدليل التبادر عند إطلاق اللفظ على الكل وعلى البعض كليهما، والتبادر أمارة الحقيقة . والقول بعَلمية الشخص فيه كما حققنا آنفا يمنع أنه مشترك معنوى ، فتعين أن يكون مشتركا لفظيًا . وهو مايفهم من كلام الفقهاء إذ قالوا مثلاً : (يحرم قراءة القرآن على الجنب) فإنهم يقصدون حرمة قراءته كله أو بعضه على السواء .

٣ — معنى علوم القرآن بالمعنى الإضافى

الآن وقد انتهينا من الكلام على المتضايفين فى لفظ « علوم القرآن » ننتقل بك إلى أن الإضافة بينهما تشير إلى طوائف المعارف المتصلة بالقرآن سواء أكانت تصورات أم تصديقات ، على ماعرفت وجه اختياره فى مدلول لفظ العلم فى عرف التدوين العام .

وإنما جمعتْ هذه العلوم ولم تفرد لأنه لم يقصد إلى علم واحد يتصل بالقرآن . إنما أريد شمول كل علم يخدم القرآن أو يستند إليه . وينتظم ذلك علمَ التفسير ، وعلمَ القراءات ، وعلمَ الرسم العثمانى ، وعلمَ إعجاز القرآن ، وعلمَ أسباب النزول ، وعلمَ الناسخ والمنسوخ ، وعلم إعراب القرآن ، وعلم غريب القرآن ، وعلوم الدين واللغة إلى غير ذلك . وتلك أشتات من العلوم توسّع السيوطى فيها حتى اعتبر منها علم الهيئة والهندسة والطب ونحوها . ثم نقل عن أبى بكر بن العربى فى قانونه التأويل أنه قال : « علوم القرآن ٧٧٤٥٠ خمسون وأربعمائة وسبعة آلاف وسبعون ألف علم ، على عدد كلم القرآن مضروبةً فى أربعة . إذ أن لكل كلمة ظهراً وبطناً ، وحداً ومطلعا . هذا فى المفردات فحسب . أما إذا اعتبرت التراكيب ومابينها من روابط كان ما لا يحصى ، مما لايعلمه إلا الله تعالى » اهـ بتصرف قليل .

وأحب أن تعرف أن هذا الكلام من السيوطى وابن العربى ، محمول على ضرب

كبير من التأويل والتوسع ، بأن يراد من العلوم كل ما يدل عليه القرآن من المعارف ، سواء أكانت علوماً مدوَّنة أم غير مدوَّنة ، وسواء أكانت تلك الدلالةُ تصريحية أم تلميحيةً ، عن قرب أم عن بعد . فأمَّا أن تُراد العلوم المدوَّنةُ صراحة فدون ذلك خرط القتاد وصعود السماء .

القرآن كتاب هداية وإعجاز

وتحقيق القول فى هذا الموضوع : أن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز ، من أجل هذين المطمحين نزل ، وفيهما تحدَّث ، وعليهما دلَّ . فكل علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته ، أو يتَّصل به من ناحية هدايته أو إعجازه ، فذلك من علوم القرآن . وهذا ظاهر فى العلوم الدينية والعربية .

أما العلوم الكونية ، وأما المعارف والصنائع ، وما جدَّ أو يجدُّ فى العالم من فنون ومعارف كعلم الهندسة والحساب ، وعلم الهيئة والفلك ، وعلم الاقتصاد والاجتماع ، وعلم الطبيعة والكيمياء ، وعلم الحيوان والنبات ، فإن شيئاً من ذلك لا يَجْمُل عَدُّه من علوم القرآن ؛ لأن القرآن لم ينزل ليُدَلِّلَ على نظريَّةٍ من نظريات الهندسة مثلا ، ولا ليقرِّرَ قانوناً من قوانينها . وكذلك علم الهندسة لم يوضع ليخدُم القرآن فى شرح آياته ، أو بيان أسراره . وهكذا القول فى سائر العلوم الكونية والصنائع العالمية . وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى تعلمها وحِذقها والتمهُّر فيها خصوصاً عند الحاجة إليها . وإنما قلنا : إنه لا يجمل اعتبار علوم الكون وصنائعه من علوم القرآن مع أن القرآن يدعو إلى تعلمها ؛ لأن هناك فرقاً كبيراً بين الشىء يحثُّ القرآن على تعلُّمه فى عموماته أو خصوصاته ، وبين العلم يدلُّ القرآن على مسائله أو يرشد إلى أحكامه ، أو يكون ذلك العلم خادماً للقرآن بمسائله أو أحكامه أو مفرداته . فالأول ظاهر أنه لا يعتبر من علوم القرآن بخلاف الثانى . وهو ما نريد أن نرشدك إليه ، وأن تحرص أنت بدورك عليه .

القرآن يحضُّ على الانتفاع بالكون

أجَلْ: إن القرآن حضَّ على معرفة علوم الكون وصنائع العالم، وحثَّ على الانتفاع بكل مايقع تحت نظرنا في الوجود. قال سبحانه وتعالى «قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ» وقال جلَّت حكمته «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰواتِ وَمَا فِي الأرض جميعاً مِنْهُ إنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطَبون بهذا أن يفرُّوا من وجه هذه المنافع العامَّة، ولا أن يزهدوا في علوم الكون، ولا أن يحرموا أنفسهم فوائد التمتُّع بثمرات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله لخلقه، في خزائن سمٰواته وأرضه. ولهذا نصَّ علماؤنا على أنّ تعلُّمَ تلك العلوم الكونية، وحذقَ هذه الصناعات الفنية، فرضٌ من فروض الكفايات، ماداموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجموع.

وذلك لأن البقاء في هذه الحياة للأصلح، والحياة في هذا الوجود للسلام المسلَّح، والأسلحة في كل عصر عامَّةً وفي هذا العصر خاصَّةً إنما تقوم على التمهُّر في العلوم وعلى السبق في حَلبة الصناعات والفنون. والويل فينا للضعيف، والحظ كلُّ الحظ للقوى، والله تعالى يقول: «وأعِدُّوا لهم مَّا استطعتم مِنْ قُوَّةٍ»، والنبي ﷺ يقول فيما رواه مسلم عن أبي هريرة: المؤمِنُ القوىُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف، وفي كل خيرٌ. احرصْ على ماينفعُك، واستَعِن بالله ولا تَعْجِزْ. وإن أصابك شيء فلا تَقُلْ: لَوْ أنِّي فعلتُ كذا كان كذا وكذا. ولكن قُلْ: قدَّرَ اللهُ، وما شاءَ فَعل. فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشيطان».

إعجاز علميٌّ للقرآن

وأحبُّ ألّا أنتهى من هذا الموضوع حتى أنبهك إلى شيء آخر جدير بالنظر والتقدير: وهو أن القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم، وفتح عيونهم إلى الكون ومافي الكون من سماء وأرض،

وبر وبحر ، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر ؛ ونواميسَ وسُنن . وكان القرآن فى طريقة عرضه هذه موفقّاً كل التوفيق ، بل كان معجزاً أبهر الإعجاز ؛ لأن حديثه عن تلك الكونيّات كان حديث العليم بأسرارها ، الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها ومعارفها ، على حين أن هذا الذى جاء بالقرآن رَجُلٌ أُمِّىٌّ ، نشأ فى أمة أمّية جاهلة ، لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ، ولا إلمامَ لها بكتبها ومباحثها . بل إن بعض تلك العلوم لم ينشأ إلا بعد عهد النبوة ومهبط الوحى بقرون وأجيال . فأنّى يكون لرجل أمى كمحمد ذلك السجلُّ الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقّاه من لدن حكيم عليم ؟ قال سبحانه مقرراً لهذا الإعجاز العلمى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا ٱلظَّالِمُونَ » ولعل من الحكمة أن نسوق لك نموذجين من القرآن على سبيل التمثيل ؛ أولهما فى سورة النور إذ يقول الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ يُزْجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » قل لى ـ بربك ـ ألا يملكك العجب حين تقرأ هذا النصَّ الكريم الذى يتفق وأحدث النظريات العلمية فى الظواهر الطبعية : من سحاب ، ومطر ، وبرق ؟ ! .

النموذج الثانى : يقول الله تعالى فى سورة القيامة مبيناً ومقرراً كمال اقتداره على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته : « أَيَحْسَبُ ٱلإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّىَ بَنَانَهُ » . أرجو أن تقف قليلا عند تخصيصه « البنان » بالتسوية فى هذا المقام . ثم تستمع بعد ذلك إلى هذا العلم الوليد (علم تحقيق الشخصية) فى عصرنا الأخير ، وهو يقرر أن أدق شىء وأبدعَه فى بناء جسم الإنسان ، هو تسوية البنان ، حتى إنه لا يمكن أن تجد بناناً لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال . وقد انتهوا من هذا القرار إلى أن حكّموا البنان فى كثير من القضايا والحوادث

« فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ » ! ولا أريد أن أطيل عليك فى هـذا ؛ فمعجزات القرآن العلمية لها ميدان آخر . إنما هى نظرة خاطفة نوضح بهـا المراد بعلوم القرآن ، ونوجِّه بها كلام السيوطى فى الإتقان ، ونعتذر فيها عن ابن العربى فى التأويل .

والله وحده هو المحيط بأسرار كتابه . ولا يزال الكون وما يحدُثُ فى الكون من علوم وفنون وشؤون : لا يزال كل أولئك يشرح القرآنَ ويفسره ، ويميط اللثام عن نواح كثيرة من أسراره وإعجازه ، مصداقاً لقوله جلَّ ذكره « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ » . « وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

٤ — معنى علوم القرآن كفن مدون ، وموضوعه ، وفائدته

أما بعـد ، فقد تبيَّنَ لك فيما سبق ، أن لفظ علوم القرآن يراد بمعنـاه الإضافى ما يشمل العلوم الدينية والعربية ، ونفيدك هنا أن هـذا اللفظ نقل من ذلك المعنى الإضافى ، ثم جُعل عَلَماً على الفن المدوَّن ، وأصبح مدلوله بعد النقل وهو علَم ، غير مدلوله قبل النقل وهو مركب إضافى ، ضرورة أن هذا الفن ليس هو مجموعة العلوم الدينية والعربية ، بل هو غيرُها ، وإن كان مستمَدًّا منها ، ومأخوذاً عنها ، ويمكن أن نُعرِّفَهُ : بأنه مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله ، وترتيبه ، وجمعه ، وكتابته وقراءاته وتفسيره ، وإعجازه ، وناسخه ومنسوخه ، ودفع الشبه عنه ، ونحو ذلك .

وموضوعه القرآن الكريم من أية ناحية من النـواحى المذكورة فى التعريف . بخلاف علوم القرآن بالمعنى الإضافى ، فإن موضوعه هو مجموع موضوعات تلك العلوم المنضوية تحت لوائه . وموضوع كل واحد منها هو القرآن الكريم من ناحية واحدة من تلك النواحى . فعلم القراءات مثلا موضوعه القرآن الكريم من ناحية لفظه وأدائه ، وعلم التفسير موضوعه القرآن الكريم من ناحية شرحه ومعناه ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

وفائدة هذا العلم : ترجع إلى الثقافة العالية العامة فى القرآن الكريم ، وإلى التسلح بالمعارف القيِّمة فيه ، استعداداً لحسن الدفاع عن حمى الكتاب العزيز ، ثم إلى سهولة

خوض غمار تفسير القرآن الكريم به كمفتاح للمفسرين ، فمثله من هذا الناحية كمثل علوم الحديث بالنسبة لمن أراد أن يدرس علم الحديث .

وقد صرح السيوطى بذلك فى خطبة كتابه الإتقان إذ قال : « ولقد كنت فى زمان الطلب أتعجب من المتقدمين ، إذ لم يدونوا كتاباً فى أنواع علوم القرآن ، كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث » ا هـ .

ثم رأيت صاحب كتاب التبيان فى علوم القرآن ، يشير إلى ذلك المعنى ؛ إذ وضع على طُرَّةِ كتابه الكلمة الآتية :

« وهذا هو المقدِّمة الصغرى من مقدمَتَىِ التفسير » .

هذا - وإنما سمى هذا العلم القرآن (بالجمع دون الإفراد) . للإشارة إلى أنه خلاصة علوم متنوعة ، باعتبار أن مباحثه المدوَّنةَ تتَّصل اتصالا وثيقاً - كما علمت - بالعلوم الدينية والعلوم العربية،حتى إنك لتجد كل مبحث منها خليقاً أن يُسْلك فى عِداد مسائل علم من تلك العلوم .

فنسبته إليها كنسبة الفرع إلى أصوله ، أو الدليل إلى مدلوله . وما أشبهه بباقة منسَّقة من الورود والياسمين ، إزاء بستان حافل بألوان الزهور والرياحين . « والحمدُ للهِ رب العالمين » .

المبحث الثانى

فى تاريخ علوم القرآن وظهور اصطلاحه

عهد ماقبل التدوين

كان الرسول ﷺ وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه ، ماعرف العلماء وفوق ما عرف العلماء من بعد . ولكن معارفهم لم توضع على ذلك العهد كفنون مدوَّنة ، ولم تجمع فى كتب مؤلفة ، لأنهم لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف .

أما الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فلأنه كان يتلقَّى الوحى عن الله وحده . والله تعالى كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنَّه له فى صدره ، وليطلقنَّ لسانه بقراءته وترتيله ، وليميطنَّ له اللثام عن معانيه وأسراره . اقرأ إن شئت قوله سبحانه : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

ثم بلَّغ الرسول ما أنزل عليه لأصحابه ، وقرأه على الناس على مُكْثٍ أى على مَهَل وتُؤَدة ، ليحسنوا أخذه ، ويحفظوا لفظه ، ويفهموا سرَّه . ثم شرح الرسول لهم القرآن بقوله ، وبعمله ، وبتقريره ، وبخُلقه ، أى بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله ، وتقريراته ، وصفاته ، مصداقاً لقوله سبحانه « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » . ولكن الصحابة وقتئذ كانوا عرباً خُلَّصاً ، متمتعين بجميع خصائص العروبة ومزاياها الكاملة من قوَّة فى الحافظة ، وذكاء فى القريحة ، وتذوُّق للبيان ؛ وتقدير للأساليب ، ووزن لما يسمعون بأدق المعايير ، حتى أدركوا من علوم القرآن ومن إعجازه بسليقتهم وصفاء فطرتهم ، مالا نستطيع نحن أن ندركه مع زَحْمة العلوم وكثرة الفنون .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم مع هذه الخصائص أميين ، وأدواتُ الكتابة لم تكن ميسورة لديهم ، والرسول نهاهم أن يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن وقال لهم أولَ العهد بنزول القرآن فيما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : « لَا تَكْتُبُوا عَنِّى . ومن كتب غيرَ القرآن فَلْيَمْحُهُ . وَحَدِّثُوا عَنِّى فلا حرج. ومن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار » . وذلك مخافة أن يلتبس القرآن بغيره ، أو يختلط بالقرآن ما ليس منه ؛ ما دام الوحى نازلاً بالقرآن . فلتلك الأسباب المتضافرة لم تكتب علوم القرآن ، كما لم يكتب الحديث الشريف . ومضى الرعيل الأول على ذلك فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر . ولكن الصحابة كانوا مضرب الأمثال فى نشر الإسلام

وتعاليمه ، والقرآن وعلومه ، والسنة وتحريرها ، تلقيناً لا تدويناً ، ومشافهةً لا كتابة .

عهد التمهيد لتدوين علوم القرآن

ثم جاءت خلافة عثمان رضى الله عنه ، وقد اتسعت رُقعة الإسلام ، واختلط العرب الفاتحون بالأمم التى لاتعرف العربية ، وخيف أن تذوب خصائص العروبة من العرب من جراء هذا الفتح والاختلاف، بل خيف على القرآن نفسه أن يختلف المسلمون فيه إن لم يجتمعوا على مصحف إمامٍ ، فتكون فتنة فى الأرض وفساد كبير . لهذا أمر رضى الله عنه أن يجمع القرآن فى مصحف إمامٍ ، وأن تُنسخ منه مصاحف يبعث بها إلى أقطار الإسلام ، وأن يحرق الناس كل ماعداها ولا يعتمدوا سواها. كما يأتيك تفصيله فى مبحث جمع القرآن وكتابته .

وبهذا العمل وضع عثمان رضى الله عنه الأساس لما نسميه علم رسم القرآن أو علم الرسم العثمانى .

ثم جاء علىٌّ رضى الله عنه فلاحظ العجمة تَحيف على اللغة العربية ؛ وسمع ما أوجس منه خيفةً على لسان العرب فأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع بعض قواعد لحماية لغة القرآن من هذا العبث والخلل ، وخطّ له الخطط وشرع له المنهج . وبذلك يمكننا أن نعتبر أن علياً رضى الله عنه قد وضع الأساس لما نسميه علم النحو ، ويتبعه علم إعراب القرآن . (على الخلاف فى هذه الرواية) .

ثم انقضى عهد الخلافة الرشيدة ، وجاء عهد بنى أمية ، وهِمّةُ مشاهير الصحابة والتابعين متجهةٌ إلى نشر علوم القرآن بالرواية والتلقين ، لا بالكتابة والتدوين . ولكن هذه الهمة فى هذا النشر يصحُّ أن نعتبرها تمهيداً لتدوينها . وعلى رأس من ضرب بسهم وفير فى هذه الرواية : الأربعةُ الخلفاء ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير وكلهم من الصحابة رضوان الله عليهم.

وعلى رأس التابعين فى تلك الرواية : مجـــاهد ، وعطاء ، وعِكرِمة ، وقتــادة ، والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم بالمدينة ، وعنه أخذ ابنه عبدالرحمن ومالك بن أنس من تابعى التابعين، رضى الله عنهم أجمعين. وهؤلاء جميعاً يعتبرون أنهم واضعو الأساس لما يسمى علم التفسير ، وعلم أسباب النزول ، وعـلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم غريب القرآن ، ونحو ذلك . وستجد بسطاً لهذا الإجمال فى بحث طبقات المفسرين.

عهد التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإضافى

ثم جاء عصر التدوين ، فألفت كتب فى أنواع علوم القرآن ، واتجهت الهمم قبل كل شىء إلى التفسير ، باعتباره أمَّ العلوم القرآنية لما فيه من التعرُّض لهـــا ، فى كثير من المناسبات عند شرح الكتاب العزيز . ومن أوائل الكاتبين فى التفسير : شعبة بن الحجاج ، وسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ، وتفاسيرهم جامعة لأقــوال الصحابة والتابعين . وهم من علماء القرن الثانى . ثم تلاهم ابن جَرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وكتابه أجل التفاسير وأعظمها ؛ لأنه أول من عرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، كما عرض للإعراب والاستنباط . وبقيت العناية بالتفسير قائمة إلى عصرنا هذا، حتى وجدت منه مجموعة رائعة فيها المعجب والمطرب ، والموجز والمطوَّل والمتوسط ، ومنها التفسير بالمعقول والتفسير بالمأثور ، ومنها تفسير القرآن كله ، وتفسير جزء، وتفسير سورة وتفسير آية ، وتفسير آيات الأحكام إلى غير ذلك .

أما علوم القرآن الأخرى، ففى مقدمة المؤلفين فيها : علىّ بن المدينى شيخ البخارى؛ إذ ألَّف فى أسباب النزول، وأبو عبيد القاسم بن سلام ؛ إذ كتب فى الناسخ والمنسوخ؛ وكلاهما من علماء القرن الثالث . وفى مقدمة من ألّف فى غـــريب القرآن : أبو بكر السجستانى ، وهو من علماء القرن الرابع . وفى طليعة من صنف فى إعـــراب القرآن : علىُّ بن سعيد الحوفى ، وهـــو من علماء القرن الخامس . ومن أوائل من كتب فى

مبهمات القرآن : أبو القاسم عبدُ الرحمن المعروف بالسبيلى، وهو من علماء القرن السادس. كذلك تصدَّر للتأليف فى مجاز القرآن : ابن عبد السلام، وفى القراءات : عَلَمُ الدين السخاوى، وهما من علماء القرن السابع .

وهكذا قويت العزائم ، وتبارت الهمم ، ونشأت علوم جديدة للقرآن .

وظهرت مؤلفات فى كل نوع منها ، سواء فى ذلك أقسام القرآن ، وأمثال القرآن، وحجج القرآن ، وبدائع القرآن ، ورسم القرآن ، وما أشبهها مما يروعك تصوُّره بَلْهَ الاطلاع عليه ، ومما يملأ خزائن كاملة من أعظم المكتبات فى العالم . ثم لا يزال المؤلفون إلى عصرنا هـذا يزيدون ، وعلوم القرآن ومؤلفاته تَنْمِى وتزدهر وتزيد ، بينما الزمان يفنى والعالم يبيد ! أليس إعجازاً آخر للقرآن ؟ يريك إلى أى حد بلغ علماء الإسلام فى خدمة التنزيل . ويريك أنه كتاب لا تفنى عجائبه ، ولا تنقضى معارفه ، ولن يستطيع أن يحيط بأسراره إلا صاحبه ومُنزله !

إذا أضفت إلى علوم القرآن ما جاء فى الحديث النبوى الشريف وعلومه وكتبه وبحوثه باعتبارها من علوم القرآن ، نظراً إلى أن الحديث شارح للقرآن يبيِّن مبهماته ، ويفصِّل مجملاته ، ويخصِّص عامّه ، كما قال سبحانه لنبيه ﷺ « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » أقول: إذا أضفت الحديث النبوى وعلومَه إلى علوم القرآن ، تراءى لك بحرٌ متلاطم الأمواج . فإذا زدت عليها سائر العلوم الدينية والعربية باعتبارها خادمةً للقرآن أو مستمدةً منه ، رأيت نفسك أمام مؤلفات كالجبال ، وموسوعات تكاثر الرمال، ولا يسعك حينئذ إلا أن تردِّد قول الله «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » .

وتزداد عجباً إذا علمت أن طريقة أُولئك المؤلفين فى تأليفهم ، كانت طريقة استيعاب واستقصاء ، يَعْمِدُ أصحابها أن يحيطوا بجزئيات القرآن من الناحية التى كتبوا فيها بقدر طاقتهم البشرية . فمن يكتب فى غريب القرآن مثلًا يذكر كل مفرد

من مفرداتِ القرآن التى فيها غرابةٌ وإبهام ، ومن يكتب فى مجاز القرآن يقتفى أثر كل لفظ فيه مجازٌ أيًّا كان نوعُه فى القرآن ، ومن يكتب فى أمثال القرآن يتحدَّث عن كل مثل ضربه الله فى القرآن ، وهكذا سائر أنواع علوم القرآن . ولا ريب أن تلك المجهودات الجبارةَ لا يتهيَّأُ لإنسانٍ أن يحيط بها ولو أفنى عمره ، واستنفد وسعه ! .

لهذا اشْرَأبَّتْ أعناقُ العلماء أن يعتصروا من تلك العلوم علماً جديداً يكون كالفهرس لها ، والدليل عليها ، والمتحدث عنها . فكان هذا العلم هو ما نسميه (علوم القرآن) بالمعنى المدوّن .

ولا نعلم أن أحداً قبل المائة الرابعة للهجرة ألَّف أو حاوَل أن يؤلف فى علوم القرآن بالمعنى المدوَّن ، لأن الدواعى لم تكن موفورة لديهم نحو هذا النوع من التأليف . وإن كنا نعلم أنها كانت مجموعة فى صدور المبرِّزين من العلماء ، على الرغم من أنهم لم يدوِّنوها فى كتاب ، ولم يفردوها باسم .

أجل : كانت علوم القرآن مجموعة فى صدور المبرِّزين من العلماء . فنحن نقرأ فى تاريخ الشافعى رضى الله عنــه أنه فى محنته التى اتُّهم فيهـا بأنه رئيس حزب العلويين باليمن ؛ وسيق بسبب هذه التهمة إلى الرشيد مُكبَّلًا بالحديد فى بغداد ؛ سأله الرشيد حين لمح علمه وفضله ، فقال : كيف علمك ياشافعى بكتاب الله عز وجل؟ فإنه أولى الأشياء أن يُبتدأ به . فقال الشافعى : عن أى كتاب من كتب الله تسألنى ياأمير المؤمنين؟ فإن الله تعالى قد أنزل كتباً كثيرةً . قال الرشيد : قد أحسنت ، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمى محمد ﷺ . فقال الشافعى : إن علوم القرآن كثيرة ؛ فهل تسألنى عن محكمه ومتشابهه ، أو عن تقديمه وتأخيره ، أو عن ناسخه ومنسوخه ، أو عن . . أو عن . . ؟ ؟ وصار يسرد عليه من علوم القرآن ، ويجيب على كل سؤال بما أدهش الرشيد والحاضرين .

فأنت ترى من جواب الشافعى هذا ، ومن فلَجه بالصواب فى هذا الموقف الرهيب ،

ما يدلك على أن قلوب أكابر العلماء كانت أناجيل لعلوم القرآن من قبل أن تُجمع فى كتاب، أو تدوّن فى علم. وقد نوّهَ جلالُ الدين البلقينى فى خطبة كتابه بكلمة الشافعى التى ذكرناها إذ قال: «قد اشتهر عن الإمام الشافعى رضى الله عنه مخاطبةٌ لبعض خلفاء بنى العباس، فيها ذكر بعض أنواع علوم القرآن يحصل منها لمقصدنا الاقتباس».

ونحن لا نستبعد على الشافعى هذا، فقد كان آية من آيات الله فى علمه وذكائه، وفى ابتكاره وتجديده، وفى قوة حجته وتوفيقه. حتى إنه وضع كتابه (الحجة) فى العراق يستدرك به على مذاهب بعض أهل الرأى، وألف فى مصر كتباً يستدرك بها على مذاهب بعض أهل الحديث. ثم وضع دستوراً للاجتهاد والاستنباط لم يُسنّ لأحد قبله، إذ كان أول من صنف فى أصول الفقه وهو من علوم القرآن كما علمت. قال ابن خلدون فى مقدمته «كان أول من كتب فيه – أى علم أصول الفقه – الشافعى رضى الله عنه، أملى فيه رسالته المشهورة، تكلم فيها على الأوامر والنواهى، والبيان، والخبر، والنسخ، وحكم العلة المنصوصة من القياس» اهـ.

وقال الزركشى فى كتابه البحر المحيط فى أصول الفقه «الشافعى أول من صنف فى أصول الفقه. صنف فيه كتابه الرسالة، وكتاب أحكام القرآن، واختلاف الحديث، وإبطال الاستحسان، وكتاب جماع العلم، وكتاب القياس الذى ذكر فيه تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول رسالتهم» اهـ رضى الله عنه وعن سائر الأئمة المجتهدين.

أول عهد لظهور هذا الاصطلاح

ولقد كان المعروف لدى الكاتبين فى تاريخ هذا الفن، أن أول عهد ظهر فيه هذا الاصطلاح أى اصطلاح علوم القرآن، هو القرن السابع.

لكنى ظفرت فى دار الكتب المصرية بكتاب لعلىّ بن إبراهيم بن سعيد الشهير

بالحوفى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ « اسمه البرهان فى علوم القرآن ». وهو يقع فى ثلاثين مجلداً، والموجود منه الآن خمسة عشر مجلداً ، غير مرتبة ولا متعاقبة ، من نسخة مخطوطة .
وإذن نستطيع أن نتقدم بتاريخ هذا الفن نحو قرنين من الزمان أى إلى بداية القرن الخامس بدلا من القرن السابع . ولقد كنت مشغوفاً أن أقرأ مقدمة كتابه هذا ، لآخذ اعترافاً صريحاً منه بمحاولته إنشاء هذا العلم الوليد . ولكن ماذا أصنع ، والجزء الأول مفقود ؟ غير أن اسم الكتاب يدلنى على هذه المحاولة . وكذلك استعرضت بعض الأجزاء الموجودة فرأيته يعرض الآية الكريمة بترتيب المصحف ثم يتكلم عليها من علوم القرآن، خاصًّا كل نوع منها بعنوان ، فيسوق النظم الكريم تحت عنوان: (القول فى قوله عز وجل) . وبعد أن يفرغ منه يضع هذا العنوان : (القول فى الإعراب) ويتحدث عنها من الناحية النحوية واللغوية: ثم يتبع ذلك بهذا العنوان (القول فى المعنى والتفسير) ويشرح الآية بالمأثور والمعقول . ثم ينتقل من الشرح إلى العنوان الآتى : (القول فى الوقف والتمام) مبيناً تحته ما يجوز من الوقف وما لا يجوز . وقد يفرد القراءات بعنوان مستقل فيقول (القول فى القراءة) . وقد يتكلم فى الأحكام الشرعية التى تؤخذ من الآية عند عرضها ، ففى آية (وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللَّهِ) من سورة البقرة يذكر أوقات الصلاة وأدلّتها ، وأنصبةَ الزكاة ومقاديرها . ويتكلم على أسباب النزول ، وعلى النسخ، وما إلى ذلك عند المناسبة . فأنت ترى أن هذا الكتاب أتى على علوم القرآن ، ولكن لا على طريقة ضم النظائر والأشباه بعضها إلى بعض تحت عنوان واحد لنوع واحد ، بل على طريقة النشر والتوزيع تبعاً لانتشار الألفاظ المتشاكلة فى القرآن وتوزّعها . حتى كأن هذا التأليف تفسير من التفاسير عرض فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المناسبات .
وأيًّا ما يكن هذا الكتاب فإنه مجهود عظيم ، ومحاولة جديرة بالتقدير فى هذا الباب . جزى الله مؤلفه خير الجزاء .

ثم جاء القرن السادس فألّف فيه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابين : أحدهما اسمه « فنون الأفنان فى علوم القرآن » والثانى اسمه « المجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن». وكلاهما مخطوط بدار الكتب المصرية.

وفى القرن السابع ألّف علَمُ الدين السخاوى المتوفى سنة ٦٤١ هـ كتاباً سماه « جمال القراء » وألف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ كتاباً أسماه « المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز » وهما ـ كما قال السيوطى ـ عبارة عن طائفة يسيرة ، ونبذ قصيرة ، بالنسبة للمؤلفات التى أُلّفت بعد ذلك فى هذا النوع .

ثم أهلّ القرن الثامن فكتب فيه بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ هـ كتاباً سماه « البرهان فى علوم القرآن » وتوجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة التيمورية ، فى دار الكتب المصرية ، تقع فى مجلدين ناقصين . ثم طلع القرن التاسع على هذا العلم باليمن والبركة ، فدرج فيه وترعرع ، إذ ألف محمد بن سليمان الكافيجى المتوفى سنة ٨٧٣ هـ كتاباً يقول السيوطى عنه : « إنه لم يُسبق إليه ، وقد اشتمل على بابين : الأول فى ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية . أما الثانى ففى شروط القول فى القرآن بالرأى . وبعدهما خاتمة فى آداب العالم والمتعلم » غير أنه قال أخيراً : « ولكن ذلك لم يشف لى غليلاً ؛ ولم يهدنى إلى المقصود سبيلاً » اهـ . وفى هذا القرن أيضاً وضع جلال الدين البُلقينى كتاباً سماه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » . وقد رتّبه على ستة مباحث : الأول فى مواطن النزول وأوقاته ووقائعه ، وفيه اثنا عشر نوعاً[1] . الثانى فى سند القرآن وهو ستة أنواع[2] . الثالث فى أدائه وهو ستة

(١) المكي ، المدنى ، السفرى ، الحضرى ، الليلى ، النهارى ، الصيفى ، الشتائي ، الفراشى ، أسباب النزول ، أول ما نزل ، آخر ما نزل .

(٢) المتواتر ، الآحاد ، الشاذ ، قراءات النبي صلى الله عليه وسلم ، الرواة ، الحفاظ .

أنواع أيضاً[١] . الرابع فى ألفاظه وهو سبعة أنواع[٢] . الخامس فى معانيه المتعلقة بأحكامه ، وهو أربعة عشرة نوعاً[٣] . السادس فى معانيه المتعلقة بألفاظه وهو خمسة أنواع[٤] . وبذلك يكمل الكتاب كله خمسين نوعاً غير مافيه من أنواع الأسماء والكنى والألقاب والمبهمات . وهى لاتدخل تحت حصر .

وفى هذا القرن التاسع أيضاً ألَّف السيوطى كتاباً سماه « التحبير فى علوم التفسير » ضمنه ما ذكره البقينى من الأنواع مع زيادة مثلها ، وأضاف إليه فوائد سمحت قريحته بنقلها . وقد أوفى هذا الكتاب على الاثنين بعد المائة من الأنواع . وفرغ الإمام من تأليف تحبيره هذا سنة ٨٧٢ هـ غير أن نفسه الكبيرة لم تقنع بهذا المجهود العظيم بل طمح إلى التبحُّر والتوسع والترتيب ، فوضع كتابه الثانى « كتاب الإتقان فى علوم القرآن » ، وهو عمدة الباحثين والكاتبين فى هذا الفن . ذكر فيه ثمانين نوعا من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج ، ثم قال بعد أن سردها نوعاً نوعاً : « ولو نُوِّعَتْ باعتبار ما أدمجته فيها لزادت على الثلاثمائة » اهـ .

وتوفى السيوطى رحمه الله سنة ٩١١ هـ فى مفتتح القرن العاشر ، وكأنَّ نهايته كانت نهاية لنهضة التأليف فى علوم القرآن ، عليه سحائب الرحمة والرضوان ، فلم نر من سار فى هذا المضمار مثله بعده ، كما لم نر من بزَّه فيه قبله .

---

(١) الوقف ، الابتداء ، الإمالة ، المد ، تخفيف الهمزة ، الإدغام .

(٢) الغريب ، المعرب ، المجاز ، المشترك ، المترادف ، الاستعارة التشبيه .

(٣) العام الباقى على عمومه ، العام المخصوص ، العام الذى أريد به الخصوص ، ماخص فيه الكتاب السنة ، ماخصت فيه السنة الكتاب المجمل ، المبين ، المؤول ، المفهوم ، المطلق ، المقيد ، الناسخ ، المنسوخ ، نوع من الناسخ والمنسوخ وهو ماعمل به مدة معينة والعامل به واحد من المكلفين .

(٤) الفصل ، الوصل ، الإيجاز ، الإطناب ، القصر .

علوم القرآن فى القرن الأخير

بيد أنه ظهرت فى أيامنا بوادر استئناف لحركة النشاط والتأليف فى هذا العلم . إذ ألف العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائرى كتاباً جليلًا سماه « التبيان فى علوم القرآن » يقع فى قريب من ثلاثمائة صفحة . وفرغ من تأليفه سنة ١٣٣٥ هـ .

وألف العلامة المرحوم الشيخ محمود أبو دقيقة مذكرة قيِّمة لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين . وقفاه العلامة الشيخ محمد على سلامة فوضع كتاباً حافلا لطلاب تخصص الدعوة والإرشاد كذلك سماه « منهج الفرقان فى علوم القرآن » .

وتوجد مؤلفات فى بعض مباحث علوم القرآن لكثير من أفاضل العلماء والأدباء، نذكر من بينهم الأعلام المرحومين : الشيخ محمد بخيت ، والشيخ محمد حسنين العدوى والشيخ محمد خلف الحسينى ، إذ كتبوا فى نزول القرآن على سبعة أحرف ، وفى بعض مباحث أخرى ، والمرحوم السيد مصطفى صادق الرافعى؛ إذ ألف فى إعجاز القرآن كتاباً جليلا طبعه المغفور له الملك فؤاد الأول على نفقته . ومنهم المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش إذ كتب محاضرات موضوعها : أثر القرآن فى تحرير العقل البشرى وألقاها فى نادى دار العلوم . والمرحوم الشيخ عبد العزيز الخولى؛ إذ وضع كتابه « القرآن الكريم: وصفه، أثره ، هدايته، وإعجازه » . والمرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى؛ إذ وضع رسالة سماها : القرآن والعلوم العصرية .

ثم انبرى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر للقول بجواز ترجمة القرآن ، وكتب فى ذلك رسالة عظيمة الشأن وأيده آخرون ، وَتَصَدَّى العلامة الكبير الشيخ مصطفى صبرى شيخ الإسلام بتركيا سابقاً للردِّ على ذلك فى كتاب دقيق سماه « مسألة ترجمة القرآن » وظاهره آخرون .

وقد اطلعت أخيرا على صدر كتاب اسمه : « النبأ العظيم عن القرآن الكريم ».

والطريقة المثلى فى دراسته » فراعنى دقَّة بحثه وتفكيره ، وراقنى رقَّة أسلوبه وتعبيره ووددت لو تمّ هذا الكتاب ، وهو لصديقى العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز مبعوث الأزهر إلى فرنسا الآن (ردّه الله سالماً غانماً وأمتع به الإسلام والمسلمين آمين) .

خلاصـــة

ويمكنك أن تستخلص مما سبق أن علوم القرآن كفنّ مدوَّن استهلت صارخة على يد الحوفى فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، ثم تربَّت فى حجر ابن الجوزى والسخاوى وأبى شامة فى القرنين السادس والسابع . ثم ترعرعت فى القرن الثامن برعاية الزركشى. ثم بلغت أشُدَّها واستوت فى القرن التاسع بعناية الكافيجى وجلال الدين البلقينى . ثم اهتزَّتْ وربَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج فى نهاية القرن التاسع وبداية العاشر ، بهمة فارس ذلك الميدان صاحب كتابَىِ التحبير ، والإتقان فى علوم القرآن : للسيوطى عليه ألف رحمة من الله ورضوان . ثم وقف نموُّها بعد ذلك حتى هذا القرن الأخير . ثم بدأت تنتعش فى هذه السنين من جديد ، وعسى أن تعود سيرتها الأولى (ألا إنَّ نصرَ الله قريب) .

كلمة لابد منها

وقبل أن ننتهى من هذا البحث نلفت نظرك إلى أن هذا العلم يسير على سُنَّة غيره من العلوم بين جزر ومدّ . وزيادة ونقص . على مقدار ما يستهدف له من مؤثرات خاصة . فلا بدع أن تجد فى منهج دراستك اليوم مباحث جديدة ، ومواضع مبتكرة ، لم تنتظم قبل فى سمط علوم القرآن ؛ ذلك لأن الأفكار متحركة ومتجددة ، ولأن الشبهات التى تحوم فى رءوس بعضْ الناس فى هذا العصر ، والمطاعن التى يوجهها

أعداء الإسلام فى هذا الجيل ، قد تكون هى الأخرى جــــديدة ومبتكرة . ومن الحكمة أن نقاتل الناس بمثل سلاحهم ، وأن ندرس فى علوم القرآن مايحمى حِمَى القرآن الشريف ، من هذا العدوان الخبيث . أضف إلى ذلك أن العلوم تخبُو بالإهمال والترك ، وتزْكو بالدرس والبحث . سُنَّةَ اللهِ فى خَلْقِهِ « وَلَنْ تجِــــدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا » .

المبحث الثالث

فى نزول القرآن

هذا مبحث مهمٌّ فى علوم القرآن بل هـــو أهم مباحثه جميعاً ، لأن العلم بنزول القرآن أساسٌ للإيمان بالقرآن وأنه كلام الله ، وأساسٌ للتصديق بنبوة الرسول ﷺ وأن الإسلام حق . ثم هو أصل لسائر المباحث الآتية بعدُ فى علوم القرآن . فلا جرم أن يتصدَّرها جميعاً ليكون من تقريره وتحقيقه ، سبيلٌ إلى تقريرها وتحقيقها . وإلا فكيف يقوم البناء على غير أساس ودِعام ؟ .

ولأجل الإحاطة بهذا المطلب العزيز ، نتكلم - إن شاء الله - على معنى نزول القرآن ، ثم على مرات هذا النزول ، ودليل كل نزول ، وكيفيته ، وحكمته ، ثم على الوحى وأدلته العقلية والعلمية ، مع دفع الشبهات الواردة فى ذلك المقام .

١ — معنى نزول القرآن

جاء التعبير بمادة نزول القرآن وما تصرَّف منها فى الكتاب والسنة ، ومن أمثلته قوله سبحانه فى سورة الإسراء : « وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ » . وقــــوله

ﷺ : « إِنَّ هٰذَا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ » . وهو حديث مشهور بل قيل فيه بالتواتر كما سيأتى .

لكنّ النزول فى استعمال اللغة يطلق ويراد به الحلول فى مكان والأُوِىُّ به . ومنه قولهم « نزل الأمير المدينة ». والمتعدِّى منه وهو الإنزال يكون معناه إحلال الغير فى مكان وإيواءه به . ومنه قوله جلّ ذكره « رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » ويطلق النزول إطلاقاً آخر فى اللغة على انحدار الشىء من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ نحو « نَزَلَ فُلَانٌ مِنَ الجبلِ ». والمتعدِّى منه يكون معناه تحريك الشىء من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ ومنه قوله سبحانه : « أَنزلَ منَ السَّماءِ ماءً » .

ولا ريب أن كِلا هذين المعنيين لا يليق إرادته هنا فى إنزال الله للقرآن ، ولا فى نزول القرآن من الله ، لما يلزم هذين المعنيين من المكانية والجسمية . والقرآن ليس جسماً حتى يحلّ فى مكان أو ينحدر من علو إلى سفل ، سواء أردنا به الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الغيبية الأزلية ، أم أردنا به نفس تلك الكلمات ، أم أردنا به اللفظ المعجز ؛ لما علمت من تنزُّه الصفة القديمة ومتعلَّقها وهو الكلمات الغيبية عن الحوادث وأعراض الحوادث ، ولما تعرفه من أن الألفاظ أعراض سيالة تنقضى بمجرد النطق بها ، كما يقولون .

إذن فنحن بحاجة إلى التجوُّز ، والمجاز بابه واسع وميدانه فسيح . وليكن المعنى المجازى لإنزال القرآن هو الإعلام فى جميع إطلاقاته . أما على أن المراد بالقرآن الصفة القديمة أو متعلقها ، فإنزاله : الإعلام به بواسطة مايدل عليه من النقوش بالنسبة لإنزاله فى اللوح المحفوظ وفى بيت العزة من السماء الدنيا ، وبواسطة مايدل عليه من الألفاظ الحقيقية بالنسبة لإنزاله على قلب النبى ﷺ ، والعلاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى هى اللزوم ؛ لأن إنزال شىء إلى شىء يستلزم إعلام من أنزل إليه ذلك الشىء به إن كان عاقلاً ، ويستلزم إعلام من يطلع عليه من الخلق به مطلقاً ، وإذن فالمجاز مرسل .

وأما على أن المراد بالقرآن اللفظ المعجز، فمعنى إنزاله الإعــــلام به أيضاً ، ولكن بوساطة إثباته هو أو إثبات دالِّه ، فإثباته هو بالنسبة لإنزاله على قلب النبى ﷺ ، وإثبات دالِّه بالنسبة إلى اللوح المحفوظ وبيت العزة ، والعلاقة اللزوم كذلك ، والمجاز مرسل كسابقه .

ويمكن أن يكون هذا التجوُّز من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، بأن يُشَبَّهَ إعلام السيد لعبده بإنزال الشىء من علو إلى سفل ، بجامع أن فى كل من طرفى التشبيه صدوراً من جانب أعلى إلى جانب أسفل ، وإن كان العلو والسفل فى وجه الشبه حسيًّا بالنسبة إلى المشبه به ، ومعنويًّا بالنسبة إلى المشبه .

وأنت خبير بأن النزول مطاوع الإنزال ، فما يجرى من التجوُّز فى أحدهما يجرى نظيره فى الآخر . وقل مثل ذلك فى التنزيل والتنزل .

وكأن وجه اختيار التعبير بمادة الإنزال وماتصرَّف منها أوالتقى معها ، هو التنويه بشرف ذلك الكتاب ، نظراً إلى ما تشير إليه هذه المادة من علوٍّ صاحب هــــذا الكتاب المنزل علوًّا كبيراً ، كما قال تعالى فى فاتحة سورة الزخرف : « حم وَالْكِتَابِ المبين ، إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَإِنَّهُ فى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ » .

ثم إن تأويل الإنزال بالإعلام على ما رأيت هو الأقرب والأوفق بالمقام ، وذلك من وجوه ثلاثة :

أحدها : أن تعلق الكلام تعلق دلالة وإفهام ، ولا ريب أن القرآن كلام ، فتأويل إنزاله بالإعلام ، رجوعٌ إلى ما هو معلوم من تعلقه ، ومفهوم من تحققه

ثانيها : أن المقصود من ثبوت القرآن فى اللوح وفى سماء الدنيا وفى قلب النبى ﷺ ، هو إعلام الخلق فى العالَمَين العلوى والسفلى بما شاء الله دلالة البشر عليه من هذا الحق .

ثالثها : أن تفسير الإنزال بالإعلام ، ينسجم مع القرآن بأى إطلاق من إطلاقاته ، وعلى أىّ تنزُّل من تنزلاته .

٢ ـ تنزلات القرآن

شرّف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزُّلات :

١ ـ التنزُّل الأول إلى اللوح المحفوظ . ودليله قول سبحانه : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » . وكان هذا الوجود فى اللوح بطريقة وفى وقت لا يعلمهما إلا الله تعالى ، ومن أطلعه على غيبه . وكان جملة لا مفرقاً ، لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ، ولا صارف عنه . ولأن أسرار تنجيم القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم لا يعقل تحققها فى هذا التنزُّل .

وحكمة هذا النزول ، ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه ، وإقامته سجلًّا جامعاً لكل ماقضى الله وقدَّر ، وكل ما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين . فهو شاهد ناطق ، ومظهر من أروع المظاهر ، الدالة على عظمة الله ، وعلمه ، وإرادته ، وحكمته ، وواسع سلطانه وقدرته . ولا ريب أن الإيمان به يُقَوِّى إيمان العبد بربه من هذه النواحى ، ويبعث الطمأنينة إلى نفسه ، والثقة بكل مايظهره الله لخلقه ، من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أقضيته وشؤونه فى عباده ، كما يحمل الناس على السكون والرضا ، تحت سلطان القدر والقضاء ، ومن هنا تهون عليهم الحياة بضرّائها ، وسرّائها ، كما قال ـ جلّ شأنه ـ « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » اهـ من سورة الحديد . وللإيمان باللوح وبالكتابة فيه ، أثرٌ صالح فى استقامة المؤمن على الجادّة ، وتفانيه فى طاعة الله ومراضيه ، وبعده عن مساخطه ومعاصيه ، لاعتقاده أنها مسطورة عند الله فى لوحه . مسجَّلة لديه فى

كتابه . كما قال ـ جلّ ذكره ـ : « وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مستطرٌ » اهـ من سورة القمر .

(ب — التنزُّل الثانى للقرآن كان هذا التنزل الثانى إلى بيت العزّة فى السماء الدنيا، والدليل عليه قـــوله سبحانه فى سورة الدخان « إنَّا أنزلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ » . وفى سورة القدر « إنّا أنزلْناهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ » . وفى سورة البقرة « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فيهِ ٱلقُرْآنُ » .)

دلّت هذه الآيات الثلاث على أن القرآن أنزل فى ليلة واحدة ، توصف بأنها مباركة أخذاً من آية الدخان ، وتسمى ليلة القدر أخذاً من آية سورة القدر ، وهى من ليالى شهر رمضان أخذاً من آية البقرة . وإنما قلنا ذلك جَمْعاً بين هذه النصوص فى العمل بها ، ودفعاً للتعارض فيما بينها . ومعلوم بالأدلة القاطعة ـ كما يأتى ـ أن القرآن أنزل على النبى ﷺ مفرقاً لا فى ليلة واحدة ، بل فى مدى سنين عدداً ، فتعين أن يكون هذا النزول الذى نوّهت به هذه الآيات الثلاث نزولاً آخر غـــير النزول على النبى ﷺ . وقد جاءت الأخبار الصحيحة مُبَيِّنَةً لمكان هذا النزول وأنـــه فى بيت العزّة من السماء الدنيا ، كما تدل الروايات الآتية :

١ — أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : « فُصِلَ القرآن من الذكرِ فوُضِعَ فى بيتِ العزّةِ منَ السماء الدنيا فجعلَ جبريلُ يَنزِلُ بهِ على النبى ﷺ » .

٢ — وأخرج النسائى والحاكم والبيهقى من طريق داود بن أبى هند عن عِكرمة عن ابن عباس أنه قال : « أُنزلَ القرآنُ جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا ليلةَ القَدْر ، ثم أُنزلَ بعد ذلك فى عشرينَ سنة » ثم قرأ « وَلا يأتُونَكَ بمَثَلٍ إلّا جِئْناكَ بِالحَقِّ

وَأَحْسَنَ تفسيراً » . « وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » .

٣ — وأخرج الحاكم والبيهقى وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أُنزل القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكانَ اللهُ ينزلهُ على رسولهِ ﷺ بعضه فى إثرِ بعضٍ » .

٤ — وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال : أَوْقَعَ فى قلبى الشكّ قولُه تعالى : « شَهْرُ رمضانَ الذى أُنْزِلَ فيهِ القرآن » وقولُه : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » . وهذا أنزل فى شوال ، وفى ذى القعدة ، وفى ذى الحجة ، وفى المحرم ، وصفر ، وشهر ربيع . فقال ابن عباس : « إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رِسْلاً فى الشهور والأيام » . قال أبو شامة: رِسلاً أى رفقاً. وعلى مواقع النجوم أى على مثل مساقطها. يريد أنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ،ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقاً ، يتلو بعضه بعضاً على تؤدة ورفق .

هذه أحاديث أربعة من جملة أحاديث ذكرت فى هذا الباب ، وكلها صحيحة كما قال السيوطى ، وهى أحاديث موقوفة على ابن عباس ، غير أن لها حكم المرفوع إلى النبى ﷺ ، لما هو مقرَّرٌ من أن قول الصحابى ما لا مجال للرأى فيه ولم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات ، حكمه حكم المرفوع . ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزّة من أنباء الغيب التى لا تُعرف إلا من المعصوم ، وابن عباس لم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات ، فثبت الاحتجاج بها .

وكان هذا النزول جملةً واحدةً فى ليلة واحدة هى ليلة القدر كما علمت ؛ لأنه المتبادر من نصوص الآيات الثلاث السابقة ، وللتنصيص على ذلك فى الأحاديث التى

عرضناها عليك . بل ذكر السيوطى أن القرطبى نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة فى السماء الدنيا .

وهناك قول ثان بنزول القرآن إلى السماء الدنيا فى عشرين ليلة قدر ، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين ينزل فى كل ليلة قدرٍ منها ما يقدِّر اللهُ إنزاله فى كل السنة، ثم ينزل بعد ذلك منجَّماً فى جميع السنة على النبى ﷺ .

وَثَمَّةَ قول ثالث : أنه ابتدئ إنزاله فى ليلة القدر ؛ ثم نزل بعد ذلك منجماً فى أوقات مختلفة من سائر الأزمان على النبى ﷺ . وكأن صاحب هذا القول ينفى النزول جملة إلى بيت العزّة فى ليلة القدر .

وذكروا قولاً رابعاً أيضاً هو أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة ، وأن الحفظة نجّمته على جبريل فى عشرين ليلة ، وأن جبريل نجّمه على النبى ﷺ فى عشرين سنة .

ولكن هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة بمعزل عن التحقيق ، وهى محجوجة بالأدلة التى سُقناها بين يديك تأييداً للقول الأول .

والحكمة فى هذا النزول ، على ماذكره السيوطى نقلاً عن أبى شامة — هى تفخيم أمره (أى القرآن) وأمر من نزل عليه ، بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم ، وبإنزاله مرتين ، مرة جملة ومرة مفرّقاً. بخلاف الكتب السابقة ، فقد كانت تنزل جملةً مرة واحدة .

وذكر بعضهم أن النزول إلى السماء الدنيا إلهاباً لشوق النبى ﷺ إليه على حدّ قول القائل :

« وأعظم مايكونُ الشوقُ يوماً إذا دنَت الخيامُ من الخيام »

أقول : وفى تعدد النزول وأماكنه ، مرةً فى اللوح ، وأخرى فى بيت العزة ، وثالثة على قلب النبى ﷺ : فى ذلك التعدد مبالغةٌ فى نفى الشك عن القرآن وزيادة

للإيمان وباعثٌ على الثقة فيه ، لأن الكلام إذا سُجِّل فى سجِّلات متعددة ، وصحت له وجودات كثيرة ، كان ذلك أنفى للريب عنه وأدعى إلى تسليم ثبوته ، وأدنى إلى وفرة الإيقان به ، مما لو سجِّل فى سجلٍّ واحد ، أو كان له وجود واحد .

(جـ - التنزُّل الثالث للقرآن هذا هو واسطة عقد التنزلات، لأنه المرحلة الأخيرة التى منها شعَّ النور على العالم ، ووصلت هداية الله إلى الخلق ، وكان هذا النزول بوساطة أمين الوحى جبريل يهبط به على قلب النبى ﷺ . ودليله قول الله تعالى فى سورة الشعراء مخاطباً لرسوله عليه الصلاة والسلام : « نزلَ به الرُّوحُ الأمينُ . على قلبكَ لتكونَ من المنذِرين . بلسانٍ عربىٍّ مبين » .)

كيفية أخذ جبريل للقرآن ، وعمن أخذ

هذا من أنباء الغيب . فلا يطمئن الإنسان إلى رأى فيه إلا إن ورد بدليل صحيح عن المعصوم ، وكل ما عثرنا عليه أقوال منثورة هنا وهناك، نجمعها لك فيما يأتى مع إبداء رأينا فى كل منها :

(أولها : قال الطيبى: « لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقَّفه تلقُّفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ ، فينزل به على النبى ﷺ فيلقيه إليه » اهـ.)

وأنت خبير بأن كلمة (لعل) هنا لا تشفى غليلاً ، ولا تهدينا إلى المقصود سبيلاً ، ولا نستطيع أن نأخذ منها دليلاً .

(ثانيها : حكى الماوردى أن الحفظة نجَّمت القرآن على جبريل فى عشرين ليلةً ؛ وأن جبريل نجَّمه على النبى صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنةً اهـ. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الحفظة نجوماً عشرين) ولكننا لا نعرف لصاحب هذا الرأى دليلًا ولا شبه دليل .

ثالثها: قال البيهقي في معنى قوله تعالى: « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » « يريد – والله أعلم – إنا أسمعنا الملك وأفهمناه إياه وأنزلناه بما سمع » اهـ. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعاً. وذلك فيما أرى أمثل الأقوال من ناحية أخذ جبريل عن الله لا من ناحية تأويل النزول في الآية بابتداء النزول. ويؤيده ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سَمْعان مرفوعاً إلى النبي ﷺ « إذا تكلَّم اللهُ بالوحي أخذت السماءَ رجفةٌ شديدةٌ من خوف الله، فإذا سمع أهلُ السماء صُعِقوا وخرُّوا سجَّداً فيكون أولهم يرفعُ رأسَهُ جبريل، فيكلمه اللهُ بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة فكلما مرَّ بسماء سأله أهلُها: ما قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهي به حيث أُمر ».

وأيًّا ما تكن هذه الأقوال، فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير غرض، ما دمنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله تعالى وحده.

ما الذي نُزل به جبريل؟

ولتعلم في هذا المقام، أن الذي نزل به جبريل على النبي ﷺ هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس. وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده، لا دخل لجبريل ولا لمحمد في إنشائها وترتيبها، بل الذي رتَّبها أولًا هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك تنسب له دون سواه، وإن نطق بها جبريل ومحمد، وملايين الخلق من بعد جبريل ومحمد، من لدن نزول القرآن إلى يوم الساعة. وذلك كما ينسب الكلام البشري إلى من أنشأه ورتَّبه في نفسه أولًا دون غيره، ولو نطق به آلاف الخلائق، في آلاف الأيام والسنين إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فالله – جلَّت حكمته – هو الذي أبرز ألفاظ القرآن وكلماته مرتبة على وَفق ترتيب كلماته النفسية لأجل التفهيم والتفهُّم، كما نبرز نحن كلامنا اللفظي على وفق كلامنا النفسي

لأجل التفهيم والتفهم ، ولا ينسب الكلام بحال إلا إلى من رتّبه فى نفسه أولًا ، دون من اقتصر على حكايته وقراءته ، ولذلك لا يجوز إضافة القرآن على سبيل الإنشاء إلى جبريل أو محمد ، ولا لغير جبريل ومحمد ، كما لا يجوز نسبة كلام أنشأه شخص ورتّبه فى نفسه أولًا إلى شخص آخر حكاه وقرأه حين اطّلع عليه أو سمعه .

وقد أسَفَّ بعضُ الناس فزعم أن جبريل كان ينزل على النبى ﷺ بمعانى القرآن، والرسول يعبر عنها بلغة العرب. وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحى إليه المعنى فقط ، وكلاهما قول باطل أثيم ، مصادم لصريح الكتاب والسنة والإجماع ، ولا يساوى قيمة المداد الذى يكتب به . وعقيدتى أنه مدسوسٌ على المسلمين فى كتبهم . وإلا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزاً واللفظ لمحمد أو لجبريل ؟ ثم كيف تصح نسبته إلى الله واللفظ ليس لله ؟ مع أن الله يقول : (حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللهِ » ، إلى غير ذلك مما يطول بنا تفصيله .

والحق أنه ليس لجبريل فى هذا القرآن سوى حكايته للرسول وإيحائه إليه ، وليس للرسول ﷺ فى هذا القرآن سوى وَعْيِهِ وحفظه ، ثم حكايته وتبليغه ، ثم بيانه وتفسيره ، ثم تطبيقه وتنفيذه . نقرأ فى القرآن نفسه أنه ليس من إنشاء جبريل ولا محمد نحو « وإنكَ لَتُلَقَّى القرآنَ مِنْ لدنْ حَكيمٍ عليمٍ » . ونحو « وإذَا لم تأتهمْ بآيةٍ قالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا. قلْ إنما أَتَّبِـعُ ما يُوحَى إليَّ مِنْ رَبِّى » . ونحو « وإذَا تُتْلَى عليهمْ آياتُنَا بيِّنَاتٍ قال الذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا آئْتِ بقرآنٍ غَيرِ هٰذا أو بدِّله . قل ما يكونُ لِى أنْ أُبدِّلَهُ من تِلقاءِ نَفسِى إن أَتَّبِـعُ إلَّا ما يُوحَى إليَّ إنى أخافُ إنْ عَصيتُ رَبِّى عذابَ يَوْمٍ عظيمٍ » . ونحو « وَلَوْ تَقَوَّلَ علينا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا منهُ باليمينِ . ثمَّ لَقطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فما مِنكم مِنْ أحدٍ عَنْهُ حاجزِينَ » .

ثم إن ماذكرناه هو تحقيق ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن، وإن كان قد نزل عليه أيضاً غير القرآن؛ نقل السيوطي عن الجويني أنه قال: « كلام الله المنزل قسمان: (قسم) قال الله لجبريل: قل للنبي الذي أنت مرسل إليه: إن الله يقول افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا ففهم جبريل ماقاله ربه ثم نزل على ذلك النبي، وقال له ماقاله ربه. ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملك لمن يثق به: قل لفلان يقول لك الملك: اجتهد في الخدمة واجمع جندك للقتال، فإن قال الرسول: يقول لك الملك: لاتتهاون في خدمتي، ولاتترك الجند يتفرق، وحُثَّهم على المقاتلة، لاينسب إلى كذب ولاتقصير في أداء الرسالة. (وقسم آخر) قال الله لجبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب، فنزل به جبريل من الله من غير تغيير، كما يكتب الملك كتاباً ويسلمه إلى أمين، ويقول اقرأه على فلان، فهو لايغير منه كلمة ولا حرفاً » اهـ.

قال السيوطي بعد ذلك: قلت: « القرآن هو القسم الثاني والقسم الأول هو السُّنة، كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى؛ لأن جبريل أداها بالمعنى. ولم تجز القراءة بالمعنى لأن جبريل أدّى القرآن باللفظ، ولم يُبَحْ له أداؤه بالمعنى. والسرُّ في ذلك أن المقصود منه التعبُّد بلفظه والإعجاز به، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه، وأنَّ تحت كل حرف منه معاني لايُحاط بها كثرةً، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه. والتخفيف على الأمة حيث جعل المنزل إليهم على قسمين: قسم يروونه بلفظه الموحَى به وقسم يروونه بالمعنى. ولو جعل كله مما يُروى باللفظ لشقّ، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف فتأمل » اهـ.

أقول: وهذا كلام نفيس، بيد أنه لادليل أمامنا على أن جبريل كان يتصرف في الألفاظ الموحاة إليه في غير القرآن. وماذكره الجويني فهو احتمال عقلي لايكفي في هذا الباب. ثم إن هذا التقسيم خلا من قسم ثالث للكتاب والسنة، وهو الحديث القدسي الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله تعالى، فهو كلام الله تعالى أيضاً،

غير أنه ليست فيه خصائص القرآن التى امتاز بها عن كل ماسواه. ولله تعالى حكمة فى أن يجعل من كلامه المنزل معجزاً وغير معجز، لمثل ماسبق فى حكمة التقسيم الآنف، من إقامة حجة للرسول ولدين الحق بكلام الله المعجز، ومن التخفيف على الأمة بغير المعجز، لأنه تصح روايته بالمعنى، وقراءة الجنب وحمله له ومسه إياه، إلى غير ذلك.

وصفوة القول فى هـــذا المقام أن القرآن أوحيت ألفاظه من الله اتفاقاً، وأن الحديث القدسى أوحيت ألفاظه من الله على المشهور، والحديث النبوى أوحيت معانيه فى غير ما اجتهد فيه الرسول والألفاظ من الرسول صلى الله عليه وسلم. بَيْدَ أن القرآن له خصائصه من الإعجاز والتعبد به ووجوب المحافظة على أدائه بلفظه ونحو ذلك وليس للحديث القدسى والنبوى شىء من هذه الخصائص والحكمة فى هذا التفريق أن الإعجاز منوط بألفاظ القرآن، فلو أبيح أداؤه بالمعنى لذهب إعجازه، وكان مظنة للتغيير والتبديل، واختلاف الناس فى أصل التشريع والتنزيل. أما الحـــديث القدسى والحديث النبوى فليست ألفاظهما مناط إعجاز، ولهـــذا أباح الله روايتهما بالمعنى، ولم يمنحهما تلك الخصائص والقداسة الممتازة التى منحها القرآن الكريم، تخفيفاً على الأُمةُ، ورعاية لمصالح الخلق فى الحالين من مَنْحٍ وَمَنْعٍ «إِنَّ ٱللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ»

مدة هذا النزول

وابتدأ هـــذا الإنزال من مبعثه عليه الصلاة السلام، وانتهى بقرب انتهاء حياته الشريفة، وتُقَدَّر هذه المدة بعشرين أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً، تبعاً للخلاف فى مدة إقامته صلى الله عليه وسلم فى مكة بعد البعثة، أكانت عشر سنين أم ثلاث عشرة أم خمس عشرة سنة. أما مدة إقامته بالمدينة فعشر سنين اتفاقاً. كذلك قال السيوطى.

ولـكن بعض محقق تاريخ التشريع الإسلامى يذكر أن مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً من ١٧ رمضان سنة ٤١ من مولده

الشريف إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ منه . أما مدة إقامته فى المدينة بعد الهجرة فهى تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة ٥٤ من مولده إلى تاسع ذى الحجة سنة ٦٣ منه. ويوافق ذلك سنة عشر من الهجرة. وهذا التحقيق قريب من القول بأن مدة إقامته ﷺ فى مكة ثلاث عشرة سنة وفى المدينة عشر سنين ، وأن مدة الوحى بالقرآن ثلاثة وعشرون عاماً .

لكن هـــذا التحقيق لا يزال فى حاجة إلى تحقيقات ثلاثة ؛ ذلك لأنه أهمل من حسابه باكورة الوحى إليه ﷺ عن طريق الرؤيا الصادقة ستة أشهر ، على حين أنها ثابتة فى الصحيح . ثم جرى فيه على أن ابتداء نزول القرآن كان ليلة السابع عشر من رمضان وهى ليلة القدر على بعض الآراء ، غير أنه يخالف المشهور الذى يؤيده الصحيح ثم ذهب فيه مذهب القائلين بأن آخر ما نزل من القرآن هو آية «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» وذلك فى تاسع ذى الحجة سنة عشر من الهجرة ، وسترى فى مبحث آخر ما نزل من القرآن أن هذا المذهب غير صحيح .

دليل تنجيم هذا النزول

والدليل على تفرق هذا النزول وتنجيمه ، قول الله تعالت حكمته ـ فى سورة الإسراء : « وقرآناً فرقناهُ لتقرأهُ عَلَى الناسِ على مُكْثٍ ، ونزَّلناهُ تنزيلًا » وقوله فى سورة الفرقان : « وقالَ ٱلذينَ كفرُوا لولا نُزِّل عليهِ القرآنُ جملةً واحدةً . كذلكَ لِنُثَبِّتَ به فؤادَكَ ، ورتَّلناهُ ترتيلًا . ولا يأتونك بمَثَلٍ إلَّا جئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً » . روى أن الكفار من يهود ومشركين عابوا على النبى ﷺ نزول القرآن مفرقاً ، واقترحوا عليه أن ينزل جملةً ، فأنزل الله هاتين الآيتين رَدًّا عليهم ، وهذا الردُّ يدلُ على أمرين :

أحدهما : أن القرآن نزل مفرقاً على النبي ﷺ . والثانى : أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملةً ، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً .

ووجه الدلالة على هذين الأمرين ، أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية جملةً ، بل أجابهم ببيان الحكمة فى نزول القرآن مفرقاً ، ولو كان نزول الكتب السماوية مفرقاً كالقرآن لردَّ عليهم بالتكذيب ، وبإعلان أن التنجيم هو سنة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل ، كما ردَّ عليهم بقوله : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) . حين طعنوا على الرسول وقالوا : « ما لهذا الرَّسولِ يأكل الطَّعامَ ويمشى فى الأسواق)؟ . اهـ من سورة الفرقان .

الحكم والأسرار فى تنجيم القرآن

لتنجيم نزول القرآن الكريم أسرارٌ عدَّة وحِكَمٌ كثيرة ، نستطيع أن نُجْمِلها فى أرْبَع حِكَمٍ رئيسية :ـ

الحكمة الأولى

تثبيت فؤاد النبي ﷺ ، وتقوية قلبه ، وذلك من وجوه خمسة :

الوجه الأول : أن فى تجدُّد الوحي ، وتكرار نزول الملك به من جانب الحق سبحانه وتعالى إلى رسوله ﷺ ، سروراً يملأ قلب الرسول ، وغبطة تشرح صدره ، وكلاهما يتجدَّدُ عليه بسبب ما يشعر به من هذه العناية الإلهية ، وتعهد مولاه إياه فى كل نَوْبَةٍ من نَوْباتِ هذا النزول .

الوجه الثانى : أن فى التنجيم تيسيراً عليه من الله فى حفظه وفهمه ، ومعرفة أحكامه وحِكَمه ، وذلك مُطَمْئِنٌ له على وَعْى ما يُوحَى إليه حفظاً وفهماً ، وأحكاماً وحِكَماً ، كما أن فيه تقويةً لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله .

تجديد للمعجزة

الوجه الثالث : أن فى كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجَّم معجزةً جديدة غالباً حيث تحداهم كل مرة أن يأتوا بمثل نوبة من نُوَب التنزيل ، فظهر عجزهم عن المعارضة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت . ولا شك أن المعجزة تشدُّ أَزْرَه وتُرْهِفُ عزمه ، باعتبارها مؤيِّدةً له ولحزبه . خاذلةً لأعدائه وخصمه .

الوجه الرابع : أن فى تأييد حقه ودحض باطل عدوه ـ المرة بعد الأخرى ـ تكراراً للذة فوزه وفلَجه بالحق والصواب ، وشهوده لضحايا البـــاطل فى كل مهبطٍ للوحى والكتاب . وإنْ كلُّ ذلك إلا مشجِّع للنفس مقوٍّ للقلب والفؤاد . والفرق بين هذا الوجه والذى قبله ، هو الفرق بين الشىء وأثره ، أو الملزوم ولازمه ، فالمعجزة من حيث إنها قوة للرسول ومؤيدة له مطَمئنة له ومثبتة لفؤاده ، بقطع النظر عن أثر انتصاره وهزيمة خصمه بها . ثم إن هذا الأثر العظيم وحده مطمئن لقلبه الكريم ومثبت لفؤاده أيضاً ، أشبه شىء بالسلاح : وجوده فى يد الإنسان مُطمِئن له ولو لم يستعمله فى خصمه ثم انتصار الإنسان وهزيمة خصمه به إذا أعمل فيـــــه مُطَمْئن للفؤاد مريح للقلب مرة أخرى .

الوجه الخامس : تعهُّد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يهوِّن عليه هذه الشدائد ، ولا ريب أن تلك الشدائد كانت تَحْدُث فى أوقات متعدِّدة ، فلا جرم كانت التسلية تحـــدث هى الأخرى فى مرات متكافئة . فكلما أحرجه خصمه ، سلّاه ربه . وتجىء تلك التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين ، التى لهـا فى القرآن عرْضٌ طويل ، وفيها يقول الله : « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » من سورة هود . وتارة تجىء التسلية عن طريق وعد الله لرسوله بالنصر والتأييد والحفظ ، كما فى قوله سبحانه فى سورة الطور : « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » وقوله فى سورة المائدة : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » ونحو ما فى

سورتى الضحى وألم نشرح من الوعود الكريمة ،والعطايا العظيمة . وطوراً تأتيه التسلية عن طريق إبعاد أعدائه وإنذارهم نحو قوله تعالى فى سورة القمر : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » وقوله سبحانه فى سورة فصلت : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » . وطوراً آخر ترد التسلية فى صورة الأمر الصريح بالصبر نحو قوله جلَّ شأنه فى سورة الأحقاف : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » أو فى صورة النهى عن التفجُّع عليهم ؛ والحزن منهم . نحو قول الله فى سورة فاطر : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » ونحو قوله سبحانه فى خواتم سورة النحل : « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » .

ومن موارد تسلية الله لرسوله أن يخوِّفه عواقب حزنه من كفر أعدائه نحو : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » فى فاتحة سورة الشعراء . ومنها أن يؤيسه منهم ليستريح ويتسلَّى عنهم نحو : « وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » من سورة الأنعام .

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة بوجوهها الخمسة تحت قول الله فى بيان الحكمة من تنجيم القرآن « كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ » من سورة الفرقان .

الحكمة الثانية

التدرُّج فى تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعملا . وينضوى تحت هذا الإجمال أمور خمسة أيضاً :

أولها : تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية ، وهى كما علمت كانت أمة أمِّيَّة .

وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم ، وكانت مُشتغِلَة بمصالحها الماشية ، وبالدفاع عن دينها الجديد بالحديد والدم ، فلو أنزل القرآن جملةً واحدة لعجزوا عن حفظه ، فاقتضت الحكمة العليا أن ينزله الله إليهم مفرقاً ليسهل عليهم حفظه ، ويتهيأ لهم استظهاره .

ثانيها : تسهيل فهمه عليهم كذلك ، مثل ما سبق في توجيه التيسير في حفظه .

ثالثها : التمهيد لكمال تخلِّيهم عن عقائدهم الباطلة ، وعباداتهم الفاسدة ، وعاداتهم المرذولة . وذلك بأن يُراضوا على هذا التخلِّي شيئاً فشيئاً ، بسبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئاً فشيئاً ، فكلما نجح الإسلام معهم في هدم باطل ، انتقل بهم إلى هدم آخر، وهكذا يبدأ بالأهم ثم بالمهم، حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها فطهَّرهم منها وهم لا يشعرون بعَنَتٍ ولا حرج ، وفطمهم عنها دون أن يرْتكِسوا في سابق فتنة أو عادة . وكانت هذه سياسةً رشيدة ، لابد منها في تربية هذه الأمة المجيدة ، لاسيما أنها كانت أبيَّة معاندة ، تتحمَّس لموروثاتها ، وتستميت في الدفاع عما تعتقده من شرفها ، وتتهوَّر في سفك الدماء وشنِّ الغارات ، لأتفه الأسباب .

رابعها : التمهيد لكمال تحلِّيهم بالعقائد الحقة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة ، بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة . ولهذا بدأ الإسلام بفطامهم عن الشرك والإباحة ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء ، من جرَّاء ما فتح عيونهم عليه من أدلة التوحيد ، وبراهين البعث بعد الموت ، وحُجَج الحساب والمسئولية والجزاء . ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات فبدأهم بفرضية الصلاة قبل الهجرة ، وثنَّى بالزكاة وبالصوم في السنة الثانية من الهجرة ، وختم بالحج في السنة السادسة منها . وكذلك كان الشأن في العادات : زجرهم عن الكبائر وشدَّد النكير عليهم فيها . ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق ، وتدرَّج بهم في تحريم ما كان مستأصلا فيهم

كالخمر . . تدرجاً حكيما حقّق الغاية ، وأنقذهم من كابوسها فى النهاية . وكان الإسلام فى انتهاج هذه الخطّة المُثلى أبعد نظراً ، وأهدى سبيلاً ، وأنجح تشريعاً ، وأنجع سياسةً ، من تلكم الأمم المتمدينة المتحضرة التى أفلست فى تحريم الخمر على شعوبها أفظع إفلاس ، وفشلت أمرّ فشل . وماعهد أمريكا فى مهزلة تحريمها الخمر ببعيد . !

أليس ذلك إعجازاً للإسلام فى سياسة الشعوب، وتهذيب الجماعات ، وتربية الأمم؟ بلى ، والتاريخ على ذلك من الشاهدين ! ! .

خامسها : تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين ، بسبب ما كان يقصّه القرآن عليهم الفَيْنَةَ بعد الفينة والحينَ بعد الحين ، من قصص الأنبياء والمرسلين وما كان لهم ولأتباعهم مع الأعداء والمخالفين ، وما وعد الله به عباده الصالحين ، من النصر والأجر والتأييد والتمكين . والآيات فى ذلك كثيرة حسبك منها قول العلىّ الكبير فى سورة النور : « وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا . وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ » . وقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده « فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » .

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثانية بما انضوى تحتها فى قول الله تعالى فى سورة الإسراء « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَى مُكْثٍ » كما يمكن أن يفسر بها قوله تعالى فى سورة الفرقان فى بيان أسرار التنجيم « وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا » باعتبار أن التنوين للتعظيم إشارةً إلى المعانى المنطوية تحت هذا الترتيل .

الحكمة الثالثة

مُسايرةُ الحوادث والطوارئ في تجدُّدها وتفرقها ، فكلما جدّ منهم جديد ، نزل من القرآن ما يناسبه ، وفصّل الله لهم من أحكامه ما يوافقه . وتنتظم هذه الحكمة أموراً أربعة :

أولها : إجابة السائلين على أسئلتهم عند ما يوجهونها إلى الرسول ﷺ . سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التثبت من رسالته . كما قال الله تعالى في جواب سؤال أعدائه إياه . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » في سورة الإسراء ، وقوله « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً » الخ الآيات في هذا الموضوع من سورة الكهف . أم كانت لغرض التنوُّر ومعرفة حكم الله كقوله تعالى في سورة البقرة : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلِ الْعَفْوَ » . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ؟ قُلْ : إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ . وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ » .

ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت تُرفع إلى النبي ﷺ في أوقات مختلفة ، وعلى نَوْباتٍ متعدِّدة ، حاكيةً أنهم سألوا ولا يزالون يسألون . فلا بدع أن ينزل الجواب عليها كذلك في أوقاتها المختلفة ، ونَوْباتها المتعدِّدة .

ثانيها : مُجاراة الأقضية والوقائع في حينها ببيان حُكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها . ومعلومٌ أن تلك الأقضية والوقائع لم تقع جملةً ، بل وقعت تفصيلًا وتدريجاً ، فلا مناص إذن من فَصْل الله فيها بنزول القرآن على طبقها تفصيلًا وتدريجاً . والأمثلة على هذا كثيرة ، منها قوله سبحانه في سورة النور : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ » إلى قوله سبحانه « أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهُنّ عشر آيات نزلن في حادث من أروع الحوادث : هو اتهام السيدة الجليلة

أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بالإفك . وفيهـــا دروس اجتماعية لا تزال تقرأ على الناس ، كما لا تزال تُسَجِّل براءة هذه الحَصَانِ الطاهرة من فوق سبع سموات .

ومن الأمثلة قوله تعالى فى مُفتتح سورة المجادلة : « قَدْ سَمِعَ ٱللهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللهِ ، وَٱللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » إلى قوله تعالى « وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » . وهنّ ثلاث آيات نزلن عندما رفعت خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ شكواها إلى رسول الله ﷺ من أن زوجها أَوْسَ بْنَ الصَّامِت ظَاهَرَ منها ، وجادلت الرسولَ بأن معها صبيةً صغاراً إن ضَمَّتْهُم إلى زوجها ضاعوا ، وإن ضَمَّتْهُم إليها جاعوا .

ثالثها : لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التى يخطئون فيها ، وإرشادهم إلى شاكلة الصواب فى الوقت نفسه . ولا ريب أن تلك الأغلاط كانت فى أزمان متفرقة ، فمن الحكمة أن يكون القرآن النازل فى إصلاحها ، متكافئاً معها فى زمانها . اقرأ إن شئت قوله سبحانه فى سورة آل عمران : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » إلى آيات كثيرة بعدها ، وكلها نزلت فى غزوة أحد إرشاداً للمسلمين إلى مواضع أخطائهم فى هذا الموقف الرهيب والمأزق المصيب . وكذلك اقرأ قوله سبحانه فى سورة التــــوبة : « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ . ثُمَّ يَتُوبُ ٱللهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وهى آياتٌ تردع المؤمنين عن رذيلة الإعجاب والاغترار فى يوم من أيام الله ، وتلفت نظرهم إلى مقدار تَدارُك الله لهم فى شدتهم ، وإلى وجوب أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويتوبوا إلى ربهم .

رابعها: كشف حال أعداء الله المنافقين، وَهَتْكُ أستارهم وسرائرهم للنبي والمسلمين، كيما يأخذوا منهم حذرهم فيأمنوا شرهم. وحتى يتوب من شاء منهم. اقرأ ـ إن شئت ـ قوله تعالى فى سورة البقرة: « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » إلى قوله « وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » وهُنَّ ثلاثَ عشرةَ آيةً فضحت المنافقين، كما فضحتهم سورة التوبة فى كثير من الآيات، وكما كشف القرآن أستارهم فى كثير من المناسبات. ويمكن أن تندرج هـــذه الحكمة الثالثة بمضامينها الأربعة فى قول الله تعالى فى تلك الآية من سورة الفرقان: « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ».

الحكمة الرابعة

الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه.

وبيان ذلك. أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو مُحْكَمُ السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوىٌّ الاتصال، آخذٌ بعضُه برقاب بعض فى سوره وآياته وجُمله، يجرى دَمُ الإعجاز فيه كله من أَلِفِه إلى يائه كأنَّه سبيكةٌ واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفككٌ ولا تخاذلٌ كأنه حَلْقَةٌ مُفْرَغَةٌ! أو كأنه سِمطٌ وحيد وعقد فريدٌ يأخذ بالأبصار: نُظِّمَتْ حروفُه وكلماته، ونُسِّقت جملُه وآياته، وجاء آخره مُساوِقاً لأوله، وبدا أوَّله مُواتياً لآخره!!.

وهنا نتساءل: كيف اتَّسق للقرآن هذا التآلف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه يتنزَّل جملةً واحـــدةً بل تنزَّل آحاداً مفرَّقةً تفرُّق الوقائع والحوادث فى أكثر من عشرين عاماً!!.

الجواب: أننا نلمحُ هنا سِرًّا جديداً من أسرار الإعجاز، ونشهد سِمَةً فذَّةً من

سمات الربوبيّة ، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن ، وأنه كلام الواحد الديان « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً » .

وإلا فحدثنى ـ بربك ـ كيف تستطيع أنت ؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط، متين النَّسْج والسرْد، متآلف البدايات والنهايات، مع خضوعه فى التأليف لعوامل خارجةٍ عن مقدور البشر ، وهى وقائع الزمن وأحداثه التى يجىء كلُّ جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها ، ومتحدثاً عنها : سبباً بعد سبب ، وداعية إثْرَ داعية ، مع اختلاف ما بين هذه الدواعى ، وتغاير ما بين تلك الأسباب ، ومع تراخى زمان هذا التأليف ، وتطاول آماد هذه النجوم ، إلى أكثر من عشرين عاماً .

لاريب أن هذا الانفصال الزمانى، وذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعى، يستلزمان فى مجرى العادة التفككَ والانحلال ، ولا يدَعان مجالاً للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام .

أما القرآن الكريم فقد خرق العادة فى هذه الناحية أيضاً : نزل مُفرَّقاً منجماً ، ولكنه تَمَّ مترابطاً مُحْكَماً . وَتَفَرَّقَتْ نجومُه تفرُّقَ الأسباب ، ولكن اجتمع نظمه اجتماع شَمل الأَحباب. ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاماً، ولكن تكامل انسجامُه بدايةً وختاماً ! ! .

أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القُوَى والقُدر ، ومالك الأسباب والمسَبَّباب ، ومدبِّر الخلق والكائنات ، وقيُّوم الأرض والسموات ، العليم بما كان وماسيكون ، الخبير بالزمان ومايحدث فيه من شئون ؟ ؟ .

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات ، قال « ضعوها فى مكان كذا من سورة كذا » . وهو بشرٌ لا يدرى (طبعاً) ما ستجىء به الأيام ، ولا يعلم ما سيكون فى مستقبل الزمان ، ولا يدرك ما سيحدث

من الدواعى والأحداث فضلا عما سينزل من الله فيها . وهكـذا يمضى العمر الطويل والرسول على هذا العهد ، يأتيه الوحى بالقرآن نجماً بعد نجم ، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتمّ ، وينتظم ويتآخى ويأتلف ويلتئم ، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذُل ولا تفاوُت ، بل يعجزُ الخلقُ طرًّا بما فيه من انسجامٍ ووحدةٍ وترابط : « كِتَابٌ أُحْـكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَـكِيمٍ خَبِيرٍ » !! .

وإنه ليستبين لك سرُّ هذا الإعجاز ، إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتّساق والانسجام ، لن يمكن أن يأتى على هذا النمط الذى نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط ، لا فى كلام الرسول ﷺ ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء .

خذ مثلاً حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ماهو فى روعته وبلاغته ، وطهره وسموّه : لقد قاله الرسول ﷺ فى مناسبات مختلفة ، لدواع متباينة ، فى أزمان متطاولة فهل فى مُـكْنتك ومُـكْنة البشر معك ، أن ينظموا من هذا السرْد الشتيت وحـدة ، كتاباً واحداً يَضْفله الاسترسال والوحدة ، من غير أن ينقصوا منه أو يتزيّدُوا عليه أو يتصرفوا فيه ؟؟ .

ذلك ما لن يكون ، ولا يمكن أن يكون ، ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث ، ويَخْرج للناس بثوب مرقّع ، وكلام ملفّق ينقصه الترابط والانسجام ، وتُعوِزُه الوحدة والاسترسال ، وتمجُّه الأسماع والأفهام .

إذن : فالقرآن الـكريم ينطق نزوله منجماً بأنه كلام الله وحده . وتلك حكمة جليلة الشأن ، تدلُّ الخلق على الحق فى مصدر القرآن ! : « قُلْ أَنْزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » .

٣ — المعركة الطاحنة

أو الوحي بين معتقديه ومنكريه

كل ماقدمناه إليك فى نزول القرآن لا يسلمه ولا يقبله إلا من آمن بالوحى وأساليبه ، والاتصالات الروحية بالملأ الأعلى ، واستمداد الإنسان لمعارفه عن الله تعالى بوساطة الملك ، على غير الطريقة المعتادة بين البشر . ولكن العقلية العصرية أصابها مَسٌّ من المادية والإلحاد والإباحة ، فأصبح كثير من المتعلمين تعليماً مدرسيًّا ناقصاً ، لا يهضمون هذه الحقائق العُليا ، ولا يستسيغون فهمها ، بل يُلقون حِبالاً وعصيًّا فى سبيل المؤمنين بها ، ولا شبهة لهم فيما ذهبوا إليه إلا شكوكٌ تلقفوها من هنا وهناك ، يروِّجونها باسم العقل مرةً ؛ وباسم العلم مرةً أخرى .

لهذا نرى لزاماً علينا أن نقف هنا بجانب الوحى وقفةً نرفع فيها النقاب عن حقيقته وأنواعه وكيفيَّاته ، ثم نُتْبِع ذلك بالأدلة العلمية على الوحى وإمكانه ، ثم نردفها بالأدلة العقلية على تحقُّقه ووقوعه . ثم نختتم هذا المبحث بعلاج الشبهات التى تعترضهم ويعترضون بها فى هذا الموقف الجَلَل . والموضوع الخطير .

تلك نِقاطٌ أربعٌ إذا وُفِّقنا فى بحثها ، قطعنا الطريق على عصابات مجرمة ، اتخذت مبحث الوحى أداةً للفتنة ، وستاراً يقضون من ورائه وَطَراً للغَواية ، ومأرَباً للإباحة ، وسبيلاً إلى هدم الأديان ، وضلال الإنسانية والإنسان .

١ — حقيقة الوحى وأنواعه وكيفياته

أما الوحى فمعناه فى لسان الشرع ؛ أن يُعْلِمَ الله تعالى مَنِ اصطفاه من عباده كلَّ ماأراد إطلاعَه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة سِرِّيَّةٍ خفية ، غير معتادة للبشر .

ويكون على أنواع شتى : منه مايكون مكالمةً بين العبد وربه ، كما كلّم الله موسى تكليماً . ومنه مايكون إلهاماً يقذفه الله فى قلب مُصطفاه على وجهٍ من العلم الضرورى لا يستطيع له دفعاً ، ولا يجدُ فيه شكًّا . ومنه ما يكون مناماً صادقاً يجىء فى تحققّه ووقوعه ، كما يجىء فلقُ الصبح فى تبلُّجه وسطوعه . ومنه مايكون بوساطة أمين الوحى جبريل عليه السلام : وهو ملكٌ كريم ذو قوةٍ عند ذى العرش مكين ، مطاعٍ ثمّ أمين . وذلك النوعُ هو أشهر الأنواع وأكثرها . ووحى القرآن كلّه من هذا القبيل ، وهو المصطلح عليه بالوحى الجلىّ . قال الله تعالى فى سورة الشعراء : « نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ » .

ثم إن ملك الوحى يهبط هو الآخر على أساليب شتى : فتارة يظهر للرسول فى صورته الحقيقيّة الملكية . وتارةً يظهر فى صورة إنسانٍ يراه الحاضرون ويستمعون إليه . وتارةً يهبط على الرسول خفيةً فلا يُرى ، ولكن يظهر أثرُ التغيُّر والانفعال على صاحب الرسالة فيغطّ غطيطَ النائم ، ويغيب غيبةً كأنها غَشْية أو إغماء وما هى فى شىء من الغشية والإغماء ، إن هى إلا استغراقٌ فى لقاء الملَك الروحانى ، وانخلاعٌ عن حالته البشرية المادية ، فيؤثّر ذلك على الجسم ، فيغطّ ويثقل ثقلاً شديداً ، قد يتصبَّب منه الجبين عرقاً فى اليوم الشديد البرد . وقد يكون وقع الوحى على الرسول كوقعِ ٱلجرَسِ إذا صَلْصَلَ فى أُذُن سامعه ، وذلك أشدُّ أنواعه . وربما سمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرسول كأنه دَوِىٌّ النحل ، لكنهم لا يفقهون كلاماً ، ولا يفقهون حديثاً . أما هو — صلوات الله وسلامه عليه — فإنه يسمع ويعى ما يوحى إليه ، ويعلم علماً ضرورياً أنّ هذا هو وحى الله دون لَبْسٍ ولا خفاء ، ومن غير شك ولا ارتياب ، فإذا انجلى عنه الوحى وجد ما أُوحى إليه حاضراً فى ذاكرته ، منتقِشاً فى حافظته ، كأنما كُتب فى قلبه كتابةً .

والأدلة الشرعية على ما ذكرنا كثيرةٌ فى الكتاب والسُّنة ، منها ما قصصنا عليك فى تنزُّلات القرآن ، ومنها قوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى » .

ومنها الحديث الذى يرويه البخارىُّ فى صحيحه عن عائشة أمِّ المؤمنين رضى الله عنها : أنَّ الحارثَ بنَ هشامٍ سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسولَ اللهِ كيفَ يأتيكَ الوحىُ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحيانًا يأتينى مثلَ صَلْصَلَةِ الجرس - وهو أشدُّهُ عَلَىَّ - فيفصِمُ عَنِّى وقد وَعَيْتُ عنه ماقال . وأحيانًا يتمثَّلُ لى المَلَكُ رَجُلًا فيكلِّمنى فأَعِى مايقول » قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحىُ فى اليوم الشديدِ البَرْدِ فيَفصِمُ عنه وإنَّ جبينَهُ ليتفصَّدُ عَرَقًا .

ب — الوحى من ناحية العلم

اعلم أن أعداء الوحى ومنكريه لا يؤمنون بالشرع وأدلة الشرع . إنما يؤمنون بالعقل على الطريقة التى يستسيغونها ، وبالعلم الذى تواضعوا عليه فى اصطلاحهم الحديث ، وهو جملة المعارف اليقينية التى أنتجها دستور البحث الجديد فى الوجود وكائناته ، من جعل الشك أساسًا للبحث ، والاستناد إلى القاطع الذى يؤيده الحسُّ دون سواه ؛ فهم يقدِّمون الشكَّ وَيُمْعِنُونَ فيه ، ثم لا يعترفون إلا بالحسِّيات ، ولا يَحْفِلُونَ بمجرد العقليات . ومن هنا سجنوا أنفسهم فى سجن المادَّة ، ومكثوا حينًا من الدهر ينكرون ما وراء المادَّة ، ويسرفون فى الشكوك إلى أبعد الحدود ويستخفُّون بأمر الإلهيات والنبوَّات والوحى إلى مدًى بعيد لم تصل إليه أظلم عهود الجاهلية ، لولا أن صدمهم العلم نفسُه صدمةً عنيفةً غَيَّرَتْ رأيهم فى إنكار ماوراء المادة كما يأتى إن شاء الله . وإنما نبدأ هنا بأدلة الوحى العلمية ؛ لأنها فى الواقع أدلةٌ لإمكان الوحى وتقريبه إلى العقول . وإمكان الوحى هو الخطوة الأولى فى الموضوع ،

وهو ملحوظ فى المقدمة الأساسية من مقدمات الدليل العقلى الآتى ، فلا غرو أن يكون لتلك الأدلة العلمية مكانُ الصدارة والتقديم .

« الدليل الأول » التنويمُ الصناعى ، أو التنويم المغناطيسى ، وهو من المقرّرات العلمية الثابتة . كشفه الدكتور « مسمر » الألمانى فى القرن الثامن عشر ، وجاهد هو وأتباعه مدى قرنٍ كاملٍ من الزمان فى سبيل إثباته وحَمْلِ العلماء على الاعتراف به وقد نجحوا فى ذلك ، فاعترف العلماء به علميًّا ؛ بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلّفة من الخلق واطمأنّوا إلى تجاربه . وأخيراً أثبتوا بوساطته ما يأتى :

١ ـ أن للإنسان عقلا باطناً أرقى من عقله المعتاد كثيراً .

٢ ـ أنه وهو فى حالة التنويم يرى ويسمع من بعد شاسع ، ويقرأ من وراء حجب ، ويخبر عما سيحدُث ، مما لا يوجد فى عالم الحسّ أقلُّ علامةٍ لحدوثه .

٣ ـ أن للتنويم درجات بعضها فوق بعض يزداد العقل الباطن سموًّا بتنقله فيها .

٤ ـ أنه قد يصل إلى درجـــــة تخرج فيها روح الوسيط من جسده ؛ وتَمْثُل إلى جانبه غير مرئية ، بينما يكون الجسم فى حالةٍ تشبه الموت ، لولا علاقةٌ خفية بين الروح والجسم .

٥ ـ أثبتوا من وراء ذلك أن هناك روحاً .

٦ ـ أن الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال .

٧ ـ أن الروح لا تنحلُّ بانحلاله .

٨ ـ أنها تتصل بالأرواح التى سبقتها إذا تجرّدت عن المادّة ، إلى غير ذلك مما لا نسلّم جميع تفاصيله تقليداً ، وإن كنا نسلّم هذا العلم وتجاربه . ومقرراته فى الجمـــلة ، لثبوت الدليل بها فى الجملة أيضاً بواسطة التجارب العديدة

والمشاهدات الكثيرة . وله فى الغرب أنصار من علماء وطلاب ؛ وله دورٌ وكتب ، وله مستشفياتٌ يؤمُّها الناس للتداوى به .

وليس من موضوعنا أن نتوسَّع لك فى هذا العلم وتاريخه وتجاربه وفوائده ، ولكننا نريد أن نتقدَّم إليك بفكرة مجملةٍ عنه ، تريك إلى أىِّ حد أظهر الله فى هذا العصر آياتٍ باهراتٍ ، على أيدى الطبيعيين الذين ينكرون ماوراء المادة ويسرفون فى الإنكار ، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضل يثبتون ماوراءَ المادة ويسرفون فى الإثبات . تحقيقاً لقوله سبحانه « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » اهـ من خاتمة سورة فصلت .

وإننا نضع بين يديك هنا تجربةً واحدة من تجارب التنويم ، تقرِّب إليك الوحى كل التقريب ، وهذه التجربة رأيتها بعينى ، وسمعتها بأذنى ، بنادى جمعية الشبان المسلمين ، على مرأى ومسمع من جمهور مثقَّف كبير ، حضر ليشهد محاضرةً مهمة فى التنويم المغناطيسى وإثبات أنه يمكن أن يتخَذ سلاحاً مسموماً لتغيير عقيدة الشخص ودينه ، كما تسفَّل إلى ذلك بعض المبشرين ، إذ فتن بهذا العدوان الخبيث شاباًّ من خيرة الشبان المسلمين حول سنة ١٣٥١ هـ فى حادثة مشهورة مروِّعة ، وما هى منكم ببعيد .

قام المحاضر ، وهو أستاذ فى التنويم المغناطيسى ، وأحضر الوسيط وهو فتًى فيه استعداد خاص للتأثُّر بالأستاذ ، والأستاذُ فيه استعداد خاص للتأثير على الوسيط ، فالأول ضعيف النفس ، والثانى قويُّها . وللضعف والقوة وجوه ليس هذا موضع بيانها . نظر الأستاذ فى عين الوسيط نظراتٍ عميقةً نافذة ، وأجرى عليه حركاتٍ يسمونها سَحَبات ، فما هى إلا لحظة حتى رأينا الوسيط يغطُّ غطيط النائم ، وقد امتقع لونُه ، وهمد جسمه ، وفقد إحساسه المعتاد ، حتى لقد كان أحدنا يَخِزُهُ بالإبرة وخَزات عدة ، ويخزه كذلك ثانٍ وثالث ، فلا يبدى الوسيط حَرَاكاً ، ولا يظهر أىَّ عرضٍ لشعوره وإحساسه بها . وحينئذٍ تأكَّدنا أنه قد نام ذلك النومَ الصناعىَّ أو المغناطيسى .

وهناك تسلط الأستاذ على الوسيط يسأله: ماسمك ؟ فأجابه باسمه الحقيقى. فقال الأستاذ : ليس هذا هو اسمك ، إنما اسمك كذا (وافترى عليه اسماً آخر) ثم أخذ يقرر فى نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب ، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق ، بوساطة أغاليط يلقِّنها إياه فى صورة الأدلة ، وبكلام يوجهه إليه فى صيغة الأمر والنهى. وهكذا أملى عليه هذه الأكذوبة إملاءً ، وفرضها عليه فرضاً ؛ حتى خضع لها الوسيط وأذعن ! .

ثم أخذ الأستاذ وأخذنا نناديه باسمه الحقيقى المرة بعد الأخرى فى فترات متقطعة ، وفى أثناء الحديث على حين غفلة ، كل ذلك وهو لا يجيب . ثم نناديه كذلك باسمه الموضوع فيجيب ، دون تردُّد ، ولا تَلَعْثُم .

ثم أمر الأستاذ وسيطه أن يتذكر دائماً أن هذا الاسم الجديد هو اسمه الصحيح حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظته . ثم أيقظه وأخذ يتمُّ محاضرته ونحن نَفْجَأُ الوسيط بالاسم الحقيقى فلا يجيب ، ثم نفجؤه باسمه الثانى فيجيب ، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروب عاد الوسيط إلى حاله الأولى من العلم باسمه الحقيقى !

وبهذه التجربة أثبت الأستاذ أن المنوِّم « بكسر الواو » يستطيع أن يمحو من نفس وسيطه كل أثر يريد محوه ، مهما كان ثابتاً فى النفس ، كاسم الإنسان عينه ، ومهما كان مقدَّساً فيها كعقائد الدين .

وإنما اختار الأستاذ محو الاسم دون الدين لأمرين : أحدهما أن محو الدين عدوانٌ أثيم ، وإجرام شنيع ، لم تقبله نفسيَّة المحاضر ولا الحاضرين . ثانيهما : أن الاسم أثبتُ فى نفس صاحبه من دينه ؛ فمحوه منها أعجب ، ومنه تَعلم أن محو الدين منها أيسر ! .

وبهذه التجربة أيضاً ثبت لى أنا من طريق على ، ما قرَّب إلىَّ الوحىَ عمليًّا ، وما جعلنى أُعَلِّلهُ تعليلاً علميًّا : فالوحى « عن طريق الملك » عبارةٌ عن اتصال الملك

بالرسول اتصالاً يؤثرٌ به الأول فى الثانى ، ويتأثَّر فيه الثانى بالأول ، وذلك باستعداد خاص فى كليهما ، فالأول فيـه قوة الإلقاء والتأثير ، لأنه روحانى محض ، والثانى فيـه قابلية التلقى عن هذا الملك لصفاء روحانيته ، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك . وعند تسلُّط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية ، ويظهر أثر التغـير عليـه ، ويستغرق فى الأخذ والتلقى عن الملك ، وينطبع ما تلقّاه فى نفسه ، حتى إذا انجلى عنـه الوحى وعاد إلى حالته الأولى ، وجـد ماتلقّاه ماثلاً فى نفسه ، حاضراً فى قلبـه ، كأنما كتب فى صحيفة فؤاده كتاباً .

أتظن ـ أيها القارئ الـكريم ـ أن المخلوق يستطيع أن يؤثرٌ فى نفس مخلوق آخر ذلك التأثير بواسطة التنويم المغناطيسى ، ثم لا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر فى نفس من شاء من عباده بواسطة الوحى ؟ كلا ثم كلا « إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » .

« الدليل العلمى الثانى » أن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب مانعرفه ونشاهده وننتفع به ، مما يسمونه التليفون ، واللاسلـكى ، والميـكرفون ، والراديو . وعن طريق أولئك أمكن الإنسان أن يخاطب من كان فى آفاق بعيدة عنه وأن يفهمه ماشاء ويرشده إلى ماأراد . فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر ، عن أن يوحى إلى بعض عباده ماشاء ، عن طريق الملك أو غـير الملك ؟ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرا .

« الدليل الثالث » استطاع العلم أيضاً أن يملأ بعض اسطوانات من الجماد الجامد الجاهل ، بأصوات وأنغام ، وبقرآنٍ وأغانٍ وكلامٍ ، على وجـه يجعلها حاكيةً له بدقة وإتقان ، وبين أيدينا من ذلك شئ كثير لاسبيل إلى إنـكاره يسمونه (بالفونغراف) .

أبعدَ هذه المخترعات القائمة ، يُستبعد على القادر تعالى بوساطة ملك ومن غـير وساطة ملك ؛ أن يملأ بعض نفوس بشريَّة صافية من خواصٍّ عباده ، بكلام مقدس

يهدى به خلقه . ويُظهر به حقَّه ، على وجهٍ يجعل ذلك الـكلام منتقشاً فى قلب رسوله، حتى يحكمه بدقة وإتقان كذلك ؟

« الدليل الرابع » أننا نشاهد بعض الحيوانات الدُّنيا تأتى بعجائب الأنظمة والأعمال ، مما نُحيل معه أن يكون صادراً عن تفـكير لها ، أو غريزة ساذجة فيها ، ومما يجعلنا نوقن بأنها لم تصدر فى ذلك إلا عن إرادة عُليا ، توحى إليها وتلهمها تلك العجائب والغرائب ، من الصناعات والأعمال ، والدقّة والاحتيال .

وإذا صحَّ هذا فى عالم الحيوان، فهو أولى أن يصح فى عالم الإنسان ، حيث استعداده للاتصال بالأفق الأعلى يكون أقوى ، وأخذه عنه يكون أتمّ ، ومن ذلك ما يكون بطريق الوحى .

وإن شئت أمثلةً لتلك الحيوانات التى ضربناها لك مثلًا فى إلهاماته العلوية ، فدونك النمل والنحل ، وما تأتيان من ضروب الأعمال ، ودقَّة النظام . وهاك حيواناً غريباً أسموه « اكسيـكلوب » . وقال عنه الأستاذ « ميلن إدوار » المدرس بجامعة (السوربون) بفرنسا ما ترجمته : « إن الحيوانات المسماة « اكسيكلوب » تعيش منفردة ، وتموت بعد أن تبيض مباشرة ، وتخرج صغارها على حالة ديدان لا أرجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أيـــة عادية ، كما لا تستطيع الحصول على غذائها . ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة فى مسكن مقفل ، وفى هدوء تام، وإلا هلـكت .

فـــترى الأم متى حان وقت بيضها ، تعمِد إلى قطعة من الخشب ، فتحفر فيها سِرْداباً طويلاً ، فإذا أتمّته أخذت فى جلب ذخيرة إليه ، تـكفى صغيرا واحداً مـــدة سنة ، تلك الذخيرة هى طَلْع الأزهار وبعض الأوراق السُّـكَّرية ، فتحشو بها قاع السرداب ، ثم تضع عليه بيضة واحدة ، ثم تأتى بنُشارة الخشب ، وتـكوِّن منها عجينة تجعلها سقفاً على تلك البيضة ، ثم تأتى بذخيرة أخرى فتضعها فوق ذلك

السقف ، ثم تضع بيضة أخرى ، وهلمَّ جرًّا حتى يفرغ بيضها ، ثم تترك الكل وتموت » ! ! .

فمن ذا الذى علَّم هذه الحشرة الضعيفة الساذجة ، تلك الصناعة المحيِّرة للعقل ؟ ومَنْ أفهمها وهى تموت بعد أن تبيض مباشرةً أن صغارها التى ستولد ، فى حاجة إلى البقاء سنةً فى حالة ضعفٍ وعجز ؟ مَن الذى غرس فى قلبها هذه العناية بنوعها ، حتى كلَّفتها كلَّ هذه المشقة فى وضع بويضاتها ؟ ! .

لاريب أن قَيُّوم الوجود يؤتى الكائنات علماً بما يقيمها وبما يصلحها ، من غير طريق الحواسِّ التى لاتستطيع أن تكتسبه بها . ومن العبث وضلال الرأى أن يثبت الباحث الطبيعى إلهاماً تبعثه القدرة الإلهية إلى أحقر الحشرات ، ثم ينفيه عن النوع البشرى وهو أشدُّ ما يكون حاجة إلى هذا الوحى والإلهام فى حياته الفردية والاجتماعية .

« الدليل الخامس » العبقرية ، ويعرِّفها أفلاطون بأنها حالٌ إلٰهيةٌ مولدةٌ للإلهامات العلوية للبشر ، ويقرر الفلاسفة أنها حال علوية لا شأن للعقل فيها . ويقول الطبيعيون : إنها هبة من الطبيعة نفسها لا تحصِّلها دراسة ، ولا يوجدها تفكير .

وهاك أمثلةً للعبقرية والعباقرة ، تشعُّ على موضوع الوحى نوراً كشَّافاً يهدى الحيارَى الضالين ، إلى سواء السبيل .

١ ـ قال الأستاذ « ميرس » الانجليزى مدرس علم النفس بجامعة « كامبردج » فى كتاب كبيرٍ له أسماه « الشخصية الإنسانية » ما ترجمته : كان للمستر بيدلر خاصَّة تكاد تلتحق بالمعجزات ، فإنه كان يعيِّن على البديهة العوامل التى إذا ضرب بعضها فى بعض أنتجت عدداً من سبعة أو ثمانية أرقام . فإذا سئل مثلاً : ما هما العددان اللذان إذا ضرب أحدها فى الآخر نتج العدد (١٧٨٦١) أجابك على الفور بأنهما

(٥٣،٣٣٧) . وهو يقول : إنه لا يدرى على أية حال يأتى بهـذا الجواب ، فـكانت الإجابة عنده كأنها غريزة طبيعية .

(٢) ونقل عن الشاعر الـكبير (سوللى برودوم) الفرنسى أنه قال : « حدث لى فى بعض الأحايين أنى كنت أجد فجأةً برهان نظرية هندسية أُلقيت إلىّ منذُ سنة ، وذلك بدون أن ألتى إليها أقلّ التفات » .

(٣) وذكر المسيو (رينـه) الشاعر الفرنسى أنه ينام غالباً وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتمّ ، ثم يستيقظ فيجدها تامة .

(٤) وكذلك يقول الشاعر (موسيه) الفرنسى « أنا لا أعمل شيئاً ولـكن أسمع مايلقى إلىّ فأنقله ، فـكأن إنساناً مجهولاً يناجينى فى أذنى » .

وهذه الأمثلة التى سقناها تُثبت وجود اتصالات روحانية باطنة فى بعض الأفراد ، تُمِدُّ الإنسان بعلم وهداية من طريق غير معتاد ؛ وذلك يقرِّب الوحْىَ أيّما تقريب ؛ فى وقت اشتـدّ شكُّ الناس فيـه حتى كذّبوا بالإلهيات والنبوات ، وسخروا بالأديان والشرائع ، مع أنها أعظم عوامل التحوُّل الاجتماعى والفـكرى فى الإنسان ؛ وأكبر الأحداث التى غيَّرت العالم وحوّلت مجرى التاريخ، ومن العار الجارح لـكرامة البشر ، أن تـكون تلك العوامل والأحداث العظمى ، قامت على أوهام خاطئـــة ، أو على أكاذيب متعمدة ! .

« الدليل السادس » قرّر العلم الحديث أنه شوهد على بعض الناس أنهم يظهرون بمظاهر روحانية ، تعتبر من الخوارق التى لم يكن يحلم بحدوثها العلماء ، على حين أن هؤلاء الذين أتوا بتلك الظواهر الخارقة كانوا فى حالة ذهول ، وقـد استحال تعليـل ماأتوا تعليلاً ماديًّا يستند إلى الحس ، وقد اختبروا تلك الظواهر ، واستحضروا لشهودها أكبرَ مُشَعْوِذى الأرض ، فشهدوا بأنها ليست من الشعوذة فى شىء ؛ وإنما هى أحداثٌ روحانية ، لا أثر فيها للمهارة وخفة اليد .

تلك حقيقة من حقائق العلم الحديث الحاضر ، يقررون فيها أنه قد يفتح على بعض الناس فى حالة من حالات ذهولهم بانكشافات وظواهر روحية ، فكيف يستبعد بجانب هذا الكشف العلمى أن يفتح الله على بعض الممتازين من خلقه بانكشافات علمية عن طريق الوحى ، بينما هم من كملة العقول والأخلاق ؟ لقد أسفر الصبح لذى عينين !

جـ — الوحى من ناحية العقل

عرفت فيما سقناه لك من الأدلَّة العلمية أن الوحى ممكن وقريب من الوقوع ، ونقيم لك الدليل العقلى هنا على أن هذا الأمر الممكن قد وقع فعلاً : ذلك أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم محمد ﷺ ، وكل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حق ثابت ، وذلك هو المطلوب ، أما الدليل على أنه قد أخبر بوقوعه الصادق المعصوم ، فما مَرَّ عليك من أنباء الوحى فى الكتاب والسنة . وأما الدليل على أن كل ما أخبر بوقوعه الصادق المعصوم فهو حقٌّ ثابت ، فإن ذلك هو مقتضى الصدق والعصمة . وأما الدليل على أن محمداً ﷺ صادقٌ معصومٌ فإنما هى للمعجزة القائمة مقام قوله تعالى لعباده فى شأن تصديق رسوله : « صَدَقَ عبدِى فى كلِّ ما يُبَلِّغُ عنى ، ومن ذلك أنه يوحَى إليهِ منى » .

وهنا نجد أنفسنا قد انتهينا إلى المعجزة ، فما هى المعجزة ؟ .

المعجــــزة

هى أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله ، أو هى أمرٌ خارق للعادة ، خارجٌ عن حدود الأسباب المعروفة ، يخلقه الله تعالى على يد مدعى النبوة عند دعواه إياها شاهداً على صدقه . فإذا قام إنسانٌ ما ، وادعى أنه مبعوث الله إلى

خلقه ؛ ورسولُه إلى عباده ؛ وقال : إن آية صدق فيما أدعيه ؛ أن يغيِّر الله الذى أرسلنى عادةً من عاداته على يدى ، وأن يَخرج الآن عن سُنَّةٍ من سُننه العامــة فى وجوده ، ثم قال : وسيأتيكم الله بهذا الأمر العُجاب من باب ترون أنـكم فيه نابغون ، وعليه قادرون ، وإنى أتحدَّاكم زَرافاتٍ وَوُحْداناً أن تأتوا بمثل هذه الآية ، وأمامكم الباب مفتوحاً كما تعتقدون ، وفيـكم النبوغ موفور كما تدَّعون ، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدى . قال ذلك بلغة الواثق ؛ وتحدَّانا هذا التحدى الظاهر ، فى وقت يثور فيه على عقائدنا وعاداتنا وأخلاقنا ، ويسفِّه فيه أحلامنا وأحلام أمثالنا من آبائنا ، ونحن أحرص ما نـكون على تعجيزه وتبهيته والغلبة عليه والظفرِ به ، دفاعاً عن كرامتنا ، وانتصاراً لأعز شىء لدينا .

ثم لم يلبث أن قام وقمنا ؛ وأجمعَ أمره وأجمعْنا ، وإذا نحن جميعاً بعد مُحاولات ومُصاوَلات ؛ لم نستطع أن نأتى بمثل ما أتى به ، فضلًا عن أعظم منه . مع أننا أمة وهو فرد . ومع أنه قد دخل علينا من أيسر الطرق فى نظرنا ؛ ومن أشهر فنٍّ فى زماننا ، ومع أنه قد أعطانا الفرصة الـكافية لمناظرته ، وأنصفنا كلَّ إنصافٍ من نفسه !!

هل يشكُّ ذو مُسْـكة من عقل ، فى أن هذا الإنسان المتفوِّق الممتاز ، صادقٌ فى رسالته ، محقٌّ فى دعايته ؟ خصوصاً إذا عرفنا فوق ذلك كله ، أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق ، منْ لَدُنْ صباه وطفولته ، إلى يوم مبعثه ورسالته ! .

لو أنه جاء بالمعجزة من باب لا نعرفه ، لقلنا : رجل حَذَق فنا من الفنون التى لا علم لنا بها ، أو تعلَّم صناعةً من الصناعات التى لم نُحِطْ بخبرها . أما وقد جاءنا من الناحية التى نشهد لأنفسنا فيها بالفَوْق والسبق ، فلا يسعنا إلا الإذعان له ، والإيمان بما جاء به ، ما دمنا منصفين .

ولنضرب لك مثلًا : جاء موسى عليه السلام بمعجزته عَصاً من الخشب ، لا روح

فيها ولا حركة ، ولا لين ولا رطوبة ، ثم ألقاها باسم الذى أرسله ؛ فإذا هى حيَّة تسعى بينما الأمة التى تحدَّاها بذلك كانت قد تفوَّقت فى السحر وحذَقته ؛ وضربت فيه بأوفر سهم وأوفى نصيب ، خصوصاً أنهم أمة وهو فرد . وهم نابغون فى السحر وهو مع نشأته فيهم لم يُعرف يوماً من الأيام بمعالجة السحر . وهم معتزُّون بعَددهم وعُددهم وسلطانهم ، وهو خِلو من هذه الأسباب والمظاهر ! .

فهل يبقى للشك ظل بعد أن ألقى موسى عصاه فإذا هى تَلْقَفُ ما يأفكون ، ووقع الحق وبطل ما كانوا يَعْملون ، وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ! . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين

الحقُّ أَبْلَج . ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم ، لأنهم أعرف بالسحر ومقدماته ونتائجه، وقد رأوا رَأْى العين أن ذلك الإعجاز ليس من نوع هذا السحر المبنى على مقدمات يستطيع كل إنسان أن يزاولها ، ولها نتائج محدودة لا يمكن أن يتجاوزها نعم لم يطق السحرة صبراً عن المسارعة إلى الاعتراف والخضوع للحق بعد ما تبيَّن ، مهما كلَّفهم ذلك أن يُقتلوا أو يُصلبوا ؛ وقالوا لفرعون مليكهم ومعبودهم بالأمس « لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا . فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا » . اقرأ إن شئت الآيات بعدها فى سورة طه إلى قوله سبحانه : « وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى » .

قل مثل ذلك فى معجزة كل رسول أرسله الله : قله فى عيسى عليه السلام وإبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير بإذن الله ؛ أمام قوم نبغوا فى الطب أيَّما نبوغ ومهروا فيه أيَّما مهارة[1] ! .

(١) لا تَعبأ هنا بما يُعزَى إلى المسيو رينان من إنكاره نبوغ قوم عيسى فى الطب. فإنه ناف ، والمثْبِتُ مقدَّمٌ على النافى . وعلى فرض صحة هذا النفى فإن هذا لا يضرنا شيئاً لأن المعجزة يكفى فى تحققها عجز البشر عن مثلها . وليس تفوُّق المواجَهين بها شرطاً ، إنما هو أمرٌ زائدٌ غير مشروط .

وقل مثل ذلك وأكثر من ذلك فى خاتم الأنبياء سيدنا ومولانا محمد ﷺ وما جاء به من آيات بينات ، ومعجزات واضحات ! وحسبك القرآن وحده برهاناً ساطعاً بل براهين ساطعات : كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم فى فم الدنيا إلى يوم الساعة . تتحدّى العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة والبيان ، والعلوم والمعارف ، وأنباء الغيب وشواهد الحق .

أضف إلى ذلك أن الذين شوفهوا بخطابه عند مهبط الوحى كانوا أئمة الفصاحة ، وفُرسان البلاغة ، بضاعتهم الـكلام والتفنُّن فى إجادته . وصناعتهم التنافس فى النثر وديباجته ، والشعر ورونقه . وكرامتهم مرتبطة بما يُجيدون فى هذا الباب ، لا بما يجمعون من الذهب أو يحملون من ألقاب . حتى بلغوا فى هذا الميدان شأواً لا يُبارى ، وغايةً لا تُدرك . وما يـكون لنا أن نطلق العنان هنا للقلم . وإلا ضاق بنا التأليف والزمن . وأنت خبير بإعجاز القرآن ، وما كتب فى إعجاز القرآن . فاكتف بهذه الإشارة الخاطفة . وإن أردت المزيد فعليك بما كتب فى إعجاز القرآن .

د — دفع الشبهات

ولـكنى أعالج بين يديك لهذه المناسبة شبهاتٍ عشراً يردِّدها كثيرٌ من المفتونين :

« الشبهة الأولى » يقولون : إن المعجزات شأنها شأن كثير من المخترعات . فإذا كان فيها طرافة أو دهشة أو عجب ، فـكذلك آثار العلم ومدهشاته فيما نرى ونسمع .

والجواب : تعرفه مما ذكرناه آنفاً فى بحث المعجزة . مما يتبين به الفرقُ بعيداً والبونُ شاسعاً بين المعجزة وما جدَّ أو يجدُّ فى العالم من عجائب العلم ، وروائع الفن ، وبدائع الاختراع . فالمعجزة ليست لها أسباب معروفة حتى تُلتمس ويؤتى بمثلها . أما هذه المخترعات فإن لها أسباباً معروفة عند أصحابها ، ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها بيسر وسهولة متى التمسها من طريقها .

« الشبهة الثانية » يقولون : إن المعجزة كالسحر والشعوذة وما إليهما : إن هى إلا تخييلات وتضليلات .

والجواب : يتبيَّن لك مما قصصنا عليك فى المعجزة وفى ضرب المثل لها بعصى موسى. ويمكن تلخيصه بأن المعجزة نفحةٌ من نفحات الحق تخرج عن أفق الأسباب المعتادة ، والوسائل المشاهدة ، والغايات المألوفة . أما السحر وما أشبهه ، فإنها فنون خبيثة ، ذات قواعد وأوضاع يعرفها كل من ألَمَّ بها ، ويصل إلى وسائلها وغاياتها كلُّ من عالجها من بابها . ولهذا كان أول من آمن بموسى هم السحرة أنفسهم ، لأنهم أعلم بهذا الفرق الواضح ، والبون الشاسع ، كما تقدم .

« الشبهة الثالثة » يقولون : إن ما تسمونه معجزات من العلوم والمعارف التى اشتمل على مثلها القرآن ، ما هى إلا آثارٌ لمواهب بعض النابغين من الناس ، وهذه المواهب وآثارها وُجدت ويمكن أن توجد فى كل أمة .

والجواب : أن مواهب النابغين ، ونبوغ الموهوبين ، وما يكون منهم من آثار وأفكار كل ذلك له وسائل وعوامل ، ثم له أشباه معتادة ونظائر ، فى كل أمة وجيل ، وفى كل عصر ومصر ، أما المعجزات فلن تجد لها من وسائل ولا عوامل ، ولن تستطيع أن تصل إلى أشباه معتادة لها ونظائر ، اللهم إلا إذا خرجنا عن نطاق الكون المعروف ، وسَنَن الوجود المألوف .

« الشبهة الرابعة » يقولون : إن خرق الله لعاداته على أيدى رسله كما تقولون ، يعتبر خروجاً عن النظام العامِّ الذى تقتضيه الحكمة ، وتناط به المصلحة .

والجواب : أن المعجزة ـ وإن كانت خارجةً عن حدود الأنظمة المعتادة لا تُعتبر خروجاً على النظام العامِّ الذى تقضى به الحكمة ، وتُناط به المصلحة ، بل هى من مقتضَيات ذلك النظام العامِّ الذى تمليه الحكمة ، وتوحيه المصلحة . وأىُّ حكمة أجلُّ من تأييد الحقِّ وأهل الحق ؟ وأى مصلحةٍ أعظم من اهتداء الخلق إلى طريق سعادتهم؟ بوساطة تلك المعجزات التى يفهمون منها مراد الخالق من تأييد رسله ، ووجوب تصديقهم لهم ، واتباعهم إياهم .

« الشبهة الخامسة » يقولون : لو كان الوحى ممكناً لأوحى الله إلى أفراد البشر عامة ، ولم يخصَّ بهِ شِرذِمَةً قليلين يجعلهم واسطة بينه وبين خلقه .

والجواب : أن عامَّة البشر ليس لديهم استعدادٌ لتلقى الوحى عن الله ، لا مباشرةً ولا بواسطة الملك ، حتى لو جاءهم ملك لم يستطيعوا رؤيته إلا إذا ظهر فى صورة إنسان، وحينئذ يعود اللَّبس ويبقى الإشكال . فقضت الحكمة أن يجعل الله من بنى الإنسان طائفةً ممتازةً لها استعدادٌ خاص يؤهلها لأن تتلقّى عن الله الوحى ، ثم تؤديه فى أمانة إلى العامّة من إخوانهم فى الإنسانية ، بعد أن وضع الله فى أيديهم شواهد الحق الناطقة التى تدلّ العالم على مراده سبحانه من تصديقهم ، وبعد أن سلّحهم بالآيات التى تطمئن الناس على أنهم رسلٌ لإنقاذهم وإرشادهم من عند ربهم . ثم إن اختصاص بعض أفراد النوع الإنسانى بالوحى والنبوة ، فيه نوع من الاختبار والابتلاء ، الذى بنى الله عليه هذه الحياة وميز به الخبيث من الطيب . « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » .

وتلك الشبهة يقول الله فى مثلها من سورة الأنعام : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ . وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ » .

« الشبهة السادسة » يقولون : كيف تدلُّ المعجزة على تصديق الله لرسله ، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه .

والجواب : أن دلالة المعجزة على تصديق الرسول ، كدلالة الكون على خالقه مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه . ولنضرب لهم المثال ، كيلا تبقى لهم شبهة ولا يقوم لهم عذر : افرض أنك حضرت مجلساً عامًّا فيه ملك من الملوك ، وكان من تقاليد هذا الملك ألا يكشف رأسه فى مجلس من المجالس العامة ، وبينما القوم جلوس فى حضرة صاحب الجلالة إذ نهض رجل من الحاضرين معروف للجميع بصدقه وأمانته ، وأدبه واستقامته ، وحسبه ونسبه . وإذا هذا الرجل يقول على مرأى ومسمع من المليك ورعيته : أيها القوم إن مولاى الملك حمّلنى هذه الرسالة أبلغكم إياها ، وهى أن تفعلوا

كذا ، وتتركوا كذا ، ثم سكت الملك ولم يكذبه ، ثم لم يكتف الرجل بطهارة ماضيه ، وسكوت مليكه فى ترويج دعوته ، وتأييد رسالته . بل قال إن آية صدقى أن يُغيِّر مولاى الملك عادته الآن ، ويخرج عن تقليدٍ من تقاليده المعروفة لكم جميعا ، وذلك بأن يُعَرِّىَ رأسه فى هذا المجلس العام . ثم ما كاد ينتهى حتى عَرَّى المليكُ رأسه وخلع تاجه . أفلا يعتبر ذلك دليلا كافياً على صدق هذا الرجل وصدق ما جاء به ؟ ثم ما بالك إذا هو قد عزَّز دليله بالتحدِّى فقال : إنى أتحدَّاكم أن يجيبكم الملك إلى مثل ما أجابنى إليه . فأخذوا يطلبون ويُلِحُّون ، فلم يستجب لهم الملك ، ولم يغير عادته معهم ولا مرة واحدة . أفلا يكون ذلك برهاناً أبلج من الصبح على أن هذا الداعى هو رسول هذا الملك حقًّا ؟ ثم ألا يكون المكذب بعد ذلك معانداً ومكابراً ، ويكون بالحيوان الذى لا يفهم ولا يعقل ؛ أشبهَ منه بالإنسان الذى يفهم ويعقل ؟ « أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ؛ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

وذلك المثل هو مثل رُسُل الله ، تؤيدهم معجزات الله . « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

« الشبهة السابعة » يقولون : إن هذا الوحى الذى تدَّعونه وتدَّعون تنجيمه ، جاء بهذا القرآن غير مرتَّب ولا منظم ، فلم يُفرِد كلَّ غرض من أغراضه بفصل أو باب ، شأن سائر الكتب المنظمة . بل مُزجت أغراضُه مزجاً غير مُراعًى فيه نظام التأليف ، فيبعد أن يكون وحياً من الله . وهذه الشبهة واردة كما ترى على تنجيم القرآن وترتيبه أيضاً .

والجواب : أن مخالفة القرآن لأنظمة الكتب المؤلفة لا تعتبر عيباً فيه ، ولا فى وحيه وموحيه ، بل هى ـ على العكس ـ دليلٌ ماديٌّ ، على أنه ليس بكتاب وضعى بشرى ؛ يجلس إليه واضعه من الناس ؛ فيجعل لكل طائفة من معلوماته المتناسبة فصلا ، ولكل مجموعة من فصوله المتناسقة باباً ؛ بل هو مجموع إشراقات من الوحى الإلهى الأعلى اقتضتها الحكمة ودعت إليها المصلحة . على ما هو مفصَّل فى أسرار تنجيم القرآن .

ثم إن هذا المزيج الطريف الذى نجده فى كل سورة أو طائفة منه، له أثر بالغ فى التذاذ قارئه، وتشويق سامعه، وإستفادة المستفيد بأنواع متنوعة منه، فى كل جلسة من جلساته أو درس من درسه وهذا هو الأسلوب الحكيم فى التعليم والإرشاد، خصوصاً لتلك الأمة الأمّية التى نزل عليها. فما أشبه كلّ مجموعة من القرآن بروضة يانعة يَتَنَقّلُ الإنسان بين أفيائها متمتعا بكل الثمرات، أو بمائدة حافلة بشتى الأطعمة يُشبع الجائعُ حاجتَه بما فيها من جميع الألوان.

وهنا دقيقة أحب ألّا تَعْزُبَ عن علمك. وهى أن هـذا الروْضَ الربانىّ اليانع (القرآن الكريم) يقوم بين جُمَله وآيِهِ وسُوَرِه تناسبٌ بارع، وارتباطٌ محكم، وائتلافٌ بديع، ينتهى إلى حدِّ الإعجاز، خصوصاً إذا لاحظنا نزوله مُنَجَّماً على السنين والشهور والأيام.

قال الشيخ ولىُّ الدين الملّوى: « قد وَهِمَ مَنْ قال: لا يُطلب للآى الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرّقة. وفَصْلُ الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً. فالمصحف على وَفْق مافى اللوح المحفوظ مرتَّبةً سوَرُه، كلها وآياته بالتوقيف كما أُنزل جملةً إلى بيت العزّة. ومن المعجز البيِّن أسلوبُه ونظمه الباهر، والذى ينبغى فى كل آية أن يُبحث أولَ كل شىء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلّةً، ثم المستقلَّة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففى ذلك علمٌ جمٌّ. وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له ».

وقال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره لسورة البقرة ما نصُّه:

« ومن تأمّل فى لطائف نظم هذه السورة وفى بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو معجز أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته. ولعلّ الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلّا أنى رأيت جمهور

المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار وليس الأمر فى هـــذا الباب إلا كما قليل :

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ رُؤْيَتَهُ   وَالذنْبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصِّغَرِ

« الشبهة الثامنة » يقولون : إن محمداً كان عصبيًّا حادَّ المزاج ، وكان مريضاً بمـا يسمونه (الهستريا) فالوحى الذى كان يزعمه ماهو إلا أعراض لتلك الحال التى أصيب بهـــــا .

والجواب : أن هذه فِرْيَةٌ تدلُّ على جهلهم الفاضح بمحمد ﷺ . فالمعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح ، والأدلَّة القاطعة ، أنه كان صلى الله عليه وسلم وديعاً ، صبوراً حليماً ، بل كان عظيم الصبر ، وواسع الحلم ، فسيح الصـدر ، حتى إنه وسع الناس جميعاً ببسْطه وخُلُقِه.وكان شجاعاً مِقداماً سليم الجسم، صحيح البدن ، حتى إنه صارع رُكانةَ المشهور بشجاعته فصرعه ، وكان يثبت فى الميدان حين يفرُّ الشجعان ، ويفزع الخلق ويشتدُّ الأمر ، ويقول : « أنَا النبيُّ لَا كَذِبْ ، أنا ابنُ عبـدِ المطلب » ويقول : « إلىَّ عبادَ اللهِ » ولا يزال كذلك حتى يُنقذ الموقف ويكسب المعركة . ولو أفضنا فى هذا الموضوع لطال بنا الـكلام ، ولـكن موضوعه كتب السيرة والشمائل المحمـدية فارجع إليها إن شئت . . أما مرض (الهستريا) الذى يَصِمُونَهُ ﷺ كذباً به فهو داء عصبيٌّ عُضال ، أكثر إصاباته فى النسـاء . ومن أعراضه شذوذٌ فى الخلُق ، وضيقٌ فى التنفس ، واضطرابٌ فى الهضم . وقد يصل بصاحبه إلى شلل موضعى ، ثم إلى تشنُّج ، ثم إلى إغماء ، ثم إلى هَذَيان مصحوب بحركة واضطراب فى اليدين والرجلين ، وقَفْز من مكان إلى مكان . وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحاً تهدِّده ، وأعداء تحاربه أو أنه يسمع أصواتاً تخاطبه ، على حين أنه لاوجود لشىء من ذلك كله فى الحسّ والواقع .

فهل يتّفق ذلك وما هو معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه كان أمّة وحده في أخلاقه، وثباته، وحلمه، وعقله، ورباطة جأشه، وسلامة جسمه، وقوة بنائه؟

ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذى أعيا الأطباء، وما انتدب له محمد ﷺ من تكوين أمة شموس أبيّة، وتربيتها على أسمى نواميس الهداية، ودساتير الاجتماع، وقوانين الأخلاق، وقواعد النهضة والرقى؟!

أضف إلى ذلك أنه نجح فى هذه المحاولة المعجزة إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان، هى أمة الأمم، وصاحبة العلم، وربّة السيف والقلم!!

فهل المريض المتهوّس الذى لا يصلح لقيادة نفسه يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش؟!

قَدْ تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشمسِ من رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَمُ طعمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ

« الشبهة التاسعة » يقولون: إنكم تستدلون على الوحى بإعجاز القرآن وتستدلون على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار البلاغة، ونحن لا ندرك تلك الأسرار ولا نسلّمها، فلا نسلم الوحى المبنى عليها.

والجواب: أن للقرآن نواحيَ أخرى فى الإعجاز غير ما يحويه من أسرار البلاغة والبيان، ومن السهل معرفتها على من لم يتمهّر فى علوم العربية واللسان. منها ما يحويه هذا التنزيل من المعارف السامية والتعاليم العالية، فى العقائد والعبادات، وفى التشريعات المدنية والجنائية، والحربية والمالية، والحقوق الشخصية، والاجتماعية والدولية. وإن مقارنة بسيطة بين تلك الهدايات القرآنية وبين ما يوجد على وجه الأرض من سائر التشريعات الدينية وغير الدينية، توضّح لك ذلك الإعجاز الباهر، خصوصا إذا لاحظت أن هذا الذى جاء بتلك المعارف الخارقة كان رجلا أميًا، نشأ وعاش، وشبّ وشاب، وحَىّ ومات، بين أمة أمية، كانت لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان!.

كذلك أنباء الغيب التى تحدّث بها القرآن ـ وهى كثيرة ـ يمكن إدراك وجه الإعجاز فيها بيسر وسهولة لكل منصف . اقرأ إن شئت فاتحة سورة الروم ، لتعرف كيف أخبر القرآن صراحةً بأمرٍ كان لايزال مستتراً فى ضمائر الغيب ، بل كانت العوامل والظواهر لاتساعد عليه ، ذلك أنه أخبر فى وقت انتصر فيه الفرس على الروم فى أدنى الأرض ، بأن الروم سُيدال لهم على الفرس وينصرون فى بضع سنين ؛ وكان كما قال .

ثم اقرأ قوله سبحانه مخاطباً لنبيه فى موقف من مواقف الخصومة والمحاجّة بينه وبين أعدائه اليهود : « قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِنْدَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » وهذا من أبرز شواهد الإعجاز والتحدّى : إذ كيف يَتَسَنَّى لرجل عظيم فى موقفٍ من المواقف الفاصلة بينه وبين أعدائه ، أن يجرؤ على تحدّيهم بشىء هو من شأنهم وحدهم ، وكان فى استطاعتهم عادةً ، بل فى استطاعة أقلّ واحدٍ منهم ، أن يقول ولو ظاهراً : « إنى أتمنى الموت » ليظفروا بذلك التمنى على محمد ﷺ ، ويبطلوا به دعوته ، ويستريحوا منه على زعمهم . ولكن كل ذلك لم يكن ، فما تمنى أحد منهم الموت ، بل صرفوا وما زالوا مصروفين عنه أبداً ، ثم سجّل القرآن عليهم ما هو أبعد من ذلك ، إذ قال عقيب تلك الآية : « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ، وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » اهـ من سورة البقرة .

أليست تلك أدلةً ماديةً قامت ولا تزال قائمةً ، على أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه كان مؤيداً بالوحى من ربه ، وأنه إنما يتلقى القرآن من لَدُنْ حكيم عليم ؟ .

أما إعجاز القرآن من ناحية الأسرار البلاغية فلا يقدح فيه أن جمهرة الناس اليوم لايدركونها ولا يتذوّقونها ، فإن ذلك لايرجع إلى خُلُوٍّ القرآن من أسرار البلاغة والبيان، إنما يرجع إلى جهل الناس باللغة العربية وأساليبها، وإلى فساد ذوقهم من غلبة العجمة عليهم ، ومعروفٌ أن عدم الإدراك لشىء ، لاينهض دليلاً على عدم ذلك الشىء . ونظير ذلك أن عدم علمنا بلغة من اللغات الأجنبية مثلا ، لايلزم منه أن ننكر أن فلاناً متفوقٌ فى تلك اللغة بشهادة الإخصائيين فيها والحاذقين لها ، بل نحن نؤمن بوجود لغاتٍ لانعرف منها شيئاً ، كما نؤمن بوجود نابغين فيها لانعرفهم ولا نعرف من وجوه نبوغهم شيئاً ، اللهم إلا عن طريق سماعنا لذلك من مصادر نثق بها .

كذلكم القرآن الكريم ، قد شهد الفنيُّون والإخصائيون من حُذّاق اللغة العربية، فى أزهى عصور التوفر عليها والتمهُّر فيها ، أنه كتاب فاق الكتب ، وكلام بزّ سائر ضروب الكلام ، وبلغ فى سموه وتفوقه حدود الإعجاز والإفحام ، من ناحية الفصاحة والبلاغة وما يحمل لها من أسرار ! . ثم نقل إلينا ذلك كله نقلاً متواتراً قاطعاً لا ظلَّ فيه للشك والنكران .

فلماذا لا نقبل هذا الحكم العادل ، ومصادره كثيرة محترمة كل الاحترام ؟!

أليس ذلك تعصباً وعنادا ، على حين أن الباب كان ولا يزال مفتوحاً أمام كل مَن يحذق علوم اللغة العربية وأساليبها ، أن يتذوّق أسرار البلاغة والإعجاز فى هذا القرآن ، وأن يحكم هو نفسه بما حكم به الآلاف المؤلفة فى كل زمان ومكان !

وإذا لم ترَ الهلالَ فسلِّمْ ... لأُناسٍ رَأَوْهُ بالأبصارِ

على أن لإعجاز القرآن ميداناً آخر فاطلبه إن شئت . « وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ » .

(الشبهة العاشرة) يقولون : إن إعجاز القرآن للعرب لايدلُّ على أن القرآن كلام الله . بل هو كلام محمد نسبه إلى ربه ليَستَمِدّ قدسيَّته من هذه النسبة . وإعجازه جاء من

من ناحية أن محمداً كان الفرد الكامل فى بيانه بين قومه ، لذلك جاء قرآنه الفرد الكامل أيضاً بين ماجاء به قومه ، ولم يستطيعوا لهذا الاعتبار وحده أن يأتوا بمثله ، شأن الرجل الفذ بين أقرانه فى كل عصر .

ونجيب على هذه الشبهة بأجوبة خمسة :

(أولها) أن كل مَن أُوتى حظًّا من حِسٍّ البيان وذَوْق البلاغة، يفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوىٍّ فرقاً كبيراً يمثل الفرق الكبير بين مقـــدور الخالق ومقدور المخلوق . وها هما القرآن والحديث النبوىُّ ، لايزالان قائمين بيننا ، ينادياں الناس بهذا الفارق البعيد ، إن كان لهم إحساسٌ فى البيان وذوق فى الكلام .

ولو كان لهذه الشبهة شىءٌ من الوجاهة ، لكان أولى الناس أن يرفعوا عقيرتهم بها هم أولئك العرب الخُلَّص الذين شافَهَهم القرآن ؛ لأنهم كانوا أحرصَ على تعجيز محمد وإسْكاته للاعتبارات التاريخية المعروفة . لكنهم ماقالوا هذا . بل كانوا أكرمَ على أنفسهم من أن يقولوه ، إيقاناً منهم بظهور المميِّزات الفائقة بكلام الربوبيـة عن كلام النبوّة ، بحيث لا يلتبس أحدهما بالآخر فى شىء . وهكذا « مَنْ ذَاقَ عرَفَ وَمَنْ حُرِمَ انحَرَفَ » .

وكَمْ مِنْ عائبٍ قولًا صحيحاً   وآفَتُهُ مِنَ الفهمِ السَّقِيمِ

(الجواب الثانى) أن القرآن لم يأت الناسَ من الخَلْف ، بـــل جاءهم من أوسع الأبواب ، ودخل عليهم من طريق العرب الخلصاء ذوى اللَّسَن والبيان . وتحدّاهم من الناحية التى نبغوا فيها وهى صناعة الكلام ، تلك الصناعة البيانيَّة الفائقة التى وقفُوا عليها مواهبهم وأنفقوا فيها حياتهم، حتى صارت موضعَ تنافسهم وسبْقِهم ، وموضوعَ فخرهم وفَوْقِهم . شأنَ سائر معجزات الله تعـــالى : لم تَأْتِ الناسَ إلا من

الناحيةالمفهومة لهم كلَّ الفهم، وذلك ليظهرَ أمرُ الله واضحاً جليًا، لا لَبْسَ فيه ولا غموض، ولا شبهة ولا شكوك «لِئَلاَّ يكونَ للناسِ على اللهِ حجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ، وكانَ اللهُ عزيزاً حَكيماً».

ومن هنا نعلم، والتاريخ يشهد، أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد ـ كما يقول أولئكَ الملاحدة ـ لأمكن هؤلاء العرب البارزين فى البيان أن يعرفوا أنه كلامُه، بما أوتوا من ملكة النقد، وما وُهبوا من نباهة الحسِّ والذوْق، ثم لأمكنهم أن يُجاروه ولو شَوْطاً قريباً إن لم يمكنهم مجاراتهُ شوطاً بعيداً. لاسيَّما أن القرآن قد اكتفى منهم فى مَعْرِض التحدِّى بأن يأتوا بسورةٍ من مثل أقصر سُورَةٍ، أى بمثل ثلاث آياتٍ قصارٍ من بين تلك الآلاف المؤلَّفة التى اشتمل عليها الكتاب العزيز. وأنت خبير بأن هؤلاء لم تكن لِتُعْيِيَهُمْ تلك المساجلة وهم فرسان ذلك الميدان، وأئمة الفصاحة والبيان، لو كان الأمر من صناعة محمد ﷺ وإنشائه. كما يزعم أولئك الخرَّاصون. فما بالك وقد خَرِسَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، وخَشَعَتْ أصواتُ الأجيال كلها من بعدهم.

ومعلومٌ أن النابغة الفذَّ فى أىِّ عصر من العصور، يستطيع أقرانُه بُيسرٍ وسهولة، أن يُحاكوه مجتمعين ومنفردين فى الشيء القليل، على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته فى الجميع أو الشيء الكثير.

(الجواب الثالث) أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد، لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه. ولأمكن أن يدَّعىَ به الألوهية فضلاً عن النبوَّة. ولكان مقدَّساً فى نظر الناس وهو إله، أكثر من قداسته فى نظرهم وهو نبىٌّ. ولما كان فى حاجة إذاً إلى أن يلتمس هذه القدسيَّة الكاذبة بنسبته القرآن إلى غيره «فَمَا لِهَؤُلاَءِ القَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً» ؟؟!

(الجواب الرابع) أن هؤلاء الملاحدة غاب عنهم أنهم يتحدثون عن أكرم شخصية عرفها التاريخ طُهراً وَنُبلاً ، وذهلوا عن أنهم يمسون أسمى مقام، اشتهر أمانة وصدقاً . فكان ﷺ إذا مرَّ بقومه يشيرون إليه بالبنان ويقولون : هـذا هو الصادق الأمين . ثم صدروا عن رأيه، ورضوا بحكمه. والعقل المنصف قال ولا يزال يقول: ما كان هذا الأمينُ الصدوقُ لِيَذَر الكذبَ على الناس ثم يكذبَ على الله « وَلَـكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

(الجواب الخامس) أن هذه الشبهة وليدة الغفلة عن مضامين القرآن العلمية ، وأنبائه الغيبية ، وهداياته الخارجة عن أفق العادة فى كافة النواحى البشرية ، فردية كانت أو اجتماعية . لاسيما أن الآتى بهذا القرآن رجل أمىٌّ فى أمة أمية كانت فى أظلم عهود الجاهلية . أضف إلى ذلك ما سجَّل القرآن على النبى ﷺ من أخطاء فى بعض اجتهاداته ، ومن عتاب نحسُّ تارةً بلطفه ، وأخرى بعُنْفه . ولو كان هـذا التنزيل كلامه ما سمح أن يسجِّل على نفسه ذلك كله . ولـكن الملاحدة سَفِهُوا أنفسهم؛ وزعموا رَغْمَ هذه البراهين اللائحة أن محمداً افترى القرآن على ربه . كذبوا وضلُّوا . « مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى : وَلَـكِنْ تَصْدِيقَ الّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

(ذَيل لهذه الشبهة) ويتَّصل بهذه الشُّبهة شبهةٌ أخرى قـد تعرض لبعض المأفونين . وهى أن هذا البُعْد الشاسع بين القرآن والحديث لم يجئْ من ناحية أنَّ القرآن كلام الله والحديث كلام محمد . إنما جاء من ناحية أن محمداً كان له ضربان من الكلام : أحدهما يحتفل به كلَّ احتفال ، ويُعْنَى مـزيدَ العناية بتهذيبه وتنميقه وتحضيره ، وذلك هو ما سماه بالقرآن ونسبه إلى الله . وثانيهما يُرْسِلُهُ إرسالًا غير مَعْنِىٍّ بتحبيره وتحريره ، وهو المسمَّى بالحديث النبوى . ثم يقولون لترويج شبهتهم هذه :

إن ذلك ليس بِدْعاً فيما نرى من آثار الأدباء والبلغاء ، بل نحن نلحظ أن الأديب الواحد يعلو كلامه الصادر عن تأمل وعناية وروية ، عُلُوّاً كبيراً عن كلامه المرسل على البديهة ، حتى كأنهما لكاتبين اثنين ، بينهما بُعْدُ ما بين المشرقين .

(والجواب الأول) أن هذه الشبهة الجديدة مبنيةٌ على قياسٍ فاسد ، وهو تشبيه أُدباء ذلك العصر الزاهر الذى نزل فيه القرآن وسلمت فيه السليقة العربية ، بأُدباء هذا العصر المولَّدين الذين فسدت لغتهم ، وَتبَلْبَلَتْ أَلسنتهم . وشتّان ما بين الطبقتين ، ويابعدَ ما بين العصرين ! ! .

« أَيُّهَا ٱلْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا عَمْـرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إِذَا ما اسْتَقَلَّ يَمَانِ »

فالتفاوُت البعيدُ بين الكلام المرسَل والكلام المحبَّر ، لم يظهر إلا منذُ فسد اللِّسان العربى ، وتطرَّقت العجمة إلى المولَّدين من العرب وأشباههم . أما أُولئك العرب الخلَّص الذين كانوا يتكلمون العربيَّة بالسليقة ، فلم يك منهج أحدهم البيانىُّ مختلفاً هذا الاختلاف الكبير ، تبعاً للإرسال والتحبير . بل العربىُّ القُحُّ نَهْجُه فى الكلام نهجٌ واحد ، هو نهج السليقة الصافية والطبيعة السليمة . ولم يكن التحبير ليذهب به مذهب الذبذبة التى تجعل له أسلوبين متباينين فى كلامه ، بل قصاراه فى تحبيره أن يُحيط بأطراف موضوعه دون أن يَنِدَّ عنه مقصدٌ من مقاصده ، ودون أن يخرج عن أسلوبه الذى يَنْبُعُ من نفسه وتفيض به سَجِيّتهُ العَرْباء ، ذلك الأسلوب الذى يُتْعِبُ أهلُ الفنِّ منا أنفسهم فى محاكاته وهيهات أن يبلُغوا إلّا بعد طول عناء .

على أن مُعاناةَ ذلك العربى القُح إذا عانى التنميق والتزويق ، لم تكن لتزيد كلامه روعةً وحسناً بل كانت تنزل به بمقدار ما يظن أحدنا أنها تصعد فيه . ولهذا كان العرب يَعافون من الكلام ماظهرت فيه آثار الصنعة والتكلُّف ويعدون ذلك من التفاصُح النازل إلى مَهْواة العِيِّ والتنطع ، كما كانوا مأخوذين بالجيِّد السَّلِس ، وبالسهل الممتنع

ولقد كان النبي ﷺ أبعدَ العرب عن هذا التعمُّل والتصنُّع والتحبير ، حتى لقد نهى عن ذلك وناط به الهلاك والخسران . تدبَّر ما يرويه مسلمٌ وأبو داود من أن النبي ﷺ قال : « هَلَكَ المتنطِّعُون » والتنطُّع فى الكلام : التعمُّق فيه والتفاصُح . وروى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم جاءه رجل من هذيل يخاصمُ فى دية الجنين ، فقال : يارسولَ الله كيفَ أُغرَمُ دِية مَن لَاشرِب وَلا أَكلَ . ولا نَطَق ولا استهلَّ. فمثلُ ذَلكَ يُطل . فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا هَذا مِنْ إِخوانِ الكُهَّان مِن أَجْلِ سَجْعِه آلذى سَجَع » . وفى رواية أنه قال: «أَسَجْعٌ كَسَجْعِ الأَعراب » . وفى رواية أخرى أنه قال : « أَسَجْع الجاهلية وكهانتها » . فأنت ترى أنه صلى الله عليه وسلم ذَمَّ هذا السجعَ المصنوع ،وجعل صاحبه من إخوان الكُهَّان ومن جَهَلة الجاهلية. وماينبغى له صلى الله عليه وسلم أن يذُمَّ شيئاً ثم يقع فيه ! . وحاشاه وحاشا بيانه الشريف ، من هذا الإسفاف والتعمل الخسيس . ودونك السُّنة النبوية فاقرأ منها ماشئت ، فلن تجد إلا جيِّداً مطبوعاً ، ومعاذ الله أن تجد فيها متكلفاً مصنوعاً . والقرآن أعلى فى هذا الباب وأجلُّ . « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » .

(الجواب الثانى) أن هذه الشبهة تخالف فى أساسها ماهو واقعٌ معروف : ذلك أن القرآن الكريم منه مانزل مُفاجأةً على غير انتظار وتفكير ، وبدون تلبُّث وتدبير ، وهو أكثره. ومنه مانزل بعد تشوُّفٍ واستشراف وطول انتظار، وهو أقلُّه. ومع هذا فأسلوبه الأعلى هو أسلوبه الأعلى ؛ ونظمه المعجز هو نظمه المعجز ؛ فى الحالين على سواء .

تأمَّل ماجاء فى سبب نزول قوله سبحانه : « وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ آللهُ » وهو أن اليهود قالت لقريش: سَلُوا محمداً عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فسألوه ، فقال : « ائتونى غداً أخبركم » ولم يستثنِ ،فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه، ثم نزلت الآيات جواباً لتلك الأسئلة، بعد تلك المدة الطويلة

التى قدّرها بعضهم بأربعين يوماً ، وأنت إذا قرأتها لن تجد فرقاً بين أسلوبها وأسلوب كثرة القرآن الغامرة التى نزلت مُبَاغِتةً مُفاجِئة .

وهذا الذى يقال فى القرآن ؛ يقال مثله فى الحـــديث النبوى . فمنه ما كان وليد التفكير والتدبير والمشاورة والمداولة ، كحديثه ﷺ فى شئون الحرب والصلح ، ومنه ما كان وَحْيَ الساعة وإرسالَ البديهة ، كحديثه الكثير فيما هو ظاهر من أمور الدين . ومنه ما كان وحْيَ الله إليه يهبط به الأمين جبريل ، كحديث المُعْتَمِرِ المُتَضَمِّخ بالطيب ، وقد جاء النبى صلى الله عليه وسلم يسأله عن طيبه فى عمرته هذه . فسكت النبيُّ صلى الله عليه وسلم ساعةً حتى جاءهُ الوحى ، ولمَّا سُرِّيَ عنه قال : أَيْنَ السَّائِلُ عن العُمْرَةِ فجيء به ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أمَّا الطِّيبُ الذى بكَ فَاغسِلْهُ ثلاثَ مراتٍ . وأمَّا الجُبَّةُ فانْزِعْهَا واصْنَعْ فى عُمْرَتِكَ ما تَصْنَعُ فِى حَجِّكَ » رواه الشيخان .

نعرف هذه الظروف المختلفة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنها مع اختلافها لم يختلف فيها الأسلوب النبوى ، بل هو طرازٌ واحدٌ من أرقى الأساليب البشرية إن لم يكنْ أرقاها ، وقلَّما تلحظ فيه تفاوتاً كثيراً . لافرق فى ذلك بين ما أرسله على البديهة ، وما أجال فيه الرأى والاستشارة ، وما نزل به وَحْيُ السُّنةِ ، وما احتفل به احتفالا ممتازاً ، بالمواقف المشهودة ، والمجامع المحشودة .

إذنْ هما نمطان مُتمايزان لايشتبهان : نَمط القرآن كله ونمطَ الحديث كله لـكلٍّ منهما مَسْحَةٌ وبيانٌ ودرجةٌ فى الفوْق والسبْق ، بينها وبين الأخرى بُعْد مابين شأنى الخالق والخلق ، وفرْقُ ما بين مَـكَانَتِي السيِّد والعبد ، فالقرآن يمتاز بمسْحة بلاغية خاصَّة ، وطابَع بيانىّ فريد ، لا يترك باباً لأن يلتبس بغيره أو يشتبه بسواه ، ولا يُعطى الفرصة لأحدٍ أن يعارضه أو يحـوم حوْل حِماه ، بل مَنْ خاصَمه خُصِم ، ومن عارضه قُصِم ، ومن حاربه هُزِم . أما الحديث الشريف فهو وإن حلَّق فى جوِّ الفصاحة ، وسما فى جملته

عن أساليب العرب ، فإنَّه لايزال فى أرض العبودية لم يصل إلى سماء الإعجاز ، وتُشبه أساليب بعض خواصٍ أصحابه ، وبينه وبين حِكَم العرب المأثورة قرابةٌ ماسَّةٌ وَشَبَهٌ قريب ـ بخلاف القرآن فإنه ليس كمثله بيان ، لأنه كلام من ليس كمثله شيء . « وكلامُ الملوكِ ملوكُ الكلام » .

خاتمـــة البحث

نحسب أننا أفضنا فى هذا البحث ، ولكننا نعتقد أن هذه الإفاضة واجبٌ لا بد منه ، ما دمنا بصَدَد تسليح طلَّابنا متخصِّصى الدعوة والإرشاد ، وهم على أُهْبة النزول إلى ميادين الوعظ العامة ، وفيها المؤمن والجاحد ، والمتديِّن والملحد ، والإلهيون والطبيعيون ، وفيها ضحايا الطوائف المعادية للإسلام ، وصَرْعَى المـــذاهب المتطرفة فى العالم .

ونلفت نظرك إلى أن بعض ما ذكرناه فى أدلة الوحى العلمية ، قد اعتمدنا فيه على أدلة جدلية يؤمن بها المنكرون أكثر مما يؤمنون بآيات الله .

وإن أردتَ التوسُّع فى هذا فارجع إلى ما كتبه العلامة « محمد فريد وجدى » فى المجلد العاشر من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٨ هـ ، وما كتبناه من قبلُ فى المجلد الخامس من مجلة الهدية الإسلامية سنة ١٣٥١ هـ ، وما كتبه العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز فى كتابه : « النبأ العظيم » . وبالله تعالى التوفيق .

المبحث الرابع

فى أول ما نزل ، وآخر ما نزل من القرآن

مدار هذا المبحث على النقل والتوقيف . ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة ، أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض منها .

ومن فوائد الإلمام بأول ما نزل وآخره، تمييزُ الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات على موضوع واحد ، وكان الحكم فى إحدى هذه الآيات يغاير الحكم فى الأخرى ومن فوائده أيضاً معرفة تاريخ التشريع الإسلامى ، ومراقبة سيره التدريجى ، والوصول من وراء ذلك إلى حكمة الإسلام وسياسته فى أَخْذه الناس بالهوادة والرفق، والبعد بهم عن غوائل الطفْرَة والعُنف ، سواء فى ذلك هدم ما مَرَدُوا عليه من باطل، وبناء مالم يحيطوا بعلمه من حق .

يضاف إلى هاتين الفائدتين فائدة ثالثة : هى إظهار مَدَى العناية التى أُحيط بها القرآن الكريم ، حتى عُرف فيه أول ما نزل وآخر ما نزل ، كما عُرف مكّيُّه ومدنيُّه ، وسفريُّه وحَضريُّه ، إلى غير ذلك . ولا ريب أن هذا مظهر من مظاهر الثِّقة به ، ودليلٌ على سلامته من التغيير والتبديل . « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

وليس من غرضنا فى هذا الباب أن نتحدَّث عن أول ما نزل وآخر ما نزل فى كل تعليم من تعاليم الإسلام ، فتلك غاية بعيدة المدى ، ومجهود طويل جدير أن يُفرَدَ بالتأليف ، وله مواضع أخرى يمكن طلبه منها . إنما الميسور لنا أن نحدِّثك عن أمرين :

أحدهما : أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ، وآخر ما نزل منه على الإطلاق ، وهذا هو المقصود المهمّ .

الثانى : نماذج من أول ما نزل فى بعض الأحكام التشريعية وآخر ما نزل منها ، أى أوائل وأواخر إضافية مخصوصة ومقيَّدة ببعض الأحكام .

أول ما نزل على الإطلاق

ورد فى ذلك أقوال أربعة :

«القول الأول» وهو أصحها : أنه صَدْرُ سورة «اقْرَأْ بِاْسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ» إلى قوله سبحانه : «عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ» ودليله ما يأتى :

١ — روى البخارى ومسلم (واللفظ للبخارى) عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ . ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ «وَهُوَ التَّعَبُّدُ» الليالى ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ. قلتُ : مَاأَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثمَّ أَرْسَلَنِي . فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي . فَقَالَ : اقْرَأْ . قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثالثةَ . ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ» وفى بعض الروايات «حتى بَلَغَ مَالَمْ يَعْلَمْ» . فَرَجَعَ بِهَا إِلَى خَدِيجَةَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ» إلى آخر الحديث وهو طويل . وفلق الصبح : ضياؤه . والتحنُّث المراد به التعبُّد وأصله ترك الحنث ؛ لأن هذه الصيغة تدلُّ على التجنُّب والتنحِّى عن مصادرها ونظيره التهجُّد، والتأثم ، والتحرُّج . وغطَّنى بفتح الغين وتشديد الطاء المفتوحة أى ضمَّنى ضمًّا شديداً حتى كان لى غطيط، وهو صوت مَن حُبست أنفاسه بما يشبه الخنق. والجَهد بفتح الجيم: يطلق على المشقة وعلى الوسع والطاقة ،وبضم الجيم : يطلق على الوسع والطاقة لاغير ، وهما روايتان .

٢ — وصحح الحاكم فى مستدركه ، والبيهقى فى دلائله عن عائشة أيضاً رضى الله عنها أنها قالت : أَوَّلُ سورةٍ نزلَتْ منَ القرْآن « ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ » .

٣ — وصححَ الطبرانىُّ فى الكبير بسنده عن أبى رجاء العطارديِّ قال : كان أَبُو مُوسى يُقرِئُنَا فَيُجْلِسُنَا حِلَقاً وعليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة « ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ » قال : هذه أولُ سورةٍ نزلتْ على محمدٍ ﷺ .

٤ — وردت آثار فى هذا المعنى أيضاً فى بعضها زيادة تعرفها من رواية الزهرى وهى: أن النبى ﷺ كان بحراء إذ أتى الملكُ بنمطٍ منْ ديباج مكتوبٍ فيه « ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ » إلى « مَا لَمْ يَعْلَمْ » اهـ . والنمط بفتح النون والميم هو الثياب ، والديباجُ هو الحرير .

« القول الثانى » أن أول ما نزل إطلاقاً : « يَـٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ » . واستدلَّ أصحابُ هذا الرأى بما رواه الشيخان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : سألتُ جابرَ بنَ عبد الله : أىُّ القرآنِ أنزلَ قبلُ ؟ . فقال : « يَـٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ » فقلت : أو « ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ » وفى رواية نبئت أنه « ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ » . فقال : أُحَدِّثُكُم ماحَدَّثنَا بهِ رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « إنِّى جَاوَرْتُ بحِرَاء، فلمّا قضَيْتُ جِوَارى نَزَلْتُ،فَاسْتَبْطَنْتُ الوَادِىَ « زَادَ فى رِوَايةٍ » فَنُودِيتُ فنظرت أمامى وَخَلْفِى وَعنْ يمينِى وَعن شمالى ، ثمَّ نظَرْتُ إلى السماء فإذَا هوَ (يعنى جبريل) زاد فى رواية : جَالسٌ عَلَى عَرْش بين السماء والأرضِ » فأَخَذَتْنِى رَجْفَةٌ فأَتيْتُ خديجة ، فأمرْتهُمْ فدَثّرُونى ، فَأَنْزَلَ الله : « يَـٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ » .

لكن هذه الرواية ليستْ نصًّا فيما نحن بسبيله من إثبات أول ما نزل من القرآن إطلاقاً ، بل تحتمل أن تكون حديثاً عما نزل بعد فترة الوحى ، وذلك هو الظاهر من رواية أخرى رواها الشيخان أيضاً ،عن أبى سلمة عن جابر أيضاً « فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِى إِذْ

سمعْتُ صوْتاً من السماء فرَفعتُ بصَرى قِبَلَ السماء ، فإذا الْمَلَكُ الذى جاءنى بحراء قَاعِــدٌ عَلَى كُرْسِىٍّ بينَ السماءِ وَالأرْضِ فَجَئِثْتُ حتى هويت إلى الأرض ، فَجِئْتُ أَهلِى ، فقلتُ : زَمِّلُونِى فزَمَّلُونِى . فأنزَلَ الله تعالى « يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ـ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » قال أبو سلمة: والرجزُ : الأوثان. اهـ قلت : وجئثتُ على وزن فرحت معناه ثقلَ جسمى عن القيام ، وسببه فزع الرسول وخوفه عليه الصلاة والسلام .

فظاهر هذه الرواية يدلُّ على أن جابراً استند فى كلامه على أن أول مانزل من القرآن هو المدثر ، إلى ماسمعه من رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى ، وكأنه لم يسمع بما حدَّث به رسول الله ﷺ عن الوحى قبل فترته، من نزول الملك على الرسول فى حراء بصدر سورة اقرأ « كما روت عائشة » فاقتصر فى إخباره على ماسمع ظاناً أنه ليس هناك غيره، اجتهاداً منه ،غير أنه أخطأ فى اجتهاده بشهادة الأدلة السابقة فى القول الأول ، ومعلوم أن النص يقدَّم على الاجتهاد ، وأن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال ، سقط به الاستدلال ، فبطل إذاً القول الثانى وثبت الأول .

القول الثالث :

أن أول مانزل هو سورة الفاتحة . وقد استدل أصحاب هذا الرأى بمـــا رواه البيهقى فى الدلائل بسنده عن ميسرة عمر بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة « إنى إذا خلَوْتُ وحدى سمعْتُ نداءً فقدْ والله خشيتُ على نفسى أن يكونَ هـــذا أمراً » . قالتْ : معاذَ الله ، ما كان اللهُ ليفعلَ بكَ ، إنكَ لتؤدى الأمانةَ ، وتصلُ الرحمَ ، وتصدق الحديثَ . فلما دخلَ أبو بكر ذكرتْ خديجةُ حديثه له وقالت : اذهبْ مع محمد إلى ورقة . فانطلقا فقصّا عليه فقال : « إذا خلوْت وحـــدى سمعت نداءً خلفى يا محمدُ يا محمدُ ، فأنطلقُ هارباً فى الأفقِ » . فقال : لا تفعلْ إذا أتاكَ فاثبتْ حتى تسمعَ ما يقولُ . ثم ائتنى فأخبرْنى . فلمَّا خلا ناداهُ : يا محمدُ قــــل :

« بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . ٱلحمدُ لله رب العالَمين » . حتى بلغ « ولَا الضالين »

ولكن هذا الحديث لايصلح للاحتجاج به على أولية مانزل مطلقاً ، وذلك من وجهين:

أحدهما : أنه لايفهم من هـذه الرواية أن الفاتحة التى سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت فى فجر النبوة أوّلَ عهده بالوحى الجلىِّ وهو فى غار حراء ، بل يفهم منها أن الفاتحة كانت بعد ذلك العهد ، وبعد أن أتى الرسول إلى ورقة ، وبعد أن سمع النداء من خلفه غير مرة ، وبعد أن أشار عليه ورقة أن يثبت عند هذا النداء حتى يسمع مايلقى إليه . وليس كلامنا فى هذا ، إنما هو فيما نزل أول مرة . الثانى : أن هذا الحديث مرسل سقط من سنده الصحابى ، فـلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق فى بدء الوحى ، وهو مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فبطل إذاً هذا الرأى الثالث وثبت الأول أيضاً .

بيد أن صاحب الكشاف عزَا هذا القول الثالث إلى أكثر المفسرين ، ولكن ابن حجر فنده فيما ذهب إليه من هذا العزْو ، وصرح بأن هذا القول لم يقل به إلا عددٌ أقل عن القليل .

القول الرابع : ـ أن أول مانزل هو « بسم الله الرحمن الرحيم » واستدل قائلوه بما أخرجه الواحدىُّ بسنده عن عكرمة والحسن قالا : أَوَّلُ مانَزَلَ مِنَ القرآن « بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ وأولُ سُورَةِ ٱقرَأْ » . وهذا الاستدلال مردود من ناحيتين أيضاً : إحداهما : أن الحديث مرسل كسابقه فلا يناهض المرفوع . الثانية : أن البسملة كانت بطبيعة الحال تنزل صدراً لكل سورة إلاما استثنى . إذن فهى نازلة مع مانزل من صدر سورة اقرأ ، فلا يستقيم اعتبار الأولية فى نزولها قولًا مستقلًا برأسه .

آخر مانزل على الإطلاق

اختلف العلماء فى تعيين آخر مانزل من القرآن على الإطـلاق ، واستند كل منهم

إلى آثار ليس فيها حديثٌ مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فكان هذا من دواعى الاشتباه ، وكثرة الخلاف على أقوال شتى :

(١) الأول : أن آخرَ ما نزل ، قولُ الله تعالى فى سورة البقرة « وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » . أخرجه النسائى من طريق عكرمة عن ابن عباس ، وكذلك أخرج ابن أبى حاتم قال : « آخرُ ما نزلَ منَ القرآنَ كلِّه « وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللهِ » الآية . وعاش النبى صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسعَ ليالٍ ، ثم مات لليلتين خلتا من ربيعٍ الأوّل .

الثانى : أن آخر ما نزل هو قول الله تعالى فى سورة البقرة أيضاً « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا ٱللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . أخرجه البخارى عن ابن عباس والبيهقى عن ابن عمر .

الثالث : أن آخر ما نزل آية الدَّين فى سورة البقرة أيضاً وهى قوله سبحانه : « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » إلى قوله سبحانه : « وَٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » وهى أطول آية فى القرآن . أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب : « أنهُ بلغهُ أنَّ أحدثَ القرآنِ عهداً بالعرشِ آيةُ الدَّين » .

أخرج أبو عبيد فى الفضائل عن ابن شهاب قال : « آخرُ القرآنِ عهداً بالعرشِ آيةُ الرِّبَا وآيةُ الدَّين » .

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بما قاله السيوطى رضى الله عنه من أن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف لأنها فى قصة واحدة ، فأخبر كلٌّ عن بعض ما نزل بأنه آخرٌ ، وذلك صحيح .

أقول : ولكن النفس تستريح إلى أن آخر هذه الثلاثة نزولًا هو قول الله تعالى: « وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » . وذلك لأمرين أحدهما : ما تحمله هذه الآية فى طياتها من الإشارة

إلى ختام الوحى والدين، بسبب ماتحثُّ عليه من الاستعداد ليوم المعاد ، وما تُنَوِّه به من الرجوع إلى الله ، واستيفاء الجزاء العادل من غير غَبْنٍ ولاظُلْمٍ ، وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة فى سياقها . ثانيهما . التنصيص فى رواية ابن أبى حاتم السابقة على أن النبى صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها تسع ليال فقط ، ولم تظفر الآيات الأخرى بنصٍ مثله .

الرابع : أن آخرَ القرآن نزولًا قــول الله تعالى فى سورة آل عمران : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » الآية . ودليل هذا القول ما أخرجه ابن مَرْدويه من طريق مُجاهد عن أم سَلَمَة أنها قالت : آخر آية نزلت هذه الآية : « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ » إلى آخرها . وذلك أنها قالت : يارَسُولَ اللهِ . أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت «(١) ولاتَتَمَنَّوْا مافَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ» ، ونزل « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ(٢) » ونزلت هذه الآية ، فهى آخر الثلاثة نزولًا ، وآخر مانزل بعد ما كان ينزل فى الرجال خاصَّة .

ومن السهل ردُّ الاستدلال بهذا الخبر على آخر مانزل مطلقاً ، وذلك لما يُصَرِّح به الخبر نفسه من أن الآية المذكورة آخر الثلاثة نزولًا وآخر مانزل بالإضافة الى ما ذكر فيه النساء أى فهى آخر مقيد لا مطلق ، وليس كلامنا فيه .

الخامس : أنه آية (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً) واستدلوا بما أخرجه البخارى وغيره

---

(١) من سورة النساء وتمامها : (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً) .

(٢) أى من أولها إلى آخرها وهى فى سورة الأحزاب .

عن ابن عباس . قال : هذه الآية : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ » هى آخر ما نزل ، وما نسخها شىء . ولا يخفى عليك أن كلمة « وما نسخها شىء » تشير إلى أن المراد من كونها آخر ما نزل، أنها آخر ما نزل فى حكم قتل المؤمن عمداً ، لا آخر ما نزل مطلقاً .

السادس : أن آخر آية نزلت « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ » وهى خاتمة سورة النساء وأن آخرَ سورةٍ نزلت سورةُ « براءة » . واستند صاحب هذا الرأى إلى ما يرويه البخارى ومسلم عن الْبَرَاء بن عازب أنه قال : آخرُ آيةٍ نزلتْ « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ » وآخر سورة نزلت « براءة » . ويمكن نقض هذا الاستدلال بحمل الخبر المذكور على أن الآية آخر ما نزل فى المواريث وأن السورة آخر ما نزل فى شأن تشريع القتال والجهاد ، فكلاهما آخر إضافى لا حقيقى .

السابع : أن آخر ما نزل سورة المائدة . واحتجَّ صاحب هذا القول برواية للترمذى والحاكم فى ذلك عن عائشة رضى الله عنها . ويمكن رَدُّهُ بأن المراد أنها آخر سورة نزلت فى الحلال والحرام، فلم تُنسخ فيها أحكام. وعليه فهى آخر مقيد كذلك .

الثامن : أن آخر ما نزل هو خاتمة سورة براءة : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخر السورة . رواه الحاكم وابن مردويه عن أُبَىٍّ بن كعب . ويمكن نقضه بأنها آخر ما نزل من سورة براءة لا آخر مطلق ، ويؤيده ما قيل من أن هاتين الآيتين مكيتان بخلاف سائر السورة . ولعل قوله سبحانه : « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ » الخ ؛ يشير إلى ذلك من حيث عدم الأمر فيه بالجهاد عند تولى الأعداء وإعراضهم .

التاسع : أن آخر ما نزل هو آخر سورة الكهف : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) أخرجه ابن جرير

عن معاوية بن أبى سفيان . قال ابن كثير: « هذا أثرٌ مشكل، ولعله أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغيِّر حكمها بل هى مثبتة محكمة » اهـ . وهو يفيد أنها آخر مقيد لا مطلق .

العاشر : أن آخر ما نزل هو سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » رواه مسلمٌ عن ابن عباس . ولكنك تستطيع أن تحمل هذا الخبر على أن هذه السورة آخر ما نزل مُشْعِراً بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم . ويؤيده ماروى من أنه صلى الله عليه وسلم قال حين نزلت : « نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي » وكذلك فهم بعض كبار الصحابة. كما ورد أن عمر رضى الله عنه بكى حين سمعها وقال : « الكمالُ دليلُ الزوال » ويحتمل أيضا أنها آخر ما نزل من السور فقط، ويدل عليه رواية ابن عباس: آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً « إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ » .

تلك أقوال عشرة ، عرفتها وعرفت توجيهها، ورأيت أن الذى تستريح إليه النفس منها هو أن آخر القرآن نزولًا على الإطلاق قولُ الله فى سورة البقرة : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللهِ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » وأن ماسواها أواخر إضافية أو مقيدة بماعلمت ، لكن القاضى أبا بكر فى الانتصار يذهب مذهباً آخر إذ يقول : « هذه الأقوال ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكلٌّ قال بضربٍ من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبى ﷺ فى اليوم الذى مات فيه أو قبل مرضه بقليل ، وغيرُه سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو » اهـ ، وكأنه يشير إلى الجمع بين تلك الأقوال المتشعبة بأنها أواخر مقيدة بما سمع كل منهم من النبى ﷺ وهى طريقة مريحة ، غير أنها لا تلقى ضوءًا على ما عسى أن يكون قد اختتم الله به كتابه الكريم .

مثلان من أوائل وأواخر مخصوصة

نضع بين يديك هنا مثلين من أوائل وأواخر مخصوصة ببعض الأحكام الشرعية لنلحظ فيهما سَيْرَ التشريع الإسلامى وتدرُّجَه الحكيم .

١ — ما نزل فى الخمر

روى الطيالسى فى مسنده عن ابن عمر قال : نزل فى الخمر ثلاث آيات ، فأول شىء : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ » الآية[١] فقيل : حرمت الخمر ، فقالوا : يارسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله ، فسكت عنهم . ثم نزلت هذه الآية[٢] « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى » فقيل حرمت الخمر قالوا : يا رسول الله لا نشربها قرب الصلاة فسكت عنهم . ثم نزلت : « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ »[٣] فقال رسول الله ﷺ : « حُرِّمَتْ الخمرُ » .

٢ — ما نزل فى أمر الجهاد والدفاع

لم يشرع الجهاد دفاعاً فى صدر الإسلام على الرغم من أن الأذى كان يُصَبُّ على المسلمين من أعدائهم صبًّا . بل كان الله يأمر بالعفو والصفح ، ومن ذلك قوله

---

(١) وهى فى سورة البقرة وتتمتها : « قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » .

(٢) وهى من سورة النساء وكمالها : « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » .

(٣) والآية وما يليها : « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ وَعَنِ ٱلصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » وهى من سورة المائدة .

سبحانه فى سورة البقرة : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » فكانت أمراً صريحاً لهم بالعفو والصفح حتى يأتى الله بأمره فيهم من القتال ، ويتضمن ذلك النهى عن القتال حتى يأتى أمر الله . ثم شُرع القتال دفاعاً فى السنة الثانية من الهجرة ، بقوله تعالى فى سورة الحج « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

ثم حضَّ الله عليه حضًّا شديداً فى آخر الأمر ، فنزلت سورة براءة وهى من آخر ما نزل من القرآن . وفيها قوله سبحانه : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » وقوله : « انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ . ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » . وقوله . « إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

شبهة فى هــــذا المقام

بقى أن نَدْحضَ شبهة أثيرت حول تَعْيِين آخر ما نزل من القرآن . قالوا : لماذا لا تكون آية المائدة آخر ما نزل من القرآن ؟ وهى قوله سبحانه « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً » . مع أنها صريحة فى أنها إعلام بإكمال الله لدينه فى ذلك اليوم المشهود الذى نزلت فيه ، وهو يوم عرفه فى حجة الوداع بالسنة العاشرة من الهجرة .

والظاهر أن إكمال دينه لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن ، وإتمام جميع الفرائض والأحكام .

والجواب : أن هناك قرآناً نزل بعد هذه الآية حتى بأكثر من شهرين ، ولعلك لم تنس أن آية : «وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ» كانت آخر الآيات نزولاً على الإطلاق ، وأن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال فقط . وتلك قرينة تمنعنا أن نفهم إكمال نزول القرآن من إكمال الدين فى آية المائدة المذكورة . والأقرب أن يكون معنى إكمال الدين فيها يومئذ هو إنجاحه وإقراره ، وإظهاره على الدين كله ولو كَرِهَ الكافرون . ولا ريب أن الإسلام فى حجة الوداع كان قد ظهرت شوكته وعَلت كلمته، وأديل له على الشرك وحزبه ، والكفر وجنده ، والنفاق وحشراته ، حتى لقد أُجْلِيَ المشركون عن البلد الحرام ؛ ولم يخالطوا المسلمين فى الحج والإحرام . قال ابن جرير فى تفسير الآية المذكورة : « الأولى أن يُتأَوَّلَ على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، حتى حجَّه المسلمون لا يخالطهم المشركون» وأَيَّدَ هذا التأويل بما رواه عن ابن عباس قال : « كان المشركون والمسلمون يحجُّون جميعاً ، فلما نزلت سورة براءة نُفِيَ المشركون عن البيت ، وحَجَّ المسلمون لا يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك من تمام النعمة « وأتممْتُ عليكم نِعْمَتِي » .

نسأل الله أن يتم علينا نعمته آمين .

ملاحظة

لعلك بعد تحقيق أول ما نزل وآخره ، تستطيع أن تستدرك على ما أسلفناه فى البحث الثالث ، تقديراً لمدة نزول القرآن على النبى ﷺ ناقلين إياه عن بعض محققى تاريخ التشريع الإسلامى. ذلك أنه اعتبر يوم التاسع من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة، هو آخر أيام النزول وكأنه اعتمد على ما فهمه فى قوله سبحانه : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » الآية ، من أنه إكمالٌ للدين بإكمال نزول القرآن . لكنك قد علمت ما فيه .

فلتضف أنت إلى تلك المدة التى ذكرها اثنين وسبعين يوماً ، هى عدّة الفرق بين التسعة والواحد والثمانين يوماً ، إذ أن آية « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » عاش النبى ﷺ بعدها أحداً وثمانين يوماً كما رُوى ، وآية « وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ » عاش ﷺ بعدها تسعةً فقط كما عرفت .

أما مبدأ نزول الوحى بالقرآن فمعلوم أنه كان فى اليوم الذى هبط فيه جبريل على النبى ﷺ بغار حراء بصدر سورة اقرأ . وقد قالوا : إنه يوافق السابع عشر من رمضان ، واعتمدوا فى ذلك على قوله سبحانه فى سورة الأنفال : « إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِٱللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ » . فجعل يوم الفرقان هو يوم التقاء الجمعين فى غزوة بدر . وكان يوافق السابع عشر من رمضان على ما ذكره بعض أصحاب المغازى والسير .

ولا ريب أن هذا احتمالٌ فى الآية مقبول ، ولكن هذا الاحتمال لا يكفى فى مثل هذا المقام ، لأنه احتمالٌ مرجوحٌ ، وظاهر الأدلة على خلافه . ذلك لأن السُّنة الصحيحة جاء فيها ما يفيد صراحةً أن أَرْجَى ما تكون ليلة القدر التى نزل فيها القرآن ، فى الوتر فى العشر الأخير من رمضان . وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء . بل ثبت من طريق

صحيح يرويه البخارى أيضاً أنه ﷺ قال : « اْلتَمسُوها فى سابعةٍ تَبْقَى ، فى تاسِعَة تَبْقَى » أى اطلبوا ليلة القدر ليلة الحادى والعشرين أو ليلة الثالث والعشرين من ذلك الشهر . وهو مذهب الشافعى رضى الله عنه . ولا جدال فى أن هذه نصوصٌ تُنَافى أن تكون ليلة القدر ليلة السابع عشر من رمضان . . .

ثم إن هذه الآية التى استدلَّ بها هؤلاء ليست نصًّا صريحاً فى أن المراد بما أنزله الله على عبده يوم الفرقان هو ما أنزله على نبيه ليلة القدر من القرآن . بل الظاهر أن قوله سبحانه: « وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ » معناه وما أنزلنا على عبدنا محمد ﷺ من الوحى والملائكة والفتح فى ذلك اليوم المشهود الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والكفر ، فى أوّل موقعة تاريخيَّة انتصف فيها الإسلام من أعدائه ، وقام للمسلمين بسببها شوكةٌ ودولةٌ وسلطان . « وهى غزوة بدر الكبرى » . وإلى هـــذا الرأى جنح أكثر المفسرين . ويؤيده سياق النظم القرآنى الكريم ؛ فإن الآية نزلت لتروض قلوب المسلمين على الرضا بما شرع الله فى قسمة الغنائم ، وليقطعوا أطماعهم من الخُمُس الذى قضى الله أن يكون له لا لهم ، وليقنعوا بعد ذلك بالأربعة الأخماس الباقية، فإن الفضل فى هذه الغنائم إنما هو لله قبلهم ، هو الذى أنزل فى هذا اليوم ما أنزل من هدايات وبشائر ثَبَّتَتْ قلوبهم . وهو الذى أنزل مَدَداً من لدنه ملائكةً مقربين كثيرين وهو الذى سخَّر سائر أسباب الانتصار ، المعروفة فى هذه المعركة العظيمة . . وإذا كان الفضل يرجع إلى الله فى هذا الانتصار ، فأطيعوا أيها المسلمون أمره فى قسمة الغنائم المتخلِّفة عنه . « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ . وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

المبحث الخامس

فى أسباب النزول

القرآن الكريم قسمان : قسمٌ نزل من الله ابتداءً غيرَ مرتبطٍ بسبب من الأسباب الخاصة ، إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق . وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان . وقسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة . وهو موضوع بحثنا الآن . غير أنَّا لا نريد أن نستعرض جميع الآيات التى جاءت على أسباب ، فذلك شأوٌ بعيد . وقد انتدب له جماعة أفردوه بالتأليف ، منهم على بن المديني شيخ البخارى ، ومنهم الواحدى والجعبرى وابن حجر ، ومنهم السيوطى الذى وضع فيه كتاباً حافلاً محرراً سماه (لُباب النُّقول فى أسباب النزول) .

إنما غرضنا فى هذا المبحث أن نحيطك علماً بأسباب النزول من أطرافه الأحد عشر وهى معنى سبب النزول ، وفوائد معرفة أسباب النزول ، وطريق هذه المعرفة ، والتعبيرات عن سبب النزول ، وحكم تعدد الأسباب والنازل واحد ، وتعدد النازل والسبب واحد ، والعموم والخصوص بين لفظ الشارع وسببه ، وتحقيق الخلاف فى عموم اللفظ وخصوص سببه ، وأدلَّة الجمهور فى ذلك ، وشبهات المخالفين وتفنيدها ، وشبيهٌ بالسبب الخاص مع اللفظ العام .

معنى سبب النزول

سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدِّثةً عنه أو مُبَيِّنَةً لحكمه أيامَ وقوعه . والمعنى أنه حادثة وقعت فى زمن النبى ﷺ ، أو سؤال وُجِّه إليه ، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يَتَّصِل بتلك الحادثة ، أو بجواب هذا السؤال .

سواء أكانت تلك الحادثةُ خصومةً دبَّت ، كالخلاف الذى شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزْرَج ، بدسيسةٍ من أعداء الله اليهود حتى تنادوْا : السلاحَ السلاحَ ، ونزل بسببه تلك الآيات الحكيمة فى سورة آل عمران من أول قوله سبحانه: « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ » إلى آياتٍ أُخرى بعدها هى من أروع ما ينفِّر من الانقسام والشقاق ويرغب فى المحبة والوحدة والاتفاق . أم كانت تلك الحادثة خطأً فاحشاً ارتُكب، كذلك السكران الذى أمَّ الناس فى صلاته وهو فى نشوته ، ثم قرأ السورة بعد الفاتحة فقال : « قُلْ يَـٰأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » وحذف لفظ (لا) من « لا أَعْبُدُ » فنزلت الآية : « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » فى سورة النساء .

أم كانت تلك الحادثة تمنياً من التمنيات ، ورغبةً من الرغبات ، كموافقات عمر رضى الله عنه التى أفردها بعضهم بالتأليف . ومن أمثلتها ما أخرجه البخارى وغيره عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر : (وافقتُ ربى فى ثلاثٍ : قلت يا رسولَ اللهِ لو اتخذنا من مقامِ إبراهيمَ مصلى فنزلت : «وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» وقلت يا رسول الله: إنَّ نساءكَ يدخلُ عليهنَّ البَرُّ والفاجرُ، فلوْ أمرتهنَّ أنْ يحتجبنَ ، فنزلت آية الحجاب[1] . واجتمعَ على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيْرَة فقلتُ لهن : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ » فنزلت كذلك) اهـ . وهذه فى سورة التحريم .

---

(١) وهى قوله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ . وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » من سورة الأحزاب

وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبي ﷺ يتصل بأمرٍ مضى نحو قوله سبحانه في سورة الكهف : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ » الخ . أم يتصل بحاضرٍ نحو قوله تعالى في سورة الإسراء : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أم يتصل بمستقبلٍ نحو قوله جل ذكره في سورة النازعات : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا » الخ .

والمراد بقولنا (أيام وقوعه) الظروفُ التي ينزل القرآن فيها متحدثاً عن ذلك السبب، سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرةً ، أم تأخر عنه مدةً لحكمة من الحكم، كما حدث ذلك حين سألت قريش رسول الله ﷺ عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين . فقال ﷺ (غداً أخبرُكم) ولم يستثنِ (أي لم يقل إلا أن يشاء الله) فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً على ما رواه ابن إسحاق، وقيل ثلاثة أيام، وقيل أربعين يوماً ، حتى شقّ عليه ذلك . ثم نزلت أجوبة تلك المقترحات ، وفي طيّها يرشد الله تعالى رسوله إلى أدب الاستثناء بالمشيئة ويقول له في سورة الكهف : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ، وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا » .

ثم إن كلمة « أيام وقوعه » في تعريف سبب النزول ، قيدٌ لا بدَّ منه للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداءً من غير سبب ، بينما هي تتحدَّث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية أو المستقبلة ، كبعض قصص الأنبياء السابقين وأممهم وكالحديث عن الساعة وما يتصل بها ، وهو كثير في القرآن الكريم .

٢ — فوائد معرفة أسباب النزول

زعم بعض الناس أنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول، وأنها لا تعدو أن تكون تاريخاً للنزول أو جارية مجرى التاريخ ، وقد أخطأ فيما زعم؛ فإن لأسباب النزول فوائد متعددة، لا فائدة واحدة : (الأولى) معرفة حكمة الله تعالى على التعيين ، فيما شرعه بالتنزيل، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن . أما المؤمن فيزداد إيماناً على إيمانه، ويحرص كل الحرص على تنفيذ أحكام الله والعمل بكتابه ، لما يتجلى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام ومن أجلها جاء هذا التنزيل. وأما الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفاً، حين يعلم أن هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان، لا على الاستبداد والتحكم والطغيان ، خصوصاً إذا لاحظ سيرَ ذلك التشريع وتدرُّجه في موضوع واحد. وحسبك شاهداً على هذا تحريم الخمر وما نزل فيه، وقد مرَّ بك في البحث السابق ، فلا نعيده ، ولا تغفل .

(الفائدة الثانية) الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها . حتى لقد قال الواحدي : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها . وقال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب اهـ .

ولنبين لك ذلك بأمثلة ثلاثة : (الأول) قال الله تعالى في سورة البقرة : «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ . إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» فهذا اللفظ الكريم يدلُّ بظاهره على أن للإنسان أن يصلي إلى أيةِ جهة شاء ، ولا يجب عليه أن يولي وجهه شطر البيت الحرام ، لا في سفر ولا حضر. لكن إذا علم أن هذه الآية نازلةٌ في نافلة السفر خاصة ، أو فيمن صلى باجتهاده ثم بان له خطؤه ، تبين له أن الظاهر غير مراد ، إنما المراد التخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة ، أو على المجتهد

فى القبلة إذا صلى وتبين له خطؤه. عن ابن عمر رضى الله عنهما أن هذه الآية نزلت فى صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت. وقيل: عميت القبلةُ على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا. وقيل فى الآية غير ذلك، ولكن ماذكرناه يكفيك.

(المثال الثانى) روى فى الصحيح أن مروان بن الحكم أشكل عليه معنى قوله تعالى: «لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» من سورة آل عمران.

وقال: لئن كانَ كلُّ امرىء فرحَ بما أوتىَ وأحبَّ أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبَنَّ أجمعونَ. وبقى فى إشكاله هذا حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت فى أهل الكتاب حين سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، وأروْهُ أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه أى طلبوا منه أن يحمدهم على مافعلوا. وهنالك زاو الإشكال عنه، وفهم مراد الله من كلامه هذا ووعيده.

(المثال الثالث) أشكلَ على عروة بن الزبير رضى الله عنه أن يفهم فرضيّة السعى بين الصفا والمروة مع قوله سبحانه: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا».

وإشكاله نشأ من أنَّ الآية الكريمة نفتْ الجناح، ونفى الجناح لا يتفق والفرضية فى رأيه، وبقى فى إشكاله هذا حتى سأل خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، فأفهمتهُ أن نفىَ الجناح هنا ليس نفياً للفرضيةِ، إنما هو نفىٌ لما وقَر فى أذهان المسلمين يومئذ من أن السعى بين الصفا والمروة من عمل الجاهلية نظراً إلى أن الصفا كان عليه صنمٌ يقال له (إساف) وكان على المروة صنم يقال له: (نائلة). وكان المشركون إذا سعوْا بينهما تمسحوا بهما. فلما ظهر الإسلام وكسّر

الأصنام ، تحرجَ المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك ، فنزلت الآية . كذلك جاءت بعض الروايات .

لكن جاء فى رواية صحيح البخارى مانصه : فقال (أى عروة) لها (أى لعائشة) أرأيت قولَ اللهِ تعالى « إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ ٱللهِ ، فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » : فوالله ما على أحدٍ جناحٌ ألا يطَّوَّف بالصفا والمروة . قالت : بئسما قلت ياابن أختى ، إن هذه لو كانت كما أوَّلتها عليه ، كانت « لا جُنَاحَ عليه ألّا يطّوّفَ بهما » ولكنها أُنزلتْ فى الأنصارِ ، كانوا قبلَ أنْ يُسْلِمُوا يهلُّون لمناةَ الطاغيةِ التى كانوا يعبدونها عند المشلّل ، فكانَ منْ أهلّ يتحرَّجُ أن يطوفَ بالصفا والمروة . فلما أسلمُوا سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ عن ذلك ، قالوا : يارسول الله إنا كنَّا نتحرَّجُ أنْ نطوفَ بينَ الصفاَ والمرْوَة ، فأنزل الله « إن الصفاَ والمرْوَةَ من شعائرِ الله » الآية . قالت عائشة « وقدْ سنَّ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ الطوافَ بينهماَ ، فليسَ لأحدٍ أنْ يترُكَ الطَّوَافَ بينهماَ » انتهى ما أردنا نقله . ومعنى يهلُّون : يحجُّون . ومناة الطاغية : اسم صنم ، وكان صخرة نصبها عمرو بن لَحْيٍ بجهة البحر فكانوا يعبدونها . والمشلَّل بضم الميم ، واللام الأولى مشدّدة مفتوحة : اسم موضع قريب من قُديدٍ من جهة البحر . وقديد بضم القاف : قرية بين مكة والمدينة . وكلمة « سَنَّ » معناها فى هذا الحديث شرَعَ ، أو فرَضَ بدليلٍ من السنة لا من الكتاب .

وهذه الرواية — كما ترى — تدلُّ على أنَّ عروة فهم من جملة « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » أنَّ الجناح منفىٌّ أيضاً عن عدم الطواف بهما وعلى ذلك تنتفى الفرضية ، وكأنه اعتمد فى فهمه هذا على أن نفىَ الجناح ، أكثر ما يستعمل فى الأمر المباح . أما عائشة رضى الله عنها فقد فهمت أن فرضية السعى بين الصفا والمروة مستفادةٌ من السنة ، وأن جملة « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » .

لا تُنافى تلك الفرضيةَ كما فهم عروة إنّما الذى ينفيها أن يُقال : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَلَّا يَطوفَ بهمَا » وإنما توجّه نفىُ الحرَج فى الآية عن الطواف بين الصفا والمروة ، لأن هذا الحرج هو الذى كان واقراً فى أذهان الأنصار ، كما يدلُّ عليه سبب نزول الآية الذى ذكرته السيدة عائشة فتدبر .

(الفائدة الثالثة) دفع توهُّم الحصر ، عمّا يفيد بظاهره الحصر : نحو قوله سبحانه فى سورة الأنعام : « قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » . ذهب الشافعى إلى أن الحصر فى هذه الآية غير مقصود ، واستعان على دفع توهّمه ، بأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوا إلا أن يحرِّموا ما أحل الله ويحلّوا ما حرَّم الله عناداً منهم ومحادة لله ورسوله ، فنزلت الآية بهذا الحصر الصورى مشادّة لهم ومحادة من الله ورسوله ، لا قصداً إلى حقيقة الحصر .

نقل السبكى عن الشافعى أنه قال ما معناه : « إن الكفار لما حرّموا ما أحلّ الله ، وأحلّوا ما حرَّم الله ، وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم . فكأنه قال : لا حلالَ إلّا ما حرّمتموه ، ولا حرامَ إلا ما أحْلَلْتُمُوهُ . نازلاً منزلة من يقول لك : لا تأكل اليوم حلاوة فتقول لا آكل اليوم إلا حلاوة ، والغرض المضادة لا النفى والإثبات على الحقيقة . فكأنه تعالى قال : « لا حرام إلّا ما أحْلَلْتُمُوهُ مِنَ الميتةِ ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أُهِلَّ لِغير اللهِ بِهِ » ولم يقصد حِل ما وراءه ، إذ القصد إثبات التحريم ، لا إثبات الحلِّ اهـ .

قال إمام الحرمين : وهذا فى غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعى إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية اهـ .

(الفائدة الرابعة) تخصيص الحكم بالسبب ، عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ . فآيات الظهار فى مُفْتَتَحِ سورة المجادلة ـ وقد تقدمت ـ

سببها أن أوس بن الصامت ظَاهَرَ من زوجته خَوْلَة بنت حكيم بن ثعلبة ، والحكم الذى تضمَّنته هذه الآيات خاصٌّ بهما وحدهما (على هذا الرأى) ، أما غيرهما فيعلم بدليل آخر قياساً أو سواه . وبَدَهِى أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم ولا القياس عليه إلا إذا علم السبب . وبدون معرفة السبب تصير الآية مُعَطَّلَةً خالية من الفائدة .

(الفائدة الخامسة) معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا وَرَدَ مُخَصِّصٌ لها. وذلك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باقٍ قطعاً . فيكون التخصيص قاصراً على ماسواه. فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنه مما خرج بالتخصيص ، مع أنه لا يجوز إخراجه قطعاً للإجماع المذكور. ولهذا يقول الغزالى فى المستصفى : « (ولذلك يشير إلى امتناع إخراج السبب بحكم التخصيص بالاجتهاد) غلط أبو حنيفة رحمه الله فى إخراج الأمة المستفرَشَة من قوله ﷺ (الولد للفراش) . والخبر إنما ورد فى وليدة زَمْعَةَ إذ قال عَبْدُ بنُ زَمْعَة: هو أخى وابن وُليدةِ أبى ، وُلِدَ على فراشه . فقال عليه الصلاة والسلام ، (الولدُ للفراش وَللعاهرِ الحجرُ) فأثبت للأمة فراشاً وأبو حنيفة لم يبلغه السبب ؛ فأخرج الأمة من العموم » اهـ .

(الفائدة السادسة) معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين ؛ حتى لا يشتبه بغيره ، فيتهمَ البرىء ويبرَّأ المريب (مثلًا) . ولهذا ردَّت عائشة على مروان حين اتَّهم أخاها عبد الرحمن بن أبى بكر بأنه الذى نزلت فيه آية « وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا » الخ من سورة الأحقاف . وقالت : (وَاللهِ مَاهُوَ بِهِ ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أُسَمِّيَه لَسَمَّيْتُهُ) إلى آخر تلك القصة .

(الفائدة السابعة) تيسير الحفظ ، وتسهيل الفهم ، وتثبيت الوحى ، فى ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها . وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات ، والأحكام بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة . كل أولئك من دواعى

تَقَرُّر الأشياء وانتقاشِها فى الذهن ، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها فى الفكر ، وذلك هو قانون تداعى المعانى ، المقرّر فى علم النفس .

٣ — طريق معرفة سبب النزول

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح ، روى الواحدى بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « آتقُوا الحديثَ إلَّا ما عَلِمْتُمْ فإنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النارِ . وَمَنْ كَذَبَ عَلَى القُرْآنِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ فليتبوأ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . . ومن هنا لا يحلّ القول فى أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها . اهـ .

وعلى هذا فإن روى سبب النزول عن صحابىٍّ فهو مقبول ، وإن لم يَعْتَضِدْ أى لم يُعَزَّزْ برواية أخرى تُقَوِّيه . وذلك لأن قول الصحابى فيما لا مجال للاجتهاد فيه ، حكمه حكم المرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه يبعد كل البعد أن يكون الصحابى قد قال ذلك من تلقاء نفسه ، على حين أنه خبرٌ لا مَرَدَّ له إلا السماع والنقل ، أو المشاهدة والرؤية .

أما إذا رُوى سبب النزول بحديثٍ مرسل ، أى سقط من سنده الصحابىُّ وانتهى إلى التابعى ، فحكمه أنه لا يقبل إلا إذا صحّ واعتَضَدَ بمرسلٍ آخر وكان الراوى له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة ، كمجاهدٍ وعِكْرِمَةَ وسعيد بن جبير .

٤ — التعبير عن سبب النزول

تختلف عبارات القوم فى التعبير عــــن سبب النزول . فتارةً يُصرَّح فيها بلفظ السبب فيقال : (سبب نزول الآية كذا) وهذه العبارة نَصٌّ فى السببية لا تحتمل غيرها.

وتارةً لا يُصرَّحُ بلفظِ السبب ولكن يؤتَى بفاء داخلةٍ على مادّة نزول الآيــة عقب سَرْد حادثة ، وهذه العبارة مثل تلك فى الدلالة على السببية أيضاً . ومثاله رواية جابر الآتية قريباً . ومرةً يُسأَل الرسول ، فيُوحَى إليه ويُجيب بما نزل عليه ولا يكون تعبيرٌ بلفظ سبب النزول، ولا تعبيرٌ بتلك الفاء ،ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام ، كرواية ابن مسعود الآتية عندما سُئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح . وحكم هذه أيضاً حكم ماهو نصٌّ فىالسببية . ومرةً أخرى لايُصَرَّحُ بلفظ السبب ولا يؤتَى بتلك الفاء، ولا بذلك الجواب المبنى على السؤال ، بل يقال : نزلت هذه الآية فى كذا (مثلاً) . وهذه العبارة ليست نَصًّا فى السببية ، بل تحتملها وتحتمل أمراً آخر ، هو بيان ماتضمنتْه الآيةُ من الأحكام. والقرائنُ وحدها هى التى تُعَيِّن أحدها هذين الاحتمالين أو تُرجِّحه.

ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان فى موضوع واحد: إحداهما نصٌّ فى السببية لنزول آية أو آيات ، والثانية ليست نصًّا فى السببية لنزول تلك الآية أو الآيات ، هنالك نأخذ فى السببية بما هو نصٌّ ، ونحمل الأخرى على أنها بيانٌ لمدلول الآية ، لأن النص أقوى فى الدلالة من المحتمل .

مثال ذلك : ما أخرجه مسلم عن جابر قال : كانت اليهود تقول « من أتى امرأةً من دُبُرِها فى (قُبُلِهَا) جاء الولدُ أحْوَلَ » ، فأنزل الله « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ، وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَٱتَّقُوا ٱللهَ ، وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » من سورة البقرة . . . وما أخرجه البخارى عن ابن عمر قال : (أنزلت « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » فى إتيانِ النساء فى أدْبارِهنَّ) .

فالمعول عليه فى بيان السبب هو رواية جابر الأولى، لأنها صريحة فى الدلالة على السبب. وأما رواية ابن عمر فتحمل على أنها بيانٌ لحكم إتيان النساء فى أدبارهن وهو التحريم. استنباطاً منه .

أما إذا كان الاختلاف دائراً بين عبارتين أو عبارات ليس شيء منها نصًّا ، كأن يقول بعض المفسرين : نزلت هـذه الآية فى كذا . ويقول الآخر : نزلت فى كذا « ثم يذكر شيئاً آخر غير ما ذكره الأول » ، وكان اللفظ يتناولها ، ولا قرينة تصرف إحداها إلى السببية ، فإن الروايتين كلتيهما تحملان على بيان ما يتناوله من المدلولات . ولا وجه لحملهما على السبب .

وأما إذا كان الاختلافُ دائراً بين عبارتين أو عبارات كلها نصٌّ فى السببية، فهنا يتشعّب الـكلام . ولنفرده بعنوان :

٥ — تعدُّد الأسبابِ والنازلُ واحدٌ

إذا جاءتْ روايتان فى نازلٍ واحدٍ من القرآن ، وذكرَتْ كلٌّ من الروايتين سبباً صريحاً غيرَ ما تذكره الأخرى ، نُظر فيهما . فإما أن تـكون إحداهما صحيحةً ، والأخرى غير صحيحة . وإما أن تـكون كلتاهما صحيحة ولـكن لإحداهما مُرَجِّحٌ دون الأخرى . وإما أن تـكون كلتاهما صحيحة ، ولا مُرَجِّحَ لإحداهما على الأخرى ، ولـكنْ يمكن الأخذ بهما معاً . وإما أن تـكون كلتاهما صحيحة ، ولا مرجِّح ، ولا يمكن الأخذ بهما معاً . فتلك صوَرٌ أربعٌ ، لـكلٍّ منها حكمٌ خاصٌّ نسوقه إليك :

« أما الصورة الأولى » ـ وهى ما صحَّت فيه إحدَى الروايتين دون الأخرى ـ فحـكمها الاعتماد على الصحيحة فى بيان السبب . وَرَدُّ الأخرى غير الصحيحة . مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرُهما عن جُندَبٍ قال : « اشْتَـكى النبىُّ ﷺ فلمْ يقمْ لَيلَةً أوْ لَيلَتين ، فأتته امرأةٌ فقالت : يامحمدُ ، ما أرَى شيطانكَ إلَّا قدْ تَركَكَ » فأنزل اللهُ : « وَٱلضُّحَىٰ ، وَٱللَّيْـلِ إذَا سَجَىٰ ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ » . وأخرج الطبرانىُّ وابن أبى شيبة ، عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت

خادمَ رسول الله ﷺ : « أنَّ جَرْواً دخلَ بيتَ النبيِّ ﷺ ، فدخلَ تحتَ السرير فماتَ ، فمكثَ النبيُّ ﷺ أربعة أيامٍ لا ينزلُ عليهِ الوحيُ فقال : ياخَوْلَةُ ما حدثَ في بيتِ رسولِ الله ﷺ ؟ جبريلُ لا يأتيني . فقلتُ في نفسي : لو هيَّأتِ البيتَ وَكَنَسْتِهِ ، فأهْوَيْتُ بالمِكْنَسَةِ تحت السرير ، فأخرجتُ الجَرْوَ ، فجاء النبيُّ ﷺ ترْعدُ(١) لحيتهُ ، وكان إذا نزَلَ عليه أخذته الرِّعْدَةُ » فأنزلُ الله : « وَٱلضُّحَىٰ » إلى قوله « فَتَرْضَىٰ » . فنحن بين هاتين الروايتين نقدِّم الرواية الأولى في بيان السبب لصحتها، دون الثانية لأن في إسنادها من لا يعرف. قال ابن حجر : «قصَّة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريبٌ ، وفي إسناده من لا يُعرف ، فالمعتمد ما في الصحيح » اهـ .

« وأما الصورة الثانية » ـ وهي صحَّة الروايتين كلتيهما ولإحداهما مرجِّح ـ فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة . والمرجِّح أن تكون إحداهما أصحَّ من الأخرى ، أو أن يكون راوي إحداهما مشاهداً للقصة دون راوي الأخرى . مثال ذلك : ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال : « كنتُ أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة . وهو يتوَكَّأ على عَسِيب . فمرَّ بنفرٍ من اليهود ، فقالَ بعضهم : لو سَألتُمُوهُ . فقالوا : حدِّثْنَا عنِ الروح . فقامَ ساعةً ورفع رأْسَهُ فعرَفْتُ أنه يوحى إليه ، حتى صعد الوحي ، ثم قال : «قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ». وما أخرجه الترمذي وصحَّحه عن ابن عباس قال: « قالتْ قريشٌ لليهود ، أعطونا شيئاً نسأل هذا الرَّجلَ . فقالوا: اسألوه عن الرُّوح ،فسألوه فأنزل الله : « وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ » الآية .

---

(١) قال في القاموس : « وقد رعدَ كنصر ومنع . وقال هامش القاموس : وقد استعمل رعد ثلاثياً أيضاً مجهولًا دائماً ، كجُنَّ . قالوا : رُعِدَ أي أصابته رعدة . قاله الخفاجيُّ في شرح الشفاء » اهـ .

فهذا الخبر الثانى يدلُّ على أنها مكية ، وأن سبب نزولها سؤال قريش إياه. أما الأول فصريحٌ فى أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إياه ، وهو أرجح من وجهين : أحدهما أنه روايةُ البخارى ، أما الثانى فإنه رواية الترمذى ، ومن المقرَّر أن ما رواه البخاريُّ أصحُّ مما رواه غيره . ثانيهما أن راوى الخبر الأول وهو ابن مسعود كان مشاهد القصة من أولها إلى آخرها كما تدلُّ على ذلك الروايةُ الأولى ، بخلاف الخبر الثانى فإن راوِيَهُ ابن عباس لا تدلُّ الرواية على أنه كان حاضر القصة ، ولا ريب أن للمشاهدة قوةً فى التحمل وفى الأداء ، وفى الاستيثاق ليست لغير المشاهدة ، ومن هنا أَعْمَلْنَا الرواية الأولى ، وأَهْمَلْنَا الثانية .

« وأما الصورة الثالثة » ـ وهى ما استوت فيه الروايتان فى الصحَّة ، ولا مرجِّح لإحداهما ، لكن يمكن الجمع بينهما ، بأن كلًّا من السببين حصل ونزلت الآية عقب حصولها معاً ، لتقارب زمنيهما فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدُّد السبب لأنه الظاهر ، ولا مانع يمنعه . قال ابن حجر : « لا مانع من تعدُّد الأسباب » .

مثال ذلك : ما أخرجه البخارى من طريق عكرِمة عن ابن عباس أنَّ هلال بنَ أمية قذَفَ امرأَتهُ عند النبي ﷺ بشرِيكِ بن سحماءَ . فقال النبي ﷺ : « البَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فى ظَهْرِكَ » . فقال يا رسول الله ، إذَا وَجدَ أَحدُنَا معَ امرَأتهِ رَجلًا ينطلقُ يلتمسُ البينَةَ . وفى رواية أنه قال : وَالذى بعَثكَ بِالحَقِّ إنى لصادقٌ ، ولَيُنْزِلنَّ اللهُ تعالى مَا يُبرِّئُ ظَهرِى منَ الحدِّ . فنزل جبريل عليه السلام وأنزَلَ عليهِ : « وَالَّذِينَ يرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ » حتى بلغ « إِنْ كَانَ مِنَ الصادِقِينَ » اهـ وهذه الآيات من سورة النور .

وأخرج الشيخان « واللفظ للبخارى » عن سهل بن سعد « أنَّ عُويمراً أتَى عاصمَ ابنَ عدِيٍّ ، وكانَ سيدَ بَنى عجلان ، فقال : كيفَ تقولُونَ فى رَجل وَجدَ معَ

امرأتِه رَجلًا أَيَقتُلُهُ فتقتلُونَهُ ، أَمْ كيفَ يصنعُ ؟ سلْ لى رَسول الله صلى الله عليه وسلم عنْ ذٰلكَ ، فأتَى عاصمٌ النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسولَ اللهِ « وفى رواية مسلم » فسألَ عـاصمٌ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فـكرِهَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائلَ وَعَابَهَا . فقال عُوَيْمِرٌ وَالله لاأَنتهى حتى أسألَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنْ ذٰلك فجاءَهُ عُوَيْمِرٌ فقال يارسول اللهرَجلٌ وَجد معَ امرأَتِهِ رَجلًا ،أَيَقتُلُهُ فَتَقتُلُونَهُ ، أمْ كيفَ يَصنعُ ؟ فقالرسول اللهصلى الله عليه وسلم قد أنزَلَ الله القرْآنَ فِيكَ وفى صَاحبك . فأمرَهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمَلاعنة بِمَا سَمَّى اللهُ فى كِتَابِهِ فلَاعنها » ا ه . فهاتان الروايتان صحيحتان ، ولا مرجِّحَ لإحدَاهما على الأخرى، ومن السهل أن نأخذ بـكلتيهما لقرب زمانيهما ، على اعتبار أن أول من سأل هوهلال ابن أمية، ثم قفاه عُوَيْمِرقبل إجابته ،فسأل بواسطة عاصم مرةً وبنفسهمرةً أُخرى،فأنزل الله الآية إجابةً للحادثين معاً . ولاريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع، أولى من إعمال إحداهماوإهمال الأُخرى، إذ لامانع يمنع الأَخذ بهما على ذلك الوجه . ثم لاجائزأن نردَّهما معاً ، لأَنهما صحيحتان ولاتعارض بينهما . ولاجائز أيضاً أن نأخذ بـواحدةٍ ونردَّ الأخرى ، لأَن ذلك ترجيح بلا مرجح . فتعين المصيرإلى أن نأخذ بهما معاً . وإليهجنح النوَوىُّ وسبقه إليه الخطيب فقال : « لعلَّهما اتَّفق لهما ذلك فى وقتٍ واحد » ا ه .

ويمكن أن يُفهم من الرواية الثانية أن آيات الملاعنة نزلت فى هلالٍ أولًا ، ثم جاء عويمر فأفتاه الرسول بالآيات التى نزلت فى هـلال . قال ابن الصباغ : قصة هلالٍ تُبيِّن أن الآية نزلت فيه أولًا . وأما قوله صلى الله عليه وسلم لعويمر « إن الله أنزل فيك وفى صاحبتك » فمعناه مانزل فى قصة هلال ؛ لأن ذلك حكم عامٌّ لجميع الناس .

« وأما الصورة الرابعة » ـ وهى استواء الروايتين فى الصحة ، دون مـرجِّحٍ

لإحداها ، ودون إمكان للأخذ بهما معاً لِبُعْدِ الزمان بين الأسباب ـ فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروايتان ، أو تلك الروايات ـ لأنه إعمال لكل رواية ، ولا مانع منه . قال الزركشي في البرهان : « وقد ينزلُ الشيء تعظيما لشأنه ، وتذكيراً عند حدوث سببه خوفَ نسيانه » اهـ .

(مثال ذلك) ما أخرجه البيهقي والبزّار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقفَ على حمزةَ حينَ استُشهد وقد مُثِّلَ به ، فقالَ : « لأُمَثِّلَنَّ بسبعينَ منهمْ مكانكَ » فنزلَ جبريل والنبيُّ ﷺ واقفٌ ـ بخوَاتِيمِ سورةِ النَّحل « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » إلى آخر السورة ، وهن ثلاث آيات .

وأخرج الترمذي والحاكم عن أُبَيِّ بن كعب قال : (لمَّا كانَ يومُ أُحدٍ أصيبَ مِنَ الأَنصارِ أرْبعةٌ وَستونَ ، ومنَ المهاجرينَ ستةٌ ، منهم حمزةُ ، فمثَّلُوا بهِ ، فقالتِ الأنصار : لئنْ أصبنَا منهم يوماً مثل هٰذَا لنُرْبِيَنَّ (أي لنزيدنَّ) عليهمْ . فلمَّا كانَ يوْمُ فتح مكةَ أنزل اللهُ « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ » الآية .

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أُحد ، والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة ، على حين أن بين غزوة أُحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين ، فبَعُدَ أن يكون نزول الآية كان مرةً عقيبهما معاً . وإذن لا مناص لنا من القول بتعدُّد نزولها ، مرة في أُحد ومرة يوم الفتح . وقد ذهب البعض إلى أن سورة النحل كلها مكية . وعليه فتكون خواتيمها المذكورة نزلت مرة بمكة قبل هاتين المرتين اللتين في المدينة ، وتكون عدّة مرات نزولها ثلاثاً . وبعضهم يقول إن سورة النحل مكية ما عدا خواتيمها تلك فإنها مدنية ، وعليه فعدَّة مرات نزولها ثنتان فقط .

شبهة وجوابها

وإذا استُشكل على تكرار النزول بأنه عبث مادامت الآية قد نزلت قبل ذلك السبب الجديد، وحفظها الرسول ﷺ واستظهرها الحُفاظ من الصحابة، ويمكن الرجوع إليها من غير حاجة إلى نزولها مرةً أخرى.

(فالجواب) أن هناك حكمةً عاليةً في هذا التكرار، وهي تنبيه الله لعباده، ولفت نظرهم إلى ما في طيّ تلك الآيات المكررة من الوصايا النافعة، والفوائد الجمة، التي هم في أشدّ الحاجة إليها. فخواتيم سورة النحل التي معنا مثلا، نلاحظ أن الحكمة في تكرارها هي تنبيه الله لعباده أن يحرصوا على العمل بما احتوته من الإرشادات السامية في تحرِّي العدالة، وضبط النفس عند الغضب، ومراقبة الخالق حتى في القصاص من الخلق، والتدرُّع بالصبر والثبات. والاعتماد على الله والثقة بتأييده ونصره، لكل من اتقاه وأحسن في عمله، جعلنا الله منهم أجمعين آمين.

أضف إلى هذه الحكمة ماذكره الزركشي آنفاً من أن تكرار النزول تعظيم لشأن المكرر، وتذكير به خوف نسيانه.

٦ — تعددُ النازل والسببُ واحدٌ

قد يكون أمرٌ واحدٌ سبباً لنزول آيتين أو آياتٍ متعددةٍ «على عكس ماسبق» ولا مانع من ذلك، لأنه لاينافي الحكمة في إقناع الناس، وهداية الخلق، وبيان الحق عند الحاجة، بل إنه قد يكون أبلغ في الإقناع وأظهر في البيان.

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان، ما أخرجه ابن جرير الطبريُّ والطبرانيُّ وابن مرْدويه عن ابن عباس قال: كانَ رسول الله ﷺ جالساً في ظِلِّ شجرَةٍ فقال: «إنهُ سيأتيكُمْ إنسانٌ ينظرُ إليكُمْ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ، فإذَ جاءَ فَلَا تُكَلِّمُوهُ. فلَمْ يَلْبَثُوا أنْ طَلَعَ رَجُلٌ أَزْرَقُ العَيْنَيْنِ، فَدَعَاهُ رسول الله ﷺ فقال: علامَ تشْتُمنِي أنتَ وأصحابُكَ؟ فانطلقَ الرَّجلُ فجاءَ بأصحابِهِ فحلفوا بِاللهِ ماقالوا حتى تجاوَزَ

عنهم . فأنزلَ اللهُ : « يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ . فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ ٱللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » من سورة التوبة .

وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالا: فأنزل الله: « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ . ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ ٱللهِ . أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَانِ . أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَانِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ » اهـ من سورة المجادلة .

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ماأخرجه الحاكم والترمذى عن أمِّ سلمة أنها قالت : يارسولَ اللهَ ، لاأسمع اللهَ ذكرَ النساءَ فى الهجرة بشىء فأنزل الله : « فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَٱللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ » اهـ من سورة آل عمران .

وأخرج الحاكم أيضاً عنها أنها قالت : قلت يارسول : تذكرُ الرجالَ ولاتذكرُ النساءَ فأُنزلت : « إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ[1] » وأُنزلت « أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى[2] » .

---

(١) من سورة الأحزاب وتمامها: « وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ، وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْقَانِتَاتِ ، وَٱلصَّادِقِينَ وَٱلصَّادِقَاتِ ، وَٱلصَّابِرِينَ وَٱلصَّابِرَاتِ ، وَٱلْخَاشِعِينَ وَٱلْخَاشِعَاتِ ، وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَٱلصَّائِمِينَ وَٱلصَّائِمَاتِ ، وَٱلْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَافِظَاتِ ، وَٱلذَّاكِرِينَ ٱللهَ كَثِيرًا وَٱلذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ ٱللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » .

(٢) وهى من آية آل عمران السابقة .

وأخرج الحاكم أيضا أنها قالت تغزُو الرجال ولا تغزُو النساء، وإنما لنا نصفُ الميراث. فأنزل الله « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَافَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ »(١) وأنزل : « إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ »(٢) .

٧ — العموم والخصوص

بين لفظ الشارع وسببه

هذا مبحثٌ أفرده الأصوليون بالكلام لأن مهمَّتهم الاستدلال بألفاظ الشارع على الأحكام ، ونحن نلخص لك هنا ما يسمح به المقام لمناسبة أسباب النزول وما ينزل فيها مما يوافقها أو لا يوافقها فى العموم والخصوص فنقول : اعلم أن لفظ الشارع الوارد جواباً لسؤال أو سببٍ قد يكون مستقلًّا أو مفيداً وحده بقطع النظر عن السبب أو السؤال الوارد فيه . وقد يكون غير مستقل ، بمعنى أنه لا يفيد إلا إذا لوحظ معه السبب أو السؤال .

ولكل من هذين النوعين حكمه :

فأما الجواب الذى ليس بمستقل : فحكمه أنه يساوى السؤال فى عمومه باتفاق الأصوليين ويساويه أيضاً فى خصوصه على الرأى السائد عندهم .

فلو قال سائل : هل يجوز الوضوء بماء البحر ، فأجيب بلفظ (نعم) ، أو لفظ (يجوز) ، كان المعنى : يجوز الوضوء بماء البحر لكل من أراد من الناس لا لخصوص هذا السائل ، وذلك لأن السؤال استفهام عن الجواز مطلقاً من غير اعتبار خصوص المتكلم ، فكذلك جوابه ، لأنه غير مستقل .

ولو قال السائل : توضأتُ بماء البحر ، فأَجيب بلفظ (يُجْزِئُكَ) ، كان معناه :

(١) من سورة النساء وتمامها قد تقدم .

(٢) من سورة الأحزاب ، وتمامها قد تقدم أيضاً قريباً.

أن الوضوء بماء البحر يجزئ السائلَ وحده ، لأن السؤال خاصٌ بالمتكلم ، فكذلك جوابهُ غيرُ المستقل . أما غير المتكلم فلا يُعلم حكمه من هذا الجواب ، بل يُعلم من دليل آخر كالقياس ، أو كقوله ﷺ : « حكمى عَلَى الواحدِ حكمى عَلَى الجماعةِ » . ذلك كله فى الجواب غير المستقل .

وأما الجواب المستقل.فتارةً يكون مثل السبب ، فى أنَّ كلًّا منهما عامٌّ أوخاصٌّ. وحكمه إذنْ أنه يساويه . فاللفظ العامُّ يتناول كلَّ أفراد سببه العام فى الحكم ، واللفظُ الخاصُّ مقصورٌ على شخص سببه الخاصِّ فى الحكم . وهذا محل اتفاق بين العلماء ، لمكان التكافؤ والتساوى بين السبب وما نزل فيه . وأمثلة الأول ـ وهو العامُّ فيهما ـ كثيرة . منها الآيات النازلة فى غزوة بدر ، والآيات النازلة فى غزوة أحد من سورة آل عمران . ومثال الثانى ـ وهو الخاص فيهما ـ قوله سبحانه فى سورة الليل : « وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى . ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى » .

قال الجلالُ المحلى : هذا نزل فى الصديق رضى الله عنه ، لما اشترى بلالا المعذَّبَ على إيمانه وأعتقه . فقال للكفار : إنما فعل ذلك ليد كانتْ له عنده فنزلت : « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى » .

واعلم أن هذا التمثيل لا يستقيم إلا على اعتبار أن أل فى لفظ « الأتقَى » للعهد ، والمعهود هو الصدِّيق رضى الله عنه .

وتارة يأتى الجواب المستقلُ غيرَ متكافئ مع السبب فى عمومه وخصوصه . وتحت ذلك صورتان : (إحداهما) عقليةٌ محضة غير واقعة ، وهى أن يكون السبب عاما واللفظ خاصًّا . وإنما كانت عقليةً محضةً وفرضيَّةً غيرَ واقعة ، لأن حكمة الشارع تجلُّ عن أن تأتى بجوابٍ قاصرٍ ، لا يتناول جميع أفراد السبب . أضف إلى ذلك أنه يخلُّ ببلاغة القرآن ، القائمة على رعاية مقتضيات الأحوال . وهل يعقل أن يسأل

سائلٌ فيقول مثلًا؟ هل يجوز لجماعة المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ويقاتلوا من قاتلهم، فيأتى الجواب قائلًا : لك أنت أن تدافع عن نفسك وتقاتل من قاتلك .

(الصورة الثانية » هى عموم اللفظ وخصوص سببه .

٨ ـ عموم اللفظ وخصوص سببه

ومعناه أن يأتى الجواب أعمَّ من السبب، ويكون السبب أخصَّ من لفظ الجواب. وذلك جائز عقلا ، وواقعٌ فعلًا ، لأنه لا محظور فيه ولا قصور ، بل إن عمومه مع خصوص سببه موفٍ بالغاية ، ومؤدٍّ للمقصود وزيادة .

بيد أن العلماء اختلفوا فى حكمه : أعمومُ اللفظ هو المعتبر أم خصوصُ السبب ؟ . ذهب الجمهور إلى أن الحكم يتناول كلَّ أفراد اللفظ ، سواء منها أفراد السبب ، وغير أفراد السبب . ولنضرب لك مثلًا : حادثة قذف هلال بن أمية لزوجته ، وقد نزل فيها قول الله تعالى : « وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » الخ ، نلاحظ فيها أن السبب خاصٌّ، وهو قذف هلال هذا ، لكن جاءت الآية النازلة فيه بلفظ عامٍ ـ كما ترى ـ وهو لفظ « ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » . وهو اسم موصول ، والموصول من صِيَغِ العموم، وقد جاء الحكم بالملاعنة فى الآية محمولًا عليه من غير تخصيص. فيتناول بعمومه أفراد القاذفين فى أزواجهم ، ولم يجدوا شهداء إلا أنفسهم ، سواء منهم هلال بن أمية صاحب السبب وغيره ، ولا نحتاج فى سحب هذا الحكم على غير هلال إلى دليل آخر من قياس أو سواه بل هو ثابت بعموم هذا النص . ومعلومٌ أنه لا قياس ولا اجتهاد مع النَّص . ذلك مذهب الجمهور .

وقال غير الجمهور : إن العبرة بخصوص السبب . ومعنى هذا أن لفظ الآية يكون مقصوراً على الحادثة التى نزل هو لأجلها ، أما أشباهها فلا يعلم حكمها من نَصِّ الآية ، إنما يعلم بدليل مستأنف آخر ، هو القياس إذا استوفى شروطه ، أو قوله ﷺ :

« حُكْمى عَلَى الواحدِ حُكْمى على الجماعةِ » . فآية القذف السابقة النازلة بسبب حادثة هلال مع زوجه خاصةٌ بهذه الحادثة وحدها، «على هذا الرأى» .أما حكم غيرها مما يشبهها، فإنما يعرف قياساً عليها أو عملًا بالحديث المذكور .

ويجب أن نلاحظ، أن هذا الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم ، محلّه إذا لم تقمْ قرينة على تخصيص لفظ الآية العامّ بسبب نزوله ، أما إذا قامت تلك القرينة فإن الحكم يكون مقصوراً على سببه لا محالة ، بإجماع العلماء .

كما يجب أن نلاحظ أيضاً أن حكم النَّص العام الوارد على سبب يتعدّى عند هؤلاء وهؤلاء إلى أفراد غير السبب. بيد أن الجمهور يقولون إنه يتناولهم بهذا النصِّ نفسه،وغير الجمهور يقولون إنه لا يتناولهم إلا قياساً أو بنص آخر كالحديث المعروف : « حُكْمِى على الواحدِ حُكْمِى عَلَى الجماعةِ » .

وإلى هذا المعنى يشير ابن تيمية بقوله : «قد يجىء كثيراً من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت فى كذا ، لاسيما إن كان المذكور شخصاً ، كقولهم : إن آية الظهار نزلت فى امرأة قيس بن ثابت ، وإن آية الكلالة نزلت فى جابر بن عبدالله ، وإن آية قوله «وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ » نزلت فى بنى قريظة والنضير ، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة ، أو فى قوم من اليهود والنصارى ، أو فى قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق. والناسُ وإن تنازعوا فى اللفظ العام الوارد على سبب: هل يختصُّ بسببه ؟ لم يقل أحد إن عمومات الكتاب وَالسُّنة تختصُّ بالشخص المعين. وإنما غاية ما يقال: إنها تختصُّ بنوع ذلك الشخص، فتعمُّ ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ . والآية التى لها سبب معينٌ إن كانت أمراً أو نهياً فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته » اهـ .

ولعل ثمرة هذا الخلاف ترجع إلى أمرين: «أحدهما» أن الحكم على أفراد غير السبب مدلولٌ عليه بالنصِّ النازل فيه عند الجمهور. وذلك النص قطعيُّ المتن اتفاقاً ، وقد يكون مع ذلك قطعي الدلالة . أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير أفراد السبب ليس مُدَلَّلاً عليه بذلك النص بل بالقياس أو الحديث المعروف ، وكلاهما غير قطعي .

« الثانى » أن أفراد غير السبب كلَّها يتناولها الحكم عند الجمهور ، مادام اللفظ قد تناولها. أما غير الجمهور فلا يسحبون الحكم إلا على مااستوفى شروط القياس منها دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس .

د — أدلة الجمهور

استدل الجمهور على مذهبهم بأدلةٍ ثلاثة: « الأول » أننا نعلم أن لفظ الشارع وحده هو الحجة والدليل دون ما احتفَّ به من سؤال أو سبب ؛ فلاوجه إذن لأن نخصِّص اللفظ بالسبب . وكيف يسوغ أن نجعل ماليس حجةً فى الشرع متحكِّماً بالتخصيص على ماهو الحجة فى الشرع ؟

والدليل على أن لفظ الشارع وحده هو الحجة أن الشارع قد يصرف النظر عن السؤال ، ويعدل بالجواب عن سنن السؤال لحكمةٍ ، نحو قوله تعالى فى سورة البقرة : « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » فإن ظاهر هذه الآية أن النبى ﷺ سئل عن بيان ما ينفقونه ؛ فجاء الجواب ببيان من ينفقون عليهم . وذلك من أسلوب الحكيم ؛ لأن معرفة مصارف النفقة والصدقة أهم من معرفة المصروف فيهما ، فإن إصلاح الجماعة البشرية لا يكون إلا عن طريق تنظيم النفقة والإحسان ، على أساس توجيهما إلى المستحقين دون سواهم . وهذا وجهٌ فى الآية نراه وجيهاً ،

وإن كانت الآية قد أشارت إشارةً خفيفة إلى بيان ما ينفقونه بقوله سبحانه «من خير» غير أنها إشارةٌ إجمالية لا تشبع حاجة السؤال .

ويمكن أن تنظم من هذا دليلًا منطقيًّا من باب القياس الاقترانى ، تقريره هكذا : اللفظ العام الوارد على سبب خاصٍ هو الحجة وحده عند الشارع ، وكل ما كان كذلك يعتبر عمومه ، فاللفظ العامُّ الوارد على سبب خاص يُعتبر عمومه . وهو المطلوب .

كما يمكن أن تنظم منه قياساً استثنائيًّا تقريره :

لو لم يكن اللفظ العامُّ الوارد على سبب خاص مُعتبراً عمومه لما كان لفظ الشارع وحده هو الحجة ، لكن التالى باطل ، فبطل ماأدى إليه وهو المقدم ، وثبت نقيضه وهو أن اللفظ العام الوارد على سبب خاص يعتبر عمومه ، وهذا هو المطلوب .

« الدليل الثانى » أن الأصل هو حمل الألفاظ على معانيها المتبادرة منها عند الإطلاق أى عند عدم وجود صارفٍ يصرف عن ذلك المتبادر ، ولا صارف للفظ هنا عن إرادة العموم ، فلا جرم يبقى على عمومه . أما ما يتوهّمه المخالفون من أن خصوص السبب صارفٌ عن إرادة العموم ، فمدفوعٌ بأن مجرد خصوص السبب لا يستلزم إخراج غير السبب من تناول اللفظ العام إياه . فلا يصلح أن يكون قرينة مانعة من إرادة ماوضع له اللفظ العام . وهو العموم الشامل لجميع الأفراد .

ويمكن أن تنظم من هذا الدليل قياساً اقترانيًّا هكذا: اللفظ العام الوارد على سبب خاص يتبادر منه العموم عند الإطلاق ، وكل ما كان كذلك يبقى على عمومه . فاللفظ العام الوارد على سبب خاص يبقى على عمومه وهو المطلوب .

ويمكن أن تنظم من ذلك الدليل قياسا استثنائيًّا أيضاً يقول : لولم يكن اللفظ العام الوارد على سبب خاص باقيا على عمومه عند الإطلاق للزم استعمال اللفظ فى غير ما وضع له بلا قرينة ، لكن التالى باطل ، فبطل المقدَّم وثبت نقيضه وهوأن اللفظ العام

الوارد على سبب خاص باقٍ على عمومه عند الإطلاق . وذلك هو المطلوب .

« الدليل الثالث » احتجاج الصحابة والمجتهدين فى سائر الأعصار والأمصار بعموم تلك الألفاظ الواردة على أسباب خاصة فى وقائع وحوادث كثيرة من غير حاجة إلى قياس أو استدلال بدليل آخر . وكيف ينكر هذا ؟ وأكثر أصول الشرع خرجت على أسباب خاصة ، وبرغم خصوص تلك الأسباب قد فهموا من الألفاظ النازلة فيها حقيقة العموم ، ثم صاغوا من عموماتها كثيراً من الأصول . فاستدلوا بآية السرقة على وجوب قطع كل يد مع أنها نازلة فى خصوص سرقة المجنّ أو رداء صفوان . واحتجوا بآيات الظهار على وجوب الكفارة المذكورة فيها والعمل بأحكامها على كل من ظاهر ، مع أنها نازلة فى خصوص من عرفت قبل . وكذلك برهنوا بآيات اللعان على شمول حكمه لكل من قذف زوجته ولم يكن معه شهود على حين أنها نازلة فى خصوص من ذكرنا سابقاً .

ويمكن أن تنظم من هذا الدليل قياساً اقترانيًا نصه : عموم اللفظ الوارد على سبب خاص قد اعتبره الصحابة والمجتهدون ، وكل ما كان كذلك فهو المعتبر . فعموم اللفظ الوارد على سبب خاص هو المعتبر .

ويمكن أن تنظم منه دليلًا استثنائيًا نصه : لو لم يكن عموم اللفظ الوارد على سبب خاص هو المعتبر ، لما اعتبره الصحابة والمجتهدون ، لكن التالى باطل فبطل المقدم ، وثبت نقيضه ، وهو المطلوب .

ملاحظة :

لا يعسر عليك أن تستدل للمقدمات الصغرى والكبرى فى الأقيسة الاقترانية التى ذكرناها ، خصوصاً بعد أن تنظر فيما نثرناه قبلها من عرض الأدلة بالأسلوب المألوف الخالى من القيود الشكلية ، فى الاصطلاحات المنطقية .

وبمثل ذلك تستطيع أن تستدل للملازمات وبطلان التوالى، فيما نظمناه بين يديك من الأقيسة الاستثنائية. فتأمل.

١ — شبهات المخالفين وتفنيدها

استند مخالفو الجمهور إلى شبهات خمس لتأييد مذهبهم ـ وهو أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ـ ولكنك سترى مصرع هذه الشبهات بين يديك:

« الشبهة الأولى » يقولون: إن الإجماع قد انعقد على عدم جواز إخراج السبب من حكم العام الوارد على سبب خاص، إذا ورد مخصص. وذلك يستلزم أن العام مقصور على أفراد السبب لا يتناول غيرها، لأنه لو لم يكن مقصوراً عليها لتساوت هي وغيرها في جواز الإخراج عند المخصص. وذلك ممنوع، للإجماع المذكور.

والجواب: أن الإجماع المذكور لا يستلزم قصر العام على أفراد الخاص كما يقولون، بل هو واقف عند حدود معناه من أن أفراد السبب لا تخرج بالمخصص، وذلك المعنى متحقق لعدم التساوى بين أفراد السبب وغيرها فى حالة الإخراج بالمخصص، لكنه لا يمنع دخول غير أفراد السبب فى حكم العام إذا تناوله اللفظ، وذلك لأدلة الجمهور السابقة.

ويمكن أن تنظم من هذا قياساً استثنائياً يقول:

لو لم تكن العبرة بخصوص السبب، لجاز إخراج أفراد السبب إذا ورد مخصص لكن إخراج أفراد السبب عند وجود المخصص ممنوع، لانعقاد الإجماع على امتناعه. فبطل ما أدى إليه وهو المقدم، وثبت نقيضه، وهو أن العبرة بخصوص السبب.

دليل التلازم أن العام تستوى أفراده، فإذا أخذنا بعموم اللفظ ولم نخصصه بالسبب

تساوت أفراد السبب وغيرها مما اندرج تحت ذلك العامّ ، فإذا جاء مخصص جاز أن يخرج أفراد السبب .

ويُجاب بإبطال الملازمة ، ومنع أن أفراد العام متساوية . وسند المنع أن الإجماع منعقد على أن أفراد السبب تمتاز عن غيرها بأنها لا تخرج بالتخصيص . فإن تساوت هى وأفراد غير السبب دخولاً ، فلن يتساوى الجميع خروجاً . وإذن يبقى العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، للأدلة السابقة .

« الشبهة الثانية » يقولون : إن الرواة نقلوا أسباب النزول واهتموا بها وبتدوينها . ولا فائدة لذلك إلا ما نذهب إليه من وجوب قصر العامّ على أفراد سببه الخاص . وهذا معنى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ .

والجواب : أنه لا وجه لكم فى أن تجعلوا فائدة نقل الأسباب هى قصر العامّ على أفراد سببه ، فإن لأسباب النزول والإحاطة بها علماً عن طريق نقل الرواة فوائدَ عِدّةً ، ومزايا جمّةً ، وذكرناها فى مطالع هذا المبحث . وهى غير ماذكرتم ، فارجعوا إليها إن شئتم .

ويمكن أن ننظم من ذلك قياساً استثنائياً أيضاً هكذا : لو لم تكن العبرة بخصوص السبب لما نقله الرواة واهتموا ببيانه وتدوينه لكن التالى باطل بالحسّ والمشاهدة، فثبت نقيض المقدم وهو أن العبرة بخصوص السبب دليل الملازمة أنه لا يفهم لنقل الرواة وعنايتهم ببيان الأسباب فائدة غير التخصيص .

والجواب أننا نمنع دليل الملازمة ، كيف ؟ ولأسباب النزول فوائد متعددة قد قصصناها عليك أول هذا المبحث فحَذارِ أن تنسى .

« الشبهة الثالثة » يقولون : إن تأخير البيان عن وقوع الواقعة وتوجيه السؤال فى العام الوارد على سبب يدلّ على أن العبرة بخصوص السبب ، لأن تأخير لفظ الشارع إليهما بعد حدوث سببه، يُفهم منه أن السبب هو الملحوظ وحده للشارع فى الحكم عليه بهذا اللفظ العام النازل فيه ، وإلا لما ربطه بالسبب ، بل لأنزله قبله ، أو أخّره عنه .

والجواب أنه يكفى فى حكمة تأخير البيان إلى ما بعد السبب أن يكون اللفظ العامُّ بياناً له ولو مع ما يشابهه من كل ما يندرج تحت اللفظ العام، ولا يستلزم أن يكون بياناً له وحده كما ذكرتم.

ويمكن أن نصوغ من هذا قياساً هكذا : لو لم تكن العبرة بخصوص السبب ، لما أخرَ البيان إلى وقوع الواقعة أو توجيه السؤال. لكن التالى باطل ، فثبت نقيض المقدم وهو المطلوب . دليل الملازمة أن تأخير لفظ الشارع إلى ما بعد وقوع الواقعة وتوجيه السؤال لا يفهم منه إلا أنه بيان لهذا السبب وحده ، وذلك معنى أن العبرة بخصوصه .

والجواب : أننا نمنع دليل الملازمة ، أى نمنع أنه لا يفهم من تأخير البيان إلى ما بعد وقوع الواقعة وتوجيه السؤال إلا أن يكون اللفظ العام النازل بسببهما بياناً لهذا السبب وحده. كيف؟ والتأخير يفهم منه أن اللفظ العامَّ جاء بياناً له مع أشباهه من كل ما ينتظم وإياه فى سلك العلمِّ للأدلة السابقة .

« الشبهة الرابعة » يقولون : قد اتفقت كلمة الفقهاء على أنه إذا دعا رجل رجلًا آخر إلى طعام الغداء وقال له : (تغدَّ عندى) فرفض وقال : (والله لا أتغدَّى) ، ولم يقل « عندك » ، ثم تناول الغداء عند غير هذا الداعى ، فإنه لا يحنث . وماذاك إلا لأن هذا اللفظ العامَّ قد تخصَّص بسببه وهو كلمة (تغدَّ عندى) التى خصَّ بها الداعى نفسه ، فكأن الحالف قال : (لا أتغدى عندك وحدك) ولذلك لا يحنث بغدائه عند غيره .

والجواب : أن حكم الفقهاء فى هذا المثال ليس مبنيًّا على أن كل عام يتخصَّص بسببه كما فهمتم ، بل هو مبنىٌّ على أن هذا المثال وأشباهه تخصَّص بقرينة خارجة وهى حكم العرف هنا بأن الحالف إنما يريد ترك الغداء عند داعيه فقط . وليس كلامنا فيما تخصَّص بقرينة خارجة ، سواء أكانت العرف أم سواه ، فذلك محلٌّ وفاق .

ونظيره أن يقال لك (كلّم فلاناً فى واقعة معينة) فتقول (والله لا أكلّمه أبداً) فإنك لا تحنث إذا كلمته فى غير تلك الواقعة ، لأن العرف يحكم أيضاً بأنك تريد عدم تكليمه فى خصوص تلك الواقعة لا مطلقاً .

ويمكن أن تنظم من هذا قياساً استثنائيًّا يقول :

لو لم تكن العبرة بخصوص السبب ، لكان من قال (والله لا أتغدّى) ولم يقل (عندك) ، فى إجابة من قال له (تغدَّ عندى) حانثا إذا تغدّى عند غيره . لكن التالى باطل ، لنص الفقهاء على عدم حنثه حينئذ ، فبطل المقـــــدم ، وثبت نقيضه ، وهو المطلوب .

دليل الملازمة أن كلمة (لا أتغدى) شاملة للتغدى عند المخاطب وعند غيره ، لأنّ حذف المعمول يُؤْذِن بالعموم . وقد جاءت هذه الكلمة على سبب وهو دعوة المخاطب إياه للغداء . فلو أخذنا بعموم هذا اللفظ ، وأهملنا خصوص هذا السبب ، لكان يحنث بغدائه عند غيره ، لأنه فرد من أفراد ذلك العام .

والجواب : أن التخصيص بالسبب هنا لم يجئ من نفس السبب ، إنما جاء من قرينة خارجة هى حكم العرف بأنّ حالف مثل هذه اليمين إنما يقصد عدم التغدّى عند من دعاه وحده . ولا كلام لنا فى ذلك ، لأن التخصيص بالقرينة الخارجة محلّ وفاق كما تقدم .

« الشبهة الخامسة » يقولون : إن التطابق بين السؤال وجوابه واجب ، فى نظر الحكمة ، وبحكم قانون البلاغة . وهذا التطابق لا يستقيم إلا بالتساوى بين لفظ العام وسببه الخاص . والتساوى لا يكون إلا إذا خصصنا اللفظ العام بسببه الخاص . لاسيما إذا وقع ذلك فى كلام الشارع الحكيم ، وجاء فى أرقى نصوص البلاغة وواحدها إعجازاً ، وهو القرآن الكريم .

والجواب : أن طرد العامّ على عمومه لا يخلّ بمطابقته لسببه الخاص ؟ لأن هذه المطابقة تحصل بكون اللفظ أعمّ من سببه ، كما تحصل بمساواته إياه ، فإن المقصود من المطابقة أن يكون اللفظ مبيناً لحكم السبب وغير قاصر عن الوفاء به ، وهو إذا جاء أعمّ يكون قد وفّى بالمراد وزاد .

ويمكن أن تسبك من هـــذا قياساً استثنائياً صيغته هكذا : لو لم تكن العبرة بخصوص السبب ، لكان اللفظ غير مطابق للسبب . لكن التالي باطل ، فثبت نقيض المقدم . دليل الملازمة : أن الكلام هنا مفروض في سبب خاص ولفظ عام ، ولا شك أن العام لا يطابق الخاص ، ودليل بطلان التالي : أن عـــدم المطابقة مناف للحكمة ، ومخلّ بالبلاغة .

والجواب : أننا نبطل تلك الملازمة ، ونمنع دليلها وهو أن العام لا يطابق الخاص. كيف ؟ وللمطابقة كما تحصل بمساواة اللفظ للسبب عموماً وخصوصاً ، تحصل بكون اللفظ أعم من السبب ، لأن المراد من الجواب أن يتحدّث عن السبب ويبين حكمه ، وذلك حاصل مع كونه أعم منه ، ولا يتوقف على مساواته إياه .

ملاحظة : يمكنك بعد هذا البيان ، أن تحول تلك الأقيسة الاستثنائية إلى أقيسة اقترانية ، ثم تستدل على مقدماتها بسهولة ويسر ، على نمط ما فعلنا بأدلة الجمهور . فأمامك المجال ، ولا داعي لإطالة المقال .

كما أرجو أن يعذرني القارئ الكريم ، إذا شقّ عليه بعض الشيء أن يهضم تلك الصناعة الفنيّة في صياغة الأدلة بعض الأحيان ؛ فإن للوسط قضاء لا يردّ ، وللصناعة حكماً لا ينقض . ومن واجبي أن أشبع حاجة هؤلاء وهؤلاء ، لذلك تراني طوراً هنا وطوراً هناك . والله هو الفتاح العليم ؛ وهو الموفق والمعين .

١١ — شبيه بالسبب الخاص مع اللفظ العام

نوّه السيوطيُّ في الإتقان ، وابنُ السُّبكيِّ والمحليُّ في جمع الجوامع وشرحه ، بأنّ القرآن الكريم قد يردُ فيه ما يشبه السبب الخاص مع اللفظ العام النازل فيه ، فيكون لهذا الشبه أثرٌ صالحٌ في تناول الآية العامة للمضمون الخاص في الآية التي معها ، تناولاً ممتازاً يجعله أسبقَ إلى الذهن من غيره ، وأبعد عن خروجه بالتخصيص إذا ورد مخصصٌ لتلك الآية العامة . فكأنه قطعيُّ الدخول . وكأنه مجمع على عدم خروجه بالمخصّص ، كما أجمعوا على عدم خروج السبب الخاص من لفظ العام النازل فيه .

وهاك مثلًا يوضح لك المقـــام : قال الله تعالى في سورة النساء : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ ، يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا » إلى آخر الآيات الواردة في هـــذا الموضوع .

فأنت ترى أن هذه الآيات شنّعتْ على الخيانة والخائنين من اليهود ، وتوعّدتهم أفظع الوعيد ، ووبختهم أشدَّ التوبيخ . وذلك في معنى النهي البالغ عن تلك الخيانة أي خيانتهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، حيث جعلوا المشركين أهدى سبيلًا منهم. ومن المقرَّر أن النهي عن شيء أمرٌ بضدِّه ، فلا جرم تضمّنت هـــذه الآيات أيضاً أمرَ اليهود بالأمانة في الحـــكم على النبي ﷺ وأصحابه ، ووصفهم بالصفات الحقيقية خصوصاً أنهم قد مدحوا في كتابهم التوراة كما قال الله تعالى في سورة الأعراف : « يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ » الخ والضميرُ للنبي ﷺ ، وكما قال في سورة الفتح بعد أن وصف النبي وأصحابه : « ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ » الخ .

ثم جاء عقيب تلك الآيات في الترتيب الوضعيِّ قوله سبحانه وتعالى : « إِنَّ اللَّهَ

بأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » فيكون المناسب بينهما رائعاً ، والصلة وثيقة والانسجام جميلاً ، ولأن هذه الآية تأمر بالأمانة في عمومها كما ترى ، وتلك الآيات تأمر بأمانة خاصة كما رأيت ، وما أحكم الصلة بين العام والخاص ، فيكون ذلك شبيهاً بالسبب الخاص ينزل فيه لفظ عام ، وإذا كان تناول العام لأفراد الخاص محكماً عليه ولا يصح خروجه بمخصص ، فكذلك الأمانة الخاصة التي معنا تنتظم في سلك الأمانة العامة انتظاماً قطعياً ، وتدخل فيها دخولاً أولياً ، حتى لو قيل إنه لا يصح إخراجها منها بمخصص لم يبعد ، وذلك ما حدا بابن السبكي أن يجعلها مرتبة دون السبب وفوق التجرد .

وإنما لم تجعل في مرتبة السبب ، لأن الأولى ليست سبباً في الثانية ، ولأن المقارنة بينهما ليست إلا في ترتيب آيات القرآن ووضع بعضها بإزاء بعض ، وليست مقارنة زمانية في النزول بل إن بينهما تفاوتاً بعيداً ، فالثانية تأخرت عن الأولى بنحو ست سنين ، ولا يضير ذلك لأن تقارب الزمان ليس شرطاً في وضع آية لصق آية تناسبها ، إنما هو شرط في أسباب النزول مع ما نزل فيها فحسب .

ولعل من تمام الفائدة أن نسوق إليك ما جاء في جمع الجوامع للإمام ابن السبكي وشارحه جلال الدين المحلي في هذه المناسبة ، ونصه : « (ويقرب منها) أي من صورة السبب حتى يكون قطعي الدخول أو ظنيه (خاص في القرآن تلاه في الرسم) أي رسم القرآن بمعنى وضعه مواضعه ، وإن لم يتله في النزول (عام للمناسبة) بين التالي والمتلو ، كما في قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ ، يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ » الخ فإنه — كما قال أهل التفسير — إشارة إلى كعب ابن الأشرف ونحوه من علماء اليهود لما قدموا مكة وشاهدوا قتلى بدر ، حرضوا المشركين على الأخذ بثأرهم ، ومحاربة النبي صلى الله عليه وسلم فسألوهم : من أهدى سبيلاً ، محمد وأصحابه أم نحن ؟ فقالوا : أنتم ، مع علمهم بما في كتابهم من نعت النبي صلى الله عليه وسلم المنطبق عليه ، وأخذ المواثيق عليهم ألا يكتموه ، فكان ذلك أمانة لازمة لهم ولم

يؤذونها بعيث قالوا للكفار : أنتم أهدى سبيلا منه أى النبى ﷺ . وقد تضمنت الآية مع هذا القول التوعد عليه المفيد للأمر بمقابله المشتمل على أداء الأمانة التى هى بيان صفة النبى ﷺ ، بإفادة أنه الموصوف فى كتابهم ، وذلك مناسب لقوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » فهذا عامٌّ فى كل أمانة ، وذلك خاصٌّ بأمانة هى بيان صفة النبى صلى الله عليه وسلم بالطريق السابق ، والعامُّ تالٍ للخاص فى الرسم متراخٍ عنه فى النزول بست سنين ، مدة ما بين بدر فى رمضان من السنة الثانية ، والفتح فى رمضان من السنة الثامنة ، وإنما قال : ويقرب منها كذا ؛ لأنه لم يرد العامُّ بسببه بخلافها » اهـ والحمد لله أولا وآخراً .

المبحث السادس

فى نزول القرآن على سبعة أحرف

هذا مبحثٌ طريفٌ وشائق ، غير أنه مخيفٌ وشائك ! . أما طرافته وشوقه ، فلأنه يرينا مظهراً من مظاهر رحمة الله وتخفيفه على عباده ، وتيسيره لكتابه على كافة القبائل العربية ، بل على جميع شعوب الأمة الإسلامية ، من كل جيل وقبيل ، حتى ينطقوا به ليّنةً ألسنتهم ، سهلةً لهجاتهم ، برغم ما بينهم من اختلاف فى اللغات ، وتنوع فى الخصائص والميزات .

ومن طرافة هذا المبحث أيضاً أنك تشاهد فيه عرضاً عاما لمنتجات أفكار كثيرة ، وتشهد جيشاً جراراً من مذاهب وآراء . كلها تحاول العمل لخدمة العلم ، وإظهار الحق ، والدفاع عن عرين القرآن والإسلام .

وأما مخافة هذا المبحث وشوكه ، فلأنه كثر فيه القيل والقال ، إلى حدٍّ كاد يطمس أنوار الحقيقة ، حتى استعصى فهمه على بعض العلماء ولاذ بالفرار منه وقال : إنه

مشكل . وحق اضطر جماعة من كبار المحققين أن يفردوه بالتأليف قديماً وحديثاً ، ما بين العلامة المعروف بأبى شامة فى القرن السابع الهجرى ، والعلامة الشيخ محمد بخيت فى القرن الرابع عشر .

أضف إلى ذلك أن الخطأ فى هذا الباب قد يتخذ منه أعداء الإسلام سبيلاً معوجاً إلى توجيه المطاعن الخبيثة إلى القرآن ، كما وقفت أو وقع على كتاب لمن يدعون أنفسهم مبشرين ، أسموه « مباحث قرآنية » وجعلوا موضوع الجزء الأول منه « هل من تحريف فى الكتاب الشريف » ؟ وتصيدوا فيه من الآراء الزائفة ما الحق منه برىء « وهمّوا بما لم ينالوا » .

ونحن نستعين الله ونستهديه ، أن يخلص لنا الورد من الشوك فى هذا الموضوع الشائق الشائك ، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً .

وسنجول فى هذا الميدان ـ إن شاء الله ـ جولات عدة ، نتحدث فيها عن أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف ، وعن شواهد بارزة فى هذه الأحاديث الواردة ، بينها فوائد كثيرة لاختلاف الحروف والقراءات ، وعن معنى نزول القرآن على سبعة أحرف وعن الوجوه السبعة فى المذهب المختار ، وعن تحقيق النسبة بين المذهب المختار وأشباهه ، وعن وجوه اختيار هذا المذهب ، وعن دفع الاعتراضات الواردة عليه ، وعن بقاء هذه الأحرف السبعة فى المصاحف ، وعن الأقوال الأخرى وتفنيدها ، وعن دفع إجمالى للأقوال الأخيرة منها ، ثم نختم المبحث بعلاج الشبهات الواردة على هذا الموضوع : والله المستعان .

١ - أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف

لا سبيل إلى الاستدلال على هذا إلا بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد جاء هذا النقل الصحيح من طرق مختلفة كثيرة ، ورُوىَ حديثُ نزول القرآن على سبعة أحرف عن جمعٍ كبير من الصحابة . منهم عمر ، وعثمان ، وابن مسعود وابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو بكر ، وأبو جهم ، وأبو سعيد الخدرى ، وأبو طلحة الأنصارى ، وأُبىُّ بن كعب ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسلمان بن صُرد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمرو بن أبى سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأنس ، وحذيفة ، وأم أيوب امرأة أبى أيوب الأنصارى ، رضى الله عنهم أجمعين . فهؤلاء أحد وعشرون صحابياً ، ما منهم إلا رواه وحكاه .

وروى الحافظ أبو يَعْلَى فى مسنده الكبير أن عثمان رضى الله عنه قال يوما وهو على المنبر : « أذكر الله رجلًا سمع النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنَّ القرآنَ أُنزلَ عَلَى سبعةِ أحرُفٍ كلها شافٍ كافٍ » لما قامَ . فقاموا حتى لم يُحصَوْا ، فشهدوا أنّ رسول الله ﷺ قال : « أُنزلَ القرآنُ عَلَى سبعةِ أحْرُفٍ كلها شافٍ كافٍ » فقال عثمان رضى الله عنه : « وأنا أشهدُ معهمْ » .

وكأن هذه الجموع التى يؤمن تواطؤها على الكذب هى التى جعلت الإمام أبا عبيد ابن سلّام يقول بتواتر هذا الحديث . لكنك خبير بأن من شروط التواتر ، توافرَ جمعٍ يُؤمن تواطؤهم على الكذب فى كل طبقة من طبقات الرواية . وهذا الشرط إذا كان موفوراً هنا فى طبقة الصحابة كما رأيت ، فليس بموفور لدينا فى الطبقات المتأخرة .

وهاك طائفة من تلك الأحاديث نسوقها إليك استدلالًا من ناحية ، وتنويراً فى بيان المعنى وإقامةً لمعالم الحق فيه من ناحية ثانية :

(١) روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقرأنى جبريلُ على حرفٍ فراجعته، فلم أزل أستزيدهُ ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعةِ أحرفٍ» زاد مسلم: «قال ابن شهاب: بلغنى أنَّ تلك السبعةَ فى الأمرِ الذى يكونُ واحداً لا يختلفُ فى حلالٍ ولا حرامٍ».

(٢) وروى البخارى ومسلم أيضاً ـ (واللفظ للبخارى) أنَّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرأ سورة الفرقانِ فى حياةِ رسول الله ﷺ، فاستمعتُ لقراءتهِ فإذا هوَ يقرؤها على حروفٍ كثيرةٍ، لم يقرِئنيها رسول الله ﷺ، فكدتُ أساورهُ فى الصلاةِ، فانتظرتهُ حتى سلم، ثمَّ لبَّبتهُ بردائه أوْ بردائى، فقلت: منْ أقرأكَ هذهِ السورةَ؟ قال: أقرأنيها رسولُ اللهِ ﷺ. قلت له: كذبتَ، فوالله إنَّ رسول الله ﷺ أقرأنى هذهِ السورةَ التى سمعتكَ تقرؤها، فانطلقتُ أقودُه إلى رسول الله ﷺ فقلتُ: يارسولَ اللهِ إنى سمعتُ هذا يقرأُ بسورةِ الفرقانِ عَلَى حروفٍ لم تقرِئنيها، وأنتَ أقرأتنى سورةَ الفرقانِ. فقال رسولُ الله ﷺ: أرسلهُ ياعمرُ: اقرأْ ياهشامُ، فقرأ هذه القراءةَ التى سمعتهُ يقرؤها. قال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت. ثم قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ هذا القرآنَ أنزلَ على سبعة أحرفٍ، فاقرأوا ماتيسرَ منهُ».

(٣) وروى مسلمٌ بسنده عن أبيِّ بن كعب قال: «كنتُ فى المسجدِ، فدخلَ رجلٌ يصلى، فقرأ قراءةً أنكرتُها عليهِ، ثمَّ دخلَ آخرُ، فقرأ قراءةً سوى قراءةِ صاحبهِ، فلمَّا قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلتُ: إنَّ هذا قرأ قراءةً أنكرتُها عليهِ، ودخلَ آخرُ فقرأ سوى قراءةِ صاحبه. فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرآ، فحسَّنَ النبى صلى الله عليه وسلم شأنهما، فسقطَ فى نفسى منَ التكذيبِ ولا إذْ كنتُ فى الجاهلية. فلمَّا رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما قد

غشيني ضربَ في صدْري ، ففضتُ عرقًا، وكأنما أنظرُ إلى اللهِ عزّ وجلّ فرَقًا فقال لي : يا أبيُّ ، أُرسلَ إليَّ أن أقرأ القرآنَ على حرف فرددتُ إليهِ : أنْ هوِّنْ على أمتي ، فردَّ إليَّ الثانيةَ : اقرأهُ على حرفينِ ، فرددتُ إليهِ : أنْ هونْ على أمتي ، فردَّ إليَّ الثالثةَ : اقرأهُ على سبعةِ أحرفٍ ، ولكَ بكلِّ ردةٍ رددتها مسألةٌ تسألنيها . فقلتُ : « اللهمَّ اغفرْ لأمتي اللهم اغفر لأمتي . وأخرتُ الثالثةَ ليومٍ يرغبُ إليَّ الخلقُ كلهمْ حتى إبراهيمُ صلى الله عليهِ وسلم » . ا . هـ .

واعلم أن معنى قول أبيٍّ بن كعب رضى الله عنه « فسقط في نفسي من التكذيب الخ » أن الشيطان ألقى إليه من وساوس التكذيب ما شوّشَ عليه حاله ، حين رأى النبي ﷺ قد حسّنَ القراءتين وصوّبهما على ما بينهما من اختلاف ، وكانتا في سورة واحدة هي سورة النحل على ما رواه الطبري . وكأنّ الذى مرَّ بخاطره وقتئذ أنَّ هذا الاختلاف في القراءة ينافي أنه من عند الله . لكنه كان خاطراً من الخواطر الرديئة التي لا تنال من نفس صاحبها منالًا ، ولا تفتنها عن عقيدة ، ولا يكون لها أثرٌ باقٍ ولا عملٌ دائم .

ومن رحمة الله بعباده أنه لا يؤخذهم بهواجس النفوس وخلجات الضمائر العابرة . ولكن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم ، حين يفتح الإنسان للشبهة صدره ، ويوجه إليها اختياره وكسبه ، ثم يعقد عليها فؤاده وقلبه .

قال القرطبي « فكان هذا الخاطر (يشير إلى ما سقط في نفس أبيّ) من قبيل ما قال فيه النبي ﷺ حين سألوه : إنّا نجدُ في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أنْ يتكلمَ بهِ . قال : أوَقدْ وجدتموهُ ؟ قالوا : نعمْ . قال : ذلكَ صريحُ الإيمان » . رواه مسلم ا هـ .

ومن هذا تعلم أن ما خطر لسيدنا أبي بن كعب رضى الله عنه ، لا يمسُّ مقامه

ولا يصادم إيمانه ، مادام قد دفعه بإرشاد رسول الله ﷺ سريعاً كما فى الحديث الشريف .

وأىُّ إنسان يستطيع أن يحمىَ نفسه خواطرَ السوء الهوْجاء ، ورياحَ الهواجس الشنعْاء ؟ إنما الواجب على المؤمن أن يحارب تلك الخواطر الرديئة بأسلحة العلم وتعاليم الشريعة ، ولا يستسلم لها ولا يسترسل معها . وعلينا أن نتعاون فى هذا الميدان كما فعل الرسول ﷺ بأُبَىّ إذ ضَرَبَ فى صدره ، ليصرفه بشدة عن الاشتغال بهذا الخاطر ، وليلفته بقوةٍ إلى ما قصه عليه علاجاً لشبهته ، من أن القرآن أُنزل على سبعة أحرف ، تهويناً على أمته وتيسيراً لها . ولقد نجح الرسول ﷺ فى هذا العلاج أيَّمَا نجاح حتى قال أُبَىٌّ نفسه : « فَفِضْتُ عَرَقًا ، وَكَأَنِّى أنظرُ إلى اللهِ عزَّ وَجلَّ فرَقًا » .

ذلك ما نراه مُخَلِّصاً فى هذا المقام الذى زلّت فيه بعض الأقدام ، وللعلامة الشيخ محمد عبد الله دراز كلامٌ جيدٌ فى مثل هذا الموضوع من كتابه المختار ، فارجع إليه إن أردت التوسُّع ومزيد البيان .

أضف إلى ما ذكرنا أن خصومة أُبى بن كعب فى أمر اختلاف القراءة على هذا النحو ، إنما كانت من قبل أن يعلم أن القرآن أُنزل على سبعة أحرف ، فهو وقتئذ كان معذوراً ، بدليل أنه لما علم بذلك ، واطْمَأَنَّتْ إليه نفسه ، عمل بما علم ، وكان مرجعاً مُهِما من مراجع القرآن على اختلاف رواياته ، وكان من رُواة هـذا العلم للناس كما تلاحظه فى الحديثَين المسندين إليه بعدُ .

(٤) روى مسلم بسنده عن أُبى بن كعب أن النبى ﷺ كانَ عندَ أَضاةِ بَنى غِفَار . قال : « فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال : إنَّ ٱللَّهَ يأمرُك أنْ تقرأَ أُمتُكَ القرآنَ عَلَى حرْفٍ . فقال : أَسأَلُ ٱللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمغفرتَهُ ؛ وَإن أمتى لَا تُطيقُ

ذلكَ . ثم أتاهُ الثانيةَ فقال : إنَّ اللهَ يأمرُكَ أنْ تقرأ أمتكَ القرآنَ عَلَى حرفين فقال : أسألُ اللهَ معافاته وَمَغفرتَه ؛ وإنَّ أمتي لا تُطيقُ ذلكَ ثم جاءه الثالثة فقال : إنَّ اللهَ يأمُرُكَ أنْ تقرأ أمتكَ القرآن عَلَى ثلاثةِ أحرفٍ ، فقال : أسألُ اللهَ مُعافاتهُ ومَغفرتَهُ ، وإن أمتي لا تُطيق ذلكَ ثم جاءه الرابعةَ فقال : إنَّ اللهَ يأمُركَ أنْ تقرأ أمتكَ القرآن عَلَى سَبعة أحرفٍ . فأيما حَرفٍ قرءوا عليه فقدْ أصابوا » اهـ .

(وَأَضَاةُ بنى غِفَار) بفتح الهمزة فى أضاة وبكسر الغين فى غفار : مُسْتنقَع الماء كالغدير ؛ وكان بموضع من المدينة المنوَّرة ينسب إلى بنى غفار ، لأنهم نزلوا عنده .

(٥) وروى الترمذى عن أبى بن كعب أيضاً قال : لقىَ رسولُ الله ﷺ جبريلَ عندَ أحْجار المروَة قال : فقال رسول الله ﷺ لجبريلَ : إنِّى بعثتُ إلى أمة أمِّيينَ ؛ فيهم الشَّيخُ الفَانى ، والعجوزُ الكبيرَةُ ، وَالغلامُ . قال : « فَمرْهُمْ فَلْيقرءوا القرآنَ عَلَى سَبعةِ أحرفٍ » قال الترمذى : حسن صحيح . وفى لفظ : « فمَنْ قرأَ بحرفٍ منها فهوَ كما قرأ » ؛ وفى لفظ حذيفة « فقلت : ياجبريل إنى أرسلتُ إلى أمّة أمّية فيهم الرجلُ ، والمرأةُ ؛ والجارية ؛ والشيخُ الفانى الذى لَمْ يقرأْ كتاباً قطُّ قال : « إن القرآنَ أنزلَ عَلَى سبعةِ أحرفٍ » .

(٦) أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو أنَّ رَجلًا قرأ آيةً من القرآن ، فقال له عمرٌو : إنما هىَ كذا وكذا ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : « إنَّ هٰذا القرآنَ أُنزلَ عَلَى سبعةِ أحرفٍ ، فأىَّ ذلك قرأتمْ أصبتمْ ، فَلَا تُمارُوا » اهـ .

قال فى القاموس : ماراه مُماراة ومِراءً ، وامترَى فيه وتمارَى : شكَّ . والمرية بالكسر والضم : الشكُّ والجدلُ . اهـ .

(٧) روى الحاكم وابن حبان بسندهما عن ابن مسعود قال: «أقرأني رسولُ اللهِ ﷺ سورةً من آلِ حم، فرُحتُ إلى المسجدِ، فقلتُ لرجلٍ: اقرأها. فإذا هو يقرؤها حروفاً ما أقرؤها. فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ فأخبرناه فتغيرَ وجههُ وقال: «إنما أهلكَ مَنْ قبلكم الاختلافُ» ثمَّ أسرَّ إلى عليّ شيئاً. فقال عليٌّ: إنَّ رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كلُّ رجل منكم كما علِّم. قال: فانطلقنا وكلُّ رجلٍ يقرأُ حروفاً لا يقرؤها صاحبهُ» اهـ.

(٨) وأخرج البخاريُّ عن عبد الله بن مسعود أيضاً أنهُ سمعَ رجلًا يقرأُ آيةً سمع النبي ﷺ يقرأُ خلافها. قال: فأخذتُ بيدِه فانطلقتُ بهِ إلى النبي ﷺ فقال: «كلا كما محسنٌ، فاقرأْ» قال شعبةُ أحد رواة هذا الحديث: أكبرُ علمي أن النبي ﷺ قال: «فإن منْ كانَ قبلكم اختلفوا فأهلكوا».

(٩) روى الطبريُّ والطبرانيُّ عن زيد بن أرقم قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرأني ابنُ مسعودٍ سورةً أقرأنيها زيد بن ثابتٍ، وأقرأنيها أُبيُّ ابن كعبٍ فاختلفتْ قراءتهم، فبقراءةِ أيهمْ آخذ؟ فسكتَ رسول الله ﷺ وعليٌّ إلى جنبه، فقال عليٌّ: «ليقرأ كلُّ إنسانٍ منكمْ كما علِّم، فإنه حسنٌ جميلٌ».

(١٠) وأخرج ابن جرير الطبري عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذا القرآنَ أُنزلَ على سبعةِ أحرفٍ، فاقرءوا ولا حرجَ ولكن لا تختموا ذكرَ رحمةٍ بعذابٍ، ولا ذكرَ عذابٍ برحمةٍ».

٢ — شواهد بارزة فى هذه الأحاديث الواردة

إن الناظر فى هذه الأحاديث الشريفة وما ماثلها ، يستطيع أن يقيم منها شواهد بارزةً ، تكون منارات هدى ، ومصادر إشعاع ونور ، ترشده إلى ما عسى أن يكون هو الحقّ والصواب فى بيان معنى الأحرف السبعة ، كما يستطيع أن يأخذ منها موازين ومقاييس يحاكم إليها كلّ ما شجر من هذا الخلاف البعيد ، فى هذا الموضوع الدقيق .

(الشاهد الأول) أن الحكمة فى نزول القرآن على الأحرف السبعة هى التيسير على الأمة الإسلامية كلها ، خصوصاً الأمّةَ العربية التى شوفهتْ بالقرآن ، فإنها كانت قبائل كثيرة ، وكان بينها اختلافٌ فى اللهجات وَنَبَرات الأصوات ، وطريقة الأداء وشهرة بعض الألفاظ فى بعض المدلولات على رغم أنها كانت تجمعها العروبة ، ويوحِّد بينها اللسان العربىُّ العام . فلو أخذتْ كلها بقراءة القرآن على حرفٍ واحد ، لشق ذلك عليها كما يشقُّ على القاهرى منا أن يتكلم بلهجة الأسيوطىِّ مثلًا ، وإن جمع بيننا اللسان المصرىُّ العامُّ ، وألفت بيننا الوطنية المصرية فى القطر الواحد .

وهذا الشاهد نجده ماثلًا بوضوح بين الأحاديث السالفة فى قوله ﷺ فى كل مرّةٍ من مرّات الاستزادة « فرددتُ إليه أنْ هوِّنْ على أمتى » وقوله : « أسألُ اللهَ معافاتهُ وَمغفرتَه ، وَإنَّ أمتى لَا تطيقُ ذلكَ » ومن أنه ﷺ لقىَ جبريلَ فقال : « يا جبريلُ إنى أُرْسلتُ إلى أمَّة أمِّيَّة فيهم الرجلُ والمرأة ، والغلام والجارية ، والشيخ الفانى الذى لم يقرأ كتاباً قط » الخ .

قال المحقق ابن الجزرى : « وأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة ، وإرادة اليسر بها ، والتهوين عليها شرفاً لها ، وتوسعةً ورحمةً وخصوصيةً لفضلها ، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق ، حيث أتاه جبريل فقال :

« إنّ الله يأمرُكَ أنْ تقرَأ أمتُك القرآنَ عَلَى حرف ، فقال ﷺ : أسأَلُ اللهَ معافاته ومعونته فإنّ أمتي لا تطيقُ ذلك ، ولمْ يزلْ يردّدُ المسألةَ حتى بلغَ سبعة أحرف » ثم قال : « وكما ثبتَ أنّ القرآنَ نزلَ منْ سبعةِ أبوابٍ عَلَى سبعة أحرف ، وأنّ الكتابَ قبلهُ كان ينزلُ من باب واحد على حرفٍ واحدٍ ، وذلك أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يبعثونَ إلى قومهم الخاصين ، والنبي ﷺ بُعثَ إلى جميع الخلق أحمرِهم وأسوَدِهم ، عربِيهمْ وعجميهمْ ، وكان العرب الذى نزل القرآن بلغتهم . لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغةٍ إلى غيرها ، أو من حرف إلى آخر . بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج ، لا سيما الشيخ ، والمرأة ، ومن لم يقرأ كتابا كما أشار إليه ﷺ ، فلو كُلّفُوا العدولَ عن لغتهم ، والانتقال عن ألسنتهم ، لكان من التكليف بما لا يستطاع ، وما عسى أن يتكلف المتكلفُ وتأبى الطباع » اهـ .

فوائد أخرى لاختلاف القراءة وتعددِ الحروف

كلُّ ما مرَّ عليك فى الشاهد الأول تقريرٌ لحكمةٍ واحدة ، وفائدة واحدة من فوائد اختلاف القراءات وتعدُّد الحروف التى نزل عليها القرآن الكريم وهى أبرز الفوائد وأشهرها وأقربها إلى الذهن. ونحيطك علماً هنا بأن لهذا الاختلاف والتعدُّد فوائدَ أخرى:

منها جمع الأمة الإسلامية الجديدة على لسانٍ واحدٍ يوحد بينها ، وهو لسان قريش الذى نزل به القرآن الكريم ، والذى انتظمَ كثيراً من مختارات ألسنة القبائل العربية التى كانت تختلف إلى مكة فى موسم الحج وأسواق العرب المشهورة . فكان القرشيون يستملحون ما شاءوا ، ويصطفون ماراق لهم من ألفاظ الوفود العربية القادمة إليهم من كل صوبٍ وحدَب ثم يصقلونه ويهذبونه ويدخلونه

فى دائرة لغتهم المرِنة ، التى أذعن جميع العرب لها بالزعامة ، وعقدوا لها راية الإمامة . وعلى هذه السياسة الرشيدة نزل القرآن على سبعة أحرف يصطفى ما شاء من لغات القبائل العربية ، على نمط سياسة القرشيين بل أوْفق . ومن هنا صحّ أن يقال : إنه نزل بلغة قريش، لأن لغات العرب جمعاء تمثلت فى لسان القرشيين بهذا المعنى. وكانت هذه حكمة إلٰهية سامية ؛ فإن وحدة اللسان العامّ من أهمّ العوامل فى وحدة الأمة ، خصوصاً أول عهد بالتوثب والنهوض .

ومنها بيان حكم من الأحكام ، كقوله سبحانه : « وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ » قرأ سعد بن أبى وقاص « وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمٍّ » بزيادة لفظ « منْ أُمٍّ » فتبين بها أن المراد بالإخوة فى هذا الحكم الإخوة للأم دون الأشقاء ومنْ كانوا لأب ، وهذا أمرٌ مجمعٌ عليه .

ومثل ذلك قوله سبحانه فى كفارة اليمين : « فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وجاء فى قراءة : « أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » بزيادة لفظ « مُؤْمِنَةٍ » فتبين بها اشتراطُ الإيمان فى الرقيق الذى يعتق كفارة يمين . وهذا يؤيد مذهب الشافعى ومن نحا نحوه فى وجوب توافر ذلك الشرط .

ومنها الجمع بين حكمين مختلفين بمجموع القراءتين ، كقوله تعالى : « فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ . وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ » قرئ بالتخفيف والتشديد فى حرف الطاء من كلمة « يطهرنَ » ولا ريب أنَّ صيغة التشديد تفيد وجوب المبالغة فى طهر النساء من الحيض ؛ لأن زيادة المبْنَى تدلُّ على زيادة المعنى . أما قراءة التخفيف فلا

تفيد هذه المبالغة . ومجموع القراءتين يحكم بأمرين : أحدهما أن الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر . وذلك بانقطاع الحيض . وثانيهما أنها لا يقربها زوجها أيضاً إلا إن بالغتْ فى الطهر وذلك بالاغتسال ، فلابد من الطهرين كليهما فى جواز قربان النساء . وهو مذهب الشافعى ومن وافقه أيضاً .

ومنها الدلالة على حكمين شرعيين ولكن فى حالين مختلفين : كقوله تعالى فى بيان الوضوء « فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ » قرئ بنصب لفظ « أرجلكم » وبجرها . فالنصب يفيد طلب غسلها ؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ «وجوهكم» المنصوب ، وهو مغسول . والجرُّ يفيد طلب مسحها ؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « رءوسكم » المجرور ، وهو ممسوح . وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن المسح يكون للابس الخف وأنَّ الغسل يجب على من لم يلبس الخف .

ومنها دفع توهم ما ليس مراداً كقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » وقرئَ « فامضوا إلى ذكرِ الله » . فالقراءة الأولى يتوهَم منها وجوبُ السرعة فى المشى إلى صلاة الجمعة ، ولكن القراءة الثانية رفعت هذا التوهم لأن المضىَّ ليس من مدلوله السرعة .

ومنها بيان لفظ مبهمٍ على البعض نحو قوله تعالى : « وتكونُ الجبالُ كالعِهنِ المنفوشِ » وقرئ « كالصوفِ المنفوشِ » فبينت القراءةُ الثانية أنَّ العهنَ هو الصوف.

ومنها تجلية عقيدةٍ ضلَّ فيها بعضُ الناسِ : نحو قوله تعالى فى وصف الجنة وأهلها : « وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً » جاءت القراءة بضم الميم

وسكون اللام فى لفظ (وملكا كبيراً) وجاءت قراءة أخرى بفتح الميم وكسر اللام فى هذا اللفظ نفسه ، فرفعت هذه القراءةُ الثانية نقابَ الخفاء عن وجه الحق فى عقيدة رؤية المؤمنين لله تعالى فى الآخرة ، لأنه سبحانه هو الملك وحده فى تلك الدار « لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ » .

والخلاصة : أن تنوُّع القراءات ، يقومُ مقام تعـدُّد الآيات . وذلك ضربٌ من ضروب البلاغة ، يبتدئُ من جمال هذا الإيجاز ، وينتهى إلى كمال الإعجاز .

أضفْ إلى ذلك ما فى تنوُّع القراءات من البراهين الساطعة ، والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله، وعلى صدق منْ جاء به وهو رسول الله ﷺ ، فإن هذه الاختلافات فى القراءة على كثرتها لا تؤدى إلى تناقض فى المقروء وتضاد، ولا إلى تهافت وتخاذل ، بل القرآن كله على تنوُّع قراءاته ، يصدِّق بعضه بعضاً ، ويبينُ بعضه بعضاً ، ويشهد بعضه لبعض ، على نمط واحد فى علو الأسلوب والتعبير ، وهدَفٍ واحدٍ من سموٍّ الهداية والتعليم . وذلك ـ من غير شكٍّ ـ يفيدُ تعدُّدَ الإعجاز بتعدُّد القراءات والحروف .

ومعنى هذا أن القرآن يُعْجِزُ إذا قرئ بهذه القراءة ، ويعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثانية ، ويعجز أيضاً إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة ، وهلمَّ جـرا . ومن هنا تتعدَّد المعجزات بتعدُّد تلك الوجوه والحروف ! .

ولا ريب أن ذلك أدلُّ على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أعظم فى اشتمال القرآن على مناحٍ جمة فى الإعجاز وفى البيان، على كل حرف ووجه ، وبكل لهجة ولسان. « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

(الشاهد الثانى) أن مرَّاتِ استزادة الرسول للتيسير على أمته ، كانت ستاً غير الحرف الذى أقرأه أمينُ الوحى عليه أولَ مرة فتلك سبعة كاملة بمنطوقها ومفهومها ؛

تأمل حديث ابن عباس السابق وقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيه : « أقرأنى جبريلُ عَلَى حرف ، فراجعتهُ ، فلم أزلْ أستزيدُه ويزيدُنى حتى بلغَ سبعةَ أحرف » وكذلك جاء فى حديث لأبى بكرةَ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « فنظرتُ إلى ميكائيل فسكتَ فعلمت أنه قد انتهتِ العدةُ » ، يضاف إلى ذلك المراجعاتُ الثابتةُ فى الأحاديثِ الأخرى ، وإن كانت لم تبلغ ستاً صراحةً ، غير أن الحديث جاء بلفظ السبعة ، فيعلم من مجموع تلك الروايات ، أنَّ المراد بلفظ سبعة حقيقةُ العدد المعروف فى الآحاد بين الستة والثمانية .

(الشاهد الثالث) أن من قرأ حرفاً من هذه الحروف،فقد أصاب شاكلةَ الصواب أياً كان ذلك الحرف ، كما يدلُّ عليه فيما مضى قوله صلى الله عليه وسلم : (فأَيُّما حرْف قرءوا عليهِ فقدْ أصابوا) وقوله صلى الله عليه وسلم لكل من المختلفين فى القراءة (أصبتَ) وقوله صلى الله عليه وسلم لهما فى رواية ابن مسعود: (كلا كمَا محسنٌ)وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عمرو بن العاص : (فأىَّ ذلك قرأتمْ أصبتمْ) . وعدم موافقته صلى الله عليه وسلم لعمر ، وأبىٍّ ، وابن مسعود ، وعمرو بن العاص ، على معارضة مخالفيهم بالطرق الآنفة فى الأحاديث السالفة. ودفعه فى صدر أُبىٍّ حين استصعب عليه أن يُقرَّ هذا الاختلاف فى القراءة . ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى النهى البالغ عن منع أى أحد من القراءة بأى حرف من الأحرف السبعة النازلة .

(الشاهد الرابع): أن القراءات كلها على اختلافها كلام الله، لا مدخل لبشر فيها. بل كلها نازلةٌ من عنده تعالى،مأخوذٌ بالتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . يدلُّ على ذلك أن الأحاديث الماضية تفيد أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يرجعون فيما يقرءون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأخذون عنه ويتلقون منه كل حرف يقرءون عليه ، انظر قوله صلى الله عليه وسلم فى قراءة كل من المختلفين : (هكذَا أنزِلَت) وقول المخالف لصاحبه : « أقرأنيهاَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم » .

ثم أضف إلى ذلك أنه لو صحّ لأحد أن يغير ما شاء من القرآن بمرادفه أو غير مرادفه ، لبطلت قرآنيةُ القرآن وأنه كلام الله ، ولذهب الإعجاز ولما تحقق قوله سبحانه وتعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . ثم إن التبديل والتغيير مردودٌ من أساسه بقوله سبحانه فى سورة يونس : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ . قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

فإذا كان أفضل الخلق محمد ﷺ قد تحرّج من تبديل القرآن بهذا الأسلوب، فكيف يسوغ لأحد مهما كان أمره أن يبدّل فيه ويغير ، بمرادف أو غير مرادف؟ « سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

(الشاهد الخامس) أنه لا يجوز منع أحد من القراءة بأى حرف من تلك الأحرف السبعة النازلة . يدلُّ على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « فَلَا تُمَارُوا فِيهِ ، فَإِنَّ المِرَاءَ فِيهِ كُفْرٌ » وعدمُ موافقته لعمر ، وأبىّ ، وابن مسعود ، وعمرو بن العاص ، على معارضة مخالفيهم بالطرق الآنفة ، فى الأحاديث السالفة . ويدلُّ على ذلك أيضاً دَفعُه فى صدر أُبىّ حين استصعبَ عليه أن يُقرّ هذا الاختلاف فى القراءة . ولا ريب أن ذلك كله فيه معنى النهى البالغ عن منع أىّ أحد من القراءة بأى حرف من الأحرف السبعة النازلة .

(الشاهد السادس) أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا مُتَحَمِّسِينَ فى الدفاع عن القرآن ، مُسْتَبْسِلِينَ فى المحافظة على التنزيل، متيقظين لكل من يُحدِثُ فيه حَدَثاً ولو كان عن طريق الأداء واختلاف اللَّهَجَات ، مبالغين فى هذه اليقظة حتى ليأخذون

فى هذا الباب بالظِّنّة ، وينافحون عن القرآن بكل عناية وهمة ! وحسبك استدلالًا على ذلك ما فعل عمر بصاحبه هشام بن حكيم ، على حين أنّ هشامًا كان فى واقع الأمر على صوابٍ فيما يقرأ ، وأنه قال لعمر تسويغًا لقراءته : أقرأنيها رسول الله ﷺ لكن عمر لم يقتنعْ ، بل لبَّبهُ وساقه إلى المحاكمة ، ولم يتركه حتى قضى رسول الله ﷺ لهشامٍ بأنه أصاب . قل مثل ذلك فيما فعل أبىٌّ بن كعب بصاحبه ، وما كان من ابن مسعود وعمرو بن العاص وصاحبيهما . والأحاديث بين يديك عن كثب ، فارجع إليها إن أردت .

(الشاهد السابع) أنه لا يجوز أن نجعل اختلاف القراءات معركة جدالٍ ونزاعٍ وشقاق ، ولا مثارَ ترددٍ وتشكيك وتكذيب ، ولا سلاحَ عصبيَّة وتنطعٍ وجمود . على حين أن نزول القرآن على سبعة أحرف إنما كانت حكمته من الله التيسير والتخفيف والرحمة والتهوين على الأمة ، فما يكون لنا أن نجعل من هذا اليسر عسرًا ، ومن هذه الرحمة نقمة ! . يرشد إلى ذلك قوله ﷺ فيما سبق « فَلَا تُمَارُوا فيهِ فإنّ المراء فيهِ كفرٌ » . وكذلك تغير وجهه الشريف عند اختلافهم مع قوله : « إنمَا أهلكَ منْ قبلكمْ الاختلاف » وضربهُ فى صدر أبىٍّ بن كعب حين جال بخاطره حديثُ السوء فى هذا الموضوع الجليل .

(الشاهد الثامن) أن المراد بالأحرف فى الأحاديث السابقة وجوهٌ فى الألفاظ وحدها لا محالة . بدليل أن الخلاف الذى صوَّرتهُ لنا الروايات المذكورة كان دائرًا حول قراءة الألفاظ لا تفسيرِ المعانى ، مثل قول عمر : « إذا هوَ يقرؤهَا على حروف كثيرة لم يقرئنيهَا رسول الله صلى الله عليه وسلم » ثم حكم الرسول أن يقرأ كلٌّ منهما ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « هكذا أُنزلتْ » . وقوله : « أىَّ ذلكَ قرأتمْ فقد أصبتمْ » ونحو ذلك ولا ريب أن القراءة أداء الألفاظ ، لا شرح المعانى .

٣ — معنى نزول القرآن على سبعة أحرف

يهمنا بعد الذى أسلفنا إليك أن نبين لك معنى الجملة الشريفة : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » فإليكَ :

أما لفظ القرآن فقد أشبعناه كلاماً فى المبحث الأول . وأما الإنزال فقد استوفيناه تحقيقاً فى المبحث الثالث . وأما السبعة فقد علمت فى الشاهد الثانى من الشواهد الماضية أن المراد بها حقيقتها وهى العدد المعروف فى الآحاد بين الستة والثمانية . وأما الأحرف فجمع حرف ، والحرف يطلق على معان كثيرة ، أتى عليها صاحب القاموس ؛ إذ يقول ما نصه : « الحرف من كل شىء طرفه ، وشفيره ، وحدُّه ، ومن الجبل أعلاه المحدَّد ، وواحد حروف التهجِّى ، والناقة الضامرة أو المهزولة أو العظيمة ، ومسيل الماء ، وآرامٌ سودٌ ببلاد سليم . وعند النحاة ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل . « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللهَ عَلَى حَرْفٍ » أى وجهٍ واحد، وهو أن يعبده على السراء لا على الضراء ، أو على شكٍّ ، أو على غير طمأنينة من أمره ، أى لا يدخل فى الدين متمكِّناً . « ونزلَ القرآنُ على سبعةِ أحرُفٍ » : سبعِ لغاتٍ من لغات العرب . وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه وإن جاء على سبعة أو عشرة أو أكثر ، ولكن معناه أنَّ هذه اللغات السبع متفرِّقةٌ فى القرآن » اهـ بتصرف قليل . وهذه الإطلاقات الكثيرة تدلُّ على أنَّ لفظ الحرف من قبيل المشترك اللفظى ، والمشترَك اللفظىُّ يراد به أحدُ معانيه التى تعينها القرائن وتناسب المقام .

وأنسب المعانى بالمقام هنا فى إطلاقات لفظ الحرف أنهُ الوَجه بالمعنى الذى سنقصه عليك ، لا بالمعنى الذى ذهب إليه صاحب القاموس وغيره من أنه اللغة أو غيرها . فسيأتيك تفنيد هذه الآراء بعد .

ثم إن كلمة (عَلَى) فى قوله صلى الله عليه وسلم: « أنزلَ القرآنُ عَلَى سبعةِ أحرفٍ» تشير إلى أن المسألة على هذا الشرط من التوسعة والتيسير ، أى أنزل القرآن موسعاً فيه على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه، يقرأ بأىِّ حرف أراد منها على البدل من صاحبه، كأنه قال : أنزل على هذا الشرط وعلى هذه التوسعة .

وليس المراد أن كل كلمة من القرآن تقرأ على سبعة أوجه ؛ إذاً لقال صلى الله عليه وسلم « إنّ هذا القرآن أنزلَ سبعةَ أحرفٍ » بحذف لفظ (على) . بل المراد ما علمت من أن هذا القرآن أنزل على هذا الشرط وهذه التوسعة ، بحيث لا تتجاوز وجوه الاختلاف سبعة أوجه ، مهما كثر ذلك التعدُّد والتنوُّع فى أداء اللفظ الواحد ، ومهما تعدَّدت القراءات وطرقها فى الكلمة الواحدة . فكلمة « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » التى ورد أنها تقرأ بطرقٍ تبلغ السبعة أو العشرة ، وكلمة « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » التى ورد أنها تقرأ باثنتين وعشرين قراءة ، وكلمة « أُفٍّ » التى أوصل الرمانى لغاتهـا إلى سبع وثلاثين لغة ، وكل أولئك وأشباه أولئك ، لا يخرج التغاير فيه على كثرته عن وجوه سبعة .

٤ ـ الوجوه السبعة فى المذهب المختار

بقى علينا أن نتساءل : ما هى تلك الوجوه السبعة التى لاتخرج القراءات عنها مهما كثرتْ وتنوّعتْ فى الكلمة الواحدة ؟ .

هنا يحتدمُ الجدال والخلاف ، ويكثر القيل والقال .

والذى نختاره ـ بنور الله وتوفيقه ـ من بين تلك المذاهب والآراء هو ماذهب إليه الإمام أبو الفضل الرازى فى اللوائح إذ يقول :

الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف فى الاختلاف :

(الأول) : اختلاف الأسماء من إفراد ، وتثنية ، وجمع ، وتذكير ، وتأنيث .

(الثانى) : اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ : ومضارع ، وأمر .

(الثالث) : اختلاف وجوه الإعراب .

(الرابع) : الاختلاف بالنقص والزيادة .

(الخامس) : الاختلاف بالتقديم والتأخير .

(السادس) : الاختلاف بالإبدال .

(السابع) : اختلاف اللغات « يريد اللهجات » كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم ، والإظهار والإدغام ، ونحو ذلك اهـ، غيرَ أن النقل كما ترى لم يشفعْ بتمثيل فيما عثرنا .

ويمكن التمثيل للوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء . بقوله سبحانه : « وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » قرئ هكذا : « لِأَمَانَاتِهِمْ » جمعاً وقرئ « لِأَمَانَتِهِمْ » بالإفراد .

ويمكن التمثيل للوجه الثانى وهو اختلاف تصريف الأفعال بقوله سبحانه : « فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » قرئ هكذا بنصب لفظ « ربنا » على أنه منادى وبلفظ « بَاعِدْ » فعل أمر ، وبعبارة أنسب بالمقام « فعل دعاء » . وقرئ هكذا : « رَبُّنَا بَعَّدَ » برفع « رب » على أنه مبتدأ وبلفظ « بعد » فعلًا ماضياً مضعف العين جملته خبر.

ويمكن التمثيل للوجه الثالث ، وهو اختلاف وجوه الإعراب ، بقوله سبحانه : « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ » قرئ بفتح الراء وضمها ، فالفتح على أن « لا » ناهية ، فالفعل مجزوم بعدها ، والفتحة الملحوظة فى الراء هى فتحة إدغام المثلين . أما الضمُّ فعلى أنَّ « لا » نافية ، فالفعل مرفوع بعدها .

ومثل هذا المثال، قوله سبحانه : «ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ » قرئ برفع لفظ «المجيد» وجره . فالرفع على أنه نعت لكلمة « ذو » ، والجرُّ على أنه نعت لكلمة « العرش ». فلا فرق فى هذا الوجه بين أن يكون اختلاف وجوه الإعراب فى اسم أو فعل كما رأيت.

ويمكن التمثيل للوجه الرابع : وهو الاختلاف بالنقص والزيادة . بقوله سبحانه : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » قرئ بهذا اللفظ. وقرئ أيضاً « والذكرِ والأنثى » بنقص كلمة « ما خلقَ » .

ويمكن التمثيل للوجه الخامس ـ وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير ـ بقوله سبحانه: « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ » وقرئ « وَجَاءَت سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

ويمكن التمثيل للوجه السادس ـ وهو الاختلاف بالإبدال ـ بقوله سبحانه : « وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا » بالزاى وقرئ « نُنْشِرُهَا » بالراء، وكذلك قوله سبحانه « وطَلْحٍ مَنْضُودٍ » بالحاء ، وقرئ « وَطَلْعٍ » بالعين . فلا فرق فى هذا الوجه أيضاً بين الاسم والفعل .

ويمكن التمثيل للوجه السابع ـ وهو اختلاف اللهجات ـ بقوله سبحانه : « وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى » تقرأ بالفتح والإمالة فى «أتى» ولفظ « موسى » فلا فرق فى هذا

الوجه أيضاً بين الاسم والفعل. والحرفُ مثلهما نحو « بَلَى قَادِرِينَ» قرئ بالفتح والإمالة في لفظ « بلى » .

٥ — لماذا اخترنا هذا المذهب

وإنما اخترنا هذا المذهب لأربعة أمور :

(أحدها) : أنه هو الذي تؤيده الأدلة في الأحاديث العشرة الماضية وما شابهها .

(ثانيها) : أنه هو الراجح في تلك الموازين التي أقمناها شواهدَ بارزةً من تلك الأحاديث الواردة . فارجع النظر إليها، ولا داعي لإعادتها. أما المذاهب الأخرى فسترى أن التوفيق أخطأها في رعاية تلك الأدلة أو بعضها، وستطيش بين يديك في موازين هذه الشواهد قليلا أو كثيراً .

(ثالثها): أن هذا المذهب يعتمد على الاستقراء التام لاختلاف القراءات وما ترجع إليه من الوجوه السبعة ، بخلاف غيره فإن استقراءه ناقص أو في حكم الناقص . فكلمة « أف » التي أوصلها الرماني إلى سبع وثلاثين لغةً يمكن ردُّ لغاتها جميعاً إلى هذه الوجوه السبعة ولا تخرج عنها . وكذلك الاختلاف في اللهجات ـ وهو اختلافٌ شكليٌّ ـ يردُّ إليها ولا يخرج عنها . بخلاف الآراء الأخرى فإنه يتعذر أو يتعسر الرجوع بالقراءاتْ كلها إليها . وليس من صواب الرأي أن يحصر النبي ﷺ الأحرف التي نزل عليها القرآن في سبعة ثم نترك نحن طرقاً في القراءات المروية عنه دون أن نردَّها إلى السبعة ؛ لأن ذلك يلزمه أحد خطرين : فإما أن تكون تلك الطرق المقروء بها غير نازلة ، وإما أن يكون هنا حرف نازل وراء السبعة الأحرف التي نزل عليها القرآن ، ويكون الحصر في كلام الرسول ﷺ غير صحيح . وكلا هذين خطأ عظيم وإثمٌ كبير .

(رابعها) أن هذا الرأي لا يلزمه محذورٌ من المحذورات الآتية التي يستهدف لها الأقوال الأُخرى ، وسنُزْجيها إليك قريباً ، فاصبر وما صبرك إلا بالله .

الذين قالوا بهذا المذهب

ولا يعزبنّ عن بالك أن هذا المذهب قد اختاره فى جملته فحول من العلماء ، وقاربه كلّ القرب مذهبُ الإمام ابن قتيبة ، والمحقق ابن الجزرى ، والقاضى ابن الطيب كما يأتى :

ولا فرق بين آرائهم وبين هذا الرأى إلا اختلاف فى طرق التتبع والاستقصاء ، والتعبير والأداء . وسيظهر لك أن الرازى كان أهدَى منهم سبيلًا ، وأكثر توفيقا حتى لقد ذهب العلامة ابن حجر إلى أن مذهب الرازى هو مذهب ابن قتيبة بعد تنقيحه وتهذيبه ، فقال ما نصه : « وقد أخذ (أى الرازى) كلام ابن قتيبة ونقحه » اهـ .

وقد اختار هذا المذهب أيضاً من المتأخرين بعض أعلام المحققين ، كالعلامة المرحوم الشيخ الخضرى الدمياطى والعلامة المرحوم الشيخ محمد بخيت المطيعى . لكن منهم من تغاضى عن الفروق الدقيقة التى بين الرازى ومذاهب أولئك الثلاثة الذين تشاركت آراؤهم فى الجملة ، ومنهم من صرّح بالاتّحاد بين هذه المذاهب جميعاً وما شابهها ، واعتبر الخلاف بينها لفظيًّا فحسب .

لهذا نرى أن نسوق إليك فى هذا المقام تلك المذاهب الثلاثة أيضاً ، جمعاً بين المتشابهات من ناحية ، وتمهيداً لتحقيق الفرق بينها وبين مذهب الرازى من ناحية أُخرى ، وزيادةً فى تنوير المذهب المختار وغيره من ناحية ثالثة .

أما ابن قتيبة فيقول :

إن المراد بالأحرف السبعة ، الأوجهُ التى يقع بها التغايُر :

(فأولها) ما تتغيَّر حركته ، ولا يزول معناهُ ولا صورته ، مثل « ولا يُضَارَّ كاتِبٌ » بفتح الراء وضمها .

(وثانيها) ما يتغيَّر بالفعل مثل « بَعِّدْ وَبَاعِدْ » بلفظ الطلب والماضى .

(وثالثها) ما يتغيَّر باللفظ مثل « نُنْشِرُهَا وَنُنْشِزُهَا » بالراء المهملة والزاى المعجمة.

(ورابعها) ما يتغيَّر بإبدال حرفٍ قريب المخرج مثل « طَلْحٍ مَنْضُودٍ وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » .

(وخامسها) ما يتغيَّر بالتقديم والتأخير مثل : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

(وسادسها) ما يتغيَّر بالزيادة والنقصان مثل : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . وَالذَّكَرِ وَالْأُنثَى » بنقص لفظ « مَا خَلَقَ » .

(وسابعها) ما يتغيَّر بإبدال كلمةٍ بأخرى مثل : « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ .. وكالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ » .

وأما ابن الجزرى فيقول :

قد تتبعت صحيح القراءات وشاذّها وضعيفها ومنكرها ، فإذا هى يرجع اختلافها إلى سبعة أوجهٍ لا يخرج عنها .

١ ـ وذلك إما فى الحركات بلا تغيُّر فى المعنى والصورة نحو « البُخل » بأربعة أوجه « ويحسَب » بوجهين .

٢ ـ أو بتغيُّر فى المعنى فقط نحو « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » . برفع لفظ آدم ونصب لفظ كلمات ، وبالعكس .

٣ ـ وإما فى الحروف بتغيُّر المعنى لا الصورة نحو « تَبْلُو وَتَتْلُو » .

٤ ـ وعكس ذلك نحو « بَصْطَةً وَبَسْطَةً » ونحو « الصِّراط والسِّراط » .

٥ ـ أو بتغيُّرهما نحو « فَامْضُوا ، فَاسْعَوْا » .

٦ ـ وإما فى التقديم والتأخير نحو « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » بفتح ياء المضارعة مع بناء الفعل للفاعل فى إحدى الكلمتين ، وبضمها مع بناء الفعل للمفعول فى الكلمة الأخرى .

٧ ـ أو فى الزيادة والنقصان نحو « أوصَى ، ووصَّى » .

فهذه سبعة لا يخرج الاختلاف عنها .

وأما القاضى ابن الطيب فيقول فيما يحكيه القرطبى عنه :

تدبَّرت وجوه الاختلافات فى القراءة فوجدتها سبعاً :

١ ـ منها ما تتغيَّر حركتُه ولا يزول معناه ولاصورته. مثل « هُنَّ أَطْهَرْ لَكُمْ ، وَأَطْهَرُ » أى بإسكان الراء وضمها «وَيَضِيقْ صَدْرِى، وَيَضِيقُ صَدْرِى» أى بإسكان القاف وضمها .

٢ ـ ومنها ما لا تتغيَّر صورته ، ويتغيَّر معناه بالإعراب مثل « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ، وَبَاعَدَ » أى بصيغة الماضى والطلب .

٣ ـ ومنها ما تبقى صورته،ويتغيَّر معناه باختلاف الحروف، مثل قوله «نُنْشِرُهَا، وَنُنْشِزُهَا » أى بالراء وبالزاى .

٤ ـ ومنها ما تتغيَّر صورته ويبقى معناه ، مثل « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ، وكالصُّوف المنفُوش » .

٥ ـ ومنها ما تتغيَّر صورته ومعناه مثل : « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » .

٦ ـ ومنها التقديم والتأخير مثل : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » .

٧ ـ ومنها الزيادة والنقصان نحو: «لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً . وَلَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى » أى بزيادة لفظ أنثى .

٦ — النسبة بين هذه المذاهب
ومذهب الرازى

ويذهب بعض الجهابذة إلى القول بالاتحاد بين هـــذه المذاهب الثلاثة ومذهب الرازى ، بل بينها جميعاً وبين ما يشابهها ، ويجعل الخلاف بينها كلها لفظياً لا حقيقياً . وذلك تـكلفٌ بعيـــدٌ فيما أرى ، لأننا نلاحظ وجهاً كاملاً فى كلام الرازىِّ ، لم يُنَوِّه به واحدٌ من أولئك الثلاثة . فهو فضلاً عن أنه أدمج وجوههم السبعة فى وجوهٍ ستة بطريقته الدقيقة ، نجده قد عقد الوجه السابع لاختلاف اللهجات ، كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم ونحو ذلك .

على حين أننا ما رأينا واحداً من أولئك الأعلام الثلاثة عرض لهذا النوع من الاختلاف . بل وجدنا فى كلامهم ما جعلهم يهملون هذا الوجه عن قصد وعمد .

فهذا ابن قتيبة يقول :

« وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام . والروم والإشمام ، والتخفيف والتسهيل ونحو ذلك ، فهذا ليس من الاختلاف الذى يتنوَّع فى اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة فى أدائه ، لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً » اهـ .

ولـكنى أرى أن هذا العذر الذى قدَّمه ابن قتيبة لإهمال هذا الوجه ، لا يُسَوِّغ ذلك الإهمال . فإن المسألة ليست مسألة أسماء وعناوين يترتَّب عليها أن اختلاف اللهجات فى اللفظ الواحد تخرجه عن أن يكون واحداً أو لا تخرجه ، بل المسألة مسألة رعاية أمرٍ واقعٍ تختلف به القراءات فعلًا ويمكن أن يكون مثار النزاع السابق الذى دبَّ بين الصحابة فى اختلاف القراءات ، كما يكون أيضاً مثاراً للنزاع فى كل عصر ومصر بين القراء ، إذا لم يعلموا أن الجميع من عِداد الحروف السبعة التى نزل عليها القرآن . وذلك لأن تحريف القرآن

يحرم بما يَمَسُّ صورته وطريق أدائه وكيفية لهجاته ، كما يحرم بما يَمَسُّ جوهره وتغيير حروفه وكلماته وحركاته وترتيبه .

أمر آخر : هو أن التيسير على الأمّة ـ وهى الحكمة البارزة فى نزول القرآن على سبعة أحرف ـ لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا بحسبان هذا الوجه الذى نوّه به الرازى ؛ وهو اختلاف اللهجات . بل هذا قد يكون أولى بالحسبان وأحرى بالرعاية فى باب التخفيف والتيسير ؛ لأنه قد يسهل على المرء أن ينطق بكلمة من غير لغته فى جوهرها ، ولا يسهل عليه أن ينطق بكلمة من غير لغته نفسها بلهجة غير لهجته ، وطريقة فى الأداء غير طريقته . ذلك لأن الترقيق والتفخيم ، والهمز والتسهيل ، والإظهار والإدغام ، والفتح والإمالة ونحوها ، ما هى إلا أمورٌ دقيقة ، وكيفياتٌ مُكْتَنَفَةٌ بشىء من الغموض والعسر فى النطق على من لم يتعوّدها ولم ينشأ عليها .

واختلاف القبائل العربية فيما مضى ، كان يدور على اللهجات فى كثير من الحالات وكذلك اختلاف الشعوب الإسلامية وأقاليم الشعب الواحد منها الآن ، يدور فى كثير من الحالات أيضاً على اختلاف اللهجات .

وإذن فتخفيف الله على الأمة بنزول القرآن على سبعة أحرف ، لا يتحقق إلا بملاحظة الاختلاف فى هذه اللهجات . حتى إن بعض العلماء جعل الوجوه السبعة منحصرة فى اللهجات لا غير ، كما يأتى .

قال الإمام ابن قتيبة نفسه فى كتاب المشكل ما نصُّه : ـ « فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيّه ﷺ أن يُقْرِئَ كل أمة (لعله يريد بالأمّة القبيلة) بلغتهم ، وما جرت به عادتهم ، فالهُذَلِىُّ يقرأ « عَتَّى حـين » يريد (حَتَّى حينٍ) هكذا يلفظ بها ويستعملها (أى يقلب الحاء عيناً فى النطق) . والأسدى يقرأ « يِعْلَمُونَ ، وَنِعْلَمُ ، وَتِسْوَدُّ وُجُوهٌ ، أَلَمْ إِعْهَدْ » بكسر حروف المضارعة فى ذلك كله ، والتميمى يهمز ، والقرشى لا يهمز . والآخر يقرأ « قِيلَ لَهم ، وَغِيضَ الْماءُ » بإشمام الضم مع الكسر

و « بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » بإشمام الكسر مع الضم . و « مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا » بإشمام الضم مع الإدغام .

ثم قال ابن قتيبة أيضاً : « ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده ، طفلًا ويافعاً وكهلًا ، لاشتدَّ ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه ، ولا يمكن إلا بعد رياضةٍ للنفس طويلة ، وتذليلٍ للسان ، وقطعٍ للعادة . فأراد الله برحمته ولطفه ، أن يجعل لهم مُتَّسَعاً فى اللغات ، وَمُتَصَرَّفاً فى الحركات ، كتيسيره عليهم فى الدين » اهـ .

فأنت تراه قد اعتبر اللهجات وطرق الأداء صراحةً فى هذه الكلمات .

وكذلك نجد العلامة ابن الجزرى ، يعترف بهذا الاختلاف فى اللهجات ، ويقول ما نصُّه : ـ وهـــذا يقرأ « عَلَيْهُمْ ، وَفِيهُمْ » بضم الهاء ، والآخر يقرأ « عَلَيْهِمُو ، وَمِنْهُمُو » بالصلة . وهذا يقرأ « قَدَ افْلَحَ ، وَقُلُ اوحِىَ ، وإِذَا خَلَوَا الَى شَيَاطِينِهِمْ » بالنقل ، والآخر يقرأ « مُوسَى ، وَعِيسَى » بالإمالة . وغيره يُلَطِّفُ . وهذا يقرأ « خبيراً بصيراً » بترقيق الراء ، والآخر يقرأ « الصَّلاة ، والطَّلاق » بالتفخيم ، إلى غير ذلك » اهـ .

ولكن من العجب العاجب أن هذين الإمامين الجليلين ، اللَّذَيْن اعترفا صراحة باختلاف اللهجات وطرق الأداء على هذا الوجه ، فاتهما أن ينظماه فى سلك الوجوه السبعة التى نزل بها القرآن تيسيراً على الأُمة . والعصمة لله وحده .

فالأحقُّ والأدقُّ ما ذهب إليه الرازى ! .

ولعل هذه الدقة ، وهذا الشمول الذى وُفِّق إليه الرازى فى الوجوه السبعة هو التنقيح الذى نوَّه به ابن حجر ، إذ قال : « وقد أخذ (أى الرازى) كلام ابن قتيبة ونقَّحه » . وليس معناه الاتحاد بينهما ، لما علمت من وضوح الفرق ؛ وأن كلام الرازى أعمُّ من كلام أولئك الثلاثة عموماً مطلقاً .

٧ — دفع الاعتراضات الواردة على هذا المذهب

اعترض على هذا المذهب وما قاربه من مذهب ابن قتيبة وابن الجزرى وابن الطيب بجملة اعتراضات نقدّمها إليك، ثم نفنّدها بين يديك، فيما يأتى :

« الاعتراض الأول » يقولون : إن هذا القول مع اختلاف قائليه فى بيانه ، لم يذكر واحد منهم دليلًا إلا أنه تتبّع وجوه الاختلاف فى القراءة ، فوجدها لا تخرج عن سبعة . وهذا لا ينهض دليلًا لأىٍّ واحدٍ منهم على أنّ المراد بالأحرف السبعة الأوجهُ التى تختلف فيها القراءة .

ونجيب أولا : بأن هذا المذهب الذى اخترناه لم نختلف ولم نتردَّد فى بيانه . ثانياً : أنا أيدناهُ بعدّة أدلّة لا بدليل واحد . ثالثاً : أنا لا نسلم كون تتبُّع وجوه الاختلاف فى القراءة لا يصلح دليلًا لبيان الأحرف السبعة بهذه الوجوه السبعة . كيف؟ والاستقراء التام دليلٌ من جملة الأدلة التى يحترمها المنطق القديم والمنطق الحديث، مادام مستوفياً لشروطه الثلاثة التى أولها أن تكون القضية الاستقرائية متضمنة حكماً حقيقياً، وثانيها أن تكون كلية حقيقية أى موضوعها كلياً حقيقياً صادقاً على ماوجد من أفراده فيما مضى ، وما هو موجود فى الحال ، وما يمكن أن يوجد فى المستقبل . وثالثها أن يكون الوصول إلى القضية الاستقرائية بواسطة الملاحظة والتجربة .

ولا ريب أن الوجوه السبعة التى ذكرها أبو الفضل الرازى تحقق فى استقرائها الشروط الثلاثة ، لأن الرازى لاحظ كل وجوه الاختلاف فوجدها لا تخرج عن هذه السبعة ، ثم أصدر بعد هذا الاستقراء التام حكماً حقيقياً بأنه لا معنى لهذه الأحرف السبعة فى الحديث الشريف سوى تلك الأوجه السبعة . وهو حُكْمٌ يقوم على قضيةٍ كليّة سالبة كما ترى .

« الاعتراض الثانى » يقولون : إن طريق تتبُّع أبى الفضل الرازى ، وابن قتيبة ، وابن الجزرىّ ، وابن الطيب ، يخالف بعضها بعضاً . وهـذا يدلُّ على أنه يمكن الزيادة على سبعة وجوه .

ونجيب : بأن مجرد الاختلاف فى طرق استقراء هؤلاء الأئمة لا يلزم منه إمكان الزيادة على سبعة فى مذهب كل منهم . إنمـا يلزم ذلك من كان استقراؤه ناقصاً دون من كان استقراؤه تامًّا . وقـد أثبتنا أمامك أن استقراء الرازى تامٌّ مستوفٍ لجميع شروط الإنتاج . ولا يضيره أن يسلك فى طريقة استقرائه سبيلاً لم يسلكها مخالفوه ، فلكل إنسان أن يختار فى استقرائه ما شاء من الطرق التى يراها أصوب وأقرب ، مادام ملتزماً لشرائط إنتاجه . وإذا كان غيره قد وقع فى نقصٍ من تتبُّعه واستقصائه ، فلا يضير ذلك مذهب الرازى القائم على الاستقراء التام فى قليلٍ ولا كثير . « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

« الاعتراض الثالث » يقولون : إنك قد علمت أن الزيادة إلى سبعة أحرف كان الغرض منها الرخصة ، وأكثر الأمة يومئذ أمِّىٌّ لا يكتب ولا يعرف الرسم ، وإنما كانوا يعرفون الحروف ومخـارجها فحسب ، والرخصة ليست ظاهرة فى قراءة الفعل المبنى للمجهول أو المعلوم ، أو فى إبدال حركة بأخرى ؛ أو حرف بآخر ، أو تقديم وتأخير ، فإن القراءة بأحدها لا توجب مشقةً ، يسأل النبى صلى الله عليه وسلم المعافاة منها ويقول: « إن الأُمَّةَ لا تُطِيقُ ذلكَ » ، ويطلب التيسير على الأمة بإبدال حرف أو تغيير فعل من المضىِّ إلى الأمر ، أو من البناء للمعلوم إلى البناء للمجهول ، هذا لا تفيده الروايات السابقة ولا تدلُّ عليه .

ونجيب : بأنا لا نسلم خفاء الرخصة فى قراءة الفعل المبنى للمجهول أو المعلوم أو فى إبدال حركة بأخرى ، أو حرف بآخر ، أو تقديم وتأخير . كيف؟ والرخصة فى ذلك ظاهرة أيضاً . بل هى ظاهرة فيما كان دونها وهو اختلاف اللهجات مع بقاء الـكلمة ، والحرف ،

والحركة، والترتيب بين الكلمات والحروف. وهذا نشاهده نحن ونحسه في تيسر أو تعسر بعض صفات الحروف على بعض الناس فى النطق ، دون صفات أخرى . فالبعض يسهل عليه التفخيم دون الترقيق، أو الفتحة دون الإمالة ، أو الإظهار دون الإدغام ،والبعض يصعب عليه ذلك ويسهل عكسه. فكيف إذا تغيرت الكلمات أو الحروف أوالحركات أو الترتيب .

« الاعتراض الرابع » يقولون : إنه لا يُتَصَوَّرُ وجود أوجه الخلاف فى القراءات المذكورة فى كلمة واحدة ، حتى يكون ذلك تيسيراً وتخييراً كما تقدم . وإن أرادوا أن ذلك متفرقٌ فى القرآن جميعه كالقائل باللغات السبع المتفرقة فى القرآن لم يكن ثمَّةَ رُخْصَةٌ ولا اختلافٌ بين الصحابة .

ونجيب : بأن هذا الاعتراض مَبنِيٌّ من أساسه على غفلة عن حقيقة هذا المذهب المختار وأشباهه ، لأنه عبارة عن وجود سبعة إليها ترجع جميع الاختلافات في القراءة دون أن تلتزم هذه الوجوه السبعة فى الكلمة الواحدة ، ودون أن يقال : إنها موزَّعةٌ أشتاتاً على أبعاض القرآن . وإذاً فالرخصةُ متحققِّةٌ ، بل لا تتحقق على الوجه الأكمل إلا بهذا القول . وماذا عسى أن يبقى من التيسير والتخفيف وقد جمعت هذه الوجوهُ كلَّ اختلاف فى القراءات متواترها وصحيحها وضعيفها وشاذِّها بكل طريق من طرق الاختلاف حتى ولو كان فى اللهجات ، ولو وصلت لغات الكلمة إلى سبع وثلاثين، كما أسلفنا فى كلمة « أف » حكاية عن الرمانى .

« الاعتراض الخامس » يقولون: إن الرخصة قد وقعت، وأكثرهم يومئذ لا يكتب ولا يعرف الرسم ، وإنما كانوا يعرفون الحروف ومخارجها .

وأجيب باحتمال أن يكون الانحصار المذكور وقع اتفاقاً، وإنما اطُّلِعَ عليه بالاستقراء .

والأَقْعَدُ من هـــذا فى الجواب أن يقال : إن الانحصار المذكور عُرف بطريق الاستقراء التام ، وهو دليل من الأدلة القاطعة كما تقدّم الـكلام عليه جـوَاباً عن اعتراضٍ سابق. وكون الرخصة وقعت وأكثرهم أميون ، لا يقدح فى بيان الحروف السبعة المذكورة ، لأن الحاجة لم تـكن ماسّة إلى تحديد معنى الأحرف السبعة بهـــذا الوصف العنوانى الذى اعتبرت به تلك الوجوه سبعة ، فحسبهم أن يعلموا أن وجوه الاختلاف بينهم سبعة وجوه ، ولا يضيرهم ألّا يستطيعوا الْعَنْوَنَةَ عنها بما نُعَنْوِنُ نحن ، ماداموا يعرفون السبعة تطبيقاً فى جميع مفردات القرآن ، وما داموا يُعَوِّلُونَ فى القراءة على تلقّيهم عن رسول الله ﷺ الذى يؤمنون بأنه لا يغادر فى إبلاغ القرآن وجهاً من وجوهه السبعة . ونظير ذلك أنهم كانوا لا يعرفون تلك العناوين والأسماء والقوانين التى تَتَّصِلُ بالإعراب والبناء ، ولـكنهم كانوا يعرفون أكثرَ منا كيف ينطقون نطقاً صحيحاً فصيحاً منطبقاً عليه ما عرفنا نحن بعدُ من تلك الأسماء والقواعد المتصلة بالإعراب والبناء .

٨ — بقاء الأحرف السبعة فى المصاحف

ننتقل بك إلى نقطة أخرى : هل الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن الكريم لها وجودٌ فى المصاحف العثمانية .

ذهب جماعة من الفقهاء والقرّاء والمتكلمين إلى أنّ جميع هذه الأحرف موجودةٌ بالمصاحف العثمانية .

واحتجوا بأنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شىء منها ، وأن الصحابة أجمعوا على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التى كتبها أبو بكر ، وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك . ومعنى هذا أن الصحف التى كانت عند أبى بكر جمعت الأحرف السبعة ، ونقلت منها المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة كذلك .

وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط ، جامعة للعرضة الأخيرة التى عرضها النبى ﷺ على جبريل متضمنة لها .

وذهب ابن جرير الطبرى ومن لفّ لفّه إلى أن المصاحف العثمانية لم تشمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة ، وتأثروا فى هذا الرأى بمذهبهم فى معنى الحروف السبعة، وما التزموه فيه من أن هذه السبعة كانت فى صدر الإسلام أيام الرسول ﷺ ، وخلافة أبى بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان . ثم رأت الأمة بقيادة عثمان أن تقتصر على حرف واحد من السبعة جمعاً لكلمة المسلمين فأخذت به وأهملت كلّ ماعداه من الأحرف الستة ، ونسخ عثمان المصاحف بهذا الحرف الذى استبقتهُ الأمة وحده . وسيأتى بيان هذا المذهب وما ورد عليه من توهين .

والتحقيق أن القول باشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة كلها أو بعضها، يتوقف على أمرين : أحدهما تحديد المراد من الأحرف السبعة ، وثانيهما الرجوع إلى ما هو مكتوبٌ وماثلٌ بتلك المصاحف فى الواقع ونفس الأمر .

ولقد أسلفنا لك ما اخترناه فى تحديد المراد من الأحرف السبعة ، وأنها الأوجه التى يرجع إليها كل اختلافٍ فى القراءات ، سواء منها ما كان صحيحاً وشاذًّا ومنكراً وأنها تنحصر فى سبعة على ماذكره الرازى الذى حالفه التوفيق فى الدقّة والاستقراء التام .

ونحن إذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية وما هو مخطوط بها فى الواقع ونفس الأمر ، نخرج بهذه الحقيقة التى لا تقبل النقض ، ونصل إلى فصل الخطاب فى هذا الباب ، وهو أن المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها ، ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلًّا أو بعضاً ، بحيث لم تخلُ المصاحفُ فى مجموعها عن حرفٍ منها رأساً .

ولنبين ذلك فى المذهب الذى اخترناه :

أما الوجه الأول منه وهو اختلاف الأسماء إفراداً وجمعاً الخ نحو قوله سبحانه « وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » المقروءة بجمع الأمانة وإفرادها ، فقد اشتمل عليهما المصحف ؛ إذ كان الرسم العثمانى فيه هكذا :

« لأمنتهم » برسم المفرد فى الحروف ولكن عليها ألف صغيرة لتشير إلى قراءة الجمع وغير منقوطة ولا مشكولة .

وأما الوجه الثانى وهو اختلاف تصريف الأفعال نحو قوله سبحانه « يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ » المقروءة بكسر الكاف وضمها فى الفعل ، فقد وافقت كلتا القراءتين رسم

المصحف العثمانى أيضاً ، لأن هيكل الفعل واحد فى الخط لا يتغير فى كلتا القراءتين ، والمصحفُ العثمانى لم يكن معجماً ولا مشكولًا .

وأما الوجه الثالث وهو اختلاف وجوه الإعراب كقراءة « وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ » بفتح الراء وضمها ، فإن الرسم يحتملهما كالوجه السابق ، وهو واضح .

وأما الوجه الرابع وهو الاختلاف بالنقص والزيادة ، فمنه ما يوافق الرسم فى بعض المصاحف نحو قوله سبحانه فى سورة التوبة : « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ » وقرئ « تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا » بزيادة لفظ « مِنْ » وهما قراءتان متواترتان وقد وافقت كلتاهما رسم المصحف ، بيدَ أن ذات الزيادة توافق رسم المصحف المكى لأن لفظ « منْ » ثابتة فيه . أما حذفها فإنه يوافق رسم غير المصحف المكى حيث لم تثبت فيه ، أى فى غير المصحف المكى . ومن هذا الوجه ما لا يوافق رسم المصحف بحال من الأحوال نحو قوله سبحانه : « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً » وقرأ ابن عباس هكذا « يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْباً » بزيادة كلمة « صَالِحَةٍ » فإن هذه الكلمة لم تثبت فى مصحف من المصاحف العثمانية ، فهى مخالفة لخط المصحف ، وذلك لأن هذه القراءة وما شاكلها منسوخةٌ بالعرضة الأخيرة أى عرض القرآن من النبىِّ صلى الله عليه وسلم على جبريل آخر حياته الشريفة . ويدلُّ على هذ النسخ إجماع الأُمة على ما فى المصاحف فتلخص مما ذكرنا أن بعض هذا الوجه الرابع اشتملت عليه المصاحف ، وبعضه لم تشتمل عليه ، لأنه نسخ .

وأما الوجه الخامس : وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير ، فهو مثل سابقه . منه ما هو موافق لرسم المصحف نحو قوله سبحانه فى سورة التوبة : « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا » قرئ الفعل بالبناء للفاعل فى الأول ، وللمفعول فى الثانى ، وقرئ بالعكس ، وهما قراءتان متواترتان ، ولا يخالف شىء منهما رسم المصحف . ومنه ما خالف رسم المصحف

نحو قوله سبحانه « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ » وقرئ « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْحَقِّ بِٱلْمَوْتِ » فإن هذه القراءة الثانية لا يحتملها رسم المصحف وإن كانت منقولة عن أبى بكر الصديق ، وطلحة بن مطرف ، وزين العابدين (رضى الله عنهم) لكنها لم تتواتر ، فهى منسوخة بالعرضة الأخيرة ، وبإجماع الصحابة على المصحف العثمانى ، فلا يجوز القراءة بها بخلاف القراءة الأولى لأنها وافقت خط المصحف ، واستقرت القراءة بها دون نسخ . ومثل ذلك قوله سبحانه : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ » وقرئ « إِذَا جَاءَ فَتْحُ ٱللَّهِ وَٱلنَّصْرُ » فالأولى هى التى وافقت الرسم . والثانية لم توافقه فهى منسوخة أيضاً لما ذكرنا .

وأما الوجه السادس : وهو الاختلاف بالإبدال ، فقد وافق بعضه رسم المصحف ، وخالفه البعض أيضاً . مثال ما وافق الرسم قوله سبحانه : « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا » وقرئ « فَتَثَبَّتُوا » وهما قراءتان متواترتان . وتوافق كلتاهما رسم المصحف . ومثال الثانى قراءة « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ » وقراءة « وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَالصُّوفِ ٱلْمَنْفُوشِ » فإنهما مخالفتان لرسم المصحف . وذلك لنسخهما بالعرضة الأخيرة أيضاً ، واستقرار الأمر على ما وافق الرسم منه ، وهو قراءة « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ » وقراءة « كَالْعِهْنِ ٱلْمَنْفُوشِ » .

وأما الوجه السابع ، وهو الاختلاف بسبب تباين اللهجات فيوافق رسم المصحف موافقة تامة . لأنه اختلاف شكلى لا يترتب عليه تغيير جوهر الكلمة ، وهو ظاهر وتجد شواهد كثيرةً فى خط المصحف تدلُّ على بعض هذا النوع من الاختلاف نحو « وَهَلْ أَتَيكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ » فإنها رسمت هكذا بياء فى الفعل بعد التاء ، وبقلب ألف موسى ياء ، ومن غير شكلٍ ولا إعجام .

٩ — الأقوال الأخرى ودفعها

وهاكَ معرضاً عامًّا تشهد فيه الآراء الأخرى بما لها وما عليها. رأينا من واجبنا أن نسوقها إليك ثم نوهنها بين يديك؛ كيلا يكون منها حجر عثرة فى طريقك إلى ما اخترناه وأيدناه.

القول الأول

إن هذا الحديث مشكل لا سبيل إلى معرفة معناه المقصود. وشبهته أن لفظ «أحرف» فيه، جمع حرف. والحرف مشترك لفظى بين معان كثيرة. والمشترك اللفظى لا يدرى أىُّ معانيه هو المقصود؟.

ويدفع هذا الرأى بأنا لا نسلم ما قاله على إطلاقه من أن المشترك اللفظى لا يدرى أىُّ معانيه هو المقصود؟ بل المشترك اللفظى يدلُّ على معناه المقصود متى قامت قرينة تعين ذلك المعنى، تقول: نظرت بالعين المجردة، وشربت من عين زبيدة، ومعناهما واضحٌ غير مشكل، مع أن لفظ العين فيهما مشتركٌ لفظى، ولكن مدلوله يتعين فى المثال الأول أن يكون جارحةَ الإنسان الباصرة، ومدلوله فى المثال الثانى يتعين أن يكون نابعة الماء الجارية وذلك بقرينة لفظ نظرت فى المعنى الأول، ولفظ شربت فى الثانى.

وعلى هذا الباب جاء لفظ «أحرف» فى الحديث الشريف، فإن سياق الروايات السابقة، يدلُّ على أن المراد بالحرف معنى من معانيه السابقة على التعيين وهو الوجه، وأن الأحرف هى الأوجه التى يرجع إليها الاختلاف فى قراءة ألفاظ القرآن لا معانيه. وقد قام الدليل العقلىُّ وهو الاستقراء التامُّ على أن هذه الوجوه سبعة كما أسلفنا فإياك أن تنسى، وتذكَّرْ الشاهد الثامن إن نفعت الذكرى.

القول الثانى

وإليه جنح القاضى عياض ومن تبعه : ـ أن لفظ السبعة فى الحديث الشريف ليس مراداً به حقيقةُ العدد المعروف ، إنما هــو كناية عن الكثرة فى الآحاد ، كما أن السبعين تستعمل كناية عن الكثرة فى العشرات ، وكما أن السبعمائة تستعمل كناية عن الكثرة فى المئات .

ويدفع هذا بما قدَّمناه فى الشاهد الثانى . فارجع إليه ، واحرص عليه .

القول الثالث والرابع

أن المراد بالأحرف السبعة سبعُ قراءات . ويدفع بأنه إذا كان المراد بهذا أن كل كلمة من كلمات القرآن تقرأ سبع قراءات ، فذلك ممنوع ، لأنه لا يوجد فى القرآن كلمةٌ تقرأ على سبعة أوجه إلا القليل . وإذا كان المراد أن غاية ماينتهى إليه عدد القراءات فى الكلمة الواحدة سبعة أحرف فهذا يصحُّ أن يكون (قولًا رابعاً) كما قال السبكى ، ثم هو غـــير مسلم أيضاً ، لأن فى كلمات القرآن ما يقرأ بطرق أكثر ، كما ورد أن كلمة « عَبَدَ الطَّاغُوتَ » تقرأ باثنين وعشرين وجهاً . وأن كلمة «أُفٍّ» فيها سبع وثلاثون لغة . وإذا كان المراد أن الاختلاف فى القراءات لا يخرج عن سبعة أوجه فعلى صاحب هذا القول البيان ، فإذا بيَّنها بالوجوه التى ذكرناها كان هذا القول متداخلًا معها ، فلا يستقيم اعتباره قولًا مستقلًا برأسه . وبعض أكابر العلماء حاول أن يجعله متحداً مع القول الذى اخترناه وما أشبهه ، ولكنك قد علمت ما فيه .

القول الخامس والسادس والسابع

ما نقلناه آنفاً عن ابن قتيبة ، وعن ابن الجزرى ، وعن ابن الطيب . وقد بان لك

هناك أن فى ثلاثتها قصوراً عـن أن تشمل جميع القراءات المتواترة ، وإن كانت قريبة من القول المختار . ثم بينها تداخلٌ يتعذَّر أو يتعسر معه اعتبارها أقوالًا مستقلةً .

القول الثامن

أن المراد بالأحرف السبعة وجوهٌ ترجع إلى كيفيَّة النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار ، وتفخيم وترقيق ، وإمالة وإشباع ، ومد وقصر ، وتشديد وتخفيف وتليين .

وهو مدفوعٌ بأنه قد زاد فيما عدَّه على سبعة . وإذا أجاب بأن السبعة غيرُ مـراد بها حقيقتها وأنها مثل فى الـكثرة فقد علمتَ مافيه . ثم إن الأوجه التى ذكرها واحداً واحداً ترجع كلها إلى نوع واحد هو اختلاف اللهجات وكيفيات النطقْ وحدها ، فلا تشمل القراءات التى ترجع إلى اختلاف نفس الألفاظ بالإبدال أو التقديم والتأخـير ، أو النقص والزيادة ، ونحو ذلك . وفى هذا القصور مافيه ، على أكثر مما أسلفنا فى ردٍّ تلك الآراء القاصرة .

القول التاسع

وهو أن المراد بالأحرف السبعة أوجه من الألفاظ المختلفة فى كلمة واحـدة ومعنى واحد ، وإن شئت فقل : سبع لغاتٍ من لغات العرب المشهورة فى كلمة واحـدة ومعنى واحد ، نحو هلمَّ ، وأقبلْ ، وتعالَ ، وعجلْ ، وأسرعْ ، وقصدى ، ونحوى . فهذه ألفاظ سبعة معناها واحد هو طلب الإقبال؛ وهذا القول منسوبٌ لجمهور أهل الفقه والحديث منهم سفيان ، وابن وهب ، وابن جرير الطبرى ، والطحاوى . وحجتهم ماجاء فى حديث أبى بكرة من قوله ﷺ « كلهاَ شافٍ كافٍ ما لمْ تختمْ آيةُ عذاب برحمةٍ ولا آيةُ رحمةٍ بعذابٍ » ، نحو قولك : « تعالَ وأقبل وهلمَّ ، واذهبْ ، وأسرعْ . وعجلْ » . وماجاء فى حديث أبىّ بن كعب أنه كان يقرأ « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ،

مَرُّوا فِيهِ ، سَعَوْا فِيهِ »وما جاء عن ابن مسعود أنه كان يقرأ «لِلَّذِينَ آمَنُوا أُنْظُرُونَا، أَمْهِلُونَا ، أَخِّرُونَا » .

ويدفع هذا القول بوجوه : (أحدها) أن ما ذكر فى هذه الأحاديث ليس من قبيل حصر الأحرف السبعة فيها وفى نوعها وحده حتى يصح الاستدلال بهـــا على ماذهبوا إليه ، بل هو ـ كما قال ابن عبد البر ـ من قبيل ضرب المثل للحروف التى نزل القرآن عليها ، وأنها معانٍ متفقٌ مفهومها ، مختلفٌ مسموعها ، لا يكون فى شىء منها معنى وضدُّه .

وكيف يكون المراد حصر الأحرف السبعة ، فيما ذكروه ؟ على حين أنه يرجع إلى بعض نوع واحد من أنواع الاختلاف ، وهو إبدال كلمة بأخرى أعمّ من أن يكون بمرادفٍ أو غير مرادف . ولا ريب أن مذهبهم المذكور يتلخص فى أنه إبدال كلمة بأخرى على شروط الترادف . وهذا بعض ذاك . فأين يذهبون بتلك الوجوهِ الأخــرى وهى باقية إلى اليوم فى القراءات المتواترة المكتوبة بــين دفتى المصحف على ما بيناه فى المذهب المختار . فقصر الحروف السبعة على بعض ذلك النوع وحــده ، فيه ما فيه من القصور الذى أوردنا عليه ما أوردنا فى الأقوال السابقة القاصرة ، بـــل القصور هنا أشدُّ وأفحش ، لأنه يرجع إلى بعض نوعٍ واحدٍ لا إلى نوعٍ كامل ، بلهَ أنواعٍ متعدِّدة ! .

(ثانيها) أن أصحاب هذا المذهب ـ على جلالة قدرهم، ونباهة شأنهم ـ قد وضعوا أنفسهم فى مأزقٍ ضيقٍ ، لأن ترويجهم لمذهبهم، اضطرهم إلى أن يتورَّطوا فى أمور خطرها عظيم ، إذ قالوا إن الباقى الآن حرفٌ واحد من السبعة التى نزل عليها القرآن . أما الستة الأخرى فقد ذهبت ولم يعد لها وجود ألبتة . ونسوا أو تناسوا تلك الوجوه المتنوعة القائمة فى القرآن على جبهة الدهر إلى اليـــوم . ثم حاولوا أن يؤيِّدوا ذلك فلم يستطيعوا

أن يثبتوا للأحرف الستة التى يقولون بضياعها نسخاً ولا رفعاً ، وأسلمهم هذا العجز إلى وَرْطَةٍ أُخرى ، هى دعوَى إجماع الأمة على أن تَثْبُتَ على حرف واحد ، وأن تَرْفُضَ القراءة بجميع ما عداه من الأحرف الستة . وأنَّى يكونُ لهم هذا الإجماع ولا دليل عليه؟ هنالك احتالوا على إثباته بورْطَةٍ ثالثة، وهى القول بأن استنساخ المصاحف فى زمن عثمان رضى الله عنه كان إجماعاً من الأمة على تركِ الحروف الستة والاقتصار على حرف واحد هو الذى نَسَخَ عثمانُ المصاحفَ عليه، مع أننا أثبتنا لك فيما مَرَّ بقاء الأحرف السبعة فى المصاحف العثمانية حرفاً حرفاً ، ومثَّلْنا لذلك . وقُصَارَى ما استطاعوا أن يُسوِّغوا به مذهبهم وتورُّطاتهم هذه ، أن الأمة على عهد عثمان رضى الله عنه قد اختلفت فى قراءات القرآن إلى حَدٍّ جعلهم يتنازعون ويترامَوْن بتكفير بعضهم بعضاً ، حتى خِيفَتِ الفتنة ، فرأى الصحابة بقيادة خليفتهم الحكيم عثمان رضى الله عنه أن يُعالجوا المشكلة ، ويُطفئوا الفتنة ، بهذه الطريقة ، من جمع الناس على حرف واحد ، ونسخ المصاحف على حرف واحد ، وإهمال كل ما عداه من الحروف والمصاحف المنسوخة عليها .

وهذا ـ لعمركَ ـ استنادٌ مائل، واحتجاجٌ باطل. فقد تنازع الناس على عهد الرسول ﷺ أيضاً فى قراءات القرآن على حروف مختلفة ، كما رأيت فى الروايات السابقة ، ومع ذلك أقرّهم الرسول على هذه الحروف المختلفة ، وقرّرَهَا فيهم ، وحملهم على التسليم بها فى أساليب متنوِّعة. وجعل ذلك هو الحلَّ الوحيد لمشكلتهم، والعلاج الناجع لنزاعهم . وأفهمهم أن تعدُّد وجوه القراءة إنما هو رحمةٌ من الله بهم ، بل بالأمة كلها . وقرَّر فى صراحة وهو يَسْأَل مولاه المزيدَ من عدد الحروف أنَّ الأمة لا تُطِيقُ حصرها فى مَضِيق حرف واحد ، وقال: « وإنَّ أُمتى لا تُطِيقُ ذلكَ » إلى آخر ما عرفت. وأنت خبير بأن أمة محمد ﷺ باقيةٌ إلى يوم القيامة. وهى لا تطيق ذلك كما قرَّر رسولُها المعصوم الرحيم صلوات الله وسلامه عليه . كما نشاهد نحن الآنَ من أن بعض الألسنة فى بعض الشعوب الإسلامية، لا يتيسَّر لها أن تُحسن النطق ببعض الحروف ولا ببعض اللَّهجات دون بعض

فكيف يسوغ للصحابة وهم خير القرون ، أن يُغلقوا باب الرحمة والتخفيف الذى فتحه الله لأُمة الإسلام ، مخالفين فى ذلك هَدْىَ الرسول عليه الصلاة والسلام فى عمله للتخفيف بطلب تعدُّد الحروف ، وعلاجه للنزاع بين المختلفين بتقرير هذا التعدُّد للحروف ؟

ألا إن هـذه ثُغرَةٌ لا يمكن سدُّها ، وثُلْمَةٌ يصعب جبرها ، وإلا فكيف يوافق أصحاب رسول الله ﷺ على ضياع ستة حروف نزل عليها القرآن ، دون أن يُبقُوا عليها مع أنها لم تنسخ ولم ترفع ؟ وعلى حين أن الرسول ﷺ قرَّر بقوله وفعله ، أنه لا يجوز لأحد أيًّا كان ، أن يمنع أحداً أيًّا كان ، من القراءة بحرف من السبعة أيًّا كان . فقد صَوَّب قراءة كلٍّ من المختلفين ، وقال لكلٍّ « هَـكَذَا أُنْزِلَتْ » وضرب فى صَدْرِ أُبيٍّ بن كعب حين استصعب عليه التسليم بهذا الاختلاف فى القراءة . إلى آخر ما شرحنا فى الشاهدين الثالث والخامس من الشواهد الماضية .

وقُصارَى القول ، أننا نَرْبَأُ بأصحاب رسول ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو فكَّروا ، فضلاً عن أن يتآمروا على ضياع أحرف القرآن الستة دون نسخ لها . وحاشا عثمان رضى الله عنه أن يكون قد أقدم على ذلك وتزعَّمه !

وكيف ينسب إليه هذا ؟ والمعروف أنه نسخ المصاحف من الصحف التى جمعت على عهد أبى بكر رضى الله عنه قبل أن يدبَّ النزاع فى أقطار الإسلام بسبب اختلاف حروف القراءة فى القرآن . فكانت تلك الصحف محتملةً للأحرف السبعة جميعاً ، وموافقةً لها جميعاً ، ضرورةَ أنه لم يحدثْ وقتئذ من النزاع والشقاق ما يدعو إلى الاقتصار على حرف واحد فى رأيهم . ولم يثبت أن الصحابة تركوا من الصحف المجموعة على عهد أبى بكر حرفاً واحداً فضلاً عن ستة حروف ولو كان ذلك لَنُقِلَ إلينا متواتراً ؛ لأنه مما تتوافر الدواعى على نقله تواتُراً .

ثم كيف يفعل عثمان رضى الله عنه ذلك وهو الذى عرف أن علاج الرسول لمثل هذا

النوع الذى دبَّ فى زمانه، كان بجمع الناس وتقريرهم على الحروف السبعة، لا بمنعهم عنها كلًّا ولا بعضاً.

ثم كيف يفعل عثمان ذلك، وتوافقه الأمة، ويتم الإجماع؟ ثم يكون خلافٌ فى معنى الأحرف السبعة مع قيام هذا الإجماع؟ أى كيف تُجمِع الأمةُ على ترك ستة أحرف وإبقاء حرف واحد ثم يختلف العلماء فى معنى الأحرف السبعة على أربعين قولًا، ويكادون يتفقون ـ رغم خلافهم هذا ـ على أن الأحرف السبعة باقية، مع أن الإجماع حجةٌ عند المسلمين، وبه ينجلى ظلامُ الشكّ عن وجه اليقين!!.

ولنفرض جدلًا أن نزاع المسلمين فى أقطار الأرض أيامَ خلافة عثمان رضى الله عنه، قضى عليه أن يجمع المسلمين على حرف واحد فى القراءة، فلماذا لم تسمح نفسُه الكريمة بإبقاء الستة الأحرف الباقية للتاريخ لا للقراءة، مع أن الضرورة تُقدَّر بقدرها، وهذه الستة الأحرف لم تنسخ لا تلاوةً ولا حكماً حتى تذهب بجَرَّة قلمٍ كذلك، ثم يبخل عليها بالبقاء للتاريخ وحده فى أعظم مرجع، وأقدس كتاب، وهو القرآن الكريم. على حين أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، حفظوا للتاريخ آيات نسخت تلاوتها ونسخت أحكامها جميعاً. وعلى حين أنهم حفظوا قراءاتٍ شاذة فى القرآن، ثم نُقلت إلينا، وكُتِبَ لها الخلود إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم. بل نقلوا إلينا أحاديث منسوخة، وتناقل العلماء أحاديث موضوعة، ونصُّوا على حكم كلٍّ منها وعلى إهمال العمل بها.

ثم إنَّ من عرف تحمس الصحابة لدينهم واستبسالهم فى الدفاع عن حمى القرآن يستبعد كل البعد، بل يُحيل كل الإحالة أن يكونوا قد فعلوا ذلك، أو أقل من ذلك، عاوِدْ ما قرَّرناه فى الشاهد السادس من شواهدنا الماضية، وانظر إلى موقف عمر من هشام وموقف هشام من عمر، وموقف أبىّ وابن مسعود وصاحبيهما وتأمَّل كيف أن كلًّا من هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم أبى أن يتنازل عن قراءةٍ سمعها عن رسول الله ﷺ وعلمها

إياه رسول الله ﷺ ثم أقرهم رسولُ الله ﷺ على استمساكهم هذا ، وحلّ مشكلتهم بأن أعلمهم أن كلًّا منهم مصيب ومحسن،وأن قراءة كل منهم هكذا أنزلت،وأن القرآن أنزل على سبعة أحرف،وأنّ من كَفَرَ بحرف منها فقد كفر بها كلها،وألّا يختلفوا فى ذلك؛ فقد أهلك الاختلاف من كانوا قبلهم . وبهذا « قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قولَ كلِّ خطيب » .

(أمرٌ ثالث)هو أن هؤلاء الذين شايعوا ذلك المذهب ، يلتزمون أن يقولوا : إن اختلاف القراءات الحاصل اليوم ، يرجع كله إلى حرف واحد، وهكذا شاء لهم رأيهم أن يجعلوا تلك الكثرة الغامرة القائمة الآن حرفاً واحداً ، على ما بينهما من اختلاف فى الوجوه والأنواع وعلى رغم أن من القراءات الحاضرة مايكون وجه الاختلاف فيه ناشئاً عن وجود ألفاظٍ مترادفة فى كلمةٍ واحدة ومعنى واحد ، ومنها ما هو من لغات قبائل مختلفة؛ كما نصّ على ذلكَ السيوطى فى النوع السابع والثلاثين. ونقلنا منه شيئاً من موضع آخر من هذا المبحث .

ولدينا دليلٌ مادىٌّ أيضاً على بقاء الأحرف السبعة جميعاً، هو بقاء التيسيرِ والتخفيف وتهوين الأداء على الأمة الإسلامية الذى هو الحكمة فى الأحرف السبعة .

فها نحن أولاء لانزال نشاهد عن طريق القراءات المختلفة القائمة الآن سبيلًا سهلًا قد وَسِعَ كافَّةَ الشعوب المسلمة، سواء منها الأمم العربية وغير العربية ،والحمد لله على دوام فضله ورحمته ، وبقاء تخفيفه وتيسيره . وغفر الله لأولئك الأعلام الذين أخطأوا إصابة المرمَى ، فقد اجتهدوا والمجتهد أجر وإن أخطأ ، ونسأل الله التوفيق والسداد ، آمين .

القول العاشر

أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب ، بمعنى أن القرآن لا يخرج عن سبع لغات من لغات العرب ، وهي لغة قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن ، وهى أفصح لغات العرب . قال بعضهم : هذا أصحُّ الأقوال وأَوْلاها بالصواب ، وهو الذى عليه أكثر العلماء ، وصححه البيهقى ، واختاره الأبهرى ، واقتصر عليه صاحب القاموس .

وقال أبو عبيد : « ليس المراد أن كل كلمة تُقرأ على سبع لغات ، بل اللغات السبع مفرقة فيه ، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن وغيرهم . قال : وبعض اللغات أَسعد به من بعض وأكثر نصيباً » وقيل فى عد القبائل السبع آراء أُخر .

ويدفع هذا القول على جميع آرائه بأمرين : (أحدهما) أن فى القرآن الكريم ألفاظاً كثيرة من لغات قبائل أخرى غير السبعة التى عدُّوها .

مثل كلمة « سامِدون » فى قوله تعالى : «وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ» فإنها بالحميرية . ومثل كلمة « خمراً » فى قوله : «إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْراً» فإنها بلغة أهل عُمان لأنهم يسمون العنب خمراً (أى حقيقةً لا مجازاً) . ومثل كلمة « بَعلا » فى قوله تعالى : « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » أى رَبًّا بلغة أَزْدِ شَنُوءَةَ . ومثل كلمة « لَا يَلِتْكُمْ » أى لا ينقصكم فى قوله تعالى : « لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا » فإنها بلغة بنى عَبْس . ومَثل كلمة «فباءوا» بمعنى استوجبوا فى قوله تعالى : «فَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ» فإنها بلغة جُرْهُمْ . ومثل كلمة « رفث » بمعنى جماع فى قوله تعالى : « فَلَا رَفَثَ » فإنها بلغة مَذْحِج . ومثل كلمة « تُسِيمُونَ » بمعنى تَرْعَوْنَ فى قوله تعالى : « فِيهِ تُسِيمُونَ » فإنها بلغة خَثْعَم ، إلى

غير ذلك . وارجع إلى النوع السابع والثلاثين من إتقان السيوطى إن أردت المزيد .

وحسبك فى هذا المقام ما نقله الواسطىُّ فى كتابه الذى وضعه فى القراءات العشر إذ يقول : « إن فى القرآن من أربعين لغةً عربية وهى : قريش ، وهُذَيْل ، وكِنانة ، وخَثْعَم ، والخَزْرَج ، وأشعر ، ونمير ، وقيس عَيلان ، وجُرْهُم ، واليمن ، وأزْدُشَنوءة ، وكِندة ، وتميم ، وحِمْيَر ، ومَدْيَن ، ولَخْم ، وسَعْد العشيرة ، وحَضْرموت ، وسدوس والعمالقة ، وأَنمار ، وغَسَّان ، ومَذْحِج ، وخُزاعة ، وغَطَفان ، وسَبَأ ، وعُمَان ، وبنو حنيفة وثعلب ، وطَىٌّ ، وعامر بن صَعْصَعَة ، وأَوْس ، ومُزَينة ، وثقيف ، وجذام ، وبَلِىٌّ ، وعُذْرة ، وهوازن ، والنَّمِر ، واليمامة » اﻫ .

ولا يغيبَنَّ عن بالك أن هذه اللغات كلها تمثَّلت فى لغة قريش باعتبار أن لغة قريش كانت المتزعِّمة لها ، والمهيْمنة عليها ، والآخذة منها ما تشاء مما يَحْلُو لها ويَرِقُّ فى ذَوْقها ، ثم يأخذه الجميع عنها ، حتى صحَّ أن يُعتبر لسان قريش هو اللسان العربى العام ، وبه نزل القرآن ، على ما سبق بيانه ، فلا تغفل . والله يتولَّى هُدانا أجمعين .

(ثانيهما) أن توجيه هذا المذهب بما قاله أبو عبيد ، يقتضى أن يكون القرآن أبعاضاً ، منه ما هو بلغة قريش ، ومنه ما هو بلغة هُذَيْلٍ ، وهكذا . ولا شك أن ذلك غير محقق لحكمة التيسير الملحوظة للشارع الحكيم فى نزول القرآن على سبعة أحرف ، فإن هذا المذهب يستلزم أن كل شخص لا يمكنه أن يقرأ إلا البعض الذى نزل بلغته ، دون البعض الذى نزل بلغة غيره . وهذا باطل من ناحية ، ومخالف للاختلاف الذى صورته لنا الروايات السابقة بين الصحابة فى القراءة من ناحية أخرى فإن المقروء فيها كان واحداً لا محالة ، كسورة الفرقان بين عمر وهشام . وسورة من آل حم بين ابن مسعود وصاحبه ، وقد صوَّب الرسول ﷺ قراءة كل من المختلفين ، وكلاهما قرشى .

القول الحادى عشر

أنّ المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات قبائل مضر خاصة ، وأنها متفرقة فى القرآن . وأن تلك القبائل السبع هى : قريش ، وكنانة ، وأسد ، وهذيل ، وتميم ، وضَبة ، وقيس .

ونردُّ هذا بما رددنابه سابقه ، بل هذا أدنى إلى البطلان ، لأنه أخصُّ مما قبله الذى دحضناه من جهة خصوصه ، فكيف هذا ؟ تلك ناحية . وثمة ناحية أخرى : وهى أن فى قبائل مضر شواذّ ينزه عنها القرآن الكريم مثل كَشْكَشَةِ قَيْسٍ ، وهى جعل كاف المؤنث شيناً ، فيقولون فى قوله تعالى : « قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا » قد جَعَلَ رَبُّشِ تَحْتَشِ سَرِيًّا . ومثل تَمْتَمَةِ تميم الذين يجعلون السين تاء فيقولون فى الناس « النات » مع أن هذه لغات لم يُحفظ منها شىء فى القرآن الكريم .

القول الثانى عشر إلى الأربعين

أن المراد بالأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن ، سبعة أصناف فى القرآن ، وأصحاب هذه الأقوال يختلفون فى تعيين هذه الأصناف . وفى أُسلوب التعبير عنها إلى آراء تكمل بها العدَّة أربعين قولاً .

فمنهم من يقول : إنها أمر ، ونهى ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال .

ومنهم من يقول : إنها وعد ، ووعيد ، وحلال ، وحرام ، ومواعظ ، وأمثال ، واحتجاج .

ومنهم من يقول : إنها محكم ومتشابه ، وناسخ ، ومنسوخ ، وخصوص وعموم ، وقصص .

ومنهم من يقول : إنها لفظ عام أريد به العام ، ولفظ خاص أريد به الخاص ، ولفظ عام أريد به الخاص ، ولفظ خاص أريد به العام ، ولفظ يستغنى بتنزيله عن تأويله ، ولفظ لا يعلم فقهه إلا العلماء ، ولفظ لا يعلم معناه إلا الراسخون فى العلم .

ومنهم من يقول : إنها إظهار الربوبية ، وإثبات الوحدانية ، وتعظيم الألوهية ، والتعبد لله ، ومجانبة الإشراك ، والترغيب فى الثواب ، والترهيب من العقاب .

ومنهم من يقول : إنها المطلق ، والمقيد ، والعام ، والخاص ، والنص ، والمؤول والناسخ ، والمنسوخ ، والاستثناء ، وأقسامه .

ومنهم من يقول : إنها الحذف ، والصلة ، والتقديم ، والتأخير ، والاستعارة ، والتكرار ، والكناية ، والحقيقة ، والمجاز ، والمجمل ، والمفسر ، والظاهر ، والغريب .

ومنهم من يقول سوى ذلك كله ، غير أنها من هذا الطراز أو من طراز ما سبق فى الأقوال الأخرى ، حتى أكمل بها بعضهم عدة الأقوال أربعين قولاً .

١٠ — ردود إجمالية لهذه الأقوال الأخيرة

والكل مردود ردًّا إجماليًّا بما يأتى :

(أولا) أن سياق الأحاديث السابقة ، لا ينطبق على هذه الأقوال بحال ، فإن هذه الأصناف التى عيَّنوها ، لا يتأتى الاختلاف فيها بسبب القراءة . والاختلاف الذى نقلته الروايات السابقة تدلُّ تلك الروايات نفسها على أنه ما كان إلا بسبب القراءة ، فتعين أن يكون مرجعه التلفُّظ وكيفية النطق ، لا تلك الأصناف والأنواع التى سردوها فى معرض الآراء . آنظر الشاهد الثامن من شواهدنا الماضية إن شئت .

(ثانياً) أنه لا يوجد لهم سندٌ صحيحٌ يدلُّ على حصر الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن فيما بيَّنوه . وما يكون لنا أن نقبل رأياً غير مدلَّل ولا مؤيَّد بحجة .

(ثالثاً) أن التوسعة الملحوظة للشارع الرحيم فى نزول القرآن على الأحرف السبعة، لا تتحقّق فيما ذكروه من تلك الأصناف والأنواع .

(رابعاً) أن بعض تلك الآراء نلاحظ عليها أنها زادت على السبعة فيما ذكرته من الأصناف والأنواع . فإما أن تكون أخطأت فى العدِّ من أول الأمر ، وإما أن تكون متأثرةً بفكرة أن لفظ السبعة كناية لا حقيقة ، وقد علمت فيما سبق ما فيه من خطأ أيضاً راجع الشاهد الثانى من شواهدنا الآنفة إن أردت .

(خامساً) أن أكثر ما ذكروه فى تلك الآراء والأصناف ، يتداخل بعضه فى بعض ، ويشبه بعضه بعضا ، فمن المتعسر اعتبارها أقوالًا مستقلةً .

نقل السيوطى عن الشرف المرسى أنه قال : «هذه الوجوه أكثرها متداخلة ولا أدرى مستندها ، ولا عمّن نقلت ؟ ولا أدرى لم خصّ كل واحد منهم هذه الأحرف السبعة بما ذكر ؟ مع أنها كلها موجودة فى القرآن ، فلا أدرى معنى التخصيص . ومنها أشياء لا أفهم معناها على الحقيقة . وأكثرها معارض لحديث عمر وهشام بن حكيم الذى فى الصحيح فإنهما لم يختلفا فى تفسيره ولا أحكامه ، وإنما اختلفا فى قراءة حروفه . وقد ظنّ كثير من العوام أن المراد بها القراءات السبع ، وهو جهل قبيح » اهـ .

١١ — علاج الشبهات الواردة على أصل الموضوع

أعداء الإسلام فى كثرةٍ ونشاطٍ ويقظة ، وبين المسلمين جهلةٌ يؤذون الإسلام والأمة بأشدَّ مما يؤذيه أعداؤه ، على حد قول القائل :

« لا يبلغُ الأعداء من جاهل ما يبلغُ الجاهل من نفسه »

وقد نرى ونسمع اتهامات وشبهات ، مرةً من هنا ، ومرةً من هناك ، فمن واجب الأمانة فى أعناقنا ، أن نبدِّد ظلمات هذه الشبهات والتُّهم ، بما بين أيدينا من أنوار العلم وأسلحة الحجج . « وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ » .

(الشبهة الأولى) يقولون : إن أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف تثبت الاختلاف فى القرآن ، مع أن القرآن نفسه يرفع الاختلاف عن نفسه ، إذ يقول : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافًا كَثِيرًا » وذلك تناقض ، ولا ندرى أيُّهما يكون الصادق .

والجواب : أن الاختلاف الذى تثبته تلك الأحاديث ، غيرُ الاختلاف الذى ينفيه القرآن . وهذا كافٍ فى دفع التناقض ، فكلاهما صادق . وبيان ذلك أن الأحاديث الشريفة تثبت الاختلاف بمعنى التنويع فى طرق أداء القرآن والنطق بألفاظه فى دائرة محدودة لا تعدو سبعة أحرف ، وبشرط التلقى فيها كلها عن النبى ﷺ .

أما القرآن فينفى الاختلاف بمعنى التناقض والتدافع بين معانى القرآن وتعاليمه ، مع ثبوت التنويع فى وجوه التلفظ والأداء السابق .

ومعنى ذلك أن نزول القرآن على سبعة أحرف ، لا يلزم منه تناقضٌ ولا تخاذل ولا تضادٌّ ولا تدافُع بين مدلولات القرآن ومعانيه ، وتعاليمه ومراميه ، بعضها مع بعض . بل القرآن كله سلسلة واحدة ، متصلة الحلقات ، محكمة السور والآيات ، متآخذة المبادىء والغايات ، مهما تعدَّدت طرق قراءته ، ومهما تنوَّعت فنون أدائه .

وللمحقق ابن الجزرى كلام نفيس يتَّصل بهذا الموضوع ننقل إليك شيئاً منه بقليل من التصرف ، إذ يقول : « قد تدبَّرنا اختلاف القراءات ، فوجدناه لا يخلو من ثلاثة أحوال : أحدها اختلاف اللفظ لا المعنى . الثانى اختلافهما جميعاً مع جواز اجتماعهما فى شىء واحد . الثالث اختلافهما جميعاً مع امتناع جواز اجتماعهما فى شىء واحد ، لكن يتفقان من وجهٍ آخر لا يقتضى التضادَّ .

فأما الأول فكالاختلاف فى ألفاظ « الصِّراط ، وعليهم ، وَيَؤُودُهُ ، والقدس ويحسب » ، ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه لغات فقط . وأما الثانى فنحو لفظ « مالك وملك » فى الفاتحة ، لأن المرادَ فى القراءتين هـــو الله تعالى ، لأنه مالكُ يوم الدين وملكهُ . . وكذا ننشزُها بالزاى وننشرُها بالراء ، لأن المراد بهما هو العظام . وذلك أن الله تعالى أنشرها أى أحياها ، وأنشزها أى رفع بعضها إلى بعض ، حتى التأمت ، فضمَّن اللهُ المعنيين فى القراءتين . وأما الثالث فنحو قوله تعالى : « وظنُّوا أنهم قد كذبوا » قرىء بالتشديد والتخفيف فى لفظ « كذبوا » المبنى للمجهول . فأما وجه التشديد، فالمعنى : وتيقن الرسل أن قومهم قد كذَّبوهم . وأما وجه التخفيف ، فالمعنى : وتوهم المرسلُ إليهم أن الرسل قد كَذَبُوهُمْ (أى كذبوا عليهم) فيما أخبروهم به . فالظنُّ فى الأولى يقين ، والضمائر الثلاثة للرسل . والظنُّ فى القراءة الثانية شكٌّ والضمائر الثلاثة للمرسل إليهم .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : « وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ » بفتح اللام الأولى ورفع الأخرى فى كلمة « لتزولُ » ، وبكسر الأولى وفتح الثانية فيها أيضاً . فأما وجه فتح الأولى ورفع الثانية من « لتزول » فهو أن تكون كلمة « إنْ » مخفَّفةً من الثقيلة ، أى وإنَّ مكرهم كاملُ الشدة تقتلع بسببه الجبالُ الراسيات من مواضعها . وفى القراءة الثانية « إنْ » نافيةٌ أى ما كان مكرهم وإن تعاظم وتفاقم ليزولَ منه أمرُ محمد ﷺ ودينُ الإسلام . ففى الأولى تكون الجبال حقيقة ، وفى الثانية تكون مجازاً . ثم قال أيضاً : « فليس فى شىء من القرآن تنافٍ ولا تضادٌّ ولا تناقضٌ . وكلُّ ما صحَّ عن النبى ﷺ من ذلك ، فقد وجب قبوله ، ولم يسع أحداً من الأمة ردُّه ، ولزم الإيمان به وأنه كله منزل من عند الله ، إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية ، يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته علماً وعملاً ، ولا يجوز ترك موجَب إحداهما لأجل الأخرى ظنًّا أن هذا تعارُض » اهـ .

إلى ذلك أشار عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بقوله : « لا تختلفوا فى القرآن ،

ولا تنازعوا فيه ، فإنه لا يختلفُ ولا يتساقطُ : ألا ترون أن شريعة الإسلام واحدة حدودها وقراءتها ، وأمر الله فيها واحد . لو كان من الحرفين حرفٌ يأمر بشيء وينهى عنه الآخر ، كان ذلك الاختلاف . ولكنه جامع ذلك كله . ومن قرأ قراءة فلا يدعها رغبةً عنها ، فإنه من كفر بحرف منه كفر به كله » اهـ .

(الشبهة الثانية) :

يقولون : إن هذا الاختلاف فى القراءات، يوقع فى شك وريب من القرآن . خصوصاً إذا لاحظنا فى بعض الروايات معنى تخيير الشخص أن يأتى من عنده باللفظ وما يرادفه؛ أو باللفظ وما لا يضاده فى المعنى ، كحديث أبى بكرة ، وفيه « كلها شاف كاف ، ما لم تختم آيةُ عذابٍ برحمةٍ، أو آيةُ رحمةٍ بعذاب ، نحو قولك : تعالَ ، وأقبلْ ، وهلمَّ ، واذهب، وأسرعْ ، وعجلْ » . جاء بهذا اللفظ من رواية أحمد بإسناد جيد، ومثله حديث أبىٍّ بن كعب . وأكثر من ذلك ما جاء فى فضائل أبى عبيد أن عبد الله بن مسعود أقرأ رجُلًا : « إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ » فقال الرجل : « طَعَامُ ٱلْيَتِيمِ » فردَّها عليه ، فلم يستقمْ بها لسانهُ . فقال : أتستطيع أن تقول : طعامُ الفاجر قال : نعم . قال : فافعل » اهـ .

والجواب : ان اختلاف القراءات لا يوقع فى شك ولا ريب ما دام الكلُّ نازلاً من عند الله . وأما هذه الروايات التى اعتمدتْ عليها الشبهة ؛ فلا نسلم أنه يفهم منها معنى تخيير الشخص أن يأتى من تلقاء نفسه باللفظ وما يرادفه، أو باللفظ وما لا يضاده فى المعنى، حتى يوقعَ ذلك فى ريبٍ من هذا التنزيل . بل قصارى ما تدلُّ عليه هذه الروايات أن الله تعالى وسعَ على عباده، خصوصاً فى مبدأ عهدهم بالوحى ، أن يقرءوا القرآن بما تلينُ به ألسنتهم . وكان من جملة هذه التوسعة القراءة بمترادفاتٍ من اللفظ الواحد للمعنى الواحد، مع ملاحظة أن الجميعَ نازلٌ من عند الله ، نزل به الروح الأمين ، على قلبِ محمد ﷺ ،

وقرأه الرسول على الناس على مكثٍ ، وسمعوه منه ، ثم نسخ الله ما شاء أن ينسخ بعد ذلك ، وأبقى ما أبقى ، لحكمةٍ سامية تستقبلك فى مبحث النسخ .

يدلُّ على أن الجميع نازلٌ من عند الله تعالى قوله ﷺ لكلٍّ من المتنازعين المختلفين فى القراءة من أصحابه: «هَـكَذَا أُنْزِلَتْ» ، وقول كل من المختلفين لصاحبه : «أقرأنيها رسولُ اللهِ ﷺ » ؛ وقولُ الله تعالى لرسوله جواباً لمن سأله تبديلَ القرآن : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » وليس بعد كلام الله ورسوله كلام . كذلك أجمعت الأمة على أنه لا مدخل لبشر فى نظم هذا القرآن لا من ناحية أسلوبه ، ولا من ناحية ألفاظه ، بل ولا من ناحية قانون أدائه ، فمن يخرج على هذا الإجماع ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، يولِّه الله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيراً .

وها نحن أولاء قد رأينا القرآن فى تلك الآية يمنع الرسول من محاولة ذلك منعاً باتًّا مشفوعاً بالوعيد الشديد ، ومصحوباً بالعقاب الأليم . فما يكون لابن مسعود ، ولا لأكبر من ابن مسعود ـ بعد هذا ـ أن يبدِّل لفظاً من ألفاظ القرآن بلفظٍ من تلقاء نفسه . انظر ما قرَّرناه فى الشاهدين : الرابع والسابع من هذا المبحث .

أما هذه الرواية المنسوبة إلى ابن مسعود من أنه أقرأ الرجل بكلمة « الفاجر » بدلا من كلمة « الأثيم » فى قول الله تعالى « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » فتدلُّ على أن ابن مسعود سمع الروايتين عن رسول الله ﷺ . ولما رأى الرجل قد تعسر عليه النطق بالأولى ، أشار عليه أن يقرأ بالثانية ، وكلاهما منزَّل من عند الله .

وكذلك حديث أبى بكرة السابق ، لا يدلُّ على جواز تبديل الشخص ما شاء من القرآن بما لا يضادُّه ، كما زعم الواهم ، إنما ذلك الحديث وأشباهه ، من باب الأمثال التى يضربها الرسول ﷺ للحروف التى نزل عليها القرآن ؛ ليفيدَ أن تلك الحروف

على اختلافها ، ما هى إلا ألفاظٌ متوافقةٌ مفاهيمها ، متساندةٌ معانيها لا تخاذُلَ بينها ولا تهافت ، ولا تضادٌّ ولا تناقض ، ليس فيها معنى يخالف معنى آخر على وجه ينفيه ويناقضه ، كالرحمة التى هى خلاف العذاب وضدِّها . وتلك الأحاديث بهـذا الوجه ، تقريرٌ لأن جميع الحروف نازلة من عند الله « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً » .

وهاك برهاناً آخر ذكره صاحب التبيان فى مثل هذا المقام إذ يقول : « إنَّ النبيَّ ﷺ علَّمَ البراء بنَ عازبٍ دُعاءً فيه هذه الكلمة « وَنَبِيِّكَ ٱلَّذِى أَرْسَلْتَ » فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على رسول الله ﷺ قال : «وَرَسُولِكَ ٱلَّذِى أَرْسَلْتَ» فلم يوافقه النبى ﷺ على ذلك ، بل قال له : «لا . وَنَبِيِّكَ ٱلَّذِى أَرْسَلْتَ» . وهكذا نهاه عليه الصلاة والسلام أن يضع لفظة رسول ، موضعَ لفظة نبى ، مع أن كليهما حقٌّ لا يحيل معنى ، إذ هو ﷺ رسولٌ ونبيٌّ معاً . ثم قال : فكيف يسوغ للجهال المغفلين أن يقولوا : إنه عليه الصلاة السلام كان يجيزُ أن يوضع فى القرآن الكريم مكان عزيز حكيم ، غفورٌ رحيمٌ ، أو سميعٌ عليمٌ . وهو يمنع من ذلك فى دعاء ليس قرآناً ، والله يقول مخبراً عن نبيه ﷺ «مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى» ولا تبديلَ أكثرُ من وضع كلمةً مكان أخرى » اهـ بتصرف قليل .

(الشبهة الثالثة) :

يقولون : إن نزول القرآن على سبعة أحرف ، ينافى ماهو مقرر من أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها ، ثم إنه يؤدى إلى ضياع الوحدة التى يجب أن تسود الأمة الواحدة بسبب اجتماعها على لسان واحد .

والجواب : أنه لا منافاة ، ولا ضياع للوحدة ، فإن الوجوه السبعة التى نزل بها القرآن الكريم واقعةٌ كلها فى لغة قريش . ذلك أن قريشا كانوا قبل مهبط الوحى والتنزيل ،

قد داوروا بينهم لغات العرب جميعاً وتداولوها ، وأخذوا ما استملحوه من هؤلاء وهؤلاء في الأسواق العربية ومواسمها ووقائعها ، وحجها وعمرتها ثم استعملوه وأذاعوه ، بعد أن هذبوه وصقلوه . وبهذا كانت لغة قريش مجمع لغات مختارة منتقاة من بين لغات القبائل كافة . وكان هذا سبباً من أسباب انتهاء الزعامة إليهم ، واجتماع أوزاع العرب عليهم .

ومن هنا شاءت حكمة الحكيم العليم أن يَطْلُعَ عليهم القرآن من هذا الأفق ، وأن يطل عليهم من هذه السماء سماء قريش ولغتها التي أعطوها مقادتهم ، وولوا شطرها وجوههم ، نخاطبهم بهذا اللسان العام لهم ، ليضم نشرهم ، ولينظم نثرهم . وقد تم له ما أراد بهذه السياسة الرشيدة التي جاءتهم بالإعجاز البياني عن طريق اللغة التي انتهت إليها أفصح اللغات ، وباللسان الذى خضعت له وتمثلت فيه كافة الألسنة العربية .

ولو نزل القرآن بغير لغة قريش هذه لكان مثار مشاحنات وعصبيات ، ولذهب أهل كل قبيلة بلغتهم ولعلا بعضهم على بعض ، ولما اجتمع عليه العرب أبداً . بل لو نزل القرآن بغير لغة قريش لراجت شبهتهم وافتراؤهم عليه أنه سحر وكهانة وما إليها ، نظراً إلى أنه قد دخل عليهم من غير بابهم فلا يستطيعون القضاء فيه ، ولا إدراك الفوارق البعيدة بينه وبين الحديث النبوى ، مما يجعلهم يذوقون الإعجاز ويلمسونه ، كما تذوقوه بوضوح حين نزل بلسانهم . « إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ » .

(الشبهة الرابعة) :

يقولون : إنه لا معنى للأحرف السبعة التى نزل بها القرآن إلا تلك القراءات السبع المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء .

والجواب : أن هذه شبهة تعرض كثيراً للعامة ومن فى حكمهم ممن لم يأخذوا من علوم

القرآن والحديث بحظٍ ولا نصيب .. فإن ذلك المعنى الذى زعموه غـــيرُ صحيح من وجهين :

(أحدهما) أن الأحرف التى نزل بها القرآن ، أعمُّ من تلك القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة القراء عموماً مطلقاً، وأن هذه القراءات أخصُّ من تلك الأحرف السبعة النازلة خصوصاً مطلقاً . ذلك لأن الوجوه التى أنزل الله عليها كتابه ، تنتظم كل وجهٍ قرأ به النبى ﷺ ، وأقرأه أصحابه ، وذلك ينتظم القراءات السبعَ المنسوبة إلى هؤلاء الأئمة السبعة القراء ، كما ينتظم مافوقها إلى العشرة، وما بعد العشرة، وما كان قرآناً ثم نسخ ولم يصل إلى هؤلاء القراء جميعاً ، ولهذا نصوا فى المذهب المختار على أنه يشمل كل وجوه القراءات صحيحها وشاذّها ومنكرها كما سبق .

(ثانيهما): أن السبعة لم يكونوا قد خلقوا ولا وجدوا حين نطق الرسول ﷺ بهذا الحديث الشريف . ومحالٌ أن يفرض الرسول على نفسه وعلى أصحابه ألَّا يقرءوا بهذه الأحرف السبعة النازلة إلا إذا علموا أن هؤلاء القراء السبعة قد اختاروا القراءة بها ،على حين أن بين العهدين بضعة قرون ! وعلى حين أن هؤلاء القراء وسواهم إنما أخذوا عن النبى ﷺ من طريق أصحابه ومن أخذ عنهم إلى أن وصلوا إليهم. فهذه الشبهة تستلزم الدور الباطل فهى باطلة .

وتستلزم أيضاً أن يبقى قولُ الرسول ﷺ : « إنَّ هـذا القرآنَ أُنزلَ عَلَى سبعةِ أحرُفٍ » عارياً عن الفائدة ، غير نافذ الأثر ، حتى يولد القراء السبعة المعروفون وتؤخذ القراءة عنهم . وذلك باطل أيضاً يكذبه الواقع من قـــراءة النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وقراءة أصحابه وتابعيه بالأحرف السبعة من قبل أن يولد القراء السبعة المعروفون .

قال المحقِّق ابن الجزرى : «فلو كان الحديث منصرفاً إلى قراءات السبعة المشهورين أو سبعة غيرهم من القُرّاء الذين وُلدوا بعد التابعين ، لَأَدّى ذلك إلى أن يكون الخبر عارياً عن الفائدة إلى أن يُولد هؤلاء السبعة ، فتؤخذ عنهم القراءة ، وأدّى أيضاً إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا وُلدوا وتعلموا اختاروا القراءة به . وهذا باطل ؟ إذ طريق أخذ القراءة أن تُؤخذ عن إمام ٍ ثقة ٍ ، لفظاً عن لفظ ، إماماً عن إمام . إلى أن يتّصل بالنبى ﷺ » اهـ .

المبحث السابع

فى المكى والمدنى من القرآن الكريم

ليس من غرضنا فى هذا المبحث أن نَسْتَقْصِىَ بالتفصيل والتدليل آيات القرآن الكريم وسُوره . وأن نحقِّق ما كان منها مكيًّا وما كان مدنيًّا ، فتلك محاولة كبيرة جديرة أن تُفرد بالتأليف ، وقد أفردها فعلًا بالتأليف جماعةٌ ، منهم مكىٌّ والعِزُّ الدِّرينى .

ولكن حسبنا هنا أن نتكلم على الاصطلاحات فى معنى المكى والمدنى ، وعلى فائدة العلم بالمكى والمدنى ، وعلى الطريق الموصلة إليه ، وعلى الضوابط التى يُعرف بها ، وعلى السور المكية والمدنية والمختلف فيها ، وعلى أنواع السور المكية والمدنية ، وعلى أوجه ٍ تتعلّق بالمكى والمدنى ، وعلى فروق ٍ أخرى بين المكى والمدنى صيغت من بعضها مطاعن فى القرآن ، وعلى دفع تلك المطاعن ونقضها .

١ — الاصطلاحات فى معنى المكى والمدنى

للعلماء فى معنى المكى والمدنى ثلاثة اصطلاحات :

(الأول) أن المكى مانزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدَنى ما نزل بالمدينة. ويدخل فى مكة ضواحيها كالمنزل على النبى ﷺ بمِنًى وعَرَفات والحُدَيْبية . ويدخل فى المدينة ضواحيها أيضاً كالمنزل عليه فى بدرٍ وَأُحُد . وهذا التقسيم لُوحظ فيه مكان النزول كما ترى. لكن يرد عليه أنه غير ضابط ولا حاصر ، لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما كقوله سبحانه فى سورة التوبة : « لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ » الخ فإنها نزلت بِتَبُوك، وقوله سبحانه فى سورة الزخرف «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا » الخ فإنها نزلت ببيت المقدس ليلةَ الإسراء . ولاريب أن عدم الضبط فى التقسيم يترك واسطةً لا تدخل فيما يُذكر من الأقسام ، وذلك عَيْبٌ يخلُّ بالمقصود الأول من التقسيم ، وهو الضبط والحصر .

(الاصطلاح الثانى) أن المكى ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدنى ماوقع خطاباً لأهل المدينة . وعليه يُحمل قول من قال : إن ما صدر فى القرآن بلفظ « يَاأَيُّهَا النَّاسُ » فهو مكى ؛ وما صدر فيه بلفظ « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فهو مدنى ؛ لأن الكفر كان غالباً على أهل مكة فخوطبوا بيأيها الناس، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم. ولأن الإيمان كان غالباً على أهل المدينة، فخوطبوا بيأيها الذين آمنوا ، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم أيضًا. وأَلْحَقَ بعضهم صيغة يا بنى آدم بصيغة يأيها الناس . أخرج أبو عبيد فى فضائل القرآن عن ميمون ابن مهران قال : « ما كان فى القرآن يأيها الناس ، أو يا بنى آدم ، فإنه مكى، وما كان يأيها الذين آمنوا ، فإنه مدنى » .

وهذا التقسيم لُوحظ فيه المخاطبون كما ترى، لكن يرد عليه أمران: أحدهما ماورد على سابقه من أنه غيرُ ضابطٍ ولا حاصر، فإن فى القرآن ما نزل غير مصدَّر بأحدهما نحو قوله سبحانه فى فاتحة سورة الأحزاب: « يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ » الخ ، ونحو قوله سبحانه فى فاتحة سورة المنافقين: « إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ » الخ .

(ثانيهما أن هذا التقسيم غير مطَّرد فى جميع موارد الصيغتين المذكورتين ، بل إن هناك آياتٍ مدنيةً صُدِّرت بصيغة « يأيها النّاس » ، وهناك آيات مكية صُدِّرت بصيغة « يأيها الذين آمنوا » . مثال الأولى سورة النساء، فإنها مدنية وأولها « يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ » ، وكذلك سورة البقرة مدنية وفيها « يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ » ومثال الثانية سورة الحج فإنها مكية مع أن فى أواخرها « يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ » الخ .

قال بعضهم : « هذا القول إن أُخذ على إطلاقه ففيه نظر ، فإن سورة البقرة مدنية وفيها « يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ » إلى آخر ماذكرناه أمامك. غير أنه قال أخيرا ما نصُّه : « فإن أريد أنَّ الغالبَ كذلكَ فصحيحٌ » .

أقول: ولكن صحَّة الكلام فى ذاته لا تُسوِّغُ صحَّة التقسيم، فإن من شأن التقسيم السليم أن يكون ضابطاً حاصراً، وأن يكون مطَّرِداً. وقيد الغالبيَّة المراد، لا يحقِّقُ الضبط والحصر وإن حقَّق الاطراد، فيبقى التقسيم مَعِيباً. على أنهم قالوا: المرادُ لا يَدْفعُ الإيراد.

(الاصطلاح الثالث) وهو المشهور : أن المكى مانزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة ، وإن كان نزوله بغير مكة ، والمدنى ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله بمكة .

وهذا التقسيم كما ترى لُوحظ فيه زمن النزول، وهو تقسيم صحيحٌ سليم، لأنه ضابطٌ حاصر ومُطَّرِدٌ لا يختلف ، بخلاف سابقيه ، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم. وعليه فآية : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

ٱلْإِسْلَامَ دِيناً » مدنية ، مع أنها نزلت يوم الجمعة بعرفة فى حجة الوداع . وكذلك آية « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا » فإنها مدنية مع أنها نزلت بمكة فى جوف الكعبة عامَ الفتح الأعظم. وقل مثل ذلك فيما نزل بأسفاره عليه الصلاة والسلام كفاتحة سورة الأنفال وقد نزلت ببدر ، فإنها مدنية لا مكية على هذا الاصطلاح المشهور .

٢ — فائدة العلم بالمكى والمدنى

من فوائد العلم بالمكى والمدنى تمييزُ الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم فى موضوع واحد ، وكان الحكم فى إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم فى غيرها ، ثم عُرف أن بعضها مكى وبعضها مدنى ، فإننا نحكم بأن المدنى منها ناسخ للمكى نظراً إلى تأخر المدنى عن المكى .

ومن فوائده أيضًا معرفة تاريخ التشريع وتدرُّجه الحكيم بوجهٍ عام، وذلك يترتَّب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية فى تربية الشعوب والأفراد . وسيستقبلك فى هذا المبحث فروقٌ بين المكى والمدنى تُلاحظ فيها جلال هذه الحكمة .

ومن فوائده أيضا الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالما من التغيير والتحريف . ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى ليعرفون ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر؛ وما نزل بالنهار وما نزل بالليل، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف، وما نزل بالأرض وما نزل بالسماء، إلى غير ذلك . فلا يعقل بعد هذا أن يسكتوا ويتركوا أحداً يمسُّه ويَعْبَثُ بهِ ، وهم المتحمسون لحراسته وحمايته والإحاطة بكل ما يتَّصل به أو يَحْتَفُّ بنزوله إلى هذا الحد !

٣ — الطريق الموصلة إلى معرفة المكى والمدنى

لا سبيل إلى معرفة المكى والمدنى إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين فى ذلك ؛ لأنه لم يرد عن النبى ﷺ بيانٌ للمكى والمدنى . وذلك لأن المسلمين فى زمانه لم يكونوا فى حاجة إلى هذا البيان ، كيف وهم يشاهدون الوحى والتنزيل ، ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله عِيانًا . « وليس بعدَ العِيان بيان » .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « واللهِ الذى لا إلهَ غيرُه ، ما نزلت سورةٌ من كتاب اللهِ إلّا وأنا أعلَمُ أيْنَ نَزَلَتْ ؟ وَلَا نزلَتْ آيةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إلّا وَأَنَا أعْلَمُ فيمَ نزلت؟ولوْ أعلمُ أنَّ أحداً أعلمُ مِنِّى بكتاب الله تبلُغُهُ الإبلُ لَرَكِبْتُ إليْهِ » . وقال أيوب: سأل رجلٌ عِكرِمةَ عن آيةٍ من القرآنِ فقال: « نَزَلَتْ فِى سَفْحِ ذَلِكَ الْجَبَلِ » وأشار إلى سَلْعٍ ا هـ .

ولعل هذا التوجيه الذى ذكرته أولى مما ذكره القاضى أبو بكر فى الانتصار ، إذ يقول ما نصُّه : « ولم يرِد عن النبى ﷺ فى ذلك قول ، لأنه لم يأمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب فى بعضه على أهل العلم معرفةُ تاريخ الناسخ والمنسوخ ، فقد يُعرف ذلك بغير نصِّ الرسول » ا هـ .

٤ ـ الضوابط التى يعرف بها المكى والمدنى

قد عرفنا فيما مضى أن مَرَدَّ العلم بالمكى والمدنى هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين ، بَيْدَ أن هناك علاماتٍ وضوابط يعرف بها المكى والمدنى . وهاك ضوابط المكى :

١ ـ كل سورة فيها لفظ « كَلّا » فهى مكية . وقد ذُكر هذا اللفظ فى القرآن ثلاثًا

وثلاثين مرة ، فى خمس عشرة سورة كلها فى النصف الأخير من القرآن . قال الدرينى رحمه الله :

« وَمَا نَزَلَتْ كَلَّا بِيَثْرِبَ فَاعْلَمَنْ وَلَمْ تَأْتِ فِى الْقُرْآنِ فِى نِصْفِهِ الْأَعْلَى »

قال العمانى : « وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة ، وأكثرها جبابرة ، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول . وما نزل منه فى اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم » اهـ .

٢ ـ كل سورة فيها سجدة فهى مكية لا مدنية .

٣ ـ كل سورة فى أولها حروف التَّهَجِّى فهى مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع . وفى الرعد خلاف .

٤ ـ كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهى مكية سوى البقرة .

٥ ـ كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية سوى البقرة أيضاً .

٦ ـ كل سورة فيها يأيها الناس وليس فيها يأيها الذين آمنوا فهى مكية ، ولكنه ورد على هذا ما تقدَّم بين يديك من سورة الحج .

٧ ـ كل سورة من المفصَّل فهى مكية . أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : « نزل المفصَّل بمكة ، فمكثنا حِجَجاً نقرؤه ولا ينزل غيره » لكن يرد على هذا أن بعض سور المفصَّل مدنى نزل بعد الهجرة اتفاقاً كسورة النصر ، فإنها كانت من أواخر ما نزل بعد الهجرة ، بل قيل إنها آخر ما نزل ، كما سبق فى مبحث أول ما نزل وآخر ما نزل . فالأَوْلَى أن يُحمل كلام ابن مسعود هذا على الكثرة الغالبة من سور المفصل ، لا على جميع سور المفصل . والمفصَّل على وِزَان مُعَظَّم : هو السورة الأخيرة من القرآن الكريم مُبتدَأَةً من

سورة الحجرات على الأصح. وسميت بذلك لكثرة الفصل فيها بين السور بعضها وبعض من أجل قصرها. وقيل: سميت بذلك لقلة المنسوخ فيها، فقولها قولٌ فصلٌ: لا نسخ فيه ولا نقض.

أما ضوابط المدنى: فكما يأتى:

١ - كل سورة فيها الحدود والفرائض فهى مدنية.

٢ - كل سورة فيها إذنٌ بالجهاد وبيانٌ لأحكام الجهاد فهى مدنية.

٣- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية ماعدا سورة العنكبوت. والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ماعدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها، فإنها مدنية. وهى التى ذكر فيها المنافقون.

٥ — السور المكية والمدنية والمختلف فيها

نقل السيوطى فى الإتقان أقوالًا كثيرة فى تعيين السور المكية والمدنية، من أوفقها ما ذكره أبو الحسن الحصار فى كتابه الناسخ والمنسوخ إذ يقول:

« للمدنى باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وماعدا ذلك مكى باتفاق » ثم نظم فى ذلك أبياتاً رقيقة جامعة، وهو يريد بالسور العشرين المدنية بالاتفاق: سورة البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والجمعة، والمنافقين، والطلاق، والتحريم، والنصر.

ويريد بالسور الاثنتى عشرة المختلف فيها: سورة الفاتحة، والرعد، والرحمن، والصف، والتغابن، والتطفيف، والقدر، ولم يكن، وإذا زلزلت، والإخلاص، والمعوذتين.

ويريد بالسور المكية باتفاق ما عدا ذلك وهى اثنتان وثمانون سورة . وإلى هذا القسم المكى يشير فى منظومته بقوله :

« وما سوى ذاكَ مكىٌّ تنزُّلُه فلا تكن من خلاف الناس فى حَصَرِ
فليس كلُّ خلافٍ جاء معتبراً إلا خلافٌ له حظٌّ من النظرِ »

وقد جرى هذا البيت مجرى الأمثال عند أهل العلم .

٦ ـ أنواع السور المكية والمدنية

قد تكون السورة كلها مكية ، وقد تكون كلها مدنية ، وقد تكون السورة مكية ما عدا آيات منها ، وقد تكون مدنية ما عدا آيات منها ، فتلك أربعة أنواع :

مثال النوع الأول سورة المدثر فإنها كلها مكية . ومثال الثانى سورة آل عمران فإنها كلها مدنية ، ومثال الثالث سورة الأعراف فإنها مكية . ما عدا آية « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ » قاله قتادة . واستثنى غيره هذه الآية المذكورة وما بعدها من الآيات إلى قوله سبحانه : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ » وقال : إن تلك الآيات مدنية . ومثال النوع الرابع سورة الحج فإنها مدنية ما عدا أربع آيات منها، تبتدىء بقوله سبحانه « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى » إلى قوله « عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ » .

واعلم أن وصف السورة بأنها مكية أو مدنية ، يكون تبعاً لما يغلب فيها ، أو تبعاً لفاتحتها ، فقد ورد أنه إذا نزلت فاتحة سورة بمكة مثلا كُتبت مكية ، ثم يزيد الله فيها مايشاء . ولعل الأنسب بالاصطلاح المشهور فى معنى المكى والمدنى أن يقال : إذا نزلت فاتحة سورة قبل الهجرة كُتبت مكية ، وإذا نزلت فاتحة سورة بعد الهجرة كُتبت مدنية ثم يذكر المستثنى من تلك السور إن كان هناك استثناء فيقال : سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية ، أو سورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية أو نحو ذلك ، كما تراه فى كثير من المصاحف عُنوَاناً للسورة .

وقد بذل العلماء هِمَّة جبَّارةً فى استقصاء حال ما نزل من السور والآيات حتى لقد قال أبو القاسم النيسابورى فى كتاب التنبيه على فضل علوم القرآن ما نصه : «من أشرف علوم القرآن ، علم نزوله ، وجهاته ، وترتيب مانزل بمكة والمدينة ، ومانزل بمكة وحكمه مدنى ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى ، ومانزل بمكة فى أهل المدينة ، ومانزل بالمدينة فى أهل مكة ، وما يشبه نزول المكى فى المدنى ، وما يشبه نزول المدنى فى المكى ، ومانزل بالجُحفَة ، وما نزل ببيت المقدس ، ومانزل بالطائف ومانزل بالحُدَيْبِيَة ، ومانزل ليلا ، وما نزل نهاراً ، ومانزل مُشَيَّعاً ، ومانزل مُفرداً ، والآيات المدنيات فى السور المكية ، والآيات المكيات فى السور المدنية ، وما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حُمل من المدينة إلى مكة ، وما حُمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مجملًا ، وما نزل مفسَّراً ، وما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : مكى وبعضهم مدنى ، فهذه خمسة وعشرون وجهاً ، من لم يعرفها ويميِّز بينها لم يحِلَّ له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى » اهـ .

قال السيوطى بعد أن أورد هذا : وقد أشبعت الكلام على هذه الأوجه ، فمنها ما أفردته بنوع ، ومنها ما تكلَّمت عليه فى ضمن بعض الأنواع . اهـ وجزاهم الله أحسن الجزاء .

وُجُوهٌ تتعلَّق بالمكى والمدنى

نبَّهَ السيوطى عند كلامه فى هذا المبحث إلى أن هناك وجوهاً فى المكى والمدنى . منها ما تستطيع أن تفهمه مما قصصناه عليك آنفا . ومنها ما يشبه تنزيل المدنى فى السور المكية ، فى قوله تعالى فى سورة النجم : «ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ » قال السيوطى فى توجيهه ما نصه : « فإن الفواحش كل ذنب فيه حَدٌّ ، والكبائر كل ذنب عاقبته النار ، واللَّمَم ما بين الحدَّين من الذنوب ، ولم يكن بمكة حَدٌّ ولا نحوه » اهـ لكن فيه نظر من وجهين : (أحدهما) أن تفسير الفواحش بما ذَكَر غير متفق عليه ،

بل فسَّرها غيره بأنها الكبائر مطلقاً . وفسرها آخر بما يكبر عقابه دون تخصيص بحد .
وفسرها السيوطى نفسه فى سورة الأنعام بأنها الكبائر . (والثانى) أن بعضهم يستثنى
هذه الآية من سورة النجم المكية ، وينصُّ على أنها مدنية .

ومنها : ما يشبه تنزيل المكى فى السور المدنية ، نحو سورة «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً»،
وكقوله سبحانه فى سورة الأنفال المدنية : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ
مِنْ عِنْدِكَ » الخ . وفى هذا نظر أيضاً ؛ فإن المعروف أن سورة « والعاديات » من
السور المكية كما سبق ، وأن آية « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ » الخ منصوصٌ على أنها نزلت
بمكة ، كما نقل السيوطى نفسه عن مقاتل ، وقال: إنها مُسْتَثْنَاةٌ من سورة الأنفال المدنية.
بل نصَّ بعضهم على أن هذه الآية مع آيتين قبلها وأربع بعدها كلها مكيات مستثنيات
من سورة الأنفال المدنية .

ومنها : ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة، نحو سورة يوسف وسورة الإخلاص وسورة سبح.

ومنها : ما حُمِلَ من المدينة إلى مكة ، نحو آية الربا فى سورة البقرة المدنية ، وصدر
سورة التوبة المدنية .

ومنها : ما حُمِلَ إلى الحبشة نحو سورة مريم ، فقد صحَّ أن جعفر بن أبى طالب
قرأها على النجاشى .

ومنها : ما حُمِلَ إلى الروم كقوله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران : « قُلْ
يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الآية .

وأنت خبير بأن الاصطلاح المشهور فى المكى والمدنى ينتظم كل ما نزل سواء أكان
بمكة والمدينة ، أم بغيرهما كالجحفة ، والطائف ، وبيت المقدس ، والحديبية ، ومِنًى ،
وعرفات ، وعُسفان ، وتَبُوك ، وبدر ، وأُحدٍ ، وحِراء ، وحمراء الأسد . وتفصيل ذلك
يخرج بنا إلى حدّ الإطالة ، فناهيك ما ذكرنا . « واللبيب تكفيه الإشارة » .

فروق أخرى بين المكى والمدنى

توجد فروقٌ أُخرى بين المكى والمدنى، غير ماقدمناه فى ضوابطهما وهذه الفروق فيها دقة عن تلك، لتعلقها فى مجموعها بأمور معنوية وبلاغية. ثم إن أعداء الإسلام قد صاغوا عن طريق بعضها شبهاتٍ سدّدوا سهامها إلى القرآن الكريم لذلك أفردناها بعنوان، توطئة لنقض تلك الشبهات « وَقَبْلَ الرَّمْيِ يُرَاشُ السَّهْمْ ».

ونذكر من خواصِّ القسم المكى أنه قد كثر فيه ما يأتى:

(أولًا) أنه حمَلَ حملةً شعواء على الشرك والوثنية، وعلى الشبهات التى تذرَّع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب، وأتاهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحسِّ، وضرب لهم أبلغ الأمثال، حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة المزيفة لاتقدر أن تخلق مجتمعةً أقلَّ نوع من الذباب، بل لاتستطيع أن تدفع عن نفسها شرَّ عادية الذباب، وقال: « يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ. إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ. ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »

ولما عاندوا واحتجُّوا بما كان عليه آباؤهم، نَعَى عليهم أن يمتهنوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من الذلة للأحجار والأصنام، وسفَّه أحلامهم وأحلام آبائهم الذين أهملوا النظر فى أنفسهم وفى آيات الله فى الآفاق، وقبَّح إليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد « أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ». وناقشهم كذلك فى عقائدهم الضالة التى نجمَتْ عن تلك الوثنية من جُحود الإلهيات والنبوّات، وإنكار البعث والمسئولية والجزاء.

(ثانيًا) أنه فتح عيونهم على مافى أنفسهم من شواهد الحق، وعلى مافى الكون من أعلام الرشد، ونوع لهم فى الأدلة وتفنن فى الأساليب، وقاضاهم إلى الأوّليات

والمشاهدات ، ثم قادهم من وراء ذلك قيادةً راشدةً حكيمة ، إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته ، والإيمان بالبعث ومسئوليته ، والجزاء العادل وَدِقّته ، ثم التسليم بالوحي وبكل ماجاء به الوحي من هدى الله في الإلهيات والنبوّات والسمعيات في العقائد على سواء .

(ثالثاً) أنه تحدث عن عاداتهم القبيحة ، كالقتل ، وسفك الدماء ، ووأد البنات ، واستباحة الأعراض ، وأكل مال الأيتام . فلفَت أنظارهم إلى مافي ذلك من أخطار ، وما زال بهم حتى طهّرهم منها ، ونجَح في إبعادهم عنها .

(رابعاً) أنه شرح لهم أصول الأخلاق ، وحقوق الاجتماع ، شرحاً عجيباً كرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وفوضى الجهل ، وجفاء الطبع ، وقذارة القلب ، وخشونة اللفظ ، وحبّب إليهم الإيمان والطاعة ، والنظام ، والعلم ، والمحبة ، والرحمة ، والإخلاص ، واحترام الغير ، وبرّ الوالدين ، وإكرام الجار ، وطهارة القلوب ، ونظافة الألسنة ، إلى غير ذلك .

(خامساً) أنه قصّ عليهم من أنباء الرسل وأممهم السابقة ، مافيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر ، من تقرير سُنَنه تعالى الكونية في إهلاك أهل الكفر والطغيان ، وانتصار أهل الإيمان والإحسان ، مهما طالت الأيام وامتدّ الزمان ، ماداموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الإيمان .

(سادساً) أنه سلك مع أهل مكة سبيلَ الإيجاز في خطابه ، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات ، صغيرة السُّوَر . لأنهم كانوا أهل فصاحةٍ ولَسَن ، صناعتهم الكلام ، وهمتهم البيان ؛ فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب .

كما أن قانون الحكمة العالية ، قضى بأن يسلك سبيل التدرُّج والارتقاء في تربية الأفراد ، وأن يقدّم الأهم على المهمّ . ولا ريب أن العقائد والأخلاق والعادات ،

أهمُّ من ضروب العبادات ودقائق المعاملات ، لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية ؛ لذلك كثر فى القسم المكى التحدُّث عنها والعناية بها كما علمت فى الخواصِّ الماضية جرياً على سُنَّة التدرُّج من ناحية ، وتقديماً للأهمِّ على المهمِّ من ناحيةٍ أخرى .

أما خواصُّ القسم المدنى ، فنذكر منها أنه قد كثر فيه ما يأتى :

(أولا) التحدُّث عن دقائق التشريع ، وتفاصيل الأحكام ، وأنواع القوانين المدنية والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية ، والحقوق الشخصية ، وسائر ضروب العبادات والمعاملات . انظر – إن شئت – فى سورة البقرة والنساء والمائدة والأنفال والقتال والفتح والحجرات ونحوها .

(ثانياً) دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام ، ومناقشتهم فى عقائدهم الباطلة ، وبيان جناياتهم على الحق ، وتحريفهم لكتب الله ، ومحاكمتهم إلى العقل والتاريخ . اقرأ – إن شئت – سورة البقرة وآل عمران والمائدة والفتح ونحوها .

(ثالثاً) سلوك الإطناب والتطويل فى آياته وسوره . وذلك لأن أهل المدينة لم يكونوا يضاهئون أهل مكة فى الذكاء والألمعية وطول الباع فى باحات الفصاحة والبيان ؛ فيناسبهم الشرح والإيضاح ، وذلك يستتبع كثيراً من البسط والإسهاب ؛ لأن دستور البلاغة لا يقوم إلا على رعاية مقتضيات الأحوال ، وخطابِ الأغبياء بغير ما يُخاطب به الأذكياء . « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

نَقْض الشبهات التى أُثيرت
حول هذا الموضوع

قلنا ونقول : إن أعداء الإسلام كثيرون ، وإنهم يتربصون به الدوائر ، وينتهزون كلَّ فرصة ليسدِّدوا إليه سهام المطاعن . وإن من واجبنا أن نحمِيَ العَرِين ونقوم بواجب الدفاع فى هذا المُمعان ، ولن يتسنى ذلك إلا إذا تسلَّحنا بجميع الأَسلحة ، وفى مقدِّمتها دراسة تلك الشبهات التى يحرقون بخورَها فى مصر وغير مصر حتى إشبابنا المتعلم، فى بعض الدروس والكتب التى يزعمون أنها أدبية. وقد شهدت مصر وَقتاً ما معركةً حامية الوطيس دارت رحاها حول أمثال هذه الشبهات التى نسوقها إليك، فاقْتَحِمْها عَنْوَة، وخُذْها بقوَّة. ولا حول ولا قوة إلا بالله . وما أجمل أن نردِّد قول الشاعر :

« أَنَا لَا أَلُومُ ٱلْمُسْتَبِدْ دَ إِذَا تَعَنَّتَ أَوْ تَعَدَّى
فَسَبِيلُهُ أَنْ يَسْتَبِدْ دَ وَشَأْنُنَا أَنْ نَسْتَعِدَّا »

الشبهة الأولى وفى طيها شبهات

يقولون : إن الباحث الناقد ، يلاحظ أن فى القرآن أسلوبين متعارضين ، لا تربط الأول بالثانى صلة ولا علاقة، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة ، وتأثر ببيئات متباينة ؛ فنرى أن القسم المكى منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطّة ، كما نشاهد القسم المدنى منه تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة . فالقسم المكى يتفرّدُ بالعنف والشدّة ، والقسوة والحدّة ، والغضب ، والسباب ، والوعيد والتهديد مثل سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » وسورة « وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ » وسورة « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » ومثل « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » .

والجواب : أن هذه الشبهة تتألّف من شبهات أربع ، وإن شئت فقل : تتألف من مقدّمات ثلاثٍ كواذب ، تتأدّى ، أو يريد صاحبها أن يتأدّى بها إلى نتيجة هى الأخرى كاذبة .

فأما المقدّمات الثلاث الكواذب فهى أن القسم المكى تفرّد بالعنف والشدّة ، وأنّ فيه سباباً وإقذاعاً ، وأنه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة . وأما النتيجة أو الهدف الذى يرمى إليه فهو أن القرآن مفككُ الأجزاء ، غيرُ متصل الحلقات ، وأنه خاضعٌ للظروف ، متأثرٌ بالبيئة .

وغرضهم من هذا معروفٌ طبعاً ، وهو أن القرآن ليس كلام الله وليس معجزاً إنما هو كلام محمد الذى تأثر أولًا بأهل مكة فكان كلامه خشناً بعيداً عن المعارف العالية التى اكتسبها من أهل الكتاب فى المدينة .

ذلك كله ما يجب أن نحمل عليه انتقاد أولئك المضللين ، فإن قرينة عداوتهم للحق

وخصومتهم للإسلام ، ونقدهم للقرآن ، تبعد كلامهم عن كل تأويل حسن ، وتحمله على أسوأ فروضه .

ولنأت لك على بنيان هذه الشبهة من القواعد ، لتعلم إغراقها فى البطلان وإغراق ذويها فى الكذب والإسفاف .

(١) ـ فأما قولهم : إن القسم المكى قد تفرّد بالعنف والشدّة فينقضه أن فى القسم المدنى شدةً وعنفاً ، فدعوى تفرُّد القسم المكى بذلك باطلة ، قال تعالى فى سورة البقرة وهى مدنية : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »وقال فيها أيضاً «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ» وقال فيها أيضاً : « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وقال سبحانه فى سورة آل عمران ـ وهى مدنية كذلك ـ « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ » .

وإنما اشتمل القرآن الكريم بقسميه المكى والمدنى على الشدّة والعنف ، لأن ضرورة التربية الرشيدة ، فى إصلاح الأفراد والشعوب ، وسياسة الأمم والدول ، تقضى أن يمزُجَ المصلح فى قانون هدايته ، بين الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد والشدّة واللين .

ثم إن دعواهم انفراد المكى بالعنف والشدّة ، يفهم منه دعوى انفراد المدنى

باللين والصفح ، ودعوى خلوّ المكى من ذلك اللين والصفح. وهذا المفهوم باطل كمنطوقه أيضاً. ودليل ذلك أن بين السوَر المكية آيات كريمة تفيض ليناً وصفحاً، وتقطر سماحةً وعفواً ، بل تنادى أن تقابلَ السيئةُ بالحسنة ، كما فى قوله سبحانه فى سورة فصلت المكية: « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

وكما فى قوله سبحانه من سورة الشورى المكية : « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ . وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

وكذلك قوله سبحانه فى سورة الحجر المكية : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » : إلى آخر السورة . ومثله قول الله جلت قدرته فى سورة الزمر المكية : « قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

(٢) وأما زعمهم أن فى القسم المكى سِبابا،ويريدون من السباب معناه المعروف عندهم من الفحش والبذاءة ، والخروج عن حدود الأدب واللياقة ، فقد « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » . ونحن نتحدَّاهم أن يأتوا بمثال واحد فى القرآن كله ، مكِّية ومدنيه ، يكون من هذا اللون القذِر الرخيص . وهل يعقل أن القرآن الذى جاء يعلم الناس أصول الآداب ، يخرج هو عن أصول الآداب إلى السباب؟ كيف وقد حرم على أتباعه المسلمين أن يسبوا أعداءه المشركين؟ فقال فى سورة الأنعام: « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » .

نعم إن فى القرآن كله لا فى القسم المكى وحده تسفيهاً لأحلام المتنطعين ، الذين يُصِمّون آذانهم ، ويغمضون أعينهم عن الحق ، ويهملون الحجج والبراهين ، وهو فى ذلك شديد عنيف ، بيدَ أنه فى شدَّته وعنفه ، لم يخرج عن جادَّة الأدب ، ولم يعدل عن سنن الحق ، ولم يصدف عن سبيل الحكمة . بل الحكمة تتقاضاه أن يشتدَّ مع هؤلاء، لأنهم يستحقون الشدّة ، ومن مصلحتهم ، هم ، ومن الرحمة بهم ، والخير لهم ، أن يشتدَّ عليهم ليرعوُوا عن باطلهم ، ويصيخوا إلى صوت الحق والرشد ، ويسيروا على هدى الدليل والحجة ، على حد قول القائل :

« فقسا ليزدجروا . ومنْ يكُ حازماً فليقسُ أحياناً على منْ يرحمُ »

أضف إلى ذلك أن هذا التقريع الحكيم تجده فى السور المدنية ، كما تجده فى السور المكية . وإن كان فى المكى أكثر من المدنى ، لأن أهل مكة كانوا أشدّاء العارضة ، صعاب المراس ، مسرفين فى العناد والإباء ، لم يتركوا باباً من الشرّ إلا دخلوه على الرسول وأصحابه ، ولم يكفهم أن يخرج من بلده وأهله بليل ، بل وجهوا إليه الأذى فى مُهاجرِه .

والشاهد على أن في السور المدنية تنويعاً عنيفاً أيضاً عند المناسبات قوله سبحانه من سورة البقرة المدنية في شأن المشركين: « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » وقوله من سورة البقرة أيضاً في شأن المنافقين « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » إلى تمام ثلاث عشرة آية مليئة بالتوبيخ والتعنيف لتلك الحشرات الآدمية ، الذين ينفثون سمومهم ، ويفسدون المجتمع بسلاحٍ خطير ذي حدَّين هو سلاح النفاق والذبذبة . وكذلك تقرأ في هذه السورة المدنية نفسها في شأن اليهود آيات كثيرة من هذا الطراز، تنقدهم وتنعى جرائمهم، وتحمل عليهم حملةً شعواء ، تقبيحاً لجناياتهم وجنايات آبائهم من قبلهم . مثل قوله سبحانه : « ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » ومثل قوله « بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ » .

ومثل قوله تعالى في شأن النصارى من سورة آل عمران : « إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » الخ . وقوله فيهم أيضاً من هذه السورة : « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ » الخ .

أما السور والآيات التى اعتمدت عليها الشبهة ، فلا تدلُّ على ذلك السباب الذى زعموه ووصموا به القرآن الكريم ، لأن سورة «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» غاية ما اشتملت عليه أنها إنذارٌ ووعيدٌ لأبى لهب وامرأته ، جزاء ما أساءا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه ، كما يدلُّ على ذلك سبب نزولها: أخرج الإمام أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عباس قال : لما نزلت « وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ » صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهرٍ يا بنى عدىٍّ ، لبطون قريش حتى اجتمعوا . فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ماهو؟فجاء أبو لهب وقريش، فقال صلى الله عليه وسلم: أرأيتكم لوْ أخبرتكم أن خيلًا بالوادى تريد أن تغيرَ عليكم أكنتمْ مصدقىَّ ؟ قالوا : نعم ما جرَّبنا عليك إلا صدقًا ، قالَ : فإنى نذيرٌ لكم بينَ يدىْ عذابٍ شديدٍ . فقال أبو لهب : تبًّا لكَ ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن زيد أن امرأة أبى لهب كانت تأتى بأغصان الشوك تطرحها بالليل فى طريق الرسول صلى الله عليه وسلم .

وروى عن مجاهد أنها كانت تمشى بالنميمة .

فهذه الأسباب مجتمعةً تفيد أن السورة نزلت لمقابلة أبى لهب بما يستحقُّ من إنذاره بالهلاك والقطيعة ، وأن ماله لاينفعه ولا كسبه، وأنه خاسر هو وامرأته ، وأن مصيرهما إلى النار وبئس القرار .

ولا ريب أن فى هذا الوعيد العنيف ردعًا له ولأمثاله ، وتسليةً لمن أصيب بأذاهم من الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وذلك هو اللائق بالعدالة الإلهية ، والتربية الحكيمة الربانية .

« ووضعُ الندى فى موضعِ السيفِ بالعلاَ
مضرٌّ كوضعِ السيفِ فى موضعِ الندى »

وأما سورة «والعصر» فليس فيها سباب ولا ما يشبه السباب . وكل ماعرضت له

أنها جعلت الناس قسمين : قسماً غريقاً فى الخسران ، وقسماً فاز ونجا من هذا الخسران ، وهم الذين جمعوا عناصر السعادة الأربعة . اقرأ قوله سبحانه : « وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ : إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » فهل ترى فيها ظِلا للسباب والإقذاع ؟ ولكن القوم لا يستحون ! .

وأما سورة « أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ » : فمبلغ ما نشير إليه ، أن المخاطبين شغلتهم الدنيا عن الدين ، وألهتهم الأموال عن رب الأموال ، حتى انتهت أعمارهم وهم على هذه الحال . وَغَدًا يُسألون عن هذا النعيم ، ويُعاقَبون على إهمال شكره بعذاب الجحيم .

وأما قوله سبحانه : « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » ، فهو حكاية لما حلَّ بالأمم السابقة كثمود وعادٍ ، حين طَغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، ليكون من هذا القصص والخبر ، عبرةٌ لأولئك الكفار ومُزْدَجَر ، فلا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم ، لأن سُنَّة الله واحدةٌ فى الأمم ، وميزان عدالته قائم فى كل جيل وقبيل . « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ ، أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ »

الخلاصة

والخلاصة أن القرآن كله قام على رعاية حال المخاطبين ، فتارةً يشتدُّ وتارةً يلين ، تبعاً لما يقتضيه حالهم ، سواء منهم مكيُّهم ومدنيُّهم ، بدليل أنك تجد بين ثنايا السور المكية والمدنية ، ماهو وعد ووعيد وتسامُحٌ وتشديد ، وأخذ وردٌّ ، وجذب وشدٌّ ، كما سبق لك فى الأمثلة والشواهد الكثيرة . وإذا لوحظ أن أهل مكة كثُر خطابهم بالشدَّة والعنف ، فذلك لما مَرَدوا عليه من أذى الرسول وأصحابه والكيد لهم حتى أخرجوهم من أوطانهم . ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا إليهم الأذى فى مهاجرهم .

وكان القرآن فى حملته عليهم وعلى أمثالهم بالقول ، بعيداً عن كل معانى السباب والإقذاع، متذرعاً بالحكمة والأدب الكامل فى الإرشاد والاقناع، حاثاً على الصبر والعفو والإحسان ، حتى ليخاطب الله رسوله فى سورة الأنعام المكيَّة بقوله : « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ . وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ ٱلْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ، فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي ٱلسَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ . وَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ . وَٱلْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ ٱللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » .

ظاهرة مسكتة

على أننا نلاحظ فى آفاق الآيات والسور المكية، ظاهرة باهرة، تسكت كل معاندٍ ، وتفحم كل مكابر فى هذا الموضوع . وهى أن القسم المكى خلا خلوًّا تاماً من تشريع القتال والجهاد والمخاشنة، كما خلت أيامه فى مكة على طولها من مقاتلة القوم بمثل ما يأتون من التنكيل والمصاولة ؛ فلم يُسمع للمسلمين فيها صَلْصَلَةٌ لسيف ، ولا قَعْقَعَةٌ لسلاح ، ولا زحف على عدو . إنما هو الصبر والعفو والمجاملة والمحاسنة، بالرغم من إيغال الأعداء فى أذاهم ، ولجاجهم فى عُتُوِّهم وأساهم، سبًّا وطعناً، وقتلًا ونهباً، ومقاطعةً ومهاترةً، ومصاولةً ومكابرةً .

(٣) ـ وأما زعمهم أن القسم المكى يمتاز بكل مميِّزات الأوساط المنحطة فهو مردودٌ عليهم ، باطلٌ من كل باب دخلوه ، وعلى أى وجه أرادوه ؛ لأنهم إن أرادوا بذلك ماتوهموه من انفراده بالشدة والعنف ، أو السباب والإقذاع ، فقد علمت مبلغ

ما فيه من كذب وافتراء وجهالة بما جاء فى القرآن من ترغيب وترهيب ، فى شطريه المكى والمدنى على السواء .

وإن أرادوا بانحطاطه الإشارة إلى قصر آياته ، أو إلى خلوه من التشريعات التفصيلية العملية فهذا لا يدلُّ على الانحطاط ، بل قصر الآيات والخلو من تفاصيل التشريع لهما وجه آخر يظهر عند الكلام عليهما فى الشبهات الآتية :

وإن أرادوا بما ذكروا أن أهل مكة كانوا منحطين فى الفصاحة والبيان والذكاء والألمعية، فتلكَ ثالثةُ الأَثافِى، لأن التاريخ شاهد عدل بأن قريشا كانت فى مركز الزعامة من جميع قبائل العرب ، يصدرون عن رأيها ، ويرجعون إلى حكمها ، ويأخذون عنها ، ويركبون ظهور الإبل إليها ، وينزلون على قولِها فيما يعلو وينزل من منظوم ومنثور ، ويذعنون لها بالسبق فى مضمار الفصاحة والبلاغة، والذكاء والألمعيَّة، والشرف والنبل. وكان لها هذا الامتياز من قبل الإسلام. ثم دام لها وزاد عليها فى الإسلام . واعترف لها به أهل المدينة وغيرهم من عرب وأعجام . !

ثم إن وصف القسم المكى بميزات الأوساط المنحطة ، تهمة جريئة وطعنة طائشة ، وأُكذوبة مكشوفة ، ما رضيها لأنفسهم أعداء الإسلام فى فجر دعوته من مشركين وأَهل كتاب ، وعرب وعجم ، وأُميين ومثقَّفين ، على حين أن أولئك العرب كانوا على أُميَّتهم أَعرف الناس بانحطاط الكلام وَرُقِيه ، وعلوِّه ونزوله . كما كانوا أحرص الناس على إحراج محمد، ودحْض حجته ، ونقض دينه ، والقضاء على الإسلام فى مهده . ولكن سجيتهم لم تسمح بهذا الهُراء الذى يهْرِف به الملاحدة فى القسم المكى من القرآن. بل نعلم بجانب هذا أنّ القرآن كان له سلطان على نفوسهم إلى حَدٍّ خارقٍ مدهش، يقودهم بقوته إلى الإسلام ، ويدفع المعاند منهم إذا استمع إليه أن يسجد لبلاغته ، ويهتزّ لفصاحته ، وأن يأخذ نفسه بالتشاغل عنه مخافة أن يؤمن عن طريق تأثُّره بسماعه ! .

وأما زعمهم انقطاع الصلة بين القسم المكى والمدنى والتعارض بين أسلوبيهما، فهو زعمٌ ساقطٌ مبنىٌّ على الاعتبارات الخاطئة الماضية التى أثبتنا بطلانها. ثم هو دعــوى ماجنة، يكذبها الواقع، ويُفَنِّدُها الذوق البلاغىُّ المنصف. وأدلُّ دليل على ذلك، أن أساطين البلاغة من أعداء الإسلام فى مكة نفسها أيام نزول القرآن لم يستطيعوا أن يتّهموا أساليب التنزيل بمثل هذا الاتهام ولا كذباً، لأنهم كانوا أعقل من ملاحــدة اليوم، يرون أن هذا الاتهام يكون كذباً مكشوفاً وافتراءً مفضوحاً. بل هذا وحيدهم الوليد بن المغيرة يقول للملأ من قريش: «والله لقد سمعتُ من محمدٍ آنفاً كلاماً، ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، إن له لحلاوةً، وإن عليه لطلاوةً، وإنّ أعلاه لَمُثمِر، وإن أسفله لمُغدِق، وإنه يَعلُو وما يُعلَى».

ولما قالت قريش عندئذ: صَبَأَ واللهِ الوليد، واحتالوا عليه أن يطعن فى القرآن، لم يجد حيلة إلا أن يقول: «إنْ هٰذا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَر». ولم يستطع أن يرمى القرآن بالتهافت والتخاذل، وانقطاع الصلة بين أجزائه وانحطاط شىء من أساليبه، على نحــو مايُرجف أولئك الخرّاصون. «وَٱللهُ أعْلَمُ بِمَا يُبَيِّتُونَ».

٤ـ وإذا بطل هذا وماسبقه، بطل مازعموه من تأثُّر القرآن بالوسط والبيئة، ومارتَّبوه عليه من أنه كلام محمد لا كلام رب العزة. ثم إنها اتهامات سخيفة لاتستحقُّ الرّد، مادام إعجاز القرآن قائماً، يتحدّى كل جيل وقبيل، ويُفحم كل معارض ومكابر. ولمبحث إعجاز القرآن مجالٌ آخر عسى أن يكون قريباً.

ولولا أن الشبيبة الحاضرة من أنصاف المتعلمين وأشباههم، ينخدعون بمثل هــذه الترّهات، ما أتعبنا أنفسنا فى علاجها ولا أتعبناك، فاصبر معنا على دفع هذا المصاب، والله يتولّى هدانا وهُداك.

الشبهة الثانية

يقولون : إن قصَر السور والآيات المكية مع طول السور والآيات المدنية ، يدلّ على انقطاع الصلة بين القسم المكى والقسم المدنى ، ويدل على أن القسم المكى يمتاز بمميزات الأوساط المنحطة ، ويدلّ على أن القرآن فى نمطه هذا نتيجةٌ لتأثر محمد بالوسط والبيئة ، فلما كان فى مكة أميًّا بين الأميين جاءت سوَر المكى وآياته قصيرة ، ولما وجد فى المدينة بين مثقفين مستنيرين ، جاءت سوَر المدنى وآياته طويلة ، وغرضهم من إلقاء هذه الشبهة التشكيك فى أن القرآن من عند الله «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ »

ونقض شبهتهم هذه بما يأتى :

أولًا ـ أن فى القسم المكى سوراً طويلةً مثل سورة الأنعام، وفى القسم المدنى سوراً قصيرةً مثل سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ » فكلامهم لا يسلم على عمومه .

ثانياً ـ إذا أرادوا الكثرة الغالبة لا الكلية الشاملة فهذا نسلمه لهم ، بيدَ أنه لا يدل على ما افتروه ورتبوه عليه ، لأن قصر معظم السور المكية وآياتها ، وطول معظم السور المدنية وآياتها ، لا يقطع الصلة بين قسمى القرآن : مكيه ومدنيه ، ولا بين سور القرآن وآياته جميعاً . بل الصلة كما يحسها كل صاحب ذوقٍ فى البلاغة ، محكمةٌ وشائعةٌ بين كافّة أجزاء التنزيل. وقد تفنن العلماء وأشبعوا الحديث عن هذه المناسبات فى غضون تفسيرهم لكتاب الله . وتقدم تقرير هذا التناسب البارع فى صفحة ٨١

على أنك تلاحظ آياتٍ مكية منبثةً بين آيات سور مدنية ، وتلاحظ آيات مدنية منبثةً بين آيات سور مكية. وبرغم ذلك لا يكاد أحد يحسّ التفاوت أو التفكك

والانقطاع ، بل يروعك ما بين الجميع من جــــلال الوحدة ، وكال الاتصال وجمال التناسق والانسجام ، مما يجعل القرآن كله على طوله ، سلسلة واحـــــدة محكمة متصلة الحلقات ، أو عِقداً رائعاً أخاذاً منتظم الحبات ، أو قانوناً رصيناً مترابط المبادئ والغايات .

ثالثاً ـ أن قصر السور والآيات المكية ، لا يدل على مازعموه من امتياز القسم المكى بمميزات الأوساط المنحطة، بل القصر مظهر الإيجاز، والإيجاز مظهر رُقِىِّ المخاطب، وآية فهمه وذكائه ، بحيث يكفيه من الكلام موجزه ، ومن الخطاب أقصره . أما من كان دونه ذكاء وفهماً ، فلا سبيل إلى إفادته إلا بالإسهاب والبسط ، إن لم يكن بالمساواة والتوسط .

ولهذا المعنى جاء قسم القرآن المكى قصيراً موجزاً فى معظمه، وجاء قسم المدنى طويلًا مسهباً فى أكثره . ويرجع ذلك إلى ما أشرنا إليه قبلًا من أن القرشيين فى مكة كانوا فى الذؤابة من قبائل العرب ، ذكاء وألمعية وفصاحةً وبلاغة ، وشرفاً وشجاعة فلا بدع أن يخاطبهم القرآن بالقصير من سوره وآياته، رعايةً لحق قانون البلاغة والبيان، فى خطاب الذكى النابه ، بغير ما يخاطب به منْ كان دونه . ولا يقدح فى مزايا المكيين هذه أنهم كانوا أميين لم يستنيروا بثقافة المدنيين، فللثقافة والاستنارة ميدان ، وللذكاء والتمهر فى البيان ميدان ، وأهل المدينة لم يكونوا على استنارتهم ليبلغوا شأن قريش فى تلك الخصائص والمزايا ، وكان منهم أهـــــل كتاب درجوا على ألا يستفيدوا إلا بالتطويل ، ولا يقنعوا إلا ببسط الكلام .

ومن هنا تعرف مبلغ ما فى هذه الشبهة من زيف وكذب فيما رتبوه على هذا من أن القرآن كان نتيجةً لتأثر محمد بانحطاط أهل مكة فى القسم المكى ، وباستنارة أهل المدينة فى القسم المدنى ، حتى جاء قرآنه قصيرا فى الأول ، طويلا فى الثانى .

رابعاً ـ أن القرآن قد تحدّى الناس جميعاً مكيّهم ومدنيّهم وعربيّهم وعجميّهم، أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة من تلك السور القصيرة، فعجزوا أجمعين، وأسلم المنصفون منهم لله رب العالمين. فلو كان القصرُ أثراً للانحطاط كما يقول أولئك المرجفون، لكان في مقدور الممتاز غير المنحطٍّ أن يأتي بمثل ذلك المنحط، بل بأرقى منه «سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ».

وإذا أراد أولئك المتقولون، أن يعللوا القصر والطول بأن المكى لم يتعرض لتفاصيل التشريع بخلاف المدنى، فإليك هذه الشبهة وتمحيصها فيما يليك.

الشبهة الثالثة

يقولون: إن القسم المكى خلا من التشريع والأحكام، بينما القسم المدنى مشحونٌ بتفاصيل التشريع والأحكام. وذلك يدل على أن القرآن من وضع محمد وتأليفه تبعاً لتأثره بالوسط الذى يعيش فيه، فهو حين كان بمكة بين الأميين جاء قرآنه المكى خالياً من العلوم والمعارف العالية، ولما حل بالمدينة بين أهل الكتاب المثقفين جاء قرآنه المدنى مليئاً بتلك العلوم والمعارف العالية.

وننقض هذه الشبهة: (أولا) ـ بأن القسم المكى لم يخلُ جملةً من التشريع والأحكام، بل عرض لها وجاء عليها، ولكن بطريقة إجمالية، فإن مقاصد الدين خمسة: (١) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره (٢) وحفظ النفس (٣) وحفظ العقل (٤) وحفظ النسل (٥) وحفظ المال. وقد تحدث القسم المكى عنها إجمالا. اقرأ إن شئت قوله تعالى من سورة الأنعام المكية «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» إلى تمام ثلاث آيات بعدها، جمعت الوصايا العشر لهذه المقاصد الخمسة. ولا يخفى عليك أن آيات العقائد فى القسم المكى ظاهرة واضحة، وكثيرة شائعة،

ليست من موضوع الاشتباه ، ولا يختلف اثنان فى أنها أكثر من مثيلاتها فى السور المدنية بأضعاف الأضعاف .

(ثانياً) ـ أن كثرة التفاصيل فى تشريع الأحكام بالمدينة ، ليس نتيجة لما زعموه . إنما هو أمر لا بدَّ منه فى سياسة الأمم ، وتربية الشعوب ، وهداية الخلق . ذلك أن الطَّفْرَةَ حليفةُ الخيبة والفشل ، والتدرُّج حليف التوفيق والنجاح ، وتقديم الأهمِّ على المهمّ واجب فى نظر الحكمة . لهذا بدأ الله عباده فى مكة بما هو أَهمُّ : بدأهم بإصلاح القلوب وتطهيرها من الشرك والوثنية وتقويمها بعقائد الإيمان الصحيح والتوحيد الواضح ، حتى إذا استقاموا على هذا المبدأ القويم ، وشعروا بمسئولية البعث والجزاء ، وتقرَّرت فيهم هذه العقائد الراشدة ، فطمهم عن أقبح العادات وأرذل الأخلاق ، وقادهم إلى أصول الآداب وفضائل العادات ، ثم كلفهم مالا بدَّ منه من أمهات العبادات . وهذا ما كان فى مكة . ولما مرنوا على ذلك ، وتهيأت نفوسهم للترقى والكمال ، بتطاول الأيام والسنين ، وكانوا وقتئذ قد هاجروا إلى المدينة ، جاءهم بتفاصيل التشريع والأحكام ، وأتم عليهم نعمته ببيان دقائق الدين وقوانين الإسلام .

ونظير ذلك ما تواضع عليه الناس قديماً وحديثاً فى سياسة التعليم ، من أنهم يلقنون البادئين فى مراحل التعليمِ الأولى أخفَّ المسائل وأوجزها ؛ فيما يشبه قصارَ السور ، ومختصر القصص ، حتى إذا تقدَّمت بهم السن وعظم الاستعداد ، تلاطم بحرُ التعليم وزاد ، على حدِّ قولهم : « الإمدادُ عَلَى قدْرِ الاستعداد » .

أما ما زعموه من أن ذلك كان نتيجةً لاختلاط محمد بأهل المدينة المستنيرين ؛ فينقضه أن القرآن جاء يصلح عقائدَ أهل الكتاب وأخطاءهم فى التشريع وفى التحليل والتحريم ، وفى الأخبار والتواريخ ، فكيف يأخذ المصيب من المخطىء ؟ وهـــل

يستمدُّ الحيُّ حياته من ميِّت؟!اقرأ إن شئت قوله تعالى: « قُلْ يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الخ . وقوله جل ذِكرُه : « يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْرَاةُ وَٱلْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ؟ » الخ وقوله عزَّ اسمه : « كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَاةُ » الخ وهذه الآيات من سورة آل عمران . وقوله تعالتْ قدرته من سورة المائدة « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَٱلْأَنْفَ بِالْأَنْفِ » الخ .

(ثالثاً) أن مازعموه لو كان صحيحاً ، لظهر أثرُ أهل الكتاب المدنيين فيمن معهم من عرب أهل المدينة، وفيمن حولهم من أهل مكة وآفاق الجزيرة ،ولكانوا هم الأحرياء بهذه النبوّة والرسالة، ولسبق محمداً إليها كثيرٌ غيره من فصحاء العرب وتجّار قريش الذين كانوا يختلطون بأهل الكتاب في المدينة والشام أيّما اختلاط .

(رابعًا) أن القرآن تحدّى الكافةَّ من مكيين ومدنيين، بل من جنٍ وإنس،فهلّا كان أساتذته أولئك يستطيعون أن يُجاروه ولو فى مقدار سورة قصيرة واحدة ؟ ياللهافرية! ثم يا لها صفاقة ! .

« هٰذَا كَلامٌ لَه خَبِيءٌ مَعْنَاهُ : لَيْسَتْ لَنَا عُقُولُ »

الشبهة الرابعة

يقولون : إن القرآن أقسم كثيراً بالضحى والليل ، والتين والزيتون وطور سينين ، وكثير من المخلوقات . ولاريب أن القسم بالأشياء الحسية ، يدلُّ على تأثُّر القرآن بالبيئة فى مكة ، لأن القوم فيها كانوا أُميين ، لاتعدو مداركهم حدود الحسيات . أما بعد الهجرة واتصال محمد بأهل المدينة ، وهم قوم مثقَّفون مستنيرون ،

فقد تأثر القرآن بهذا الوسط الراقى الجديد ، وخلا من تلك الأيمـان الحسية الدالة على البساطة والسذاجة .

وهذه الشبهة مدفوعة « أولًا » : بما قدمنا من أن أهل مكة كانوا أرقى ذوقًا ، وأعلى كعبًا ، وأعظم ذكاء ، من أهل المدينة ، وأن الخطاب معهم كان ملحوظًا فيه اشتماله على أسرار وخصائص لا يدركها إلا المتفوقون والمتمهرون فى صناعة البيان . فلا يستقيم إذن مازعموه من أن مدارك أهل مكة كانت لا تعدو حدود الحسيات . والتاريخ خير شاهد ، وأعدل حاكم بامتياز العرب فى مكة عن سائر القبائل على عهد نزول القرآن .

(ثانيًا أن القسم بالأمور الحسية فى القرآن كالضحى والليل ، ليس منشؤه انحطاط القوم كما يزعمون ، إنما منشؤه رعاية مقتضى الحال فيماسبق القسم لأجله، وذلك أن القرآن كان بصدد علاج أفحش العقائد فيهم ، وهى عقيدة الشرك . ولاسبيل إلى استئصال هذه العقيدة ، وإقامة صرح التوحيد على أنقاضها ، إلا بلفت عقولهم إلى مافى الكون من شئون الله وخلق الله ، وإلا بفتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم الخلق المحيطة بهم ، ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يؤمنوا بالله وحده ، مادام هو الخالق وحده، لأنه لا يستحق العبادة عقلًا ، إلا من كان له أثر الخلق فى العالم فعلًا . « أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » ؟ .

فعرضُ بعض المخلوقات على أنظار الجاحدين بالتوحيد، بعد إقرارهم أنْ ليس لها خالق إلا الله ، إلزامٌ لهم بطرح الشرك ، وتوحيد الخالق . وهذا مطمحٌ نبيل ، أجاد القرآن فى أساليب عرض نعم الله عليهم من أجله ، وكان فى إجادته هذه موفيًا على الغاية ، واصلًا إلى قمة الإعجاب كعادته ، متفننًا فى ذكر النعم ، منوعًا فى سردها وبيانها . فمرةً يحدّث عن خلق السماء ، ومرةً عن خلق الأرض ، وثالثةً عن أنفسهم ، ورابعةً عن أنواع الحيوان والنبات والجماد وهلم جرًّا . وتارةً يختار القرآن فى عرضه طريقة السرد والشرح،

وتارةً يختار طريقة الحلف والقسم ، لأن فى الحلف والقسم معنى العظمة التى أودعها الله فى هذه النعم دالةً على توحيده وعظمته ، حتى صحّ أن يدور القسم عليها ، وأن يجىء الحلف بها .

ومن هنا أقسم الله بما أقسم من الأمور الحسية والمعنوية ، فالأمور الحسية كما ذكرنا ، والمعنوية مثل القرآن الكريم فى قوله سبحانه : « وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » لينبّههم إلى مدى إنعامه عليهم بتلك الأقسام كلها ، حسيِّها ومعنويِّها ، فيرعوُوا عن شركهم بتلك الآلهة المزيفة التى لا تملك ضرًّا ولا نفعاً ، وليس لها أىُّ شأن فى هذا الخلق . على حدِّ قوله سبحانه فى سورة الأحقاف: « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ، وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » .

وأنت خبيرٌ بأن المصاب بداء الشرك لا سبيل إلى إنقاذه منه إلا بمثل هذه الطريقة المثلى ، التى سلكها القرآن بعرض دلائل التوحيد من آيات الله فى الآفاق على أنظار المشركين ، وهذا سبيل متعين فى خطاب كل مشرك ولو كان واحد الفلاسفة ، ووحيد العباقرة ، وأستاذ المثقفين والمستنيرين . فحلف القرآن بأمثال هاتيك المخلوقات والحسيات ، ليس دالًّا على سذاجة المخاطبين وانحطاطهم ، وليس بالتالى سبيلًا إلى الطعن فى القرآن بأنه كلام محمد المتأثر بانحطاط البيئة المكية كما يرجفون : « إِنْ هَٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ » .

(ثالثاً) أن فى مضامين تلك الأقسام بالحسيات أسراراً تنأى بها عن السذاجة والبساطة وتشهد ببراعة المخاطبين بها وتفوّقهم فى الفهم والذكاء والفصاحة والبيان .

ذلك أن القسم بها كما قلنا ، إشارة إلى الأسرار العظيمة التى وضعها الله فى تلك الأمور التى أقسم بها . حتى صحَّ أن يكونَ مقسماً بها . وتلك الأسرار لا يدركها إلا اللبيب، لأنها غير مشروحة ولا مفسرة فى القرآن الكريم ، فلا يفهمها إلا من كمل عقله ، وسلم ذوقه . ولنشرح لك بعض الأسرار ، ليتبين الحال ، ولا يبقى للشبهة مجال .

(المثال الأول) أقسم الله سبحانه بالضحى والليل فى قوله : « وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » وسبب نزول هذه الآيات : أن النبى ﷺ فتر عنه الوحى مرةً لا ينزل بقرآن ، فرماه أعداؤه بأن ربه ودعه وقلاه ، أى تركه وأبغضه ، فنزلت هذه الآيات مصدرة بهذا القسم ، مشيرةً إلى أن ما كان من سطوع الوحى على قلبه ﷺ بمنزلة الضحى ، تقوى به الحياة ، وتنمى به الناميات ، وما عرض بعد ذلك من فترة الوحى فهو بمنزلة الليل إذا سجى ، لتستريح فيه القوى وتستعدُّ فيه النفوس لما يستقبلها من العمل . ومن المعلوم أن النبى ﷺ لاقى من الوحى شدة أول أمره حتى جاء إلى خديجة رضى الله عنها ترجف بوادرُه ، كما هو معروف فى حديث الصحيحين. فكانت فترة الوحى لتثبيته عليه الصلاة والسلام ، وتقوية نفسه على احتمال ما يتوالى عليه منه حتى تتمَّ به حكمة الله فى إرساله إلى الخلق. ولهذا قال له : « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ » أى إن كرَّة الوحى ثانياً سيكمل بها الدين ، وتتمُّ بها نعمة الله على أهله، وأين بداية الوحى من نهايته ؟ وأين إجمال الدين الذى جاء فى قوله « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » الخ من تفصيل العقائد والأحكام الذى جاء فى مثانى القرآن ؟ ثم زاد الأمر تأكيداً بقوله « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » .

فمن هذا نعلم أن الحلف بالضحى والليل فى هـــذا المقام ، ليس مجرد تذكير

بآياته ونعمه فحسب . بل هو أيضاً إقامة دليل على أن تنزُّل الوحى أشبه بضَحْوَة النهار ، وأن فترة الوحى أشبه بهدْأة الليل ، فإذا كانوا يتقبلون الضحى والليل بالرضا والتسليم ، لما فيهما من نفع الإنسان بالسعى والحركة والحياة بالنهار والنوم والاستجمام بالليل، يجب أن يتقبلوا أيضاً ما يجرى على محمد ﷺ من نزول الوحى وفترته للمعنى الذى سلف .

(المثال الثانى) أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون فى قوله جل ذكره: «وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ * وَهٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده عند تفسيره لهذه السورة ما نصُّه :

وقد يرجح أنهما (أى التين والزيتون) النوعان من الشجر ، ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا ، بل لما يذكِّران به من الحوادث العظيمة التى لها الآثار الباقية فى أحوال البشر . قال صاحب هذا القول : إن الله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل، فإنه كان يستظلُّ فى تلك الجنة التى كان فيها بورق التين، وعندما بدت له ولزوجته سوآتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين . (والزيتون) إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك أنه بعد أن فسد البشر وأُهلك من أهلك منه بالطوفان ، ونجى نوح فى سفينته، واستقرت السفينة، نظر نوح إلى ما حوله، فرأى المياه لا تزال تغطى وجه الأرض فأرسل بعض الطيور لعله يأتى إليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الأرض فغاب ولم يأت بخبر ، فأرسل طيراً آخر فرجع إليه يحمل ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر وسُرَّ ، وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد أذن للأرض أن تعمر ، ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة فى الأرض التى امّحى عمرانها ، فعبر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون . والإقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة وهى من أكبر ما يذكر من الحوادث .

(وطور سينين) إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية ، وظهور نور التوحيد فى العالم ،

بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية، وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم إلى التمسك بتلك الشريعة إلى أن كان آخرهم عيسى ﷺ جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع . ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ما أصاب مَنْ قبلهم من الاختلاف فى الدين، وحجب نوره بالبدع ، وإخطاء معناه بالتأويل ، وإحداث ما ليس منه بسبيل ، فمنّ الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ، ويفصل بين ما سبق من أطـوار الإنسانية وبين ما يلحق، وهو عهد ظهور النور المحمدى من مكة المكرمة . وإليه أشار بذكر البلد الأمين . وعلى هذا القول الذى فصلنا بيانه ، يتناسب القسم والمقسم عليه . اهـ ما أردنا نقله .

الشبهة الخامسة

يقولون : إن القسم المكى من القرآن قد اشتمل على لغو من الكلام فى كثير من فواتح السور مثل « آلم وكهيعص ». وذلك يبطل دعوى المسلمين أن القرآن بيان للناس وهدى ، وأنه كلام الله .وأىّ بيان وأى هدى فى قوله (آلم) وقوله (كهيعص)؟ بل هذه الأحرف وأمثالها فى غاية البعد عن الهدى ، بدليل أنه لم يهتد أحدٌ منهم ولا الراسخون فى العلم لإدراك معناها ؛ فالخطاب بها كالخطاب بالمهمل ، وإنما هذه الألفاظ من وضع كَتَبة محمد من اليهود تنبيهاً على انقطاع كلام واستئناف آخر ، ومعناها (أوْعَزَ إلىّ محمد) أو (أمرنى محمد) يشيرون بذلك إلى براءتهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابته . وقريب من هذا قول بعضهم : إن الحروف العربية غير المفهومة المفتتح بها أوائل بعض السور ، إما أن يكون قصد منها التعمية أو التهويل أو إظهار القرآن فى مظهر عميق مُخيف ، أو هى رمزٌ للتمييز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً .

وننقض هذه الشبهة بأمور : (أولها) أنه لم يكن للرسول ﷺ كَتَبة من اليهود أبداً . وها هو التاريخ حاكم عدل لا يرحم ولا يحابى ، فليسألوه إن كانوا صادقين . (ثانيا) أنه لا دليل لهم أيضاً على أن فواتح هذه السور تستعمل فى تلك المعانى التى زعموها وهى (أَوْعَزَ إلىّ محمد) أو (أمرنى محمد) ، لا عند اليهود ولا عند غيرهم فى أية لغة من لغات البشر . (ثالثها) أن اليهود لم يعرف عنهم الطعن فى القرآن بمثل هذا . ولو كان هذا مطعناً عندهم لكانوا أول الناس جهراً به، وتوجيها له ، لأنهم كانوا أشد الناس عداوة للنبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، يتمنَّوْنَ أن يجدوا فى القرآن مغمزاً من أى نوع يكون ، ليهدموا به دعوة الإسلام . كيف وهم يكفرون به حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّن لهم الحق؟ (رابعها) أن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لا ينافى وصف القرآن بأنه بيان للناس وهدى ورحمة ، فإن هذه الأوصاف يكفى فى تحققُّها ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه لا باعتبار تفصيله وعمومه الشامل لكل لفظ فيه . ولا ريب أن الكثرة الغامرة فى القرآن كلها بيانٌ للتعاليم الإلهية وهدايةٌ للخلق إلى الحق ، ورحمةٌ للعالم من وراء تقرير أصول السعادة فى الدنيا والآخرة .

وهذا الجواب مبنىٌّ على أحد رأيين للعلماء فى فواتح تلك السور ، وهو أن المعنى المقصود غير معلوم لنا ، بل هو من الأسرار التى استأثر الله بعلمها ، ولم يطلع عليها أحد من خلقه . وذلك لحكمة من حكمه تعالى السامية وهى ابتلاؤه سبحانه ، وتمحيصه لعباده ، حتى يميز الخبيث من الطيب ، وصادقَ الإيمان من المنافق ، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه ، ودلائل هدايته ، وشواهد رحمته ، فى غير تلك الفواتح من كتابه ، بين آيات وسور كثيرة ، لا تعتبر تلك الفواتح فى جانبها إلا قطرة من بحر ، أو غَيْضاً من فَيْض .

فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حق من عند ربهم ، ولو لم يفهموا معناها ، ولم يدركوا مغزاها ، ثقةً منهم بأنها صادرةٌ من لدن حكيم عليم ، عمَّت حكمته ما خفى وما ظهر من معانى كتابه ، ووسع علمه كل شىء عرفه الخلق أو لم يعرفوه من أسرار تنزيله . « وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ » .

« وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ » .

ونظير ذلك أن يكون لك أصدقاء تريد أن تعرفهم أو تعرف منهم مدى صداقتهم لك ، فتبتليهم بأمور يزلُّ عندها المزيِّفون ، ويظهر الصادقون .

على حد قول القائل : ـ

وعلى حدِّ المثل القائل: « إنَّ أخاك من واساك » .

آبْلُ آلرِّجَالَ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّمَنَّ فِعَالَهُمْ وَتَفَقَّدِ
فَإِذَا ظَفِرْتَ بِذِى اللَّبَانَةِ والتُّقَى فَبِهِ الْيَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدِ

ونظير ذلك أيضاً أن تكون أستاذاً معلماً ، وتريد أن تقف على مدى انتباه تلاميذك ، ومبلغ ثقتهم فيك وفى علمك ، بعد أن زوَّدتهم منك بدراسات واسعة وتعاليم واضحة فإنك تختبرهم فى بعض الأوقات بكلمات فيها شىء من الإلغاز والخفاء ، ليظهر الذكىُّ من الغبىِّ ، والواثق بك الوامق لك ، من المتشكك فيك المتردِّد فى علمك وفضلك . فأما الواثق فيك فيعرف أن تلك الألغاز والمعمَّيات ، صدرت عن علم منك بها وإن لم يعلم هو تفسيرها ، ويعرف أن لك حكمة فى إيرادها على هذه الصورة من الخفاء ، وهى الاختبار والابتلاء . وأما المتشكك فيك فيقول : ماذا أراد بهذا ؟ وكيف ساغ له أن يورده ؟ وما مبلغ العلم الذى فيه ؟ ثم ينسى تلك المعارف الواسعة الواضحة التى زوَّدته بها من قبل ذلك ، وكلها من أعلام العلم وآيات الفضل .

ولا يفوتنك فى هذا المقام أن تعرف أن ابتلاء الله لعباده ليس المراد منه أن يعلم سبحانه ما كان جاهلًا منهم « حاشاه حاشاه » فقد وسع كلَّ شيء علماً . إنما المقصود منه إظهار مكنونات الخلق ، وإقامة الحجج عليهم من أنفسهم ، فلا يتهمون الله فى عدله وجزائه ، إذا جعل من الناس أهلًا لثوابه وآخرين لعقابه . « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً » .

(الرأى الثانى فى فواتح السوَر) أن لها معنى مقصوداً معلوماً . قالوا : لأن القرآن كتاب هداية ، والهداية لاتتحقق إلا بفهم المعنى ، خصوصاً أننا أُمرنا بتدبر القرآن والاستنباط منه ، وهذا لايكون إلا إذا فهم المعنى أيضاً .

غير أن أصحاب هذا الرأى تشعبت أقوالهم فى بيان هذا المعنى المقصود بفواتح تلك السور ، فذهب بعضهم إلى أن فاتحة كل سورة اسم للسورة التى افتتحت بها ، واستدلوا بآثار تفيد ذلك ، منها ماروى عن النبى ﷺ أنه قال « يٓس قَلْبُ القُرْآنِ » وقوله « مَنْ قَرَأَ السَّجْدَةَ حُفِظَ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ » . ومنها اشتهار بعض السور بالتسمية بها . ثم إن ورودها فى فواتح سور مختلفة بلفظ واحد، ينافى كونها أسماء للسور. بل شأنها فى ذلك شأن الأعلام المشتركة اشتراكاً لفظياً كلفظ محمد المسمى به أشخاص كثيرون. فيضم إلى اسم كل منهم مايميز مسماه عن غيره فيقال :محمد المصرى ومحمد الشامى مثلا . وكذلك فواتح السور يقال فيها: « آلٓمٓ البقرة وآلٓمٓ آل عمران وحمٓ السجدة » وهلم جرا .

وبعضهم ذهب إلى أنها أسماء للحروف الهجائية التى وضعت بإزائها . وهؤلاء منهم من قال : إن المقصود من ذلك هو إفهام المخاطبين أن الذى سيتلى عليهم من الكلام الذى عجزوا عن معارضته والإتيان بمثله ، إنما تركب من مثل هذه الحروف التى فى الفواتح ، وهى معروفة لهم ، يتخاطبون بما يدور عليها ولا يخرج عنها .

ومنهم من قال : إن المقصود منها هو الدلالة على انتهاء سورة والشروع فى أخرى .

ومنهم من قال : إن المقصود منها القسم بها لإظهار شرفها وفضلها ؛ إذ هى مبنى كتبه المنزلة . ومنهم من قال : إن المقصود منها بيان نبوة محمد ﷺ من نـــاحية أنه ينطق بأسامى الحروف مع أنه أمىٌّ لم يقرأ ولم يكتب، والمعروف أن النطق بأسامى الحروف من شأن القارئ وحده ، لا سبيل للأمى إلى معرفتها ولا النطق بها ، فإتيانه بها وترديده لها ، دليلٌ مادىٌّ أمامهم على أنه لا يأتى بهذا القرآن من تلقاء نفسه، إنما يتلقّاهُ من لدن حكيم عليم .

ومنهم من قال: إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم. وذلك أن قرع السمع فى أول الكلام بما يعيي النفوس فهمه أو بالأمر الغريب، دافعٌ لها أن تصغى وتتيقظ وتتأمل وتزداد إقبالا : فهى كوسائل التشويق التى تُعرض فى مقدمة الدرس على منهج التربية الحديثة فى التعليم .

ومنهم من قال : إن المقصود منها سياسة النفوس المعرضة عن القرآن واستدراجها إلى الاستماع إليه . والمعروف أن أعداء الإسلام فى صدر الدعوة كان يقول بعضهم لبعض: «لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ». فلما أُنزلت السُّوَرُ المبدوءة بحروف الهجاء، وقرع أسماعهم مالم يألفوا، التفتوا، وإذا هم أمامَ آيات بيِّناتٍ استهوتْ قلوبهم ، واستمالتْ عقولهم ، فآمن من أراد الله هدايته ، وشارفَ الإيمانَ من شاء الله تأخيره ، وقامت الحجَّة فى وجه الطغاة المكابرين ، وأخذت عليهم الطرقُ فلا عذر لهم فى الدنيا ولا يوم الدين .

وقال العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره لسورة آل عمران ما نصه :

« إعلم أن القرآن كتابٌ سماويٌّ . والكتب السماوية تُصرح تارةً وترمزُ أُخرى. والرمز والإشارة من المقاصد السامية والمعانى والمغازى الشريفة . وقديماً كان ذلك فى أهل الديانات ؛ ألم تر إلى اليهود الذين كانوا منتشرين فى المدينة وفى بلاد الشرق أيام النبوة كيف كانوا يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجُمّل المعروفة اليوم فى الحروف العربية ؟ فيجعلون الألف بواحد ، والباء باثنين ، والجيم بثلاثة، والدال بأَربعة، وهكذا مارِّين على الحروف الأبجديّة ، إلى الياء بعشرة والكاف بعشرين ، وهكذا إلى القاف بمائة والراء بمائتين ، وهكذا إلى الغين بألف ، كما ستراه فى هذا المقام .

كذلك ترى أن النصارى فى إسكندرية ومصر وبلاد الروم وفى سوريا ، قد اتّخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن . وكانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية فى مصر . وكانوا يرمزون بلفظ « إكسيس » لهذه الجملة : « يسوع المسيح بن الله المخلّص » فالألف من إكسيس هى الحرف الأول من لفظ « إيسوس » يسوع . والكاف منها هى الحرف الأول من « كرستوس » المسيح . والسين منها هى حرف الثاء التى تبدل منها فى النطق فى لفظ « ثيو » الله . والياء منها تدل على « ايوث » ابن . والسين الثانية منها تشير إلى « ثوتير » المخلص . ومجموع هذه الكلمات : يسوع المسيح بن الله المخلّص . ولفظ « إكسيس » اتفق أنه يدل على معنى سمكة ، فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزاً لإلههم .

فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحرف ، ومن الرمز بالحرف إلى الرمز بحيوان دلّت عليه الحروف . قال الحبر الإنجليزى صموئيل موننج : إنه كان يوجد كثيراً فى قبور رومة صور أسماك صغيرة مصنوعة من الخشب والعظم . وكان كل مسيحى يحمل سمكة إشارة للتعارف فيما بينهم اهـ .

فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التى أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها ونزل

القرآن لجميع الناس من عرب وعجم، كان لا بدّ أن يكون على منهج يلذّه الأمم ويكون فيه ما يألفون. وستجد أنه لا نسبة بين الرموز التى فى أوائل السور، وبين الجُمَّل عند اليهود ورموز النصارى، إلا كالنسبة بين علم الرجل العاقل والصبى، أو بين علم العلماء وعلم العامّة. وبهذا تبين لك أن اليهود والنصارى كان لهم رموز، وكانت رموز اليهود هى حروف الجمل.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: مرّ أبو ياسر بن أخطب برسول الله ﷺ وهو يتلو سورة البقرة: « آلم ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ » ثم أتى أخوه حيّ بن أخطب وكعب بن الأشرف، فسألوه عن « آلم » وقالوا: ننشدك الله الذى لا إله إلا هو أحقٌّ أنها أتتكَ من السماء؟ فقال النبى ﷺ: نعمْ. كَذَٰلِكَ نَزَلَتْ. فقال حيٌّ: إن كنت صادقاً إنى لأعلم أَجَلَ هذه الأمة من السنين. ثم قالوا: كيف ندخل فى دين رجل دلَّت هذه الحروف بحساب الجُمَّل على أن منتهى أجل أمته إحدى وسبعون سنة، فضحك النبى ﷺ. فقال حيٌّ: فهل غير هذا؟ فقال: نعم « آلمص ». فقال حيّ: هذا أكثر من الأول، هذا مائة وإحدى وستون سنة فهل غير هذا؟ قال: نعم « آلر » فقال حيّ: هذا أكثر من الأولى والثانية، فنحن نشهد إن كنت صادقاً ما ملكت أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة. فهل غير هذا؟ فقال: نعم « آلمر ». قال حيّ: فنحن نشهد أنّا من الذين لا يؤمنون، ولا ندرى بأىِّ أقوالك نأخذ. فقال أبو ياسر: أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة ولم يبيِّنوا أنها كم تكون؟ فإن كان محمد صادقاً فيما يقول إنى لأراه سيجتمع له هذا كله. فقام اليهود وقالوا اشتبه علينا أمرك كله فلا ندرى أبالقليل نأخذ أم بالكثير؟

فبهذا تعرف أيها الذكىّ أن الجُمَّل كانت للتعارف عند اليهود، وهو نوع من

الرموز الحرفية ، فكانت هذه الحروف لا بدّ من نزولها فى القرآن ليأخذ الناس فى فهمها كل مذهب ويتصرف الفكر فيها .

ولأقتصر لك مما قرأته على ثلاث طرائق فيما ترمز إليه هذه الحروف :

(الطريقة الأولى) أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الألف آلاء الله ، واللام لطفه ، والميم ملكه . وعنه أن « الر ، وحم ، ون » مجموعها الرحمن . وعنه أن « الم » معناه أنا الله أعلم، ونحو ذلك فى سائر الفواتح . وعنه أن الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد أى القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام . أقول : إنما أراد ابن عباس بذلك أن تكون الحروف مذكرة بالله عز وجلّ فى أكثر الأحوال، وذكر الله أجلُّ شىء . ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف كما تقدّم عن الأمم السالفة من النصارى فى إسكندرية ورومة . ولكن لا بدّ أن يكون هناك ماهو أعلى وأجل .

(الطريقة الثانية) أن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبي ﷺ . وهذا مما ترضاه النفوس. ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة . وهذا النبي الأمى ﷺ قد نطق بها . والذى فى أول السور أربعة عشر حرفاً منها، وهى كلها ثمانية وعشرون حرفاً إن لم تعدّ الألف حرفاً برأسه، فالأربعة عشر نصفها. وقد جاءت فى تسع وعشرين سورة وهى عدد الحروف الهجائية إذا عدّت فيها الألف. وقد جاءت من الحروف المهموسة العشرة وهى : « فحثه شخص سكت » بنصفها ،وهى الحاء والهاء والصاد والسين والكاف .

ومعلوم أن الحروف إما مهموسة ـ أى يضعف الاعتماد عليها ـ وهى ماتقدّم، وإما مجهورة وهى ثمانية عشر، نصفها ـ وهو تسعة ـ ذكرت فى فواتح السور، ويجمعها «لن يقطع أمر» .

والحروف الشديدة ثمانية وهى « أجِدت طبقك » أربعة منها فى الفواتح وهى « أقطك » .

والحروف الرخوة عشرون وهى الباقية ، نصفها عشرة وهى فى هذه الفواتح. يجمعها « حمس على نصره » .

والحـــروف المطبقة أربعة : الصاد والضاد والطاء والظاء . وفى الفواتح نصفها : الصاد والطاء .

وبقية الحروف ـ وهى أربعة وعشرون حرفاً ـ تسمى منفتحة، نصفها وهو اثنا عشر فى الفواتح المذكورة .

فانظر كيف أتى فى هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائية ، إن لم تعدّ الألف ، وجعلها فى تسع وعشرين سورة عدد الحروف وفيها الألف ؟ وكَيف أتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفتحة ؟ ! ! .

ولقد ذكرت لك قُلًّا من كُثْر مما ذكره العلماء فى هذا المقام، ولا أطيل عليك خيفة السآمة والملل ، وكفاك ما أمليته عليك فى هذه الطريقة الثانية لتعرف كيف أتى بهذه الأوصاف ؟ وكيف وضعت الحروف على هذا النظام ؟ .

وإنى موقن أن المتعلم لو طلبِ منه أن يأتى بهذه الحروف منصّفة على هـذا الوجه مااستطاع إلى ذلك سبيلا ، فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة فكيف يراعى الحروف الشديدة ؟ وكيف يراعى نصف المجهورة فى نفس العدد ؟ .

إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة ﷺ . ففائدة هذا الوجه أهمّ من الوجه الأول ؛ فالأول فائدته تذكير الإنسان بأسماء الله تعالى . وأما الوجه الثانى ففيه إعجازٌ للعقول وحيرة . فيقال : كيف تنصّفُ الحروف الهجائية وتنصّف أنواعُها من مهموسة

وشديدة الخ . وهذه الأنواع لم يدرسها أحد فى العالم أيام النبوة . ثم لما ظهرت تلك الدراسات وافقت تلك الحروف بأنصافها !

إن ذلك ليعطى المعقول مثلا من الغرابة الدالة على أن هذا لا يقدر عليه المتعلمون فإذاً هو من الوحى . وهذا الوجه على قوّته يفضله ما بعده .

(الطريقة الثالثة) أن الله تعالى خلق العالم منظماً محكماً، متناسقاً متناسباً. والكتاب السماوى إذا جاء مطابقاً لنظامه ، موافقاً لإبداعه ، سائراً على منهاجه ، دلّ ذلك على أنه من عنده . وإذا جاء الكتاب السماوى مخالفاً لنهجه ، منافراً لفعله ، منحرفًا عن سننه كان ذلك الكتاب مصطنعًا مفتعلا منقولًا مكذوبا ؛ « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

والعالم المشاهد ، فيه عدد الثمانية والعشرين . وذلك فيما يأتى :

(١) مفاصل اليدين فى كل يد أربعة عشر .

(٢) خرزات عمود ظهر الإنسان منها أربع عشرة فى أسفل الصلب، وأربع عشرة فى أعلاه .

(٣) خرزات العمود التى فى أصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقر والجمال والحمير والسباع وسائر الحيوانات التى تلد أولادها ، منها أربع عشرة فى مؤخر الصلب وأربع عشرة فى مؤخر البدن .

(٤) عدد الريشات التى فى أجنحة الطير المعتمدة عليها فى الطيران أربع عشرة ريشة ظاهرة فى كل جناح .

(٥) عدد الخرزات التى فى أذناب الحيوانات الطويلة الأذناب كالبقر والسباع .

(٦) عمود صلب الحيوانات الطويلة الخلقة ، كالسمك والحيّات وبعض الحشرات .

(٧) عدد الحروف التى فى لغة العرب التى هى أتمّ اللغات ، ثمان وعشرون حرفًا .

منها أربعة عشر يدغم فيها لام التعريف ، وهى : ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن . وأربعة عشر لا تدغم اللام فيها ، وهى . أ ب ج ح خ ع غ ف ق ك م ه و ى .

(٨) والحروف التى تخط بالقلم قسمان . منها أربعة عشر معلمة بالنقط وهى : ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ ف ق ن ، وأربعة عشر غير معلمة وهى : ا ح د ر س ص ط ع ك و ه ل م لا . وهذا الحرف هو الألف التى هى من حروف العلة . أما الأولى فهى الهمزة . فهذه أربعـــة عشر حرفاً . وبقيت الياء ، وهى تنقط فى وسط الكلمة ولا تنقط فى آخرها . فأصبحت الحروف المعلمة أربعة عشر ، وغير المعلمة أربع عشر ، والحرف التاسع والعشرون معلم وغير معلم ، لتكون القسمة عادلة . والفضل فى هذا العدل للحكيم الذى وضع حروف الهجاء العربية ، فإنه كان حكيما ، والحكيم هو الذى يتشبه بالله بقدر الطاقة البشرية . وهذا جعل ثمانية وعشرين حرفاً مقسمة قسمين ، كل منها أربعة عشر كما فى مفاصل اليدين وفقرات بعض الحيوانات .

(٩) منازل القمر ثمان وعشرون منزلة فى البروج الشمالية أربع عشرة وفى الجنوبية أربع عشرة . فهذا يفيد أن الموجودات التى عددها ثمانية وعشرون تكون قسمين كل منهما أربعة عشر . فهكذا هنا فى القرآن جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين ، قسم منهما أربعة عشر منطوق به فى أوائل السور، وقسم منهما أربعة عشر غير منطوق به فى فى أوائلها. وكأنه تعالى يقول: «أىْ عبادى إن منازل القمر ثمان وعشرون وهى قسمان، ومفاصل الكف ثمانية وعشرون وهى قسمان ، وهكذا . والحروف التى تدغم فى حرف التعريف والتى هى معلمة كلٌّ منها أربعة عشر . وضدها أربعة عشر فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل منى ، لأنى نظمت حروفه على هذا النمط الذى اخترته فى صنع المنازل والأجسام الإنسانية والأجسام الحيوانية ونظام الحروف الهجائية،فمن أين لبشر كمحمد أو غيره

أن ينظم هذا النظام ، ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذى وضعته ، والسنن الذى رسمته ، والنهج الذى سلكته ؟ إن القرآن تنزيلٌ منى وقد وضعت هذه الحروف فى أوائل السور لتستخرجوا منها ذلك ، فتعلموا أنى ماخلقت السموات والأرض وما بينهما باطلا ، بل جعلت النظام فى العالم وفى الوحى متناسبا . وهذا الكتاب سيبقى إلى آخر الزمان ، ولغته ستبقى معه إلى آخر الأجيال . إن اللغات متغيِّرة ، وليس فى العالم لغة تبقى غير متغيِّرة إلا التى حافظ عليها دينٌ . وهل غير اللغة العربية حافظ عليها دين ؟ ! » .

هذا ـ ولايخفى عليك أن ذاك الرأى الثانى فى فواتح السور أبلغ فى نقض الشبهة من الرأى الأول؛ لأنه ينفى ما زعموه من أساس الاتهام ، وهو أنه ليس لهذه الفواتح معنى مفهوم ، ويقرر أن معانيها مفهومة على ماتبيَّن فى تلك الوجوه السابقة . وإذا كان بعض الناس لا يفهم تلك المعانى ، فليس ذلك عيباً فى القرآن إنما هو عيب فى استعداد بعض أفراد الإنسان . وكتاب الله خوطب به الخواصُّ كما خوطب به العوامُّ ، فلا بدع أن يكون فيه ألفاظٌ لا يفهمها إلا الخاصَّة دون العامة .

وعلى كلا هذين الرأيين يتَّضح لك أن اشتمال القرآن على هذه الألفاظ ، ليس من قبيل اشتماله على لغو الكلام ، أو إظهار القرآن بمظهر عميق مخيف ، ولا يفهم منه أنها رموز للمصاحف ألحقها مرور الزمن بالقرآن ، إلى غير ذلك من الهذيان . بل ثبوت هذه الفواتح لا يقدح فى كون القرآن من عند الله ، سواء أفادت معنى ظاهراً أم لم تفد على ما بيَّناه من حكمة الله البالغة فى إيرادها . والله هو الحكيم العليم .

الشبهة السادسة

يقولون : إن القرآن فى قسمه المكى قد خلا من الأدلة والبراهين ، بخلاف قسمه المدنى فإنه ملىء بالأدلة ، مدعَّم بالحجة ، وهذا برهان جديد على تأثُّر القرآن بالوسط الذى كان فيه محمد !

وننقض شبهتهم (أولًا) بما أسلفنا من أن القرآن لو كان نتيجة تأثر محمد بالوسط الذى يعيش فيه ، لكان الوسط أولى بتوجيه هذا المطعن عليه ، ولكان أعرف بهذا النقض فيه ، فيظفر عليه ويدخل إلى إبطال دعوته من هذا الباب الواسع ، لا سيما أن الرسول فى مكة والمدينة كان له أعداء ألِدَّاء ، ليس لعداوتهم دواء .

(ثانيًا) أنه لو صحَّ هذا لبطلت نبوَّته ، ولصح أن تكون النبوَّة لهم باعتبار أنهم مصدرها ، وأنهم أساتذته فيها . وهذا النقض يقال فى ردِّ شبهاتهم الماضية الساقطة، التى تدل على فساد فطرتهم ، وعلى مقدار تبجُّحهم وتجنِّيهم على الحقيقة والتاريخ والاستخفاف بعقول الناس .

(ثالثًا) أن كذبهم فى هذه الشبهة صريحٌ مكشوف، لأن القسم المكى حافل بأقوى الأدلة ، وأعظم الحجج ، على عقيدة الإسلام فى الإلهيَّات ، والنبوَّات ، والسمعيات . استمع إليه فى سورة « المؤمنون » المكية وهو يرفع قواعد التوحيد ، ويزلزل بنيان الشرك إذ يقول : « مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ » وإذ يقول فى سورة الأنبياء المكية : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

آلِهَةً . قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ . هَـٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَّعِىَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِى ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ » .

وأنصت إليه فى سورة العنكبوت المكية وهو يدلّل على نبوة محمد ﷺ إذ يقول : « وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذَنْ لَارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا ٱلظَّالِمُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَاتُ عِندَ ٱللهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » . وتدبر حجته التى أقامها لتقرير اقتداره على البعث بعد الموت فى قوله سبحانه من سورة ق المكية : « وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ، وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا . كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ » وقوله فيها أيضاً : « أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » .

وانظر إليه يقيم الدليل العقلى على البعث والجزاء فى سورة المؤمنون المكية إذ يقول : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » وفى سورة السجدة إذ يقول : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ؟ لَا يَسْتَوُونَ . أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا » الخ . وفى سورة الجاثية المكية إذ يقول : « أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . وَخَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

وتأمّل مناقشته ونقضه بالحجة أوهام المشركين فى احتجاجهم لأباطيلهم بالمشيئة الإلٰهية إذ يقول فى سورة الأنعام المكية : « سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللهُ

مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ . كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا . قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » . إلى غير ذلك من أدلةٍ ساطعة ، وبراهين بارعة ، لا تكاد تخلو منها سورة من السور المكية . ولكن القوم استحبُّوا العمى على الهدى ، فاستمرءوا هذا الكذب والافتراء . نسأل الله أن يكفينا شرَّ الفتنة ، وأن يثبِّتنا على الحق ، فإن قلوب الخلق بيديه ، والأمر كله منه وإليه . « مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ . وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

المبحث الثامن

(فى جمع القرآن وتاريخه ، والرد على ما يثار حوله من شبه ونماذج من الروايات الواردة فى ذلك)

كلمة جمع القرآن تطلق تارة ويراد منها حفظه واستظهاره فى الصدور . وتطلق تارةً أخرى ويراد منها كتابته كله حروفاً وكلماتٍ وآياتٍ وسوراً . هذا جمع فى الصحائف والسطور ، وذاك جمع فى القلوب والصدور . ثم إن جمعه بمعنى كتابته حدث فى الصدر الأول ثلاث مرات : الأولى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، والثانية فى خلافة أبى بكر ، والثالثة على عهد عثمان ، وفى هذه المرة الأخيرة وحدها نسخت المصاحف وأرسلت إلى الآفاق . وقد أثيرت فى هذا الموضوع شُبَه باردة لا مناص لنا من أن نكشف عنها اللثام ، ثم نعرضها لحرارة الحقائق العلمية الصحيحة ، حتى تذوب وتَمَاع ،

أو تذهب وتتبخر « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ . كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ » .

جمع القرآن بمعنى حفظه فى الصدور

نزل القرآن على النبي ﷺ، فكانت همته بادئ ذى بدء منصرفةً إلى أن يحفظه ويستظهره ، ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه ، ضرورة أنه نبيٌّ أميٌّ بعثه الله فى الأميين . « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » اهـ من سورة الجمعة . ومن شأن الأمى أن يعوِّل على حافظته فيما يهمه أمره ، ويعنيه استحضاره وجمعه . خصوصاً إذا أوتى من قوة الحفظ والاستظهار ، ما ييسر له هذا الجمع والاستحضار . وكذلك كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن وهى متمتعة بخصائص العروبة الكاملة ، التى منها سرعة الحفظ ، وسيلان الأذهان ، حتى كانت قلوبهم أناجيلهم ، وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم ،وحوافظهم دواوين أشعارهم ومفاخرهم. ثم جاء القرآن فبهرهم بقوة بيانه،وأخذ عليهم مشاعرهم بسطوة سلطانه، واستأثر بكريم مواهبهم فى لفظه ومعناه ، فخلعوا عليه حياتهم حين علموا أنه روح الحياة !.

أما النبي ﷺ فبلغ من حرصه على استظهار القرآن وحفظه ؛ أنه كان يحرك لسانه به فى أشد حالات حرجه وشدَّته ، وهو يعانى ما يعانيه من الوحى وسطوته ، وجبريل فى هبوطه عليه بقوته . يفعل الرسول كل ذلك استعجالًا لحفظه وجمعه فى قلبه، مخافة أن تفوته كلمة ، أو يفلت منه حرف . وما زال ﷺ كذلك حتى طمأنهُ ربه بأن وعده أن يجمعه له فى صدره ، وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه ، فقال له فى سورة القيامة « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » وقال له فى سورة طه « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى

إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ». ومن هنا كان ﷺ جامع القرآن فى قلبه الشريف، وسيد الحفاظ فى عصره المنيف. ومرجع المسلمين فى كل ما يعنيهم من أمر القرآن وعلوم القرآن. وكان ﷺ يقرؤه على الناس على مكث كما أمره مولاه، وكان يحيي به الليل ويزين الصلاة. وكان جبريل يعارضه إياه فى كل عام مرة، وعارضه إياه فى العام الأخير مرتين. قالت عائشة وفاطمة رضى الله عنهما: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: « إنَّ جبريل كان يعارضنى القرآنَ فى كلِّ سنةٍ مرَّة، وإنهُ عارضنى العامَ مرتينِ، ولا أُراهُ إلَّا حضرَ أجلى ».

وأما الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كان كتاب الله فى المحل الأول من عنايتهم. يتنافسون فى استظهاره وحفظه. ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه. ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه. وربما كانت قرة عين السيدة منهم أن يكون مهرها فى زواجها سورةً من القرآن يعلمها إياها زوجها. وكانوا يهجرون لذة النوم وراحة الهجود، إيثاراً للذة القيام به فى الليل، والتلاوة له فى الأسحار، والصلاة به والناس نيام، حتى لقد كان الذى يمرُّ ببيوت الصحابة فى غسق الدُّجى، يسمع فيها دويًّا كدويِّ النحل بالقرآن وكان الرسول ﷺ يذكى فيهم روح هذه العناية بالتنزيل، يبلغهم ما أنزل إليه من ربه. ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم، كما بعث مصعبَ ابن عميرٍ وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته، يعلمانهم الإسلام، ويقرئانهم القرآن، وكما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء.

قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه: « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبى ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجَّةٌ بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا ».

ومن هنا كان حفّاظ القرآن فى حيـــاة الرسول ﷺ جمًّا غفيراً ، منهم الأربعة الخلفاء ، وطلحة ، وسعد ، وابن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبى حذيفة، وأبوهريرة، وابن عمر ، وابن عباس ، وعمرو بن العاص ، وابنه عبد الله ، ومعاوية ، وابن الزبير ، وعبد الله بن السائب ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وهؤلاء كلهم من المهاجرين ، رضوانُ الله عليهم أجمعين . وحفظ القرآن من الأنصار فى حياته صلى الله عليه وسلم أبىّ ابن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، ومجمع بن حارثة، وأنس ابن مالك، وأبو زيد الذى سئل عنه أنس فقال إنه أحد عمومتى (رضى الله عنهم أجمعين). وقيل إن بعض هؤلاء إنما أكمل حفظه للقرآن بعد وفاة النبى ﷺ . وأيا ما تكن الحال، فإن الذين حفظوا القرآن من الصحابة كانوا كثيرين ، حتى كان عدد القتلى منهم ببئر معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة . قال القرطبى « قد قتـل يوم اليمامة سبعون من القرّاء . وقتل فى عهد رسول الله ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد » .

قال المحقق ابن الجزرى : « ثم إن الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب . وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة ، ففى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم أن النبى ﷺ قال : « إنّ ربّى قالَ لى قمْ فى قريشٍ فأنذرهمْ ، فقلتُ لهُ : أىْ ربِّ إذنْ يثلغوا رأسى حتى يدعوهُ خبزَةً . فقـال : إنى مبتليكَ ومبتلٍ بكَ ، ومنزلٌ عليكَ كتاباً لا يغسله المـاء ، تقرَؤهُ نائماً ويقظانَ ، فابعثْ جنداً أبعث مثلهمْ ، وقاتلْ بمنْ أطاعكَ منْ عصاكَ . وأنفقْ ينفقْ عليكَ » فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج فى حفظه إلى صحيفة تغسل بالمـاء ، بل يقرأ فى كل حال كما جاء فى صفة أمته « أناجيلهم صدورهم » وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا فى الكتب ، ولا يقرءونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب » . اهـ ما أردنا نقله .

ولا يشكلن عليك في هذا المقام ماجاء في صحيح البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : « ماتَ النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غيرُ أربعةٍ ، أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد . قال : « ونحنُ ورثناهُ » وأبو زيد هذا اسمه قيسُ بن السكن كما رواه أبو داود بإسناد على شرط الشيخين. وإنما قلنا لا يشكلن عليك هذا الحديث ، لأن الحصر الذى تلمحه فيه حصر نسبى ، وليس حصراً حقيقياً حتى ينفى أن يكون غير هؤلاء الأربعة قد جمعه على عهد رسول الله ﷺ .

والدليل على أن هذا الحصر إضافى لا حقيقى هو ما رواه البخارى عن أنس نفسه أيضاً وقد سأله قتادة عمن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أربعةُ كلهم من الأنصار : أبيٌّ بن كعبٍ ، ومعاذُ بنُ جبلٍ ، وزيدُ بن ثابتٍ ، وأبو زيد » اﻫ. فأنت ترى أن أنساً فى هذه الرواية ذكر من الأربعة أبىَّ بن كعب بدلًا من أبى الدرداء فى الرواية السابقة . وهو صادق فى كلتا الروايتين لأنه ليس بمعقول أن يكذِّب نفسه ، فتعين أنه يريد من الحصر الذى أورده الحصر الإضافى ، بأن يقال إن أنساً رضى الله عنه تعلق غرضه فى وقتٍ ما بأن يذكر الثلاثة ، ويذكر معهم أبىّ بن كعب دون أبى الدرداء ، حاصراً الجمع فيهم ، ثم علق غرضه فى وقت آخر بأن يذكر الثلاثة ويذكر معهم أبا الدرداء دون أبىٍّ بن كعب .

وهذا التوجيه وإن كان بعيداً ، إلا أنه يتعين المصير إليه جمعاً بين هاتين الروايتين ، وبينهما وبين روايات أخرى ذكرت غير هؤلاء . ومن هنا قال الماوردى : لا يلزم من قول أنس رضى الله عنه « لم يجمعه غيرهم » أن يكون الواقع كذلك فى نفس الأمر ، لأنه لا يمكن الإحاطة بذلك ، مع كثرة الصحابة وتفرقهم فى البلاد ، ولا يتم له ذلك إلا إذ كان قد لقى كل واحد منهم ، وأخبر عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن فى عهد النبى ﷺ . وهذا فى غاية البعد فى العادة . وكيف يكون الواقع ما ذكر ، وقد جاء فى صحيح البخارى أيضاً من طريق حفص بن عمر أن النبى ﷺ يقول : « خذوا

القرآن عن أربعة : عن عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ بن جبل ، وأُبَيّ بن كعب » والأربعة المذكورون منهم اثنان من المهاجرين وهما الأوّلان ، واثنان من الأنصار وهما الأخيران. اهـ . ولعل مراد الماوردى بهذا نفى الحصر الحقيقى وتوجيه الحصر الإضافى، على نحو ما بيَّنا مستدلين بحديث أنس نفسه كما رأيت، وبالروايات الأخرى التى حكى بعضهم فيها التواتر، وهى تصرح بأسماء أخرى غير أسماء هؤلاء الأربعة المذكورين فى رواية أنس هذه . من تلك الروايات ما أخرجه النسائى بسند صحيح عن عبد الله بن عمر أنه قال : « جَمَعْتُ ٱلقُرْآنَ فَقَرَأْتُ بِهِ كلَّ ليلةٍ ، فبلغ النبىَّ ﷺ فقال له : اقْرَأْهُ فى شَهْرٍ . . . إلى آخر الحديث ». ومنها ما أخرجه ابن أبى داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظى قال : « جَمَعَ القرآنَ على عهد رسول الله ﷺ خمسةٌ من الأنصار مُعاذ بن جبل ، وعُبادة بن الصامت ، وأُبَىّ بن كعب ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب الأنصارى » .

وذهب بعضهم إلى أن الجمع فى حديث أنس المذكور مرادٌ به الكتابة لا الحفظ . وبعضهم ذهب إلى أن المراد به الجمع بوجوه القراءات كلها ، أو تلقياً ومشافهةً عن الرسول ﷺ ، أو الجمعُ شيئاً فشيئا حتى تكامل نزوله .

وللإمام أبى بكر الباقلانى أجوبةٌ ثمانية يحاول بها دفع إشكال هذا الحديث . لكن ابن حجر ضعَّفها ، وغيره فنَّدها . والخطب سهل على كل حال ، وفيما ذكرناه كفاية للخروج من هذا الإشكال .

غير أنه لا يفوتنى أن أقضى لك على هذا الإشكال بكلمة أعجبتنى عن المازرى إذ يقول ما نصُّه : «وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ، ولا متمسَّك لهم فيه فإنا لا نسلم حمله على ظاهره: سلمناه . ولكن من أين لهم أن الواقع فى نفس الأمر كذلك؟ سلمناه لكن لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله ألّا يكون حفظ مجموعه

الجم الغفير . وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكلَّ الكلَّ ولو على التوزيع كفى ، وقال القرطبي : «قد قتل يوم اليمامة سبعون ، وقتل فى عهد النبي ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد . قال : وإنما خَصّ أنسٌ الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم دون غيرهم ، أو لكونهم كانوا فى ذهنه دون غيرهم » اهـ .

ثم إن ما ذكرناه فى هذا المقام لا يتجاوز دائرة الصحابة الذين جمعت صدورهم كتاب الله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فقد أتمّ حفظ القرآن آلافٌ مؤلفة من الصحابة ، واشتهر بإقراء القرآن من بينهم سبعة: عثمان ، وعلى ، وأُبى بن كعب ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى . كلهم جمعوا التنزيل بين حنايا صدورهم ، وأقرءوه لكثير غيرهم . جازاهم الله أحسن الجزاء . آمين .

ولعلك أيها القارئ الكريم لا تستكثر منا هذا المجهود الطويل فى حديث أنس السابق ، فإن بعض الملاحدة قد اتخذ منه مثاراً للطعن فى تواتر القرآن . ومن وظيفتنا أن نردّ المطاعن ونُفحم الطاعن . فأردنا أن نشبع الكلام فى هذا الموضوع عند هذه المناسبة أداءً للواجب من ناحية ، ولنستغنى عن إيراده فى الشبهات الآتية من ناحية أخرى . « وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ . إِنَّ ٱللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

جمع القرآن بمعنى كتابته فى عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم

قلنا : إن همة الرسول وأصحابه كانت منصرفةً أول الأمر ، إلى جمع القرآن فى القلوب بحفظه واستظهاره ضرورةَ أنه نبىٌّ أمىٌّ بعثه الله فى الأميين . أضف إلى ذلك أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم فى ذلك العهد. ومن هنا كان التعويل على الحفظ فى الصدور ، يفوق التعويل على الحفظ بين السطور . على عادة العرب أيامئذ من جعل صفحات صدورهم وقلوبهم ، دواوين لأشعارهم وأنسابهم ومفاخرهم وأيامهم .

ولكن القرآن حظِى بأوفى نصيب من عناية النبى ﷺ وأصحابه ، فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره ، عن عنايتهم بكتابته ونقشه ؛ ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها فى عصرهم .

فها هو ذا رسول الله ﷺ ، قد اتَّخذ كُتَّاباً للوحى ، كلما نزل شىء من القرآن أمرهم بكتابته ، مبالغةً فى تسجيله وتقييده . وزيادةً فى التوثُّق والضبط والاحتياط فى كتاب الله تعالى ، حتى تُظاهر الكتابةُ الحفظ ويُعاضِد النقشُ اللفظ .

وكان هؤلاء الكُتاب من خيرة الصحابة ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، ومعاوية ، وأبان بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأبىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وثابت بن قيس ، وغيرهم . وكان صلى الله عليه وسلم يدلهم على موضع المكتوب من سورته . ويكتبونه فيما يسهل عليهم من العُسُب[1] واللِّخاف[2] ،

(١) العسب بضم العين والسين ـ جمع عسيب ـ وهو جريد النخل، كانوا يكشفون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض .

(٢) اللخاف ـ بكسر اللام ـ جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء وهى الحجارة الرقيقة . وقال الخطابى : صفائح الحجارة .

والرقاع[١]، وقطع الأديم[٢] وعظام الأكتاف والأضلاع. ثم يوضع المكتوب فى بيت رسول الله ﷺ. وهكذا انقضى العهد النبوى السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط، بيدَ أنه لم يكتب فى صحف ولا فى مصاحف. بل كتب منثوراً كما سمعت بين الرقاع والعظام ونحوها مما ذكرنا.

روى عن ابن عباس أنه قال: « كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعضَ مَنْ يكتب، فقال: « ضَعُوا هٰذِهِ السُّورَةَ فِي المَوْضِعِ الَّذِي يُذكَرُ فيهِ كَذَا وَكَذَا ». وعن زيد بن ثابتٍ قال: « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نُؤَلِّفُ القُرآنَ مِنَ الرِّقَاعِ ».

وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبى ﷺ وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول: « ضعُوا كذَا فى موضعِ كَذَا ». ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر فى ذلك إلا عن أمر الله عز وجل.

أما الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فقد كان منهم من يكتبون القرآن، ولكن فيما تيسر لهم من قرطاس أو كتفٍ أو عظم أو نحو ذلك، بالمقدار الذى يبلغ الواحد عن رسول الله ﷺ. ولم يلتزموا توالى السور وترتيبها، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورةً أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها، ثم خرج فى سَرِية مثلا فنزلت فى وقت غيابه سورة، فإنه كان إذا رجع يأخذ فى حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته، ثم يستدرك ما كان قد فاته فى غيابه، فيجمعه ويتتبَّعه على حسب ما يسهل له، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك. وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب

---

(١) الرقاع: جمع رقعة، وقد تكون من جلد أوْ ورق أو كاغد.

(٢) الأديم: الجلد.

جريا على عادة العرب فى حفظ أنسابها ، واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة .

صفوة المقال :

وصفوة المقال أن القرآن كان مكتوباً كله على عهد الرسول ﷺ ، وكانت كتابته ملحوظاً فيها أن تشمل الأحرف السبعة التى نزل عليها ، غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة ، وبعض ماهو ثابت بخبر الواحد ، وربما كتبه غير مرتب ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعاً فى صحف ولا مصاحف عامة .

لماذا لم يجمع القرآن أيامئذ فى صُحُفٍ ولا مصاحف ؟

وإنما لم يجمع القرآن فى صحف ولا مصاحف لاعتبارات كثيرة :

أولها أنه لم يوجد من دواعى كتابته فى صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبى بكر حتى كتبه فى صحف . ولا مثل ماوجد على عهد عثمان حتى نسخه فى مصاحف . فالمسلمون وقتئذ بخير، والقراء كثيرون، والإسلام لم يستبحر عمرانه بعد ، والفتنة مأمونة، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة، وأدوات الكتابة غير ميسورة، وعناية الرسول باستظهار القرآن تفوق الوصف وتوفى على الغاية، حتى فى طريقة أدائه على حروفه السبعة التى نزل عليها .

وثانيها : أن النبى ﷺ كان بصدد أن ينزل عليه الوحى بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات .

ثالثها : أن القرآن لم ينزل مرة واحدة، بل نزل منجماً فى مدى عشرين سنة أو أكثر .

رابعها : أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله، فقد علمت أن نزوله، كان على حسب الأسباب ، أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات .

وأنت خبير بأن القرآن لو جمع فى صحف أو مصاحف والحـــال على ما شرحنا

لكان عرضة لتغيير الصحف أو المصاحف كلما وقع نسخ، أو حدث سبب. مع أن الظروف لا تساعد، وأدوات الكتابة ليست ميسورة، والتعويل كان على الحفظ قبل كل شيء. ولكن لما استقر الأمر بختام التنزيل ووفاة الرسول ﷺ، وأمن النسخ، وتقرر الترتيب، ووجد من الدواعي ما يقتضي نسخه في صحف أو مصاحف، وفق الله الخلفاء الراشدين فقاموا بهذا الواجب حفظاً للقرآن، وحياطة لأصل التشريع الأول، مصداقاً لقوله سبحانه: « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ».

جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه

ألقت الخلافة قيادها إلى أبي بكر رضي الله عنه بعد غروب شمس النبوة، وواجهت أبا بكر في خلافته هذه أحداثٌ شدادٌ ومشاكل صعاب. منها موقعة اليمامة سنة ١٢ اثنتي عشرة للهجرة. وفيها دارت رحى الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مُسَيلمة الكذاب وكانت معركة حامية الوطيس، استشهد فيها كثيرٌ من قُرَّاء الصحابة وحَفَظَتهم للقرآن، ينتهي عددهم إلى السبعين، وأنهاه بعضهم إلى خمسمائة، من أجلِّهم سالم مولى أبي حذيفة. ولقد هال ذلك المسلمين، وعزَّ الأمر على عمر، فدخل على أبي بكر وأخبره الخبر واقترح عليه أن يجمع القرآن، خشية الضياع بموت الحفاظ وقتل القراء. فتردد أبو بكر أول الأمر لأنه كان وقافاً عند حدود ما كان عليه الرسول ﷺ يخاف أن يجره التجديد إلى التبديل، أو يسوقه الإنشاء والاختراع، إلى الوقوع في مهاوي الخروج والابتداع.

ولكنه بعد مفاوضة بينه وبين عمر تجلَّى له وجهُ المصلحة، فاقتنع بصواب الفكرة وشرح الله لها صدره وعلم أن ذلك الجمع الذي يشير به عمر ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف، والمحافظة عليه من الضياع والتحريف، وأنه ليس من محدثات الأمور الخارجة، ولا من البدع

والإضافات الفاسقة . بل هو مُسْتَمَدٌّ من القواعد التي وضعها الرسول بتشريع كتابة القرآن ، واتخاذ كُتَّاب للوحي ، وجمع ما كتبوه عنده حتى مات صلوات الله وسلامه عليه . قال الإمام أبو عبد الله المحاسبي في كتاب فهم السنن ما نصُّه : « كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مُفرَّقاً في الرقاع، والأكتاف ، والعسُب ، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكانٍ إلى مكان مجتمعاً ، وكان ذلك بمنزلة أوراقٍ وُجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القرآن منتشراً ، فجمعها جامع وربطها بخيط ، حتى لا يضيع منها شيء » اهـ .

تنفيذ أبي بكر للفكرة :

اهتمّ أبو بكر بتحقيق هذه الرغبة ، ورأى بنور الله أن يندب لتحقيقها رجلاً من خيرة رجالات الصحابة هو زيد بن ثابت رضي الله عنه ، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن ، ما لم يجتمع في غيره من الرجال ، إذ كان من حُفّاظ القرآن ، ومن كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد الْعَرْضَةَ الأخيرة للقرآن في ختام حياته صلى الله عليه وسلم . وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله ، وشدة ورعه ، وعظم أمانته ، وكمال خلقه ، واستقامة دينه . فاستشار أبو بكر عمر في هذا فوافقه . وجاء زيدٌ فعرض أبو بكر عليه الفكرة ورغب إليه أن يقوم بتنفيذها ، فتردّد زيدٌ أول الأمر ، ولكن أبا بكر ما زال به يعالج شكوكه ، ويبيِّن له وجه المصلحة ، حتى اطْمَأَنَّ واقتنع بصواب ما نُدب إليه ، وشرع يجمع ، وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه ، ويعاونونه في هذا المشروع الجلل ، حتى تمّ لهم ما أرادوا « وَيَأْبَى ٱللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ » .

وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه أنَّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :

« أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ ٱلْيَمَامَةِ (أي عقب استشهاد القراء السبعين

في واقعة اليمامة) فإذا عمرُ بنُ الخطابِ عنده . قال أبو بكر رضي الله عنه: «إن عمر أتاني فقال : إنَّ القتلَ قد استحرَّ (أي اشتدَّ) يومَ اليمامة بقرّاء القرآن ، وإني أخشى أنْ يَسْتحر القتلُ بالقراء بالمواطنِ فيذهبَ كثيرٌ من القرآنِ وإني أرى أن تأمر بجمعِ القرآنِ . قلت لعمر : كيف نفعلُ ما لم يفعلهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هذا واللهِ خيْرٌ ، فلم يزل عمرُ يراجعُني حتى شرحَ اللهُ صَدْرِي لذلك ورأيتُ في ذلك الذي رَأَى عمرُ . قال زيد : قال أبو بكر : إنَّكَ رجلٌ شَابٌّ عاقلٌ لا نتهمك ، وقدْ كنت تكتبُ الْوَحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَتَتَبَّع القُرآن فاجمعه . فوالله لو كلفوني نقلَ جبلٍ من الجبالِ ، ما كانَ أثقل علي مما أمرني به من جمعِ القْرآن ! قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعلهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هوَ واللهِ خيرٌ فلم يزل أبو بكرٍ يراجعني ، حتى شرح اللهُ صدري للذي شرح له صدرَ أبي بكرٍ وعمرَ . فتتبعتُ القرآن أجمعهُ من العُسبِ وَاللخافِ وَصدورِ الرِّجالِ ، حتى وَجدْتُ آخر سورةِ التوبةِ مع أَبي خزيمة الأنصاريِّ لمْ أَجدْها معَ أحدٍ غيرِهِ « لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ » حتى خاتمة براءة . فكانت الصحفُ عند أبي بكر حتى تَوَفَّاهُ الله ، ثم عند عمرَ حياتَهُ ، ثم عند حَفْصَةَ بنتِ عمر » اهـ .

فهذا الحديث ـ كما ترى ـ يدلُّ على مبلغ اهتمام كبار الصحابة بالمحافظة على القرآن وعلى مبلغ ثقة أبي بكر وعمر بزيد بن ثابت ، وعلى جدارة زيد بهذه الثقة لتوافر تلك المناقب التي ذكرها فيه أبو بكر . ويؤيد ورعَه ودينه وأمانتَه قوله: « فوَاللهِ لو كلَّفوني نقْلَ جبلٍ مِنَ الجبالِ ، ما كان أَثقلَ عَلَيَّ مِمَّا أمرني به من جَمْعِ القُرْآن» ويشهد بوفرة عقله تردُّده وتوقفه أول الأمر ومناقشتهُ لأبي بكر حتى راجعه أبو بكر وأقنعه بوجه الصواب . وينطق بدقَّة تحرِّيه قوله : « فتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ العُسُبِ وَاللخافِ وَصُدُورِ الرِّجالِ » اهـ . رضي الله عنه وأرضاه ، ورضي عنهم وعنا أجمعين .

دُستور أبى بكر فى كتابة الصُّحف :

وانتهج زيد فى القرآن طريقة دقيقة مُحكمة وضعها له أبو بكر وعمر ، فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبُّتٍ بالغ وحذر دقيق، وتحريات شاملة، فلم يكتف بما حفظ فى قلبه ، ولا بما كتب بيده ، ولا بما سمع بأذنه . بل جعل يتتبّع ويستقصى آخذاً على نفسه أن يعتمد فى جمعه على مصدرين اثنين : أحدهما ما كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثانى : ما كان محفوظاً فى صدور الرجال . وبلغ من مبالغته فى الحيطة والحذر أنه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدى رسول الله ﷺ .

يدلُّ على ذلك ما أخرجه ابن أبى داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: « قَدِم عمر، فقال :من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به ، وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعُسُب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهدَ شاهدان » .

ويدلُّ عليه ما أخرجه أبو داود أيضا ، ولكن من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر، ولزيد : « اقعُدَا على باب المسجدِ ، فمن جاءكما بشاهِدين على شىء من كِتاب الله فاكْتُباه » اﻫ وهو حديثٌ رجاله ثقاتٌ وإن كان منقطعا . قالَ ابن حجر : « المراد بالشاهدين : الحفظُ والكتابةُ » .

وقال السخاوى فى جمال القراء ما يفيد أن المراد بهما رجلان عدلان إذ يقول ما نصُّه: « المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ » . ولم يعتمد زيدٌ على الحفظ وحده ، ولذلك قال فى الحديث الذى رواه البخارى سابقاً ، إنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبى خزيمة . أى لم يجدها مكتوبةً إلا مع أبى خزيمة الأنصارى ، مع أن زيداً كان يحفظها ، وكان كثيرٌ من الصحابة يحفظونها . ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة ، زيادةً فى التوثُّق، ومبالغةً فى الاحتياط . وعلى هذا

الدستور الرشيد تم جمع القرآن بإشراف أبى بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير . وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبى بكر فى الإشراف ، ولعمر فى الاقتراح ، ولزيد فى التنفيذ ، وللصحابة فى المعاونة والإقرار ! .

قال علىٌّ كرم الله وجهه : « أعْظمُ الناسِ فى المصاحفِ أجراً أبو بكر ، رحمةُ الله عَلَى أبى بكر ، هو أوَّل مَن جمع كِتَاب الله » أخرجه ابن أبى داود فى المصاحف بسند حسن .

وقد قوبلت تلك الصحف التى جمعها زيدٌ بما تستحقُّ من عناية فائقة ، فحفظها أبوبكر عنده . ثم حفظها عمر بعده . ثم حفظتها أُمُّ المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر . حتى طلبها منها خليفة المسلمين عثمان رضى الله عنه ، حيث اعتمد عليها فى استنساخ مصاحف القرآن . ثم ردّها إليها كما يأتيك بيانه إن شاء الله .

مزايا هذه الصُّحف :

وامتازت هذه الصحف أولا بأنها جمعت القرآن على أدقِّ وجوه البحث والتحرِّى ، وأسلم أُصول التثبُّت العلمى ، كما سبق شرحه لك فى الدستور السابق .

ثانياً : أنه اقْتُصِرَ فيها على ما لم تُنسخ تلاوته .

ثالثاً : أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها ، وتواتُر ما فيها . ولا يطعن فى ذلك التواتر ما مرَّ عليك من أن آخر سورة براءة لم يوجد إلا عند أبى خزيمة ، فإن المراد أنه لم يوجد مكتوباً إلا عنده ، وذلك لا يُنافى أنه وُجد محفوظا عند كثرة غامرة من الصحابة بلغت حدَّ التواتر ، وقد قلنا غير مرة : إن المعوَّل عليه وقتئذ كان هو الحفظ والاستظهار . وإنما اعتمد على الكتابة كمصدر من المصادر ، زيادة فى الاحتياط ؛ ومبالغةً فى الدقَّة والحذر . ولا يعزُبَن عن بالك أن هذا الجمع كان شاملا للأحرف

السبعة التى نزل بها القرآن تيسيراً على الأمة الإسلامية كما كانت الأحرف السبعة فى الرقاع كذلك .

ملاحظة :

جمعُ القرآن فى صحفٍ أو مصحف على ذلك النمط الآنف بمزاياه السابقة التى ذكرناها بين يديك، لم يعرف لأحدٍ قبل أبى بكر رضى الله عنه. وذلك لا ينافى أن الصحابة كانت لهم صحفٌ أو مصاحفُ كتبوا فيها القرآن من قبل. لكنها لم تظفر بما ظفرت به الصحف المجموعة على عهد أبى بكر ، من دقة البحث والتحرّى ، ومن الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته ، ومن بلوغها حدّ التواتر، ومن إجماع الأمة عليها، ومن شمولها للأحرف السبعة كما تقدّم . وإذن لا يضيرنا فى هذا البحث أن يقال إن عليا رضى الله عنه أول من جمع القرآن بعد رسول الله ﷺ ، ولا يعكرُ صفوَ موضوعنا أن يستدلُّوا على ذلك بما نقله السيوطى عن ابن الفرس من حديث محمد بن سيرين عن عكرمة قال : « لمَّا كانَ بعد خلافةِ أبى بكر ، قعدَ علىٌّ بنُ أبى طالبٍ فى بيته ، فقيل لأبى بكرٍ : قدْ كرهَ بيعتكَ . فأرسلَ إليه ، فقالَ : أكرهتَ بيعتى ؟ فقال : رأيتُ كتابَ اللهِ يزادُ فيهِ ، فحدثتُ نفسى ألا ألبسَ ردائى إلا لصلاةٍ حتى أجمعهُ . قال لهُ أبو بكرٍ : فإنكَ نعمَ مارأيت!. قال محمدٌ : فقلت لعكرمة : ألَّفوهُ كما أنزلَ الأوّلَ فالأوّلَ ؟ قالَ : لوْ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يؤلّفوهُ هذا التأليفَ مااستطاعوا . ! » اهـ وأخرج ابن أشته من وجهٍ آخر عن ابن سيرين هذا الأثر ، وفيه أنه كتب فى مصحفه الناسخ والمنسوخ ، وأن ابن سيرين قال : فطلبت ذلك الكتاب ، وكتبت فيه إلى المدينة ، فلم أقدر عليه . اهـ .

نقول إن هذا الرواية وأشباهها لا تضير بحثنا، ولا تعكر صفو موضوعنا، فقصاراها

أنها تثبت أن علياً أو بعض الصحابة كان قد كتب القرآن فى مصحف . لكنها لا تعطى هذا المصحف تلك الصفة الإجماعية ، ولا تخلع عليه تلك المزايا التى للصحف أو المصحف المجموع فى عهد أبى بكر . بل هى مصاحف فردية ، ليست لها تلك الثقة ولا هذه المزايا. وإذا كانت قد سبقت فى الوجود وتقدَّمتها الزمان فإن جمع أبى بكر هو الأول من نوعه على كل حال . وقد اعترف على بن أبى طالب نفسه بهذه الحقيقة فى الحديث الذى أخرجه ابن أبى داود فى المصاحف بسند حسن آنفاً إذ قال : « أعظمُ الناسِ أجراً فى المصاحفِ أبو بكرٍ ، رحمةُ اللهِ على أبى بكر ، هوَ أولُ من جمعَ كتابَ اللهِ » .

فهذا اعترافٌ صريحٌ من أبى الحسن بالأولية لجمع أبى بكر على النحو الآنف رضوان الله عليهم أجمعين .

جمع القرآن على عهد عثمان رضى الله عنه

اتسعت الفتوحاتِ فى زمن عثمان ، واستبحر العمران ، وتفرّق المسلمون فى الأمصار والأقطار ، ونبتت ناشئةٌ جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن . وطال عهد الناس بالرسول والوحى والتنزيل . وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام ، يأخذون بقراءةِ من اشتهر بينهم من الصحابة ، فأهل الشام يقرءون بقراءة أُبىٍّ بن كعب ، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود، وغيرهم يقرأ بقراءة أبى موسى الأشعرى. فكان بينهم اختلاف فى حروف الأداء ووجوه القراءة، بطريقةٍ فتحت باب الشقاق والنزاع فى قراءة القرآن ، أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف بل كان هذا الشقاق أشد ؛ لبعد عهد هؤلاء بالنبوّة ، وعدم وجود الرسول بينهم ، يطمئنون إلى حكمه ، ويصدرون جميعاً عن رأيه . واستفحل الداء حتى كفّر بعضهم بعضاً ، وكادت تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير . ولم يقف هذا الطغيان عند حدّ ،

بل كاد يلفح بناره جميع البلاد الإسلامية حتى الحجاز والمدينة ، وأصاب الصغار والكبار على سواء .

أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة أنه قال : « لما كانت خلافةُ عثمان ، جعل المعلمُ يعلمُ قراءةَ الرجل ، والمعلِّمُ يعلمُ قراءةَ الرجل ، فجعل الغلمانُ يلتقونَ فيختلفونَ حتى ارتفعَ ذلك إلى المعلِّمينَ ، حتى كفَّرَ بعضهم بعضاً ، فبلغ ذلك عثمانَ ، فخطب فقال : « أنتمْ عندي تختلفونَ ، فمنْ نأى عني منَ الأمصارِ أشدُّ اختلافاً » .

وصدق عثمان ، فقد كانت الأمصار النائية أشدَّ اختلافاً ونزاعاً من المدينة والحجاز. وكان الذين يسمعون اختلاف القراءات من تلك الأمصار إذا جمعتهم المجامع ، أو التقوا على جهاد أعدائهم ، يعجبون من ذلك. وكانوا يمعنون في التعجب والإنكار ، كلما سمعوا زيادةً في اختلاف طرق أداء القرآن . وتأدى بهم التعجب إلى الشكِّ والمداجاة ، ثم إلى التأثيم والملاحاة . وتيقظت الفتنة التي كادت تطيحُ فيها الرءوس ، وتسفك الدماء ، وتقود المسلمين إلى مثل اختلاف اليهود والنصارى في كتابهم . كما قال حذيفة لعثمان في الحديث الآتي قريباً .

أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار ، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها ، حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون. إنما كان كل صحابي في إقليم ، يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن. ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق البعيد .

لهذه الأسباب والأحداث ، رأى عثمان بثاقب رأيه ، وصادق نظره ، أن يتدارك الخرق قبل أن يتسع على الراقع ، وأن يستأصل الداء ، قبل أن يعزَّ الدواء ، فجمع أعلام

الصحابة وذوى البصر منهم، وأجال الرأى بينه وبينهم فى علاج هذه الفتنة ، ووضع حد لذلك الاختلاف ، وحسم مادة هذا النزاع . فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها، وألّا يعتمدوا سواها. وبذلك يرأبُ الصدع ، ويجبر الكسر ، وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادى فى ظلام هذا الاختلاف ، ومصباحهم الكشاف فى ليل تلك الفتنة ، وحكمهم العدل فى ذاك النزاع والمراء ، وشفاءهم الناجع من مصيبة ذلك الداء .

تنفيذ عثمان لقرار الجمع :

وشرع عثمان فى تنفيذ هذا القرار الحكيم ، حول أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة ، فعهد فى نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ ، وهم زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام . وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش .

وأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر ، فبعثت إليه بالصحف التى عندها ، وهى الصحف التى جمع القرآن فيها على عهد أبى بكر رضى الله عنه . وأخذت لجنة الأربعة هؤلاء فى نسخها ، وجاء فى بعض الروايات أن الذين ندبوا لنسخ المصاحف كانوا اثنى عشر رجلًا . وما كانوا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة ، ويقرُّوا أن رسول الله ﷺ قرأ على هذا النحو الذى نجده الآن فى المصاحف .

دستور عثمان فى كتابة المصاحف :

ومما تواضع عليه هؤلاء الصحابة أنهم كانوا لا يكتبون فى هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن ، وعلموا أنه قد استقرّ فى العرضة الأخيرة ، وما أيقنوا صحته عن النبى ﷺ مما لم ينسخ . وتركوا ما سوى ذلك نحو قراءة « فامضوا إلى ذكر الله » بدل كلمة « فاسعوْا » ونحو « وكانَ وراءهمْ ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ صالحةٍ غصباً »

بزيادة كلمة « صالحة » ، إلى غير ذلك . وإنما كتبوا مصاحف متعددة، لأن عثمان رضى الله عنه قصد إرسال ماوقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين ، وهى الأخرى متعددة ، وكتبوها متفاوتة فى إثبات وحذف وبدل وغيرها ، لأنه رضى الله عنه قصد اشتمالها على الأحرف السبعة . وجعلوها خالية من النقط والشكل ، تحقيقاً لهذا الاحتمال أيضاً . فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تجردها من النقط والشكل نحو « فَتَبَيَّنُوا » من قوله تعالى « إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا » فإنها تصلح أن تقرأ « فَتَثَبَّتُوا » عند خُلوّها من النقط والشكل وهى قراءة أخرى ، وكذلك كلمة « نُنشِرُهَا » من قوله تعالى « وَٱنظُرْ إلَى ٱلعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا » فإن تجردها من النقط والشكل كما ترى يجعلها صالحة عندهم أن يقرءوها « نُنْشِزُهَا » بالزاى ، وهى قراءة واردة أيضاً ، وكذلك كلمة « أفٍّ » التى ورد أنها تقرأ بسبعة وثلاثين وجهاً .

أما الكلمات التى لاتدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضاً، فإنهم كانوا يرسمونها فى بعض المصاحف برسمٍ يدلُّ على قراءة، وفى بعضٍ آخر برسم آخر يدلُّ على القراءة الثانية ، كقراءة « وَصَّى » بالتضعيف و (أَوْصَى) بالهمز ، وهما قراءتان فى قوله سبحانه : « وَوَصَّى بِهَا إبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ » وكذلك قراءة « تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَارُ » وقراءة « مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ » بزيادة لفظ « مِنْ » فى قوله تعالى فى سورة التوبة : « لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ » وهما قراءتان أيضا .

وصفوة القول: أن اللفظ الذى لاتختلف فيه وجوه القراءات، كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة . أما الذى تختلف فيه وجوه القراءات ، فإن كان لا يمكن رسمه فى الخط محتملا لتلك الوجوه كلها ، فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه فى مصحف ، ثم يكتبونه برسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى فى مصحف آخر. وكانوا يتحاشون أن

يكتبوه بالرسمين فى مصحف واحد خشية أن يُتوهَّمَ أن اللفظ نزل مكرراً بالوجهين فى قراءة واحدة ، وليس كذلك . بل هما قراءتان نزل اللفظ فى إحداهما بوجهٍ واحد ، وفى الثانية بوجهٍ آخر من غير تكرار فى واحدةٍ منهما .

وكذلك كانوا يتحاشَوْن أن يكتبوا هذا اللفظ فى مصحف واحد برسمين : أحدهما فى الأصل والآخر فى الحاشية ، لئلا يتوهم أن الثانى تصحيح للأول . أضف إلى ذلك أن كتابة أحدهما فى الأصل والآخر فى الحاشية دون العكس تحكُّم ، أو ترجيحٌ بلا مرجِّح وذلك نحو كلمة (وَصَّى) بالتضعيف و (أَوْصَى) بالهمز كما سبق .

أما اللفظ الذى تختلف فيه القراءات ، ويدلُّ عليه الرسم بصورة واحدة تحتمل هذا الاختلاف ويساعدهم عليه ترك الإعجام والشكل نحو « فَتَبَيَّنُوا » « وَنُنْشِرُهَا » كما سلف بيانه ، فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين ، شبيهة بدلالة المشترك اللفظى على كلا المعنيين المعقولين . والذى دعا الصحابة إلى انتهاج هذه الخُطَّة فى رسم المصاحف وكتابتها أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه قراءاته ، وبكافة حروفه التى نزل عليها ، فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها ، حتى لا يقال : إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته ، أو منعوا أحداً من القراءة بأىِّ حرف شاء على حين أنها كلها منقولة نقلا متواتراً عن النبى صلى الله عليه وسلم . ورسول الله ﷺ يقول : « فأىّ ذلك قرأْتُم أَصَبْتُمْ فلا تُمَارُوا » وكان من الدستور الذى وضعه عثمان رضى الله عنه لهم فى هذا الجمع أيضاً أنه قال لهؤلاء القرشيين « إِذَا ٱخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وزيدُ ابنُ ثابتٍ فى شىء مِنَ القُرْآنِ ، فَاكْتُبُوهُ بلسان قريشٍ ، فإنما نزل بِلِسانِهِم » ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ؛ وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يُحْرَق .

وفى ذلك يروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه ، أن حذيفةَ بن اليمـانِ قدِمَ على عثمانَ وكانَ يغازى أهلَ الشام فى فتحِ أرمينيّةَ وأذربيجانَ معَ أهلِ العراقِ ، فأفزعَ حذيفةَ اختلافُهمْ فى القراءة ، فقال حذيفةُ لعثمانَ : يا أميرَ المؤمنينَ أدركْ هذهِ الأمةَ قبلَ أنْ يختلفُوا فى الكتابِ اختلافَ اليهودِ والنصارى . فأرسلَ عثمانُ إلى حفصةَ : أن أرسلى إلينـا بالصحفِ ننسخها فى المصاحف ، ثمّ نردها إليكِ . فأرسلتْ بها حفصةُ إلى عثمانَ ، فأمرَ زيدَ ابنَ ثابتٍ ، وعبدَ اللهِ بن الزبيرِ ، وسعيدَ بن العاصِ ، وعبدَ الرحمنِ بن الحارثِ ابن هشام ، فنسخوها فى المصاحفِ . وقالَ عثمانُ للرهطِ القرشيينَ الثلاثة: «إذا اختلفتمْ أنتمْ وزيدُ بنُ ثابتٍ فى شىء منَ القرآنِ فاكتبوهُ بلسان قريش ، فإنما نزلَ بلسانهمْ ، ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحفَ فى المصاحفِ ، ردّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصةَ ، فأرسلَ إلى كلِّ أفق بمصحف مما نسخوا. وأمرَ بما سواهُ منَ القرآنِ فى كلِّ صحيفةٍ أو مصحفٍ أنْ يحرَقَ » اهـ .

تحريق عثمان للمصاحف والصحف المخالفة :

بعد أن أتم عثمان نسخ المصاحف بالصورة السابقة ، عمل على إرسالها وإنفاذها إلى الأقطار ، وأمر أن يحرق كلُّ ما عداها مما يخالفها ، سواء كانت صحفاً أم مصاحف . وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية ، وليحمل المسلمين على الجادّة فى كتاب الله من ناحية أخرى ، فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التى توافر فيها من المزايا ما لم يتوافر فى غيرها .

وهذه المزايا هى :

(١) الاقتصار على ما ثبت بالتواتر ، دون ما كانت روايته آحاداً .

(٢) وإهمال مانسخت تلاوته ولم يستقرّ فى العرضة الأخيرة .

(٣) وترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن. بخلاف صحف أبي بكر رضى الله عنه فقد كانت مرتبة الآيات دون السور.

(٤) وكتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التى نزل عليها القرآن، على ما مرَّ بك من عدم إعجامها وشكلها، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد.

(٥) وتجريدها من كل ماليس قرآناً كالذى كان يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنى، أو بياناً لناسخ ومنسوخ، أو نحو ذلك.

وقد استجاب الصحابة لعثمان، فحرقوا مصاحفهم، واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية. حتى عبد الله بن مسعود الذى نقل عنه أنه أنكر أولا مصاحف عثمان، وأنه أبى أن يحرق مصحفه، رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة، حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية، واجتماع الأمة عليها، وتوحيد الكلمة بها.

وبعدئذ طهر الجوُّ الإسلامى من أوبئة الشقاق والنزاع، وأصبح مصحف ابن مسعود ومصحف أبى بن كعب، ومصحف عائشة، ومصحف على، ومصحف سالم مولى أبى حذيفة. أصبحت كلها وأمثالها فى خبر كان، مغسولة بالماء أو محروقة بالنيران. « وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً »

ورضى الله عن عثمان، فقد أرضى بذلك العمل الجليل ربه، وحافظ على القرآن، وجمع كلمة الأمة، وأغلق باب الفتنة، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم.

ولن يقدح فى عمله هذا أنه أحرق المصاحف والصحف المخالفة للمصاحف العثمانية، فقد علمت وجهة نظره فى ذلك. على أنه لم يفعل مافعل من هذا الأمر الجلل، إلا بعد أن استشار الصحابة، واكتسب موافقتهم، بل وظفر بمعاونتهم وتأييدهم وشكرهم.

روى أبو بكر الأنبارى عن سويد بن غفلة قال : « سمعت على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول : يا معشر الناس : اتقوا الله وإياكم وَالغُلُوَّ فى عثمان، وقولكم : حَرّاقُ مصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأٍ منا أصحابَ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم » .
وعن عمر بن سعيد قال : قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: « لو كُنْتُ الوالىَ وَقْتَ عثمانَ ، لَفَعَلْتُ فى المصاحِف مِثلَ الذى فَعلَ عثمانُ » رضى الله عن الجميع ، وجزاهم أحسن الجزاء على هذا الصنيع .

فذلكة :

تستطيع مما سبق أن تفرق بين مرّات جمع القرآن فى عهوده الثلاثة : عهد النبى ﷺ وعهد أبى بكر ، وعهد عثمان (رضى الله عنهما) فالجمع فى عهد النبى ﷺ كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها فى مكانها الخاصّ من سورها ، ولكن مع بَعْثرَةِ الكتابة وتفرُّقها بين عُسُبٍ وعظام ، وحجارة ورقاع ، ونحو ذلك حسبما تيسَّر أدوات الكتابة ، وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثق للقرآن ، وإن كان التعويل أيامئذ كان على الحفظ والاستظهار .

أما الجمع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه فقد كان عبارةً عن نقل القرآن وكتابته فى صحف مرتَّبَ الآيات أيضاً ، مقتصراً فيه على ما لم تُنسخ تلاوته مستوثقاً له بالتواتُر والإجماع وكان الغرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعاً مرتَّباً ، خشية ذهاب شىء منه بموت حملته وحفَّاظه .

وأما الجمع فى عهد عثمان رضى الله عنه فقد كان عبارة عن نقل ما فى تلك الصحف فى مصحف واحد إمام، واستنساخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية ملاحَظاً فيها تلك المزايا السالف ذكرها مع ترتيب سوره وآياته جميعاً . وكان الغرض منه إطفاء الفتنة

التى اشتعلت بين المسلمين حين اختلفوا فى قراءة القرآن ، وجمعَ شملهم وتوحيد كلمتهم ، والمحافظة على كتاب الله من التغيير والتبديل . « لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » .

الردُّ على ما يثار حول جمع القرآن من شُبه

كان القرآن ولا يزال هَدَفاً لأعداء الإسلام، يُسدِّدون إليه سهام المطاعن، ويتَّخِذون من علومه مثاراً للشبهات يلفِّقونها زوراً وكذباً ، ويروِّجونها ظلماً وعدواناً . من ذلك ما نقصُّه عليك فى موضوعنا هذا مشفوعاً بالتفْنيد فيما يأتى :

الشبهة الأولى وهى تعتمد على سبع شبه

يقولون : إن فى طريقة كتابة القرآن وجمعه ، دليلًا على أنه قد سقط منه شىء وأنه ليس اليوم بأيدينا على ما زعم محمد أنه أُنزل عليه . واعتمدوا فى هذه الشبهة على المزاعم الآتية :

(أولا) أن محمداً قال : رحم الله فلاناً لقد أذكرنى كذا وكذا آية . كنت أسْقَطْتُهُنَّ ، ويرى أُنْسِيتُهُنَّ . فهذا الحديث فيه اعترافٌ من النبى نفسه بأنه أسقط عمدا بعض آيات القرآن أو أُنسيها .

(ثانياً) أن ما جاء فى سورة الأعلى « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ ٱللهُ » يدلُّ بطريق الاستثناء الواقع فيه على أن محمداً قد أسقط عمداً أو أُنسى آيات لم يتفَّق له من يذكِّره إياها :

(ثالثاً) أن الصحابة حذفوا من القرآن كل ما رأوا المصلحة فى حذفه ، فمن ذلك

آية المُتعَة أسقطها على بن أبى طالب بتّةً ، وكان يضرب من يقرؤها . وهـذا مما شنّعت عائشة به عليه فقالت : إنه يجلد على القرآن ، وينهَى عنه ، وقـد بدّله وحرّفه .

(رابعاً) أن أبى بن كعب حذف من القرآن ما كان يرويه ولا نجده اليوم فى المصحف وهـو : « اللَّهُمَّ إنَّا نَسْتَعِينُكَ وَنَسْتَهْدِيكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إلَيْكَ وَنُؤْمِنُ بِكَ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ وَنُثْنِي عَلَيْكَ الْخَيْرَ كُلَّهُ . نَشْكُرُكَ وَلَا نَكْفُرُكَ ، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ . اللَّهُمَّ إيَّاكَ نَعْبُدُ وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ ، وَإلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ . نَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخَافُ عَذَابَكَ ، إنَّ عَذَابَكَ الْجِدَّ بِالْكُفَّارِ مُلْحَقٌ »

(خامساً) أن كثيراً من آياته لم يكن لها قيدٌ سوى تحفُّظ الصحابة ، وكان بعضهم قد قتلوا فى مغازى محمد وحروب خلفائه الأولين ، وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه من قبل أن يُوعِزَ أبو بكر إلى زيد بن ثابت بجمعه ، فلذلك لم يستطع زيدٌ أن يجمع سوى ما كان يتحفّظه الأحياء .

(سادساً) أن ما كان مكتوباً منه على العظام وغيرها ، فإنه كان مكتوباً عليها بلا نظام ولا ضبط ، وقد ضاع بعضها . وهذا ما حدا العلماء إلى الزعم أن فيه آيات نُسخت حرفاً لا حكماً . وهو من غريب المزاعم . وحقيقة الأمر فيها أنها سقطت بتّةً بضياع العظم الذى كانت مكتوبة عليه ، ولم يبق منها سوى المعنى محفوظاً فى صدورهم .

(سابعاً) لمـا قام الحجّاج بنُصرة بنى أُمية لم يُبق مصحفاً إلا جمعه وأسقط منه أشياء كثيرة قـد نزلت فيهم ، وزاد فيه أشياء ليست منه ، وكتب ستة مصاحف جديدة بتأليف ما أراده ووجّه بها إلى مصر والشام ومكة والمدينة والبصرة والكوفة

وهى القرآن المتداوَل اليوم. وَعَمَدَ إلى المصاحف المتقدمة، فلمْ يبق منها نسخة إلا أغْلَى لها الخلَّ وطرحها فيه حتى تقطَّعت . وإنما رام بما فعله أن يتزلَّف إلى بنى أمية ، فلم يُبْقِ فى القرآن مايسوءهم .

نقض هذه المزاعم الباطلة

ملخَّص هذه الشبهة أن القرآن الذى بأيدينا ناقص، سقط منه ماسقط، بدليل المزاعم السبعة التى سُقْناها أمامك . وإذن فلنمحص بين يديك هذه المزاعم ، لنأتى بنيان هذه الشبهة من القواعد .

(١) أما احتجاجهم الأول ـ وهو الحديث الذى أوردوه ـ فإنه لا ينهض حجةً لهم فيما زعموا من الشكِّ فى الأصل الذى قامت عليه كتابة القرآن وجمعه . بل الأصل سليم قويم وهو وجودُ هذه الآيات مكتوبةً فى الوثائق التى استكْتبها الرسول ، ووجودُها محفوظةً فى صدور أصحابه الذين تلقَّوها عنه ، والذين بلغ عددهم مبلغ التواتر ،وأجمعوا جميعاً على صحَّته . كما عُرف ذلك فى دستور جمع القرآن .

إنما قُصارى هذا الخبر أنه يدلُّ على أن قراءة ذلك الرجل ذكَّرت النبى ﷺ إيَّاها ، وكان قد أُنسِيهاَ أو أسْقطها (أى نسياناً) .

وهذ النوع من النسيان لايزعزع الثقة بالرسول ، ولا يشكِّك فى دقَّة جمع القرآن ونَسْخه ، فإن الرسول ﷺ كان قد حفظ هذه الآيات من قبل أن يحفظها ذلك الرجل، ثم استكْتبها كُتَّابَ الوحى ، وبلغها الناسَ فحفظوها عنه، ومنهم رجل الرواية عبَّاد بن بشَّار رضى الله عنه على مارُوى .

وليس فى ذلك الخبر الذى ذكروه رائحة أن هذه الآيات لم تكن بالمحفوظات التى كتبها كُتَّاب الوحى، وليس فيه مايدلُّ على أن أصحاب الرسول كانوا قد نسوها جميعاً، حتى يُخاف عليها وعلى أمثالها الضياع،ويُخشى عليها السقوط عند الجمع واستنساخ المصحف الإمام،

كما يفترى أولئك الخرّاصون. بل الرواية نفسها تثبت صراحةً أن فى الصحابة من كان يقرؤها وسمعها الرسول منه .

ثم إن دستور جمع القرآن ـ وقد مرّ آنفاً ـ يؤيد أنهم لم يكتبوا فى المصحف إلا ماتظاهر الحفظ والكتابة والإجماع على قرآنيته : ومنه هذه الآيات التى يدور عليها الكلام هنا من غير ماشك .

ولا يفوتنك فى هذا المقام أمران: (أحدهما) أن كلمة « أَسْقَطْتُهُنَّ » فى بعض روايات هذا الحديث ، معناها أسقطتهن نسياناً ، كما تدلُّ على ذلك كلمة « أُنْسِيتُهُنَّ » فى الرواية الأخرى . . ومحالٌ أن يُراد بها الإسقاط عمداً ، لأن الرسول ﷺ لا ينبغى له ولا يعقل منه أن يبدّل شيئاً فى القرآن بزيادة أو نقص من تلقاء نفسه، وإلاَّ لكان خائناً أعظم الخيانة . والخائن لا يمكن أن يكون رسولًا .

هذا هو حكم العقل المجرّد من الهوى، وهو أيضاً حكم النقل فى كتاب الله؛ إذ يقول سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ، وإذ يقول جلّ ذكره : « قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي . إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ » .

(الأمر الثانى) أن روايات هذا الخبر لا تفيد أن هذه الآيات التى سمعها الرسول من عبّاد بن بشّارٍ قد انمحت من ذهنه الشريف جملةً غاية ماتفيده أنها كانت غائبةً عنه ثم ذكرها وحضرت فى ذهنه بقراءة عبّاد. وغيبة الشىء عن الذهن أو غفلة الذهن عن الشىء، غير محوه منه. بدليل أن الحافظ منا لأىِّ نصٍ من النصوص يغيب عنه هذا النصُّ إذا اشتغل ذهنه بغيره ، وهو يوقن فى ذلك الوقت بأنه مخزون فى حافظته بحيث إذا دعا إليه داعٍ استعرضه واستحضره ثم قرأه . أما النسيان التامّ المرادف لانمحاء الشىء من الحافظة، فإن الدليل قام على استحالته على النبى ﷺ فيما يُخلُّ بوظيفة الرسالة والتبليغ . وإذا عرض له نسيان فإنه سحابة صيف لا تجىء إلا لتزول. ولاريب أن نسيان الرسول هنا كان بعد

أن أدّى وظيفته وبلغ الناس وحفظوا عنه . فهو نسيانٌ لم يخلّ بالرسالة والتبليغ .. قال البدر العينى فى باب نسيان القرآن من شرحه لصحيح البخارى ما نصُّه :

وقال الجمهور : « جاز النسيان عليه (أى على النبى ﷺ) فيما ليس طريقه البلاغ والتعليم ، بشرط ألَّا يُقرَّ عليه ، بل لا بدّ أن يذكره . وأما غيره فلا يجوز قبل التبليغ ، وأما نسيان ما بلَّغه كما فى هذا الحديث فهو جائز بلا خلاف » اهـ .

هذا . ولقد كنت فى الطبعة الأولى تابعت بعض الكاتبين هنا فى اتهام هذه الرواية بالدسّ والوضع ، ولكن تبين لى بعد إعادة النظر ، وتنبيه بعض ذوى الفِطَن ، أن الخبر صحيح رواه الشيخان ؛ ففى صحيح البخارى عن هشام عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت « سَمِعَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم رَجُلًا يَقْرَأُ فى المسجد . فقالَ : يرحَمُهُ اللهُ . لَقَدْ أَذْكَرَنى كذا وكذا آيةً مِن سُورَةِ كذا » . زاد فى رواية أخرى : « وقال : أَسْقَطْتُهُنَّ مِن سورَةِ كذا وكذا » .

وفى صحيح مسلم عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبى ﷺ سَمِع رَجُلًا يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ ، فقال : « يَرْحَمُهُ اللهُ لقد أَذْكَرَنِى كذا وكذا آيةً كنتُ أَسْقَطْتُهَا من سورة كذا وكذا »

وقال النووىُّ فى كتابه التبيان فى آداب حملة القرآن ما نصُّه : « وثبت فى الصحيحين أيضاً عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ سمع رَجلاً يقرأ ، فقال : « رحمهُ الله . لقدْ أذكَرَنِى آيةً كنتُ أَسْقَطْتُهَا » . وفى رواية فى الصحيح « كنتُ أُنسِيتُهَا » اهـ .

سبحان ربى ! « « لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » .

(٢) وأما احتجاجهم الثانى وهو الاستثناء الذى فى قوله سبحانه « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ » فلا يدلُّ على مازعموا ، لأنه استثناء صورىٌّ لا حقيقىٌّ . والحكمة فيه أن يعلن الله عباده أن عدم نسيانه ﷺ الذى وعده الله إياه فى قوله : « فَلَا تَنْسَى » إنمـــا هو محض فضل من الله وإحسان ، ولو شاء سبحانه أن ينسيه لأنساه . وفى ذلك

الاستثناء الصورىّ فائدتان : إحداهما ترجع إلى النبي ﷺ حيث يشعر دائماً أنه مغمورٌ بنعمة الله وعنايته، مادام متذكراً للقرآن لا ينساه. والثانية تعود على أمته حيث يعلمون أن نبيهم ﷺ فيما خصه الله به من العطايا والخصائص لم يخرج عن دائرة العبودية ، فلا يفتنون فيه كما فتنَ النصارى فى المسيح بن مريم .

والدليل على أن هذا الاستثناء صورىٌّ لا حقيقى أمران:(أحدهما) ماجاء فى سبب النزول وهو أن النبي ﷺ كانَ يتعب نفسه بكثرة قراءة القرآن حتى وقت نزول الوحى، مخافةَ أن ينساه ويُفلت منه، فاقتضت رحمة الله بحبيبه أن يطمئنهُ من هذه الناحية، وأن يريحه من هذا العناء ، فنزلت هذه الآية . كما نزلت آية « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » وآية « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » .

(ثانيهما) أن قوله « إِلَّا ماشاء اللهُ » يعلق وقوع النسيان على مشيئة الله إياه . والمشيئة لم تقع بدليل ما مرَّ بك من نحو قوله : « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » . وإذاً فالنسيان لم يقع، للعلم بأن عدم حصول المعلق عليه يستلزم عدم حصول المعلق. فالذى عنده ذوقٌ لأساليب اللغة ، ونظرٌ فى وجوه الأدلة ، يتردَّد فى أن الآية وعدٌ من الله أكيد ، بأن الرسول يقرئه الله فلا ينسى، وعداً منه على وجه التأبيد، من غير استثناء حقيقى لوقت من الأوقات. وإلا لما كانت الآية مطمئنة له عليه الصلاة والسلام، ولكان نزولها أشبه بالعبث ولغو الكلام ! .

قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده عند تفسيره للاستثناء فى هذه الآية ما نصه : « ولما كان الوعد على وجه التأبيد واللزوم ، ربما يوهم أن قدرة الله لا تسعُ غيره، وأن ذلك خارج عن إرادته جلَّ شأنه، جاء بالاستثناء فى قوله « إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ »، فإنه إذا أراد أن ينسيك شيئاً لم يعجزه ذلك ، فالقصد هو نفى النسيان رأساً . وقالوا : إن ذلك

كما يقول الرجل لصاحبه «أنتَ سهيمى فيما أملكُ إلا ماشاء اللهُ» لا يقصد استثناء شىء، وهو من استعمال القلة فى معنى النفى. وعلى ذلك جاء الاستثناء فى قوله تعالى فى سورة هود «وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» أى غير مقطوع. فالاستثناء فى مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد بكرم من الله وسعة جود، لا بتحتيم عليه وإيجاب، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب، لم يمنعه من ذلك مانع.

وما ورد من أنه ﷺ نسى شيئاً كان يذكره، فذلك إن صح، فهو فى غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التى أمر بتبليغها. وكل ما يقال غير ذلك، فهو من مدخلات الملحدين، التى جازت على عقول المغفلين، فلوثوا بها ما طهره الله، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة ﷺ، ويؤمن بكتاب الله أن يتلق بشىء من ذلك» اهـ.

ذلك رأىٌ فى معنى الاستثناء، وثمة وجه آخر فيه، وهو أنه استثناء حقيقى، غير أن المراد به منسوخ التلاوة دون غيره، ويكون معنى الآية أن الله تعالى يقرىء نبيه فلا ينسيه إلا ماشاءه وهو مانسخت تلاوته لحكمة من الحكم التى بينها العلماء فى مبحث النسخ. والدليل على هذا قوله سبحانه فى سورة البقرة: «مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» قال العلامة أبو السعود فى تفسيره: وقرئ «مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِكْهَا» وقرئ «مَا نُنسِكَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنسَخْهَا» والمعنى أن كل آية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معاً، إلى بدل أو إلى غير بدل «نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا» أى نوع آخر هو خير للعباد بحسب الحال فى النوع والثواب من الذاهبة. وقرىء بقلب الهمزة ألفا (أو مثلها) أى فيما ذكر من النفع والثواب» اهـ ما أردنا نقله.

وأياما يكن معنى الاستثناء فى آية «سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ» فإنه لا يفهم منه أن الرسول صلى الله عليه وسلم نسى حرفاً واحداً مما أمرَ بتلاوته وتبليغه للخلق،

وإبقاء التشريع على قراءته وقرآنيته من غير نسخ . وذلك على أن المراد من النسيان المحو التامّ من الذاكرة . أما إن أريد به غيبة الذهن عنه فقد سبق القول فيه قريباً . ولا تحسبن أن دواعي سهو الرسول ونسيانه تنال من مقامه ، فإنها دواع شريفة على حدّ ما قيل :

« ياسائلي عن رسول الله كيف سها ؟ والسهوُ من كل قلبٍ غافلٍ لاَهِي
سَهَا عن كل شيء سرُّهُ ، فَسهَا عما سوى اللهِ ، فالتعظيم لله

(٣ و ٤) وأما احتجاجهم الثالث والرابع بأن الصحابة قد حذفوا من القرآن عند جمعه ما رأوا المصلحة فى حذفه ، ومنه آية المتعة وصيغة القنوت ، فهو احتجاجٌ باطلٌ قائم على إهمال النصوص الصحيحة المتضافرة على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن ، وكانوا أيقظ الخلق فى حراسة القرآن ، ولهذا لم يعتبروا من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر ، وردُّوا كل ما لم يثبت تواتره لأنه غير قطعى ويأبى عليهم دينهم وعقلهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعى . وقد سبق لك ما وضعوه من الدساتير المحكمة الرشيدة فى كتابة الصحف على عهد أبى بكر ، وكتابة المصاحف على عهد عثمان . فارجع إليها إن شئت لتعرف مدى إمعان هؤلاء المبطلين فى التجنِّى والضلال .

وإذا كان هؤلاء الطاعنون يريدون أن يلمزوا الصحابة ويعيبوهم بهذه الحيطة البالغة لكتاب الله ، حتى أسقطوا ما لم يتواتر ، وما لم يكن فى العرضة الأخيرة ، وما نسخت تلاوته وكان يقرؤه مَنْ لم يبلغه النسخ ، نقول: إذا كانوا يريدون أن يَلمِزوا الصحابة والقرآن بذلك ، فالأولى لهم أن يلمزوا أنفسهم وأن يُواروا سوأتهم . لأن المسلمين كانوا ولا يزالون أكرم على أنفسهم من أن يقولوا فى كتاب الله بغير علم، وأن ينسبوا إلى الله ما لم تقم عليه حجة قاطعة، وأن يسلكوا بالقرآن مسلك الكتب المحرفة والأناجيل المبدلة.

وإننا نذكِّر هؤلاء بتلك الكلمة التى يردِّدونها هم ، وهى : « من كان بيته من زجاج فلا يرجمنَّ الناس بالحجارة » !.

وكلمة الفصل فى هذا الموضوع : أن آية المتعة التى يزعمون ، وصيغة القنوت التى يحكون ، لم تثبت قرآنيتهما حتى يكونا فى عداد القرآن ، وإن ادعوا قرآنيتهما فعليهم البيان : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

قال صاحب الانتصار ما نصُّه : « إن كلام القنوت المروى أن أُبَىَّ بن كعب أثبته فى مصحفه ، لم تقم الحجَّة بأنه قرآن منزل ، بل هو ضربٌ من الدعاء ، وأنه لو كان قرآناً لنقل إلينا نقل القرآن ، وحصل العلم بصحته » ثم قال « ويمكن أن يكون منه كلام كان قرآناً منزلا ثم نُسخ وأبيح الدعاء به وخُلط بما ليس بقرآن . ولم يصحَّ ذلك عنه ، إنما روى عنه أنه أثبته فى مصحفه ، وقد أثبت فى مصحفه ماليس بقرآن من دعاء أو تأويل » اه . وهذا الدعاء هو القنوت الذى أخذ به السادة الحنفية. وبعضهم ذكر أن أبيًّا رضى الله عنه كتبه فى مصحفه ، وسماه سورة الخَلْع والحَفْد ، لورود مادَّة هاتين الكلمتين فيه ، وقد عرفت توجيه ذلك .

والخلاصة أن بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون القرآن لأنفسهم فى مصحف أو مصاحف خاصَّة بهم ربما كتبوا فيها ما ليس بقرآن، مما يكون تأويلا لبعض ماغمض عليهم من معانى القرآن، أو مما يكون دعاء يجرى مجرى أدعية القرآن فى أنه يصح الإتيان به فى الصلاة عند القنوت ، أو نحو ذلك ، وهم يعلمون أن ذلك كله ليس بقرآن . ولكن ندرة أدوات الكتابة ، وكونهم يكتبون القرآن لأنفسهم وحدهم دون غيرهم ، هوَّن عليهم ذلك ؛ لأنهم أمنوا على أنفسهم اللبس واشتباه القرآن بغيره . فظنَّ بعض قصار النظر أن كل ما كتبوه فيها إنما كتبوه على أنه قرآن، مع أن الحقيقة ليست كذلك إنما هى ما علمت . أضف إلى ذلك أن النبى ﷺ أتى عليه حينٌ من الدهر نهى

عن كتابة غير القرآن إذ يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه مسلم : « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ القُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ » وذلك كله مخافة اللَّبس والخلط والاشتباه في القرآن الكريم .

(٥) وأما احتجاجهم الخامس بأن كثيراً من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى تحفُّظ الصحابة ، وقد قُتل بعضهم وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه ، فلا يُسَلَّم لهم ؛ لأن نفس ما كان يتحفظه الشهداء من القراء ، كان يتحفظه كثير غيرهم أيضاً من الأحياء الذين لم يُسْتَشْهَدُوا ولم يموتوا ، بدليل قول عمر : « وَأَخْشَى أَنْ يَمُوتَ القُرَّاءُ من سائِرِ المواطن » ومعنى هذا أن القرّاء لم يموتوا كلهم . إنما المسألة مسألة خشيـــة وخوف . ومعلوم أن أبابكر كان من الحفّاظ ، وكذلك عمر وعثمان وعلى وزيد بن ثابت وغيرهم ، وهؤلاء عاشوا حتى جمع القرآن فى الصحف ، وعاش منهم من عاش حتى نسخ فى المصاحف وحينئذ فكتابة زيد ما كتبه ، هى كتابة لكل القرآن ، لم تفلت منه كلمة ولا حرف .

وكان القرآن كله مكتوباً كما سبق شرحه وبيانه ، حتى إن الصحابة فى جمعه كانوا يستوثقون له بأن يعتمدوا على الحفظ والكتابة معاً ، دون الاكتفاء بأحدهما وكانوا فيما يعتمدون عليه من الكتابة يتأكدون من أنه كتب بين يدى النبى ﷺ ويطلبون على ذلك شاهدين ، كما سلف إيضاحه .

(٦) وأما احتجاجهم السادس بأن ما كان مكتوباً من القرآن على العظام ونحوها كان غير منظم ولا مضبوط الخ ؛ فينقضه ما أثبتناه آنفا فى جمع القرآن ، من أن ترتيب آياته كان توقيفيًّا ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرشد كُتَّاب الوحى أن يضعوا آية كذا فى مكان كذا من سورة كذا . وكان يُقْرِئُها أصحابه كذلك ، ويحفظها الجميع ، ويكتبها من شاء منهم لنفسه على هذا النحو ، حتى صار ترتيب القرآن وضبط آياته معروفاً مستفيضاً بين الصحابة حفظاً وكتابة . ووجدوا ما كتب عند الرسول من القرآن ،

مرتَّب الآيات كذلك فى كل رقعة أو عظمة ، وإن كانت العظام والرقاع منتشرةً وكثيرةً مُبَعْثَرَةً . على أننا قرَّرنا غير مرة أن التعويل كان على الحفظ والتلقى قبل كل شىء ، ولم يكن التعويل على المكتوب وحده ، فلا جرم كان فى الحفظ والكتابة معاً ، ضمانٌ للنظام والترتيب ، والضبط والحصر .

وأما قولهم فى هذا الاحتجاج : « وقد ضاع بعضها » فيظهر أنهم استندوا فى ذلك إلى ماورد من أنه فقدت آية من آخر سورة براءة ، فلم يجدوها إلا عند خُزَيْمة بن ثابت فظنَّ هؤلاء أن هذا اعترافٌ منا بضياع شىء من مكتوب القرآن . وليس الأمر كما فهموا ، بل المعنى أن الصحابة لم يجدوا تلك الآية مكتوبة إلا عند خزيمة بخلاف غيرها من الآيات ، فقد كانت مكتوبة عند عدَّة من الصحابة ، ومع ذلك فقد كان الصحابة يقرءونها ويحفظونها ويعرفونها بدليل قولهم : فُقِدت آية . وإلا فما أدراهم أنها فقدت من الكتابة لو لم يحفظوها ؟

وأما قولهم فى هذا الاحتجاج أيضاً : إن ضياع ذلك البعض دعا الصحابة إلى دعوى النسخ وهو من غريب المزاعم ، فهو قولٌ أثيمٌ أرادوا به الطعن على النسخ وإنكاره ، وسيأتيك الكلام على النسخ وحكمته ودفع الشبه عنه فى مبحثٍ خاص إن شاء الله .

(٧) وأما احتجاجهم السابع بما نسبوه إلى الحجَّاج ، فهى نسبة كاذبة ، لا برهان لهم بها ، ولا دليل عليها . وهاهو التاريخ ، فليأتوا لنا منه بسلطان مبين على أن الحجاج جمع المصاحف ، فضلًا عن أنه نقص منها أو زاد فيها . ولو أنه فعل ذلك لنقل إلينا متواتراً ، لأن هذا مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره ! وكيف يفعل ذلك ، والأمة كلها تُقِرُّه ، وأئمة الدين الموجودون فى عهده كالحسن البصرى يسكتون ولا ينكرون ، ولا يدافعون ولا يستقتلون ؟ « إنْ هٰذا إلَّا اخْتِلَاقٌ » .

ثم إن الحجاج كان عاملًا من العمال على بعض أقطار الإسلام ، فأنى له أن يجمع المصاحف ويحرقها فيما عدا ولايته التي هو عامل عليها ؟

وإذا فرضنا أن الحجاج كان له من القوة والشوكة ما أسكت به كل الأمة في زمانه على هذا الخرق الواسع في الإسلام والقرآن ، فما الذي أسكت المسلمين بعد انقضاء عهد الحجاج ؟ وإذا كان الحجاج قد استطاع التحكم في المصاحف ، والتلاعب فيها بالزيادة والنقص ، فكيف استطاع أن يتحكم في قلوب الحفاظ وهم آلاف مؤلفة في ذلك العهد ، حتى يمحو منها ما شاء ويثبت ما أراد ؟ ! ..

هذه دعاوى ساقطة ، تحمل أدلة سقوطها في ألفاظها ، وتدلّ على جرأة القوم وإغراقهم في الجهل والضلال . « وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » . نسأل الله السلامة بمنه وكرمه . آمين .

الشبهة الثانية

يقولون : إن القرآن كما حصل فيه نقص عند الجمع ، حصلت فيه زيادة . والدليل على ذلك إنكار ابن مسعود أن المعوذتين من القرآن ، وأن فى القرآن ما هو من كلام أبى بكر وكلام عمر .

وننقض هذه الشبهة (أولاً) : بأن ابن مسعود لم يصح عنه هذا النقل الذى تمسكتم به من إنكاره كون المعوذتين من القرآن . والمسألة مذكورة فى كثير من كتب التفسير وعلوم القرآن مع تمحيصها والجواب عليها .

وخلاصة ما قالوه : أن المسلمين أجمعوا على وجوب تواتر القرآن . ويشكل على هذا ما نقل من إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين . بل روى أنه حكّ من مصحفه المعوذتين ، زعماً منه أنهما ليستا من القرآن .

وقد أجابوا عن ذلك بمنع صحة النقل ، قال النووى فى شرح المهذّب ما نصه : « أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد شيئاً منها كفر . وما نقل عن ابن مسعود باطلٌ ليس بصحيح » اهـ وقال ابن حزم فى كتاب القدح المعلى : (هذا كذبٌ على ابن مسعود وموضوع) . بل صحّ عن ابن مسعود نفسه قراءةُ عاصم ، وفيها المعوذتان والفاتحة . وفى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر « أنه صلى الله عليه وسلم قرأهما فى الصلاةِ » . زاد ابن حبان من وجه آخر عن عقبة بن عامر أيضاً : « فإنِ استطعتَ ألاّ تفوتكَ قراءتهماَ فى صلاةٍ فافعلْ » ، وأخرج أحمد من طريق أبى العلاء بن الشِّخِّير عن رجل من الصحابة أن النبى ﷺ أقرأنا المعوِّذتين وقال له : إذا أنتَ صليتَ فاقرأْ بهما . وإسناده صحيح .

(ثانياً) يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته ،

كان قبل علمه بذلك ، فلما تبين له قرآنيتهما بعد ، تمّ التواتر ، وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان فى مقدّمة من آمن بأنهما من القرآن .

قال بعضهم: «يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبى صلى الله عليه وسلم ولم تتواترا عنده ، فتوقف فى أمرهما . وإنما لم ينكر ذلك عليه ، لأنه كان بصدد البحث والنظر ، والواجب عليه التثبت فى هذا الأمر »اهـ.ولعل هذا الجواب هو الذى تستريح إليه النفس ، لأن قراءة عاصم عن ابن مسعود ثبت فيها المعوذتان والفاتحة وهى صحيحة ، ونقلها عن ابن مسعود صحيح ، وكذلك إنكار ابن مسعود المعوذتين جاء من طريق صححه ابن حجر . إذاً فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود ، جمعاً بين الروايتين .

وما يقال فى نقل إنكاره قرآنية المعوذتين يقال فى نقل إنكاره قرآنية الفاتحة بل نقل إنكاره قرآنية الفاتحة ، أدخل فى البطلان ، وأعرق فى الضلال ، باعتبار أن الفاتحة أم القرآن وأنها السبع المثانى التى تُثَنَّى وتكرر فى كل ركعة من ركعات الصلاة ، على لسان كل مسلم ومسلمة . فحاش لابن مسعود أن يكون قد خفى عليه قرآنيتها ، فضلًا عن إنكاره قرآنيتها . وقصارى ما نقل عنه أنه لم تكتبها فى مصحفه ، وهذا لا يدلّ على الإنكار . قال ابن قتيبه مانصه : « وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه ، فليس لظنه أنها ليست من القرآن ـ معاذ الله ـ ،ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافةَ الشكّ والنسيان ،والزيادة والنقصان »اهـ ومعنى هذا أن عدم كتابة ابن مسعود للفاتحة فى مصحفه كان سببه وضوح أنها من القرآن ،وعدم الخوف عليها من الشك والنسيان والزيادة والنقصان .

(ثالثاً) أننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر المعوذتين وأنكر الفاتحة بل أنكر القرآن كله ، فإن إنكاره هذا لا يضرُّنا فى شىء ، لأن هذا الإنكار لا ينقض تواتر القرآن ، ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر . ولم يقل أحد فى الدنيا :

إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبنى عليه ألا يخالف فيه مخالف . وإلا لأمكن هدم كل تواتر ، وإبطال كلَ علم قام عليه ، بمجرد أن يخالف فيه مخالف، ولو لم يكن فى العير ولا فى النفير . قال ابن قتيبة فى مشكل القرآن : ـ « ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن . لأنه رأى النبى ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه ، ولا نقول إنه أصاب فى ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار » اه .

(رابعاً) أن ما زعموه من أن آية « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ » الخ من كلام أبى بكر فهو زعمٌ باطل، لا يستند إلى دليل ولا شبه دليل. وقد جاء فى الروايات الصحيحة أنها نزلت فى واقعة أحد ، لعتاب أصحاب رسول الله ﷺ على ما صدر منهم ، وأنها ليست من كلام أبى بكر. وذلك أنه لما أصيب المسلمون فى غزوة أحد بما أصيبوا به ، وكسرت رباعيةُ(١) النبي صلى الله عليه وسلم ، وشجّ(٢) وجهه الشريف ، وجحشت(٣) ركبته، وشاع بين المقاتلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل. هنالك قال بعض المسلمين : ليت لنا رسولاً إلى عبدالله بن أبيّ فيأخذ لنا أماناً من أبى سفيان . وبعضهم جلسوا وألقوا بأيديهم . وقال أناس من المنافقين : إن كان محمد قد قتل ، فالحقوا بدينكم الأول فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك : إن كان محمد قتل، فإن رب محمد لم يقتل . وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه . ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما قال هؤلاء، (يعنى المسلمين) وأبرأ إليك مما قال هؤلاء (يعنى المنافقين) ، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل رضى الله عنه .

وروى أن أول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك ، فقد ورد أنه قال :

---

(١) الرباعية : هى السن التى بين الناب والثنية . (٢) شجَّ الوجه : جرحه .

(٣) جحشُ الركبة : خدشها .

عرفت عينيه تحت المغفر تزْهِرَان ، فناديت بأعلى صوتى : يامعشر المسلمين : أبشروا ! هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه رضى الله عنهم يُنافحون عنه . ثم لام النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه على الفرار. فقالوا : يارسول الله فديناك بآبائنا وأبنائنا . أتانا الخبر أنك قُتلت، فرُعِبَتْ قلوبنا ، فولَّينا مدبرين، فأنزل الله تعالى هذه الآية : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ. أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ ؟ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئًا » الخ من سورة آل عمران .

والظاهر أن هؤلاء الطاعنين بزيادة هذه الآية وأنها من كلام أبى بكر ، يعتمدون فيما طعنوا على ما كان من عمر يوم وفاة رسول الله ﷺ، ومن ردِّ أبى بكر عليه بهذه الآية ، فزعموا أنها من كلام أبى بكر ، وما هى من كلام أبى بكر . إنما هى من كلام رب العزة ، أنزلها قبل وفاة الرسول ﷺ ببضع سنين، والمسلمون جميعاً ـ ومنهم أبو بكر وعمر ـ يحفظونها ويعرفونها . غير أن منهم من ذهل عنها كعمر ، لهول الحادث وشدة الصدمة ، وتصدُّع قلبه بموت رسول الرحمة وهادى الأمة ﷺ .

وكان من آثار ذلك أن عمر رضى الله عنه غفل عن هذه الآية يوم تُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام يومئذ وقال : « إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات . ولكنه ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران. فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: مات. والله ليرجعنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى فليُقطِّعنَّ أيدىَ رجالٍ وأرجلهم، زعموا أن رسوله الله ﷺ مات .

هنالكَ نهض أبو بكر ينقذ الموقف فقال : على رِسْلك يا عمر ، أنْصِتْ ، فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أيها الناس : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان

يعبد الله فإن الله حى لا يموت . ثم تلا هذه الآية : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ » إلى آخرها . قال الراوى : فوالله ، لكأنَّ الناسَ لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، فأخذها الناس من أبى بكر . وقال عمر : ماهو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقِرْتُ(١) حتى وقعت على الأرض ، ما تحملنى رِجْلَاىَ وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات » اهـ .

وهذه الآية ـ كما ترى ـ لا يشم منها رائحة أنها من كلام أبى بكر ، بلى هى تحمل فى طيِّها أدلة كونها من كلام الله، وأن الصحابة يعلمون أنها من كلام الله ، نزلت قبل أن ينزل بهم هذا الخطب الفادح ببضع سنين . ولكن ما الحيلة فيمن أعماهم الهوى والتعصُّب ؟ « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ » .

(خامساً) : أن ما ادَّعوه من أن آية « وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » من كلام عمر، مردودٌ أيضاً بمثل ما رددنا به زعمهم السابق فى آية «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ» الخ . بل زعمهم هذا أظهر فى البطلان،لأن الثابت عن عمر أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم « لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى » فنزلت«وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» فى سورة البقرة . وهناك فرق بين كلمة عمر فى تمنِّيه الذى هو سبب النزول ، و بين كلمة القرآن النازلة بذلك السبب ، فأنت ترى أن الآية جاء فيها الفعل بصيغة الأمر ولم يقرن بلفظ « لو » . أما تمنِّى عمر فجاء الفعل فيه بصيغة الماضى وقرن بلفظ « لو » . وتحقيق القرآن أمنيَّةً أو أمنياتٍ لعمر ، لا يدل على أن ما نزل تحقيقاً لهذه التمنيات يعتبر من كلام عمر . بل البعد بينهما شاسع ، والبون بعيد .

---

(١) قال فى المختار : « والعَقَر بفتحتين : أن تُسلِمَ الرجلَ قوائمُهُ فلا يستطيع أن يقاتل من الفرق والدهَش . وبابه طرب . ومنه قول عمر رضى الله عنه : فَعَقِرْتُ حتى خَرَرْتُ إلى الأرض » اهـ .

الشبهة الثالثة

يزعم بعض غُلاة الشيعة أن عثمان ومن قبله أبو بكر وعمر أيضاً حرّفوا القرآن، وأسقطوا كثيراً من آياته وسوره. ورووا عن هشام بن سالم من أبي عبد الله: أن القرآن الذى جاء به جبريل إلى محمد ﷺ كان سبعة عشر ألف آية[1]. وروى محمد بن نصر عنه أنه قال: كان فى سورة « لم يكن » اسم سبعين رجلًا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم. وروى محمد ابن جهم الهلالى وغيره عن أبى عبد الله أن لفظ « أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ » فى سورة النحل ليس كلام الله، بل هو محرف عن موضعه، وحقيقة المنزل «أئمة هى أزكى من أئمتكم». ومنهم من قال: إن للقرآن كانت فيه سورة تسمى سورة الولاية وأنها أسقطت بتمامها، وأن أكثر سورة الأحزاب سقط؛ إذ أنها كانت مثل سورة الأنعام، فأسقطوا منها فضائل أهل البيت. وكذلك ادعوا أن الصحابة أسقطوا لفظ « وَيْلَكَ » من قبل « لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا » وأسقطوا لفظ « عَنْ وِلَايَةِ عَلِيٍّ » من بعد « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْئُولُونَ » وأسقطوا لفظ « بعليِّ بن أبى طالب» من بعد «وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ» وأسقطوا لفظ « آل مُحَمَّدٍ » من بعد « وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا » إلى غير ذلك.

فالقرآن الذى بأيدى المسلمين اليوم شرقاً وغرباً، أشدُّ تحريفاً عند هؤلاء الشيعيين من التوراة والإنجيل، وأضعف تأليفاً منهما وأجمع للأباطيل! « قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟ ».

ونَنقض هذه الشبهة بما يأتى: ـ

(أولًا) أنها اتهامات مجردة عن السند والدليل، وكانت لا تستحق الذكر لولا

(١) مع العلم بأن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ومئتا آية وكسور كما يأتى.

أن ردَّدها بعض الملاحدة ، وربما يخدع بها بعض المفتونين . ويكفى فى بطلانها أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يقيموا عليها برهاناً ولا شبه برهان .

« والدعاوَى مالم يُقيموا عليها بَيِّنَاتٍ ، أبناؤها أَدْعِياءُ »

ولكن هكذا شاءت حماقتهم وسفاهتهم ! « وَمَنْ يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » .

(ثانياً) أن بعض علماء الشيعة أنفسهم تبرأ من هذا السخف ، ولم يُطق أن يكون منسوباً إليهم وهو منهم ، فعزاه إلى بعض من الشيعة جمح بهم التفكير وغاب عنهم الصواب قال الطبرسى[1] فى مجمع البيان ما نصه: « أما الزيادة فيه ـ أى القرآن ـ فمجمع على بطلانها. وأما النقصان فقد روى عن قوم من أصحابنا وقوم من الحشوية. والصحيح خلافه. وهو الذى نصره المرتضى ، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء » اهـ .

وقال الطبرسى أيضاً فى مجمع البيان ما نصه: « أما الزيادة فى القرآن فمجمع على بطلانها، وأما النقصان فهو أشد استحالة . ثم قال : إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة ، فإن العناية اشتدَّت ، والدواعى توفَّرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه شىء فيما ذكرناه ، لأن القرآن مفخرة النبوة ، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا فى حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كل شىء اختلف فيه من إعرابه وقراءاته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون مغيَّراً أو منقوصاً ، مع العناية الصادقة والضبط الشديد ؟ » اهـ .

(ثالثاً) أن التواتر قد قام ، والإجماع قد انعقد ، على أن الموجود بين دفَّتى المصحف كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تغيير ولا تبديل . والتواتر طريق

(١) الطبرسى من رؤساء الشيعة ، وكتابه مجمع البيان هو المرجع عندهم .

واضحة من طرق العلم . والإجماع سبيل قويم من سبل الحق . « فَمَاذَا بعدَ الحقِّ إِلَّا الضلَالُ » .

(رابعاً) أن الإمام عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ـ وهو الذى يزعمون أنهم يناصرونه ويتشيعون له بهذه الهذيانات ـ صحّ النقل عنه بتحبيذ جمع القرآن ، على عهد أبى بكر ثم عهد عثمان . ولعلك لم تنس أنه قال فى جمع أبى بكر ما نصه : « أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » . وكذلك قال فى جمع عثمان ما نصُّه : « يا معشرَ الناسِ اتقُّوا اللهَ ، وإياكم والغلوَّ فى عثمان ، وقولَكم : حَرَّاقُ مصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحابَ رسول الله صلىّ الله عليه وسلم » وقوله : « لو كنتُ الوالىَ وقتَ عثمانَ لفعلتُ فى المصاحفِ مثلَ الذى فعل عثمانُ » وبهذا قطع الإمام ألسنة أولئك المفترين ، وردَّ كيدهم فى نحورهم مخذولين . فأين يذهبون؟ « إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتبَعُوا وَرَأَوُا ٱلعَـذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ » ؟ .

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ » .

(خامساً): أن الخلافة قد انتهت إلى علىّ كرم الله وجهه بعد أبى بكر وعمر وعثمان، فماذا منعه أن يجهر وقتئذ بالحق فى القرآن، وأن يصحح للناس ما أخطأ فيه أسلافه على هذا الزعم والبهتان ؟ مع أنه الإمام المعصوم فى عقيدة أولئك المبطلين ، ومع أنه كان من سادات حفظة القرآن ، ومن أشجع خلق الله فى نصرة الدين والإسلام . ولقد صار الأمر بعده إلى ابنه الحسن رضى الله عنه ، فماذا منعه الآخر من انتهاز هذه الفرصة كى يظهر حقيقة كتاب الله للأمة ! . هذه مزاعم لا يقولها إلا مجنون ، ولا يصدِّق بها إلا مأفون ! !

يحقق هنا

الشبهة الرابعة

يقولون : ورد أن عبد الله بن مسعود قال : « يا معشر المسلمين . أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ، ويتولّاه رجلٌ ـ واللهِ ـ لقد أسلمتُ وإنه لفي صُلبِ رجلٍ كافر ؟ » اه .

قالوا : وهو يعني بهذا الرجل زيدَ بن ثابت ، ويريد بذلك الكلام الطعن على جمع القرآن . وهذا يدلُّ بالتالي على أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس موضع ثقه ، ولم يبلغ حدَّ التواتر .

وننقض شبهتهم هذه . (أولًا) بأن كلام ابن مسعود هذا ـ إذا صحَّ ـ لا يدل على الطعن في جمع القرآن ، إنما يدل على أنه كان يرى في نفسه أنه هو الأولى أن يسند إليه هذا الجمع ، لأنه كان يثق بنفسه أكثر من ثقته بزيد في هذا الباب . وذلك لا ينافي أنه كان يرى في زيد أهليَّةً وكفاية للنهوض بما أُسند إليه ، وإن كان هو في نظر نفسه أكفأ وأجدر . غير أن المسألة تقديرية ولاريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان لزيد أصدقُ من تقدير ابن مسعود له . كيف وقد عرفت فيما سبق مجموعة المؤهلات والمزايا التي توافرت فيه ، حتى جعلته الجدير بتنفيذ هذه الغاية السامية . أضف إلى ذلك أن عثمان ضمَّ إليه ثلاثة ، ثم كان هو وجمهور الصحابة مُشْرفين عليهم مراقبين لهم ، وناهيك في عثمان أنه كان من حُفاظ ومعلمي القرآن !

وخلاصة هذا الجواب أن اعتراض ابن مسعود ـ على فرض صحَّته ـ كان منصبًّا على طريقة تأليف لجنة الجمع ، لا على صحة نفس الجمع . مع أن كلمة ابن مسعود السالفة لا تدل على أكثر من أنه كان يَكْبُرُ زيداً بزمن طويل ، إذ كان عبد الله مسلماً وزيدٌ لايزال ضميراً مستتراً في صُلب أبيه . وليس هذا بمطعن في زيد ، فكم ترك الأول للآخر . ولو كان الأمر بالسن لاختل كثيرٌ من نظام الكون . ثم إن كلمة

ابن مسعود ربما يفهم منها الطعن فى زيد من ناحية أن أباه كان كافراً ، ولكن هذا ليس بطعن، فكثير من أكابر الصحابة كانوا فى مبدأ أمرهم كفاراً، وخرجوا من أصلاب آباء كافرين. والله تعالى يقول: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» ويقول: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » .

(ثانياً) : أننا إذا سلمنا صحة ما نقل عن ابن مسعود، وسلمنا أنه أراد الطعن فى صحة جمع القرآن ، لا نسلم أنه دام على هذا الطعن والإنكار ، بدليل ما صح عنه أنه رجع إلى ما فى مصحف عثمان ، وحرق مصحفه فى آخرة الأمر ، حين تبين له أن هذا هو الحق ، وبدليل ما صحّ عنه من قراءة عاصم عن زُرعة ، وقد تقدم .

(ثالثاً) أن كلام ابن مسعود هذا ـ على تسليم صحته وأنه أراد به الطعن فى صحة الجمع ، وأنه دام عليه ولم يرجع عنه ـ لا نسلم أنه يدل على إبطال تواتر القرآن فإن التواتر كما أسلفنا يكفى فى القطع بصحة مرويه أن ينقل عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب بشروطه ، وليس من شروطه ألا يخالف فيه مخالف حتى يقدح فى تواتر القرآن أن يخالف فيه ابن مسعود أو غير ابن مسعود، ما دام جمٌّ غفير من الصحابة قد أقروا جمع القرآن على هذا النحو فى عهد أبى بكر مرةً ، وفى عهد عثمان مرةً أخرى .

الشبهة الخامسة

يقولون : كيف يكون القرآن متواتراً . مع ما يُروى عن زيد بن ثابت أنه قال فى الجمع على عهد أبى بكر ما نصه : « فقمت فتتبعتُ القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبى خزيمةَ الأنصارى لم أجدهما مع غيره ، وهما « لقدْ جاءَكمْ رسولٌ » إلى آخر السورة .

ثم كيف يكون القرآن متواتراً ، مع ما يروى أيضاً عن زيد بن ثابت أنه قال فى الجمع على عهد عثمان ما نصه : « فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب كنتُ أسمعُ رسولَ الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحدٍ إلّا مع خزيمةَ بن ثابتٍ الأنصاريِّ الذى جعل رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم شهادتَه بشهادةِ رجلين : « مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللهَ عَلَيْهِ » ؟

والجواب على هذه الشبهة (أولا) أن كلام زيد بن ثابت هذا ، لا يبطل التواتر . وبيان ذلك أن الآيتين ختام سورة التوبة ، لم تثبت قرآنيتهما بقول أبى خزيمة وحده . بل ثبتت بأخبار كثرةٍ غامرةٍ من الصحابة عن حفظهم فى صدورهم ، وإن لم يكونوا كتبوه فى أوراقهم . ومعنى قول زيد : « حتى وجدتُ من سورة التوبة آيتين لم أجدهما عند غيره » أنه لم يجد الآيتين اللتين هما ختام سورة التوبة مكتوبتين عند أحد إلا عند أبى خزيمة ، فالذى انفرد به أبو خزيمة هو كتابتهما لا حفظهما ، وليس الكتابة شرطا فى التواتر ، بل المشروط فيه أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ولو لم يكتبه واحد منهم ، فكتابة أبى خزيمة الأنصارى كانت توثقاً واحتياطاً فوق ما يطلبه التواتر ويقتضيه ، فكيف نقدح فى التواتر بانفراده بها ؟!

(ثانياً) يقال مثل ذلك فيما روى عن زيد فى آية سورة الأحزاب : « مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللهَ عَلَيْهِ » فإن معناه أن زيداً لم يجدها مكتوبة عند أحد إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصارى . ويدلُّ على أن هذا هو المعنى الذى أراده زيد بعبارته تلك ، قولُ زيد نفسه فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب الخ ، فإن تعبيره بلفظ « فقدتُ » يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية ، وأنها كانت معروفة له ، غير أنه فقد مكتوبها ، فلم يجده إلا مع خزيمة ، وإلا فمن الذى أنبأ زيداً أنه فقد آية ؟

(ثالثاً) أن كلام زيد فيما مضى من ختام التوبة وآية الأحزاب ، لا يدل على

عدم تواترهما ، حتى على فرض أنه يريد انفراد أبى خزيمة وخزيمة بذكرهما من حفظهما. غاية ما يدل عليه كلامه ، أنهما انفردا بذكرهما ابتداء ، ثم تذكر الصحابة ما ذكراه ، وكان هؤلاء الصحابة جمعاً يؤمن تواطؤهم على الكذب، فدونت تلك الآيات فى الصحف والمصحف ، بعد قيام هذا التواتر فيها .

الشبهة السادسة

يقولون : كانت الآيات تكتب على الحجارة وسعف النخل والعظام خوفاً عليها من الضياع ، وبقى جانب كبير منها محفوظاً فى صدور الرجال. وقد نشأ عن ذلك عدة مشاكل يعتبرها الباحثون فيه كافيةً لإثبات كون القرآن الحالى لايحتوى جميع الآيات التى نطق بها محمد ، وبعضها يختلف فى القراءة واللفظ والمعنى . ويقولون بعبارة أخرى إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالى حاوياً لجميع ماأنزل، إذ من المؤكد أنه ذهب منه جانب ليس بقليل ، وأنسى منه جانب آخر ، قال ابن عمر : « لايقولنَّ أحدُكم قدْ أخذتُ القرآن كله . قد ذهب منه كثيرٌ . ولكن ليقل: قد أخذتُ ماظهرَ منهُ ». فهذا يثبت أن القرآن الحالى لا يتضمن جميع ما كان مسطوراً فى اللوح المحفوظ . ولا هو طبق مانطقت به شفتا محمد ، سيما أن فى آيات عديدة منه اختلافات مدهشة ، ولا يعلم نصها الصحيحَ أحدٌ » اهـ .

وننقض هذه الشبهة بما يأتى :

(أولا) أن كتابة القرآن على الحجارة والسعف والعظام ، وبقاء جانب كبير منه محفوظاً فى صدور الرجال ، لا يلزم منه مشكلة واحدة فضلاً عن عدّة مشاكل ، إنما هو وهمٌ من الأوهام تخيلوه نخالوه ، وبدليل أنهم لم يذكروا سندَهم فيما ذهبوا إليه من هذا الشطط .

(ثانياً) أن الحجارة وسعف النخل والعظام التي كتب عليها بعض آيات القرآن لم تكن بحيث يمكن أن يتخيل أولئك الطاعنون أو يخيلوا إلى الناس أنها لا تصلح للكتابة عليها، بل كانت العرب لبداوتها ولبعدها عن وسائل الحضارة والعمران، تصطفى من أنواع الحجارة الموفورة عندها نوعاً رقيقاً يكون كالصحيفة يصلح للكتابة والبقاء، أشبه بما نراه اليوم من الكتابة الجميلة المنقوشة على صفحات مصنوعة مما نسميه (الجبس). وكذلك سعف النخل يكشطون الخوص عنه، ويكتبون في الجزء العريض منه بعد أن يصقلوه ويهذبوه فيكون أشبه بالصحيفة . وقل مثل هذا في العظام، بدليل أن الروايات الواردة في ذلك نصت على نوع خاص منه وهو عظام الأكتاف، وذلك لأنها عريضة رقيقة ومصقولة صالحة للكتابة عليها بسهولة .

(ثالثاً) : أن استنتاجهم من هذا كون القرآن الحالى لا يحتوى جميع الآيات التي نطق بها محمد ، استنتاجٌ معكوس ، وفهمٌ منكوس ، لأن كتابة القرآن وحفظه في آنٍ واحد في صدور آلافٍ مؤلفة من الخلق، أدعى إلى بقاء ذلك القرآن ، وأدلُّ على أنه لم تفلت منه كلمة ولا حرف . كيف وأحد الأمرين من الكتابة والحفظ كافٍ في هذه الثقة؟ فما بالك إذا كان القرآن كله مكتوباً بخطوط أشخاص كثيرين، ومحفوظاً في صدور جماعات كثيرين ! .

(رابعاً) قولهم : « وبعضها يختلف في القراءة واللفظ والمعنى » إن أرادوا به الطعن في تعدُّد القراءات واختلاف وجوه الأداء ، فقد سبق في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف ما يكفيك في الرد عليهم ، وسيأتيك في مبحث القراءات ما يزيدك تنوُّراً في هذا الموضوع ، وإن أرادوا به شيئاً آخر فعليهم البيان . وحسبك أن تعرف أن اختلاف حروف القرآن أمر تقتضيه الحكمة ، ويوجبه عموم الدعوة الإسلامية . خصوصاً لمن شافههم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهم على اختلاف قبائلهم ، وتنوُّع

لهجاتهم ، وتباين وجوه نطقهم ، عربٌ تؤلف بينهم العروبة الواحدة ، ويجمعهم اللسان العربى العام . فأىُّ عيب على القرآن إذا اختلفت حروف أدائه ، وكيفيات النطق بكلماته، ليسع القبائل العربية جميعاً ، وليتسنَّى لها تلاوة ألفاظه ، وتفهُّم معانيه؟ ولئلا يقول أحد منها : لو جاء القرآن بلغتنا لكان لنا معه شأن ، ولأتينا بمثله، وعارضنا بلاغته ! « وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

(خامساً) : قولهم إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالى حاوياً لجميع ما أُنزل إلخ، كلامٌ مجردٌ من السند والحجة، لا يستحق الرد، فإن استندوا فيه إلى ما سبق فقد استندوا إلى أوهن من بيت العنكبوت ، وقد عرفت وجوه الوهن التى فيه . وإن استندوا إلى ما ذكروه بعدما نسبوه لابن عمر، فقد زادوا الطينَ بلَّة؛ لأن هذه النسبة إلى ابن عمر نسبة خاطئة كاذبة ، وعلى فرض صحتها فهى موقوفة وليست بمرفوعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى فرض رفعها فهى معارضة للأدلة القاطعة المتوافرة فى تواتر القرآن وسلامته من التغيير والزيادة والنقصان، ومعارض القاطع ساقط مهما كانت قيمة سنده فى خبر الواحد .

(سادساً) : أن نهايتهم التى ختموا بها هذه الشبهة أقبح من بدايتهم ، لأنهم رتَّبوها على تلك الأكاذيب والمهاترات، ثم زادوا فيها اتهاماً جديداً مجرداً من السند والحجة أيضاً، وهو أن فى آيات عديدة من القرآن اختلافات مدهشة ، ولا يعلم نصها الصحيح أحد، وهكذا خرجوا من اتهام إلى اتهام، واحتجوا بكذب على كذب، وهانت عليهم كرامتهم وعقولهم ، فقالوا ما شاء لهم الهوى والتعصب إلى هذا الحد وأنت خبير بأن القرآن الحالى وصل إلينا محفوظاً من كل عبث كما نطق به الرسول ﷺ وكما خطَّه الله تعالى بقلمه فى لوحه. « وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

أما زعمهم أن فيه اختلافات مدهشة ، فقد علمت فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف مدى اختلاف وجوه القراءات وحكمته ، وأنه لا يؤدى إلى تخاذل وتناقض حتى يكون مدهشاً .

وأما نصوص القرآن الصحيحة فقد علمها وحفظها جمعٌ يؤمن تواطؤهم على الكذب فى كل طبقة من طبقات الأمة . من لدن رسول الله ﷺ إلى اليوم .

فادعاء هؤلاء الجهلة الدجالين أنه لا يعلم نصوص القرآن الصحيحة أحد ، ادّعاء مفضوح ، وكذب مكشوف .

قال صاحب مُسَلَّم الثبوت ـ وهو من أشهر الكتب فى أصول الفقه الإسلامى ـ : « ما نُقِلَ آحاداً فليس بقرآن قطعاً ، ولمْ يعرف فى هذا خلافٌ لواحد من أهل المذاهب. والدليل على ذلك أن القرآن مما تتوافر الدواعى على نقله لتضمُّنه التحدِّى ، ولأنه أصل الأحكام باعتبار المعنى واللفظ جميعاً، ولذلك عُلم جهد الصحابة فى حفظه بالتواتر القاطع ، وكل ماتتوافر الدواعى على نقله ينقل متواتراً عادة، فوجوده ملزوم التواتر عند الكل عادة ، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر انتفى الملزوم قطعاً . والمنقول آحاداً ليس متواتراً فليس قرآناً » اهـ بتصرف قليل .

خَطٌّ منيعٌ من خطوط الدِّفاع عن الكتاب والسنة
أو الدواعى والعوامل التى توافرت فى الصحابة حتى استظهروا القرآن والحديث النبوىّ وتثبَّتوا فيهما

إن الناظر فى الشبهات السالفة وأمثالها، يبدو له فى وضوح أن القوم يحاولون الطعن فى القرآن عن طريق النيل من الصحابة ، فطوراً يقولون : إن الصحابة حين جمع القرآن لم يكونوا يستظهرونه ، وإن الذين استظهروه منهم ماتوا قبل جمعه واستشهدوا، وطورا يقولون : إن الصحابة لم يتثبَّتوا فى جمع القرآن، بل حطبوا فيه بليل ،وزادوا فيه ونقصوا منه ماشاءوا .

وقد كثرت هجمات أعداء الإسلام من هذه الناحية كثرةً فاحشة، بحيث إذا استقصينا شبهاتهم كلها ضاق بنا نطاق هذا التأليف، وخرجنا جملةً من الجو العلمى الهادئ اللذيذ، إلى ميدان صاخب بالقيل والقال، والصيال والجدال، والدفاع والنضال.

وكذلك كثرت هجمات أعداء الإسلام على السنة النبوية من ناحية الصحابة أيضا، فتارةً يستكثرون عليهم أن يكونوا قد حفظوا الحديث الشريف وهو موسوعات كبيرة، وتارةً يتهمونهم بالخيانة والتزيُّد وعدم التثبُّت والتحرِّى، ويبنون على ذلك مفتريات ما أنزل الله بها من سلطان.

يريدون بهذه الاتهامات الجريئة للصحابة، أن يزعزعوا ثقة الناس بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ، حتى يفتنوا المسلمين عن دينهم، وحتى يقيموا الحواجز والعواثير فى طريق غير المسلمين، مخافة أن يجتذبهم الإسلام إليه بمحاسنه الأخَّاذة، وقوَّته المحولة، وتعاليمه الوضَّاءة!.

وبرغم أن شبهات القوم كلها متشابهة، وطرق دفعها هى الأخرى متشابهة، فإن واجب الحيطة والحذر يقتضينا بعد ما تقدَّم أن نقيم خطًّا منيعاً من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة، وأن نؤلِّف هذا الخط من جبهتين قويتين، الجبهة الأولى تُطاول السماء بتجْلية الدواعى والعوامل التى توافرت فى أصحاب رسول الله ﷺ حتى جعلت منهم كثرةً غامرة يحفظون القرآن والحديث، وينقلونهما نقلًا متواتراً مستفيضا. والجبهة الثانية تُفاخر الجوزاء بنظم الدواعى والعوامل التى توافرت فيهم رضوان الله عليهم، حتى جعلتهم يتثبَّتون أبلغ تثبُّت وأدقَّه فى القرآن وجمع القرآن وكل ما يتصل بالقرآن، وفى الحديث الشريف وكل ما يتصل بالحديث الشريف.

وإنى أستمنح الله فتوحاً وتوفيقاً فى هذه المحاولة الجليلة « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ».

١ — الجبهة الأولى

أو الدواعي والعوامل فى حفظ الصحابة للكتاب والسنة ونقلهم لهما

ولنبدأ بشرح العوامل والدواعى التى يسَّرت للصحابة حفظ الكتاب والسنة ونقلهما، حتى لا يستبعد ذلك عليهم أحد، ولا يطعن فى الكتاب والسنة عن هذا الطريق أحد:

العامل الأول

أنهم كانوا أُميين لا يعرفون القراءة؛ ولا يحذِقون الخط والكتابة، اللهم إلا نزْرٌ يسيرٌ لا يُصاغ منهم حكم على المجموع. وترجع هذه الأمية السائدة فيهم إلى غلبة البداوة عليهم، وبُعْدِهم عن أسباب المدنية والحضارة، وعدم اتصالهم اتصالًا علميًّا وثيقًا بالأمتين المتحضِّرتين فى العالم لذلك الحين: أمة الفرس فى الشرق، وأمة الروم فى الغرب. ومعلوم أن الكتابة والقراءة وامِّحاء الأمية فى أية أمة، رهينٌ بخروجها من عهد السذاجة والبساطة، إلى عهد المدنية والحضارة.

ثم إن هذه الأمية تجعل المرء منهم لا يعول إلا على حافظته وذاكرته فيما يهمه حفظه وذكره. ومن هنا كان تعويل الصحابة على حوافظهم يقدحونها فى الإحاطة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأن الحفظ هو السبيل الوحيدة أو الشبيهة بالوحيدة إلى إحاطتهم بهما.

ولو كانت الكتابة شائعة فيهم، لاعتمدوا على النقش بين السطور، بدلا من الحفظ فى الصدور.

نعم . عمل الرسول على كتابة القرآن ، وكان له كُتّابٌ يكتبون الوحى كما سبق ، وكان بعض الصحابة يكتبون القرآن لأنفسهم كذلك ، غير أن هؤلاء وهؤلاء كانوا فئةً قليلة بجانب الجمِّ الغفير من سواد الأُمة الكثير . ولعلك لم تنس أن كتابة القرآن في عهد الرسول كان الغرض منها زيادة التوثُّق والاحتياط للقرآن الكريم ، بتقييده وتسجيله بالنقش ، فوق تقييده وتسجيله بالحفظ .

أما السنة النبوية فقد نهى النبي ﷺ أصحابه عن كتابتها أولَ الأمر مخافة اللبس بالقرآن، إذ قال عليه الصلاة والسلام: « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ القُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ ، وَحَدِّثُوا عَنِّي فَلَا حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى .

نعم . خشى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختلط القرآن بالسنّة ، إذا هم كتبوا السنة كما كانوا يكتبون القرآن ، أو أن تتوزّع جهودهم وهى لا تحتمل أن يكتبوا جميع السنة وجميع القرآن فقَصَرهُم على الأهم أولًا وهو القرآن . خصوصاً إذا لاحظنا أن أدوات الكتابة كانت نادرةً لديهم إلى حدٍّ بعيد ، حتى كانوا يكتبون فى اللِّخاف والسَّعَف والعظام كما علمت .

فرحمةً بهم من ناحية ، وأخذاً لهم بتقديم الأهم على المهم من ناحية ثانية ، وحفظاً للقرآن أن يشتبه بالسنة إذا هم كتبوا السنة بجانب القرآن نظراً إلى عزّة الورَق وندرة أدوات الكتابة ، رعايةً لهذه الغايات الثلاث نهى الرسول عن كتابة السنة .

أما إذ أمن اللبس، ولم يُخش الاختلاط، وكان الأمر سهلًا على الشخص، فلا عليه أن يكتب الحديث الشريف ، كما يكتب القرآن الكريم . وعلى ذلك تُحمل الأحاديث الواردة فى الإذن بكتابة السنة آخـــر الأمر ، والواردة فى الإذن لبعض الأشخاص

كعبدالله بن عَمْرو (رضى الله عنه). ولهذا الموضوع مبحثٌ خاصٌّ به فاطلبه إن شئت في علوم الحديث .

وأيًّا ماتكن كتابة القرآن والسنة النبوية، فإن التعويل قبل كل شيء كان على الحفظ والاستظهار ، ولا يزال التعويل حتى الآن على التلقِّي من صدور الرجال ، ثقةً عن ثقةٍ ، وإماماً عن إمام ، إلى النبي ﷺ .

غير أن الرجل الأمي والأمة الأمية يكونان أسبق من غيرهما إلى الحفظ ، للمعنى الذى أسلفناه لك .

العامل الثانى

أن الصحابة كانوا أمة يُضرب بها المثل فى الذكاء والألمعيَّة ، وقوَّة الحافظة وصفاء الطبع ، وسيلان الذهن وحدَّة الخاطر ! وفى التاريخ العربى شواهد على ذلك يطول بنا تفصيلها، ولعلها على بالٍ منك. حتى لقد كان الرجل منهم ربما يحفظ مايسمعه لأول مرة مهما كثر وطال، وربما كان من لغة غير لغته، ولسانٍ سوى لسانه ، وحسبك أن تعرف أن رءوسهم كانت دواوين شعرهم، وأن صدورهم كانت سِجلَّ أنسابهم، وأن قلوبهم كانت كتاب وقائعهم وأيامهم ! كل أولئك كانت خصائص كامنةً فيهم وفى سائر الأمة العربية من قبل الإسلام ، ثم جاء الإسلام فأرهف فيهم هذه القُوى والمواهب ، وزادهم من تلك المزايا والخصائص بما أفاد طبعهم من صَقْل ، ونفوسَهم من طُهْر ، وعقولَهم من سُمُوٍّ ، خصوصاً إذا كانوا يسمعون لأصدق الحديث وهو كتاب الله، ولخير الهَدْى وهو هَدْى محمد ﷺ .

العامل الثالث

بساطة هذه الأمة العربية ، واقتصارها فى حياتها على ضروريّات الحياة من غير مَيْل إلى الترف ، ولا إنفاق جهد أو وقت فى الكماليات. فقد كان حسب الواحد منهم لُقَيْمَات يُقِمْنَ صُلبه ، وكان يكفيه من معيشته ما يذكره شاعرهم فى قوله : ـ

« وَمَا العيشُ إلَّا نَوْمَةٌ وَتبطُّحٌ وَتَمْرٌ عَلَى رَأْسِ النَّخِيلِ وَمَاءُ »

ومثلك يعلم أن هذه الحياة الهادئة الوادعة ، وتلك العيشة الراضية القاصدة ، تُوفِّر الوقت والمجهود ، وترضى الإنسان بالموجود ، ولا تشغل البال بالمفقود. ولهذا أثره العظيم فى صفاء الفكرة وقوّة الحافظة وسيلان الأذهان، خصوصاً أذهان الصحابة فى اتّجاهها إلى حفظ القرآن وحديث النبى عليه الصلاة والسلام ، وذلك على حد قول القائل : ـ

« . . . فصادفَ قلباً خاليًا فتمكّنا » .

العامل الرابع

حُبُّهم الصادقُ لله ولرسوله ، حبًّا ملك مشاعرهم ، واحتلّ مكان العقيدة فيهم . وأنت تعرف من دراسة علم النفس ، أن الحبَّ إذا صدق وتمكن ، حمل المحبَّ حملًا على ترسُّم آثار محبوبه والتلذُّذ بحديثه، والتنادُر بأخباره، ووَعْى كل ما يصدر عنه ويبدُر منه . ومن هنا كان حب الصحابة لله ورسوله ، من أقوى العوامل على حفظهم كتابَ الله وسنةَ رسوله ﷺ . على حدِّ قول القائل :

« لهَـا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ »
لهَـا بِوَجْهِكَ نُورٌ يُسْتَضَاءُ به وَمِنْ حَدِيثِكَ فِى أَعْقَابِهَا حَادِ

إِذَا شَكَتْ مِن كَلَالِ السَّيْرِ وَاعَدَهَا   روحَ القُدُومِ فَتَحيَا عِندَ مِيعَادِ »

أما حبُّ الصحابة العميق لله تعالى ، فلا يحتاج إلى شرح وبيان ، ولا إلى إقامة دليل وبرهان ، فهم خير القرون بنصٍّ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «خير القُرُون قَرْنى ثمَّ الذين يلُونَهُم »، وهم الذين بذلوا نفوسهم ونفائسهم رخيصةً فى سبيل رضاه، وهم الذين باعوا الدنيا بما فيها يبتغون فضلًا من الله ، وهم الذين حملوا هداية الإسلام إلى الشرق والغرب، وأتوا بالعجب العُجاب فى نجاح الدعوة الإسلامية بالحضَر والبدْو، وكانوا أحرياء بامتداح الله إياهم غير مرة فى القرآن، وبثناء الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم فى أحاديث عظيمة الشأن !

وأما مظاهر حُبِّهم للرسول صلى الله عليه وسلم فما حكاه التاريخ الصادق عنهم من أنه ما كان أحدٌ يحب أحداً مثل ما كان يحب أصحاب محمدٍ محمداً . دَمُ الرجل منهم رخيص فى سبيل أن يُفْدَى رسول الله ﷺ من شوكة يشاكها فى أسفل قدمه . وماء وضوئه يبتدرونه فى اليوم الشديدالبرد يتبرَّكون به ، وأب الواحد منهم وأبناؤه من ألدِّ أعدائه ماداموا يعادون محمداً ، وحديث محمد موضع التنافس من رجالهم ونسائهم ، حتى إذا أعيا الواحدَ منهم طِلَابُهُ،تناوب هو وزميلٌ له الاختلافَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أن يقوم أحدهما بعمل الآخر عند ذَهابه ، ويقوم الآخر برواية ما سمعه وعرفه من الرسول بعد إيابه(١) .

وهذه وافدةُ النساء تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم «يارسولَ اللهِ غَلَبنَاعليكَ الرجالُ ، فاجعلْ لنَا مِنْ نَفْسِكَ يوماً نأتيك فيه تعلمنا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ » إلى غير ذلك من شواهد ومظاهر ، تدلُّ على مبلغ هذا الحب السامى الشريف ، ويرحم الله القائل:ــ

---

(١) انظر باب التناوُب فى طلب العلم من صحيح البخارى .

« أَسَرتْ قُرَيْشٌ مُسْلِماً فى غَزْوَةٍ   فَمضى بِلَا وَجَـلٍ إلى السَّيَّافِ
سَأَلوهُ : هل يُرضِيكَ أنَّكَ سالِمٌ   ولك النبيُّ فِدًى مِنَ الإتلافِ
فأجابَ : كلَّا. لاسَلِمْتُ من الرَّدى   وَيُصَابَ أنفُ محمـــدٍ بِرُعاف

ولقد كان من مظاهر هذا الحب ـ كما رأيت تسابقهم إلى كتاب الله يأخذونه عنه ويحفظونه منه . ثم إلى سُنَّته الغرّاء يحيطون بأقوالها وأفعالها وأحوالها وتقريراتها . بل كانوا يتفننون فى البحث عن هَدْيه وخبره ، والوقوف على صفته وشكله ، كما تجد ذلك واضحاً من سؤال الحسن والحسين عن حِلْيَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أجيبا به من تَجْلِيَة تلك الصور المحمدية الرائعة ، ورسمها بريشة المصوِّر الماهر ، والصَّناع القادر ، على يد أبيها على بن أبى طالب ، وخالها هند بن أبى هالة ، رضى الله عنهم أجمعين(١) .

العامل الخامس

بلاغة القرآن الكريم إلى حدّ فاق كل بيان ، وأخرس كل لسان ، وأسكت كل معارض ومكابر ، وهدم كل مجادل ومهاتر ، حتى قام ولا يزال يقوم فى فم الدنيا معجزة من الله لحبيبه ، وآية من الحق لتأييد رسوله . وبعد كلام الله فى إعجازه وبلاغته ، كلامُ محمد ﷺ فى إشراقه وديباجته وبراعته ، وجزالة ألفاظه وَسُمُوِّ معانيه وهدايته. فقد كان ﷺ أفصح الناس وأبلغ الناس ، وكان العرب إلى جانب ذلك مأخوذين بكل فصيح بليغ ، متنافسين فى حفظ أجود المنظوم والمنثور. فمن هنا هَبُّوا هَبَّة واحدة يحفظون القرآن ، ويفهمون القرآن ، ويعملون بالقرآن ، وينامون ويستيقظون على القرآن . وكذلك

(١) انظر فى ذلك ما يرويه محمد أبو عيسى الترمذى متفرقاً فى كتاب الشمائل من طريق سفيان بن وكيع ، رضى الله عنهم .

السنة النبوية كانت عنايتهم بحفظها والعمل بها تلى عنايتهم بالقرآن الكريم يتناقلونها ويتبادرونها كما سمعت .

والكلام فى أسرار بلاغة القرآن ووجوه إعجازه، وفى بلاغة كلام النبوة وامتيازه، وفى تنافس العرب فى ميدان البيان ، كل ذلك مما لا يحتاج إلى شرح ولا تبيان ، فهذا كتاب الله ينطق علينا بالحق ، ويتحدى بإعجازه كافة الخلق . وهذا بحر النبوة يفيض بالدرارى واللآلئ ويزخر بالهدايات البالغة والحكم الغوالى. وهذا تاريخ الأدب العربى يسجل لأولئك العرب فوقهم فى صناعة الكلام، وسبقهم فى حلبة الفصاحة كافة الأنام، وامتيازهم فى تذوق أسرار البلاغة خصوصاً بلاغة القرآن ! ! .

العامل السادس

الترغيبُ فى الإقبال على الكتاب والسنة علماً وعملا، وحفظاً وفهما، وتعليماً ونشراً وكذلك الترهيب من الإعراض عنهما ، والإهمال لهما .

نقرأ فى القرآن الكريم قوله سبحانه : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » . فتأمل كيف قدّم تلاوة القرآن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؟ ونقرأ قوله جلّ ذكره : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ » . فانظر كيف حثّ بهذا الأسلوب البارع على تدبُّر القرآن والتذكر والاتعاظ به؟ ونقرأ قوله عزّ اسمه : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَابِ . أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ » . فتدبّر كيف يكون وعيد مَنْ كتم القرآن وهدى القرآن ؟.

ثم نقرأ فى السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم : ما اجتمع قَـوْمٌ فى بيتٍ مِنْ بُيُوتِ الله يتلونَ كتابَ اللهِ وَيتدَارَسُونَهُ بينهم إلا نَزَلَتْ عليهمُ السكينةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرحمةُ ، وحَفَّتْهُمُ الملائكةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فيمن عندهُ » . رواه مسلم وأبـو داود وغيرهما .

ونقرأ فى صحيح البخارى ومسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلَّمَهُ » .

ونقرأ لأبى داود والترمذى وابن ماجه قوله ﷺ : « عُرِضت علىَّ ذنوبُ أمتى فلم أر ذنباً أعظمَ من سورةٍ من القرآن أو آيةٍ أُوتيها رَجُلٌ ثم نسيها » .

أليس ذلك وأمثال ذلك ـ وهو كثير ـ يحفز الهمم ويحرك العزائم ، إلى حفظ القرآن واستظهاره والمداومة على تلاوته ، مخافةَ الوقوع فى وعيد نسيانه وهو وعيد كما سمعت شديد ؟ .

أما السنة النبوية فقد جاء فى شأنها عن الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ آلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » وقوله سبحانه : « مَنْ يُطِعِ آلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ آللَّهَ » . وقوله : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ آللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو آللَّهَ وَآلْيَوْمَ آلْآخِرَ وَذَكَرَ آللَّهَ كَثِيرًا » . وقوله : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَـــرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

وجاء ترغيباً فى السنة النبوية من الحديث الشريف قوله ﷺ : « نَضَّرَ الله امرأ سمع مِنَّا حديثاً ، فأداه كما سمعه ، فَرُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعَى من سامع » وهو حديث متواتر ، وقوله صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجَّة الوداع : « ألا : فليبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ ، فلعلَّ بعض من يبلُغُهُ أن يكون أوْعَى له من بعضِ من سمعهُ » رواه الشيخان . وجاء ترهيباً من

الإعراض عن السنة ، قوله صلى الله عليه وسلم : « من رغب عن سُنَّتى فليس منى » . رواه مسلم وقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا هل عسى رجلٌ يبلغه الحديث عنى وهو مُتَّكِئٌ على أريكته ، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه . وإن ما حرَّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرَّمهُ الله » أخرجه أبو داود والترمذى. زاد أبو داود فى أوله : « ألا إنى أوتيتُ الكتابَ ومثله معه » . فأنت ترى فى أمثال هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ما يحفز همة المؤمن الضعيف إلى الإقبال على روائع النبوة يستهديها ، وبدائع النبى صلى الله عليه وسلم يستظهرها ، فكيف أنت والصحابة الذين كانوا لا يضارعون طولَ باع ولا علوَّ همة فى هذا الميدان ! ! .

العامل السابع

منزلة الكتاب والسنة من الدين ، فالكتاب هو أصل التشريع الأول والدستور الجامع لخير الدنيا والآخرة ، والقانون المنظِّم لعلاقة الإنسان بالله وعلاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه . ثم السنة هى الأصل الثانى للتشريع ، وهى شارحةٌ للقرآن الكريم ، مفصِّلة لمجمله ، مقيدة لمطلقه ، مخصِّصة لعامه ، مبيِّنة لمبهمه ، مُظهِرة لأسراره كما قال سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » . ومن هنا يقول يحيى بن كثير : « السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتابُ قاضياً على السنة » يريد بهذه الكلمة ما وضَّحه السيوطى بقوله : « والأصل أن معنى احتياج القرآن إلى السنة أنها مبينة له ، ومفصلة لمجملاته ، لأن لِوَجازته كنوزاً تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها ، وذلك هو المنزل عليه ﷺ

وهو معنى كون السنة قاضية على الكتاب، وليس القرآن مبيناً للسنة، ولا قاضياً عليها، لأنها بينة بنفسها، إذ لم تصل إلى حدّ القرآن فى الإعجاز والإيجاز، لأنها شرح له، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح » اهـ .

ولا ريب أن الصحابة كانوا أعرف الناس بمنزلة الكتاب والسنة، فلا غرْو أن كانوا أحرص على حذقهما وتحفظهما والعمل بهما .

العامل الثامن

ارتباط كثير من كلام الله ورسوله بوقائع وحوادث وأسئلة، من شأنها أن تثير الاهتمام . وتنبه الأذهان، وتلفت الأنظار إلى قضاء الله ورسوله فيها، وحديثهما عنها وإجابتهما عليها، وبذلك يتمكن الوحى الإلهى والكلام النبوى فى النفوس فضلَ تمكن، وينتقش فى الأذهان على مرّ الزمان .

تجوّلْ مرّةً فى رياض القرآن الكريم، تجده يساير الحوادث والطوارىء فى تجدُّدها ووقوعها، فتارةً يجيب السائلين على أسئلتهم بمثل قوله تعالى: « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » وتارة يفصل فى مشكلة قامت، ويقضى على فتنة طغت، بمثل قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » إلى قوله : « أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهن ست عشرة آية من سورة النور نزلن فى حادث من أروع الحوادث، هو اتهام أم المؤمنين السيدة الجليلة عائشة زوج رسول الله ﷺ . وبنت الصديق أبى بكر (رضى الله عنها وعن أبيها) . وفى هذه الآيات دروس اجتماعية قرئت ولا تزال تقرأ على الناس إلى يوم الساعة ولا تزالُ تسجل براءة هذه الحصان الطاهرة من فوق سبع سموات . وتارة يلفت القرآن أنظار المسلمين إلى تصحيح

أغلاطهم التى وقعوا فيها ويرشدهم إلى شاكلة الصواب . كقوله سبحانه فى سورة آل عمران «وإذْ غدوتَ منْ أهلكَ تبوِّئُ المؤمنينَ مقاعدَ للقتالِ» إلى آياتٍ كثيرة بعدها. وكلها نزلت فى غزوة أحد تدل المسلمين على خطئهم فى هذا الموقف الرهيب ، وتحذرهم أن يقعوا حيناً آخر فى مثل ذاك المأزق العصيب .

وعلى هذا النمط نزلت سور فى القرآن وآيات تفوت العدد وتجاوز الإحصاء .

وإذا تجولتَ فى رياض الحديث النبوى الشريف يطالعك منه العجب العاجب فى هذا الباب . انظر قصة المخزومية التى سرقت وقول الرسول ﷺ لمن شفع فيها: « وايمُ اللهِ لوْ أنَّ بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعتُ يدهاَ » رواه أصحاب الكتب الستة . ثم تأمل حادث تلك المرأة الجهنية التى أقرت بزناها بين يدى رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنا ، كيف أمر الرسول فكفلها وليها حتى وضعت حملها ، ثم أتى بها فرجمتْ ، ثم صلى رسولُ الرحمة عليها . ولما سئل صلوات الله وسلامه عليه كيف تصلى عليها وهى زانية ؟ قال : « إنهاَ تابتْ توبةً لوْ قسمت عَلَى سبعينَ منْ أهلِ المدينةِ لوَسعتهمْ . وهلْ وجدتْ أفضلَ منْ أنْ جادتْ بنفسهاَ للهِ عزَّ وجلَّ ؟ » رواه مسلم . وتدبر الحديث المعروف بحديث جبريل ، وفيه يسأل جبريلُ رسولِ الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها على مرأى ومسمع من الصحابة . وقد قال لهم أخيراً : هذا جبريلُ أتاكمْ يعلمكمْ دينكمْ » . أخرجه الخمسة غير البخارى . والناظر فى السنة يجدها فى كثرتها الغامرة ، تدور على مثل تلك الوقائع والحوادث والأسئلة .

وقد قرّر علماء النفس أن ارتباط المعلومات بأمور مقارنة لها فى الفكر ، تجعلها أبقى على الزمن ، وأثبت فى النفس، فلا بدع أن يكون ما ذكرنا داعية من دواعى حفظ الصحابة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على حين أنهم هم المشاهدون لتلك الوقائع والحوادث، المشافهون بخطاب الحق، المواجهون بكلام سيد الخلق ، فى هذه المناسبات الملائمة والأسباب

القائمة ، التي تجملي نفوسهم مستشرفةً لقضاء الله فيها ، متعطشة إلى حديث رسوله عنها، فينزل الكلام على القلوب وهي متشوِّفة ، كما ينزل الغيث على الأرض وهي متعطشة ، تنهله بلهف ، وتأخذه بشغف ، وتمسكه وتحرص عليه بيقظة ، وتعتز به وتعتدّ عن حقيقة، وتنتفع به وتنفع ، بل تهتزُّ به وتربو وتنبتُ من كل زوج بهيج !! .

العامل التاسع

اقتران القرآن دائما بالإعجاز ، واقتران بعض الأحاديث النبوية بأمور خارقة للعادة ، تروع النفس ، وتشوق الناظر ، وتهول السامع . وإنما اعتبرنا ذلك الإعجاز وخرق العادة من عوامل حفظ الصحابة ، لأن الشأن فيما يخرج على نواميس الكون وقوانينه العامة ، أن يتقرّر في حافظة منْ شاهده، وأن يتركز في فؤاد كل من عاينه فرداً كان أو أمة؛ حتى لقد يتخذ مبدأً تؤرخ بحدوثه الأيام والسنون، وتقاس بوجوده الأعمار والآجال .

أما القرآن الكريم فإعجازه سارٍ فيه سريان الماء في العود الأخضر ، لا تكاد تخلو سورة ولا آية منه . وأعرف الناس بوجوه إعجازه ، وأعظمهم ذوقاً لأسرار بلاغته ، هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يصدرون في هذه المعرفة وهذا الذوق عن فطرتهم العربية الصافية ، وسليقتهم السليمة السامية ، وتمهرهم في فنون البيان وصناعة اللسان . ومن هذا كان القرآن حياتهم الصحيحة ، به يقومون ويقعدون ، وينامون ويستيقظون ، ويعيشون ويتعاملون ، ويلتذون ويتعبدون . وهذا هو معنى كونه روحاً في قول الله سبحانه: « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا » وليست هناك طائفةٌ في التاريخ تمثل فيها القرآن روحاً ، كما تمثل في هذه الطبقة العليا الكريمة طبقة الصحابة الذين وهبوه حياتهم فوهبهم الحياة ، وطبعهم طبعة جديدة حتى صاروا

أشبه بالملائكة ، وهكذا سواهم الله بكتابه خلقاً آخر « فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ » !! .

وأما السنة النبوية ، فقد اقترن بعضها بمعجزات خارقة، وأمامك أحاديث المعجزات وهى كثيرة فيها المعجب والمطرب . غير أنا نربأ بك أن تكون فيها كحاطب ليل ، على حين أن بين أيدينا فى الصحيح منها الجمّ الغفير والعدد الكثير ، « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

وهاكَ نموذجاً واحداً رواه البخارى ومسلم عن أبى العباس سهل بن سعدٍ الساعدى رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : « لأعطينّ هذهِ الرايةَ غداً رجلًا يفتحُ اللهُ عَلَى يديهِ ، يحبُّ اللهَ ورسولَه ، ويحبهُ اللهُ ورسولهُ ، فباتَ الناس يدوكونَ (أى يخوضون) ليلتهم، أيهمْ يعطاهاَ، فلما أصبحَ الناسُ غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهمْ يرجو أنْ يعطاهاَ . فقال : أينَ علىُّ بنُ أبى طالب ؟ فقيلَ يا رسولَ اللهِ هو يشتكى مرضاً بعينيهِ قال: فأرسلوا إليهِ . فأتى بهِ ، فبصقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعينيهِ ، ودعاَ لهُ ، فبرئ حتى كأنْ لمْ يكنْ بهِ وجعٌ . فأعطاهُ الرايةَ ، فقال علىٌّ رضى الله عنه : يارسولَ الله أقاتلهمْ حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : انفذْ عَلَى رسلكَ حتى تنزلَ بساحتهمْ ، ثمّ ادعهمْ إلى الإسلامِ ، وأخبرهمْ بمَا يجبُ عليهمْ منْ حقِّ اللهِ تعالى فيهِ ، واللهِ لأنْ يهدىَ اللهُ بكَ رجلًا واحداً خيرٌ لكَ منْ حُمْرِ النعمِ » .

وهذه الوصية من الرسول ﷺ لعلىٍّ فى هذا المقام ، جديرةٌ وحدها أن تقطع ألسنة أولئك الأفاكين الذين يزعمون أن الإسلام قام على السيف والقوّة ، واعتمد على البطش والقسوة ، ولم ينتشر بالدليل والحجة ولم يجئ بالسلام والرحمة. « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » ! .

العامل العاشر

حكمة الله ورسوله فى التربية والتعليم ، وحسن سياستهما فى الدعوة والإرشاد ، مما جعل الكتاب والسنة يتقرّران فى الأذهان ، ويسهلان على الصحابة فى الحفظ والاستظهار .

أما القرآن الكريم، فحسبك أن تعرف من حكمة الله به فى التربية والتعليم ، أنه أنزله على الأمة الإسلامية باللغة الحبيبة إلى نفوسهم، وبالأسلوب الخلّاب والنظم المعجز الآخذ بقلوبهم ، وأنه تدرّج بهم فى نزوله، فلم ينزل جملةً واحدة يرهقهم به ويعجزون عنه، بل أنزله منجّماً فى مدى عشرين أو بضع وعشرين سنة، ثم ربطه بالحوادث والأسباب الخاصة فى كثير من سوره وآياته، ودعمه بالدليل والحجة، وخاطب به العقول والضمائر، وناط به مصلحتهم وخيرهم وسعادتهم ، وصدر فى ذلك كله عن رحمة واسعة بهم، يكادون يلمسونها باليد ويرونها بالعين ! « مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ». « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .

وأما السنّة النبوية ، فقد ضربت الرقم القياسى فى باب هذه السياسة التعليمية الراشدة ، حتى إذا كان علماء التربية فى العصور الحديثة، قد عدّوا من الحكمة فى التعليم والتربية الاستعانة بوسائل الإيضاح ، وألوان التشويق ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم النبىّ الأمىّ، كان من قبل أربعة عشر قرناً، ومن قبل أن يولد علم التربية وعلم النفس، كان هو المعلم الأول فى رعاية تلك الوسائل الموضّحة ، وهاتيك المشوّقات الرائعة ، حتى تفتحت قلوب سامعيه للهداية ، وامتلأت صدور أصحابه بتعاليمه، كأنما كُتِبَتْ فيها كتاباً بالكلمة والحرف .

ذلك لأنه ﷺ كان أفصح الناس لساناً، وأوضحهم بياناً وأجودهم إلقاءً، ينتقى عُيون الكلام وهو الذى أوتى جوامع الكلم، ويفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه ويُفصله تفصيلاً يُراعى فيه المقام والأفهام، ولا يسرد الحديث سرداً يزرى برونقه أو يذهب بشىء منه، بل يتكلم كلاماً لو عدَّه العادُّ لأحصاه. وكان يعيد الكلمة ثلاثاً أو أكثر من ثلاث عند الحاجة، كيما تحفظ عنه، كما جاء فى صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال. « هَلَكَ ٱلمُتَنَطِّعُونَ » قالها ثلاثاً. وكما جاء فى حديث البخارى ومسلم أنه ﷺ قال: « أَلَا أُنَبِّئُكم بأكْبَرِ الكبائِرِ (ثلاثاً) قلنا: بَلَى يارسول الله قال: الإشراكُ بالله، وعقوق الوالدين، أَلا وقولُ الزورِ وشهادةُ الزورِ ـ وكان مُتَّكِئاً فجلسَ ـ فما زالَ يُكرِّرُها حتى قُلنا لَيتَهُ سَكَتَ ».

ومن هَدْيه ﷺ أنه كان إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوتهُ واشتدَّ غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبَّحكم ومسَّاكم. ويقول: بُعِثْتُ أَنا والساعة كهاتين (وَيَقرُنُ بين أُصْبُعَيهِ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى) ويقول: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ. ثم يقول: أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ. مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا(١) فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ » رواه مسلم.

ومن وسائل إيضاحه ﷺ أنه كان يضرب لهم الأمثال الرائعة التى تُجَلِّى لهم المعانى، كأنها العروسُ بارعةً ليلة الزفاف، أو الشمسُ ساطعةً ليس دونها سحاب. تأمل قوله وهو يضرب المثل فى ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وخطر إهمالهما، ثم قل لى بربك: هل يبارح ذاكرتك هذا التمثيل البديع ؟.

(١) الضياع بفتح الضاد: يستعمل مصدراً لضاع، ويستعمل اسماً بمعنى العيال أو الضائعين منهم. قال فى القاموس: « والضَّياع أيضاً العيال، أو ضُيَّعُهم » اهـ ولا يخفى أن المعنى المصدرى غير مُرادٍ هنا.

يروى البخارى عن النعمان بن بشير أن النبى ﷺ قال : مثلُ القائمِ فى حدود آلله وَآلواقِعِ فيها ، كمثلِ قومٍ آستهموا فى سفينة ،فصارَ بعضُهم أعْلاها وبعضُهم أسفلها. وكان الذى فى أسفلهاَ إذَا آستقَوْا من آلماَء مرُّوا على منْ فوقهم فقالوا : لو أَنَّا خَرَقْناَ فى نصيبِنا خرْقًا ولم نُؤذِ مَنْ فوْقنا . فَإِنْ تركُوهُمْ وماَ أرادُوا هَلَكُوا جميعًا . وإِنْ أَخذُوا عَلَى أيديهمْ نَجَوْا ، ونجوا جميعًا » .

ومن وسائل إيضاحه ﷺ أسئلته التى كان يلقيها على أصحابه،فيوقظ بها انتباههم، ويرْهف بسببها شعورهم ، حتى يستقبلوا هَدْيه بنفوس عطاش ، وقلوب ظِماء ، فيستقرَّ فيها أثبت استقرار ، ويعلقَ بها علوق الروح بالأجسام .

وإليك مثلًاواحداً: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:« أَتدْرُون منِ آلْمُفْلِسُ ؟ قالوا : آلمفلِسُ فِيناَ منْ لَا دِرْهمَ لهُ وَلَا دينَارَ وَلَا متاعَ . فقال : إنَّ المفْلسَ مِنْ أُمتى مَنْ يَأْتى يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ، ويأتى وقد شَتَمَ هٰذا ، وَقَذَفَ هٰذا وأَكلَ مالَ هٰذا وسَفَكَ دَمَ هٰذَا ، فَيُعْطَى هٰذا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وهذا من حَسناتِه ، فإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبلَ أَنْ يُقْضَى ماَ عليهِ ، أُخِذَ مِنْ خطَاَياَهُمْ فَطُرِحَتْ عليهِ ، ثمّ طُرِحَ فِى النَّارِ » رواه مسلم .

ومن العجائب فى وسائل إيضاحه عليه الصلاة والسلام أنه كان يستعين برسم يديه الكريمتين على توضيح المعانى وتقريبها إلى الأذهان ، مع أنَّه النبى الأمى الذى لم يقرأ كتابًا ، ولم يجلس إلى أُستاذ ، ولم يذهب إلى مدرسة ، ولم يدرس الرسم ولا الهندسة .

نقرأ فى صحيح البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « خَطَّ لنَا رسولُ الله ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا ، وخطَّ وسَطَهُ خطًّا ، وخطَّ خُطُوطًا إلى جَنْبِ آلخط (أى الذى فى الوسط) ، وخطَّ خطًّا خارجًا . فقال : أتدْرُونَ ماَ هذَا ؟ قلنا : اللهُ ورسولُه أَعْلَم . قال : هذا الْإِنسانُ(يريد الخط الذى فى الوسط)وهٰذَا آلأَجلُ مُحِيطٌ به(يريد الخط المربع)

وَهٰذِهِ الأعراضُ تَنْهَشُهُ (يشير إلى الخطوط التى حوله) إنْ أَخْطَأَهُ هٰذا نَهَشَهُ هٰذا وهٰذَا الْأَمَلُ (يعنى الخطَّ الخارج) .

ومن سياسته الحكيمة فى التعليم والتربية ، أنه كان ينتهز فرصة الخطأ فى أفهامهم، فيصحِّح لهم الفكرة فى حينها ، ويلقِّنهم تعاليمه السامية ونفوسهم مستشرفة لها. من ذلك ما يقصّه علينا البخارىُّ ومسلم عن أنس رضى الله عنه قال : « جاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبىِّ صلى الله عليه وسلم يسألونَ عنْ عبادَتِهِ ، فلَمَّا أُخبِرُوا كأَنَّهُمْ تقَالُّوها (أى رأوها قليلة) وقالوا : أينَ نحنُ منْ رسول الله ﷺ وقد غُفِرَ لهُ ما تقدم من ذَنبِهِ وما تأخَّرَ ؟ قال أحدُهُم : أمَّا أنا فأُصلِّى اللَّيلَ أبداً . وقال الآخرُ : وأنا أصُومُ الدَّهرَ أبداً . وقال الآخر: وأنا أَعتزِلُ النِّسَاء فلا أتزوَّج أبداً . فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليهمْ،فقال:أنتم الذينَ قُلتمْ كذا وكذا !! أما والله إنى لَأَخْشَاكُم لله ، وأتقاكم لله ، ولٰكنى أصومُ وأُفطرُ، وأُصلى وأرْقُدُ ، وأتزوَّجُ النساء،فمن رغِبَ عنْ سُنَّتى فليْسَ مِنِّى » .

وكان من وسائل إيضاحه تمثيله صلى الله عليه وسلم بالعمل. يصلى ويقول :«صَلُّوا كما رَأيتمُونى أصلى» ويحجُّ ويقول : «خُذُوا عنِّى مَنَاسِكَكُمْ» ويشير بأصبعيه السبابة والوسطى ويقول : « بُعِثْتُ أنا والساعة كهاَتَيْن » كما تقدَّم فى رواية مسلم .

العامل الحادى عشر

الترغيب والترهيب اللذان يفيض بهما بحر الكتاب والسنة . ولا ريب أن غريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق لها كل خير، وأن يحميها من كل شر، سواء ما كان فيهما من عاجل وما كان من آجل، ومن هنا تحرص النفوس الموفَّقة على وَعْى هداية القرآن وهدى الرسول ، وتعمل جاهدةً على أن تحفظ منهما ما وسعها الإمكان .

أما النفوس الضالة المخذولة ، فإنها مصروفة عن هذه السعادة بصوارف الهوى والشهوة، أو محجوبة عن هذا المقام بحجاب التعصب والجمود على الفتنة ، أو مرتطمة بظلام الجهل فى أوحال الضلال والنكال .

ولسنا بحاجة أن نلتمس شواهد الترغيب والترهب من الكتاب والسنة ، فمددهما فيّاض بأوفى ما عرف العلم من ضروب الترغيب والترهيب ، وفنون الوعد والوعيد ، وأساليب التبشير والإنذار على وجوه مختلفة ، واعتبارات متنوعة، فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق على سواء .

وهاك نموذجا من ترغيبات القرآن وترهيباته على سبيل التذكير ، والذكرى تنفع المؤمنين — .

يقول تبارك اسمه فى سورة واحدة هى سورة السجدة « وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ، بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَوْ تَرَى إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا . وَلَكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ؟ لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ » .

فانظر بعين بصيرتك فى أساليب هذه الترغيبات، وفنون تلك الترهيبات، التى احتوتها هذه الآيات ، والقرآن مَلِيءٌ كله من هذه الأنوار على هذا الغرار ! .

ولا تحسبن السنة النبوية إلا بحراً متلاطم الأمواج فى هذا الباب. وهاك نموذجاً بل نماذج منها تدلك على مدى ما تتأثر به النفوس البشرية عند ما تمر بها الوعد والوعيد ، وما يتركه هذا التأثر من ثبات الأوامر والنواهى واستقرارها فى الذهن ، وانتقاشها فى صحيفة الفكر ، ثم اندفاع الإنسان من ورائها إلى العمل والاتباع .

هاهو صلى الله عليه وسلم يبشر واصلَ رحمه بسعة الرزق والبركة فى العمر فيقول : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِى رِزْقِهِ ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِى أَثَرِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » أخرجه البخارى والترمذى .

وها هو ﷺ يتحدث بالوعد لمن جعل الآخرة همّه ، وبالوعيد لمن جعل الدنيا همّه

فيقول : « مَن كانت الآخرةُ هَمَّهُ جَعَل اللهُ غِناهُ فى قلبِهِ ، وجَمعَ له شملَه ، وأَتتْهُ الدُّنيا وهى راغمةٌ . ومَنْ كانت الدنيا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ الفقرَ بين عَيْنَيْه، وفرَّقَ اللهُ عَليْهِ شملَه، ولم يأْتِهِ منَ الدُّنيا إلا ما قُدِّرَ له » رواه الترمذى .

وها هو صلى الله عليه وسلم يحرِّض المؤمنين على القتال ويحثهم على الدفاع والنضال، فيقول : « تَضَمَّنَ اللهُ لمن خرج فى سبيل اللهِ ، لا يُخرِجُهُ إلَّا جِهادٌ فى سبيلى ، وإيمانٌ بى ، وتصديقٌ برسلى ، فهو عَلَيَّ ضامِنٌ أن أُدْخِلَهُ الجنةَ ؛ أو أَرجِعهُ إلى مسكَنِهِ الذى خرَجَ منهُ نائلًا ما نالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ ، والذى نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ ما مِنْ كلْمٍ يُكْلَمُ فى سبيل الله إلَّا جاء يوم القيامة كهيئَتِهِ يَوْمَ كُلِمَ ؛ لونُهُ لونُ دمٍ ، وريحُهُ ريحُ مسكٍ . والذى نَفْسُ محمَّدٍ بيدهِ لولَا أنْ أَشُقَّ على المسلمين ما قعدْتُ خلافَ سَرِيَّةٍ تغزو فى سبيل الله عزَّ وجلَّ أبداً. ولَكِنْ لا أَجدُ سَعَةً فأَحمِلَهُمْ ، ولا يجدونَ سَعَةً فيَتبعُونى وَيَشُقُّ عليهم أنْ يتخَلَّفُوا عنى والذى نَفْسُ محمد بيده لوَدِدْتُ أن أَغْزُوَ فى سبيل اللهِ فأُقتَلَ ، ثمَّ أَغْزُوَ فأُقتَلَ » أخرجه الثلاثة والنسائى .

فأنت ترى فى هذه الكلمات النبوية قوة هائلة محولة؛ تجعلها ماثلة فى الأذهان ، كما تجعل النفوس رخيصة هينة فى سبيل الدفاع عن الدين والأوطان . حتى لقد كان الرجل يستمع إلى هذه المرغبات والمشوِّقات وهو يأكل، فما يصبر حتى يتم طعامه ، بل يرمى بما فى يده ، ويقوم فيجاهد متشوقاً إلى الموت،متلهفاً على أن يستشهد فى سبيل الله. كذلك أخرج مالك عن يحيى بن سعيد : « أنَّ رسول الله ﷺ رغّب فى الجهاد وذكر الجنةَ ورجلٌ من الأنصار يأكل تمرات ، فقال : إنى لحريصٌ على الدنيا إن جلستُ حتى أفرغَ منهن ، فرمى ما فى يده ، وحملَ بسيفه ، فقاتل حتى قتل » .

العامل الثانى عشر

اهتداء الصحابة رضوان الله عليهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، يحلُّون ما فيهما من حلال ، ويحرِّمون ما فيهما من حرام ، ويتبعون ما جاء فيهما من نصح ورشد ، ويتعهَّدون ظواهرهم وبواطنهم بالتربية والآداب الإسلامية ، دستورهم القرآن ، وإمامهم الرسول عليه الصلاة والسلام .

وما من شك أن العمل بالعلم يقرِّره فى النفس أبلغ تقرير ، وينقشه فى صحيفة الفكر أثبت نَقش، على نحو ما هو معروف فى فن التربية وعلم النفس، من أن التطبيق يؤيد المعارف ، والأمثلة تقيِّد القواعد ، ولا تطبيق أبلغ من العمل ، ولا مثال أمثل من الاتباع ، خصوصاً المعارف الدينية ، فإنها تزكو بتنفيذها ، وتزيد باتباعها . قال تعالى : « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أى هدايةً ونوراً تفرقون به بين الحق والباطل ، وبين الرشد والغىِّ كما جاء فى بعض وجوه التفاسير . وذلك أن المجاهدة تؤدى إلى المشاهدة ، والعناية بطهارة القلوب وتزكية النفوس تفجر الحكمة فى قلب العبد . قال الغزالى رحمه الله : « أما الكتب والتعليم فلا تَفِى بذلك (أى بالحكمة تتفجر فى القلب) بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد ، إنما تتفتح بالمجاهدة ومراقبة الأعمال الظاهرة والباطنة ، والجلوس مع الله عز وجل فى الخلوة ، مع حضور القلب بصافى الفكرة ، والانقطاع إلى الله عز وجل عما سواه ، فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف؟ فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة . وكم من مقتصر على المهم فى التعليم ، ومتوفر على العمل ومراقبة القلب ، فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوى الألباب . ولذلك قال ﷺ : « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ »(١) .

---

(١) قال الحافظ العراقى فى هذا الحديث: رواه أبو نعيم فى الحلية لكن بسند ضعيف.

العامل الثالث عشر

وجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم ، يحفّظهم من الكتاب والسنة ما لم يحفظوه ، ويعلمهم ما جهلوه ، ويجيبهم إذا سألوه ، ويريهم شاكلة الصواب فيما أخطأوه ، ويقفهم على حقيقة الأمر إذا تشكّكوه ، فى صبر وأناة وسعة صدر وكرم نفس وطيب قلب .

ولا ريب أن هذا عاملٌ مهمٌّ ييسر لهم الحفظ ويهوّن عليهم الاستظهار ، ضرورةَ أنه ﷺ مرجع واضح ، ومنهل عذب ، لا سيما إذا لاحظنا أنه ﷺ كان دائم البشر ، سهل الخلق ، ليّن الجانب ، ليس بفظٍّ ، ولا غليظ ولا صخّاب ، ولا فحّاش ، ولا عياب ، وأن من جالسه أو فاوضه فى حاجة صابَره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناسَ بسطُه وخلقُه ، فصار لهم أباً وصاروا عنده فى الحق سواءً . مجلسه مجلس علم وحياء وأمانة وصبر ، يُدرس فيه القرآن ، وتذاع فيه السنة ، ويَعْبَقُ منه أريجُ الهداية .

عوامل خاصة بالقرآن الكريم .

تلك العوامل التى ذكرناها عوامل مشتركة بين الكتاب والسنة ، طوّعتْ للصحابة حفظَهما واستظهارَهما ، والإحاطة بهما وحذقهما .

بيد أن هناك عوامل خاصّة توافرت فى حفظ الصحابة للقرآن دون السنة .

أولها : أن الله تعالى تحدّى بالقرآن أمة العرب ، بل كافّة الخلق فقال سبحانه : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ » ولما عجزوا قال : « فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ » ولما عجزوا أيضاً قال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ » ولما عجزوا الثالثة سجّل عليهم

هزيمتهم وأعلن فلَج القرآن بالإعجاز فى هذا الميدان ، إذ قال عزَّ اسمه : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

هذا التحدِّى الذى امتاز به القرآن ؛ فتح عيون الناس جميعاً ، ولفتهم بقوة إليه ، لا فرق بين أوليائه وأعدائه . أما أولياؤه ومتَّبعوه ؛ فقرءوه من هذه الناحية ، ليُفحموا به أعداءهم ، ويؤيِّدوا بإعجازه دينهم ونبيَّهم . وأما أعداؤه ومخالفوه ، فاقتفوا أثره وتتبعوه ، أملًا فى أن يجدوا فيه مَغمزاً ، ويأخذوا عليه مَطْعناً . فلا جرم كان هذا التحدى من الدواعى التى توافرت على نقل القرآن وتواتره وجريانه على كل لسان !

ثانيها : عنايته ﷺ بكتابة القرآن فيما تيسَّر من أدوات الكتابة ، إذ اتخذ كُتَّاباً للوحى من أصحابه . وأقرَّ كل من يكتب القرآن لنفسه فى الوقت الذى نهى فيه عن كتابة السنة فى الحديث الذى أسلفناه من رواية مسلم « لَا تَكْتُبُوا عَنِّى وَمَنْ كَتَبَ عَنِّى شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ » .

وغنىٌّ عن البيان ، أن الكتابة من عوامل تيسير الحفظ والاستظهار .

ثالثها : تشريع قراءة القرآن فى الصلاة ، فرضاً كانت أو نفلًا ، سرًّا أو جهراً ، ليلية أو نهارية ؛ حتى صلاة الجنازة . ومثل الصلاة فى ذلك خطبة الجمعة . وتلك وسيلة فعالة ؛ جعلت الصحابة يقرءونه ويسمعونه ؛ ثم جعلتهم عن هذا الطريق يتحفَّظونه ويستظهرونه ، لا فرق بين رجل وامرأة ، وصغير وكبير ؛ وغنى وفقير ، على قدر ما سمح به استعداد كل منهم .

رابعها : الترغيب فى تلاوة القرآن ولو فى غير صلاة ومن غير وضوء . اقرأ إن شئت قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّٰهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ . إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ . » .

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وهوَ مَاهِرٌ به مع السَّفَرَةِ الكِرامِ البَرَرَةِ . والذى يَقْرَأُ القُرآنَ وهو يَتَتَعْتَعُ فيه وهُوَ عَلَيْهِ شاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ » رواه البخارى ومسلم . ويقول ﷺ : « لا حَسَدَ إلَّا فى اثنتيْنِ : رَجُلٍ آتاهُ اللهُ القرآنَ وهو يقوم به آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النهارِ ، ورجُلٍ آتاهُ اللهُ مالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ » رواه الشيخان أيضاً .

ويقول ﷺ : « مَنْ قرأَ حَرفاً مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعالَى فَلَهُ حَسَنَةٌ ، والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا . لا أقول : الٓمٓ حَرفٌ . ولكن أَلِفٌ حرفٌ ؛ ولام حرفٌ ؛ وميم حرفٌ » رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « يُقالُ لقارِئِ القرآنِ اقرَأْ وارْقَ ورتِّلْ كما كنتَ تُرَتِّلُ فى الدُّنيا ؟ فإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عندَ آخِرِ آيةٍ تقْرَؤُهَا » رواه أبو داود والترمذى والنسائى . ويقول صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَه » رواه البخارى .

فهل يعقل أن أصحاب محمد ﷺ الذين سمعوا ذلك وأمثال ذلك ؛ يتوانون لحظةً عن قراءة القرآن ؟ ثم ألا تكون تلك التلاوة سبيلا إلى أن يحذقوه ويحرزوه ؟ .

خامسها عناية الرسول صلى الله عليه وسلم بتعليم القرآن وإذاعته ونشره ، إذ كان يقرؤه على الناس على مكث كما أمره الله . وكان يسمعهم إياه فى الخطبة والصلاة ، وفى الدروس والعظات ؛ وفى الدعوة والإرشاد ، وفى الفتوى والقضاء ؛ وكان يُرَغِّب فى تعليمه ونشره كما سمعت . وكان يرسل بَعْثات القرَّاء إلى كل بلد يعلِّمون أهله كتاب الله ، كما أرسل مُصْعَب بن عمير وابن أمِّ مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته ﷺ إليها ، وكما أرسل

مُعاذ بن جبل إلى مكة بعـــد الفتح للإقراء . قال عبادة بن الصامت : كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن .

سادسها : القَدَاسة التى امتاز بها كتاب الله عن كل ماسواه، حيث اجتمع فيه من المزايا ما قصصنا عليك وما لم نقصص عليك . كنسبته إلى الله تعالى ، وكحرمة قراءته على الجنب والحائض والنفساء ، وكحرمة مَسِّ مصحفه وحمله على أولئك جميعاً وعلى المحدث حدثاً أصغر أيضاً ، إلى غير ذلك .

ولاشك أن هذه القداسة تلفت الأنظار إليه، وتخلع همم المؤمنين به عليه ، فيحيطون به علماً ، ويخضعون لتعاليمه عملًا . وذلك ماحدا المسلمين فى كل عصر ومصر أن يُعْنَوْا بحفظ كتاب الله حتى عصرنا الذى نعيش فيه ، فما بالك بعصر الصحابة وهو عصر العلم والنور ، والتقوى والهداية ، والنشر والدعوة ؟ ! .

أما بعد :

فهذه بضعة عشر عاملًا توافرت فى أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم حتى حفظوا الكتاب والسنة ، وقد جمعناها لك هذا الجمع ، معتقدين أن من ورائها عوامل شخصية توافرت فى بعض القراء وبعض المحدثين منهم دون بعض . والسبيل إلى تلك العوامل الشخصية دراسة تراجم أولئك القرّاء والمتصدِّرين لرواية الحديث من الصحابة، فارجع إليها إن شئت، واحرص على ماذكرنا لك، وصُغْ منها أسلحة علمية مُرْهَفَة تشهرها فى وجه أولئك الخونة الذين يخوضون فى الصحابة بغير علم ، ويطعنون فى الكتاب والسنة عن طريق الطعن فيهم بعد الحفظ والضبط .

ونحن نتحدّى أمم العالم بهذه الدواعى التى توافرت فى الصحابة حتى نقلوا الكتاب والسنة ، وتواتر عنهم ذلك خصوصاً القرآن الكريم .

« أولئكَ آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا باجريرُ المجامعُ ! »

غمرهم الله برحمته ورضوانه ، وصبّ عليهم شآبيب جوده وإحسانه . آمين .

ب ـ الجبهة الثانية ،

أو عوامل تثبّت الصحابة فى الكتاب والسنة

الآن وقد فرغنا من عوامل حفظ الصحابة للكتاب والسنة ، نعرج على عوامل تثبتهم ـ رضوان الله عليهم ـ فيهما. فنذكر أنّ الناظر فى تاريخ الصحابة ، يروعه مايعرفه عنهم فى تثبتهم ، أكثر مما يروعه عنهم فى حفظهم ؛ لأن التثبت فضيلة ترجع إلى الأمانة الكاملة والعقل الناضج من ناحية ، ثم هو فى الصحابة بلغ القمة من ناحية أخرى ، إذ كان تثبتاً بالغاً، وحذراً دقيقاً ، وحيطة نادرة، وتحرياً عميقاً لكتاب الله تعالى وهدى رسوله ﷺ فى كل ما يتصل بهما عن قرب أو بعد .

وهذا التثبت النادر فى دقته واستقصائه، بواعث ودواع، أو أسباب وعوامل، يجمل بنا أن نقدّمها إليك، كأسلحة ماضية تنافح بها عن الكتاب والسنة، وعن الصحابة فى أدائهم للكتاب والسنة .

العامل الأول

أن الله تعالى أمر فى محكم كتابه بالتثبت والتحرى، وحذّر من الطيش والتسرُّع ، فى الأنباء والأخبار ، بله القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، فقال سبحانه : « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . » .

وكذلك نهى الله عن اتباع ما لا دليل عليه إلا أن تسمع الأذن، أو ترى العين ، أو يعتقد القلب عن برهان ، فقال عزّ من قائل : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » .

وقد عاب القرآن على من يأخذون بالظن فيما لا يكفى فيه الظن ، فقال الله جلّ شأنه : « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ، وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا » إلى غير ذلك من أدلة كثيرة فى الكتاب والسنة تأمر بالنظر ، وكان الصحابة هم المخاطبين بهذه التعاليم والمشافهين بها ، فلا ريب أن تكون تلك الآداب الإسلامية من أهمّ العوامل فى تثبتهم وحذرهم خصوصاً فيما يتصل بكتاب ربهم وسنة نبيهم . وبعيد كل البعد ، بل محالٌ كل الاستحالة ، أن يكونوا قد أهملوا هذا النصح السامى ، وهم خير طبقة أُخْرِجَتْ للناس .

العامل الثانى

ما سمعوه من الترهيب الشديد ، ومن التهديد والوعيد ، لمن يكذب على الله أو يفترى على رسوله ومصطفاه . قال الله سبحانه : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ ؟ » فانظر كيف سلك الله من افترى الكذب عليه فى سلك من قال أوحىَ إلىَّ ولم يوحَ إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ؟ ثم انظر كيف قدَّمه عليهما فى الذِّكر وصدره فى الوعيد ، ونعته أول منْ نعت بالإغراق فى الظلم .

وقال سبحانه : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى ٱلْإِسْلَامِ » وقال سبحانه : « وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ . أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ؟ . » .

ونقرأ فى السنة النبوية أنه ﷺ قال : « من كذبَ علىَّ متعمداً فليتبوَّأْ مقعدهُ منَ النارِ » . وهو حديث مشهور ، بل متواتر ، وردَ أنه قد رواه اثنان وستون صحابيًّا منهم العشرة المبشرون بالجنة ، ولا يعرف حديث اجتمع عليه العشرة المبشرون بالجنة إلا

هذا ، ولا حديثٌ يروى عن أكثر من ستين صحابياً إلا هذا .

ولقد سمع الصحابة هذه الترهيبات وأمثالها. وما أمثالها فى القرآن والسنة بقليل ، بل لقد سمع الأصحاب نهى رسولِ الله ﷺ عما دون الكذب وما كان أقل من التزيد ، إذ حذرهم رواية الضعفاء والمدخولين فقال : سيكونُ فى آخرِ أمتى أناسٌ يحدثونكم مالم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم » رواه مسلم . بل حذرهم ﷺ رواية المجهولين فقال: « إنَّ الشيطانَ ليتمثلُ فى صورةِ الرجل فيأتى القوم فيحدثهم الكذبَ ، فيتفرقونَ فيقولُ الرجل منهم: «سمعتُ رجلًا أعرفُ وجههُ ولا أعرفُ اسمهُ يحدثُ كذا وكذا» رواه مسلم .

فهل يستبيح عاقل منصف لنفسه أن يقول: إن الصحابة الذين سمعوا هذه النصائح وتلك الزواجر عن التزيد والافتراء يقدمون على كذب فى القرآن والسنة ، أو يقصرون فى التثبت والتحرى والاحتياط فى نقل الذكر الحكيم ، والهدى النبوى الكريم ؟ ! .

العامل الثالث

أن الإسلام أمرهم بالصدق ونهاهم عن الكذب إطلاقاً ، فقال سبحانه : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » وأنت خبير بأن هذا الخطاب بهذه الصيغة فى هذا المقام مع تقديم الأمر بالتقوى ، فيه إشارة إلى أن الصدق المأمور به من مقتضيات الإيمان ومن دعائم التقوى ، ويفهم من هذا أن من كذب وافترى ، فسبيله سبيل من كفر وطغى. كما صرح سبحانه بذلك فى قوله: « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ » .

ويقول النبي ﷺ : « عليكم بالصدق فإنه مع البرِّ وهما في الجنة . وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار » رواه ابن ماجه .

وعن صفوان بن سليم رضي الله عنه قال: قلنا يارسول الله : أيكون المؤمن جباناً قال : « نعم » . قلنا: أفيكون بخيلاً ؟ قال : « نعم » . قلنا : أفيكون كذاباً؟ قال: « لا » أخرجه مالك ، فانظر إلى الحديث الأول كيف جعل الصدق هادياً إلى البر وإلى الجنة، وجعل الكذب هادياً إلى الفجور وإلى النار . ثم انظر إلى الحديث الثاني كيف اعتبر الكذب أفحش من الجبن والبخل ، وأخرجه في هذه الصورة الشنيعة التي لا تجتمع هي والإيمان في نفس واحدة أبداً . !

وستقضي العجب حين تعلم أن الرسول ﷺ بالغ في تقبيح الكذب حتى في توافه الأشياء ومحقرات الأمور ! استمع إليه ﷺ وهو ينهى عن الكذب في المزاح بهذه الطريقة الرادعة فيقول : « ويلٌ للذي يحدث ليضحك منه القوم فيكذب ، ويلٌ له ، ويلٌ له » رواه أبو داود والترمذي . ثم استمع إليه ﷺ وهو يتوعد من يكذب في منامه ويقول : « من كذب في حلمٍ كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ، وليس بعاقدٍ بينهما أبداً » .

قل لي بربك: هل تلك الطبقة الأولى الممتازة التي سمعت ذلك وأضعاف ذلك بآذانها من فم رسولها والتي اعتنقت الإيمان بعد البحث والنظر ، واعتقدته طريقاً إلى سعادتها وعزِّها، والتي باعت أنفسها وأموالها لله بأن لها الجنة في نعيمها وخلودها. نقول: هل تلك الطبقة الكريمة ترضى بعد ذلك كله أن تركب رأسها وتنكص على أعقابها ؟ فتكذب على الله ورسوله ، أو لا تتحرّى الصدق في كتاب الله وسنة رسوله ! ذلك شططٌ بعيد لا يجوز إلا على عقول المغفلين ! .

العامل الرابع

أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا مُغْرَمين بالتفقُّه والتعلم ، مولَعين بالبحث والتنقيب ، مشغوفين بكلام الله وكلام رسول الله ، يعقدون المجالس لمدارسة القرآن وفهمه ، ويركبون ظهور المطايا لطلب العلم وأخذه . وكانت عناية الرسول بتعليمهم القرآن تفوق كل عناية ، يقرؤه عليهم ، ويخطبهم به ، ويزيِّن إمامته لهم بقراءته في صلاته ، وفي دروسه وعظاته . وكان فوق ذلك يحب أن يسمعه منهم كما يحب أن يقرأه عليهم . روى البخارى ومسلم أن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأ عليَّ القرآن . قلتُ : يا رسولَ الله . أَقرَأُ عليكَ وعليكَ أُنزِلَ ؟ قال : إنى أُحِبُّ أن أسمعه من غيرى . فقرأتُ عليهِ سورةَ النِّساء حتى إذا جِئتُ إلى هـذه الآيَة : « فَـكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلَاء شَهِيداً » قال : حَسْبُكَ الآنَ . فالتَفَتُّ إليـه فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفان .

وكذلك كان الصحابة، همتهم أن يقرءوا القرآن ويستمعوه . روى الشيخان عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعرفُ أصواتَ رُفْقَةِ الأشْعَرِيِّينَ بالليْلِ حين يَدْخُلون، وأعْرِفُ منازلهم من أصواتِهم بالقرآن بالليل ، وإن كُنْتُ لم أرَ منازلهم حين نزَلوا بالنَّهَارِ » .

وروى الدارمى وغيره بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول لأبى موسى الأشعرى : ذكِّرنا ربَّنا فيقرأ عنده القرآن . قال النووى : وقد مات جماعات من الصالحين بسبب قراءة من سألوه القراءة .

وقد سبق فى عوامل حفظ الصحابة للسنة مدى عنايتهم بالإقبال عليها والاهتمام بلقاء

رسول الله ﷺ للتعلُّم منه والأخذ عنه . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال: حدَّثني عَشَرَةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : كُنَّا نَدْرُس العِلم في مسجد قُباء إذْ خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ فقال : « تَعلَّموا ما شئتم أن تعلَّموا ، فلنْ يأجرَكُمُ الله حتى تعملوا » . رواه الدارمي موقوفاً على معاذ بسند صحيح . وكلمة العلم في هذا الحديث شاملة لعلم الكتاب وعلم السنة .

أليس هذا الوُلوع بالكتاب والسنة من دواعي تثبُّتهم فيهما ، كما هو من دواعي حفظهم لهما، لأن اشتهار الشيء وذيوعه ، ولين الألسنة به ، يجعله من الوضوح والظهور، بحيث لا يشوبه لَبْس ، ولا يخالطه زَيْف ، ولا يُقْبل فيه دخيل .

العامل الخامس

يسر الوسائل لدى الصحابة إلى أن يتثبَّتوا، وسهولة الوصول عليهم إلى أن يقفوا على جليَّة الأمر، فيما استغْلق عليهم معرفته من الكتاب والسنة. وذلك لمعاصرتهم رسول الله ﷺ يتصلون به في حياته ، فيشفي صدورهم من الريبة والشك ، ويريح قلوبهم بما يُشِعُّ عليهم من أنوار العلم وحقائق اليقين .

أما بعد غروب شمس النبوة ، وانتقاله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه . فقد كان من السهل عليهم أيضاً أن يتصلوا بمن سمعوا بآذانهم من رسول ﷺ ، والسامعون يومئذ عدد كثير وجم غفير ، يساكنونهم في بلدهم ، ويجالسونهم في نواديهم ، فإن شك أحدهم في آية من كتاب الله ، أو خبر عن رسول الله أمكنه التثبُّت من عشرات سواه، دون عَنَت ولا عسر !

العامل السادس

شجاعة الأصحاب شجاعةً فطرية ، وصراحتهم صراحةً طبيعية ، نَشئوا عليهما مُنذُ حداثتهم ، وطبعوا عليهما بفطرتهم وبيئتهم ، كأمة متبدِّية لا تعرف ختْلَ الحضارة الملوَّثة ، ولا تألف نفاق المدنية المذَبذَبة . ثم جاء الإسلام فعزَّز فيهم هذا الخلق الفاضل ، وزادهم منه ، وبنى حضارته الصحيحة ومدنيَّته الطاهرة عليه ، بمثل ، ما سمعت في أصدق الحديث وخير الهدى . حتى لقد كان الرجل منهم يقف في وسط الجمهور يردُّ على أمير المؤمنين وهو يلقي خطاب عرشه ردًّا قويًّا صريحًا خَشِنًا . بل كانت المرأة تقف في بُهْرَةِ المسجد الجامع فتقاطع خليفة المسلمين وهو يخطب ، وتعارض رأيه برأيها ، وتقرع حجَّته بحجتها فيما تعتقد أنه أخطأ فيه شاكلة الصواب ، وأمير المؤمنين في الحالين يغتبط بهاتيك الصراحة ويُسَرُّ بتلك الشجاعة ، ويعلن اغتباطه بموقف ذلك العربي الخشن الذي ردَّ عليه ، كما يعلن رجوعه عن رأيه إلى رأي هذه السيدة التي حاجَّتْه بين يديه ، وما أمر عمر ببعيد عنكم ، ولا مجهول لكم ، لا عند ولايته الخلافة وهو قائم يلقي خطاب عرشه ، ولا عند ما وقف على منبره ينهى عن التغالي في مهور النساء ! ! .

فهل يرضى العقل والمنطق أن تُجرح هذه الأمة الصريحة القوية وتتهم بالكذب أو بالسكوت على الكذب في كلام الله ، وفي سُنّة رسول الله ؟ ! .

ثم ألا يحملهم هذا الخلق المشرق فيهم على كمال التثبُّت ودقَّة التحري في كتاب الله وسنة رسول الله ؟ « لَقَدْ أَسْفَرَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ » ! .

العامل السابع

تكافُل الصحابة تكافلًا اجتماعيًا فرضه الإسلام عليهم ، فجعل عيونهم مفتَّحة لكل من يكذب على الله ، أو يفترى على رسول الله ، أو يخوض فى الشريعة بغير علم ، أو يفتى فى الدين بغير حجة .

أجل : لقد كان كل واحد منهم يعتقد أنه عضو فى جسم الأمة ، عليه أن يتعاون هو والمجموع فى المحافظة على المِلّة ، ويعتقد أنه لَبِنَةٌ فى بناء الجماعة ، عليه أن يعمل على سلامتها من الدَغَل والزغَل ، والافتراء والكذب ، خصوصاً فى أصل التشريع الأول وهو القرآن وأصله الثانى وهو سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبين يديك الكتاب والسنة ، فاقرأ فيهما إن شئت أدلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تجدها كثيرة متآخذة ، تقرّر ذاك التكافل الاجتماعى الإسلامى بين آحاد الأمة ، بما لا يَدَعُ مجالا لمفترٍ على اللهِ ، ولا يترك حيلة لحاطب ليلٍ فى حديث رسول الله .

استمع إلى كلام الحق وهو يحضُّ على دعوة الخير وفضيلة النصح ؛ إذ يقول سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ . وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » إلى أن قال جلّ ذكره : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » . وهكذا قدم الله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان به ، تنويهاً بجلالتهما . وحثًّا على التمسك بحبلهما ، وإشارة إلى أن الإيمان بالله لا يُصان ولا يكون إلا بهما .

وتدبّر قول الله تعالى في سورة المائدة: «لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ. ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ. لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ».

ثم تأمل حكم الله على بني الإنسان جميعاً بأنهم غريقون في الخسران، إلا مَنْ جمع عناصر السعادة الأربعة، وهي الإيمان، والعمل الصالح، والتوصية بالحق، والتوصية بالصبر في قوله سبحانه: «وَالْعَصْرِ: إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ».

سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، وشُوفِهوا بخطابه من فم رسول الله عن جبريل عن الله، ثم سمعوا بعد ذلك من كلام رسول الله أمثال ما يأتي: -

(١) يقول ﷺ: «والذي نفسي بيده لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر أو ليوشكن أن يبعث الله عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم». رواه الترمذي بسند حسن عن حذيفة رضي الله عنه.

(٢) وعن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْع والطاعة في العُسر واليُسر، والمنشَط والمكره، وعلى أَثَرَةٍ علينا، وعلى ألا نُنازع الأمر أهله، إلا أن تَرَوْا كُفراً بَواحاً (أي ظاهراً)، عندكم مِنَ الله تعالى فيه بُرهان، وعلى أن نقول الحقَّ أينما كُنَّا لا نخافُ في الله لَوْمَةَ لائِمٍ» رواه الشيخان.

فهل بعد هذا كله يُعقل أن يعبث الصحابة، أو يقرُّوا من يعبثُ بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؟!.

العامل الثامن

تعويدهم الصدق وترويضهم عليه عملا ، كما أرشدوا إليه وأدبوا به فيما سمعت علماً .

وأنت خبير بأن التربية غير التعليم ، وأن العلم غير العمل ، وأن نجاح الفرد والأمة مرهون بمقدار ما يَنْهلان من رحيق التربية ، وما يَقْطِفان من ثمرات الرياضة النفسية والقوانين الخلقية .

أما العلم وحده فقد يكون سلاح شقاء ونذير فناء ؛ كما نرى ونسمع ، وياهول ما نرى وما نسمع ! ! .

ولقد أدرك الإسلام هذه الناحية الجليلة فى بناء الأمم ، فأعارها كل اهتمام وعُنِىَ بالتّنفيذ والعمل أكثر مما عُنِىَ بالعلم والكلام . ولعلك لم تنس أنه ﷺ قال لمن يدرسون العلم فى مسجد قُباء تلك النصحية الذهبية الحكيمة « تعلّموا ما شِئْتُمْ أن تعلّموا ، فلن يأجُرَكُمُ الله حتى تعملُوا » ! .

ولعلك لم تنس أيضاً أن الإسلام شرع عقوبة من أشنع العقوبات، لمن اقترف نوعاً من الكذب وهو نوع الخوض فى الأعراض ، تلك العقوبة هى حدُّ القذف الذى يقول الحق جل شأنه فيه من سورة النور : « وَٱلذينَ يَرْمُونَ ٱلمحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبعَةِ شُهدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبداً وَأُولئِكَ هُمُ ٱلفَاسِقُونَ » .

فتأمل كيف عاقب هذا القاذف الكاذب بالجلد ثمانين ، وردَّ شهادته وحكم بأنه من الفاسقين ، بل قال : « وأولئك هم الفاسقُون » أى لا فاسق سواهم ولا خارج عن حدود الدين والأدب إلا هم !

ثم شنِّفْ مسمعيك بما يرويه أبو داود فى سننه من أن عبد الله بن عامر قال :

« جاء رسول الله ﷺ إلى بَيْتِنا وأنا صَبيٌّ صغيرٌ ، فَذَهَبْتُ لِأَلعبَ ، فقالت أُمّى : تعالَ حتى أُعْطِيَكَ . فقال ﷺ . وما أرَدْتِ أنْ تُعْطِيَهُ ؟ قالتْ : تمراً . فقالَ : أَمَا إنَّكِ لولَمْ تفعلى لَكُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبة » ! تصوَّر فى هذه التربية السامية كيف لم يسمح الرسول ﷺ لأمٍّ أن تَعِدَ طفلها الصغير وعداً غير صادق ، بل يسائلها : ما الذى كانت تعطيه لو جاء؟ ثم يقرر أنها لو خاست بعهدها هذا لكتبها الله عليها كذبة ! وهكذا يكتفى بذكر كلمة « كذبة » فى هذا المقام ردعاً لها وزجراً ، ومنه تعلم أن لفظ الكذب كان سوط عذاب يخيف الصحابة رجالًا ونساء . وذلك لما يسمعون عنه من شناعة ، ولما يعرفون فيه من بشاعة ! ولما تَأَصَّلَ فى نفوسهم من فضيلة الصدق وشرف الحق ! أفبعد هذه التربية العالية يصحُّ أن يُقال : إن الصحابة يكذبون على الله ورسوله ولا يَتَثَبَّتُون ! ألا إن هؤلاء من إفكهم ليهرفون بما لا يعرفون ، ويُسرفون فى تجريح الفضلاء واتهام الأبرياء ولا يستحون ، فويل لهم من يومهم الذى يُوعدون ! .

العامل التاسع

القدوة الصالحة ، والأُسوة الحسنة ؛ التى كانوا يجدونها فى رسول الله ﷺ ماثلةً كاملةً ، جذّابةً أخّاذة . ولا يَعْزُبَنَّ عن بالك أن القدوة الصالحة خير عامل من عوامل التعليم والتربية والتأديب والتهذيب ، خصوصاً بين نبيّ ومتّبعيه ، وأستاذ ومتعلّميه ، ورئيس ومرءوسيه ، وراع ورعيته .

وها نحن أولاء نرى علماء النفس والاجتماع ، وأقطاب التربية والتعليم ، وبُناة الأخلاق والأمم : نراهم لا يزالون يتحدّثون فى القدوة الصالحة ، ويوصّون بالقدوة الصالحة ، ويبحثون عن القدوة الصالحة ؛ وذلك لمكانتها من التأثير والإصلاح ، والتقويم والنجاح ، فى الأفراد والأُمم على سواء ! ! .

ولم يعرف التاريخ ولن يعرف قدوةً أسمى، ولا أُسوة أعلى، ولا إمامةً أسنى، من محمد ﷺ، فى كافَّة مناحى الكمال البشرى، خصوصاً خُلقَه الرضىَّ، وأدبه السنىَّ، ولا سيما صدقه وأمانته، وتحرِّيه ودقَّته !.

أجل: فقد كان ﷺ مشهوراً بالصدق، معروفاً بالأمانة، حتى من قبل بَعْثته ورسالته، فكان إذا سار أشاروا إليه بالبنان؛ وقالوا: هذا هو الصادق، وإذا حكم رضوا حكومته وقالوا: هذا هو الأمين !

وكانت هذه الفضائل المشرقة فيه، من بواعث إيمان المنصفين من أهل الجاهلية به. ولقد اضطرَّ أن يشهد له بها أعداؤه الألدَّاء، كما آمن بها أتباعه الأوفياء!

فهذا أبو سفيان بن حرب زعيم حزب المعارضة له يُقرُّ بين يدى قَيْصَر الرُّوم بصدق محمد وأنهم لم يحفظوا عليه كَذْبَةً واحدة قبل رسالته، ويكاد يؤمن القيصر متأثِّراً فى جملة ما تأثَّر، بهذه الشهادة التى انطلق بها لسان ألدِّ خصوم محمد يومئذ، ثم يقول فى التعليق على كلام أبى سفيان والتنويه بصدق محمد عليه الصلاة والسلام: « ما كان (أى محمد) لِيَذَرَ الكَذبَ على الناس ويكذبَ على الله »! والحديث طويل مشهور يرويه البخارى فى صحيحه. فراجعه إن شئت.

وهذا قائل قريش يقول للنبى ﷺ فى مَعْرِضٍ من المعارض: إنا لا نكذِّبك ولكن نكذِّب ما جئتَ به. وبسبب ذلك أنزل الله تعالى « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ. ».

ومما يذكر بالإعجاب والفخر لنبى الإسلام صلى الله عليه وسلم أنه عرض الإسلام على بنى عامر بن صَعْصَعَة، وذلك قبل الهجرة، وقبل أن تقوم للدين شوكة، فقال كبيرهم: أرأيْتَ إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على مَنْ خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بتلك الكلمة الحكيمة الخالدة:

« الأمرُ للهِ يضعهُ حيثُ يشاء » ! فقال له كبيرهم أفنهدف[1] نحورَنا للعرب دونك فإذا أظهرَكَ الله كانَ الأمرُ لغيرنا ؟ لا حاجةَ لنا بأمركَ .

وهنا تتجلى سياسة الإسلام ، وأنها سياسةٌ صريحة مكشوفة ، ورشيدة شريفة ، لا تعرف اللفّ والدوران ، ولا تعتمد الكذب والتضليل ، كما تتجلى صراحةُ نبيّ الإسلام ، وصدقُ نبيِّ الإسلام ، وشرفُ نبيِّ الإسلام ؛ عليه الصلاة والسلام ! ! .

نعم : لقد كان محمد ﷺ فى ضيق أىّ ضيق ، يحتاج إلى أقل معاونة من عدو أو صديق ، وهـذا حيٌّ من العرب يستطيع أن يكتسبه ويتقوى به ولـكنه عليه الصلاة والسلام ، لا يستطيع أن يعدَ فيخلف ، ولا أن يحدِّث فيكذب ، ولا أن يعاهد فيغدر !

يسألونه أن يكونوا الخلفاء منْ بعده إذا أسلموا فيقول بملءفيه « الأمرُ للهِ يضعهُ حيثُ يشاء » ولو أنه قال إن شاء الله مثلًا لدانوا له أجمعين ، وأصبحوا من حزبه وجنده المسلمين ! .

مرحى مرحى لسياسة الإسلام . وأخلاق نبيِّ الإسلام ! ! .

وإذا كانت هذه الأخلاق العليا هى منار القدوة للصحابة فى رسول الله ، فـكيف لا يقتبسون من هذه الأنوار ، ولا يضربون فى حياتهم على هــذه الأوتار ؟ فضلًا

---

(١) فى القاموس : أهدفَ له الشيء عرضَ ا هـ .

وقال فى لسان العرب ، الإهدافُ : الدنوُّ . أهدفَ له القومُ أى قربوا . . وكل شيء قد استقبلك استقبالًا فهو مهدف ومستهدف . ا هـ . وقال الزمخشرى فى أساس البلاغة : أهدفَ له الشيء واستهدف : انتصب وعرض . وقال عبد الرحمن بن أبى بكر لأبيه أبى بكر رضى الله تعالى عنهما : لقد أهدفتَ لى يوم بدر فصفتُ عنك ا هـ فالفعل لازم غير متعدٍ . ومعنى صفتُ عنك : ملت وأعرضت . تدبر .

عن أن يقال عنهم : إنهم يكذبون أو لا يتحرون فى كتاب الله وسنة رسـول الله « سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » .

العامل العاشر

سموُّ تربية الصحابة على فضائل الإسلام كلها ، وكمال تأدبهم بآداب هذا الدين الحنيف وشدةُ خوفهم من الله ، وصفاء نفوسهم إلى حـدٍّ لا يتفق والـكذب خصوصـاً الـكذب على الله تعالى ، والتجنِّى على أفضل الخليقة صلوات الله وسلامه عليه .

يقول علماء الأخلاق والمشتغلون بعلم النفس وعلوم الاجتماع : إن الـكذب جنايةٌ قبيحةٌ ، لا يمكن أن يصدر إلا عن نفسٍ ساقطةٍ لم تتأدب ، ولا يتصور أن يفشو إلا فى شعبٍ شاذ لم يتهذب .

ونحن إذا استعرضنا تاريخ الصحابة — رضوان الله عليهم — نشاهد العجب فى عظمة تأديب الإسلام لهم ، وتربيته إياهم تربيةً ساميةً جعلتهم أشباه الملائـكة يمشون على الأرض ، لاسيما ناحية الصدق والأمانة ، والتثبت والتحرى والاحتياط . وذلك من كثرة ماقرَّر القرآن فيهم لهـذه الفضائل ، ومن عناية الرسول ﷺ بهم علماً وعملاً ومراقبة، حتى أصبحوا بنعمة من الله وفضلٍ منطبعةً قلوبهم على هذه الجلائل ، متشبعةً نفوسهم بمبادئ الشرف والنبل ، تأبى عليهم كرامتهم أن يقاربوا الـكذب أو يقارفوا التهجم . لاسيما التهجم على مقام الـكتاب العزيز ، وكلام صاحب الرسالة ﷺ .

قالت عائشة رضى الله عنها : « ما كانَ خلُقٌ أشدَّ على أصحاب رسول الله ﷺ منَ الـكذبِ . ولقد كان رسول الله ﷺ يطَّلعُ على الرجلِ منْ أصحابهِ على الـكذبِ فما ينجلى منْ صدرِه حتى يعلم أنهُ أحدثَ توبةً للهِ عزَّ وجلَّ » رواه مسلم فى مقدمة صحيحه.

عوامل أخرى

إذا استعرضت بعض العوامل السابقة فى حفظ الصحابة للكتاب والسنة ، تجد منها عوامل صالحة أيضاً لأن تكون دواعى تثبتهم فى الكتاب والسنة، ولهذا أكتفى بالإشارة إليها دون إعادتها :

١ ـ فذكاء العرب وقوة حوافظهم وصفاء طبعهم إلى آخر ما ذكرنا فى العامل الثانى هناك . لا شك أنه داعية من دواعى تثبتهم أيضاً ، لأن الشأن فيمن نشأ على هذه الصفات؛ أن يكون واثقاً مما حفظ ، فلا يحتاج إلى تزيُّدٍ ولا يقع فى تهجم .

٢ ـ وحبُّ الصحابة لله ولرسوله عامل كذلك من عوامل التثبت ، لأن المحب الصادق لا يقنع إلا بما يثق أنه كلام حبيبه من غير لبسٍ ولا شك، ولا يرضى أن يفترى الكذب على حبيبه ، ولا يقبل أن يتقول عليه أو يتهجم فى كلامه ، خصوصاً إذا عرف أنه يكره ذلك منه . (انظر العامل الرابع من عوامل الحفظ) .

٣ ـ وموقف الصحابة فى محراب الفصاحة والبيان ، وعلو كعبهم فى نقد الكلام ، وكمال ذوقهم فى إدراك إعجاز القرآن وبلاغة النبى عليه الصلاة والسلام، كل أولئك ييسر عليهم التثبت ، ويهون عليهم أن يردوا ما ليس من كلام الله وكلام رسوله، ضرورة أنهم يدركون الفوارق بين الأساليب الفاضلة والمفضولة، ويزنون كلامهم بموازينهم البلاغية الصادقة . (انظر العامل الخامس من عوامل الحفظ) .

٤ ـ وعلم الصحابة بمنزلة الكتاب والسنة من الدين، يجعلهم بلا شك يهتمون بالتثبت منهما ، والحيطة لهما . (انظر العامل السابع من عوامل الحفظ) .

٥ ـ واقتران الكتاب بالإعجاز ، واقتران السنة ببعض المعجزات والغرائب ، ثم ارتباط كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول بالحوادث والوقائع ، كل أولئك مما يجعل

النفوس تتوثق منهما ولا تشتبه فيهما ولا تقبل التزيد والكذب عليهما . (انظر العامل الثامن والتاسع من عوامل الحفظ) .

إذا جمعت هذه العوامل وأمثالها إلى العشرة المسطورة بين يديك ، رأيت بضعة عشر عاملا من الدواعي المتوافرة ، والأدلة القائمة ، على أمانة الصحابة وتثبتهم من الكتاب والسنة .

مظاهر هذا التثبت

وهكذا نتصفح تاريخ الصحابة ، ونقتفي آثارهم ، فإذا هي شواهد حق على تغلغل فضيلة الصدق فيهم ، وشدة نفورهم ، ونقاء ساحتهم من الكذب وما يشبه الكذب . هذا عمر رضي الله عنه يقول : « أَحبُّكُمْ إِلَيْنَا مَالَمْ نَرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ ٱسْماً ، فَإِذا رَأَيْنَا كُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنا أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً ، فَإِذَا ٱخْتَبَرْنَا كُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثاً » . وهذا عليٌّ كرم الله وجهه يقول : « أعظمُ الخطايا عندَ ٱللهِ عزّ وجل اللسانُ الكذوبُ » . ويقول مرة أخرى : « إذا حدثتكمْ عنْ رسول الله ﷺ ، فلأَنْ أخِرَّ منَ السماء أحبُّ إليَّ منْ أن أكذبَ عليهِ » .

وإن شئتم فاعجبوا من سعيد بن المسيب وهو أحد من ربّاهم الصحابة : رمدتْ عيناه مرةً حتى بلغ الرمد خارجهما (والرمد وسخٌ أبيض من مجرى الدمع من العين) فقيل له : لو مسحتَ عينيك . فقال : وأين قول الطبيب : لا تمسَّ عينيك فأقول : لا أفعل ؟ ! .

وتدبروا ما رواه مسلم بسنده عن مجاهد قال : جاء بشير العدوى إلى ابن عباس ، فجعل يحدِّث ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجعل ابن عباس

لا يَأْذَنُ له ، ولا ينظر إليه . فقال : يابن عباس ، مالى لا أراك تسمع لحديثى ، أحدِّثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع ! فقال ابن عباس : إنَّا كنَّا مرةً إذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول ﷺ : ابتَدَرَتْهُ أَبْصَارُنَا ، وَأَصْغَيْنَا إليه بآذاننا ، فلما رَكِبَ الناسُ الصعب والذَّلول لم نأخذ من الناس إلا مانعرف .

ومن هذا الورع البالغ والحذر الدقيق، تحرَّج كثير من أكابر الصحابة عن الرواية والتحديث ، فلم يسمع منهم إلا النزر اليسير، مع أن لديهم من رسول الله الغَمْر الكثير. يُحدِّث ابن الزبير ـ رضى الله عنه ـ فيقول : قلت لأَبى : مالى لاأسمعك تحدِّث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان ؟ فقال : أَمَا إنِّى لم أُفارقهُ مُنذُ أسلمت ولكنى سمعته يقول : من « كذبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » رواه البخارى وأبو داود .

وإذا كان هذا مظهراً من مظاهر حذرهم واحتياطهم للسنَّة النبوية ، فماذا تقدر من مظاهر حذرهم واحتياطهم لكتاب الله العزيز ؟ ! إنى أعتقد أنك إذا رجعت إلى أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف ، تشاهد العجب العاجب من روائع هذه المظاهر .

فهذا عمر يأخذ بخناق هشام بن حكيم ويسوقه إلى النبى ﷺ ومانقَم عليه إلا أنه قرأ سورة الفرقان على وجهلم يقرأه عمر ، ولم يكن يعرف عمر أنه هكذا نزل ، ولم يرسل عمر هشاماً حتى انتهى به إلى رسول الله ﷺ وأمره الرسول أن يرسله ، ثم استقرأهما عليه الصلاة والسلام ، وقال فى قراءة كليهما : « هٰكَذَا أُنْزِلَتْ ». وقال :« إنَّ هٰذَا القرآن أُنزل عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فاقرءوا ماتيسر منهُ » هذا ملخَّص ما كان بين عمر وهشام ، ومثل ذلك وقع من أُبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وغيرهما مع أصحابهم، مما تعرضه عليك الروايات المبسوطة هناك فى هذا الموضوع ! .

أضف إلى هـذا تلك الدقّة البالغة التى أجملناها لك فى دستور أبى بـكر ودستور عثمان رضى الله عنهما فى جمع القرآن بالصحف والمصاحف ، وهى على مقربة منك . فارجع إليها إن شئت .

ويشبه هذين الدستورين فى جمع القرآن ، دستور أبى بكر فى حماية السنة والحيطة لها والتثبُّت منها ، إذ جمع أصحاب رسول الله ﷺ وشاورهم فى الأمر ، ثم انتهوا إلى اتباع ما يأتى :ـ

أن ينظروا فى خبر الواحد نظرةً فاحصة ، يعرضونه على كتاب الله تعالى وما تواتر أو اشتهر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن خالف شيئاً منها زيَّفوه وردوه ، وإن لم يخالف نظروا نظرة ثانية فيمن جاء به ، فلا يقبلون إلا ممن عرف بالعـــدالة والضبط والصدق والتحرى ، وإلا طالبوه بالتزكية من طريق آخر يشهد معه ويروى مارواه ، وبرغم هذا وذاك فقد التزموا التقليل من الرواية لأن الإكثار مَظِنَّة الخطأ ومثار الاشتباه .

نعم : حداهم ورعهم وشدة خوفهم من الله ، أن يحصِّنوا حديث رسول الله بهذا الدستور الدقيق الرشيد القائم على رعاية هذه القواعد الثلاث : النظر فى الخبر والنظر فى المخبر ، والإقلال من الرواية .

ويرحم الله ابن الخطاب فقد أخذ بالأسس التى وضعها أبو بكر لحياطة الكتاب والسنة ، ثم بنى عليها ، وشمخ بها ، وزاد فيها ، حتى تشدّد مع الأمناء الموثَّقين ، وضيَّق الخناق على الصحابة المكثرين ، حتى رُوى أنه حبس ثلاثة من مشاهير الصحابة سنةً كاملة ، ومانقم منهم إلا أنهم أكثروا الرواية . وإذا صحّ هذا فهو درسٌ قاسٍ من الفاروق لعامة الشعب فى الاحتياط لأصول التشريع والتبصُّر والتدقيق فى الرواية تحملا وأداء ، على حدِّ قول الشاعر :

« إنى وقتلى سُلَيْكا ثم أَعْقِلَهُ كالثَّوْرِ يُضرَبُ لَمَّا عافتِ البقرُ »

ثم جاء دور عثمان وعلى ، فحذَوا حَذْوَ أبى بكر وعمر ، إذ أوى الكتاب فى كنفهما إلى ركن ركين وظل ظليل ، وبقيت السنة فى عهدهما رفيعةَ العِماد ، قوية السِّناد ، حتى تلقَّاها بنو أمية على ما تركها الخلفاء ، بيضاءَ مشرقة ، ليلُها كنهارها .

ولبثت السنة فى العهد الأموى معتصمة بعزَّتها ومَنَعَتِها ، حتى طلع نجم الملك العادل عمر بن عبدالعزيز ، على رأس المائة الثانية فردَّد صدى جدّه عمر بن الخطاب ، فى ضرورة صونِ السنة ووعْيها ، ولكن رأى أن يكون ذلك عن طريق الكتابة والنقش فى السطور بعد أن وُعيت فى العهد الماضى عن طريق الحفظ فى القلوب والصدور . وبذلك انتقل الحديث النبوى إلى دور جديد سعيد ، هو دور التأليف والكتابة والتقييد ، مما كان له أبلغ الأثر فى وصوله إلينا موزوناً بأدقِّ موازين العلم والبحث الدقيق .

نتيجة ذلك

ولقد كان من نتيجة ذلك كله أن أُحيط الكتاب والسنة بسياجٍ من الفولاذ والحديد ، وأن حُفظ الدين من العبث بأصول التشريع ، وأن أخذ خلف الأمة درساً قيِّماً عن سلفهم الصالح فى ضرورة الاستبراء للدين ، واليقظة فى حراسة الكتاب والسنة ، ووجوب نقد الرُّواة وفحص المرويَّات. وبهذا أيضاً أُخذ الطريق على الدس والدساسين وحيكَت الشِّباك للدجالين والوضَّاعين ، وأصبح الدين الإسلامى منيعَ الحوْزة محفوظ الذمار ، إلى درجة تفاخر بها شعوب العالم ؛ وأمم الأرض ، وأديان الدنيا ، مما لا يكاد يوجد مثله ولا قريبٌ منه فى تاريخ أية شريعة من الشرائع السماوية والوضعية ، منذ خلق الله السموات والأرض إلى يوم الناس هذا ! .

الموقف خطير

ولا تحسبنَّ أيها القارئ الكريم أنى بالغت أو أسرفت، وإن كنت قد أطلت وأكثرت، فإن هذا البحث جليل وخطير يتّصل فى جلالته وخطورته بتلك الطائفة الممتازة التى اختارها الله لتلقى كتابه، ومعاصرة رسوله ﷺ وحسن النيابة عنه فى نشر هداية الإسلام، والدفاع عن حِمَى الدين الحنيف.

أولئك هم حجر الزاوية فى بناء هذه الأمة المسلمة، عنهم قبل غيرهم تلقَّت الأمة كتاب الله، وحذَقت سنة رسول الله، وعرفت تعاليم الإسلام، فالغضُّ من شأنهم والتحقير لهم، بل النظر إليهم بالعين المجرَّدة من الاعتبار، لا يتفق والمركز السامى الذى تبوَّءوه، ولا يوائم المهمة الكبرى التى انتدبوا لها ونهضوا بها، كما أن الطعن فيهم والتجريح لهم، يزلزل بناء الإسلام، ويقوّض دعائم الشريعة، ويشكّك فى صحة القرآن، ويضيّع الثقة بسنة سيد الأنام!.

ومن أشد ما يُجرح به الصحابة اتهامهم بسوء الحفظ وعدم الضبط ولَمْزُهُم بالكذب والافتراء على الله ورسوله، ونبزهم بعدم التثبُّت والتحرى فى نقلهم كتاب الله وسنة رسوله إلى الأمة!.

لذلك عُنِى علماء الإسلام قديماً وحديثاً بالدفاع عن عَرِين الصحابة، لأنه ـ كما رأيت ـ دفاعٌ عن عَرِين الإسلام. ولم يكن ذلك الدفاع نَزْوَةَ هَوى، ولا نَبْوَةَ عصبية، بل كان نتيجة لدراسات تحليلية، وأبحاث تاريخية، وتحقيقات بارعة واسعة، أحصتهم عددا، ونقدتهم فرداً فرداً، وعرضتهم على أدقِّ موازين الرجال، مما تُباهى به الأمة الإسلامية كافةَ الأمم والأجيال.

وبعد هذا التحقيق والتدقيق، خرج الصحابة رضى الله عنهم من بَوْتَقة هـذا البحث، وإذا هم خير أمة أُخرجت للناس، وأسمى طائفة عرفها التاريخ، وأنبل

أصحاب لنبيّ ظهر على وجه الأرض، وأوعى وأضبط جماعة لما آستُحْفِظُوا عليه من كتاب الله وهَدْى رسول الله ﷺ .

وقد اضطُرّ أهل السنة والجماعة، أن يعلنوا رأيهم هذا كعقيدة، فقرّروا أن الصحابة عدول . ولم يشذَّ عن هذا الرأى إلا المبتدعةُ والزنادقة قبّحهم الله - . قال أبو زُرْعة الرازى : « إذا رأيت الرجل ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك لأن الرسول حق ، والقرآن حق ، وما جاء به حق، وإنما أدى ذلك إلينا كلّه الصحابة. وهؤلاء (يعنى الزنادقة) يريدون أن يجرّحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسنة والجرْح بهم أولى ، وهم زنادقة » ! اهـ .

شهادة عليا من الله للصحابة

وفوق ماتقدم نجد الحق سبحانه وتعالى، يمتدح أصحاب محمد ﷺ غير مرة، ونرى الرسول ﷺ يُطْرِى صحابته فى غير موضع . اقرأ إن شئت قوله جلّ جلاله : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ ، وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » إلى آخر سورة الفتح . ثم اقرأ إن شئت قوله عزّ اسمه: « لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَى » وقوله جلّت حكمته : « لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » إلى قوله : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » فى سورة الحشر . وتأمل قوله عزّ من قائل : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » الخ ، وقوله : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» ولا ريب أن الصحابة هم المشافَهون بهذا الخطاب ، فهم داخلون فى مضمونه بادئ ذى بدء ، متحقّقون بمزاياه أول الأمر ! !

شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه

وكذلك نقرأ فى صحيح السنَّة ما يشهد بفضل الصحابة وكمال امتيازهم على الثقلين سوى النبيين والمرسلين . روى الترمذى وابن حبان فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهَ اللهَ فى أصحابى ، لا تتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا ، فمنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّى أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِى أَبْغَضَهُمْ ، وَمَنْ آذاهُمْ فقد آذانى وَمَنْ آذانى فقد آذَى اللهَ فيُوشِكُ أن يأْخُذَهُ » .

وروى البزّار فى مُسنده برجال كلهم موثَّقون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إنَّ اللهَ اختارَ أصحابى على الثَّقَلَيْنِ سِوَى النبيِّينَ والمُرْسَلينَ » وجاء فى صحيح البخارى ومسلم أنه ﷺ قال فى شأن أصحابه: « لَوْ أنفَقَ أحدُكم مثلَ أُحُدٍ ذَهباً ما أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ » . وتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلونَهُمْ . . . » .

فأنت ترى من هذه الشهادات العالية فى الكتاب والسنة، ما يرفع مقام الصحابة إلى الذِّرْوَة ، وما لا يترك لطاعن فيهم دليلًا ولا شبه دليل .

حكمة الله فى اختيار الصحابة

والواقع أن العقل المجرّد من الهوى والتعصُّب ، يُحيل على الله فى حكمته ورحمته ، أن يختار لحمل شريعته الختامية أمةً مغموزة أو طائفة ملموزة تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيراً . ومن هنا كان توثيق هذه الطبقة الكريمة طبقة الصحابة، يعتبر دفاعاً عن الكتاب والسنة وأصول الإسلام من ناحية ، ويعتبر إنصافاً أدبيًّا لمن يستحقُّونه من ناحية ثانية ، ويعتبر تقديراً لحكمة الله البالغة فى اختيارهم لهذه المهمة العظمى من ناحية ثالثة . كما أن توهينهم

والنيل منهم ، يُعَدُّ غَمْزاً فى هذا الاختيار الحكيم ، ولَمْزاً فى ذلك الاصطفاء والتكريم ، فوق ما فيه من هدم الكتاب والسنة والدين .

على أن المتصفح لتاريخ الأمة العربية وطبائعها ومميِّزاتها ، يرى من سلامة عنصرها ، وصفاء جوهرها ، وسموّ مميزاتها ، ما يجعله يحكم مطمئنًّا ، بأنها صارت خير أمة أُخرجت للناس ، بعد أن صَهرَها الإسلام . وطهَّرها القرآن ، ونفى خبثَها سيدُ الأنام ، عليه الصلاة والسلام .

ولكن الإسلام قد ابتُلى حديثاً بمثل أو بأشدَّ مما ابتُلى به قديماً ، فانطلقت ألسنةٌ فى هذا العصر ترُجف فى كتاب الله بغير علم ، وتخوض فى السنة بغير دليل ، وتطعن فى الصحابة بدون استحياء ، وتنال من حَفَظة الشريعة بلا حجّة ، وتتَّهمهم تارةً بسوء الحفظ ، وأخرى بالتزيُّد وعدم التثبُّت وقد زوَّدناك وسلَّحناك فانزل فى الميدان ولا تخشَ عِداك . « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا ٱللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » نصرنا الله بنصرة الإسلام ، وثبّت منا الأقدام والأقلام ، والحمد لله فى البدء وفى الختام ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحابته الأعلام ، آمين .

المبحث التاسع

فى ترتيب آياتِ القرآن وسُوَره

معنى الآية :

آيات القرآن جمع آية ، والآية تطلق فى لسان اللغة بإطلاقات :

أولها : المعجزة . ومنه قوله تعالى : «سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ» أى معجزة واضحة .

ثانيها : العلامة . ومنه قوله تعالى : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ » أى علامة ملكه .

ثالثها : العبرة . ومنه قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً » أى عبرةً لمن يعتبر .

رابعها : الأمر العجيب . ومنه قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً »

خامسها : الجماعة . ومنه قولهم : خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم . والمعنى أنهم لم يدَعوا وراءهم شيئاً .

سادسها : البرهان والدليل ، نحو قوله جلَّ ذكره :« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ »والمعنى أن من براهين وجود الله واقتداره واتصافه بالكمال،خلق عوالم السموات و الأرض واختلاف الألسنة والألوان. تلك كلها إطلاقات لغوية ، وقد يستلزم بعضها بعضاً . ثم خُصَّت الآية فى الاصطلاح بأنها طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة فى سورة من القرآن ، والمناسبة بين هذا المعنى الاصطلاحى والمعانى اللغوية السالفة واضحة، لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، ثم هى علامة على صدق من جاء بها ﷺ ، وفيها عبرة وذكرى لمن أراد أن يتذكر،وهى من الأمور العجيبة لمكانها من السموِّ والإعجاز،وفيها معنى الجماعة لأنها مؤلفة من جملة كلمات وحروف ، وفيها معنى البرهان والدليل على ماتضمنته من هداية وعلم، وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته ، وعلى صدق رسوله فى رسالته .

طريقة معرفة الآية :

لاسبيل إلى معرفة آيات القرآن إلا بتوقيف من الشارع ،لأنه ليس للقياس والرأى مجال فيها ، إنما هو محض تعليم وإرشاد، بدليل أن العلماء عدُّوا « الٓمٓصٓ » آية ، ولم يعدُّوا نظيرها وهو « الٓمٓر » آية ، وعدُّوا « يٓسٓ » آية ، ولم يعدُّوا نظيرها وهو « طسٓ » آية ، وعدُّوا « حمٓ عٓسٓقٓ » آيتين ، ولم يعدُّوا نظيرها وهو « كهيعٓصٓ » آيتين ، بل آية واحدة ، فلو كان الأمر مبنيا على القياس لـكان حكم المثلين واحداً فيما ذكر ، ولم يجىء هكذا مختلفاً .

ذلك مذهب الـكوفيين ، لأنهم عدُّوا كل فاتحة من فواتح السور التى فيها شىء من حروف الهجاء آية سوى حمٓ عٓسٓقٓ ، فإنهم عدوها آيتين ، وسوى طسٓ . ولم يعدوا من الآيات مافيه « ر » وهو « الٓر » و « الٓمٓر »، وما كان مفرداً وهو « ق، ص،ن » أى لم يعدُّوا شيئاً منها آية .

وغير الـكوفيين لا يعتبرون شيئاً من الفواتح آية إطلاقاً . وحيث قلنا : إن المسألة توقيفية ، فلا يشتبهن عليك هذا الخلاف . لأن كُلًّا وقف عند حدود مابلغه أو علمه . ولاتقولن كيف عدوا ماهو كلة واحدة آية ؟ لأن الوارد عن الشارع هو هذا ، كما عدت كلة « الرحمن » فى صدر سورة الرحمن آية ، وكما عدت كلة « مدهامتانِ » آية ،وقوفاً عند الوارد .

أخرج البخارى وأبو داود والنسائى عن أبى سعيد بن المعلى قال : كنتُ أصلى فى المسجدِ ، فدعانى رسولُ اللهِ ﷺ فلم أُجبهُ ، ثم أتيتهُ فقلت : يا رسولَ اللهِ إنى كنتُ أصلى . فقال : ألمْ يقل اللهُ تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ». ثم قال : لأعلِّمنكَ سورةً هىَ أعظمُ السورِ فى القرآنِ قبلَ أنْ تخرُجَ منَ المسجدِ ثمَّ أخــذَ بيدى ، فلما أرادَ أنْ يخرُجَ قلت له : ألمْ تقلْ :

لأعلِّمنكَ سورةً هى أعظمُ سورةٍ فى القرآنِ ؟ قالَ : ٱلحمدُ اللهِ رَبِّ العَالَمينَ » هىَ السبعُ المثانى والقرآنُ العظيمُ الذى أوتيتهُ ، اهـ . فهذا الحديث يدل على أن الفاتحة سبع آيات ، وعلى أنها هى المرادة بالسبع المثانى فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ » .

وأخرج الترمذى والحاكم عن أبى هريرة أنه قال : قال النبى ﷺ « إنَّ لكلِّ شىءٍ سناماً ، وإن سنامَ ، القرآنِ سورةُ البقرةِ ، وفيهاَ آيةٌ هىَ سيدةُ آى القرآن : آيةُ الكرسى » اهـ .

وأخرج مسلم والترمذى عن أبىٍّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ : « ياأبا المنذرِ. أتدرى أىُّ آيةٍ منْ كتابِ الله معكَ أعظمُ ؟ قلت: « ٱللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ، فضربَ فى صدرى وقال ليهنكَ العلم أبا المنذرِ » اهـ .

وأخرج الخمسة إلا النسائى عن أبى مسعود البدرى أنه قال: قال النبى ﷺ: « من قرأَ بالآيتين منْ آخر سورةِ البقرة فى ليلةٍ كفتاهُ » اهـ .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده عن ابن مسعود قال « أقرأنى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سورةً منَ الثلاثينَ من آلِ حَم » قال : يعنى الأحقاف ، لأن السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت الثلاثين .

وقال ابن العربى: ذكر النبى صلى الله عليه وسلم: « أنَّ الفاتحة سبعُ آياتٍ ، وسورةَ الملكِ ثلاثونَ آيةً » اهـ .

رأىٌ آخر :

وبعض العلماء يذهب إلى أن معرفة الآيات، منه ماهو سماعىٌّ توقيفىٌّ، ومنها ماهو قياسىٌّ ، ومرجع ذلك إلى الفاصلة ، وهى الكلمة التى تكون آخر الآية ، نظيرها قرينة السجع فى النثر ، وقافية البيت فى الشعر . يقولون : فما ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم

وقف عليه دائماً تحقّقنا أنه فاصلة ، وما وصله دائماً تحقّقنا أنه ليس فاصلة ، وماوقف عليه مرةً ووصله أُخرى احتمل الوقفُ أن يكون لتعريف الفاصلة أو لتعريف الوقف التامّ أو للاستراحة ،واحتمل الوصلُ أن يكون غير فاصلة أوفاصلة وصلها لتقدّم تعريفها، وفى هــذا مجالٌ للقياس ، وهو ماأُلحق غير المنصوص عليه بالمنصوص عليه لأمر يقتضى ذلك . ولا محظور فيه لأنه لا يؤدى إلى زيادة ولا نقصان فى القرآن ، وإنما غايته تعيين محل الفصل أو الوصل .

وقد يُلاحظ فى الـكلمة الواحدة من القرآن أمران ، يقتضى أحدهما عدّها من الفواصل ، والآخر يقتضى خلاف ذلك . مثال ذلك كلمـة « عليهم » الأولى فى سورة الفاتحة،منهم من يعتبرها رأس آية،ومنهم من لا يراها كذلك. وسبب هذا أنهم اختلفوا فى البسملة أهى آية من الفاتحة أم لا ؟ مع اتفاقهم على أن عـدد آيات الفاتحة سبع . فالذين ذهبوا إلى أن البسملة آية من الفاتحة جعلوا « صِراطَ ٱلَّذِينَ أَنعمْتَ عليهِمْ » إلى آخر السورة آية واحدة . والذين ذهبوا إلى أن البسملة ليست آية منها جعلوا الآية السابعة ما بعد كلمة « عَلَيْهِمْ » الأولى ، واعتبروا هذه الـكلمة فاصلة لوقوعها فى آخر الآية السادسة . ومن المرجحات لعدِّها فاصلة تحقُّق التناسب بين الآيات فى المقدار ، بخلاف ما إذا لم يعتبر فاصلة فإن هذه الآية الأخيرة تطول وتزيد على ما سواها كثيراً . ومن المرجحات لعدم عدِّها فاصلة أنها لا تشاكل فواصل الفاتحة ، فإنه جاء فى كل واحدة منها قبل الحرف الأخير ياءمدٍّ بخلاف هذه.أضف إلى ذلك أنه لم تجىء فاصلة على هذا النَّمط فى سورة من السور .

واعلم أنه قد تطلق الآية القرآنية ويراد بعضها أو أكثر . ولـكن على ضربٍ من المجاز والتوسُّع ، فلا تتوقفن فيه . مثال إطلاق الآية على بعضها ، قول ابن عباس : أرجَى آيةٍ فى القرآن : « وَإِنَّ رَبَّـكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » فإن هــذه

الجملة الكريمة بعض آية باتفاق . ومثال إطلاق الآية على أكثر منها قول ابن مسعود : أحْكَمُ آيةٍ « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » . فإنهما آيتان باتفاق .

عدد آيات القرآن :

قال صاحب التبيان مانصه : وأما عدد آى القرآن فقد اتفق العادُّون على أنه ستة آلاف ومائتا آية وكسر ، إلا أن هذا الكسر يختلف مبلغه باختلاف أعدادهم :

ففى عدد المدنى الأول سبع عشرة ، وبه قال نافع .

وفى عدد المدنى الأخير أربع عشرة عند شيبة ، وعشر عند أبى جعفر .

وفى عدد المكى عشرون .

وفى عدد الكوفى ست وثلاثون . وهو مروىٌّ عن حمزة الزيَّات .

وفى عدد البصرى خمس، وهو مروى عن عاصم الجحدرى . وفى رواية عنه أربع، وبه قال أيوب بن المتوكل البصرى ، وفى رواية عن البصريين أنهم قالوا: تسع عشرة، وروى ذلك عن قتادة .

وفى عدد الشامى ست وعشرون وهو مروىٌّ عن يحيى بن الحارث الذمارى اهـ .

وقال صاحب التبيان أيضاً قبل ذلك مانصه : « عدد المكى منسوب إلى عبد الله ابن كثير أحد السبعة ، وهو يروى ذلك عن مجاهد عن ابن عباس عن أُبىٍّ بن كعب .

وعدد المدنى على ضربين : عدد المدنى الأول وعدد المدنى الأخير . فعدد المدنى الأول غير منسوب إلى أحد بعينه . وإنما نقله أهل الكوفة عن أهل المدينة مُرْسَلاً ، ولم يسموا فى ذلك أحداً ، وكانوا يأخذون به وإن كان لهم عدد مخصوص . وعدد المدنى الأخير منسوب إلى أبى جعفر بن يزيد بن القعقاع أحد العشرة ، وشَيبة ابن نِصَاح . وقد رواه عنهما إسماعيل بن جعفر بن أبى كثير الأنصارى بواسطة

سليمان بن جماز . وقد وهم من نسب عددالمدنى الأول إلى أبى جعفر وشيبة ، وعددالمدنى الأخير إلىإسماعيل بن جعفر. وكأن الذى أوقعه فى ذلك ماذكر فى بعض الكتب من أن نافعاً روى عنهما عدد المدنى الأول ، وأن أبا عمرو عرض العدد المذكور على أبىجعفر، فإن رواية ذلك عنهما لاتقتضى نسبته إليهما . وأما نسبة عدد المدنى الأخير إليهما فهو مما لاريب فيه » اهـ . ما أردنا نقله ، تنويراً فى هـذا الموضوع ، الذى اضطربت فيه بعض النقول .

سبب هذا الاختلاف :

سببهذا الاختلاف أن النبى ﷺ كان يقف على رءوس الآى تعليماً لأصحابه أنها رءوس آىٍ ، حتى إذا علموا ذلك وصل ﷺ الآية بما بعدها طلباً لتمام المعنى، فيظن بعض الناس أن ماوقف عليه النبى ﷺ ليس فاصلة ، فيصلها بما بعدها معتبراً أن الجميع آية واحدة ، والبعض يعتبرها آيةمستقلة فلا يصلها بما بعدها. وقد علمت أن الخطب فى ذلك سهل ، لأنه لايترتب عليه فى القرآن زيادة ولا نقص .

وآيات القرآن مختلفة فى الطول والقصر ، فأطول آيةهى الدَّيْن فى سورةالبقرة التى هى أطول سورة ، وأقصر آية كلمة « يسٓ » الواقعة فى صدر سورة يسٓ .

فوائد معرفة الآيات :

يزعم بعض الناس أنه لافائدةمنمعرفة آيات القرآن. والرد عليهم نذكر لهذه المعرفة ثلاث فوائد لافائدة واحدة :

(الفائدة الأولى): العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبىصلى الله عليه وسلم . وفى حكمها الآية الطويلة التى تعدل بطولها تلك الثلاث القصار . ووجه ذلكأن الله تعالى أعلن التحدِّى بالسورة الواحدة فقال سبحانه : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى

عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ » والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطـول سورة . وأقصر سورة فى القرآن هى سورة الكوثر ، وهى ثلاث آيات قصار . فثبت أن كل ثلاث آيات قصار معجزة ، وفى قوّتها الآية الواحدة الطويلة التى تكافئها .

(الفائدة الثانية) : حسن الوقف على رءوس الآى عند من يرى أن الوقف على الفواصل سُنَّة ، بناءً على ظاهر الحديث الذى استدلوا به فيما يرويه أبو داود عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ قطَّع قراءته آيةً آية ، يقول « بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ثم يقف. « الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِين » ثم يقف. « الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ » ثم يقف .

قال صاحب التبيان فى موضع آخر ما نصه : (قال بعض العلماء : وفى الاستدلال به - أى بذلك الحديث - على ماذكر نظر ، وذلك لأنه حديث غريب غير متَّصل الإسناد. رواه يحيى بن سعد الأموى وغيره عن ابن جريج عن ابن أبى مُليكة عن أم سلمة . والأصحُّ ما رواه الليث عن ابن أبى مليكة عن يعلى بن مالك أنه سأل أمَّ سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته فقالت : مَا لَكُمْ وَصَلَاتَهُ ؟ ثم نعتَتْ قِرَاءتَهُ مُفَسَّرَةً حَرْفاً حَرْفاً . ذكر ذلك الترمذى) اهـ .

أقول : ويمكن الجمع بين هذين الحديثين بأن النبى ﷺ كان تارةً يقف على كل فاصلة ولو لم يتم المعنى ، بياناً لرءوس الآى . وكان تارةً يتبع فى الوقف تمام المعنى فلا يلتزم أن يقف على رءوس الآى ، لتكون قراءته مفسرة حرفاً حرفا . وعلى هذا يمكن أن يقال : حينما كان الناس فى حاجة إلى بيان الآيات حَسُنَ الوقف على رءوس الآى ، ولو لم يتم المعنى ، وحينما كان الناس فى غنًى عن معرفة رءوس الآى لم يحسن الوقف إلا حيث يتم المعنى .

ويحتمل أن كلمة «مفسرةً حرفاً حرفاً» فى الحديث الآنف يراد بها الترتيل وإخراج الحروف من مخارجها ، فلا تعارض الحديث الأول .

(الفائدة الثالثة) اعتبار الآيات فى الصلاة والخطبة؛ قال السيوطى ما نصه: « يترتب على معرفة الآى وعددها وفواصلها أحكام فقهية ، منها اعتبارها فيمن جهل الفاتحة ، فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات . ومنها اعتبارها فى الخطبة ، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة ، ولا يكفى شطرها إن لم تكن طويلة ، وكذا الطويلة على ما حققه الجمهور . ثم قال : ومنها اعتبارها فى السورة التى تقرأ فى الصلاة أو ما يقوم مقامها ، وفى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى الصبح بالستين إلى المائة . ومنها اعتبارها فى قراءة قيام الليل إلى آخر ما قال » اهـ ما أردنا نقله . بيدَ أنه نقل عن الهذلى فى كامله ما نصه: « اعلم أن قوماً جهلوا العدد وما فيه من الفوائد حتى قال الزعفرانى : إن العدد ليس بعلم ، وإنما اشتغل به بعضهم ليروِّج به سوقه . قال : وليس كذلك ففيه من الفوائد معرفة الوقف ، ولأن الإجماع انعقد على أن الصلاة لا تصح بنصف آية . وقال جمع من العلماء : تجزئ بآية ، وآخرون بثلاث آيات ، وآخرون لا بدّ من سبع . والإعجاز لا يقع بدون آية . فللعدد فائدة عظيمة فى ذلك » اهـ غير أنا لا ندرى ما الذى أراده الهذلى على التعيين من كلامه هذا ؟ ولا عن أى مذهب يتحدّث ؟ .

ترتيب آيات القرآن

انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذى نراه اليوم بالمصاحف، كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، وأنه لا مجال للرأى والاجتهاد فيه . بل كان جبريل ينزل بالآيات على الرسول صلى الله عليه وسلم ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها. ثم يقرؤها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه،

ويأمر كتاب الوحى بكتابتها معيّناً لهم السورة التى تكون فيها الآية ، وموضع الآية من هذه السورة. وكان يتلوه عليهم مراراً وتكراراً فى صلاته وعظاته وفى حكمه وأحكامه. وكان يعارض به جبريل كل عام مرة ، وعارضه به فى العام الأخير مرتين . كل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا فى المصاحف . وكذلك كان كل من حفظ القرآن أو شيئاً منه من الصحابة ، حفظه مرتب الآيات على هذا النمط . وشاع ذلك وذاع ، وملأ البقاع والأسماع ، يتدارسونه فيما بينهم ، ويقرءونه فى صلاتهم ، ويأخذه بعضهم عن بعض ، ويسمعه بعضهم من بعض بالترتيب القائم الآن فليس لواحد من الصحابة والخلفاء الراشدين يدٌ ولا تصرفٌ فى ترتيب شىء من آيات القرآن الكريم . بل الجمع الذى كان على عهد أبى بكر لم يتجاوز نقل القرآن من العسب واللخاف وغيرها فى صحف ، والجمع الذى كان على عهد عثمان لم يتجاوز نقله من الصحف فى مصاحف . وكلا هـذين كان وفق الترتيب المحفوظ المستفيض عن النبى ﷺ عن الله تعالى . أجل : انعقد الإجماع على ذلك تامًّا لاريب فيه . وممن حكى هذا الإجماع جماعةٌ ،منهم الزركشى فى البرهان،وأبو جعفر فى المناسبات إذ يقول ما نصه : (ترتيب الآيات فى سورها واقعٌ بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف فى هذا بين المسلمين) .

واستند هذا الإجماع إلى نصوص كثيرة منها ماسبق لك قريبا ، ومنها ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخَصَ ببصره ثم صوَّبه ثم قال : « أتانى جبريلُ فأمرنى أنْ أضعَ هذهِ الآيةَ هذا الموضعَ منَ السورةِ : إِنَّ ٱللهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَى » إلى آخرها .

ومنها ما ثبت فى السنن الصحيحة من قراءة النبى ﷺ بسور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء ومن قراءته لسورة الأعراف فى صلاة المغرب وسورة « قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ »وسورة الروم فى صلاة الصبح، وقراءة سورة السجدة وسورة «هَلْ أَتَى عَلَى

آلْإِنْسَانِ » فى صبح يوم الجمعة ، وقراءته سورة الجمعة والمنافقين فى صلاة الجمعة ، وقراءته سورة قٓ فى الخطبة وسورة اقتربت وقٓ فى صلاة العيد، كان يقرأ ذلك كله مرتب الآيات على النحو الذى فى المصحف على مرأى ومسمع من الصحابة .

ومنها ما أخرجه البخارى عن ابن الزبير قال قلت لعثمان بن عفان : « وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا » نسختها الآية الأخرى ، فلِمَ تكتبها أو تدعها (والمعنى لماذا تكتبها ؟أو قال لماذا تتركها مكتوبة ؟ مع أنها منسوخة) قال يابن أخى لا أُغَيِّرُ شيئاً من مكانه .

فهذا حديث أبلج من الصبح فى أن إثبات هذه الآية فى مكانها مع نسخها توقيفى لايستطيع عثمان باعترافه أن يتصرف فيه ، لأنه لا مجال للرأى فى مثله .

ومنها : ما رواه مسلم عن عمر قال : ما سألت النبى ﷺ عن شىء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه فى صدرى، وقال: « تكفيكَ آيةُ الصَّيْفِ التى فى آخر سورة النِّساء » .

فأنت ترى أنه ﷺ دلَّه على موضع تلك الآية من سورة النساء، وهى قوله سبحانه: « يَسْتَفْتُونَكَ ؟ قُلِ ٱللهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَالَةِ » الخ .

ملاحظة :

ذكر بعضهم أن كلمات القرآن ٧٧٩٣٤ أربع وثلاثون وتسعمائة وسبعة وسبعون ألف كلمة ، وذكر بعضهم غير ذلك . قيل وسبب الاختلاف فى عدد الكلمات أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ، ولفظ ورسم، واعتبار كل منها جائز، وكلٌّ من العلماء اعتبر أحدها وهو جائز؛ قال السخاوى: « لا أعلم لعدد الكلمات والحروف من فائدة ، ، لأن ذلك إن أفاد فإنما يفيد فى كتاب يمكن فيه الزيادة والنقصان . والقرآن لا يمكن فيه ذلك » اه ولكن

ورد من الأحاديث فى اعتبار الحروف ماأخرجه الترمذى عن ابن مسعود مرفوعاً: «مَنْ قرأَ حرفاً من كتابِ اللهِ فلهُ بهِ حَسَنَةٌ . والحسنَةُ بِعَشْرِ أمثالها ، لا قول : « آلم » حرف ، ولكن ألفْ حرف ، ولامْ حرف ، وميمْ حرف » وأخرج الطبرانى عن عمر ابن الخطاب مرفوعاً « القرآنُ ألْفُ ألْفِ حرفٍ وسبعةٌ وعشرونَ ألْفَ حرف ، فمن قرأهُ صابراً مُحْتَسِباً كان له بكلِّ حرفٍ زوجةٌ من الْحُورِ العِينِ » . قال السيوطى بعد أن أورده: رجاله ثقات إلا شيخ الطبرانى محمد بن عبيد بن آدم بن أبى إياس تكلم فيه الذهبى ثم قال : وقد حمل ذلك (أى العدد المذكور فى هذا الحديث) على مانسخ رسمه من القرآن، إذ الموجود الآن لا يبلغ هذا العدد ،وهو يريد أن هذا الرقم الكبير الذى رُوى فى هذا الحديث ملحوظ فيه جميع الحروف النازلة من القرآن مانسخ منها وما لم ينسخ والله تعالى أعلم .

شبهة وتفنيدها

يقولون : إن ابن أبى داود أخرج بسنده ، عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : « أتى الحارثُ بنُ خزيمةَ بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال: أشهدُ أنِّى سمعتهما من رسولِ اللهِ وَوَعَيْتُهما . فقال عمر : أَنَا أشهدُ لقد سمعتهما ثم قال : لو كانتا ثلاثَ آيات لجعلتها عَلَى حِدَة ، فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوها فى آخرها » يقولون : هذا الحديث يدل على أن ترتيب الآيات لم يكن فى القرآن كله بتوقيف ، إنما كان عن هَوًى من الصحابة وعن تصرف منهم ولو فى البعض .

ونجيب : (أولا) بأن هذا الخبر معارض للقاطع ، وهو ما أجمعت عليه الأمة . ومعارض القاطع ساقطٌ عن درجة الاعتبار ، فهذا خبر ساقط مردود على قائله .

(ثانياً) أنه معارِض لما لا يُحصى من الأخبار الدالة على خلافه ، وقد تقدم كثير منها . بل لابن أبى داود مخرجه خبر يعارضه ، ذلك أنه أخرج أيضاً عن أُبَىٍّ أنهم

جمعوا القرآن ، فلما انتهوا إلى الآية التى فى سورة براءة : « ثُمَّ ٱنْصَرَفُوا صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » ظنوا أن هذه آخر مانزل ، فقال أُبَيٌّ : إن رسول الله ﷺ أقرأنى بعدها آيتين « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ » إلى آخر السورة .

ترتيب السور

معنى السورة :

السورة فى اللغة تطلق على ماذكره صاحب القاموس بقوله : « والسورة : المَنْزِلَةُ ، ومن القرآن معروفة ، لأنها منزلة بعد منزلة : مقطوطةٌ عن الأخرى ، والشرف ، وما طال من البناء وحسن ، والعلامة ، وعرق من عروق الحائط » اهـ .

ويمكن تعريفها اصطلاحاً ، بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع . قالوا : وهى مأخوذة من سور المدينة . وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة ، وآية بجانب آية ، كالسور توضع كل لَبِنَة فيه بجانب لبنة ، ويقام كل صف منه على صف .

وإما لما فى السورة من معنى العلو والرفعة المعنوية الشبيهة بعلو السور ورفعته الحسية ، وإما لأنها حصن وحماية لمحمد ﷺ وماجاء به من كتاب الله القرآن ، ودين الحق الإسلام ، باعتبار أنها معجزة تخرس كل مكابر ، ويُحِقُّ اللهُ بها الحقَّ ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون . أشبه بسور المدينة ، يُحَصِّنُها ويحميها غارةَ الأعداء ، وسطوة الأشقياء . وسور القرآن مختلفة طولاً وقصراً . فأقصر سورة فيه سورة الكوثر ، وهى ثلاث آيات قصار . وأطول سورة فيه سورة البقرة ، وهى خمس وثمانون أوست وثمانون ومائتا آية . وأكثر آياتها من الآيات الطوال . بل فيها آية الدَّيْن التى هى أطول آية فى القرآن كما سبق . وبين سورة البقرة وسورة الكوثر سور كثيرة تختلف طولاً وتوسُّطاً وقِصَراً ومرجع الطول

والقصر والتوسط وتحديد المطلع والمقطع ، إلى الله وحده ، لحكم سامية ، علمها من علمها، وجهلها من جهلها .

حكمة تسوير السور :

لتجزئة القرآن إلى سُوَر فوائد وحكم :

« منها : التيسير على الناس وتشويقهم إلى مدارسة القرآن وتحفُّظه، لأنه لو كان سبيكةً واحدة لا حلقات بها لصعب عليهم حفظه وفهمه ، وأعياهم أن يخوضوا عُباب هذا البحر الخِضَمِّ الذى لا يشاهدون فيه عن كَثَبٍ مرافئ ولا شواطئ .

ومنها : الدلالة على موضوع الحديث ومحور الكلام ، فإن فى كل سورة موضوعاً بارزاً تتحدث عنه ، كسورة البقرة ، وسورة يوسف ، وسورة النمل ، وسورة الجن .

ومنها : الإشارة إلى أن طول السورة ليس شرطاً فى إعجازها، بل هى معجزة وإن بلغت الغاية فى القصر كسورة الكوثر .

قال صاحب الكشاف فى فوائد تفصيل القرآن وتقطيعه سُوَراً كثيرة ما نصه: منها (أى الفوائد) أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف، كان أحسن وأفخم من أن يكون باباً واحداً .

ومنها : أن القارئ إذا أتم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ فى آخر كان أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمرّ على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا قطع ميلًا أو فرسخاً نفَّس ذلك عنه ونشط للسير ، ومن ثَمَّ جُزِّئ القرآن أجزاء وأخماساً .

ومنها : أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها ، فيعظم عنده ماحفظه ، ومنه حديث أنس : « كَانَ الرَّجُلُ

إذْ قَرَأ البقرةَ وآلَ عمرانَ جدّ فينا » . ومن ثمّ كانت القراءة فى الصلاة بسورة أفضل .

ومنها : أن التفصيل بحسب تلاحُق الأَشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض ، وبذلك تتلاحق المعانى والنظم ، إلى غير ذلك من الفوائد » ا هـ .

أقسام السور :

قسم العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام ، خصُّوا كلا منها باسم معين ، وهى : الطوال ، والمئين، والمثانى ، والمفصّل . فالطوال سبع سور : البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأَنعام، والأعراف. فهذه ستة ، واختلفوا فى السابعة أهى الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة أم هى سورة يونس ؟ ؟ .

والمئون : هى السور التى تزيد آياتها على مائة أو تقاربها .

والمثانى : هى التى تلى المئين فى عدد الآيات وقال الفرّاء : هى السور التى آيها أقل من مائة آية لأنها تثنى (أى تكرر) أكثر مما تُثنى الطوال والمئون .

والمفصل : هو أواخر القرآن ، واختلفوا فى تعيين أوله على اثنى عشر قولا ، فقيل أوله «ق»، وقيل غير ذلك، وصحح النووى أن أوله الحجرات. وسمى بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة ، وقيل لقلة المنسوخ منه ، ولهذا يسمى المحكم أيضاً ، كما روى البخارىُ عن سعيد بن جبير قال : « إنّ الذى تدعونهُ المفصلَ هوَ المحكم » .

والمفصل ثلاثة أقسام : طوال ، وأوساط ، وقصار . فطواله من « أول الحجرات » إلى سورة « البروج » . وأوساطه من سورة « الطارق » إلى سورة « لم يكن » . وقصاره من سورة « إذا زلزلت » إلى آخر القرآن .

المذاهب فى ترتيب السور :

اختلف فى ترتيب السور على ثلاثة أقوال : (الأول) أن ترتيب السور على ماهو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبى ﷺ ؛ إنما كان باجتهاد من الصحابة . وينسب هذا القول إلى جمهور العلماء، منهم مالك والقاضى أبو بكر فيما اعتمده من قوليه . وإلى هذا المذهب يشير ابن فارس فى كتاب المسائل الخمس بقوله : « جمع القرآن على ضربين: أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا هو الذى تولته الصحابة رضى الله عنهم . وأما الجمع الآخر وهو الآيات فى السور ، فذلك شىء تولاه النبى ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه عز وجل .

وقد استدلوا على رأيهما هذا بأمرين:(أحدهما) أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة فى ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن فى عهد عثمان، فلو كان هذا الترتيب توقيفيًّا منقولا عن النبى صلى الله عليه وسلم ماساغ لهم أن يهملوه ويتجاوزوه ويختلفوا فيه ذلك الاختلاف الذى تصوِّره لنا الروايات. فهذا مصحف أُبىّ بن كعب، روى أنه كان مبدوءًا بالفاتحة، ثم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، ثم الأنعام . وهذا مصحف ابن مسعود كان مبدوءا بالبقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران الخ على اختلاف شديد. وهذا مصحف علىّ كان مرتبًا على النزول ، فأوله «اقرأ» ثم المدثر ثم « قٓ » ، ثم المزمل ، ثم « تبت » ثم التكوير ، وهكذا إلى آخر المكى والمدنى .

(الدليل الثانى) : ما أخرجه ابن أشته فى المصاحف من طريق إسماعيل بن عباس عن حبان بن يحيى عن أبى محمد القرشى قال: «أمرهم عثمان أن يتابعوا الطوال فجعل سورة الأنفال وسورة التوبة فى السبع ، ولم يفصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم »اهـ ولعله يشير بهذا إلى ما رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : « قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من

المثين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر « بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان رضى الله عنه: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات فى السورةِ التى يذكرُ فيها كذا وكذا » . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولًا . وكانت قصتها شبيهة بقصتها. فظننت أنها منها فقُبضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما . ولم أكتب بينهما سطر « بِسمِ ٱللَّهِ الرَّحمٰنِ الرحيمِ » ووضعتهما فى السبع الطوال » اهـ .

ويمكن أن يناقش هذا المذهب بالأحاديث الدالة على التوقيف وستأتيك فى الاحتجاج للقول الثانى. ويمكن أيضاً مناقشة دليلهم الأول باحتمال أن اختلاف من خالف من الصحابة فى الترتيب، إنما كان قبل علمهم بالتوقيف، أو كان فى خصوص مالم يرد فيه توقيف دون ماورد فيه . ويمكن مناقشة دليلهم الثانى بأنه خاصٌّ بمحل وروده، وهو سورة الأنفال والتوبة ويونس، فلا يصح أن يصاغ منه حكم عام على القرآن كله .

القول الثانى :

أن ترتيب السور كلها توقيفى بتعليم الرسول ﷺ كترتيب الآيات وأنه لم توضع سورة فى مكانها إلا بأمر منه ﷺ . واستدلَّ أصحاب هذا الرأى بأن الصحابة أجمعوا على المصحف الذى كتب فى عهد عثمان ولم يَخالف منهم أحد . وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذى أجمعوا عليه عن توقيف، لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم . لكنهم لم يتمسكوا بها بل عدلوا عنها وعن ترتيبهم، وعدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها، ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه جميعاً . ثم ساقوا روايات لمذهبهم كأدلة يستند إليها الإجماع .

منها مارواه الإمام أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفى قال كنت فى الوفد الذين أسلموا من ثقيف . إلى أن جاء فى هذه الرواية ما نصه :

فقال لنا رسول الله ﷺ : «طرأ علىَّ حزبٌ منَ القرآنِ فأردتُ ألَّا أخرُجَ حتى أقضيه فسألنا أصحابَ رسولِ الله ﷺ قلنا : كيفَ تحزبونَ القرآنَ ؟ قالوا : نحزبه ثلاثَ سورٍ ، وخمسَ سور ، وسبعَ سور ، وتسعَ سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل من « ق » حتى نختم . قالوا: فهذا يدل على أن ترتيب السور على ماهو فى المصحف الآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

لكن هذه الدلالة غير ظاهرة فيما نفهم ، اللهم إلا فى ترتيب حزب المفصل خاصة بخلاف ماسواه .

واحتجوا لمذهبهم أيضاً بأن السور المتجانسة فى القرآن لم يلتزم فيها الترتيب والولاء ، ولو كان الأمر بالاجتهاد للوحظ مكان هذا التجانس والتماثل دائماً ، لكن ذلك لم يكن ، بدليل أن سور المسبحات لم ترتب على التوالى بينما هى متماثلة فى افتتاح كل منها بتسبيح الله . بل فصل بين سورها بسورة « قد سمع » والممتحنة والمنافقين ، وبدليل أن (طسم الشعراء وطسم القصص) لم يتعاقبا مع تماثلهما ، بل فصل بينهما بسورة أقصر منهما وهى « طس » .

وقد أيد هذا المذهب أبو جعفر النحاس فقال : « المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسولِ الله ﷺ لحديث واثلة : أعطيتُ مكانَ التوراةِ السبعَ الطوالَ » .

وكذلك انتصر أبو بكر الأنبارى لهذا المذهب فقال : أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثم فرَّقه فى بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمرٍ يحدث ، والآية جواباً لمستخبر ، ويقف جبريلُ النبيَّ ﷺ على موضع السورة والآيات والحروف . كله من النبى صلى الله عليه وسلم فمن قدم سورة أو أخرها أفسد نظم القرآن » .

وأخرج ابن أشتة فى كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل لم قدمت البقرة وآل عمران وقد أنزل قبلهما بضع وثمانون

سورة بمكة ،وإنما أنزلتا بالمدينة؟ فقال: قدمتا وأُلِّف القرآن على علم ممن ألَّفه به. إلى أن قال : فهذا مما يُنْتَهَى إليه ولا يُسأل عنه اه .

ويمكن مناقشة هذا المذهب (أولًا) : بأن الرواية التى ساقوها وأمثالها خاصّة بمحالها ، فلا ينسحب حكم التوقيف على الكل . ثم هى ظنية فى إفادة كون الترتيب عن توقيف .

(ثانياً) : أن حديث ابن عباس السابق فى القول الأول صريح فى أن عثمان كان قد اجتهد فى ترتيب الأنفال والتوبة ويونس .

(ثالثاً) :أن الإجماع الذى استندوا إليه لا يدل على توقيف فى ترتيب جميع السور؛ لأنه لا يشترط أن يستند الإجماع إلى نص فى ترتيب جميع السور ، فحسب الصحابة أن يحملهم الاجتهاد الموفّق على أن يُجمعوا على ترتيب عثمان للسور ويتركوا ترتيب مصاحفهم ، توحيداً لكلمة الأمة ، وقطعاً لعرق النزاع والفتنة ، إذا تُرِك كلٌّ ورأيه فى هذا الترتيب .

القول الثالث :

أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبى ﷺ، وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة وقد ذهب إلى هذا الرأى فطاحل من العلماء. ولعله أمثل الآراء، لأنه وردت أحاديث تفيد ترتيب البعض كما مرّ بك من الرأى الثانى القائل بالتوقيف، وخلا البعض الآخر مما يفيد التوقيف. بل وردت آثار تصرح بأن الترتيب فى البعض كان عن اجتهاد كالحديث الآنف فى القول الأول المروى عن ابن عباس .

بَيْدَ أن المؤيدين لهذا المذهب اختلفوا فى السور التى جاء ترتيبها عن توقيف والسور التى جاء ترتيبها عن اجتهادٍ . فقال القاضى أبو محمد بن عطية : « إن كثيراً من السور

قد علم ترتيبها فى حياة النبى ﷺ كالسبع الطوال والحواميم والمفصَّل. وأما ماسوى ذلك فيمكن أن يكون فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده ».

وقال أبو جعفر بن الزبير : الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية ، ويبقى فيها قليل يمكن أن يجرى فيه الخلاف كقوله ﷺ «اقرءوا الزَّهْراوَيْنِ : البقرةوآلَ عِمْرانَ» رواه مسلم.

وكحديث سعيد بن خالد : « قرأ رسولُ الله ﷺ بالسَّبْعِ الطِّوَالِ فى ركعةٍ » رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه . وفيه « أنه عليه الصلاة وسلم كان يجمع المفصَّل فى ركعة » وروى البخارى عن ابن مسعود أنه قال صلى الله عليه وسلم فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « إنَّهُنَّ من العِتَاقِ الأوَلِ ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِى »[1].

(١) العتاق : جمع عَتِيق، وهو القديم من كل شىء، والمراد بالعتاق هنا ما نزل أولا. والتِّلاد ـ بكسر التاء وفتحها ـ ضدُّ الطارف وهو المستحدَثُ من المال ونحوه . والمراد بالتلاد هنا ، ما نزل أولا أيضاً . قال فى المختار: وفى الحديث« هُنَّ من تِلادى » يعنى السور ، أى من الذى أخذته من القرآن قديما .

فذكرها نَسَقاً كما استقرَّ ترتيبها . وفى صحيح البخارى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أوَى إلى فراشه كلَّ ليلة جَمَعَ كَفَّيْهِ ثم نَفَثَ فيهما فقرأ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ .

وقال السيوطى ما نصه : الذى ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقى ، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفى إلا براءة والأنفال . ولا ينبغى أن يُستدل بقراءة سورٍ أوَّلا على أن ترتيبها كذلك . وحينئذ فلا يرد حديث قراءة النساء

قبل آل عمران ، لأن ترتيب السور فى القراءة ليس بواجب . ولعله فعل ذلك لبيان الجواز » اهـ .

والأمر على كل حال سهل ، حتى لقد حاول الزركشى فى البرهان أن يجعل الخلاف من أساسه لفظيًّا فقال : والخلاف بين الفريقين ـ أى القائلين بأن الترتيب عن اجتهاد ، والقائلين بأنه عن توقيف ـ لفظى ، لأن القائل بالثانى يقول : إنه رمز إليهم ذلك ، لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ، ولهذا قال مالك : إنما ألَّفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبى ﷺ مع قوله بأن ترتيب السور كان باجتهاد منهم ، فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولى ، أو بمجرد إسناد فعلى ، بحيث يبقى لهم فيه مجالٌ للنظر ، وسبقه فى ذلك جعفر بن الزبير » اهـ .

احترام هذا الترتيب :

وسواء أكان ترتيب السور توقيفيًّا أم اجتهاديًّا فإنه ينبغى احترامه ، خصوصاً فى كتابة المصاحف ، لأنه عن إجماع الصحابة ، والإجماعُ حجة . ولأن خلافه يجرُّ إلى الفتنة ، ودَرْء الفتنة وسدُّ ذرائع الفساد واجب .

أما ترتيب السور فى التلاوة ، فليس بواجب ، إنما هو مندوب . وإليك ما قاله الإمام النووى فى كتابه التبيان إذ جاء فى هذا الموضوع بما نصه : « قال العلماء : الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم آل عمران ، ثم ما بعدها على الترتيب ، سواء أقرأ فى الصلاة أم فى غيرها ، حتى قال بعض أصحابنا : إذا قرأ فى الركعة الأولى سورة « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ » يقرأ فى الثانية بعد الفاتحة من البقرة .

قال بعض أصحابنا : ويستحبُّ إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التى تليها . ودليل هذا أنَّ ترتيب المصحف إنما جُعِل هكذا لحكمة ، فينبغى أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشرع باستثنائه ، كصلاة الصبح يوم الجمعة ، يقرأ فى الأولى سورة السجدة ، وفى الثانية « هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنسَانِ » . وصلاة العيد فى الأولى « ق » ، وفى الثانية « اقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ » . وركعتى الفجر فى الأولى « قُلْ يَـٰأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ » وفى الثانية « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ » . وركعات الوتر فى الأولى « سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى » وفى الثانية « قُلْ يَـٰأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ » وفى الثالثة « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ » وٱلْمُعَوِّذَتَيْنِ .

ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلى الأولى ، أو خالف الترتيب فقرأ سورة قبلها ، جاز ؛ فقد جاءت بذلك آثار كثيرة . وقد قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الركعة الأولى من الصبح بالكهف ، وفى الثانية بيوسف .

وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف . وروى ابن أبى داود عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تأليفه فى المصحف . وبإسناده الصحيح عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه أنه قيل له : إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً فقال : « ذلك منكوس القلب » .

وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع منعاً متأكداً ، لأنه يذهب بعض ضروب الإعجاز ، ويُزيل حكمة ترتيب الآيات . وقد روى ابن أبى داود عن إبراهيم النخعى الإمام التابعى الجليل وعن الإمام مالك بن أنس أنهما كرها ذلك ، وأن مالكاً كان يعيبه ويقول : هذا عظيم . . وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن ، وليس هذا من الباب ، فإن ذلك قراءة متفاضلة فى أيام متعددة ، على ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم ، والله أعلم » اهـ رحمه الله .

شبهتان خفيفتان :

(الشبهة الأولى) ، يقولون : كيف كان ترتيب القرآن توقيفيًّا مع أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة ؟ .

والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على القائلين بأن ترتيب السور كلها اجتهادى أما القائلون بأن منه اجتهاديًّا ومنه توقيفيًّا ، فمن السهل الجواب عنهم بأن الاختلاف بين الصحابة وقع فى القسم الاجتهادى لا التوقيفى . وأما القائلون بأن ترتيب السور كله توقيفى، فيمكن الجواب عنهم بأنهم اختلفوا فيما اختلفوا قبل أن يعلموا التوقيف فيه . ولما جمع عثمان القرآن على هـذا الترتيب علموا مالم يكونوا يعلمونه ، ولذلك تركوا ترتيب مصاحفهم ، وأخذوا بترتيب عثمان. ويهوِّن الأمرَ فى اختلاف مصاحفهم أنها كانت مصاحف فردية، لم يكونوا يكتبونها للناس إنما كانوا يكتبونها لأنفسهم، فبدَهىٌّ أن الواحد منها لم يُثبت فيها إلا ماوصل إليه بمجهوده الفردى، وقد يفوته مالم يفت سواه من تحقيق أدَقّ أو علم أوسع . ولهذا كان يوجد بتلك المصاحف الفردية بعض آيات قد تكون منسوخة، وربما لم يبلغ صاحب ذاك المصحف نسخها . وقد يهمل صاحب المصحف إثبات سورة لشهرتها وغناها بهذه الشهرة عن الإثبات ، كما ورد أن مصحف ابن مسعود لم تكن به الفاتحة. وقد يكتب صاحب المصحف مايرى أنه بحاجة إليه من غير القرآن فى نفس المصحف كما تقدّم ذلك فى قنوت الحنفية الذى روى أن بعض الصحابة كان قد كتبه بمصحفه وسماه سورة الخلع والحفْد .

(الشبهة الثانية) يقولون : كيف يكون ترتيب القرآن توقيفيًّا على حين أن رواية ابن عباس السابقة تصرح بأن عثمان لم يسمع فى شأن ترتيب الأنفال مع براءة شيئًا إنما هو اجتهاد ونظر منه ؟ .

والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على القول بأن الترتيب اجتهادى ، ولا على القول بأن منه اجتهاديا ومنه توقيفيا . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن اجتهاد عثمان كان فيما لم يرد فيه توقيف من الشارع .

أما القول بأن ترتيب السور كله توقيفى ، فقد أجابوا على هذه الشبهة بجوابين :

(أولهما) : أن حديث ابن عباس هذا غير صحيح لأن الترمذى ـ وهو راويه ـ قال فى تخريجه : إنه حسن غريب لا يُعرف إلا من طريق يزيد الفارسى عن ابن عباس . ويزيد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديثه الذى انفرد به فى ترتيب القرآن .

(ثانيهما) : أنه على فرض صحّته يجوز أن جواب عثمان لابن عباس كان قبل أن يعلم بالتوقيف ثم علمه بعد ذلك . لكن يرد على هذا الجواب أن الرواية تفيد أن جواب عثمان هذا كان بعد جمع القرآن وترتيب سوره ، فكيف كان توقيفيًّا وعثمان هو الجامع والمرتِّب ولا يعلم دليل التوقيف ؟ .

المبحث العاشر

فى كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه وما يتعلق بذلك

١ ـ الكتابة

معروف أن الأمة العربية كانت موسومة بالأمية مشهورة بها لا تدرى ما الكتابة ولا الخط . وجاء القرآن يتحدَّث عن أميتها هذه فقال: « هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

ولم يشذَّ عن هذه القاعدة إلا أفراد قلائل فى قريش، تعلَّموا الخط ودرسوه قُبيل الإسلام

وكأن ذلك كان إرهاصاً من الله وتمهيداً لمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وتقرير دين الإسلام، وتسجيل الوحى المنزل عليه بالقرآن، لأن الكتابة أدعى إلى حفظ التنزيل وضبطه، وأبعد عن ضياعه ونسيانه .

وكادت تتفق كلمة المؤرخين على أن قريشاً فى مكة لم تأخذ الخط إلا عن طريق حرب بن أمية بن عبد شمس . لكنهم اختلفوا فيمن أخذ عنه حرب . فرواية أبى عمرو الدانى تذكر أنه تعلم الخط من عبد الله بن جدعان ، وفيها يقول زياد بن أنعم : « قلت لابن عباس: معاشرَ قريش هل كنتم تكتبون فى الجاهلية بهذا الكتاب العربى تجمعون فيه ما اجتمع ، وتفرقون فيه ما افترق ، هجاء بالألف واللام والميم ، والشكل والقطع ، وما يكتب به اليوم ؟ قال ابن عباس: نعم. قلت : فمن علمكم الكتابة ؟ قال: حرب بن أمية ، قلت: فمن علم حرب بن أمية ؟ قال: عبد الله بن جدعان، قلت: فمن علم عبد الله بن جدعان؟ قال: أهل الأنبار ، قلت: فمن علم أهل الأنبار ؟ قال: طارىء طرأ عليهم من أهل اليمن من كندة ، قلت : فمن علم ذلك الطارئ ؟ قال: الخلجان بن الموهم كان كاتب هود نبى الله عز وجل » .

أما رواية الكلبى فتقص علينا أن حرباً تعلم الكتابة من بشر بن عبد الملك؛ وفيها يقول عوانة : « أول من كتب بخطنا هذا وهو الجزم، مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة ، وكذا عامر بن جدرة ، وهم من عرب طيئ تعلموه من كاتب الوحى لسيدنا هود عليه السلام، ثم علموه أهل الأنبار، ومنهم انتشرت الكتابة فى العراق والحيرة وغيرها. فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دُومةِ الجندَل وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم فى بلاد العراق ، فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبى سفيان فتعلم منه جماعة من أهل مكة » اهـ .

ومن هنا وجد عـــدد يحذق الخط والـكتابة قبيل الإسلام ، ولـكنهم نزر يسير بجانب تلك الـكثرة الغامرة من الأميين . وفى ذلك يمتنّ رجل من أهل دومة الجندل على قريش فيقول :

« لا تجحدوا نعماء بشرٍ عليكمو فقد كان ميمون النقيبة أزهـرا
أتاكم بخط الجزم(١) حتى حفظتمو من المال ماقد كان شتى مبعثرا
فأجريتم الأقلام عوداً وبدأة وضاهيتمو كتّاب كسرى وقيصرا
وأغنيتمو عن مسند الحىِّ حميرٍ ومازبرتْ فى الصُّحْف أقلامُ حميرا»

أولئك أهل مكة . أما أهل المدينة فكان بينهم أهل الـكتاب من اليهود ، وقد دخل النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وفيها يهودى يعلم الصبيان الـكتابة ، وكان فيها بضعة عشر رجلًا يحذقون الـكتابة ، منهم المنذر بن عمرو ، وأبى بن وهب ، وعمرو بن سعيد وزيد بن ثابت الذى تعلم كتابة اليهود بأمر من النبى ﷺ .

شأن الـكتابة فى الإسلام :

ثم جاء الإسلام ، فحـــارب فيما حارب أمِّيَّة العرب ، وعمل على محوها ، وطفق يرفع من شأن الـكتابة ويعلى من مقامها . وإن كنت فى شك، فهذه أوائل آيات نزلن من القرآن الـكريم ، يشيد الحق فيها بالقلم ، وما يعلم الله عباده بوساطة القلم ، إذ يقول جلت حكمته : « ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ » إلى أن قال : « وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ، ٱلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وهذه سورة « ن » يحلف العلى الأعلى فيها بالقلم ومايسطرون، إذ يقول « نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . » وهذا من أروع ألوان التنبيه إلى جلال الخط والـكتابة ومزاياهما .

---

(١) سمى بالجزم لأنه جزم ـ أى قطع ـ من الخط المسمى بالمسند ، وهو خط حمير .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع أصحابه دفعاً إلى أن يتعلموا الخطّ ويحذقوا الـكتابة ، ويهيئ لهم السبل بكل ما يستطيع من وسيلة مشروعة .

حتى لقد ورد أن المسلمين فى غزوة بدر أسروا ستين مشركاً فكان مما يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم فى فداء الواحد منهم أن يعلم عشرة من أصحابه الـكتابة والخط .

وهكذا أعلن الرسول بعمله هذا أن القراءة والـكتابة عديلان للحرية ، وهـذا منتهى ماتصل إليه الهمم فى تحرير شعب أمى من رقّ الأمية .

وبمثل هذه الطريقة أخذت ظلمات الأمية تتبدّد بأنوار الإسلام شيئاً فشيئاً ، وحلّ محلها العلم والـكتابة والقراءة. وهذا من أدل الأدلة على أن الإسلام دين العلم والحضارة والمدنية .

النبى ﷺ يقرأ ويكتب :

حتى لقد قيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم عرف القراءة والـكتابة فى آخر أمره بعد أن قامت حجته . وعلت كلمته ، وعجز العرب فى مقام التحدّى عن أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الذى جاء به ، وكأن الحـكمة فى ذلك هى الإشارة إلى شرف الخط والـكتابة. وأن أمّية الرسول صلى الله عليه وسلم فى أول أمره إنما كانت حالًا وقتية اقتضاها إقامة الدليل والإعجاز واضحاً على صدق محمد فى نبوته ورسالته، وأنه مبعوث الحق إلى خليقته ولو كان وقتئذ كاتباً قارئاً وهم أميون ، لراجت شبهتهم فى أن ماجاء به نتيجة اطلاع ودرس ، وأثرُ نظر فى الـكتب وبحث .

وفى هذا المعنى يقول سبحانه :

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَنْ لَارْتَابَ

ٱلْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا ٱلظَّالِمُونَ * » .

قال العلامة الألوسى بعد تفسيره لهذه الآية ما نصه : واختلف فى أنه صلى الله عليه وسلم أكان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا ؟ فقيل إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة ، واختاره البغوى فى التهذيب ، وقال : إنه الأصح . وادعى بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها ، وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية، فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياب(١) تعرف الكتابة حينئذ. وروى ابن أبى شيبة وغيره: « ما مات ﷺ حتى كتب وقرأ» ونقل هذا للشعبى فصدّقه وقال : سمعت أقواماً يقولونه وليس فى الآية ماينافيه. وروى ابن ماجه عن أنس قال : قال ﷺ : « رأيتُ ليلةَ أسرىَ بى مكتوباً على بابِ الجنةِ : الصدقةُ بعشرِ أمثالها والقرضُ بثمانيةَ عشرَ » .

ثم قال : ويشهد للكتابة أحاديث فى صحيح البخارى وغيره كما ورد فى صلح الحديبية : فأخذَ رسولُ اللهِ ﷺ الكتابَ وليسَ يحسنُ يكتبُ فكتبَ : هـذا ماقاضى عليهِ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ » الحديث .

وممن ذهب إلى ذلك أبو ذر عبد بن أحمد الهروى، وأبو الفتح النيسابورى، وأبو الوليد الباجى من المغاربة، وحكاه عن السمنانى. وصنف فيه كتاباً، وسبقه إليه ابن منية . ولما قال أبو الوليد ذلك طُعنَ فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مُدّعاه ، وكتب به إلى علماء الأطراف ، فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتاب بعد أميته صلى الله عايه وسلم لاتنافى المعجزة ، بل هى معجزة أخرى لكونها من غير تعليم.

(١) لعل مراده بهذه الكلمة ، ظهور فساد الارتياب وأنه لا قيمة له .

وقد ردَّ بعض الأجلة كتاب الباجى لما فى الحديث الصحيح : « إنا أمَّةٌ أمِّيَّةٌ لا نكتُبُ ولا نحسُبُ » . وقال : كل ماورد فى الحديث من قوله « كتب » فمعناه أمر بالكتابة ، كما يقال : كتب السلطان بكذا لفلانٍ . وتقديم قوله تعالى : « مِنْ قَبْلِهِ » على قوله سبحانه: « وَلَا تَخُطُّهُ » كالصريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقا. وكون القيد المتوسط راجعاً لما بعده غير مطَّرِد . وظنَّ بعض الأجلة رجوعه إلى ما قبله وما بعده ، فقال: يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب،ولو لا هذا الاعتبار ، لكان الكلام خلواً عن الفائدة.وأنت تعلم أنه لو سُلِّمَ ماذكره من الرجوع ، لا يتم أمر الإفادة إلا إذا قيل بحجِّيَّة المفهوم ، والظانُّ ممن لا يقول بحجيته » .

ثم قال الألوسى فى تفنيد هذه الردود مانصه :

« ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام :« إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ليس نصّاً فى استمرار نفى الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام.ولعل ذلك باعتبار أنه بعث عليه الصلاة والسلام وهو وأكثر من بعث إليهم وهو بين ظَهْرَانَيْهم من العرب أميون ، لا يكتبون ولا يحسبون ، فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية فى الأكثر بعد . وأما ماذكر من تأويل كتب بأمر بالمكاتبة ، فخلاف الظاهر . وفى شرح صحيح مسلم للنووى عليه الرحمة نقلًا عن القاضى عياض ، إن قوله فى الرواية التى ذكرناها : « ولا يحسن يكتب فكتب » كالنصِّ فى أنه ﷺ كتب بنفسه ، فالعدول عنه إلى غيره مجاز لاضرورة إليه ثم قال : « وقد طال كلام كل فرقة فى هذه المسألة ، وشنَّعت كل فرقة على الأخرى فى هذا . فالله تعالى أعلم » اه .

وأقول إن التشنيع ليس من دأب العلماء ولا من أدب الباحثين . والمسألة التى نحن بصددها مسألة نظرية . والحكم فى أمثالها يجب أن يكون لما رجح من الأدلة لا للهوى

والشهوة . ونحن إذا استعرضنا حُجج هؤلاء وهؤلاء نلاحظ أن أدلة أمّيته ﷺ قطعية يقينية . وأن أدلة كونه كتب وخطَّ بيمينه ظنيةٌ غير يقينية ، ولم يدع أحد أنها قطعية يقينية . ثم إن التعارُض ظاهرٌ فيما بين هذه وتلك. غير أنه تعارض ظاهريٌّ يمكن دفعه بأن نحمل أدلة الأمية على أولى حالاته صلى الله عليه وسلم ، وأن نحمل أدلة كتابته على أخريات حالاته؛ وذلك جمعاً بين الأدلة. ولا ريب أن الجمع بينها أهدَى سبيلاً من إعمال البعض وإهمال البعض ، مادام فى كلٍّ منها قوة الاستدلال، وما دام الجمع ممكناً على أية حال . أما لو لم يمكن الجمع فلا مشاحة حينئذ فى قبول القطعى ورد الظنى ؛ لأن الأول أقوى من الثانى « وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا » .. هذا هو الميزان الصحيح، لدفع التعارض والترجيح ، فاحكم به عند الاختلاف والاشتباه ، « وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » .

كتابة القرآن :

بعد ما قصصنا عليك من تلك الفذلكة التاريخية ، فى الخطوط والكتابة العربية ، نلفت نظرك إلى أن كتابة القرآن ، وَفيناها بحثها فى مبحث جمع القرآن (من ص ٢٣٢ إلى ص ٢٥٦) وذكرنا هنالك كيف كُتب القرآن؟ وفيمَ كُتب؟على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم على عهد عثمان (رضى الله عنهما) .

ومنه تعلم أن عناية الرسول ﷺ وأصحابه بكتابة القرآن ، كانت عناية فائقة. يدلك على هذه العناية أن النبى ﷺ كان له كُتّاب يكتبون الوحى ، منهم الأربعة الخلفاء ، ومعاوية ، وأبان بن سعيد، وخالد بن الوليد ، وأُبَىّ بن كعب، وزيد بن ثابت ،وثابت ابن قيس ، وأرقم بن أُبى ، وحنظلة بن الربيع ، وغيرهم . فكان ﷺ إذا أنزل عليه شىء يدعو أحد كُتّابه هؤلاء، ويأمره بكتابة مانزل عليه، ولو كان كلمة، كما روى أنه

لما نزل عليه قوله تعالى : « لَا يَسْتَوِى ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ » قال ابن أمّ مكتوم وعبد الله ابن جحش : يا رسولَ الله، إنا أعميان، فهل لنا رُخْصةٌ ؟ فأنزل الله « غيرُ أولى الضرر ». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ائتونى بالكَتِفِ والدَّواة » وأمرَ زيداً أن يكتبها . فكتبها فقال زيد « كأنى أنظرُ إلى موضعها عند صَدْع الكتف » . ورواية البخارى اقتصرت هنا على عبد الله بن أم مكتوم وليس فيها ابن جحش .

ولعلك لم تنس حديث ابن عباس : « كان رسول اللهِ ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعضَ مَنْ يكتب ، فقال : « ضعوا هذه فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا » . وقوله صلى الله عليه وسلم « من كتب عنى شيئاً غير القرآن فليمحه » وقول أبى بكر لزيد ابن ثابت : إنك رجُلٌ شابٌّ لا نتهمُك . وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ.

أضف إلى ذلك أن الصحابة كانوا يكتبون القرآن فيما يتيسّر لهم حتى فى العظام والرقاع وجريد النخل ورقيق الحجارة ونحو ذلك مما يدلُّ على عظيم بلائهم فى هذا الأمر الجلل ! (رضى الله عنهم أجمعين) .

ب — رسم المصحف

رسم المصحف يراد به الوضع الذى ارتضاه عثمان رضى الله عنه فى كتابة كلمات القرآن وحروفه . والأصل فى المكتوب أن يكون موافقاً تمام الموافقة للمنطوق ، من غير زيادة ولا نقص ، ولا تبديل ولا تغيير . لكن المصاحف العثمانية قد أهمل فيها هذا الأصل ، فوجدت بها حروف كثيرة جاء رسمها مخالفاً لأداء النطق ، وذلك لأغراض شريفة ظهرت وتظهر لك فيما بعد .

وقد عُنِىَ العلماء بالكلام على رسم القرآن وحصر تلك الكلمات التى جاء خطُّها على غير مقياس لفظها . وقد أفرده بعضهم بالتأليف منهم الإمام أبو عمرو الدانى إذ ألَّف فيه كتابه المسمى « المقنع » . ومنهم العلامة أبو عباس المراكشى إذ ألف كتابا أسماه : « عنوان الدليل فى رسوم خطِّ التنزيل » . ومنهم العلامة الشيخ محمد بن أحمد الشهير بالمتولى إذ نظم أرجوزة سماها « اللؤلؤ المنظوم فى ذكر جملة من المرسوم » ثم جاء العلامة المرحوم الشيخ محمد خلف الحسينى شيخ المقارىء بالديار المصرية ، فشرح تلك المنظومة ، وذيَّل الشرح بكتاب سماه « مرشد الحيران إلى معرفة ما يجب اتباعه فى رسم القرآن » .

قواعد رسم المصحف :

وللمصحف العثمانى قواعد فى خطِّه ورسمه ، حصرها علماء الفن فى ست قواعد ، وهى الحذف ، والزيادة ، والهمز ، والبدل ، والفصل والوصل ، وما فيه قراءتان فقرىء على إحداهما . وهاك شيئاً عنها بالإجمال ، ليكون الفرق بينها وبين مصطلح الخطوط فى عصرنا على بال منك : —

(قاعدة الحذف) : خلاصتها أن الألف تحذف من ياء النداء نحو « يـٰأيُّها النَّاس »

ومن ها التنبيه نحو « هأنتم » ومن كلمة « نا » إذا وليها ضمير نحو « أنجينا كم »[1] ومن لفظ الجلالة « الله » ، ومن كلمة « إله » ، ومن لفظى « الرحمٰن ، وسبحان » ، وبعد لام نحو كلمة « خلائف » وبين اللامين فى نحو « الـكَلَالة » ومن كل مُثَنًّى نحو « رجلان » ، ومن كل جمع تصحيح لمذكر أو لمؤنث نحو « سَمَّاعُونَ ، المؤمنات » ، ومن كل جمع على وزن مفاعل وشبهه نحو « المساجد ، والنصارى » ، ومن كل عدد نحو « ثلاث » . ومن البسملة ، ومن أول الأمر من سأل ، وغير ذلك ، (إلا مما استثنى من هذا كله) .

وتحذف الياء من كل منقوص منوّن رفعاً وجرًّا ، نحو « غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ » .

ومن هذه الـكلمات : « أَطِيعُونِ ، اتقُونِ ، خَافُونِ ، آرْهَبُونِ ، فَأَرْسِلُونِ ، وَآعْبُدُونِ » ، (إلا ما استثنى) .

وتحذف الواو : إذا وقعت مع واو أخرى فى نحو : « لا يَسْتَوُونَ ، فَأْوُوا إِلَى الْـكهف » .

وتحذف اللام : إذا كانت مدغمة فى مثلها نحو « الليل ، والذى » (إلا مااستثنى).

وهناك حذف لا يدخل تحت قاعدة كحذف الألف من كلمة « مالك » وكحذف الياء من « إبراهيم » ، وكحذف الواو من هذه الأفعال الأربعة : « وَيَدْعُو آلْإِنسَانُ ، وَيَمْحُو اللهُ الْبَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِ ، سَنَدْعُو الزَّبَانِيَةَ » .

(قاعدة الزيادة) . خلاصتها أن الألف تزاد بعد الواو فى آخر كل اسم مجموع أو فى حكم المجموع ، نحو : « مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ، بَنُوا إِسْرَائيلَ ، أُولُوا الْأَلْبَابِ » وبعد الهمزة المرسومة واواً نحو « تَاللهِ تفتـأُ » فإنها ترسم هكذا : « تَاللهِ تَفْتَؤُا » . وفى كلمات « مِائَة ، ومِائَتَيْنِ ، والظُّنُونَ ، والرَّسُول ، والسَّبِيلَ » ، فى قوله تعالى : « وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا » . « وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا » . « فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا » .

(١) كل هذه الأمثلة ترسم بدون ألف هكذا : أنجينكم . الله . إله . الرحمٰن . الخ .

وتزاد الياء فى هذه الكلمات: «نبأَ ، آناء ، مِنْ تِلْقاء . بِأَيِّكُمُ المَفْتُون، بأيْدٍ» من قوله تعالى : « والسماء بَنَيْنَاهَا بأيْيدٍ » .

وتزاد الواو فى نحو « أُولُو ، أُولئِكَ ، أُولَاء ، أُولَاتِ » .

« قاعدة الهمز » خلاصتها أن الهمزة إذا كانت ساكنة تكتب بحرف حركة ماقبلها نحو « ائْذَنْ ، اؤْتمِنَ الْبَأْسَاء » ، (إلا ما استثنى) . أما الهمزة المتحركة ، فإن كانت أول الكلمة واتصل بها حرف زائد ، كتبت بالألف مطلقاً ، سواء أ كانت مفتوحة أم مكسورة نحو « أيوب ، أولو ، إذا ، سأصرف ، سأُنزل ، فَبِأَيِّ » (إلا ما استثنى) .

وإن كانت الهمزة وسطاً ، فإنها تكتب بحرف من جنس حركتها ، نحو « سَأَلَ ، سُئِلَ ، تقْرَؤُهُ » (إلا ما استثنى) . وإن كانت متطرفة كتبت بحرف من جنس حركة ما قبلها نحو « سبأ ، شاطئ ، لُؤْلُؤ » (إلا ما استثنى) وإن سكن ماقبلها حذفت[1] نحو « مِلْءُ الأرض ، يُخْرِجُ الخَبْءَ » (إلا ما استثنى) . والمستثنيات كثيرة فى الكل .

(قاعدة البدل) : خلاصتها أن الألف تكتب واواً للتفخيم فى مثل الصلاة والزكاة والحياة ، (إلا ما استثنى) وترسم ياء إذا كانت منقلبة عن ياء نحو «يتوَفَّاكُمْ ، ياحَسْرَتَا ياأسفا » . وكذلك ترسم الألف ياء فى هذه الكلمات : « إلى ، على ، أنَّى ـ بمعنى كيف؟ ـ مَتَى ، بَلَى ، حتى ، لَدَى » ما عدا « لدى البابِ » فى سورة يوسف ، فإنها ترسم ألفاً.

وترسم النون ألفاً فى نون التوكيد الخفيفة ، وفى كلمة « إذن » .

وترسم هاء التأنيث تاء مفتوحة فى كلمة « رحمت » بالبقرة والأعراف ، وهود ومريم ، والروم ، والزخرف . وفى كلمة « نعمة » بالبقرة ، وآل عمران ، والمائدة ، وإبراهيم ، والنحل ، ولقمان ، وفاطر ، والطور . وفى كلمة « لعنــة الله » . وفى كلمة

(١) أى حذفت من الحرف ورسمت مفردة .

معصية » بسورة قد سمع . وفى هذه الكلمات : « إنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ ، قُرَّةَ عَيْنٍ ، جَنَّةُ نَعِيمٍ ، بَقِيَّةُ ٱللهِ » وفى كلمة امرأة أضيفت إلى زوجها نحو «امْرَأَةَ عِمْرانَ ، امْرأَةُ نُوحٍ » وفى غير ذلك .

(قاعدة الوصل والفصل) : خلاصتها أن كلمة « أَنْ » بفتح الهمزة توصل بكلمة « لا » إذا وقعت بعدها . ويستثنى من ذلك عشرة مواضع . منها : « أَنْ لَا تَقُولُوا ، أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللهَ » .

وكلمة « مِنْ » توصل بكلمة « ما » إذا وقعت بعدها. ويستثنى «مِنْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فى النساء والروم ، « وَمِنْ مَارَزَقْنَاكُمْ » فى سورة المنافقين .

وكلمة « مِنْ » توصل بكلمة « مَنْ » مطلقا .

وكلمة « عن » توصل بكلمة « ما » . إلا قوله سبحانه « عَنْ مَا نُهوا عَنْهُ » .

وكلمة « إنْ » بالكسر توصل بكلمة « ما » التى بعدها ، إلا قوله سبحانه : وَإِنْ مَا نُرِينَّكَ » .

وكلمة « أن » بالفتح توصل بكلمة « ما » مطلقاً من غير استثناء .

وكلمة « كل » توصل بكلمة « ما » التى بعدها ، إلا قوله سبحانه « كُلَّ ماردُّوا إلى الفِتْنِةِ ، مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ » .

وتوصل كلمات « نِعِمَّا ، وربما ، وكأنما ، وَيْكَأَنَّ » . ونحوها .

(قاعدة ما فيه قراءتان) خلاصتها أن الكلمة إذا قُرئت على وجهين ، تكتب برسم أحدها ، كما رُسمت الكلمات الآتية بلا ألف فى المصحف وهى: مالِكِ يوْمِ الدِّينِ ، يُخَادِعُونَ اللهَ وَواعَدْنا مُوسَى ، تُفادُوهُمْ » ، ونحوها ، وكلها مقروءة بإثبات الألف وحذفها . وكذلك رسمت الكلمات الآتية بالتاء المفتوحة ، وهى غَيابَةِ الْجُبِّ ، أُنزِلَ عليه آيةٌ » فى العنكبوت « ثمرَةٍ من أكمامِها » فى فُصِّلتْ ، «وهم فى الغُرُفَةِ آمنون»

فى « سبأ » . وذلك لأنها جمعاء مقروءة بالجمع والإفراد . وغير هذا كثير ، وحسبنا ما ذكرناه للتمثيل والتنوير .

مزايا الرسم العثمانى :

لهذا الرسم مزايا وفوائد :

(الفائدة الأولى) الدلالة فى فى القراءات المتنوعة فى الكلمة الواحدة بقدر الإمكان، وذلك أن قاعدة الرسم لوحظ فيها أن الكلمة إذا كان فيها قراءتان أو أكثر ، كُتبت بصورة تحتمل هاتين القراءتين أو الأكثر . فإن كان الحرف الواحد لا يحتمل ذلك بأن كانت صورة الحرف تختلف باختلاف القراءات جاء الرسم على الحرف الذى هو خلاف الأصل ، وذلك ليعلم جواز القراءة به وبالحرف الذى هو الأصل . وإذا لم يكن فى الكلمة إلا قراءة واحدة بحرف الأصل رُسمت به. مثال الكلمة تكتب بصورة واحدة وتقرأ بوجوه متعددة قوله تعالى : « إنْ هٰذَان لَسَاحِرَانِ » رُسمت فى المصحف العثمانى هكذا : « إن هداں لساحراں » من غير نقط ولا شكل ولا تشديد ولا تخفيف فى نونى إن وهذان ، ومن غير ألف ولا ياء بعد الذال من هذان .

ومجىء الرسم كما ترى ، كان صالحاً عندهم لأن يُقرأ بالوجوه الأربعة التى وردت كلها بأسانيد صحيحة . (أولها) قراءة نافع ومن معه إذ يشدّدون نون « إن » ويخففون « هذان » بالألف .

(ثانيها) : قراءة ابن كثير وحده إذ يخفّف النون فى « إن » ويشدد النون فى « هذان » .

(ثالثها) قراءة حفص إذ يخفف النون فى « إن » و « هذان » بالألف .

(رابعها) : قراءة أبي عمرو بتشديد « إن » وبالياء وتخفيف النون في « هذين » فتدبر هذه الطريقة المثلى الضابطة لوجوه القراءة لتعلم أن سلفنا الصالح كان في قواعد رسمه للمصحف أبعد منا نظراً وأهدى سبيلا .

القاعدة الثانية :

إفادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة ، وذلك نحو قطع كلمة « أمْ » في قوله تعالى : « أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » ووصلها في قوله تعالى: « أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » إذ كتبت هكذا « أمن » بإدغام الميم الأولى في الثانية وكتابتهما ميماً واحدة مشددة ، فقطع أمْ الأولى في الكتابة للدلالة على أنها أمْ المنقطعة التي بمعنى بل وصل أمْ الثانية للدلالة على أنها ليست كتلك .

الفائدة الثالثة :

الدلالة على معنى خفيٍّ دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة « أيدٍ » من قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ » إذ كتبت هكذا « بأييدٍ » وذلك للإيماء إلى تعظيم قوة الله التي بنى بها السماء وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة وهي : زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال الأربعة بحذف الواو وهي :

« وَيَدْعُو الْإِنْسَانُ ، وَيَمْحُو اللَّهُ الْبَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِ ، سَنَدْعُوا الزَّبَانِيَةَ » فإنها كتبت في المصحف العثماني هكذا : « وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ ، وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ، يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » ولكن من غير نقط ولا شكل في الجميع .

قالوا : والسرُّ فى حذفها من « وَيَدْعُ الإِنْسَانُ » هو الدلالة على أن هذا الدعاء سهل على الإنسان يسارع فيه كما يسارع إلى الخير ! بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير . والسرُّ فى حذفها من « وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ » الإشارة إلى سرعة ذهابه واضمحلاله .

والسرُّ فى حذفها من « يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ » الإشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين . والسرُّ فى حذفها من « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » الإشارة إلى سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة البطش ! ويجمع هذه الأسرار قول المراكشى :

« والسرُّ فى حذفها من هذه الأربعة سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به فى الوجود » اهـ .

الفائدة الرابعة :

الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الكسرة ياء فى قوله سبحانه « وإيتاء ذى القربى » إذ تكتب هكذا « وإيتائى ذى القربى » ومثل كتابة الضمة واواً فى قوله سبحانه : « سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ » إذ كتبت هكذا (سأوريكم) ومثل ذلك الدلالة على أصل الحرف نحو الصلاة والزكاة إذ كتبا هكذا : « الصلوة ، الزكوة » ليفهم أن الألف فيهما منقلبة عن واو . (من غير نقط ولا شكل كما سبق) .

الفائدة الخامسة :

إفادة بعض اللغات الفصيحة ، مثل كتابة هاء التأنيث تاء مفتوحة دلالة على لغة طيئ ، وقد تقدمت الأمثلة لهذا النوع . ومثل قوله سبحانه : « يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » كتبت بحذف الياء هكذا « يأتِ » للدلالة على لغة هذيل .

الفائدة السادسة :

حملُ الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال ، ولا يتّكلوا على هذا الرسم العثمانى الذى جاء غير مطابقٍ للنطق الصحيح فى الجملة . وينضوى تحت هذه الفائدة مزيتان : (إحداهما) التوثقَ من ألفاظ القرآن وطريقة أدائه وحسن ترتيله وتجويده . فإن ذلك لا يمكن أن يعرف على وجه اليقين من المصحف ، مهما تكن قاعدة رسمه واصطلاح كتابته . فقد تخطىء المطبعة فى الطبع ، وقد يخفى على القارئ بعض أحكام تجويده ، كالقلقلة والإظهار والإخفاء والإدغام والروم والإشمام ونحوها ، فضلًا عن خفاء تطبيقها .

ولهذا قرّر العلماء أنه لا يجوز التعويل على المصاحف وحدها . بل لا بدَّ من التثبُّت فى الأداء والقراءة ، بالأخذ عن حافظٍ ثقةٍ . وإن كنت فى شكٍّ فقل لى بربك : هل يستطيع المصحف وحده بأى رسم يكون ، أن يدل قارئًا أيًّا كان على النطق الصحيح بفواتح السور الكريمة ؟ مثــل « كهيعص حم عسق ، طسم » ؟ ؟ ؟ ومن هذا الباب الروم والإشمام فى قوله سبحانه « مالَكَ لا تأمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » من كلمة « لا تَأْمَنَّا » !

(المزية الثانية) اتصال السند برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وتلك خاصّة من خواصِّ هذه الأمة الإسلامية امتازت بها على سائر الأمم .

قال ابن حزم : « نَقْلُ الثقة عن الثقة يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم مع الاتّصال ، خصَّ الله به المسلمين دون سائر الملل . وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد فى كثير من كتب اليهود ، ولكن لا يقربون فيه من موسى قربَنا من محمد صلى الله عليه وسلم . بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصراً . إنما يبلغون إلى شمعون ونحوه . ثم قال : وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق . وأما

النقل المشتمل على طريق فيه كذاب أو مجهول العين، فكثير فى نقل اليهود والنصارى. وأما أقوال الصحابة والتابعين، فلا يمكن اليهود أن يبلغوا صاحب نبى أو تابعى، ولا يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولس » . اهـ

هل رسم المصحف توقيفى؟

للعلماء فى رسم المصحف آراء ثلاثة :

(الرأى الأول) : أنه توقيفى لا تجوز مخالفته . وذلك مذهب الجمهور . واستدلوا بأن النبى ﷺ كان له كُتَّاب يكتبون الوحى ، وقد كتبوا القرآن فعلًا بهذا الرسم وأقرَّهم الرسول على كتابتهم ، ومضى عهده ﷺ والقرآن على هذه الكِتْبة لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل . بل ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يضع الدستور لكُتَّاب الوحى فى رسم القرآن وكتابته . ومن ذلك قوله لمعاوية وهو من كَتَبَة الوحى: « أَلِقِ الدَّوَاةَ وَحَرِّفِ القلمَ وانْصِبِ الباء ، وفرِّقِ السِّينَ ، ولا تُعَوِّرِ الميمَ ، وَحَسِّنِ اللهَ ، ومُدَّ الرَّحمٰن ، وجَوِّدِ الرَّحيم ، وضعْ قلمَكَ عَلَى أُذُنِكَ اليُسْرَى ، فإنَّهُ أَذْكَرُ لَكَ » .

ثم جاء أبو بكر فكتب القرآن بهذا الرسم فى صحف ، ثم حذا حَذْوَه عثمان فى خلافته ، فاستنسخ تلك الصحف فى مصاحف على تلك الكِتبة وأقر أصحابُ النبى صلى الله عليه وسلم عمل أبى بكر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، وانتهى الأمر بعد ذلك إلى التابعين وتابعى التابعين ، فلم يخالف أحد منهم فى هذا الرسم ، ولم ينقل أن أحداً منهم فكَّر أن يستبدل به رسماً آخر من الرسوم التى حدثت فى عهد ازدهار التأليف ، ونشاط التدوين ، وتقدم العلوم . بل بقى الرسم العثمانى محترماً متبعاً فى كتابة المصاحف لا يُمسُّ استقلاله ، ولا يُباح حِماه !.

وملخَّص هذا الدليل أن رسم المصاحف العثمانية ، ظفر بأمورٍ كل واحد منها يجعله

جديراً بالتقدير ووجوب الاتباع . تلك الأمور هي إقرار الرسول ﷺ عليه ، وأمره بدستوره . وإجماع الصحابة ـ وكانوا أكثر من اثنى عشر ألف صحابي ـ عليه ، ثم إجماع الأمة عليه بعد ذلك في عهد التابعين والأئمة المجتهدين !

وأنت خبير بأن اتباع الرسول واجب فيما أمر به أو أقر عليه؛ لقوله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » والاهتداء بهدى الصحابة واجب خصوصاً الخلفاء الراشدين ، لحديث العِرْباض بن سارِيَة وفيه يقول صلى الله عليه وسلم « فإنهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى ٱخْتِلافاً كَثيراً ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسنةِ ٱلْخلفاءِ ٱلرَّاشدين مِنْ بَعْدِي ، عضُّوا عليها بالنَّوَاجِذِ » ولا ريب أن إجماع الأمة في أي عصر واجب الاتباع ، خصوصاً العصر الأول . قال تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً » .

وممن حكى إجماع الأمة على ما كَتَبَ عثمان ، صاحب المقنع إذ يروى بإسناده إلى مصعب بن سعد قال : « أدركتُ الناسَ حين شقَّق عثمان رضى الله عنه المصاحف ، فأعجبهم ذلك ولم يَعِبْهُ أحدٌ » وكذلك يروى شارح العقيلة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن عثمان أرسل إلى كل جند من أجناد المسلمين مصحفاً ، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف الذى أرسل إليهم . ولم يُعرف أن أحداً خالف في رسم هذه المصاحف العثمانية .

وانعقادُ الإجماع على تلك المصطلحات في رسم المصحف دليل على أنه لا يجوز العدول عنها إلى غيرها . ويرحم الله الإمام الخراز إذ يقول :

« وبعده جرَّده الإمام ... في مُصحف ليقتدى الأنامُ
ولا يكون بعدَه اضطرابُ ... وكان فيما قد رأى صوابُ

وقصّةُ اختلافِهِمْ شهيره كقصةِ اليمامةِ العسيرهْ
فينبغى لأَجْلِ ذا أن نَقْتَفِى مرسُومَ ما أصَّلَهُ فى المصحف
ونقتدِى بفعله وما رأى فى جعله لمن يخطُّ مَلْجأً »

أقوال العلماء فى التزام الرسم العثمانى :

روى السخاوىُّ بسنده أن مالكاً رحمه الله سئل : أرأيت من استكتب مصحفاً أترى أن يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم؟ فقال : لا أرى ذلك ، ولكن يكتب على الكتبة الأولى . قال السخاوى : والذى ذهب إليه مالك هو الحق ، إذ فيه بقاء الحالة الأولى إلى أن تعلمها الطبقة الأخرى ، ولا شك أَن هذا هو الأَحرى بعد الأخرى . إذ فى خلاف ذلك تجهيل الناس بأولية ما فى الطبقة الأولى .

وقال أبو عَمْرو الدانى : لا مخالف لمالك من علماء الأُمة فى ذلك . وقال أبو عمرو الدانى أيضاً : سئل مالك عن الحروف فى القرآن مثل الواو والألف ، أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟ قال: لا. قال أبو عمرو : يعنى الألف والواو المزيدتين فى الرسم المعدومتين فى اللفظ نحو « أُولوا » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك .

وجاء فى حواشى المنهج فى فقه الشافعيـــة ما نصهَ : « كلمة الربا تكتب بالواو والألف كما جاء فى الرسم العثمانى ، ولا تكتب فى القرآن بالياء أو الألف ، لأن رسمه سنة متبعة » .

وجاء فى المحيط البرهانى فى فقه الحنفية ما نصه « إنه ينبغى ألّا يكتب المصحف بغير الرسم العثمانى » .

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى ما نصه: «وقال جماعة من الأئمة إن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتابة أن يتبعوا هذا الرسم فى خط المصحف؛ فإنه رسم زيد بن ثابت، وكان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب وحيه».

وقال البيهقى فى شعب الإيمان: «من كتب مصحفاً ينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوه شيئاً؛ فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم» اهـ.

ويمكن مناقشة هذا الرأى الأول بأن الأدلة التى ساقوها لا تدل على تحريم كتابة القرآن بغير هذا الرسم؛ إذ ليس فيها زجر الإثم ووعيده، ولا نهى الحرام وتهديده. إنما قصاراها الدلالة على جواز الكتابة بالرسم العثمانى ووجاهته ودقته. وذلك محل اتفاق وتسليم.

الرأى الثانى:

أن رسم المصاحف اصطلاحى لا توقيفى، وعليه فتجوز مخالفته. وممن جنح إلى هذا الرأى ابن خلدون فى مقدمته. وممن تحمّس له القاضى أبو بكر فى الانتصار؛ إذ يقول ما نصه:

«وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً، إذ لم يأخذ على كُتّاب القرآن وخُطّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف. وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه، أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه، ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية.

بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ولا نهى أحداً عن كتابته. ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يخفى عليهم الحال. ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وأن يجعل اللام على صورة الكاف ، وأن تُعَوَّج الأَلِفات ، وأن يكتب على غير هذه الوجوه ، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة ، وجاز أن يكتب بين ذلك .

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة، وكان الناس قد أجازوا ذلك وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى ، من غير تأثيم ولا تناكر ، علم أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حدٌّ محدود مخصوص ، كما أخذ عليهم فى القراءة والأذان .

والسبب فى ذلك أن الخطوط إنما هى علامات ورسوم تجرى مجرى الإشارات والعقود والرموز ، فكل رسم دالٍّ على الكلمة مفيدٍ لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أى صورة كانت .

وبالجملة فكل من ادَّعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه . وأنَّى له ذلك ؟ » اهـ بتلخيص .

ونوقش هذا المذهب :

(أولاً) : بالأدلة التى ساقها جمهور العلماء لتأييد مذهبهم. وهاهى بين يديك عن كَثَب ، بعضها من السنة ، وبعضها من إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم .

(ثانياً): أن ما ادعاه من أنه ليس فى نصوص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه مردود بما سبق من إقرار الرسول كتّاب الوحى على هذا الرسم ، ومنهم زيد بن ثابت الذى كتب

المصحف لأبى بكر وكتب المصاحف لعثمان، والحديث الآنف، وفيه يقول الرسول لمعاوية: « أَلِقِ الدَّوَاةَ وحَرِّفِ القَلَمَ الخ ». فإنه حجة على أنه ﷺ كان واضع دستور الرسم لهم.

(ثالثاً) أن قول القاضى أبى بكر : « ولذلك اختلفت خطوط المصاحف » الخ لا يُسلَّمُ له بعد قيام الإجماع وانعقادِه ومعرفة الناس بالرسم التوقيفى وهو رسم عثمان على ماقرروه هناك .

ونزيدك هنا ماذكره العلامة ابن المبارك نقلا عن العارف بالله شيخه عبد العزيز الدباغ إذ يقول فى كتابه الإبريز ما نصه : « رسم القرآن سرٌّ من أسرار الله المشاهدة وكمال الرفعة ، قال ابن المبارك فقلت له: هل رسم الواو بدل الألف فى نحو « الصلاة، والزكاة، والحياة، ومِشْكَاة » . وزيادة الواو فى « سأُورِيكُم ، وأُولَٰئِكَ ، وأُولَاءِ ، وأُولات ». وكالياء فى نحو « هُدَيٰهُمْ ، وملائه ، وبِأَيِّيكُم ، وبِأَيْيدٍ » . هذا كله صادر من النبى صلى الله عليه وسلم ، أو من الصحابة ؟ فقال : « هو صادر من النبى ﷺ وهو الذى أمر الكُتَّاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة، فما نقصوا ولا زادوا على ماسمعوه من النبى » فقلت له : إن جماعة من العلماء ترخَّصوا فى أمر الرسم وقالوا : إنما هو اصطلاح من الصحابة مشوا فيه على ماكانت قريش تكتب عليه فى الجاهلية . وإنما صدر ذلك من الصحابة لأن قريشاً تعلموا الكتابة من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة ينطقون بالواو فى الربا ، فكتبوا على وَفق منطقهم . وأما قريش فإنهم ينطقون فيه بالألف، وكتابتهم له بالواو على منطق غيرهم وتقليد لهم، حتى قال القاضى أبو بكر البلاقلانى: كل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه، فإنه ليس فى الكتاب ولا فى السنة ولا فى الإجماع ما يدل على ذلك ؟ . فقال : ـ

« ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف من النبى، وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها ، لأسرار

لا تهتدى إليها العقول، وهو سرٌّ من الأسرار خصَّ الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية . وكما أن نظم القرآن معجز ، فرسمه أيضاً معجز! وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الألف فى « مائة » دون « فئة ». وإلى سر زيادة الياء فى « بِأَييْدٍ وبِأَييِّكم »؟ أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف فى « سَعَوْا » بالحج، ونقصانها من « سَعَوْ » بسبأ؟ وإلى سر زيادتها فى « عَتَوْا » حيث كان ، ونقصانها من « عَتَوْ » فى الفرقان ؟ وإلى سر زيادتها فى « آمَنُوا » ، وإسقاطها من « بَاوُ ، جاوُ ، تَبَوَّوُ ، فاوُ » بالبقرة ؟ وإلى سر زيادتها « يَعْفُوَا الذى » ، ونقصانها من « يعفو عنهم » فى النساء ؟ أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض ، كحذف الألف من « قُرْءانًا » بيوسف والزخرف ، وإثباتها فى سائر المواضع؟ وإثبات الألف بعد واو « سموَاتٍ » فى فصلت وحذفها من غيرها. وإثبات الألف فى « الميعاد » مطلقاً، وحذفها من الموضع الذى فى الأنفال وإثبات الألف فى « سِرَاجاً » حيثما وقع ، وحذفه من موضع الفرقان وكيف تتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها فى بعض؟ فكل ذلك لأسرار إلهية ، وأغراض نبوية . وإنما خفيت على الناس لأنها أسرار باطنية لا تدرك إلا بالفتح الربانى ، فهى بمنزلة الألفاظ والحروف المتقطِّعة التى فى أوائل السور ، فإن لها أسراراً عظيمة، ومعانى كثيرة. وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها ، ولا يدركون شيئاً من المعانى الإلهية التى أشير إليها ! فكذلك أمر الرسم الذى فى القرآن حرفاً بحرف .

وأما قول من قال : إن الصحابة اصطلحوا على أمر الرسم المذكور ، فلا يخفى ما فى كلامه من البطلان ، لأن القرآن كتب فى زمان النبى ﷺ وبين يديه . وحينئذ فلا يخلو ما اصطلح عليه الصحابة ، إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها ، فإن كان عينها

بطل الاصطلاح ، لأن أسبقية النبي ﷺ تنافى ذلك وتوجب الاتباع . وإن كان غير ذلك فكيف يكون النبي ﷺ كتب على هيئة كهيئة الرسم القياسي مثلًا ، والصحابة خالفوا وكتبوا على هيئة أخرى ؟ فلا يصح ذلك لوجهين : (أحدهما) نسبة الصحابة إلى المخالفة ، وذلك محال ، (ثانيهما) : أن سائر الأمة من الصحابة وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز زيادة حرف فى القرآن ولا نقصان حرف منه . وما بين الدفتين كلام الله عز وجل ، فإذا كان النبي ﷺ أثبت ألف الرحمن والعالمين مثلًا ، ولم يزد الألف فى « مائة » ولا فى « ولأوضعوا » ولا الياء فى « بأيد » ونحو ذلك ، والصحابة عاكسوه فى ذلك وخالفوه ، لزم أنهم ـ وحاشاهم من ذلك ـ تصرفوا فى القرآن بالزيادة والنقصان ، ووقعوا فيما أجمعوا هم وغيرهم على ما لا يحل لأحد فعله ، ولزم تطرق الشك إلى جميع ما بين الدفتين ، لأنا مهما جوزنا أن تكون فيه حروف ناقصة أو زائدة على ما فى علم النبي ﷺ وعلى ما عنده وأنها ليست بوحى ولا من عند الله ولا نعلمها بعينها ، شككنا فى الجميع . ولئن جوزنا لصحابى أن يزيد فى كتابته حرفًا ليس بوحى ، لزمنا أن نجوز لصحابى آخر نقصان حرف من الوحى ، إذ لا فرق بينهما ، وحينئذ تنحل عروة الإسلام بالكلية ! .

ثم قال ابن المبارك بعد كلام . . فقلت له : فإن كان الرسم توقيفيًا بوحى إلى النبي ﷺ وأنه كألفاظ القرآن فلم لم ينقل تواترًا حتى ترتفع عنه الريبة وتطمئن به القلوب كألفاظ القرآن ؟ فإنه ما من حرف إلا وقد نقل تواترًا لم يقع فيه اختلاف ولا اضطراب . وأما الرسم فإنه إنما نقل بالآحاد ، كما يعلم من الكتب الموضوعة فيه . وما نقل بالآحاد وقع الاضطراب بين النقلة فى كثير منه . وكيف تضيع الأمة شيئًا من الوحى ؟ . فقال : « ما ضيعت الأمة شيئًا من الوحى ، والقرآن بحمد الله محفوظ ألفاظًا ورسمًا . فأهل العرفان والشهود والعيان ، حفظوا ألفاظه ورسمه ، ولم يضيعوا منها شعرة واحدة ، وأدركوا ذلك بالشهود والعيان الذى هو فوق التواتر . وغيرهم حفظوا ألفاظه الواصلة إليهم بالتواتر واختلافهم

فى بعض حروف الرسم لا يقدح ولا يصير الأمة مضيعة ، كما لا يضر جهل العامة بالقرآن وعدم حفظهم لألفاظه » اهـ .

الرأى الثالث :

يميل صاحب التبيان ومن قبله صاحب البرهان ، إلى ما يفهم من كلام العز ابن عبد السلام ، من أنه يجوز بل تجب كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة عندهم ، ولا تجوز كتابته لهم بالرسم العثمانى الأول ، لئلا يوقع فى تغيير من الجهال . ولكن يجب فى الوقت نفسه المحافظة على الرسم العثمانى ، كأثر من الآثار النفيسة الموروثة عن سلفنا الصالح ، فلا يهمل مراعاة لجهل الجاهلين ، بل يبقى فى أيدى العارفين الذين لا تخلو منهم الأرض . وهاك عبارة التبيان فى هذا المقام إذ يقول ما نصه :

وأما كتابته (أى المصحف) على ما أحدث الناس من الهجاء ، فقد جرى عليه أهل المشرق ، بناء على كونها أبعد من اللبس ، وتحاماه أهل المغرب بناء على قول الإمام مالك وقد سئل . هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء ؟ فقال : « لا : إلا على الكتبة الأولى » . قال فى البرهان : قلت : وهذا كان فى الصدر الأول ، والعلم حىٌّ غضٌّ . وأما الآن فقد يخشى الالتباس ، ولهذا قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول باصطلاح الأئمة ، لئلا يوقع فى تغيير من الجهال . ولكن لا ينبغى إجراء هذا على إطلاقه ، لئلا يؤدى إلى دروس العلم . وشىء قد أحكمته القدماء لا يترك مراعاةً لجهل الجاهلين . « ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة » اهـ .

أقول : وهذا الرأى يقوم على رعاية الاحتياط للقرآن من ناحيتين : ناحية كتابته فى كل عصر بالرسم المعروف فيه ، إبعاداً للناس عن اللبس والخلط فى القرآن ، وناحية إبقاء

رسمه الأول المأثور ، يقرؤه العارفون ومن لا يخشى عليهم الالتباس . ولا شك أن الاحتياط مطلب دينى جليل ، خصوصاً فى جانب حماية التنزيل .

جـ - الشبهات التى أثيرت
حول كتابة القرآن ورسمه

الشبهة الأولى :

يقولون : روى عن عثمان أنه حين عرض عليه المصحف قال : « أحسنتم وأجملتم ، إن فى القرآن لحناً ستقيمه العرب بألسنتها » .

ويقولون : روى عن عكرمة أنه قال : « لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال : لا تغيروها ، فإن العرب ستغيرها أو قال : ستعربها بألسنتها . لو كان الكاتب من ثقيف والملى من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف .

أورد أعداء الإسلام هاتين الروايتين وقالوا : إنهما طعنان صريحان فى رسم المصحف ، فكيف يكون مصحف عثمان وجمعه للقرآن ، موضع ثقة ، وإجماع من الصحابة ؟ وكيف يكون توقيفياً ؟ وهذا عثمان نفسه يقول بملء فيه : « إن فيه لحناً » .

ونجيب على هذه الشبهة أولًا : بأن ما جاء فى هاتين الروايتين ضعيف الإسناد ، وأن فيهما اضطراباً وانقطاعاً . . قال العلامة الألوسى فى تفسيره : « إن ذلك لم يصح عن عثمان أصلًا » اهـ ولعلك تلمح معى دليل سقوط هاتين الروايتين ماثلًا فيهما

من جَراء هذا التناقض الظاهر بين وصفهما نسَّاخ المصحف بأنهم أحسنوا وأجملوا ، ووصفهما المصحف الذى نسخوه بأن فيه لحناً . وهل يقال للذين لحنوا فى المصحف : أحسنتم وأجملتم ؟.

اللهم إلا إذا كان المراد معنى آخر .

ثانياً : أن المعروف عن عثمان فى دقته وكمال ضبطه وتحرِّيه يجعل صدور أمثال هاتين الروايتين من المستحيل عليه . انظر إلى ما سبق من دستوره فى جمع القرآن . ثم انظر إلى ما أخرجه أبو عبيد عن عبد الرحمن بن هانىء مولى عثمان قال : كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة إلى أبىٍّ بن كعب فيها « لم يتَسَنَّ » وفيها « لَا تبدِيلَ لِلْخَلْق » وفيها « فَأَمْهِلِ الْكَافِرِينَ » فدعا بدواة فمحا أحد اللامين وكتب « لخلق الله » ومحا « فأمهل » وكتب « فمهِّلْ » وكتب « لم يتسنهْ » فألحق فيها الهاء .

قال ابن الأنبارى : فكيف يدعى عليه أنه رأى فساداً فأمضاه ؟ وهو يوقف على مايكتب ويرفع الخلاف الواقع من الناسخين فيه ، فيحكم بالحق ويلزمهم إثبات الصواب وتخليده اهـ .

ثالثاً : على فرض صحة ما ذكر يمكن أن نؤوله بما يتفق والصحيح المتواتر عن عثمان فى نسخ المصاحف وجمع القرآن ، ومن نهاية التثبت والدقة والضبط .

وذلك بأن يراد بكلمة « لحناً » فى الروايتين المذكورتين قراءة ولغةً . والمعنى أن فى القرآن ورسم مصحفه وجهاً فى القراءة لاتلين به ألسنة العرب جميعاً ، ولكنها لاتلبث أن تلين به ألسنتهم جميعاً بالمران وكثرة تلاوة القرآن بهذا الوجه . وقد ضرب بعض أجلاء العلماء لذلك مثلا كلمة (الصراط) بالصاد المبدلة من السين فتقرأ العرب بالصاد عملًا بالرسم ، وبالسين عملًا بالأصل .

الشبهة الثانية :

يقولون : روى عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ « والمقيمِينَ الصَّلَاةَ » ويقول « هوَ مِنْ لَحنِ الـكُتَّابِ » .

والجواب : على غِرار ماسبق ، أى أن ابن جبير لا يريد بـكلمة « لحن » الخطأ . إنما يريد بها اللغة والوجه فى القراءة على حـــد قوله تعالى : « وَلَتَعْرِفَنَّهُم فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » . والدليل على هذا التوجيه أن سعيد بن جبير نفسه كان يقرأ : « وَالْمُقِيمِينَ الصلاة » ، فلو كان يريد باللحن الخطأ مارضى لنفسه هـــذه القراءة . وكيف يرضى مايعتقد أنه خطأ ؟

وهذه الـكلمة فى آية من سورة النساء ونصها: « لَـكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَاةَ ، وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ ، وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا » فـكلمة « والمقيمين الصلاة » قرأها الجمهور بالياء منصوباً كما ترى. وقرأها جماعة بالواو، منهم أبو عمرو فى رواية يونس وهارون عنه . ولـكل من القراءتين وجه صحيح فصيح فى اللغة العربية ، فالنصب مخرَّج على المدح ، والتقدير « وأمدح المقيمين الصلاة » . والرفع مخرَّج على العطف ، والمعطوف عليه مرفوع كما ترى .

الشبهة الثالثة :

يقولون : ألا يـكفى فى الطعن على جمع القرآن ورسمه ما رُوى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا » أنه قال : إن الـكاتب أخطأ والصواب : « حتى تَسْتَأْذِنُوا » .

ونجيب (أولا) بما أجاب به أبو حيان إذ يقول ما نصه : إن من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك ، فهو طاعن فى الإسلام ملحد فى الدين ، وابن عباس برىء من ذلك القول اﻫ .

(ثانيا) بما أخرجه ابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه فسّر « تَسْتَأْنِسُوا » فقال : أى تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها يعنى أصحاب البيوت .

(ثالثاً) أن القراء لم يرووا غير قراءة « تَسْتَأْنِسُوا » فلو كان ذلك النقل صحيحا عن ابن عباس لنقلوا عنه أنه قرأ « تَسْتَأْذِنُوا » .

(رابعاً) إذا سلمنا للحاكم أن هذا الخبر صحيح عن ابن عباس ، فإننا نرده برغم دعوى هذه الصحة ، لأنه معارض للقاطع المتواتر وهو قراءة « تَسْتَأْنِسُوا » والقاعدة أن معارض القاطع ساقط ، وأن الرواية متى خالفت رسم المصحف فهى شاذّة لا يلتفت إليها ولا يُعوّل عليها .

الشبهة الرابعة :

يقولون : ألا يكفى فى الطعن على جمع القرآن ورسمه ما روى عن ابن عباس أيضاً أنه قرأ « أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً » . فقيل له : إنها فى المصحف « أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمنوا » فقال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس .

ونجيب : بأنه لم يصح ذلك عن ابن عباس . قال أبو حيان : بل هو قول ملحد زنديق . وقال الزمخشرى : ونحن ممن لا يصدق هذا فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكيف يخفى هذا ؟ حتى يبقى ثابتاً بين دفتى الإمام (أى المصحف الإمام) وهو مصحف عثمان ، وكان متقلبا بين أيدى أولئك الأعلام ، المحتاطين

لدين الله المهيمنين عليه ، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، خصوصاً عن القانون الذى إليه المرجع ، والقاعدة التى أُقيم عليها البناء ؟ هذا والله فِرْية ، مافيها مِرْية اهـ . وقال الفراء: لا يتلى إلا كما أُنزل : « أَفَلَمْ يَيأَس » اهـ . وعلى ذلك تكون رواية ذلك فى الدر المنثور وغيره عن ابن عباس رواية غير صحيحة. ومعنى «أفلم ييأس الَّذِينَ آمَنُوا» : أفلم يعلموا قال القاسم بن معن : هى لغة هوازن . وجاء بها الشعر العربى فى قول القائل :

« أقولُ لهمْ بالشِّعْبِ إذْ يَأْسِرُونَنى أَلَمْ تيأْسوا أَنّى ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ[(١)] »

أى ألم تعلموا .

الشبهة الخامسة :

يقولون : من وجوه الطعن أيضاً ما روى عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله تعالى « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » إنما هى « ووصَّى رَبُّكَ » التزقت الواو بالصاد وكان يقرأ : ووصى ربك ، ويقول : أَمَرَ رَبُّكَ ، إنهما واوان التصقت إحداهما بالصاد وروى عنه أنه قال : أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم . ووصى ربك أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ . فلصقت إحدى الواوين بالصاد ، فقرأ الناس : «وقَضَى ربُّكَ» ولو نزلت على القضاء ما أشرك أحد .

ونجيب : عن ذلك كله (أولا) بما أجاب به ابن الأنبارى إذ يقول : « إن هذه الروايات ضعيفة » .

---

(١) قال فى القاموس : زَهْدَم كجعفر : فرس لعنترة، وفرس لِبشْر بن عَمْرو الرِّيَاحى ـ إلى أن قال ـ والزَّهْدَمان أخوان من عَبْس : زَهْدَمٌ ، وَكَرْدَمٌ .

(ثانيا) أن هذه الروايات معارضة للمتواتر القاطع ، وهو قراءة «وقضى» ومعارض القاطع ساقط .

(ثالثا) أن ابن عباس نفسه ، وقد استفاض عنه أنه قرأ : «وقضى» وذلك دليل على أن ما نسب إليه فى تلك الروايات من الدسائس الرخيصة التى لفقها أعداء الإسلام . قال أبو حيان فى البحر : والمتواتر هو « وقَضَى » وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتـــادة ، بمعنى أمر . وقال ابن مسعود وأصحابه بمعنى « وَصَّى » اهـ إذن رواية « وقضى » هى التى انعقد الإجماع عليها من ابن عباس ، وابن مسعود ، وغيرهما فلا يتعلق بأذيال مثل هذه الرواية الساقطة إلا ملحد ، ولا يرفع عقيرته بها إلا عدوٌّ من أعداء الإسلام .

الشبهة السادسة :

يقولون : إن ابن عباس روى عنه أيضاً أنه كان يقرأ : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهٰرُونَ الْفُرْقَانَ ضِيَاءً[1] » ويقول ، خذوا هذه الواو ، واجعلوها فى « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَـكُمْ . » وروى عنه أيضاً أنه قال : انزعوا هذه الواو ، واجعلوها فى « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » .

ونجيب (أولًا) بأن هذه الروايات ضعيفة ؟ لم يصح شىء منها عن ابن عباس .

(ثانياً) أنها معارضة للقراءة المتواترة المجمع عليها ، فهى ساقطة .

(ثالثاً) أن بلاغة القرآن قاضية بوجود الواو لا بحذفها ، لأن ابن عباس نفسه فسر الفرقان فى الآية المذكورة بالنصر ، وعليه يكون الضياء بمعنى التوراة أو الشريعة . فالمقام للواو لأجل هذا التغاير .

---

(١) الآية فى سورة الأنبياء ـ لـكن اتصال الواو بكلمة « ضِيَاءً » . ونصُّ الآية الـكريمة : « ولقد آتينا موسى وهٰرونَ الفرقانَ وضياءً وذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ » .

الشبهة السابعة :

يقولون : روى عن ابن عباس فى قوله تعالى: « مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ » أنه قال: هى خطأ من الكاتب. هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة . إنما هى: « مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ كَمِشْكَاةٍ » .

ونجيب (أولا) بأنها رواية معارضة للقاطع المتواتر ، فهى ساقطة .

(ثانياً) أنه لم ينقل عن أحد من القراء أن ابن عباس قرأ : مثَلُ نورِ الْمُؤْمِنِ ، فكيف يقرأ رضى الله عنه بما يعتقد أنه خطأ ، ويترك مايعتقد أنه صواب؟ألا إنها كذبة مفضوحة ! ولو أنهم نسبوها لأُبىٍّ بن كعب ، لكان الأمر أهون ، لأنه روى فى الشواذ أن أبىّ بن كعب قرأ: مثلُ نورِ الْمُؤْمِنِ . والذى ينبغى أن تحمل عليه هذه الروايات أن أُبيًّا رضى الله عنه . أراد تفسير الضمير فى القراءة المعروفة المتواترة وهى مثل نوره . فهى روايات عنه فى التفسير لا فى القراءة ، بدليل أنه كان يقرأ : « مثَلُ نورِهِ » .

دفعٌ عامٌّ عن ابن عباس

كل ماروى عن ابن عباس فى تلك الشبهات ، يمكن دفعه دفعاً عامًّا بأن ابن عباس قد أخذ القرآن عن زيد بن ثابت وأُبىٍّ بن كعب ، وهما كانا فى جمع المصاحف . وزيد بن ثابت كان فى جمع أبى بكر أيضاً . وكان كاتب الوحى، وكان يكتب مايكتب بأمر النبى ﷺ وإقراره . وابن عباس كان يعرف ذلك ويوقن به ، فمحال إذن أن ينطق لسانه بكلمة تحمل رائحة اعتراض على جمع القرآن ورسم القرآن اوإلا فكيف يأخذ عن زيد وابن كعب ثم يعترض على جمعهما ورسمهما ؟ .

الشبهة الثامنة :

يقولون : روى عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : سألت عائشة عن لحن القرآن ، عن قوله تعالى : « إِنْ هٰذَانِ لَسَاحِرَانِ » وعن قوله تعالى : « وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَاةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ » وعن قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئُونَ » . فقالت : يابن أخى هذا من عمل الكُتَّاب ، قد أَخْطَئُوا فى الكتاب . قال السيوطى فى هذا الخبر : إسناده صحيح على شرط الشيخين . ويقولون أيضاً : روى عن أبى خَلَفٍ مولى بنى جُمَحٍ أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة فقال : جئت أسألك عن آية فى كتاب الله ، كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها ؟ قالت : أيَّةُ آية ؟ قال : « ٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا » أو « الذينَ يَأْتون ماأَتوا » . قالت : أيُّهما أَحبُّ إِلَيْكَ ؟ قلتُ : والذى نفسى بِيَدِهِ لَإِحْدَاهُما أَحبُّ إِلَىَّ مِنَ الدُّنيا جميعاً . قالتْ : أيُّهُمَا ؟ قلتُ : « ٱلَّذِينَ يَأْتونَ مَا أَتَوْا » . فقال : أشهد أَنَّ رسولَ الله ﷺ كذلك كان يَقْرَؤُها ، وكذلك أُنزلت ، ولكن الهجاء حرف .

ونجيب (أولا) بأن هذه الروايات مهما يكن سندها صحيحاً ، فإنها مخالفة المتواتر القاطع ، ومعارض القاطع ساقط مردود ، فلا يلتفت إليها ، ولا يعمل بها .

(ثانياً) أنه قد نص فى كتاب إتحاف فضلاء البشر ، على أن لفظ « هذان » قد رسم فى المصحف من غير ألف ولا ياء ، ليحتمل وجوه القراءات الأربع فيها ، كما شرحنا ذلك سابقاً فى فوائد رسم المصحف . وإذن فلا يعقل أن يقال أخطأ الكاتب ، فإن الكاتب لم يكتب ألفاً ولا ياء . ولو كان هناك خطأ تعتقده عائشة ما كانت تنسبه للكاتب ، بل كانت تنسبه لمن يقرأ بتشديد (إن) وبالألف لفظاً فى (هـذان) . ولم ينقل عن عائشة ولا عن غيرها تخطئة من قرأ بما ذكر ، وكيف تنكر هذه القراءة وهى متواترة مجمع عليها ؟ ، بل هى قراءة الأكثر ، ولها وجه فصيح فى العربية لا يخفى على مثل عائشة . ذلك هو إلزام المثنى الألف فى جميع حالاته . وجاء منه قول الشاعر العربى : —

« واها لسلمى ثم واها واهاَ   يا ليتَ عيناهاَ لنا وفاهاَ
وموضعَ الخلخال من رجلاهاَ   بثمن يَرْضَى به أباهاَ
إنَّ أباها وأبَا أباهاَ   قد بلغاَ في المجدِ غايتاهاَ »

فبعيدٌ عن عائشةَ أن تنكر تلك القراءة ولو جاء بها وحدها رسم المصحف .

(ثالثاً) أن مانسب إلى عائشة رضى الله عنها من تخطئة رسم المصحف فى قوله تعالى: « والمقيمينَ الصلاةَ » بالياء ، مردود بما ذكره أبو حيان فى البحر إذ يقول ما نصه : « وذكر عن عائشة رضى الله عنها وعن أبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ كاتب المصحف . ولا يصح ذلك عنهما، لأنهما عربيان فصيحان ، وقطع النعوت مشهور فى لسان العرب. وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه وغيره وقال الزمخشرى : «لا يلتفت إلى مازعموا من وقوعه خطأ فى خط المصحف . وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب « يريد كتاب سيبويه » ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان، وخفى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كانوا أبعدَ همةً فى الغيرة على الإسلام، وذبٍّ المطاعن عنه ، من أن يتركوا فى كتاب الله ثلمةً يسدها من بعدهم ، وخرقا يرفوهُ من يلحقهم » .

(رابعاً) أن قراءة « والصابئون » بالواو ، لم ينقل عن عائشة أنها خطّأت من يقرأ بها ، ولم ينقل أنها كانت تقرأ بالياء دون الواو . فلا يعقل أن تكون خطّأت من كتب بالواو .

(خامساً) أن كلام عائشة فى قوله تعالى : « يؤتونَ ما آتوا » لا يفيد إنكار هذه القراءة المتواترة المجمع عليها . بل قالت للسائل : أيهما أحبُّ إليك ؟ ولا تحصر للسموع عن رسول الله ﷺ فيما قرأت هى به . بل قالت : إنه مسموع ومنزل فقط .

وهذا لا ينافى أن القراءة الأخرى مسموعة ومنزلة كتلك . خصوصاً أنها متواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم . أما قولها : ولكن الهجاء حرف ، فكلمة حرف مأخوذة من الحرف بمعنى القراءة واللغة ، والمعنى أن هذه القراءة المتواترة التى رسم بها المصحف ، لغة ووجه من وجوه الأداء فى القرآن الكريم . ولا يصح أن تكون كلمة حرف فى حديث عائشة مأخوذة من التحريف الذى هو الخطأ ، وإلا كان حديثا معارضاً للمتواتر ، ومعارض القاطع ساقط .

الشبهة التاسعة :

يقولون : روى عن خارجة بن زيد بن ثابت أنه قال : « قالوا لزيد يا أبا سعيد « أوهمتَ » إنما هى « ثمانية أزواج من الضأن اثنين[1] اثنين ، ومن المعز اثنين اثنين ومن الإبل اثنين اثنين ، ومن البقر اثنين اثنين » . فقال : لا . إن الله تعالى يقول « فجعلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ » فهما زوجان ، كل واحد منهما زوج . الذكر زوج ، والأنثى زوج » اهـ . قال أعداء الإسلام : فهذه الرواية تدل على تصرُّف نساخ المصحف واختيارهم ما شاءوا فى كتابة القرآن ورسمه .

والجواب أن كلام زيد هذا لا يدل على ما زعموا . إنما يدل على أنه بيان لوجه ما كتبه وقرأه سماعاً وأخذاً عن النبى صلى الله عليه وسلم لا تصرُّفاً وتشهياً من تلقاء نفسه . وكيف يتصور هذا من الصحابة فى القرآن وهم مضرب الأمثال فى كمال ضبطهم وتثبتهم فى الكتاب والسنة . لاسيما زيد بن ثابت ، وقد عرفت فيما سبق من هو زيد فى حفظه

---

(١) يريدون آية سورة الأنعام ونصها : « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ » الخ .

وأمانته ودينه وورعه ؟ ! وعرفت دستوره الدقيق الحكيم فى كتابة الصحف والمصاحف ! « فأنى يؤفكون » ؟

الشبهة العاشرة :

يقولون : إن مروان هو الذى قرأ « ملك يوم الدين » من سورة الفاتحة بحذف الألف من لفظ « مالك » . ويقولون : إنه حذفها من تلقاء نفسه دون أن يرد ذلك عن النبى ﷺ فضلًا عن أن يتواتر عنه قراءةً ولفظًا ، أو يصح كتابةً ورسمًا .

والجواب أن هذا كذب فاضح (أولًا) لأنه ليس لهم عليه حجة ولا سند .

(ثانيًا) أن الدليل قام ، والتواتر تم ، والإجماع انعقد ، على أن النبى ﷺ قرأ لفظ « مالك يوم الدين » بإثبات الألف وحذفها ، وأخذ أصحابه عنه ذلك . فممّن قرأ بهما علىّ وابن مسعود وأبى بن كعب . وممن قرأ بالقصر أى حذف الألف أبو الدرداء وابن عباس وابن عمر . وممن قرأ بالمد أى إثبات الألف أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين . وهؤلاء كلهم كانوا قبل أن يكون مروان ، وقبل أن يولد مروان ، وقبل أن يقرأ مروان . وقصارى ما فى الأمر أن مروان اتفق أن روايته كانت القصر فقط . وذلك لا يضرنا فى شىء . كما اتفق أن رواية عمر بن عبدالعزيز كانت المد فقط .

(ثالثًا) أن كلمة « مالك » رسمت فى المصحف العثمانى هكذا « ملك » كما سبق .

خلاصة الدفاع :

والخلاصة أن تلك الشبهة وما ماثلها ، مدفوعة بالنصوص القاطعة ، والأدلة الناصعة ، على أن جميع القرآن الذى أنزله الله وأمر بإثباته ورسمه ؛ ولم ينسخه ناسخ فى تلاوته ، وهو هذا الذى حواه مصحف عثمان بين الدفتين ، لم ينقص منه شىء ، ولم يزد فيه شىء ، بل

إن ترتيبه ونظمه كلاهما ثابت على ما نظمه الله سبحانه وتعالى ورتبه رسوله ﷺ من آى وسور . لم يقدم من ذلك مؤخر ، ولم يؤخر منه مقدم . وقد ضبطت الأمة عن النبى ﷺ ترتيب آى كل سورة ومواقعها ، كما ضبطت منه نفس القراءات وذات التلاوة على ما سبق وما سيجىء فى الكلام على القراءات إن شاء الله .

فليلاحظ دائماً فى الرد على أمثال تلك الشبهات أمران : (أولهما) تلك القاعدة الذهبية التى وضعها العلماء : وهى أن خبر الآحاد إذا عارض القاطع سقط عن درجة الاعتبار ، وضرب به عرض الحائط ، مهما تكن درجة إسناده من الصحة .

(ثانيهما) خطُّ الدفاع الذى أقمناه فى المبحث الثامن حصناً حصيناً دون النيـــل من الصحابة واتهامهم بسوء الحفظ أو عدم التثبتِ والتحرى ، خصوصاً فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

شبهة على التزام الرسم العثمانى فى هذا العصر :

يقولون : إن كثيراً من المتعلمين لا يحفظون القرآن ولا يحسنون قراءته فى المصحف ، لعدم معرفتهم الرسم العثمانى . فلماذا نتقيد بهذا الرسم ولا نكتب المصاحف اليوم باصطلاح الكتابة المعروف ، تسهيلًا على الناشئة ، وتيسيراً على الناس ؟

والجواب (أولا) أن للعلماء آراء فى ذلك بالجواز ، بل قال بعضهم ـ وهو العز ابن عبد السلام ـ بوجوب كتابة المصحف للعامة باصطلاح كتابتهم الحديث خشية الالتباس كما يجب كتابته بالرسم العثمانى محافظةً على هذا التراث العزيز . وقد سبق شرح آراء العلماء قريباً . وما هى منك ببعيد .

(ثانياً) أن فى الرسم العثمانى مزايا وفوائد ذكرناها سابقاً .

(ثالثاً) أن مذهب الجمهور قائم على أدلة متوافرة على وجوب التزام هذا الرسم عندهم . وقد تقدمت تلك الأدلة أيضًا .

(رابعاً) أن مصطلح الخط والكتابة فى عصرنا ، عرضة للتغيير والتبديل . ومن المبالغة فى قداسة القرآن حمايته من التغيير والتبديل فى رسمه .

(خامساً) أن إخضاع المصحف لمصطلحات الخط الحديثة ، ربما يجرُّ إلى فتنة ، أشبه بالفتنة التى حدثت أيام عثمان ، وحملته على أن يجمع القرآن . فربما يقول بعض الناس لبعض ، أو بعض الشعوب لبعض ، عند اختلاف قواعدهم فى رسم المصحف : رسمى خيرٌ من رسمك ، أو مصحفى خيرٌ من مصحفك ، أو رسمى صواب ورسمك خطأ . وقد يجر ذلك إلى أن يؤثِّم بعضهم بعضا ، أو يقاتل بعضهم بعضا . ومن المقرَّر أن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح .

(سادساً) أن الرسم العثمانى أشبه بالرسم العام الذى يجمع الأمة على كتابة كتاب ربها فى سائر الأعصار والأمصار ، كاللغة العربية ، فإنها اللسان العام الذى يجمع الأمة على قراءة كتاب ربها فى سائر الأعصار والأمصار . وما يكون لنا أن نفرط فى أمر هذا شأنه يجمع الشتات ، وينظم الأمة فى سلك واحد لافرق بين ماض وحاضر وآت ! .

(سابعاً)أنه يمكن تسهيل القراءة على الناس بإذاعة القرآن كثيراً إذاعة مضبوطة دقيقة ، وبإذاعة فن التجويد فى المدارس وفى أوساط المتعلمين ، وأخيراً يمكن - كما قالت مجلة الأزهر - أن ننبِّه فى ذيل كل صفحة من صفحات المصحف على مايكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف ، والاصطلاح المألوف . لاسيما أن رسم المصاحف العثمانية لا يخالف قواعدنا فى الخط والإملاء إلا قليلا ، وفى كلمات معدودة : أضف إلى ذلك أن الفرق بين الرسمين لا يوقع القارئ اليقظ فى لَبْس عند تأمله وإمعانه غالبا .

ولقد مرت على الأمة أجيال وقرون، وماشعرت بغضاضة فى التزامها الرسم العثمانى. على أن المعوّل عليه أولا وقبل كل شىء هو التلقى من صدور الرجال . وبالتلقى يذهب الغموض من الرسم كائناً ما كان . وليس بعد العيان بيان .

د – المصاحف تفصيلا

لعلك لم تنس ماذكرناه فى المباحث السابقة عن نشأة المصاحف العثمانية وكتابتها ورسمها ، وتحريق عثمان ماسواها من المصاحف الفردية التى كانت لبعض الصحابة ، والتى كان يخالف بعضها بعضا ، على مقدار ما وصل إليه علم الواحد منهم بأحرف القراءات ، وبما نسخ وما لم تنسخ تلاوته فى العرضة الأخيرة . ولأجل الإحاطة بما يتّصل بالمصاحف العثمانية ، يجدر بنا أن نتحدث عما يأتى :

الحروف السبعة فى المصاحف العثمانية :

المصاحف التى نسخها عثمان رضى الله عنه كان مجموعها مشتملا على الحروف السبعة التى نزل عليها القرآن ، كما بينا ذلك أوفى بيان تحت عنوان خاص فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف ، فارجع إليه إن شئت. ويؤيده هنا أن هذه المصاحف نسخت من الصحف التى جمعت على عهد أبى بكر وكانت عند حفصة .

ومن المتفق عليه أن هذه الصحف كتب فيها القرآن بحروفه السبعة التى نزل عليها ولم يرد أن عثمان أمرهم أن يتركوا ستة أحرف منها ويبقوا حرفا واحدا كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء . فلنستمسك بالمتفق عليه حتى يثبت لدينا ماينفيه . فما يكون لنا أن نترك اليقين للشك . ثم إن دفع الفتنة ، وتوحيد الكلمة بين المسلمين لا يتوقف على ترك ستة

أحرف وإبقاء حرف واحد من الأحرف التى نزل عليها القرآن، بل إن الذى يدفع الفتنة ويوحِّد الكلمة ، هو إقرار النازل كما نزل ، من تعدُّد حروفه إلى سبعة ، رحمةً بهذه الأمة . غاية ما يجب فى هذا الباب، هو إحاطة المسلمين علماً بهذه الحروف ، حتى يتركوا ما عداها ، ولا يعتمدوا سواها ؛ وحتى يعتمد كل منهم صواب قراءة غيره ما دامت قراءته لا تتعداها . ومن هنا تجتمع كلمتهم وتنطفئ فتنتهم ، على نمط ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين اشتعلت مثل هذه الفتنة بين بعض الصحابة ، فعالجهم بأن أفهمهم أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، وقرر فيهم هذا المعنى ، وحكم بأن كلًّا من المختلفين على صواب فى قراءته وأنها هكذا أُنزلت . وما كان لعثمان وجمهور الصحابة وجميع الأمة أن يتركوا هدى الرسول فى هــذا « وإنَّ خَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم » .

بقى أن نفسر لك معنى قول عثمان للرهط القرشيين الثلاثة « إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شىء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا » فقد فهم بعضهم من هذه الجملة أن عثمان أمر أن يتركوا ستة أحرف ، ويقتصروا فى نسخ المصاحف على حرف قريش ولغتهم وحدهم . وهذا مردود بوجوه :

(أحدها) أن اللفظ لا يؤدى ذلك المعنى .

(ثانيها) أن القرآن فيه كلمات كثيرة من لغات قبائل أخرى وليست من لغة قريش : انظر فى ذلك ما قدمناه فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف أيضا، وما ذكره السيوطى فى الإتقان فى النوع السابع والثلاثين .

(ثالثها) أن المصاحف العثمانية كانت مشتملة على الأحرف السبعة كما بينا آنفا .

(رابعها) أنه لم ينقل إلينا نقلا صحيحاً صريحاً أنهم تركوا من الأحرف السبعة شيئاً

فضلا عن أن يتركوها ما عدا واحدا ، ولو فعلوا ذلك لنقل متواتراً ، لأن هذا الأمر الجلل ، مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره. وقصارى ما وصلنا من بعض الطرق أنهم اختلفوا فى كلمة « التابوت» فى قوله تعالى من سورة البقرة: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ » الخ أيكتبونها بالتاء المفتوحة ؛ أم بالهاء ، فأمرهم عثمان أن يكتبوها بالتاء المفتوحة ، لأنها كذلك فى لغة قريش .

وهذا يوضح لنا أن عثمان فى كلمته تلك ، إنما يريد الاختلاف فى الكتابة والرسم لا فى الألفاظ واللغات والحروف . أو يريد أن لغة قريش متوافر فيها التواتر أكثر من غيرها فليأخذوا بها عند الاختلاف لهذا الغرض وحده، وهو التواتر الذى شرطوه فى دستور كتابتهم وجمعهم . أضف إلى ذلك أن المصاحف نقلت من الصحف التى جمع أبو بكر رضى الله عنه القرآن فيها ، والتى ظفرت بالتواتر وإجماع الأمة كما قدمنا. فهل يرضى عثمان ويوافقه الصحابة جميعاً على أن يخرقوا هذا الإجماع ، ويعبثوا بذلك التواتر ، فى أمر جعل الله تعدد الوجوه والحروف فيه رحمة بالأمة إلى هذا اليوم؟ ذلك فهم بعيد .

الصحف والمصاحف

قلنا : إن أبا بكر رضى الله عنه جمع القرآن فى صحف ،وإن عثمان جمعه ونسخه فى مصاحف . والفرق بين الصحف والمصاحف فى الأصل أن الصحف جمع صحيفة ، وهى القطعة من الورق أو الجلد يكتب فيها .

أما المصحف فهو بزنة اسم للمفعول من أصحفه أى جمع فيه الصحف . فكأن المصحف ملحوظ فى معناه اللغوى دفتاه ، وهما جانباه أو جلداه اللذان يتخذان جامعاً لأوراقه ، ضابطاً لصحفه ، حافظاً لها .

ولا يلحظ هذا فى معنى الصحف ، وإن كان يصح استعمال كلا اللفظين فى كلا المعنيين استعمالا متوسعاً فيه .

هذا فى أصل اللغة، أما فى الاصطلاح فالمراد بالصحف الأوراق المجردة التى جمع فيها القرآن فى عهد أبى بكر ، وكانت سوراً مرتبة آياتها فقط ؛ كل سورة على حدة ، لكن لم يترتب بعضها إثر بعض . والمراد بالمصحف اصطلاحاً الأوراق التى جمع فيها القرآن مع ترتيب آياته وسوره جميعاً على الوجه الذى أجمعت عليه الأمة أيام عثمان رضى الله عنه . وقد أطلق بعضهم لفظ المصحف على صحف أبى بكر ، وتوجيهه لا يخفى .

ولقد بقيت الصحف عند أبى بكر حتى حضرته الوفاة فدفعها إلى عمر لأنه وصّى له بالعهد ، ولما مات عمر انتقلت إلى ابنته أم المؤمنين حفصة بوصية من عمر ، ثم طلبها عثمان ونسخ المصاحف منها وردها إليها وبقيت عندها حتى توفيت رضى الله عنها .

وقد حضر جنازتها مروان والى المدينة وقتئذ ورغب إلى أخيها عبد الله بن عمر أن يبعث إليه بالصحف ، فبعثها إليه ، وكان مروان قد طلبها من السيدة حفصة من قبل فأبت رضى الله عنها . أخرج ابن أبى داود فى رواية أن مروان أحرق هذه الصحف ؟ وفى رواية أنه غسلها ، وفى رواية شققها . ولا مانع من الجمع بين هذه الروايات الثلاث بأنه غسلها أولا ، ثم شققها ثانيا ، ثم أحرقها أخيرا ، مبالغةً فى التكريم والمحو ، كما روى أنه قال : إنما فعلت هذا لأنى خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب ، أى يظن أن فيها ما يخالف المصاحف ، فإنها كانت صحفاً منثورة ، لا تأخذ شكل المصاحف المجموعة المنظومة .

عدد المصاحف

اختلفوا فى عدد المصاحف التى استنسخها عثمان رضى الله عنه ، فصوّب ابن عاشر

أنها ستة : المكى، والشامى، والبصرى ، والكوفى ، والمدنى العام الذى سيره عثمان رضى الله عنه من محل نسخه إلى مقره، والمدنى الخاص به الذى حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام. وقال صاحب زاد القراء : لما جمع عثمان القرآن فى مصحف سماه الإمام ونسخ منه مصاحف فأنفذ منها مصحفاً إلى مكة ، ومصحفاً إلى الكوفة ، ومصحفاً إلى البصرة، ومصحفاً إلى الشام ، وحبس مصحفاً بالمدينة ، وهذا القول كسابقه فى أنها ستة، وذهب السيوطى وابن حجر إلى أنها خمسة . ولعلهما أرادا بالخمسة ماعدا المصحف الإمام فيكون الخلاف لفظيا بينه وبين سابقيه .

وقيل إنها ثمانية ، خمسة متفق عليها وهى الكوفى والبصرى والشامى والمدنى العام والمدنى الخاص ، وثلاثة مختلف فيها وهى المكى ، ومصحف البحرين ، ومصحف اليمن. وقيل إن عثمان رضى الله عنه أنفذ إلى مصر مصحفا .

ولعل القول بأن عددها ستة ، هو أولى الأقوال بالقبول. والمفهوم على كل حال أن عثمان رضى الله عنه، قد استنسخ عدداً من المصاحف يفى بحاجة الأمة وجمع كلمتها وإطفاء فتنتها . ولا يتعلق بتعيين العدد كبير غرض، فيختلفوا فى هذا التعيين ماوسعتهم أدلة ذاك الاختلاف . والله تعالى أعلم بالحقيقة .

كيف أنفذ عثمان المصاحف العثمانية ؟

كان الاعتماد فى نقل القرآن ـ ولا يزال ـ على التلقى من صدور الرجال ثقة عن ثقة وإماماً عن إمام إلى النبى ﷺ . لذلك اختار عثمان حُفَّاظاً يثق بهم وأنفذهم إلى الأقطار الإسلامية واعتبر هذه المصاحف أصولا ثوانى مبالغة فى الأمر ، وتوثيقاً للقرآن ولجمع كلمة المسلمين . فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع من يوافق قراءته فى الأكثر الأغلب روى أن عثمان رضى الله عنه أمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدنى، وبعث عبدالله بن السائب

مع المكى ، والمغيرة بن شهاب مع الشامى، وأبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفى ، وعامر ابن عبد القيس مع البصرى . ثم نقل التابعون عن الصحابة فقرأ أهل كل مصر بما فى مصحفهم تلقياً عن الصحابة الذين تلقوه من فم النبى ﷺ فقاموا فى ذلك مقام الصحابة الذين تلقوه من فم النبى ﷺ . ثم تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط ، حتى صاروا فى هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلدهم على تلقى قراءتهم واعتماد روايتهم . ومن هنا نسبت القراءة إليهم ، وأجمعت الأمة ـ وهى معصومة من الخطأ فى إجماعها ـ على مافى هذه المصاحف ، وعلى ترك كل ماخالفها من زيادة ونقص وإبدال ، لأنه لم يثبت عندهم ثبوتاً متواتراً أنه من القرآن .

أين المصاحف العثمانية الآن ؟

وليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن فضلاً عن تعيين أمكنتها. وقصارى ما علمناه أخيراً أن ابن الجزرى رأى فى زمانه مصحف أهل الشام ، ورأى فى مصر مصحفاً أيضاً .

أما المصاحف الأثرية التى تحتويها خزائن الكتب والآثار فى مصر ويقال عنها إنها مصاحف عثمانية فإننا نشك كثيراً فى صحة هذه النسبة إلى عثمان رضى الله عنه ، لأن بها زركشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور، ولبيان أعشار القرآن، ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ، ومن النقط والشكل أيضاً كما علمت .

نعم إن المصحف المحفوظ فى خزانة الآثار بالمسجد الحسينى والمنسوب إلى عثمان رضى الله عنه ، مكتوبٌ بالخط الكوفى القديم، مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً. ورسمه يوافق رسم المصحف المدنى أو الشامى حيث رسم فيه كلمة «منْ يرتددْ» من سورة المائدة بدالين اثنين

مع فكِّ الإدغام ، وهى فيها بهذا الرسم . فأكبر الظن أن هـــذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية على رسم بعضها . وكذلك المصحف المحفوظ بتلك الخزانة ويقال إن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه كتبه بخطه ، يلاحظ فيه أنه مكتوب بذلك الخط الكوفى القديم . بيد أنه أصغر حجما ، وخطه أقل تجويفا من سابقه ، ورسمه يوافق غـير المدنى ١٠
والشامى من المصاحف العثمانية ، حيث رسمت فيه الـكلمة السابقة « مَنْ يرتدَّ » بدال واحدة مع الإدغام ، وهى فى غيرهما كذلك. فمن الجائز أن يكون كاتبه عليا ؛ أو يكون قد أمر بكتابته فى الـكوفة .

ثم إن عدم بقاء المصاحف العثمانية قاطبة لايضرنا شيئاً مادام المعول عليه هو النقل والتلقى ثقة عن ثقة ، وإماماً عن إمام ، إلى النبى ﷺ . وذلك متواتر مستفيض على أكمل وجه فى القرآن حتى الآن .

على أن المصاحف العثمانية نسخت على غرارها الآلاف المؤلفة فى كل عصر ومصر ، مـــع المحافظة على الرسم العثمانى ؛ كما سيجىء إن شاء الله ، فاصبر « ومَا صبركَ إلَّا باللهِ » .

المصاحف فى دور التجويد والتحسين :

كانت المصاحف العثمانية أشبه بماء نزل من السماء ، فأصاب أرضاً خصبة صالحة ، ولـكنها ظامئة متعطشة . فما كاد يصل إليها الماء حتى اهتزَّت وربتْ وأنبتت من كلّ زوج بهيج ! كذلك المصاحف الشريفة ، ما كاد عثمان يرسلها إلى الآفاق الإسلامية حتى أقبلت عليها الأمة من كل صوب وحـــدب ، وحتى اجتمعت عليها الـكلمة فى الشرق والغرب ، وحتى نسخت على غرارها آلاف مؤلفة من المصاحف المقدسة فى كل جيل وقبيل .

ومما يلفت النظر أن يد التجويد والصَّقْل والتحسين أخذت تتناول المصاحف على ألوان شتى وضروب متنوعة ، فهناك تحسينات مادية أو شكلية ترجع إلى النسخ والطبع والحجم والورق والتجليد والتذهيب ونحو ذلك . وهذه لا تعنينا كثيراً، لأن أمرها هيِّن، وإن كان فيها بعض التيسير أو التشويق إلى القرآن الكريم . وهناك تحسينات معنوية أو جوهرية ترجع إلى تقريب نطق الحروف وتمييز الكلمات وتحقيق الفروق بين المتشابهات عن طريق الإعجام والشكل ونحوهما . وفى هذه نسوق الحديث .

الإعجام :

إعجام الكتاب : نَقْطه . قال فى القاموس : « أَعْجَمَ فُلَانٌ الْكَلَامَ : ذَهَبَ به إلى الْعُجْمَةِ ، والكتابَ : نَقَطَهُ كعجَمَهُ وعجَّمَهُ (أى بتخفيف الجيم وتضعيفها) » .

والمعروف أن المصحف العثمانى لم يكن منقوطًا ، وذلك للمعنى الذى أسلفناه ، وهو بقاء الكلمة محتملة لأن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات فيها . بيد أن المؤرخين يختلفون ، فمنهم من يرى أن الإعجام كان معروفاً قبل الإسلام ولكن تركوه عمداً فى المصاحف للمعنى السابق . ومنهم من يرى أن النقط لم يعرف إلا من بعدُ على يد أبى الأسود الدُّؤَلِىِّ .

وسواء أكان هذا أم ذاك فإن إعجام المصاحف لم يحدث على المشهور إلا فى عهد عبد الملك بن مروان إذ رأى أن رقعة الإسلام قد اتسعت، واختلط العرب بالعجم، وكادت العجمة تمسّ سلامة اللغة ، وبدأ اللبس والإشكال فى قراءة المصاحف يُلِحُّ بالناس ، حتى ليشق على السواد منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهى غير معجمة . هنا لك رأى بثاقب نظره أن يتقدم للإنقاذ ، فأمر الحجاج أن يُعنى بهذا الأمر الجلَل ، وندب الحجاجُ ـ طاعةً لأمير المؤمنين ـ رجلين يعالجان هذا المشكل ، هما نصر بن عاصم الليثى ، ويحيى بن يعمر العدوانى . وكلاهما كفء قدير على ما نُدب له ،

إذ جمعا بين العلم والعمل، والصلاح والورع ، والخبرة بأصول اللغة ووجوه قراءة القرآن . وقد اشتركا أيضاً فى التلمذة والأخذ عن أبى الأسود الدؤلى .

ويرحم الله هذين الشيخين ، فقد نجحا فى هذه المحاولة ، وأعجما المصحف الشريف لأول مرة ، ونقطا جميع حروفه المتشابهة ، والتزما ألا تزيد النقط فى أىِّ حرف على ثلاث . وشاع ذلك فى الناس بعد ، فكان له أثره العظيم فى إزالة الإشكال واللبس عن المصحف الشريف .

وقيل إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى ، وإن ابن سيرين كان له مصحف منقوط ، نقطه يحيى بن يعمر . ويمكن التوفيق بين هذه الأقوال بأن أبا الأسود أول من نقط المصحف ولكن بصفة فردية ، ثم تبعه ابن سيرين ، وأن عبد الملك أول من نقط المصحف ، ولكن بصفة رسمية عامة ، ذاعت وشاعت بين النـــاس ، دفعاً للبس والإشكال عنهم فى قراءة القرآن .

شكل المصاحف :

شكل الكتاب فى اللغة رديف لإعجامه . وقد عرفت أن الإعجام هو النقط . قال صاحب القاموس ما نصه : « .. والكتابَ (أى وشَكَلَ الكتابَ: أَعْجَمهُ ، كأشْكَلَهُ كأنه أزال عنه الإشكال) » اهـ . ثم شاع استعمال الشكل فى خصوص ما يعرض للحروف من حركة أو سكون . والمناسبة بين المعنيين ظاهرة ، لأن فى كل منهما إزالة لإشكال الحرف ودفعاً للبس عنه .

واتفق المؤرخون على أن العرب فى عهدهم الأول ، لم يكونوا يعرفون شكل الحروف والكلمات فضلًا عن أن يشكلوها. ذلك لأن سلامة لغتهم، وصفاء سليقتهم وذلاقة ألسنتهم

كل أولئك كان يغنيهم عن الشكل. ولكن حين دخلت الإسلامَ أمم جديدة؛ منهم العجم الذى لايعرفون العربية، بدأت العجمة تحيف على لغة القرآن. بل قيل إن أبا الأسود الدؤلى سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: « أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ». فقرأها بجر اللام من كلمة « رسوله ». فأفزع هذا اللحنُ الشنيع أبا الأسود وقال: عزَّ وجهُ الله أن يبرأ من رسوله. ثم ذهب إلى زياد والى البصرة وقال له وقد أجبتك إلى ماسألت. وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله، فتباطأ فى الجواب حتى راعه هذا الحادث. وهنا جَدَّ جِدُّه، وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسر نقطة أسفله، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة السكون نقطتين.

طفق الناس ينهجون منهجه، ثم امتدَّ الزمان بهم فبدءوا يزيدون ويبتكرون، حتى جعلوا للحرف المشدَّد علامة كالقوس، ولألف الوصل جرَّة فوقها أو تحتها أو وسطها، على حسب ماقبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة. ودامت الحال على هذا حتى جاء عبد الملك ابن مروان، فرأى بنافذ بصيرته أن يميز ذوات الحروف من بعضها، وأن يتخذ سبيله إلى ذلك التمييز بالإعجام والنقط، على نحو ماتقدم تحت العنوان السابق. وهنالك اضطرَّ أن يستبدل بالشكل الأول الذى هو النقط، شكلًا جديداً هو مانعرفه اليوم من علامات الفتحة والكسرة والضمة والسكون. والذى اضطره إلى هذا الاستبدال، أنه لو أبقى العلامات الأولى على ماهى عليه نقطًا، ثم جاءت هذه الأخرى نقطًا كذلك لتشابها واشتبه الأمر. فميز بين الطائفتين بهذه الطريقة. وَنِعِمَّا فَعَلَ!.

حكم نقط المصحف وشكله

كان العلماء فى الصدر الأول يرون كراهة نقط المصحف وشكله، مبالغةً منهم فى المحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف، وخوفاً من أن يؤدىَ ذلك إلى التغيير فيه.

ومن ذلك ماروى عن ابن مسعود أنه قال: جرِّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء. وما روى عن ابن سيرين أنه كره النقط والفواتح والخواتم إلى غير ذلك.

ولكن الزمان تغيَّر - كما علمت - فاضطر المسلمون إلى إعجام المصحف وشكله لنفس ذلك السبب أى للمحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف، وخوفاً من أن يؤدى تجرده من النقط والشكل إلى التغيير فيه.

فمعقولٌ حينئذ أن يزول القول بكراهة ذينك الإعجام والشكل، ويحلَّ محلَّه القول بوجوب أو باستحباب الإعجام والشكل. لما هو مقرر من أن الحكم يدور مع علَّته وجوداً وعدماً. قال النووى فى كتابه التبيان ما نصه: قال العلماء: ويستحب نقط المصحف وشكله، فإنه صيانة من اللحن فيه. وأما كراهة الشعبى والنخعى النقط، فإنما كرهاه فى ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه. وقد أُمن ذلك اليومَ فلا يمنع من ذلك لكونه محدَثاً، فإنه من المحدَثات الحسنة، فلا يمنع منه كنظائره مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك. والله أعلم اهـ.

تجزئة القرآن:

كانت المصاحف العثمانية مجردة من التجزئة التى نذكرها، كما كانت مجردة من النقط والشكل. ولما امتدَّ الزمان بالناس جعلوا يَفْتَنُّونَ فى المصاحف وتجزئتها عدَّة تجزئات، مختلفة الاعتبارات. فمنهم من قسم القرآن ثلاثين قسماً، وأطلقوا على كل قسم منها اسم الجزء بحيث لا يخطر بالبال عند الإطلاق غيره، حتى إذا قال قائل: قرأت جزءاً من القرآن، تبادر إلى الذهن أنه قرأ جزءاً من الثلاثين جزءاً التى قسموا المصحف إليها. وجرى على ذلك أصحاب الربَعات، إذ طبعوا كل جزء نسخة مستقلة، ومجموع النسخ الجامعة للقرآن كله يسمونه (ربْعة). ويوجد من هذا القبيل أجزاء مستقلة بالطبع بأيدى صغار التلاميذ فى المدارس وغيرهم.

ومن الناس مَنْ قسموا الجزء إلى حزبين، ومَنْ قسموا الحزب إلى أربعة أجزاء سموا كل واحد منها رُبُعاً .

ومن الناس مَنْ وضعوا كلمة خمس ، عند نهاية كل خمس آيات من السورة، وكلمة عشر عند نهاية كل عشر آيات منها، فإذا انقضت خمس أخرى بعد العشر أعادوا كلمة خمس، فإذا صارت هذه الخمس عشراً أعادوا كلمة عشر وهكذا دواليك إلى آخر السورة. وبعضهم يكتب فى موضع الأخماس رأس الخاء بدلًا من كلمة خمس ، ويكتب فى موضع الأعشار رأس العين بدلًا من كلمة عشر . وبعض الناس يرمز إلى رءوس الآى برقم عَدَدِها من السورة أو من غير رقم. وبعضهم يكتب فواتح للسور كعنوان ينوه فيه باسم السورة وما فيها من الآيات المكية والمدنية إلى غير ذلك .

وللعلماء فى ذلك كلام طويل ، بين الجواز بكراهة والجواز بلا كراهة، ولكن الخطب سهل على كل حال ، مادام الغرض هو التيسير والتسهيل، ومادام الأمر بعيداً عن اللبس والتزيُّد والدخيل . « وَعَلَى ٱللهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ » .

احترام المصحف :

ليس فيما نرى ونسمع ، كتابٌ أُحيط بهالةٍ من الإجلال والتقديس ، كالقرآن الكريم . حتى لقد وصفه الحق جل شأنه بأنه كتاب مكنون ، وحكم بأنه لا يمسُّه إلا المطهرون ، وأقسم على ذلك إذ يقول : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ » .

وحتى نهى الرسول ﷺ عن السفر به إلى أرض العدو ، إذا خيف وقوع المصحف فى أيديهم . والحديث مَرْوِىٌّ فى الصحيحين .

وحتى أفتى العلماء بكفر من رمى به فى قاذورة ، وبحرمة من باعه لـكافر ولو ذِميًّا، وقالوا بوجوب الطهارة لمسه وحمله ، وكذلك ما يتصل به من خريطة وغُلاف وصندوق على الصحيح .

واستحبوا تحسين كتابته ، وإيضاحها ، وتحقيق حروفها .

قال النووى : ويستحب أن يقوم للمصحف إذا قُدِمَ به عليه ، لأن القيام يستحب للعلماء والأخيار ، فالمصحف أولى ا هـ .

رزقنا الله الأدب معه ومع كتابه ، ومع كافّة من اصطفاهم من عباده ، آمين .

المبحث الحادى عشر

فى القراءات ، والقُرَّاء والشبهات التى أثيرت فى هذا المقام

١ — القراءات

القراءات جمع قراءة ، وهى فى اللغة مصدر سماعى لقرأ . وفى الاصطلاح مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره فى النطق بالقرآن الكريم ، مع اتفاق الرواياتَ والطرق عنه ، سواء أكانت هذه المخالفة فى نطق الحروف أم فى نطق هيئاتها. قال السيوطى عند كلامه على تقسيم الإسناد إلى عالٍ ونازل ما نصه : ومما يشبه هذا التقسيم الذى لأهل الحديث ، تقسيم القراء أحوال الإسناد إلى قراءة ورواية وطريق ووجه . فالخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم ؛ واتفقت عليه الروايات والطرق عنه ، فهو قراءة . وإن كان للراوى عنه ، فرواية . أو لمن بعده فنازلا ، فطريق . أو لا على هذه الصفة مما هو راجع إلى تخيير القارىء فيه ، فوجه . ا هـ .

وفى منجد المقرئين لابن الجزرى ما نصُّه : « القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعزْو الناقِلة(١) ... والمُقرِىء : العالم بها رواها مشافهة ، فلو حفظ التيسير مثلا ليس له أن يُقرىء بما فيه إن لم يشافهه من شُوفِهَ به مسلسلا ، لأن فى القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة . والقارىء المبتدىء من شرع فى الإفراد إلى أن يفرد ثلاثاً من القراءات . والمنتهى مَنْ نقل من القراءات أكثرها وأشهرها » ا هـ .

نشأة علم القراءات :

قلنا غير مرة : إن المعوَّل عليه فى القرآن الكريم إنما هو التلقى والأخذ ، ثقة

---

(١) قال فى القاموس : « الناقلة : ضد القاطنين » .

عن ثقة ، وإماماً عن إمام إلى النبي ﷺ ، وإن المصاحف لم تكن ولن تكون هي العمدة في هذا الباب . إنما هي مرجع جامع للمسلمين ، على كتاب ربهم ، ولكن في حدود ما تدلُّ عليه وتعيِّنه ، دون مالا تدل عليه ولا تعيِّنه . وقد عرفت أن المصاحف لم تكن منقوطة ولا مشكولة ، وأن صورة الكلمة فيها كانت لكل ما يمكن من وجوه القراءات المختلفة ، وإذا لم تحتملها كتبت الكلمة بأحد الوجوه في مصحف ، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر وهلم جرا . فلا غرو أن كان التعويل على الرواية والتلقي هو العمدة في باب القراءة والقرآن .

وقلنا : إن عثمان رضي الله عنه حين بعث المصاحف إلى الآفاق أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب ، وهذه القراءة قد تخالف الذائع الشائع في القطر الآخر عن طريق المبعوث الآخر بالمصحف الآخر .

ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلف أخْذهم عن رَسُول الله ﷺ ، فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد ، ومنهم من أخذه عنه بحرفين ، ومنهم من زاد . ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال ، فاختلف بسبب ذلك أخْذُ التابعين عنهم ، وأخذُ تابع التابعين عن التابعين ، وهلم جرًّا حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القرّاء المشهورين الذين تخصَّصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويُعْنَوْنَ بها وينشرونها كما يأتي. هذا منشأ علم القراءات واختلافها ، وإن كان الاختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة إلى مواضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم : لكنه - على كل حال - اختلافٌ في حدود السبعة الأحرف التي نزل عليها القرآن كلُّها من عند الله ، لا من عند الرسول ولا أحد من القراء أو غيرهم .

وللنويْرِي كتاب مخطوط بدار الكتب في مصر ، وضعه شرحاً للطيِّبة في القراءات العشر ، يحمل بي أن أنقل إليك منه هنا الكلمة الآتية :

« والاعتماد فى نقل القرآن على الحفّاظ . ولذلك أرسل (أى عثمان رضى الله عنه) كل مصحف مع مَن يوافق قراءته فى الأكثر وليس بلازم . وقرأ كل مصر بما فى مصحفهم ، وتلقوا مافيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبى ﷺ . ثم تجرّد للأخذ عن هؤلاء قوم أسهروا ليلهم فى ضبطها ، وأتعبوا نهارهم فى نقلها ، حتى صاوروا فى ذلك أئمة للاقتداء ، وأنجماً للاهتداء ، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءتهم ، ولم يختلف عليهم اثنان فى صحة روايتهم ودرايتهم . ولتصدّيهم للقراءة نُسبت إليهم ، وكان المعوّل فيها عليهم .

« ثم إن القراء بعد هؤلاء كثروا ، وفى البلاد انتشروا ، وخلفهم أمم بعد أمم ، وعرفت طبقاتهم ، واختلفت صفاتهم ، فكان منهم المتقن للتلاوة المشهورة بالرواية والدراية ، ومنهم المحصِّل لوصف واحد . ومنهم المحصل لأكثر من واحد ، فكثر بينهم لذلك الاختلاف ، وقلّ منهم الائتلاف .

فقام عند ذلك جهابذة الأمة ، وصناديد الأئمة ، فبالغوا فى الاجتهاد بقدر الحاصل ، وميّزوا بين الصحيح والباطل ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعزَوْا الأوجه والروايات ، وبيّنوا الصحيح والشاذّ ، والكثير والفاذّ ، بأصول أصّلوها ، وأركان فصّلوها ، الخ » اهـ .

طبقات الحفّاظ المقرئين الأوائل :

ولقد اشتهر فى كل طبقة من طبقات الأمة جماعة بحفظ القرآن وإقرائه .

فالمشتهرون من الصحابة بإقراء القرآن عثمان ، وعلى ، وأبىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعرى ، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية .

والمشتهرون من التابعين : ابن المسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز وسليمان ابن يسار ، وأخوه عطاء وزيد بن أسلم ، ومسلم بن جندب ، وابن شهاب الزهرى ،

وعبد الرحمن بن هرمز، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القارىء. (وكل هؤلاء كانوا بالمدينة).

وعطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وابن أبي مُلَيْكة، وعبيد بن عُمَير، وغيرهم (وهؤلاء كانوا بمكة).

وعامر بن عبد القيس، وأبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يَعْمَر(١) وجابر بن زيد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، وغيرهم. (وهؤلاء كانوا بالبصرة).

وعلقمة، والأسود، ومسروق، وعُبَيْدة، والربيع بن خَيْثَم، والحارث بن قيس، وعمر بن شُرَحبيل، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرحمن السلمى، وزِرّ بن حبيش، وعبيد ابن فَضَلة، وأبو زُرعة بن عمرو، وسعيد بن جبير، والنخعى، والشعبى. (وهؤلاء كانوا بالكوفة).

والمغيرة بن أبي شهاب المخزومى صاحب مصحف عثمان، وخُلَيْد بن سَعيد صاحب أبي الدرداء، وغيرهما. (وهؤلاء كانوا بالشام).

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويُعْنَوْنَ بها. فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شيبة بن نِصَاح(٢)، ثم نافع بن أبي نعيم.

وكان بمكة عبد الله بن كثير، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن مُحَيْصن.

وكان بالكوفة يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، وسليمان الأعمش، ثم حمزة ثم الكسائى.

---

(١) قال فى القاموس: «يَعْمَر كيفْعَل أسماء».

(٢) قال فى القاموس: «ونِصَاحَةُ والدُ شَيْبَةَ القارى» هكذا بالتاء المربوطة. ولكن الذى فى كتب القراء كالنشر وطبقات القراء «نِصاح» من غير تاء مربوطة.

وكان بالبصرة عبدالله بن أبى إسحاق، وعيسى بن عمرو، وأبو عمرو بن العلاء وعاصم الجَحْدَرى، ثم يعقوب الحضرمى.

وكان بالشام عبد الله بن عامر، وعطية بن قيس الكِلابى، وإسماعيل بن عبدالله ابن المهاجر. ثم يحيى بن الحارث الذِّمارى، ثم شريح بن يزيد الحضرمى.

وقد لمع فى سماء هؤلاء القراء نجوم عدّة مهروا فى القراءة والضبط حتى صاروا فى هذا الباب أئمة يُرحل إليهم، ويُؤخذ عنهم.

أعداد القراءات :

ثم اشتهرت عبارات تحمل أعداد القراءات فقيل : القراءات السبع، والقراءات العشر، والقراءات الأربع عشرة.

وأحظَى الجميع بالشهرة ونباهة الشأن، القراءاتُ السبع.

وهى القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة المعروفين وهم : نافع، وعاصم، وحمزة، وعبد الله بن عامر؛ وعبد الله بن كثير؛ وأبو عمرو بن العلاء، وعلى الكسائى. والقراءات العشر هى هذه السبع وزيادة قراءات هؤلاء الثلاثة : أبى جعفر، ويعقوب، وخلَف.

وعلم القراءات أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. ثم أهَلَّ عهد التدوين للقراءات ولم يكن لهذه السبعة بهذا العنوان وجود أيضاً، بل كان أول من صنّف فى القراءات أمثال أبى عبيد القاسم بن سلّام، وأبى حاتم السجستانى، وأبى جعفر الطبرى، وإسماعيل القاضى. وقد ذكروا فى القراءات شيئاً كثيراً، وعرضوا روايات تُرْبِى على أضعاف قراءة هؤلاء السبعة.

ثم اشتهرت قراءات هؤلاء السبعة بعد ذلك على رأس المائتين فى الأمصار الإسلامية. فكان الناس فى البصرة على قراءة أبى عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع.

ومكثت القراءات السبع على هذه الحال دون أن تأخذ مكانها من التدوين حين خاتمة القرن الثالث ، إذ نهض ببغداد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس فجمع قراءات هؤلاء الأئمة السبعة غير أنه أثبت اسم الكسائى وحذف يعقوب .

وجاء اقتصاره على هؤلاء السبعة مصادفة واتفاقاً ، من غير قصد ولا عمد . ذلك أنه أخذ على نفسه ألا يروى إلا عمن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراءة واتفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقى منه . فلم يتم له ما أراده هذا إلا عن هؤلاء السبعة وحدهم . وإلا فأئمة القراء لا يحصون كثرة ، وفيهم من هو أجلُّ من هؤلاء قدراً ، وأعظم شأناً .

وإذن فليس اقتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة بحاصرٍ للقراء فيهم ، ولا بملزم أحداً أن يقف عند حدود قراءاتهم . بل كل قراءة توافرت فيها الأركان الثلاثة للضابط المشهور وجب قبولها(١) .

ومن هنا كانت القراءات العشر ، بزيادة قراءات : يعقوب ، وأبى جعفر ، وخلف . على قراءات أولئك السبعة .

وكانت القراءات الأربع عشرة ، بزيادة أربع على قراءات هؤلاء العشرة ، وهى قراءات الحسن البصرى ، وابن مُحيصن ، ويحيى اليزيدى ، والشنبوذى .

---

(١) أى إن وجدتْ الآن . ولكن هيهات أن توجد ، بعد أن استقر الأمر فى الواقع وعرف أنه ليس بعد القراءات العشر التى بين أيدينا قراءة أخرى متواترة . وسيستقبلك تحقيقه فيما بعدُ فانتظره .

فوائد اختلاف القراءات :

استوفينا هذه النقطة بياناً فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف (من ص ١٣٨ـ ص ١٤٢) .

أنواع اختلاف القراءات

تكلمنا على هذا الموضوع فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف أيضاً (من ص ١٧٨ ـ ص ١٨٠) .

ضابط قبول القراءات

لعلماء القراءات ضابط مشهور ، يزنون به الروايات الواردة فى القراءات فيقول : كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً ، ووافقت العربية ولو بوجه ، وصح إسنادها ولو كان عمن فوق العشرة من القراء، فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها ، بل هى من الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن .

وهذا الضابط نظمه صاحب الطيبة فقال :

« وكلُّ ماوافقَ وجهَ النحوِ ... وكان للرسم احتمالًا يحوى
وصحَّ إسناداً ، هو القرآنُ ... فهذه الثلاثةُ الأركانُ
وحيثما يختلُّ ركنٌ أثبتِ ... شذوذَهُ لوَ أنه فى السبعةِ »

والمراد بقولهم : « ما وافق أحد المصاحف العثمانية » أن يكون ثابتاً ولو فى بعضها دون بعض . كقراءة ابن عامر : « قالوا اتخذَ اللهُ ولداً » من سورة البقرة ، بغير واو . وكقراءته : « وبالزبر وبالكتابِ المنيرِ » بزيادة الباء فى الاسمين ، فإن ذلك ثابتٌ فى

المصحف الشامى . وكقراءة ابن كثير : «جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ» فى الموضع الأخير من سورة التوبة ، بزيادة كلمة « منْ » فإن ذلك ثابتٌ فى المصحف المكى .

والمراد بقولهم : « ولو تقديراً » أنه يكفى فى الرواية أن توافق رسم المصحف، ولو موافقة غير صريحة ، نحو : « مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ » ، فإنه رسم فى جميع المصاحف بحذف الألف من كلمة « مالك » . فقراءة الحذف تحتمله تحقيقاً كما كتب « مَلِكِ النَّاس » ، وقراءة الألف تحتمله تقديراً كما كتب : « مَالِكَ ٱلْمُلْكِ » ، فتكون الألف حذفت اختصاراً ، كما حذفت فى حالات كثيرة ألمعنا إليها سابقاً فى قواعد رسم المصحف . أما الموافقة الصريحة فكثيرة نحو قوله سبحانه : « وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا » فإنها كتبت فى المصحف بدون نقط . وهنا وافقتْ قراءةَ « نُنشِزُهَا » بالزاى وقراءة « نُنشِرُهَا » بالراء .

ومن بعد نظر الصحابة فى رسم المصحف أن الكلمة التى رُويت على الأصل وعلى خلاف الأصل كانوا يكتبونها بالحرف الذى يخالف الأصل ، ليتعادل مع الأصل الذى لم يكتب فى دلالة الصورة الواحدة على القراءتين، إذ يدل على إحداهما بالحروف وعلى الثانية بالأصل. نحو كلمتى (الصراط ، والمصيطرون) بالصاد المبدلة بالسين ، فإنهم كتبوهما بالصاد وعدلوا عن السين التى هى الأصل، لتكون قراءة السين وإن خالفت الرسم قد أتت على الأصل فيعتدلان ، وتكون قراءة الإشمام أيضاً محتملة. ولو كتب ذلك بالسين على الأصل لفات هذا الاحتمال وعدّت قراءة غير السين مخالفةً للرسم والأصل كليهما . ولذلك كان الخلاف المشهور فى بصطة الأعراف دون بسطة البقرة ؛ لكون حرف البقرة كتب بالسين وحرف الأعراف كتب بالصاد .

وللعلامة النويرى على الطيبة كلمة نفيسة فى هذا الموضوع إذ يقول ما نصه :

« اعلم أن الرسم هو تصوير الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها والوقف عليها والعثمانى هو الذى رُسم فى المصاحف العثمانية. وينقسم إلى قياسىٍّ ، وهو ما وافق اللفظ ، وهو معنى قولهم : تحقيقاً . وإلى سماعيٍّ وهو ما خالف اللفظ ، وهو معنى قولهم : تقديراً وإلى احتمالى وسيأتى .

ومخالفةُ الرسم اللفظَ محصورةٌ فى خمسة أقسام ، وهى الدلالة على البدل نحو : « الصراطَ » وعلى الزيادة نحو : « مالك » ، وعلى الحذف نحو : « لكنا هو » ، وعلى الفصل نحو : « فمالِ هؤلاء » ، وعلى أن الأصل الوصل نحو : « ألَّا يسجدوا » فقراءة الصاد والحذف والإثبات والفصل والوصل خمستها وافقها الرسم تحقيقاً ، وغيرها تقديراً ، لأن السين تبدل صاداً قبل أربعة أحرف منها الطاء كما سيأتى ، وألف مالك عند المثبت زائدة ، وأصل « لكنَّا » الإثبات ، وأصل « فمالِ » الفصل ، وأصل « ألَّا يسجدوا » الوصل. فالبدل فى حكم المبدل منه ، وكذا الباقى . وذلك ليتحقق الوفاق التقديرى ، لأن اختلاف القراءتين إذا كان يتغايرُ دون تضادٍّ ولا تناقضٍ فهو فى حكم الموافق ، وإذا كان بتضادٍّ أو تناقض ففى حكم المخالف . والواقع الأول فقط ، وهو الذى لا يلزم من صحة أحد الوجهين فيه بطلان الآخر .

وتحقيقه : أن اللفظ تارةً يكون له جهة واحدة ، فيرسم على وفقها ، فالرسم هنا حصر جهة اللفظ ، فمخالفه مناقض . وتارة يكون له جهات فيرسم على إحداها ، فلا يحصر جهة اللفظ ، فاللافظ به موافق تحقيقاً ، وبغيره تقديراً ، لأن البدل فى حكم المبدَل منه . وكذا بقية الخمسة .

والقسم الثالث ما وافق الرسم احتمالا . ويندرج فيه ما وقع الاختلاف فيه بالحركة والسكون نحو « القدُس » ، وبالتخفيف والتشديد نحو « ينشركم » بيونس ، وبالقطع والوصل المعبر عنه بالشكل نحو « ادخلوا » بغافر ، وباختلاف الإعجام نحو « يعلمون » و « يفتح » ، وبالإعجام والإهمال نحو « ننشِزُها » وكذا المختلف فى كيفية لفظها

كالمدغَم والمسهَّل والمُمَال والمرقَّق والمدوَّر ،فإن المصاحف العثمانية هكذا كلها ، لتجردها عن أوصافها .

فقول الناظم : « وكان للرسم احتمالًا » دخل فيه ماوافق الرسم تحقيقاً بطريق الأولى، وسواء وافق كل المصاحف أو بعضها، كقراءة ابن عامر « قالوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلداً » « وبالزُّبُرِ وبالكتابِ » فإنه ثابت بالشامى ، وكابن كثير فى « جنَّاتٍ تجْرِى منْ تحتِهَا ٱلْأَنْهَارُ » بالتوبة ، فإنه ثابت فى الكوفى ، إلى غير ذلك .

وقوله « احتمالًا » يحتمل أن يكون جعله مقابلًا للتحقيق . فتكون القسمة عنده ثُنائية ، وهو التحقيق والاحتمالى، ويكون قد أدخل التقديرىَّ فى الاحتمالىِّ ، وهو الذى فعله فى نَشْره . ويحتمل أن يكون ثلَّث القسمة ، ويكون حكم الأَوَّلين ثابتاً بالأولويَّة . ولولا تقدير موافقة الرسم للزم الكل مخالفة الكل فى نحو « السَّمَٰوَات والصَّالحات والليل » .

ثم إن بعض الألفاظ يقع فيه موافقة إحدى القراءتين أو القراءات تحقيقاً والأخرى تقديراً ، نحو « مَلِكِ » ، وبعضها يقع فيه موافقة القراءتين أو القراءات تحقيقاً ، نحو « أنصَارًا لِلَّهِ ، فنَادته ٱلملائِكةُ ، وَيغفرْ لكم ، وهيتَ لك » .

واعلم أن مخالف صريح الرسم فى حرف مدغم أو مبدل أو ثابت أو محذوف أو نحو ذلك، لا يُعدُّ مخالفاً إذا ثبتت القراءة به ووردت مشهورة. ألا ترى أنهم يعدُّون إثبات ياءات الزوائد وحذف ياء « تَسْأَلْنى » بالكهف ، وقراءة « وَأَكُونَ مِنَ الصَّالحينَ » ونحو ذلك من مخالف الرسم غيرَ مردود ، لرجوعه لمعنى واحد ، وتمشيه مع صحة القراءة وشهرتها . بخلاف زيادة كلمة ونقصانها، وتقديمها وتأخيرها، حتى ولو كانت حرف معنى فإن له حكم الكلمة ، ولا نسوغ مخالفة الرسم فيه . وهذا هو الحدُّ الفاصل فى حقيقة اتباع الرسم ومخالفته » اهـ .

وقولهم فى الضابط المذكور : « وافق العربية ولو بوجه» يريدون وجهاً من وجوه قواعد اللغة سواء أكان أفصح أم فصيحاً ،مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاها الأئمة بالإسناد الصحيح وهذا هو المختار عند المحققين فى ركن موافقة العربية .

هاك الحافظ أبا عمرو الدانى فى كتابه جامع البيان بعد ذكره إسكان كلمة « بَارِئْكُمْ » و« يأمُرْكُمْ » فى قراءة أبى عمرو ، وبعد حكاية إنكار سيبويه لذلك ، يقول ما نصه : « والإسكان أصحُّ فى النقل وأكثر فى الأداء . وهو الذى أختاره وآخذ به ، إلى أن قال : وأئمة القراء لا تعتمد فى شىء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة والأقيس فى العربية ، بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى النقل .والروايةُ إذا ثبتت عندهم لا يردُّها قياس عربية ولا فُشُوُّ لغة لأن القراءة سُنَّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها » اه .

(قلت) وهذا كلام وجيه فإن علماء النحو إنما استمدوا قواعده من كتاب الله تعالى وكلام رسوله وكلام العرب ، فإذا ثبتت قرآنية القرآن بالرواية المقبولة كان القرآن هو الحَكَم على علماء النحو وما قعَّدوا من قواعد ، ووجب أن يرجعوا هم بقواعدهم إليه ، لا أن نرجع نحن بالقرآن إلى قواعدهم المخالفة نحكِّمها فيه،وإلا كان ذلك عكساً للآية، وإهمالاً للأصل فى وجوب الرعاية !

وقولهم فى ذلك الضابط:«وصحَّ إسناده» يريدون به أن يروى تلك القراءةَ عدلٌ ضابط عن مثله وهكذا إلى الرسول ﷺ من غير شذوذ ولا علة قادحة . بل شرطوا فوق هذا أن تكون الرواية مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له ، غير معدودة عندهم من الغلط ، ولا مما شذَّ به بعضهم.والمحقق ابن الجزرى يشترط التواتر ويصرح به فى هذا الضابط ، ويعتبر أن ما اشتهر واستفاض موافقاً الرسم والعربية فى قوة المتواتر فى القطع بقرآنيته ، وإن كان غير متواتر .

منطوق هذا الضابط ومفهومه :

يدل هذا الضابط بمنطوقه، على أن كل قراءة اجتمع فيها هذه الأركان الثلاثة يحكم بقبولها ، بل لقد حكموا بكفر من جحدها[1] . سواء أكانت تلك القراءة مروية عن الأئمة السبعة ، أم عن العشرة ؛ أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين . ويدل هذا الضابط بمفهومه على أن كل قراءة لم تتوافر فيها هذه الأركان الثلاثة . يحكم بعدم قبولها. وبعدم كفر من يجحدها . سواء أكانت هذه القراءة مروية عن الأئمة السبعة أم عن غيرهم ، ولو كان أكبر منهم مقاماً ، وأعظم شأناً .هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف الخلف ، كما صرح به الدانى ، ومكى ، والمهدوى ، وأبو شامة .وناهيك بهؤلاء الأربعة أنهم أئمة فى قراءات القرآن وعلوم القرآن .

قال أبو شامة فى كتابه المرشد الوجيز ما نصه : « فلا ينبغى أن يغترّ بكل قراءة تُعزى إلى واحدٍ من هؤلاء الأئمة السبعة ويطلق عليها لفظ الصحة، وأنها كذلك أنزلت، إلا إذا دخلت فى ذلك الضابط . وحينئذ فلا ينفرد بنقلها مصنف عن غيره ،ولا يختصُّ ذلك بنقلها عنهم ، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لايخرجها عن الصحة ؛ فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لاعلى من تُنسب إليه.والقراءات المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم ، منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ . غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه فى قراءاتهم ، تركن النفس إلى ما نُقل عنهم فوق مانُقل عن غيرهم » اه لكن رأى أبى شامة وأضرابه فى القراءات السبع غير سديد كما سيجىء .

---

(١) قد يقال : لا يسلم لهم ذلك إلا إن كانت القراءة متواترة معلومة من الدين بالضرورة ، ويمكن أن يجاب بأن هذه الأركان الثلاثة أمارة التواتر والعلم من الدين بالضرورة . كما يأتى تفصيله . وإذن يكون الحكم صحيحاً .

ثم إن مفهوم هـــذا الضابط المحكوم عليه بما ترى تنضوى تحته بضع صور يخالف بعضها حكم بعض تفصيلًا، وإن اشتركت كلها فى الحكم عليها إجمالًا بعدم قبولها كما علمت .

ذلك أن الضابط المذكور يصدق مفهومه بنفى الأركان الثلاثة، ويصدق بنفى واحد واثنين منها . ولكل حالة حكم خاصٌ تعلمه من عبارة الإمام مكى التى نسوقها إليك ونصها : « فإن سأل سائل: ما الذى يقبل من القراءات الآن فيقرأ به ؟ وما الذى يقبل ولا يقرأ به ؟ وما الذى لا يقبل ولا يقرأ به ؟ فالجواب أن جميع ما روى من القراءات على أقسام : قسم يقرأ به اليوم : وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال ، وهن أن ينقل عن الثقات عن النبى ﷺ ، ويكون وجهه فى العربية التى نزل بها القرآن سائغاً ، ويكون موافقاً لخط المصحف .

فإذا اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث قرىء به وقطع على تعينه وصحته وصدقه ، لأنه أخذ عن إجماع من جهة موافقة خط المصحف وكفر من جحده . قال : والقسم الثانى : ما صحَّ نقله عن الآحاد وصحَّ وجهه فى العربية وخالف لفظه خط المصحف . فهذا يُقبل ولا يُقرأ به[1] لعلتين : إحداهما أنه لم يُؤخذ عن إجماع ، إنما أُخذ أخبار الآحاد، ولا يثبت قرآن يقرأ به بخبر الواحد . والعلة الثانية أنه مخالف لما قد أجمع عليه فلا يقطع على تعينه وصحته ، وما لم يقطع على صحته لا تجوز القراءة به ولا يكفر من جحده ،

---

(١) ومعنى هذا أنه يقبل على اعتبار أنه خبر شرعى يصح الاحتجاج به عند من يرى ذلك وهم الحنفية دون الشافعية ، ولا يقرأ به على أنه قرآن ، ولا ليوهم القارىء أحداً أنه قرآن . قال النويرى : « اعلم أن الذى استقرّت عليه المذاهب وآراء العلماء أن من قرأ بها (أى الشواذ) غير معتقد أنها قرآن ولا موهم أحداً ذلك بل لما فيها من الأحكام =

ولبئس ما صنع إذا جحده . والقسم الثالث : هو ما نقله غير ثقة أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية فهذا لا يقبل وإن وافق خط المصحف . قال : ولكل صنف من هذه الأقسام تمثيل تركنا ذكره اختصاراً » اهـ .

ثم انبرى المحقق ابن الجزرى لذاك التمثيل الذى تركه مكىٌّ اختصاراً فقال : ــ

(مثال القسم الأول) : ملك ومالك، ويخدعونَ ، ويخادعون ، وأوصى ووصى، ويطوَّعَ ، وتطوّع ونحو ذلك من القراءات المشهورة .

(ومثال الثانى) قراءةُ ابن مسعود وأبى الدرداء: « والذكر والأنثى » فى قوله تعالى « وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ » بحذف لفظ « ماخلقَ ».وقراءةُ ابن عباس : « وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صالحةٍ غَصْبًا »، بإبدال كلمة أمام من كلمة وراء، وبزيادة كلمة صالحة« وأما الغلامُ فكانَ كافراً » بزيادة كلمة « كافراً » ونحو ذلك مما ثبت برواية الثقات إلى أن قال :

(ومثال القسم الثالث) مما نقله غير ثقة كثيرٌ كما فى كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف كقراءة ابن السميفع وأبى السّمال وغيرهما فى « نُنَجِّيكَ(١) بِبَدَنِكَ » بالجيم المعجمة « ولِمَنْ خَلَفَكَ آيةً » بفتح اللام أى من قوله « خلفكَ » بسكونها . وكالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه والتى جمعها أبو الفضل محمد ابن جعفر الخزاعى ونقلها عنه أبو القاسم الهذلى وغيره « إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ

= الشرعية عند من يحتج بها أو الأحكام الأدبية؛ فلا كلام فى جواز قراءتها .وعلى هذا يحمل حال من قرأبها من المتقدمين . وكذلك أيضاً يجوز تدوينها فى الكتب والتكلم على مافيها. وإن قرأها باعتقاد قرآنيتها أو لإيهام قرآنيتها حرم ذلك. ونقل ابن عبدالبر فى تمهيده إجماع المسلمين عليه » اهـ .

(١) هنا سقط . والصواب « ننحيكَ » بالحاء المهملة فى « نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ » الخ.

الْعُلَمَاءَ » برفع الهاء ونصب الهمزة ، يعنى برفع لفظ الجلالة ونصب لفظ العلماء .

وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه فتكلف توجيهها ، فإنها لا أصل لها ، وإن أبا حنيفة لبرىء منها .

ومثال ما نقله ثقة ولا وجه له فى العربية ـ ولا يصدر هذا إلا على وجه السهو والغلط وعدم الضبط ، يعرفه الأئمة المحقِّقون والحفَّاظ الضابطون ، وهو قليل جدًّا بل لا يكاد يوجد .

وقد جعل بعضهم منه رواية خارجة عن نافع « مَعَائِشَ » بالهمز ثم قال : ويدخل فى هذين القسمين ما يذكره بعض المتأخرين من شراح الشاطبية فى وقف حمزة نحو : « أَسْمَائِهِمْ ، وَأُولَئِكَ » بياء خالصة ، ونحو « شُرَكَاؤُهُمْ ، وأَحِبَّاؤُهم » بواو خالصة . ونحو « بَدَأَكُمْ ، وَأَخَاهُ » بألف خالصة، ونحو «رَا فى رَأَى، وترى فى تَرَاءى، واشْمَزَّت فى اشمأزَّتْ، وفادّارَاتُمْ فى فادّارَأْتُمْ » بحذف الهمزة فى ذلك كله مما يسمونه التخفيف الرسمى ولا يجوز فى وجه من وجوه العربية ، فإنه إما أن يكون منقولاً عن ثقة ـ ولا سبيل إلى ذلك ـ فهو مما لا يقبل ، إذ لا وجه له . وإما أن يكون منقولا عن غير ثقة ؛ فمنعه أحْرَى وردُّه أولى . مع أنى تتبعت ذلك فلم أجده منصوصاً لحمزة لا بطريق صحيحة ولا ضعيفة .

ثم قال : ويبقى قسم مردود أيضاً ، وهو ما وافق العربية والرسم ولم ينقل ألبتة . فهذا ردُّه أحق ، ومنعه أشد ؛ ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر . وقد ذكر جواز ذلك عن محمد بن الحسن بن مقسم البغدادى المقرىء النحوى وكان بعد الثلاثمائة .

قال الإمام أبو طاهر بن أبى هاشم فى كتابه البيان : « وقد نبغ نابغ فى عصرنا فزعم أن كل ما صح عنده وجه فى العربية بحرف من القرآن يوافق المصحف فقراءته جائزة فى الصلاة وغيرها . فابتدع بدعة ضلَّ بها قصد السبيل (قلت) : وقد عُقد له بسبب ذلك

مجلس ببغداد حضره الفقهاء والقرّاء ، وأجمعوا على منعه ، وأوقف للضرب ، ورجع ، وكُتب عليه محضر بذلك . كما ذكره الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد ، وأشرنا إليه فى الطبقات » اهـ .

ملاحظة :

إنما اكتفى القُرّاء فى ضابط القراءة المشهورة بصحة الإسناد مع الركنين الآخرين ولم يشترطوا التواتر : مع أنه لابدّ منه فى تحقُّق القرآنيّة لأسباب ثلاثة : ـ

أحدها : أنّ هذا ضابط لا تعريف ، والتواتر قد لوحظ فى تعريف القرآن على أنه شطر أو شرط على الأقل . ولم يُلحظ فى الضابط لأنه يغتفر فى الضوابط مالا يغتفر فى التعاريف . فالضوابط ليست لبيان الماهية والحقيقة .

ثانيها : التيسير على الطالب فى تمييز القراءات المقبولة من غيرها ، فإنه يسهل عليه بمجرد رعايته لهذا الضابط أن يميز القراءات المقبولة من غير المقبولة . أما إذا اشترط التواتر فإنه يصعب عليه ذلك التمييز ، لأنه يضطر فى تحصيله إلى أن يصل إلى جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب فى كل طبقة من طبقات الرواية . وهيهات أن يتيسر له ذلك .

ثالثها : أن هذه الأركان الثلاثة تكاد تكون مساوية للتواتر فى إفادة العلم القاطع بالقراءات المقبولة . بيان هذه المساواة أن ما بين دفتى المصحف متواتر ومجمع عليه من الأمة فى أفضل عهودها وهو عهد الصحابة ، فإذا صحّ سند القراءة ووافقت قواعد اللغة ثم جاءت موافقة لخط هذا المصحف المتواتر ، كانت هذه الموافقة قرينة على إفادة هذه الرواية للعلم القاطع وإن كانت آحاداً .

ولا تنس ما هو مقرر فى علم الأثر من أن خبر الآحاد يفيد العلم إذا احتفّت به قرينة توجب ذلك .

فكأن التواتر كان يطلب تحصيله فى الإسناد قبل أن يقوم المصحف وثيقةً متواترة بالقرآن . أما بعد وجود هذا المصحف المجمع عليه ، فيكفى فى الرواية صحّتها وشهرتها متى وافقت رسم هذا المصحف ولسان العرب .

قال صاحب الكواكب الدرية نقلًا عن المحقق ابن الجزرى مانصه : « قولنا : « وصحّ سندها » نعنى به أن يروى تلك القراءة العدلُ الضابط عن مثله ، وهكذا حتى ينتهى ، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذّ به بعضهم .

وقد شرط بعض المتأخرين التواتر فى هذا الركن ولم يكتف بصحة السند وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر(١) . وأن ما جاء مجىء الآحاد لا يثبت به قرآن . وهذا مما لا يخفى مافيه ، فإن التواتر إذا ثبت لا يُحتاج فيه إلى الركنين الآخرين من موافقه الرسم وغيره . إذ ماثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبى ﷺ وجب قبوله وقُطع بكونه قرآنا ، سواء وافق الرسم أم خالفه » اه .

وبهذا التوجيه الذى وجّهنا به الضابط المذكور ، يهون اعتراض العلامة النويرى فى شرحه على الطيِّبة ، إذ يقول مانصُّه : وقوله : « وصحّ إسناداً » ظاهره أن القرآن يكتفى فى ثبوته مع الشرطين المتقدمين بصحّة السند فقط ولا يحتاج إلى تواتر . وهذا قول حادث مخالف لإجماع الفقهاء والمحدثين وغيرهم ، كماستراه إن شاء الله تعالى. ولقدضلّ بسبب هذا القول قوم فصاروا يقرءون أحرفاً لا يصح لها سند أصلاً ، ويقولون : التواتر

(١) أى فى هذا الضابط الذى لوحظ فيه وجود الركنين الآخرين مع هذا الركن. وإنما فسرنا كلامه بذلك لأن التواتر مجرد شرط أو شطر فى القرآن كما هو التحقيق . ولأن موضوع حديثه هنا إنما هو اشتراط التواتر فى هـذا الركن الذى هو جزء مـن الضابط ، كما صرح به أولا ، كما يرشد إليه كلامه آخراً .

ليس بشرط . وإذا طولبوا بسند صحيح لا يستطيعون ذلك . ولا بدّ لهذه المسألة من بعض بسط ، فلذلك لخّصت فيها مذاهب القراء والفقهاء الأربعة المشهورين وما ذكر الأصوليون والمفسرون وغيرهم .رضى الله تعالى عنهم أجمعين.وذكرت فى هذا التعليق المهمّ من ذلك ، لأنه لا يحتمل التطويل ، فأقول :

« القرآن عند الجمهور من أئمة المذاهب الأربعة منهم الغزالى وصدر الشريعة وموفّق الدين المقدسى وابن مفلح والطوفى ، هو ما نقل بين دفّتى المصحف نقلاً متواتراً . وقال غيرهم : هو الكلام المنزل على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه.وكل من قال بهذا الحدّ اشترط التواتر كما قال ابن الحاجب رحمه الله تعالى ، للقطع بأن العادة تقضى بالتواتر فى تفاصيل مثله . والقائلون بالأول لم يحتاجوا للعادة،لأن التواتر عندهم جزء من الحد ، فلا تتصور ماهية القرآن إلا به . وحينئذ فلا بدّ من التواتر عند أئمة المذاهب الأربعة ، ولم يخالف منهم أحد فيما علمت بعد الفحص الزائد.وصرح به جماعات لا يُحْصَوْنَ ، كابن عبدالبر وابن عطية وابن تيمية والتونسى فى تفسيره والنووى والسبكى والإسنوى والأذرعى والزركشى والدميرى وابن الحاجب والشيخ خليل وابن عرفة وغيرهم ، رحمهم الله تعالى .

وأما القراء فأجمعوا فى أول الزمان على ذلك وكذلك فى آخره ، لم يخالف من المتأخرين إلا أبو محمد مكى ، وتبعه بعض المتأخرين . وهذا كلامهم . . الخ » اه . ثم ساق نقولًا كثيرة عزاها إليهم يقصر المقام هنا عن عرضها. وفيما ذكرناه كفاية. وهذا التوجيه الذى وجّهنا به الضابط السالف يجعل الخلاف كأنه لفظى،وييسر بجماعات القرّاء على جدَد الطريق فى تواتر القرآن « وَمَنْ سَلَكَ ٱلْجَدَدَ أَمِنَ العِثار » .

أنواع القراءات من حيث السند :

ينقل السيوطى عن ابن الجزرى أن أنواع القراءات ستة : ـ

(الأول المتواتر) . وهو ما رواه جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم : مثاله مااتفقت الطرق فى نقله عن السبعة . وهذا هو الغالب فى القراءات .

(الثانى المشهور) :هو ماصحّ سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله وهكذا، ووافق العربية ، ووافق أحد المصاحف العثمانية ، سواء أكان عن الأئمة السبعة أم العشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين ، واشتهر عند القراء فلم يعدُّوه من الغلط ولا من الشذوذ ، إلا أنه لم يبلغ درجة المتواتر . مثاله : ما اختلفت الطرق فى نقله عن السبعة ، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض. ومن أشهر ماصنف فى هذين النوعين التيسير للدانى ،والشاطبية، وطيبة النشر فى القراءات العشر . وهذان النوعان هما اللذان يقرأ بهما مع وجوب اعتقادهما ، ولا يجوز إنكار شىء منهما .

(النوع الثالث) ماصحّ سنده ، وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المذكور. وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده . من ذلك ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجَحْدرى عن أبى بَكرة ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ : « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ خُضْرٍ وَعَبَاقِرِىَّ حِسَان » . ومنه قراءة « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِن أَنْفَسِكُمْ » بفتح الفاء .

(الرابع الشاذُّ) وهو مالم يصح سنده ، كقراءة ابن السَّمَيْفَع : « فَالْيَوْمَ نُنَحِّيكَ بِبَدَنِكَ » بالحاء المهملة « لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً » بفتح اللام من كلمة « خَلَفَكَ » .

(الخامس الموضوع) وهو مانسب إلى قائله من غير أصل . مثال ذلك القراءات التى جمعها محمد بن جعفر الخزاعى ، ونسبها إلى أبى حنيفة . وقد سبق الكلام عليها فى شرح الضابط الآنف .

(النوع السادس) مايشبه المُدْرَج من أنواع الحديث . وهو مازيد فى القراءات على وجه التفسير كقراءة سعد بن أبى وقاص « وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمٍّ » بزيادة لفظ « من أمٍّ » . وقراءة : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ » بزيادة لفظ « فى مواسم الحجِّ » وقراءة الزبير : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيَسْتَعِينُونَ بِاللهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ » بزيادة لفظ « وَيَسْتَعِينُونَ بِاللهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ » .

وإنما كان شبيهاً ولم يكن مُدْرَجاً ، لأنه وقع خلاف فيه . قال عمر رضى الله عنه : « فما أدرى أ كانت قراءاته (يعنى الزبير) « أم فسَّر » أخرجه سعيد بن منصور ، وأخرجه ابن الأنبارى وجزم بأنه تفسير . وكان الحسن يقرأ : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، الْوُرُودُ : الدُّخُولُ » قال ابن الأنبارى : قوله « الْوُرُودُ : الدُّخُولُ » ، تفسير من الحسن لمعنى الورود . وغلط فيه بعض الرواة فأدخله فى القرآن .

قال ابن الجزرى فى آخر كلامه : « وربما كانوا يدخلون التفسير فى الكلام إيضاحاً ، لأنهم متحققون لما تلقوه عن رسول الله ﷺ قرآناً . فهم آمنون من الالتباس » انتهى بتصرف تبعنا فيه صاحب الكواكب الدرية .

تواتر القرآن :

أكتفى فى هذا الموضوع بأن أسوق إليك نقولًا ثلاثة فوق ما نقلته عن النويرى من قبل :

أولها : يقول الإمام الغزالى فى المستصفى ما نصه : حَدُّ الكتاب ما نقل إلينا بين دفتى المصحف على الأحرف السبعة المشهورة نقلا متواتر . ونعنى بالكتاب القرآن المنزل . وقيَّدناه بالمصحف لأن الصحابة بالغوا فى الاحتياط فى نقله ، حتى كرهوا التعاشير والنقط ،

وأمروا بالتجريد ؛ كيلا يختلط بالقرآن غيره ؛ ونقل إلينا متواتراً ، فنعلم أن المكتوب في المصحف المتفق عليه هو القرآن ، وأن ماهوخارج عنه فليس منه؛ إذ يستحيل فى العرف والعادة مع توافر الدواعى على حفظه أن يهمل بعضه فلا ينقل ، أو يخلط به ماليس منه. ثم قال : فإن قيل : لم شرطتم التواتر ؟ قلنا ليحصل العلم به ، لأن الحكم بما لا يُعلم جهل وكون الشيء كلام الله تعالى أمر حقيقى ليس بوضعى حتى يتعلق بظننا ، فيقال: إذا ظننتم كذا فقد حرمنا عليكم فعلا ، أو حللناه لكم ، فيكون التحريم معلوماً عند ظننا ، ويكون ظننا علامة لتعلق التحريم به . إلى أن قال :

ويتشعب عن حد الكلام مسألتان : « (إحداهما) مسألة التتابع فى صوم كفارة اليمين : فإنه ليس بواجب على قول ، وإن قرأ ابن مسعود «فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ» لأن هذه الزيادة لم تتواتر ، فليست من القرآن، فتحمل على أنه ذكرها فى معرض البيان، لما اعتقده مذهبا ، فلعلهُ اعتقد التتابع حملا لهذا المطلق على المقيد بالتتابع فى الظهار . وقال أبو حنيفة: يجب التتابع ، لأنه وإن لم يثبت كونه قرآناً ، فلا أقل من كونه خبرا، والعمل يجب بخبر الواحد . وهذا ضعيف ، لأن خبر الواحد لادليل على كذبه، وهو(1) إن جعله من القرآن فهو خطأ قطعاً ، لأنه وجب على رسول الله ﷺ أن يبلغه طائفة من الأمة تقوم الحجة بقولهم ، وكان لا يجوز له مناجاة الواحد به . وإن لم يجعله من القرآن، احتمل أن يكون ذلك مذهباً له لدليل قد دله عليه، واحتمل أن يكون خبرا. وما تردد بين

(١) كذا بالأصل الذى نقلت عنه. ولعل الواو فى لفظ «وهو» زادتها المطبعة خطأ . وجملة « لا دليل على كذبه » حالية من لفظ « الواحد » ، والمعنى هكذا : لأن خبر الواحد هنا حال كونه لا دليل على كذبه ، ولفظ هو ضمير فصل أو عائد على خبر الواحد، إن جعله (أى أبو حنيفة) من القرآن الخ . ويمكن أن تكون كلمة « وهو » كلها مدرَجة فى الطبع أو النسخ فتدبر .

أن يكون خبراً أو لا يكون ، فلا يجوز العمل به ، وإنما يجوز العمل بما يصرح الراوى بسماعه من رسول الله ﷺ .

(أما المسألة الثانية) فهى أن البسملة آية من القرآن لكن هل هى آية من أول كل سورة ؟ فيه خلاف . وميل الشافعى ـ رحمه الله ـ إلى أنها آية من سورة الحمد وسائر السور ، لكنها فى أول كل سورة آية برأسها ، أو هى مع أول آية من سائر السور آية هذا مما نقل عن الشافعى فيه تردد . وهذا أصح من قول مَنْ حمل تردد قول الشافعى على أنها هل هى من القرآن فى أول كل سورة ؟ بل الذى يصح أنها حيث كتبت مع القرآن بخط القرآن ، فهى من القرآن » اهـ ما أردنا نقله بتصرف طفيف .

ثانيها : يقول صاحب مُسلم الثبوت وشارحه ما نصه : «ما نُقل آحاداً فليس بقرآن قطعاً ؛ ولم يعرف فيه خلاف لواحد من أهل المذاهب ، واستدل بأن القرآن مما تتوافر الدواعى على نقله ، لتضمنه التحدى ، ولأنه أصل الأحكام ، باعتبار المعنى والنظم جميعا ، حتى تعلق بنظمه أحكامه كثيرة ، ولأنه يتبرك به فى كل عصر بالقراءة ، ولذا علم جهد الصحابة فى حفظه بالتواتر القاطع . وكل ما تتوافر دواعى نقله ، ينقل متواترا عادة . فوجوده ملزوم التواتر عند الكل عادة ، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر ، انتفى الملزوم قطعا . والمنقول آحادا ؛ ليس متواتراً فليس قرآنا » اهـ .

ثالثها : يقول الحافظ جلال الدين فى الإتقان ما نصه : لا خلاف أن كل ماهو من القرآن يجب أن يكون متواترا فى أصله وأجزائه . وأما فى محله ووضعه وترتيبه ، فكذلك عند محققى أهل السنة ، للقطع بأن العادة تقضى بالتواتر فى تفاصيل مثله ، لأن هذا المعجز العظيم ، الذى هو أصل الدين القويم ، والصراط المستقيم ؛ مما تتوافر الدواعى على نقل جمله وتفاصيله ، فما نقل آحاداً ولم يتواتر يقطع بأنه ليس من القرآن .

« وذهب كثير من الأصوليين إلى أن التواتر شرط فى ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله. وليس بشرط فى محله ووضعه وترتيبه. بل يكثر فيها نقل الآحاد. قيل وهو الذى يقتضيه صنع الشافعى فى إثبات البسملة من كل سورة. وردّ هذا المذهب بأن الدليل السابق يقتضى التواتر فى الجميع، ولأنه لولم يشترط لجاز سقوط كثير من القرآن المكرر، وثبوت كثير مما ليس بقرآن منه. أما الأول فلأنا لو لم نشترط التواتر فى المحل، جاز ألا يتواتر كثير من المكررات الواقعة فى القرآن. مثل « فبأىِّ آلاء ربكما تكذبان ». وأما الثانى فلأنه إذا لم يتواتر بعض القرآن بحسب المحل، جاز إثبات ذلك البعض فى الموضع بنقل الآحاد. وقال القاضى أبو بكر فى الانتصار: « ذهب قوم من الفقهاء والمتكلمين إلى إثبات قرآنٍ حكماً لا علماً بخبر الواحد دون الاستفاضة. وكره ذلك أهل الحق وامتنعوا منه وقال قوم من المتكلمين: إنه يسوغ إعمال الرأى والاجتهاد فى إثبات قراءة وأوجه وأحرف، إذا كانت تلك الأوجه صواباً فى العربية، وإن لم يثبت أن النبى ﷺ قرأ بها. وأبى ذلك أهل الحق وأنكروه وخطأوا من قال به ». اه

وقد بنى المالكية وغيرهم ممن قال بإنكار البسملة قولهم على هذا الأصل، وقرروا أنها لم تتواتر فى أوائل السور، ومالم يتواتر فليس بقرآن. وأجيب من قبلنا بمنع كونها لم تتواتر؛ فربّ متواتر عند قوم دونِ آخرين، وفى وقت دون آخر. ويكفى فى تواترها إثباتها فى مصاحف الصحابة فمن بعدهم بخط المصحف مع منعهم أن يكتب فى المصحف ماليس منه، كأسماء السور وآمين والأعشار. فلولم تكن قرآنا لما استجازوا إثباتها بخطه من غير تمييز، لأن ذلك يحمل على اعتقاد كونها قرآناً. فيكونون مغرِّرين بالمسلمين حاملين لهم على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآناً، وهذا مما لا يجوز اعتقاده فى الصحابة. فإن قيل: لعلها أثبتت للفصل بين السور. أجيب: بأن هذا فيه تغيير،

ولا يجوز ارتكابه لمجرد الفصل ، ولو كانت له لكتبت بين براءة والأنفال ». اهـ كلام السيوطى .

وهذه النقول الثلاثة كافية فى الموضوع كما ترى لأن عبارتى المستصفى ومسلّم الثبوت يقيمان الدليل واضحاً على تواتر القرآن وإن اختلف طريقهما فى الاستدلال . وعبارة السيوطى تذكر الخلاف فى عموم هذا التواتر لما كان أصلا وغير أصل، وتؤيد هذا العموم وتردُّ على من قصر التواتر على أصل القرآن دون محله ووضعه وترتيبه .

الآراء فى القراءات السبع :

هنا يجد الباحث نفسه فى معترك ملىء بكثرة الخلافات واضطراب النقول واتساع المسافة بين المختلفين إلى حد بعيد .

وإليك صورةً مصغرة تشهد فيها حرب الآراء والأفكار مشبوبةً بين الكاتبين فى هذا الموضوع :

(١) يبالغ بعضهم فى الإشادة بالقراءات السبع ويقول: من زعم أن القراءات السبع لا يلزم فيها التواتر فقوله كفر لأنه يؤدى إلى عدم تواتر القرآن جملة . ويعزى هذا الرأى إلى مفتى البلاد الأندلسية الأستاذ أبى سعيد فرج بن لب، وقد تحمس لرأيه كثيراً وألف رسالة كبيرة فى تأييد مذهبه والرد على من رد عليه .

ولكن دليله الذى استند إليه لا يسلم له ، فإن القول بعدم تواتر القراءات السبع لا يستلزم القول بعدم تواتر القرآن. كيف؟ وهناك فرق بين القرآن والقراءات السبع بحيث يصح أن يكون القرآن متواترا فى غير القراءات السبع ، أو فى القدر الذى اتفق عليه القراء جميعاً ، أو فى القدر الذى اتفق عدد يؤمن تواطؤهم على الكذب قرّاءً كانوا

أو غير قراء ، بينما تكون القراءات السبع غير متواترة ، وذلك فى القدر الذى اختلف فيه القراء ولم يجتمع على روايته عدد يؤمن تواطؤهم على الكذب فى كل طبقة ، وإن كان احتمالا لا ينفيه الواقع كما هو التحقيق الآتى .

(٢) يبالغ بعضهم فى توهين القراءات السبع والغض من شأنها ، فيزعم أنه لافرق بينها وبين سائر القراءات ، ويحكم بأن الجميع روايات آحاد. ويستدل على ذلك بأن القول بتواترها منكر يؤدى إلى تكفير من طعن فى شىء منها ، مع أن الطعن وقع فعلا من بعض العلماء والأعلام .

ونناقش هذا الدليل بأنا لانسلم أن إنكار شىء من القراءات يقتضى التكفير على القول بتواترها. وإنما يحكم بالتكفير على من علم تواترها ثم أنكره . والشىء قد يكون متواتراً عند قوم غير متواتر عند آخرين، وقد يكون متواتراً فى وقت دون آخر فطعن من طعن منهم يحمل على مالم يعلموا تواتراه منها ، وهذا لا ينفى التواتر عند من علم به، « وفوق كل ذى علم عليم » .

ويمكن مناقشة هذا الدليل أيضاً بأن طعن الطاعنين إنما هو فيما اختلف فيه وكان من قبيل الأداء. أما ما اتفق عليه فليس بموضع طعن. ونحن لا نقول إلا بتواتر ما اتفق عليه دون ما اختلف فيه .

(٣) يقول ابن السبكى فى جمع الجوامع وشارحه ومحشيه: « القراءات السبع متواترة تواتراً تامًّا أى نقلها عن النبى ﷺ جمع يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب لمثلهم، وهلم جرا.

ولا يضر كون أسانيد القراء آحاداً، إذ تخصيصها بجماعة لا يمنع مجىء القراءات عن غيرهم ، بل هو الواقع، فقد تلقاها عن أهل كل بلد بقراءة إمامهم الجم الغفير عن مثلهم؛ وهلم جرًّا. وإنما أسندت إلى الأئمة المذكورين ورواتهم المذكورين فى أسانيدهم، لتصديهم

لضبط حروفها وحفظ شيوخهم الكمل فيها » اهـ.

وقد يناقش هذا بأنها لو تواترت جميعاً ، ما اختلف القراء فى شىء منها لكنهم اختلفوا فى أشياء منها ، فإذاً لا يسلم أن تكون كلها متواترة.

ويجاب عن هذا بأن الخلاف لا ينفى التواتر بل الكل متواتر وهم فيه مختلفون ، فإن كل حرف من الحروف السبعة التى نزل بها القرآن بلّغه الرسول ﷺ إلى جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب حفظاً لهذا الكتاب ، وهم بلغوه إلى أمثالهم وهكذا. ولا شك أن الحروف يخالف بعضها بعضاً ، فلا جرم تواتر كل حرف عند من أخذ به وإن كان الآخر لم يعرفه ولم يأخذ به. وهنا يجتمع التخالف والتواتر. وهنا يستقيم القول بتواتر القراءات السبع بل القراءات العشر كما يأتى.

(٤) ويذهب ابن الحاجب إلى تواتر القراءات السبع ، غير أنه يستثنى منها ما كان من قبيل الأداء كالمد والإمالة وتخفيف الهمزة. قال البنانى على جمع الجوامع: « وكأن وجه ذلك أن ما كان من قبيل الأداء بأن كان هيئة للفظ يتحقق اللفظ بدونها ، كزيادة المدّ على أصله وما بعده من الأمثلة ، وما كان من هذا القبيل لا يضبطه السماع عادة لأنه يقبل الزيادة والنقصان ؛ بل هو أمر اجتهادى. وقد شرطوا فى التواتر ألا يكون فى الأصل عن اجتهاد. فإن قيل قد يتصور الضبط فى الطبقة الأولى للعلم بضبطها ما سمعته منه ﷺ على الوجه الذى صدر منه من غير تفاوت بسبب تكرر عرضها ما سمعته منه ﷺ. قلنا إن سلم وقوع ذلك لم يفد ، إذ لا يأتى نظيره فى بقية الطبقات ، فإن الطبقة الأولى لا تقدر عادة على القطع بأن ما تلقته الثانية جارٍ على الوجه الذى نطق به النبى ﷺ. وبما تقرر علم أن الكلام فيما زاد على أصل المد وما بعده لا فى الأصل فإنه متواتر.

الحاصل أنه إن أريد بتواتر ما كان من قبيل الأداء تواتره باعتبار أصله ، كأن يراد تواتر المد من غير نظر لمقداره ، وتواتر الإمالة كذلك ، فالوجه خلاف ما قال

ابن الحاجب ، للعلم بتواتر ذلك . وإن أريد تواتر الخصوصيات الزائدة على الأصل ، فالوجه ما قاله ابن الحاجب . قاله ابن قاسم » ا هـ بقليل من التصرف .

لكننا إذا رجعنا لعبارة ابن الحاجب نجـدها كما يقول فى مختصر الأصول له : « القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء ، كالمد والإمالة وتخفيف الهمزة ونحوه » ا هـ وهذا زعمٌ صريحٌ منه بأن المدّ والإمالة وتخفيف الهمزة ونحوها من قبيل الأداء وأنها غير متواترة . وهذا غير صحيح ، كما يأتيك نبَؤُه فى مناقشة ابن الجزرى له طويلًا .

(٥) يذهب أبو شامة إلى أن القراءات السبع متواترة فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء ، أما ما اختلفت الطرق فى نقله عنهم فليس بمتواتر ، سواء أكان الاختلاف فى أداء الكلمة كما ذهب ابن الحاجب أم فى لفظها . فالاستثناء هنا أعم مما استثناه ابن الحاجب. وعبارة أبى شامة فى كتابه المرشد الوجيز نصها ما يأتى : « ما شاع على ألسنة جماعة من متأخرى المقرئين وغيرهم من أن القراءات السبع متواترة ، ونقول به فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء السبعة ، دون ما اختلفت فيه ، بمعنى أنه نفيت نسبته إليهم فى بعض الطرق. وذلك موجود فى كتب القراءات ، لاسيما كتب المغاربة والمشارقة، فبينهما تباين فى مواضع كثيرة . والحاصل أنا لا نلتزم التواتر فى جميع الألفاظ المختلف فيها بين القراء . أى بل منها المتواتر وهو ما اتفقت الطرق على نقله عنهم ، وغير المتواتر وهو ما اختلفتْ فيه بالمعنى السابق . وهذا بظاهره يتناول ما ليس من قبيل الأداء وما هو من قبيله » ا هـ . نقلًا عن الجلال المحلى فى شرح جمع الجوامع بتذييل منه .

ورأى أبو شامة هذا كنت أقول فى الطبعة الأولى إنه أمثل الآراء فيما أرى ، وذلك لأمور أربعة :

أولها : أنه رأى سليم من التوهينات التى نوقشت بها الآراء السابقة .

ثانيها : أن يستند إلى الواقع فى دعواه وفى دليله . ذلك أن القراءات السبع وقع اختلاف بعضها حقيقة فى النطق بألفاظ الكلمات تارة ، وبأداء تلك الألفاظ تارة أخرى . ومن هنا كانت الدعوى مطابقة للواقع . ثم إن دليله يقوم على الواقع أيضاً فى أن بعض الروايات مضطربة فى نسبتها إلى الأئمة القراء ، فبعضهم نفاها وبعضهم أثبتها. وذلك أمارة انتفاء التواتر ، لأن الاتفاق فى كل طبقة من الجماعة الذين يؤمن تواطؤهم على الكذب لازم من لوازم التواتر . وقد انتفى هذا الاتفاق هنا فينتفى التواتر ، لما هو معلوم من أنه كلما انتفى اللازم انتفى الملزوم .

ثالثها : أن هذا الرأى صادر عن إخصائى متمهر فى القراءات وعلوم القرآن وهو أبو شامة « وصاحب الدار أدرى بما فيها » .

رابعها : أن هذا الرأى يتفق وما هو مقرر لدى المحققين من أن القراءات قد تتوافر فيها الأركان الثلاثة المذكورة فى ذلك الضابط المشهور، وقد تنتفى هذه الأركان الثلاثة كلًا أو بعضاً ، لا فرق فى هذا بين القراءات السبع وغير السبع على نحو ماتقدم. ويتفق هذا الرأى أيضاً وما صرحوا به من تقسيم القراءات باعتبار السند إلى ستة أقسام كما سبق .

استدراك :

لكنى بعد معاودة البحث والنظر ، واتساع أفق اطلاعى فيما كتب أهل التحقيق فى هذا الشأن ، تبيَّن لى أن أبا شامة أخطأه الصواب أيضاً فيمن أخطأ ، وأننى أخطأت فى مشايعته وتأييده .

ويضطرنى إنصاف الحق أن أكُرّ على الوجوه التى أيَّدْته بها بين يديك، فأنقضها وجهاً وجهاً . « والرجوع إلى الحق فضيلة » .

١ ـ فرأى أبى شامة المسطور لم يسلم من مثل تلك التوهينات التى نوقشت بها الآراء السابقة ، وسترى قريباً شدة مناقشته الحساب فى كلام ابن الجزرى .

٢ ـ ثم إن الغطاء قد انكشف عن أن القراءات السبع بل القراءات العشر كلها متواترة فى الواقـــع ، وأن الخلاف بينها لا ينفى عنها التواتر ، فقد يجتمع التواتر والتخالف ، كما بينا عند عرض رأى ابن السبكى ، وكما يستبين لك الأمر فيما يأتى من تحقيق ابن الجزرى .

٣ ـ أما أن أبا شامة إخصائى متمهِّر ، فسبحان من له العصمة ، والكمال لله تعالى وحده . على أن الذى رد عليه واخترنا رأيه ـ وهو ابن الجزرى ـ إخصائى متمهر أيضاً ، وإليه انتهت الزعامة فى هذا الفن ، حتى إذا أطلق لقب المحقق لم ينصرف إلا إليه « وكم ترك الأول للآخر » .

٤ ـ وأما ما قرره المحققون من تقسيم القراءات إلى متواتر وغير متواتر ، فهو تقسيم لا يغنى عن أبى شامة شيئاً فى رأيه هـــذا ، لأن كلامهم هناك كان فى مطلق القراءات، أما كلامنا وكلام أبى شامة هنا فهو فى خصوص القراءات السبع . وبينهما برْزَخٌ لا يبغيان .

الآراء فى القراءات الثلاث المتممة للعشر :

لقد علمت فيما سبق ما قيل فى القراءات السبع من أنها متواترة أو غير متواترة . أما القراءات الثلاث المكملة للعشر ، فقيل فيها بالتواتر ، ويعزى ذلك إلى ابن السبكى. وقيل فيها بالصحة فقط ، ويعزى ذلك إلى الجلال المحلى . وقيل فيها بالشذوذ ، ويعزى ذلك إلى الفقهاء الذين يعتبرون كل ما وراء القراءات السبع شاذًّا .

التحقيق تواتر القراءات العشر كلها :

والتحقيق الذى يؤيده الدليل ، هو أن القراءات العشر كلهـا متواترة ، وهو رأى المحققين من الأصوليين والقراء كابن السبكى وابن الجزرى والنويرى ، بل هو رأى أبى شامة فى نقل آخر صححه الناقلون عنه ، وجوَّزوا أن يكون الرأى الآنف مدسوساً عليه ، أو قاله أول أمره ثم رجع عنه بعد . ولعل من الصواب والحكمة أن أترك الكلام هنا للمحقق ابن الجزرى ، يصول فيه ويجول ، ويسهب ويطرب ، واضعاً للحق فى نصابه ، دافعاً للخطأ وشبهاته . فاقرأه واصبر على الإكثار والتطويل ، فإن المقام دقيق وجليل ، « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

قال ـ رحمه الله ـ فى كتابه منجد المقرئين ، ابتداء من الصفحة السابعة والخمسين ما نصه :

(الفصل الثانى فى أن القراءات العشر متواترة فرشاً وأصولًا ، حال اجتماعهم وافتراقهم ، وحلِّ مشكل ذلك) اعلم أن العلماء بالغوا فى ذلك نفياً وإثباتاً ، وأنا أذكر أقوال كلٍّ ثم أبين الحق من ذلك. أما من قال بتواتر الفرش[1] دون الأصول فابن الحاجب . قال فى مختصر الأصول له : « القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء ، كالمدِّ والإمالة وتخفيف الهمزة ونحوه » اهـ.فزعم أن المد والإمالة وما أشبه ذلك من الأصول كالإدغام وترقيق الراءات وتفخيم اللامات ونقل الحركة وتسهيل الهمزة ، من قبيل الأداء وأنه غير متواتر . وهذا قول غير صحيح كما سنبينه .

---

(١) يراد بالفرش الجزئيات التى يقع الخلاف فى قراءتها ولا يقاس عليها . كقراءة « يَخْدَعُونَ » فى سورة البقرة لا يقاس عليها ما جاء فى سورة النساء من كلمة « يُخَادِعُونَ الله » مع أن الخلاف وقع فى قراءة الأولى . ويراد بالأصول الكليات التى تندرج تحتها جميع الجزئيات المتماثلة ، كقواعد المد والهمز والإمالة .

أما المدُّ فأطلقه وتحتـه مايسكب العبرات ، فإنه إما أن يكون طبيعيًا أو عرضيًا . والطبيعي هو الذى لا تقوم ذات حروف المد بدونه، كالألف من قال،والواو من يقول، والياء من قيل . وهذا لا يقول مسلم بعدم تواتره ، إذ لا تمـكن القراءة بدونه . والمدُّ العرضيُّ هو الذى يعرض زيادة على الطبيعى لموجب إما سكون أو همز .فأما السكون فقد يكون لازماً كما فى فواتح السور ، وقد يكون مشدداً نحو « آلمٓ ، ق، ن، ولا الضالين » ونحوه ، فهذا يلحق بالطبيعى لايجوز فيه القصر ؛ لأن المدّ قام مقام حرف توصلًا للنطق بالساكن . وقد أجمع المحققون من الناس على مدِّه قدراً سواءً. وأما الهمز فعلى قسمين : (الأول) إما أن يكون حرف المد فى كلمة والهمز فى أخرى وهذا تسميه القرّاء منفصلا، واختلفوا فى مده وقصره، وأكثرهم على المد.فادعاؤه عدم تواتر المدفيه ترجيح بلامرجح، ولو قال العكس لكان أظهر لشبهتـه ، لأن أكثر القراء على المـد . (الثـانى) أن يكون حرف المد والهمز فى كلمة واحدة ،وهو الذى يسمى متصلاً . وقد أجمع القراء سلفاً وخلفاً من كبير وصغير وشريف وحقير ، على مـده ، لا خلاف بينهم فى ذلك إلا ماروى عن بعض من لا يعوّل عليه بطريق شاذّة فلا تجوز القراءة به .حتى إن إمام الرواية أبا القاسم الهذلى ـ الذى دخل المشرق والمغرب وأخذ القراءة عن ثلاثمائة وخمسة وستين شيخاً ، وقال : رحلت من آخر المغرب إلى فرغانة يميناً وشمالًا ، وجبلًا وبحراً ، وألف كتابه الكامل الذى جمع فيه بين الدرّة وأذن الجرّة،من صحيح وشاذ ومشهور ومنكر ـ قال فى باب المدّ فى فصل المتصل : « لم يختلف فى هذا الفصل أنه ممدود على وتيرة واحدة ، فالقرّاء فيه على نمط واحد، وقدّروه بثلاث ألفات ـ إلى أن قال ـ وذكر العراقى أن الاختلاف فى مد كلمة واحدة كالاختلاف فى مد كلمتين ، ولم أسمع هذا لغيره . وطالما مارست الكتب والعلماء فلم أجد من يجعل مدّ الكلمة الواحدة كمدِّ الكلمتين إلا العراقى » . قلت : والعراقى هو منصور بن أحمد المقرئ كان بخراسان . ولقد أخطأ

فى ذلك ، وشيوخه الذين قرأ عليهم نعرفهم : الإمام أبو بكر بن مهران ، وأبو الفرج الشنبوذى ، وإبراهيم بن أحمد المروزى ، ولم يرو عنهم شىء من ذلك فى طريق من الطرق .

فإذا كان ذلك يجسر ابن الحاجب أو من هو أكبر منه على أن يقدم على ما أجمع عليه فيقول : هو غير متواتر ، فهذه أقسام المد العرضى أيضاً متواترة : لا يشكُّ فى ذلك إلا جاهل . وكيف يكون المد غير متواتر وقد أجمع عليه الناس خلفا عن سلف ؟

فإن قيل : قد وجدنا القراء فى بعض الكتب كالتيسير للحافظ الدانى وغيره، جعل لهم فيما مُدَّ للهمز مراتب فى المد إشباعاً وتوسطاً وفوقه ودونه ، وهذا لا ينضبط ؛ إذ للمد لا حدَّ له . وما لا ينضبط كيف يكون متواتراً؟ قلت: نحن لا ندَّعى أن مراتبه متواترة، وإن كان قد ادَّعاه طائفة من القراء والأصوليين . بل نقول : إن المد العرضىَّ من حيث هو متواتر مقطوع به قرأ به النبى ﷺ، وأنزل الله تعالى عليه، وأنه ليس من قبيل الأداء، فلا أقل من أن نقول : القدر المشترك متواتر . وأما ما زاد على القدر المشترك كعاصم وحمزة وورش، فهو إن لم يكن متواتراً فصحيح مستفاض[1] متلقى بالقبول . ومن ادعى تواتر الزائد على القدر المشترك فليبين .

وأما الإمالة على نوعيها ، فهى وضدها لغتان فاشيتان من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، مكتوبتان فى المصاحف ، متواترتان ، وهل يقول أحد فى لغة أجمع الصحابة والمسلمون على كتابتها فى المصاحف إنها من قبيل الأداء ؟ وقد نقل الحافظ الحجة أبو عمرو الدانى فى كتابه إيجاز البيان الإجماع على أن الإمالة لغة لقبائل العرب، دعاهم إلى الذهاب إليها التماس الخفة . وقال الإمام أبو القاسم الهذلى فى كتاب الكامل: إن الإمالة والتفخيم لغتان ليست إحداهما أقدم من الأخرى: بل نزل القرآن بهما جميعاً ـ إلى أن قال ـ والجملة

---

(١) كذا بالأصل . ولعل صوابه « مستفيض » .

بعد التطويل أن من قال: إن الله تعالى لم ينزل القرآن بالإمالة أخطأ وأعظم الفِرْية على الله تعالى ، وظنّ بالصحابة خلاف ماهم عليه من الورع والتُّقى .

قلت : كأنه يشير إلى كونهم كتبوا بالإمالة فى المصاحف نحو « يحيى ، وموسى ، وهدى ، ويسعى ، والهدى ، وَيَغْشَيهَا ، وَجَلَّيهَا ، وَآسَى ، وَآتَيْنَـٰكُمْ » وما أشبه ذلك مما كتبوه بالياء على لغة الإمالة ، وكتبوا مواضع تشبه هذا بالألف على لغة الفتح ، منها قوله عز وجل فى سورة إبراهيم : « وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » حتى إنهم كتبوا « تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَيٰهُمْ » فى البقرة بالياء ، وكتبوا « سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ » بالألف وأىّ دليل أعظم من ذلك ؟ .

قال الهذلى : وقد أجمعت الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا على الأخذ والقراءة والإقراء بالإمالة والتفخيم . وذكر أشياء ، ثم قال : وما أحد من القراء إلا رويتُ عنه إمالة قلَّتْ أو كثرت ـ إلى أن قال ـ وهى (يعنى الإمالة) لغة هوازن ، وبكر بن وائل ، وسعد بن بكر .

وأما تخفيف الهمزة ونحوه من النقل والإدغام وترقيق الراءات وتفخيم اللامات فمتواتر قطعا ، معلوم أنه منزل من الأحرف السبعة ، ومن لغات العرب الذين لا يحسنون غيره ، وكيف يكون غير متواتر أو من قبيل الأداء ؟ وقد أجمع القراء فى مواضع على الإدغام فى مثل « مُدَّكِرٍ ، أَثْقَلَتْ(١) دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا ، مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » وكذلك أجمع القراء فى مواضع على تخفيف الهمز نحو « آلْآنَ ، آللهُ ، آلذَّكَرَيْنِ » فى الاستفهام ، وفى مواضع على النقل نحو « لَـٰكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي » ، و « يرى ، ونرى » . وعلى ترقيق الراءات فى مواضع نحو « فِرْعَوْنَ ، وَمِرْيَةَ » وعلى تفخيم اللامات فى مواضع نحو اسم الجلالة بعد الضمة والفتحة .

---

(١) لعله يريد إدغام التاء فى الدال .

وأجمع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على كتابة الهمزة الثانية من قوله تعالى فى آل عمران : « أَؤُنَبِّئُكُمْ » بواو . قال أبو عمرو الدانى وغيره: إنما كتبوا ذلك على إرادة تسهيل الهمزة بين بين ا ه. وكيف يكون ما أجمع عليه القراء أمماً عن أمم غير متواتر. وإذا كان المدّ وتخفيف الهمز والإدغام غير متواتر على الإطلاق ،فما الذى يكون متواترا؟أقصر « الٓمٓ ، ودابة، وأولئك» الذى لم يقرأ به أحد من الناس؟أم تخفيف همزة « آلذَّكَرَيْنِ، آللَّهُ » الذى أجمع الناس على أنه لايجوز وأنه لحـــن ؟ أم إظهار « مُدَّكِر » الذى أجمع الصحابة والمسلمون على كتابته وتلاوته بالإدغام ؟ فليت شعرى مَن الذى تقدمه قبلُ بهذا القول ، فقفّى أثره ، والظاهر أنه لما سمع قول الناس : إن التواتر فيما ليس من قبيل الأداء ، ظن أن المـــد والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه من قبيل الأداء ، فقال غير مفكر فيه . وإلا فالشيخ أبو عمرو لو فكر فيه ، لما أقدم عليه ، أو لو وقف على كلام إمام الأصوليين من غير مدافعة القاضى أبى بكر بن الطيب الباقلانى فى كتاب الانتصار ، حيث قال : « جميع ما قرأ به قراء الأمصار مما اشتهر عنهم استفاض نقله . ولمْ يدخله فى حكم الشذوذ، بل رآه سائغاً جائزاً من همز وإدغام ومدٍّ وتشديد وحذف وإمالة ، أو ترك ذلك كله أو شىء منه ، أو تقديم أو تأخير ، فإنه كله منزل من عند الله تعالى ، ومما وقف الصحابة على صحته ، وخُيِّر بينه وبين غيره ، وصوّب للجميع القراءة به قال : ولو سوّغنا لبعض القراء إمالة ما لم يُمِلْهُ الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابةُ أو غير ذلك ، لسوّغنا لهم جميع قراءة الرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أطال ـ رحمه الله ـ الكلام على تقدير ذلك، وجوّز أن يكون النبى ﷺ أقرأ واحداً بعض القرآن بحرف وبعضه بحرف آخر ، على ماقد يراه أيسر على القارىء » ا ه .

قلتُ : وظهر من هذا أن اختلاف القراء فى الشىء الواحد مع اختلاف المواضع قد أخذه الصحابى كذلك من رسول الله ﷺ ، وأقرأه كذلك ، إلى أن اتصل بالقراء . نحو قراءة حفص « مَجْرَيهَا » بالإمالة فقط ، ولم يُمِلْ فى القرآن غيره ، وقراءة ابن عامر

« إبْرَاهَام » فى مواضع محصورة ، وقراءة أبى جعفر « يُحْزِن » فى الأنبياء فقط بضم الياء وكسر الزاى ، وفى باقى القرآن بفتح الياء وضم الزاى ، وقراءة نافع عكسه فى جميع القرآن بضم الياء وكسر الزاى إلا فى الأنبياء فإنه فتح الياء وضم الزاى ، وشبه ذلك مما يقول القراء عنه : جمع بين اللغتين .

وليت الإمام ابن الحاجب أخلى كتابه من ذكر القراءات وتواترها ، كما أخلى غيره كتبهم منها . وإذ قد ذكرها فليته لم يتعرَّض إلى ما كان من قبيل الأداء . وإذ قد تعرَّض فليته سكت عن التمثيل ، فإنه إذا ثبت أن شيئاً من القراءات من قبيل الأداء لم يكن متواترا عن النبى ﷺ ، كتقسيم وقف حمزة وهشام وأنواع تسهيله ، فإنه وإن تواتر تخفيف الهمز فى الوقف عن رسول الله ﷺ فلم يتواتر أنه وقف على موضع بخمسين وجها ولا بعشرين ولا بنحو ذلك . وإنما إن صحَّ شىء منها فوَجْهٌ ، والباقى لاشك أنه من قبيل الأداء[1] .

ولما قال ابن السبكى فى كتابه جمع الجوامع : « والسبع متواترة ، قيل: فيما ليس من قبيل الأداء كالمد والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه » وسُئِل عن زيادته على ابن الحاجب « قيل » المقتضية لاختياره أن ماهو من قبيل الأداء كالمد والإمالة إلى آخره متواترٌ فأجاب ـ رحمه الله ـ فى كتابه منع الموانع : اعلم أن السبع متواترة، والمدَّ متواتر، والإمالة متواترة، كل هذا بيِّن لا شك فيه . وقول ابن الحاجب : « فيما ليس من قبيل الأداء » صحيح لو تجرَّد عن قوله : كالمدِّ والإمالة . لكن تمثيله بهما أوجب فساده كما سنوضحه من بعد، فلذلك قلنا : « قيل » ليتبين أن القول بأن المد والإمالة والتخفيف غير متواترة

---

(١) لعلك فهمت أن مرادهم بكلمة « من قبيل الأداء » ما يتصل بتقدير الأصول المتواترة. مثلا المدُّ للهمز أصل جاء متواتراً. أما تقديره بأربع حركات أو ست فليس بمتواتر ، لأنه لا يسهل ضبطه . وقيل فيه بالتواتر أيضاً .

ضعيف عندنا ، بل هى متواترة . ثم أخذ يذكر المد والإمالة والتخفيف ـ إلى أن قال ـ فإذا عرفت ذلك فكلامنا قاض بتواتر السبع . ومن السبع مطلق المد والإمالة وتخفيف الهمز بلا شك .

أما من قال : إن القراءات متواترة حال اجتماع القراء لا حال افتراقهم ، فأبو شامة قال فى المرشد الوجيز فى الباب الخامس منه : « فإن القراءات المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح فى قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما نقل عن غيرهم . فما نُسب إليهم وفيه إنكار أهل اللغة وغيرهم ، الجمع بين الساكنين فى تاءات البَزِّىِّ ، وإدغام أبى عمرو ، وقراءة حمزة « فما استطاعوا » وتسكين من أسكن « بارئكم » ونحوه « وسبأ ، ويابنى ، ومكر السيء » وإشباع الياء فى « يرتقى ، ويتقى ، ويبصر[1] وأفئدة من الناس » وقراءة « ملائكة » بفتح الهمزة ، وهمز « ساقها[2] » وخفض « والأرحام » فى أول النساء ، ونصب « كن فيكون » والفصل بين المتضايفين فى الأنعام ، وغير ذلك ، إلى أن قال : فكل ذلك محمول على قلة ضبط الرواة فيه ، ثم قال : وإن صحَّ النقل فيه فهو من بقايا الأحرف السبعة التى كانت القراءة المباحة عليه على ما هو جائز فى العربية ، فصيحاً كان أو دون ذلك . وأما بعد كتابة المصاحف على اللفظ المنزل ، فلا ينبغى قراءة ذلك اللفظ إلا على اللغة الفصحى من لغة قريش وما ناسبها ، حملا لقراءة النبى صلى الله عليه وسلم والسادة من أصحابه على ما هو اللائق ، فإنهم إنما كتبوه على لغة قريش ، فكذا قراءتهم به . قال : وقد شاع على ألسنة جماعة من المقرئين المتأخرين وغيرهم من المقلدين : أن القراءات السبع كلها متواترة ؛ أى فى

(١) كذا بالأصل فتأمله .

(٢) لعل الصواب « سوقِهِ » من قوله سبحانه : « فاستوَى عَلَى سُوقِهِ » فتدبر .

كل فرد فرد ممن روى عن هؤلاء الأئمة السبعة . قالوا : والقطع بأنها منزلة من عند الله تعالى واجب . قال : ونحن بهذا نقول ، لكن فيما اجتمعت على نقله عنهم الطرق ، واتفقت عليه الفرق من غير نكير له ، مع أنه شاع واشتهر واستفاض ، فلا أقل من اشتراط ذلك إذا لم يتفق التواتر فى بعضها » .

فانظر يا أخى إلى هذا الكلام الساقط ، الذى خرج من غير تأمل ، المتناقض ، فى غير موضع فى هذه الكلمات اليسيرة ! أو قفت عليه شيخنا الإمام ولى الله تعالى أبا محمد ابن محمد بن محمد الجمالى رضى الله عنه ، فقال : ينبغى أن يُعدم هذا الكتاب من الوجود ولا يظهر أَلْبَتَّة ، وإنه طعن فى الدين . قلت : ونحن ـ يشهد الله ـ أننا لا نقصد إسقاط الإمام أبى شامة ، إذ الجواد قد يعثر ، ولا يجهل قدره . بل الحقُّ أحقُّ أن يُتبع . ولكن نقصد التنبيه على هذه الزلّة المزلة ، ليحذر منها من لا معرفة له بأقوال الناس ولا اطلاع له على أحوال الأئمة .

أما قوله : « فما نُسب إليهم وفيه إنكار أهل اللغة الخ » فغير لائق بمثله أن يجعل ما ذكره منكراً عند أهل اللغة . وعلماء اللغة والإعراب الذين عليهم الاعتماد سلفاً وخلفاً ، يوجِّهونها ويستدلون بها . وأنى يسعهم إنكار قراءة تواترت أو استفاضت عن رسول الله ﷺ إلّا نُوَيْسٌ لا اعتبار بهم لا معرفة لهم بالقراءات ولا بالآثار ، جمدوا على ما علموا من القياسات ، وظنوا أنهم أحاطوا بجميع لغات العرب أفصحها وفصيحها ، حتى لو قيل لأحدهم شىء من القرآن على غير النحو الذى أنزل الله يوافق قياساً ظاهراً عنده ولم يقرأ بذلك أحد ، لقطع له بالصحة . كما أنه لو سئل عن قراءة متواترة لا يعرف لها قياساً لأنكرها ولقطع بشذوذها ، حتى إن بعضهم قطع فى قوله عزَّ وجلَّ : « مَالَكَ لا تَأمَنَّا » بأن الإدغام الذى أجمع عليه الصحابة رضى الله عنهم والمسلمون لحن وأنه لا يجوز عند العرب ، لأن الفعل الذى هو تأمن مرفوع ، فلا وجه لسكونه حتى يدغم فى النون التى تليه ! .

فانظر ياأخى - إلى قلة حياء هؤلاء من الله تعالى . يجعلون ماعرفوه من القياس أصلا والقرآن والعظيم فرعاً! حاشا العلماء المتقدى بهم من أئمة اللغة والإعراب من ذلك. بل يجيئون إلى كل حرف مما تقدم ونحوه، يبالغون فى توجيهه والإنكار على من أنكره. حتى إن إمام اللغة والنحو أبا عبد الله محمد بن مالك قال فى منظومته الكافية الشافية فى الفصل بين المتضايفين :

« وعُمْدتى قِرَاءةُ ابنِ عامرٍ فكَمْ لهَا مِنْ عاضدٍ وناصرِ »

ولو لا خوف الطول وخروج الكتاب عن مقصوده، لأوردت مازعم أن أهل اللغة أنكروه، وذكرت أقوالهم فيها، ولكن إن مدَّ الله فى الأجل، لأضعنَّ كتاباً مستقلًا فى ذلك ، يشفى القلب ويشرح الصدر ، أذكر فيه جميع ما أنكره من لا معرفة له بقراءة السبعة والعشرة .

ولله در الإمام أبى نصر الشيرازى حيث حكى فى تفسيره عند قوله تعالى « وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ » كلامَ الزجاجى فى تضعيف قراء الخفض . ثم قال : ومثل هذا الكلام مردودٌ عند أئمة الدين ، لأن القراءات التى قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فمن ردَّ ذلك فقد ردَّ على النبى ﷺ واستقبح ما قرأ به . وهذا مقام محظور لا يقلّد فيه أئمة اللغة والنحو . ولعلهم أرادوا أنه صحيح فصيح وإن كان غيره أفصح منه، فإنا لا ندّعى أن كل مافى القراءات على أرفع الدرجات من الفصاحة .

وقال الإمام الحافظ أبو عمرو الدانى فى كتابه جامع البيان ، عند ذكر إسكان « بارئْكُمْ وَيأمرْكم » لأبى عمرو بن العلاء: « وأئمة القراء لا تعمل فى شىء من حروف القرآن على الأفشى فى اللغة والأقيس فى العربية . بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى

النقل . والرواية إذا ثبتت عندهم لم يردّها قياس عربية ولا فشوُّ لغة ، لأن القراءة سُنَّةٌ متَّبعة ، فلزم قبولها والمصير إليها » .

قلت : ثم لم يكف الإمام أبا شامة حتى قال : « فكل ذلك (يعنى ماتقدم) محمول على قلّة ضبط الرواة » لا والله . بل كله محمول على كثرة الجهل ممن لا يعرف لها أوجهاً وشواهد صحيحة تخرّج عليها ، كما سنبيِّنه إن شاء الله تعالى فى الكتاب الذى وعدنا به آنفاً ، إذهى ثابتة مستفاضة؛ ورواتها أئمة ثقات. وإن كان ذلك محمولاً على قلة ضبطهم، فليت شعرى أكان الدين قد هان على أهله ؟ حتى يجىء شخص فى ذلك الصدر يُدخل فى القراءة بقلة ضبطه ماليس منها ، فيسمع منه ويؤخذ عنه ، ويقرأ به فى الصلاة وغيرها، ويذكره الأئمة فى كتبهم ،ويقرءون به ويستفاض، ولم يزل كذلك إلى زماننا هذا لا يمنع أحد من أئمة الدين القراءة به ، مع أن الإجماع منعقد على أن من زاد حركة أو حرفاً فى القرآن أو نقص من تلقاء نفسه مُصرّاً على ذلك يكفر ؛ والله جلّ وعلا تولّى حفظه : « لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » .

وأعظم من ذلك تنزله ؛ إذ قال : « وعلى تقدير صحتها وأنها من الأحرف السبعة، لا ينبغى قراءتها ، ، حملًا لقراء النبى ﷺ وأصحابه على ماهو اللائق بهم » . فإذا كان النبى ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لم يقرءوا بها مع تقدير صحتها وأنها من الأحرف السبعة ، فَمَنْ أوصلها إلى هؤلاء الذين قرءوا بها .

ثم يقول: « فلا أقل من اشتراط ذلك » يعنى اشتراط الشهرة والاستفاضة . قلت : ألا تنظرون إلى هذا القول ؟ ثم أأحد فى الدنيا يقول : إن قراءة ابن عامر وحمزة وأبى عمرو ومن اجتمع عليه أهل الحرمين والشام أبى جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر ، وقراءة

البزى وقنبل وهشام ، إن تلك غير مشهورة ولا مستفاضة وإن لم تكن متواترة ؟ ! هذا كلام مَنْ لم يدر مايقول ، حاشا الإمام أبا شامة منه . وأنا من فرط اعتقادى فيه أكاد أجزم بأنه ليس من كلامه فى شىء. ربما يكون بعض الجهلة المتعصبين ألحقه بكتابه، أو أنه ألَّف هذا الكتاب أول أمره، كما يقع لكثير من المصنفين. وإلا فهو فى غيره من مصنفاته كشرحه على الشاطبية ، بالغ فى الانتصار والتوجيه لقراءة حمزة « والأرحامِ » بالخفض ، والفصل بين المتضايفين . ثم قال فى الفصل: ولا التفات إلى قول من زعم أنه لم يأت فى الكلام مثله ، لأنه ناف ، ومن أسند هذه القراءة مثبت والإثبات مرجَّح على النفى بالإجماع . قال : ولو نقل إلى هذا الزاعم عن العرب أنه استعمله فى النثر لرجع عن قوله . فما باله مايكتفى بناقلى القراءة من التابعين عن الصحابة رضى الله عنهم ثم أخذ فى تقرير ذلك . قلت : هذا الكلام مباين لما تقدم ، وليس منه فى شىء . وهو الأليق بمثله ، رحمه الله .

ثم قال أبو شامة فى المرشد بعد ذلك القول : « فالحاصل أنا لسنا ممن يلتزم التواتر فى جميع الألفاظ المختلف فيها » . قلت : ونحن كذلك ؛ لكن فى القليل منها ، كما تقدم فى الباب الثانى[1] .

قال : « وغاية مايبديه مدعى تواتر المشهور منها، كإدغام أبى عمرو، ونقل الحركة لورش، وصلة ميم الجمع وها الكناية لابن كثير، أنه متواتر عن ذلك الإمام الذى نُسبت تلك القراءة إليه بعد أن يجهد نفسه فى استواء الطرفين والواسطة، إلا أنه بقى عليه التواتر

---

(١) يشير بذلك إلى مثل قراءة هشام « أفئدة » بياء بعد الهمز. فإنه اعتبره صحيحا مقطوعاً به وإن لم يتواتر ، لأن استفاضته وموافقته الرسم والعربية قرائن مثلها يفيد العلم فى غير المتواتر . انظر المنجد ص ١٩ .

من ذلك الإمام إلى النبي ﷺ في كل فرد فرد من ذلك . ومن ثم تسكب العبرات ، فإنها من ثم لم ينقلها إلا آحادٌ إلا اليسير منها » .

قلت: هذا من جنس ذلك الكلام المتقدم . أوقفت عليه شيخنا الإمام واحد زمانه شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب بيبرود الشافعي، فقال لي :معذورٌ أبو شامة، حيث إن القراءات كالحديث، مخرجها كمخرجه ، إذا كان مدارها على واحد كانت آحادية؛ وخفي عليه أنها نسبت إلى ذلك الإمام اصطلاحاً ؛ وإلا فكل أهل بلدة كانوا يقرءونها أخذوها أمماً عن أمم . ولو انفرد واحد بقراءة دون أهل بلده لم يوافقه على ذلك أحد، بل كانوا يجتنبونها ويأمرون باجتنابها .

قلت : صدق . ومما يدلُّ على هذا ماقال ابن مجاهد : قال لي قنبل :قال القواس في سنة سبع وثلاثين ومائتين : الق هذا الرجل (يعني البزى) فقل له:هذا الحرف ليس من قراءتنا . يعني « وماَ هوَ بميت » مخففاً . وإنما يخفف من الميت من قد مات ، ومن لم يمت فهو مشدَّد . فلقيت البزى فأخبرته ، فقال له: قد رجعت عنه...وقال محمد بن صالح: سمعت رجلًا يقول لأبي عمرو : كيف تقرأ «لا يعذبُ عذابه أحدٌ .ولا يوثقُ وثاقه أحدٌ»؟ فقال : « لا يعذِّبُ » بالكسر . فقال له الرجل : كيف ؟ وقد جاء عن النبي ﷺ « لا يعذبُ » بالفتح . فقال له أبو عمرو : لو سمعت الرجل الذي قال : سمعت النبي ﷺ ماأخذته عنه . أو تدرى ماذاك؟لأني أتهم الواحد الشاذَّ إذا كان على خلاف ماجاءت به العامة . قال الشيخ أبو الحسن السخاوي : وقراءة الفتح أيضاً ثابتة بالتواتر . قلت: صدق ؛ لأنها قراءة الكسائي . قال السخاوي : وقد تواتر الخبر عند قوم دون قوم . وإنما أنكرها أبو عمرو ؛ لأنها لم تبلغه على وجه التواتر .

قلت : وهذا كان من شأنهم على أن تعيين هؤلاء القراء ليس بلازم، ولو عين غير

هؤلاء لجاز . وتعيينهم إما لكونهم تصدوْا للإقراء أكثر من غيرهم ، أو لأنهم شيوخ المعين كما تقدم . ومن ثمّ كره من كره من السلف أن تنسب القراءة إلى أحد . روى ابن أبى داود عن إبراهيم النخعى قال : كانوا يكرهون سند فلان وقراءة فلان. قلت: وذلك خوفاً مما توهمه أبوشامة من القراءة إذا نسبت إلى شخص تكون آحادية. ولم يدر أن كل قراءة نسبت إلى قارئ من هؤلاء كان قراؤها زمن قارئها وقبله أكثر من قرائها فى هذا الزمن وأضعافهم . ولو لم يكن انفراد القراء متواترا لكان بعض القرآن غير متواتر لأنا نجد فى القرآن أحرفا تختلف القراء فيها ، وكلٌّ منهم على قراءة لا توافق الآخر ، كأرجه وغيرها، فلا يكون شيءٌ منها متواترا. وأيضاً قراءة من قرأ «مالك ويخادعون» فكثير من القرآن غير متواتر ، لأن التواتر لا يثبت باثنين ولا بثلاثة .

قال الإمام الجعبرى فى رسالته : وكل وجه من وجوه قراءته كذلك (يعنى متواتراً) لأنها أبعاضه. ثم قال: فظهر من هذا فساد قول من قال : هو متواتر دونها ، إذ هو عبارة عن مجموعها .

ثم قال ابن الجزرى : ومما يحقق لك أن قراءة أهل كل بلد متواترة بالنسبة إليهم أن الإمام الشافعى رضى الله عنه جعل البسملة من القرآن مع أن روايته عن شيخه مالك تقتضى عدم كونها من القرآن ، لأنه من أهل مكة وهم يثبتون البسملة بين السورتين ويعدُّونها من أول الفاتحة آية ، وهو قرأ قراءة ابن كثير على إسماعيل القسط عن ابن كثير ، فلم يعتمد فى روايته عن مالك فى عدم البسملة ، لأنها آحاد ، واعتمد على قراءة ابن كثير لأنها متواترة، وهذا لطيف فتأمله، فإننى كنت أجد فى كتب أصحابنا يقولون : إن الشافعى رضى الله عنه روى حديث عدم البسملة عن مالك ولم يعوِّل عليه، فدلَّ على أنه ظهرت له فيه علة، وإلا لما ترك العمل به . قلت : ولم أر أحداً من أصحابنا

بين العلة ، فبينا أنا ليلة مفكر ، إذ فتح الله تعالى بما تقدّم ـ والله تعالى أعلم ـ أنها هى العلة . مع أنى قرأتُ القرآن برواية إمامنا الشافعى عن ابن كثير كالبزى وقنبل . ولما علم بذلك بعض أصحابنا من كبار الأئمة الشافعية قال لى : أريد أن أقرأ عليك القرآن بها .

ومما يزيدك تحقيقاً ما قاله أبو حاتم السجستانى ، قال :أول من تتبع بالبصرة وجوه القراءات وألفها وتتبّع الشاذّ منها هارون بن موسى الأعور . قال : وكان من القراء . فكره الناس ذلك ، وقالوا : قد أساء حين ألفها . وذلك أن القراءة إنما يأخذها قرون وأمة عن أفواه أمة، ولا يلتفت منها إلى ماجاء من راوٍ راوٍ . قلت: يعنى آحاداً آحاداً .

وقال الحافظ العلامة أبو سعيد خليل كيكلدى العلائى فى كتابه المجموع المذهب: وللشيخ شهاب الدين أبى شامة فى كتابه المرشد الوجيز وغيره كلام فى الفرق بين القراءات السبع[(١)] والشاذّة منها . و[(٢)] كلام غيره من متقدمى القراء مايوهم أن القراءات السبع ليست متواترة كلها ، وأن أعلاها ما اجتمع فيه صحة السند وموافقة خط المصحف الإمام والفصيح من لغة العرب ، وأنه يكفى فيها الاستفاضة ، وليس الأمر كما ذكر هؤلاء . والشبهة دخلت عليهم مع انحصار أسانيدها فى رجال معروفين، وظنوها كاجتهاد الآحاد[(٣)] .

---

(١) كذا بالأصل . ولعله قد سقطت هنا كلمة « المتواتر » ، ولعل كلمة « والشاذة » أصلها « والشاذ » بدون تاء مربوطة . فتدبر .

(٢) كذا بالأصل. ولعله قد سقطت هنا كلمة« فى » ويكون الصواب: « وفى كلام غيره » فتأمل .

(٣) لعل أصله : « فظنوها كأخبار الآحاد » .

قلت : « وقد سألت شيخنا إمام الأئمة أبا المعالى رحمه الله تعالى عن هذا الموضع فقال : انحصار الأسانيد فى طائفة ، لا يمنع مجىء القرآن عن غيرهم . فلقد كان يتلقاه أهل كل بلد، يقرؤه منهم الجم الغفير عن مثلهم ، وكذلك دائماً . والتواتر حاصل لهم . ولكن الأئمة الذين تصدوا لضبط الحروف وحفظوا شيوخهم منها وجاء السند من جهتهم [1] . وهذه الأخبار الواردة فى حجة الوداع ونحوها أجلى [2] ، ولم تزل حجة الوداع منقولة ، فن [3] يحصل بهم التواتر عن مثلهم فى كل عصر ، فهذه كذلك . وقال : هذا موضع ينبغى التنبيه له . انتهى والله أعلم . »

ذلك ماقاله العلامة ابن الجزرى فى هذا المقام من كتابه المنجد، ولعله فصلُ الخطاب فى هذا الموضوع ، ولذلك آثرنا أن ننقله إليك محاولين حسن عرضه وضبطه والتعليق عليه مختصراً بقدر الإمكان . ولقد كنت أود أن تكون النسخة التى نقلتُ منها أكثر تحريراً مما رأيت ، ولكن ما الحيلة ؟ وهى أول طبعة عن نسخة مخطوطة برواق المغاربة من الأزهر الشريف ، ومن شأن البدايات أن يكون فيها نقص ، ثم تصير إلى الكمال فى النهاية إن شاء الله .

---

(١) (٢) لعل فى هذين الموضعين سقطا .

(٣) صواب هذه الفاء أن تكون عيناً أو ميماً أو باء .

ب ـ القراء

القراء جمع قارئ وهو فى اللغة اسم فاعل من قرأ . ويطلق فى الاصطلاح على إمام من الأئمة المعروفين الذين تنسب إليهم القراءات السابقة . وقد سردنا عليك أسماءهم . ونتحفك هنا بنبذة قصيرة عن كل واحد من مشهوريهم وعن بعض من اشتهر بالرواية عنه ، لتطلّع على لمحة من فضلهم ، ولتتّصل اتصالا علميًّا بهذه الفئة الكريمة التى لها هذا الأثر الرائع فى المحافظة على أداء القرآن الكريم بتلك الطرق المدوّنة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى مدى تلك القرون الطويلة .

ونحن لا نريد بهذه الكلمات استقصاء تاريخهم ولا الأدوار التى مرّت قراءاتهم . فذلك شوط واسع . أفرده بالتأليف جماعة ، منهم الذهبى وابن الجــزرى فى طبقات القرّاء[1] .

القراء السبعة رحمهم الله :

١ — ابن عامر

اسمه عبد الله اليحصُبِى ، نسبة إلى يَحصُب ، وهو فَخِذٌ من حمير ويكنى أبا نعيم ، وأبا عمران . وهو تابعى جليل ، لقى واثلة بن الأسقَع والنعمان بن بشير ، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبى شهاب المخزومى ، عن عثمان بن عفان ، عن رسول الله ﷺ وقيل إنه

(١) طبقات القراء لابن الجزرى عوّلت عليها فى تراجم القراء خصوصاً عند الاختلاف بين المراجع ، لأنه هو المعروف بالمحقق ! . وبهذه المناسبة أريد أن تقفى العجب أو الأسف معى على أن الذى عُنِىَ بطبع هذا الكتاب ونشره هو المستشرق الألمــــانى (ج . برجستراسر) كما سمعت أنه طبع كتاباً بمصر أيضاً فى القراءات لابن خالَوَيْه ، ثم نقله إلى بلاده ، ومصر كلها محرومة منه ! !

قرأ على عثمان نفسه، وقد توفى بدمشق سنة ١١٨ ثمانى عشرة ومائة ، وقد اشتهر برواية قراءته هشام وابن ذكوان ، ولكن بواسطة أصحابه .

(فأما هشام) فقد أخذ القراءة عن عِراك بن خالد المزى ، عن يحيى بن الحارث الذّمارى ، عن ابن عامر . وكان هشام قاضياً فقيهاً محدّثاً ثقةً ضابطاً ، توفى بدمشق سنة ٢٤٥ خمس وأربعين ومائتين .

(وأما ابن ذكوان) فهو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشى ، الدمشقى . أخذ القراءة عن أيوب بن تميم ، عن يحيى بن الحارث الذمارى ، عن ابن عامر يقول أبو زرعة فيه : « إنه الحافظ الدمشقى ، لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان فى زمن ابن ذكوان عندى أقرأ منه » ، توفى سنة ٢٤٢ اثنتين وأربعين ومائتين .

وفى ابن عامر وراوِيَيْه يقول صاحب الشاطبية : ـ

« وأما دِمَشقُ الشامِ دَارُ ابْنِ عامرٍ فتلكَ بِعَبْـدِ اللهِ طَابَتْ مُحَلَّلَا
هشامٌ ، وعبدُ اللهِ ، وهو انتسابُهُ لِذَكْوانَ بالإسْنادِ عنهُ تَنَقَّلاَ »

٢ — ابن كثير

هو أبو محمد ، أو أبو معبد، عبد الله بن كثير الدارى . كان إمام الناس فى القراءة بمكة ، تحفه السكينة ويحوطه الوقار . لقى من الصحابة عبد الله بن الزبير ، وأبا أيوب الأنصارى ، وأنس بن مالك .

وروى عن مجاهد عن ابن عن عباس عن أُبىٍّ بن كعب عن رسول الله ﷺ. وقرأ على عبد اللهبن السائب المخزومى. وقرأعبدالله هذا على أُبىٍّ بن كعب وعمر بن الخطاب. وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ . وتوفى سنة ١٢٠ عشرين ومائة بمكة المكرمة .

وقد اشتهر بالرواية عنه ـ ولكن بواسطة أصحابه ـ الْبَزِّىُّ وقُنْبُلٌ .

(أما البزِّيُّ) فهو أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم بن نافع بن أبى بزّة. فالبزى نسبة إلى بزّة هذا وهو جدّه الأعلى . كان إماماً ضابطاً ثقة انتهت إليه مشيخة الإقراء بمكة روى عن عكرمة بن سليمان عن شبل بن عباد و إسماعيل بن عبدالله بن قسطنطين عن ابن كثير. وكان إمام المسجد الحرام ومقرئه ومؤذنه توفى سنة ٢٥٠ خمسين ومائتين.

(وأما قُنبُل) فهو محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن محمد المخزومى المكى يكنى أبا عمر ، ويلقب بقنبل لشدته[1] . كان إماماً فى القراءة ضابطاً ثقةً يؤمه الناس من أقطار الأرض . أخذ القراءة عن أبى الحسن أحمد القواس عن وهب ، عن القسط ، عن شبل ومعروف ، وكلاهما قرأ على ابن كثير . توفى سنة ٢٩١ إحدى وتسعين ومائتين .

وفى ابن كثير وراوييه يقول صاحب الشاطبية :

« ومكةُ عبدُ اللهِ فيها مُقَامُهُ   هو ابنُ كثيرٍ كاثرُ القوْم مُعْتَلاَ
روى أحمـــدُ البزِّى له ومحمدٌ   عَلَى سَنَدٍ وَهْوَ الملقَّبُ قُنبُلًا

٣ — عاصم

هو أبو بكر عاصم بن أبى النّجود الأسدى (والنجود بفتح النون وضم الجيم مأخوذ من نجدت الثياب إذا سويت بعضها ببعض) .

كان قارئاً متقناً ، آية فى التحرير والإتقان والفصاحة وحسن الصوت بقراءة القرآن قرأ على زِرّ بن حبيش على عبد الله بن مسعود على رسول الله ﷺ . وقرأ أيضاً على أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمى ، معلم الحسن والحسين .

وقرأ عبد الرحمن هذا على الإمام علىّ ، وأخذ الإمام علىٌّ قراءته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . توفى بالكوفة أو بالسماوة سنة ١٢٧ سبع وعشرين ومائة .

روى عنه شعبة وحفص كلاهما بدون واسطة .

---

(١) قُنبُل كقُنفُذ : الغلامُ الحادٌّ الرأس الخفيف الروح . ذلك أصل معناه ، ثم سمى به محمد بن عبد الرحمن القارئُ . انظر القاموس إن شئت .

(أما شعبة) فهو المشهور بابن عيّاش بن سالم الأسدى وقيل اسمه محمد، وقيل مطرق، ويكنى أبا بكر لأن شعبة اسم مشترك بينه و بين أبى بسطاط شعبة بن الحجاج البصرى. كان إماما عالما كبيرا . توفى بالكوفة سنة ١٩٣ ثلاث وتسعين ومائة .

(وأما حفص) فهو أبو عمر حفص بن سليمان بن المغيرة البزّاز كان ربيب عاصم: تربى فى حجره ، وقرأ عليه، وتعلم منه كما يتعلم الصبى من معلمه ، فلا جرم كان أدقّ إتقانا من شعبة . توفى سنة ١٨٠ ثمانين ومائة .

وفى عاصم وراوبيه يقول صاحب الشاطبية :

« وبالكوفة القرّاء منهم ثلاثةٌ أذاعُوا فقد ضاعت شذًى و قَرَنْفُلَا
فأما أبو بكر وعاصمٌ اسمــهُ فَشُعْبَةُ رَاوِيهِ المبرِّزُ أفضَلَا
وذاكَ ابنُ عَيَّاشٍ أبو بكرٍ الرضا وحَفْصٌ وبالإتقانِ كانَ مُفَضَّلَا

٤ — أبو عمرو

هو أبو عمرو زَبَّان بن العلا عمار البصرى . كان من أعلم الناس بالقراءة مع صدق وأمانة وثقة فى الدين . روى عن مجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ . وأقرأ على جماعة منهم أبو جعفر وزيد بن القَعْقَاعِ والحسن البصرى . وقرأ الحسن على حطان وأبى العالية . وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب . توفى سنة ١٥٤ أربع وخمسين ومائة .

وممن اشتهر بالرواية عنه الدورى والسوسى ، ولكن بواسطة اليزيدى أبى محمد يحيى بن المبارك العدوى المتوفى سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين. وسمى باليزيدى نسبة إلى يزيد ابن منصور خال الخليفة المهدى ، لأنه كان يؤدب ولده .

(أما الدورى) فهو أبو عمر حفص بن عمر المقرى الضرير ، ولقب بالدورى نسبة إلى الدور ، وهو موضع بالجانب الشرقى من بغداد ، كان ثقة ضابطاً ؛ أول من جمع القراءات. روى عن اليزيدى عن أبى عمرو ، وتوفى سنة ٢٤٦ ست وأربعين ومائتين .

(وأما السوسى) فهو أبو شعيب صالح بن زياد، روى عن اليزيدى عن أبى عمرو. وكان ثقة ضابطاً . توفى سنة ٢٦١ إحدى وستين ومائتين .

وفى أبى عمرو وراوييه يقول صاحب الشاطبية :

« وَأَمَّا ٱلْإِمَامُ ٱلْمَازِنِىُّ صَرِيحُهُمْ   أَبُو عَمْرٍو الْبَصْرِى فَوَالِدُهُ الْعَلَا
أَفَاضَ عَلَى يَحْيَى الْيَزِيدِىِّ سَيْبَهُ   فَأَصْبَحَ بِالْعَذْبِ الْفُرَاتِ مُعَلَّلَا
أَبُو عَمَرَ ٱلدُّورِى وَصَالِحُهُمْ أَبُو   شُعَيْبٍ هُوَ السُّوسِىُّ عَنْهُ تَقَبَّلَا »

٥ — حمزة

هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفى مولى عكرمة بن ربيع التيمى . قرأ على أبى محمد سليمان بن مهران الأعمش ، على يحيى بن وثاب ، على زر بن حبيش ، على عثمان وعلى وابن مسعود ، على النبى ﷺ . كان ورعاً بكتاب الله ، مجوداً له عارفاً بالفرائض والعربية ، حافظاً للحديث . توفى بحلوان سنة ١٥٦ ست وخمسين ومائة .

وممن اشتهر بالرواية عنه خلف وخلاد ، لكن بواسطة أبى عيسى سُلَيم بن عيسى الحنفى الكوفى المتوفَّى سنة ١٨٨ ، ثمان وثمانين ومائة .

(أما خلف) فهو أبو محمد خلف بن هشام بن طالب بن البزار . كان زاهداً عابداً. روى عن سليم بن عيسى الحنفى عن حمزة . وتوفى سنة ٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين .

(وأما خلاد) فهو أبو عيسى خلاد بن خالد الأحول الصيرفى. روى عن سليم بن

عيسى عن حمزة. وكان أضبط أصحاب سليم وأجلهم عرفاناً وتحقيقاً. توفى بالكوفة سنة ٢٢٠ عشرين ومائتين .

وفى ذلك يقول صاحب الشاطبية :

« وَحَمْزَةُ مَا أَزْكَاهُ مِنْ مُتَوَرِّعٍ إماماً ، صَبوراً ، لِلْقُرَانِ مُرَتِّلَا
روى خَلَفٌ عنه وخَلَّادٌ الّذِى رواهُ سُلَيْمٌ مُتْقِناً وَمُحَصِّلَا »

٦ — نافع

هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم المدنى . أخذ القراءة عن أبى جعفر القارى وعن سبعين من التابعين ، وهم أخذوا عن عبد الله بن عباس وأبى هريرة ، عن أبى بن كعب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانتهت إليه رياسة الإقراء بالمدينة المنورة . توفى سنة ١٦٩ تسع وستين ومائة .

وممن اشتهر بالرواية عنه قالون وورش :

(أما قالون) فهو أبو موسى عيسى بن مينا النحوى . ولقب بقالون لجودة قراءته لأن قالون معناه الجيِّد فى أصل وضعها . قرأ على نافع واختصَّ به كثيراً ، وقال: قرأت على نافع غير مرة ، وكتبت عنه . توفى سنة ٢٢٠ عشرين ومائتين .

(وأما ورش) فهو عثمان بن سعيد المصرى ، يكنى أباسعيد ، ويلقب بورش لشدة بياضه[1] . رحل إلى المدينة فقرأ على نافع ختمات سنة ١٥٥ خمس وخمسين ومائة ، ثم رجع إلى مصر فانتهت إليه رياسة الإقراء بها ، وكان حسن الصوت جيد القراءة . توفى سنة ١٩٧ سبع وتسعين ومائة .

وفى ذلك يقول صاحب الشاطبية :

---

(١) الوَرْشُ فى أصل اللغة : يطلق على شىء يصنع من اللبن. فيصح أن يضرب به المثل فى البياض . انظر القاموس .

« فأمّا الكريمُ السِّرِّ في الطّيب[1] نافعٌ ... فذاكَ الّذي اختارَ المدينةَ منزِلا
وَقالُونُ عيسى ثمّ عثمانُ وَرْشُهُمْ ... بِصُحْبَتِهِ المَجْدَ الرّفيعَ تأثّلا

٧ ـ الكسائى

هو أبو الحسن على بن حمزة الكسائى النحوى . لقب بالكسائى لأنه كان فى الإحرام لابساً كساء ، قال أبو بكر الأنبارى : اجتمعت فى الكسائى أمور : كان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم بالغريب ، وكان أوحد الناس بالقرآن ، فكانوا يكثرون عليه ، حتى يُضطر أن يجلس على الكرسى ويتلو القرآن من أوله إلى آخره ؛ وهم يسمعون منه ويضبطون عنه . توفى سنة ١٨٩ تسع وثمانين ومائة .

وقد اشتهر بالرواية عنه أبو الحارث والدورى .

(أما أبو الحارث) فهو الليث بن خالد المروزى . كان من أجلاء أصحاب الكسائى ثقة وضبطاً . توفى سنة ٢٤٠ أربعين ومائتين .

(وأما الدورى) فهو أبو عمر حفص بن عمر الدورى الذى ألمعنا إليه فى الرواية عن أبى عمرو .

وفى الكسائى وراوييه يقول صاحب الشاطبية :

« وأمّا علِيٌّ فالكِسائيُّ نعتُهُ ... لِما كانَ فى الإحرامِ فيهِ تسرْبلا
روَى ليثُهُمْ عنهُ أبو الحارثِ الرِّضا ... وحفصٌ هو الدُّوريُّ وفى الذِّكرِ قدْ خلا »

---

(١) يشير بهذه الكلمة إلى ما روى عنه أنه كان إذا تكلم يشم من فيه ريح المسك بسبب قراءة النبى ﷺ فى فيه مناماً ؛ كما أخبر نافع بذلك .

تمام القراء العشرة :

وهاك كلمة عن الثلاثة الذين إذا أضيفوا إلى السبعة السابقين ، تكمل بهم عدّة القراء العشرة أصحاب القراءات العشر المعروفة ، والتى سبق الكلام عليها قريباً .

٨ — أبو جعفر

هو يزيد بن القعقاع القارى ، نسبة إلى موضع بالمدينة يسمى : قارا . وقد سبق أنه أخذ عن عبد الله بن عباس وأبى هريرة ، عن أبىٍّ بن كعب ، عن رسول الله ﷺ . توفى أبو جعفر سنة ١٣٠ ثلاثين ومائة ، وكان تابعيًا جليل القدر ، رفيع المنزلة .

وقد اشتهر بالرواية عنه أبو موسى عيسى بن وردان الحذّاء ، وأبو الربيع سليمان ابن مسلم بن جَمَّاز .

(أما ابن وردان) فهو أبو موسى عيسى بن وردان ، المدنى ، الحذاء ، من أصحاب نافع فى القراءة على أبى جعفر . كان مقرئاً ضابطاً ثقة . وتوفى سنة ١٦٠ ستين ومائة .

(وأما ابن جَمَّاز) فهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جَمَّاز . قرأ على أبى جعفر وشيبة بن نصاحة ونافع . وتوفى بعد سنة ١٧٠ سبعين ومائة بالمدينة المنورة .

٩ — يعقوب

هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمى . قرأ على أبى المنذر سلام بن سليمان الطويل . وقرأ سلّام على عاصم وعلى أبى عمرو . توفى يعقوب سنة ٢٠٥ خمس ومائتين.

وممن اشتهر بالرواية عنه رَوْحُ بن عبد المؤمن ، ومحمد بن المتوكل اللؤلؤى الملقب بِرُوَيْس وغيرها .

(أما روْحُ) فهو أبو الحسن روْحُ بن عبد المؤمن بن عبدة بن مسلم الهذلى النحوى، قرأ على إمام البصرة أبى محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، وكان إماماً جليلاً ثقة روى عنه البخارى . وتوفى سنة ٢٣٤ أربع أو خمس وثلاثين ومائتين .

(وأما روَيس) فهو أبو عبدالله محمد بن المتوكل اللؤلؤى البصرى، المعروف برويس. كان من أحذق أصحاب يعقوب . وتوفى بالبصرة سنة ٢٣٨ ثمان وثلاثين ومائتين .

١٠ — خلف

هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب، قرأ على سليم عن حمزة، وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى ، وعلى أبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى صاحب المفضل الضبى ، وعلى أبان العطار، وهم عن عاصم . وتوفى خلف سنة ٢٢٩ تسع وعشرين ومائتين كما سبق فى ترجمة حمزة .

وممن اشتهر بالرواية عنه أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عثمان بن عبدالله، المروزى، ثم البغدادى ، الورّاق ، المتوفى سنة ٢٨٦ ست وثمانين ومائتين .

وممن اشتهر بالرواية عنه أيضاً أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم الحدّاد البغدادى، المتوفى سنة ٢٩٢ اثنتين أو ثلاث وتسعين ومائتين .

تمام القراء الأربعة عشر :

وهاك كلمة مختصرة عن الأربعة الذين إذا أضيفوا إلى العشرة السابقين كملت عدة القراء الأربعة عشر الذين تنسب إليهم القراءات المعروفة بالقراءات الأربع عشرة .

١١ — الحسن البصرى

هو السيد الإمام الحسن بن أبى الحسن يسار أبو سعيد البصرى الغنىُّ بشهرته عن تعريفه . المتوفى سنة ١١٠ عشر ومائة .

١٢ — ابن محيصن

هو محمد بن عبد الرحمن السهمى المكى، مقرئُ أهل مكة مع ابن كثير. المتوفى سنة ١٢٣ ثلاث وعشرين ومائة .

١٣ — يحيي اليزيدى

هو يحيي بن المبارك بن المغيرة الإمام أبو محمد العدوى البصرى المعروف باليزيدى، المتوفى سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين .

١٤ — الشنبوذى

هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف بن العباس بن ميمون أبو الفرج الشنبوذى الشطوى البغدادى . المتوفى سنة ٣٨٨ ثمان وثمانين وثلاثمائة .

هؤلاء الأئمة وأضرابهم هم الذين خدموا الأمة والملة، وحافظوا على الكتاب والسنة، وفيهم يقول السيوطى بإتقانه : « ثم لما اتسع الخرق ، وكاد الباطل يلتبس بالحق ، قام جهابذة الأمة وبالغوا فى الاجتهاد ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعزوا الوجوه والروايات ، وميزوا الصحيح والمشهور والشاذ، بأصول أصّلوها، وأركان فصلوها. فأول من صنف فى القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام، ثم أحمد بن جبير الكوفى، ثم إسماعيل

ابن إسحاق المالكى صاحب قالون ، ثم أبو جعفر بن جرير الطبرى ، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الدجونى ، ثم أبو بكر مجاهد ، ثم قام الناس فى عصره وبعده بالتأليف فى أنواعها، جامعاً ومفرداً، موجزاً ومسهباً. وأئمة القراءات لاتحصى. وقدصنف طبقاتهم حافظ الإسلام أبو عبد الله الذهبى ، ثم حافظ القرآن أبو الخير بن الجزرى » اهـ .

أسأل الله تعالى أن يغمر الجميع بواسع رحماته، وأن يجزيهم أفضل الجزاء على خدمتهم لكتابه . آمين .

حكم ماراء العشر :

وقع الخلاف أيضاً فى القراءات الأربع التى تزيد على العشر وتكمل الأربع عشرة : فقيل بتواتر بعضها . وقيل بصحتها . وقيل بشذوذها ، إطلاقاً فى الكل . وقيل : إن المسألة ليست مسألة أشخاص ولاأعداد ، بل هى قواعد ومبادئ . فأيما قراءة تحققت فيها الأركان الثلاثة لذلك الضابط المشهور فهى مقبولة ، وإلا فهى مردودة . لا فرق بين قراءات القراء السبع والقراء العشر والقراء الأربعة عشر وغيرهم، فالميزان واحد فى الكل والحق أحقُّ أن يتبع .

قال صاحب الشافى : « التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثرولا سنة ، وإنما هو من جمع بعض المتأخيرين فانتشروا. ووهم من قال : إنه لا تجوز الزيادة على ذلك . وذلك لم يقل به أحد » اهـ بشىء من التصرف .

وقال الكواشى : « كل ماصح سنده، واستقام وجهه فى العربية ، ووافق خطَّ المصحف الإمام ، فهو من السبعة المنصوصة . (يريد السبعة الأحرف فى الحديث النبوى المعروف) ثم قال : وقد اشتدَّ إنكار أئمة هذا الشأن على منْ ظنَّ انحصار القراءات المشهورة فى مثل مافى التيسير والشاطبية » اهـ .

وهذا رأى قريب من الصواب ، لولا أنه لم يقصر نظره على ما هو الواقع القائم بيننا اليوم من القراءات ، ولم يطبق الحكم ولم يفصله فيه ، بل ساق الكلام عامًّا كما ترى .

والتحقيق هو ماذهب إليه أبو الخير بن الجزرى ، من أن القراءات العشر التى بين أيدينا اليوم متواترة دون غيرها . قال فى منجد المقرئين ما يفيد أن الذى جمع فى زمننا هذه الأركان الثلاثة (أى فى ذلك الضابط المشهور مع ملاحظة إبدال شرط صحة الإسناد بتواتره) هو قراءة الأئمة العشرة التى أجمع الناس على تلقيها بالقبول . أخذها الخلف عن السلف إلى أن وصلت إلى زماننا . فقراءة أحدهم كقراءة الباقين فى كونها مقطوعًا بها. أما قول من قال : إن القراءات المتواترة لا حدّ لها فإن أراد القراءات المعروفة فى زماننا فغير صحيح؛ لأنه لا يوجد اليوم قراءة متواترة وراء القراءات العشر . وإن أراد ما يشمل قراءات الصدر الأول فمحتمل .

ثم إن غير المتواتر من القراء على قسمين :

(القسم الأول ماصحّ سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه ووافق العربية والرسم . وهذا ضربان : ضرب استفاض نقله وتلقته الأمة بالقبول ، كما انفرد به الرواة وبعض الكتب المعتبرة ، أو كمراتب القراء فى المدّ ونحو ذلك ، فهذا صحيح مقطوع به وبأنه منزل من عند الله على النبى ﷺ من الأحرف السبعة . وهــذا الضرب يلحق بالقراءة المتواترة وإن لم يبلغ مبلغها ، لأنه من قبيل أخبار الآحاد التى احتفت بها قرائن تفيد العلم . والضرب الثانى لم تتلقه الأمة بالقبول ولم يستفض . وهذا فيه خلاف العلماء: منهم من يجوّز القراءات والصلاة به ، ومنهم من يمنع القراءة بما وراء العشر منع تحريم لا كراهة . قال ابن السبكى فى جمع الجوامع : « ولا تجوز القراءة بالشاذّ : والصحيح أن ما وراء العشر فهو شاذ ، وفاقا للبغوى والشيخ الإمام » . ويريد بالشيخ الإمام والده مجتهد العصر أبا الحسن على بن عبد الكافى السبكى .

(القسم الثانى) من القراءة الصحيحة ماوافق العربية وصح سنده وخالف الرسم ، كالذى يرد عن طريق صحيح من زيادة ونقص ، وإبدال كلمة بأخرى ، مما جاء عن أبى الدرداء وعمر وابن مسعود وغيرهم ، فهذه القراءة تسمى اليوم شاذة لكونها شذت عن رسم المصحف المجمع عليه ، وإن كان إسنادها صحيحاً . فلا تجوز القراءة بها لا فى الصلاة ولا فى غيرها . قال الإمام أبو عمر بن عبد البر فى كتاب التمهيد : «وقال مالك إن من قرأ فى صلاته بقراءة ابن مسعود أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف لم يُصَلَّ وراءه . وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك إلا قوماً شذوا لا يعرَّج عليهم » .

وحكى ابن عبد البر الإجماع أيضاً على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ .

وقال ابن الجزرى : قال أصحابنا من الشافعية وغيره : لو قرأ بالشاذ فى صلاته بطلت صلاته إن كان عالماً . وإن كان جاهلا لم تبطل ولكن لا تحسب له تلك القراءة .

واتفق علماء بغداد على تأديب الإمام ابن شنبوذ واستتابته على قراءته وإقرائه بالشاذ . ذلك كله فيما صح فيه النقل والعربية ولكنه خالف الرسم .

أما ما لم يصح فيه نقل فهو أقل من أن يسمى شاذا ، ولو وافق العربية والرسم . بل هو قراءة مكذوبة يكفر متعمدها .

حكى المحقق ابن الجزرى أن استفتاء رُفع من العجم إلى دمشق فى حدود الأربعين والسبعمائة صورته : هل تجوز القراءة بالشاذ ؟ وهل يجوز أن يقرأ القارئ عشراً كل آية بقراءة ورواية ؟ . فأجاب عليه الإمامان : أبو عمرو بن الصلاح وأبو عمرو ابن الحاجب :

أما ابن الصلاح فقال : يشترط أن يكون المقروء به تواتر نقله عن رسول الله ﷺ قرآنا ، واستفاض نقله كذلك . وتلقته الأمة بالقبول ، كهذه القراءات السبع ، لأن المعتبر

فى ذلك اليقين والقطع ، على ماتقرر وتمهّد فى الأصول . فما لم يوجد فيه ذلك كما عدا السبع أو كما عدا العشر فممنوع من القراءة بممنع تحريم لا ممنع كراهة فى الصلاة وخارج الصلاة ، وممنوعٌ مَنْ عرف المصادر والمعانى ومن لم يعرف ذلك ، وواجب على من قدر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يقوم بواجب ذلك . وإنما نقلها من نقلها من العلماء لفوائد فيها تتعلق بعلم العربية لا للقراءة بها . هذا طريق مَنِ استقام سبيله . — ثم قال — والقراءة الشاذ ما نقل قرآناً من غير تواتر ولا استفاضة متلقّاة بالقبول من الأمة كما اشتمل عليه المحتسب لابن جنى وغيره . وأما القراءة بالمعنى من غير أن ينقل قرآناً فليس ذلك من القراءات الشاذة أصلا . والمجترئ على ذلك مجترئ على عظيم ، وضالٌّ ضلالاً بعيداً ، فيُعزَّر ويمنع بالحبس ونحوه ، ولا يُخلَّى ذو ضلالة ، ولا يحلُّ ذلك المتمكن من ذلك إمهاله . ويجب منع القارئ بالشاذ وتأثيمه بعد تعريفه ، وإن لم يمتنع فعليه التعزير بشرطه .

وإذا شرع القارئ بقراءة ينبغى ألا يزال يقرأ بها ما بقى للكلام تعلُّقٌ بما ابتدأ به . وما خالف هذا فمنه جائز وممتنع . وعذر المرض مانع من بيانه بحقه . والعلم عند الله تعالى . اه .

وأما ابن الحاجب فقال : لا يجوز أن يقرأ بالقراءة الشاذة فى صلاة ولا غيرها ، عالماً كان بالعربية أو جاهلا . وإذا قرأ بها قارئ ، فإن كان جاهلا بالتحريم عُرِّفَ به وأمر بتركها ، وإن كان عالماً أُدِّب بشرطه ، وإن أصرَّ على ذلك أُدِّب على إصراره وحبس إلى أن يرتدع عن ذلك . وأما تبديل آتنا بأعطنا ، وسوَّلتْ بزيَّنت ، ونحوه ، فليس هـــذا من الشواذّ ، وهو أشدُّ تحريماً ، والتأديب عليه أبلغ ، والمنـــع منه أوجب اه .

وذلكة البحث .

يخلص لنا من هذا البحث بعد تحقيق وجوه الخلاف فيه أمور مهمّة ؛ يجدر بنا أن نوليها الالتفات والانتباه الخاص :

أولها ـ أن القراءة ، لا تكون قرآناً إلا إن كانت متواترة ، لأن التواتر شرط في القرآنية .

ثانيها ـ أن القراءات العشر الذائعة فى هذه العصور متواترة على التحقيق الآنف . وإذَن هى قرآن . وكل واحدة منها يطلق عليها أنها قرآن .

ثالثها ـ أن ماوراء القراءات العشر مما صحّت روايته آحاداً ولم يستفض ولم تتلقّه الأمة بالقبول ، شاذٌ وليس بقرآن ، وإن وافق رسم المصحف وقواعد العربية .

رابعها ـ أن ركن صحة الإسناد المذكور فى ضابط القرآن المشهور ، لا يراد بالصحة فيه مطلق صحّة ، بل المراد صحّة ممتازة تصل بالقراءة إلى حدّ الاستفاضة والشهرة وتلقّي الأمة لها بالقبول ، حتى يكون هـذا الركن بقرينة الركنين الآخرين فى قوة التواتر الذى لابد منه فى تحقُّق القرآنية . كما فصّلنا ذلك من قبل .

خامسها ـ أن القراءة قد تكون متواترة عند قوم ، غير متواترة عند آخرين . والمأمور به ألّا يقرأ المسلم إلا بما تواتر عنده ، ولا يكتفى بما رُوِيَ له آحاداً وإن كان متواتراً عند الراوى له ، كما ردّ الشافعى رواية مالك مع صحّتها ، لمخالفتها ماتواتر عنده . ولاتنس ماقاله ابن الجزرى فى ذلك آنفاً .

سادسها ـ أن هذا الذى رُوى من طريق الآحاد المحضة ولم يصل إلى حد الاستفادة والشهرة ، هو أصل الداء ، ومثار كثير من الشبهات والخلاف . أما الشبهات فقد مرّ عليك منها نماذج ، وأما الخلافات فقد شاهدت منها فى هذا البحث ماشاهدت ، وستشاهد ماتشاهد ؛ وإنى أسترعى نظرك إلى أمرين :

أولهما أن طريق الآحاد المحضة هـذا هو الذى فتح باب المطاعن لبعض الأئمة فى بعض الروايات الواردة فى القراءات السبع ، كابن جـرير الطبرى الذى ذكر فى تفسيره شيئاً من ذلك ، وألف كتابـاً كبيراً فى القراءات وعللها ، وضمّنه بعض تلك المطاعن .

وثانيهما ـ أن وجود هذه الروايات على ندرتها جعل البعض يشتطّ ويسرف ، فسحب حكمها على الجميع وقال : إن القراءات السبع وغيرها كلها قراءة آحاد . وهذا قول فى نهاية الإسفاف والخطر : أما إسفافه فلأنه لا يليق مطلقاً أن يسحب حكم الأقل الضئيل على الأكثر الجليل ، وأما خطره فلأنه يؤدى إلى نقض تواتر القرآن ، أو إلى عدم وجود القرآن الآن مادام القرآن مشروطاً فيه التواتر ولا تواتر على رأيهم . ولا يعقل أن يكون القرآن المفروض فيه التواتر موجوداً على حين أن وجوه قراءاته كلها غير متواترة ، ضرورةَ أنه لا يتحقق قرآن بدون أوجه للقراءة .

ذلك ما وصلنا إليه بعد إعادة النظر فى هـذا الموضوع. والحمد لله الذى هدانا لهـذا « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ » .

ج — نقض الشبهات التى أثيرت فى هذا المقام

هناك شبهات أثيرت حول القراءات فى اختلافها وتعددها ثم فى صحتها وتواتر المتواتر منها ، وفى القرآن الكريم وتواتره وإجماع الأمة عليه . من تلك الشبهات ما تجده مذكوراً فى مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف . ومنها ما تجده مذكوراً فى مبحث جمع القرآن . فارجع إليها ـ إن شئت ـ ولا داعى إلى التطويل بإعادتها .

بيد أن الرواية التى نسبوها لابن مسعود فى إنكاره قرآنية المعوِّذتين تكاد تكون أقوى هـذه الشبهات ، من جهة أنها وردت بأسانيد صحّحها بعض

أعلام الحديث كابن حجر . وقد سبق عرضها من توجيهها وتمحيصها حتى على هذا الاحتمال .

ونزيدك هنا فى توهين هذه الشبهة أموراً :

(أولها) أن عاصماً وهو أحد القراء السبعة، قرأ القرآن كله وفيه المعوّذتان بأسانيد صحيحة ، بعضها يرجع إلى ابن مسعود نفسه . ذلك أن عاصماً قرأ على أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب ، وقرأ على أبى مريم زِر بن حبيش الأسدى ، وعلى سعيد بن عياش الشيبانى .

وقرأ هؤلاء على ابن مسعود نفسه ، وقرأ ابن مسعود على رسول الله ﷺ .

(ثانيها) أن حمزة وهو من القراء السبعة أيضاً ، قرأ القرآن كله بأسانيده الصحيحة وفيه المعوّذتان عن ابن مسعود نفسه . ذلك أن حمزة قرأ على الأعمش أبى محمد سليمان ابن مهران وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، وقرأ يحيى على علقمة الأسود ، وعبيد ابن نضلة الخزاعى ، وزر بن حبيش ، وأبى عبد الرحمن السلمى . وهم قرءوا على ابن مسعود، على النبى ﷺ .

ولحمزة سند آخر بهذه القراءة إلى ابن مسعود أيضاً . ذلك أنه قرأ على أبى إسحاق السبيعى ، وعلى محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ؛ وعلى الإمام جعفر الصادق . وهؤلاء قرءوا على علقمة بن قيس ، وعلى زرّ بن حبيش ، وعلى زيد بن وهب ، وعلى مسروق. وهم قرءوا على المنهال وغيره وهم على ابن مسعود وأمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه وهما على النبى ﷺ .

(ثالثها) أن الكسائى قرأ القرآن وفيه المعوذتان بسنده إلى ابن مسعود أيضا. ذلك أنه قرأ على حمزة الذى انتهى بين يديك سنده إلى ابن مسعود من طريقين .

(رابعها) أن خلفاً يقرأ المعوّذتين في ضمن القرآن الكريم بسنده إلى ابن مسعود أيضاً . وذلك أنه قرأ على سليم وهو على حمزة .

وهذه القراءات كلها التى رويت بأصح الأسانيد وبإجماع الأمة فيها المعوذتان والفاتحة على اعتبار أن هذه السور الثلاث أجزاء من القرآن وداخلة فيه .

فالقول ببقاء ابن مسعود على إنكار قرآنية هذه السورة محض افتراء عليه . وكل ما فى الأمر أنه لم يكتب الفاتحة فى مصحفه اتكالا على شهرتها وعدم الخوف عليها من النسيان حتى تكتب . وكذلك القول فى المعوذتين . وقيل إنه لم يكن يعلم أول الأمر أن المعوذتين من القرآن ، بل كان يفهم أنهما رُقْيَةٌ يعوِّذ بهما الرسولُ الحسنَ والحسينَ .

ومن هنا جاءت روايات إنكاره أنهما من القرآن . ثم علم بعد ذلك قرآنيتهما . ومن هنا جاءت الروايات عنه بقرآنيتهما . كما سُقْناه بين يديك عن أربعة من القراء السبعة بأسانيد هى من أصح الأسانيد المؤيدة بما تواتر واستفاض ، وبما أجمعت الأمة عليه من قرآنية الفاتحة والمعوذتين ، منذ عهد الخلافة الراشدة إلى يوم الناس هذا .

أما بعد فيصح أن نعتبر ما كتب فى هذا الموضوع هنا كلاماً عن الشبهة الأولى التى أثيرت فيه .

الشبهة الثانية :

يقولون : إن التواتر فى جميع القرآن غير مسلم ، لأن الدواعى التى ذكرتموها فى دليل تواتره ، لا تتوافر فى جميع أجزاء القرآن . وآية ذلك أن البسملة على رأى من يجعلها من القرآن لا يجرى فيها التحدى ، ولا يتحقق فيها أنها أصلٌ لأحكام ، حتى يكون ذلك من الدواعى المتوافرة على نقلها وتواترها .

ونجيب (أولا) بأن التحدى يجرى فيها باعتبار انضمامها إلى غيرها من آيتين أخريين، ليتألف من الجميع ثلاث آيات يقوم بهنّ الإعجاز. وذلك كافٍ فى أن يكون من دواعى الاعتناء بها ونقلها تواتراً .

(ثانياً)أنه يتعلق بنظمها تلك الأحكام المعروفة من أن لقارئها أجراً عظيماً إن كان طاهراً، ووعيداً شديدا إن كان جنبا وقرأها بقصد القرآنية أو مسها، ونحو ذلك. وهذا من الدواعى المتوافرة على نقلها وتواترها .

الشبهة الثالثة :

يقولون : لو كان القرآن متواتراً لوقع التكفير فى البسملة ، على معنى أن من يقول بقرآنيتها يحكم بكفر منكرها ، ومن لا يقول بقرآنيتها يحكم بكفر مثبتها . وعلى ذلك يكفر المسلمون بعضهم بعضاً .

والجواب : أن قرآنية البسملة فى أوائل السور اجتهادية مختلف فيها . وكل ما كان من هذا القبيل لا يكفر منكره ولا مثبته ، شأن كل أمر اجتهادى . إنما يكفر من أنكر متواتراً معلوما من الدين بالضرورة . وقرآنية البسملة فى أوائل السور ليست متواترة معلومة من الدين بالضرورة .

أما منكر البسملة التى فى قصة كتاب سليمان من سورة النمل . فهو كافر قطعا، لأن قرآنيتها متواترة معلومة من الدين بالضرورة ، ولا خلاف بين المسلمين فى قرآنيتها حتى يكفر بعضهم بعضا كما يزعم أولئك المعترضون .

الشبهة الرابعة :

يقولون : إن استدلالكم على تواتر القرآن بتوافر الدواعى على نقله ، منقوض

بالسّنة النبوية، فإنها غير متواتر، مع ذلك تتوافر الدواعى على نقلها ، فإنها أصل الأحكام كما أن القرآن أصل الأحكام .

ونجيب (أولّا) بأن توافر الدواعى على نقل القرآن متواترا، لم يجىء من ناحية أصالة الأحكام فحسب . بل جاء منها ومن نواحى الإعجاز والتحدى والتعبد بتلاوته والتبرك به فى كل عصر وقراءته فى الصلاة ونحو ذلك .

والسنة النبوية لا يجتمع فيها كل هذا . بل يوجد فيها بعضه فقط وذلك لا يكفى فى توافر الدواعى على نقلها متواترة .

(ثانيًا) أن المراد بأصالة الأحكام الفرد الكامل الذى لا يوجــد إلا فى القرآن . ذلك لأن أصالة الأحكام فيه ترجع إلى اللفظ والمعنى جميعاً . أما المعنى فواضح . وأما اللفظ فمن ناحية الحكم بإعجازه ، وبثواب من قرأه . وبالوعود الكريمة والعطايا العظيمة لمن حفظه ، وبالوعيد الشديد لمن نسيه بعد حفظه ولمن مسه أو قرأه جنباً ، إلى غير ذلك والسنة النبوية ليس للفظها شىء من هذه الأحكام. ولهذا تجوز روايتها بالمعنى. أما معناها فإن كان مما تتوافر الدواعى على نقله وجب تواتره وإلا فلا . ولهذا يقطع بكذب نقل الروافض ما نسبوه إلى رسول الله ﷺ من أنه نص على أن الإمامة العظمى من بعده ، محصورة فى علىّ وولده . رضى الله عنهم . بيان ذلك أنه لو صحّ ما زعموه لنقل متواتراً، فإنه مما تتوافر الدواعى على نقله، لتعلقه بأمر يتصل بمستقبل الحكم الأعلى والولاية العظمى فى الإسلام لجميع بلاد الإسلام .

الشبهة الخامسة :

يقولون : إن تواتر القرآن منقوض بأن ابن مسعود وهو من أجلاء الصحابة لم يوافق على مصحف عثمان بدليل الروايات الآتية وهى :

(١) أن شقيق بن سلمة يقول : « خطبنا عبد الله بن مسعود على المنبر فقال: «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . غلوا مصاحفكم . « أى أخفوها حتى لا تحرق » وكيف تأمرونني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت ، وقد قرأت من فى رسول الله ﷺ مثله ؟ » رواه النسائى وأبو عوانة وابن أبى داود .

(٢) أن خير بن مالك يقول : « لما أمر بالمصاحف أن تغير ساء ذلك عبد الله بن مسعود فقال : من استطاع أن يغلّ مصحفه « أى يخفيه حتى لا يحرق » فليفعل . وقال فى آخره : أفأترك ما أخذت من فى رسول الله ﷺ ؟

(٣) أن الحاكم يروى من طريق أبى ميسرة قال : « رحتُ فإذا أنا بالأشعرى وحذيفة وابن مسعود . فقال ابن مسعود : « والله لا أدفعه يعنى مصحفه . أقرأنى رسول الله ﷺ » فذكره .

ونجيب (أولًا) بأن هذه الروايات لا تدل أبدا ، على عدم تواتر القراءات ولا على عدم تواتر ما جاء فى مصحف عثمان . غاية ما تدل عليه أن ابن مسعود لم يوافق أول الأمر على إحراق مصحفه . وهذا لا ينقض تواتر ما جاء فى مصحف عثمان . لأنه ليس من شرط التواتر على ما فى مصحف عثمان أن يحرق ابن مسعود مصحفه ، ولا أن يحرق أحد مصحفه . بل المحقق للتواتر أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب فى كل طبقة . وهذا موجود فى مصحف عثمان لأن ما فيه رواه ووافق عليه جموع عظيمة من الصحابة محال أن تكذب وحسبك عثمان ودستوره فى جمع القرآن . فارجع إليه إن شئت.

(ثانياً) أنه على فرض مخالفة ابن مسعود لمصحف عثمان ، فإن هذه المخالفة لا تذهب بتواتر القرآن . لأن أركان التواتر متحققة فى المصحف العثمانى على رغم هذه المخالفة المفروضة ولم يقل أحد فى الدنيا : إن من شرط التواتر ألا يخالف فيه مخالف حتى تكون مخالفة ابن مسعود لمصحف عثمان ناقضة لتواتر القرآن .

(ثالثاً) أن هذه الروايات التى ساقوها طعنا فى تواتر القرآن ، لا تدل على أن ابن مسعود يخالف فى القراءة بمصحف عثمان . بل هو يقرأ به كما يقرأ بروايته التى انفرد بها وسمعها وحده من فم النبى ﷺ . ألا ترى إلى قوله : «وقد قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله » فإن كلمة « مثله » فيها اعتراف منه بأن زيد بن ثابت قرأ مثله من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن ما انفرد ابن مسعود به تعتبر روايته آحادية. وأنت خبير بأن رواية الآحاد لا تكفى فى ثبوت القرآنية . لذلك لم يوافق الصحابة على ما انفرد به ابن مسعود ، بخلاف مصحف عثمان فقد وافقه عدد التواتر ، وظفر بإجماع الأمة ولم يكتب فيه إلا ما استقر فى العرضة الأخيرة من غير نسخ لتلاوته ، على ما سبق بيانه هنالك فى مبحث جمع القرآن .

(رابعاً) أن عدم دفع ابن مسعود مصحفه ليحرق كان توقفاً منه فى أول الأمر . ثم عاد بعد ذلك وحرقه حين بلغه أن رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ كرهوا ذلك فى مقالته ، كما جاء فى حديث شقيق من رواية ابن أبى داود عن طريق الزهرى . وبهذا اتحدت الصفوف ، واتفقت الكلمة ، وتم للمصاحف العثمانية الظفر من كل وجه بإجماع الأمة حتى ابن مسعود . والحمد لله على هذا الكرم والجود . حمداً يوافى نعمه ، ويكافىء مزيده ، ويستنزل رضاه ، آمين .

فهرس

صفحة	الموضوع
٢	خطبة الكتاب
١٠	مقدمة الكتاب
١٢ ـ ٢٨	المبحث الأول فى معنى علوم القرآن
١٢	العلم عند الحكماء والمتكلمين
١٢	العلم فى لسان الشرع العام
١٣	العلم عند الماديين وعلماء التدوين
١٤	القرآن فى اللغة
١٥	القرآن فى الاصطلاح
١٧	القرآن عند المتكلمين
١٩	القرآن عند الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية
٢١	هل القرآن علم شخص ؟
٢١	هل تصاغ للأعلام تعاريف ؟
٢٢	إطلاق القرآن على الكل وعلى أبعاضه
٢٣	معنى علوم القرآن بالمعنى الإضافى
٢٤	القرآن كتاب هداية وإعجاز
٢٥	القرآن يحض على الانتفاع بالكون
٢٥	إعجاز علمى للقرآن
٢٧	علوم القرآن بالمعنى المدون ، وموضوعه ، وفائدته .
٢٨ـ٤٠	المبحث الثانى فى تاريخ علوم القرآن
٢٨	عهد ماقبل التدوين
٣٠	عهد التمهيد لعلوم القرآن
٣١	عهد التدوين لعلوم القرآن بالمعنى الإضافى

صفحة	الموضوع
٣٤	أول عهد لظهور هذا الاصطلاح
٣٦	علوم القرآن فى القرن السادس والسابع والثامن والتاسع
٣٨	علوم القرآن فى العصر الأخير .
٣٩	خلاصة
٣٩	كلمة لا بد عنها
٤٠	المبحث الثالث فى نزول القرآن
٤٠	معنى نزول القرآن
٤٣	تنزلات القرآن
٤٣	التنزل الأول إلى اللوح المحفوظ
٤٤	التنزل الثانى إلى بيت العزة
٤٧	التنزل الثالث على النبى ﷺ
٤٧	كيفية أخذ جبريل القرآن ، وعمن أخذ ؟
٤٨	ماالذى نزل به جبريل ؟
٥٠	ما نزل على النبى ﷺ مما سوى القرآن
٥١	مدة النزول على النبى ﷺ
٥٢	دليل تنجيم هذا النزول
٥٣-٦٢	الحكم والأسرار فى تنجيم القرآن
٥٣	الحكمة الأولى بوجوهها الخمسة
٥٥	الحكمة الثانية بوجوهها الخمسة أيضاً
٥٨	الحكمة الثالثة بوجوهها الأربعة
٦٠	الحكمة الرابعة الإرشاد إلى مصدر القرآن
٦٣-٩١	المعركة الطاحنة بين معتقدى الوحى ومنكريه (وهو بحث جديد مفيد)

صفحة | الموضوع

صفحة	الموضوع
٦٣	حقيقة الوحى وأنواعه وكيفياته
٦٥	الوحى من ناحية العلم
٦٦	الدليل الأول التنويم المغناطيسى
٦٩	الدليل الثانى بعض عجائب المخترعات
٦٩	الدليل الثالث الحاكى « الفونغراف »
٧٠	الدليل الرابع عجائب بعض الحيوانات الدنيا
٧١	الدليل الخامس العبقرية
٧٢	الدليل السادس المظاهر الروحانية فى بعض الناس
٧٣	الوحى من ناحية العقل
٧٣	المعجزة
٧٦	دفع الشبهات عن الوحى
٧٦	الشبهة الأولى وجوابها
٧٦	الشبهة الثانية وجوابها
٧٧	الشبهة الثالثة والرابعة والخامسة وجوابها
٧٨	الشبهة السادسة وجوابها
٧٩	الشبهة السابعة وجوابها
٨١	الشبهة الثامنة وجوابها
٨٣	الشبهة التاسعة وجوابها
٨٤	الشبهة العاشرة وجوابها
٨٧	ذيل لهذه الشبهة والجواب عليه
٩١	خاتمة المبحث
٩٢ ـ ١٠٥	المبحث الرابع فى أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن
٩٢	فوائد الإلمام بأول ما نزل وآخره

الصفحة	الموضوع
٩٣	القول الأول فى أول ما على نزل الإطلاق
٩٤	القول الثانى فى أول ما نزل على الإطلاق
٩٥	القول الثالث فى أول ما نزل على الإطلاق
٩٦	القول الرابع فى أول ما نزل على الإطلاق
٩٦	آخر ما نزل على الإطلاق
٩٧	القول الأول والثانى والثالث فى آخر ما نزل على الإطلاق
٩٨	القول الرابع والخامس فى آخر ما نزل على الإطلاق
٩٩	القول السادس والسابع والثامن والتاسع
١٠٠	القول العاشر
١٠١	مثلان من أوائل وأواخر مخصوصة
١٠١	ما نزل فى الخمر
١٠١	ما نزل فى أمر الجهاد والدفاع
١٠٢	شبهة فى هذا المقام
١٠٣	جواب هذه الشبهة
١٠٤	ملحوظة وتحقيق
١٠٦ ـ ١٣٦	المبحث الخامس فى أسباب النزول
١٠٦	معنى سبب النزول
١٠٩	فوائد معرفة أسباب النزول
١٠٩	الفائدة الأولى والثانية
١١٢	الفائدة الثالثة والرابعة
١١٣	الفائدة الخامسة والسادسة والسابعة
١١٤	طريق معرفة سبب النزول

الصفحة	الموضوع
١١٤	التعبير عن سبب النزول
١١٦	تعدد الأسباب والنازل واحد
١٢١	شبهة فى الموضوع وجوابها
١٢١	تعدد النازل والسبب واحد
١٢٣	العموم والخصوص بين لفظ الشارع وسببه
١٢٥	عموم اللفظ وخصوص سببه
١٢٧	أدلة الجمهور
١٣٠	شبهات المخالفين وتفنيدها
١٣٥	شبيه بالسبب الخاص من اللفظ العام
١٣٧ ـ ١٩١	المبحث السادس فى نزول القرآن على سبعة أحرف
١٣٩	أدلة نزول القرآن على سبعه أحرف
١٤٥	شواهد بارزة فى هذه الأحاديث الواردة
١٤٦	فوائد أخرى لاختلاف القراءة وتعدد الحروف
١٥٣	معنى نزول القرآن على سبعة أحرف
١٥٥	الوجوه السبعة فى المذاهب المختار
١٥٧	لماذا اخترنا هذا المذهب ؟
١٥٨	الذين قالوا بهذا المذهب
١٦١	النسبة بين هذه المذاهب ومذهب الرازى
١٦٤	دفع الاعتراضات الوارة على المذهب المختار
١٦٨	بقاء الأحرف السبعة فى المصاحف
١٧٢	الأقوال الأخرى ودفعها
١٧٢	القول الأول

صفحة	الموضوع
١٧٣	القول الثانى إلى القول السابع
١٧٤	القول الثامن والتاسع
١٧٥	العناية بدفع هذا القول لقوة شبهته
١٨٠	القول العاشر ودفعه
١٨٢	القول الحادى عشر إلى الأربعين
١٨٣	ردود إجمالية لهذه الأقوال الأخيرة
١٨٤	علاج الشبهات الواردة على أصل الموضوع
١٨٥	الشبهة الأولى وجوابها
١٨٧	الشبهة الثانية وجوابها
١٨٩	الشبهة الثالثة وجوابها
١٩٠	الشبهة الرابعة وجوابها
١٩٢ ـ ٢٣٨	المبحث السابع فى المكى والمدنى من القرآن الكريم
١٩٣	الاصطلاحات فى معنى المكى والمدنى
١٩٥	فائدة العلم بالمكى والمدنى
١٩٦	الطريق الموصل إلى معرفة المكى والمدنى
١٩٦	الضوابط التى يعرف بها المكى والمدنى
١٩٨	السور المكية والمدنية والمختلف فيها
١٩٩	أنواع السور المكية والمدنية
٢٠٠	وجوه تتعلق بالمكى والمدنى
٢٠٢	فروق أخرى بين المكى والمدنى
٢٠٥	نقض الشبهات التى أثيرت حول هذا الموضوع
٢٠٦	الشبهة الأولى وفى طيها شبهات أربع
٢١٣	ظاهرة مسكتة

الصفحة	الموضوع
٢١٦	الشبهة الثانية وجوابها
٢١٨	الشبهة الثالثة وجوابها
٢٢٠	الشبهة الرابعة وجوابها
٢٢٥	الشبهة الخامسة وجوابها
٢٢٥	رأى فى فواتح السور المعترض بها
٢٢٨	الرأى الثانى فى تلك الفواتح وتشتمل على وجوه مهمة
٢٣٧	الشبهة السادسة وجوابها
٢٣٩ ـ ٢٨٨	المبحث الثامن فى جمع القرآن الكريم وما يتعلق به
٢٤٠	جمع القرآن بمعنى حفظه فى الصدور
٢٤٦	جمع القرآن بمعنى كتابته فى عهد رسول الله ﷺ
٢٤٩	جمع القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه
٢٥٢	دستور أبى بكر فى كتابة الصحف
٢٥٣	مزايا هذه الصحف
٢٥٥	جمع القرآن على عهد عثمان رضى الله عنه
٢٥٧	تنفيذ عثمان لقرار الجمع ودستوره فى كتابة المصاحف .
٢٦٠	تحريق عثمان للمصاحف والصحف المخالفة
٢٦٢	فذلكة البحث
٢٦٣	الرد على ما يثار حول جمع القرآن من شبه
٢٦٣	الشبهة الأولى وهى تعتمد على سبع شبه
٢٦٥	نقض هذه المزاعم الباطلة
٢٧٥	الشبهة الثانية وجوابها
٢٨٠	« الثالثة وجوابها

الصفحة	الموضوع
٢٨٣	« الرابعة وجوابها
٢٨٤	« الخامسة وجوابها
٢٨٦	« السادسة وجوابها
٢٨٩-٣٣٧	خط منيع من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة (وهو بحث جديد مهم)
٢٩١	الجبهة الأولى فى عوامل حفظ الصحابة للكتاب والسنة
٢٩١	العامل الأول أنهم كانوا أميين
٢٩٣	العامل الثانى أنهم كانوا مضرب المثل فى الذكاء والحفظ
٢٩٤	« الثالث بساطة معيشتهم والعامل الرابع حبهم لله ورسوله
٢٩٦	« الخامس إعجاز القرآن وبلاغة النبى عليه الصلاة والسلام
٢٩٧	« السادس ترغيبهم فى الإقبال على الكتاب والسنة
٢٩٩	« السابع منزلة الكتاب والسنة من الدين
٣٠٠	« الثامن ارتباط كلام الله ورسوله بما يثير الاهتمام
٣٠٢	« التاسع اقتران الكتاب والسنة بأمور خارقة للعادة
٣٠٤	« العاشر حسن سياسة الكتاب والسنة لهذه الأمة
٣٠٨	« الحادى عشر الترغيب والترهيب اللذان فى الكتاب والسنة
٣١١	« الثانى عشر حمل الصحابة بالكتاب والسنة
٣١٢	« الثالث عشر وجود الرسول ﷺ بين ظهرانيهم
٣١٢	عوامل خاصة بالقرآن الكريم أولها التحدى
٣١٣	ثانيها العناية بكتابة القرآن الكريم وثالثها تشريع قراءته فى الصلاة
٣١٣	رابعها الترغيب فى تلاوة القرآن فى غير الصلاة
٣١٤	خامسها عناية الرسول بتعليم القرآن وإذاعته ونشره
٣١٥	سادسها القداسة التى امتاز بها القرآن

صفحة	الموضوع
٣١٦	الجبهة الثانية فى عوامل تثبت الصحابة من الكتاب والسنة
٣١٦	العامل الأول أمر القرآن بالتثبت ونهيه عن التهجم
٣١٧	العامل الثانى الترهيب الشديد فى الكذب على الله ورسوله
٣١٨	العامل الثالث الحض على الصدق والتنفير من الكذب
٣٢٠	العامل الرابع غرام الصحابة بالتفقه والتعلم
٣٢١	العامل الخامس يسر الوسائل لدى الصحابة إلى أن يتثبتوا
٣٢٢	العامل السادس شجاعة الصحابة وصراحتهم
٣٢٣	العامل السابع تكافل الصحابة تكافلا اجتماعيا
٣٢٥	العامل الثامن ترويضهم على الصدق عملا
٣٢٦	العامل التاسع الأسوة الحسنة التى كانوا يجدونها فى رسول الله ﷺ
٣٢٩	العامل العاشر سمو تربية الصحابة على فضائل الإسلام
٣٣٠	عوامل أخرى
٣٣١	مظاهر هذا التثبت
٣٣٤	نتيجة ذلك
٣٣٥	الموقف خطير
٣٣٦	شهادة عليا من الله للصحابة
٣٣٧	شهادة الرسول ﷺ لأصحابه
٣٣٧	حكمة الله فى اختيار الصحابة لحمل شريعته الختامية
٣٣٨ ـ ٣٦٠	المبحث التاسع فى ترتيب آيات القرآن وسوره
٣٣٨	معنى الآية
٣٤٠	طريق معرفة الآية
٣٤٣	عدد آيات القرآن

صفحة	الموضوع
٣٤٤	سبب الاختلاف فى عدد الآيات
٣٤٤	فوائد معرفة الآيات
٣٤٦	ترتيب آيات القرآن
٣٤٨	ملاحظة فى عدد كلمات القرآن وحروفه
٣٤٩	شبهة تتصل بالموضوع وتفنيدها
٣٥٠	معنى السورة
٣٥١	حكمة تسوير السور
٣٥٢	أقسام السور
٣٥٣	المذاهب فى ترتيب السور
٣٥٨	احترام هذا الترتيب
٣٦٠	شبهتان خفيفتان وجوابهما
٣٦١ ـ ٤١٠	المبحث العاشر فى كتابة القرآن ورسمه ومصاحفه
٣٦١	الكتابة
٣٦٣	شأن الكتابة فى الإسلام
٣٦٤	هل كان النبى ﷺ يقرأ ويكتب ؟
٣٦٧	كتابة القرآن
٣٦٩	رسم المصحف وقواعد هذا الرسم
٣٦٩	قاعدة الحذف
٣٧٠	قاعدة الزيادة
٣٧١	قاعدة الهمز وقاعدة البدل
٣٧٢	قاعدة الوصل والفصل وقاعدة ما فيه قراءتان
٣٧٣	مزايا الرسم العثمانى

صفحة	الموضوع
٣٧٧	هل رسم المصحف توقيفى ؟
٣٧٧	الرأى الأول أنه توقيفى
٣٨٠	الرأى الثانى أنه اصطلاحى لا توقيفى
٣٨٥	« الثالث وسط بين الرأيين
٣٨٦	الشبهات التى أثيرت حول كتابة القرآن ورسمه
٣٨٦	الشبهة الأولى
٣٨٦	جواب هذه الشبهة
٣٨٨	الشبهة الثانية وجوابها
٣٨٨	الشبهة الثالثة وجوابها
٣٨٩	الشبهة الرابعة وجوابها
٣٩٠	الشبهة الخامسة
٣٩٠	جواب الشبهة الخامسة وتصوير الشبهة السادسة
٣٩١	جواب السادسة وتصوير السابعة وجوابها
٣٩٢	الشبهة السابعة وجوابها
٣٩٣	الشبهة الثامنة وجوابها
٣٩٥	تصوير الشبهة التاسعة
٣٩٦	جواب التاسعة وتصوير العاشرة وجوابها
٣٩٦	خلاصة الدفاع
٣٩٧	شبهة على التزام الرسم العثمانى فى هذا العصر
٣٩٧	جواب هذه الشبهة
٣٩٩	المصاحف تفصيلا والحروف السبعة فى المصاحف العثمانية
٤٠١	الصحف والمصاحف

الصفحة	الموضوع
٤٠٢	عدد المصاحف العثمانية
٤٠٣	كيف أنفذ عثمان المصاحف العثمانية
٤٠٤	أين المصاحف العثمانية الآن ؟
٤٠٥	المصاحف فى دور التجويد والتحسين
٤٠٦	إعجام المصاحف
٤٠٧	شكل المصاحف
٤٠٨	حكم نقط المصحف وشكله
٤٠٩	تجزئة القرآن
٤١٠	احترام المصحف
٤١٢ ـ ٤٧٥	المبحث الحادى عشر فى القراءات والقراء والشبهات فيها
٤١٢	القراءات
٤١٢	نشأة علم القراءات
٤١٤	طبقات الحفاظ المقرئين الأوائل
٤١٦	أعداد القراءات
٤١٨	ضابط قبول القراءات
٤٢٣	منطوق هذا الضابط ومفهومه
٤٢٧	ملاحظة فى الاكتفاء بصحة الإسناد فى الضابط المذكور
٤٢٩	أنواع القراءات من حيث السند
٤٣١	تواتر القرآن الكريم
٤٣٥	الآراء فى القراءات السبع
٤٤٠	الآراء فى القراءات الثلاث المتممة للعشر
٤٤١	التحقيق تواتر العشر كلها

صفحة	الموضوع
٤٥٦	القرّاء
٤٥٦	ابن عامر
٤٥٧	ابن كثير
٤٥٨	عاصم
٤٥٩	أبو عمرو
٤٦٠	حمزة
٤٦١	نافع
٤٦٢	الكسائى
٤٦٣	أبو جعفر ويعقوب
٤٦٤	خلف
٤٦٥	الحسن البصرى وابن محيصن ويحيى اليزيدى والشنبوذى
٤٦٦	حكم ماوراء العشر
٤٧٠	فذلكة هذا البحث
٤٧١	نقض الشبهات التى أثيرت فى هذا المقام
٤٧١	الشبهة الأولى وجوابها
٤٧٣	الشبهة الثانية
٤٧٤	الشبهة الثالثة والرابعة
٤٧٥	الشبهة الخامسة

شكر ورجاء

أما بعد شكر الله تعالى وحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فإنى أتوجه بأجزل الشكر إلى كل من عاونني فى هذا الكتاب برأيه ، أو بسعيه ، أو بقراءته والإقبال عليه ، أو بتقديره وتشجيعى على المضى فيه .

وأرجو كل من يطلع عليه أن يلتمس لى العذر إن كنتُ قصرت ، وأن يرشدنى إلى شاكلة الصواب إن كنت أخطأت ، وأن يصحح نسخته على ما جاء فى هذه الطبعة، وأن يعلم أننى حاولت جهد طاقتى حسن الإخراج وجودة الطبع ، ولكن الظروف أبت إلا أن تقف بى عند هذا الحد . ولعلِّى سدّدْتُ أو قاربتُ ، وعلى كل حال فالعودُ أحمدُ إن شاء الله .

وأستغفر الله من كل خطيئة وزلل ، وأسأله أن يقابل بالقبول ماوفقنا إليه من نافع العلم وصالح العمل ، وأن يُصلح منا جميعاً الحال والمآل ، وأن يحقق للإسلام والمسلمين جميع الآمال. والحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان فى البدايات والنهايات ، آمين . وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ؟

مناهل العرفان

في

علوم القرآن

طبق ماقرره مجلس الأزهر الأعلى في دراسة تخصص الكليات الأزهرية

بقلم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ

محمد عبد العظيم الزرقاني

مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بتخصص الدعوة والإرشاد

بكلية أصول الدين سابقاً

جميع الحقوق محفوظة

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

« الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان » .

نحمده سبحانه على هذه النعم المترادفة ، ونصلى ونسلم على من نشر فى العالم هدايته وعوارفه ، سيدنا ومولانا محمد شارح الكتاب الحكيم بسنته ، ومفسر القرآن الكريم برسالته ، « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون » . وشمل الله برضوانه وإحسانه ، آل الرسول وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، والعلماء العاملين ، وأصحاب الحقوق علينا أجمعين .

أما بعد فهذا هو الجزء الثانى من كتاب مناهل العرفان فى علوم القرآن ، وكتبته لقرائى الأكرمين كما كتبت لهم الجزء الأول ، ضارعاً إلى الله ـ جلت قدرته ـ أن يسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، وأن يؤيدنا فيه بالإخلاص والتوفيق حتى يكون ذخيرة عنده نافعة ، كما أسأله سبحانه أن يلطف بالبلاد والعباد ، إنه تعالى الكريم الجواد ، الفتاح الوهاب ، لا رب غيره . ولا مأمول إلا خيره ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . نعم المولى ونعم النصير ، آمين .

ولقد نهجت فى هذا الجزء منهج سابقه ، ورتبت مباحثه على مباحثه ، وبما أن ذاك قد قطع أحد عشر مبحثاً ، فلنفتتح هذا بما يليها عداً ، وهو :

المبحث الثانى عشر

فى التفسير والمفسرين وما يتعلق بهما

١ — التفسير

التفسير فى اللغة : الإيضاح والتبيين . ومنه قوله تعالى فى سورة الفرقان : « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً » .

والتفسير فى الاصطلاح : علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

(والمراد بكلمة علم) المعارف التصورية . قال عبدالحكيم على المطول : إن علم التفسير من قبيل التصورات ، لأن المقصود منه تصور معانى ألفاظه ، وذلك من قبيل التعاريف ، لكن أكثرها بل كلها من قبيل التعاريف اللفظية . وذهب السيد إلى أن التفسير من قبيل التصديقات ، لأنه يتضمَّن حكماً على الألفاظ بأنها مفيدة لهذه المعانى التى تذكر بجانبها فى التفسير .

(وخرج بقولنا : يبحث فيه عن أحوال القرآن) العلوم الباحثة عن أحوال غيره .

(وخرج بقولنا: من حيث دلالته على مراد الله تعالى) العلوم التى تبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالته ، كعلم القراءات فإنه يبحث عن أحوال القرآن من حيث ضبط ألفاظه وكيفية أدائها . ومثل علم الرسم العثمانى فإنه يبحث عن أحوال القرآن الكريم من حيث كيفية كتابة ألفاظه .

وخرج بهذه الحيثية أيضاً المعارف التى تبحث عن أحوال القرآن من حيث إنه مخلوق أو غير مخلوق ، فإنها من علم الكلام . وكذلك المعارف الباحثة عن أحوال القرآن من حيث حرمة قراءته على الجنب ونحوها . فإنها من علم الفقه .

(وقولنا بقدر الطاقة البشرية) لبيان أنه لا يقدح فى العلم بالتفسير عدم العلم بمعانى المتشابهات ولا عدم العلم بمراد الله فى الواقع ونفس الأمر .

وعرفوا علم التفسير أيضاً بأنه علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام .

(والمراد بكلمة نزوله) مايشمل سبب النزول ومكانه وزمانه .

(والمراد بكلمة سنده) مايشمل كونه متواتراً أو آحاداً أو شاذًّا .

(والمراد بكلمة أدائه) مايشمل كل طرق الأداء كالمدِّ والإدغام .

(والمراد بكلمة ألفاظه) مايتعلق باللفظ من ناحية كونه حقيقةً أو مجازاً أو مشتركاً أو مرادفاً أو صحيحاً أو معتلًّا أو معرباً أو مبنيًّا .

(والمراد بمعانيه المتعلقة بألفاظه) مايشبه الفصل والوصل .

(والمراد بمعانيه المتعلقة بأحكامه) ماهو من قبيل العموم والخصوص ، والإحكام والنسخ .

وهذا التعريف كما ترى يشمل كثيراً من جزئيات مايندرج فى قواعد علم القراءات وعلم الأصول وعلم قواعد اللغة من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع .

وعرفوا التفسير تعريفاً ثالثاً بأنه علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التى تحمل عليها حال التركيب ، وغير ذلك كمعرفة النسخ وسبب النزول وما به توضيح المقام كالقصة والمثل .

وهذا تعريف وسط بين التعريفين ، ومن السهل رجوعه إلى التعريف الأول ، لأن ما ذكر هنا بالتفصيل ، يُعتبر بياناً لمراد الله من كلامه بقدر الطاقة البشرية فى شىء من التفصيل .

التأويل :

والتأويل مرادف للتفسير فى أشهر معانيه اللغوية . قال صاحب القاموس : « أَوَّلَ الكلامَ تأويلًا وَتَأَوَّلَهُ : دَبَّرَهُ وقدَّرَهُ وَفَسَّرَهُ » ومنه قوله تعالى : « فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا

يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ ٱللهُ » . وكذلك جاءت آيات كثيرة فيها لفظ التأويل ، ومعناه فى جميعها البيان والكشف والإيضاح .

أما التأويل فى اصطلاح المفسرين[1] فإنه يختلف معناه فبعضهم يرى أنه مرادف للتفسير . وعلى هذا فالنسبة بينهما التساوى . ويشيع هذا المعنى عند المتقدمين . ومنه قول مجاهد : « إن العلماء يعلمون تأويله (يعنى القرآن) وقول ابن جرير فى تفسيره : القول فى تأويل قوله تعالى كذا . . . واختلف أهل التأويل فى هذه الآية . . . »

وبعضهم يرى أن التفسير يخالف التأويل بالعموم والخصوص فقط ، ويجعل التفسير أعم مطلقا . وكأنه يريد من التأويل بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه لدليل . ويريد من التفسير بيان مدلول اللفظ مطلقاً ، أعم من أن يكون بالمتبادر أو بغير المتبادر .

وبعضهم يرى أن التفسير مباين للتأويل . فالتفسير هو القطع بأن مراد الله كذا ، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع. وهذا هو قول الماتريدى. أو التفسير بيان اللفظ عن طريق الرواية ، والتأويل بيان اللفظ عن طريق الدراية. أو التفسير هو بيان المعانى التى تستفاد من وضع العبارة ، والتأويل هو بيان المعانى التى تستفاد بطريق الإشارة وقد اشتهر هذا عند المتأخرين كما نبَّه إليه العلامة الألوسى إذ قال بعد استعراضه للآراء فى هذا الموضوع ما نصه : « كل ما قيل مما ذكرنا وما لم نذكر مخالف للعرف اليوم . إذ قد تُعورِفَ عند المؤلفين من غير نكير أن التأويل معانٍ قدسية ، ومعارف ربانية ، تنهلُّ من سحب الغيب على قلوب العارفين . والتفسير غير ذلك » اهـ بتصرف فأنت

(١) وإنما قلنا فى اصطلاح المفسرين ليخرج اصطلاح المتكلمين ومن جاراهم ، فإنهم يريدون من التأويل ماذهب إليه الخلف من صرف نصوص ماتشابه من الكتاب والسنة عن ظاهره إلى معان تتفق وتنزيه الله تعالى عن المشابهة والمماثلة . بخلاف ماذهب إليه السلف من التفويض والإمساك عن تعيين معنى خاص .

ترى أنه جعل التأويل خاصًا بما كان مأخوذاً بالإشارة ، والتفسير بما كان مفهوماً من العبارة .

التفسير تفسيران

لكن التفسير على نوعين بالإجمال (أحدهما) تفسير جافٌ لا يتجاوز حلّ الألفاظ وإعراب الجمل ، وبيان مايحتويه نظم القرآن الكريم من نكات بلاغية وإشارات فنية. وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير وبيان مراد الله من هداياته .

(النوع الثانى) تفسير يجاوز هذه الحدود،ويجعل هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن وتعاليم القرآن وحكمة الله فيما شرع للناس فى هذا القرآن، على وجه يجتذب الأرواح ، ويفتح القلوب ،ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله.وهذا هو الخليق باسم التفسير . وفيه يساق الحديث إذا تكلمنا عن فضله والحاجة إليه .

فضل التفسير والحاجة إليه :

نهضة الأفراد والأمم لايمكن أن تكون صحيحة عن تجربة ، ولا سهلة متيسرة ، ولا رائعة مدهشة . إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة التى روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشرى على ماأحاط به علم خالقه الحكيم . وبدَهِىٌّ أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبره ، والوقوف على ما حوى من نصح ورشد ، والإلمام بمبادئه عن طريق تلك القوة الهائلة التى يحملها أسلوبه البارع المعجز . وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن . « وهو ما نسميه بعلم التفسير » خصوصا فى هذه العصور الأخيرة التى فسدت فيها ملكة البيان العربى ، وضاعت فيها خصائص العروبة حتى من سلائل العرب أنفسهم .

فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التى احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشر ، وإنقاذ الناس ، وإعزاز العالم .

وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر ، مهما بالغ الناس فى ترديد ألفاظ القرآن ، وتوفروا على قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التى نزل عليها .

وهنا تلمح السرّ فى تأخر مُسْلِمَةِ هذا الزمن على رغم وفرة المصاحف فى أيديهم ووجود ملايين الحفّاظ بين ظهرانيهم ، وعلى رغم كثرة عددهم ، واتساع بلادهم فى حين أن سلفنا الصالح نجحوا بهذا القرآن نجاحا مدهشا كان ومازال موضع إعجاب التاريخ والمؤرخين. مع أن أسلافنا أولئك كانوا فى قلة من العدد ، وضيق من الأرض ، وخشونة من العيش ، ومع أن نسخ القرآن ومصاحفه لم تكن ميسورة لهم ، ومع أن حُفاظه لم يكونوا بهذه الكثرة الغامرة .

أجل إن السرّ فى ذلك هو أنهم توفروا على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته، يستعينون على هذه الثقافة العليا بمواهبهم الفطرية وملكاتهم السليمة العربية من ناحية، وبما يشرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبينه لهم بأقواله وأعماله وأخلاقه وسائر أحواله كما قال سبحانه : « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

وعلى ذلك كان همهم الأول هو القرآن الكريم يحفظونه ويفهمونه قبل أن يحفظوه ثم يعملون بتعاليمه بدقة ، ويهتدون بهديه فى يقظة .

بهذا وحده صفت أرواحهم ، وطَهُرَت نفوسهم ، وعَظُمَتْ آثارهم ؛ لأن الروح الإنسانى هو أقوى شىء فى هذا الوجود . فمتى صفا وتهذّب ، وحسن توجيهه وتأدّب ، أتى بالعجب العجاب ، « وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ » .

وكذلك أتت الأمة العربية بالعجب العاجب ، فى الهداية والإرشاد وإنقاذ العالم وإصلاح البشر ، وكتب الله لهم النصر والتأييد والدولة والظفر، حتى على أقوى الدول

المعادية لدعوة الحق والإصلاح فى ذلك العهد، ودولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب . تلك مَحَوْهامن لوح الوجود بهدم طغيانها وإسلام شعبها،وهذه سلبوهاما كان فى حوزتها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة . ثم دانت لهم الدنيا فاستولوا على بعض بلاد أوربَّة ، وأقاموا فيها دولة عربية شامخة البنيان ، كانت بهجة الدنيا وزينة الحياة، ومنها شعَّ النور على الشعوب الأوربية، وكانت النواة الناجحة فى نهضتهم الحديثة الحاضرة (تلك هى فردوس الأندلس المفقود) ! !

أما غالب مُسْلِمَةِ اليوم . فقد اكتفوا من القرآن بألفاظ يرددونها . وأنغام يلحِّنونها ، فى المآتم والمقابر والدور . وبمصاحف يحملونها أو يودعونها تركة فى البيوت . ونسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هى فى تدبُّره وتفهمه ؛ وفى الجلوس إليه والاستفادة من هديه وآدابه ، ثم فى الوقوف عند أوامره ومراضيه ، والبعد عن مساخطه ونواهيه . والله تعالى يقول : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » ، ويقول سبحانه : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ؟ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » ويقول جلَّ ذكره : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » .

فما أشبه المسلمين اليوم بالعطشان يموت من الظمأ والماء بين يديه ، والحيوان يهلك من الإعياء والنورُ من حوله يهديه السبيل لوفتح عينيه . « ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

ألا إن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ، وهو أن يعودوا إلى كتاب الله يستلهمونه الرشد ويستمنحونه الهدى ، ويحكمونه فى نفوسهم وفى كل مايتصل بهم كما كان آباؤنا الأولون يتلونه حق تلاوته بتدبر وتفكر فى مجالسهم ومساجدهم وأنديتهم وبيوتهم ، وفى صلواتهم المفروضة والنافلة ، وفى تهجدهم بالليل

والناس نيام ، حتى ظهرت آثاره الباهرة عاجلة فيهم . فرفع نفوسهم وانتشلها من حضيض الوثنية ، وأعلى هممهم وهذّب أخلاقهم ، وأرشدهم إلى الانتفاع بقُوَى الكون ومنافعه . وكان من وراء ذلك أن مهروا فى العلوم والفنون والصناعات كما مهروا فى الأخلاق والآداب والإصلاح والإرشاد ، ووصلوا إلى غاية بزُّوا فيها كل أمم الدنيا . حتى قال بعض فلاسفة الغرب فى كتابه (تطوُّر الأمم) ما نصه : « إن ملكة الفنون لا تستحكم فى أمة من الأمم إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخَضْرَمَة ، وجيل الاستقلال . وشذَّ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون فى جيل واحد » اهـ .

قال السيوطى فى بيان الحاجة إلى التفسير ما ملخصه : « القرآن إنما نزل بلسان عربى فى زمن أفصح العرب ، فكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه .

أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبى ﷺ مثل قولهم : « وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ » حينما نزل قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » . ففسَّره النبى ﷺ بالشرك ، واستدلَّ بقوله سبحانه : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .

وكذلك حين قال النبى ﷺ : « مَنْ نُوقِشَ الحساب عُذِّبَ » سألته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن قوله تعالى : « فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا » فقال ﷺ « ذَلِكَ ٱلْعَرْضُ » وكقصة عدىّ بن حاتم فى الخيط الأبيض والخيط الأسود . ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه . بل نحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير ، لقصورنا عن مدارك اللغة وأسرارها بغير تعلم » اهـ .

مما تقدم يتبين أن فائدة التفسير هى التذكر والاعتبار ، ومعرفة هداية الله فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ، ليفوز الأفراد والمجاميع بخير العاجلة والآجلة .

ويتبين أيضاً أن هذا العلم من أشرف العلوم الدينية والعربية ، إن لم يكن أشرفها جميعاً . وذلك لسُمُوِّ موضوعه ، وعظم فائدته .

وسمى علم التفسير لما فيه من الكشف والتبيين . واختصَّ بهذا الاسم دون بقية العلوم مع أنها كلها مشتملة على الكشف والتبيين ، لأنه لجلالة قدره ، واحتياجه إلى زيادة الاستعداد ، وقصده إلى تبيين مراد الله من كلامه ، كان كأنه هو التفسير وحده دون ماعداه .

ب ـ أقسام التفسير

ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن التفسير أربعة : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تفسره العرب بألسنتها ، وتفسير تفسره العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله اه.

قال الزركشى فى البرهان ما ملخصه : « هذا تقسيم صحيح. فأما الذى تعرفه العرب بألسنتها فهو ما يرجع إلى لسانهم من اللغة والإعراب. فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها ومسمَّيات أسمائها . ولا يلزم ذلك القارىء . ثم إن كان مايتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم ، كفى فيه خبر الواحد والاثنين ، والاستشهاد بالبيت والبيتين . وإن كان يوجب العلم (أى الاعتقاد) لم يكف ذلك ، بل لا بد أن يستفيض ذلك اللفظ وتكثر شواهده من الشعر . وأما الإعراب فما كان اختلافه مُحيلًا للمعنى وجب على المفسر والقارئ تعلمه ، ليوصل المفسر إلى معرفة الحكم ، ويسلم القارئ من اللحن . وإن لم يكن محيلًا للمعنى ، وجب تعلمه على القارئ ليسلم من اللحن ، ولا يجب على المفسر لوصوله إلى المقصود بدونه .

وأما ما لا يُعذر أحـــد بجهله فهو ما تبادر إلى الأفهام معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ، وكل لفظ أفاد معنى واحداً جليًّا يعلم

أنه مراد الله تعالى . فهذا القسم لا يلتبس تأويله ، إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى : « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ » أنه لا شريك له فى الألوهية ، وإن لم يعلم أن «لا» موضوعة فى اللغة للنفى « وإلا » موضوعة للإثبات ، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » ونحوه ، طلب إيجاب المأمور به ، وإن لم يعلم أن صيغة افعل للوجوب .

وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فهو ما يجرى مجرى الغيوب ، كالآيات التى تذكر فيها الساعة . والروح ، والحروف المقطعة . وكل متشابه فى القرآن عند أهل الحق ، فلا مساغ للاجتهاد فى تفسيره . ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف ، بنص من القرآن أو الحديث أو إجماع الأمة على تأويله .

وأما مما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم ، فهو الذى يغلب عليه إطلاق التأويل . وذلك باستنباط الأحكام ، وبيان المجمل ، وتخصيص العموم. وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذى لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه اعتماداً على الدلائل والشواهد دون مجرد الرأى » اهـ المقصود منه . لكنه لم يلتزم فيه ترتيب الأقسام على ماروى عن ابن عباس ولا ضير فى ذلك مادام أنه قد استوعب عدتها الأربعة كما رأيت .

وقسم بعضهم التفسير باعتبار آخر إلى ثلاثة أقسام : « تفسير بالرواية » ويسمى التفسير بالمأثور ، وتفسير بالدراية ويسمى التفسير بالرأى ، وتفسير بالإشارة ويسمى التفسير الإشارى ، وسنتحدث عن كل واحد منها إن شاء الله .

ج — التفسير المأثور

هو ماجاء فى القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى من كتابه

(١) مثال ماجاء فى القرآن قوله سبحانه : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ » فإن كلمة «من الفجر» بيان وشرح للمراد من كلمة « الْخَيْطِ الْأَبْيَضِ » التى قبلها . وكذلك قوله سبحانه: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فإنها بيانٌ للفظ « كلماتٍ » من قوله تعالى : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ » على بعض وجوه التفاسير . وقوله تعالى « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ » الآية ، فإنها بيانٌ للفظ «مَا يُتْلَى عليكمْ» من قوله سبحانه: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ» وقوله تعالى : « لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » الآية فإنها بيان للعهدين فى قوله سبحانه : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ » الأول للأوّل ، والثانى للثانى . وقوله تعالى : «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ» . فإن كلمة «النَّجْمُ الثَّاقِبُ» بيان لكلمة « الطَّارِق » التى قبلها . وغير ذلك كثير يعلم بالتدبُّر لكتاب الله تعالى .

(٢) ومثال ماجاء فى السنة شرحاً للقرآن ، أنه صلى الله عليه وسلم فسر الظلم بالشرك فى قوله سبحانه : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » وأيَّد تفسيره هذا بقوله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » وفسَّر صلى الله عليه وسلم الحساب اليسير بالعَرْضِ حين قال : «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ» فقالت له السيدة عائشة : أَوَلَيْسَ قد قال الله تعالى : «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ

حِسَاباً يَسِيراً ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً » فقال ﷺ: « ذَٰلِكِ الْعَرْضُ » بياناً للحساب اليسير . وكذلك فسر الرسول ﷺ القوة بالرمى فى قوله سبحانه : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » . وفى صحيح كتب السنة من ذلك شىء كثير .

وكلا هذين القسمين لا شك فى قبوله . أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه من غيره ، وأصدق الحديث كتاب الله تعالى . وأما الثانى فلأن خير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ ، ووظيفته البيان والشرح ، مع أنا نقطع بعصمته وتوفيقه . قال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » .

(٣) بقى القسم الثالث وهو بيان القرآن بما صحَّ وروده عن الصحابة رضوان الله عليهم : قال الحاكم فى المستدرك : « إن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل له حكم المرفوع » كذلك أطلق الحاكم . وقيده بعضهم بما كان فى بيان النزول ونحوه مما لا مجال للرأى فيه ؛ وإلا فهو من الموقوف .

ووجهة نظر الحاكم ومن وافقه ، أن الصحابة رضوان الله عليهم قد شاهدوا الوحى والتنزيل ، وعرفوا وعاينوا من أسباب النزول ما يكشف لهم النقاب عن معانى الكتاب ولهم من سلامة فطرتهم ، وصفاء نفوسهم ، وعلو كعبهم فى الفصاحة والبيان ، ما يمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله ، وما يجعلهم يوقنون بمراده من تنزيله وهداه .

أما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف العلماء : منهم من اعتبره من المأثور . لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً . ومنهم من قال : إنه من التفسير بالرأى .

وفى تفسير ابن جرير الطبرى كثيرٌ من النقول عن الصحابة والتابعين فى بيان القرآن الكريم .

بَيْدَ أن الحافظ ابن كثير يقول : إن أكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرُّواة من زنادقة اليهود والفرس ومُسْلِمَةِ أهل الكتاب . قال بعضهم : وجُلُّ ذلك فى قصص الرسل

مع أقوامهم ، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم ، وفى تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف ، ومدينة إِرَمَ ذاتِ العماد، وسحر بابل ، وعَوْج بن عُنُق ، وفى أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعدها . وجُلُّ ذلك خرافات ومفتريات ، صدَّقهم فيها الرواة حتى بعض الصحابة رضى الله عنهم . ولذلك قال الإمام أحمد : « ثلاثة ليس لها أصل: التفسير ، والمَلَاحِمُ ، والمَغَازِى »[1] . وكان الواجب جمع الروايات المفيدة فى كتب مستقلة ، كبعض كتب الحديث ، وبيان قيمة أسانيدها ، ثم يذكر فى التفسير مايصح منها بدون سند ، كما يذكر الحديث فى كتب الفقه ، لكن يعزى إلى مخرجه ا هـ ما أردنا نقله .

د ـ المفسرون من الصحابة

قال السيوطى فى الإتقان : « اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبىُّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير . أما الخلفاء فأكثر من رُوى عنه منهم ، علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه . والرواية عن الثلاثة قليلة جدًّا وكأن السبب فى ذلك تقدُّم وفاتهم » ا هـ .

ومعنى هذا السبب فى إقلال الثلاثة: أبى بكر وعمر وعثمان من التفسير، أنهم كانوا فى وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله، واقفون على أسرار التنزيل، عارفون بمعانيه وأحكامه مكتملة فيهم خصائص العروبة. أما الإمام علىّ رضى الله عنه، فقد عاش بعدهم حتى كثرت حاجة الناس فى زمانه إلى من يفسر لهم القرآن، وذلك من اتساع رقعة الإسلام، ودخول عجم فى هذا الدين الجديد كادت تذوب بهم خصائص العروبة ، ونشأ جيـــل من

(١) لعل مراد الإمام أحمد المبالغةُ تنبيهاً للأذهان إلى أن الصحيح قليل بالنسبة إلى غير الصحيح . وليس مراده عموم النفى ، فإن هناك روايات فى التفسير صحيحة؛ ولا ريب . وسيأتى ما نقل عن الإمام أحمد نفسه فى صحيفة التفسير التى رواها علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس .

أبناء الصحابة كان فى حاجة إلى علم الصحابة . فلا جرم كان ما نقل عن علىٍّ أكثر مما نقل عن غيره ، أضف إلى ذلك ما امتاز به الإمام من خصوبة الفكر ، وغزارة العلم ، وإشراق القلب : ثم أضف أيضاً سبقَ اشتغالهم بمهامِّ الخلافة وتصريف الحكم دونه .

روى مَعْمَر عن وهب بن عبد الله بن أبى الطُّفَيْل قال : شهدت عليًّا رضى الله عنه يخطب ويقول : «سَلُونى ، فوَ اللهِ لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم . وسَلُونِى عن كِتَابِ اللهِ ، فوَ اللهِ ما من آيةٍ إلّا وأنا أعلمُ أبِلَيْلٍ نَزَلَتْ أمْ بِنهارٍ ؟ أفى سهلٍ أمْ فى جَبَلٍ ؟ » .

وفى رواية عنه قال : « وَاللهِ مَا نَزَلَتْ آيةٌ إلَّا وقد علمتُ فِيمَ أُنْزِلَتْ ؟ وأين أنزلت ؟ إنَّ رَبِّى وَهَبَ لى قلباً عقولًا ، ولساناً سؤولا » اهـ .

وقد كثرت الروايات أيضاً عن ابن مسعود . وحسبك فى معرفة خطره وجلالة قدره ما رواه أبو نعيم عن أبى البحترى قال : قالوا لعلى : أخبرنا عن ابن مسعود ؟ قال : علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علماً ! .

وأما ابن عباس فهو ترجمان القرآن بشهادة رسولِ اللهِ ﷺ . فمن مجاهد قال : قال ابن عباس ، قال لى رسول الله ﷺ : « نِعْمَ تَرْجُمَانُ القرآنِ أنْتَ » ! وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « نِعْمَ تَرْجُمَانُ القرآنِ عَبدُ اللهِ ابن عباس» . وقد دعا له النبى ﷺ بقوله : «اللهم فقِّهْهُ فى الدين وعلِّمْهُ التَّأويل» ورُوى أن رجلًا أتى ابن عمر يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما . أى من قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » فقال : اذهب إلى ابن عباس ، ثم تعال أخبرنى . فذهب ، فسأله فقال : « كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت ، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات » فرجع

إلى ابن عمر فأخبره فقال : « قد كنت أقول: ما يعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن . فالآن قد علمت أنه أوتى علماً » اهـ .

لكن يجب الحيطة فيما عُزِىَ إلى ابن عباس من التفسير ، فقد كثر عليه فيه الدّسّ والوضْع ، كما سيأتى .

وكذلك أبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ بن قيس الأنصارى أحد كتاب الوحى فقد كان رضى الله عنه من المكثرين فى التفسير المبرِّزين فيه ، كما اشتهر فى القراءة وبرّز فيها روى له فى التفسير أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى ابن كعب . وإسناده صحيح .

وأما الباقى من العشرة ، وهم زيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله ابن الزبير ، فمع شهرتهم فى التفسير كانوا أقل من الأربعة الذين قبلهم .

وقد ورد عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء العشرة ، شىء من التفسير ، بَيْدَ أنه قليل . منهـــم أنس ، وأبو هريرة ، وابن عمر ، وجابر ، وعمرو بن العاص ، وعائشة أم المؤمنينَ، رضى الله عنهم أجمعين .

هـ — تفسير ابن عباس

الرواية عنه واختلاف الرواة فيها

أكثر الصحابة تفسيراً ابن عباس . ذلك لما عرفت من أنه ترجمان القرآن ، ولتأخر الزمان به حتى اشتدّت حاجة الناس إلى الأخذ عنه بعد اتساع الإسلام ، واستبحار العمران ، ولانقطاعه وتفرغه للنشر والدعوة والتعليم ، دون أن تشغله خلافة ، أو تصرفه سياسة وتدبير لشئون الرعية ، غير أن الرواية عنه مختلفة الدرجات .

قال السيوطى فى الإتقان : «ورد عن ابن عباس فى التفسير مالا يحصى كثرة بروايات

وطرق مختلفة ، فمن جيِّدها طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي عنه . قال أحمد بن حنبل : « بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيراً » أسنده أبو جعفر النحاس .

قال ابن حجر : وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية ابن أبى صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس . وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه كثيراً فيما يعلق عن ابن عباس . وقال قوم : لم يسمع ابن أبى طلحة من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير . ثم قال ابن حجر : بعد أن عُرفت الواسطة وهو ثقة ، فلا ضير فى ذلك اهـ .

وأخرج منها ابن جرير الطبرى، وابن أبى حاتم، وابن المنذر كثيراً، ولكن بوسائط بينهم وبين أبى صالح .

ومن جيِّد الطرق عن ابن عباس طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه . وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين. وكذا طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عنه . هكذا بالترديد، وإسنادها حسن وقد أخرج فيها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيراً .

وأوهى طرقه طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس . وكذا طريق مقاتل بن سليمان وطريق الضحّاك بن مُزاحِم عن ابن عباس منقطعة ، فإن الضحاك لم يلقه . وبالجملة فقد روى عن الشافعى أنه قال : «لم يَثْبُتْ عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيهٌ بمائة حديث».

و — الرواية عن غير ابن عباس من الصحابة

نحدّثك عن ثلاثة أعلام من الصحابة فى التفسير ، غير ابن عباس :

(أولهم) عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، كان سادس ستة ماعلى وجه الأرض مسلم سواهم ، وكان خادم رسول الله ﷺ يلبسه نعليه ، ويمشى معه وأمامه ، فكان له من هذه الصلة النبوية خير مثقف ومؤدب. لذلك عدّوه من أعلم الصحابة بكتاب الله ومعرفة محكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه . قال فى الإتقان: قد روى عن ابن مسعود فى التفسير أكثر مما روى عن علىّ كرم الله وجهه . وأخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال : « والله الذى لا إله غيره ، مانزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ؟ ؟ . ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته » . روى عنه كثيرون ، ولكن تتبعهم العلماء بالنقد والتجريح .

(ثانيهم) على بن أبى طالب رضى الله عنه . هو ابن عم رسول الله ﷺ ؛ وصهره على ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، والخليفة الرابع من بعده. ولد رضى الله عنه وشبّ ودرج فى الإسلام ؛ فلم يسجد لصنم قط . وكان لصلته الوثيقة برسول الله ﷺ أثر عظيم فى استنارة نفسه ، وغزارة مادته ، وسعة علمه ، بله ماوهبه الله من فطرة صافية ، وذكاء نادر ، وعقل موهوب . حتى ضرب به المثل فى حل المشاكل فقيل : « قضيةٌ ولا أباحسن لها » . قال ابن عباس « ما أخذت من تفسير القرآن فعن على بن أبى طالب » اهـ وحسبك هذه الشهادة من ترجمان القرآن .

لكن ابتلى علىّ رضى الله عنه بشيعة أسرفوا فى حبه ؛ وجاوزوا الحد فى تقديره ، فنسبوا إليه ماهو منه برىء وقوّلوه مالم يقل ، لذلك يلاحظ أن المروى عن على فيه دسٌّ

كثير ، تصدّى له صيارفة النقدمن رجال الرواية ، حتى مازوا ماصحّ مما لم يصح « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ »

(ثالثهم) أبى بن كعب الأنصارى. كان من أعلام القراء، ومن كتّاب الوحى ، وممن شهد بدراً . ورد فيه : « وأقرؤهم لـكتاب الله عز وجل أبى بن كعب » روى أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب نسخة كبيرة فى التفسير ، أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم منها كثيراً وكذا أخرج الحاكم فى مستدركه، وأحمد فى مسنده .

ز — المفسرون من التابعين

طبقاتهم ، ونقد المروى عنهم

نستطيع أن نعتبر التابعين طبقات ثلاثاً : طبقة أهل مكة ، وطبقة أهل المدينة وطبقة أهل العراق

طبقة أهل مكة

أما طبقة أهل مكة من التابعين، فقد كانوا أعلم الناس بالتفسير . نقل السيوطى عن ابن تيمية أنه قال: « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس . كمجاهد وعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وطاووس » .

(أما مجاهد) فقد كان أوثق من روى عن ابن عباس . ولذا يعتمد على تفسير الشافعى والبخارى وغيرهما من أقطاب العلم وأئمة الدين ، قال النووى: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . وقال الفضيل بن ميمون: سمعت مجاهداً يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة. وعنه أيضاً قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات،

أقف عند كل آية منه ، أسأله عنها . فيم أنزلت ؟ وكيف كانت ؟ .

ولا تعارض بين هاتين الروايتين، فالإخبار بالقليل لا ينافى الإخبار بالكثير. ويحتمل أن عرضه القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة كان طلباً لضبطه وتجويده وحسن أدائه. وأما عرضه إياه ثلاث مرات فكان طلباً لتفسيره ومعرفة أسراره وحكمه وأحكامه . كما يدل عليه قوله : أقف عند كل آية منه أسأله عنها: فيم أنزلت ؟ وكيف أنزلت ؟؟ .

(وأما عطاء وسعيد) فقد كان كل منهما ثقة ثبتاً فى الرواية عن ابن عباس . قال سفيان الثورى : خذوا التفسير عن أربعة : عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة والضحاك . وقال قتادة : أعلم التابعين أربعة ، كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك ، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير الخ . وقال أبو حنيفة : مالقيت أحداً أفضل من عطاء .

(وأما عكرمة مولى ابن عباس)فقد قال الشافعى فيه: ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة اﻫ . وقال عكرمة : كان ابن عباس يجعل فى رجلى الكبل(١) ويعلمنى القرآن والسنة وكان يقول : لقد فسرت ما بين اللوحين (لعله يريد ما بين دفتى المصحف) . وكل شىء أحدثكم فى القرآن فهو عن ابن عباس اﻫ .

(وأما طاووس بن كيسان اليمانى) فقد كان من رجال العلم والعمل . وأدرك من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم نحو الخمسين . وورد أنه حج بيت الله الحرام أربعين مرة وكان مجاب الدعوة . قال فيه ابن عباس : إنى لأظن طاووساً من أهل الجنة اﻫ . رضى الله عنهم أجمعين .

---

(١) الكبل « بفتح الكاف وكسرها مع سكون الباء » : القيد ، انظر القاموس .

طبقة أهل المدينة :

(منهم) زيد بن أسلم . وقد أخذ عنه ابنه عبد الرحمن ، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة .

(ومنهم) أبو العالية ، وهو من رواة أبى بن كعب . وقد روى عنه الربيع ابن أنس .

(ومنهم) محمد بن كعب القرظى الذى قال فيه ابن عون : ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظى .

طبقة أهل العراق :

(منهم) مسروق بن الأجدع . كان ورعاً زاهداً صحب ابن مسعود . قال ابن معين فيه : « ثقة لا يسأل عنه » . وكان القاضى شريح يستشيره فى معضلات المسائل . روى عنه الشعبى وأبو وائل وآخرون لصدق روايته وأمانته .

(ومنهم) قتادة بن دعامة . هو من رواة ابن مسعود ، شهد له ابن سيرين بالضبط والحفظ . وقال فيه ابن المسيب : ما رأيت عراقياً أحفظ من قتادة . غير أنه كان يخوض فى القضاء والقدر ، فتحرّج بعض الناس من الرواية عنه . وقد احتجّ به أرباب الكتب الصحيحة .

(منهم) أبو سعيد الحسن البصرى . قال ابن سعد فيه : كان ثقة مأموناً وعالماً جليلاً ، وفصيحاً جميلاً ، وتقياً نقيا . حتى قيل إنه سيد التابعين .

(ومنهم) عطاء بن أبى مسلم الخراسانى . أصله من البصرة لكنه أقام بخراسان بعد أن دخلها . لذلك نسب إليها . كان من أجلاء العلماء ، غير أنه كان مصاباً بسوء الحفظ ، لذلك اختلفوا فى توثيقه .

(ومنهم) مرة الهمذانى الكوفى . لكثرة عبادته قيل له : مرة الطيب ، ومرة الخير ،

أخذ عن أبي بن كعب وعمر بن الخطاب وغيرهما من الصحابة، وروى عنه الشعبي وغيره .

هؤلاء هم أعلام المفسرين من التابعين ، استمدوا آراءهم وعلومهم مما تلقوه من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وعنهم أخذ تابعو التابعين، وهكذا، حتى وصل إلينا دين الله وكتابه وعلومه ومعارفه سليمة كاملة ، عن طريق التلقي والتلقين ، جيلًا عن جيل ، مصداقًا لقوله سبحانه : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . ولقوله ﷺ « يحمِلُ هذا الْعِلْمَ مِنْ كلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ ، يَنْفُونَ عنهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ » .

نقد المروى عن التابعين :

يلاحظ على ماروى عن التابعين اعتبارات مهمة ، تثير الطعن فيه، وتوجِّه النقد إليه:

(منها) أنهم لم يشاهدوا عهد النبوة، ولم يتشرفوا بأنوار الرسول ،فيغلب على الظن أن ما يُروى عنهم من تفسير القرآن ، إنما هو من قبيل الرأي لهم ، فليس له قوة المرفوع إلى النبي ﷺ .

(ومنها) أنه يندر فيه الإسناد الصحيح .

(ومنها) اشتماله على إسرائيليات وخرافات انسابت إليه تارةً من زنادقة الفرس ، وأخرى من بعض مُسْلِمَةِ أهل الكتاب ، إما بحسن نية وإما بسوء نية .

ح ـ ضعف الرواية بالمأثور وأسبابه

علمنا أن الرواية بالمأثور ، تتناول ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن . وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة ، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو التابعين على رأى .

أما تفسير بعض القرآن ببعض ، وتفسير القرآن بالسنة الصحيحة المرفوعة إلى النبي ﷺ ، فلا خلاف فى وجاهته وقبوله. وأما تفسير القرآن بما يعزى إلى الصحابة والتابعين فإنه يتطرق إليه الضعف من وجوه :

(أولها) مادسّه أعداء الإسلام مثل زنادقة اليهود والفرس ، فقد أرادوا هدم هذا الدين المتين عن طريق الدسّ والوضع ، حينما أعيتهم الحيل فى النيل منه عن طريق الحرب والقوة ، وعن طريق الدليل والحجة .

(ثانيها) مالفقه أصحاب المذاهب المتطرفة ترويجا لتطرفهم ، كشيعة علىّ المتطرفين الذين نسبوا إليه ماهو منه برىء . وكالمتزلفين الذين حطبوا فى حبل العباسيين ، فنسبوا إلى ابن عباس مالم تصح نسبته إليه ، تملقاً لهم واستدراراً لدنياهم .

(ثالثها) اختلاط الصحيح بغير الصحيح ، ونقل كثير من الأقوال المعزوّة إلى الصحابة أو التابعين من غير إسنادٍ ولا تحرٍّ ، مما أدّى إلى التباس الحق بالباطل . زد على ذلك أن من يرى رأياً يعتمده دون أن يذكر له سنداً ، ثم يجىء من بعده فينقله على اعتبار أن له أصلاً ، ولا يكلف نفسه البحث عن أصل الرواية ، ولا من يرجع إليه هذا القول .

(رابعها) أن تلك الروايات مليئةٌ بالإسرائيليات ، ومنها كثير من الخرافات التى يقوم الدليل على بطلانها . ومنها مايتعلق بأمور العقائد التى لا يجوز الأخذ فيها بالظن ولا برواية

الآحاد، بل لا بد من دليل قاطع فيها، كالروايات التي تتحدث عن أشراط الساعة، وأهوال القيامة، وأحوال الآخرة تذكرُ على أنها اعتقاديات فى الإسلام.

(خامسها) أن مانقل نقلاً صحيحاً عن الكتب السابقة التى عند أهل الكتاب كالتوراة والإنجيل، أمرنا الرسول ﷺ أن نتوقف فيه، فلا نصدقهم لاحتمال أنه مما حرفوا فى تلك الكتب، ولا نكذبهم لاحتمال أنه مما حفظوه منها، فقد قال تعالى فيهم: «أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والاختلاف فى التفسير على نوعين: منه ماستنده النقل فقط، ومنه مايعلم بغير ذلك، والمنقول إما عن المعصوم أو غيره، ومنه مايمكن معرفة الصحيح منه من غيره، ومنه مالا يمكن ذلك. وهذا القسم (أى الذى لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه) عامته مالا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته وذلك كاختلافهم فى لون كلب أهل الكهف واسمه، وفى البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة، وفى قدر سفينة نوح وخشبها، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر، ونحو ذلك. فهذه الأمور طريقة العلم بها النقل. فما كان منها منقولًا نقلاً صحيحاً عن النبى صلى الله عليه وسلم قُبلَ. وما لا بأن نقل عن أهل الكتاب ككعب ووهب وقفَ عن تصديقه وتكذيبه، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا حدثكم أهلُ الكتاب فلَا تصدقوهمْ ولَا تكذبوهمْ». وكذا مانقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب. فتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض. ومانقل عن الصحابة نقلًا صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم أو من بعض من سمعه منه أقوى، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقلُّ من نقل التابعين. ومع جزم الصحابى بما يقوله كيف يقال: إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم؟.

وأما القسم الذى يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجودٌ كثيراً. ولله الحمد،

وإن قال الإمام أحمد : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير وَٱلْمَلَاحِمُ والمغازى » ، وذلك لأن الغالب عليها المراسيل .

وأما مايُعلم بالاستدلال لا بالنقل ، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان . . . ثم ذكر الجهتين اللتين هما مثار الخطأ فقال : (إحداهما) حمل ألفاظ القرآن على معانٍ اعتقدوها؛ لتأييدها به . (والثانية) التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية من غير مراعاة المتكلم بالقرآن وهو الله عزّ وجل ، والمنزل عليه؛ والمخاطب به » اهـ أردنا نقله بتصرف قليل .

قال بعضهم : « هذا وإن كلام ابن تيمية لا ينقض قول الإمام أحمد ، فإنه لم يَعْنِ به أنه لا يوجد في تلك الثلاثة رواية صحيحة ألبتة . وإنما يَعنى أن أكثرها لا يصح له سند متصل ، وما صحّ سنده إلى بعض الصحابة يقل فيه المرفوع الذى يحتجُّ به .

إلى أن قال : ثم إن أكثر مارُوى فى التفسير المأثور أو كثيره ، حجابٌ على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكّية للأنفس ، المنوِّرة للعقول . فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التى لا قيمة لها سنداً ولا موضوعاً » اهـ ما أردنا نقله .

وكلمة الإنصاف فى هذا الموضوع أن التفسير بالمأثور نوعان : (أحدهما) ماتوافرت الأدلة على صحّته وقبوله ، وهذا لا يليق بأحد ردُّه ، ولا يجوزُ إهماله وإغفاله ، ولا يجمل أن نعتبره من الصوارف عن هَدْى القرآن ، بل هو على العكس عامل من أقوى العوامل على الاهتداء بالقرآن .

(ثانيهما) مالم يصح لسبب من الأسباب الآنفة أو غيرها . وهذا يجب ردُّه ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به؛ اللهم إلا لتمحيصه والتنبيه إلى ضلاله وخطئه حتى لا يغتر به أحد . ولا يزال كثير من أيقاظ المفسرين كابن كثير يتحرّوْن الصحة فيما ينقلون ، ويزيِّفون ماهو باطل أو ضعيف ولا يحابون ولا يجبنُون .

ولعل الذين أطلقوا القول فى رد المأثور إنما أرادوا المبالغة ؛ كما علمت فى توجيه كلمة الإمام أحمد بن حنبل. وعذرهم أن الصحيح منه قليل نادر ونزرٌ يسير ، حتى لقد قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : « لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيهٌ بمائة حديث » أى مع كثرة ماروى عنه. وقد أشار ابن خلدون إلى أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم . وإنما غلبت عليهم البداوة والأُمية . وإذا تشوّفوا إلى معرفة شيء مما تتشوف إليه النفوس البشرية فى أسباب المكوّنات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ؛ ويستفيدون منهم . إلى أن قال : وهؤلاء مثل كعب الأحبار ؛ ووهب ابن منبِّه ، وعبد الله بن سَلام . فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم وتُلُقِّيَتْ بالقبول، لما كان لهم من المكانة السامية . ولكن الراسخين فى العلم قد تحرّوا الصحة ، وزيفوا مالم تتوافر أدلَّة صحته ا هـ بتصرف .

ملحوظة :

إياك أن تفهم هنا من عبارة ابن خلدون أو ابن تيمية أو غيرهما ما يجعلك تخوض مع الخائضين فى هؤلاء الأعلام الثلاثة: عبد الله بن سلام، ووهب بن منبِّه، وكعب الأحبار. فقد ضلَّ بعض الأدباء والمؤرخين من كبار الكتاب فى هذا العصر ، حين زعموا ذلك، حتى لقد سلكوا عبد الله بن سلام الصحابى الجليل فى سلك واحد مع عبد الله بن سبأ اليهودى الخبيث : الذى تظاهر بالإسلام ثم كاد له شر الكيد ، فتشيَّع لعلىّ ، وزعم أن الله حلَّ فيه وطعن على عثمان ، وأظهر الرفض عند حكم الحكمين بصفِّين ، ودعا الناس إلى ضلاله الأثيم ، حتى نُفى مراراً .

والحقيقة أن ثلاثتنا هؤلاء عدول ثقات :

أما ابن سلام فحسبك أنه صحابى من خيرة الصحابة ، ومن المبشرين بالجنة ، يروى الترمذى عن معاذ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنهُ

عاشرُ عشرةٍ فى الجنةِ » وفيه نزلت آية : « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ » وآية : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » على ماجاء فى بعض الروايات .

وأما وهب بن مُنَبِّه فقد كان تابعاً ثقةً واسع العلم . روى عن أبى هريرة كثيراً ، وله حديث فى الصحيحين عن أخيه همَّام . بلغ من تنسُّكه وصلاحه أنه لبث عشرين سنة يصلى الفجر بوضوء العشاء رضى الله عنه .

وأما كعب فقد كان تابعاً جليلا ، أسلم فى خلافة أبى بكر . وناهيك أن الصحابة أخذوا عنه ، كما أخذ هو عن الصحابة ، وروى عنه جماعة من التابعين مُرسلا . وله شىء فى صحيح البخارى وغيره .

ولكن يجب أن نفرق فى هذا المقام بين مايصحُّ أن يقال فيهم وما يصح أن ينقل عنهم . فأما مايصح أن يقال فيهم فهو الثقة والتقدير على نحو ما ألمعنا . وأما الذى ينقل عنهم فمنه الصحيح وغير الصحيح . لكن عدم صحة مالم يصح لا يعلل باتهامهم وجرحهم ؛ فقد علمت مَنْ هُمْ ؟ إنما يعلل بأحد أمرين :

(أولهما) رجال السند الذين ينقلون عنهم ، فقد يكون بينهم مُتهم فى عدالته أو ضبطه ، ولهذا يجب النظر فى سلسلة الرُّواة عنهم ، رجُلاً رجلا . ولدينا من كتب الجرح والتعديل مابفى بهذه الغاية . ولا يكفى الاعتماد على ذكر السند فى كتاب كبير كتفسير ابن جرير ، فقد يذكر ابن جرير أو غيره أشياء غير صحيحة ، ويسوق أسانيدها ثم لا يبين المجروح من رجال السند ولا المعدَّل فيهم . وعذره فى ذلك أن أحوال الرجال كانت معروفة لأهل ذلك الزمان فيستطيعون أن يحكموا فى ضوء هذه المعرفة بقبول الخبر أو برده . أما نحن فى هذا الزمان المتأخِّر فقد أهملنا هذا الميزان ، ولم نُعْنَ بمعرفة حال الأسانيد والرجال ، فاللوم علينا لا على أولئك الأعلام ، ولا مَعْدَى لنا عن الاسترشاد بكتب الجرح والتعديل فى هذا المقام .

(الأمر الثانى) أن يكون أولئك الثلاثة قد رَوَوْا ما رووه على أنه مما كان فى

الإسرائيليات ، فتقبلها الآخذون على أنها من الإسلاميات . ولهذا يجب النظر فى هذه المرويَّات ، فإن كانت مما يقرره الإسلام قبلناها . وإن كانت مما يَردُّه رددناها ، وإن كانت مما سكت عنه سكتنا عنها عملاً بقوله ﷺ : « إذا حدَّثكم أهلُ الكتابِ فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » . رواه البخارى بهذا اللفظ . ورواه أحمد والبزار من حديث جابر بلفظ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل . والله لو كان موسى بين أظهرِكم ما حلَّ له إلا اتباعى » وسبب هذا الحديث أن النبى ﷺ علم أن عمر كتب شيئاً من التوراة عن اليهود ، فغضب ﷺ وقاله .

ط ـــ تدوين التفسير بالمأثور

وخصائص الكتب المؤلفة فى ذلك

جاء قرن تابعى التابعين ، وفيه أُلِّفَتْ تفاسير كثيرة ، جمعت من أقوال الصحابة والتابعين . كتفسير سفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون ، وعبد الرزاق ، وآدم بن أبى إياس ، وإسحاق بن راهويه ، وروح بن عبادة ، وعبد بن حميد ، وأبى بكر بن أبى شيبة ، وعلى بن أبى طلحة ، والبخارى وآخرين . ومن بعدهم أَلَّف ابن جرير الطبرى كتابه المشهور ، وهو من أجلِّ التفاسير ثم ابن أبى حاتم ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن مردويه وابن حبان ، وغيرهم .

وليس فى تفاسير هؤلاء إلا ماهو مسند إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، ماعدا ابن جرير فإنه تعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض . وذكر الإعراب والاستنباط .

(١) تفسير ابن جرير

ابن جرير هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ولد سنة ٢٢٤ أربع وعشرين ومائتين. وتوفى سنة ٣١٠ عشر وثلاثمائة. كان فريد عصره، ووحيد دهره، علماً وعملاً وحفظاً لكتاب الله، وخبرة بمعانيه، وإحاطة بالآيات ناسخها ومنسوخها، وبطرق الرواية صحيحها وسقيمها، وبأحوال الصحابة والتابعين.

لذلك كان تفسيره من أجلّ التفاسير بالمأثور وأصحها وأجمعها. لما ورد عن الصحابة والتابعين. عرضَ فيه لتوجيه الأقوال، ورجح بعضها على بعض، وذكر فيه كثيراً من الإعراب واستنباط الأحكام. وقد شهد العارفون بأنه لا نظير له فى التفاسير:

قال النووى فى تهذيبه: كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله. وقال أبو حامد الأسفراينى شيخ الشافعية: لو رحلَ أحد إلى الصين ليحصل تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً عليه.

ومن مزاياه أنه، حرّر الأسانيد وقرّب البعيد؛ وجمع ما لم يجمعه غيره غير أنه قد يسوق أخباراً بالأسانيد غير صحيحة ثم لا ينبه على عدم صحتها وقلنا إن عذره فى ذلك هو ذكر السند فى زمن توافر الناس فيه على معرفة حال السند من غير توقف على تنبيه منه. وهذا التفسير موجود إلى اليوم ومنتشر مطبوع، وهو عمدة لأكثر المفسرين.

(٢) تفسير أبى الليث السمرقندى

هو تفسير بالمأثور. يذكر فيه كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين، غير أنه لا يذكر الأسانيد. وهو مخطوط فى مجلدين. وموجود فى مكتبة الأزهر.

(٣) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور

هو للإمام جلال الدين السيوطى ، قال فى مقدمته : إنه لخصه من كتاب ترجمان القرآن ، وهو التفسير المسند إلى رسول الله ﷺ ، وهو مطبوع بمصر ، وقد ذكر فى كتابه الإتقان أنه شرع فى تفسير جامع لما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة ، والأقوال المعقولة ، والاستنباط والإشارات ، والأعاريب واللغات ، ونكت البلاغة ومحاسن البديع . وسماه مجمع البحرين، ومطلع البدرين. وذكر أنه جعل كتاب الإتقان مقدمة له. وذكر فى خاتمة كتاب الإتقان نبذة صالحة من التفسير بالمأثور المرفوع إلى النبى ﷺ من أول الفاتحة إلى سورة الناس .

(٤) تفسير ابن كثير

ابن كثير هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبى حفص عمر القرشى الدمشقى الشافعى المولود سنة ٧٠٥ المتوفى سنة ٧٧٤ . وتفسيره هذا من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها جميعاً . نقل فيه عن النبى ﷺ وكبار الصحابة والتابعين . وقد أخرجته مطبعة المنار بمصر فى تسعة أجزاء . ومعه بأسفل الصفحات تفسير البغوى الآتى ذكره ، وبآخره كتاب فضائل القرآن الذى يعتبر متمماً له .

(٥) تفسير البغوى

هو العلامة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى الفقيه الشافعى. كان إماماً فى التفسير والحديث . له التصانيف المفيدة ، ومنها معالم التنزيل . أتى فيه بالمأثور ، ولكن مجرداً عن الأسانيد .

(٦) تفسير بقىّ بن مخلد

ذكر الإمام السيوطى فى طبقات المفسرين أن بقىّ بن مخلد بن يزيد بن عبدالرحمن

الأندلسى القرطبي أحد الأعلام وصاحب التفسير والسند. أخذ عن يحيى بن يحيى الليثى. ورحل إلى المشرق. ولقى الكبار بالحجاز ومصر وبغداد. وسمع من أحمد بن حنبل وسمع بالكوفة أبا بكر بن أبى شيبة. وسمع بمصر يحيى بن بكير. وسمع بالحجاز أبامصعب الزهرى. وسمع بدمشق هشام بن عمار. وشيوخه مائتان وأربعة وثمانون رجلًا. وكان إماماً، زاهداً، صواماً، صادقاً، مجاب الدعوة، قليل المثل، بحراً فى العلم، مجتهداً لا يقلد أحدا، عُنِىَ بالأثر، وليس لأحد مثل سنده فى الحديث ولا فى التفسير.

قال ابن حزم: أقطع أنه لم يؤلف فى الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير ابن جرير ولا غيره ولد سنة ٢٠٤ أربع ومائتين للهجرة. وتفسيره الموصوف بما ترى يؤسفنا أنه لم يكتب له البقاء ولم يظفر بما ظفر به تفسير ابن جرير من هذا الخلود.

« وكم فى الخدرِ أبهى منْ عروس ولكنْ للعروس الدهرُ ساعدْ »

(٧) أسباب النزول للواحدى :

هو أبو الحسن علىّ بن أحمد الواحدى النيسابورى: اقتصر فى تفسيره على بيان أسباب النزول بالمأثور، وهذا نوع من التفسير لامجال للتأويل فيه. وهو من أعظم ما ألف فى موضوعه، على رغم توسط حجمه.

(٨) الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس :

هو كتاب نفيس. تحدّث فيه مؤلفه عن الناسخ وذكر أقوال العلماء فى ذلك مسندةً. وقد استوعب ماقيل فى النسخ ولو لم يكن عنده صحيحاً. وهذا نوع لا مجال للرأى فيه أيضاً، بل سبيله الوحيدة هى الرواية. وهو معدود هنا من التفسير بالمأثور، على ضرب التوسع كما لا يخفى.

طرق المفسرين بعد العصر الأول

ثم إن كتب التفسير بالمأثور موسوعات كبيرة، لا نستطيع الإحاطة بها ولا بأسماء

جميع مؤلفيها ، ولا بطرق كل مؤلف فيها . غير أنا نستطيع أن نجمل القول فى طرق المفسرين بعد العصر الأول فنقول :

بعد عصر الأولين الذين ألفوا فى التفسير بالمأثور، والتزموا ذكر السند بجملته، جاء قوم صنفوا فى التفسير؛ واختصروا الأسانيد، ولم ينسبوا الأقوال لقائليها . فالتبس بذلك الصحيح وغيره. وصار الناظر فى تلك الكتب يظنها كلها صحيحة. بينما هى مفعمة بالقصص وبالإسرائيليات على وجه لا تمييز فيه كأنها كلها حقائق . ومن هنا استهدفت رواياتهم للتجريح والطعن. ولولا مايقوم به المحققون فى كل عصر من إحقاق الحق ودحض الباطل، لانطمست المعالم ، واختلط الحابل بالنابل، ولكان ذلك مثار مطاعن توجه بلا حساب إلى الإسلام والمسلمين . فقد ذكروا فى قصص الأنبياء ، وفى بدء الخليقة ، والزلازل ، ويأجوج ومأجوج، وبرودة الماء الذى فى الآبار زمن الصيف ، وحرارته فى الشتاء ذكروا فى ذلك كله ما يندى له الجبينُ خجلًا ، وما لا يتفق والحقائق العلمية أبداً . ويا ليتهم نبهوا على وضعه ! لو أنهم فعلوا لكان الأمر هيناً . ولكنهم لم يذكروا السند كما ذكر الأولون ليستطيع المطلع عليه نقده بالرجوع إلى كتب الجرح والتعديل . ثم لم يكلفوا أنفسهم الحكم على السند بعد محاكمته إلى كتب العدل والتجريح . «وتلك ثالثة الأثافى»..

وقد عُنى بعض المفسرين بأن يسرد شتات الأقوال ، حتى إنه ذكر فى تفسير قوله سبحانه: «غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلَا الضَّالِّينَ» نحو عشرة أقوال، مع أن الوارد الصحيح تفسير المغضوب عليهم باليهود، وتفسير الضالين بالنصارى . ولكن الولوع بكثرة النقول، نأى بهم عن الاقتصار على التفسيرَ المقبول .

وكذلك نلاحظ أن كل بارع فى فن يقتصر غالباً فى تفسيره على الفن الذى برع فيه . فالمبرّز فى العلوم العقلية كالفخر الرازى ، أُغرمَ باستعراض أقوال الحكماء والفلاسفة وشبههم والرد عليها فى تفسيره . والمبرز فى الفقه كالقرطبى، أُولعَ بتقرير الأدلة للفروع الفقهية والرد على المخالفين . والمبرز فى النحو كالزجاج والواحدى فى البسيط وأبى حيان فى البحر، يهتم أعظم الاهتمام بالإعراب ووجوهه، ونقل قواعد النحو وفروعها.

وأصحاب المذاهب المتطرفة ، والنحل الضالة ، يقصدون إلى تأويل الآيات على ما يروج مذاهبهم فى التطرف والضلال .

والأخباريون يعنيهم أن يستقصوا القصص والأخبار عمن سلف ، صحيحة كانت أو باطلة .

والإشاريون وأرباب التصوف تهمهم ناحية الترغيب والترهيب والزهد والقناعة والرضا فيفسرون القرآن بما يوافق مشاربهم وأذواقهم . وعلى الإجمال نرى كل نابغة فى فن . أو داعية إلى مذهب أو فكرة، يجتهد فى تفسير الآيات بما يوافق فنه ، ويلائم مشربه ، ويناصر مذهبه، ولو كان بعيداً كل البعد عن المقصد الذى نزل من أجله القرآن.

ولقد غالَى بعضهم فجعل القرآن مشتملا على العلوم الكونية، كالطبيعة، والكيمياء والحساب ، والجبر. وما إلى ذلك . وقد سبق أن حققنا ذلك فى المبحث الأول فارجع إليه إن شئت . وربما نعود إلى القول فى هذا الموضوع مرةً أخرى .

والخلاصة هنا : أنه يجب على المفسر ملاحظة أن القرآن كتاب هداية وإعجاز، وأن يجعل هدفه الأعلى ، ومقصده الأسمى ، إظهار هدايات الله من كلامه ، وبيان وجـوه إعجازه فى كتابه : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

التفسير المحمود والتفسير المذموم

تفسير الصحابة والتابعين ، وتفسير الذين اعتمدوا على أقوال الصحابة والتابعين بالأسانيد الصحيحة، وتفسير أهل الرأى الموفَّق الذين جمعوا بين المأثور الصحيح مع حذف

أسانيده وبين آرائهم العلمية المعتدلة ، كل هذه الثلاثة من التفسير المحمود . ويغلب هذا النوع الثالث فى عصرنا الحاضر؛ إذ تجمع التفاسير لدينا بين معانٍ مأثورة، ومعان توسَّعوا فى ذكرها عن طريق الرأى والاجتهاد المعتمد على العلم والاعتدال .

وهناك نوع رابع، هو تفسير أهل الأهواء والبدع، وحكمه أنه مذموم. قالوا: وأشهر الغارقين فى هذا الضلال الرمانى والجُبَّائى والقاضى عبدالجبار. ثم اختلفوا فى الزمخشرى، فمنهم من عدَّ تفسيره من هذا النوع لما فيه من مناحى الاعتزال. ومنهم من قال: إن فيه فوائد مهمة. يريد بذلك أن يلتمس له المعاذير وأن يُغَلِّب جانب الفوائد التى فيه على جانب الاعتزال الذى يحتويه . ولكن عدالة الأحكام تقضى بأن نسوى بين جميع التفاسير وأن نحاكمها إلى مبدأ واحد، فما وافق منها وجه الصواب وكان بمنأى عن البدع والأهواء فهو محمود . وما تورَّط منها فى الخطأ وتخبَّط فى الهوى والبدعة فهو مذموم ، لافرق بين الزمخشرى وغير الزمخشرى ، ولا بين معتزلى وغير معتزلى .

ميزان المدح والذم

ثم إن هناك ميزاناً لما يحمد من التفسير وما يذمّ ،وهو الفَيْصَل الذى يجب أن نحكِّمه ونزن كل تفسير به ، فما رجح فى هذا الميزان قبلناه وحمدناه ،وما طاش رفضناه وذممناه، والمدح والذم درجات بعضها فوق بعض ، على حسب استيفاء التفسير لوجوه المدح والذم أو نقصها قليلا أو كثيراً. وسنضع هذا الميزان بين يديك تحت عنوان « منهج المفسرين بالرأى » . فانتظره رويداً .

غير أنا نسترعى نظرك هنا إلى كلمة أهل البدع والأهواء ، ونريد أن تكون موفقاً فى حكمك على أية طائفة أو أى شخص ببدعة أو هوى ، وإلا خيف عليك أن تكون أنت صاحب البدعة والهوى فى حكمك . « وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ

سَبِيلِ ٱللَّهِ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ » .

غلطة التعصُّب للرأى :

واعلم أن هناك أفراداً بل أقواماً تعصَّبوا لآرائهم ومذاهبهم، وزعموا أن من خالف هذه الآراء والمذاهب كان مبتدعاً متَّبعاً لهواه، ولو كان متأوِّلاً تأويلاً سائغاً يتسع له الدليل والبرهان . كأن رأيهم ومذهبهم هو المقياس والميزان ، أو كأنه الكتاب والسنة والإسلام . وهكذا استزلَّهم الشيطان وأعماهم الغرور .

ولقد نجم عن هذه الغلطة الشنيعة أن تفرَّق كثير من المسلمين شيعاً وأحزاباً ، وكانوا حرباً على بعضهم وأعداء . وغاب عنهم أن الكتاب والسنة والإسلام أوسع من مذاهبهم وآرائهم ، وأن مذاهبهم وآراءهم أضيق من الكتاب والسنة والإسلام ، وأن فى ميدان الحنيفية السمحة متسعاً لحرية الأفكار ، واختلاف الأنظار ، ما دام الجميع معتصما بحبل من الله . ثم غاب عنهم أن الله تعالى يقول : « وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا . وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً » ويقول جلَّ ذكره : « إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » ويقول تقدَّست أسماؤه : « وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ . وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » .

لمثل هذا أرْبأ بنفسى وبك أن نتَّهم مسلماً بالكفر أو البدعة والهوى لمجرد أنه خالفنا فى رأى إسلامى نظرى ، فإن الترامى بالكفر والبدعة من أشنع الأمور . ولقد قرَّر علماؤنا أن الكلمة إذا احتملت الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ثم احتملت الإيمان من وجه واحد ، حُملت على أحسن المحامل وهو الإيمان . وهذا موضوع

مفروغٌ منه ومن التدليل عليه . لكن يفتُّ فى عضدنا غفلة كثير من إخواننا المسلمين عن هــذا الأدب الإسلامى العظيم ، الذى يحفظ الوحدة ، ويحمى الأُخُوّة ، ويُظهر الإسلام بصورته الحسنة ووجهه الجميـــــل من السماحة واليسر ، واتساعه لكافة الاختلافات الفكرية والمنازع المذهبية ، والمصالح البشرية ، ما دامت معتصمة بالكتاب والسنة على وجه من الوجوه الصحيحة التى يحتملها النظر السديد والتأويل الرشيد .

ولقد حدث مثل هذا الاختلاف على عهد رَسول الله ﷺ بين أصحابه ، فما تنازعوا من أجله ، بل أخذ كلٌّ برأيه وهو يحترم الآخر ورأيه ، وأقرّهم الرسول ﷺ على ذلك ولم يَعِب أحداً منهم ، على رغم أنه يترتّب على بعض هذه الاختلافات أن ترك بعضهم الصلاة فى وقتها اجتهاداً منه ، إذ قال الرسول ﷺ يوماً لفئة من أصحابه «لا يصلينّ أحدُكم العصرَ إلا فى بنَى قُرَيْظة » فسافروا وجدّوا ، ولكن الغزالة تدلّت للغروب وهم لا يزالون ضاربين فى الأرض ، ولما يَصلوا . هنالك اجتهدوا ، فمنهم من وقف عند ظاهر النص فترك العصر حتى خرج وقته مادام لم يَصِلْ إلى بنى قريظة . ومنهم من تأوّل النصّ وحمله على الكناية فى الإسراع فصلّى حين خاف على الوقت من قبل أن يصل إلى بنى قريظة .

نقول : إن مثل هذا الخلاف حدث على عهد صاحب الرسالة وأقرّه ، تيسيراً على المسلمين وإعلاماً بأن الإسلام دين الكافة ، يسع جميع البشر فى كل العصور والأحوال . وشهد المسلمون بعد ذلك عصراً سعيداً كان أئمة الدين فيه يختلفون فيما بينهم كثيرا ، ولكنهم كانوا بجانب هذا يتكارمون ويتعاونون ويتراحمون كثيرا .

وإن كنت فى شك فاسأل التاريخ عن إكرام مالك للشافعى ، واحترام الشافعى لأحمد بن حنبل حتى ورد أنه كان يتبرّك بغُسالة قميصه ، أى يتبرك الأستاذ الإمام

بغسالة قميص تلميذه المخالف له فى الرأى والاجتهاد ! ثم سَل التاريخ عن معاونة صاحب أبى حنيفة للشافعى، ودفعه إليه كتبه فى كرم وحسن ضيافة وصدق محبة ! ولا تنْسَ إباء مالك على الرشيد أن يحمل الناس فى بلاد الإسلام كلها على مُوَطَّئِهِ ومذهبه، ويعتذر إليه بأن الإسلام أوسع من موطئه ومذهبه، وأن أصحاب رسول الله ﷺ تفرّقوا فى البلاد وَلِكلٍّ وِجْهَةٌ.

أرأيتَ هذا النُّبل والطُّهر : أَجَلْ أَجَلْ !! ولكنك ستقضى الأسف حين ترى بجانبه فئاتٍ من المسلمين أيضاً تراشقوا بالكفر، وتراموا بالشرك، وتقاذفوا بالتبدُّع والهوى، لمجرد تأويل يستسيغه النظر، ويتّسع له صدر الاستدلال. ثم اتسع الخرق على الراقع فى بعض الظروف حتى دارت معارك طاحنة بين صفوفٍ كلُّها مسلمة، وأُريقت دماء زكية كلها إسلامية ! ولا نزال نشهد من مثل هــذا الصراع القائم على التنطع مشاهدَ ما كان أغنانا عنها، وما كان أحرانا بالحذر منها، خصوصاً بعد ما سمعنا من الآيات، وبعد أن أقر الرسول أمثال هذه الخلافيات، وبعد أن قال فى حديث واحد ثلاث مرات: « هَلَكَ ٱلْمُتَنَطِّعُونَ » . وهى كلمة صغيرة ولكنها كبيرة، تُحَذِّر وتنذر، وتمثِّل الهلاك جاثماً فى التنطُّع بأشكاله وألوانه، فى الأنفس والأعراض والأموال، وفى الجماعات والأفراد على سواء.

لا أريد أن أطيل فى هذا. ولكنى أريد أن أقرِّر وأكرِّر، أن الحكم على فرد أو جماعة بالبدعة والهوى، لا يجوز أن يكون مبنيًا على غير بدعة أو هوى.

ونرى أن من أمثلة هذا التعصب والسير مع الهوى، أن يرمى بعض المغالين فى الاعتزال إخوانَهم من أهل السنة بأنهم حمير فى جهالتهم، وبأنهم على هَوًى فى عقيدتهم، ولم يكفهم أن يقولوا ذلك نثراً، بل ردّدوه شعراً : وأنشدوا ـ سامحهم الله ـ :

« لجَمَاعَةٌ سَمَّوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً ... وَجماعَةٌ حُمُرٌ ـ لعمرى ـ مُوكَفَه » الخ

وكذلك نرى من أمثلة هذا التعصب والسير مع الهوى أن يرمى بعض المغالين من أهل السنة إخوانهم المعتزلة بالشرك والوثنية ، لاعتقادهم أن العبد خالق لأفعال نفسه الاختيارية .

ونعتقد أن كلتا الطائفتين لو أنصتت إلى وجهة نظر صاحبتها فى هدوء ونَصفة ، لاجتمعتا على الإنسانية التى تجمع الجميع ، وعلى الإسلام الذى يؤلف بين الجميع ، وعلى الاحترام الذى يجب أن يسود الجميع ، فإن لكلٍّ شِرْعَةً ومنهاجاً فى حدود الإسلام وأدلة الإسلام .

ولنقفْ برهةً بجانب هذا المثال ، مثال خلق الأفعال ، ليتّضح الحال ، ولنقيس عليه النظائر والأشباه عند الاختلاف والاشتباه ، ولنعلم أن المتخالفين فى ذلك مازالوا مع خلافهم إخواناً مسلمين ، تظلُّهم راية القرآن ، ويضمهم لواء الإسلام .

فى القرآن الكريم والسنة النبوية نصوص كثيرة على أن الله تعالى خالق كل شىء ، وأن مرجع كل شىء إليه وحده ، وأن هداية الخلق وضلالهم بيده سبحانه . مثل قوله عزَّ وجلَّ : « ٱللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ . هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ . وَٱللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ . وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ . مَنْ يَشَإِ ٱللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً . وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللهُ . إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ، وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ . فَمَنْ يُرِدِ ٱللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ

يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ . لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ . وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللهَ رَمَى » .

وكذلك يقول النبي ﷺ : « إنْ أصابكَ شيءٌ فلا تقلْ لو أنِّى فعلتُ كذا كانَ كذا وكذا . ولكن قل : قَدَّرَ ٱللهُ وما شاء فعلَ » ويقول : « الإيمانُ أن تؤمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورُسلِهِ واليومِ الآخرِ ، وتُؤمِنَ بالقَدرِ خَيْرِهِ وَشرِّهِ » ويقول : « يامُقلِّبَ ٱلقلوبِ وَٱلأَبصارِ ثبِّتْ قلبِي علَى دِينِكَ » . إلى غير ذلك .

هذه النصوص وأمثالها ، إذا نظر العبد إليها لايسعه إلاأن يردَّ الأمور كلها إلى الله معتقداً أنه الواحد الأحد ، لا شريك له فى ملكه ولا فى ناحية من ملكه ، وهى أفعال التكليف من عباده ، وكأن نسبة الأفعال إلى العباد هى الأخرى محض فضل من الله ، على حدِّ ما قال ابن عطاء الله : « من فضلِه وكرمه عليك ، أن خلق العمل ونسبه إليك » .

ويُظاهر هذه الأدلة النقلية أدلة أخرى عقلية ، ناطقة بوحدانية الله فى كل شىء ، وبأن العبد لا يعقل أن يكون خالقاً لما اختاره من أفعاله ، لأنه لو كان خالقاً لها لكان عالماً بتفاصيلها ، ولكنه يشعر من نفسه بأنه تصدر عنه أشياء كثيرة جدًّا من عمله الاختيارى دون أن يعرف تفاصيلها ، كخطوات المشى وحركات المضغ فى الأكل ونحوها . وإذاً فليس العبد هو الخالق لها . « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ؟ » .

بجانب هذا توجد نصوص كثيرة أيضاً من الكتاب والسنة ، تنسب أعمال العباد إليهم ، وتعلن رضوان الله وحبَّه للمحسنين فيها ، كما تعلن غضبه وبغضه للمسيئين منهم . من ذلك قوله سبحانه : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا . إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا . أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ

أَنْ يَسْبِقُونَا . أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ . وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ . قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَاقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ . وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

وكذلك نقرأ فى السنة النبوية : « آعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له * بَادِرُوا بالأعمال فِتناً كقِطَعِ الليل المظلم * الكَيِّسُ مَنْ دانَ نفسه وعمِل لما بعدَ المَوْتِ * ياعباسُ بن عبدِ المطلبِ اعمَلْ لا أُغنِي عنك مِنَ اللهِ شيئاً ، يافاطمةُ بنتَ محمدٍ اعمَلِي لا أُغنى عنك منَ اللهِ شيئاً » إلى غير ذلك .

وهذه نصوصٌ إذا نظر العبد إليها لا يسعه إلا أن يردَّ أعمال العباد الاختيارية إليهم ، معتقداً أنهم يستحقون ثوابها إن أحسنوا وعقابها إن أساءوا . ويُظاهِرُ هذه الأدلة النقلية أدلة عقلية أيضاً شاهدة بعدالة الله وحكمته ، لأن العبد لو لم يكن موجِداً لما اختار من أعماله لَما كان ثمَّةَ وجهٌ لاستحقاقه المثوبة أو العقوبة . وكيف يُثاب أو يعاقب على ماليس له ولم يصدر منه .

غيْرِى جَنَى وَأَنَا المُعذَّبُ فيكُمُ ... فكأنَّنى سَبَّابَةُ للمتندِّمِ

أهل السنة بهرتهم النصوص الأولى والأدلة العقلية التى بجانبها ، فرجّحوها وقالوا : إن العبد لا يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، إنما هى خلق الله وحده. وإذا قيل لهم: كيف يُثاب المرء أو يعاقب على عمل لم يوجده هو ؟ وكيف يتفّق هذا وما هو مقرّر من عدالة الله وحكمته فى تكليف خلقه ؟ قالوا : إن العباد - وإن لم يكونوا خالقين لأعمالهم - كاسبون لها . وهذا الكسب هو مناط التكليف ومدار الثواب والعقاب . وبه يتحقق عدل الله وحكمته فيما شرع المكلفين .

وهكذا حملوا النصوص الأولى على الخلْق ، وحملوا الثانية على الكسب ، جمعاً بين الأدلة . ثم إذا قيل لهم : ما هذا الكسب اختلف الأشعرى والماتريدى فى تحديده : أهو مقارنة القدرة القديمة للحادثة أم هو العزم المصمّم ؟ ولكلٍّ وجهةُ نظر يطول شرحها وتوجيهها .

أما المعتزلة فقد بهرتهم النصوص الثانية وما يظاهرها من برهان النقل ، فرجّحوها وقالوا : إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية. وإذا قيل لهم: أليس الله خالق كل شىء ومنها أعمال العباد ؟ قالوا : بلى إنه خالق كل شىء حتى أعمال عباده الاختيارية بَيْدَ أنه خلق بعض الأشياء بلا واسطة وخلق بعضها الآخر بواسطة ، وأعمال المكلَّفين من القبيل الثانى . خلقها الله بوساطة خلق آلاتها فيه ، وآلاتها هى القدرة الكلية والإرادة الكلية الصالحتان للتعلق بكلٍّ من الطرفين . وليس لنا من حوْل ولا قوة سوى أننا استعملناها على أحد وجهيها إما بحسن الاختيار وإما بسوء الاختيار . ثم لا مانع عندنا من القول بأنه سبحانه خالق لأفعال عباده ولكن على سبيل المجاز، باعتبار أنه خالق أسبابها ووسائلها .

وإذا قيل لهم : إن مذهبكم يستلزم أن يكون لله شركاء كثيرون فى فعله، وهم عباده المكلفون . وهذا يناقض عقيدة التوحيد وبرهان الوحدانية قالوا : لا نسلم هـذا

ولا نقول به ، فإن الوحدانية ليس معناها نفى وجود ذوات أو صفات أو أفعال لغيره . إنما معناها نفى أن يكون لغيره شبه به فى ذاته أو صفاته أو أفعاله وأنتم يا أهل السنة لا تمنعون وجود ذوات لا تشبه ذاته ، ولا تمنعون وجود صفات لا تشبه صفاته ، فلم تمنعون وجود أفعال من العباد لا تشبه أفعاله ؟ وهو ما نقول به فى خلق العباد لأعمالهم ، فإنها لا تشبه أفعال الله بحال .

هكذا تجد لكلتا الطائفتين وجهة نظر قوية وتأويلا سائغاً فيما تؤوله من النصوص المقابلة للنصوص التى بهرتها فرجحتها . ونجد أيضاً أن كلتا الطائفتين لا تلتزم المحظور التى تحاول الأخرى أن تُلزمها إياه فى مقام الحِجاج والجدال ، بل توجه رأيها توجيهاً ينأى بها عن الوقوع فى المحظور . ثم نجد كلتا الطائفتين يتلاقيان أخيراً بعد طول المطاف عند نقطة الاعتقاد السديد بوحدانية الله وحكمة الله ، ولكن على الوجه الذى استبان لها وراج عندها .

فكيف يرضَى منصفٌ إذًا بتجريح إحداها ورميها بأشنع التهم من كفر أو شرك أو هوى ؟ وماذا علينا أن نرجِّح ما نرجح من غير تسفيه للجانب الآخر ؟ بل ماذا علينا أن نلوذ بالصمت ونعتصم بالسكون فلا نخوض فى أمثال هذه الدقائق العويصة ، والمسالك الملتوية البعيدة ؟ لا سيما أن الرحمن الرحيم لم يكلِّفنا بها ولم يفرضها علينا .

ولقد كان سلفنا الصالح يؤمنون بوحدانية الله وعدله . ويؤمنون بقدره وأمره . ويؤمنون بهذه النصوص وتلك النصوص . ويؤمنون بأن العبد يعمل ما يعمل وأن الله خالق كل شىء . ويؤمنون بأنه تعالى تنزَّه فى قدره عن أن يكون مغلوباً أو عاجزاً وتنزَّه فى أمره وتكليفه عن أن يكون ظالماً أو عابثاً . ثم بعد ذلك يصمتون فلا يخوضون فى تحديد نصيب عمل الإنسان الاختيارى من قدرة الله ونصيبه من قدرة العبد . ولا يتعرضون لبيان مَدَى ما يبلغ فعل الله فى قَدَره ، ولا لبيان مدَى ما يبلغ

فعل العبد فى أمثال أمره . ذلك مالم يعلموه ولم يحاولوه ، لأنهم لم يكلفوه . وكان سبحانه أرحم بعباده من أن يكلفهم إياه لأنه من أسرار القدر أو يكاد، والعقل البشرى محدود التفكير ضعيف الاستعداد . ومن شَرَهِ العقول طلبُ مالا سبيل لها إليه . «وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا » .

« لمْ يمتحنَّا بما تعيا العقولُ بهِ حرصاً علينا فلمْ نرتب ولم نهمِ »

واجبنا إزاء الخلافيات

ليس من شأنى هنا أن أفصل القول فى هذه المسألة ولا فى أشباهها ، فلهذا التفصيل علم آخر . إنما هو ضربٌ من التمثيل ، نجتزئ فيه بالقليل ، لنخلص منه بعظة مهمة : هى أن المسلمين لا يجوز لهم أن ينقسموا شيعاً وأحزاباً لأمر ليس من الدين، فضلًا عن أن يكون من أصول الدين ، وإذا التمسنا المعاذير لخوض من خاضوا أو يخوضون فيه دفعاً لشبهات المشتبهين أو ضلال المضللين ، فلن نستطيع التماس عذر واحد لمن شنوها حرباً شعواء بينهم وبين إخوانهم فى الدين . وما كان لهم أن يخرجوا من مثل هذا البحث أعداء متخاذلين ، وقد كانوا بالأمس إخواناً متفاهمين متعاونين .

وإذاً فلنستمسك بالعروة الوثقى، ولنفسح صدورنا للخلافيات مادام صدر الإسلام قد وسعها . ولنعلم أنّ الإسلام أوسع من المذاهب والآراء . ولئن ضقتَ ذرعاً برأى أخيك اليوم فقد ترى أنت رأيه غداً عندما تقتنع بوجهة نظره؛ فقد رجع كثير من أعلام الأئمة عن آراء رأوها، بل عن مذاهب كانوا قد ذهبوا إليها . ولعلك لا تجهل أن للشافعى مذهبا قديما ومذهبا جديداً ، وأن الخلاف فى لواحق العقائد والأصول ، كثير الشبه بالخلاف فى الأحكام والفروع .

لهذا كله ترانى لا أذهب مع الذاهبين فى تضليل المعتزلة وتسفيه أحلامهم ونبزهم

بألقاب الكفر والفسوق ، كما لا أذهب مع الذاهبين فى تجهيل أهل السنة وتحقيرهم ونبزهم بالجهالة والجمود والهوى . «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» .

تحذير :

وأحبُّ ألّا يفهم القارئ الكريم أننى أريدها فوضى لكل متأوِّل فى القرآن ، متلاعب بالنصوص ، عابث بتعاليم الدين . بل الذى أريده وأرجوه هو أن نفرق بين متأوِّل ومتأوِّل ، ثم ننظر أهذا التأويل سائغ أم غير سائغ ؟ أى تساعد عليه قوانين اللغة العربية ، ومقررات الإسلام المقطوع بها ، المعلومة من الدين بالضرورة ، وبراهين العقل والمنطق أم لا ؟

فالسائغ نقبله ونرحب به وإن خالف رأينا ، وغير السائغ نردُّه فى غير تردُّد ، ونحاربه فى غير هوادة ، لأن تاريخ الإسلام لم يشهد أعداء كانوا أخطر عليه من أولئك العابثين الذين تلاعبوا بنصوصه ، وعبثوا بمقرّراته . سواء منهم من ذهب به الماضى كالباطنية ، ومن بَرِم به الحاضر كالبهائية . وقد تسمع قريباً شيئاً عن أمثالهم .

سماحة الإسلام ويسر تعاليمه

بان لك مما ذكرنا أن الإسلام دين سمح ، وأن الله تعالى لم يكلف الخلق من تعاليم دينه إلا ما جاء به كتابه الكريم ، وشرحه نبيه العظيم ، على تلك الطريقة السهلة الواضحة ، البعيدة عن التدقيقات الفلسفية ، والتعقيدات الفنية .

ولعل من تمام الفائدة فى هـذا الموضوع الخطير أن نقتطف لك كلمة قالها حُجَّةُ

الإسلام الغزالى فى الإحياء ، عند بيانه لما بدّل الناس من ألفاظ العلوم إذ قال تغمّده الله برحمته .

« اللفظ الثالث ـ أى من الأسماء المحمودة التى نُقلت بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول ـ التوحيد . وقد جُعل الآن عبارةً عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة ، وإثارة الشبهات ، وتأليف الإلزامات ، حتى لقّب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، وسمى المتكلمون بعلماء التوحيد . مع أن جميع ما هو خاصّة هذه الصناعة لم يكن يُعرف منها شىء فى العصر الأول . بل كان يشتدُّ منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة . فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التى تستبق الأذهان إلى قبولها فى أول السماع ، فقد كان ذلك معلوماً للكل ، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين . وإن فهموه لم يتصفوا به ، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عزَّ وجلّ رؤيةً تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جلّ جلاله ، إلى أن قال :

والتوحيد جوهر نفيس ، وله قشران ، أحدهما أبعد عن اللُّب من الآخر ، فخصّص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر ، وأهملوا اللُّبَّ بالكلية . فالقشر الأول هو أن تقول بلسانك : لا إله إلا الله . وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذى صرّح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من المنافق الذى يخالف سرُّه جهره . والقشر الثانى ألَّا يكون فى القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول ، بل يشتمل ظـــاهر القلب على اعتقاده والتصديق به ، وهو توحيد عوام الخلق . والمتكلمون كما سبق حُرَّاس هذا القشر عن

تشويش المبتدعة. والثالث وهو اللباب أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط، وأن يعبده عبادة يفرده بها، فلا يعبد غيره. ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده. قال تعالى: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ». وقال صلى الله عليه وسلم[1]: «أَبْغَضُ إِلَٰهٍ عُبِدَ فى الأرض عند الله تعالى هُوَ الْهَوَى». وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعانى التى يعبر عنها بالهوى. ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات إليهم، فإنه من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره؟ فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام، وهو مقام الصديقين. فانظر إلى ماذا حُوِّل؟ وبأى قشر قنع منه؟ وكيف اتخذوا هذا مُعتَصَماً فى التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذى يستحق الحمد الحقيقى؟ وذلك كإفلاس من يصبح بُكرَةً ويتوجه إلى القبلة ويقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً» وهو أول كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن توجه قلبه توجهاً إلى الله تعالى على الخصوص. فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجَّهه إلا إلى الكعبة، وما صرفه إلا عن سائر الجهات. والكعبة ليست جهة للذى فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجه إليها متوجهاً إليه تعالى عن أن تحُدَّهُ الجهات والأقطار. وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب التعبد به فكيف يصدق فى قوله؟ وقوله متردد فى أوطاره وحاجاته الدنيوية، ومتصرف فى طلب الحيل فى جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ومتوجه بالكلية إليها، فمتى وجَّه وجهه للذى فطر السموات والأرض؟ وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد، فالموحد

(١) قال العراقى فى تخريج هذا الحديث: رواه الطبرانى من حديث أبى أمامة بإسناد ضعيف.

هو الذى لا يرى إلا الواحد ، ولا يوجه وجهه إلا إليه . وهو امتثال قوله تعالى : « قُلِ ٱللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » . وليس المرادَ به القول باللسان ، فإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى . وإنما موقع نظرِ الله المترجم عنه وهو القلب . وهو معدن التوحيد ومنبعه » اه .

وإياك أن تفهم منه الغضّ من علم التوحيد ، خصوصاً بعد أن صرّح هنا بأنه يحمى قشرة العقيدة عن تشويش المبتدعة . ولكن نقده ينصب على الإسراف فى القشور وإهمال اللباب ، كما سمعت .

تحقيق للأستاذ الإمام

وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كلام فى هـــذه المسألة ، بحاشيته على العقائد العضدية ، توسع فيه كثيراً مع الفرق المخالفة ، حين عرض لحديث الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ستفترق أمتى ثلاثاً وسبعينَ فرْقةً ، كلها فى النارِ إلّا واحدةً . قيل : ومن همْ ؟ قال : « الذينَ همْ عَلَى ما أنا عليهِ وأصحابى » . ثم ختم الشيخ بحثه فقال :

« والحق الذى يرشد إليه الشرع والعقل ، أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود ، ثم منه إلى إثبات النبوات . ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم بدون فحص فيما تكنه الألفاظ ، إلا فيما يتعلق بالأعمال على قدر الطاقة . ثم يأخذ طريق التحقيق فى تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة ، كان ما أدت إليه ما كان ، لكن بغاية التحرى والاجتهاد .

ثم إذا فاء من فكره إلى ما جاء من عند ربه ، فوجده بظاهره ملائماً لما حققه ، فليحمد الله على ذلك . وإلا فليطرق عن التأويل ويقول : « آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا »

فانه لا يعلم مراد الله ونبيه إلا اللهُ ونبيه . على هذا المنوال يكون نسجه فيبوء من الله برضوان ؛ حيث أسس عقائده على السديد من البراهين ، واستقبل الأخبارَ الإلهية بالقبول والتسليم . وتناولها بقلب سليم .

وإن أراد التأويل لغرض ، كدفع معاند أو إقناع جاحد ، فلا بأس عليه إذا سلم برهانه من التقليد والتشويش . وهذا هو دأب مشايخنا كالشيخ الأشعر والشيخ أبي منصور ومن ماثلهم ، لا يأخذون قولًا حتى يسدّدوه ببراهينهم القوية على حسب طاقتهم . وهذا ما يعنى باسم السنى والصوفى والحكيم . وكلٌّ متحزب مجادل فإنما يبغى العنت وتشتيت الكلمة ، فهو فى النار . وكل مقصر فعليه العار والشنار . فاسلك سبيل السلف . واحذر فقد خلف من بعدهم خلف .

ولابدّ فى كمال النجاة ونيل السعادة الأبدية ، من أن ينضمّ إلى ذلك التخلى عن الرذائل ، والتحلى بالأخلاق الكاملة والأعمال الفاضلة . ومن تلك الأخلاق والأعمال تكميل قوة النظر وارتكاب طريق العدل فى كل شىء ، إذ لا ريب أن كل من خالف ما كان عليه النبي وأصحابه من الهمة والسداد والعدل والإنصاف ، وسلوك طريق الاستقامة فى جميع الأخلاق والأعمال ، ونور البصيرة فيما يأخذ ويعطى ، فهو فى النار . ومن كان على ما كانوا عليه فهو فى أعلى غرف الجنان .

وسالك هذا الطريق إما أن يكون سلوكه من قبل الالتفات إلى ماجاء فى الكتاب والسنة وكلام أولى الفضل من الراشدين قديمًا وحديثًا ، فذلك هو الحكيم العلىّ والمؤمن المتوسط . وإما أن يكون مع ذلك قد سلك بنفسه مدارج الأنوار ، ووقف على ما فى ذلك من دقائق الأسرار ، حتى جلس فى حياته هذه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فهو الصوفى ، وهو صاحب المقصد الأسنى والمطلوب الأعلى . وفى هذا مراتبَ لا تحصى ، ومراقٍ لا تستقصى . وهذا وما قبله يشملهما اسم المؤمن الصادق .

فمن تحقق بهذا النور ، فله النجاة والحبور، كان ما كان ، فإن هذا هو المتحقق فيهما كان النبي عليه وأصحابه .

ولنمسك القلم حيث إن المقصود هو الإيجاز . والله أعلم بالصواب،وإليه المرجع والمآب فاسلك بنفسك طريق السداد ، وانظر فيما يكون لك بعين الرشاد » اهـ .

وهنا أمسك أنا القلم أيضاً مؤملاً أن أكون قد وفيت هذا المقام المهم حقه ، وأن أكون قد نجحت فى تجلية مبدأ من المبادئ الإسلامية الرشيدة، عند اختلاف وجهات الأنظار، وتباين منازع الأفكار . كفانا الله شر العناد والغرور والفتنة ، وجمع صفوف الأمة على حقائق الكتاب والسنة ، آمين .

ى — التفسير بالرأى

الجائز منه وغير الجائز

المراد بالرأى هنا الاجتهاد . فإن كان الاجتهاد موفقاً أى مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة ، فالتفسير به محمود وإلا فمذموم. والأمور التى يجب استناد الرأى إليها فى التفسير نقلها السيوطى فى الإتقان عن الزركشى فقال ماملخصه : للناظر فى القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة : —

الأول : النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع .

الثانية : الأخذ بقول الصحابى ، فقد قيل إنه فى حكم المرفوع مطلقاً . وخصه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأى فيه .

الثالثة : الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلا مالا يدل عليه الكثير من كلام العرب .

الرابعة الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع . وهذا النوع الرابع هو الذى دعا به النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس فى قوله : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » .

فمن فسر القرآن برأيه أى باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المآخذ معتمداً عليها فيما يرى من معانى كتاب الله ، كان تفسيره سائغاً جائزاً خليقاً بأن يسمى التفسير الجائز أو التفسير المحمود . ومن حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها ، كان تفسيره ساقطاً مرذولا خليقا بأن يسمى التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم .

فالتفسير بالرأى الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على مانقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه مما ينير السبيل للمفسر برأيه. وأن يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها. وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة حتى يُنَزِّلَ كلام الله على المعروف من تشريعه .

أما الأمور التى يجب البعد عنها فى التفسير بالرأى فمن أهمها التهجُّم على تبيين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة أو الشريعة . ومنها حمل كلام الله على المذاهب الفاسدة . ومنها الخوض فيما استأثر الله بعلمه . ومنها القطع بأن مراد الله كذا ، من غير دليل . ومنها السير مع الهوى والاستحسان .

ويمكن تلخيص هذه الأمور الخمسة فى كلمتين ، هما الجهالة والضلالة .

وينبغى أن يعلم أن فى القرآن علوماً تتنوع إلى ثلاثة :

الأول : علم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه بل استأثر به وحده كمعرفة حقيقة ذاته وصفاته وغيوبه التى لا يعلمها إلا هو . وهـــذا النوع لا يجوز الكلام فيه لأحد إجماعًا .

الثانى : ما أطلع الله عليه نبيه ﷺ واختصّ به . وهذا لايجوز الكلام فيه إلا له عليه الصلاة والسلام ولمن أذن له الرسول . قيل : ومنه أوائل السور .

الثالث : العلوم التى علمها الله تعالى لنبيه مما أمر بتبليغه . وهذا النوع قسمان :(قسم) لايجوز الكلام فيه بطريق السمع كالكلام فى الناسخ والمنسوخ والقراءات ، وقصص الأمم الماضية ، وأسباب النزول ، وأخبار الحشر والنشر والمعاد. (وقسم) يعرف بطريق النظر والاستدلال، وهذا منه المختلف فى جوازه، وهو مايتعلق بالآيات المتشابهات. ومنه المتفق على جوازه وهو مايتعلق بآيات الأحكام والمواعظ والأمثال والحكم ونحوها لمن له أهلية الاجتهاد .

العلوم التى يحتاجها المفسر

وقد بيّن العلماء أنواع العلوم التى يجب توافرها فى المفسر فقالوا : هى اللغة والنحو؛ والصرف ، وعلوم البلاغة ، وعلم أصول الفقه ، وعلم التوحيد ومعرفة أسباب النزول ، والقصص ، والناسخ ، والمنسوخ ، والأحاديث المبينة للمجمل والمبهم ، وعلم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، ولا يناله من فى قلبه بدعة أو كبر أو حبُّ دنيا أو ميل إلى المعاصى . قال تعالى : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » وقال الإمام الشافعى :

شكَوْتُ إلى وكيع سوءَ حِفظى ... فأرشدنى إلى تركِ المعاصى
وأخبرنى بِأنَّ العِلْمَ نُورٌ ... ونُورُ اللهِ لايُهْدَى لعاصى »

ملاحظة :

هذه الشروط التى ذكرناها، وهذه العلوم كلها، إنما هى لتحقيق أعلى مراتب التفسير: مع إضافة تلك الاعتبارات المهمة المسطورة فى الكلمات القيمة الآتية . أما المعانى العامة التى يستشعر منها المرء عظمة مولاه ، والتى يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ الكريم ، فهى قدر يكاد يكون مشتركاً بين عامّة الناس ، وهو المأمور به للتدبُّر والتذكر ، لأنه سبحانه سهّله ويسره . وذلك أدنى مراتب التفسير .

قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده ماخلاصته : ـ

للتفسير مراتب : أدناها أن يبين بالإجمال ماأيُشرِبُ القلبَ عظمةَ الله وتنزيهه ويصرف النفس عن الشر، ويجذبها إلى الخير. وهذه هى التى قلنا إنها متيسِّرة لكل أحد « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » .

وأما المرتبة العليا فهى لاتتم إلا بأمور :

(أحدها) : فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن ، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتفٍ بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعانٍ، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد. ومن ذلك لفظ التأويل. اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص، ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى: « هَلْ يَنْظُرُونَ إلا تَأْوِيلَهُ، يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ» . فإن المراد به العاقبة ، وما يعد به القرآن من المثوبة والعقوبة، أى مايؤدى إليه الأمر فى وعده ووعيده ، فعلى المحقِّق المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله .والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه ، بأن يجمع ماتكرر فى مواضع منه ، وينظر فيه ، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره . ويحقق كيف يتفق معناه مع جملته من الآية؟ فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعضه بعضا ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لماسبق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته .

(ثانيها): الأساليب. فينبغى أن يكون عنده من علمها مايفهم به هذه الأساليب الرفيعة. وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطُّن لنكته ومحاسنه ، والوقوف على مُراد المتكلم منه . نعم إننا لانتسامى إلى فهم مُراد الله تعالى كله على وجه الكمال

والتمام . ولكن يمكننا فهم ما نهتدى به بقدر الطاقة . ويحتاج فى هذه إلى علم الإعراب. وعلم الأساليب (المعانى والبيان) . ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب . ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسدّدين فى النطق، يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع . أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم ؟ كلا. وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة، لذلك صار أبناء العرب أشدّ عجمة من العجم عندما اختلطوا بهم. ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم، لما فقدوه فى مدة خمسين سنة من بعد الهجرة.

(ثالثها) : علم أحوال البشر . فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه فى غيره . وبيّن فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه وسننه الإلهية فى البشر ، وقصّ علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها . فلا بدّ للنظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ومناشىء اختلاف أحوالهم ، من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل وإيمان وكفر . ومن العلم بأحوال العالَم الكبير علويه وسفليه . ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة ؛ من أهمها التاريخ بأنواعه .

أجمل القرآن الكلام عن الأمم ، وعن السنن الإلهية ، وعن آياته فى السموات والأرض وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمالٌ صادرٌ عمن أحاط بكل شىء علماً . وأمرنا بالنظر والتفكر والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالًا . ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره ، لكنّا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده ، لا بما حواه من علم وحكمة .

(رابعها): العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن ، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائى أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوّة من العرب وغيرهم ، لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال، وأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ماقبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة

أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه . . يروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « إن أجهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذى يخشى أن ينقض عُـرَى الإسلام عروةً عروةً » اهـ بالمعنى . والمراد أن من نشأ فى الإسلام ، ولم يعرف حال الناس قبله ، يجهل تأثير هدايته وعناية الله بجعله مغيراً لأحوال البشر ، ومخرجاً لهم من الظلمات إلى النور .

ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادى ، كما ترى بعض الذين يتربونَ فى النظافة والنعيم يعدُّون التشديد فى الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو؛ لأنه من ضروريات الحياة عندهم، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة فى تلك الأوامر، وتأثير تلك الآداب من أين جاء ؟ .

(خامسها): العلم بسيرة النبى ﷺ وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشؤون دنيويها وأخرويها » انتهى من تفسير المنار بتصرف قليل .

الاختلاف فى جواز التفسير بالرأى :

يختلف العلماء فى التفسير بالرأى بين مجيز ومانع . والتحقيق ماقدمناه بين يديك من الجواز بشروطه ، والمنع عند عدم توافر شروطه . وأن ذلك فى غير أدنى مراتب التفسير . أما هذا الأدنى فهو جائز من غير اعتبار تلك الشروط ، لأن الله يسره حتى للعامة كما أسلفنا . ونسوق إليك هنا أدلة المانعين والمجيزين لتزداد بصيرة وتنورا فى هذا الموضوع :

أدلة المانعين :

يستدل المانعون بأدلة : (الأول)أن التفسير بالرأى قول على الله بغير علم ، والقول على الله بغير علم منهى عنه. فالتفسير بالرأى منهى عنه .

دليل الصغرى أن المفسر بالرأى ليس متيقناً أنه مصيب ، وقُصارى أمره أنه يظن ، والقائل بالظن قائلٌ على الله بغير علم . ودليل الكبرى قوله تعالى : « وأن تقولوا عَلَى ٱللهِ مالَا تعلمون » المعطوف على ماقبله من المحرمات فى قوله سبحانه :

« قُلْ إنما حَرَّم رَبِّىَ ٱلْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنهاَ وَماَ بَطَنَ ، وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وأن تُشْرِكُوا بِاللهِ مالَمْ يُنزِّلْ بِهِ سلطاناً ، وَأَنْ تقُولُوا عَلَى ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

لكن أجاب المجيزون عن هذا الدليل بمنع الكبرى ، لأن القائل بالظن فيما لا يوجد عليه نصٌّ قاطع ، ولا دليل عقلى ، إنما يستند إلى علم من الله أى إلى دليل قطعى منه سبحانه على صحة العمل بهذا الظن كقوله تعالى : « لا يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفساً إِلَّا وُسْعَهاَ » . وكقوله صلى الله عليه وسلم مامعناه « من ٱجتَهَدَ وأخطأ فلهُ أجرٌ ، وَإِنْ أَصابَ فلهُ أجرَانِ » .

(الدليل الثانى) الحديثان الآتيان :

(١) ما يرويه الترمذى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « ٱتَّقوا ٱلحديثَ عَلَىَّ إِلَّا ماَ عَلِمْتُمْ ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ . وَمَنْ قالَ فى القرآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

(٢) ما يرويه أبو داود عن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ قَالَ فِى القرآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصابَ فَقَدْ أَخْطَأَ » .

وأُجيب عن هذين الحديثين بأجوبة ثلاثة : ـ

(أولها) أنهما محمولان على من قال برأيه فى نحو مشكل القرآن ومتشابهه مما لا يعلم إلا من طريق النقل عن النبى ﷺ وأصحابه .

(ثانيها) أنهما محمولان على من قال فى القرآن قولًا وهـو يعلم أن الحق خلافه ، كأصحاب المذاهب الفاسدة الذين يتأولون القرآن على وفق هواهم ليحتجُّوا به على صحة آرائهم .

(ثالثها) أنهما محمولان على قول من يأخذ بظاهر الكلام ، من غير أن يستند إلى نقل أو يكلف نفسه البحث عن مُبْهَمَات القرآن ومافيه من حذف وإضمار وتقديم وتأخير ونحو ذلك . . فالنقل لابد منه لكل مفسر ، كيلا يقع فى الخطأ . أما التوسع فى الفهم واستنباط صحيح الآراء فهو خطوة أخرى بعد النقل. لأن الأخذ بظاهر العربية وحده غير كافٍ ولا سديد . تأمل قوله سبحانه : « وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا » فإن معناه: وآتينا ثمود الناقة معجزة واضحة، وبينة لائحة ، تدلهم على صدق صالحٍ عليه الصلاة والسلام وصدق ماجاء به ، فظلموا بعقرها أنفسهم .

والواقف عند ظاهر اللغة العربية يظن أن المراد من الإبصار نظر العين ، ولا يدرى بماذا ظلموا ؟ ولا من ظلموا ؟ أظلموا أنفسهم أم غيرهم ؟

هذه احتمالات فى الحديثين. والدليل إذا تطرّق إليه الاحتمال، سقط به الاستدلال. ويجاب عن حديث جندب زيادة على سابقه بأنه حديث لم تثبت صحته ، وعلى فرض صحته فإنه يحتمل أن يكون معناه : « فقد أخطأ طريق التماس المعنى » ذلك لأن السبيل فى معرفة ألفاظ القرآن إنما هى اللغة وعلومها . والسبيل إلى معرفة أسباب نزوله وتمييز ناسخه ومنسوخه ونحو ذلك إنما هو النقل الصحيح . والسبيل إلى القطع بمراد الله إنما هو الوارد عن النبى ﷺ . فإن لم يظفر بوارد فلا بأس من أن يقيس ويجتهد ويستدل بما ورد على مالم يرد .

الدليل الثالث : ما ورد عن الصحابة والتابعين من أنهم كانوا يتحرّجون عن القول فى القرآن بآرائهم . ومن ذلك ماروى عن الصديق رضى الله عنه أنه قال :

« أىُّ سماء تظلنى ؟ وأىُّ أرضٍ تقلنى ؟ إذا قلتُ فى القرآن برأيى أو بما لا أعلمُ ؟ » .
وماورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: أنا لا أقول فى القرآن شيئاً . وروى عن الشعبى أنه قال : ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح ، والرؤى (أى تأويل الأحلام) ، إلى غير ذلك من الأخبار التى تدلُّ على امتناعهم من أن يقولوا فى القرآن بآرائهم .

وأجيب عن ذلك (أولًا): بأن إحجامهم عن القول فى القرآن كان ورعاً خشيةَ ألَّا يصيبوا عينَ اليقين . والورع : ترك مالا بأس به حذراً من الوقوع فيما به بأس .

(ثانياً) : أن إحجامهم يحتمل أنه مقيد بمالم يعرفوا وجه الصواب فيه . أما إذا عرفوا وجه الصواب فإنهم لا يمتنعون ولو كان وجه الصواب ظنيًّا لا قطعيًّا . هذا أبو بكر نفسه يفتى فى الكلالة حين سئل عنها فى الآية الكريمة ، « يَسْتَفْتُونَكَ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » الخ ويقول: أقول فيها برأيى. فإن كان صواباً فمن الله. وإن كان غير ذلك فمنى ومن الشيطان . الكلالة : كذا وكذا . ومثل هذا ورد عن على وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

(ثالثاً): أن إحجامهم يحتمل أيضا التقييد بما كان من التفسير على وجه قاطع فيما لم يقم فيه دليل قاطع .

(رابعاً) : أن إحجامهم يحتمل أيضاً التقييد بما إذا قام غيرهم عنهم بواجب تفسير القرآن وبيانه . أما إذا انحصرت المسئولية فيهم فمعقول أنهم لا يمتنعون وقتئذ وإلا كانوا كاتمين للعلم وآثمين . حاشاهم من ذلك حاشاهم . رحمهم الله وأحسن جزاءهم ومثواهم .

أدلة المجيزين للتفسير بالرأى :

استدلَّ المجيزون للتفسير بالرأى استدلالات عدَّة أيضا :

(أولها): أن الله تعالى يقول: « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ » ويقول: « كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَاتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَابِ » ويقول: « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ » . وجه الاستدلال أن الله تعالى حثّ على تدبر القرآن والاعتبار بآياته، والاتعاظ بمواعظه . وهذا يدل على أن أولى الألباب بما لهم من العقل السليم واللب الصافى، عليهم أن يتأولوا ما لم يستأثر الله بعلمه . إذ التدبر والاتعاظ فرع الفهم والتفقه فى كتاب الله . والآية الكريمة تدل على أن فى القرآن ما يستنبطه أى يستخرجه أولو الألباب والفهم الثاقب .

(ثانيها): أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فى دعائه لابن عباس : « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل للفظ التنزيل لما كان هنالك فائدة لتخصيصه . فدل على أن التأويل خلاف النقل . وإذن فهو التفسير بالاجتهاد والرأى .

(ثالثها): لو كان التفسير بالرأى غير جائز لتعطل كثير من الأحكام. واللازم باطل. ووجه الملازمة أن النبى ﷺ لم يذكر تفسير كل آية ، والمجتهد مأجور وإن أخطأ ، مادام أنه قد استفرغ وسعه ، ولم يهمل الوسائل الواجبة فى الاجتهاد ، وكان غرضه الوصول إلى الحق والصواب .

ويمكن أن يجعل الخلاف لفظيًّا بأن يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأى على التفسير بالرأى المستوفى لشروطه الماضية ؛ فإنه يكون حينئذ موافقاً لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام العرب . وهذا جائز ليس بمذموم ولا منهى عنه . ثم يحمل كلام المانعين للتفسير بالرأى على ما فقدت شروطه السابقة ، فإنه يكون حينئذ مخالفاً للأدلة الشرعية واللغة العربية . وهذا غير جائز بل هو محطّ النهى ومصبّ الذم . وعليه

يحمل كلام ابن مسعود إذا قال: ستجدون أقواماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدُّع، وإياكم والتقطُّع » وكذلك يحمل قول عمر أيضاً : « إنما أخاف عليكم رجلين رجلًا يتأوَّل القرآن على غير تأويله، ورجلًا ينافس المُلْكَ على أخيه » .

وقول عمر أيضاً : ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ، ولا من فاسق بَيِّنٍ فِسْقُهُ ، ولكنى أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذْلَقَهُ بلسانه ثم تأوَّله على غير تأويله » .

فكل هذا محمول على مالم يوافق تفسيره الأدلة الشرعية ولا قواعد اللغة العربية ولا يخفى أن القول فى القرآن بالرأى معناه أن الله أراد بكلامه كذا . وهذا أمرٌ له خطره الخطير ، ومسئوليته الجسيمة ، نسأل الله تعالى السلامة .

ل ـ منهج المفسرين بالرأى

وخلاصة ما مضى أنه يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأى أن يأخذ حذره وأن يتذرَّع بكل العلوم التى نوّهنا بها ، ليكون قد أصاب المراد أو كاد، ووجب عليه أن ينهج منهج الصواب والسداد ، باتباع ما يأتى :

(أولًا : أن يطلب المعنى من القرآن ، فإن لم يجده طلبه من السنة لأنها شارحة للقرآن ، فإن أعياه الطلب رجع إلى قول الصحابة ، فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه ، وأسباب نزوله. شاهدوه حين نزل، فوق ما امتازوا به من علم وعمل . « وخيرُ ما فسَّرته بالوارد » .

(ثانياً): إن لم يظفر بالمعنى فى الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً ما يأتى :

١ ـ البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق. ملاحظاً المعانى التى كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم .

٢ ـ إرداف ذلك بالكلام على التراكيب من جهة الإعراب والبلاغة ، على أن يتذوّق ذلك بحاسَّته البيانية .

٣ ـ تقديم المعنى الحقيقى على المجازى، بحيث لا يُصار إلى المجاز إلا إذا تعذّرت الحقيقة .

٤ ـ ملاحظة سبب النزول . فإن لسبب النزول مدخلا كبيراً فى بيان المعنى المراد، كما سبق تحقيقه فى مبحث أسباب النزول .

٥ ـ مراعاة التناسب بين السابق واللاحق، بين فقرات الآية الواحدة، وبين الآيات بعضها وبعض .

٦ ـ مراعاة المقصود من سياق الكلام .

٧ ـ مطابقة التفسير المفسَّر من غير نقص ولا زيادة .

٨ ـ مطابقة التفسير لما هو معروف من علوم الكون ، وسنن الاجتماع ، وتاريخ البشر العام ، وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن .

٩ ـ مطابقة التفسير لما كان عليه النبىّ ﷺ فى هَدْيه وسيرته، لأنه ﷺ هو الشارح المعصوم للقرآن بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وشمائله وتقريراته .

١٠ ـ ختام الأمر ببيان المعنى والأحكام المستنبطة منه فى حدود قوانين اللغة والشريعة والعلوم الكونية .

١١ ـ رعاية قانون الترجيح عند الاحتمال ، وهو ما يأتى :

م — قانون الترجيح عند الاحتمال

قال السيوطي في الإتقان مانصه : « كل لفظ احتمل معنيين فصاعدا ، فهو الذى لايجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه . وعليهم اعتماد الدلائل دون مجرد الرأى .

فإن كان أحد المعنيين أوضح وجب الحمل عليه ، إلا أن يقوم الدليل على إرادة غيره .

وإذا تساويا والاستعمال فيهما حقيقة ، لكن في أحدهما لغوية أو عرفية ، وفى الآخر شرعية ، فالحمل على الشرعية أولى ، إلا أن يدل الدليل على إرادة اللغوية ، كما فى قوله تعالى : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » وإن كانت فى أحدهما عرفية والآخر لغوية ، فالحمل على العرفية أولى .

وإن اتفقا فى ذلك أيضاً ، فإن تنافى اجتماعهما . ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد ، كالقرء للحيض والطهر ، اجتهد فى المراد منهما ، بالأمارات الدالة عليه فما ظنَّه فهو مراد الله تعالى فى حقه .

وإن لم يظهر له شىء فهل يتخير أو يأخذ بالأغلظ أو بالأخف ؟ أقوالٌ . وإن لم يتنافيا ، وجب الحمل عليهما عند المحققين . ويكون ذلك أبلغ فى الإعجاز والفصاحة ، إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما » اهـ .

ن — أوجه بيان السنة للقرآن

سبق غير مرة أن بيّنّا أن السنة شارحة للقرآن، لأن الرسول ﷺ وظيفته التبليغ والبيان، بمثل قوله تعالى: « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » ومثل قوله صلى الله عليه وسلم: أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، ألا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ (وجاء في رواية) مُتَّكِئٌ على أريكته، يقول: « عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحِلُّوهُ، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّمُوه الخ ».

ومعنى قوله ﷺ: « لقد أوتيتُ الكتابَ ومثلَه معَه » أنه أوتى من الوحى غير المتلو، مثل الوحى المتلو، تبييناً له وتوضيحاً، وكلٌّ من عند الله. قال تعالى: « وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ».

وقوله فى هذا الحديث: (يُوشِكُ رَجُلٌ الخ) يدل على أنه سيأتى قوم يتمسكون بظاهر القرآن، كالروافض والخوارج، ويتركون الاستدلال بالسنة المبينة للقرآن، فضلوا وأضلوا.

والمراد بقوله على أريكته ـ وهى السرير ـ أنه ممن أطغته النعمة، وألهته عن السعى فى طلب العلم، والبحث عن أحاديث الرسول ﷺ.

وهذا الحديث يدل على أن ما صح ثبوته عن النبى ﷺ قولاً أو فعلاً فهو حجة بنفسه كالقرآن الكريم.

ثم إن بيان السنة على وجوه شتى: ـ

(أحدها) بيان المجمل فى القرآن، كبيان مواقيت الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها، وكيفية ركوعها وسجودها وغير ذلك، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها وأنواعها،

وبيان مناسك الحج ونحوها. مما ورد فى القرآن مجملًا وبينته السنة. ولذا قال ﷺ: « خذوا عنّى مَنَاسِكَكُمْ » وقال : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِى أُصَلِّى » .

قال أحمد بن حنبل : « السنة تفسر الكتاب وتبينه » .

(ثانيها) بيان أحكام زائدة على ما جاء به القرآن: كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم أكل الْحُمُرِ الأهلية وكل ذى ناب من السِّباع ، والقضاء باليمين والشاهد ، وغير ذلك مما هو مقرر فى علم الأصول والفقه .

(ثالثها) بيان معنى لفظ أو متعلقه ، كتفسير « المغضوب عليهم » باليهود ، « والضالين » بالنصارى . وبيان قوله تعالى : « لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ » بأنها مطهرة من الحيض والغائط والنخامة والبزاق . . وتفسير قوله تعالى : « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ » بأنهم يزحفون على أستاههم ويقولون: حبة فى شعيرة، بدلا من امتثال قوله تعالى لهم : « ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ » . وغير ذلك مما خُصِّص به العام ، أو قُيِّد به المطلق ، وهو كثير فى كتب السنة .

س — التعارض بين التفسير بالرأى
والتفسير بالمأثور وما يتبع فى الترجيح بينهما

ينبغى أن يعلم أن التفسير بالرأى المذموم ليس مراداً هنا ، لأنه ساقط من أول الأمر فلا يقوى على معارضة المأثور .

ثم ينبغى أن يعلم أن التعارض بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى المحمود معناه التنافى بينهما ؛ بأن يدل أحدهما على إثبات والآخر على نفى ، كأن كلًّا من المتنافيين وقف فى عرض الطريق فمنع الآخر من السير فيه .

وأما إذا لم يكن هناك تناف فلا تعارض وإن تغايرا ، كتفسيرهم الصراط المستقيم

بالقرآن ، أو بالسنة ، أو بطرق العبودية ، أو طاعة الله ورسوله. فهذه المعانى غير متنافية وإن تغايرت. وكذا ما قيل فى قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ» مما هو مذكور فى كتب التفسير، فليس بمتناف ، فلا يكون متعارضاً ولا متناقضاً .

قيل فى تفسير هذه الآية : الظالم هو المرجأ إلى أمر الله ، والمقتصد هو الذى خلط عملًا صالحاً وآخر سيئاً ، والسابق للخيرات بإذن الله هو الذى تمحض للخير . وقيل : السابق المخلص ، والمقتصد المرائى ، والظالم كافر النعمة غير الجاحد لها . وقيل : السابق من رجحت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته ، والظالم من رجحت سيئاته . وقيل : السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ؛ والظالم الجاهل . وقيل الظالم الذى يعبده على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذى يعبده على الرغبة والرهبة ، والسابق الذى يعبده على الهيبة والاستحقاق . وقيل : الظالم من أخذ الدنيا حلالًا كانت أو حراماً ، والمقتصد من يجتهد ألّا يأخذها إلا من حلال، والسابق من أعرض عنها جملة . وقيل : الظالم طالب الدنيا ، والمقتصد طالب العقبى ، والسابق طالب المولى . وقيل غير ذلك . وفى دار الكتب المصرية بمصر مجلد مخطوط لعلىّ بن محمد بن عمر التونسى اسمه : «تحفة الأحباب » فى تفسير قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ » .

إذا تقرّر هذا فإن التفسير بالمأثور الثابت بالنص القطعى ، لا يمكن أن يعارَض بالتفسير بالرأى ؛ لأن الرأى إما ظنى وإما قطعى أى مستند إلى دليل قطعى من عقل أو نقل ، فإن كان قطعيًّا فلا تعارض بين قطعيين . بل يُؤوَّل المأثور ، ليرجع إلى الرأى المستند إلى القطعى ، إن أمكن تأويله ، جمعاً بين الدليلين . وإن لم يمكن تأويله حُمِل اللفظ الكريم على ما يقتضيه الرأى والاجتهاد ، تقديماً للأرجح على المرجوح .

أما إذا كان الرأى ظنياً بأن خلا من الدليل القاطع واستند إلى الأمارات والقرائن الظاهرة فقط فإن المأثور القطعى يقدّم على الرأى الظنى ضرورة أن اليقين أقوى من الظن .

هذا كله فيما إذا كان المأثور قطعياً . أما إذا كان المأثور غير قطعى فى دلالته لكونه ليس نصًا ، أو فى متنه لكونه خبر آحاد ، ثم عارضه التفسير بالرأى ؛ فلا يخلو الحال ، إما أن يكون ما حصل فيه التعارض مما لا مجال للرأى فيه ، وحينئذ فالمعوّل عليه المأثور فقط ولا يقبل الرأى .

وإن كان للرأى فيه مجال ، فإن أمكن الجمع فبها ونعمت . وإن لم يمكن قدم المأثور عن النبى ﷺ أو عن الصحابة لأنهم شاهدوا الوحى ، وبعيدٌ عليهم أن يتكلموا فى القرآن بمجرد الهوى والشهوة .

أما المأثور عن التابعين فإذا كان منقولا عن أهل الكتاب قدّم التفسير بالرأى عليه . وأما إذا لم ينقل عنهم رجعنا به إلى السمع . فما أيده السمع حُمل النظم الكريم عليه . فإن لم يترجّح أحدهما بسمع ولا بغيره من المرجّحات فإننا لا نقطع بأن أحدهما هو المراد . بل ننزل اللفظ الكريم منزلة المجمل قبل تفصيله ، والمشتبه أو المبهم قبل بيانه .

ع — أهم كتب التفسير بالرأى

قد علم مما سبق أن التفسير بالرأى منه الممدوح الجائز ، ومنه المذموم غير الجائز وهاك بياناً بأشهر من ألّف فى القسم الأول من أهل السنة ومؤلفاتهم :

١ ـ الإمامان الجليلان جلال الدين محمد المحلى ، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطى .

وهما صاحبا التفسير المعروف بتفسير الجلالين .

٢ ـ الإمام البيضاوى ناصر الدين بن سعيد صاحب التفسير المسمى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » .

٣ ـ الإمام فخر الدين الرازى محمد بن العلامة ضياء الدين عمر المشهور بخطيب الرى صاحب التفسير المسمى « مفاتيح الغيب » .

٤ ـ أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوى صاحب التفسير المسمى « إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم » .

٥ ـ العلامة شهاب الدين الألوسى صاحب التفسير المسمى : « روح المعانى » .

٦ ـ نظام الدين الحسن محمد النيسابورى صاحب التفسير المسمى « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » .

٧ ـ العلامة الشيخ محمد الشربينى الخطيب صاحب التفسير المسمى « السراج المنير فى الإعانة على معرفه كلام ربنا الخبير » .

٨ ـ أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى صاحب التفسير المسمى « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

٩ ـ علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى صاحب التفسير المعروف « بتفسير الخازن » .

تفسير الجلالين :

أما تفسير الجلالين فكتاب قيم ، سهل المأخذ إلى حدّ ما ، مختصر العبارة كثيراً، يكاد يكون أعظم التفاسير انتشاراً ونفعاً ، وإن كان أصغرها أو من أصغرها شرحا وحجماً ، تداولته طبقات مختلفة من أهل العلم وغيرهم . وطبع طبعات كثيرة متنوعة .

طبع مرة وحده مجرداً، وأخرى بحاشية المصحف ، وثالثة مع حاشية الصاوى ، ورابعة مع حاشية الجمل. وأوسع حواشيه حاشية الجمل. والعجيب أن كثيراً من فطاحل العلماء كانوا يختارونه لأعلى دراسة عرفت فى التفسير ، كمادة أساسية يدورون حولها ؛ ويستلهمون وحيها . حتى إن دروس التفسير الشهيرة؛ للعلامة المرحوم الشيخ محمد عبده ، كانت مادته فيها تفسير الجلالين ، على ما سمعت .

تفسير البيضاوى :

وأما تفسير البيضاوى فهو كتاب جليل دقيق ، جمع بين التفسير والتأويل على قانون اللغة العربية ، وقرر الأدلة على أصول أهل السنة. وقد التزم أن يختم كل سورة بما يروى فى فضلها من الأحاديث ، غير أنه لم يتحرَّ فيها الصحيح . وأحسن حواشيه المتداولة حاشية الشهاب الخفاجى ، وإن كان له حواش أخرى كثيرة ، منها حاشية سعدى أفندى ، وحاشية الروشنى ، وحاشية الششترى ، وحاشية الشيروانى ، وحاشية السمرقندى على تفسير الفاتحة، وحاشية الإسفرايني على جزء عم ، وحاشية ابن أميرخان على سورة الملك .

تفسير الفخر الرازى :

سيأتى الكلام علية تحت عنوان تفاسير أهل الكلام .

تفسير أبى السعود :

تفسير رائع ممتاز يستهويك حسن تعبيره ؛ ويروقك سلامة تفكيره ، ويروعك ما أخذ نفسه به من تجلية بلاغة القرآن ، والعناية بهذه الناحية المهمة فى بيان إعجازه ،

مع سلامة فى الذوق ، وتوفيق فى التطبيق ، ومحافظة على عقائد أهل السنة . وبعد عن الحشو والتطويل .

تفسير النيسابورى :

يمتاز بسهولة عبارته ، وبتحقيق ما يحتاج إلى تحقيق ، مع قصد وخلو من الحشو وقد عنى بأمرين يلتزمهما : الكلام على القراءات والأوقف فى أول كل مرحلة من مراحل التفسير . والكلام على التأويل الإشارى فى آخر كل مرحلة من تلك المراحل . وهو مطبوع طبعة شهيرة على هامش تفسير ابن جرير . وهو مختصر لتفسير الفخر الرازى مع تهذيب كبير .

تفسير الألوسى :

سيأتى الكلام عليه عند التفسير الإشارى .

تفسير النسفى :

كتاب جليل . متداول مشهور ، سهل ودقيق . قال فيه صاحب كشف الظنون : هو كتاب وسط فى التأويلات ، جامع لوجوه الإعراب والقراءات ، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات ، مرشح لأقاويل أهل السنة والجماعة ، خال من أباطيل أهل البدع والضلالة . ليس بالطويل الممل ، ولا بالقصير المخل اهـ .

تفسير الخطيب :

كتاب عظيم يعنى بثلاثة أشياء ، تقرير الأدلة وتوجيهها ، والكلام على المناسبات بين السور والآيات ، وسرد كثير من القصص والروايات .

تفسير الخازن :

تفسير مشهور ، يعنى بالمأثور ، بيد أنه لا يذكر السند ، وله ولوع بالتوسع فى الروايات والقصص ، ومن مزاياه أنه يتبع القصة ببيان ما فيها من باطل ؛ حتى لا ينخدع بها غرٌّ ولا يفتتن جاهل .

ف ـ تفاسير الفرق المختلفة

كالتفسير الإشارى وتفاسير أهل الكلام وأشهر الكتب فى ذلك

منيت الأمة بأن تفترق أكثر من سبعين فرقة ، وأن يلبسها الله شيعاً ويذيق بعضها بأس بعض ، وإن كانت لا تزال طائفة من هـذه الأمة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله . وقد تناولت كل طائفة كتاب الله تفسره بما ارتضته لنفسها من اعتدال أو تطرف . فظهرت مجموعة التفاسير كالمرايا المجلوة تنطبع فيها صور المفسرين لها على اختلاف مشاربهم ، وتباين منازعهم . ولا غرو ، فكل إناء بما فيه ينضح ، وكلٌّ يغنى على ليلاه .

ومن هنا تجد تفاسير أهل السنة تظهر فيها عقيدة أهل السنة ، وتفاسير المعتزلة تظهر فيها عقيدة الاعتزال ، والشيعة تظهر فى تفاسيرهم عقيدة التشيع ، وهلم وهلم .

وقد تكلمنا تحت العنوان السابق على نماذج من تفاسير أهل السنة ، فلنتكلم هنا على نماذج من تفاسير الفرق المختلفة .

ص ـ تفاسير المعتزلة

ولنبدأ بكتاب الكشاف للزمخشرى ، ثم كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار ، وهما نموذجان من تفاسير أهل الكلام من المعتزلة .

كتاب الكشاف :

أما كتاب الكشاف فصاحبه هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر النحوى اللغوى المعتزلى الملقب بجار الله . ولد سنة ٤٦٧ هـ سبع وستين وأربعمائة . وتوفى سنة ٥٣٨ ثمان وثلاثين وخمسمائة ، بعد أن برع فى اللغة والأدب والنحو ومعرفة أنساب العرب حتى فاق أقرانه ثم تظاهر بالاعتزال ودعا إليه . وكتابه خير كتاب أو من خير الكتب التى يرجع إليها فى التفسير من ناحية البلاغة ، رغم نزعته الاعتزالية . وأغلب التفاسير من بعده أخذت منه واعتمدت عليه .

ويمتاز الكشاف بأمور : (منها) خلوه من الحشو والتطويل (ومنها) سلامته من القصص والإسرائيليات (ومنها) اعتماده فى بيان المعانى على لغة العرب وأساليبهم (ومنها) عنايته بعلمى المعانى والبيان والنكات البلاغية ، تحقيقاً لوجوه الإعجاز (ومنها) سلوكه فيما يقصد إيضاحه طريق السؤال والجواب كثيراً . ويعنون السؤال بكلمة « إن قلت » بفتح التاء . ويعنون الجواب بكلمة « قلت » بضم التاء . وللكشاف حواش كثيرة . منها حاشية أبن كمال باشا زاده ، وحاشية علاء الدين المعروف بالبهلوان ، وحاشية الشيخ حيدر ، وحاشية الرهاوى .

وإليك مواضع من كتابه ينحو فيها نحو الاعتزال ، ويقرر عقيدة القول بالمنزلة بين المنزلتين ، وبأن أفعال العباد مخلوقة لهم ، وبأن رؤية الله فى الدار الآخرة مستحيلة .

(١) يقول عند تفسير قوله تعالى : « ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » الخ ما نصه :
« فإن قلتَ) : ما الإيمان الصحيح ، (قلتُ) : أن يعتقد الحق ، ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله . فمن أخلّ بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق . ومن أخلّ بالشهادة فهو كافر . ومن أخلّ بالعمل فهو فاسق اﻫ . فأنت تراه فسر الإيمان بما يثبت به المنزلة بين المنزلتين . . . وهى منزلة الفاسق بين منزلة المؤمن ومنزلة الكافر . فينفى الإيمان عن سليم العقيدة ما دام أنه قد أخل بواجب العمل . وهو محجوج من أهل السنة بأن هذا التفسير لا يوافق اللغة ولا الشرع . أما اللغة فلأن معنى الإيمان التصديق لا غير ؛ وكذا الشرع بدليل عطف العمل عليه . والعطف يقتضى المغايرة بين المتعاطفين .

(٢) ويقول فى تفسير قوله سبحانه « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » مانصه :
وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذى يستأهل أن يُضاف إلى الله اﻫ . وهذا منه إيماء ورمز إلى أن الرزق الحلال من الله ، وأن الرزق الحرام من العبد .

ويردُّ عليه أهل السنة بقوله سبحانه : « هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ » فالله هو الخالق الرازق لا غيره . سواء أكان الرزق حلالا أم حراماً .

(٣) ويقول فى تفسير قوله تعالى : « خَتَمَ ٱللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ » الخ مانصه :ـ
(فإن قلت) لم أسند الختم إلى الله تعالى ؟ ، وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه ، وهو قبيح . والله تعالى منزه عن فعل القبيح بدليل : « وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » . « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِنْ كَانُوا هُمُ ٱلظَّالِمِينَ » . « إِنَّ ٱللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ » الخ ما قال : ثم أول إسناد الختم إلى الله بأن الكلام

استعارة أو مجاز . على معنى أن الشيطان هو الخاتم أو الكافر ، وأسند إلى الله تعالى لأنه هو الذى أقدره ومكّنه . وهذا المذهب يلزمه فى نظر أهل السنة أمور كلها باطلة :

(منها) مخالفة الدليل العقلى القائم على وحدانية الله تعالى ، وأنه لا شىء من الكائنات إلا وهو أثر من آثار القادر لا غيره .

(ومنها) مخالفة الدليل النقلى كقوله تعالى : « ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ » .

(ومنها) القول بأن هذه الأشياء ، نفذ فيها مراد الشيطان أو الكافر ، بخلاف مراد الله . وهذا أشنع ما يقال :

(ومنها) قياس الغائب على الشاهد ، إذ جعلوا المنع من قبول الحق قبيحاً من الله قياساً على قبحه منا .

(ومنها) الجهل بحقيقة الظلم . وحقيقتهُ أنه التصرف فى ملك الغير بغير إذنه . ولا ملك إلا لله . « لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ » . « إِنْ كُلُّ مَنْ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا » فلا ظلم فى فعله تعالى على أىِّ وجه كان .

(ومنها) أن ما تمسكوا به من أفعال العباد لو كانت مخلوقة لله تعالى لما نعاها عليهم، ولما عاقبهم بها . ولما قامت له حجة عليهم، كل ذلك مبنى على قاعدتهم الخاطئة من التحسين والتقبيح العقليين ، وعلى قياسهم الغائب على الشاهد كما سبق ، وكلا هذين لا يسلم لهم ، ثم يردُّ عليهم بالمثل فيقال لهم : يقبح من الشاهد أن يمكّن غيرَه من فعل شىء ثم يعاقبه عليه ، فكذلك الغائب . وأنتم تقولون إن القدرة التى يخلق بها العبد فعله فى زعمكم ، هى مخلوقة لله تعالى مع علمه بما سيفعله العبد بها . ولا يخفى أن ذلك بمثابة إعطاء سيف لمن يبغى به على الناس ، وذلك قبيح فى الشاهد ، فهو قبيح فى الغائب . وما تجيبون به عن هذه نجيبكم به عن تلك . فالجواب هو الجواب .

(٤) ويقول في تفسير قوله تعالى « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » مانصه : ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمدى ونيل رضوان الله والنعيم المخلد اه. وأنت ترى أن في ذلك تعريضا بإنكار رؤية الله؛ إذ يصرح بأن النجاة والرضوان والنعيم لا غاية للفوز وراءها مع أنه لم يذكر الرؤية. وقد صرح بإنكارها في سورة الأنعام إذ قال في تفسير قوله تعالى: « لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ » مانصه : البصر هو الجوهر اللطيف الذى ركّبه الله في حاسة النظر ؛ به تدرك المبصرات فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه ، لأنه متعال عن أن يكون مبصَرا في ذاته ، إذ الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصالةً أو تبعاً ، وذلك كالأجسام والهيئات اه .

ويردّ عليه أهل السنة (أولا) بأن الإدراك المنفى عبارة عن الإحاطة . ومنه قوله تعالى « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ » أى أحاط به. وقوله سبحانه حكاية عن قوم موسى: « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » أى محاطٌ بنا. فالمنفى إذن عن الأبصار إحاطتها به عزّ وجلّ ، لا مجرد الرؤية . ومن المعلوم أنه تعالى لاتحيط به الأفهام ؛ وهذا لايمنع أن تعرفه . فالإحاطة للعقل منفية كنفى الإحاطة للبصر. وما دون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للبصر ، ثابت غير منفى .

(ثانياً) أن الزمخشري لم يذكر على إحاطة الرؤية عقلًا دليلًا ولا شبه دليل ، سوى أنه استبعد أن يكون المرئى لا في جهة. وهذا نعارضه بالمثل فنقول : يلزمكم استبعاد أن يكون الموجود لا في جهة، إذ الاتباع للوهم يبعدهما جميعاً، والانقياد للعقل يبطل هذا الوهم ويجيزهما معاً .

وحسبنا هذا. فحبل النقاش بين أهل السنة والمعتزلة طويل وميدان الأخذ والرد بينهما علم الكلام ، فارجع إليه إن شئت المزيد . عصمنى الله وإياك من الزلل ، ووفقنا للقصد في الاعتقاد والعمل ، آمين .

كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن :

مؤلفه هو القاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل . وكنيته أبو الحسن البغدادى. برع فى علم الكلام، وفاق أهل زمانه، ووضع كتباً جليلة، وإليه انتهت رياسة المعتزلة ومشيختها، فصاروا يأخذون برأيه ، ويعتمدون على كتبه ، إلى أن توفى سنة ٤١٥ خمس عشرة وأربعمائة . وله مصنفات كثيرة ، من أهمها كتابه هذا : « تنزيه القرآن عن المطاعن ».

وهو مرتَّب على مسائل تتضمن سؤالا وجوابه ، ولم تكن همته تفسير القرآن ، بل كان كل همه موجَّها نحو تأييد مذهبه . لذلك تراه لم يفسر جميع القرآن ، بل يذكر من السورة الآية التى يستطيع أن يؤولها على مقتضى عقيدته ويؤيد بها مذهب المعتزلة على نمط ما فعل الزمخشرى فى الأمثلة التى بين يديك. وهذا الكتاب يحتوى كثيراً من الفوائد على رغم تعصُّبه المذهبى وعدم عنايته بالتفسير كما يجب .

ق — تفاسير الباطنية

الباطنية قوم رفضوا الأخذ بظاهر القرآن وقالوا : للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره . ويستدلون بقوله تعالى: « فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ » وهم فرق متعددة على المثال الآتى :

١ ـ القرامطة : نسبة إلى حمدان قرمط إحدى قرى واسط ، وهو الذى تزعمهم فيما ذهبوا إليه .

٢ ـ الإسماعيلية : نسبة إلى إسماعيل أكبر أولاد جعفر الصادق ، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون الإمامة فيه . وقيل إنهم سموا إسماعيلية، لانتسابهم إلى محمد بن إسماعيل.

٣ ـ السبعية : نسبة إلى عدد السبعة . ذلك لأنهم يعتقدون أن فى كل سبعة إماماً يقتدى به .

٤ ـ الحرمية : نسبة إلى الحرمة . وذلك لأنهم يستبيحون الحرمات .

٥ ـ البابكية : نسبة إلى زعيمهم بابك الخرمى الذى خرج بأذربيجان .

٦ ـ المحمرة : سموا بذلك للبسهم الحمرة .

ومذهب الباطنية على عمومه وباء انتقل إليهم بطريق العدوى من المجوس . ومن تأويلاتهم الفاسدة فى القرآن أنهم يقولون فى تفسير قوله تعالى: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ»: إن الإمام عليًّا وَرِثَ النبى فى علمه .

ويقولون : معنى الجنابة أنها مبادرة المستجيب بإفشاء السر قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى الغسل تجديدُ العهد على من فعل ذلك . ومعنى الطهارة التبرِّى من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام. ومعنى التيمُّم: الأخذُ من المأذون إلى أن يشاهد الداعى الإمام ، ومعنى الصيام : الإمساكُ عن كشف السر .

ويقولون : إن (الكعبة) هى النبى ﷺ ، (والباب) علىّ ، (والصفا) هو النبى ، (والمروة) على ، (ونار إبراهيم) هى غضب النمروذ عليه ، (وعصا موسى) هى حجته . إلى غير ذلك من الخرافات التى لا يقبلها عقل ولا يؤيدها نقل .

وهذه التأويلات الفاسدة من أشد وأنكى ما يصاب به الإسلام والمسلمون ؛ لأنها تؤدى إلى نقض بناء الشريعة حجراً حجرا ، وإلى الخروج من رِبْقَة الإسلام وحلِّ عُراه عروةً عروة ، ولأنها تجعل القرآن والسنة فوضى فاحشة يقال فيهما ماشاء الهوى أن يُقال ، كأنهما لغو من الكلام ، أو كلأ مباح للبهائم والأنعام . وأخيراً ينفرط عقد المسلمين ، ويكون بأسهم بينهم من جراء هذا العبث بتلك الضوابط الدينية الكبرى ،

والحوافظ الأدبية العظمى . ومادام لكل واحد أن يفهم من القرآن ماشاء له الهوى والشهوة دون اعتصام بالشريعة ، ولا التزام لقواعد اللغة، لم يعد القرآن قرآناً ،وإنما هما الهوى والشهوة فحسب .

لهذا شرطنا فى التفسير ماشرطنا.وفى مقدمة شروطه التزام قوانين الشريعةوالتزام قواعد اللغة العربية . أما التزام قوانين الشريعة فلكيلا تتهافت النصوص وتتناقض التعاليم .

وأما التزام قواعد اللغة فلأن القرآن نزل بلسان عربى مبين . ويقول منزله جل شأنه : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »وقضية عروبته هذه أن يفهم على قوانين لغة العرب، وإلا فلا يرجى أن يعقل مافيه ، ولا أن يفهم مايحويه . وذلك معنى قوله : « لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » بعد قوله « عربيًّا » .

ر ـ تفاسير الشيعة

الشيعة طائفة كبيرة بالغت فى حبها للإمام على وتقديرها إياه ،والمبالغة والإسراف حتى فى الفضائل يعود بها إلى الرذائل .

ولهذا يقول علماء الأخلاق : الفضيلة وسط بين رذيلتين . ويقولون : إذا خرج الشيء عن حده عاد إلى ضده .

ومن هنا أمر الإسلام بالاعتدال حتى فى حب النبى ﷺ وتقديره .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ويقول النبى ﷺ لأمته : « لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم . ولكن قولوا عبدُ اللهِ ورسوله » .

ولكن الشيعة بالغوا وأسرفوا فى حب الإمام وتقديره . وهم فرق فمنهم من أغرق فى نفس التشيع حتى كفر . وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن سبأ اليهودى عدو الله الذى ما أظهر الإسـلام إلا بقصد الكيد له والإفساد فيه . ولهذا كانت تلك الفرقة فى موقف خصومة وحرب من المسلمين . حتى ورد أن الإمام عليًّا نفسه شنّ الغارة عليهم وحاربهم وطاردهم .

ومنهم قوم معتدلون لم يسقطوا فى هاوية الكفر ، وإن خالفوا أهل السنة والجماعة فى تفضيل أبى بكر وعمر وعثمان، وتقديمهم على الإمام على فى الخلافة رضى الله عنهم أجمعين ولهؤلاء مذاهب ودراسات ، وكتب وتفسيرات ، وأدلة وتأويلات .

ومن تفاسير الشيعة كتاب يسمى :

مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار .

مؤلفه يدعى المولى عبد اللطيف الكازلانى من النجف . وهذا التفسير مشتمل على تأويلات تشبه تأويلات الباطنية السابقة . فالأرض يفسرها بالدين ، وبالأئمة عليهم السلام ؛ وبالشيعة ، وبالقلوب التى هى محل العلم وقراره ، وبأخبار الأمم الماضية الخ فيقول فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » المراد دين الله وكتاب الله . ويقول فى قوله: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ» المراد أو لم ينظروا فى القرآن الخ فأنت ترى أنه قد حمل اللفظ الذى لا يجهله أحد على معان غريبة من غير دليل . وما حمله على ذلك إلا مركب الهوى والتعصب الأعمى لمذهبه . وذلك لا شك ضلال لا يقل عن ضلال الباطنية ولا البهائية .

« وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » .

ش ـ التفسير الإشارى

هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوُّف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضاً .

وقد اختلف العلماء فى التفسير المذكور ، فمنهم من أجازه ومنهم من منعه . وإليك شيئاً من أقوال العلماء لتعرف وجه الحق فى ذلك :

قال الزركشى فى البرهان : كلام الصوفية فى تفسير القرآن قيل : إنه ليس بتفسير، وإنما هو معانٍ ومواجيد يجدونها عند التلاوة ، كقول بعضهم فى قوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ » إن المراد النفس . يريدون أن علة الأمر بقتال من يلينا هى القرب ، وأقرب شىء إلى الإنسان نفسه .

وقال ابن الصلاح فى فتاويه : وجدت عن الإمام أبى الحسن الواحدى المفسر أنه قال : صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق فى التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر . قال ابن الصلاح : وأنا أقول : الظن بمن يوثق به منهم إذا قال شيئاً من ذلك أنه لم يذكره تفسيراً ، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة ، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية ، وإنما ذلك منهم تنظير لما ورد به القرآن . فإن النظير يذكر بالنظير . ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك . لما فيه من الإبهام والالتباس .

وقال النسفى فى عقائده : « النصوص على ظواهرها ؛ والعدول عنها إلى معانٍ يدَّعيها أهل الباطل إلحاد » اهـ . قال التفتازانى فى شرحه : سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها، بل لها معان لا يعرفها إلا المعلم . وقصدهم بذلك نفى الشريعة

بالكلية . قال : وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الإيمان ، ومحض العرفان .

ومن هنا يعلم الفرق بين تفسير الصوفية المسمى بالتفسير الإشارى ، وبين تفسير الباطنية الملاحدة . فالصوفية لا يمنعون إرادة الظاهر ، بل يحضون عليه ويقولون : لا بدّ منه أولا . إذ من ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم الظاهر ، كمن ادعى بلوغ سطح البيت قبل أن يجاوز الباب .

وأما الباطنية فإنهم يقولون : إن الظاهر غير مراد أصلا ، وإنما المراد الباطن . وقصدهم نفى الشريعة .

ونقل السيوطى فى الإتقان عن ابن عطاء الله فى لطائف المنن ما نصه : اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعانى الغريبة ، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره . ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه فى عرف اللسان . ولهم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه . وقد جاء فى الحديث : (لكل آية ظهر وبطن). فلا يصدّنك عن تلقى هذه المعانى منهم ، أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ . فليس ذلك بإحالة . وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا . وهم لم يقولوا ذلك بل يقررون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ، ويفهمون عن الله ما ألهمهم اهـ .

ملحوظة :

لعل من المناسب هنا أن نسوق إليك عبارة عن السيوطى فى بيان معنى ظهر الآية وبطنها ، وحد الحرف ، ومطلع الحد . قال نوّر الله ضريحه : « فإن قلت » : فقد قال الفريابى: حدثنا سفيان عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع » قلت : أما الظهر والبطن ففي معناه أوجه :

(أحدها) أنك إذا بحثت عن باطنها ، وقسته على ظاهرها ، وقفت على معناها .

(الثاني) أنه ما من آية إلا عمل بها قوم، ولها قوم سيعملون بها، كما قال ابن مسعود.

(الثالث) أن ظاهرها لفظها ، وباطنها تأويلها .

(الرابع) قال أبو عبيدة : ـ وهو أشبهها بالصواب ـ إن القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ، ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين وحديث حدث به عن قوم ، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم ، فيحلّ بهم مثل ما حلّ بهم .

وحكى ابن النقيب (قولا خامساً) : أن ظهرها ماظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر وبطنها ماتضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق .

ومعنى قوله (ولكل حرف حد) أي منتهى فيما أراد الله من معناه . وقيل: لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب .

ومعنى قوله : (ولكل حد مطلع) لكل غاية من المعاني والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ، ويوقف على المراد به . وقيل : كل ما يستحق من الثواب والعقاب يطلع عليه في الآخرة عند المجازاة . وقال بعضهم : الظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد أحكام الحلال والحرام ، والمطلع الإشراف على الوعد والوعيد . قلت : يؤيد هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون لا تنقضي عجائبه ، ولا تُبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفقٍ نجا ، ومن أوغل فيه بعنفٍ هوى ، أخبار وأمثال . وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه . وظهر وبطن : فظهره التلاوة ، وبطنه التأويل

فجالسوا به العلماء ، وجانبوا به السفهاء اﻫ : غير أن الوجه الأول الذى نقله السيوطى فى معنى الظهر والبطن ليس بواضح. وإذا التمسنا له بعض الاحتمالات تشابه أو اتحد بما بعده من الأقوال . والقول الخامس متحدٌ كذلك مع الثالث أو قريب منه . فتأمل .

شروط قبول التفسير الإشارى :

مما تقدم يعلم أن التفسير الإشارى لا يكون مقبولاً إلا بشروط خمسة وهى :

(١) ألا يتنافى وما يظهر من معنى النظم الكريم .

(٢) ألا يُدَّعَى أنه المراد وحده دون الظاهر .

(٣) ألا يكون تأويلاً بعيداً سخيفاً ، كتفسير بعضهم قوله تعالى : «وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ» بجعل كلمة «لمعَ» ماضياً . وكلمة «ٱلمحسنين» مفعوله .

(٤) ألا يكون له معارض شرعى أو عقلى .

(٥) أن يكون له شاهد شرعى يؤيده .

كذلك اشترطوا . بيد أن هذه الشروط متداخلة، فيمكن الاستغناء بالأول عن الثالث، وبالخامس عن الرابع. ويحسن ملاحظة شرطين بدلهما أحدهما بيان المعنى الموضوع له اللفظ الكريم أولاً . ثانيهما ألَّا يكون من وراء هذا التفسير الإشارى تشويش على المفسَّر له. وسيأتيك فى نصيحتى وفى كلام الغزالى مايقرر هذين الشرطين .

ثم إن هذه شروط لقبوله بمعنى عدم رفضه فحسب، وليست شروطاً لوجوب اتباعه والأخذ به . ذلك لأنه لا يتنافى وظاهر القرآن ، ثم إن له شاهداً يعضده من الشرع ، وكل ما كان كذلك لا يرفض . وإنما لم يجب الأخذ به لأن النظم الكريم لم يوضع للدلالة عليه، بل هو من قبيل الإلهامات التى تلوح لأصحابها غير منضبطة بلغة، ولا مقيدة بقوانين .

أهم كتب التفسير الإشارى

وأهم كتب التفسير الإشارى أربعة: تفسير النيسابورى، وتفسير الألوسى، وتفسير التسترى، وتفسير محيي الدين بن عربى.

(١) أما تفسير النيسابورى: فقد تقدّم الكلام عليه، وبقى أن نذكر لك عنه أنه بعد أن يوفى الكلام على ظاهر معنى الآية أو الآيات يقول: قال أهل الإشارة. أو يقول: (التأويل) ثم يسوق المعنى الإشارى لتلك الآية أو الآيات تحت هذا العنوان. مثال ذلك أنه قال بعد التفسير الظاهر لقوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً» الآيات. قال ما نصه: «التأويل: ذبح البقرة إشارة إلى ذبح النفس البهيمية، فإن فى ذبحها حياة القلب الروحانى، وهو الجهاد الأكبر: «مُوتُوا قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا».

« اقْتُلُونِى يَا ثِقَاتِى ... إِنَّ فى قَتْلِى حَيَاتِى
وَحَيَاتِى فى مَمَاتِى ... وَمَمَاتِى فى حَيَاتِى »

مُت بالإرادة تحىَ بالطبيعة. وقال بعضهم: مُتْ بالطبيعة تحىَ بالحقيقة «مَا هِىَ؟ إِنَّهَا بَقَرَةٌ»: نفسٌ تصلح للذبح بسيف الصدق، «لَا فَارِضٌ» فى سن الشيخوخة، فيعجز عن وظائف سلوك الطريق لضعف القوى البدنية، كما قيل: الصوفى بعد الأربعين بارد. «وَلَا بِكْرٌ» فى سن شَرْخ الشباب، يستهويه سكره. «عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ» لقوله تعالى: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» «بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ» إشارة إلى صفرة وجوه أصحاب الرياضات. «فَاقِعٌ لَوْنُهَا» يريد أنها صفرة زين؛ لا صفرة شين. فإنها سيما الصالحين «لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ»: لا تحتمل ذلة الطمع، ولا تثير بآلة الحرص أرض الدنيا لطلب زخارفها ومشتهياتها. «ولا تسقى الحرث» ولا يسقى حرث الدنيا بماء وجهه عند الخلق؛ وبماء وجاهته عند الخالق، فيذهب ماؤه عند الحق وعند الخلق. «مُسَلَّمَةٌ» من آفات صفاتها، ليس فيها علامة طلب غير الله «وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» بمقتضى الطبيعة،

لولا فضل الله وحسن توفيقه :

« وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا » يعني القلب : « فَادَّارَأْتُمْ » فاختلفتم أنه كان من الشيطان . أم من الدنيا أم من النفس الأمارة « فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا » ضرب لسان البقرة المذبوحة بسكين الصدق على قتيل القلب بمداومة الذكر ، فحيي بإذن الله ، وقال « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » .

« وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ » مراتب القلب في القسوة مختلفة : فالتي يتفجر منها الأنهار قلوب يظهر عليها لغليان أنوار الروح بترك اللذات والشهوات بعضُ الأشياء المشبهة بخرق العادات ، كما يكون لبعض الرهبان والهنود . والتي تشقق فيخرج منها الماء ، هي التي يظهر عليها في بعض الأوقات عند انخراق الحجب البشرية من أنوار الروح فيريه بعض الآيات والمعاني المعقولة ، كما يكون لبعض الحكماء ؛ والتي تهبط من خشية الله ما يكون لبعض أهل الأديان والملل من قبول عكس أنوار الروح من وراء الحجب فيقع فيها الخوف والخشية .

وهذه المراتب مشتركة بين المسلمين وغيرهم . والفرق أنها في المسلمين مؤيدة بنور الإيمان ، فيزيدون في قربهم وقلوبهم ودرجاتهم . ولغيرهم ليست مؤيدة بالإيمان ، فيزيدوا في غرورهم وعجبهم وبعدهم واستدراجهم . والمسلمون مختصون بكرامات وفراسات تظهر لهم من تجلِّي أنوار الحق ورؤية برهانه .

فإراءة الآيات للخواصِّ « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » . « وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » . لكن إراءة البرهان لأخصِّ الخواص كما جاء في حق يوسف « لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ » .

سئل الحسن بن منصور عن البرهان فقال : واردات تَرِد على القلوب ، فتعجز القلوب عن تكذيبها . والله أعلم اهـ .

(مثال ثان) قال النيسابوری أيضاً بعد تفسير قوله تعالى: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ » مانصه : « التأويل » مساجد الله التى يذكر فيها اسمه عند أهل النظر ، النفس، والقلب، والروح ، والسر، والخفى وهو سر السر. وذكر كل مسجد منها مناسب لذلك المسجد . فذكر مسجد النفس الطاعات والعبادات ، ومنع الذكر فيه بترك الحسنات وملازمة السيئات. وذكر مسجد القلب التوحيد والمعرفة، ومنع الذكر فيه بالتمسك بالشبهات، والتعلق بالشهوات، فإن القلوب المعلقة بالشهوات عقولها عنى محجوبة. وذكر مسجد الروح بالشوق والمحبة، ومنع الذكر فيه بالحظوظ والمسكنات. وذكر مسجد السر المراقبةُ والشهود ، ومنع الذكر فيه بالركون إلى الكرامات. وذكر مسجد الخفى وهو سر السر ، بذل الوجود ، وترك الموجود . ومنع الذكر فيه بالالتفات إلى المشاهدات والمكاشفات » الخ ما قال .

(٢) وأما تفسير الألوسى فاسمه روح المعانى . ومؤلفه العلامة المحقق شهاب الدين السيد محمد الألوسى البغدادى مفتى بغداد المتوفى سنة ١٢٧٠ سبعين ومائتين وألف . وهذا التفسير من أجل التفاسير وأوسعها وأجمعها . نظم فيه روايات السلف بجانب آراء الخلف المقبولة. وألف فيه بين مايفهم بطريق العبارة ومايفهم بطريق الإشارة. رحمه
آراء الخلف المقبولة . وألف فيه بين مايفهم بطريق العبارة ومايفهم بطريق الاشارة. رحمه
الله وتجاوز عنه .

ومما قاله فى التفسير الإشارى بعد أن فسر قوله تعالى: « وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » إلى آخر الآيات بعدها . قال مانصه :

ومن مقام الإشارة فى الآيات : وإذ قلتم ياموسى القلب، لن نؤمن الإيمان الحقيقى حتى نصل إلى مقام المشاهدة والعيان . فأخذتكم صاعقة الموت الذى هو الفناء فى التجلى الذاتى . وأنتم تراقبون أو تشاهدون . ثم بعثناكم بالحياة الحقيقية . والبقاء بعد الفناء ،

لكي تشكروا نعمة التوحيد والوصول بالسلوك فى الله عز وجل . وظللنا عليكم غمام تجلى الصفات ، لكونها حجبت شمس الذات ، الخ ماقال .

(مثال ثان) : قال بعد تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » قال مانصه :

وإذ أخذنا ميثاقكم المأخوذ بدلائل العقل، بتوحيد الأفعال والصفات، ورفعنا فوقكم طور الدماغ، للتمكن من فهم المعانى وقبولها. أو أشار سبحانه بالطور، إلى موسى القلب، وبرفعه إلى علوه واستيلائه فى جو الإرشاد والشرائع، لكى تتقوا الشرك والجهل والفسق، ثم أعرضتم بإقبالكم إلى الجهة السفلية بعد ذلك. فلولا حكمة الله بإمهاله، وحكمه بإفضاله، لعاجلتكم العقوبة ، ولحلّ بكم عظيم المصيبة .

« إلى اللهِ يُدعى بالبراهينِ مَنْ أَبى

فإنْ لم يُجِبْ ، بَادَتْهُ بِيضُ الصَّوارِمِ »

فهذه الإشارة إنما يعرفها ذو الوجد والمشاهدة، وهى لأصحابها رياض يانعة؛ وأنوار لامعة . اهـ .

(٣) تفسير التسترى : هو أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى المتوفى سنة ٣٨٣ ثلاث وثمانين وثلثمائة. وتفسيره هذا لم يستوعب كل الآيات، وإن استوعب السور ، وقد سلك فيه مسلك الصوفية مع موافقته لأهل الظاهر . وإليك نموذجاً منه إذ يقول فى تفسير البسملة مانصه : ــ

(الباء) بهاء الله عز وجل . (والسين) سناء الله عز وجل . (والميم) مجد الله عز وجل . (والله) هو الاسم الأعظم الذى حوى الأسماء كلها . وبين الألف واللام

منـــه حرف مـكنى غيب إلى غيب ، وسر من سر إلى سر ، وحقيقـة من حقيقـة إلى حقيقـة . لا ينـال فهمه إلا الطاهر من الأدناس ، الآخذ من الحلال قواما ضرورة الإيمان .

(والرحمن) اسم فيه خاصة من الحرف المـكنى بين الألف واللام .(والرحيم) هو العاطف على عباده بالرزق فى الفرع ، والابتداء فى الأصل ، رحمة لسابق علمه القديم . قال أبو بكر : أى بنسيم روح الله اخترع من ملـكه ما شاء رحمة لأنه رحيم وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : الرحمن الرحيم . اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر . فنفى الله بهما القنوط عن المؤمنين من عباده اهـ .

ومن تفسيره بما هو قريب من المعنى الظاهر قوله فى تفسير الآية الـكريمة .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » الخ ما نصه :ـ

أفـكان شاكًا فى إيمانه حتى سأل ربه أن يريه آية معجزة ليصح معها إيمانه ؟ فقال سهل : لم يكن سؤاله ذلك عن شك ، وإنما كان طالباً زيادة اليقين ، يقيناً فى قدرة الله وتمـكينا فى خلقه . ألا تراه كيف قال : « أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى » فلو كان شاكًا لم يُجبْ ببلى . ولو علم الله منه الشك وهو أخبر ببلى وستر الشك ، لـكشف الله ذلك . إذ كان مثله مما لا يخفى اهـ .

وهذا الـكتاب صغير الحجم ، غير أنه غزير المادة فى موضوعه ، مشتمل على كثير من علاج الشبهات، ودفع الإشكالات. يقع فى نحو من ٣١٤أربع عشرة وثلاثمائة صفحة وهو مطبوع بمصر .

(٤) تفسير ابن عربى : هو عبد الله محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله . محيي الدين بن عربى ، الحاتمى ، الصوفى ، الفقيه ، المحدث . ولد بمرسية سنة ٥٦٠ ستين وخمسمائة وتوفى فى دمشق سنة ٦٣٨ ثمان وثلاثين وستمائة .

ومن مصنفاته كتاب الجمع والتفصيل ، فى إبداء معانى التنزيل. ومنها إيجاز البيان فى الترجمة عن القرآن. وقد طبع تفسيره فى جزأين بالمطبعة الأميرية سنة ١٢٨٧ سبع وثمانين ومائتين بعد الألف ، وقد قال فى خطبته ما نصه:

قد تذكرت خبراً قد أتانى فازدهانى ، مما وراء المقاصد والأمانى، قول النبي الأمى الصادق ، عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق : « ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع ». وفهمت منه أن الظهر هو التفسير، والبطن هو التأويل ، والحدّ ما يتناهى إليه المفهوم من معنى الكلام ، والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام .

وقد نقل عن الإمام المحقق السابق ، جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال : لقد تجلى الله تعالى لعباده فى كلامه ولكن لا يبصرون . وروى عنه عليه السلام أنه خرَّ مغشيًّا عليه وهو فى الصلاة ، فسُئِلَ عن ذلك فقال : « مازلت أردِّد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها » .

قال : فرأيت أن أعلق بعض ما يسنح لى فى الأوقات، من أسرار حقائق البطون ، وأنوار شوارق الكائنات ، دون ما يتعلق بالظواهر والحدود ؛ فإنها قد عين لها حدٌّ محدود . وقد قيل : « مَنْ فسَّر القرآن برأيه فقد كفر » وأما التأويل فلا يبقى ولا يذر، فإنه باختلاف أحوال المستمع وأوقاته ، فى مراتب سلوكه وتفاوت درجاته . وكلما ترقَّى عن مقام انفتح له باب فهم جديد ، واطلع به على لطيف معنى عتيد . إلى أن قال : « وكل ما لا يقبل التأويل عندى أو لا يحتاج إليه ، فما أوردته أصلا » الخ اهـ .

ومن تفسيره الإشارى لقول الله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » ما نصه :

« إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » هى النفس الحيوانية. وذبحها قمع هواها الذى هو حياتها ومنبعها، من الأفعال الخاصة بها بشفرة سكين الرياضة. وقال فى تفسير آية « وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً » إلى قوله: « وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ » من سورة الأنبياء، قال مانصه:

ولسليمان الريح » أى سخرنا لسليمان العقل العملى، والمتمكن على عرش النفس فى الصدر، ريح الهوى « عاصفة » فى هبوبها. « تَجْرِى بِأَمْرِهِ » مطيعة له « إلى الأرض » أرض البدن المتدرب بالطاعة والأدب. « ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا » بتمييز الأخلاق والملكات الفاضلة والأعمال الصالحة. « وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ » من أسباب الكمال « عالمين ». « وَمِنَ ٱلشَّيَاطِينِ » شياطين الوهم والتخييل، « مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ » فى بحر الهيولى الجسمانية ويستخرجون درر المعانى الجزئية « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ » من التركيب والتفصيل والمصنوعات، وتهييج الدواعى المكسوبات وأمثالها. « وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ » عن الزيغ والخطأ والتسويل الباطل والكذب « وَأَيُّوبَ » النفس المطمئنة الممتحنة بأنواع البلاء فى الرياضة، البالغة كمال الزكاء فى المجاهدة « إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ » عند شدة الكرب فى الجد، وبلوغ الطاقة والوسع فى الجهد. « أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ » من الضعف والانكسار والعجز. « وَأَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ » بالتوسعة والروح. « فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ » بروح الأحوال عن كد الأعمال، عند كمال الطمأنينة ونزول السكينة « وَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ » من ضر الرياضة بنور الهداية. ونفسنا عنه ظلمة الكرب، بإشراق نور القلب « وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ » القوى النفسية التى ملكناها وأمتناها بالرياضة، بإحيائها بالحياة الحقيقية. « وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ » من إمداد القوى الروحانية وأنوار الصفات القلبية، ووفرنا عليهم أسباب الفضائل الخلقية، وأحوال العلوم النافعة الجزئية « رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ » اهـ.

ت ـ نصيحة خالصة

بيد أن هذا التفسير كما ترى ، جاء كله على هذا النمط دون أن يتعرض لبيان المعانى الوضعية للنصوص القرآنية . وهنا الخطر كل الخطر . فإنه يخاف على مُطالعه أن يفهم أن هذه المعانى الإشارية، هى مراد الخالق إلى خلقه فى الهداية إلى تعاليم الإسلام ، والإرشاد إلى حقائق هذا الدين الذى ارتضاه لهم .

ولعلك تلاحظ معى أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر ، فدخل فى رُوعهم أن الكتاب والسنة بل الإسلام كله ماهى إلا سوانح وواردات ، على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات . وزعموا أن الأمر ما هو إلا تخييلات ، وأن المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح ، فلم يتقيدوا بتكاليف الشريعة ، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية فى فهم أبلغ النصوص العربية : كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

والأدْهَى من ذلك أنهم يتخيَّلون ويخيِّلون إلى الناس ، أنهم هم أهل الحقيقة الذين أدركوا الغاية ، واتصلوا بالله اتصالا أسقط عنهم التكاليف ، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب ، ما داموا فى زعمهم مع رب الأرباب. وهذا ـ لعمر الله ـ هو المصاب العظيم، الذى عمل له الباطنية وأضرابهم من أعداء الإسلام ، كيما يهدموا التشريع من أصوله ، ويأتوا بنيانه من قواعده. « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ. وَيَأْبَى ٱللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ » .

فواجب النصح لإخواننا المسلمين يقتضينا أن نحذِّرهم الوقوع فى هذه الشباك ، ونشير عليهم أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية ، ولا يعوِّلوا على أشباهها مما ورد فى كلام القوم بالكتب الصوفية. لأنها كلها أذواق ومواجيد، خارجة

عن حدود الضبط والتقييد . وكثيراً مايختلط فيها الخيال بالحقيقة والحق بالباطل. وإذا تجردت من ذلك فقلما يظهر منها مراد القائل . وإذا ظهر فقد يكون من الكفريات الفاحشة ، التي نستبعد صدورها من العلماء والمتصوفة بل من صادق عامة المسلمين . والتي نرى الطعن فيها بالدس والوضع ،أقرب وأسلم من الطعن فيمن عُزيت إليه بالكفر والفسق .

فالأحرَى بالفَطِن العاقل، أن ينأى بنفسه عن هذه المزالق، وأن يفرَّ بدينه من هذه الشبهات. وأمامه فى الكتاب والسنة وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة رياضٌ وجنات. « أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ » ؟ ! .

قال ﷺ : « فمن اتقى الشبهات فقد استَبْرَأَ لدينه وعِرْضِهِ » .

وقال ﷺ : « دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى مالا يَرِيبك » وبالله تعالى توفيقى وتوفيقك . نسأله تعالى أن يخرجنا من ظلمات الأوهام ، وأن يحققنا بحقائق الدين وتعاليم الإسلام ، آمين .

كلمة لحجّة الإسلام الغزالى :

وأختتم نصيحتى هذه بكلمة قيِّمة تتصل بموضوعنا اتصالا ماسًّا، وهى مدبَّجة ببراعة الإمام الغزالى ، حين عرض فى كتابه الإحياء للذكر والتذكير وما أدخله الناس فيهما، فقال ـ بلّل الله ثراه ـ :

وأما الشطح فنعنى به صنفين من الكلام أحدثهما بعض الصوفية :

(أحدهما) الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية ، والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاّج الذى صُلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس

ويستشهدون بقوله : أنا الحق . وربما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : سبحانى سبحانى . !! وهذا فنّ من الكلام عظيم ضرره على العوام ، حتى لقد ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع ، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة . ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق . . فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره ، وعظم فى العوامّ ضرره ، حتى من نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة . وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله ، فلا يصح عنه ما يحكى ، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عزّ وجلّ فى كلام يردّده فى نفسه ، كما لو سمع وهو يقول : « إِنَّنِى أَنَا ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى » فإنه ما كان ينبغى أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

(الصنف الثانى من الشطح) : كلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل . وتلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن خبط فى عقله ، وتشويش فى خياله ، لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه . وهذا هو الأكثر . وإما أن تكون مفهومة له ، ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة . ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوّش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معانٍ ما أريدت ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما حدّث أحدكم قوماً بحديث لا يفقهونه إلا كان

فتنة عليهم (١) » وقال ﷺ : كلموا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتريدون ، أن يكذب الله ورسوله (٢) » وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله ؟ فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى عليه السلام : « لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء » وفى لفظ آخر : « من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم . إن للحكمة حقاً ، وإن لها أهلاً ، فأعط كل ذى حق حقه » .

وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه فى الشطح ، وأمر آخر يخصها ، وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية فى التأويلات . فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم ، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها من غير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى . وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر وإنما قصد أصحابها الإغراب ، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له . وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها ، وتنزيلها على رأيهم ، كما حكيناه من مذاهبهم فى كتاب المستظهرى المصنف فى الرد على الباطنية .

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم فى مقدمة صحيحه ، موقوفاً على ابن مسعود . ورواه العقيلى فى الضعفاء .

(٢) هذا الحديث رواه البخارى موقوفاً على على ، ورفعه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم .

ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم فى تأويل قوله تعالى « اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى » إنه إشارة إلى قلبه ، وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان . وفى قوله تعالى : « وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ » أى كل مايتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عزّ وجلّ فينبغى أن يلقيه . وفى قوله ﷺ : « تَسَحَّرُوا فإن فى السُّحورِ بَرَكةً[(١)] » أراد به الاستغفار فى الأسحار ، وأمثال ذلك حتى ليحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء . وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً ، كتنزيل فرعون على القلب ،فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له ، كأبى جهل وأبى لهب وغيرهما من الكفار . وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحسّ حتى يتطرّق التأويل إلى ألفاظه. وكذلك حمل السحور على الاستغفار ، فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناولُ الطعام ويقول : « تَسَحَّرُوا[(٢)] » «وهلموا إلى الغِذَاء المبارَكُ[(٣)] ». فهذه أمور يدرك بالتواتر والحسّ بطلانها نقلا ، وبعضها يعلم بغالب الظن، وذلك فى أمور لا يتعلق بها الإحساس . فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق. ولم ينقل شىء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم. فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم : « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[(٤)] معنى إلا هذا

---

(١) هذا الحديث رواه البخارى ومسلم .

(٢) هذا الحديث رواه البخارى .

(٣) هذا الحديث رواه أبو داودوالنسائى وابن حبان من حديث العرباض بن سارية. وضعفه ابن القطان .

(٤) رواه البخارى ومسلم وقيل بتواتره .

النمط . وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه . فيستجرُّ شهادة القرآن إليه ، ويحمله عليه ، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية .

ولا ينبغى أن يفُهم منه أنه يجب ألا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معانٍ وستة وسبعة ، وعُلم أن جميعها غيرمسموع من النبى ﷺ ، فإنها قد تكون متنافية لاتقبل الجمع، فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر . ولهذا قال ﷺ لابن عباس رضى الله عنه : « اللهم فَقِّهْهُ فى الدِّين وعَلِّمْهُ التأويل » .

ومن يستجيز من أهل الطامّات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ، ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق ، يضاهى من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله ﷺ لما هو فى نفسه حق ولكن لم ينطق به . كمن يضع فى كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبى ﷺ ، فذلك ظلم وضلال ودخول فى الوعيد المفهوم من قوله ﷺ : « من كَذَبَ عَلَىَّ متعمداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار » . بل الشر فى تأويل هذه الألفاظ أطمُّ وأعظم لأنه مبطل للثقة بالألفاظ وقاطع طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية . فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الخلق عن القوانين المحمودة إلى المذمومة . فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامى . فإن اتبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفات إلى ماعرف فى العصر الأول، كنت كمن طلب شرف الحكمة باتباع من يسمى حكيماً ، فإن اسم الحكيم صار يُطلق على الطبيب والشاعر والمنجِّم فى هذا العصر . وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ .

ثم قال : « اللفظ الخامس ـ أى من الألفاظ التى وقع فيها التلبيس ـ لفظ الحكمة فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجِّم حتى على الذى يدحرج القرعة

على أكفّ السوادية فى شوارع الطرق ، . والحكمة هى التى أثنى الله عزّ وجلّ عليها فقال « يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يشاء وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كثيراً » وقال ﷺ: « كلمةٌ من الحكمة يتعلمها الرّجُلُ خيرٌ له من الدنيا وما فيها[(١)] » فانظر ماالذى كانت الحكمة عبارة عنه ؟ وإلى ماذا نقل ؟ وقِسْ به من بقية الألفاظ واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء فإن شرهم على الدين أعظم من من شر الشياطين ، إذ الشياطين بواسطتهم يتدرّج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق . ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن شر الخلق أبَى وقال : « اللّهمّ غفراً[(٢)] » حتى كرروا عليه فقال : « هُم علماء السوء ».

فقد عرفت العلم المحمود والعلم المذموم ومثار الالتباس . وإليك الخيرة فى أن تنظر لنفسك فتقتدى بالسلف ، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبّه بالخلف . فكل ما ارتضاه السلف من العلم قد اندرس ، وما أكبّ الناس عليه فأكثره مبتدَع ومحدَث . وقد صحّ عن رسول الله ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً . وسيعودُ غريباً كما بدأ ، فَطُوبىٰ للغرباء » فقيل: يارسول الله ومَن الغُرَباء ؟ قال : « الذين يُصْلِحُونَ ما أفسدهُ الناسُ من سُنَّتِي . والذين يُحْيُونَ ما أماتوه من سُنَّتِي[(٣)] » وفى خبر آخر : « هُم المتمسِّكُون بما أنتم عليه اليوم[(٤)] » وفى حديث آخر : « الغُرَباء ناسٌ قليلٌ صالحون بينَ ناسٍ كثير . مَنْ يُبْغِضُهُمْ فى الخلق أكثرُ ممن يُحِبُّهُمْ[(٥)] » .

---

(١) هذا الحديث روى ابن المبارك فى الزهد والرقائق مثله مرسلا ، وفى مسند الفردوس بسند ضعيف .

(٢) هذا الحديث رواه البزار فى مسنده بسند ضعيف .

(٣) هذا الحديث رواه مسلم من حديث أبى هريرة مختصراً ، وهو بتمامه عند الترمذى من حديث عمرو بن عوف وحسَّنه .

(٤) هذا الحديث يقول الحافظ العراقى فى تخريجه : لم أرَ له أصلا .

(٥) هذا الحديث رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو .

وقد صارت تلك العلوم غريبةً بحيث محيت ذكراها . ولذلك قال الثّورى رحمه الله : « إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط ، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه » انتهى كلام الإمام الغزالى، ضاعف الله أجره وأحسن ذُخره، ووهبنا السلامة والعافية بمنه وكرمه ، آمين .

ت — تفاسير أهل الكلام

كل إنسان تغلب عليه نزعته فى كتابته، وتلوح عقيدته من خلال تأليفه وتحديثه كما قلنا . وذلك هو الشأن فى علماء الكلام حين تصدّوا لتفسير كتاب الله. فالسنىُّ لاحت على تفسيره أنوار أهل السنة. والمعتزلىُّ فاحت من جوانب بيانه روائح الاعتزال. والشيعىُّ هبّت من نواحى تأويله ريح التشيُّع . وهكذا .

بَيْدَ أن الفرق بينهم كبير ، فى التعصُّب أو القصد ، وفى الإيجاز أو البسط .

وقد مضى بك الحديث فى تفاسير المعتزلة والشيعة. ورأيت كيف كان الزمخشرى فى اعتزاله مقتصداً مستخفياً ؟ وكيف كان القاضى عبد الجبار متعصباً مُسْتَعْلِناً ؟ وكيف كان المولى عبد اللطيف متشيِّعا مسرفاً .

وكذلك تجـــد فى أهل السنة أنفسهم من هو قاصد فى تأييد عقيدته بتفسيره كأولئك الذين ترجمناهم وترجمنا تفاسيرهم من قبل ، عند الكلام على أشهر كتب التفسير بالرأى المحمود .

ومن أهل السنة من استبسل فى الدفاع عن عقيدتهم فى تفسيره . وعلى رأس هؤلاء الإمام فخر الدين الرازى ، الذى شنّها حـــرباً شعواء فى كل مناسبة ، على أهل الزيغ

---

(١) هذا الحديث رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو .

والانحراف فى العقيدة . وقد سلك فى تفسيره « مفاتيح الغيب » المشهور بتفسير الفخر، مسلكَ الحكماء الإلٰهيين . فصاغ أدلته فى مباحث الإلٰهيات على نمط استدلالاتهم العقلية، ولكن مع تهذيبها بما يوافق أصول أهل السنة. وكذلك تعرّض لشبههم بالنقض والتفنيد فى كثير من المواضع .

كما أنه سلك طريقة الطبيعيين فى الكونيات فتكلّم فى الأفلاك والأبراج، وفى السماء والأرض، وفى الحيوان والنبات، وفى أجزاء الإنسان، وغير ذلك مما جرّ إليه الاستدلال على وجود الله جلّ جلاله . غفر الله له وشكر صنيعه « وَٱللَّهُ خَيْرُ الشَّاكِرِينَ » .

خ ـ مزج العلوم الأدبية والكونية

وغيرها بالتفسير ؛ وسبب ذلك ، وأثره

القرآن كتاب هداية وإعجاز، وهدايته وإعجازه يصوّرهما المفسّر ويشرحهما فى تفسيره، على قدر ما فيه من استعداد ومقدرة، وعلى قدر ما عند الناس من علوم ومعارف وأفكار.

ولقد مرّت على القرآن الكريم منذ نزوله إلى الآن عصور وقرون، وأمم وأجيال والقرآن ـ كما كان وكما سيبقى ـ كتابٌ ينشر نور الهداية ويرفع لواء الإعجاز. وكان الذين شُوفِهوا به لأول مرة، عربًا اكتملت فيهم خصائص العروبة، وإن كانوا مع ذلك أُمِّيِّين لا إلمام لهم بالقراءة والكتابة ، ولا شأن لهم بعلوم تدرس ، ولا بكتب تقرأ .

لهذا وذاك كان فهمهم لهداية هذا الكتاب وإعجازه، وتصويرهم لها بالتفسير والبيان، من الأمور الهينة السهلة ، الجارية على الفطرة والبساطة، لا يحتاجون فى ذلك إلى اصطلاحات فنية ، ولا إلى قواعد نحوية وبلاغية ، ولا إلى نظريات علميَّة .

أما إعجازه فكان معروفًا لهم بمحض السليقة العربية السليمة والذوق البلاغى الرقيق. وأما هدايته فكانوا يفهمونها كذلك بعقولهم الصافية، وذكائهم الموهوب، ولغتهم العربية الفصحى التى نزل بها القرآن .

وإذا استعانوا فبالنظر فى كتاب الكون وآيات الله فى الآفاق ، وبمـا خلق الله فيهم وحولهم من عجائب السموات والأرض ، ثم بما يسمعون من بيان رسول الله ﷺ .

مضى الأمر على ذلك مدة . ثم جاء نصر الله والفتح ووطَّأت الأرضُ أكنافها للمسلمين، وأظلَّت راية الإسلام أمماً وشعوباً لم تكن تعرف العربية، ولكنها كانت على ثقافة فى العلوم والفنون والفلسفة . وقد اختلطت هذه الأمم المفتوحة بتلك الأمم الفاتحة، فكان من نتائج هذا الاتصال مع امتداد الزمان أمران :

(أحدهما) أن فسدت اللغة العربية، وأصبح الجميع بحاجة إلى ضوابط تضبطها وتضمن سلامتها ، وتعصم الناس من الخطأ فى فهم الكتاب والسنة . فنشأت بسبب ذلك العلوم الأدبية أو علوم اللغة العربية .

(ثانيهما) أن تُرجمت علوم هذه الأمم الداخلة فى الإسلام وهُذِّبت ونقحت وذاعت ثقافتها بين المسلمين على اختلاف أجناسهم فكان من مقتضيات الحكمة التوفيق بينها وبين القرآن من ناحية، وفهم القرآن فى ضوئها من ناحية أخرى. وإنما كان ذلك من مقتضيات الحكمة ، لأن الإسلام ليس عَدُوًّا للعلم كما يزعم الأفَّاكون، بل هو صديق العلم وحليفه، إن لم نقل كأنه هو ! .

بهذه الأسباب بدأت العلوم الأدبية والعلوم الكونية تتدخل فى تفسير القرآن وتمتزج به على اعتبار أن هدايته وإعجازه لا يُفهمان فهماً صحيحاً كاملاً بالنسبة إليهم إلا عن طريق هذه العلوم والمعارف .

أما علوم اللغة والأدب ، فلأن بها يعرف ضبط الكلمات أبنيتها وهيئاتها وأواخرها، ومدلولات الألفاظ على اختلاف أنواعها ؛ والإحاطة بمعانى التراكيب ، والتمييز بين

العالى والنازل من الأساليب. ولا ريب أن إدراك معانى القرآن، وذوق بلاغته وإعجازه، لا يتأتى لغير العرب الخلص إلا عن هذا الطريق .

وأما العلوم الكونية، فلأن الله تعالى دعا الناس كثيراً أن ينظروا فى هذا الكون، وحضهم بقوة أن يقرءوا صحيفة هذا الوجود ، ليصلوا من الكون إلى مكونه، وليستدلوا بالوجود على موجده ، ولينتفعوا أبلغ انتفاع بتلك القوى العظيمة التى خلقها لأجلهم ، وسخرها لنفعهم . قال تعالى فى سورة الجاثية : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

فلا عجب إذا فهموا تلك الألفاظ الكونية التى فى القرآن على النحو الذى هداهم إليه العلم ، والثقافة التى تثقفوها فى علوم الكون .

ومعلومٌ أن المفسر لا يفسر لنفسه ، إنما يفسر للناس ، فكان من الواجب أن يساير أفكارهم ، ويشرح ألفاظ القرآن فى الظواهر الطبيعية والعلمية ، وسنن الله الكونية ، وقوانين الاجتماع والسياسة، وقواعد الاقتصاد والأخلاق، وسائر التشريعات الشخصية والمدنية والجنائية والحربية ، نقول : يجب على المفسر أن يشرح ألفاظ القرآن فى ذلك كله وفيما يشبهه ، بالطريقة العلمية المألوفة لهم ، وبالأفكار الغالبة عليهم الملائمة لأذواقهم . وإلا فما بلغ رسالته ، ولا أدّى أمانته . وكيف يخاطب العالَم بغير ما يفهمون، ويدخل إليهم من غير الباب الذى يدخلون ؟ .

هذه هى الأسباب التى جعلت التفسير يمتزج بالعلوم الأدبية والكونية وغيرها، وجعلت العلوم الأدبية والكونية تحتلُّ مكانها فى كتب التفسير. وإن كان هذا الامتزاج يختلف

ضعفاً وقوة ، وقلة وكثرة ، وتوفيقاً وخذلاناً ، باختلاف مواهب المفسرين واستعداد الجمهور ، وتقدُّم الزمان وتأخره فى هذه العلوم .

فتفاسير الزجاج وأبى حيان وأضرابهما مليئة بالمباحث النحوية، وتفاسير الزمخشرى وأبى السعود وأشباههما مليئة بالمباحث البلاغية ؛ وتفسير الخازن ومن لفَّ لفَّه ملىء بالأخبار والقصص وتفسير الجواهر للعلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى ملىء بالعلوم الكونية وهو تفسير حديث يشتمل ـ كما قال صاحبه ـ على عجائب بدائع المكوَّنات ، وغرائب الآيات الباهرات. يقع فى خمسة وعشرين مجلداً، وقد تمَّ طبعه بمصر عام ١٣٥٢ اثنين وخمسين وثلاثمائة وألف للهجرة ، رحم الله مؤلفه وجزاه خيراً .

آثار هذا الامتزاج :

أما آثار امتزاج العلوم الأدبية بالتفسير ، فيمكن تلخيصها فيما يأتى :

(١) بيان معانى القرآن وهداياته .

(٢) إظهار فصاحة القرآن وبلاغته .

(٣) الدلالة على وجوه إعجاز القرآن ، من ناحية الأسلوب والبيان .

وأما آثار امتزاج العلوم الكونية بالتفسير ، فيمكن تلخيصها فيما يلى :

(١) مسايرة أفكار الناس ومعارفهم ، وتفسير القرآن لهم تفسيراً يشبع حاجتهم من الثقافة الكونية .

(٢) إدراك وجوه جديدة للإعجاز فى القرآن من ناحية ما يحويه أو يرمز إليه من علوم الكون والاجتماع .

(٣) دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين .

(٤) استمالة غير المسلمين إلى الإسلام من هذا الطريق العلمى الذى يخضعون له دون سواه فى هذه الأيام .

(٥) الحثُّ على الانتفاع بقوى الكون ومواهبه .

(٦) امتلاء النفس إيماناً بعظمة الله وقدرته حينما يقف الإنسان فى تفسير كلام الله على خواصِّ الأشياء ودقائق المخلوقات حسب ماتصوِّرها علوم الكون .

هذا ـ وإن لامتزاج العلوم الكونية والأدبية بالتفسير آثاراً أخرى مشتركة بينهما نجملها فيما يأتى :

(١) زيادة الثقة بالقرآن وعروبته ومعارفه وإعجازه ·

(٢) والإيمان بأنه كتابٌ غنىٌّ بكل مايحتاج إليه البشر من ألوان السعادة .

(٣) والإيمان بأنه كتاب الساعة ، ودستور الناس إلى يوم القيامة ، يصلح لكل زمان ومكان . ولا يستغنى عن كنوزه وذخائره إنسان .

شروط لا بدَّ منها :

تلك الآثار الجليلة التى ألمعنا إليها ، لاتتحقق جلاتها إلا إذا روعيت فيها الأمور الآتية :

(١) ألَّا تطغى تلك المباحث عن المقصود الأول من القرآن ، وهو الهداية والإعجاز . أما إن أسرف المفسر واشتغل بتفريعات العلوم الأدبية ، ونظريات الفنون الكونية ، فقد انعكست الآية ، ولم يعد التفسير تفسيراً . بل يكون أشبه بكتب العلوم والفنون منه بكتب التفسير . كما قال بعض العلماء الظرفاء يصف تفسيراً مشهوراً بالاستطراد والتطويل والضرب فى كثير من العلوم . قال : « لقد حوى هذا التفسير كلَّ شىء إلا التفسير » .

(٢) أن يلاحظ فى امتزاج التفسير بتلك العلوم ، ما يلائم العصر ، ويوائم الوسط ،

لأن تلك الأبحاث الكونية والأدبية ، قد تكون ضرورية ومفيدة أيما فائدة إذا شرح بها القرآن فى عصر من عصور الثقافة ، أو لجمهور من المفتونين بالمادة وعلوم الكون ، أو لطائفة من المتأدبين المشغوفين بفنون البلاغة فى القول. بينما تكون هذه الأبحاث نفسها نكبة وفتنة ، إذا شُرح بها القرآن فى عصر من عصور الجهالة ، أو لفئة أخرى من فئات الناس . « وما من أحد يخاطب قوماً بغير ماتسعه عقولهم إلا كان فتنة عليهم » .

(٣) أن تذكر تلك الأبحاث على وجهٍ يدفع المسلمين إلى النهضة، ويلفتهم إلى جلال القرآن ، ويحرِّكهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون العظيم الذى سخره الله لنا ، انتفاعاً يعيد لأمة الإسلام نهضتها ومجدها .

وهاك نموذجاً على سبيل التمثيل ، وإن أسرف فى هذا السبيل، إسرافاً أنساه نفس التفسير والتأويل .

قال العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه « القرآن والعلوم العصرية » مانصه :

قال الله تعالى : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ . وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ . وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا. إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » عبر الله تعالى بكاف الخطاب ست مرات ، فجعل الماء لنا ، وتسخير الشمس والقمر لنا ، وتسخير الليل والنهار لنا . وقد آتانا من كل ما سألناه فى ضمائرنا ، وما تمنته نفوسنا .

فهل هذا الخطاب استثنى منه المسلمون ؟ فهل جعل الله الثمرات فى الأرض خاصة بغير المسلمين ؟ أم الخطاب عام؟ . وهل الفلك التى تجرى فى البحر ما بين آسيا وأفريقيا وأوربة فى المحيط الهندى والهادى والبحر الأحمر وبحر الظلمات بين أوربة وأمريكا . هل هذه

السفن خاصة بالإفرنج! وكيف نام المسلمون عن علوم التجارة فأصبحت بأيدى غيرهم من الفرنجة وأهل أمريكا وهم صفر اليدين؟ . فالسفن التى تمخر عباب الأنهار والبحار فى سائر أنحاء كرتنا الأرضية بيد الفرنجة ، وهم هم الذين يدرسون علوم المعادن والكهرباء والبخار و « التلغراف » البرق الذى له سلك ، والبرق الذى بلا سلك . أليس من العار عليكم أيها المسلمون أن تكونوا ٣٥٠ مليونا[1] ولا سفن لكم فى البحار كما لغيركم، وقد خاطبكم الله تعالى فقال : « وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » على قواعد علمية بعد معرفة صناعة الحديد لبنائها ، والخشب لتكميلها ، والبخار لتسييرها ، والكهرباء والمغناطيس لمعرفة الأخبار فيها، وقراءة علم الفلك والكواكب السيارة والثابتة للاهتداء بها فى طرق البحار ، ودرس علوم البحار وطرقها ومناطقها ومافيها من مسالك. حتى لا تضل السفن سواء السبيل فتغرق ويهلك مافيها. وبعد دراسة علوم السحب والرياح والعواصف، حتى يلبس الرُّبَّان لكل حال لبوسها، وينهج النهج الذى ينجى السفينة . ثم قال: « وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ » . ولا جرم أن الأنهار تسقى الزروع ، ولها فى جريانها قوة تستخرج منها الكهرباء فتغنى عن الفحم والبترول . والمسلمون فى بقاع الأرض غافلون عن أنهارهم، وتكاد تصبح بيد غيرهم . « وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » . والليل والشمس والقمر ؛ لها حساب دقيق لا يُهتدى إليه إلا بعلم الحساب والهندسة والجبر ثم الفلك ، فلا تطلع الشمس ولا تغرب ، ولا يشرق النجم ولا يغرب، ولا يطلع سيّار ولا يأفل، إلا بمواعيد موقوتة لا تنقص ثانية، بل كل ذلك بمقدار. ولو حرم البشر ذلك يوماً واحداً لاختلّ أمر حياتهم. فها هى سفن البحار وقُطُرات اليابسة؛ كلها تسير بحساب الشمس والكواكب . ولو أغفل الناس بعض ذلك لاختلّت مواعيدهم ،

(١) جاء فى بعض المصادر الموثوق بها أن عدد المسلمين يزيد الآن كثيراً على أربعمائة مليون .

ولتصادمت قطراتهم ؛ ولمات كثير منهم . ويعرف ذلك كل من اطلع على طرَفٍ من علم الفلك فى هذه الأيام » انتهى ما أردنا نقله بقليل من التصرف .

كلمة ختامية

لاتحسبنّ أن مانوّهنا به فى هذا المبحث قد أحاط بما كُتب من تفاسير القرآن ، ولاتحسبنّ أن ما كتب من جميع التفاسير قد أحاط بكل ماأودعه الله القرآنَ من أحكام وحِكَم ومعارف وأسرار . بل إن ماذكرناه هنا من التفسير قُلٌّ من كُثْر ، ثم إن ماحوته تلك الموسوعات التفسيرية على كثرتها لم تأخذ من القرآن إلا كما يأخذ المخيط إذا أدخل البحر . ويروقنى ماقاله بعض الأعلام حين سئل : ماخير تفسير للقرآن ؟ فأجاب : الدهر. يعنى أن العلوم والمعارف والأفكار والحوادث والتجارب التى تجدُّ فى الزمن عوامل مهمّة فى شرح القرآن . وكل حقبة من سلسلة هذه الأزمان الطويلة ، تكشف عن بعض مخبوءات أسراره التى لم تكن معروفة من قبل .

وإن كنت فى شك فهاكَ دور الكتب ومكتبات العالم ، فإنها لاتزال ـ على كثرة ماضاع واندثر ـ زاخرةً بأمواج كالجبال من التفاسير ، مما لايمكن أن يحيط به إلا العليم الخبير . وإنه ليُعْييك استقصاء أسمائها ، فضلًا عن استقراء مسمّياتها. وإنك لتجد فيها فنونًا وألوانًا وشؤونًا مما فتح الله على العلماء فى بيان كتابه: منها تفاسير بالمأثور وتفاسير بالرأى . ومنها تفاسير ظواهر العبارة وتفاسير غوامض الإشارة. ومنها تفاسير يغلب عليها صنعة الكلام ، وأخرى يغلب عليها صنعة البلاغة وثالثة يغلب عليها النحو والإعراب، ورابعة يغلب عليها تفاريع الأحكام وخامسة يغلب عليها علوم الكون ، إلى غير ذلك. ومنها تفاسير كل القرآن وتفاسير جزء منه أو سورة أو آية .

ولقد اطلعتُ ـ وأنا قصير الباع قليل الاطلاع ـ على فهارس تفاسير خاصة بكلٍّ مما يأتى ، وقد يكون مع ذلك تنوُّعُ التأليف وتعدد المؤلفين فى الشىء الواحد :

منها تفاسير لجزء عم ، ولجزء تبارك ، ولسورة الفاتحة ، ولسورة يوسف ، ولسورة الرعد ، ولسورة الكهف ، ولسورة النور ، ولسورة يٓس ، ولسورة الحجرات ، ولسورة الحديد ، ولسورة القدر ، ولسورة الفيل ، ولسورة التكاثر ، ولسورة الكوثر ، ولسورة الإخلاص وحدها ، ولسورة الإخلاص مع المعوِّذتين .

ومنها تفاسير للبسملة ؛ ولآية الكرسى ، ولأول سورة الأنبياء ، ولأول سورة الفتح ، ولحروف المعجم فى فواتح السور ، ولآية « إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ » . ولآية « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ » ، ولآية « إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » . ولآية « إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ » ولآية « أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِالْهُدَى » ولآية « فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ » . ولآية « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا » ولآية « لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا » . ولآية « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ » . ولآية « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ » . ولآية « وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ » ولآية « إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ » . ولآية « إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِنْدَ ٱللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا » . ولآية « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » . ولآية « مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللهُ لَهُ » ولآية « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ » بغير ما قاله المفسرون من قبل . وهو تفسير للعلامة الجليل الشيخ يوسف الدجوى

وإن تعجب فهناك رسالة فى معنى حرف الواو ، أو وجه ثبوت الواو فى قوله تعالى : « وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » من أواخر سورة الزُّمَر .

أرأيتَ ذلك وأضعافَ ذلك ! إنه قَبَسٌ من نور القرآن ، وشُعاعٌ من شمس الحقيقة الكبرى ، وبصيص من تجلِّيات هدايات الله لبعض عباده ! .

أما النور كله ، والهُدَى كله ، فذلك سرٌّ من أسرار الربوبية ، وكنزٌ من كنوز الألوهية . وشتَّان ما بين علم الخالق وعلم الخلق ، وأين كمالُ السيد من نقص العبد ؟!.

نهاية القول :

ونهاية القول أن هذا فنٌّ جديد أيضاً من فنون إعجاز القرآن ، حيث أقام الله كتابه آياتٍ بيِّنات للناس فى معارفه ومعانيه ، كما أقامه آياتٍ بيِّنات لهم فى ألفاظه ومبانيه ! .

« قُلْ : فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ » .

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ »

اللهم أتمم علينا نعمتك ولا تحرمنا هدايتك ، واسلكنا بالقرآن فى سلك المهديِّين الهادين ، وارفعنا به إلى أعلى عليين ، آمين آمين .

وَ « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ » ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق ومبعوث الحق سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه .

المبحث الثالث عشر
فى ترجمة القرآن وحكمها تفصيلا

أهمية هذا المبحث .

نوجه الأذهان فى فاتحة هذا المبحث إلى أهميته وخطره ، من نواح ثلاث :

(أولاها) دقته وغموضه إلى حد جعل علماءنا يختلفون فيه قديما وحديثاً ، وجعل مصرنا العزيزة منذ أعوام ميدانا لتطاحن الأفكار والآراء فيه منعاً وتجويزاً .

(ثانيها) أن كثيرا من الناس قاموا فى زعمهم بنقل القرآن إلى لغات كثيرة، وترجمات متعددة ، بلغت بإحصاء بعض الباحثين مائة وعشرين ترجمة،فى خمس وثلاثين لغةمابين شرقية وغربية ، وتكرر طبع هذه الترجمات حتى إن ترجمة واحدة هى ترجمة جورج سيل الانجليزى طبعت أربعا وثلاثين مرة .

وأوفر هذه الترجمات وأكثرها طبعاهى الترجمات الانكليزية فالفرنسية فالألمانية فالإيطالية . وهناك خمس ترجمات فى كل من اللغتين الفارسية والتركية ، وأربع ترجمات باللغة الصينية ، وثلاث باللاتينية ، واثنتان بالأفغانية ، وواحدة بالجاوية ، وأخرى بالأوردية .

ومن هؤلاء الذين ترجموه من يحمل للإسلام عداوة ظاهرة، ومنهم من يحمل حباً له ولكنه جاهل به ، « وعدو عاقل خير من صديق جاهل » .

(ثالثتها) وقوع أغلاط فاحشة فى هذه التى سموها ترجمات؛ وكان وجودها معولا هداما لبناء مجد الإسلام ، ومحاولة سيئة لزلزلة الوحدة الدينية واللغوية والاجتماعية. لأمتنا الإسلامية (صانها الله) .

أمام هذه الوقائع القائمة ، والحقائق الماثلة ، والمحاولات الخطيرة ما كان ينبغى لنا أن نقف مكتوفى الأيدى ، مكممى الأفواه ، كأن الأمر لا يعنينا فى قليل ولا كثير، على حين أن الذى وضع منهم فكرة هذه الترجمات ، وتولى كبر هذه المؤامرة ، رجل من رجال

دينهم ، ومطران من مطارنتهم ، يدعى يعقوب بن الصليبى ،إذ خيل إلى قومه أنه ترجم آيات جمة من القرآن باللسان السريانى فى القرن الثانى عشر الميلادى. ثم نشرت خلاصتها فى هذا القرن سنة ١٩٢٥ خمس وعشرين وتسعمائة وألف ميلادية ، نقلا عن نسخة مخطوطة بالمتحف البريطانى بلندن ، مشفوعة بترجمة إنكليزية لها . وتابع هذا المطران أحبار ورهبان ، كانوا أسبق من غيرهم فى هذا الميدان .

وأنت خبير بما يريدون ، « والله أعلم بما يبيتون » .

راجع فى ذلك محاضرات الفيكنت دى طرازى[1]، ثم انظر ما كتبه العلامة أبو عبد الله الزنجانى فى كتابه : تاريخ القرآن إذ يقول :

« ربما كانت أول ترجمة إلى اللغة اللاتينية لغة العلم فى أوربا، وذلك سنة ١١٤٣ بقلم (كنت) الذى استعان فى عمله ببطرس الطليطلى وعالم ثان عربى، فيكون القرآن قد دخل أوربا عن طريق الأندلس ، وكان الغرض من ترجمته عرضه على دى كلونى بقصد الرد عليه . ونجد فيما بعد أن القرآن ترجم ونشر باللاتينية ،(١٥٠٩)ولكن لم يسمح للقراء أن يقتنوه ويتداولوه ، لأن طبعته لم تكن مصحوبة بالردود. وفى عام (١٥٩٤)أصدر هنكلمان ترجمته ، وجاءت على الأثر (١٥٩٨)طبعة مراتشى مصحوبة بالردود» انتهى ما أردنا نقله..

أفلا ترى معى أنه يجب علينا بإزاء ذلك أن ندلى برأى سديد فى هذا الأمر الجلل؟ لنعلم ما يراد بنا وبقرآننا ، ولننظر إلى أى طريق نحن مسوقون ؟ عسى أن يدفعنا هذا التحرى والتثبت ، إلى اتخاذ إجراء حازم ، ننتصف فيه للحق من الباطل، ونؤدى به رسالتنا فى نشر هداية الإسلام والقرآن على بصيرة ونور !

ثم ألا ترى معى أنه يجب علينا بإزاء ذلك أيضا أن نتجرد فى هذا البحث عن العصبية

---

(١) هى محاضرات ظفرت بها فى نسخة مخطوطة تحت عنوان « القرآن: محاضرات علمية تاريخية » ألقاها سنة ١٩٤١ م الفيكنت فيلب دى طرازى مؤسس دار الكتب فى بيروت . والعضو فى عدة مجامع علمية شرقية وغربية .

والغايات الشخصية ، فنمسه مسا رفيقا هادئا ، وندرسه دراسة واسعة منظمة ، ونلتزم فيه أدب البحث وإنصاف الباحث ، ونجعل الله وحده غايتنا فيما نحاول ونعالج؟ « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

ولنبدأ الكلام ببيان معنى الترجمة لغة وعرفا ، ثم بتقسيمها إلى حرفية وتفسيرية ، ثم ببيان الفرق بين الترجمة والتفسير ؛ فإن تحديد معانى الألفاظ وتحقيق المراد منها ، مجهود مهم ومفيد ، لاسيما ما كان من الأبحاث الخلافية ؛ كهذا البحث الذى نعانيه . فلقد هدانا الاستقراء إلى أن تحديد معانى الأمور الخلافية ، أو تحرير محل النزاع (بعبارة فنية أزهرية). كثيرا ماقرب بين وجهات النظر المختلفة، وطالما أظهر أن خلاف المختلفين كان لفظيا لا حقيقيا ، لأن النفى والإثبات بينهم لم يتواردا على أمر واحد ، بل إن ما أثبته بعضهم لم يخالف أحد فى إثباته بالمعنى الذى أراده، وما نفاه البعض الآخر لم يخالف أحد فى نفيه بالمعنى الذى أراده كذلك، ورجع الأمر أخيرا إلى مجرد اختلاف فى العبارات لا اختلاف فى الاعتبارات . ولو أنهم اتفقوا بادئ ذى بدء على هذه الاعتبارات . لما اختلفت العبارات ، ولما حدث خلاف ألبتة .

إذن فإننا نستميح قارئنا الكريم عذراً ، إذا أطنبنا فى توضيح المعنى المراد الذى يدور عليه الكلام فى هذا الموضوع ، وإذا استطردنا ببيان ما اشتبه به وكان سببا فى النزاع، فنذكر أن لفظ (ترجمة) يطلق على معان متعددة، بعضها لغوى؛ وبعضها عرفى عام.

الترجمة فى اللغة :

وضعت كلمة ترجمة فى اللغة العربية ، لتدل على أحد معان أربعة :

(أولها) تبليغ الكلام لمن لم يبلغه . ومنه قول الشاعر :

« إن الثمانين ـ وبلغتها ـ قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

(ثانيها) تفسير الكلام بلغته التى جاء بها . ومنه قيل فى ابن عباس : إنه ترجمان القرآن. ولعل الزمخشرى فى كتابه أساس البلاغة يقصد هذا المعنى إذ يقول: « كل ما ترجم

عن حال شيء فهو تفسرته » .

(ثالثها) تفسير الكلام بلغة غير لغته . وجاء فى لسان العرب وفى القاموس ، أن الترجمان هو المفسر للكلام. وقال شارح القاموس ما نصه: « وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر قاله الجوهرى » اهـ .

وجاء فى تفسير ابن كثير والبغوى أن كلمة ترجمة تستعمل فى لغة العرب بمعنى التبيين مطلقا سواء اتحدت اللغة أم اختلفت .

(رابعها) نقل الكلام من لغة إلى أخرى . قال فى لسان العرب: « الترجمان بالضم والفتح[1] هو الذى يترجم الكلام أى ينقله من لغة إلى أخرى . والجمع تراجم[2] »اهـ. وشارح القاموس بعد أن أورد المعنى السابق فى ترجمه وترجم عنه قال : « وقيل نقله من لغة إلى أخرى » اهـ .

ولكون هذه المعانى الأربعة فيها بيان، جاز على سبيل التوسع إطلاق الترجمة على كل ما فيه بيان مما عدا هذه الأربعة، فقيل ترجم لهذا الباب بكذا أى عنون له . وترجم لفلان أى بيّن تاريخه . وترجم حياته أى بيّن ما كان فيها . وترجمة هذا الباب كذا أى بيان المقصود منه . وهلم جرا .

الترجمة فى العرف :

نريد بالعرف هنا عرف التخاطب العام ، لا عرف طائفة خاصة ولا أمة معينة .جاء هذا العرف الذى تواضع عليه الناس جميعا . فخص الترجمة بالمعنى الرابع اللغوى فى إطلاقات اللغة السابقة، وهو نقل الكلام من لغة إلى أخرى. ومعنى نقل الكلام من لغة إلى أخرى ، التعبير عن معناه بكلام آخر من لغة أخرى ، مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده كأنك نقلت الكلام نفسه من لغته الأولى إلى اللغة الثانية .

(١) عبارة القاموس تدل على أنه يضبط بضم التاء والجيم وبفتحهما ، وبفتح التاء وضم الجيم . (٢) وهذا خلاف ماذاع على الألسنة من استعمال تراجم جمعا لترجمة . فاحفظ ذلك .

وهذا هو السر فى تعبيرهم بنقل الكلام. مع العلم بأن الكلام نفسه لا ينتقل من لغته بحال.

ويمكننا أن نعرف الترجمة فى هذا العرف العام بعبارة مبسوطة فنقول : هى التعبير عن معنى كلام فى لغة بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده.

فكلمة (التعبير) جنس ، وما بعده من القيود فصل وقولنا : (عن معنى كلام) يخرج به التعبير عن المعنى القائم بالنفس حين يخرج فى صورة اللفظ أول مرة. وقولنا: (بكلام آخر) يخرج به التعبير عن المعنى بالكلام الأول نفسه ، ولو تكرر ألف مرة .

وقولنا : (من لغة أخرى) يخرج به التفسير بلغة الأصل ، ويخرج به أيضا التعبير بمرادف مكان مرادفه ، أو بكلام بدل آخر مساو له ، على وجه لا تفسير فيه ، واللغة واحدة فى الجميع .

قولنا : (مع الوفاء بجميع معانى الأصل ومقاصده) يخرج به تفسير الكلام بلغة غير لغته ؛ فإن التفسير لا يشترط فيه الوفاء بكل معانى الأصل المفسر ومقاصده ، بل يكفى فيه البيان ولو من وجه . وسنوافيك قريبا بتفصيل ذلك .

تفسير الترجمة :

وتنقسم الترجمة بهذا المعنى العرفى إلى قسمين : حرفية وتفسيرية، فالترجمة الحرفية هى التي تراعي فيها محاكاة الأصل فى نظمه وترتيبه . فهى تشبه وضع المرادف مكان مرادفه. وبعض الناس يسمى هذه الترجمة ترجمة لفظية ، وبعضهم يسميها مساوية .

والترجمة التفسيرية هى التي لا تراعى فيها تلك المحاكاة أى محاكاة الأصل فى نظمه وترتيبه ، بل المهم فيها حسن تصوير المعانى والأغراض كاملة . ولهذا تسمى أيضا بالترجمة المعنوية . وسميت تفسيرية لأن حسن تصوير المعانى والأغراض فيها جعلها تشبه التفسير، وما هى بتفسير كما يتبين لك بعد .

فالمترجم ترجمة حرفية يقصد إلى كل كلمة فى الأصل فيفهمها، ثم يستبدل بها كلمة تساويها فى اللغة الأخرى مع وضعها موضعها وإحلالها محلها، وإن أدى ذلك إلى خفاء المعنى المراد

من الأصل ، بسبب اختلاف اللغتين فى مواقع استعمال الكلام فى المعانى المرادة إلفاً واستحسانا .

أما المترجم ترجمة تفسيرية ، فإنه يعمد إلى المعنى الذى يدل عليه تركيب الأصل فيفهمه ، ثم يصبه فى قالب يؤديه من اللغة الأخرى ، موافقا لمراد صاحب الأصل ، من غير أن يكلف نفسه عناء الوقوف عند كل مفرد ولا استبدال غيره به فى موضعه .

ولنضرب مثالا للترجمة بنوعيها على فرض إمكانها فى آية من الكتاب الكريم : قال الله تعالى : « ولا تجعلْ يدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تبسُطْها كلَّ البسْطِ » فإنك إذا أردت ترجمتها ترجمة حرفية ؛ أتيت بكلام من لغة الترجمة ؛ يدل على النهى عن ربط اليد فى العنق وعن مدها غاية المد ، مع رعاية ترتيب الأصل ونظامه ، بأن تأتى بأداة النهى أولا ، يليها الفعل المنهى عنه متصلا بمفعوله ومضمراً فيه فاعله ، وهكذا . . ولكن هذا التعبير الجديد قد يخرج فى أسلوب غير معروف ولا مألوف فى تفهيم المترجَم لهم ما يرمى إليه الأصل من النهى عن التقتير والتبذير . بل قد يستنكر المترجم لهم هذا الوضع الذى صيغ به هذا النهى ويقولون : ما باله ينهى عن ربط اليد بالعنق وعن مدها غاية المد ؟ ! وقد يلصقون هذا العيب بالأصل ظلما ، وما العيب إلا فيما يزعمونه ترجمة للقرآن من هذا النوع .

أما إذا أردت ترجمة هذا النظم الكريم ترجمة تفسيرية ، فإنك بعد أن تفهم المراد وهو النهى عن التقتير والتبذير فى أبشع صورة منفرة ، منها تعمد إلى هذه الترجمة فتأتى منها بعبارة تدل على هذا النهى المراد ، فى أسلوب يترك فى نفس المترجَم لهم أكبر الأثر فى استبشاع التقتير والتبذير . ولا عليك من عدم رعاية الأصل فى نظمه وترتيبه اللفظى .

وإنما قلنا عند عرض هذا المثال : « على فرض إمكانها » لما ستعرفه بعد من استحالة الترجمة بهذا المعنى العرفى فى القرآن الكريم . والمثال لا يشترط صحته كما هو معلوم .

ما لا بد منه فى الترجمة مطلقا :

لا بد لتحقيق معنى الترجمة مطلقا حرفية كانت أو تفسيرية ، من أمور أربعة :

(أولها) معرفة المترجِم لأوضاع اللغتين لغة الأصل ولغة الترجمة !

(ثانيها) معرفته لأساليبهما وخصائصهما .

(ثالثها) وفاء الترجمة بجميع معانى الأصل ومقاصده على وجه مطمئن .

(رابعها) أن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل ، بحث يمكن أن يستغنى بها عنه ، أن تحل محله ، كأنه لا أصل هناك ولا فرع . وسيأتى بيان ذلك فى الفروق بين الترجمة والتفسير .

ما لا بد منه فى الترجمة الحرفية :

ثم إن الترجمة الحرفية تتوقف بعد هذه الأربعة على أمرين آخرين :

(أحدهما) وجود مفردات فى لغة الترجمة مساوية للمفرادت التى تألف منها الأصل : حتى يمكن أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل ، كما هو ملحوظ فى معنى الترجمة الحرفية .

(ثانيهما) تشابه اللغتين فى الضمائر المستترة ، والروابط التى تربط المفردات لتأليف التراكيب ، سواء فى هذا التشابه ذوات الروابط وأمكنتها . وإنما اشترطناهذا التشابه، لأن محاكاةهذه الترجمة لأصلها فى ترتيبه تقتضيه. ثم إن هذين الشرطين عسيران، وثانيهما أعسر من الأول. فهيهات أن تجد فى لغة الترجمة مفرادت مساوية لجميع مفردات الأصل. ثم هيهات هيهات أن تظفر بالتشابه بين اللغتين المنقول منها والمنقول إليها فى الضمائر المستترة وفى دوام الروابط بين المفردات لتأليف المركبات .

ومن أجل هذه العزة والندرة قال بعضهم : إن الترجمة الحرفية مستحيلة . وقال آخرون : إنها ممكنة فى بعض الكلام دون بعض . ولقد علمت أنها بعد هذه الصعوبات يكتنفها الغموض وخفاء المعنى المقصود كما مر فى المثال السابق . أما الترجمة التفسيرية فميسورة فيما لا يعجز عنه البشر ، والمعانى المرادة من الأصل واضحة فيها غالبا . ولهذا اعتمدوا عليها فى الترجمات الزمنية ، وفضلها التراجم والمشتغلون بالترجمات على قسيمتها الترجمة الحرفية .

فروق بين الترجمة والتفسير :

ومهما تكن الترجمة حرفية أو تفسيرية فإنها غير التفسير مطلقا ، سواء أكان تفسيراً بلغة الأصل ، أم تفسيرا بغير لغة الأصل . وقد أشرنا إلى ذلك إجمالا فى شرح تعريف الترجمة آنفاً . ولكن كثيرا من الكاتبين اشتبه عليهم الأمر ، فحسبوا أن الترجمة التفسيرية هى التفسير بغير لغة الأصل ؛ أو هى ترجمة تفسير الأصل .

ثم رتبوا على ذلك أن خلعوا حكمها على ترجمة الأصل نفسه ، وكان لهذا اللبس والاشتباه مدخل فى النزاع والخلاف . لهذا نستبيح لأنفسنا أن نقف هنا وقفة طويلة . نرسم فيها فروقا أربعة لا فرقا واحدا بين هذين المشتبهين فى نظرهم .

(الفارق الأول) أن صيغة الترجمة صيغة استقلالية يراعى فيها الاستغناء بها عن أصلها وحلولها محله . ولا كذلك التفسير ، فإنه قائم أبدا على الارتباط بأصله ، بأن يؤتى مثلا بالمفرد أو المركب ، ثم يشرح هذا المفرد أو المركب شرحا متصلا به اتصالا يشبه اتصال المبتدأ بخبره إن لم يكن إياه . ثم ينتقل إلى جزء آخر مفرد أو جمله ، وهكذا من بداية التفسير إلى نهايته ، بحيث لا يمكن تجريد التفسير وقطع

وشائج اتصاله بأصله مطلقا . ولو جرد لتفكك الكلام وصار لغوا أو أشبه باللغو، فلا يؤدى معنى سليما ، فضلا عن أن يحل فى جملته وتفصيله محل أصله .

(الفارق الثانى) أن الترجمة لا يجوز فيها الاستطراد ، أما التفسير فيجوز بل قد يجب فيه الاستطراد . وذلك لأن الترجمة مفروض فيها أنها صورة مطابقة لأصلها حاكية له ، فمن الأمانة أن تساويه بدقة من زيادة ولا نقص ، حتى لو كان فى الأصل خطأ لوجب أن يكون الخطأ عينه فى الترجمة ، بخلاف التفسير فإن المفروض فيه أنه بيان لأصله وتوضيح له . وقد يقتضى هذا البيان والإيضاح أن يذهب المفسر مذاهب شتى فى الاستطراد ، توجيها لشرحه ، أو تنويرا لمن يفسر لهم على مقدار حاجتهم إلى استطراده. ويظهر ذلك فى شرح الألفاظ اللغوية خصوصا إذا أريد بها غير ماوضعت له ، وفى المواضع التى يتوقف فهمها أو الاقتناع بها على ذكر مصطلحات أو سوق أدلة أو بيان حكمة .

وهذا هو السر فى أن أكثر تفاسير القرآن الكريم تشتمل على استطرادات متنوعة، فى علوم اللغة ، وفى العقائد ، وفى الفقه وأصوله ، وفى أسباب النزول ، وفى الناسخ والمنسوخ ، وفى العلوم الكونية والاجتماعية ، وغير ذلك .

ومن ألوان هذا الاستطراد ، تنبيهه على خطأ الأصل إذا أخطأ، كما نلاحظ ذلك فى شروح الكتب العلمية . ويستحيل أن تجد مثل هذا فى الترجمة ، وإلا كان خروجا عن واجب الأمانة والدقة فيها .

(الفارق الثالث) أن الترجمة تتضمن عرفا دعوى الوفاء بجميع معانى الأصل ومقاصده، ولا كذلك التفسير، فإنه قائم على كمال الإيضاح كما قلنا، سواء أكان هذا الإيضاح بطريق إجمالى أو تفصيلى ، متناولا كافة المعانى والمقاصد أو مقتصرا على بعضها دون بعض، طوعا للظروف التى يخضع لها المفسر ومن يفسر لهم .

والدليل على هذا الفارق، هو حكم العرف العام الذى نتحدث الآن بلسانه. وإليك مثلا من أمثاله :

رجل عثر فى مخلفات أبيه على صحيفتين مخطوطتين بلغة أجنبية وهو غير عالم بهذا اللسان الأجنبى ، فدفعهما إلى خبير باللغات يستفسره عنهما . وإذا الخبير يجيبه قائلا : إن الصحيفة الأولى خطاب تافه من معوز أجنبى يستجدى أباك فيه ويستعينه، أما الثانية فوثيقة بدين كبير لأبيك على أجنبى .هنالك مزق الرجل خطاب الاستجداء ولم يحفل به، أما الوثيقة فاعتد بها وطلب من هذا المتمكن فى اللغات أن يترجمها له ، ليقاضى المدين أمام محكمة لغتها لغة الترجمة .

أليس معنى هذا أن التفسير لم يكفه؟ بدليل أنه طلب الترجمة من المترجم، علما بأنها هى التى تفى بكل ماتضمنته تلك الوثيقة وبكل مايقصد منها ، فلا تضعف له بها حجة ، ولا يضيع عليه حق ؟ .

ثم ألست ترى فى هذا المثال أيضا أن العرف يحكم بأن التفسير لا يشترط أن يعرض لجميع التفاصيل ، بل يكفى فيه بيان المضمون ، على حين أنه يرى الترجمة صورة مطابقة لأصلها ، وافية بكافة معانيه ومقاصده ؟ .

(الفارق الرابع) أن الترجمة تتضمن عرفا دعوى الاطمئنان إلى أن جميع المعانى والمقاصد التى نقلها المترجم ، هى مدلول كلام الأصل وأنها مرادة لصاحب الأصل منه . ولا كذلك التفسير بل المفسر تارة يدعى الاطمئنان ، وذلك إذا توافرت لديه أدلته . وتارة لا يدعيه، وذلك عند ماتعوزه تلك الأدلة .ثم هو طورا يصرح بالاحتمال ويذكر وجوها محتملة مرجحا بعضها على بعض، وطورا يسكت عن التصريح أو عن الترجيح. وقد يبلغ به الأمر أن يعلن عجزه عن فهم كلمة أو جملة ويقول :ربُّ الكلام أعلم بمراده. على نحو ما نحفظه لكثير من المفسرين إذا عرضوا لمتشابهات القرآن ولفواتح السور المعروفة.

ودليلنا على أن الترجمة تتضمن دعوى الاطمئنان إلى ماحوت من معان ومقاصد، هو شهادة العرف العام أيضا بذلك ، وجريان عمل الناس جميعاً فى الترجمات على هذا الاعتبار . فهم يحلونها محل أصولها إذا شاءوا ،ويستغنون بها عن تلك الأصول. بل قد ينسون هذه الأصول جملة ، ويغيب عنهم أن الترجمات ترجمات ،فيحذفون لفظ ترجمة من الاسم ، ويطلقون عليها اسم الأصل نفسه ، كأنما الترجمة أصل ، أو كأنه لا أصل هناك ولا فرع .

وإن كنت فى ريب فاسأل مابين أيدينا من ترجمات عربية لطائفة من كتبهم التى يقدسونها ، ويطلقون على بعضها اسم توراة وعلى بعضها اسم إنجيل ، وما هما بالتوراة ولا بالإنجيل ، إنما هما ترجمتان عربيتان لأصلين عبريين[(١)] باعترافهم. ولكنهم أسقطوا وأسقط العرف العام معهم لفظ ترجمة من العنوانين الاثنين . وما ذاك إلا لما وقر فى النفوس من أن الترجمة صورة مطابقة للأصل ، مطمئنة إلى أنها تؤدى جميع مؤداه ، لافرق بينهما إلا فى القشرة اللفظية . وقل مثل ذلك فيما نعرفه من ترجمات للقوانين والوثائق الدولية والشخصية،ومن ترجمات للكتب العلمية والفنية والأدبية، وهى كثيرة غنية عن التنويه والتمثيل .

يقال كل هذا فى الترجمات ، ولا يمكن أن يقال مثله فى التفسير ، فإننا ما سمعنا ولا سمع الدهر أن كلمة تفسير أسقطت من عنوان كتاب من كتبه . بل المعروف عكس ذلك . فكثيرا ما يسقط فى الاستعمال اسم الأصل المفسر ، على حين أن لفظ التفسير لا يسقط بحال . ويدل على هذا تلك الإطلاقات الشائعة : تفسير البيضاوى،تفسير النسفى تفسير الجلالين ، وما أشبهها من تفسيرات القرآن الكريم . ألم يكف بهذا سندا على

---

(١) صوابه : « غير عربيين » وذلك لأن إنجيل مرقس ولوقا ويوحنا أصلها يونانى، أما إنجيل متى فأصله عبرى .

أن التفسير مراعى فيه أنه بيان لايمكن أن يقوم مقام المبين ،ولا أن يدعى فيه الاطمئنان إلى أنه واف بجميع أغراضه ومعانيه .

الترجمة والتفسير الإجمالى بغير لغة الأصل :

بيدأن هنا دقيقة نرشدك إليها . هى أن التفسير بغيرلغة الأصل يشبه الترجمة التفسيرية شبهاً قريباً . إذا كان هذا التفسير إجمالياً قائماً على اختيار معنى واحد من المعانى المحتملة . ولعل هذا التشابه هو الذى أوقع بعضهم فى الاشتباه ودعوى الاتحاد بين الترجمة التفسيرية وترجمة التفسير . أو التفسير بغير لغة الأصل . ولكن النظر الصحيح لايزال يقضى بوجود الفوارق الأربعة السابقة بين هذين النوعين أيضاً . فالمفسر يقتضيه واجب البيان ألا يسوق المعنى الإجمالى المختار من بين عدة معان محتملة حتى يوجه هذا الاختيار، وهذا التوجيه محقق للاستطراد الزائد على مدلول الأصل . ثم إن صنيعه هذا سيشعر القارىء أن للأصل معانى أخرى قد يكون هذا الذى اختير من بينها غير سديد . وقد يتوقف المفسر جملة ويعلن عجزه إذا ما أشكل عليه المعنى ورأى أن يلوذ بالصمت. هذا محقق لعدم الوفاء بجميع معانى الأصل ولعدم الاطمئنان الذى نوهنا به . ثم إن صيغة هذا التفسير لابد من أن ترتبط بالأصل ولو بالإشارة والتلويح ،فيقال: معنى هذه الآية أو الجملة هو كذا . . أو يقال معنى الآية المرقومة برقم كذا من سورة كذا هو كذا وكذا . . وذلك محقق لعدم استقلال الصيغة . بخلاف الترجمة فى ذلك كله .

فإن افترضت أن هذا المفسر سيترك وجه الاختيار وسيقطع الصلة قطعاً بين التفسير وأصله ، أجبناك بأن هذا التصرف فى الحقيقة لاتفسير ولاترجمة ، بل هو ذبذبة خرج بها الكلام عما يجب فى التفسير وفى الترجمة جميعاً . لأنه لم يشرح ولم يبين حتى يكون مفسرا كما يجب ، ولم يصور معانى الأصل ومقاصده كلها حتى يكون مترجماً كما يجب. فإن أدى ذلك إلى الناس بعنوان أنه ترجمة للأصل،فإما أن يكون صادرا فى هذا الأداء عن قصور أو عن تقصير. فإن كان عن قصور فهو العجز والجهالة، وإن كان عن تقصير فهو تضليل

للناس وإيهام لهم أن ما أتاه ترجمة ، وماهو بترجمة . وتلك خيانة لهم ولما زعم ترجمته ، والله لا يهدى كيد الخائنين .

تنبيهان مفيدان :

(أولهما) : أنه لافرق بين الترجمة الحرفية والتفسيرية من حيث الحقيقة ، فكلتاهما تعبير عن معنى كلام فى لغة بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانى الأصل ومقاصده. وما الفرق بينهما إلا شكلى وهو أن يحل كل مفرد فى الترجمة الحرفية محل مقابله من الأصل ، بخلاف التفسيرية كما بينا . فلا تظن بعد هذا أن كلمة ترجمة تنصرف إلى الحرفية أكثر مما تنصرف إلى التفسيرية كما يظن بعض الناس. بل التفسيرية أثبت قدما، وأعرق وجودا ، وأقرب إلى الأذهان عند الإطلاق لأنها هى الميسورة ؛ وهى الواضحة، وهى التى يتداولها المترجمون والقراء جميعا . أما الحرفية فإنها تكاد تكون نظرية بحتة، وذلك من تعسرها أو تعذرها، ومن غموضها وخفائها أحيانا، ومن ندرة إقبال التراجم والقراء عليها كما سبق .

(ثانيهما) أن تفسير الأصل بلغته، يساوى تفسيره بغير لغته ،فيما عدا القشرة اللفظية. ألا ترى أنك إذا قرأت درس تفسير للخاصة كاشفاً فيه عن معان معينة باللغة العربية ،ثم قرأت هذا الدرس عينه للعامة كاشفاً عن هذه المعانى نفسها ولكن بلغة المخاطبين العامية، فهل تشك فى مساواة هذا التفسير لذاك فى بيان المعانى المعينة التى فهمتها من الأصل ؟ . وهل تجد بينهما خلافاً إلا فى لغة التعبير وقشرة اللفظ ؟ .

إذا لاحظنا ذلك أمنا الاشتباه من هذه الناحية ، وأمكن أن نستغنى فى بحثنا هذا بذكر المساوى عن ذكر مُساويه ؛ ثقة بأن مايقال فى أحدهما يقال مثله فى الآخر . فتنبه إلى ذلك دائماً ، وبالله توفيق وتوفيقك .

الترجمة ليست تعريفاً منطقيا :

أوجس بعض الباحثين خيفة من أن يظن أحد أن الترجمة من قبيل التعريف اللفظى. ولكننا إذا أنعمنا النظر رأينا أن الترجمة بالمعنى العرفى الذى قررناه ، لا يمكن أن تكون تعريفاً لفظيًّا ولا حقيقيا وذلك من وجهين :

(أحدهما) أن التعاريف كلها من قبيل التصورات، أما الترجمة فكلام تام وقضايا كاملة ، وهى بلا شك من قبيل التصديقات .

(ثانيهما) أن صيغة التعريف مرتبطة دائما بالمعرف ، لأنها قول شارح له ، والشرح والبيان مرتبط فى صيغته بالمشروح والمبين ، أما الترجمة فقد فرغنا من أن صيغتها مستقلة عن الأصل المترجم، لأن الغرض منها أن تقوم به بدلا منه ،وأن يستغنى بها عنه،فلا معنى لأن يجتمع فيها البدل والمبدل منه .

نعم إن تفسير المفرد بلغة غير لغته ، يكون من قبيل التعريف الحقيقى إن أفاد حصول صورته فى ذهن المفسر له ويكون من قبيل التعريف اللفظى إن أفاد حضور صورته الحاصلة من قبل ، على نمط قولهم فى تعريف الإنسان لمن لا يعرف حقيقته : « الإنسان حيوان ناطق » وقولهم فى تعريف البشر لمن يعرف حقيقة الإنسان ولا يعرف دلالة لفظ البشر عليه : « البشر هو الإنسان » . ولكننا لسنا هنا بصدد المفردات وتفسيرها ، فبحثنا فى الترجمة لا فى التفسير ، وفى الكلام المفيد لا الكلمات المفردة .

القرآن ومعانيه ومقاصده

الآن وقد انتهينا من الكلام على أول المتضايفين فى لفظ (ترجمة القرآن) ، نقف معك وقفة أخرى بجانب ثانى هذين المتضايفين وهو القرآن نفسه ، لنستبين المراد به هنا، ولنعرف أنواع معانيه ومقاصده تمهيدا للحكم الصحيح عليه بأنه تمكن ترجمته أو لا تمكن.

المراد بالقرآن هنا :

ولقد سبقت كلمتنا فى بيان مدلول القرآن، وعرض الآراء والمذاهب فيه عرضا واسعا، بالمبحث الأول فى الجزء الأول من هذا الكتاب . فارجع إليه إن شئت .

بيد أنا نلفت نظرك إلى أن المراد هنا فى مبحث الترجمة هو اللفظ المعجز ، لا الصفة القديمة صفة الكلام، ولا الكلمات النفسية الحكمية، ولا النقوش المكتوبة، على ماقررناه ثمة . وإنما كان المراد بالقرآن خصوص اللفظ المعجز ، لأن الترجمة أضيفت إليه. وبدهى أن الترجمة لا تتناول إلا ما كان لفظا حقيقيا مصورا بصورة الحرف والأصوات ، ولا تتناول الصفة القديمة ، ولا الكلمات الحكمية الغيبية، ولا النقوش المكتوبة ، اللهم إلا بضرب من التأويل .

معانى القرآن نوعان :

وبما أن الترجمة ملحوظ فيها الإحاطة بمعانى الأصل كلها ، نحيطك علماً بأن القرآن الكريم ، بل أى كلام بليغ ، لابدأن يحتوى ضربين من المعانى هما المعانى الأولية والمعانى الثانوية ، أو المعانى الأصلية والمعانى التابعة . فالمعنى الأولى لأى كلام بليغ هو ما يستفاد من هذا الكلام ومن أى صيغة تؤديه سواه ،ولو بلغة أخرى . كمجرد إسناد محكوم به إلى محكوم عليه . وسمى معنى أوليا لأنه أول مايفهم من اللفظ. وسمى أصليا لأنه ثابت ثبات الأصول ، لا يختلف باختلاف المتكلمين ولا المخاطبين ولا لغات التخاطب . بل هو مما يستوى فيه العربى والعجمى ، والحضرى والبدوى ، والذكى والغبى .

أما المعنى الثانوى فهو ما يستفاد من الكلام زائداً على معناه الأولى . وسمى ثانويا لأنه متأخر فى فهمه عن ذلك . وسمى تابعا لأنه أشبه بقيد فيه ، والقيد تابع للمقيد .

أو لأنه يتغير بتغير التوابع ، فيختلف باختلاف أحوال المخاطبين ، وباختلاف مقدرة المتكلمين ، وباختلاف الألسنة واللغات ، عكس ماتقدم . ولنضرب لك أمثالا توضح دقائق هذين النوعين :

إذا أردت أن تخبر عن حاتم بالجود قلت: (جاد حاتم) إن كنت تخاطب خالى الذهن من هذا الخبر. وقلت: (حاتم جواد) إذا كنت تخاطب شاكا مترددا فيه . وقلت:(إن حاتما جواد) إذا كنت تخاطب منكرا غير مسرف فى إنكاره . وقلت:(والله إن حاتما لجواد) إذا كان مخاطبك مسرفا فى الإنكار. وقلت: (حاتم سخى جواد، كريم معطاء) إذا كان المقام مقام مدح .وقلت : (ماجواد إلا حاتم) إذا كان مخاطبك يعتقد العكس وأن غير حاتم هو الجواد. وقلت(حاتم ممدود السماط). أو (كان فى بنى طىء بحر كثير الفيضان) إذا كان مخاطبك على شىء من الذكاء . وقلت : (حاتم مهزول الفصيل . أو غمر حاتم بإنعامه الأنام) إذا كان مخاطبك على جانب عظيم من الذكاء .

فأنت ترى أن هذه الأمثلة كلها دارت على معنى واحد استوت جميعها فى أدائه، هو نسبة الجود إلى حاتم، فذلك هو المعنى الأولى أو الأصلى . ثم أنت ترى بعد ذلك أن المعنى الأولى زيدت عليه خصوصيات مختلفة ، ومزايا متغايرة بتغاير هذه الأمثلة ، ففى المثال الأول تجرد من مؤكدات الحكم ، لأن المخاطب خالى الذهن . وفى الثانى تأكيد باسمية الجملة استحسانا ، لأن المخاطب شاك . وفى الثالث تأكيد بمؤكدين : اسمية الجملة وإن ، لأن المخاطب منكر إنكارا يقتضيهما . وفى الرابع تأكيد بمؤكدات أربعة، اسمية الجملة . وإن واللام والقسم ، لأن المخاطب مسرف فى الإنكار . وفى الخامس إطناب لأن المقام للمدح ، وهو يقتضى الإطناب . وفى السادس قصر للجود على حاتم ، لأن المخاطب يعتقد العكس ، فقصرت أنت قصر قلب لتعكس مراده عليه. وفى السابع تجوز فى التعبير بكناية قريبة واستعارة تصريحية ، لأن المخاطب على شىء من الذكاء . وفى الثامن تجوز فى التعبير بكناية بعيدة واستعارة مكنية ، لأن المخاطب على جانب عظيم من الذكاء، بحيث تكفيه الإشارة الخفية واللمحة القصية.

ثم إن هذه النكات البلاغية ، والاعتبارات الزائدة ، يختص بها اللسان العربي كما أن لكل لغة خصائصها .

وهذه الاعتبارات مع فصاحة المفردات هي مناط بلاغة الكلام والمتكلم . وعلوم البلاغة على سعتها ووفرة مباحثها وحسن بلاء الباحثين فيها ، لا تكفي وحدها لتصل بدارسها إلى مصاف البلغاء وذوي اللسن والبيان ، بل غايتها أن يعرف بها أن هذه الحال تقتضي هذا الاعتبار . وأن تلك الحال تقتضي ذلك الاعتبار ، وهكذا . أما التطبيق والقدرة على الصياغة البلاغية فشأو بعيد ، يتوقف على أمور كثيرة . منها الإلمام بظروف الكلام وأحوال المخاطبين . ومنها الإحاطة بدرجة تلك الأحوال قوة وضعفا . ومنها الإتيان بالخصوصيات المناسبة لهذه الأحوال والمقامات . ومنها الذوق البلاغي أو الحاسة البيانية التي تكتسب بممارسة كلام البلغاء وأساليبهم . وترويض النفس على محاكاتهم وتقليدهم وإلا فكم رأينا من مهرة في علوم اللسان لا يحسنون صناعة الكلام ، ولا يستطيعون حيلة إلى أقل درجات البيان ، فضلا عن أن يبرزوا في هذا الميدان .

والكلام البليغ يتفاوت تفاوتا بعيد المدى ، تبعا لدرجة توافر هذه الأمور فيه كلا أو بعضا . ولم تعرف الدنيا ولن تعرف كلاما بلغ الطرف الأعلى والنهاية العظمى ، في الإحاطة بكل الخواص البلاغية ، سوى القرآن الكريم ، الذي انقطعت دونه أعناق الفحول من البلغاء وانبهرت في حلبته أنفاس الموهوبين من الفصحاء . حتى شهدوا على أنفسهم بالعجز حين شاهدوا روائع الإعجاز ، ورأوا أن كلامهم وإن علا فهو طبعة الخلق أما القرآن فهو طبعة الخلاق !

« صبغة الله ! ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون » .

مقاصد القرآن الكريم

بما أن الترجمة عرفا لا بد أن تتناول مقاصد الأصل جميعا ، فإنا ننفك على أن لله تعالى

فى إنزال كتابه العزيز ثلاثة مقاصد رئيسية : أن يكون هداية الثقلين ، وأن يقوم آية لتأييد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس .

هداية القرآن :

وهداية القرآن تمتاز بأنها عامة ، وتامة ، وواضحة .

أما عمومها فلأنها تنتظم الإنس والجن فى كل عصر ومصر، وفى كل زمان ومكان. قال الله سبحانه : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومَن بَلغ ». وقال جلت حكمته: « وهذا كتابٌ أنزلناهُ مباركٌ مُصدِّقُ الذى بينَ يديهِ ، ولتُنذِرَ أمَّ القُرَى ومَن حَوْلَها »، وقال عز اسمه : « قُلْ يأيها الناسُ إنى رسولُ الله إليكم جميعاً ». وقال عمت رحمته : « وإذ صَرفْنا إليكَ نفراً من الجنِّ يستمعونَ القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قضى ولَّوا إلى قومِهم منذرينَ * قالوا ياقومنا إنَّا سمعنا كتاباً أُنزِل من بعدِ موسى مصدقا لما بين يديه ، يهدِى إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مُستقيم * ياقومنا أجيبُوا دَاعِيَ اللهِ وآمنوا بهِ يغفر لكم منْ ذنوبكم ويُجِرْكُم من عذابٍ أليمٍ * ومَنْ لا يجب داعيَ الله فليس بمعجزٍ فى الأرضِ وليسَ لهُ من دونهِ أولياء، أولئكَ فى ضلالٍ مبينٍ » .

وأما تمام هذه الهداية فلأنها احتوت أرقى وأوفى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله والناس، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق فى العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها وجمعت بين مصالح البشر فى العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذى يعيش فيه ، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد . اقرأ ـ إن شئت ـ قوله سبحانه « ليس البرَّ أن تُولوا وجوهكم قِبل المشرقِ والمغرِب ، ولكنَّ البرَّ من آمنَ بالله واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ . وآتى المالَ على حُبِّهِ ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفى الرِّقابِ ،

وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفونَ بعهدهم إذا عاهدُوا، والصابرينَ فى البأساء والضرَّاء وحينَ البأس . أولئك الذين صَدقُوا ، وأولئك هُمُ المتقونَ » . وقال جل جلاله « يأيها الناسُ إنا خلقناكم مِنْ ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتعارفوا، إنْ أكرمكم عِند اللهِ أتقاكم ، إن الله عليم خبيرٌ » وقال عز من قائل « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ، واشكروا للهِ إن كنتم إياهُ تعبدونَ » . وقال تعالت حكمته « فإذا قُضِيتِ الصلاةُ فانتشروا فى الأرضِ وابتغوا من فضلِ اللهِ واذكروا اللهَ كثيراً لعلكم تفلحونَ » إلى غير ذلك من آيات كثيرة .

وأما وضوح هذه الهداية : فلعرضها عرضا رائعا مؤثراً ، توافرت فيه كل وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع : أسلوب فذ معجز فى بلاغته وبيانه . واستدلال بسيط عميق يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق وأمثال خلابة تخرج أدق المعقولات فى صورة أجلى المحسوسات . وحكم بالغات تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع . وقصص حكيم مختار يقوى الإيمان واليقين ، ويهذب النفوس والغرائز ويصقل الأفكار والعواطف ، ويدفع الإنسان دفعا إلى التضحية والنهضة ويصور له مستقبل الأبرار والفجار ، تصويراً يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار فى رابعة النهار . والأمثلة على ذلك كثيرة فى القرآن ، يخرجنا استعراضها عما نحن بسبيله الآن .

والمهم أن نعلم فى هذا المقام أن الهدايات القرآنية الكريمة ، منها ما استفيد من معانى القرآن الأصلية ، ومنها ما استفيد من معانيه التابعة ، أما القسم الأول فواضح لا يحتاج إلى تمثيل ، وهو موضع اتفاق بين الجميع . وأما القسم الثانى ففيه دقة جعلت بعض الباحثين يجادل فيه وإنا نوضحه لك بأمثلة نستمدها من فاتحة الكتاب العزيز :

منها : استفادة أدب الابتداء بالبسملة فى كل أمر ذى بال ، أخذا من ابتداء الله كتابه بها ، ومن افتتاحه كل سورة من سوره بها عدا سورة التوبة .

ومنها : استفادة أن الاستعانة فى أى شئ لاتستمد إلا من اسم الله وحده ، أخذا من إضافة الاسم إلى لفظ الجلالة موصوفا بالرحمن الرحيم ، ومن القصر المفهوم من البسملة على تقدير عامل الجار والمجرور متأخرا ، ومن تقدير هذا العامل عاما لا خاصا .

ومنها: استفادة الاستدلال على أن الحمد مستحق لله بأمور ثلاثة: تربيته تعالى للعوالم كلها ، ورحمته الواسعة التى ظهرت آثارها وتأصل اتصافه تعالى بها، وتصرفه وحده بالجزاء العادل فى يوم الجزاء . وذلك أخذا من جريان هذه الأوصاف على اسم الجلالة فى مقام حمده بقوله سبحانه : « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين » .

ومنها : استفادة التوحيد بنوعيه توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية من القصر الماثل فى قوله سبحانه : « إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعين » .

ومنها : استفادة دليل هذا التوحيد من الآيات السابقة عليه ووقوعه هو فى سياقها عقيبها كما تقع النتيجة عقب مقدماتها .

ومنها : استفادة أن الهداية إلى الصراط المستقيم هى المطمع الأسمى الذى يجب أن يرمى إليه الناس ويتنافس فيه المتنافسون . يدل على ذلك اختيارها والاقتصار على طلبها والدعاء بها ، ثم انتهاء سورة الفاتحة بها كما تنتهى البدايات بمقاصدها .

ومنها : استفادة أن الهداية لا يرجى فيها إلا الله وحده ، لأنها انتظمت مع آيات التوحيد قبلها فى سمط واحد .

ومنها : استفادة أدب من الآداب ، هو أن يقدم الداعى ثناء الله على دعائه، استنتاجا من ترتيب هذه الآيات الكريمة ، حيث تقدم فيها مايتصل بحمد الله وتمجيده وتوحيده، على مايتصل بدعائه واستهدائه .

هذه أمثلة اقتبسناها من سورة الفاتحة ونحن لا نظن أن أحدا يخاصم فيها . وهاك مثالين مما وقع فيه خلاف العلماء :

(المثال الأول) استفادة وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء في الطهارة، أخذاً من مخالفة مقتضى الظاهر في ذكر هذه الأعضاء بآية الوضوء ، إذ يقول الله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » فأنت ترى أنه ـ تعالت حكمته ـ ذكر الرأس وهو ممسوح بين الأعضاء الأخرى وهي مغسولة ، وكان مقتضى الظاهر أن تتصل المغسولات بعضها ببعض وتذكر قبل الممسوح أو بعده لأن المغسولات متماثلة، والعرب لا تفصل بين المتماثلات إلا لحكمة . والحكمة هنا هي إفادة وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء في الطهارة . على نمط الترتيب الماثل في هذه الآية .

وثمة وجه آخر لاستفادة حكم هذا الترتيب أيضا . ذلك أن الآية المذكورة لم تعرض فيها أعضاء الوضوء مرتبة ترتيبا تصاعديا ولا ترتيبا تنازليا ، فلم يبدأ فيها بالأعالي متبوعة بالأسافل ولا بالأسافل متبوعة بالأعالي ، بل ذكر فيها عال ثم سافل ثم أعلى ثم أسفل، وذلك خلاف مقتضى الظاهر ، ومثله لا يصدر في لغة العرب إلا لحكمة وما الحكمة هنا فيما نفهم إلا إفادة وجوب الترتيب في الوضوء . وبهذا قال الشافعية والحنابلة وإن خالفهم الحنفية والمالكية .

(المثال الثاني) استفادة وجوب مسح ربع الرأس في الوضوء ، أخذا من مخالفة مقتضى الظاهر أيضا في قوله سبحانه: « وامسحوا برءوسكم » حيث دخلت باء الجر على الرءوس وهي الممسوحة ، مع أن الظاهر كان يقتضي دخولها على آلة المسح وهي راحة اليد، ولكن مخالفة هذا الظاهر في كلام عربي بليغ ، دلتنا على أنه نزل الرأس منزلة آلة المسح إرشادا إلى أن اليد توضع على الرأس وتحرك كأننا مسحنا اليد بالرأس. وبهذه الطريقة تنمسح الناصية عادة ، وهي تقدر بربع الرأس ، فالواجب إذن هو مسح ربع الرأس ، وبهذا أخذ الحنفية ، وإن خالفهم الأئمة الثلاثة (رضوان الله عليهم أجمعين) .

ولسنا هنا بصدد مقارنات فقهية أو موازنات مذهبية ؛ حتى نناصر رأياً على رأى، أو نرجح فهماً على فهم . فحسبنا فى هذا الموضوع بيان دلالة نظم القرآن الكريم باعتبار معانيه الثانوية على هدايات متنوعة من عقائد وأحكام وآداب وأدلة ولطائف ، وإن اختلف الناس فى إدراكها على مقدار اختلاف مواهبهم واستعدادهم ، لأن هذه المعانى الثانوية دقيقة الطرق ، لطيفة المسالك ، ومن شأن الدقائق واللطائف أن يكون مجال التفاوت بين الفاهمين لها بعيدا . بخلاف دلالة نظم القرآن الكريم على هداياته باعتبار معانيه الأصلية فإنها واضحة قل أن يقع فيها تفاوت أو خلاف ، لأن هذه المعانى ـ كما قررنا ـ يستوى فيها العربى والعجمى ، والحضرى والبدوى ، والذكى والغبى .

واعلم أن قرآنية القرآن وامتيازه ، ترتبط بمعانيه الثانوية وما استفيد منها ، أكثر مما ترتبط بمعانيه الأصلية وما استفيد منها ، للاعتبارات الآنفة ، ولأن المعانى الأصلية ضيقة الدائرة محدودة الأفق ، أما المعانى الثانوية فبحر زاخر متلاطم الأمواج ، تتجلى فيها علوم الله وحكمته وعظمته الإلٰهية ، وتظهر منها فيوضات الله وإلهاماته العلوية على من وهبهم هذه الفيوضات والإلهامات من عباده المصطفين وورثة كلامه المقربين ، وأهل الذوق والصفاء من العلماء العاملين ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه آمين .

إعجاز القرآن :

المقصد الثانى من نزول القرآن الكريم ، أن يقوم فى فم الدنيا آية شاهدة برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يبقى على جبهة الدهر معجزة خالدة تنطق بالهدى ودين الحق ظاهراً على الدين كله ! . ووجوه إعجاز القرآن كثيرة نفصلها فى مبحثها إن شاء الله . بيد أنا ننبهك هنا إلى أن بلاغته العليا وجه بارز من هذه الوجوه . بل هى أبرز وجوهه وجوداً ، وأعظمها أفرادا ، لأن كل مقدار ثلاث آيات قصار معجز ، ولو كان هذا

المقدار من آية واحدة طويلة . فقد تحدى الله أئمة البيان أن يأتوا بسورة من مثله، وأقصر سورة هى سورة الكوثر، وآياتها ثلاث قصار. وإذا كان أئمة البيان فى عصر ازدهاره والنباغة فيه قد عجزوا فسائر الخلق أشد عجزا . ولقد فرغنا من أن بلاغة القرآن منوطة بما اشتمل عليه من الخصوصيات والاعتبارات الزائدة وأنت خبير بأنها سارية فيه سريان الماء فى العود الأخضر أو سريان الروح فى الجسم الحى، وأن نظم القرآن الكريم مصدر لهداياته كلها سواء منها ما كان طريقه هيكل النظم ، وما كان طريقه تلك الخصوصيات الزائدة عليه . وهنا يطالعك العجب العاجب حين تجد دليل صدق الهداية الإسلامية قد آخاها ؛ واتحد مطلعهما فى سماء القرآن فأداه وأداها ! ! .

التعبد بتلاوة القرآن .

المقصد الثالث من نزول القرآن أن يتعبد الله خلقه بتلاوته ، ويقربهم إليه ويأجرهم على مجرد ترديد لفظه ولو من غير فهمه ، فإذا ضموا إلى التلاوة فهما زادوا أجرا على أجر، قال الله تعالى : « إن الذين يتلونَ كتابَ الله وأقامُوا الصَّلاةَ وأنفقوا مِمَّا رزقناهم سِرًّا وعلانيةً يرجون تجارةً لَنْ تبُور * ليوفِّيهمْ أجورهم ويزيدَهم من فضلِهِ ، إنه غفورٌ شكورٌ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه الترمذى وقال : حسن صحيح . وروى الحاكم مثله مرفوعا وقال : صحيح الإسناد وجاء فى حديث آخر عن أنس أنه قال : أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن وسنده ضعيف غير أنه يتقوى بغيره ثم إن هذه خصيصة امتاز بها القرآن ، أما غيره فلا أجر على مجرد تلاوته ، بل لابد من التفكر فيه وتدبره ، حتى الصلاة هى عماد الدين ، ليس للمرء من ثوابها إلا بمقدار ما عقل منها . .

وإنما انفرد القرآن بهذه المزية لحكم سامية ، وفوائد ذات شأن :

(أولها) توفير عامل مهم من عوامل المحافظة على القرآن وبقائه مصونا من التغيير والتبديل اللذين أصابا كتب الله من قبل. ذلك أن هذا الأجر العظيم الذى وعده الله من يتلو كتابه العزيز ولو غير متفهم لمعانيه، من شأنه أن يحبب الناس فى قراءة القرآن ويدفعهم إلى الإكثار منها، ويحركهم إلى استظهاره وحفظه. ولا ريب أن انتشار القراءة والقراء والحفاظ ، يجعل القرآن كثير الدوران على الألسنة ، واضح المعالم فى جميع الأوساط والطبقات ، وهنا لا يجرؤ أحد على تغيير شيء فيه ، وإلا لقى أشد العنت من عارفيه ، كما حدث لبعض من حاولوا هذا الإجرام ، من أعداء الإسلام .

(ثانيها) إيجاد وحدة للمسلمين لغوية ، تعزز وحدتهم الدينية ، وتيسر وسائل التفاهم والتعاون فيما بينهم ، فتقوى بذلك صفوفهم ، وتعظم شوكتهم ، وتعلو كلمتهم .

وتلك سياسة إلاهية عالية ، فطن لها الإسلام على يد هذا النبي الأمى فى عهد قديم من عهود التاريخ ، ونجحت هذه السياسة نجاحا باهراً ، حتى انضوى تحت اللسان العربى أمم كثيرة مختلفة اللغات، ونبغ منهم نابغون سبقوا كثيراً من العرب فى علوم القرآن وعلوم لغة القرآن، بينما أمم كبيرة فى هذا العصر الحديث الذى يزعمونه عصر العلم والنور ، قد حاولت مثل هذه المحاولة بتقرير لسان عام ولغة عالمية مشتركة أسموها لغة « الاسبرنتو » ، فكانت محاولة فاشلة ، فضلا عن أنها جاءت مسبوقة متأخرة .

(ثالثها) استدراج القارئ إلى التدبر والاهتداء بهدى القرآن عن طريق هذا الترغيب المشوق ، وبوساطة هذا الأسلوب الحكيم .

فإن من يقرأ القرآن فى يومه وهو غافل عن معانيه، يقرؤه فى غده وهو ذاكر لها. ومن قرأه فى غده وهو ذاكر لها، أوشك أن يعمل بعد غد بهديها. وهكذا ينتقل القارئ من درجة إلى درجة أرقى منها، حتى يصل إلى الغاية بعد تلك البداية . « كل من سار على

المحبوب وصل » ويرحم الله ابن عطاء الله السكندرى إذ يقول فى حكمه : « لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ؛ لأن غفلتك عن وجود ذكره ، أشد من غفلتك فى وجود ذكره . فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة ، إلى ذكر مع وجود يقظة . ومن ذكر مع وجود يقظة ، إلى ذكر مع وجود حضور . ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور . وما ذلك على الله بعزيز » .

حكم ترجمة القرآن تفصيلا

على ضوء هذه المعلومات التى سقناها فى تجلية معنى المتضايفين من لفظ ترجمة القرآن ، يسهل علينا أن ندرك أن لهذا المركب الإضافى أربعة معان رئيسية ؛ ثلاثة منها ترجع إلى اللغة وحدها ، والرابع تشترك فيه اللغة والعرف العام الذائع بين الأمم . ولا ريب أن هذا المعنى الرابع هو الجدير بالعناية والاهتمام ؛ لأنه المتبادر إلى الأفهام ، والمقصود فى لسان التخاطب العام .

وها نحن أولاء نستعرض تلك المعانى الأربعة، مشفوعا كل معنى منها بحكمه المناسب له، عسى أن تكون هذه الطريقة أبعد عن الخطأ والشطط، وأهدى إلى الصواب والاعتدال.

١ ـ ترجمة القرآن بمعنى تبليغ ألفاظه

تطلق ترجمة القرآن إطلاقا مستندا إلى اللغة ويراد بها : تبليغ ألفاظه. وحكمها حينئذ أنها جائزة شرعا . والمراد بالجواز هنا ما يقابل الحظر فيصدق بالوجوب وبالندب. وإن شئت دليلا فها هو صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن ويسمعه أولياءه وأعداءه. ويدعو إلى الله به فى مولده ومهاجره، وفى سفره وحضره، والأمة من ورائه نهجت نهجه، فبلغت ألفاظ القرآن، وتلقاها بعضهم عن بعض فردا عن فرد، وجماعة عن جماعة ، وجيلا عن جيل ،

حتى وصل إلينا متواترا . . ثم هاهو القرآن نفسه يتوعد كاتميه ويقول : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب . أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ، فأولئك أتوب عليهم، وأنا التواب الرحيم » .

والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج . ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » رواه البخارى والترمذى وأحمد . ويقول صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » رواه الشيخان .

٢ ــ ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغته العربية

هذا هو الإطلاق الثانى المستند إلى اللغة أيضا كما مر . ويراد به تفسير القرآن بلغته العربية لا بلغة أخرى . وغنى عن البيان أن حكمه الجواز بالمعنى الآنف . وإن كنت فى شك فهاك القرآن نفسه يقول الله فيه لنبيه صلى الله عليه وسلم . « وأنزلنا إليكَ الذكرَ لتبينَ للناسِ مانزل إليهم » . ولقد قام الرسول صلوات الله وسلامه عليه ببيانه العربى خير قيام ، حتى اعتبرت السنة النبوية كلها شارحه له، ونقل منها فى التفسير بالمأثور شئ كثير . ولقد تأثر العلماء رسولَ الله فى ذلك منذ عهد الصحابة إلى اليوم، وهاهى المكتبات العامة والخاصة زاخرة بالتفاسير العربية للقرآن الكريم على رغم ما اندثر منها، وعلى رغم ما يأتى به المستقبل من تفاسير يؤلفها من لا يقنعون بقديم ، ويتلقاها عنهم من يجدون فى أنفسهم حاجة إلى عرض جديد لعلوم القرآن والدين . مما يدل على أن القرآن بحر الله الخضم ، وأن العلماء جميعا من قدامى ومحدثين ، لا يزالون وقوفا بساحله ، يأخذون منه على قدر قرائحهم وفهومهم . والبحر بعد ذلك هو البحر فى فيضانه وامتلائه ، والقرآن هو القرآن فى ثروته وغناه بعلومه وبأسراره . « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » .

ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغة أجنبية

هذا هو الإطلاق الثالث المستند إلى اللغة أيضاً ويراد به تفسير القرآن بلغة غير لغته، أى بلغة عجمية لا عربية . ولا ريب عندنا فى أن تفسير القرآن بلسان أعجمى لمن لا يحسن العربية ، يجرى فى حكمه مجرى تفسيره بلسان عربى لمن يحسن العربية . فكلاهما عرض لما يفهمه المفسر من كتاب الله بلغة يفهمها مخاطبه ، لاعرض لترجمة القرآن نفسه ، وكلاهما حكاية لما يستطاع من المعانى والمقاصد ، لا حكاية لجميع المقاصد . وتفسير القرآن الكريم يكفى فى تحققه أن يكون بياناً لمراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ولو جاء على احتمال واحد؛ لأن التفسير فى اللغة هو الإيضاح والبيان ، وهما يتحققان ببيان المعنى ولو من وجه ولأن التفسير فى الاصطلاح علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية، وهذا يتحقق أيضاً بعرض معنى واحد من جملة معان يحتملها التنزيل. وإذا كان تفسير القرآن بياناً لمراد الله بقدر الطاقة البشرية،فهذا البيان يستوى فيه ما كان بلغة العرب وماليس بلغة العرب،لأن كلا منهما مقدور للبشر،وكلا منهما يحتاجه البشر، بيد أنه لابد من أمرين : أن يستوفى هذا النوع شروط التفسير باعتبار أنه تفسير،وأن يستوفى شروط الترجمة باعتبار أنه نقل لما يمكن من معانى اللفظ العربى بلغة غير عربية . وشروط التفسير ذكرناها فى الجزء الأول بالمبحث الثانى عشر من هذا الكتاب، وشروط الترجمة ذكرناها بهذا المبحث عن كثب .

أمور مهمة :

ونسترعى نظرك إلى أمور مهمة : (أولها) أن علماءنا حظروا كتابة القرآن بحروف غير عربية . وعلى هذا يجب عند ترجمة القرآن بهذا المعنى إلى أية لغة أن تكتب

الآيات القرآنية إذا كتبت بالحروف العربية . كيلا يقع إخلال وتحريف فى لفظه ؛ فيتبعهما تغير وفساد فى معناه .

سئلت لجنة الفتوى فى الأزهر عن كتابة القرآن بالحروف اللاتينية ، فأجابت بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله بما نصه[١] « لا شك أن الحروف اللاتينية المعروفة خالية من عدة حروف توافق العربية، فلا تؤدى جميع ماتؤديه الحروف العربية، فلو كتب القرآن الكريم بها على طريقة النظم العربى ــ كما يفهم من الاستفتاء ــ لوقع الإخلال والتحريف فى لفظه، ويتبعهما تغير المعنى وفساده . وقد قضت نصوص الشريعة بأن يصان القرآن الكريم من كل ما يعرضه للتبديل والتحريف. وأجمع علماء الإسلام سلفا وخلفا على أن كل تصرف فى القرآن يؤدى إلى تحريف فى لفظه أو تغيير فى معناه ممنوع منعا باتا ، ومحرم تحريما قاطعا . وقد التزم الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا كتابة القرآن بالحروف العربية » .

(الأمر الثانى) : أن تفاسير القرآن المتداولة بيننا تتناول المفرد من الأصل، وبجانبه شرحه، ثم تتناول الجملة أو الآية وشرحها متصل بها كذلك غالبا. ومعنى هذا أن ألفاظ القرآن مبثوثة فى ثنايا التفسير على وجه من الارتباط والإحكام، بحيث لو جردنا التفاسير من ألفاظ الأصل لعادت التفاسير لغوا من القول، وضربا من السخف. ونحن لا نريد هنا فى تفسير القرآن بلغة أجنبية أن تذكر مفردات القرآن وجمله مكتوبة بتلك اللغة الأجنبية أو مترجمة بهذه اللغة ، ثم تشفع بتفسيرها المذكور ؛ فلقد قررنا أن كتابة القرآن بغير العربية ممنوعة وسنقرر أن ترجمته بالمعنى العرفى مستحيلة . إنما نريد هنا نوعا من التفسير يجوز أن يصدر بطائفة من ألفاظ الأصل على ماهى عليه فى عروبتها رسما ولفظا، إذا وضع لطائفة من المسلمين ثم يذكر عقبها المعنى الذى فهمه المفسر غير مختلط بشيء من

---

(١) انظر المجلد السابع من مجلة الأزهر صفحة ٤٥ .

ألفاظ الأصل ولا ترجمته ، بل يكون هذا المعنى كله من كلام المفسر ، ويصاغ بطريقة تدل على أنه تفسير لا ترجمة كأن يقال : معنى الآية المرقومة برقم كذا من سورة كذا هو كذا وكذا . أو يقال فى أول كل نوبة من نوبات التفسير : معنى هذه الجملة أو الآية كذا . ثم يبين فى كلتا الطريقتين أن هذا المعنى مقطوع به أو أنه محتمل ، ويستطرد بما يظن أن حاجة المخاطبين ماسة إليه من التعريف بالمصطلحات الإسلامية ، والأسرار والحكم التشريعية والتنبيه على الأخطاء التى وقعت فيها الترجمات المزعومة ، ونحو ذلك مما يوقع فى روع القارئ أن مايقرؤه ليس ترجمة للأصل محيطة بجميع معانيه ومقاصده ، إنما هو تفسير فحسب ، لم يحمل من معانى القرآن ومقاصده إلا قُلًّا من كُثْر ، وقطرة من بحر . أما القرآن نفسه فأعظم من هذا التفسير بكثير ، كيف وهو النص المعجز فى ألفاظه ومعانيه من كلام العليم الخبير ؟! .

(الأمر الثالث) : أن ترجمة القرآن بهذا المعنى مساوية لترجمة تفسيره العربى . لأن الترجمة هنا لم تتناول فى الحقيقة إلا رأى هذا المفسر وفهمه لمراد الله على قدر طاقته ، خطأ كان فهمه أو صوابا ، ولم تتناول كل مراد الله من كلامه قطعا . فكأن هذا المفسر وضع أولا تفسيرا عربيا ثم ترجم هذا التفسير الذى وضعه . وإن شئت فقل : إنه ترجم تفسيرا للقرآن قام هو به غير أنه لم يدونه ، وأنت خبير بأن التفسير هو التفسير ، سواء أدونه صاحبه أم لم يدونه .

(الأمر الرابع) ذهب بعضهم إلى تسمية هذا النوع ومايشبهه ترجمة تفسيرية للقرآن بالمعنى العرفى . ونحن ـ مع علمنا بأن الخلاف فى التسمية تافه ـ لا نستطيع أن نرى رأيهم ، لشهادة العرف التى أقمناها ثم اعتمدنا عليها فى رسم الفوارق الأربعة بين أى ترجمة وأى تفسير . فترجمة القرآن ـ على فرض إمكانها ـ تصوير لكل ما أراد منزله من معانيه ومقاصده وترجمة التفسير تصوير لكل ما أراد المفسر من معانيه ومقاصده . والقرآن لا يمكن أن يكون فى معانيه المرادة لله خطأ أبدا ، فإذا صحت ترجمته على فرض إمكانها ، وجب ألا

تحمل ولا تصور خطأ . أما التفسير فيمكن أن يكون فى معانيه المرادة للمفسر خطأ أى خطأ ، وعلى هذا فترجمة هذا التفسير ترجمة صحيحة لا بد أن تحمل هذا الخطأ وتصوره ؛ وإلا لما صح أن تكون ترجمة له لأن الترجمة صورة مطابقة للأصل ، ومرآة حاكية له على ما هو عليه ؛ من صواب أو خطأ ، إيمان أو كفر ، حق أو باطل .

والقرآن ملىء بالمعانى والأسرار الجلية والخفية إلى درجة تعجز المخلوق عن الإحاطة بها ، فضلا عن قدرته على محاكاتها وتصويرها ، بلغة عربية أو أعجمية. أما التفسير فمعانيه محدودة ، لأن قدرة صاحبه محدودة ، مهما حلق فى سماء البلاغة والعلم . وعلى هذا فمدسة أى مصور له ، تستطيع التقاطه وتصويره بالترجمة إلى أية لغة .

(الأمر الخامس) : يجب أن تسمى مثل هذه الترجمة ، ترجمة تفسير القرآن ، أو تفسير القرآن بلغة كذا . ولا يجوز أن تسمى ترجمة القرآن بهذا الإطلاق اللغوى المحض ، لما علمت من أن لفظ ترجمة القرآن مشترك بين معان أربعة ، وأن المعنى الرابع هو المتبادر إلى الأذهان عند الإطلاق ، نظرا إلى أن العرف الأممى العام لا يعرف سواه . ولا يجوز أيضا أن تسمى ترجمة معانى القرآن ، لأن الترجمة لا تضاف إلا إلى الألفاظ . ولأن هذه التسمية توهم أنها ترجمة للقرآن نفسه ، خصوصا إذا لاحظنا أن كل ترجمة لا تنقل إلا للمعانى دون الألفاظ .

(الأمر السادس) يحسن أن يدون التفسير العربى وتشفع به ترجمته هذه ، ليكون ذلك أنفى للريب ، وأهدى للحق ، وأظهر فى أنه ترجمة تفسير لا ترجمة قرآن ، ومن عرف قدر القرآن لم يبخل عليه بهذا الاحتياط ، لاسيما فى هذا الزمن الذى تنمر فيه أعداء الإسلام ، وحاربونا فيه بأسلحة مسمومة من كل مكان .

(الأمر السابع) يجب أن يصدر هذا التفسير المترجم بمقدمة تنفى عنه فى صراحة أنه ترجمة للقرآن نفسه ، وتبين أن ترجمة القرآن نفسه بالمعنى المتعارف أمر دونه خرط القتاد ،

لأن طبيعة تأليف هذا الكتاب تأبى أن يكون له نظير يحاكيه، لا من لغته ولا من غير لغته، وذلك هو معنى إعجازه البلاغى. ومن أراد أن يتصور هذا اللون من ألوان إعجازه فلينتقل هو إلى هذا الكتاب ولغته، فيتذوقه بها وبأساليبها، ومن المحال أن ينتقل هذا الكتاب العزيز، تاركا عرشه الذى بوأه الله إياه وهو عرش اللغة العربية. وماذا يبقى للملك من عزة وسلطان إذا هو تخلى عن عرشه وملكه ؟ وهذا القرآن جعله الله ملك الكلام، وتوجه بتاج الإعجاز، واختار لغته العربية مظهراً لهذا الإعجاز والاعتزاز ! « وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد » .

فوائد الترجمة بهذا المعنى

لترجمة القرآن بهذا المعنى فوائد كنا فى غنى عن بيانها، بما أشرنا إليه من أنها كالتفسير العربى الذى اتفق الجميع على جوازه بشرطه. ولكن بعض الباحثين توقفوا فى جواز هذه الترجمة كما توقفوا فى جواز الترجمة بالمعنى الآتى مع بعد ما بينهما ؛ ثم تذرعوا بأنه لا فائدة ترجى منها، وأثاروا شبهات حولها. لهذا نبسط القول ببيان فوائد هذه الترجمة، ثم بدفع الشبهات عنها. أما فوائدها فنشرحها فيما يأتى :

(الفائدة الأولى) : رفع النقاب عن جمال القرآن ومحاسنه لمن لم يستطع أن يراها بمنظار اللغة العربية من المسلمين الأعاجم ، وتيسير فهمه عليهم بهذا النوع من الترجمة، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ويعظم تقديرهم للقرآن، ويشتد شوقهم إليه، فيهتدوا بهديه، ويغترفوا من بحره ، ويستمتعوا بما حواه من نبل فى المقاصد وقوة فى الدلائل ، وسمو فى التعاليم ، ووضوح وعمق فى العقائد، وطهر ورشد فى العبادات، ودفع قوى إلى مكارم الأخلاق ، وردع زاجر عن الرذائل والآثام ، وإصلاح معجز للفرد وللمجموع، واختيار موفق لأحسن القصص ، وإخبار عن كثير من أنباء الغيب ، وكشف عن معجزات

أكرم الله بها رسوله وأمته ، إلى غير ذلك مما من شأنه أن يسمو بالنفوس الإنسانية، ويملأ العالم حضارة صحيحة ومدنية .

وإنك لتستطيع أن ترى هذه الفائدة ماثلة بين عينيك إذا ماشاهدت أستاذاممتازا يلقى درسا من دروس التفسير على العامة ، يجلى معانى القرآن لهم بمهارته ، ويتنزل إلى مستواهم فيخاطبهم ، ويتخير من المعانى أصحها وأمسها بحاجتهم ، ويعالج عند المناسبة مايعرف من جهالتهم وشبهتهم . والله لكأنى بهذا المدرس اللبق وقد نفخ فيهم من روح القرآن فأحيا مواتهم ، وداوى أمراضهم ، وقادهم إلى النهضة، وجعلهم يؤمنون بهذا الكتاب عن علم وذوق وشعور ووجدان، بعدأن كانوا يؤمنون به إيمانا أشبه بالتقليد الأعمى أو بمحاكاة الصبيان .

ولقد دلتنا التجارب على أن كثيرا من هؤلاء الذين أحسوا جلال القرآن عن طريق تفسيره، فكروا فى حفظه، واستظهاره ودراسة لغته وعلومه، ليرتشفوا بأنفسهم من منهله الروى، ويشبعوا نهمتهم من غذائه المرى ، مادام هذا التفسير وغيره لايحمل كل معانى الأصل، وما دام ثواب الله يجرى على كل من نظر فى الأصل أو تلا نفس ألفاظ الأصل .

(الفائدة الثانية) دفع الشبهات التى لفقها أعداء الإسلام وألصقوها بالقرآن وتفسيره كذبا وافتراء ثم ضللوا بها هؤلاء المسلمين الذين لايحذقون اللسان العربى فى شكل ترجمات مزعومة للقرآن ، أو مؤلفات علمية وتاريخية للطلاب ، أو دوائر معارف للقراء، أو دروس ومحاضرات للجمهور ، أو صحف ومجلات للعامة والخاصة .

(الفائدة الثالثة) تنوير غير المسلمين من الأجانب فى حقائق الإسلام وتعاليمه، خصوصاً فى هذا العصر القائم على الدعايات ، وبين نيران هذه الحروب التى أوقدها أهل الملل والنحل الأخرى ، حتى ضل الحق أو كاد يضل فى سواد الباطل ،وخفت صوت الإسلام أو كاد يخفت بين ضجيج غيره من المذاهب المتطرفة والأديان المنحرفة .

(الفائدة الرابعة) إزالة الحواجز والعوائير التى أقامها الخبثاء الماكرون للحيلولة بين الإسلام وعشاق الحق من الأمم الأجنبية. وهذه الحواجز والعوائير ترتكز فى الغالب على أكاذيب افتروها تارة على الإسلام، وتارة أخرى على نبى الإسلام. وكثيرا ماينسبون هذه الأكاذيب إلى القرآن وتفاسيره، وإلى تاريخ الرسول وسيرته، ثم يدسونها فيما يزعمونه ترجمات للقرآن، وفيما يقرأ الناس ويسمعون بالوسائل الأخرى. فإذا نحن ترجمنا تفسير القرآن أو فسرنا القرآن بلغة أخرى مع العناية بشروط التفسير وشروط الترجمة، ومع العناية التامة بدفع الشبهات والأباطيل الرائجة فيهم عند كل مناسبة، تزلزلت بلا شك تلك القصور التى أقاموها من الخرافات والأباطيل، وزالت العقبات من طريق طلاب الحق وعشاقه من كل قبيل.

وهاك كلمة يؤيدنا بها الكاتب الانجليزى الشهير (برناردشو) إذ يقول: « لقد طبع رجال الكنيسة فى القرون الوسطى دين الإسلام بطابع أسود حالك، إما جهلا وإما تعصبا، إنهم كانوا فى الحقيقة مسوقين بعامل بغض محمد ودينه، فعندهم أن محمداً كان عدوا للمسيح. ولقد درست سيرة محمد الرجل العجيب، وفى رأيى أنه بعيد جداً من أن يكون عدواً للمسيح. إنما ينبغى أن يدعى منقذ البشرية، الخ ما قال بمجلة ذى مسلم رفيو بلكنو الهند فى جزء مارس سنة ١٩٣٣.

(الفائدة الخامسة) براءة ذمتنا من واجب تبليغ القرآن بلفظه ومعناه، فإن هذه الترجمة جمعت بين النص الكريم بلفظه ورسمه العربيين، وبين معانى القرآن على مافهمه المفسر وشرحه باللغة الأجنبية، قال السيوطى وابن بطال والحافظ ابن حجر وغيرهم من العلماء: « إن الوحى يجب تبليغه. ولكنه قسمان: قسم تبليغه بنظمه ومعناه وجوبا، وهو القرآن: وقسم يصح أن يبلغ بمعناه دون لفظه، وهو ماعدا القرآن. وبذلك يتم التبليغ ».

دفع الشبهات عن هذه الترجمة

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون: إن المترجم للتفسير مضطر إلى الترجمة العرفية المنوعة وهى ترجمة كل مايسوقه فى كل نوبة للتفسير من آية أو آيات ، لأن التفسير بيان ، فلابد أن يعرف المبين أولا ثم يعرف البيان . ولأنه إذا ترجم التفسير بدون الآية كانت الترجمة غير مؤدية للمطلوب ، لعدم التئامها مع ماقبلها .

ونجيب على هذا بأننا شرطنا ألا تكون ألفاظ الأصل ولا ترجمتها العرفية منبثة بين ثنايا التفسير بلغة أجنبية، بل قلنا: إن التفسير يجزأ أجزاء، وتساق الآية أو الآيات فى كل نوبة من نوبات هذه التجزئة باللفظ والرسم العربيين، إن كنا نترجم هذه الترجمة لطائفة من إخواننا المسلمين، ثم يشار إليها فى تفسيرها فيقال: معنى هذه الآية أو الآيات كذا.. أو يقال: الآية المرقومة برقم كذا من سورة كذا معناها كذا وكذا . . بعبارة مجردة من ألفاظ الأصل وترجمتها ترجمة عرفية. ويكفى فى ارتباط المبين ببيانه أن يكون بأى وجه من وجوه الارتباط . وهو هنا قد ذكر أولا بلفظه ورسمه العربيين، ثم أشير إليه باسم إشارة أو ببيان رقمه من السورة واسم سورته من القرآن .

أما الالتئام فمن السهل رعاية الانسجام بين جمل التفسير بعضها مع بعض فى كل نوبة فى نوباته. وأما انسجام هذه النوبات كلها بعضها ببعض، بحيث يتألف منها كلام واحد مترابط كأنه سبيكة واحدة فشىء لم يشترطه أحد فى التفسير، ولا يضيرنا فقده شيئا مادام التفسير كلاما منجما على نوبات متفرقة ، لا كلاما واحداً فى نوبة واحدة ، وأما التئام الآيات بعضها ببعض فهو حاصل لامحالة ولكن ليس من الواجب أن يعرض له هذا التفسير ولا غيره من التفاسير .

الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : إن تفسير القرآن يشتمل عادة على كيفية نطق ألفاظه ومدلولات مفرداته، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التى تحمل عليها حال التركيب، واختلاف المعانى عند الوقف على بعض الكلمات والابتداء بما بعدها وعند وصل الأولى بالثانية. ويشتمل أيضا على معرفة السنة لأنها بيان القرآن ، وعلى أقوال الصحابة والأئمة المجتهدين وغير ذلك وترجمة مثل هذا مع الاستيفاء أمر متعذر .

ونجيب على هذا بأن استيفاء الأمور المذكورة لم يشترطه أحد فى أصل التفسير العربى، فبدهى ألا يشترط ذلك فى ترجمته وهى صورة له . كيف وقد علمنا أن التفسير هو البيان ولو من وجه . وكل ما على المفسر أن يكون حكيما ، يلاحظ حال من يفسر لهم على قدر طاقته ، فيضمّن تفسيره مايحتاجون إليه ، ويعفيهم مما لا تسعه عقولهم ، وإلا كان فتنة عليهم . ولعل ذلك سر من أسرار تنوع التفاسير العربية التى بين أيدينا، ما بين مختصر ومتوسط ومطول ، وما بين تفسير بالمأثور وتفسير بالمعقول . وما بين تفسير معنى بالناحية البلاغية وآخر معنى بالناحية النحوية ، وثالث معنى بالناحية الكلامية، ورابع معنى بالناحية الفقهية ، إلى غير ذلك .

وإذا كان هذا ماثلا أمام أعيننا فى التفاسير العربية،فكيف نذهب إلى إنكاره إذا وقع مثله فى التفاسير بلغة أجنبية ؟ !

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : لا حاجة إلى هذا التفسير بلسان غير عربى ، ولا إلى ترجمة أى تفسير من التفاسير ، لإمكان الاستغناء عنهما بترجمة تعاليم الإسلام وهداياته .

والجواب أنا بينا وجه الحاجة إليه فى الفوائد التى ذكرناها آنفا . ثم إن ترجمة تفسير القرآن وتفسير القرآن بلغة أجنبية. كلاهما مثل ترجمة تعاليم الإسلام وهداياته. فكلاهما

معارف دينية ، وكلها من كلام البشر لا من كلام الله المعجز. وقد جوزتم ترجمة تعاليم الإسلام وهداياته . فلتجوزوا ترجمة التفسير بلغة أجنبية أيضا ، لأن ما جاز على أحد المثلين يجوز على الآخر قطعا .

ثم إن الرسائل المتحدثة عن الإسلام وتعاليمه بلغات أجنبية ، قد تكون ضرورية لا بد منها فى بعض الظروف والمناسبات ، ولكنها لا تغنى عن هذا التفسير الذى نحن بصدده الآن، للفوائد التى شرحناها قريبا فيه ، فوجوده شاهد من مشاهد الحق على بطلان ما جاء فى تلك الترجمات الخاطئة ، ييسر على المنصفين وطلاب الحقائق أن يحاكموا تلك الترجمات إلى ما جاء فى هذا التفسير خصوصا إذا صدر من هيئة إسلامية موثوق بها ، وعرض عند كل مناسبة ـ كما قلنا ـ لنقض الشبهات التى ضلت فيها الترجمات الزائغة .

يضاف إلى هذا أن المسلم الأعجمى يستعين بهذا التفسير على تدبر كتاب الله وتفهمه لأية آية من أية سورة يريد . والرسائل المقترحة لا يمكن أن تفى بذلك كله .

وإن أبيت إلا مثلا مما قرره علماؤنا فى ذلك فاستمع إلى جار الله الزمخشرى عند تفسيره لقوله سبحانه : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » إذ يقول ما نصه: « فإن قلت : لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعا « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » ، بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة . . . قلت : لا يخلو : إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها . فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل . فبقى أن ينزل بلسان واحد . فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول، لأنهم أقرب إليه، وإذا فهموا عنه وبينوه وتنوقل عنهم وانتشر قامت التراجم (كذا) ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم، مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة، والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد،

واجتهادهم فى تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب عن ذلك من جليل الفوائد، وما يتكاثر فى إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه من القرب والطاعات ، المفضية إلى جزيل الثواب . ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والاختلاف. ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها وكان مستقلا بصفة الإعجاز فى كل واحد منها ، وكلم الرسول العربى كل أمة بلسانها كما كلم أمته التى هو منها يتلوه عليهم معجزا ، لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء » اهـ باختصار طفيف .

وقوله : « قامت التراجم ببيانه وتفهيمه » يشعر بأن مراده تفاسير القرآن بلغات أجنبية ، لا ترجمات القرآن نفسه بالمعنى العرفى . وذلك لأن التفسير هو الذى يبين القرآن ويفهمه . أما الترجمة فتصوير للأصل فحسب وليس من وظيفتها البيان والتفهيم . ولو كان مراده بالترجمات ترجمات القرآن نفسه لم يستقم كلامه، لأن الذين فهموا القرآن عن الرسول والذين نقلوه عنه لم يقوموا بترجمة القرآن الكريم إلى الأمم المختلفة . إنما شرحوه لهم بعد أن بلغوهم نفس ألفاظه العربية .

ومما يؤيد ذلك قوله : « مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة الخ » . لأن اجتماع الجميع على كتاب واحد ، لا يتأتى مع وجود ترجمات لنفس الكتاب ، بل هو مدعاة إلى الانصراف عن الأصل اكتفاء بالترجمات كما تقدم تفصيل ذلك . فتأمل .

٤ — ترجمة القرآن بمعنى نقله إلى لغة أخرى

هذا هو الإطلاق الرابع المستند إلى اللغة . ثم هو الإطلاق الوحيد فى عرف التخاطب الأممى العام .

ويمكننا أن نعرّف ترجمة القرآن بهذا الإطلاق تعريفا مضغوطا على نمط تعريفهم فنقول : هى نقل القرآن من لغته العربية إلى لغة أخرى . ويمكننا أن نعرفها تعريفا

مبسوطا فنقول: ترجمة القرآن هي التعبير عن معانى ألفاظه العربية ومقاصدها بألفاظ غير عربية، مع الوفاء بجميع هذه المعانى والمقاصد.

ثم إنْ لوحظ في هذه الترجمة ترتيب ألفاظ القرآن، فتلك ترجمة القرآن الحرفية أو اللفظية أو المساوية، وإن لم يلاحظ فيها هذا الترتيب، فتلك ترجمة القرآن التفسيرية أو المعنوية.

والناظر فيما سلف من الكلام على معنى الترجمة وتقسيمها والفروق بينها وبين التفسير يستغنى هنا عن شرح التعريف والتمثيل للمعرف في قسميه؛ كما يستغنى عن التدليل على أن هذا المعنى وحده هو المعنى الاصطلاحي الفريد في لسان التخاطب العام بين الأمم، ويعلم أن ترجمة القرآن بهذا المعنى خلاف تفسيره بلغته العربية. وخلاف تفسيره بغير لغته العربية، وخلاف ترجمة تفسيره العربى ترجمة حرفية أو تفسيرية، فارجع إلى هذا الذى أسلفناه إن شئت.

الحكم على هذه الترجمة بالاستحالة العادية:

أما حكم ترجمة القرآن بهذا المعنى فالاستحالة العادية والشرعية أى عدم إمكان وقوعها عادة، وحرمة محاولتها شرعا. ولنا على استحالتها العادية طريقان في الاستدلال:

(الطريق الأول) أن ترجمة القرآن بهذا المعنى تستلزم المحال، وكل مايستلزم المحال محال. والدليل على أنها تستلزم المحال أنه لا بد في تحققها من الوفاء بجميع معانى القرآن الأولية والثانوية، وبجميع مقاصده الرئيسية الثلاثة، وكلا هذين مستحيل. أما الأول فلأن للمعانى الثانوية للقرآن مدلولة لخصائصه العليا التى هى مناط بلاغته وإعجازه كما بينا من قبل، وما كان لبشر أن يحيط بها فضلا عن أن يحاكيها في كلام له، وإلا لما تحقق هذا الإعجاز. وأما الثانى فلأن المقصد الأول من القرآن ـ وهو كونه هداية ـ إن

أمكن تحقيقه فى الترجمة بالنسبة إلى كل ما يفهم من معانى القرآن الأصلية فهو لا يمكن تحقيقه بالنسبة إلى كل ما يفهم من معانى القرآن التابعة ؛ لأنها مدلولة لخصائصه العليا التى هى مناط إعجازه البلاغى كما سبق .

وكذلك مقصد القرآن الثانى وهى كونه آية لا يمكن تحقيقه فيما سواه من كلام البشر عربيا كان أو عجميا ، وإلا لما صح أن يكون آية خارقة ، ومعجزة غير ممكنة ، حين تتناول هذا المقصد قدرة البشر . كيف والمفروض أن القرآن آية بل آيات ، ومعجزة بل معجزات لا يقدر عليها إلا الله وحده جل وعلا ؟ !

ويجرى هذا المجرى مقصد القرآن الثالث . وهو كونه متعبدا بتلاوته ، فإنه لا يمكن أن يتحقق فى الترجمة ، لأن ترجمة القرآن غير القرآن قطعا . والتعبد بالتلاوة إنما ورد فى خصوص القرآن وألفاظه عينها بأساليبها وترتيباته نفسها ، دون أى ألفاظ أو أساليب أخرى ، ولو كانت عربية مرادفة لألفاظ الأصل وأساليبه .

(الطريق الثانى) أن ترجمة القرآن بهذا المعنى مثل للقرآن ، وكل مثل للقرآن مستحيل . أما أنها مثل له فلأنها جمعت معانيه كلها ومقاصده كلها لم تترك شيئا ، والجامع لمعانى القرآن ومقاصده مثل له أى مثل . وأما أن كل مثل للقرآن مستحيل ، فلأن القرآن تحدى العرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، فعجزوا عن المعارضة والمحاكاة ، وهم يومئذ أئمة البلاغة والبيان ، وأحرص ما يكونون على الغلبة والفوز فى هذا الميدان وإذا كان هؤلاء قد عجزوا وانقطعوا ، فغيرهم ممن هم دونهم بلاغة وبيانا أشد عجزا وانقطاعا . «وإن كنتم فى ريبٍ مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثلهِ وادعوا شهداءَكم من دون الله إن كنتم صادقينَ * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النارَ التى وقودُها الناسُ والحجارةُ أعدّتْ للكافرينَ » . وإذا كان الإنس والجن قد حقت عليهم كلمة العجز عن أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه بلغته العربية ، فأحرى أن يكون عجزهم أظهر لو حاولوا هذه المعارضة بلغة غير عربية لأن اتحاد اللغة فى المساجلة بين كلامين ، من شأنه أن يقرب

التشابه والتماثل إذا كانا ممكنين . نظرا إلى أن الخصائص البلاغية واحدة فيما به التحدى وما به المعارضة . أما إذا اختلفت لغة التحدى ولغة المعارضة فهيهات أن يتحقق التشابه والتماثل بدقة، لأن الخصائص البلاغية فى أحد اللسانين غير الخصائص البلاغية فى اللسان الآخر . ويوجد منها فى أحدهما ما يوجد فى الآخر . فيتعين التفاضل ويتعذر التماثل قطعا. ولهذا يصرح كثير من المتمكنين فى اللغات بأن ترجمة النصوص الأدبية فى أية لغة ترجمة دقيقة أمر مستحيل. وأن ما يتداوله الناس مما يزعمونه ترجمات لبعض كتب أدبية فهو مبنى على ضرب من التسامح فى نقل معانى الأصل وأغراضه بالتقريب لا بالتحقيق. وذلك غير الترجمات الدقيقة لمثل العلوم والقوانين والوثائق المنضبطة ، فإنها ترجمات حقيقية ، مبنية على نقل معانى الأصل وأغراضه كلها بالتحقيق لا بالتقريب .

ولكى نوضح لك معنى المثلية المستحيلة فى ترجمة القرآن بهذا المعنى، نرشدك إلى أن هذه الترجمة لا تتحقق إلا بأمور بعضها مستحيل وبعضها ممكن. ذلك أنه لا بد فيها ـ على ضوء ما تقدم ـ من أن تكون وافية بجميع معانى القرآن الأصلية والتابعة على وجه مطمئن وأن تكون وافية كذلك بجميع مقاصده الثلاثة الرئيسية ، وتلك أمور مستحيلة التحقق كما سبق بيانه. ثم لا بد فيها أيضا من أن تكون صيغتها صيغة استقلالية، خالية من الاستطراد والتزيد ، وتلك أمور ممكنة الوقوع فى ذاتها ، لكننا إذا أضيفت إلى سابقتها كان المجموع مستحيلا ، لأن المؤلف من الممكن والمستحيل مستحيل .

فإذا أريد بعد ذلك أن تكون ترجمة القرآن هذه حرفية، وجب أن يعتبر فيها أمران زائدان: وجود مفردات فى لغة الترجمة مساوية لمفردات القرآن ، ووجود ضمائر وروابط فى لغة الترجمة مساوية لروابط القرآن ، حتى يمكن أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل ، كما هو المشروط فى الترجمة الحرفية . وهذا ـ لعمر الله ـ مما يزيد التعذر استفحالا والاستحالة إيغالا ، ويجعل هذه الترجمة ـ لو وجدت ـ مثلا للقرآن ياله من مثل ، وشبيها لا يطاوله شبيه ، ومعارضا لا يغالبه معارض ! ! . وقد عرفت دليل

بطلان كل ما يصدق عليه أنه مثل للقرآن . وفى هذا يقول الله سبحانه : « قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضهم لبعض ظهيراً » . فنفى المثلية عن القرآن كما نفى المثلية عن نفسه فى قوله : « ليس كمثلهِ شىءٌ » وبالغ فى النفى وفى التحدى لجمع الإنس والجن على هذا العجز . ثم أكد هذا النفى وهذا التحدى مرة أخرى بتقرير عجز الثقلين عن المثلية ، على فرض معاونة بعضهم لبعض فيها ، واجتماع قواهم البيانية والعلمية عليها .

الحكم على هذه الترجمة بالاستحالة الشرعية :

الآن وقد تقرر أن ترجمة القرآن بهذا المعنى العرفى من قبيل المستحيل العادى ، لا نتردد فى أن نقرر أيضاً أنها من قبيل المستحيل الشرعى ، أى المحظور الذى حرمه الله. وذلك من وجوه ثمانية :

« الوجه الأول » أن طلب المستحيل العادى حرمه الإسلام ، أيا كان هذا الطلب ولو بطريق الدعاء، وأيا كان هذا المستحيل ترجمة أو غير ترجمة، لأنه ضرب من العبث، وتضييع للوقت والمجهود فى غير طائل . والله تعالى يقول : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « لا ضرر ولا ضرار » رواه الحاكم فى المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم، يضاف إلى ذلك أن طلب المستحيل العادى غفلة أو جهل بسنن الله الكونية ، وبحكمته فى ربط الأسباب بمسبباتها العادية، تطمينا لخلقه ، ورحمة بعباده « إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

ولقد يعذر بعض الجهلة إذا ظنوا أن بعض المحالات أمور ممكنة فطلبوها، ولكن الذى يحاول ترجمة القرآن بهذا المعنى لا يعذر بحال . لأن القرآن نفسه أعذر حين أنذر بأنه لا يمكن أن يأتى الجن والإنس بمثله ، وإن اجتمعوا له وكان بعضهم لبعض ظهيرا وبذلك « قطعت جهيزة قول كل خطيب » .

« الوجه الثانى » أن محاولة هذه الترجمة فيها ادعاء عمل لإمكان وجود مثل أو أمثال للقرآن ، وذلك تكذيب شنيع لصريح الآية السابقة . ولقوله سبحانه : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله . قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبعُ إلا ما يوحى إلىّ . إنى أخافُ إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم * قل لو شاء اللهُ ما تلوتهُ عليكم ولا أدراكم بهِ ، فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبلهِ ، أفلا تعقلونَ » .

فإن المتأمل فى هاتين الآيتين يجد فيهما وجوهاً دالة على التحريم ، حيث عنون الله عن طلاب التبديل بأنهم لا يرجون لقاءه ؛ وأمر الرسول أن ينفى نفياً عاماً إمكانه تبديله من تلقاء نفسه ، كما أمره أن يعلن أن اتباعه مقصور على ما يوحى إليه نسخاً أو إحكاماً. ومعنى هذا أن التبديل هو هوًى من الأهواء الباطلة، والرسول لا يتبع أهواءهم ولا هوى نفسه ولا هوى أحد . « وما ينطقُ عنِ الهوى * إن هوَ إلا وحىٌ يوحى » وفى ختام الآية الأولى إشارة إلى أن هذه المحاولة التى يحاولونها عصيان لله ، وأنه يخاف منها عذاب يوم عظيم . وفى الآية الثانية إعلام بأن القرآن من محض فضل الله ، وأن الرسول ما كان يستطيع تلاوته عليهم ، ولا كان الله يعلمهم به على لسان رسوله ، لولا مشيئة الله وإيحاؤه به . ثم حاكمهم إلى الواقع وهو أن الرسول نشأ بينهم وعاش عمرا طويلا فيهم ، حتى عرفوا حديثه وأسلوبه وأنه مهما حلق فى سماء البلاغة ؛ فبينه وبين حديث القرآن وأسلوبه بُعد ما بين مكانة الخالق وأفضل الخلق . وأنه ما كان ينبغى أن يفترى الكذب على الله ويدعى أنه أوحى إليه ولم يوح إليه ، على حين أنه معروف بينهم بأنه الصادق الأمين ، « فما كان ليذر الكذب على الناس ثم يكذب على الله » ثم أعلن القرآن أخيرا أن هذا الطلب إهمال منهم لمقتضى العقل والنظر ، وانحطاط إلى دركة الحيوان والحجر ، إذ قال لهم « أفلا تعقلون » .

وإذا كان هذا مبلغ نعى القرآن على طلاب بدل للقرآن أو مثيل له من الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وهو أفصح الناس لسانا وبيانا . وأعلمهم بمعانى القرآن ومقاصده ، وأعرفهم بأسرار الإسلام وروح تشريعه ؛ فما بالك بطلاب هذه الترجمة والساعين إليها من هم أقل شأنا من الرسول صلى الله عليه وسلم مهما قيل فى علمهم وفضلهم وجلالة قدرهم ؟ .

(الوجه الثالث) أن محاولة هذه الترجمة تشجع الناس على انصرافهم عن كتاب ربهم ، مكتفين ببدل أو أبدال يزعمونها ترجمات له . وإذا امتد الزمان بهذه الترجمات فسيذهب عنها اسم الترجمة ويبقى اسم القرآن وحده علماً عليها ، ويقولون : هذا قرآن بالانجليزية ، وذاك قرآن بالفرنسية ، وهكذا ، ثم يحذفون هذا المتعلق بعد ، ويجتزئون بإطلاق لفظ القرآن على الترجمة . ومن كان فى شك فليسأل متعارف الأمم فيما بين أيديهم من ترجمات . وما لنا نذهب بعيدا؟ فلنسائل أنفسنا نحن : ما بالنا نقول بملء فمنا : هذه رواية ماجدولين ، لترجمتها العربية والأصل فرنسى ، وهذا إنجيل برنابا أو يوحنا لترجمتهما العربية والأصل غير عبرى ، إلى غير ذلك من إطلاقاتنا الكثيرة على ترجمات شتى فى الدين والعلم والأدب والقوانين والوثائق ونحوها .

وهاك شاهدا أبلغ من ذلك كله : جاء فى ملحق لمجلة الأزهر أن أهالى جاوه المسلمين ، يقرءون الترجمة الأفرنجية و يقرئونها أولادهم ويعتقدون أن مايقرءون هو القرآن الصحيح اه فقل لى ـ بربك ـ ما الذى يمنع كل قطر من الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية إذن أن يكون له قرآن من هذا الطراز ، لو ذهبنا إلى القول بجواز هذه الترجمة ؟ وهل تشك بعد ذلك فى حرمة كل مايؤدى إلى صرف الناس عن كتاب الله ، وإلى تفرقهم عنه وضلالهم فى مسماه ؟

(الوجه الرابع) أننا لو جوزناهذه الترجمة ، ووصل الأمر إلى حد أن يستغنى الناس عن القرآن بترجمانه ، لتعرض الأصل العربى للضياع كما ضاع الأصل العبرى للتوراة

والإنجيل . وضياع الأصل العربى نكبة كبرى تغرى النفوس على التلاعب بدين الله تبديلا وتغييرا، مادام شاهد الحق قد ضاع ، ونور الله قد انطفأ، والمهيمن على هذه الترجمات قد زال (لاقدر الله). ولاريب أن كل مايعرض الدين للتغيير والتبديل، وكل مايعرض القرآن للإهمال والضياع ، حرام بإجماع المسلمين .

(الوجه الخامس) أننا إذا فتحنا باب هذه الترجمات الضالة ، تزاحم الناس عليها بالمناكب ، وعملت كل أمة وكل طائفة على أن تترجم القرآن فى زعمها بلغتها الرسمية والعامية ، ونجم عن ذلك ترجمات كثيرات لاعداد لها ، وهى بلاشك مختلفة فيما بينها، فينشأ عن ذلك الاختلاف فى الترجمات، خلاف حتمى بين المسلمين، أشبه باختلاف اليهود والنصارى فى التورة والإنجيل . وهذا الخلاف يصدع بناء المسلمين ويفرق شملهم، ويهيئ لأعدائهم فرصة للنيل منهم، ويوقظ بينهم فتنة عمياء كقطع الليل المظلم، فيقول هؤلاء لأولئك: قرآننا خير من قرآنكم ، ويرد أولئك على هؤلاء تارة بسب اللسان ،وأخرى بحد الحسام، ويخرون ضحايا هذه الترجمات، بعد أن كانوا بالأمس إخوانا يوحد بينهم القرآن،ويؤلف بينهم الإسلام . وهذه الفتنة ـ لا أذن بها الله ـ أشبه بل هى أشد من الفتنة التى أوجس خيفة منها أمير المؤمنين عثمان بن عفان . وأمر بسببها أن تحرق جميع المصاحف الفردية ، وأن يجتمع المسلمون على تلك المصاحف العثمانية الإجماعية .

(الوجه السادس) أن قيام هذه الترجمات الآثمة يذهب بمقوم كبير من مقومات وجود المسلمين الاجتماعى ، كأمة عزيزة الجناب قوية السناد ؛ ذلك أنهم سيقنعون غداً بهذه الترجمات كما قلنا . ومتى قنعوا بها فسيستغنون لامحالة عن لغة الأصل وعلومها وآدابها وأنت تعلم والتاريخ يشهد ، أنها رباط من أقوى الروابط فيما بينها وكان لهذا الرباط أثره الفعال العظيم فى تدعيم وحدة الأمة وبنائها، حين كانوا يقرءون القرآن نفسه ،ويدرسون من أجله علوم لغته العربية وآدابها، تذرعا إلى حسن أدائه وفهمه، حتى خدموا هذه العلوم ونبغوا فيها ، ولمع فى سمائها رجال من الأعجام بزوا كثيراً من أعلام

العرب فى خدمتها وخدمة كتاب الله وعلومه بها . وبهذا قامت اللغة العربية لسانا عاما للمسلمين ، ورابطا مشتركا بينهم . على اختلاف أجناسهم ولغاتهم الإقليمية ؛ بل ذاب كثير من اللغات الإقليمية فى هذه اللغة الجديدة لغة القرآن الكريم .

وإن كنت فى ريب فسائل التاريخ عن وحدة المسلمين وعزتهم يوم كانت اللغة العربية صاحبة الدولة والسلطان فى الأقطار الإسلامية شرقية وغربية ، عربية وعجمية . يوم كانت لغة التخاطب بينهم ، ولغة المراسلات ، ولغة الأذان والإقامة والصلوات ، ولغة الخطابة فى الجمع والأعياد والجيوش والحفلات ، ولغة المكاتبات الرسمية بين خلفاء المسلمين وأمرائهم وقوادهم وجنودهم ، ولغة مدارسهم ومساجدهم وكتبهم ودواوينهم .

ونحن فى هذا العصر الذى زاحمتنا فيه اللغات الأجنبية وصارت حربا على لغتنا العربية ، حتى تبلبلت ألسنتنا وألسنة أبنائنا وخاصتنا وعامتنا ، يتأكد علينا أمام هذا الغزو اللغوى الجائح ، أن نحشد قوانا لحماية لغتنا والدفاع عن وسائل بقائها وانتشارها . وفى مقدمة هذه الوسائل إبقاء القرآن على عربيته ، والضرب على أيدى العاملين على ترجمته . وما ينبغى لنا أن نحطب فى حبلهم ، ولا أن نسايرهم فى قياس ترجمة القرآن بهذا المعنى على ترجمة غيره فى الجواز والإمكان . فأين الثرى من الثريا ؟ وأين كلام العبد العاجز من كلام الله المعجز ؟ . وما أشبه هؤلاء بالمفتونين من أمة موسى حين جاوز الله بهم البحر وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم « قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ ، قال إنكم قوم تجهلونَ * إنَّ هؤلاء متبرمام فيهِ وباطلٌ ما كانوا يعملونَ » !

جاء فى كتاب الرسالة للشافعى ما خلاصته : « إنه يجب على غير العرب أن يكونوا تابعين للسان العرب ، وهو لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعا . كما يجب أن يكونوا تابعين له دينا ـ وأن الله تعالى قضى أن ينذروا بلسان العرب خاصة . . ثم قال : « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير

وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك . وكلما ازداد من العلم باللسان الذى جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه ، كان خيرا له » .

وجاء فى كتاب الرسالة أيضاً أن المسور بن مخرمة رأى رجلا أعجمى اللسان أراد أن يتقدم للصلاة . فمنعه المسور بن مخرمة وقدم غيره ولما سأله عمر رضى الله عنه فى ذلك قال له : إن الرجل كان أعجمى اللسان وكان فى الحج ، فخشيت أن يسمع بعض الحاج قراءته فيأخذ بعجمته . فقال له عمر : أصبت. وقال الشافعى : « لقد أحببت ذلك » . اهـ قال فى الكشاف « الأعجمى من لا يُفهم كلامه للكنته أو لغرابة لغته ، فجاز أن يكون لسانه ألكن أو تكون لغته غريبة » .

(الوجه السابع) أن الأمة أجمعت على عدم جواز رواية القرآن بالمعنى. وأنت خبير بأن ترجمة القرآن بهذا المعنى العرفى ، تساوى روايته بالمعنى فكلتاهما صيغة مستقلة وافية بجميع معانى الأصل ومقاصده ، لا فرق بينهما إلا فى القشرة اللفظية. فالرواية بالمعنى لغتها لغة الأصل . وهذه الترجمة لغتها غير لغة الأصل. وعلى هذا يقال إذا كانت رواية القرآن بالمعنى فى كلام عربى ممنوعة إجماعا ، فهذه الترجمة ممنوعة كذلك ، قياساً على هذا المجمع عليه ، بل هى أحرى بالمنع ، للاختلاف بين لغتها ولغة الأصل .

(الوجه الثامن) أن الناس جميعاً مسلمين وغير مسلمين، تواضعوا على أن الأعلام لا يمكن ترجمتها سواء أكانت موضوعة لأشخاص من بنى الإنسان ، أم لأفراد من الحيوان، أم لبلاد وأقاليم، أم لكتب ومؤلفات . حتى إذا وقع علم من هذه الأعلام أثناء ترجمة ما ، ألفيته هو هو ثابتاً لا يتغير، عزيزاً لا ينال، متمتعاً بحصانته العلمية، لا ترزؤه الترجمة شيئاً، ولا تنال منه منالا. وما ذاك إلا لأن واضعى هذه الأعلام قصدوا ألفاظها بذاتها، واختاروها دون سواها للدلالة على مسمياتها ، فكذلك القرآن الكريم علم ربانى قصد الله سبحانه ألفاظه دون غيرها. وأساليبه دون سواها، لتدل على هداياته وليؤيدبها

رسوله ، وليتعبد بتلاوتها عباده . وكان سبحانه حكيما فى هذا التخصيص والاختيار، لمكان الفضل والامتياز فى هذه الأساليب والألفاظ المختارة .

ومن تفقه فى أساليب اللغة العربية ، وعرف أن لخفة الألفاظ على الأسماع وحسن جرسها فى النفوس مدخلا فى فصاحة الكلام وبلاغته، أيقن أن القرآن فذ الأفذاذ فى بابه، وعلم الأعلام فى بيانه لأن مافيه من الأساليب البلاغية والموسيقى اللفظية ، أمر فاق كل فوق ، وخرج عن كل طوق « ولو أن قرآنا سُيِّرت بهِ الجبالُ أو قطعتْ بهِ الأرض أو كلم به الموتى . . بل للهِ الأمرُ جميعاً » ، فأنى لمخلوق بعد هذا أن يحاكيه بترجمة مساوية أو مماثلة « سبحانكَ هذا بهتانٌ عظيمٌ » .

دفع الشبهات الواردة على منع هذه الترجمة

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : إن تبليغ هداية القرآن إلى الأمم الأجنبية واجب؛ لما هو معروف من أن الدعوة إلى الإسلام عامة لا تختص بجيل ولا بقبيل . وهذا التبليغ الواجب يتوقف على ترجمة القرآن لغير العرب بلغاتهم ، لأنهم لا يحذقون لغة العرب بينما القرآن عربى. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ونجيب على هذه الشبهة (أولا) بأن هذا التبليغ لا يتوقف على ترجمة القرآن لهم تلك الترجمة العرفية ، الممنوعة بل يمكن أن يحصل بترجمته على المعنى اللغوى السالف وهو تفسيره بغير لغته على ما شرحناه آنفا . ويمكن أن يكون بتبليغهم هداية القرآن وتعاليمه ، ومحاسن الإسلام ومزاياه . ودفع الشبهات التى تعترضهم فى ذلك . إما بمحادثات شفهية ، وإما بمؤلفات على شكل رسائل تنشر ، أو مجلات تذاع ، أو كتب تطبع ، يختار الداعى من ذلك ما هو أنسب بحال المدعوين ، وما هو أيسر له وأنجح لدعوته فيهم .

(ثانياً) أن الله تعالى لم يكلفنا بالمستحيل « لا يكلفُ اللهُ نفساً إلا وسْعَها » . وقد أشبعنا القول فى بيان استحالة ترجمة القرآن بذلك المعنى العرفى استحالة عادية . فواضح ألا يكلفنا الله إياها .

(ثالثاً) أن القول بوجوب هذه الترجمة يستلزم المحال ؛ وهو التناقض فى أحكام الله تعالى . ذلك أن الله حرمها كما تقرر من قبل ، فكيف يستقيم القول بأنه أوجبها، مع أن الحاكم واحد وهو الله، ومحل الحكم واحد وهو الترجمة، والمحكوم عليه واحد وهم المكلفون فى كل زمان ومكان .

(رابعاً) أن الرسول ﷺ وهو أعرف الناس بأحكام الله وأنشط الخلق فى الدعوة إلى الله ، لم يتخذ هذه الترجمة وسيلة إلى تبليغ الأجانب مع أنه قد دعا العرب والعجم ، وكاتب كسرى وقيصر ، وراسل المقوقس والنجاشى . وكانت جميع كتبه لهم عربية العبارة ، ليس فيها آية واحدة مترجمة ، فضلا عن ترجمة القرآن كله . وكان كل ما فى هذه الكتب دعوة صريحة جريئة إلى نبذ الشرك واعتناق التوحيد والاعتراف برسالته ﷺ ووجوب طاعته واتباعه وكان ﷺ يدفع كتبه هذه إلى سفراء يختارهم من أصحابه فيؤدونها على وجهها ، وهؤلاء الملوك والحكام قد يدعون تراجم يفسرونها لهم، وقد يسألون السفراء ومن يتصل بهم عن تعاليم الإسلام ، وشمائل نبى الإسلام، وصفات الذين اتبعوه، ومدى نجاح هذه الرسالة مما عساه أن يلقى ضوءاً على حقيقة الداعى ودعوته .

انظر حديث هرقل فى أوائل صحيح البخارى .

(خامساً) أن الصحابة رضوان الله عليهم ، وهم مصابيح الهدى وأفضل طبقة فى سلف هذه الأمة الصالح ، وأحرص الناس على مرضاة الله ورسوله ، وأعرفهم بأسرار الإسلام وروح تشريعه ، لم يفكروا يوما ما فى هذه الترجمة ، فضلا عن أن يحاولوها أو يأتوها . بل كان شأنهم شأن الرسول الأعظم ﷺ يدعون بالوسائل التى دعا بها، على نشاط رائع

عجيب فى النشر والدعوة والفتح. فلو كانت هذه الترجمة العرفية من مواجب الإسلام لكان أسرع الخلق إليها رسول الله وأصحابه. ولو فعلوه لنقل وتواتر، لأن مثله مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره.

الشبهة الثانية ودفعها

يقولون: إن كتبه صلى الله عليه وسلم إلى العظماء من غير العرب يدعوهم إلى الإسلام، تستلزم إقراره على ترجمتها؛ لأنها مشتملة على قرآن وهم أعجام، ولأن الروايات الصحيحة ذكرت فى صراحة أن هرقل وهو من هؤلاء المدعوين، دعا ترجمانه فترجم له الكتاب النبوى وفيه قرآن.

والجواب أن هذه الكتب النبوية لا تستلزم إقرار الرسول ﷺ على تلك الترجمة العرفية الممنوعة. بل هى إذا استلزمت فإنما تستلزم الإقرار على نوع جائز من الترجمة وهو التفسير بغير العربية، لأن التفسير بيان ولو من وجه وهو كاف فى تفهم مضمون الرسائل المرسلة. على أن هذه الرسائل الكريمة لم تشتمل على القرآن كله، ولا على آيات كاملة منه. بل كل مافيها مقتبسات نادرة جداً. ولا ريب أن المقتبسات من القرآن ليس لها حكم القرآن.

وهاكم نماذج تتبينون منها مبلغ هذه الحقيقة:

١ - فكتابه صلى الله عليه وسلم الذى أرسله مع دحية بن خليفة الكلبى إلى هرقل، هذا نصه: « بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (أى الفلاحين) ويأهل الكتاب

تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم : ألا نعبدَ إلا اللهَ ، ولا نشركَ بهِ شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دونِ اللهِ . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمونَ » .

فأنت ترى أن ما فى هذا الكتاب من القرآن لم يبلغ آية تامة ، لأن الآية مبتدأة بقوله تعالى : « قل يأهلَ الكتابِ » ولكن الكتاب حذف منه لفظ (قل) وزيد فيه حرف الواو ، والحذف والزيادة دليلان ماديان على الاقتباس .

٢ ـ وكتابه ﷺ الذى بعث به مع عبدالله بن حذافة إلى كسرى ، هـذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله. أدعوك بدعاية الله، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلم. فإن توليت فعليك إثم المجوس » .

فأنت ترى فى هذه الرسالة النبوية أنها اشتملت على كلمة (لأنذرَ من كان حيًّا ويحقّ القولُ على الكافرين) ، على حين أن نص الآية فى القرآن الكريم ، (لينذرَ من كانَ حيًّا) وهذا دليل الاقتباس .

٣ ـ وقل مثل ذلك فى سائر رسائله ﷺ . فإن كتابه إلى المقوقس هو نص كتابه إلى هرقل ، لا فرق بينهما إلا فى كلمة (الأريسيين) إذ أبدلت بها كلمة (القبط) ، وإلا فى اسم المرسل إليه ومكانته كما هو واضح .

٤ ـ وكذلك كتابه إلى جيفر وعبد ملكى عمان ، ليس فيه إلا كلمة (لأنذرَ من كان حيًّا ويحق القولُ على الكافرينَ) : وهى التى فى رسالته صلى الله عليه وسلم إلى كسرى[1] .

---

(١) راجع فى ذلك ما كتبه الزرقانى على المواهب (ص ٢٢٦ ـ ٣٦٩ ج ٣) والسيرة الحلبية (ص ٣٦٢ ـ ٣٧٨ ج ٢) . وكتاب العلم من صحيح البخارى .

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : إن جميع المحذورات التي تخشى من الترجمة موجودة في التفسير باللفظ العربي نفسه . وقد أجمعت الأمة على عدم التحاشي عن هذه المحذورات ، فيجب ألا يتحاشى عنها في الترجمة أصلا . إذ لا فرق بين التعبير باللفظ العربي والتعبير باللفظ العجمي عن المراد بالآيات ، بعد أن يكون المعبر والمفسر والمترجم مستكملا للشروط والمؤهلات الواجبة لمن يعرض نفسه للتفسير والترجمة .

والجواب أنهم إن أرادوا بالترجمة في كلامهم تلك الترجمة العرفية ، فقد بسطنا من وجوه المحذورات فيها ما جعلها حجرا محجورا ، وإثما محظورا . ورسمنا من الفروق ما جعل بينها وبين التفسير بونا بعيدا ؛ سواء أكانت هي ترجمة حرفية أم تفسيرية ، وسواء أكان هو تفسيرا بلغة الأصل أم بغير لغة الأصل .

وإن أرادوا بالترجمة في كلامهم تلك الترجمة اللغوية على معنى التفسير بلغة أجنبية ، فكلامهم في محل التسليم والقبول . ولكن لا يجوز أن تخاطب العرف العالمي العام بهذا الإطلاق اللغوي الخاص بنا لأنه لا يعرفه .

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن الترجمة العرفية للقرآن إذا تعذرت بالنسبة إلى معانيه التابعة ، فإنها تمكن بالنسبة إلى معانيه الأصلية . وعلى هذا فلنترجم القرآن بمعنى أننا ننقل معانيه الأصلية وحدها . لا سيما أنها هي المشتملة على الهداية المقصودة منه دون معانيه التابعة .

ونجيب على هذه الشبهة (أولا) بأن نقل معاني القرآن الأصلية لا يسمى ترجمة للقرآن عرفا ، لأن مدلول ألفاظ القرآن مؤلف من المعاني الأصلية والتابعة . فترجمته نقل معانيه كلها لا فرق بين ما كان منها أوليا وما كان ثانويا ، ونقل مقاصده كلها كذلك . ومحال

نقل جميع هذا كما سبق . وعلى هذا لا يجوز أن يعتبر مجرد نقل المعانى الأصلية دون التابعة ودون بقية مقاصده ترجمة له . اللهم إلا إذا جاز أن تسمى يد الإنسان إنسانا ، ورجل الحيوان حيوانا .

ثم إن إطلاق الترجمة على هذا المعنى المراد، لو كان مقصوراً على قائليه ولم يتصل بالعرف العام ، لهان الخطب وسهل الأمر ، وأمكن أن يلتمس وجه للتجوز ولو بعيدا . ولكن العرف الذى نخاطبه لا يفهم من كلمة ترجمة إلا أنها صورة مطابقة للأصل، وافية بجميع معانيه ومقاصده ، لا فرق بينهما إلا فى القشرة اللفظية . فإذا نحن نقلنا المعانى الأصلية للقرآن وحدها ، ثم قلنا لأهل هذا العرف العالمى العام : هذه هى ترجمة القرآن، نكون قد ضللنا أهل هذا العرف من ناحية ، ثم نكون قد بخسنا القرآن حقه من الإجلال والإكبار من ناحية أخرى، فزعمنا أن له مثلا يناصيه، وشبيهاً يحاكيه، على حين أن الذى جئنا به ما هو إلا صورة مصغرة لجزء منه ، وبين هذه الصورة وجلال الأصل مراحل شتى ، كالذى يصور الجزء الأسفل من إنسان عظيم ، ثم يقول للناس : هذه صورة فلان العظيم .

(ثانياً) أن تلك المعانى التابعة الثانوية ، فياضة بهدايات زاخرة، ومعارف واسعة فلا نسلم أن معانى القرآن الأولية وحدها هى مصدر هداياته. وارجع إلى ما ذكرناه سابقا فى هذا الصدد ، فإن فيه الكفاية .

الشبهة الخامسة ودفعها :

يقولون إن الذين ترجموا القرآن إلى اللغات الأجنبية ، غيروا معانيه ، وشوهوا جماله ، وأخطأوا أخطاء فاحشة ، فإذا نحن ترجمنا القرآن بعناية ، أمكن أن نصحح لهم تلك الأخطاء . وأن نرد إلى القرآن الكريم اعتباره فى نظر أولئك الذين يقرءون تلك الترجمات الضالة، وأن نزيل العقبات التى وضعت فى طريقهم إلى هداية الإسلام؛ وبذلك نكون قد أدينا رسالتنا فى النشر والدعوة إلى هذا الدين الحنيف .

ونجيب على هذا بأن الذين زعموا أنهم ترجموا القرآن ترجمة عربية شوهوا جماله وغضوا من مقامه باعترافكم. فإن أنتم ترجمتم ترجمتهم وحاولتم محاولتهم فستقعون لا محالة فى قريب مما وقعوا فيه، وستمسون بدوركم عظمة هذا القرآن وجلاله، مهما بالغتم فى الحيطة، وأمعنتم فى الدقة، ونبغتم فى العلم، وتفوقتم فى الفهم، لأن القرآن أعز وأمنع من أن تناله ريشة أى مصور كان، من إنس أو جان كما بينا ذلك أوفى بيان.

أما إذا حاولتم ترجمة القرآن على معنى تفسيره بلغة أجنبية، فذلك موقف آخر، نؤيدكم فيه، ونوافقكم عليه، وندعو القادرين معكم إليه.

الشبهة السادسة ودفعها:

يقولون: جاء فى صريح السنة مايؤيد القول بجواز ترجمة القرآن؛ فقد قال الشرنبلالى فى كتابه «النفحة القدسية» مانصه:

«روى أن أهل فارس كتبوا إلى سلمان الفارسى أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكتب لهم: «بسم الله الرحمن الرحيم - بنام يزدان بخشايند» فكانوا يقرءون ذلك فى الصلاة حتى لانت ألسنتهم. وبعد ما كتب عرضه على النبى ﷺ. كذا فى المبسوط، قاله فى النهاية والدراية».

ونجيب على هذا من وجوه: (أولها) أن هذا خبر مجهول الأصل، لا يعرف له سند، فلا يجوز العمل به، (ثانيها) أن هذا الخبر لو كان لنقل وتواتر، لأنه مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره. (ثالثها) أنه يحمل دليل وهنه فيه. ذلك أنهم سألوه أن يكتب لهم ترجمة الفاتحة فلم يكتبها لهم. إنما كتب لهم ترجمة البسملة. ولو كانت الترجمة ممكنة وجائزة، لأجابهم إلى ماطلبوا وجوبا، وإلا كان كاتما وكاتم العلم ملعون. (رابعها) أن المتأمل فى الخبر يدرك أن البسملة نفسها لم تترجم لهم كاملة، لأن هذه

الألفاظ التى ساقتها الرواية على أنها ترجمة للبسملة، لم يؤت فيها بلفظ مقابل للفظ «الرحمن».
وكأن ذلك لعجز اللغة الفارسية عن وجود نظير فيها لهذا الاسم الكريم. وهذا دليل مادى على أن المراد بالترجمة هنا الترجمة اللغوية لا العرفية ، على فرض ثبوت الرواية .
(خامسها) أنه قد وقع اختلاف فى لفظ هذا الخبر بالزيادة والنقص وذلك موجب لاضطرابه ورده . والدليل على هذا الاضطراب أن النووى فى المجموع نقله بلفظ آخر هذا نصه :
« إن قوما من أهل فارس طلبوا من سلمان أن يكتب لهم شيئاً من القرآن ، فكتب لهم الفاتحة بالفارسية » .

وبين هذه الرواية وتلك مخالفة ظاهرة، إذ أن هذه ذكرت الفاتحة وتلك ذكرت البسملة بل بعض البسملة . ثم إنها لم تعرض لحكاية العرض على النبى صلى الله عليه وسلم، أما تلك فعرضت له .

(سادسها) أن هذه الرواية على فرض صحتها معارضة للقاطع من الأدلة السابقة القائمة على استحالة الترجمة وحرمتها . ومعارض القاطع ساقط .

حكم قراءة الترجمة والصلاة بها

تكاد كلمة الفقهاء تتفق على منع قراءة ترجمة القرآن بأى لغة كانت فارسية أو غيرها، وسواء أكانت قراءة هذ الترجمة فى صلاة أم فى غير صلاة . لولا خلاف واضطراب فى بعض نقول الحنفية .

وإليك نبذاً من أقوال الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ، تتنور بها فى ذلك .

مذهب الشافعية :

١ ـ قال فى المجموع (ص ٣٧٩ ج ٣): مذهبنا ـ أى الشافعية ـ أنه لا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب ، سواء أمكنته العربية أم عجز عنها ، وسواء أكان فى

الصلاة أم فى غيرها. فإن أتى بترجمته فى صلاة بدلا عنها لم تصح صلاته، سواء أحسن القراءة أم لا. وبه قال جماهير العلماء، منهم مالك وأحمد وأبو داود».

٢ — وقال الزركشى فى البحر المحيط: «لا تجوز ترجمة القرآن بالفارسية ولا بغيرها، بل تجب قراءته على الهيئة التى يتعلق بها الإعجاز. لتقصير الترجمة عنه، ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذى خص به دون سائر الألسن.

٣ — وجاء فى حاشية ترشيح المستفيدين (ص ٥٢ ج ١): من جهل الفاتحة لا تجوز له أن يترجم عنها، لقوله تعالى: «إنا أنزلناهُ قرآناً عربيًّا» والعجمى ليس كذلك. وللتعبد بألفاظ القرآن.

٤ — وجاء فى الاتقان للسيوطى: «تجوز قراءة القرآن بالمعنى لأن جبريل أداه باللفظ، ولم يبح له إيحاؤه بالمعنى».

مذهب المالكية:

١ — جاء فى حاشية الدسوقى على شرح الدردير للمالكية (ص ٢٣٢ — ٢٣٦ ج ١).
«لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية. بل لا يجوز التكبير فى الصلاة بغيرها ولا بمرادفه من العربية. فإن عجز عن النطق بالفاتحة بالعربية وجب عليه أن يأتم بمن يحسنها. فإن أمكنه الائتمام ولم يأتم بطلت صلاته. وإن لم يجد إماماً سقطت عنه الفاتحة، وذكر الله تعالى وسبحه بالعربية وقالوا: على كل مكلف أن يتعلم الفاتحة بالعربية وأن يبذل وسعه فى ذلك، ويجهد نفسه فى تعلمها وما زاد عليها، إلا أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذر».

٢ — وجاء فى المدونة (ص ٦٢ ج ١): «سألت ابن القاسم عمن افتتح الصلاة بالأعجمية وهو لا يعرف العربية: ما قول مالك فيه؟ فقال: سئل مالك عن الرجل يحلف بالعجمية فكره ذلك وقال: أما يقرأ؟ أما يصلى؟ إنكارا لذلك» أى ليتكلم بالعربية

لابالعجمية . قال : ومايدريه الذى قال ، أهو كما قال ؟ . أى الذى حلف به أنه هو الله ، مايدريه أنه هو أم لا . قال : قال مالك : « أكره أن يدعو الرجل بالعجمية فى الصلاة ولقد رأيت مالكا يكره العجمى أن يحلف ويستثقله . قال ابن القاسم : وأخبرنى مالك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى عن رطانة الأعاجم ، وقال : إنها خب أى خبث وغش » .

مذهب الحنابلة :

١ ـ قال فى المغنى (ص ٥٢٦ ج ١) : « ولا تجزئه القراءة بغير العربية، ولا إبدال لفظ عربى ، سواء أحسن القراءة بالعربية أم لم يحسن . ثم قال : فإن لم يحسن القراءة بالعربية لزمه التعلم فإن لم يفعل مع القدرة عليه لم تصح صلاته » .

٢ ـ وقال ابن حزم الحنبلى فى كتابه المحلى (ص ٢٥٤ ج ٣) من قرأ أم القرآن أو شيئاً منها أو شيئاً من القرآن فى صلاته مترجماً بغير العربية ، أو بألفاظ عربية غير الألفاظ التى أنزل الله تعالى ، عامدا لذلك ؛ أو قدم كلمة أو أخرها عامدا لذلك ؛ بطلت صلاته ، وهو فاسق ؛ لأن الله تعالى قال : « قرآنا عربيًّا » ، وغير العربى ليس عربيا ؛ فليس قرآنا ، وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله . وقد ذم الله تعالى من فعلوا ذلك فقال : « يحرِّفون الكلم عن مواضعه » .

ومن كان لا يحسن العربية فليذكر الله تعالى بلغته لقوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . ولا يحل له أن يقرأ أم القرآن ولا شيئا من القرآن مترجما على أنه الذى افترض عليه أن يقرأه ، لأنه غير الذى افترض عليه ، كما ذكرنا ، فيكون مفتريا على الله » .

مذهب الحنفية :

اختلفت نقول الحنفية فى هذا المقام ، واضطرب النقل بنوع خاص عن الإمام ، ونحن نختصر لك الطريق بإيراد كلمة فيها تلخيص للموضوع ، وتوفيق بين النقول ، اقتطفناها من ـ

مجلة الأزهر (ص ٣٢ و ٣٣ و ٦٦ و ٦٧ من المجلد الثالث) بقلم عالم كبير من علماء الأحناف إذ جاء فيها باختصار وتصرف ما يلى :

أجمع الأئمة على أنه لا تجوز قراءة القرآن بغير العربية خارج الصلاة . ويمنع فاعل ذلك أشد المنع ، لأن قراءته بغيرها من قبيل التصرف فى قراءة القرآن بما يخرجه عن إعجازه، بل بما يوجب الركاكة .

وأما القراءة فى الصلاة بغير العربية فتحرم إجماعا للمعنى المتقدم، لكن لو فرض وقرأ المصلى بغير العربية ، أتصح صلاته أم تفسد ؟ .

ذكر الحنفية فى كتبهم أن الإمام أبا حنيفة كان يقول أولا : إذا قرأ المصلى بغير العربية مع قدرته عليها اكتفى بتلك القراءة . ثم رجع عن ذلك وقال : (متى كان قادرا على العربية ففرضه قراءة النظم العربى . ولو قرأ بغيرها فسدت صلاته لخلوها من القراءة مع قدرته عليها ، والإتيان بما هو من جنس كلام الناس حيث لم يكن المقروء قرآنا) . ورواية رجوع الإمام هذه تعزى إلى الأقطاب فى المذهب . ومنهم نوح بن مريم ، وهو من أصحاب أبى حنيفة ، ومنهم على بن الجعد وهو من أصحاب أبى يوسف . ومنهم أبو بكر الرازى ، وهو شيخ علماء الحنفية فى عصره بالقرن الرابع .

ولا يخفى أن المجتهد إذا رجع عن قوله ، لا يعد ذلك المرجوع عنه قولا له، لأنه لم يرجع عنه إلا بعد أن ظهر له أنه ليس بصواب وحينئذ لا يكون فى مذهب الحنفية قول بكفاية القراءة بغير العربية فى الصلاة للقادر عليها ، فلا يصح التمسك به ، ولا النظر إليه ، لاسيما أن إجماع الأئمة ـ ومنهم أبو حنيفة ـ صريح فى أن القرآن اسم للفظ المخصوص الدال على المعنى ، لا للمعنى وحده .

أما العاجز عن قراءة القرآن بالعربية فهو كالأمى فى أنه لا قراءة عليه . ولكن إذا فرض أنه خالف وأدى القرآن بلغة أخرى ، فإن كان ما يؤديه قصة أو أمرا أو نهيا فسدت

صلاته، لأنه متكلم بكلام وليس ذكرا، وإن كان مايؤديه ذكراً أوتنزيهالا تفسدصلاته، لأن الذكر بأى لسان لا يفسد الصلاة لا لأن القراءة بترجمة القرآن جائزة، فقد مضى القول بأن القراءة بالترجمة محظورة شرعا على كل حال .

توجيهات وتعليقات

جاءفى كلام بعض الأئمة وأقطاب علماء الأمة، ماأوقع بعض كبار الباحثين فى اشتباه. لذلك نرى إتماما للبحث، وتمحيصا للحقيقة، أن نسوق نماذج من هذا الكلام،ثم نتبعها بما نعتقد توجيها لها، أو تعليقا عليها .

١ — كلمة للإمام الشافعى

جاء فى كتاب الأم للشافعى رحمه الله تحت عنوان: (إمامة الأعجمى) ص١٤٧ ج١ مانصه : « وإذا ائتموا به ، فإن أقاما معا أم القرآن، ولحن أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمى فى شىء من القرآن غيرها ، أجزأته ومن خلفه صلاتهم ، إذا كان أراد القراءة لما نطق به من عجمة ولحن، فإن أراد به كلاما غير القراءات فسدت صلاته » اه.

قالوا فى بيان مراد الشافعى من كلمته هذه : « ومراده أن الإمام والمؤتم إذا أحسنا قراءة الفاتحة،ثم لحن أو نطق أحدهما بلهجة أعجمية أو لغة أعجمية فى شى من القرآن غير الفاتحة ، لا تبطل صلاتهما . والمراد من الأعجمية اللهجة ، ومن اللسان اللغة ، كما هو استعماله فى هذه المواطن . فهذا النص يدل على أن اللسان الأعجمى بعد قراءة المفروض عنده ـ وهو الفاتحة ـ لا يبطل الصلاة . وهو موافق للحنفية فى هذا » اه .

ونقول توجيها لكلام الشافعى، وتأييداً لما ذهبنا إليه: قد أسلفنا الكلام فى مذهب الحنفية، فلا نعيده. أما الذى ذكروه من أن هذا هو مراد الشافعى - رحمه الله - فسلم، بيد أنه يحتاج إلى تكملة لابد منها، وهى أن عدم بطلان الصلاة فى هذه الصورة، مشروط بأن تقصد القراءة، أما إذا كان المقصود كلاما غير القراءة فإنها تبطل. ثم إن منشأ عدم البطلان ليس هو جواز قراءة غير الفاتحة بالأعجمية كما فهموا، إنما منشؤه أن هذه القراءة بالأعجمية وقعت فى غير ركن وفى غير واجب للصلاة، لما هو مقرر فى مذهب الشافعية من أن قراءة مازاد على الفاتحة ليس واجبا فى الصلاة بحال. وهذا لا ينافى أن القراءة بالأعجمية محرمة كما سبق فى نصوص الشافعية بين يديك، وكما عرف من كلام الشافعى نفسه وقد أسلفناه قريباً، ولهذه المسألة نظائر، منها الصلاة فى الأرض المغصوبة، فإنها محرمة، ومع حرمتها فإنها صحيحة، ويؤيد حرمة القراءة بالأعجمية أن الشافعى فى كلامه هنا، قد سوى بين اللحن والقراءة بالأعجمية ونظمهما فى سلك واحد مع ماهو معلوم من أن اللحن فى القرآن حرام بإجماع المسلمين.

٢ - كلمة للمحقق الشاطبى

قال الشاطبى - وهو من أعلام المالكية - (فى ص ٤٤، ٤٥ ج ٢) من كتابه الموافقات تحت عنوان (منع ترجمة القرآن) ما نصه: « للغة العرب من حيث هى ألفاظ دالة على معان نظران: أحدهما من جهة كونها ألفاظا وعبارات دالة على معان مطلقة، وهى الدلالة الأصلية، والثانى من جهة كونها ألفاظا وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة، وهى الدلالة التابعة. فالجهة الأولى هى التى تشترك فيها الألسنة وإليها تنتهى مقاصد المتكلمين ولا تختص بأمة دون أخرى. فإنه إذا حصل فى الوجود فعل لزيد مثلا كالقيام، ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام؛ تأتى له ما أراد من غير كلفة. ومن هذه الجهة يمكن فى لسان العرب الإخبار عن أقوال الأولين ممن ليسوا من أهل اللغة العربية، وحكاية كلامهم. ويتأتى فى لسان العجم حكاية أقوال العرب والإخبار عنها. وهذا لا إشكال

فيه . وأما الجهة الثانية فهى التى يختص بها لسان العرب فى تلك الحكاية وذلك الإخبار، فإن كل خبر يقتضى فى هذه الحالة أموراً خادمة لذلك الإخبار ، بحسب المخبر والمخبر عنه والمخبر به، ونفس الإخبار فى الحال والمساق، ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك » وبعد أن مثل الشاطبى لهذا بنحو ما مثلنا سابقا قال : « وبهذا النوع الثانى اختلفت العبارات وكثير من أقاصيص القرآن ، لأنه يأتى مساق القصة فى بعض السور على وجه ، وفى بعضها على وجه آخر ، وفى ثالثة على وجه ثالث ، وهكذا ما تقرر فيه من الإخبار ، لا بحسب النوع الأول ، إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل فى بعض ، ونص عليه فى بعض . وذلك أيضاً لوجه اقتضاه الحال والوقت « وما كان ربك نسيًّا » .

ثم قال : « إذا ثبت هذا فلا يمكن من اعتبر هذا الوجه الأخير (أى الدلالة التابعة) أن يترجم كلاما من الكلام العربى بكلام العجم فضلا عن أن يترجم القرآن وينقل إلى لسان غير عربى ، إلا مع فرض استواء اللسانين فى استعمال ما تقدم تمثيله ونحوه . فإذا ثبت ذلك فى اللسان المنقول إليه مع لسان العرب ؛ أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر . وإثبات مثل هذا بوجه بين عسير » .

« وقد نفى ابن قتيبة إمكان الترجمة فى القرآن ، يعنى على هذا الوجه الثانى . فأما على الوجه الأول فهو ممكن ، ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معناه للعامة ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معناه . وكان ذلك جائزا باتفاق أهل الإسلام . فصار هذا الاتفاق حجة فى صحة الترجمة على المعنى الأصلى » . اهـ ما أردنا نقله بتصرف طفيف .

قالوا : هذا كلام مدلل ، وبحث موجه ، من عالم جليل محقق ، وأصولى نظار مدقق ، وهو ينطق بجواز ترجمة القرآن ، مع الدليل والبرهان .

ونحن نقول : إن كلام الشاطبى صريح فى أن الممكن هو نقل المعانى الأصلية للقرآن دون التابعة ، وعلى هذا فإطلاقه لفظ ترجمة القرآن على ما أدى تلك المعانى الأصلية وحدها ، إطلاق لغوى محض لا نخالف فيه ، بل ندعو إليه ونشجع عليه ، مع التحفظات التى بسطناها فيما سلف .

أما الترجمة العرفية ـ وفيها يساق الحديث ـ فإن الشاطبى لا يريدها قطعا ، ولا يذهب إلى القول بها لا فى القرآن ولا فى غير القرآن من النصوص الأدبية . ولنا على ذلك أدلة خمسة نسوقها إليك .

(أولها) أنه قال فى لغة الواثق تلك الكلمة الصريحة : « إذا ثبت هذا فلا يمكن من اعتبر هذا الوجه الأخير أن يترجم كلاما من الكلام العربى بكلام العجم ، فضلا عن أن يترجم القرآن وينقل إلى لسان غير عربى » .

(ثانيها) أنه نقل فى كلمته المذكورة عن ابن قتيبة أنه نفى إمكان الترجمة فى القرآن على هذا الوجه الثانى . ثم أقره على هذا النفى بهذا التوجيه .

(ثالثها) أنه مالكى المذهب . والمالكية من أشد الناس تحرجا من الترجمة ، على ما علمت من نصوصهم السابقة .

(رابعها) أنه تردد أثناء بحثه فى الترجمة ترددا يدل على أنه لم يقطع برأى يخالف مذهبه . إنما هو مجرد بحث فحسب ، أما الحكم فمسلم ، على حد قولهم : البحث وارد والحكم مسلم . والدليل على تردده ما جاء فى الجزء الثانى من كتابه الموافقات (ص ٦٣) إذ يقول : « إذا ثبت أن للكلام من حيث دلالته على المعنى جهتين ، كان من الواجب أن ينظر فى الوجه الذى تستفاد منه الأحكام : هل يختص بجهة المعنى الأصلى أو يعم الجهتين . أما استفادتها من الجهة الأولى فلا خلاف فيه . وأما استفادتها من الجهة الثانية فهو محل تردد . ولكل واحد من الطرفين وجهة من النظر » ثم قال : « قد تبين تعارض الأدلة فى المسألة ، وظهر

أن الأقوى من الجهتين جهة اللاتمين استفادة الأحكام منها . لكن بقى فيها نظر آخر : ربما إخال أن لها دلالة على معان زائدة على المعنى الأصلى ، هى آداب شرعية، وتخلقات حسنة ، فيكون لها اعتبار فى الشريعة ، فلا تكون الجهة الثانية خالية من الدلالة جملة . وعند ذلك يشكل القول بالمنع مطلقا » اه مختصرا .

أرأيت هذا التردد كله ؟ ثم أرأيت كيف أخطأه التوفيق فى أن يجزم كما جزمنا باستفادة أنواع الهدايات الإسلامية ، من جهة المعانى الثانوية لقرآن الكريم ،على نحو مافصلناه تفصيلا ، ومثلنا له تمثيلا ؟ . والكمال لله وحده .

(خامسها) أنه قال فى الجزء الثانى من كتابه الموافقات أيضا (ص ٤٢) : « إن القرآن أنزل بلسان العرب، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة ... ثم قال : « فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهمه . ولا سبيل إلى تفهمه من غير هذه الجهة ».

وذلك برهان يدل على أن ترجمة القرآن فى نظره، لا يمكن أن تفى بهداياته ومقاصده. وأن طالب فهمه لا طريق له إلا أن ينتقل هو إلى القرآن ولغته ،فيدرسه على ضوء ما تقرر من قواعد هذه اللغة وأساليبها . ولا سبيل إلى هذه الدراسة طبعا إلا بحذق هذه اللغة وعلومها .

٣ ـ كلمة لحجة الإسلام الغزالى

جاء فى كتاب المستصفى للغزالى (١٦٩ ج ١) مانصه : « ويدل على جوازه (أى جواز رواية الحديث بالمعنى للعالم) الإجماع على جواز شرح الشرع للعجم بلسانهم . فإذا جاز إبدال العربية بعجمية ترادفها فلأن يجوز إبدال عربية بعربية ترادفها وتساويها أولى . وكذلك كان سفراء رسول الله ﷺ فى البلاد يبلغونهم أوامره بلغتهم. وهذا لأنا نعلم ألا تعبد فى اللفظ ، وإنما المقصود فهم المعنى وإيصاله إلى الخلق ،وليس ذلك كالتشهد والتكبير وما تعبد فيه باللفظ) . اه

قالوا : إن هـــذه العبارة بعمومها تتناول القرآن والسنة ، لأنهما أساس الشرع ، فترجمتهما إذن جائزة . والكتاب كالسنة فى هذا الجواز .

ونحن نقول : إن عبارة الغزالى هـذه تأبى هذا الاستنتاج من وجوه : (أولها) ما حكاه من الإجماع فى هذا المقام ، ومعلوم أن الإجماع لم ينعقد أبدا على جواز ترجمة القرآن ، بل كاد ينعقد على عدم الجواز كما مر بك قريبا .

(ثانيها) أن سفراء الرسول ﷺ وهم الذين ساقهم الغزالى هنا مساق الاستدلال،لم يترجموا القرآن للأعاجم . ولو ترجموه لنقل تواتراً ، لأنه مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره إنما كانوا يترجمون تعاليم الإسلام وأوامر الرسول ﷺ ، كما ذكر الغزالى نفسه

(ثالثها) أن الغزالى فى عبارته المسطورة ، قد صرح بأن ما تعبدَنا الله فيه باللفظ لاتجوز روايته بالمعنى . وعلى هذا لا يجوز أن يترجم بالأولى. ولاريب أن القرآن الكريم متعبد بلفظه إجماعا ، فلا يجوز أن يروى بالمعنى ولا أن يترجم أبدا .

(رابعها)أن عبارة الغزالى فى كتابه الوجيز (ص ٢٦ ، ٢٧)موافقة بالنص لما جاء فى كتب الشافعية ، إذ يقول : « لا تقوم ترجمة الفاتحة مقامها . ولا تجزئ الترجمة للعاجز عن العربية » . وعبارته فى كتابه إلجام العوام (ص ١٤ ـ ١٩) يذهب فيها مذهب المتشددين ، فيقول بوجوب إبقاء أسماء الله وصفاته والمتشابه من الحديث على ما هى عليه وعدم النطق بها وبألفاظ القرآن بغير العربية .

موقف الأزهر من ترجمة القرآن الكريم

منذ بضع سنوات اتجه الأزهر اتجاها قويا إلى بحث موضوع ترجمة القرآن الكريم وانتهى الأمر بعد طول النقاش والحوار إلى أن قررت مشيخته الجليلة ترجمة تفسيره

وتألفت بالفعل لجنة من خيرة علمائه ورجالات وزارة المعارف لوضع تفسير عربى دقيق للقرآن ، تمهيداً لترجمته ترجمة دقيقة بوساطة لجنة فنية مختارة . وقد اجتمعت لجنة التفسير بضع مرات برياسة العلامة الباحث مفتى مصر الأكبر، وكان من أثر هذه الاجتماعات أن وضعت دستورا تلتزمه فى عملها العظيم ، ثم بعثت بهذا الدستور إلى كبار العلماء والجماعات الإسلامية فى الأقطار الأخرى ، لتستطلعهم آراءهم فى هذا الدستور ، رغبة منها فى أن يخرج هذا التفسير العربى فى صورة ما أجمع عليه إلا يمكنه .

وبما أن هذا الدستور قد حوى من ألوان الحيطة والحذر ما يتفق وجلال الغاية ، فإنا نعرض عليك هنا موادهِ وقواعده ، لتضيفها أنت إلى ما أبديناه من التحفظات السابقة. وها هى تلك القواعد كما جاءت فى مجلة الأزهر (٦٤٩،٦٤٨ . من المجلد السابع):

١ ـ أن يكون التفسير خاليا ما أمكن من المصطلحات والمباحث العلمية ، إلا ما استدعاه فهم الآية .

٢ ـ ألا يتعرض فيه للنظريات العلمية ، فلا يذكر مثلا التفسير العلمى للرعد والبرق عند آية فيها رعد وبرق ، ولا رأى الفلكيين فى السماء والنجوم عند آية فيها سماء ونجوم . إنما تفسر الآية بما يدل عليه اللفظ العربى ، ويوضح موضع العبرة والهداية فيها .

٣ ـ إذا مست الحاجة إلى التوسع فى تحقيق بعض المسائل وضعته اللجنة فى حاشية التفسير .

٤ ـ ألا تخضع اللجنة إلا لما تدل عليه الآية الكريمة ، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها،ولا تتعسف فى تأويل آيات المعجزات وأمور الآخرة ونحو ذلك .

٥ ـ أن يفسر القرآن بقراءة حفص ، ولا يتعرض لتفسير قراءات أخرى إلا عند الحاجة إليها .

٦ ـ أن يجتنب التكلف فى ربط الآيات والسور بعضها ببعض .

٧ ـ أن يذكر من أسباب النزول ما صح بعد البحث ، وأعان على فهم الآية .

٨ ـ عند التفسير تذكر الآية كاملة أو الآيات إذا كانت كلها مرتبطة بموضوع واحد . ثم تحرر معانى الكلمات فى دقة . ثم تفسر معانى الآية أو الآيات مسلسلة فى عبارة واضحة قوية ، ويوضع سبب النزول والربط وما يؤخذ من الآيات فى الوضع المناسب .

٩ ـ ألا يصار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآيات .

١٠ ـ يوضع فى أوائل كل سورة ما تصل إليه اللجنة من بحثها فى السورة : أمكية هى أم مدنية ؟ وماذا فى السورة المكية من آيات مدنية ، والعكس .

١١ ـ توضع للتفسير مقدمة فى التعريف بالقرآن وبيان مسلكه فى كل ما يحتويه من فنونه ، كالدعوة إلى الله ، وكالتشريع ، والقصص والجدل ، ونحو ذلك ، كما يذكر فيها منهج اللجنة فى تفسيرها .

طريقة التفسير :

ورأت اللجنة بعد ذلك أن تضع قواعد خاصة بالطريقة التى تتبعها فى تفسير معانى القرآن الكريم ، ننشرها فيما يلى :

١ ـ تبحث أسباب النزول والتفسير بالمأثور ، فتفحص مروياتها وتنقد ، ويدون الصحيح منها بالتفسير ، مع بيان وجه قوة القوى ، وضعف الضعيف من ذلك .

٢ ـ تبحث مفردات القرآن الكريم بحثا لغويا ، وخصائص التراكيب القرآنية بحثا بلاغيا ، وتدون .

٣ ـ تبحث آراء المفسرين بالرأى والتفسير بالمأثور، ويختار ما تفسر الآية به ، مع بيان وجه رد المردود وقبول المقبول .

٤ ـ وبعد ذلك كله يصاغ التفسير مستوفيا ما نص على استيفائه فى الفقرة الثانية من القواعد السابقة . وتكون هذه الصياغة بأسلوب مناسب لأفهام جمهرة المتعلمين ، خال من الإغراب والصنعة .

فذلكة المبحث

لقد انتهى بنا هذا المبحث ـ كما ترى ـ إلى حقائق مهمة ، أعتقد أنها إذا روعيت بإنصاف ، أزالت خلاف المختلفين فى هذا الموضوع ، أو جعلته خلافا لفظيا لا يليق أن يكون مثاراً لجدال ، ولا مجالا لنزاع : فترجمة القرآن حرفية كانت أو تفسيرية ، غير تفسيره بلغة عربية أو أجنبية. وتفسير القرآن بلغة أجنبية ، يساوى ترجمة التفسير العربى للقرآن الكريم. وترجمة القرآن بالمعنى العرفى العام لا بد لتحققها من الوفاء بجميع معانى القرآن ومقاصده ، سواء أكانت ترجمة حرفية أم تفسيرية . وما الفرق بين الحرفية والتفسيرية إلا شكلى،هو مراعاة ترتيب الأصل ونظامه فى الأولى دون الثانية وترجمة القرآن مشترك لفظى بين معان أربعة ، منها ما اتفقوا على جوازه ، وهو ترجمته بمعنى تبليغ ألفاظه ، وترجمته بمعنى تفسيره بلغة عربية ومنها ما يجب أن يتفقوا على منعه وهو ترجمته بمعنى نقله إلى لغة أجنبية ، مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده ، ومنها ما اختلف فيه ولكن الأدلة متضافرة على جوازه ، وهو ترجمته بمعنى تفسيره بلغة أجنبية مع استيفاء شروط التفسير والترجمة فيه ، ومع التحفظات التى أبديناها وأبدتها لجنة التفسير الأزهرية من قبل .

ويعجبنى لهذه المناسبة كلمة الزركشى فى كتابه البحر المحيط أسوقها إليك فى الختام إذ قال :

« (مسألة) لايجوز ترجمة القرآن بالفارسية وغيرها ، بل يجب قراءته على هيئته التى يتعلق بها الإعجاز ؛ لتقصير الترجمة عنه ، ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذى خص به دون سائر الألسن . قال الله تعالى : « بلسان عربى مبين » . هـذا لو لم يكن مُتحدًّى بنظمه وأسلوبه ، وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العربى المتحدى بنظمه ،فأحرى ألا تجوز بالترجمة بلسان غيره . ومن هنا قال القفال فى فتاويه : عندى أنه لا يقدر أحد أن يأتى بالقرآن بالفارسية . قيل له : فإذن لايقدر أحد أن يفسر القرآن ، قال : ليس كذلك ، لأن هناك يجوز أن يأتى ببعض مراد الله ويعجز عن البعض . أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية ، فلا يمكن أن يأتى بجميع مراد الله » .

« وفرق غيره بين الترجمة والتفسير فقال : يجوز تفسير الألسن بعضها ببعض، لأن التفسير عبارة عما قام فى النفس من المعنى ، للحاجة والضرورة ، والترجمة هى إبدال اللفظة بلفظة تقوم مقامها فى مفهوم المعنى للسامع المعتبر لتلك الألفاظ ، فكأن الترجمة إحالة فهم السامع على الاعتبار ، والتفسير تعريف السامع بما فهم المترجم . وهذا فرق حسن » اهـ.

أحسن الله لنا الخاتمة ، وجمعنا جميعاً على الحق والرشد ، وجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه « أولئك الذينَ هَدَاهُم اللهُ ، وأولئكَ هم أولو الألباب » .

المبحث الرابع عشر فى النسخ

أهمية هذا المبحث :

لهذا المبحث أهمية خاصة ، وذلك من وجوه خمسة : (أولها) أنه طويل الذيل ، كثير التفاريع ، متشعب المسالك .

(ثانيها) أنه تناول مسائل دقيقة ، كانت مثاراً لخلاف الباحثين من الأصوليين ، الأمر الذى يدعو إلى اليقظة والتدقيق . وإلى حسن الاختيار مع الإنصاف والتوفيق .

(ثالثها) أن أعداء الإسلام من ملاحدة ومبشرين ومستشرقين قد اتخذوا من النسخ فى الشريعة الإسلامية أسلحة مسمومة ، طعنوا بها فى صدر الدين الحنيف ، ونالوا من قدسية القرآن الكريم . ولقد أحكموا شراك شبهاتهم ، واجتهدوا فى ترويج مطاعنهم ، حتى سحروا عقول بعض المنتسبين إلى العلم والدين من المسلمين . فجحدوا وقوع النسخ وهو واقع ، وأمعنوا فى هذا الجحود الذى ركبوا له أخشن المراكب ، من تمحلات ساقطة وتأويلات غير سائغة .

(رابعها) أن الإلمام بالناسخ والمنسوخ ، يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى ، ويطلع الإنسان على حكمة الله فى تربيته للخلق وسياسته للبشر ، وابتلائه للناس ، مما يدل دلالة واضحة ، على أن نفس محمد النبى الأمى لا يمكن أن تكون المصدر لمثل هذا القرآن ، ولا المنبع لمثل هذا التشريع . إنما هو تنزيل من حكيم حميد .

(خامسها) أن معرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم فى فهم الإسلام وفى الاهتداء إلى صحيح الأحكام ، خصوصاً إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يندفع التناقض بينها إلا بمعرفة سابقها من لاحقها ، وناسخها من منسوخها . ولهذا كان سلفنا الصالح يعنون بهذه الناحية ، يحذقونها ، ويلفتون أنظار الناس إليها ، ويحملونهم عليها . حتى لقد جاء فى الأثر أن ابن عباس رضى الله عنهما فسر الحكمة فى قوله تعالى : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » بمعرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه . ومقدمه ومؤخره وحلاله ، وحرامه . وورد أن علياً كرم الله وجهه دخل المسجد فإذا رجل يخوف الناس. فقال : ماهذا ؟ قالوا : رجل يذكر الناس . فقال : ليس برجل يذكر الناس، ولكنه يقول أنا فلان بن فلان فاعرفونى فأرسل إليه فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا قال: فاخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه . . . وروى أنه ـ كرم الله وجهه ـ مر على قاص.

فقال : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا . قال : هلكت وأهلكت ، يريد أنه عرّض نفسه وعرّض الناس للهلاك ، مادام أنه لايعرف الناسخ من المنسوخ .

لهذه الوجوه الخمسة التى بسطناها ، يقتضينا الواجب أن نعنى بهذا المبحث ، وأن نسير فيه بقدر على حذر ، متوسعين فيما ينبغى التوسع فيه ، مقتصدين فيما وراء ذلك . وحسبنا الله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

ماهو النسخ ؟

النسخ فى اللغة :

يطلق النسخ فى لغة العرب على معنيين : (أحدهما) : إزالة الشىء وإعدامه . ومنه قول الله تعالى : « وماأرسلنا من قبلكَ من رسولٍ ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطانُ فى أُمْنِيَّته . فينسخُ اللهُ مايلقى الشيطانُ ثم يحكِمُ اللهُ آياته ». ومنه قولهم نسخت الشمس الظل ، ونسخ الشيب الشباب ، ومنه تناسخ القرون والأزمان .

(والآخر) نقل الشىء وتحويله مع بقائه فى نفسه . وفيه يقول السجستانى من أئمة اللغة: « والنسخ أن تحول مافى الخلية من النحل والعسل إلى أخرى. ومنه تناسخ المواريث بانتقالها من قوم إلى قوم ، وتناسخ الأنفس بانتقالها من بدن إلى غيره ، عند القائلين بذلك. ومنه نسخ الكتاب لما فيه من مشابهة النقل. وإليه الإشارة بقوله تعالى: «إنا كنا نستنسخُ ما كنتم تعملونَ » . والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف ، ومن الصحف إلى غيرها » اهـ .

وقد اختلف العلماء بعد ذلك فى تعيين المعنى الذى وضع له لفظ النسخ : فقيل إن لفظ النسخ وضع لكل من المعنيين وضعا أوليا. وعلى هذا يكون مشتركا لفظيا ، وهو الظاهر من تبادر كلا المعنيين بنسبة واحدة عند إطلاق لفظ النسخ. وقيل إنه وضع للمعنى الأول

وحده ، فهو حقيقة فيه مجاز فى الآخر . وقيل عكس ذلك . وقيل وضع للقدر المشترك بينهما. ولـكن هذه الآراء الأخيرة يعوزها الدليل ولا يخلو توجيهها من تـكلف وتأويل.

النسخ فى الاصطلاح :

لقد عــــرّف النسخ فى الاصطلاح بتعاريف كثيرة مختلفة . لا نرى من الحـكمة استعراضها ، ولا الموازنة بينها ونقدها . وما دام الغرض منها كلها هــو تصوير حقيقة النسخ فى لسان الشرع ، فإننا نجتزئ بتعريف واحد نراه أقرب وأنسب ، وهو (رفع الحـكم الشرعى بدليل شرعى) .

ومعنى رفع الحـكم الشرعى قطع تعلقه بأفعال المـكلفين لا رفعه هو ، فإنه أمر واقع ، والواقع لا يرتفع . . والحـكم الشرعى هو خطاب الله المتعلق بأفعال المـكلفين إما على سبيل الطلب أو الـكف أو التخيير ، وإما على سبيل كون الشىء سببا أو شرطا أو مانعا أو صحيحا أو فاسدا . . والدليل الشرعى هو وحى الله مطلقا متلوا أو غير متلو ، فيشمل الـكتاب والسنة . أما القياس والإجماع ففى نسخهما والنسخ بهما كلام نستقبله فى موضع آخر .

وقولنا : (رفع) جنس فى التعريف ، خرج عنــه ما ليس برفع ، كالتخصيص فإنه لا يرفع الحـكم وإنما يقصره على بعض أفـــراده . وسيأتى بسط الفروق بين النسخ والتخصيص فانتظره .

وقولنا : (الحـكم الشرعى) قيد أول ، خرج به ابتداء إيجاب العبادات فى الشرع ، فإنه يرفع حكم العقل ببراءة الذمة ، وذلك كإيجاب الصلاة فإنه رافع لبراءة ذمة الإنسان منها قبل ورود الشرع بها ، ومع ذلك لا يقال له نسخ وإن رفع هذه البراءة ، لأن هذه البراءة حكم عقلى لا شرعى ؛ بمعنى أنه حكم يدل عليه العقل حتى من قبل مجىء الشرع . ولا يقدح فى كونه حكما عقليًّا أن الشرع جاء يؤيده بمثل قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

وقولنا : (بدليل شرعى) قيد ثان ، خرج به رفع حكم شرعى بدليل عقلى ، وذلك كسقوط التكاليف عن الإنسان بموته أو جنونه أو غفلته ، فإن سقوط التكاليف عنه بأحد هذه الأسباب يدل عليه العقل، إذ الميت والمجنون والعاقل لا يعقلون خطاب الله حتى يستمر تكليفهم ، والعقل يقضى بعدم تكليف المرء إلا بما يتعقله ، وأن الله تعالى إذا أخذ ماوهب أسقط ماوجب . ولا يقدح فى كون هذا الدليل عقليا مجىء الشرع معززا له بمثل قوله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث ، النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق » .

توجيهات أربعة :

وإنى أوجه نظرك فى هذا التعريف إلى نقاط أربع :

(أولاها) أن التعبير برفع الحكم يفيد أن النسخ لا يمكن أن يتحقق إلا بأمرين (أحدهما) أن يكون هذا الدليل الشرعى متراخيا عن دليل ذلك الحكم الشرعى المرفوع. (والآخر) أن يكون بين هذين الدليلين تعارض حقيقى، بحيث لا يمكن الجمع بينهما و إعمالهما معاً. أما إذا انتفى الأمر الأول ولم يكنْ ذلك الدليل الشرعى متراخياً عن دليل الحكم الأول فلا نسخ ، وذلك كقوله تعالى : « وأَتِمُّوا الصِّيام إلى الليل » فإن الغاية المذكورة وهى قوله : « إلى الليل » تفيد انتهاء حكم الصوم، وهو وجوب إتمامه بمجرد دخول الليل . ولكن لا يقال لهذه الغاية الدالة على انتهاء هذا الحكم إنها نسخ . وذلك لاتصالها بدليل الحكم الأول، وهو قوله: « ثم أتموا الصيام » بل تعتبر الغاية المذكورة بيانا أو إتماما لمعنى الكلام وتقديرا له بمدة أو شرط. فلا يكون رافعا وإنما يكون رافعا إذا ورد الدليل الثانى بعد أن ورد الحكم مطلقا واستقر من غير تقييد ، بحيث يدوم لولا الناسخ . ولهذا زاد بعضهم تقييد الدليل الشرعى فى تعريف الناسخ بالتراخى. وزاد بعضهم كلمة « على وجه لولاه

لكان الحكم الأول ثابتا » . وقد علمت من هذا الذى ذكرناه أنه لا حاجة إلى هاتين الزيادتين ، بل هما تصريح بما علم من التعبير فى التعريف بكلمة « رفع » وأما إذا انتفى الأمر الثانى ، بأن لم يكن بين الدليلين تعارض حقيقى ، فإنه لا نسخ ، لأن النسخ ضرورة لا يصار إليها إلا إذا اقتضاها التعارض الحقيقى ، دفعا للتناقض فى تشريع الحكيم العليم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وحيث لا تعارض هناك على الحقيقة فلا حاجة إلى النسخ ، لأنه لا تناقض . ولا ريب أن إعمال الدليلين ولو بنوع تأويل ، خير من إعمال دليل وإهدار آخر . ولهذا حكم الغزالى فى كتابه المستصفى بغلط من زعموا تعارضا وتوهموا نسخا بين قوله سبحانه : « واستشهدوا شهيدَين من رجالكُم » وبين الخبر الوارد بقبول شهادة الواحد واليمين ، معتمدين على ما ظهر لهم فى الآية من أنها تدل على أنه لا حجة للحكم سوى المذكور فيها من شهادة اثنين ، مع أن هذا الظاهر لهم غير صحيح ، لأن الآية لا تدل إلا على كون الشاهدين حجة وعلى جواز الحكم بقولهما ، أما امتناع الحكم بحجة أخرى كما فهموا ، فلا تدل الآية عليه حتى يكون تعارض بينها وبين الخبر المذكور ، بل هو كالحكم بالإقرار . وذكر حجة واحدة لا يمنع وجود حجة أخرى .

(ثانيتها) أن التعريف المذكور يفيد أن النسخ لا يتوجه إلا إلى الحكم وهو كذلك فى الواقع ونفس الأمر ، وتقسيمهم النسخ إلى نسخ تلاوة ونسخ حكم تقسيم صورى للإيضاح فحسب ، لأن ما أسموه نسخ تلاوة لم يخرج عن كونه نسخ حكم ، إذ أن نسخ تلاوة الآية لا معنى له فى الحقيقة إلا نسخ حكم من أحكامها ، وهو رفع الإثابة على مجرد ترتيلها ، وصحة الصلاة بها ، ونحوهما .

(ثالثتها) أن هذا التعريف يشمل النسخ الواقع فى الكتاب وفى السنة جميعا ،

سواء أكانت السنة قولية أم فعلية أم وصفية أم تقريرية ، وسواء منها ما كان نبويا وما كان قدسيا ، لأنهـا كلها وحى بالفعل أو بالقوة ، والرسول ﷺ أقامه الله فى محراب الإمامة لخلقه، وجعله الأسوة الحسنة لعباده ، وأمر الجميع باتباعه ،فهو إذن لا يمكن أن يصدر فيما يشرع لأمته ابتداء أو نسخا ، إلا عن إيحـاء الله إليه تصريحا أو تقريرا .

مثال نسخ الكتاب بالكتاب قوله سبحانه : « لا يحلُّ لكَ النساءُ من بعدُ ولا أن تبدَّل بهنَّ من أزواجٍ » فإنها نسختْ بقوله سبحانه : « يأيها النبيُّ إنا أحللنا لكَ أزواجكَ اللاتى آتيتَ أجورَهُنَّ ، وما ملكتْ يمينُكَ مما أفاءَ اللهُ عليكَ ، وبناتِ عمكَ وبناتِ عماتِكَ ، وبناتِ خالكَ وبناتِ خالاتِكَ اللاتى هاجَرْنَ معكَ ،وامرأةً مؤمنةً إن وهبَتْ نفسها للنبيِّ إن أرادَ النبيُّ أن يستنكحها ، خالصةً لك من دونِ المؤمنينَ » .

ومثال نسخ السنة بالسنة نسخ الوضوء مما مست النار بأكله ﷺ من الشاة ولم يتوضأ .

(رابعتها) أن الإضافة فى كلمة « رفع الحكم الشرعى » الواردة فى تعريف النسخ، من قبيل إضافة المصدر لمفعوله، والفاعل مضمر وهو الله تعالى. وذلك يرشد إلى أن الناسخ فى الحقيقة هو الله ، كما يدل عليه قوله سبحانه : « ما ننسخْ من آية أو نُنْسِهَا » ويرشد أيضا إلى أن المنسوخ فى الحقيقة هو الحكم المرتفع . وقد يطلق الناسخ على الحكم الرافع فيقال : وجوب صوم رمضان نسخ وجوب صوم عاشوراء . وقد يطلق النسخ على دليله كذلك ، فيقال : آية المواريث نسخت آية الوصية للوالدين والأقربين . ويقال : خبر أكل الرسول من الشاة ولم يتوضأ ، ناسخ لخبر وضوئه ﷺ مما مست النار . وهلم . والخطب فى ذلك جد يسير .

مالا بد منه فى النسخ

ولعلك تدرك مما سبق أنه لا بد فى تحقق النسخ من أمور أربعة :

(أولها) أن يكون المنسوخ حكما شرعيا .

(ثانيها) أن يكون دليل رفع الحكم دليلا شرعيا .

(ثالثها) أن يكون هذا الدليل الرافع متراخيا عن دليل الحكم الأول غير متصل به كاتصال القيد بالمقيد والتأقيت بالمؤقت .

(رابعها) أن يكون بين ذينك الدليلين تعارض حقيقى .

تلك أربعة لا بد منها لتحقق النسخ باتفاق جمهرة الباحثين. وثمة شروط اختلفوا فى شرطيتها . منها أن يكون ناسخ القرآن قرآنا وناسخ السنة سنة . ومنها كون النسخ مشتملا على بدل للحكم المنسوخ . ومنها كون الناسخ مقابلا للمنسوخ مقابلة الأمر للنهى والمضيق للموسع . ومنها كون الناسخ والمنسوخ نصين قاطعين ، إلى غير ذلك مما يطول شرحه ، وقد يأتيك نبؤه .

الفرق بين النسخ والبداء

البداء (بفتح الباء) يطلق فى لغة العرب على معنيين متقاربين .

(أحدهما) الظهور بعد الخفاء . ومنه قول الله سبحانه : « وبدَا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبونَ » ، « وبدَا لهم سيئاتُ ما عملوا » . ومنه قولهم : بدا لنا سور المدينة .

(والآخر) نشأة رأى جديد لم يك موجودا . قال فى القاموس: « وبدا له فى الأمر بدواً وبداء ، وبداة ؛ أى نشأله فيه رأى » اهـ. ومنه قوله الله تعالى :« ثم بدَا لهم منْ

بعدِ ماراَوُا الآياتِ ليسجُننهُ حتى حين » . أى نشألهم فى يوسف رأى جديد ، هو أن يسجن سجنا وقتيا ، بدليل قوله : « ليسجننهُ حتى حين » . ولعل هذا المعنى الثانى هو الأنسب والأوفق بمذهب القائلين به ـ قبحهم الله ـ . ولأن عباراتهم المأثورة عنهم جرت هذا المجرى فى الاستعمال دون الاستعمال الأول. كتلك الكلمة التى نسبوها كذبا إلى جعفر الصادق رضى الله عنه : « ما بدا لله تعالى فى شىء كما بدا له فى إسماعيل » .

ذانك معنيان متقاربان للبداء ، وكلاهما مستحيل على الله تعالى،لما يلزمهما من سبق الجهل وحدوث العلم ، والجهل والحدوث عليه محالان ؛ لأن النظر الصحيح فى هذا العالم، دلنا على أن خالقه ومدبره ، متصف أزلا وأبدا بالعلم الواسع المطلق المحيط بكل ما كان وماسيكون وما هو كائن ، كما هدانا هذا النظر الصحيح إلى أنه تعالى لا يمكن أن يكون حادثا ولا محلا للحوادث . وإلا لكان ناقصا يعجز عن أن يبدع هذا الكون ويدبره هذا التدبير المعجز ! . ذلك إجمال لدليل العقل .

أما أدلة النقل فنصوص فياضة ناطقة بأنه تعالى أحاط بكل شىء علما ، وأنه لا تخفى عليه خافية « ما أصابَ من مصيبةٍ فى الأرضِ ولا فى أنفسكم إلا فى كتابٍ من قبلِ أن نبرأها ، إن ذلكَ على اللهِ يسير » . « وعندهُ مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هُو ويعلم ما فى البرِّ والبحرِ ، وما تسقُطُ من ورقةٍ إلا يعلمها ، ولا حَبَّةٍ فى ظُلُمَاتِ الأرض ولا رطبٍ ولا يابس إلا فى كتابٍ مبينٍ » الله يعلَمُ ما تحملُ كلُّ أنثى ، وما تَغيضُ الأرحامُ ، وما تزداد * وكلُّ شىء عندهُ بمقدارٍ * عالم الغيبِ والشهادةِ الكبيرُ المتعال * سواء منكم من أسرَّ القولَ ومن جهرَ بهِ ، ومن هو مُسْتَخْفٍ بالليلِ وساربٌ بالنهارِ » . إلى غير ذلك من مئات الآيات والأحاديث .

ولكن على رغم أنف هذه البراهين الساطعة من عقلية ونقلية ، ضل أقوام سفهوا أنفسهم ، فأغمضوا عيونهم عن النظر فى كتاب الكون الناطق ، وصموا آذانهم عن

سماع كلا الله و كلام نبيه الصادق ، وزعموا أن النسخ ضرب من البداء أو مستلزم للبداء! وهكذا اشتبهوا أو شبهوا على الناس الأمر، وقالوا لولا ظهور مصلحة لله ، ونشوء رأى جديد له ، ما نسخ أحكامه ، وبدل تعاليمه . ونسوا أو تناسوا أن الله تعالى حين نسخ بعض أحكامه ببعض ، ما ظهر له أمر كان خافيا عليه ،وما نشأ له رأى جديد كان يفقده من قبل ، إنما كان سبحانه يعلم الناسخ والمنسوخ أزلا من قبل أن يشرعهما لعباده، بل من قبل أن يخلق الخلق ، ويبرأ السماء والأرض . إلا أنه ـ جلت حكمته ـ علم أن الحكم الأول المنسوخ منوط بحكمة ، أو مصلحة تنتهى فى وقت معلوم ، وعلم بجانب هذا أن الناسخ يجىء فى هذا الميقات المعلوم منوطا بحكمة وبمصلحة أخرى . ولا ريب أن الحكم والمصالح تختلف باختلاف الناس ، وتتجدد بتجدد ظروفهم وأحوالهم ، وأن الأحكام وحكمها ، والعباد ومصالحهم ، والنواسخ والمنسوخات ، كانت كلها معلومة لله من قبل، ظاهرة لديه لم يخف شىء منها عليه . والجديد فى النسخ إنما هو إظهاره تعالى ما علم لعباده، لا ظهور ذلك له ، على حد التعبير المعروف : (شؤون يبديها ولا يبتديها) . «وما كان ربك نسيا » .

اجتمعت اليهود والرافضة على هذه الضلالة ، ضلالة استلزام النسخ للبداء ، لكنهم افترقوا بعد ذلك إلى ناحيتين خطيرتين . فاليهود أنكروا النسخ وأسرفوا فى الإنكار، لاستلزامه فى زعمهم البداء وهو محال . وسنناقشهم الحساب فيما بعد إن شاء الله . أما الرافضة فأثبتوا النسخ ثم أسرفوا فى إثبات هذا البداء اللازم له فى زعمهم ،ونسبوه إلى الله فى صراحة ووقاحة « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً » . ولقد رأيت كيف أبطلنا مزاعمهم بأدلة عقلية ونقلية؟ ورأيت كيف فندنا شبهتهم التى زعموها دليلا وما هى بدليل ؟ إن هى إلا خلط فى أوهام ومشى فى غير سبيل . وشتان شتان بين النسخ القائم على الحكمة ورعاية المصلحة ، وبين البداء المستلزم لسبق الجهل وطرو العلم ! .

بقى أنهم تمسحوا فى أمرين : (أولهما) قوله سبحانه : « يمحو الله ما يشاء ويثبت

وعنده أم الكتاب » . والجواب أنه لامستند لهم فى الآية الكريم، بل هى ترد عليهم كما ردت على أشباههم ممن عابوا النسخ على النبى ﷺ .

ومعناها أن الله يغير ماشاء من شرائعه وخلقه ، على وفق علمه وإرادته وحكمته ، وعلمه سبحانه لا يتغير ولا يتبدل ، إنما التغير فى المعلوم لافى العلم. بدليل قوله : «وعنده أم الكتاب » أى وعنده المرجع الثابت الذى لامحو فيه ولا إثبات ، وإنما يقع المحو والإثبات على وفقه ، فيمحو سبحانه شريعة ويثبت مكانها أخرى، ويمحو حكما ويثبت آخر ، ويمحو مرضا ويثبت صحة ، ويمحو فقرا ويثبت غنى ، ويمحو حياة ويثبت موتا. وهكذا تعمل يد الله فى خلقه وتشريعاته تغييراً وتبديلا، وهو الحق وحده لا يعروه تغيير ولاتبديل ، ولا يتطرق إلى علمه محو ولا إثبات .

وخلاصة هذا التوجيه أن النسخ تبديل فى المعلوم لا فى العلم، وتغيير فى المخلوق لا فى الخالق ، وكشف لنا وبيان عن بعض ماسبق به علم الله القديم المحيط بكل شيء .ولهذا ذهب كثير من علمائنا إلى تعريف النسخ بأنه بيان انتهاء الحكم الشرعى الذى تقرر فى أوهامنا استمراره بطريق التراخى . ثم قالوا توجيها لهذا الاختيار: إن فى هذا التعريف دفعا ظاهرا للبداء ، وتقريراً لكون النسخ تبديلا فى حقنا ، بيانا محضا فى حق صاحب الشرع .

(الأمر الثانى) أنهم تشبثوا بآثار نسبوها إلى أئمة طاهرين. منها أن عليا۔ كرم الله وجهه ۔ كان يقول: « لولا البداء لحدثتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة » ومنها أن جعفر الصادق رضى الله عنه قال : « ما بدا الله تعالى فى شيء كما بدا له فى إسماعيل » ومنها أن موسى بن جعفر : قال « البداء ديننا ودين آبائنا فى الجاهلية » .

وندفع هــذا بأنها مفتريات وأكاذيب ، كان أول من حاك شباكها الكذاب الثقفى الذى كان ينتحل لنفسه العصمة وعلم الغيب ، فإذا ما افتضح أمـــره وكذبته الأيام قال : (إن الله وعدنى ذلك غير أنه بدا له) . فإذا أوجس فى نفسه خيفة من

أن يؤاخذه الناس وينتقموا منه على هـذا الكفر الشنيع ، نسب تلك الكفريات إلى أعلام بيت النبوة وهم منها براء . وهكذا كان اللعين وأشياعه يحتجون بكفر على كفر، ويستدلون بكذب على كذب ، ويعالجون داء بداء : « ومن يضلل الله فما له من هاد . نسأل الله السلامة بمنه وكرمه آمين .

الفرق بين النسخ والتخصيص

قد عرفنا النسخ بأنه رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى . وقد عرفوا التخصيص بأنه قصر العام على بعض أفراده . وبالنظر فى هذين التعريفين نلاحظ أن هناك تشابها قويا بين المعرفين . فالنسخ فيه مايشبه تخصيص الحكم ببعض الأزمان والتخصيص فيه مايشبه رفع الحكم عن بعض الأفراد . ومن هـذا التشابه وقع بعض العلماء فى الاشتباه ، فمنهم من أنكر وقوع النسخ فى الشريعة ، زاعما أن كل مانسميه نحن نسخاً فهو تخصيص . ومنهم من أدخل صورا من التخصيص فى باب النسخ،فزاد بسبب ذلك فى عداد المنسوخات من غير موجب .

لهذا نقيم لك فروقا سبعة بين النسخ والتخصيص ، تهديك فى ظلمات هذا الاشتباه، وتعصمك من أن تتورط فيما تورط فيه سواك .

(أولها) أن العام بعد تخصيصه مجاز ، لأن مدلوله وقتئذ بعض أفراده ، مع أن لفظه موضوع للكل ، والقرينة هى المخصص . وكل ما كان كذلك فهو مجاز . أما النص المنسوخ فما زال كما كان مستعملا فيما وضع له ، غايته أن الناسخ دل على أن إرادة الله تعلقت أزلا باستمرار هذا الحكم إلى وقت معين ، وإن كان النص المنسوخ متناولا جميع الأزمان . ويظهر ذلك جليا فيما إذا قال الشارع مثلا : افعلوا كذا أبدا ، ثم نسخه بعد زمن قصير . فإنه لا يعقل أن يكون مدلوله ذلك الزمن القصير دون غيره ، بل هو

ما زال كما كان مستعملا فى جميع الأزمان نصا ؛ بدليل قوله : « أبدا » ، غير أن العمل بهذا النص الشامل لجميع الأزمان لفظاً قد أبطله الناسخ ؛ لأن استمرار العمل بالنص مشروط بعدم ورود ناسخ ينسخه . أيا كان ذلك النص وأيا كان ناسخه .

فإن سأل سائل : ما حكمة تأبيد النص لفظا ، بينما هو مؤقت فى علم الله أزلا ؟ أجبناه بأن حكمته ابتلاء الله لعباده : أيخضعون لحكمه مع تأبيده عليهم هذا التأبيد الظاهرى أم لا ؟ فإذا ماز الله الخبيث من الطيب ، والمطمئن إلى حكمه من المتمرد عليه ، جاء النسخ لحكمة أخرى من التخفيف ونحوه .

(ثانيها) أن حكم ماخرج بالتخصيص لم يك مرادا من العامّ أصلا ، بخلاف ماخرج بالنسخ ، فإنه كان مرادا من المنسوخ لفظا .

(ثالثها) أن التخصيص لايتأتى أن يأتى على الأمر لمأمور واحد ولا على النهى لمنهىٍ واحد ، أما النسخ فيمكن أن يعرض لهذا كما يعرض لغيره ، ومن ذلك نسخ بعض الأحكام الخاصة به ﷺ .

(رابعها) أن النسخ يبطل حجية المنسوخ إذا كان رافعا للحكم بالنسبة إلى جميع أفراد العامّ ، ويبقى على شىء من حجيته إذا كان رافعا للحكم عن بعض أفراد العام دون بعض . أما التخصيص فلا يبطل حجية العام أبدا ، بل العمل به قائم فيما بقى من أفراده بعد تخصيصه .

(خامسها) أن النسخ لايكون إلا بالكتاب والسنة ، بخلاف التخصيص فإنه يكون بهما وبغيرهما كدليل الحس والعقل . هذا قول الله سبحانه : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » قد خصصه قوله ﷺ : « لا قطع إلا فى ربع دينار » . وهذا قوله سبحانه : « تدمر كل شىء بأمر ربها » قد خصصه ماشهد به الحس من سلامة السماء والأرض ،

وعدم تدمير الريح لهما . وهذا قوله تعالى : « إن الله على كل شىء قدير » قد خصصه ما حكم به العقل من استحالة تعلق القدرة الإلهية بالواجب والمستحيل العقليين .

(سادسها) أن النسخ لايكون إلا بدليل متراخ عن المنسوخ أما التخصيص فيكون بالسابق واللاحق والمقارن . وقال قوم : لايكون التخصيص إلا بمقارن ، فلو تأخر عن وقت العمل بالعام كان هذا المخصص ناسخا للعام بالنسبة لما تعارضا فيه . كما إذا قال الشارع : « اقتلوا المشركين » وبعد وقت العمل به قال : « ولا تقتلوا أهل الذمة » . ووجهة نظر هؤلاء أن المقصود بالمخصص بيان المراد بالعام ، فلو تأخر وقت العمل به لزم تأخير البيان عن وقت الحاجة ، وذلك لايجوز ، فلم يبق إلا اعتباره ناسخا .

(سابعها) أن النسخ لا يقع فى الأخبار ، بخلاف التخصيص فإنه يكون فى الأخبار وفى غيرها .

النسخ بين مثبتيه ومنكريه

يذهب أهل الأديان مذاهب ثلاثة فى النسخ :

(أولها) : أنه جائز عقلا وواقع سمعا . وعليه إجماع المسلمين ، من قبل أن يظهر أبو مسلم الأصفهانى ومن شايعه . وعليه أيضا إجماع النصارى ، ولكن من قبل هذا العصر الذى خرقوا فيه إجماعهم ، وركبوا فيه رءوسهم وهو كذلك رأى العيسوية ، وهم طائفة من طوائف اليهود الثلاث .

(ثانيها) أن النسخ ممتنع عقلا وسمعا . وإليه جنح النصارى جميعا فى هذا العصر ، وتشيعوا له تشيعا ظهر فى حملاتهم المتكررة على الإسلام ؛ وفى طعنهم على هذا الدين القويم من هذا الطريق طريق النسخ . وبهذه الفرية أيضا يقول الشمعونية ، وهم طائفة ثانية من اليهود .

(ثالثها) أن النسخ جائز عقلا ممتنع سمعا. وبه تقول العنانية وهى الطائفة الثالثة من طوائف اليهود. ويعزى هذا الرأى إلى أبى مسلم الأصفهانى من المسلمين ، ولكن على اضطراب فى النقل عنه وعلى تأويل يجعل خلافه لجمهرة المسلمين شبيها بالخلاف اللفظى إلا يكنه.

ذلك إجمال لآراء المتدينين فى النسخ ، وسنفصل القول فيها بما نعرضه عليك، ففرغ له بالك ، ووجه إليه انتباهك . .ولنبدأ بتأييد المذهب الحق وعرض أدلته ، ثم لنتبين حكمة الله فيه . وبعد ذلك نستعرض المذاهب الأخرى وما استندت إليه على أنها شبهات ندفعها عن عرين الحق ، وأغشية نرفعها عن وجه الصواب .

أدلة ثبوت النسخ عقلا وسمعا

لأجل أن نثبت النسخ فى مواجهة منكريه جميعا ، نقيم أدلة على جوازه العقلى، وأدلة أخرى على وقوعه السمعى .

ا ـ أدلة جواز النسخ عقلا .

أما أدلة جوازه العقلى. فأربعة إجمالا ، ولا يضير بعضها أن يكون دليلا على الجواز والوقوع معا .

(الدليل الأول) أن النسخ لامحظور فيه عقلا ، وكل ما كان كذلك جائز عقلا . أما الكبرى فمسلمة . وأما الصغرى فيختلف دليلها عند أهل السنة عن دليلها عند المعتزلة، تبعا لاختلاف الفرقتين فى أن أحكام الله تعالى يجب أن تتبع المصلحة لعباده أو لا يجب أن تتبعها .

فأهل السنة يقولون : إنه لا يجب على الله تعالى لعباده شىء ، بل هو سبحانه الفاعل المختار والكبير المتعال، وله بناء على اختياره ومشيئته، وكبريائه وعظمته ، أن يأمر عباده بما شاء ، وينهاهم عما شاء وأن يبقى من أحكامه على ما شاء ، وأن ينسخ منها ما شاء

لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، ولا ملزم يلزمه برعاية مصالح عباده . ولكن ليس معنى هذا أنه عابث أو مستبد أو ظالم، بل إن أحكامه وأفعاله كلها ـ جل جلاله ـ لا تخلو عن حكمة بالغة ، وعلم واسع، وتنزه عن البغى والظلم ؛ « وما ربك بظلام للعبيد » . « ولا يظلم ربك » . « إن ربك عليم حكيم » . « إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

والمعتزلة يقولون : إنه تعالى يجب أن يتبع فى أحكامه مصالح عباده، فما كان فيه مصلحة لهم أمرهم به ، وما كان فيه مضرة عليهم نهاهم عنه، وما دار بين المصلحة تارة والمفسدة أخرى، أمرهم به تارة ونهاهم عنه أخرى .

إذا تقرر هذا . فإن صغرى ذلك الدليل نستدل عليها من مذهب أهل السنة هكذا: النسخ تصرف فى التشريع من الفاعل المختار الكبير المتعال، الذى لا يجب عليه رعاية مصالح عباده فى تشريعه ، وإن كان تشريعه لا يخلو من حكمة . وكل ما كان كذلك لا محظور فيه عقلا .

وأما على مذهب أهل الاعتزال فننظم الدليل هكذا : النسخ مبنى على أن الله تعالى يعلم مصلحة عباده فى نوع من أفعالهم وقتاً ما فيأمرهم به فى ذلك الوقت ، ويعلم ضرر عباده فى هذا النوع نفسه من أفعالهم ولكن فى وقت آخر ، فينهاهم عنه فى ذلك الوقت الآخر . وكل ما كان كذلك لا محظور فيه عقلا .

وكيف يكون محظورا عقلا؟ ونحن نشاهد أن المصالح تختلف باختلاف الأشخاص . والأزمان والأحوال فالطبيب يأمر مريضه بتناول الدواء مادام مريضا، ثم ينهاه عنه إذا أبلّ من مرضه وعاد سليما . والمربية تقدم إلى طفلها أخف الأغذية من لبن ونحوه دون غيره، فإذا ترعرع ودرج حرمت عليه المراضع ثم انتقلت به إلى غذاء غير اللبن ونحوه وهكذا تنتقل به من الخفيف إلى الثقيل ، ومن الثقيل إلى الأثقل ، تبعا لتدرجه فى مدارج القوة والنضج .

والمعلم يتعهد تلاميذه البادئين بأسهل المعلومات ، ثم يتدرج بهم من الأسهل إلى السهل ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن الصعب إلى الأصعب، حتى يصل بهم إلى أدق النظريات ، مقتفياً فى ذلك آثار خطاهم إلى السمو الفكرى . والكمال العقلى . .

كذلك الأمم تتقلب كما يتقلب الأفراد فى أطوار شتى . فمن الحكمة فى سياستها وهدايتها أن يصاغ لها من التشريعات ما يناسب حالها فى الطور الذى تكون فيه ، حتى إذا انتقلت منه إلى طور آخر لا يناسبه ذلك التشريع الأول ، حق أن يصاغ لها تشريع آخر يتفق وهذا الطور الجديد . وإلا لاختل ما بين الحكمة والأحكام من الارتباط والإحكام ، ولم يجر تدبير الخلق على ما نشهده من الإبداع ودقة النظام ! .

وإلى هذا الدليل تشير الآية الكريمة : « ما ننسخْ من آيةٍ أو ننسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها » . فإنه يفهم منها أن كل آية يذهب بها الله تعالى على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معا ، إلى بدل أو إلى غير بدل ، فإنه ـ جلت حكمته ـ يأتى عباده بنوع آخر هو خير لهم من الآية الذاهبة أو مثلها . والخيرية قد تكون فى النفع وقد تكون فى الثواب ، وقد تكون فى كليهما . أما المثلية فلا تكون إلا فى الثواب فقط . وذلك لأن المماثلة فى النفع لا تتصور ، لأنه على تقدير ارتفاع الحكم الأول ، فإن المصلحة المنوط بها ذلك الحكم ترتفع ، ولا تبقى إلا مصلحة الآية المأتى بها ، فتكون خيرا من الذاهبة فى نفعها لامحالة . وإذا قدر بقاء الحكم الأول وكان النسخ للتلاوة وحدها ، فالمصلحة الأولى باقية على حالها، لم يجد غيرها حتى يكون خيرا منها أو مثلها .

(الدليل الثانى) ـ وهو دليل إلزامى للمنكرين ـ أن النسخ لو لم يكن جائزا عقلا وواقعا سمعا ، لما جوزوا أن يأمر الشارع عباده بأمر مؤقت ينتهى بانتهاء وقته ، لكنهم يجوزون هذا عقلا ويقولون بوقوعه سمعا ، فليجوزوا هذا ، لأنه لا معنى

للنسخ إلا انتهاء الحكم الأول لميقات معلوم عند الله ، بيد أنه لم يكن معلوما لنا من قبل ، ثم أعلمنا الله إياه بالنسخ . وهذا ليس بفارق مؤثر .

فقول الشارع مثلا أول يوم من رمضان ، « صوموا إلى نهاية هذا الشهر » مساو لأن يقول أول يوم من رمضان : « صوموا » من غير تقييد بغاية ، حتى إذا ما انتهى شهر رمضان قال أول يوم من شوال : « أفطروا » وهذا الأخير نسخ لا ريب فيه . وقد جوز منكروه المثال الأول،فليجوزوا هذا المثال الثانى ؛ لأنه مساويه،والمتساويان يجب أن يتحد حكمهما . وإلا لما كانا متساويين .

(الدليل الثالث) أن النسخ لو لم يكن جائزا عقلا وواقعا سمعا ، لما ثبتت رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة ، لكن رسالته العامة للناس ثابتة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التى يطول شرحها ، إذن فالشرائع السابقة ليست باقية ، بل هى منسوخة بهذه الشريعة الختامية . وإذن فالنسخ جائز وواقع . أما ملازمة هذا الدليل فنبرهن عليها بأن النسخ لو لم يكن جائزاً وواقعا ، لكانت الشرائع الأولى باقية ولو كانت باقية ما ثبتت رسالته ﷺ إلى الناس كافة .

(الدليل الرابع) ما يأتى من أدلة الوقوع السمعى ، لأن الوقوع يستلزم الجواز وزيادة .

ب ـ أدلة وقوع النسخ سمعا :

الأدلة السمعية على وقوع النسخ نوعان : أحدهما تقوم به الحجة على منكرى النسخ من اليهود والنصارى، من غير توقف على إثبات نبوة الرسول لهم. والآخر تقوم به الحجة على من آمن بنبوته ﷺ كأبى مسلم الأصفهانى من المسلمين ، وكالعيسوية من اليهود ، فإنهم يعترفون برسالته عليه الصلاة والسلام، ولكن يقولون : إلى العرب خاصة. وهؤلاء

تلزمهم بأنهم متى سلموا برسالته وجب أن يصدقوه فى كل ما جاء به ، ومن ذلك عموم دعوته ، والنسخ الوارد فى الكتاب والسنة .

النوع الأول :

أما النوع الأول فآحاده كثيرة ، تفيض بها كتبهم الدينية ، ونحن نجتزئ منها بما يلى ، إلزاما لهم ، وإن كنا لا نؤمن بكل ما آمنوا به .

(أولا) جاء فى السفر الأول من التوراة أن الله تعالى قال لنوح عند خروجه من السفينة : « إنى جعلت كل دابة حية مأكلا لك ولذريتك ، وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ، ماخلا الدم فلا تأكلوه » ثم اعترفوا بعد ذلك بأن الله حرم كثيرا من الدواب على أصحاب الشرائع من بعد نوح ، ومنهم موسى نفسه ، كما جاء فى السفر الثالث من توراتهم .

(ثانيا) جاء فى التوراة أن الله تعالى أمر آدم أن يزوج بناته من بنيه ، وورد أنه كان يولد له فى كل بطن من البطون ذكر وأنثى ، فكان يزوج توأمة هذا للآخر ، ويزوج توأمة الآخر لهذا ، وهكذا ، إقامة لاختلاف البطون مقام اختلاف الآباء والأمهات والأنساب ، ثم حرم الله ذلك بإجماع المتدينين من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم .

(ثالثا) أن الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده ـ عليهما السلام ـ ثم قال الله له : لا تذبحه ، وقد اعترف منكرو النسخ بذلك .

(رابعها) أن عمل الدنيا كان مباحا يوم السبت ، ومنه الاصطياد ، ثم حرم الله الاصطياد على اليهود باعترافهم .

(خامسا) أن الله أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ، ثم أمرهم برفع السيف عنهم .

(سادسا) أن الجمع بين الأختين كان مباحا فى شريعة يعقوب ، ثم حرم فى شريعة موسى ، عليهما الصلاة والسلام .

(سابعا) أن الطلاق كان مشروعا فى شرعـــة موسى ، ثم جاءت شريعة عيسى فحرمته إلا إذا ثبت الزنى على الزوجة .

(ثامنا) أنهم نقلوا عن عيسى فى إنجيل متى أنه قال : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » فهذا يدل على أن رسالة عيسى رسالة محلية خاصة بالإسرائيليين. ثم نقلوا عن عيسى نفسه فى إنجيل مرقس أنه قال : « اذهبوا إلى العالم أجمع ، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها » فإذا أحسنا النية بالإنجيلين كان لا مناص لنا من القول بنسخ النص الأول بالثـانى ، وإلا فإن النصين يتناقضان ويتساقطان ، ويسقط بسقوطهما الإنجيلان ، بل تسقط الأناجيل كلها ، لأنها متماثلة ، وما جاز على أحد الأمثال يجوز على الآخر .

(تاسعا) أن الختان كان فريضة فى دين إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم . ولـكن الحواريين جاءوا بعد رفع عيسى فنهوا عن الختان ، كما ثبت ذلك فى رسائل الحواريين. فإما أن يكون هذا نسخا، وإما أن يكون افتراء وكذبا ، لأنه لم يؤثر عن عيسى كلمة واحدة تدل على نسخ الختان .

(عاشرا) أن أكل لحم الخنزير محرم فى اليهودية ، ومضى عهد عيسى دون أن يعرف عنه ما يدل على إباحته ، ولـكن الحواريين جاءوا بعد عروج عيسى أيضاً فأباحوا لحم الخنزير على زعم المسيحيين. فإما أن يكون هذ نسخا، وإما أن يكون افتراء وكذبا نحو ماسبق .

النوع الثانى :

ذلك هو النوع الأول من أدلة النسخ السمعية ، أما النوع الثانى فمنه ما يأتى :

(أولا) قوله تعالى : « ماننسخْ من آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها » .

(ثانيا) قوله تعالى : « يمحو اللهُ مايشاء ويثبت وعندهُ أم الكتابِ » وقد أسلفنا الكلام على هاتين الآيتين . ونزيدك أن دلالتهما على وقوع النسخ ملحوظ فيهما أنهما نزلتا ردا على طعن الطاعنين على الإسلام ونبى الإسلام بوقوع النسخ فى الشريعة المطهرة .

(ثالثا) قوله تعالى « وإذا بدلنا آيةً مكانَ آيةٍ ـ والله أعلم بما ينزل ـ قالوا : إنما أنت مفتر . بل أكثرهم لايعلمونَ » .

ووجه الدلالة فى هذه الآية أن التبديل يتألف من رفع لأصل وإثبات لبدل، وذلك هو النسخ ؛ سواء أكان المرفوع تلاوة أم حكما .

(رابعا) قوله تعالى : فبظلم منَ الذينَ هادوا حرّمنا عليهم طيباتٍ أحلت لهمْ » . ووجه الدلالة فيها أنها تفيد تحريم ماأحل من قبل وما ذلك إلا نسخ وكلمة « أحلت لهم » يفهم منها أن الحكم الأول كان حكما شرعيا لا براءة أصلية .

(خامسا) أن سلف الأمة أجمعوا على أن النسخ وقع فى الشريعة الإسلامية كما وقع بها .

(سادسا) أن فى القرآن آيات كثيرة نسخت أحكامها .

وهذا دليل فى طيه أدلة متعددة ، لأن كل آية من هذه الآيات المنسوخة ، تعتبر مع ناسخها دليلا كاملا على وقوع النسخ . إذ الوقوع يكفى فى إثباته وجود فرد واحد . وسنتحدث فيما بعد إن شاء الله عن هذه الآيات المنسوخة وما نسخها .

حكمة الله فى النسخ

الآن وقد عرفنا النسخ ، وفرقنا بينه وبين مايلتبس به، وأيدناه بالأدلة، يجدر بنا أن نبين حكمة الله تعالى فيه ، لأن معرفة الحكمة تريح النفس ، وتزيل اللبس ، وتعصم من الوسوسة والدس . خصوصا فى مثل موضوعنا الذى كثر منكروه، وتصيدوا لإنكاره الشبهات من هنا وهناك .

ولأجل تفصيل القول فى الحكمة نذكر أن النسخ وقع بالشريعة الإسلامية ووقع فيها على معنى أن الله نسخ بالإسلام كل دين سبقه، ونسخ بعض أحكام هذا الدين ببعض.

أما حكمته سبحانه فى أنه نسخ به الأديان كلها ، فترجع إلى أن تشريعه أكمل تشريع يفى بحاجات الإنسانية فى مرحلتها التى انتهت إليها ، بعد أن بلغت أشدها واستوت . . وبيان ذلك أن النوع الإنسانى تقلب كما يتقلب الطفل فى أدوار مختلفة . ولكل دور من هذه الأدوار حال تناسبه ، غير الحال التى تناسب دورا غيره . فالبشر أول عهدهم بالوجود ، كانوا كالوليد أول عهده بالوجود ، سذاجة وبساطة، وضعفا وجهالة، ثم أخذوا يتحولون من هذا العهد رويداً رويداً ، ومروا فى هذا التحول أو مرت عليهم أعراض متباينة ، من ضآلة العقل ، وعماية الجهل ، وطيش الشباب ، وغشم القوة . على تفاوت فى ذلك بينهم اقتضى وجود شرائع مختلفة لهم ، تبعا لهذا التفاوت . حتى إذا بلغ العالم أوان نضجه واستوائه ، وربطت مدنيته بين أقطاره وشعوبه، جاء هذا الدين الحنيف ختاماً للأديان ، ومتمما للشرائع ، وجامعاً لعناصر الحيوية ومصالح الإنسانية ومرونة القواعد ، جمعاً وفق بين مطالب الروح والجسد ، وآخى بين العلم والدين ، ونظم علاقة الإنسان بالله وبالعالم كله من أفراد وأسر وجماعات وأمم

وشعوب وحيوان ونبات وجماد . مما جعله يحق ديناً عاماً خالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ! .

هذا إجمال له تفاصيله التى ألمعنا إليها فى مناسبات سابقة . وسنعرض لها إن شاء الله فى مناسبات آتية .

وأما حكمة الله فى أنه نسخ بعض أحكام الإسـلام ببعض ، فترجع إلى سياسة الأمة وتعهدها بما يرقيها ويمحصها . . وبيان ذلك أن الأمـة الإسلامية فى بدايتها حين صدعها الرسول بدعوته ، كانت تعانى فترة انتقال شاق ، بل كان أشق ما يكون عليها فى ترك عقائدها وموروثاتها وعاداتها خصوصا مع ما هـو معروف عن العرب الذى شوفهوا بالإسلام ، من التحمس لما يعتقدون أن من مفاخـرهم وأمجادهم ، فلو أخذوا بهذا الدين الجديد مرة واحـدة ، لأدى ذلك إلى نقيض المقصود ، ومات الإسلام فى مهده ، ولم يجد أنصارا يعتنقونه ويدافعون عنه ، لأن الطفرة من نوع المستحيل الذى لا يطيقه الإنسان . من هنا جاءت الشريعة إلى الناس تمشى على مهل ، متألفة لهم ، متلطفة فى دعوتهم متدرجة بهم إلى الكمال رويداً رويداً ، صاعـدة بهم فى مدراج الرقى شيئاً فشيئاً . منتهزة فرصة الألف والمران والأحداث الجادة عليهم ، لتسير بهم من الأسهل إلى السهل ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن الصعب إلى الأصعب ، حتى تم الأمر ونجح الإسلام نجاحا لم يعرف مثله فى سرعته وامتزاج النفوس به ، ونهضة البشرية بسببه ! .

تلك الحكمة على هذا الوجه ، تتجلى فيما إذا كان الحكم الناسخ أصعب من المنسوخ ، كموقف الإسلام فى سموه ونبله من مشكلة الخمر فى عرب الجاهلية بالأمس ، وقد كانت مشكلة معقدة كل التعقيد ، يحتسونها بصورة تكاد تكون إجماعية ، ويأتونها لا على أنها عادة مجردة . بل على أنها أمارة القوة ، ومظهر الفتوة وعنوان الشهامة !. فقل لى

- بربك - هل كان معقولا أن ينجح الإسلام فى فطامهم عنها ، لو لم يتألفهم ويتلطف بهم ، إلى درجة أن يمتن عليهم بها أول الأمر، كأنه يشاركهم فى شعورهم . وإلى حد أنه أبى أن يحرمها عليهم فى وقت استعدت فيه بعض الأفكار لتسمع كلمة تحريمه، حين سألوه ﷺ : « يسألونَكَ عن الخَمْرِ والميسرِ » ؟ .

أما الحكمة فى نسخ الحكم الأصعب بما هو أسهل منه ، فالتخفيف على الناس ؛ ترفيها عنهم ، وإظهارا لفضل الله عليهم ورحمته بهم ، وفى ذلك إغراء لهم على المبالغة فى شكره وتمجيده ، وتحبيبٌ لهم فيه وفى دينه .

وأما الحكمة فى نسخ الحكم بمساويه فى صعوبته أو سهولته، فالابتلاء والاختبار، ليظهر المؤمن فيفوز ، والمنافق فيهلك ليميز الخبيث من الطيب .

يبقى الكلام فى حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم ، وفى حكمة نسخ التلاوة مع بقاء الحكم .

أما حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم ؛ فتسجيل تلك الظاهرة الحكيمة ، ظاهرة سياسة الإسلام للناس ، حتى يشهدوا أنه هو الدين الحق ؛ وأن نبيه نبي الصدق ، وأن الله هو الحق المبين ، العليم الحكيم ، الرحمن الرحيم. يضاف إلى ذلك ما يكتسبونه من الثواب على هذه التلاوة ، ومن الاستمتاع بما حوته تلك الآيات المنسوخة من بلاغة ، ومن قيام معجزات بيانية أو علمية أو سياسية بها .

وأما نسخ التلاوة مع بقاء الحكم ، فحكمته تظهر فى كل آية بما يناسبها. وإنه لتبدو لنا حكمة رائعة فى مثال مشهور من هذا النوع .

ذلك أنه صح فى الرواية عن عمر بن الخطاب وأبى بن كعب أنهما قالا : كان فيما أنزل من القرآن : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة » . أى كان هذا النص آية تتلى ثم نسخت تلاوتها وبقى حكمها معمولا به إلى اليوم . والسر فى ذلك أنها كانت تتلى

أولا لتقرير حكمها ، ردعاً لمن تحدثه نفسه أن يتلطخ بهذا العار الفاحش من شيوخ وشيخات . حتى إذا ما تمرر هذا الحكم فى النفوس ، نسخ الله تلاوته لحكمة أخرى ، هى الإشارة إلى شناعة هذه الفاحشة، وبشاعة صدورها من شيخ وشيخة، حيث سلكها مسلك مالا يليق أن يذكر فضلا عن أن يفعل، وسار بها فى طريق يشبه طريق المستحيل الذى لا يقع كأنه قال : نزهوا الأسماع عن سماعها ، والألسنة عن ذكرها ، فضلا عن الفرار منها ومن التلوث برجسها . « كتب الله لنا الحفظ والعصمة » إنه ولى كل نعمة وتوفيق .

شبهات المنكرين للنسخ ودفعها

نستطيع أن ننوع المنكرين للنسخ أنواعا : فنوع ينكر جوازه عقلا ووقوعه سمعا، وهم نصارى هذا العصر ، وفرقة الشمعونية من اليهود. ونوع ينكره سمعا ويجوزه عقلا، وهم العنانية من اليهود أيضاً . ونوع يجوزه عقلا ويقول بوقوعه سمعا ، بيد أنه ينكر أن الشريعة الإسلامية ناسخة لليهودية ، وهم العيسوية تمام فرق اليهود الثلاث . ونوع يجوزه عقلا وينكره سمعا ، ولكن إنكاره صورى يتأول فيه بما يجعل خلافه لجمهرة المسلمين خلافا لفظيا أو شبيها باللفظى وهو أبو مسلم الأصفهانى ومن تبعه .

فبين أيدينا إذن ـ من انفردوا بإنكار النسخ عقلا ، وهم نصارى هذا العصر وشمعونية اليهود . ومن توفقوا على إنكاره سمعا، وإن اختلفوا فى مدى هذا الإنكار وفى كيفيته ، وهم نصارى هذا العصر ، وعنانية اليهود ، والعيسويون منهم ، وأبو مسلم الأصفهانى وأتباعه من المسلمين .

ولكل من هؤلاء جميعا شبهات حسبوها أدلة وليست أدلة . كما يتبين لك ذلك فى هذا الاستعراض الجامع .

(١) ـ شبهات المنكرين لجوازه عقلا

لا ريب أن مذهب المنكرين لجواز النسخ عقلا ، هو أخطر المذاهب وأشنعها ، وأبعدها عن الحق وأوغلها فى الباطل. ومجرد إنكاره الجواز العقلى يستلزم إنكار الوقوع الشرعى، وهل يقع فى الوجود ما أحاله العقل؟ لهذا نبدأ بتفنيد هذا المذهب ودفع شبهاته.

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : لو جاز على الله تعالى أن ينسخ حكما من أحكامه، لكان ذلك إما لحكمة ظهرت له كانت خافية عليه ، وإما لغير حكمة . وكل هذين باطل . أما الأول فلأنه يستلزم تجويز البداء والجهل بالعواقب على علام الغيوب ، وأما الثانى فلأنه يستلزم تجويز العبث على الحكيم العليم اللطيف الخبير. والبداء والعبث مستحيلان عليه سبحانه بالأدلة العقلية والنقلية فما أدى إليهما وهو جواز النسخ محال .

وندفع هذه الشبهة بأن نسخ الله تعالى ما شاء من أحكامه ، مبنى على حكمة كانت معلومة له أولا ، ظاهرة لم تخف عليه ولن تخفى عليه أبدا ، غاية الأمر أن مصالح العباد تتجدد بتجدد الأزمان، وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، وأسراره وحكمه سبحانه لا تتناهى ، ولا يحيط بها سواه . فإذا نسخ حكما بحكم ، لم يخل هذا الحكم الثانى من حكمة جديدة غير حكمة الحكم الأول ، هى مصلحة جديدة للعباد فى الحكم الجديد ، أو هى غير تلك . وسبحان من أحاط بكل شىء علما . وإذن فلا يستلزم نسخ الله لأحكامه بداء ولا عبثا .

ولكن هؤلاء الجاحدين غفلوا أو تغافلوا عن هذا ، حتى جاء الترديد فى شبهتهم ناقصا لم يستوف وجوه الاحتمالات كما ترى . ولو استوفوه لقالوا : النسخ إما أن يكون لحكمة ظهرت لله كانت خافية عليه ، أو لحكمة كانت معلومة له لم تكن خافية عليه ، أو لغير

حكمة . وأكبر الظن أنهم لم يفطنوا إلى هذا ، ولو فطنوا له ما اشتبهوا ولو اشتبهوا بعد فطنتهم له لاخترنا الشق الثانى من هذا الترديد ، ثم أيدناه بتوافر أدلة العقل والنقل عليه كما قررنا .

الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : لو جاز على الله تعالى أن ينسخ حكما بحكم ، للزم على ذلك أحد باطلين : جهله جل وعلا، وتحصيل الحاصل . وبيان ذلك أن الله تعالى إما أن يكون قد علم الحكم الأول المنسوخ على أنه مؤبد ، وإما أن يكون قد علمه على أنه مؤقت . فإن كان قد علمه على أنه مستمر إلى الأبد ثم نسخه وصيره غير مستمر ، انقلب علمه جهلا والجهل عليه تعالى محال . وإن كان قد علمه على أنه مؤقت بوقت معين ثم نسخه عند ذلك الوقت ، ورد عليه أن المؤقت ينتهى بمجرد انتهاء وقته ، فإنهاؤه بالنسخ تحصيل للحاصل ، وهو باطل .

وندفع هذه الشبهة: بأن الله تعالى قد سبق فى علمه أن الحكم المنسوخ مؤقت لا مؤبد ، ولكنه علم بجانب ذلك أن تأقيته إنما هو بورود الناسخ لا بشىء آخر كالتقييد بغاية فى دليل الحكم الأول ، وإذن فعلمه بانتهائه بالناسخ لا يمنع النسخ بل يوجبه، وورود الناسخ محقق لما فى علمه لا مخالف له . شأنه تعالى فى الأسباب ومسبباتها ، وقد تعلق علمه بها كلها . ولا تنس ماقررناه ثمة من أن النسخ بيان بالنسبة إلى الله ، رفع بالنسبة إلينا .

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : لو جاز النسخ للزم أحد باطلين: تحصيل الحاصل ، وما هو فى معناه . وبيان ذلك أن الحكم المنسوخ إما أن يكون دليله قد غياه بغاية ينتهى عندها، أو يكون قد أبده نصا : فإن كان قد غياه بغاية فإنه ينتهى بمجرد وجود هذه الغاية ، وإذن لا سبيل إلى إنهائه بالنسخ ، وإلا لزم تحصيل الحاصل . وإن كان دليل الحكم الأول قد نص على تأبيده ثم جاء الناسخ على رغم هذا التأبيد ، لزم المحال من وجوه ثلاثة :

(أولها) التناقض ، لأن التأبيد يقتضى بقاء الحكم . ولا ريب أن النسخ ينافيه :

(ثانيها) تعذر إفادة التأبيد من الله للناس ، لأن كل نص يمكن أن يفيده تبطل إفادته باحتمال نسخه ، وذلك يفضى إلى القول بعجز الله وعِيِّه عن بيان التأبيد لعباده فيما أبده لهم . تعالى الله عن ذلك .

(ثالثها) استلزام ذلك لجواز نسخ الشريعة الإسلامية مع أنها باقية إلى يوم القيامة عند القائلين بالنسخ .

ونَدفع هذه الشبهة (أولا) بأن حصر الحكم المنسوخ فى هذين الوجهين اللذين ذكرهما المانع ، غير صحيح ، لأن الحكم المنسوخ يجوز ألّا يكون مؤقتاً ولا مؤبداً ، بل يجىء مطلقا عن التأقيت وعن التأبيد كليهما . وعليه فلا يستلزم طرو النسخ عليه شيئاً من المحالات التى ذكروها وإطلاق هذا الحكم كاف فى صحة نسخه ، لأنه يدل على الاستمرار بحسب الظاهر ، وإن لم يعرض له النص .

(ثانياً) أن ماذكروه من امتناع نسخ الحكم المؤبد غير صحيح أيضا ، وما استندوا إليه منقوض بوجوه ثلاثة :

(أولها) أن استدلالهم بأنه يؤدى إلى التناقض ، مدفوع بأن الخطابات الشرعية مقيدة من أول الأمر بألا يرد ناسخ ، كما أنها مقيدة بأهلية المكلف للتكليف وألا يطرأ عليه جنون أو غفلة أو موت . وإذن فمجىء الناسخ لا يفضى إلى تناقض بينه وبين المنسوخ بحال .

(ثانيها) أن استدلالهم بأنه يؤدى إلى أن يتعذر على الله بيان التأبيد لعباده ، مدفوع بأن التأبيد يفهمه الناس بسهولة من مجرد خطابات الله الشرعية المشتملة على التأبيد ، وهو مايشعر به كل واحد منا ، وذلك لأن الأصل بقاء الحكم الأول وما اتصل به من تأقيت

أو تأبيد ، وطرو الناسخ احتمال مرجوح : واستصحاب الأصل أمر يميل إليه الطبع ، كما يؤيده العقل والشرع .

(ثالثها) أن جواز نسخ الشريعة الإسلامية إن لزمنا معاشر القائلين بالنسخ ـ فإنه يلزمنا على اعتبار أنه احتمال عقلى لا شرعى، بدليل أننا نتكلم فى الجواز العقلى لا الشرعى. أما نسخ الشريعة الإسلامية بغيرها من الناحية الشرعية فهو من المحالات الظاهرة، لتضافر الأدلة على أن الإسلام دين عام خالد . ولا يضير المحال فى حكم الشرع ، أن يكون من قبيل الجائز فى حكم العقل .

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن النسخ يستلزم اجتماع الضدين، واجتماعهما محال . وبيان ذلك أن الأمر بالشىء يقتضى أنه حسن وطاعة ومحبوب لله ، والنهى عنه يقتضى أنه قبيح ومعصية ومكروه له تعالى. فلو أمر الله بالشىء ثم نهى عنه، أو نهى عن الشىء ثم أمر به ، لاجتمعت هذه الصفات المتضادة فى الفعل الواحد الذى تعلق به الأمر والنهى.

وندفع هذه الشبهة بأن الحسن والقبح وما اتصل بهما، ليست من صفات الفعل الذاتية حتى تكون ثابتة فيها لا تتغير : بل هى تابعة لتعلق أمر الله ونهيه بالفعل . وعلى هذا يكون الفعل حسنا وطاعة ومحبوبا لله مادام مأمورا به من الله ، ثم يكون هـذا الفعل نفسه قبيحا ومعصية ومكروها له تعالى مادام منهيا عنه منه تعالى. والقائلون بالحسن والقبح العقليين من المعتزلة ، يقرون بأنهما يختلفان باختلاف الأشخاص والأوقات والأحوال. وبهذا التوجيه ينتفى اجتماع الضدين ،لأن الوقت الذى يكون فيه الفعل حسنا ، غير الوقت الذى يكون فيه ذلك الفعل قبيحا، فلم يجتمع الحسن والقبح فى وقت واحد على فعل واحد.

ب شبهات المنكرين للنسخ سمعا

لقد نوعنا هؤلاء فيما سبق إلى أنواع. وقلنا: إن لكل منهم طريقة خاصة فى تكييف دعواه وفى صياغة شبهته . وها هى ذى دعاويهم وشبهاتهم تلقى حتفها بين يديك ، فيما نسوقه إليك .

١ ـ شبهة العنانية والشمعونية :

يقولون: إن التوراة التى أنزلها الله على موسى، لم تزل محفوظة لدينا ، منقولة بالتواتر فيما بيننا ، وقد جاء فيها : « هذه شريعة مؤبدة مادامت السموات والأرض » وجاء فيها أيضا : « الزموا يوم السبت أبدا » . وذلك يفيد امتناع النسخ ، لأن نسخ شىء من أحكام التوراة لاسيما تعظيم يوم السبت ، إبطال لما هو من عنده تعالى .

وندفع هذه الشبهة بوجوه خمسة :

(أولها) أن شبهتهم هذه أقصر من مدعاهم قصوراً بيِّنا، لأن قصارى ما تقتضيه ـ إن سلمت ـ هو امتناع نسخ شريعة موسى عليه السلام بشريعة أخرى : أما تناسخ شرائع سواها ، فلا تدل هـذه الشبهة على امتناعه . بل يبعد أن ينكر اليهود انتساخ شرائع الإسرائيليين قبل اليهودية بشريعة موسى . فكان المنظور أن تجىء دعواهم أقصر مما هو محكى عنهم بحيث تتكافأ ودليلهم الذى زعموه أو أن يجىء دليلهم الذى زعموه أعم من هذا حتى يتكافأ ودعواهم التى ادعوها .

(ثانيها) أنا لا نسلم لهم ما زعموه من أن التوراة لم تزل محفوظة فى أيديهم حتى يصح

استدلالهم بها . بل الأدلة متضافرة على أن التوراة الصحيحة لم يعد لها وجود، وأنه أصابها من التغيير والتبديل ما جعلها فى خبر كان .

من تلك الأدلة أن نسخة التوراة التى بأيدى السامريين . تزيد فى عمر الدنيا نحواً من ألف سنة على ما جاء فى نسخة العنانيين . وأن نسخة النصارى تزيد ألفا وثلاثمائة سنة .

ومنها أنه جاء فى بعض نسخ التوراة مايفيد أن نوحا أدرك جميع آبائه إلى آدم. وأنه أدرك من عهد آدم نحوا من مائتى سنة. وجاء فى بعض نسخ أخرى مايفيد أن نوحا أدرك من عمر إبراهيم ثمانيا وخمسين سنة . وكل هذا باطل تاريخيا . .

ومنها أن نسخ التوراة التى بأيديهم تحكى عن الله وعن أنبيائه وملائكته أمورا ينكرها العقل . ويمجها الطبع . ويتأذى بها السمع مما يستحيل معه أن يكون هذا الكتاب صادرا عن نفس بشرية مؤمنة طاهرة فضلا عن أن ينسب إلى ولى، فضلا عن أن ينسب إلى نبى ، فضلا عن أن ينسب إلى الله رب العالمين .

من ذلك أن الله ندم على إرسال الطوفان إلى العالم ، وأنه بكى حتى رمدت عيناه، وأن يعقوب صارعه ! جل الله عن ذلك كله .

ومن ذلك أن لوطا شرب الخمر حتى ثمل وزنى بابنتيه ! .

ومنه أن هارون هو الذى اتخذ العجل لبنى إسرائيل ودعاهم إلى عبادته من دون الله .

ومن الأدلة أيضا على فساد دعوى بقاء التوراة وحفظها، ماثبت بالتواتر عند المؤرخين بل عند اليهود أنفسهم ، من أن بنى إسرائيل . وهم حملة التوراة وحفاظها . قد ارتدوا عن الدين مرات كثيرة ، وعبدوا الأصنام ، وقتلوا أنبياءهم شر تقتيل. ولاريب أن هذه

مطاعن شنيعة جارحة ، لا تبقى لأى واحد منهم أى نصيب من عدالة أو ثقة ، ولا تحمل لهذه النسخ التى زعموا أنها التوراة أقل شيء من القيمة أو الصحة ، ما داموا هم رواتها وحفاظها ، وما دامت هى لم تعرف إلا عن طريقهم و بروايتهم .

(ثالثها) أن هذا التواتر الذى خلعوه على التوراة لا يسلم لهم أيضا لأنها لو كانت متواترة لحجّوا بها أفضل الرسل ﷺ ،ولعارضوا دعواه عموم رسالته بقول التوراة التى يؤمن بها ولا يجحدها ، بل يجهر بأنه جاء مصدقا لها ؛ ويدعو المسلمين أنفسهم إلى الإيمان بها . ولكن ذلك لم يكن . ولو كان لنقل واشتهر . بل الذى نقل واشتهر هو أن كثيرا من أحبار اليهود وعلمائهم كعبد الله بن سلام وأضرابه، قد ألقوا القياد لرسول الله مؤمنين ودنوا لشريعته مسلمين واعترفوا بأنه الرسول الذى بشرت به التوراة والإنجيل .

(رابعها) أن لفظ التأبيد الذى اعتمدوا عليه فيما نقلوه لا يصلح حجة لهم ، لأنه يستعمل كثيراً عند اليهود معدولا به عن حقيقته . من ذلك ماجاء فى البقرة التى أمروا بذبحها : « هذه سنة لكم أبدا » وما جاء فى القربان : « قربوا كل يوم خروفين قربانا دائما » مع أن هذين الحكمين منسوخان باعتراف اليهود أنفسهم، على رغم التصريح فيهما بما يفيد التأبيد كما ترى .

(خامسها) أن نسخ الحكم المؤبد لفظا جائز على الصحيح ، كما أشرنا إلى ذلك قبلا . فلتكن هاتان العبارتان اللتان اعتمدوا عليهما منسوختين أيضا. وشبهة التناقض تندفع بأن التأبيد مشروط بعدم ورود ناسخ ، فإذا ورد الناسخ انتفى ذلك التأبيد ، وتبين أنه كان مجرد تأبيد لفظى للابتلاء والاختبار فتأمل .

٢ ـ شبهة النصارى :

يقولون : إن المسيح عليه السلام قال : «السماء والأرض تزولان وكلامى لا يزول». وهذا يدل على امتناع النسخ سمعا .

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأنا لا نسلم أن الكتاب الذى بأيديهم هو الإنجيل الذى نزل على عيسى ، إن هو إلا قصة تاريخية وضعها بعض المسيحيين ، يبين فيها حياة المسيح وولادته ونشأته ودعوته . والأماكن التى تنقل فيها ،والآيات التى ظهرت على يديه ، ومواعظه ومناظراته . كما يتحدث فيها عن ذلك الحادث الخيالى حادث الصلب . وعلى رغم أنها قصة فقد عجزوا عن إقامة الدليل على صحتها وعدالة كاتبها وأمانته وضبطه ، كما أعياهم اتصال السند وسلامته من الشذوذ والعلة . بل ثبت علميا تناقض نسخ هذه القصة التى أسموها الإنجيل ، مما يدل على أنها ليست من عند الله ولو كانت من عند الله ما أتاها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . وصدق الله فى قوله عن القرآن : « ولو كانَ منْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً » .

(ثانياً) أن سياق هذه الكلمة فى إنجيلهم ، يدل على أن مراده بها تأييد تنبؤاته ، وتأكيد أنها ستقع لا محالة ، أما النسخ فلا صلة لها به نفيا ولا إثباتا . وذلك لأن المسيح حدث أصحابه بأمور مستقبلة ، وبعد أن انتهى من حديثه هذا أتى بهذه الجملة التى تشبثوا بها : « السماء والأرض تزولان وكلامى لا يزول » . ولا ريب أن لسياق الكلام تأثيره فى المراد منه . وهكذا شرحها المفسرون منهم للإنجيل وقالوا : إن فهمها على عمومها لا يتفق وتصريح المسيح بأحكام ، ثم تصريحه بما يخالفها . من ذلك أنه قال لأصحابه ـ كما جاء فى إنجيل متى ـ « إلى طريق أمم لا تمضوا ، ومدينة للسامريين لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » وهذا اعتراف بخصوص رسالته لبنى إسرائيل . ثم قال مرة أخرى ـ كما فى إنجيل مرقس ـ :

« اذهبوا إلى العالم أجمع . واكرزوا بالإنجيل للخليقة » . فالقول الثانى ناسخ للأول .

(ثالثا) أن هذه الجملة على تسليم صحتها وصحة رواتها وكتابها الذى جاءت فيه . لا تدل على امتناع النسخ مطلقا . إنما تدل على امتناع نسخ شيء من شريعة المسيح فقط فشبهتهم على ما فيها قاصرة قصورا بينا عن مدعاهم .

٣ ـ شبهة العيسوية :

يقول هؤلاء اليهود أتباع أبى عيسى الأصفهانى : لا سبيل إلى إنكار نبوة محمد ﷺ ، لأن الله تعالى قد أيده بالمعجزات الكثيرة القاهرة ، ولأن التوراة قد بشرت بمجيئه ، ولا سبيل أيضاً إلى القول بعموم رسالته ، لأن ذلك يؤدى إلى انتساخ شريعة إسرائيل بشريعته ، وشريعة إسرائيل مؤبدة ، بدليل ما جاء فى التوراة من مثل: «هذه شريعة مؤبدة عليكم ما دامت السموات والأرض »وإنما هو رسول إلى العرب خاصة . وعلى هذا فالخلاف بينهم وبين من سبقهم ،أن دعواهم مقصورة على منع انتساخ شريعة موسى بشريعة محمد ﷺ . وشبهتهم التى ساقوها متكافئة مع دعواهم هذه ، ويفهم من اقتصارهم على هذا أنهم يجوزون أن تتناسخ الشرائع سمعا ، فيما عدا هذه الصورة .

وندفع شبهتهم هذه بأمرين :

(أولهما) أن دليلهم الذى زعموه ، هو دليل العنانية والشمعونية من قبلهم ، ولقد أشبعناه تزييفا وتوهينا ، بالوجوه الستة التى أسلفناها آنفا . فالدفع هنا هو عين الدفع هناك ، فيما عدا الوجه الأول .

(ثانيهما) أن اعترافهم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول أيده الله بالمعجزات وجاءت البشارة به فى التوراة ، يقضى عليهم لا محالة أن يصدقوه فى كل ما جاء به ، ومن ذلك أن رسالته عامة ، وأنها ناسخة للشرائع قبله، حتى شريعة موسى نفسه ، الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم بخصوصه : « لو كانَ أخى موسى حيا ماوسعه إلا اتباعى » .

أما أن يؤمنوا برسالته ، ثم لا يصدقوه فى عموم دعوته ، فذلك تناقض منهم لأنفسهم ، ومكابرة للحجة الظاهرة لهم ، « يجادلونك فى الحق بعد ماتبين ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » ا .

٤ ـ شبهة أبى مسلم :

النقل عن أبى مسلم مضطرب ، فمن قائل : إنه يمنع وقوع النسخ سمعا على الإطلاق . ومن قائل : إنه ينكر وقوعه فى شريعة واحدة . ومن قائل : إنه ينكر وقوعه فى القرآن خاصة . ورجحت هذه الرواية الأخيرة بأنها أصح الروايات ، وبأن التأويلات المنقولة عنه لم تخرج عن حدود ما نسخ من القرآن . وأبعد الروايات عن الرجل هى الرواية الأولى ، لأنه لا يعقل أن مسلما فضلا عن عالم كأبى مسلم ينكر وقوع النسخ جملة اللهم إلا إذا كانت المسألة ترجع إلى التسمية فقط ، فإنها تهون حينئذ ، على معنى أن ما نسميه نحن نسخا ، يسميه هو تخصيصا بالزمان مثلا . وإلى ذلك ذهب بعض المحققين ؛ قال التاج السبكى : إن أبا مسلم لا ينكر وقوع المعنى الذى نسميه نحن نسخا ، ولكنه يتحاشى أن يسميه باسمه . ويسميه تخصيصا اهـ .

احتج أبو مسلم بقوله سبحانه « لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ » . وشبهته فى الاستدلال أن هذه الآية تفيد أن أحكام القرآن لا تبطل أبدا . والنسخ فيه إبطال لحكم سابق .

وندفع مذهب أبى مسلم وشبهته بأمور أربعة :

(أولها) أنه لو كان معنى الباطل فى الآية هو متروك العمل به مع بقاء قرآنيته ، لكان دليله قاصرا عن مدعاه ، لأن الآية لا تفيد حينئذ إلا امتناع نوع خاص من النسخ

وهو نسخ الحكم دون التلاوة ، فإنه وحده هو الذى يترتب عليه وجود متروك العمل فى القرآن . أما نسخ التلاوة مع الحكم أو مع بقائه ، فلا تـــدل الآية على امتناعه بهذا التأويل .

(ثانيها) أن معنى الباطل فى الآية ماخالف الحق ، والنسخ حق . ومعنى الآية أن عقائد القرآن موافقة للعقل ، وأحكامه مسايرة للحكمة ، وأخباره مطابقة للواقع ألفاظه محفوظة من التغيير والتبديل ، ولا يمكن أن يتطرق إلى ساحته الخطأ بأى حال ، « إنا نحنُ نزلنا الذكرَ ، وإنا له لحـــافظونَ » . « وبالحقِّ أنزلناهُ وبالحقِّ نزلَ » .

ولعلك تدرك معى أن تفسير الآية بهذا المعنى ، يجعلها أقرب إلى إثبات النسخ ووقوعه ، منها إلى نفيه وامتناعه ، لأن النسخ ـ كما قررنا ـ تصرف إلهى حكيم ، تقتضيه الحكمة ، وترتبط به المصلحة .

(ثالثها) أن أبا مسلم على فرض أن خلافه مع الجمهور لفظى لا يعدو حدود التسمية ، نأخذ عليه أنه أساء الأدب مع الله ، فى تحمسه لرأى قائم على تحاشى لفظ اختاره ـ جلت حكمته ـ ودفع عن معناه بمثل قوله : ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . وهل بعد اختيار الله اختيار ؟ وهل بعد تعبير القرآن تعبير ؟ « سبحانك لا علمَ لنا إلا ما علَّمتنا . إنكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ » .

(رابعها) أن هناك فروقا بين النسخ والتخصيص ، وقد فصلناها فيما سبق ، فارجع إليها إن شئت ، حتى تعلم شطط صاحبنا فيما ذهب إليه . جنبنا الله الشطط وطريق العوج .

ملاحظة

تشيع لأبى مسلم بعض الباحثين من قدامى ومحدثين ، وحطبوا فى حبله قليلا أو كثيرا . وذاعت شبهات حديثة فاسدة حول تشريع الإسلام للنسخ ، ولكنها لا تخـــرج عند

الإمعان عن نطاق الشبهات الآنفة التي دحضناها. لهذا نكتفي بما ذكرناه عما لم نذكره، فرارا من التكرار وتجنبا لإثارة الخصام، وحبا في الوصول إلى الحقيقة بسلام.

طرق معرفة النسخ

لا بد في تحقق النسخ - كما علمت - من ورود دليلين عن الشارع، وهما متعارضان تعارضا حقيقيا، لا سبيل إلى تلافيه بإمكان الجمع بينهما على أي وجه من وجوه التأويل. وحينئذ فلا مناص من أن نعتبر أحدهما ناسخا والآخر منسوخا، دفعا للتناقض في كلام الشارع الحكيم. ولكن أي الدليلين يتعين أن يكون ناسخا، وأيهما يتعين أن يكون منسوخا؟ هذا ما لا يجوز الحكم فيه بالهوى والشهوة. بل لا بد من دليل صحيح يقوم على أن أحدهما متأخر عن الآخر. وإذن فيكون السابق هو المنسوخ، واللاحق هو الناسخ. ولنا إلى هذا الدليل مسالك ثلاثة:

(أولها) أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعيين المتأخر منهما، نحو قوله تعالى: «أأشفقتم أن تُقدِّموا بين يدَىْ نجواكم صدقاتٍ، فإذ لم تفعلوا وتابَ اللهُ عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا اللهَ ورسولَهُ واللهُ خبيرٌ بما تعملونَ». ونحو قوله: «الآن خففَ الله عنكم وعَلِم أنَّ فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائةٌ صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكنْ منكم ألفٌ يغلبوا ألفينِ بإذن اللهِ، واللهُ مَعَ الصَّابرين». ونحو قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، ولا تقولوا هجرا».

(ثانيها) أن ينعقد إجماع من الأمة في أي عصر من عصورها على تعيين المتقدم من النصين والمتأخر منهما.

(ثالثها) أن يرد من طريق صحيحة عن أحد من الصحابة ما يفيد تعيين أحد النصين المتعارضين للسبق على الآخر أو التراخي عنه. كأن يقول: نزلت هذه الآية بعد تلك الآية،

أو نزلت هذه الآية قبل تلك الآية أو يقول : نزلت هذه عام كذا ، وكان معروفا سبق نزول الآية التى تعارضها أو كان معروفا تأخرها عنها .

أما قول الصحابى : هذا ناسخ وذاك منسوخ ، فلا ينهض دليلا على النسخ ، لجواز أن يكون الصحابى صادرا فى ذلك عن اجتهاد أخطأ فيه فلم يصب فيه عين السابق ولا عين اللاحق خلافا لابن الحصار . . . وكذلك لا يعتمد فى معرفة الناسخ والمنسوخ على المسالك الآتية :

١ ـ اجتهاد المجتهد من غير سند ، لأن اجتهاده ليس بحجة .

٢ ـ قول المفسر هذا ناسخ أو منسوخ من غير دليل ، لأن كلامه ليس بدليل .

٣ ـ ثبوت أحد النصين قبل الآخر فى المصحف ، لأن ترتيب المصحف ليس على ترتيب النزول .

٤ ـ أن يكون أحد الراويين من أحداث الصحابة دون الراوى للنص الآخر ، فلا يحكم بتأخر حديث الصغير عن حديث الكبير . لجواز أن يكون الصغير قد روى المنسوخ عمن تقدمت صحبته ، ولجواز أن يسمع الكبير الناسخ من الرسول ﷺ بعد أن يسمع الصغير منه المنسوخ ، إما إحالة على زمن مضى ، وإما لتأخر تشريع الناسخ والمنسوخ كليهما .

٥ ـ أن يكون أحد الراويين أسلم قبل الآخر فلا يحكم بأن ما رواه سابق الإسلام منسوخ ، وما رواه المتأخر عنه ناسخ ، لجواز أن يكون الواقع عكس ذلك .

٦ ـ أن يكون أحد الراويين قد انقطعت صحبته ، لجواز أن يكون حديث من بقيت صحبته سابقا حديث من انقطعت صحبته .

٧ ـ أن يكون أحد النصين موافقا للبراءة الأصلية دون الآخر ، فربما يتوهم أن الموافق لها هو السابق ، والمتأخر عنها هو اللاحق ، مع أن ذلك غير لازم ، لأنه لا مانع من تقدم ما خالف البراءة الأصلية على ما وافقها. مثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لا وضوء مما مست

النار » فإنه لا يلزم أن يكون سابقا على الخبر الوارد بإيجاب الوضوء مما مست النار، ولا يخلو وقوع هذا من حكمة عظيمة ، هى تخفيف الله عن عباده بعد أن ابتلاهم بالتشديد .

قانون التعارض :

وعلى ذكر التعارض فى هذا الباب، نبين لك أن النصين المتعارضين إما أن يتفقا فى أنهما قطعيان أو ظنيان ، وإما أن يختلفا فيكون أحدهما قطعيا والآخر ظنيا. أما المختلفان فلا نسخ بينهما ، لأن القطعى أقوى من الظنى ، فيؤخذ به، وما كان اليقين ليترك بالظن. وأما المتفقان فإن علم تأخر أحدهما بطريق من تلك الطرق الثلاث المعتمدة ،فهو الناسخ والآخر المنسوخ . وإن لم يدل عليه واحد منها وجب التوقف . وقيل يتخير الناظر بين العمل بهما .

هذا كله إذا لم يمكن الجمع بين النصين بوجه من وجوه التخصيص والتأويل. وإلا وجب الجمع ، لأن إعمال الدليلين أولى من إعمال دليل وإهدار آخر ، ولأن الأصل فى الأحكام بقاؤها وعدم نسخها فلا ينبغى أن يترك استصحاب هذا الأصل إلا بدليل بيِّن.

ما يتناوله النسخ

إن تعريف النسخ بأنه رفع حكم شرعى بدليل شرعى ، يفيد فى وضوح أن النسخ لا يكون إلا فى الأحكام . وذلك موضع اتفاق بين القائلين بالنسخ ، لكن فى خصوص ما كان من فروع العبادات والمعاملات. أما غير هذه الفروع من العقائد وأمهات الأخلاق وأصول العبادات والمعاملات ومدلولات الأخبار المحضة ،فلا نسخ فيها على الرأى السديد الذى عليه جمهور العلماء .

أما العقائد فلأنها حقائق صحيحة ثابتة لا تقبل التغيير والتبديل ،فبدهى ألا يتعلق بها نسخ .

وأما أمهات الأخلاق فلأن حكمة الله فى شرعها ، ومصلحة الناس فى التخلق بها .

أمر ظاهر لا يتأثر بمرور الزمن ، ولا يختلف باختلاف الأشخاص والأمم، حتى يتناولها النسخ بالتبديل والتغيير .

وأما أصول العبادات والمعاملات فلوضوح حاجة الخلق إليهما باستمرار، لتزكية النفوس وتطهيرها ولتنظيم علاقة المخلوق بالخالق والخلق على أساسهما فلا يظهر وجه من وجوه الحكمة فى رفعها بالنسخ .

وأما مدلولات الأخبار المحضة فلأن نسخها يؤدى إلى كذب الشارع فى أحد خبريه الناسخ والمنسوخ . وهو محال عقلا ونقلا . أما عقلا فلأن الكذب نقص، والنقص عليه تعالى محال . وأما نقلا فلمثل قوله سبحانه : « ومن أصدقُ من اللهِ قيلاً » « ومن أصدقُ من اللهِ حديثاً » .

نعم إن نسخ لفظ الخبر دون مدلوله جائز بإجماع من قالوا بالنسخ ولذلك صورتان: إحداهما أن تنزل الآية مخبرة عن شيء ثم تنسخ تلاوتها فقط والأخرى أن يأمرنا الشارع بالتحدث عن شيء ثم ينهانا أن نتحدث به .

وأما الخبر الذى ليس محضا. بأن كان فى معنى الإنشاء ،ودل على أمر أو نهى متصلين بأحكام فرعية عملية ، فلا نزاع فى جواز نسخه والنسخ به ، لأن العبرة بالمعنى لا باللفظ .

مثال الخبر بمعنى الأمر قوله تعالى: « تَزْرَعونَ سبعَ سِنينَ دَأَبا » فإن معناه ازرعوا.

ومثال الخبر بمعنى النهى قوله سبحانه : « الزّانى لا ينكحُ إلا زانيةً أو مُشركة ، والزانية لا ينكِحُها إلا زانٍ أو مشرك » فإن معناه لا تنكحوا مشركة ولا زانية (بفتح التاء) ولا تنكحوهما (بضم التاء) ، لكن على بعض وجوه الاحتمالات دون بعض .

والفرق بين أصول العبادات والمعاملات وبين فروعها ، أن فروعها هى ما تعلق بالهيئات والأشكال والأمكنة والأزمنة والعدد ، أو هى كمياتها وكيفياتها. وأما أصولها فهى ذوات العبادات والمعاملات بقطع النظر عن الكم والكيف .

واعلم أن ماقررناه هنا من قصر النسخ على ما كان من قبيل الأحكام الفرعية العلمية دون سواها ، هو الرأى السائد الذى ترتاح إليه النفس ويؤيده الدليل ، وقد نازع فى ذلك قوم لا وجه لهم ، فلنضرب عن كلامهم صفحا :

« وليس كل خلاف جاء معتبرا   إلا خـلاف له حظ من النظر »

ويتصل بما ذكرنا أن الأديان الإلهية لاتناسخ بينها فيما بيناه من الأمـور التى لا يتناولها النسخ . بل هى متحدة فى العقائد وأمهات الأخـــلاق وأصول العبادات والمعاملات وفى صدق الأخبار المحضة فيها صدقاً لا يقبل النسخ والنقض . وإن شئت أدلة فهاك ما يأتى من القرآن الـكريم : —

١ — « شَرعَ لـكم منَ الدِّينِ ماوصَّى به نوحاً والذى أوحينا إليكَ وما وصَّينا به إبراهيمَ ومُوسَى وعيسَى أن أقيموا الدِّين ولا تتفرَّقُوا فيه » .

٢ — « وما أرسلنا من قبلكَ من رسولٍ إلا نـــُوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

٣ — « يأيهـــا الذين آمنوا كتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قبلكم » .

٤ — « وأذِّن فى الناسِ بالحج يأتــوكَ رِجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كل فجٍّ عميقٍ » .

٥ — « واتلُ عليهم نبأَ ابنى آدم بالحق إذ قرَّبا قُرْباناً، فَتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبل من الآخر قال : لأقتلنَّكَ قال : إنما يتقبلُ اللهُ من المتقين » .

٦ — « وكتبنا عليهم فيها أن النَّفْسَ بالنَّفْسِ ، والعينَ بالعينِ ، والأنفَ بالأنفِ ، والأُذُنَ بالأذنِ والسنَّ بالسنِّ ، والجروحَ قصاصٌ » .

٧ - « كل الطعام كان حِلًّا لبنى إسرائيلَ إلا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تنزل التوراةُ » .

٨ - « إنى أريدُ أن أنكحكَ إحدى ابنتىَّ هاتَينِ على أن تأجُرَنى ثمانى حِجَجٍ » .

٩ - « فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليها طيبات أُحلَّت لهم » .

١٠ - « وإذ قال لقمانُ لابنهِ وهو يعِظُه : يابنىَّ لا تُشْرِكْ باللهِ » إلى آخر ماجاء فى قصة لقمان .

أنواع النسخ فى القرآن

النسخ الواقع فى القرآن، يتنوع إلى أنواع ثلاثة: نسخ التلاوة والحكم معا ، ونسخ الحكم ، دون التلاوة ، ونسخ التلاوة دون الحكم .

(١) أما نسخ الحكم والتلاوة جميعا ، فقد أجمع عليه القائلون بالنسخ من المسلمين ويدل على وقوعه سمعا ما ورد عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان فيما أنزل من القرآن : عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات . وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن » . وهو حديث صحيح . وإذا كان موقوفا على عائشة رضى الله عنها فإن له حكم المرفوع ، لأن مثله لا يقال بالرأى ، بل لا بد فيه من توقيف . وأنت خبير بأن جملة : عشر رضعات معلومات يحرمن ، ليس لها وجود فى المصحف حتى تتلى ، وليس العمل بما تفيده من الحكم باقيا ، وإذن يثبت وقوع نسخ التلاوة والحكم جميعا. وإذا ثبت وقوعه ثبت جوازه ؛ لأن الوقوع أول دليل على الجواز. وبطل مذهب المانعين لجوازه شرعا ، كأبى مسلم وأضرابه .

(٢) وأما نسخ الحكم دون التلاوة فيدل على وقوعه آيات كثيرة :

منها أن آية تقديم الصدقة أمام مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهى قوله تعالى: « يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة » منسوخة بقوله سبحانه : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقاتٍ ؟ فإذ لم تفعلوا وتابَ اللهُ عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ وأطيعوا اللهَ ورسولهُ » . على معنى أن حكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية ، مع أن تلاوة كلتيهما باقية .

ومنها أن قوله سبحانه : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » منسوخ بقوله سبحانه : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » على معنى أن حكم تلك منسوخ بحكم هذه ، مع بقاء التلاوة فى كلتيهما كما ترى .

(٣) وأما نسخ التلاوة دون الحكم ، فيدل على وقوعه ما صحت روايته عن عمر ابن الخطاب وأبى بن كعب أنهما قالا : « كان فيما أنزل من القرآن : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة » اهـ . وأنت تعلم أن هذه الآية لم يعد لها وجود بين دفتى المصحف ولا على ألسنة القراء ، مع أن حكمها باق على إحكامه لم ينسخ .

ويدل على وقوعه أيضا ما صح عن أبى بن كعب أنه قال: « كانت سورة الأحزاب توازى سورة البقرة أو أكثر » مع أن هذا القدر الكبير الذى نسخت تلاوته لا يخلو فى الغالب من أحكام اعتقادية لا تقبل النسخ .

ويدل على وقوعه أيضاً الآية الناسخة فى الرضاع؛ وقد سبق ذكرها فى النوع الأول.

ويدل على وقوعه أيضاً ما صح عن أبى موسى الأشعرى أنهم كانوا يقرءون سورة على عهد رسول الله ﷺ فى طول سورة براءة ، وأنها نسيت إلا آية منها ، وهى : « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب » .

وإذا ثبت وقوع هذين النوعين كما ترى ، ثبت جوازهما ، لأن الوقوع أعظم دليل على الجواز كما هو مقرر . وإذن بطل ما ذهب إليه المانعون له من ناحية الشرع ، كأبى مسلم ومن لف لفه . ويبطل كذلك ما ذهب إليه المانعون له من ناحية العقل ، وهم فريق من المعتزلة شذ عن الجماعة فزعم أن هذين النوعين الأخيرين مستحيلان عقلا .

ويمكنك أن تفحم هؤلاء الشذاذ من المعتزلة بدليل على الجواز العقلى الصرف لهذين النوعين فتقول: إن ما يتعلق بالنصوص القرآنية من التعبد بلفظها ، وجواز الصلاة بها ، وحرمتها على الجنب فى قراءتها ومسها ، شبيه كل الشبه بما يتعلق بها من دلالتها على الوجوب والحرمة ونحوهما، فى أن كلا من هذه المذكورات حكم شرعى يتعلق بالنص الكريم، وقد تقتضى المصلحة نسخ الجميع، وقد تقتضى نسخ بعض هذه المذكورات دون بعض ، وإذن يجوز أن تنسخ الآية تلاوة وحكما ، ويجوز أن تنسخ تلاوة لا حكما؟ ويجوز أن تنسخ حكماً لا تلاوة . وإذا ثبت هذا بطل ماذهب إليه أولئك الشذاذ من الاستحالة العقلية للنوعين الأخيرين .

شبهات أولئك المانعين ودفعها

وتتميما للفائدة نعرض عليك شبهاتهم ، مفندين لها شبهة شبهة .

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون: إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان تلازم المنطوق والمفهوم، فلا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر .

والجواب أن التلازم بين الآية وحكمها مشروط فيه انتفاء المعارض وهو الناسخ، أما إذا وجد الناسخ فلا تلازم ، والأمر حينئذ للناسخ ، إن شاء رفع الحكم وأبقى على التلاوة، وإن شاء عكس وإن شاء رفعهما معا، على حسب ما تقتضيه الحكمة أو المصلحة. ونظير

ذلك أن التلازم بين منطوق اللفظ ومفهومه مشروط فيه انتفاء المعارض. أما إذا وجد منطوق معارض للمفهوم؛ فإن المفهوم حينئذ يعطل، ويبقى العمل بالمنطوق وحده.

الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : إن نسخ الحكم دون التلاوة، يستلزم تعطيل الكلام الإلهي وتجريده من الفائدة. وهذا عيب لا يرضى به عاقل لأقل نوع من كلامه، فكيف يرضى به الله لأفضل كلامه ؟.

والجواب أنا لا نسلم هذا اللزوم. بل الآية بعد نسخ حكمها دون تلاوتها، تبقى مفيدة للإعجاز، وتبقى عبادة للناس. وتبقى تذكيرا بعناية الله ورحمته بعباده حيث سن لهم في كل وقت ما يساير الحكمة والمصلحة من الأحكام يضاف إلى ذلك أن الآية بعد نسخ حكمها لا تخلو غالبا من دعوة إلى عقيدة، أو إرشاد إلى فضيلة، أو ترغيب في خير؛ ومثل ذلك لا ينسخ بنسخ الحكم، بل تبقى الآية مفيدة له، لأن النسخ لا يتعلق به كما مر.

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : إن بقاء التلاوة بعد نسخ الحكم، يوقع في روع المكلف بقاء هذا الحكم، ذلك تلبيس وتوريط للعبد في اعتقاد فاسد ومحال على الله أن يشكك أو يورط عبده.

والجواب أن ذلك التلبيس وهذا التوريط، كان يصح ادعاؤهما واستلزام نسخ الحكم دون التلاوة لهما، لو لم ينصب الله دليلا على النسخ. أما وقد نصب عليه الدلائل، فلا عذر لجاهل ولا محل لتوريط ولا تلبيس، لأن الذي أعلن الحكم الأول بالآية وشرعه، هو الذي أعلن بالناسخ أنه نسخه ورفعه : «قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين».

اللهم اهدنا بهداك يارب العالمين . فإنه لا هادى إلا أنت . « ومن يضلل الله فما له من هاد » .

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن الآية دليل على الحكم ، فلو نسخت دونه لأشعر نسخها بارتفاع الحكم . وفى ذلك مافيه من التلبيس على المكلف والتوريط له فى اعتقاد فاسد .

وندفع هذه الشبهة بأن تلك اللوازم الباطلة تحصل لولم ينصب الشارع دليلا على نسخ التلاوة ، وعلى إبقاء الحكم . أما وقد نصب الدليل على نسخ التلاوة وحدها، وعلى إبقاء الحكم وتقرير استمراره كما فى رجم الزناة المحصنين ، فلا تلبيس من الشارع على عبده ولا توريط .

الشبهة الخامسة ودفعها :

يقولون : إن نسخ التلاوة مع بقاء الحكم عبث لا يليق بالشارع الحكيم ؛ لأنه من التصرفات التى لا تعقل لها فائدة .

وندفع هذه الشبهة بجوابين :

(أحدهما) أن نسخ الآية مع بقاء الحكم ليس مجرداً من الحكمة ، ولا خاليا من الفائدة ، حتى يكون عبثا ، بل فيه فائدة أى فائدة . وهى حصر القرآن فى دائرة محدودة تيسر على الأمة حفظه واستظهاره ، وتسهل على سواد الأمة التحقق فيه وعرفانه ، وذلك سور محكم ، وسياج منيع ، يحمى القرآن من أيدى المتلاعبين فيه بالزيادة أو النقص لأن الكلام إذا شاع وذاع وملأ البقاع ، ثم حاول أحد تحريفه ، سرعان مايعرف، وشد

ما يقابل بالإنكار. وبذلك يبقى الأصل سليما من التغيير والتبديل، مصداقاً لقوله سبحانه: « إنا نحنُ نزلنا الذكرَ وإنا له لحافظونَ ».

والخلاصة أن حكمة الله قضت أن تنزل بعض الآيات فى أحكام شرعية عملية، حتى إذا اشتهرت تلك الأحكام، نسخ سبحانه هذه الآيات فى تلاوتها فقط، رجوعاً بالقرآن إلى سيرته من الإجمال، وطرداً لعادته فى عرض فروع الأحكام من الإقلال، تيسيراً لحفظه وضماناً لصونه « والله يعلم وأنتم لا تعلمونَ ».

(ثانيهما) أنه على فرض عدم علمنا بحكمة ولا فائدة فى هذا النوع من النسخ، فإن عدم العلم بالشىء لا يصلح حجة على العلم بعدم ذلك الشىء، وإلا فمتى كان الجهل طريقا من طرق العلم؟ ثم إن الشأن فى كل ما يصدر عن العليم الحكيم الرحمن الرحيم، أن يصدر لحكمة أو لفائدة، نؤمن بها وإن كنا لا نعلمها على التعيين. وكم فى الإسلام من أمور تعبدية، استأثر الله بعلم حكمتها، أو أطلع عليها بعض خاصته من المقربين منه والمحبوبين لديه، « وفوقَ كلِّ ذى علمٍ عليمٌ ». « ومَا أوتيتُم من العلم إلا قليلًا ».

ولا بدع فى هذا، فرب البيت قد يأمر أطفاله بما لا يدركون فائدته لنقص عقولهم، على حين أنه فى الواقع مفيد، وهم يأتمرون بأمره وإن كانوا لا يدركون فائدته. والرئيس قد يأمر مرءوسيه بما يعجزون عن إدراك سره وحكمته، على حين أن له فى الواقع سرًّا وحكمة وهم ينفذون أمره وإن كانوا لا يفهمون سره وحكمته.

كذلك شأن الله مع خلقه فيما خفى عليهم من أسرار تشريعه، وفيما لم يدركوا من فائدة نسخ التلاوة دون الحكم. « ولله المثل الأعلى، وهو العزيز الحكيم ».

النسخ ببدل وبغير بدل

الحكم الشرعى الذى ينسخه الله ، إما أن يحل ـ سبحانه ـ محله حكما آخر أوْ لا ـ فإذا أحل محله حكما آخر فذلك هو النسخ ببدل . وإذا لم يحل محله حكما آخر فذلك هو النسخ بغير بدل ، وكلاهما جائز عقلا وواقع سمعا على رأى الجمهور .

مثال النسخ ببدل أن الله تعالى نهى المسلمين أول الأمر عن قتال الكفار، ورغبهم فى العفو والصفح ؛ بمثل قوله سبحانه : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسداً من عند أنفسهم من بعدِ ما تبينَ لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى اللهُ بأمرهِ إن اللهَ على كلِّ شىء قدير » .

ثم نسخ الله هذا النهى وأذنهم بالجهاد فقال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإنَّ اللهَ على نصرهم لقدير * الذين أخرِجُوا من ديارهم بغيرِ حق إلا أنْ يقولوا ربنا الله . ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعضٍ لهدِّمتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجد يذكرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً . ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوىٌّ عزيز * الذينَ إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاةَ وآتوُا الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونهوا عن المنكرِ . ولله عاقبةُ الأمور » .

ثم شدد الله وعزم عليهم فى النفير للقتال، وتوعدهم إن لم ينفروا فقال: « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيرَكم ولا تضروهُ شيئاً والله على كل شىء قدير * إلا تنصروه فقد نصرهُ الله إذ أخرجَهُ الذينَ كفروا ثانىَ اثنينِ إذْهما فى الغار إذ يقولُ لصاحبهِ لا تحزَنْ إنَّ الله معنا . فأنزلَ اللهُ سكينتهُ عليهِ وأيده بجنودٍ لم تروها وجعلَ كلمةَ الذينَ كفروا السفلى . وكلمةُ اللهِ هى العلياَ . واللهُ عزيزٌ حكيمٌ » .

ومثال النسخ بلا بدل أن الله تعالى أمر بتقديم الصدقة بين يدى مناجاة الرسول فقال: « يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتُمُ الرسول فقدِّموا بين يدَىْ نجواكم صدقة » ثم رفع هذا التكليف عن الناس من غير أن يكلفهم بشىء مكانه ، بل تركهم فى حل من ترك الحكم الأول دون أن يوجه حكما آخر . فقال : « أأشفقتم أن تُقَدِّموا بين يَدَىْ نجواكم صدقاتٍ ، فإذ لم تفعلوا وتابَ الله عليكم فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاة وأطيعوا اللهَ ورسوله » .

شبهة ودفعها

ذلك مذهب الجمهور من العلماء ، ولكن بعض المعتزلة والظاهرية يقولون: إن النسخ بغير بدل لا يجوز شرعا . وشبهتهم فى هذا أن الله تعالى يقول : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . ووجه اشتباههم أن الآية تفيد أنه لا بد أن يؤتى مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر هو خير منه أو مثله . ولكنها شبهة مدفوعة بما ذكرنا من النصين السابقين فى تقديم الصدقة بين يدى الرسول ﷺ . واحتجاجهم بآية « ما ننسخ » على الوجه الذى ذكروه احتجاج داحض، لأن الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل ، فهمنا بمقتضى حكمته أو رعايته لمصلحة عباده أن عدم الحكم صار خيرا من ذلك الحكم المنسوخ فى نفعه للناس . وصح أن يقال حينئذ إن الله نسخ حكم الآية السابقة ، وأتى بخير منها فى الدلالة على عدم الحكم الذى بات فى وقت النسخ أنفع للناس وخيرا لهم من الحكم المنسوخ . ومعنى آية « ما ننسخ » لا يأبى هذا التأويل ، بل يتناوله كما يتناول سواه ، والنسخ فيها أعم من نسخ التلاوة والحكم مجتمعين ومنفردين، ببدل وبغير بدل والخيرية والمثلية فيها أعم من الخيرية والمثلية فى الثواب وفى النفع . وقد مر بيان ذلك فيما سبق عند الكلام على أدلة النسخ عقلا .

نسخ الحكم ببدل أخف أو مساو أو أثقل

النسخ إلى بدل يتنوع إلى أنواع ثلاثة :

(أولها) النسخ إلى بدل أخف على نفس المكلف من الحكم السابق كنسخ تحريم الأكل والشرب والجماع بعد النوم فى ليل رمضان بإباحة ذلك ؛ إذ قال سبحانه : « أُحل لكم ليلةَ الصيامِ الرَّفثُ إلى نسائكم ، هُنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ . علم الله أنكم كنتم تختانونَ أنفسكم فتابَ عليكمْ وعفا عنكم . فالآن باشروهُنَّ ، وابتغوا ما كتبَ الله لكم . وكُلوا واشربوا حتى يتبيّنَ لكمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسود منَ الفَجْرِ » .

(ثانيها) النسخ إلى بدل مساو للحكم الأول فى خفته أو ثقله على نفس المكلف ، كنسخ وجوب استقبال بيت المقدس بوجوب استقبال الكعبة فى قوله سبحانه : « قد نَرى تقلُّب وجهكَ فى السماء فلنولينك قبلةً ترضاها ، فول وجْهكَ شَطْرَ المسجدِ الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجُوهكم شَطْرَه » .

وهذان النوعان لا خلاف فى جوازهما عقلا ووقوعهما سمعا عند القائلين بالنسخ كافة .

(ثالثها) النسخ إلى بدل أثقل من الحكم المنسوخ . وفى هذا النوع يدب الخلاف : فجمهور العلماء يذهبون إلى جوازه عقلا وسمعا ، كالنوعين السابقين ، ويستدلون على هذا بأمثلة كثيرة تثبت الوقوع السمعى ، وهو أدل دليل على الجواز العقلى كما علمت . من تلك الأمثلة أن الله تعالى نسخ إباحة الخمر بتحريمها . ومنها أنه تعالى نسخ ما فرض من مسالمة الكفار المحاربين بما فرض من قتالهم « كتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم » . ومنها أن حد الزنى كان فى فجر الإسلام لا يعدو التعنيف والحبس فى البيوت ، ثم نسخ

ذلك بالجلد والنفي فى حق البكر، وبالرجم فى حق الثيب. ومنها أن الله تعالى فرض على المسلمين أولا صوم يوم عاشوراء، ثم نسخه بفرض صوم شهر رمضان كله مع تخيير الصحيح المقيم بين صيامه والفدية، ثم نسخ سبحانه هذا التخيير بتعيين الصوم على هذا الصحيح المقيم إلزاما.

شبهات المانعين ودفعها

ذلك ما ارتآه الجمهور. ولكن قوما شطوا فمنعوا هذا النوع الثالث عقلا. وآخرون أسرفوا فمنعوه سمعا. وكلهم محجوجون بما ذكرنا من الأدلة. غير أنا لا نكتفي بذلك، بل نعرض عليك شبهاتهم، ونفندها بين يديك لئلا تنخدع ولا نسمح لأحد أن ينخدع!؟

الشبهة الأولى ودفعها:

يقول المانعون لهذا النوع عقلا: إن تكليف الله لعباده لا بد أن يكون لمصلحة راجعة إلى العباد لا إليه. ومحال أن يكون لغير مصلحة، وإلا كان الله سبحانه عابثا. ومحال أن يكون لمصلحة تعود على الله، لأنه تعالى هو الغنى عن خلقه جميعا. وإذا كان التكليف راجعا لمصلحة العباد وحدهم، فلا بد أن يكون على حالة تدعو إلى امتثالهم. وليس فى نقل العباد من الأخف إلى الأشد داعية إلى امتثالهم. بل هو العكس من ذلك: فيه تزهيدلهم فى الطاعة، وتثبيط لهم عن الواجب. وكل ما كان كذلك يمتنع أن يصدر من الله عقلا.

وندفع هذه الشبهة: (أولا) بأن هذه سفسطات مفضوحة، ومغالطات مكشوفة، عمى فيها هؤلاء أو تعاموا عن الحقائق الواقعة فى التشريع، وهى نقل العباد فعلا من أحكام خفيفة إلى أحكام أشد منها. كما مثلنا آنفا.

(ثانيا) أننا نقلب حجة هؤلاء عليهم، ونرد كيدهم فى نحرهم، ونعمل سلاحهم

فى أعناقهم، ونقول لهم : إن مصلحة العباد التى هى مقصود الشارع الحكيم الرحيم، تقضى أن يكون تكليفه إياهم على حالة تدعو إلى امتثالهم ، وذلك بأن يتدرج بهم ، فيمهد ويمهد للتكليف الخفيف بتكليف أخف منه ، ويمهد للتكليف الثقيل بتكليف خفيف ، وللتكليف الأثقل بتكليف ثقيل ، لأن الناس لو بوغتوا من أول الأمر بالثقيل مثلا لعجزوا ونفروا وانعكس المقصود من هدايتهم . ولذلك نشاهد حكماء المربين ، وساسة الأمم القادرين يبتدئون فى تربيتهم وسياستهم بأيسر الأمور ، ثم بعد ذلك يتدرجون ولا يطفرون .

(ثالثا) أن دليلهم هذا منقوض بما لا يسعهم إنكاره ، وهو تكليف الله عباده ابتداء ونقلهم من الإباحة المطلقة أو البراءة الأصلية إلى مشقة التكاليف المتنوعة . فما يكون جوابا لهم عن هذه يكون جوابا لنا عما منعوه هنا .

(رابعا) أنهم متناقضون، فإن مصلحة العباد التى جعلوها مناط شبهتهم تأبى مفاجأة الناس بالأشد من غير تمهيد بالأخف ، ومذهبهم لا يأبى التكليف من أول الأمر بالأشد دون تمهيد بالأخف ! .

(خامسا) أننا لا نسلم أن مقصود الشارع من التكاليف هو مجرد مصالح الناس ، بل تارة يكون المقصد هو المصلحة ، وتارة يكون المقصد هو الابتلاء والاختبار ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، حتى لا يكون لأحد بعد تمايز الناس بابتلائه حجة . وقد أعلن الله هذا المقصد الثانى فى آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصَّابِرِينَ ونبلوَ أخباركم » . ومنها قوله عز اسمه: « ونبلوكم بالشَّر والخير فتنةً وإلينا تُرْجعون ». ومنها قوله جلت حكمته « الذى خلقَ الموتَ والحياة ليبلُوَكُم أيكم أحسنُ عملا » .

وإذن فنسخ الحكم بأشد قد يكون ابتلاء للعباد ، إن لم يكن مصلحة لهم. وتلك حكمة بالغة تلغى عن الله العبث .

(سادسا) أن الحكم الأشد الناسخ ، قد يكون هو المصلحة للعباد ، دون الحكم الأخف المنسوخ، لأنه على رغم شدته وثقله يشتمل على داعية لامتثاله لا توجد فى الحكم الأول وقت النسخ . من ترغيب أو ترهيب ، أو تجلية لمزايا وفوائد من وراء الحكم الجديد فى الدنيا أو فى الآخرة . تأمل آيتى التحريم النهائى للخمر وما انطوتا عليه من هذه الألوان ، ثم تأمل آيات مشروعية الجهاد وما فيها من ضروب الترغيب والترهيب وتحريك العزائم إلى السخاء بالنفوس والأموال إلى غير ذلك مما تدركه فى الأحكام الناسخة بأقل تبصر وإمعان .

الشبهة الثانية ودفعها :

يقول المانعون لنسخ الأخف بالأثقل سمعا فقط : إن الله تعالى يقول : « ويضعُ عنهم إصرَهم والأغلال التى كانت عليهم » . ومعنى هذا أن الشدائد التى كانت على من قبلنا رفعها الله عنا . ونسخ الأخف بالأشد مخالف لهذا الوعد الصريح ، فهو ممنوع سمعا .

وندفع هذه الشبهة بأن قصارى ما تفيده هذه الآية أن الله تعالى أعفى هذه الأمة المحمدية من أن يكلفها بما يصل فى شدته إلى تلك الأحكام القاسية التى فرضها على الأمم الماضية ، والتى ألزمهم بها إلزاما كأنها أغلال فى أعناقهم . وهذا لا ينفى أن تكون بعض الأحكام فى الشريعة الإسلامية أشد من بعض ، وأن ينسخ الله فيها حكما أخف بحكم أثقل منه ، ولكن لا يصل فى شدته وصرامته إلى مثل أحكام الماضين فى شدتها وصرامتها . فوعد الله بالتخفيف على هذه الأمة حق، ونسخه حكما بما هو أثقل منه حق.

وخلاصة الجواب أن شدةَ بعض الأحكام الإسلامية إنما هو بالنسبة إلى بعضها الآخر . أما بالنسبة إلى أحكام الشرائع الأخرى فهى أخف منها قطعا .

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقول هؤلاء أيضا : إن الله تعالى يقول : « يريدُ الله بكم اليسرَ ولا يريدُ بكم العسرَ » ويقول: «يريد الله أن يخفف عنكم» ولا تيسير ولا تخفيف فى نقلنا من الأخف إلى الأثقل .

وندفع هذه الشبهة : (أولا) بأن قصارى ما يدل عليه هذان النصان الكريمان ، هو أن الأحكام الشرعية كلها ميسرة مخففة فى ذاتها ، لا إرهاق فيها للمكلفين ، وإن كانت فيما بينها متفاوتة ، فبعضها أثقل أو أخف بالنسبة إلى بعض .

(ثانيا) أنه لو كان مفهوم الآيــة هو ما فهموا من التيسير والتخفيف المطلقين ، لانتقض ذلك بأصل التكليف ، لأن التكليف إلزام ما فيه كلفه .

(ثالثا) أن النص الأول : « يريدُ اللهُ بكم اليسرَ ولا يريــدُ بكم العسرَ » قد سيق فى معرض خاص ، هو الترخيص للمرضى والمسافرين أن يفطروا ويقضوا عدة من أيام أخر . وعلى هذا يكون معناه يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، فى ترخيصه للمرضى والمسافرين أن يفطروا رمضان ويقضوا عدة ما أفطروا .. وكذلك النص الثانى، « يريدُ اللهُ أنْ يخففَ عنكم » قد سيق فى معرض خاص ، هو إباحة الله لعباده ، أن يتزوجوا الفتيات المؤمنات من الإماء ، إذا لم يستطيعوا طَولا أن يتزوجوا الحرائر من المحصنات المؤمنات ، وبشرط أن يخشوا العنت أى يخافوا الوقوع فى الزنى .

وعلى هذا فالتخفيف المذكور فى هذا السياق ، معناه التخفيف بالترخيص لهؤلاء الفقراء الخائفين من العنت ، أن يتزوجوا إماء الله المؤمنات .

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقول هؤلاء أيضاً : إن قوله سبحانه « ما ننسخْ من آيةٍ أو ننسها نأت بخيرٍ منها أو مثلها » يفيد أن النسخ لا يكون إلا بالأخف، لأنه الخير ، أو بالمساوى ، لأنه المثل، أما الأثقل فلا .

وندفع هذه الشبهة بأن الخيرية والمثلية فى الآية الكريمة ليس المراد منهما ما فهموا من الخفة عن الحكم الأول أو المساواة به . بل المراد بهما الخيرية والمثلية فى النفع والثواب، على ما مر تفصيله . وعلى هذا فما المانع من أن يكون الأثقل الناسخ أكثر فائدة فى الدنيا وأعظم أجرا فى الآخرة من الأخف المنسوخ ؟ أو يكون مساويا له فى الثواب ومماثلا له فى الأجر ؟ .

نسخ الطلب قبل التمكن من امتثاله

علماؤنا اتفقوا على أن نسخ الطلب قبل التمكن من العلم به ممتنع ، كما اتفقوا على أن نسخه بعد تمكن المكلف من امتثاله جائز ، لم يخالف فى ذلك إلا الكرخى فيما روى عنه من امتناع النسخ قبل تحقق الامتثال بالفعل . . أما نسخ الطلب بعد التمكن من العلم وقبل التمكن من الامتثال ، ففيه اختلاف العلماء : ذهب جمهور أهل السنة ومن وافقهم إلى جوازه ، وذهب جمهور المعتزلة ومن وافقهم إلى منعه . مثال ذلك قوله سبحانه : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقًّا على المتقين » فإن جمهورنا يجوزون نسخ وجوب الوصية المذكور فى هذه الآية بعد التمكن من العلم به وقبل أن يحضر الموت أحد المكلفين . أما جمهور المعتزلة فيقولون باستحالة نسخ هذا التشريع إلا بعد احتضار أحد المكلفين وتمكنه من الوصية . ولا يكتفى الكرخى فيما روى عنه بمجرد تمكن المكلف من الوصية ، بل لابد عنده من أن يوصى بالفعل ، حتى يجوز النسخ بعده .

أدلة المثبتين لهذا النوع من النسخ :

إن الذين أجازوا هذا النوع من النسخ ، استدلوا له بثلاثة أدلة :

(أحدها) أن نسخ الطلب قبل التمكن من امتثاله لا يترتب على وقوعه محال عقلى . وكل ما كان كذلك فهو جائز عقلا .

(ثانيها) أن النسخ قبل التمكن من الفعل، مانع كسائر الموانع التى تمنع العبد منه، إذ لا فارق بينه وبينها يؤثر . فلو لم يجز هذا النوع من النسخ لم يجز أن يأمر الله عبده بفعل فى مستقبل زمانه ثم يعوقه عنه بمرض أو نوم أو نحوهما ، لكن المشاهد غير ذلك باعتراف المانعين أنفسهم ، فكثيرا ما تحول الحوائل بين المرء وما أمره الله فى مستقبله . فليجز هذا النوع من النسخ أيضا :

(ثالثها) أن هذا النوع من النسخ قد وقع فعلا . والوقوع دليل الجواز وزيادة .

ثم إن لهم على وقوع هذا النوع من النسخ دليلين :

(الدليل الأول) أن الله تعالى حين حدثنا عن إبراهيم وولده إسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما . قال : «فبشرناهُ بغلامٍ حليم * فلما بلغ معه السعى قال : يابنىَّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحكَ فانظر ماذا ترى ؟ قال : يـٰأبت افعل ماتؤمر ، ستجدنى إنْ شاء اللهُ من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناهُ : أن يا إبراهيم * قد صدَّقتَ الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين * إنَّ هذا لهو البلاء المبين * وفديناهُ بذبحٍ عظيمٍ * وتركنا عليهِ فى الآخرين * سلامٌ على إبراهيم * كذلك نجزى المحسنين * إنهُ من عبادنا المؤمنين » فأنت ترى فى هذا العرض الكريم ، لقصة إبراهيم الخليل وولده الذبيح إسماعيل ما يفيد أنه سبحانه قد أمر إبراهيم بذبح ولده ، ثم نسخ ما أمره به قبل أن يتمكن من تنفيذه وفعله .

أما أنه أمره بالذبح فيرشد إليه :

(أولا) قول إبراهيم لولده : « إنى أرَى فى المنام ِ أنى أذبَحكَ فانظر ماذَا ترى ؟» لأن رؤيا الأنبياء حق من ناحية ، ولأن مفاوضة إبراهيم لولده فى هذا الأمر الجلل ، تدل على أن هذا أمر لا بد منه من ناحية أخرى ، وإلا لما فاوضه تلك المفاوضة الخطيرة المزعجة التى هى أول مراحل السعى إلى التنفيذ .

(ثانيا) أن إسماعيل أجاب أباه بإعلان خضوعِه وامتثاله لأمر ربه « قال : يٰأبت افعل ماتؤمر . ستجدُنى إن شاء اللهُ من الصابرين » .

(ثالثا) أن إبراهيم اتخذ سبيله إلى مباشرة الأسباب القريبة للذبح ، حيث أسلم ولده ، وأسلم إسماعيل نفسه « فلمّا أسلَما وتلَّه للجبين » .

(رابعا) أن الله ناداه بأنه قد صدّق الرؤيا ، أى فعل فعل من صدقها وحققها . ولو لم يكن هذا أمرا من الله واجب الطاعة ، ما مدحه الله على تصديقه لرؤياه ، وسعيه إلى تحقيق ما أمره مولاه !

(خامسا) أن الله فدى إبراهيم بذبح عظيم . فلو لم يكن ذبح إسماعيل مطلوبا ، لما كان ثمة داع يدعو إلى الفداء .

(سادسا) أن الله امتدح إبراهيم بأنه من المؤمنين ومن المحسنين المستحقين لإكرام الله إياه بالفرج بعد الشدة ، وقرر سبحانه أن هذا هو البلاء المبين ، وكافأه بأنه ترك عليه فى الآخرين « سلامٌ على إبراهيم » . وكل ذلك يدل على أن الله أمره فأطاع ، وابتلاه أشد الابتلاء فاستسلم وانصاع .

وأما أن الله نسخ هذا الأمر قبل تمكن إبراهيم من امتثاله ، فيرشد إليه محاولة إبراهيم للتنفيذ بالخطوات التى خطاها والمحاولات التى حاولها ، وهى مفاوضة ولده حتى يستوثق منه أو يتخذ إجراء آخر ، ثم استسلامهما بالفعل لحادث الذبح ؛ وصرعه فلذة كبده وقرة عينه على جبينه كيما يضع السكين ويذبحه كما أمره رب العالمين . ولكن جاء النداء بالفداء قبل التمكن

من الامتثال وتنفيذ الذبح . وبعيد كل البعد ، بل محال فى مجرى العادة، أن يكون إبراهيم قد وجد فرصة يتمكن فيها من الامتثال قبل ذلك ثم تركها ،حتى يقال: إن النسخ بالفداء حصل بعد التمكن من الذبح فثبت أن أمره بالذبح قد نسخ بالفداء قبل التمكن من الامتثال. ووقوع هذا دليل الجواز ، بل هو أول دليل على الجواز .

(الدليل الثانى) أنه جاء فى السنة المطهرة ، ما يفيد أن الله فرض ليلة المعراج على النبى ﷺ وعلى أمته خمسين صلاة ، ثم نسخ الله فى هذه الليلة نفسها خمسا وأربعين منها، بعد مراجعات تسع من النبى ﷺ بين موسى وربه . وواضح أن هذا النسخ فى تلك المرات التسع كان من قبل أن يتمكن النبى وأمته من الامتثال. وهذا الوقوع أول دليل على الجواز كما هو مقرر .

شبهات المنكرين ودفعها

للمنكرين شبهات كثيرة منها ما صاغوه فى صورة أدلة على إنكارهم،ومنها ما وجهوه إلى أدلة المثبتين السابقة فى صورة مناقشة لها وإبطال لدلالتها. وهاهى ذى نضعها بين يديك مشفوعة بما يدحضها .

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : لو نسخ الطلب قبل التمكن من امتثاله، لكن طلبا مجرداً من الفائدة، ومثل هذا يكون عبثا . والعبث على الله محال .

وندفع هذه الشبهة بأن الطلب فى هذه الصورة لم يتجرد من الفائدة كما يزعمون . بل إن من فوائده وحكمته ابتلاء الله لعباده :أيقبلون أم يرفضون، فإن قبلوه وأذعنوا له وآمنوا به ووطنوا أنفسهم على امتثاله فلهم أجر كبير ،وظهر فضلهم كما ظهر فضل إبراهيم فى ابتلائه بذبح ولده إسماعيل. مع أنه لم يتمكن من تنفيذ ما أمر به .ومن أبى من عباد الله مثل هذا الطلب بان ضلاله وخذلانه واستحق الحرمان والهوان ، عن عدل وإنصاف ، « وما ربكَ بظلامٍ للعبيدِ » .

الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : إن الفعل الذى ينسخ طلبه قبل التمكن من امتثاله . إما أن يكون مطلوبا وقت ورود النسخ أو لا فإن كان مطلوبا وقت ورود النسخ أدى ذلك إلى توارد النفى والإثبات على شىء واحد ، وهو محال وإن لم يكن الفعل مطلوبا وقت ورود النسخ فلا نسخ ، لأن النسخ لا بد لتحققه من حكم سابق يرد عليه ويرفعه . والفرض هنا أنه ورد والحكم مرتفع

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن الفعل لم يكن مطلوبا وقت ورود الناسخ . ولكن هذا لا ينفى حقيقة النسخ كما زعموا بل هو المحقق له ؛ لأن النسخ كالعلة فى ارتفاع الحكم والمعلول مقارن للعلة فى الزمن ، وإن تأخر عنها فى التعقل فالحكم إذن لابد أن يرتفع عند ورود الناسخ بسبب وروده ، وإلا لم يعقل النسخ .

(ثانيا) أن هذه الشبهة تجرى فى كل صورة من صور النسخ ، وحينئذ لامفر لهم من إحدى اثنتين : أن يمنعوا النسخ مطلقا ، مع أنهم لا يقولون به ، أو يكونوا فى شبهتهم هذه مبطلين .

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : إذا قال الشارع : « صوموا غدا » لزم أن يكون صوم الغد حسنا وفيه مصلحة ، فإذا نهى عنه قبل مجىء الغد لزم أن يكون قبيحا فيه مفسدة واجتماع الحسن والقبح فى شىء واحد فى آن واحد محال .

وندفع هذه الشبهة : (أولا) بأنها قامت على أساس باطل ، هو قاعدة الحسن والقبح العقليين . وتقرير بطلان هذه القاعدة معروف عند الأشاعرة من أهل السنة .

(ثانيا) أن نهى الشارع عن الشىء المطلوب قبل التمكن من أدائه ، يتبين منه أن ذلك الشىء قبيح عقلا متى نهى الله عنه . أما طلبه قبل ذلك فلا يدل على حسنه هو ، إنما يدل على حسن ما اتصل به مما استلزمه ذلك الطلب ، وهو إيمان العباد به ، واطمئنان

نفوسهم إليه وعزمهم على تنفيذه . وفى ذلك ما فيه من ترويضهم على الطاعة ، وتعويدهم الامتثال ، وإثابتهم على حسن نياتهم وكأن المأمور به فى هذه الصورة هو المقدمات التى تسبق الفعل لا نفس الفعل ؛ بدليل نسخ الفعل قبل التمكن من امتثاله ، لكنهم أمروا بالفعل نفسه ، لأن عزمهم عليه والإتيان بمقدماته لا يتأتى إلا بالأمر على هذه الصورة فتأمل.

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن استدلالكم بقصة إبراهيم وولده الذبيح ، استدلال لا يسلم من جملة مؤاخذات .

(أولها) أن رؤيا إبراهيم ماهى إلا رؤيا رآها . فخيل إليه أنه مأمور بالذبح ، والحقيقة أنه لم يؤمر به .

والجواب أن رؤيا الأنبياء وحى حق ، لا باطل فيه ولا تخييل . والوحى يصحبه علم ضرورى فى الموحى إليه بأن ما أوحى إليه حق . والأنبياء لا يتمثل لهم الشيطان ، ولا سلطان له عليهم لا فى اليقظة ولا فى المنام .

ومن ذا الذى يهمل عقله ، ويسفه نفسه ، فيصدق أن شيخا كبيرا فى جلالة إبراهيم خليل الرحمن يتأثر بخيال فاسد ، ويصدر عن وهم كاذب ، فى أن يقدم على أكبر الكبائر وهو قتل ولده، وذبح وحيده وفلذة كبده، بعد أن بشره مولاه بأنه غلام حليم ،ورزقه إياه على شيخوخة وهرم، وحقق فيه ما بشره به فشب الوليد وترعرع ،حتى بلغ مع أبيه السعى فكان إبراهيم يراه وهو يسعى معه ، فيملأ عينه نورا ، وقلبه بهجة وحبورا .

(ثانيا) قالوا : إن إبراهيم على فرض كون رؤياه حقا ، لم يك مأمورا بذبح ولده، إنما كان مأمورا بالعزم على الذبح فحسب ، امتحانا له بالصبر على هذا العزم . ولا ريب أن إبراهيم بمحاولته التى حاولها وصورها القرآن ، قد عزم وأدى ما وجب عليه ،فلا نسخ

والجواب من وجهين : (أحدهما) أن الامتحان الذى ذكروه، لا يتحقق إلا بالعزم على ما أوجبه عليه لأن العزم على ما ليس بواجب لا يجب . وإذن فإبراهيم كان قد وجب عليه ذبح ولده ، حتى يكون عزمه على ذلك واجبا يتحقق به معنى الابتلاء والاختبار . (والآخر) أن المأمور به لو كان هو العزم دون الذبح، لما كان هناك معنى للفداء لأن إبراهيم قد فعل كل ما أمره به ربه ، لم يترك شيئا ولم يخفف الله عنه شيئا . على زعمهم .

(ثالثها) قالوا : إن الأمر فى الحقيقة كان بمقدمات الذبح من إضجاع إبراهيم لولده ، وصرعه إياه على جبينه ، وإمراره لسكينه ، وما أمر إبراهيم بالذبح .

والجواب أن إبراهيم قد جاء بهذه المقدمات ، فإذا كانت هى المأمور به دون الذبح فقد أدى إبراهيم كل ما عليه ، فأى معنى للفداء إذن ؟

(رابعها) قالوا : إن إبراهيم على فرض أنه كان مأمورا بالذبح نفسه ، قد بذل وسعه فى الامتثال والتنفيذ . ولكن الله تعالى قلب عنق الذبيح نحاسا أو حديدا حتى لا ينقطع . فسقط التكليف عن إبراهيم لهذا العذر المانع لا لوجود الناسخ .

والجواب من ثلاثة أوجه : (الأول) أن ما ذكروه من انقلاب عنقه حديدا أو نحاسا، خبر موضوع ورواية هازلة لا أصل لها . (الثانى) أن وجوب الذبح لو سقط لهذا العذر، لما كان هناك معنى للفداء . (الثالث) أنهم إذا جوزوا أن يأمرنا الله تعالى بالشىء ثم يحول بيننا وبينه بعذر من الأعذار ، فلا معنى لأن ينكروا أن يأمرنا الله بالشىء ثم يحول بيننا وبينه بالناسخ ، لأنه ليس بين الحيلولتين فارق مؤثر .

(خامسها) قالوا : إن إبراهيم قد أدى الواجب وذبح ولده فعلا ، ولكن الجرح قد اندمل ، وعنق الذبيح قد اتصل والتأم ، فلا نسخ .

والجواب (أولا) أن هذه الرواية موضوعة أيضا ، بل هى أدخل فى الكذب وأبعد عن ظاهر آيات القصة من الرواية السابقة . ولو حصل ذلك لحدثنا القرآن به ، لأنه ليس أقل شأنا من أمر الفداء ، أو لحدثنا الرسول ﷺ به على الأقل. ولو كان النقل متواترا؛ لأن مثله مما تتوافر الدواعى على نقله وتواتره .

(ثانيا) أن هذا الواجب إذا كان قد أدى على أتم وجوهه، وذبح إبراهيم ولده بالفعل، ولم يحدث مانع ولم يوجد ناسخ ، فأى معنى للفداء ؟

(سادسها) قالوا : لا نسلم أن وجوب الذبح قد سقط عن إبراهيم بورود الفداء، بل هو باق حتى يذبح الفداء، فلو قصر فى ذبحه لأثم إثم من كلف بذبح ولده ولم يذبحه ، ولو كان وجوب ذبح الولد مرتفعا بورود الفداء ماصح تسمية الفداء فداء ، كما لم يصح تسمية استقبال الكعبة بعد استقبال بيت المقدس فداء، وذلك لأن حقيقة الفداء لا بد فيها من أمرين يقوم أحدهما مقام الآخر فى تلقى المكروه . وعلى هذا لا نسخ .

والجواب ، أن هذا كلام أشبه باللغو ، فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا أن إبراهيم لو ذبح ولده بعد نزول الفداء كان آثما . فيكون ذبحه إياه وقتئذ حراما وقد كان قبل نزول الفدا واجبا . وينطبق عليه تمام الانطباق أنه رفع حكم شرعى بدليل شرعى . ولا معنى للنسخ إلا ذلك .

الشبهة الخامسة ودفعها :

يقولون : إن استدلالكم بنسخ فرضية الصلوات الخمسين فى ليلة المعراج، استدلال باطل، لأنه خبر غير ثابت . وجمهور المعتزلة ينكرون المعراج جملة . ومن أثبته منهم نفى خبر فرضية الصلوات الخمسين وماورد عليها من نسخ . وقال : إن ذلك من وضع القصاص. واستدل على أنها زيادة موضوعة بأنها تقتضى نسخ الحكم قبل التمكن من العلم به ، وهو ممنوع بالإجماع . ووجه هذا الاقتضاء أن فرض الخمسين صلاة لم يكن على النبى ﷺ خاصة، بل

كان عليه وعلى أمته معه . وقد نسخ قبل أن تعلم به الأمة . وعلى تسليم صحةهذه الزيادة لا نسلم أن ذلك كان فرضاعلى العزم والتعيين، بل فوض الله تعالى ذلك إلى اختيار الرسول ومشيئته . فإن اختار الخمسين فرضها ، وإن اختار الخمس فرض الخمس.

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن خبر المعراج ثابت من طرق صحيحة متعددة،لا من طريق واحد . وإنكار أهل الأهواء والبدع له ، لا يغض من قيمة ثبوته ، بل يغض من قيمتهم هم . قال عبد الظاهر البغدادى : وليس إنكار القدرية خبر المعراج إلا كإنكارهم خبر الرؤية والشفاعة وعذاب القبر والحوض والميزان . والخبر الصحيح لا يرد بطعن أهل الأهواء كما لم يرد خبر المسح على الخفين بطعن الروافض والخوارج فيه ، وكما لم يرد خبر الرجم بإنكار الخوارج له .

(ثانياً) أن هذه الزيادة ثابتة فى الصحيحين وغيرهما . وعلى فرض خلو بعض الروايات منها ، فإن ذلك لا يضيرها ، لأن زيادة الثقة مقبولة ، وهذه رواية ثقات عدول ضابطين بلغوا شأوا بعيداً من الثقة والعدالة والضبط ، حتى روى البخارى ومسلم عنهم فى صحيحيهما ، وحسبك برجال البخارى ومسلم فى الصحيحين .

(ثالثاً) أن قولهم : هذا نسخ للحكم قبل تمكن الأمة من العلم به ، لا يفيدهم شيئا، لأن الرسول ﷺ فرض الله عليه الخمسين صلاة فى كل يوم وليلة كما فرضها على أمته . وقد علم الرسول بذلك طبعا، ونسخ الله هذا الفرض بعد علم الرسول به وقبل تمكنه من امتثاله . وذلك كاف فى إثبات ما نحن بسبيله من نسخ الطلب قبل التمكن من الامتثال.

(رابعا) أن قولهم : إن فرض الخمسين لم يكن فرضا عزما، كلام فاسد لا برهان لهم به ، بل نفس الرواية ترد عليهم ، وتثبت أن الأمر لم يوكل إلى مشيئة الرسول ، إن اختار الخمسين فرضها الله خمسين ، وإن اختار الخمس فرضها الله خمسا كما يزعمون . ذلك أن الله قال له فى هذا المعرض: « فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة » وقبل الرسول

ذلك طائعا مختارا، وهبط على اسم الله، حتى إذا لقي موسى سأله موسى: مافعل ربك؟ قال: فرض عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة فقال له موسى : ارجع إلى ربك واسأله التخفيف، وذكر له أنه خبر بني إسرائيل من قبله فعجزوا وما زال به حتى رجع إلى مقام المناجاة، وسأل التخفيف من مولاه، فحط عنه خمسا، وعاد إلى موسى فراجعه، وما زال يرجع بين موسى وربه، وفي كل مرة يحط الله عنه خمسا، حتى لم يبق إلا خمس من الخمسين. وأشار عليه موسى أيضا أن يرجع ويسأل التخفيف، فاعتذر بأنه سأل حتى استحيي. فهل بعد ذلك كله يصح في الأذهان أن يقال أو أن يفهم أن فرض الخمسين لم يكن فرضا عزما، وأن الله فرض الأمر في اختيار الخمسين أو الخمس إلى مشيئة رسوله؟ « إن يقولون إلا كذبا ».

النسخ في دورانه بين الكتاب والسنة

النسخ في الشريعة الإسلامية قد يرد به القرآن وقد ترد به السنة. والمنسوخ كذلك قد يرد به القرآن وقد ترد به السنة. فالأقسام أربعة.

١ — نسخ القرآن بالقرآن

(القسم الأول) نسخ القرآن بالقرآن. وقد أجمع القائلون بالنسخ من المسلمين على جوازه ووقوعه. أما جوازه فلأن آيات القرآن متساوية في العلم بها وفي وجوب العمل بمقتضاها. وأما وقوعه فلما ذكرنا وماسنذكر من الآيات الناسخة والمنسوخة. وهذا القسم يتنوع إلى أنواع ثلاثة: نسخ التلاوة والحكم معا، ونسخ الحكم دون التلاوة، ونسخ التلاوة دون الحكم. وقد أشبعنا الكلام عليها فيما سبق.

نسخ القرآن بالسنة

(القسم الثانى) نسخ القرآن بالسنة . وقد اختلف العلماء فى هذا القسم بين مجوز ومانع . ثم اختلف المجوزون بين قائل بالوقوع وقائل بعدمه . وإذن يجرى البحث فى مقامين اثنين . مقام الجواز ومقام الوقوع . .

(ا) مقام الجواز :

القائلون بالجواز هم مالك وأصحاب أبى حنيفة وجمهور المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة . وحجتهم أن نسخ القرآن بالسنة ليس مستحيلا لذاته ولا لغيره . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن السنة وحى من الله كما أن القرآن كذلك ، لقوله تعالى « وما ينطقُ عن الهوى * إن هوَ إلا وحْىٌ يُوحَى » ولا فارق بينهما إلا أن ألفاظ القرآن من ترتيب الله وإنشائه ؛ وألفاظ السنة من ترتيب الرسول وإنشائه ، والقرآن له خصائصه وللسنة خصائصها . وهذه الفوارق لا أثر لها فيما نحن بسبيله ، مادام أن الله هو الذى ينسخ وحيه بوحيه . وحيث لا أثر لها ، فنسخ أحد هذين الوحيين بالآخر ، لا مانع يمنعه عقلا كما أنه لا مانع يمنعه شرعا أيضا ، فتعين جوازه عقلا وشرعا .

هذه حجة المجيزين . أما المانعون ـ وهم الشافعى وأحمد فى إحدى روايتين عنه وأكثر أهل الظاهر ـ فيستدلون على المنع بأدلة خمسة ، وها هى ذى مشفوعة بوجوه نقضها :

(دليلهم الأول) أن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ : « وأنزلنا إليكَ الذكر لتبينَ للناسِ ما نُزِّل إليهم » . وهذا يفيد أن وظيفة الرسول منحصرة فى بيان القرآن . والسنة إن نسخت القرآن لم تكن حينئذ بيانا له ، بل تكون رافعة إياه .

وننقض هذا الاستدلال (أولا) بأن الآية لا تدل على انحصار وظيفة السنة فى البيان ؛ لأنها خالية من جميع طرق الحصر . وكل ماتدل عليه الآية هو أن سنة الرسول مبينة للقرآن ، وذلك لا ينفى أن تكون ناسخة له . ونظير هذه الآية قوله سبحانه « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، فإنه يفيد أنه ﷺ نذير للعالمين . ولا تنفى عنه أنه بشير أيضا للعالمين .

(ثانيا) أن وظيفة السنة لو انحصرت فى بيان القرآن، ما صح أن تستقل بالتشريع من نحو إيجاب وتحريم ؛ مع أن إجماع الأمة قائم على أنها قد تستقل بذلك كتحريمه ﷺ كل ذى مخلب من الطيور وكل ذى ناب من السباع ، وكحظره أن يورث بقوله « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

(ثالثها) أن السنة نفسها نصت على أنها قد تستقل بالتشريع وإفادة الأحكام ، يحدثنا العرباض بن سارية رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فقال : « أيحسب أحدكم متكئا على أريكة يظن أن الله لم يحرم شيئا إلا مافى هذا القرآن. ألا إنى قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر . وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إلا إذا أعطوكم الذى فرض عليهم » .

(رابعا) أنه على فرض دلالة الآية على الحصر، فالمراد بالبيان فيها التبليغ لا الشرح. ولقد بلغ الرسول كل ما أنزله الله إلى الناس ، وهذا لا ينافى أنه نسخ ما شاء الله نسخه بالسنة .

(خامساً) أنه على فرض دلالة الآية على الحصر ، ودلالة البيان على خصوص الشرح ، فإن المراد بما أنزل إلى الناس ، هو جنسه الصادق ببعضه ، وهذا لا ينافى

أن تكون السنة ناسخة لبعض آخر ، فيكون الرسول مبينا لما ثبت من الأحكام وناسخا لما ارتفع منها.

(دليلهم الثانى) أن القرآن نفسه هو الذى أثبت أن السنة النبوية حجة ، فلو نسخته السنة لعادت على نفسها بالإبطال ؛ لأن النسخ رفع ، وإذا ارتفع الأصل ارتفع الفرع . والدليل على أن القرآن هو الذى أثبت حجية السنة مانقرؤه فيه من مثل قوله سبحانه : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » « وما آتاكم الرسولُ فخذوهُ وما نهاكم عنه فانتهوا » « قُلْ إن كنتم تحبُّون الله فاتبعونِي يُحبِبكم اللهُ ويغفرْ لكم ذنوبَكم » .

وننقض هذا الاستدلال (أولا) بأن كلامنا ليس فى جواز نسخ السنة لنصوص القرآن الدالة على حجيتها حتى ترجع على نفسها بالإبطال ، بل هو فى جواز نسخ ماعدا ذلك مما يصح أن يتعلق به النسخ .

(ثانيا) أن ما استدلوا به حجة عليهم لأن وجوب طاعة الرسول واتباعه ، يقضى بوجوب قبول ما جاء به على أنه ناسخ .

(دليلهم الثالث) أن قوله تعالى : « قل نزله روحُ القدسِ من ربكَ بالحقِّ » قد جاء ردا على من أنكروا النسخ وعابوا به الإسلام ونبى الإسلام بدليل قوله سبحانه قبل هذه الآية : « وإذا بدَّلنا آيةً مكانَ آيةٍ والله أعلمُ بما ينزل قالوا إنما أنتَ مُفْتَرٍ بل أكثرهم لا يعلمونَ » . ومعلوم أن روح القدس إنما ينزل بالقرآن. وإذن فلا ينسخ القرآن إلا بقرآن .

وننقض هذا الاستدلال بأن الكتاب والسنةَ كلاهما وحى من الله ، وكلاهما نزل به روح القدس ، بدليل قوله سبحانه « وماينطقُ عن الهوى * إن هو إلا وحْىٌ يُوحَى» فالذهاب إلى أن ماينزل به روح القدس ، هو خصوص القرآن ، باطل .

(دليلهم الرابع) أن الله تعالى يقول : « وإذا تُتلَى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين لا يَرجونَ لقاءنا : ائتِ بقرآنٍ غير هذا أو بَدِّلهُ . قل : ما يكون لى أن أُبدله من تلقاء نفسى » . وهذا يفيد أن السنة لا تنسخ القرآن ، لأنها نابعة من نفس الرسول ﷺ .

وندفع هذا الاستدلال بمثل ما دفعنا به سابقه ، وهو أن السنة ليست نابعة من نفس الرسول على أنها هوى منه وشهوة ؛ بل معانيها موحاة من الله تعالى إليه ، وكل ما استقل به الرسول أنه عبر عنها بألفاظ من عنده، فهى وحى يوحى وليست من تلقاء نفسه على هذا الاعتبار ، وإذن فليس نسخ القرآن بها تبديلا له من تلقاء نفسه ، إنما هو تبديل بوحى .

(دليلهم الخامس) أن آية : « ما ننسخْ من آيةٍ أو ننسها » تدل على امتناع نسخ القرآن بالسنة ، من وجوه ثلاثة:(أولها) أن الله تعالى قال:« نأتِ بخيرٍ منها أومثلها» والسنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله .

(ثانيها) أن قوله : « نأت » يفيد أن الآتى هو الله . والسنة لم يأت بها الله ، إنما الذى أتى بها رسوله .

(ثالثها) أن قوله : « ألم تعلم أنَّ اللهَ على كلِّ شىء قديرٌ * ألم تعلم أن الله لهُملكُ السمواتِ والأرضِ وما لكم من دونِ الله من ولىٍّ ولا نصيرٍ » يفيد أن النسخ لا يصدر إلا عمن له الاقتدار الشامل ، والملك الكاملِ ، والسلطان المطلق ، وهو الله وحده .

وندفع الوجه الأول من هذا الاستدلال بأن النسخ فى الآية الكريمة أعم من أن يكون فى الأحكام أو فى التلاوة، والخيرية والمثلية أعم من أن تكونا فى المصلحة أو فى الثواب ، وقد سبق بيان ذلك . وإذَن فقد تكون السنة الناسخة خيراً من القرآن المنسوخ من هذه الناحية ، وإن كان القرآن خيراً من السنة من ناحية امتيازه بخصائصه العليا دائما .

وندفع الوجه الثانى بأن السنة وحى من الله وما الرسول إلا مبلغ ومعبر عنها فقط. فالآتى بها على الحقيقة هو الله وحده .

وندفع الوجه الثالث بأنا نقول بموجبه وهو أن الناسخ فى الحقيقة هو الله وحده ، والسنة إذا نسخته فإنما تنسخه من حيث إنها وحى صادر منه سبحانه .

شبهتان ودفعهما

(١) لقائل أن يقول : إن من السنة ما يكون ثمرة لاجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس وحياً أوحى إليه بـــه ، بدليل العتاب الذى وجهه القرآن إلى الرسول فى لطف تارة وفى عنف أخـــرى . فكيف يستقيم بعد هذا أن نقول : إن السنة وحى من الله ؟ .

والجواب أن مرادنا هنا بالسنة، ما كانت عن وحى جلى أو خفى، أما السنة الاجتهادية، فليست مرادة هنا ألبتة ، لأن الاجتهاد لا يكون إلا عند عدم النص ، فكيف يعارضه ويرفعه ؟ وقد شرحنا أنواع السنة فى كتابنا (المنهل الحديث فى علوم الحديث) فارجع إليه إن شئت .

(٢) ولقائل أن يقول : إن من السنة ما كان آحاديا . وخبر الواحد مهما صح فإنه لا يفيد القطع ، والقرآن قطعى المـــتن ، فكيف ينسخ بالسنة التى لا تفيد القطع ؟ ومتى استطاع الظن أن يرفع اليقين ؟ .

والجواب أن المراد بالسنة هنا السنة المتواترة دون الآحادية. والسنة المتواترة قطعية الثبوت أيضا كالقرآن. فهما متكافئتان من هذه الناحية ، فلا مانع أن ينسخ أحدهما الآخر. أما خبر الواحد فالحق عدم جواز نسخ القرآن به، للمعنى المذكور، وهو أنه ظنى والقرآن قطعى ، والظنى أضعف من القطعى فلا يقوى على رفعه .

والقائلون بجـــواز نسخ القرآن بالسنة الآحادية ، اعتمادا على أن القرآن ظنى الدلالة ، حجتهم داحضة ، لأن القرآن إن لم يكن قطعى الدلالة فهـــو قطعى

الثبوت ، والسنة الآحاديـــة ظنية الدلالة والثبوت معا فهى أضعف منه فكيف ترفعه ؟ .

(ب) مقام الوقوع :

ماأسلفناه بين يديك كان فى الجواز. أما الوقوع فقد اختلف المجوزون فيه : منهم من أثبته ومنهم من نفاه « ولكل وجهة هو موليها » وهاك وجهة كل من الفريقين ، لتعرف أن الحق مع النافين .

استدل المثبتون على الوقوع بأدلة أربعة :

(الدليل الأول) أن آية الجلد وهى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائةَ جلدة » تشمل المحصنين وغيرهم من الزناة. ثم جاءت السنة فنسخت عمومها بالنسبة إلى المحصنين ، وحكمت بأن جزاءهم الرجم .

وقد ناقش النافون هـــذا الدليل بأمرين : (أحدهما) أن الذى ذكروه تخصيص لانسخ . (والآخر) أن آية « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة » هى المخرجة لصور التخصيص . وإن جاءت السنة موافقة لها . وقد سبق الكلام على آية « الشيخ والشيخة » فى عداد مانسخت تلاوته وبقى حكمه ، فلا تغفل .

(الدليل الثانى) أن قوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إن تركَ خيراً الوصيةُ للوالدينِ والأقربينَ بالمعروف حقاً على المتقين » . منسوخ بقوله ﷺ : « لا وصية لوارث » .

وقد ناقشه النافون بأمرين :

(أولهما) أن الحديث المذكورخبر آحاد، وقد تقرر أن الحق عدم جواز نسخ القرآن بخبر الآحاد .

(ثانيها) أن الحديث بتمامه يفيد أن الناسخ هو آيات المواريث ، لا هـذا الحديث . وإليك النص الكامل للحديث المذكور : « إن الله أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » .

ويؤيد ذلك ما أخرجه أبو داود فى صحيحه ، ونصه « عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « إن تَرَكَ خيراً الوصيةُ للوالدينِ والأقربينَ » وكانت الوصية كذلك حتى نسختها آية المواريث .

(الدليل الثالث) أن قوله سبحانه : «واللاتى يأتينَ الفاحشةمن نسائكم فاستشهدوا عليهنَّ أربعةً منكم . فإن شهدوا فأمسكوهنَّ فى البيوت حتى يتوفاهنَّ الموتُ أو يجعل اللهُ لهنَّ سبيلا » . منسوخ بقوله صلى الله عليه وسلم : « خذوا عنى خـذوا عنى . قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام . والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » .

وقد ناقشه النافون (أولا) بأن الناسخ هنا هو آية الجلد وآية الشيخ والشيخة ، وإن جاء الحديث موافقا لهما .

(ثانيا) بأن ذلك تخصيص لا نسخ، لأن الحكم الأول جعل الله له غاية هو الموت أو صدور تشريع جديد فى شأن الزانيات . وقد حققنا أن رفع الحكم ببلوغ غايته المضروبة فى دليله الأول ليس نسخا .

(الدليل الرابع) أن نهيه صلى الله عليه وسلم عن كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطيور ، ناسخ لقوله سبحانه : « قل لَا أجدُ فيما أوحىَ إلىَّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزيرٍ ، فإنه رجسٌ ، أو فسقاً أُهلَّ لغير اللهِ بهِ » .

وقد ناقشه النافون بأن الآية الكريمة لم تتعرض لإباحة ما عدا الذى ذكر فيها ،

إنما هو مباح بالبراءة الأصلية والحديث المذكور ما رفع إلا هـذه البراءة الأصلية ، ورفعها لا يسمى نسخا كما سلف بيانه .

من هذا العرض يخلص لنا أن نسخ القرآن بالسنة لا مانع يمنعه عقلا ولا شرعا . غاية الأمر أنه لم يقع لعدم سلامة أدلة الوقوع كما رأيت .

٣ ـ نسخ السنة بالقرآن

هذا هو القسم الثالث . وفيه خلاف العلماء أيضا بين تجويز ومنع على نمط ما مر فى القسم الثانى ، بيد أن صوت المانعين هنا خافت ، وحجتهم داحضة. أما المثبتون فيؤيدهم دليل الجواز كما يسعفهم برهان الوقوع . ولهذا نجد فى صف الإثبات جماهير الفقهاء والمتكلمين ، ولا نرى فى صف النفى سوى الشافعى فى أحد قوليه ومعه شرذمة من أصحابه ، ومع ذلك فنقل هذا عن الشافعى فيه شىء من الاضطراب أو إرادة خلاف الظاهر .

دليل الجواز :

استدل المثبتون على الجواز هنا ، بمثل ما استدلوا على القسم السالف ، فقالوا : إن نسخ السنة بالقرآن ليس مستحيلا لذاته ولا لغيره . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن السنة وحى كما أن القرآن وحى ولا مانع من نسخ وحى بوحى لمكان التكافؤ بينهما من هذه الناحية .

أدلة للوقوع والجواز :

واستدلوا على الوقوع بوقائع كثيرة ، كل واقعة منها دليل على الجواز كما هى دليل على الوقوع ، لما علمت من أن الوقوع يدل على الجواز وزيادة .

(من تلك الوقائع) أن استقبال بيت المقدس فى الصلاة لم يعرف إلا من السنة ، وقد نسخه قوله تعالى : « فول وجهكَ شطرَ المسجدِ الحرامِ . وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

(ومنها) أن الأكل والشرب والمباشرة كان محرما فى ليل رمضان على من صام ثم نسخ هذا التحريم بقوله تعالى : « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » .

(ومنها) أن النبى ﷺ أبرم مع أهل مكة عام الحديبية صلحا كان من شروطه أن من جاء منهم مسلماً رده عليهم . وقد وفى بعده فى أبى جندل وجماعة من المكيين جاءوا مسلمين . ثم جاءته امرأة فهم أن يردها فأنزل الله : « يأيها الذينَ آمنوا إذا جاءكم المؤمناتُ مهاجراتٍ فامتحنوهنّ اللهُ أعلمُ بإيمانهنّ . فإن علمتموهن مؤمناتٍ فلا ترجعوهنّ إلى الكفارِ لاهنّ حلّ لهم ولا هم يحلُّونَ لهنّ » الآية .

شبهة للمانعين ودفعها :

أورد المانعون على هذا الاستدلال المعتمد على تلك الوقائع شبهة قالوا فى تصويرها : يجوز أن يكون النسخ فيما ذكرتم ثابتا بالسنة ثم جاء القرآن موافقا لها ، وبهذا يؤول الأمر إلى نسخ السنة بالسنة . ويجوز أن الحكم المنسوخ كان ثابتا أولا بقرآن نسخت تلاوته ثم جاءت السنة موافقة له ؛ وبهذا يؤول الأمر إلى نسخ قرآن بقرآن .

وندفع هذه الشبهة بأنها قائمة على مجرد احتمالات واهية لا يؤيدها دليل ، ولو فتحنا بابها وجعلنا لها اعتبارا ، لما جاز لفقيه أن يحكم على نص بأنه ناسخ لآخر إلا إذا ثبت ذلك صريحا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن ذلك باطل بإجماع الأمة على خلافه ، واتفاقها على أن الحكم إنما يسند إلى دليله الذى لا يعرف سواه بعد الاستقراء الممكن .

أدلة المانعين ونقضها :

١ ـ قالوا : إن قوله سبحانه وتعالى : « وأنزلنا إليك الذكرَ لتبينَ للناس مانُزل إليهم » يفيد أن السنة ليست إلا بيانا للقرآن ، فإذا نسخها القرآن خرجت عن كونها بيانا له .

وننقض هذا بأن الآية ليس فيها طريق من طرق الحصر. وعلى فرض وجود الحصر فالمراد بالبيان فى الآية التبليغ لا الشرح ، ولا ريب أن التبليغ إظهار. وعلى فرض أن الآية حاصرة للسنة فى البيان بمعنى الشرح لا التبليغ ، فبيانها بعد النسخ باق فى الجملة ، وذلك بالنسبة لما لم ينسخ منها، وأنت تعلم أن بقاء الحكم الشرعى مشروط بعدم ورود ناسخ . فتدبر ولاحظ التفصيل الذى ذكرناه هناك فى نقض الدليل لمانعى نسخ القرآن بالسنة ، فإنه يفيدك هنا .

٢ ـ قال المانعون أيضا : إن نسخ السنة بالقرآن يلبس على الناس دينهم ويزعزع ثقتهم بالسنة ، ويوقع فى روعهم أنها غير مرضية لله ، وذلك يفوت مقصود الشارع من وجوب اتباع الرسول وطاعته واقتداء الخلق به فى أقواله وأفعاله . ولا ريب أن هذا باطل ، فما استلزمه وهو نسخ السنة بالقرآن باطل .

وننقض هذا الاستدلال (أولا) بأن مثله يمكن أن يقال فى أى نوع آخر من أنواع النسخ التى تقولون بها . فما يكون جوابا لكم يكون مثله جوابا لنا .

(ثانيا) أن ما ذكروه من استلزام نسخ السنة بالقرآن لهذه الأمور الباطلة ، غير صحيح ، لأن أدلة القرآن متوافرة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . وذلك يمنع لزوم هذه المحاولات الفاسدة ، ويجعل نسخ السنة بالقرآن كنسخ السنة بالسنة والقرآن بالقرآن ، فى نظر أى منصف كان .

٤ ـ نسخ السنة بالسنة

نسخ السنة بالسنة يتنوع إلى أنواع أربعة ، نسخ سنة متواترة بمتواترة ، ونسخ سنة آحادية بآحادية ، ونسخ سنة آحادية بسنة متواتراة ، ونسخ سنة متواترة بسنة آحادية. أما الثلاثة الأول فجائزة عقلا وشرعا . وأما الرابع وهو نسخ سنة متواترة بآحادية ، فاتفق علماؤنا على جوازه عقلا ، ثم اختلفوا فى جوازه شرعا ، فنفاه الجمهور وأثبته أهل الظاهر .

أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على مذهبهم بدليلين :

(أولهما) أن المتواتر قطعى الثبوت وخبر الواحد ظنى : والقطعى لا يرتفع بالظنى ، لأنه أقوى منه ، والأقوى لا يرتفع بالأضعف .

(ثانيهما) أن عمر رضى الله عنه رد خبر فاطمة بنت قيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعل لها سكنى ، مع أن زوجها طلقها وبت طلاقها وقد أقر الصحابة عمر على رده هذا ، فكان إجماعا . وما ذاك إلا لأنه خبر آحادى لا يفيد إلا الظن ، فلا يقوى على معارضة ماهو أقوى منه ، وهو كتاب الله إذا يقول : « أسكنوهُنَّ من حيثُ سكنتم من وُجْدِكم » وسنة رسوله المتواترة فى جعل السكن حقا من حقوق المبتوتة .

ملاحظة :

روت كتب الأصول فى هذا الموضع خبر فاطمة بنت قيس بصيغة مدخولة ، فيها أن عمر قال حين بلغه الخبر : « لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أصدقت أم كذبت ، حفظت أم نسيت » وعزا بعضهم هذه الرواية المدخولة إلى الإمام مسلم فى صحيحه . والحقيقة أن الرواية بهذا الصورة غير صحيحه ، كما أن عزوها إلى مسلم غير صحيح .

والرواية الصحيحة فى مسلم وغيره ليس فيها كلمة «أصدقت أم كذبت». بل اقتصرت على كلمة «أحفظت أم نسيت». ومثلك ـ حماك الله ـ يعلم أن الشك فى حفظ فاطمة ونسيانها، لا يقدح فى عدالتها وصدقها، فإياك أن تخوض مع الخائضين من المستشرقين وأذنابهم فتطعن فى الصحابة وتجرحهم فى تثبتهم لمثل هذا الخبر المردود.

وإن شئت المزيد من التعليق على هذا الخبر وماشابهه، فاقرأ ما كتبناه تحت عنوان: (دفع شبهات فى هذا المقام) من كتابنا (المنهل الحديث فى علوم الحديث).

أدلة الظاهر

اعتمد أهل الظاهر فى جواز نسخ المتواتر بالآحاد شرعا على شبهات ظنوها أدلة، وما هى بأدلة.

(منها) أن النسخ تخصيص لعموم الأزمان، فيجوز بخبر الواحد وإن كان المنسوخ متواترا، كما أن تخصيص عموم الأشخاص يجوز بخبر الواحد وإن كان العام المخصوص متواترا.

وندفع هذا (أولا) بأن المقصود من النص المنسوخ جميع الأزمان، وليس المقصود منه استمرار الحكم إلى وقت النسخ فقط. وإذن فالنسخ رفع لمقتضى العموم لا تخصيص للعموم. فكيف يقاس النسخ على التخصيص الذى هو بيان محض للمقصود من اللفظ.

(ثانيا) أننا نمنع جواز تخصيص المتواتر بخبر الواحد كما هو رأى الحنفية.

(ومنها) أن أهل قباء كانوا يصلون متجهين إلى بيت المقدس فأتاهم آت يخبرهم بتحويل القبلة إلى الكعبة، فاستجابوا له، وقبلوا خبره، واستداروا وهم فى صلاتهم، وبلغ ذلك رسول الله فأقرهم. وهذا دليل على أن خبر الواحد ينسخ المتواتر.

وندفع هذا بأن خبر الواحد فى هذه الحادثة احتفت به قرائن جعلته يفيد القطع، وكلامنا

فى خبر الواحد الذى لا يفيد القطع؛ وهذه القرائن التى تفيد القطع هنا، نعلمها من أن الحادثة المروية حادثة جزئية حسية ، لا تحتمل الخطأ ولا النسيان، وأنها تتصل بأمر عظيم هو صلاة جمع من المسلمين، وأن الراوى لها صحابى جليل، وأنه لا واسطة بينه وبين الرسول، وأنه واثق من أنه إن كذب فسيفتضح أمره لا محالة ، وسيلاقى من العنت والعقاب ما يحيل العقل عادة معه تسبب هذا الراوى العظيم له. يضاف إلى هذا أن التوجه إلى بيت المقدس كان متوقع الانتساخ ، لما هو معروف من حب العرب وحب الرسول معهم لاستقبال الكعبة التى هى مفخرتهم ومفخرة آبائهم وأجدادهم. فكان عليه الصلاة والسلام يرفع وجهه إلى السماء انتظارا لنزول الوحى بذلك. «قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها . فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

نسخ القياس والنسخ به

ينطوى تحت نسخ القياس والنسخ به صور ثلاث: (أولاها) أن ينسخ القياس حكما دل عليه قياس . ومثلوا لذلك بأن يوجب الشارع إكرام زيد لسخائه ، فنقيس عليه عمراً لوجود علة السخاء فيه. ثم بعد ذلك يوجب الشارع إهانة بكر لكونه سكيرا، فنقيس عليه عمرا المذكور لوجود علة السكر فيه وبذلك ينتسخ وجوب إكرام عمرو بوجوب إهانته، عند ترجيح هذا القياس الثانى على الأول .

(ثانيتها) أن ينسخ القياس حكما دل عليه نص، كأن ينص الشارع على إباحة النبيذ، ثم بعد ذلك يحرم الخمر لإسكاره ، فنقيس النبيذ عليه لوجود علة الإسكار فيه . وبذلك ينتسخ حكم الإباحة الثابت نصا ، بحكم التحريم الثابت قياسا .

(ثالثتها) أن ينسخ النص قياسا ، كأن يحرم الشارع الخمر لكونه مسكرا ، فنحمل عليه النبيذ لإسكاره ، ثم بعد ذلك ينص الشارع على إباحة النبيذ ، فتنسخ حرمة النبيذ الثابتة قياسا ، بإباحته الثابتة نصا .

وقد اختلف علماؤنا. فمنهم من منع نسخ القياس والنسخ به مطلقا. ومنهم من جوزه مطلقا. ومنهم من فصل. والجمهور على جواز نسخه والنسخ به إن كان قطعيا، وعلى منعه إن كان ظنيا. والقطعى ماقطع فيه بنفى الفارق، كقياس صب البول فى الماء الراكد على البول فيه، فيأخذ حكمه وهو الكراهة.

أدلة المانعين مطلقا:

وقد استدل القائلون بمنع نسخ القياس مطلقا؛ بأن نسخه يقتضى ارتفاع حكم الفرع مع بقاء حكم الأصل. وهذا لا يقبله العقل؛ لأن العلة التى رتب عليها الشارع حكم الأصل موجودة فى الفرع، وهى قاضية ببقاء الحكم فى الفرع مادام باقيا فى الأصل.

ونوقش هذا الاستدلال بأمرين: (أحدهما) أن نسخ القياس لا يقتضى ما ذكروه، بل يقتضى ارتفاع حكم الأصل تبعا لارتفاع حكم الفرع على معنى أن نسخ حكم الفرع يدل على أن الشارع قد ألغى العلة التى رتب عليها حكم الأصل وإلغاؤها يقتضى ارتفاع حكمه.

(والآخر) أنه لا مانع عقلا من أن ينسخ الشارع الفرع بناء على أنه اعتبر قيدا فى العلة لم يكن معتبرا من قبل. وهذا القيد موجود فى الأصل وليس موجودا فى الفرع.

هذا دليل المانعين لجواز نسخ القياس مطلقا مع مناقشته. أما الدليل على منعهم جواز النسخ به مطلقا، فيتلخص فى أن المنسوخ به إما أن يكون نصا أو إجماعا أو قياسا. لا جائز أن يكون نصا، لأن دلالته أقوى من دلالة القياس. والضعيف لا يرفع ماهو أقوى منه. ولا جائز أن يكون المنسوخ به إجماعا، لأن الإجماع لا يصلح أن يكون ناسخا ولا منسوخا، كما سيأتى تحقيقه. ولا جائز أن يكون قياسا، لأنه يشترط لصحة القياس أن يسلم من المعارض المساوى له والأرجح منه؛ وهذا القياس المتأخر مفروض أنه أرجح من الأول، وإذن يتبين بظهوره بطلان القياس الأول. وإذا تبين بطلانه بطل القول بنسخه، لأن النسخ رفع

لحكم ثابت من قبل . وهذا قد تبين خطؤه وعدم ثبوته .

ونوقش هذا الاستدلال بأن إطلاق القول بأن النص أقوى دلالة من القياس غير مسلم ، فإن هناك من النصوص ما تخفى دلالته حتى لا يفقهها إلا الخواص على حين أن هناك من الأقيسة ما تظهر دلالته لكل باحث منصف .

دليل المجوزين مطلقا :

واستند المجوزون لنسخ القياس والنسخ به مطلقا ، إلى أن القياس دليل شرعى لم يقم دليل عقلى ولا نقلى على امتناع نسخه أو النسخ به .

ونوقش هذا الاستدلال، بأن إطلاقهم هذا يستلزم التسوية بين ظنى القياس وقطعيه، ويستلزم جواز ارتفاع القطعى منه بالظنى ، وكلاهما غير مقبول عقلا ولا نقلا .

دليل الجمهور :

واستدل الجمهور على جواز نسخه والنسخ به إن كان قطعيا ، بأن القياس القطعى لا يستلزم نسخه ولا النسخ به محالا عقليا ولا شرعيا . واستدلوا على عدم جواز نسخه والنسخ به إن كان ظنيا ، بأن جواز ذلك يستلزم المحال . أما بيانه بالنسبة لعدم جواز نسخه ، فهو أن الناسخ له إما أن يكون قطعيا أو ظنيا ، وكلا هذين مبطل للقياس الأول ، والباطل لا ثبوت له حتى ينتسخ . ويستدلون على أن كلا هذين مبطل للقياس الأول بأن اقتضاء القياس للحكم مشروط بألا يظهر له معارض مساو له أو أرجح منه . ولا ريب أن القياس القطعى المتأخر أقوى من الأول ، وأن الظنى أرجح منه حتى يعقل نسخه له ، فبظهور أحدهما يتبين بطلان ذلك القياس الأول وإذن فلا نسخ ودليلهم على عدم جواز النسخ به ، هو أن المنسوخ بالقياس الظنى إما أن يكون قطعيا أو ظنيا . لا جائز أن يكون قطعيا، لأن الظن لا يقوى على رفع اليقين . ولا جائز أن يكون ظنيا، لأن اقتضاء القياس الظنى للحكم، مشروط بألا يظهر له معارض مساو له أو أرجح منه. وفى هذه الصورة قد ظهر له معارض وهو القياس المتأخر عنه الذى لا بد أن يكون

أرجح منه، حتى يعقل نسخه له. وعلى هذا يكون القياس المتأخر مبينا بطلان اقتضاء القياس المتقدم للحكم، لا ناسخا له.

نسخ الإجماع والنسخ به

جمهور الأصوليين على أن الإجماع لا يجوز أن يكون ناسخا ولا منسوخا. واستدلوا على أنه لا يجوز أن يكون ناسخا؛ بأن المنسوخ به إما أن يكون نصا أو إجماعا أو قياسا. لا جائز أن يكون نصا، لأن الإجماع لابد أن يكون له نص يستند إليه؛ خصوصا إذا انعقد على خلاف النص. وإذن يكون الناسخ هو ذلك النص الذى استند إليه الإجماع لا نفس الإجماع، ولا جائز أن يكون المنسوخ بالإجماع إجماعا؛ لأن الإجماع لا يكون إلا عن مستند يستند إليه من نص أو قياس، إذ الإجماع بدون مستند قول على الله بغير علم، والقول على الله بغير علم ضلالة، والأمة لا تجتمع على ضلالة. ومستند الإجماع الثانى لا بد أن يكون نصا حدث بعد الإجماع الأول، لأن ذلك النص لو تحقق قبل الإجماع الأول ما أمكن أن ينعقد الإجماع على خلافه. ولا ريب أن حدوث نص بعد رسول الله ﷺ محال، فما أدى إليه وهو نسخ الإجماع بالإجماع محال. ولا جائز أن يكون المنسوخ بالإجماع قياسا، لأن الإجماع على خلاف القياس يقتضى أحد أمرين: إما خطأ القياس، وإما انتساخه بمستند الإجماع، وعلى كلا التقديرين فلا يكون الإجماع ناسخا، واستدلوا على أنه لا يجوز أن يكون الإجماع منسوخا، بأن الإجماع لا يعتبر حجة إلا بعد رسول الله ﷺ. وإذن فالناسخ له إما أن يكون نصا أو قياسا أو إجماعا. لا جائز أن يكون نصا، لأن الناسخ متأخر عن المنسوخ أو لا يعقل أن يحدث نص بعد رسول الله ﷺ. ولا جائز أن يكون الناسخ للإجماع قياسا لأن نسخ الإجماع بالقياس يقتضى أن يكون الحكم الدال على الأصل حادثا بعد الرسول وهو باطل. ولا جائز أن يكون الناسخ للإجماع إجماعا، لما سبق.
وأما قولهم: هذا الحكم منسوخ إجماعا، فمعناه أن الإجماع انعقد على أنه نسخ بدليل من الكتاب أو السنة؛ لا أن الإجماع هو الذى نسخه.

المجوزون ومناقشتهم :

ما تقدم هو مذهب الجمهور : ولكن بعض المعتزلة وآخرون ، جوزوا أن يكون الإجماع ناسخاً لكل حكم صلح النص ناسخاً له. واستدلوا بأدلة : منها أن نصيب المؤلفة قلوبهم من الزكوات ثابت بصريح القرآن ، وقد نسخ بإجماع الصحابة فى زمن الصديق على إسقاطه .

ونوقش هذا بوجوه : « أولها » أن الإجماع المذكور لم يثبت ، بدليل اختلاف الأئمة المجتهدين فى سقوط نصيب هؤلاء .

« ثانيها » أن العلة فى اعتبار المؤلفة قلوبهم من مصارف الزكاة ، هى إعزاز الإسلام بهم . وفى عهد أبى بكر اعتز الإسلام فعلا ، بكثرة أتباعه واتساع رقعته ، فأصبح غير محتاج إلى إعزاز ، وسقط نصيب هؤلاء المؤلفة لسقوط علته .

« ثالثها » أنه على فرض صحة هذا الإجماع ، فإن الإجماع لا بد له من مستند . وإذن فالناسخ هو هذا المستند ، لا الإجماع نفسه .

موقف العلماء من الناسخ والمنسوخ

العلماء فى موقفهم من الناسخ والمنسوخ يختلفون ، بين مقصر ومقتصد وغال فالمقصرون هم الذين حاولوا التخلص من النسخ إطلاقا سالكين به مسلك التأويل بالتخصيص ونحوه ، كأبى مسلم ومن وافقه . وقد بينا الرأى فى هؤلاء سابقا .

والمقتصدون هم الذين يقولون بالنسخ فى حدوده المعقولة ، فلم ينفوه إطلاقا . كم نفاه أبو مسلم وأضرابه ، ولم يتوسعوا فيه جزافا كالغالين ، بل يقفون به موقف الضرورة التى يقتضيها وجود التعارض الحقيقى بين الأدلة ، مع معرفة المتقدم منها والمتأخر .

والغالون هم الذين تزيدوا ، فأدخلوا فى النسخ ماليس منه ، بناء على شبه ساقطة . ومن هؤلاء أبو جعفر النحاس فى كتابه « الناسخ والمنسوخ » وهبة الله بن سلامة ،

وأبو عبد الله محمد بن حزم ، وغيرهم فإنهم ألفوا كتبا في النسخ أكثروا فيها من ذكر الناسخ والمنسوخ ، اشتباهاً منهم وغلطا . ومنشأ تزيدهم هذا أنهم انخدعوا بكل ما نقل عن السلف أنه منسوخ وفاتهم أن السلف لم يكونوا يقصدون بالنسخ هذا المعنى الاصطلاحى بل كانوا يقصدون به ما هو أعم منه ، مما يشمل بيان المجمل وتقييد المطلق ونحوها .

منشأ غلط المتزيدين تفصيلا

ونستطيع أن نرد أسباب هذا الغلط إلى أمور خمسة :

(أولها) ظنهم أن ما شرع لسبب ثم زال سببه ، من المنسوخ . وعلى هذا عدوا الآيات التى وردت فى الحث على الصبر وتحمل أذى الكفار أيام ضعف المسلمين وقلتهم ، منسوخة بآيات القتال ، مع أنها ليست منسوخة . بل هى من الآيات التى دارت أحكامها على أسباب ، فالله أمر المسلمين بالصبر وعدم القتال فى أيام ضعفهم وقلة عددهم ، لعلة الضعف والقلة ثم أمرهم بالجهاد فى أيام قوتهم وكثرتهم ، لعلة القوة والكثرة . وأنت خبير بأن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما وأن انتفاء الحكم لانتفاء علته لا يعد نسخا بدليل أن وجوب التحمل عند الضعف والقلة لا يزال قائما إلى اليوم ، وأن وجوب الجهاد والدفاع عند القوة والكثرة لا يزال قائما كذلك إلى اليوم .

(ثانيها) توهمهم أن إبطال الإسلام لما كان عليه أهل الجاهلية ، من قبيل ما نسخ الإسلام فيه حكما بحكم ، كإبطال نكاح نساء الآباء ، وكحصر عدد الطلاق فى ثلاث ، وعدد الزواج فى أربع ، بعد أن لم يكونا محصورين ، مع أن هذا ليس نسخا ، لأن النسخ رفع حكم شرعى ، وما ذكروه من هذه الأمثلة ونحوها رفع الإسلام فيه البراءة الأصلية وهى حكم عقلى لا شرعى .

(ثالثها) اشتباه التخصيص عليهم بالنسخ ، كالآيات التى خصصت باستثناء أو غاية مثل قوله سبحانه « والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم

يقولونَ مالاَ يفعلونَ * إلاَّ الذين آمنو وعملوا الصالحات وذكرا اللهَ كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا » ومثل قوله « واعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره » .

(رابعها) اشتباه البيان عليهم بالنسخ ، فى مثل قوله سبحانه : « ومن كان غنيًّا فليستَعْفِف. ومن كان فقيراً فليأكل بالمعرف » فإن منهم من توهم أنه ناسخ لقوله سبحانه « إن الذينَ يأكلونَ أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلونَ سعيرا ». مع أنه ليس ناسخا له ؛ وإنما هو بيان لما ليس بظلم ، وببيان ما ليس بظلم يعرف الظلم ، « وبضدها تتميز الأشياء » .

(خامسها) توهم وجود تعارض بين نصين ، على حين أنه لا تعارض فى الواقع . وذلك مثل قوله تعالى : (وأنفقوا ممارزقناكم) وقوله :(ومما رزقناهمُ ينفقون. فإن بعضهم توهم أن كلتا الآيتين منسوخة بآية الزكاة . لتوهمه أنها تعاض كلا منهما . على حين أنه لا تعارض ولا تنافى، لأنه يصح حمل الإنفاق فى كلتا الآيتين الأوليين على مايشمل الزكاة وصدقة التطوع ونفقه الأهل والأقارب ونحو ذلك وتكون آية الزكاة معهما من قبيل ذكر فرد من أفراد العام بحكم العام. ومثل هذا لا يقوى على تخصيص العام ، فضلا عن أن ينسخه؛ وذلك لعدم وجود تعارض حقيقى لا بالنسبة إلى كل أفراد العام حتى يكون ناسخا ولا بالنسبة إلى بعضها حتى يكون مخصصا .

الآيات التى اشتهرت بأنها منسوخة

قد عرفت أن المتزيدين أكثروا القول بالآيات المنسوخة غلطا منهم واشتباها . ونزيدك هنا أن بعض فطاحل العلماء تعقب هؤلاء المتزيدين بالنقد كالقاضى أبى بكر بن العربى وكجلال الدين السيوطى الذى حصر مايصلح لدعوى النسخ من آيات القرآن فى اثنتين وعشرين آية ، ثم ذكر أن الأصح فى آيتى الاستئذان والقسمة الإحكام لاالنسخ. وها هى ذى مشفوعة بالتعليق عليها ، مرتبة بترتيب المصحف الشريف :

الآية الأولى

« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله » قيل إنها منسوخة بقوله سبحانه: « فولِّ وجهكَ شطرَ المسجدِ الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » لأن الآية الأولى تفيد جواز استقبال غير المسجد الحرام فى الصلاة ، ما دامت الآفاق كلها لله ، وليست له جهة معينة . والثانية تفيد عدم جواز استقبال غيره فيها، مادامت تحتم استقبال المسجد الحرام فى أى مكان نكون فيه .

وقيل إن الآية المذكورة ليست منسوخة ، وإنما هى محكمة ، وهذا ما نرجحه ؛ لأنها نزلت ردا على قول اليهود حين حولت القبلة إلى الكعبة : « ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » إذن فهى متأخرة فى النزول عن آية التحويل كما قال ابن عباس . وليس بمعقول أن يكون الناسخ سابقا على المنسوخ . ثم إن معناها هكذا إن الآفاق كلها لله ، وليس سبحانه فى مكان خاص منها ، وليس له جهة معينة فيها . وإذن فله أن يأمر عباده باستقبال مايشاء من الجهات فى الصلاة ، وله أن يحولهم من جهة إلى جهة . وهذا المعنى — كما ترى — لايتعارض وأن يأمر الله عباده وجوبا باستقبال الكعبة دون غيرها، بعد أن أمرهم باستقبال بيت المقدس. وحيث لاتعارض فلا نسخ بل الآيتان محكمتان. ويؤيد إحكام هذه الآية أن جملة « ولله المشرق والمغرب » وردت بنصها فى سياق الآيات النازلة فى التحويل إلى الكعبة ؛ ردا على من طعنوا فيه . اقرأ — إن شئت — قوله سبحانه « سيقولُ السفهاء منَ الناسِ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها . قلْ للهِ المشرقُ والمغربُ » . . . وبعضهم يمنع التعارض ويدفع النسخ ، بأن آية « ولله المشرق والمغرب » تفيد جواز التوجه إلى غير الكعبة في خصوص صلاة النافلة سفرا على الدابة ، ويقول: إن هذا الحكم باق لم ينسخ . أما الآية الثانية فتفيد وجوب استقبال الكعبة فى الفرائض. وبعضهم يحمل الآية الأولى على التوجه فى الدعاء ، والثانية على التوجه فى الصلاة، وإذن

لاتعارض على هذين الاحتمالين وحيث لاتعارض فلا نسخ ، ولكن هذين الرأيين وإن وافقا الرأى السابق فى إحكام الآية فهما مبنيان على تأويل فى معنى الآية يخالف الظاهر كما هو ظاهر . نعم إن آية (فولِّ وجهكَ شطرَ المسجدِ الحرمِ) ناسخة لما كان واجبا بالسنة من وجوب استقبال بيت المقدس ، على رأى من لا يمنع نسخ السنة بالقرآن .

الآية الثانية

(كُتب عليكمُ إذا حضر أحدَكم الموتُ إن تركَ خيراً الوصيةُ للوالدينِ والأقربينَ بالمعروفِ ، حقا على المتقينَ). فإنها تفيد أن الوصية للوالدين والأقربين فرض مكتوب، وحق واجب ، على من حضرهم الموت من المسلمين . وقد اختلف فى نسخ هذه الآية وفى ناسخها. فالجمهور على أنها منسوخة وأن ناسخها آيات المواريث. وقيل إنها منسوخة بالسنة، وهى قوله ﷺ: « لا وصية لوارث ». وقيل منسوخة بإجماع الأمة على عدم وجوب الوصية للوالدين والأقربين . . وقيل إنها محكمة لم تنسخ . ثم اختلف هؤلاء القائلون بالإحكام ، فبعضهم يحملها على من حرم الإرث من الأقربين ، وبعضهم يحملها على من له ظروف تقضى بزيادة العطف عليه ، كالعجزة وكثيرى العيال من الورثة .

ورأيى أن الحق مع الجمهور فى أن الآية منسوخة وأن ناسخها آيات المواريث. أما القول بإحكامها فتكلف ومشى فى غير سبيل، لأن الوالدين ـ وقد جاء ذكرهما فى الآية ـ لا يحرمان من الميراث بحال ، ثم إن أدلة السنة متوافرة على عدم جواز الوصية لوارث ، محافظة على كتلة الوارثين أن تتفتت ، وحماية الرحم من القطيعة التى نرى آثارها السيئة بين من زين الشيطان لمورثهم أن يزرع لهم شجرة الضغينة قبل موته ، بمفاضلته بينهم فى الميراث عن طريق الوصية .

وأما القول بأن الناسخ السنة، فيدفعه أن هذا الحديث آحادى والآحادى ظنى والظنى لا يقوى على نسخ القطعى وهو الآية. وأما القول بأن الناسخ هو الإجماع فيدفعه ما بيناه من عدم جواز نسخ الإجماع والنسخ به، نعم إن نسخ آية الوصية بآيات المواريث فيه شىء من الخفاء والاحتمال، ولكن السنة النبوية أزالت الخفاء ورفعت الاحتمال، حين أفادت أنها ناسخة، إذ قال ﷺ بعد نزول آية المواريث « إن الله أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث ». . وفى هذا المعنى ينقل عن الشافعى ما خلاصته . . « إن الله تعالى أنزل آية الوصية وأنزل آية المواريث، فاحتمل أن تكون الوصية باقية مع المواريث واحتمل أن تكون المواريث ناسخة للوصية. وقد طلب العلماء ما يرجح أحد الاحتمالين، فوجدوه فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لا وصية لوارث » : وهذا الخبر وإن كان آحاديا لا يقوى على نسخ الآية فإنه لا يضعف عن بيانها وترجيح احتمال النسخ على احتمال عدمه فيها .

هذا ـ ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الشعبى والنخعى ذهبا إلى عدم نسخ آية الوصية (مستندين إلى أن حكمها هو الندب لا الوجوب فلا تعارض بينها وبين آية المواريث، كما لا تعارض بينها وبين حديث : لا وصية لوارث) لأن معناه، لا وصية واجبة وهو لا ينافى ندب الوصية؛ وحيث لا تعارض فلا نسخ : ولكن هذا الرأى سقيم فيما نفهم، لأنه خلاف الظاهر المتبادر من لفظ (كتب) المعروف فى معنى، الفرضية، ومن لفظ (حقا على المتقين) المعروف فى معنى الإلزام . ومن شواهد السنة الناهية عن الوصية لوارث .

الآية الثالثة

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين، فمن تطوع خيراً فهو خيرٌ له، وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمونَ » فإنها تفيد تخيير من يطيق الصوم بين الصوم

والإفطار مع الفدية : وقد نسخ ذلك بقوله سبحانه : « فمن شهدَ منكم الشهر فليصمه » المفيد لوجوب الصوم دون تخيير على كل صحيح مقيم من المسلمين .

وقيل إن الآية محكمة لم تنسخ ، لأنها على حذف حرف النفى والتقدير « وعلى الذين لا يطيقونه فدية طعام مسكين » . ويدل على هذا الحذف قراءة « يطوقونه » بتشديد الواو وفتحها ،والمعنى يطيقونه بجهد ومشقة. وإذَن لا تعارض ولا نسخ ، ويرد هذا الرأى (أولا) بأنه مبنى على أن فى الآية حذفا ، ولا ريب أن الحذف خلاف الأصل . أما قراءة « يطوقونه » بالتشديد ، فلا تدل على مشقة تصل بصاحبها إلى جواز الفطر بعد إيجاب الصوم من غير تخيير ، بل تدل على مشقة ما ، ولا شك أن كل صوم فيه مشقة ما خصوصا أول مشروعيته (ثانيا) أن أباجعفر النحاس روى فى كتابه الناسخ والمنسوخ عن أبى سلمة بن الأكوع أنه قال : لما نزلت هذه الآية : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » كان من شاء منا صام ومن شاء أن يفتدى فعل ، حتى نسختها الآية بعدها .

الآية الرابعة

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيامُ كما كتبَ على الذينَ من قبلكم » فإن هذا التشبيه يقتضى موافقة من قبلنا فيما كانوا عليه من تحريم الوطء والأكل بعد النوم ليلة الصوم . وقد نسخ ذلك بقوله سبحانه : « أحلَّ لكم ليلةَ الصيام الرفثُ إلى نسائكم » . كذلك قالوا ، ولكنك تعلم أن التشبيه لا يجب أن يكون من كل وجه ، وإذن فالتشبيه فى الآية الأولى لا يقضى بما ذكروه من وجوب موافقة أهل الكتاب فيما كانوا عليه فى صومهم ،استدلالا بالتشبيه فى قوله « كما كتبَ على الذينَ من قبلكم » وعلى هذا فلا تعارض بين الآيتين ، وحيث انتفى التعارض انتفى النسخ .

الآية الخامسة

« يسألونك عنِ الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيهِ . قل: قتالٌ فيهِ كبيرٌ » فإنها تفيد حرمة القتال في الشهر الحرام . وقد روى ابن جرير عن عطاء بن ميسرة أنها منسوخة بقوله تعالى : « وقاتلوا المشركينَ كافةً كما يقاتلونكم كافةً » . ونقل أبو جعفر النحاس إجماع العلماء ما عدا عطاء على القول بهذا النسخ . ووجه ذلك أن آية « وقاتلوا المشركينَ كافةً » أفادت الإذن بقتال المشركين عموماً . والعموم في الأشخاص يستلزم العموم في الأزمان . وأيدوا ذلك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل هوازن بحنين وثقيفا بالطائف في شوال وذى القعدة سنة ثمان من الهجرة . ولا ريب أن ذا القعدة شهر حرام ، وقيل إن النسخ لم يقع بهذه الآية ، إنما وقع بقوله سبحانه : « فاقتلوا المشركينَ حيثُ وجدْتموهم » فإن عموم الأمكنة يستلزم عموم الأزمنة .

ذلك رأى الجمهور . وهو محجوج فيما نفهم بما ذهب إليه عطاء وغيره ، من أن عموم الأشخاص في الآية الأولى ، وعموم الأمكنة في الآية الثانية ، لا يستلزم واحد منهما عموم الأزمنة . وإذَن فلا تعارض ولا نسخ . بل الآية الأولى نبهت على العموم في الأشخاص ، والثانية نبهت على العموم في الأمكنة . وكلاهما غير مناف لحرمة القتال في الشهر الحرام ، لأن عموم الأشخاص وعموم الأمكنة يتحققان في بعض الأزمان الصادق بما عدا الأشهر الحرم . ويؤيد ذلك أن حرمة القتال في الشهر الحرام لا تزال باقية ، اللهم إلا إذا كان جزاء لما هو أشد منه ، فإنه يجوز حينئذ لهذا العارض ، كما دل عليه قول الله في الآية نفسها : « وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرام ، وإخراجُ أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل » .

الآية السادسة

« والذينَ يُتَوفَّون منكم ويذَرون أزواجاً وصيةً لأزواجهم ، متاعاً إلى الحولِ غيرَ إخراجٍ ، فإن خَرَجْنَ فلا جُناحَ عليكم فيما فعلنَ فى أنفسهنّ من معروفٍ » فإنهـا منسوخة بقوله سبحانه : « والذينَ يُتَوَفَّوْن منكم ويذرون أزواجاً يتربّصن بأنفسِهنّ أربعةَ أشهرٍ وعشراً. فإذا بلغنَ أجلهنّ فلا جُناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهنّ بالمعروف » لأن الآية الأولى أفادت أن من توفى عنها زوجها يوصى لها بنفقة سنة وبسكنى مدة حول مالم تخرج. فإن خرجت فلا شىء لها. وأما الثانية فقد أفادت وجوب انتظارها أربعة أشهر وعشرا . ولازم هذا أنه لايجوز لها أن تخرج فى هذه المدة أو تتزوج .

وقيل إن ذلك تخصيص لا نسخ ؛ فإن المرأة قد تكون عدتها سنة كاملة إذا كانت حاملا ، ويرد هذا بأن الآية الأولى تفيد اعتداد المرأة حولاً كاملا إذا كانت غير حامل أو كانت حاملا ولم يمكث حملها سنة . والآية الثانية قد رفعت هذا جزما . وذلك محقق للنسخ . على أن الاعتداد حولا كاملا فيما إذا كانت المرأة حاملا، ليس لدلالة الآية الأولى عليه ، بل لآية « وأُولاتُ الأحمالِ أجلُهنّ أن يضعْنَ حملهنّ » وهذا لا يتقيد بعام ، بل ربما يزيد أو ينقص .

وقيل: إن الآية الأولى محكمة، ولا منافاة بينها وبين الثانية ،لأن الأولى خاصة فيما إذا كان هناك وصية للزوجة بذلك ولم تخرج ولم تتزوج. أما الثانية ففى بيان العدة والمدة التى يجب عليها أن تمكثها . وهما مقامان مختلفان . . ويرد هذا بأن الآية الأولى تجعل للمتوفى عنها حق الخروج فى أى زمن وحق الزواج ، ولم تحرم عليها شيئا منهما قبل أربعة أشهر وعشر. أما الثانية فقد حرمتهما وأوجبت عليها الانتظار، دون خروج وزواج طوال هذه المدة ، فالحق هو القول بالنسخ ، وعليه جمهور العلماء .

الآية السابعة

« وإنْ تُبدوا ما فى أنفسكم أو تُخفُوه يُحاسبكم بهِ اللهُ » فإنها منسوخة بقوله سبحانه « لا يكلِّف اللهُ نفساً إلا وُسْعها » لأن الآيــة الأولى تفيد أن الله يكلف العباد حتى بالخطرات التى لا يملكون دفعها ، والآية الثانية تفيد أنه لا يكلفهم بها ، لأنه لا يكلف نفسا إلا وسعها. والذى يظهر لنا أن الآية الثانية مخصصة للأولى وليست ناسخة. لأن إفادة الأولى لتكليف الله عباده بما يستطيعون مما أبدوا فى أنفسهم أو أخفوا، لا تزال هذه الإفادة باقية ، وهذا لا يعارض الآية الثانية حتى يكون ثمة نسخ .

وقال بعضهم : إن الآية محكمة ، لأنها خاصة بكتمان الشهادة وإظهارها. ويرده أنه لادليل على هذا التخصيص .

وقال بعضهم : إنها محكمة مع بقائها على عمومها ، والمعنى أن الله يحاسب المؤمنين والكافرين بما أبدوا وبما أخفوا، فيغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين والمنافقين... ويرده أن هذا العموم لا يسلم بعد ما تقرر من أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، سواء أكانت نفسا مؤمنة أم كافرة . لأن لفظ « نفسا » نكرة فى سياق النفى فيعم .

الآية الثامنة

« يأيها الذينَ آمنُوا اتقُوا اللهَ حقَّ تُقاتِه » قال السيوطى : ليس فى آل عمران آية يصح فيها دعوى النسخ إلا هذه الآية . فقد قيل إنها منسوخة بقول الله تعالى : « فاتقوا اللهَ ما استطعتمْ » . اهـ.

والذى يبدو لنا أنها غير منسوخة ، لأن التعارض الحقيقى بين الآيتين غير مسلم، فإن تقوى الله حق تقواه المأمور بها فى الآية الأولى، معناها الإتيان بما يستطيعه المكلفون من هداية الله، دون ما خرج عن استطاعتهم، وقد ورد تفسيرها بأن يحفظ الإنسان رأسه وما وعى،

وبطنه وما حوى ، ويذكر الموت والبلى . ولا ريب أن ذلك مستطاع بتوفيق الله. فإذن لا تعارض بينها وبين قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » وحيث لا تعارض فلا نسخ .

الآية التاسعة

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » قيل إنها منسوخة بآيات المواريث . والظاهر أنها محكمة ، لأنها تأمر بإعطاء أولى القربى واليتامى والمساكين الحاضرين لقسمة التركة شيئاً منها. وهذا الحكم باق على وجه الندب مادام المذكورون غير وارثين . ولا تعارض ولا نسخ .

نعم لو كان حكم إعطاء هؤلاء هو الوجوب، ثم رفع بآيات المواريث، وتقرر الندب بدليل آخر بدلا من الحكم الأول ، فلا مفر من القول بالنسخ . ولكن المأثور عن ابن عباس أن الآية محكمة غير أن الناس تهاونوا بالعمل بها . وهذا يجعلنا نرجح أن الأمر فى الآية كان للندب لا للوجوب من أول الأمر ، حتى يتأتى القول بإحكامها ؛ فتأمل .

الآية العاشرة

« والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » نسخها قول الله : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وقيل إنها غير منسوخة ، لأنها تدل على توريث مولى الموالاة . وتوريثهم باق غير أن رتبتهم فى الإرث بعد رتبة ذوى الأرحام . وبذلك يقول فقهاء العراق .

الآية الحادية عشرة

واللاتى يأتينَ الفاحشةَ من نسائكم ، فاستشهدوا عليهنّ أربعةً منكم فإن شهدوا فأمسكوهنّ فى البيوتِ حتى يتوفاهنّ الموتُ أو يجعلَ الله لهنّ سبيلاً *واللذانِ يأتيانها منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصلحا ، فأعرضوا عنهما » فإنها منسوخة بآية النور ، وهى « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنينَ » وذلك بالنسبة إلى البكر رجلا كان أو امرأة ، أما الثيب من الجنسين فقد نسخ الحكم الأول بالنسبة إليهما ، وأبدل بالرجم الذى دلت عليه تلك الآية المنسوخة التلاوة ، وهى « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة » دلت عليه السنة أيضاً .

وبعضهم يقول بالإحكام وعدم النسخ ، ذاهبا إلى أن الآية الأولى جاءت فيمن أتين مواضع الريب والفسوق ولم يتحقق زناهن . أما الثانية فإنها فيمن تحقق زناهن. ولكن هذا مردود من وجهين : « أحدهما » أنه تأويل يصادم الظاهر بدون دليل ، لأن قوله: « يأتين الفاحشة يتبادر منه مقارفتهن نفس الفاحشة ، لا مجرد غشيان مكانها والأخذ بأسبابها . (والآخر) قوله ﷺ : خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، بالثيب بالثيب جلد مائة والرجم) .

الآية الثانية عشرة

يأيها الذينَ آمنوا لا تحلوا شعائرَ اللهِ ولا الشهر الحرامَ » قيل إن قوله « ولا الشهر الحرام » منسوخ بمقتضى عموم قوله : « وقاتلوا المشركين كافة » وقد سبق القول فى هذا فالحق عدم النسخ .

الآية الثالثة عشرة

« فإنْ جاءوكَ فاحكم بينهم أو أعرِض عنهم » فإنها منسوخة بقوله: « وأنِ احكم بينهم بما أنزلَ اللهُ » وقد قيل بعدم النسخ، وأن الآية الثانية متممة للأولى . فالرسول مخير بمقتضى الآية الأولى بين أن يحكم بينهم وأن يعرض عنهم ، وإذا اختار أن يحكم بينهم وجب أن يحكم بما أنزل الله بمقتضى الآية الثانية . وهذا ما نرجحه لأن النسخ لا يصح إلا حيث تعذر الجمع .

الآية الرابعة عشرة

يأيها الذينَ آمنُوا شهادةُ بينكم إذا حَضَر أحدَكم الموتُ حينَ الوصية اثنان ذَوَا عَدْلٍ منكم أو آخرانِ من غيرِكُمْ » : فإن قوله « أو آخران من غيركم » منسوخ بقوله: « وأشهدوا ذَوَىْ عدلٍ منكم » وقيل إنه لا نسخ ؛ لأن الآية الأولى خاصة بما إذا نزل الموت بأحد المسافرين وأراد أن يوصى ، فإن الوصية تثبت بشهادة اثنين عدلين من المسلمين أو غيرهم توسعة على المسافرين لأن ظرف السفر ظروف دقيقة ، قد يتعسر أو يتعذر وجود عدلين من المسلمين فيها ، فلو لم يبح الشارع إشهاد غير المسلمين لضاق الأمر ، وربما ضاعت الوصية . أما الآية الثانية فهى القاعدة العامة فى غير ظروف السفر .

الآية الخامسة عشرة

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون » فإنها منسوخة بقوله سبحانه: « الآنَ خَفَّفَ اللهُ عنكم وَعلِم أنَّ فيكم ضَعفاً فإن يكن منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتينِ . وإن يكنْ منكم ألفٌ يغلبوا ألفينِ بإذن اللهِ . واللهُ مع الصَّابرين » ووجه النسخ أن الآية الأولى أفادت وجوب ثبات الواحد للعشرة، وأن الثانية أفادت وجوب ثبات الواحد للاثنين. وهما حكمان متعارضان.

فتكون الثانية ناسخة للأولى . وقيل لاتعارض بين الآيتين ولا نسخ؛ لأن الثانية لم ترفع الحكم الأول ، بداهة أنه لم يقل فيها : لا يقاتل الواحد العشرة إذا قدر على ذلك. بل هى مخففة فحسب ، على معنى أن المجاهد إن قدر على قتال العشرة فله الخيار رخصة من الله له بعد أن اعتز المسلمون . ولكنك ترى أن النسخ على هذا الوجه لامفر منه أيضا ، لأن الآية الأولى عينت على المجاهد أن يثبت لعشرة، والثانية خيرته بين الثبات لعشرة،وعدم الثبات لأكثر من اثنين . ولا ريب أن التخيير يعارض الإلزام على وجه التعيين .

الآية السادسة عشرة

« انفِروا خِفافاً وثِقالاً » فإنها نسخت بآيات العذر ، وهى قوله : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله » وقوله: « وما كانَ المؤمنون ليَنفروا كافةً . فلولا نفرَ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقَّهوا فى الدينِ ولِينذِروا قومهم إذا رجَعوا إليهم لعلّهم يَحذَرُون » وقيل إن الآية الأخيرة فى النفر للتعليم والتفقه لا للحرب ، والآيتان قبلها مخصصتان لا ناسختان للآية الأولى ، كأنه قال من أول الأمر : لينفر منكم خِفافاً وثِقالاً كل من احتيج إليه وهو قادر لا عذر له .

الآية السابعة عشرة

الزّانى لاينكحُ إلا زانيةً أو مُشركةً ، والزّانيةُ لاينكحها إلا زان أو مُشركٌ » ، فإنها منسوخة بقوله سبحانه: « وأنكِحُوا الأيامى مِنكم والصّالحين مِن عِبادكم وإمائكم لأن الآية خبر بمعنى النهى ، بدليل قراءة « لاينكح » بالجزم ، والقراءات يفسر بعضها بعضا . وقيل بعدم النسخ ، تفسير للآية الأولى بأن الزانى المعروف بالزنى ، لا يستطيع أن ينكح إلا زانية أو مشركة ، لنفور المحصنات المؤمنات من زواجه . وكذلك المرأة المعروفة بالزنى لا يرغب فى نكاحها إلا زان أو مشرك، لنفور المؤمنين الصالحين من زواجها.

والحق أن الآية منسوخة ، لأنها خبر بمعنى النهى كما سبق ، ولأن الأمر بالنسبة للمشرك والمشركة لا يستقيم إلا مع القول بالنسخ .

الآية الثامنة عشرة

« يأيها الذينَ آمنُوا ليستأذنكم الذينَ ملكَتْ أيمانكم والذين لم يبلغوا الحُلُمَ منكُم ثلاثَ مراتٍ : من قبلِ صلاةِ الفَجْرِ ، وحينَ تضعُون ثيابكم من الظَّهيرَةِ ، ومِنْ بعدِ صَلاةِ العِشَاء » قيل إن هذه الآية منسوخة . لكن لا دليل على نسخها . فالحق أنها محكمة ، وهى أدب عظيم يلزم الخدم والصغار ، البعد عن مواطن كشف العورات ، حماية للأعراض من الانتهاك ، وحفظا للأنظار أن ترى مالا تليق رؤيته فى أوقات التبذل .

الآية التاسعة عشرة

« لَّا يحلُّ لكَ النساء مِن بعْدُ ولَا أن تَبَدَّلَ بهنَّ من أزْوَاجٍ » نسخها قول الله : « يأيهَا النبىُّ إنَّا أحْلَلنَا لكَ أزواجَكَ اللَّاتى آتيْتَ أجورهنَّ ، وماملكتْ يَمينكَ مما أفاء الله عليكَ وبنات عَمِّكَ وبنات عمَّاتِكَ وَبنَاتِ خَالِكَ ، وبناتِ خالاتكَ اللَّاتى هاجَرْنَ معكَ وامرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسها للنبىِّ إن أراد النبىُّ أن يستنكحها ، خالصةً لكَ مِن دونِ المؤمنينَ » .

واعلم أن هذا النسخ لا يستقيم إلا على أن هذه الآية متأخرة فى النزول عن الآية الأولى ، وأن الله قد أحل للرسول فى آخر حياته ما كان قد حرّمه عليه من قبل ، فى قوله : « لا يحلُّ لك النساء من بعد » الخ .

وذلك مروى عن على كرم الله وجهه ، وعن ابن عباس رضى الله عنه ، وعن أم سلمة رضوان الله عليها ، وعن الضحاك رحمه الله ، وعن الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما . أخرج أبو داود فى ناسخه ، والترمذى وصححه ، والنسائى ، والحاكم وصححه أيضاً ،

وابن المنذر وغيرهم، عن عائشة رضى الله عنها قالت : « لم يمت رسول ﷺ حتى أحل الله تعالى له أن يتزوج من النساء إلا ذات محرم » الخ .

والسر فى أن الله حرم على الرسول أولا ماعدا أزواجه، ثم أحل له ما حرمه عليهن، هو أن التحريم الأول فيه تطييب لقلوب نسائه ، ومكافأة لهن، على اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، بعد أن نزلت آيات التخيير فى القرآن. ثم إن إحلال هذا الذى حرم على رسوله مع عدم زواج الرسول من غيرهن بعد هذا الإحلام ، كما ثبت ذلك، فيه بيان لفضله ﷺ ومكرمته عليهن ، حيث قصر نفسه ولم يتزوج بغيرهن ، مع إباحة الله له ذلك .

وقد جاءت روايات أخرى فى هذا الموضوع تخالف ماذكرناه ، لكن لم يثبت لدينا صحة شىء منها ولهذا رجحنا مابسطناه . ولا يعكر صفو القول بالنسخ هنا، مانلاحظه من تأخر الآية المنسوخة عن الناسخة فى المصحف . لأن المدار على ترتيب النزول لا على ترتيب المصحف كما تعلم .

الآية العشرون

« يٰأيها الذين آمنُوا إذا ناجيتمُ الرَّسول فقدِّموا بينَ يدَىْ نجوا كم صدقةً » فإنها نسخت بقوله سبحانه عقب تلك الآية : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجوا كم صدقات. فإذ لم تفعلوا وتابَ اللهُ عليكم فأقيموا الصلاةَ وآتوا الزَّكاةَ وأطيعُوا اللهَ ورسوله ». قيل لا نسخ ، بحجة أن الآية الثانية بيان للصدقة المأمور بها فى الأولى ، وأنه يصح أن تكون صدقة غير مالية، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله . وأنت خبير بأن هذا ضرب من التكلف فى التأويل ، يأباه ماهو معروف من معنى الصدقة حتى أصبح لفظها حقيقة عرفية فى البذل المالى وحده . وقيل : إن وجوب تقديم الصدقة إنما زال بزوال سببه، وهو تمييز المنافق من غيره. وهذا مردود بأن كل حكم منسوخ فإنما نسخه الله لحكمة، من نحو مصلحة أو سبب كان يرتبط به الحكم الأول، ثم زالت تلك المصلحة أو ذلك السبب.

الآية الحادية والعشرون

« وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم، فآتوا الذينَ ذهبت أزواجهم مثلَ ما أنفقُوا » . قيل نسختها آية الغنيمة، وهى قوله سبحانه: « واعلموا أنما غَنِمْتُم من شيء فأنّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وللرسول ولذى القُرْبى واليتامى والمساكين وابن السبيل »: وبيان ذلك أن الآية الأولى تفيد أن زوجات المسلمين اللاتى ارتددن ولحقن بدار الحرب، يجب أن يدفع إلى أزواجهن مثل مهورهن، من الغنائم التى يغنمها المسلمون ويعاقبون العدو بأخذها. والآية الثانية تفيد أن الغنائم تخمس أخماسا ثم تصرف كما رسم الشارع. ولكنك بالتأمل تستظهر معنا أنه لا نسخ، لأن الآيتين لا تتعارضان، بل يمكن الجمع بينهما، بأن يدفع من الغنائم أولا مثل مهور هذه الزوجات المرتدات اللاحقات بدار الحرب، ثم تخمس الغنائم بعد ذلك أخماسا وتصرف فى مصارفها الشرعية .

الآية الثانية والعشرون

« يأيها المُزَّمل * قُم الليل إلا قليلا * نِصفه أو انقص منهُ قليلًا * أو زِد عليه ورتِّلِ القرآن ترتيلًا » فإنها منسوخة بقوله سبحانه فى آخر هذه السورة : « إن ربك يعلم أنك تقومُ أدنى من ثلثَى الليل ونصفه وثلثه وطائفةٌ من الذينَ معك . والله يقدِّر الليل والنهار . علم أن لن تحصوه فتابَ عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن » الخ . . وبيان ذلك أن الآية الأولى أفادت وجوب قيامه ﷺ من الليل نصفه ، أو أنقص منه قليلا ، أو أزيد عليه . أما الثانية فقد أفادت أن الله تاب على النبى وأصحابه فى هذا، بأن رخص لهم فى ترك هذا القيام المقدر ، ورفع عنهم كل تبعة فى ذلك الترك ، كما رفع التبعات عن المذنبين بالتوبة إذا تابوا .

ولا ريب أن هذا الحكم الثانى رافع للحكم الأول ، فتعين النسخ .

وقد قيل فى تفسير هذه الآيات كلام كثير، لا نرى حاجة إلى ذكره، والله يكفينا كثرة القيل والقال، ويتوب علينا من النزاع والخلاف، ويجمع صفوفنا على دينه وحبه ، آمين . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

المبحث الخامس عشر

فى محكم القرآن ومتشابهه

المعنى اللغوى :

لهذين اللفظين إطلاقات فى اللغة وإطلاقات فى الاصطلاح . فاللغويون يستعملون مادة الإحكام (بكسر الهمز) فى معان متعددة ، لكنها مع تعددها ترجع إلى شىء واحد، هو المنع . فيقولون : أحكم الأمر أى أتقنه ومنعه عن الفساد. ويقولون : أحكمه عن الأمر أى رجعه عنه ومنعه منه. ويقولون: حكم نفسه وحكم الناس أى منع نفسه ومنع الناس عما لا ينبغى ويقولون : أحكم الفرس أى جعل له حكمة (بفتحات ثلاث) والحكمة ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه تمنعه من الاضطراب. وقيل : « آتاه الله الحكمة » أى العدل أو العلم أو الحلم أو النبوة أو القرآن ؛ لما فى هذه المذكورات من الحوافظ الأدبية الرادعة عما لا يليق.

وكذلك يستعمل اللغويون مادة التشابه فيما يدل على المشاركة فى المماثلة والمشاكلة ، المؤدية إلى الالتباس غالبا. يقال: تشابها واشتبها، أى أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا. ويقال : أمور مشتبهة ومشبهة ــ على وزان معظمة ــ أى مشكلة. والشبهة بالضم : الالتباس والمثل . ويقال شبه عليه الأمر تشبيهاً أى لُبِّس عليه (بضم الأول وتشديد الثانى مع كسره فى الفعلين) . ومنه قول الله سبحانه وصفاً لرزق الجنة « وأتوا به متشابها » . ومنه قوله حكاية عن بنى إسرائيل: « إنَّ البقرَ تشابَهَ علينا » انظر القاموس فى هاتين المادتين.

القرآن محكم ومتشابه :

ولقد جاء فى القرآن الكريم مايدل على أنه كله محكم ، إذ قال سبحانه : « كتاب أحكمت آياته » . وجاء فيه مايدل على أنه كله متشابه ، إذ قال جل ذكره : « اللهُ نزَّل أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً » . وجاء فيه مايدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه ، إذ قال عز اسمه : « هـــو الذى أنزل عليكَ الكتابَ ، منهُ آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أم الكتابِ ، وأُخر متشابهاتٌ » ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة ، لأن معنى إحكامه كله أنه منظم رصين ، متقن متين ، لا يتطرق إليه خلل لفظى ولا معنوى ، كأنه بناء مشيد محكم يتحدى الزمن ، ولا ينتابه تصدع ولا وهن . ومعنى كونه كله متشابها أنه يشبه بعضه بعضا فى إحكامه وحسنه وبلوغه حد الإعجاز فى ألفاظه ومعانيه ، حتى إنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلماته وآياته فى هذا الحسن والإحكام والإعجاز ، كأنه حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها.

وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه ، فمعناه أن من القرآن مااتضحت دلالته على مراد الله تعالى منه ، ومنه ماخفيت دلالته على هذا المراد الكريم . فالأول هو المحكم ، والثانى هو المتشابه على خلاف يأتى بين العلماء فى ذلك . بيد أن الذى اتفقوا عليه ولا يمكن أن يختلفوا فيه ، هو أنه لا تنافى بين كون القرآن كله محكما أى متقنا ، وبين كونه كله متشابها أى يشبه بعضه بعضا فى هذا الإتقان والإحكام ، وبين كونه منقسما إلى مااتضحت دلالته على مراد الله وماخفيت دلالته ، بل إن انقسامه هذا الانقسام محقق لما فيه كله من إحكام وتشابه بالمعنى السابق. وسيأتيك نبأ ذلك فى بيان الحكمة من وجود متشابهات خفية إلى جانب واضحات ظاهرة فى القرآن الكريم .

ويمكنك أن ترجع هذه التأويلات إلى الإطلاقات اللغوية السالفة. فالقرآن كله محكم أى متقن ، لأن الله صاغه صياغة تمنع أن يتطرق إليه خلل أو فساد فى اللفظ أو المعنى ، والقرآن متشابه ، لأنه يماثل بعضه بعضا فى هذا الإحكام ، مماثلة مفضية إلى التباس التمييز بين آياته وكلماته فى ذلك ، والقرآن منه محكم أى واضح المعنى المراد وضوحا يمنع الخفاء عنه ، ومنه متشابه فيه وجوه مختلفة من المماثلة مستلزمة لخفاء هذا المعنى المراد .

المعنى الاصطلاحى :

يطلق المحكم فى لسان الشرعيين على مايقابل المنسوخ تارة ، وعلى مايقابل المتشابه تارة أخرى . فيراد به على الاصطلاح الأول ، الحكم الشرعى الذى لم يتطرق إليه نسخ. ويراد به على الثانى ماورد من نصوص الكتاب أو السنة دالا على معناه بوضوح لاخفاء فيه ، على ماسيأتى تفصيله وموضوع بحثنا هناهو هذا الاصطلاح الثانى . أما الأول فقد بيناه فى المبحث السابق، حيث عرفنا النسخ وبسطنا أدلته وأحكامه وماقيل فيه، ومنه يعرف مقابله وهو المحكم، « وبضدها تتميز الأشياء » وعلى هذا الاصطلاح يحمل ماأخرج عبد ابن حميد عن الضحاك قال : المحكمات مالم ينسخ ، والمتشابهات ماقد نسخ .

آراء العلماء فى معنى المحكم والمتشابه

يختلف العلماء فى تحديد معنى المحكم والمتشابه اختلافات كثيرة :

١ ـ منها أن المحكم هو الواضح الدلالة الظاهر الذى لايحتمل النسخ ، أما المتشابه فهو الخفى الذى لايدرك معناه عقلا ولا نقلا، وهو مااستأثر الله تعالى بعلمه، كقيام الساعة والحروف المقطعة فى أوائل السور . وقد عزا الألوسى هذا الرأى إلى السادة الحنفية .

٢ ـ ومنها أن المحكم ماعرف المراد منه إمابالظهور وإما بالتأويل. أما المتشابه فهو مااستأثر تعالى بعلمه ، كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة فى أوائل السور. وينسب هذا القول إلى أهل السنة على أنه هو المختار عندهم .

٣ ـ ومنها أن المحكم ما لايحتمل إلا وجهاً واحدا من التأويل . أما المتشابه فهو ما احتمل أوجهاً . ويعزى هذا الرأى إلى ابن عباس ، ويجرى عليه أكثر الأصوليين .

٤ ـ ومنها أن المحكم مااستقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان . أما المتشابه فهو الذى لايستقل بنفسه ، بل يحتاج إلى بيان ، فتارة يبين بكذا ، وتارة يبين بكذا ، لحصول الاختلاف فى تأويله، ويحكى هذا القول عن الإمام أحمد رضى الله عنه .

٥ ـ ومنها أن المحكم هو السديد النظم والترتيب ، الذى يفضى إلى إثارة المعنى المستقيم من غير مناف . أما المتشابه فهو الذى لا يحيط العلم بمعناه المطلوب من حيث اللغة، إلا أن تقترن به أمارة أو قرينة . ويندرج المشترك فى المتشابه بهذا المعنى . وهو منسوب إلى إمام الحرمين .

٦ ـ ومنها أن المحكم هو الواضح المعنى الذى لا يتطرق إليه إشكال؛ مأخوذ من الإحكام وهو الإتقان . أما المتشابه فنقيضه . وينتظم المحكم على هذا ما كان نصًّا وما كان ظاهراً . وينتظم المتشابه ما كان من الأسماء المشتركة وما كان من الألفاظ الموهمة للتشبيه فى حقه سبحانه . وقد نسب هذا القول إلى بعض المتأخرين ، ولكنه فى الحقيقة رأى الطيبى ؛ إذ قال فيما حكى السيوطى عنه :

« المراد بالمحكم ما اتضح معناه ، والمتشابه بخلافه ، لأن اللفظ الذى يقبل معنى، إما أن يحتمل غيره أوْ لا . الثانى النص، والأول إما أن تكون دلالته على ذلك الغير أرجح أوْ لا . الأول الظاهر ؛ والثانى إما أن يكون مساويه أوْ لا . الأول هو المجمل ، والثانى المؤول . فالمشترك بين النص والظاهر هو المحكم ، والمشترك بين المجمل والمؤول هو المتشابه .

ويؤيد هذا التقسيم أنه تعالى أوقع المحكم مقلابلا للمتشابه. فالواجب أن يفسر المحكم بما يقابله ويعضد ذلك أسلوب الآية ، وهو الجمع مع التقسيم، لأنه تعالى فرق ما جمع فى معنى الكتاب ، بأن قال : « منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أم الكتاب ، وأُخَر متشابهاتٌ » وأراد أن يضيف إلى كل منهما ماشاء فقال أولا : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ » إلى أن قال : « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » وكان يمكن أن يقال :(وأما الذينَ فى قلوبهم استقامةٌ فيتبعونَ المحكم) لكنه وضع موضع ذلك « والراسخون فى العلم » لإتيان لفظ الرسوخ ، لأنه لا يحصل إلا بعد التثبت العام والاجتهاد البليغ. فإذا استقام القلب على طريق الرشاد ورسخ القدم فى العلم ، أفصح صاحبه النطق بالقول الحق . وكفى بدعاء

الراسخين فى العلم : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهبْ لنا من لدنكَ رحمةً ، إنك أنتَ الوهاب » شاهدا على أن « الراسخون فى العلم » مقابل لقوله : « والذين فى قلوبهم زيغٌ » . وفيه إشارة إلى أن الوقف تام على قوله « إلا الله » وإلى أن علم بعض المتشابه مختص بالله تعالى ، وأن من حاول معرفته فهو الذى أشار إليه فى الحديث بقوله : (فاحذرهم) اه .

وهو كلام نفيس كما تراه : والحديث الذى نوه به أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : « هو الذى أنزل الكتابَ » إلى قوله : « أولو الألباب » قالت : قال رسول الله ﷺ (فإذا رأيت الذين يتبعونَ ما تشابه منهُ ، فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم) .

(٧) ومنها أن المحكم ما كانت دلالته راجحة ، وهو النص والظاهر ، أما المتشابه فما كانت دلالته غير راجحة ، وهو المجمل والمؤول والمشكل . ويعزى هذا الرأى إلى الإمام الرازى واختاره كثير من المحققين . وقد بسطه الإمام فقال ما خلاصته .

« اللفظ الذى جعل موضوعا لمعنى ، إما ألا يكون محتملا لغيره ، أو يكون محتملا لغيره . الأول النص ، والثانى إما أن يكون احتماله لأحد المعانى راجحا ولغيره مرجوحا ، وإما أن يكون احتماله لهما بالسوية . واللفظ بالنسبة للمعنى الراجح يسمى ظاهرا ، بالنسبة للمعنى المرجوح يسمى مؤولا ، وبالنسبة للمعنيين المتساويين أو المعانى المتساوية يسمى مشتركا ، وبالنسبة لأحدهما على التعيين يسمى مجملا . وقد يسمى اللفظ مشكلا إذا كان معناه الراجح باطلا ، ومعناه المرجوح حقا .

إذا عرفت هذا فالمحكم ما كان دلالته راجحة ، وهو النص والظاهر ؛ لاشتراكهما فى حصول الترجيح ، إلا أن النص راجح مانع من الغير ، والظاهر راجح غير مانع منه .

أما التشابه فهو ما كانت دلالته غير راجحة ، وهو المجمل والمؤول والمشكل ؛ لاشتراكها في أن دلالة كل منها غير راجحة . وأما المشترك فإن أريد منه كل معانيه فهو من قبيل الظاهر ، وإن أريد بعضها على التعيين فهو مجمل .

ثم إن صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجـوح ، لا بد فيه من دليل منفصل: وذلك الدليل المنفصل إما أن يكون لفظياً وإما أن يكون عقلياً. والدليل اللفظي لا يكون قطعياً ، لأنه موقوف على نقل اللغات ، ونقل وجـــوه النحو والتصريف ، وموقوف على عدم الاشتراك ، وعدم المجاز ، وعدم الإضمار ، وعدم التخصيص ، وعدم المعارض العقلي والنقلي . وكل ذلك مظنون . والموقوف على المظنون مظنون .

وعلى ذلك فلا يمكن صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معنى مرجوح بدليل لفظي في المسائل الأصولية الاعتقادية . ولا يجوز صرفه إلا بواسطة قيام الدليل القطعي العقلي على أن المعنى الراجح محال عقلا وإذا عرف المكلف أنه ليس مراد الله تعالى ، فعند ذلك لا يحتاج إلى أن يعرف أن ذلك المرجوح ما هو؟ لأن طريقه إلى تعيينه إنما يكون بترجيح مجاز على مجاز ، وبترجيح تأويل على تأويل . وذلك الترجيح لا يـكون إلا بالدلائل اللفظية ، وهي لا تفيد إلا الظن . والتعويل عليها في المسائل القطعية لا يفيد . لذا كان مذهب السلف عدم الخوض في تعيين التأويل في المتشابه ، بعد اعتقاد أن ظاهر اللفظ محال ، لقيام الأدلة العقلية القطعية على ذلك » ا هـ .

نظرة في هذه الآراء :

نحن إذا نظرنا في هذه الآراء ، لا نجد بينها تناقضاً ولا تعارضا ، بل نلاحظ بينها تشابها وتقاربا . بيد أن رأى الرازي أهداها سبيلا، وأوضحها بياناً ؛ لأن أمر الإحكام والتشابه يرجع فيما نفهم ، إلى وضوح المعنى المراد للشارع من كلامه وإلى عدم وضوحه. وتعريف الرازي جامع مانع من هذه الناحية ، لا يدخل في المحـكم ما كان خفياً ، ولا في

المتشابه ما كان جليا ، لأنه استوفى وجوه الظهور والخفاء استيفاء تاما فى بيان تقسيمه الذى بناه على راجح ومرجوح، والذى أعلن لنا منه أن الراجح ما كان واضحا لاخفاء فيه ، وأن المرجوح ما كان خفيا لاجلاء معه .

وقريب منه رأى الطيبى الذى قبله حتى كأنه هو ، غير أنه لم يستوف وجوه الظهور والخفاء استيفاء الرازى . أما رأى إمام الحرمين ففيه شىء من الإبهام .

وكذلك رأى الإمام أحمد لاندرى ما مراده بالبيان الذى يحتاج إليه المتشابه ،ولا يحتاج إليه المحكم ؟ .

ورأى ابن عباس يخرج الظاهر من المحكم ، ويدخله فى المتشابه ، مع أنه من الواضحات واحتماله لغير معناه الراجح احتمال ضعيف ، لايقدح فى ظهوره ووضوحه .

والرأى الثانى بعكس الآية ، فيدخل فى المحكم كثيراً من الخفيات ، ويقصر المتشابه على نوع واحد منها . فيكون تعريف المحكم فيه غير مانع ، وتعريف المتشابه غير جامع ، بالنسبة إلى المذهب المختار ، وهو مذهب الرازى .

والرأى الأول المنسوب إلى الأحناف ، يقصر تعريف المحكم على النص،وتعريف المتشابه على ما استأثر الله بعلمه ، ويلزم عليه وجود واسطة لاتدخل فى المحكم ولافى المتشابه . ويكون تعريفهما غير جامع بالنسبة للمذهب المختار أيضا .

آراء أخرى :

واعلم أن وراء هذه الآراء آراء أخرى :

(١) منها أن المحكم هو الذى يعمل به، أما المتشابه فهو الذى يؤمن به ولا يعمل به

وقد روى السيوطى هذا القول عن عكرمة وقتادة وغيرهما. وفيه أن ذلك قصر للمحكم على ما كان من قبيل الأعمال ، وقصر للمتشابه على ما كان من قبيل العقائد، وإطلاق القول فيهما على هذا الوجه غير سديد فإن أرادوا بالمحكم أنه هو الواضح الذى يؤخذ بمعناه على التعيين ، وبالمتشابه ما كان خفيا يجب الإيمان به دون تعيين لمعناه، نقول: إن أرادوا ذلك فالعبارة قاصرة عن أداء هذا المراد ، والمراد منها لا يدفع الإيراد عليها .

(٢) ومنها أن المحكم ما كان معقول المعنى ، والمتشابه بخلافه ، كأعداد الصلوات ، واختصاص الصيام برمضان دون شعبان ، وفيه أن هذا التفسير قاصر عن الوفاء بكل ما كان واضحاً وكل ما كان خفيا .

(٣) ومنها أن المحكم ما لم يتكرر لفظه والمتشابه ما تكرر لفظه، وفيه أن هذا المعنى بالنسبة إلى المتشابه أقرب إلى اللغة منه إلى الاصطلاح الذى عليه الجمهور ، وفيه إهمال لما اعتبر هنا من أمر الخفاء والظهور .

(٤) ومنها أن المحكم ما لم ينسخ ، والمتشابه ما نسخ ، وفيه أن هذا اصطلاح آخر نوهنا به سابقا .

ونظراً إلى أن هذه الآراء أضعف من تلك الآراء التى قدمناها ، وأبعد عنها فى ملحظها ومغزاها ؛ أفردناها بالذكر ، ولم نسلكها مع تلك فى سمط واحد .

وعلى كل حال فالأمر سهل وهين؛ لأنه يرجع إلى الاصطلاح أو ما يشبه الاصطلاح، ولا مشاحة فى الاصطلاح . ولولا أن تفسير آية آل عمران التى مرت فى كلامنا وكلام الطيبى ، لا يتمشى بسهولة على هذه الآراء المرجوحة ، لما أتعبنا أنفسنا فى مناقشتها ونقدها ، وفى اختيار رأى الرازى من بينها .

منشأ التشابه وأقسامه وأمثلته

نعلم مما سبق أن منشأ التشابه إجمالا ، هو خفاء مراد الشارع من كلامه. أما تفصيلا فنذكر أن منه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ، ومنه ما يرجع خفاؤه إلى المعنى، ومنه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ والمعنى معاً .

(فالقسم الأول) وهو ما كان التشابه فيه راجعا إلى خفاء فى اللفظ وحده ، منه مفرد ومركب ، والمفرد قد يكون الخفاء فيه ناشئا من جهة غرابته أو من جهة اشتراكه . والمركب قد يكون الخفاء فيه ناشئا من جهة اختصاره، أو من جهة بسطه ، أو من جهة ترتيبه .

مثال التشابه فى المفرد بسبب غرابته وندرة استعماله ، لفظ الأبّ بتشديد الباء فى قوله سبحانه : « وفاكهةً وأبّا » وهو ما ترعاه البهائم . بدليل قوله بعد ذلك : (متاعاً لكم ولأنعامكم) .

ومثال التشابه فى المفرد بسبب اشتراكه بين معان عدة، لفظ اليمين فى قوله سبحانه: (فراغ عليهم ضربا باليمين) أى فأقبل إبراهيم على أصنام قومه ضاربا لها باليمين من يديه لا بالشمال ، أو ضاربا لها ضربا شديدا بالقوة ؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين ، أو ضاربا لها بسبب اليمين التى حلفها ونوه بها القرآن إذ قال « وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعدَ أن تولوا مدبرين » . كل ذلك جائز . ولفظ اليمين مشترك بينها .

ومثال التشابه فى المركب بسبب اختصاره، قوله تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء » فإن خفاء المراد فيه، جاء من ناحية إيجازه والأصل : وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى لو تزوجتموهن، فانكحوا من غيرهن ماطاب لكم من النساء. ومعناه أنكم إذا تحرجتم من زواج اليتامى مخافة أن تظلموهن ؛ فأمامكم غيرهن فتزجوا

منهن ماطاب لكم . وقيل إن القوم كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنى ، فأنزل الله الآية . ومعناه : إن خفتم الجور فى حق اليتامى فخافوا الزنى أيضا ، وتبدلوا به الزواج الذى وسع الله عليكم فيه فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع .

ومثال التشابه يقع فى المركب بسبب بسطه والإطناب فيه ، قوله جلت حكمته : (ليس كمثله شىء) فإن حرف الكاف لو حذف وقيل (ليس مثله شىء) كان أظهر للسامع من هذا التركيب الذى ينحل إلى : (ليس مثل مثله شىء) وفيه من الدقة ما يعلو على كثير من الأفهام .

ومثال التشابه يقع فى المركب لترتيبه ونظمه ، قوله جل ذكره (الحمدُ لله الذى أنزل على عبدهِ الكتابَ ولم يجعل له عِوجاً * قَيماً) فإن الخفاء هنا جاء من جهة الترتيب بين لفظ (قيما) وما قبله . ولو قيل : أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا لكان أظهر أيضا .

واعلم أن مقدمة هذا القسم فواتح السور المشهورة ، لأن التشابه والخفاء فى المراد منها . جاء من ناحية ألفاظها لا محالة .

(والقسم الثانى) وهو ما كان التشابه فيه راجعا إلى خفاء المعنى وحده ، مثاله كل ماجاء فى القرآن الكريم وصفاً لله تعالى ، أو لأهوال القيامة ، أو لنعيم الجنة وعذاب النار فإن العقل البشرى لايمكن أن يحيط بحقائق صفات الخالق ، ولا بأهوال القيامة ، ولا بنعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار . وكيف السبيل إلى أن يحصل فى نفوسنا صورة ما لم نحسه ، وما يكن فينا مثله ولا جنسه ؟ .

واعلم أن فى مقدمة هذا القسم المشكلات المعروفة بمتشابهات الصفات . فإن التشابه

والخفاء لم يجىء ناحية غرابة فى اللفظ أو اشتراك فيه بين عدة معان أو إيجاز أو إطناب مثلا . فتعين أن يكون من ناحية المعنى وحده .

(القسم الثالث) وهو ما كان التشابه فيه راجعاً إلى اللفظ والمعنى معا، له أمثلة كثيرة منها قوله عز اسمه : « وليسَ البرُّ بأن تأتوا البيوتَ من ظهورها » فإن من لا يعرف عادة العرب فى الجاهلية ، لا يستطيع أن يفهم هذا النص الكريم على وجهه . ورد أن ناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخلَ أحد منهم حائطا ولا داراً ولا فسطاطاً من باب . فإن كان من أهل المدر نقب نقباً فى ظهر بيته ، يدخل ويخرج منه وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء ، فنزل قول الله : « وليس البر بأن تأتوا البيوتَ من ظهورها ولكنَّ البرَّ من اتقى ، وأْتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

فهذا الخفاء الذى فى هذه الآية ، يرجع إلى اللفظ بسبب اختصاره ؛ ولو بسط لقيل : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهوْرها إذا كنتم محرمين بحج أو عمرة. ويرجع الخفاء إلى المعنى أيضا ، لأن هذا النص على فرض بسطه كما رأيت ، لا بد معه من معرفة عادة العرب فى الجاهلية وإلا لتعذر فهمه .

قال الراغب فى المفردات القرآن : المتشابه بالجملة ثلاثة أضرب : متشابه من جهة اللفظ فقط ، ومن جهة المعنى فقط ، ومن جهتهما . (فالأول) ضربان ، أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة ، إما من جهة الغرابة ، نحو الأبّ ويزّفون ، أو الاشتراك كاليد واليمين. وثانيهما يرجع إلى جملة الكلام المركب ، وذلك ثلاثة أضرب ، ضرب لاختصار الكلام، نحو « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم » . وضرب لبسطه نحو « ليس كمثله شىء » لأنه لو قيل : ليس مثله شىء كان أظهر للسامع، وضرب لنظم الكلام، نحو « أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوجاً * قيِّمًا » تقديره ، أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا .

(والمتشابه من جهة المعنى) أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة ، فإن تلك الأوصاف لاتتصور لنا ، إذ كان لا يحصل فى نفوسنا صورة مالم نحسه أو ليس من جنسه .

(والمتشابه من جهتهما) خمسة أضرب . الأول : من جهة الكمية كالعموم والخصوص ، نحو اقتلوا المشركين ، والثانى : من جهة الكيفية كالوجوب والندب ، نحو « فانكحُوا ماطابَ لكم من النساء » والثالث : من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ ، نحو « اتقوا الله حق تقاته » والرابع : من جهة المكان والأمور التى نزلت فيها ، نحو « وليس البر بأن تأتوا البيوتَ من ظهورها » « إنما النسىء زيادة فى الكفر » فإن من لا يعرف عادتهم فى الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية ، الخامس : من جهة الشروط التى يصح بها الفعل ويفسد : كشروط الصلاة والنكاح . . . وهذه الجملة إذا تصورت علم أن كل ماذكره المفسرون فى تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم) اهـ .

وهو كلام جيد ، غير أن فى بعضه شيئا .

أنواع المتشابهات

يمكننا أن ننوع المتشابهات ـ على ضوء ما سبق ـ ثلاثة أنواع :

(النوع الأول) مالا يستطيع البشر جميعا أن يصلوا إليه ، كالعلم بذات الله وحقائق صفاته ، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه من الغيوب التى استأثر الله تعالى بها « وعندهُ مفاتح الغيبِ لا يعلمها إلا هو » « إن الله عنده علمُ الساعة ، وينزِّلُ الغيثَ ، ويعلمُ مافى الأرحامِ وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفسٌ بأى أرضٍ تموت ، إن الله عليمٌ خبير » .

(النوع الثانى) ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس ، كالمتشابهات التى نشأ التشابه فيها من الإجمال والبسط والترتيب ونحوها مما سبق .

(النوع الثالث) ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم، ولذلك أمثلة كثيرة من المعانى العالية التى تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم لكتاب الله .

قال الراغب (المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه ، كوقت الساعة وخروج الدابة ونحو ذلك ، وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة . وضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين فى العلم ويخفى على من دونهم . وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس: (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) .

هل فى ذكر المتشابهات من حكمة

عرفنا أن المتشابهات أنواع ثلاثة، ونزيدك هنا أن لهذه المتشابهات المتنوعة حكمة بل حكما فى ذكر الشارع إياها .

فالنوع الأول ـ وهو ما استأثر الله بعلمه ـ تلوح لنا فيه حكم خمس :

(أولاها) رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذى لا يطيق معرفة كل شىء. وإذا كان الجبل حين تجلى له ربه جعله دكا وخر موسى صعقا، فكيف لو تجلى سبحانه بذاته وحقائق صفاته للإنسان؟ ومن هذا القبيل أخفى الله على الناس معرفة الساعة رحمة بهم كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها ، وكيلا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا بالتحديد شدة قربها منهم. ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم ، ليعيشوا فى بحبوحة من أعمارهم، فسبحانه من إله حكيم ، رحمٰن رحيم .

(ثانيتها) الابتلاء والاختبار : أيؤمن البشر بالغيب ثقة بخبر الصادق أم لا؟ فالذين اهتدوا يقولون آمنا وإن لم يعرفوا على التعيين. والذين فى قلوبهم زيغ يكفرون به ، وهو الحق من ربهم ، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة والخروج من الدين جملة .

(ثالثها) ما ذكره الفخر الرازى بقوله : « إن القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام . وطبائع العوام تنبو فى أكثر الأمور عن إدراك الحقائق فمن سمع من العوام فى أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه ، ظن أن هذا عدم ونفى محض ؛ فيقع فى التعليل فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه ، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح . فالقسم الأول وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر من باب المتشابه، والقسم الثانى وهو الذى يكشف عن الحق الصريح هو المحكم » اهـ . وهذه الحكمة ظاهرة فى متشابه الصفات .

(رابعتها) إقامة دليل على عجز الإنسان وجهالته، مهما عظم استعداده وغزر علمه، وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة ، وأنه وحده هو الذى أحاط بكل شىء علما ، وأن الخلق جميعا لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء . وهنالك لا يخضع العبد ويخشع ، ويطامن من كبريائه ويخنع ، ويقول ماقالت الملائكة بالأمس : « سبحانكَ لاعِلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليمُ الحكيم » .

قال بعض العارفين : (العقل مبتلى باعتقاد أحقية المتشابه ، كابتلاء البدن بأداء العبادة . كالحكيم إذا صنف كتابا أجمل فيه أحيانا ، ليكون موضع خضوع المتعلم لأستاذه . وكالملك يتخذ علامة يمتاز بها من يطلعه على سره . وقيل : لو لم يبتل العقل الذى هو أشرف البدن، لاستمر العالم فى أبهة العلم على التمرد، فبذلك يستأنس إلى التذلل بذل العبودية . والمتشابه هو موضع خضوع العقول لبارئها ، استسلاما واعترافا بقصورها ، ولهذا ختم الآية يريد آية « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أمُّ الكتاب وأُخر متشابهاتٌ » بقوله : « وما يذّكر إلا أولو الألباب » تعريضا للزائغين، ومدحا للراسخين . ويعنى من لم يتذكر ويتعظ ويخالف هواه ، فليس من أولى العقول.

ومن ثم قال الراسخون فى العلم : « ربنا لا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنتَ الوهاب » فخضعوا لباريهم لاستنزال العلم اللدنى بعد أن استعاذوا به من الزيغ النفسانى) ا هـ .

(خامستها) ما ذكره الفخر الرازى أيضا بقوله : (لو كان - أى القرآن - كله محكما بالكلية ، لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد . وكان بصريحه مبطلا لجميع المذاهب المخالفة له . وذلك منفر لأرباب المذاهب الأخرى عن النظر فيه ، أما وجود المتشابه والمحكم فيه فيطمع كل ذى مذهب أن يجد فيه كل ما يؤيد مذهبه . فيضطر إلى النظر فيه ، وقد يتخلص المبطل عن باطله ، إذا أمعن فيه النظر ، فيصل إلى الحق) .

يضاف إلى هذه الحكم الخمس ما ذكرناه عند الكلام على فواتح السور ودفع الشبهات عنها بالجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢١٩ - ٢٣٠) بالطبعة الثانية .

(وأما النوع الثانى والثالث من المتشابهات) فتلوح لنا فى ذكره واشتمال القرآن عليه حكم خمس أيضا .

(أولاها) تحقيق إعجاز القرآن ، لأن كل ما استتبع فيه شيئا من الخفاء المؤدى إلى التشابه ، له مدخل عظيم فى بلاغته وبلوغه الطرف الأعلى فى البيان . ولو أخذنا فى شرح هذا لضاق بنا المقام ، وخرجنا جملة من هذا الميدان . إلى ميدان علوم البلاغة وما حوت من خواص وأسرار للإيجاز والإطناب والمساواة ، والتقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والحقيقة والمجاز ، ونحو ذلك .

(ثانيتها) تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه ، لأن كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء ، دال على معان كثيرة زائدة على ما يستفاد من أصل الكلام ، ولو عبر عن هذه المعانى الثانوية الكثيرة بألفاظ ، لخرج القرآن فى مجلدات واسعة ضخمة، يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه . « قل لو كانَ البحرُ مِداداً لكلماتِ ربى لَنَفِد البحرُ قبلَ أن تَنْفَدَ كلماتُ ربى . ولو جئنا بمثلهِ مَدَداً » .

وكذلك يدرك القارئ لدقة القرآن وعلو أسلوبه روعة ولذة تغريه على قراءته ، وتشجعه على استظهاره وحفظه .

(ثالثتها) ما ذكره الفخر الرازى بقوله : (متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق . وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب . قال تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ») :

(رابعتها) ما ذكره الفخر أيضاً بقوله : (باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه ، يضطر الناظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة ، مثل اللغة والنحو وأصول الفقه مما يعينه على النظر والاستدلال . فكان وجود المتشابه سببا فى تحصيل علوم كثيرة) .

(خامستها) ما ذكره أيضاً بقوله : (باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه يضطر الناظر فيه إلى الاستعانة بالأدلة العقلية ، فيتخلص من ظلمة التقليد . وفى ذلك تنويه بشأن العقل والتعويل عليه ، ولو كان كله محكما لما احتاج إلى الدلائل العقلية ، ولظل العقل مهملا) اهـ.

ملاحظة :

يمكن اعتبار بعض هذه الحكم فى النوع الأول ، كما يمكن اعتبار بعض حكم النوع الأول هنا ، لكن بشيء من التكليف . ولقد راعينا ما يجب أن تراعيه من أن بعض هذه الحكم لا تتأتى إلا فى أنواع خاصة من المتشابهات ، ولكن المجموع يتحقق فى المجموع ، وذلك كاف فى صحة هذا العرض ، فاكتف أنت به ولاحظه ، وبالله تعالى التوفيق .

متشابه الصفات

عرفنا أن المتشابهات تجمع ألوانا مختلفة. ونزيدك هنا أن من بينها لونين كثر الكلام فيهما (أولهما) فواتح السور، نحو الٓمٓ، قٓ، طسٓ وما أشبهها، وقد أفضنا القول فيها بالمبحث السابع من الجزء الأول من هذا الكتاب. (ثانيهما) الآيات المشكلة الواردة فى شأن الله تعالى، وتسمى آيات الصفات، أو متشابه الصفات. ولابن اللبان فيها تصنيف مفرد، سماه: (رد المتشابهات إلى الآيات المحكمات) مثل قوله سبحانه: « الرحمنُ على العرشِ اسْتوى » وما أشبهه. وإنما أفرد هذا النوع بالذكر وبالتأليف لأنه كثر فيه القيل والقال، وكان فتنة ارتكس فيها كثير من القدامى والمحدثين.

الرأى الرشيد فى متشابه الصفات

علماؤنا أجزل الله مثوبتهم - قد اتفقوا على ثلاثة أمور تتعلق بهذه المتشابهات، ثم اختلفوا فيما وراءها.

(فأول ما اتفقوا عليه) صرفها عن ظواهرها المستحيلة، واعتقاد أن هذه الظواهر غير مرادة للشارع قطعا. كيف وهذه الظواهر باطلة بالأدلة القاطعة. وبما هو معروف عن الشارع نفسه فى محكماته؟

(ثانيه) أنه إذا توقف الدفاع عن الإسلام على التأويل لهذه المتشابهات، وجب تأويلها بما يدفع شبهات المشتبهين، ويرد طعن الطاعنين.

(ثالثه) أن المتشابه إن كان له تأويل واحد يفهم منه فهما قريبا، وجب القول به إجماعا وذلك كقوله سبحانه « وهُوَ معكُم أينما كنتم » فإن الكينونة بالذات مع الخلق مستحيلة قطعا. وليس لها بعد ذلك إلا تأويل واحد، هو الكينونة معهم بالإحاطة علما وسمعا وبصرا وقدرة وإرادة.

وأما اختلاف العلماء فيما وراء ذلك فقد وقع على ثلاثة مذاهب :

(المذهب الأول) مذهب السلف ، ويسمى مذهب المفوضة ، (بكسر الواو وتشديدها) وهو تفويض معانى هذه المتشابهات إلى الله وحده بعد تنزيهه تعالى عن ظواهرها المستحيلة. ويستدلون على مذهبهم هذا بدليلين .

أحدهما عقلى وهو أن تعيين المراد من هذه المتشابهات إنما يجرى على قوانين اللغة واستعمالات العرب ، وهى لا تفيد إلا الظن ، مع أن صفات الله من العقائد التى لا يكفى فيها الظن ، بل لا بد فيها من اليقين ولا سبيل إليه ، فلنتوقف ولنكل التعيين إلى العليم الخبير .

والدليل الثانى نقلى ، يعتمدون فيه على عدة أمور : منها حديث عائشة السابق ، وفيه « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ؛ فأولئك الذين سمى الله ، فاحذرهم » .

ومنها ما رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خلال : أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا ، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله « وما يعلم تأويلهُ إلا الله » الحديث .

ومنها ما أخرجه ابن مردويه عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا . فما عرفتم منه فاعملوا ، وما تشابه فآمنوا به » .

ومنها ما أخرجه الدارمى « عن سليمان بن يسار أن رجلا يقال له ابن صبيغ[1] قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل ، فقال له :

---

(١) كذلك جاء اسم ابن صبيغ فى كتاب الإتقان للسيوطى ، بلفظ ابن ، وبالغين المعجمة فى صبيغ مع صورة التصغير . =

من أنت؟ فقال: أنا عبدالله بن صبيغ . فأخذ عمر عرجونا فضربه حتى دمى رأسه . وجاء في رواية أخرى : فضربه حتى ترك ظهره دبرة ، ثم تركه حتى برأ ، ثم عاد ، ثم تركه حتى برأ ، فدعا به ليعود ، فقال : إن كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا . فأذن له إلى أرضه ، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : ألا يجالسه أحد من المسلمين » اهـ والدبرة بفتحات ثلاث هى قرحة الدابة فى أصل الوضع اللغوى، والمراد هنا أنه صير فى ظهره من الضرب جرحا داميا كأنه قرحة فى دابة، ورضى الله عن عمر، فإن هذا الأثر يدل على أن ابن صبيغ فتح أو حاول أن يفتح باب فتنة بتتبعه متشابهات القرآن يكثر الكلام فيها ويسأل الناس عنها .

ومنها ماورد من أن الإمام مالكا رضى الله عنه سئل عن الاستواء فى قوله سبحانه: « الرحمن على العرش استوى » فقال: « الاستواء معلوم والكيف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة ، وأظنك رجل سوء . أخرجوه عنى » . يريد ـ رحمة الله عليه ـ أن الاستواء معلوم الظاهر بحسب ماتدل عليه الأوضاع اللغوية ، ولكن هذا الظاهر غير مراد قطعا، لأنه يستلزم التشبيه المحال على الله بالدليل القاطع والكيف مجهول أى تعيين مراد الشارع مجهول لنا لا دليل عندنا عليه ، ولا سلطان لنا به ، والسؤال عنه بدعة أى الاستفسار عن تعيين هذا المراد على اعتقاد أنه مما شرعه الله ، بدعة ؛ لأنه طريقة فى الدين مخترعة مخالفة لما أرشدنا إليه الشارع من وجوب تقديم المحكمات وعدم اتباع المتشابهات وماجزاء المبتدع

= ولكنى رأيت شيخ الإسلام المالكى بتونس، وهو السيد محمد الطاهر بن عاشور، يصوب فى بحث له أن اسمه « صبغ بن شريك أو ابن عسل التميمى » من غير كلمة ابن، وبصاد مهملة مفتوحة ، وباء مكسورة ، وغين معجمة . ثم ذكر بعد هذا التصويب أن كثيرا من الناس يحرفونه فيقولون « ضبيع بضاد معجمة ، وعين مهملة، وبصيغة التصغير ثم قال: ويقولون: أبو صبيغ .

إلا أن يطرد ويبعد عن الناس ، خوف أن يفتنهم ، لأنه رجل سوء . وذلك سر قوله « وأظنك رجل سوء . أخرجوه عنى » اهـ .

قال ابن الصلاح : « على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها وإياها اختار أئمة الفقهاء وقادتها ، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه . ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها » اهـ .

(المذهب الثانى) مذهب الخلف ، ويسمى مذهب المؤولة بتشديد الواو وكسرها وهم فريقان : فريق يؤولها بصفات سمعية غير معلومة على التعيين ثابتة له تعالى زيادة على صفاته المعلومة لنا بالتعيين، وينسب هذا إلى أبى الحسن الأشعرى، وفريق يؤولها بصفات أو بمعان نعلمها على التعيين ، فيحمل اللفظ الذى استحال ظاهره من هذه المتشابهات على معنى يسوغ لغة ، ويليق بالله عقلا وشرعا ، وينسب هذا الرأى إلى ابن برهان وجماعة من المتأخرين . قال السيوطى : وكان إمام الحرمين يذهب إليه ثم رجع عنه فقال فى الرسالة النظامية : « الذى نرتضيه دينا ،وندين الله به عقدا ، اتباع سلف الأمة ، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها » اهـ .

أما حجة أصحاب هذا المذهب فيما ذهبوا إليه فهو أن المطلوب صرف اللفظ عن مقام الإهمال الذى يوجب الحيرة بسبب ترك اللفظ لامفهوم له، ومادام فى الإمكان حمل كلام الشارع على معنى سليم ، فالنظر قاض بوجوبه ، انتفاعا بما ورد من الحكيم العليم ، وتنزيها له عن أن يجرى مجرى المعجوز العقيم.

(المذهب الثالث)مذهب المتوسطين. وقد نقل السيوطى هذا المذهب فقال: وتوسط ابن دقيق العيد فقال: « إذا كان التأويل قريبا من لسان العرب لم ينكر ، أو بعيدا توقفنا عنه وآمنا بمعناه على الوجه الذى أريد به مع التنزيه . وما كان معناه من هذه الألفاظ

ظاهرا مفهوما من تخاطب العرب قلنا به من غير توقف ، كما فى قوله تعالى : « ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله » فنحمله على حق الله وما يجب له » اهـ .

تطبيق وتمثيل :

ولنطبق هذه المذاهب على قوله سبحانه : « الرحمن على العرش استوى » ،فنقول: يتفق الجميع من سلف وخلف على أن ظاهر الاستواء على العرش ، وهو الجلوس عليه مع التمكن والتحيز ، مستحيل لأن الأدلة القاطعة تنزه الله عن أن يشبه خلقه أو يحتاج إلى شىء منه ، سواء أكان مكانا يحل فيه أم غيره . وكذلك اتفق السلف والخلف على أن هذا الظاهر غير مراد لله قطعا ، لأنه تعالى نفى عن نفسه المماثلة لخلقه ،وأثبت لنفسه الغنى عنهم ، فقال : « ليس كمثله شىء » وقال « وهو الغنى الحميد » فلو أراد هذا الظاهر لكان متناقضا .

ثم اختلف السلف والخلف بعد ما تقدم ،فرأى السلفيون أن يفوضوا تعيين معنى الاستواء إلى الله ، هو أعلم بما نسبه إلى نفسه وأعلم بما يليق به ، ولا دليل عندهم على هذا التعيين. ورأى الخلف أن يؤولوا، لأنه يبعد كل البعد أن يخاطب الله عباده بما لا يفهمون ،ومادام ميدان اللغة متسعا للتأويل وجب التأويل . بيد أنهم افترقوا فى هذا التأويل فرقتين : فطائفة الأشاعرة يؤولون من غير تعيين ،ويقولون : إن المراد من الآية إثبات أنه تعالى متصف بصفة سمعية لا نعلمها على التعيين، تسمى صفة الاستواء. وطائفة المتأخرين يعينون فيقولون : إن المراد بالاستواء هنا هو الاستيلاء والقهر ، من غير معاناة ولا تكلف ؛ لأن اللغة تتسع لهذا المعنى ، ومنه قول الشاعر العربى :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

أى استوى وقهر ، أو دبر وحكم ؛ فكذلك يكون معنى النص الكريم: الرحمن

استولى على عرش العالم، وحكم العالم بقدرته، ودبره بمشيئته. وابن دقيق العيد يقول بهذا التأويل إن رآه قريباً، ويتوقف إن رآه بعيداً.

وقل مثل ذلك فى نحو « ويبقى وجه ربك ـ ولتصنع على عينى ـ يد الله فوق أيديهم ـ والسموات مطويات بيمينه ـ يخافون ربهم من فوقهم ـ وجاء ربك ـ وعنده مفاتح الغيب ». فالسلف يفوضون فى معانيها تفويضا مطلقا بعد تنزيه الله عن ظواهرها المستحيلة. والأشاعرة يفسرونها بصفات سمعية زائدة على الصفات التى نعلمها، ولكنهم يفوضون الأمر فى تعيين هذه الصفات إلى الله. فهم مؤولون من وجه مفوضون من وجه. والمتأخرون يفسرون الوجه بالذات ولفظ (ولتصنع على عينى) بتربية موسى ملحوظا بعناية الله وجميل رعايته، ولفظ اليد بالقدرة، ولفظ اليمين بالقوة، والفوقية بالعلو المعنوى دون الحسى، والمجىء فى قوله (وجاء ربك) بمجىء أمره والعندية فى قوله (وعنده مفاتح الغيب) بالإحاطة والتمكن. أو بمثل ذلك فى الجميع.

إرشاد وتحذير :

لقد أسرف بعض الناس فى هذا العصر، فخاضوا فى متشابه الصفات بغير حق، وأتوا فى حديثهم عنها وتعليقهم عليها بما لم يأذن به الله، ولهم فيها كلمات غامضة تحتمل التشبيه والتنزيه، وتحتمل الكفر والإيمان، حتى باتت هذه الكلمات نفسها من المتشابهات، ومن المؤسف أنهم يواجهون العامة وأشباههم بهذا. ومن المحزن أنهم ينسبون مايقولون إلى سلفنا الصالح، ويخيلون إلى الناس أنهم سلفيون، من ذلك قولهم : إن الله تعالى يشار إليه بالإشارة الحسية؛ وله من الجهات الست : جهة الفوق. ويقولون : إنه استوى على عرشه بذاته استواء حقيقيا؛ بمعنى أنه استقر فوقه استقرارا حقيقيا، غير أنهم يعودون فيقولون : ليس كاستقرارنا وليس على مانعرف، وهكذا يتناولون أمثال هذه الآية. وليس لهم مستند فيما نعلم إلا التشبث بالظواهر. ولقد تجلى لك مذهب السلف والخلف، فلا نطيل بإعادته.

ولقد علمت أن حمل المتشابهات فى الصفات على ظواهرها مع القول بأنها باقية على حقيقتها، ليس رأيا لأحد من المسلمين، وإنما هو رأى لبعض أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى، وأهل النحل الضالة كالمشبهة والمجسمة . أما نحن ـ معاشر المسلمين ـ فالعمدة عندنا فى أمور العقائد هى الأدلة القطعية ، التى توافرت على أنه تعالى ليس جسما ولا متحيزا ولا متجزئا ولا متركبا، ولا محتاجا لأحد، ولا إلى مكان ولا إلى زمان ، ولا نحو ذلك : ولقد جاء القرآن بهذا فى محكماته إذ يقول : « ليس كمثله شىء » ويقول : « قل هو أحد * اللهُ الصمد * لم يلدْ ولم يولد * ولم يكن له كُفواً أحـد » ويقول : « إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر . وإن تشكروا يرضه لكم » ويقول « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله . والله هو الغنى الحميد » وغير هذا كثير فى الكتاب والسنة ، فكل ما جاء مخالفا بظاهره لتلك القطعيات والمحكمات ، فهو من المتشابهات التى لا يجوز اتباعها ، كما تبين لك فيما سلف .

ثم إن هؤلاء المتمسحين فى السلف متناقضون ، لأنهم يثبتون تلك المتشابهات على حقائقها، ولا ريب أن حقائقها تستلزم الحدوث وأعراض الحدوث كالجسمية والتجزؤ والحركة والانتقال، لكنهم بعد أن يثبتوا تلك المتشابهات على حقائقها ينفون هذه اللوازم، مع أن القول بثبوت الملزومات ونفى لوازمها تناقض لا يرضاه لنفسه عاقل فضلا عن طالب أو عالم. فقولهم فى مسألة الاستواء الآنفة : إن الاستواء باق على حقيقته يفيد أنه الجلوس المعروف المستلزم للجسمية والتحيز، وقولهم بعد ذلك: ليس هذا الاستواء على ما نعرف ، يفيد أنه ليس الجلوس المعروف المستلزم للجسمية والتحيز. فكأنهم يقولون: إنه مستو غير مستو، ومستقر فوق العرش غير مستقر، أو متحيز غير متحيز وجسم غير جسم ، أو أن الاستواء على العرش ليس هو الاستواء على العرش . والاستقرار فوقه ليس هو الاستقرار فوقه ، إلى غير ذلك من الإسفاف والتهافت ! فإن أرادوا بقولهم الاستواء على حقيقته ؛ أنه على حقيقته التى يعلمها الله ولا نعلمها نحن ، فقد اتفقنا ، لكن بقى أن تعبيرهم هذا موهم، لا يجوز أن يصدر

من مؤمن ، خصوصا فى مقام التعليم والإرشاد . وفى موقف النقاش والحجاج، لأن القول بأن اللفظ حقيقة أو مجاز . لا ينظر فيه إلى علم الله وما هو عنده، ولكن ينظر فيه إلى المعنى الذى وضع له اللفظ فى عرف اللغة . والاستواء فى اللغة العربية يدل على ما هو مستحيل على الله فى ظاهره . فلابد إذن من صرفه عن هذا الظاهر . واللفظ إذا صرف عما وضع له واستعمل فى غير ما وضع له خرج عن الحقيقة إلى المجاز لا محالة ما دامت هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى . . . ثم إن كلامهم بهذه الصورة فيه تلبيس على العامة وفتنة لهم . فكيف يواجهونهم به ويحملونهم عليه ؟ وفى ذلك ما فيه من الإضلال وتمزيق وحدة الأمة، الأمر الذى نهانا القرآن عنه . والذى جعل عمر يفعل ما يفعل بصبيغ أو بابن صبيغ ، وجعل مالكا يقول ما يقول ويفعل ما يفعل بالذى سأله عن الاستواء . وقد مر بك هذا وذاك .

لو أنصف هؤلاء لسكتوا عن الآيات والأخبار المتشابهة ، واكتفوا بتنزيه الله تعالى عما توهمه ظواهرها من الحدوث ولوازمه ؛ ثم فوضوا الأمر فى تعيين معانيها إلى الله وحده وبذلك يكونون سلفيين حقا لكنها شبهات عرضت لهم فى هذا المقام، فشوشت حالهم، وبلبلت أفكارهم فلنعرضها عليك مع ما أشبهها والله يتولى هدانا وهداهم، ويجمعنا جميعا على ما يحبه ويرضاه آمين .

دفع الشبهات الواردة فى هذا المقام

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : إن القول بأن الله لا جهة له ، وأنه ليس فوقا ولا تحتا ولا يمينا ولا شمالا إلى غير ذلك، يستلزم أن الله غير موجود ، أو هو قول بأن الله غير موجود، فإن التجرد من الإنصاف بهذه المتقابلات جملة أمر لا يوسم به إلا المعدوم ومن لم يتشرف بشرف الوجود.

وندفع هذه الشبهة بأمور :

(أولها) أن هذا قياس للغائب على الشاهد ، وقياس الغائب على الشاهد فاسد ذلك أن الله تعالى ليس يشبه خلقه حتى يكون حكمه كحكمهم فى وجوب أن يكون له جهة من الجهات الست مادام موجودا وكيف يقاس المجرد عن المادة بما هو مادى ؟ ثم كيف يستوى الخالق وخلقه فى جريان أحكام الخلق على خالقه ؟ إن المادى هو الذى يجب أن يتصف بشىء من هذه المتقابلات ، وأن تكون له جهة من تلك الجهات . أما غير المادى فترتفع عنه هذه الصفات كلها ، ولا يمكن أن تكون له أية جهة من هذه الجهات جميعها . ونظير ذلك أن الإنسان لا بد أن يكون له أحد الوصفين ، فإما جاهل وإما عالم. أما الحجر فلا يتصف بواحد منها ألبتة ، فلا يقال : إنه جاهل ولا إنه عالم، بل العلم والجهل مرتفعان عنه ، بل هما ممتنعان عليه لا محالة، لأن طبيعته تأبى قابليته لكليهما. وهكذا تنتفى المتقابلات كلها بانتفاء قابلية المحل لها ، أيا كانت هذه المتقابلات، وأيا كان هذا المحل الذى ليس قابلا لها . فيمتنع مثلا أن توصف الدار بأنها سميعة أو صماء ، وأن توصف الأرض بأنها متكلمة أو خرساء ، وأن توصف السماء بأنها متزوجة أو أيم ، وهلم جرا .

(ثانيا) نقول لهؤلاء : أين كان الله قبل أن يخلق العرش والفرش والسماء والأرض؟ وقبل أن يخلق الزمان والمكان وقبل أن تكون هناك جهات ست؟ فإن قالوا : لم يكن له جهة ولا مكان ، نقول : قد اعترفتم بما نقول نحن به ، وهو الآن على ما عليه كان، لا جهة له ولا مكان. وإن زعموا أن العالم قديم بقدم الله ، فقد تداووا من داء بداء، واستجاروا من الرمضاء بالنار، ووجب أن ننتقل بهم إلى إثبات حدوث العالم ، والله هو ولى الهداية والتوفيق .

(ثالثا) نقول لهؤلاء : إذا كنتم تأخذون بظواهر النصوص على حقيقتها، فماذا تفعلون بمثل قوله تعالى : « أأمنتم مَن فى السماء » مع قوله: « وهو الله فى السموات وفى الأرض » ؟ أتقولون إنه فى السماء حقيقة ، أم فى الأرض حقيقة ، أم فيهما معا حقيقة ؟ وإذا كان فى الأرض وحدها حقيقة فكيف تكون له جهة فوق ؟ وإذا كان فيهما معا حقيقة فلماذا يقال

له جهة فوق ولا يقال له جهة تحت؟ ولماذا يشار إليه فوق ولا يشار إليه تحت؟ ثم ألا يعلمون أن الجهات أمور نسبية، فما هو فوق بالنسبة إلينا، يكون تحتا بالنسبة إلى غيرنا؟ فأين يذهبون!

(رابعاً) نقول لهؤلاء: ماذا تقولون فى قوله تعالى «يَدُ اللهِ فوقَ أيديهم» بإفراد اليد، مع قوله: «لما خلقت بيدى» بتثنيتها، ومع قوله: «والسماء بنيناها بأيدٍ» بجمعها. فإذا كنتم تعلمون النصوص على ظواهرها حقيقة، فأخبرونا: أله يد واحدة بناء على الآية الأولى؟ أم له يدان اثنتان بناء على الآية الثانية؛ أما له أيد أكثر من اثنتين بناء على الآية الثالثة؟!

(خامساً) نقول لهؤلاء: قد ورد فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟» رواه البخارى ومسلم وغيرهما. فكيف تأخذون بظاهر هذا الخبر، مع أن الليل مختلف فى البلاد باختلاف المشارق والمغارب؟ وإذا كان ينزل لأهل كل أفق نزولا حقيقيا فى ثلث ليلهم الأخير، فمتى يستوى على عرشه حقيقة كما تقولون؟ ومتى يكون فى السماء حقيقة كما تقولون؟ مع أن الأرض لا تخلو من الليل فى وقت من الأوقات، ولا فى ساعة من الساعات كما هو ثابت مسطور، لا يمارى فيه إلا جهول مأفون!

(سادسا) نقول لهؤلاء ما قاله حجة الإسلام الغزالى، ونصه: «نقول للمتشبث بظواهر الألفاظ: إن كان نزوله من السماء الدنيا ليسمعنا نداءه فما أسمعنا نداءه فأى فائدة فى نزوله؟ ولقد كان يمكنه أن ينادينا كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا. فلا بد أن يكون ظاهر النزول غير مراد، وأن المراد به شىء آخر غير ظاهره. وهل هذا إلا مثل من يريد وهو بالمشرق إسماع شخص فى المغرب، فتقدم إلى المغرب بخطوات معدودة، وأخذ يناديه وهو يعلم أنه لا يسمع نداءه؛ فيكون نقله الأقدام عملا باطلا، وسعيه نحو المغرب عبثا صرفا لا فائدة فيه. وكيف يستقر مثل هذا فى قلب عاقل؟» اهـ.

الشبهة الثانية ودفعها :

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى حاشيته على العقائد العضدية: «فإن قلت : إن كلام الله وكلام النبى ﷺ مؤلف من الألفاظ العربية ، ومدلولاتها معلومة لدى أهل اللغة ، فيجب الأخذ بمدلول اللفظ كائنا ما كان .

قلت : حينئذ لا يكون ناجيا إلا طائفة المجسمة الظاهريون القائلون بوجوب الأخذ بجميع النصوص وترك طريق الاستدلال رأسا مع أنه لا يخفى ما فى آراء هذه الطائفة من الضلال والإضلال، مع سلوكهم طريقا ليس بفيد اليقين بوجه، فإن للتخاطبات مناسبات ترد بمطابقتها فلا سبيل إلا الاستدلال العقلى وتأويل ما يفيد بظاهره نقصا إلى ما يفيد الكمال . وإذا صح التأويل للبرهان فى شىء صح فى بقية الأشياء ، حيث لا فرق بين برهان وبرهان ، ولا لفظ ولفظ .

وقال فى قوله تعالى : « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات » إن الوحى من الله للنبى صلى الله عليه وسلم تنزيلا وإنزالا ونزولا، لبيان علو مرتبة الربوبية لا أن هناك نزولا حسيا من مكان مرتفع إلى مكان منخفض. ومن الغريب أنهم يقولون فى الرد على هذا : إن علو الله على خلقه، حقيقة أثبتها لنفسه فى كتابه ، لا حاجة لتأويله بعلو مرتبة الربوبية ! وليت شعرى إذا لم نؤوله بعلو مرتبة الربوبية ، فماذا نريد منه؟ وهل بقى بعد ذلك شىء غير العلو الحسى الذى يستلزم الجهة والتحيز ؟ ولا يمكن نفى ذلك اللازم عنه متى أردنا العلو الحسى، فإن نفى التحيز عن العلو الحسى غير معقول، ولا معنى للاستلزام إلا هذا . أما هم فينفون اللوازم . ولا أدى كيف ننفى اللوازم مع فرضها لوازم ؟ هذا خلف . ولكن القوم ليسوا أهل منطق. والمتتبع لكلامهم يجد فيه العبارات الصريحة فى إثبات الجهة لله تعالى. وقد كفر العراقى وغيره مثبت الجهة لله تعالى، وهو واضح، لأن معتقد الجهة لا يمكنه

إلا أن يعتقد التحيز والجسمية ولا يتأتى غير هذا ، فإن سمعت منهم سوى ذلك فهو قول متناقض ، وكلامهم لا معنى له » اهـ .

الشبهة الثالثة ودفعها :

نقل السيوطى عن بعضهم أنه قال : « إن قيل : ما الحكمة فى إنزال المتشابه ممن أراد لعباده البيان والهدى . (قلنا) إن كان (أى المتشابه) مما يمكن علمه فله فوائد : منها الحث للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه ، فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب . ومنها ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات ، إذ لو كان كله محكما لا يحتاج إلى تأويل ونظر لاستوت منازل الخلق ، ولم يظهر فضل العالم على غيره . وإن كان (أى المتشابه) مما لا يمكن علمه (أى بأن استأثر الله به) فله فوائد : منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم ، والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ وإن لم يجز العمل بما فيه ، وإقامة الحجة عليهم ، لأنه لما نزل بلسانهم ولغتهم ؛ وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأفهامهم ، دل على أنه نزل من عند الله ؛ وأنه هو الذى أعجزهم عن الوقوف » اهـ .

ونسترعى نظرك هنا إلى ما أسلفناه فى الحكم الماضية ، ثم إلى ما ذكره ابن اللبان فى مقدمة كتابه : (رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات) إذ قال ما خلاصته . « ليس فى الوجود فاعل إلا الله ، وأفعال العباد منسوبة الوجود إليه تعالى بلا شريك ولا معين فهى فى الحقيقة فعله ، وله بها عليهم الحجة « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

ومن المعلوم أن أفعال العباد لا بد فيها من توسط الجوارح مع أنها منسوبة إليه تعالى وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى فى تجلياتها مظهرين : مظهر عبادى منسوب لعباده ، وهو الصور والجوارح الجثمانية . ومظهر حقيقى منسوب إليه ، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر العبادية

المنسوبة لعباده، على سبيل التقريب لأفهامهم والتأنيس لقلوبهم. ولقد نبه فى كتابه تعالى على القسمين وأنه منزه عن الجوارح فى الحالين فنبه على الأول بقوله: «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم» فهذا يفيد أن كل ما يظهر على أيدى العباد فهو منسوب إليه تعالى. ونبه على الثانى بقوله فيما أخبر عنه نبيه ﷺ فى صحيح مسلم: «ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه: فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها». وقد حقق الله ذلك لنبيه بقوله: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله» وبقوله: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» وبهذا يفهم ما جاء من الجوارح منسوبا إليه تعالى، فلا يفهم من نسبتها إليه تشبيه ولا تجسيم. ولكن الغرض من ذلك التقريب للأفهام، والتأنيس للقلوب. والواجب سلوكه إنما هو رد المتشابه إلى المحكم على القواعد اللغوية، وعلى مواضعات العرب وعلى ما كان يفهمه الصحابة والتابعون من الكتاب والسنة» اهـ ما أردنا نقله.

الشبهة الرابعة ودفعها:

نقل السيوطى أيضا عن الإمام فخر الدين الرازى أنه قال: «من الملحدة من طعن فى القرآن لأجل اشتماله على المتشابهات وقال: إنكم تقولون إن تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة، ثم إنا نراه بحيث يتمسك به صاحب كل مذهب على مذهبه، فالجبرى متمسك بآيات الجبر، كقوله تعالى «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا»، والقدرى يقول: هذا مذهب الكفار بدليل أنه تعالى حكى عنهم ذلك فى معرض الذم فى قوله: «وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه، وفى آذاننا وقر» وفى موضع آخر «وقالوا قلوبنا غلف» ومنكر الرؤية متمسك بقوله تعالى «لا تدركه الأبصار»(١) ومثبت الجهة متمسك بقوله تعالى: «يخافون ربهم من فوقهم» «الرحمن

---

(١) يظهر أن هنا سقطا، لعله هكذا: ومثبت الرؤية متمسك بقوله تعالى: «وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة».

على العرش استوى »، والثانى متمسك بقوله تعالى: (ليس كمثله شىء) ثم يسمى كل واحد الآيات الموافقة لمذهبه محكمة ، والآيات المخالفة متشابهة ، وإنما آل فى ترجيح بعضها على بعض إلى ترجيحات خفية ووجوه ضعيفة . فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الذى هو المرجوع إليه فى كل الدين إلى يوم القيامة هكذا ؟ .

والجواب أن العلماء ذكروا لوقوع المتشابه فيه فوائد : منها أنه يوجب مزيد المشقة فى الوصول إلى المراد ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب إلى آخر ما نقلناه عنه فيما سبق من بيان حكم الله وأسراره فى ذكر المتشابهات فاجعلها على بال منك فى رفع هذه الشبهة، وأضف إليها ما نقلناه آنفا عن ابن اللبان ، وما بسطناه فى دفع الشبهات السالفة . وارجع إلى ما كتبناه فى مثل هذا المقام بالمبحث السابع من هذا الكتاب .

الشبهة الخامسة ودفعها .

قال السيوطى فى كتابه الإتقان : أورد بعضهم سؤالا وهو أنه هل للمحكم مزية على المتشابه أو لا ؟ فإن قلتم بالثانى فهو خلاف الإجماع وإلا فقد نقضتم أصلكم فى أن جميع كلامه سبحانه سواء ، وإنه منزل بالحكمة .

وأجاب أبو عبدالله النكرباذى بأن المحكم كالمتشابه من وجه ويخالفه من وجه فيتفقان فى أن الاستدلال بهما لا يمكن إلا بعد معرفة حكمة الواضع وأنه لا يختار القبيح، ويختلفان فى أن المحكم بوضع اللغة لا يحتمل إلا الوجه الواحد فمن سمعه أمكنه أن يستدل به فى الحال، والمتشابه يحتاج إلى فكرة ونظر ليحمله على الوجه المطابق ولأن المحكم أصل والعلم بالأصل أسبق . ولأن المحكم يعلم مفصلا والمتشابه لا يعلم إلا مجملا اهـ .

أقول : ويمكن دفع هذه الشبهة بوجه أقرب ، وهو أن المحكم له مزية على المتشابه، لأنه بنص القرآن هو أم الكتاب على ماسلف بيانه والاعتراض بأن هذا ينقض الأصل المجمع عليه وهو أن جميع كلامه سبحانه سواء وأنه منزل بالحكمة: الاعتراض بهذا ساقط من أساسه لأن المساواة بين كلام الله إنما هى فى خصائص القرآن العامة ، ككونه منزلا على النبى ﷺ بالحق وبالحكمة وكونه متعبداً بتلاوته ومتحدى بأقصر سورة منه، ومكتوبا فى المصاحف ومنقولا بالتواتر ومحرما حمله ومسه على الجنب ونحو ذلك . والمساواة فى هذه الخصائص لاتنافى ذلك الامتياز الذى امتازت به المحكمات. وكيف يتصور التنافى على حين أن كلا من المحكم والمتشابه له حكمه وله مزاياه ؟ فمزية المحكم أنه أم الكتاب إليه ترد المتشابهات ، ومزية للمتشابه أنه محك الاختبار والابتلاء، ومجال التسابق والاجتهاد، إلى غير ذلك من الفوائد التى عرفتها . ثم كيف يتصور هذا التنافى والقرآن كله مختلف باختلاف موضاعاته وأحواله، فمنه عقائد وأحكام ، وأوامر ونواه ، وعبادات وقصص وتنبؤات ، ووعد ووعيد، وناسخ ومنسوخ، وهلم مما يستنفد ذكره وقتا طويلا. ولاريب أن كل نوع من هذه الأنواع له مزيته أو خاصته التى غاير بها الآخر ، وإن اشترك الجميع بعد ذلك فى أنها كلها أجزاء للقرآن ، متساوية فى القرآنية وخصائصها العامة. وخلاصة هذا الجواب أن امتياز المحكم على المتشابه فى أمور ، ومساواته إياه فى أمور أخرى، فلا تناقض ولا تعارض ، كما أن كل عضو من أعضاء جسم الإنسان له مزيته وخاصته التى صار بها عضوا، والكل بعد ذلك يساوى الآخر فى أنه جزء للإنسان فى خصائصه العامة من حس وحياة .

الشبهة السادسة ودفعها :

يقولون : إن الناظر فى موقف السلف والخلف من المتشابه، يجزم بأنهم جميعا مؤولون؛ لأنهم اشتركوا فى صرف ألفاظ المتشابهات عن ظواهرها. وصرفها عن ظواهرها تأويل لها

لامحالة. وإذا كانوا جميعا مؤولين فقد وقعوا جميعا فيما نهى الله عنه، وهو اتباع المتشابهات بالتأويل، إذ وصف سبحانه هؤلاء بأن فى قلوبهم زيغا، فقال فى الآية السابقة: «فأما الذينَ فى قُلوبهم زَيغٌ فيتَّبعون ماتَشابه منهُ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلهِ» .

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن القول بكون السلف والخلف مجمعين على تأويل المتشابه، قول له وجه من الصحة، لكن بحسب المعنى اللغوى أو مايقرب من المعنى اللغوى. أما بحسب الاصطلاح السائد فلا؛ لأن السلف وإن وافقوا الخلف فى التأويل، فقد خالفوهم فى تعيين المعنى المراد باللفظ بعد صرفه عن ظاهره، وذهبوا إلى التفويض المحض بالنسبة إلى هذا التعيين. أما الخلف فركبوا متن التأويل إلى هذا التعيين كما سبق تفصيله.

(ثانيا) أن القول بأن السلف والخلف جميعا وقعوا بتصرفهم السابق فيما نهى الله عنه، قول خاطىء، واستدلالهم عليه بالآية المذكورة استدلال فاسد، لأن النهى فيها إنما هو عن التأويل الآثم الناشىء عن الزيغ واتباع الهوى بقرينة قوله سبحانه (وأما الذينَ فى قُلوبهم زَيْغٌ) أى ميل عن الاستقامة والحجة، إلى الهوى والشهوة. أما التأويل القائم على تحكيم البراهين القاطعة واتباع الهداية الراشدة، فليس من هذا القبيل الذى حظره الله وحرمه. وكيف ينهانا عنه وقد أمرنا به ضمنا بإيجاب رد المتشابهات إلى المحكمات، إذ جعل هذه المحكمات هى أم الكتاب، على ماسبق بيانه؟ ثم كيف يكون مثل هذا التأويل الراشد محرما وقد دعا به الرسول ﷺ لابن عباس فقال فى الحديث المشهور: (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل)؟.

ويتلخص من هذا أن الله أرشدنا فى الآية إلى نوع من التأويل وهو مايكون برد المتشابهات إلى المحكمات. ثم نهانا عن نوع آخر منه. وهو ما كان ناشئا عن الهوى والشهوة، لا على البرهان والحجة، قصدا إلى الضلال والفتنة. وهما لونان مختلفان، وضربان بعيدان، بينهما برزخ لا يبغيان.

وإذن فمن لم يصرف لفظ المتشابه عن ظاهره الموهم للتشبيه أو المحال فقد ضل، كالظاهرية والمشبهة . ومن فسر لفظ المتشابه تفسيرا بعيدا عن الحجة والبرهان قائما على الزيغ والبهتان فقد ضل أيضا كالباطنية والإسماعيلية، وكل هؤلاء يقال فيهم إنهم متبعون للمتشابه ابتغاء الفتنة . أما من يؤول المتشابه أى يصرفه عن ظاهره بالحجة القاطعة، لا طلبا للفتنة، ولكن منعاً لها، وتثبيتا للناس على المعروف من دينهم، وردا لهم إلى محكمات الكتاب القائمة وأعلامه الواضحة، فأولئك هم الهادون المهديون حقا . وعلى ذلك درج سلف الأمة وخلفها وأئمتها وعلماؤها . روى عن البخارى عن سعيد بن جبير أن رجلا قال لابن عباس: « إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ . قال: ماهو ؟ . قال: « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وقال : « وأقبلَ بعضُهم على بعض يتساءلون » وقال « ولا يكتمون الله حديثا » وقال « قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » قال ابن عباس : « فلا أنساب بينهم فى النفخة الأولى ولا يتساءلون ، ثم فى النفخة الثانية أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . . فأما قوله « والله ربنا ما كنا مشركين » فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فيقول المشركون: تعالوا نقول ما كنا مشركين ، فيختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم ، فعند ذلك لا يكتمون الله حديثا » إلى آخر الحديث . نسأل الله أن يسلمنا، وأن يهدينا سواء الصراط، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم ، آمين .

المبحث السادس عشر

فى أسلوب القرآن الكريم

الأسلوب في اللغة :

يطلق الأسلوب فى لغة العرب إطلاقات مختلفة : فيقال للطريق بين الأشجار ، وللفن، وللوجه ، وللمذهب ، وللشموخ بالأنف ، ولعنق الأسد . ويقال لطريقة المتكلم فى كلامه

أيضا ، وأنسب هذه المعانى بالاصطلاح الآتى هو المعنى الأخير ، أو هو الفن أو المذهب لكن مع التقييد .

الأسلوب فى الاصطلاح :

تواضع المتأدبون وعلماء العربية ، على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التى يسلكها المتكلم فى تأليف كلامه واختيار ألفاظه ، أو هو المذهب الكلامى الذى انفرد به المتكلم فى تأدية معانيه ومقاصده من كلامه . أو هو طابع الكلام أو فنه الذى انفرد به المتكلم كذلك .

معنى أسلوب القرآن :

وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التى انفرد بها فى تأليف كلامه واختيار ألفاظه ، ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به ، فإن لكل كلام إلهى أو بشرى أسلوبه الخاص به . وأساليب المتكلمين وطرائقهم فى عرض كلامهم من شعر أو نثر ، تتعدد بتعدد أشخاصهم ، بل تتعدد فى الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التى يتناولها ، والفنون التى يعالجها .

الأسلوب غير المفردات والتراكيب :

ونلفت نظرك إلى أن الأسلوب غير المفردات والتراكيب التى يتألف منها الكلام وإنما هو الطريقة التى انتهجها المؤلف فى اختيار المفردات والتراكيب لكلامه .

وهذا هو السر فى أن الأساليب مختلفة باختلاف المتكلمين من ناثرين وناظمين ، مع أن المفردات التى يستخدمها الجميع واحدة ، والتراكيب فى جملتها واحدة ، وقواعد صوغ المفردات وتكوين الجمل واحدة ، وهذا هو السر أيضا فى أن القرآن لم يخرج عن معهود العرب فى لغتهم العربية ، من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة ، بل جاء كتابا عربيا جاريا على مألوف العرب من هذه الناحية ، فمن حروفهم تألفت كلماته ، ومن كلماتهم

تآلفت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة فى صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه، ولكن المعجز والمدهش والمثير لأعجب العجب، أنه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذى عهدوه، ومع مجيئه بهذه المفردات والتراكيب التى توافروا على معرفتها، وتنافسوا فى حلبتها، وبلغوا الشأو الأعلى فيها، نقول: إن القرآن مع ذلك كله وبرغم ذلك كله، قد أعجزهم بأسلوبه الفذ، ومذهبه الكلامى المعجز! ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذى يعرفونه، لأمكن أن يلتمس لهم عذر أو شبه عذر، وأن يسلم لهم طعن أو شبه طعن «ولو جعلناهُ قرآناً أعجمياً لقالوا: لولا فصِّلت آياته، أأعجمى وعربى ؟» ولهذا المعنى وصف الله كتابه بالعروبة فى غير آية. فقال جل ذكره فى سورة يوسف «إنا أنزلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» وقال فى سورة الزخرف: «إنا جعلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» وقال فى سورة الزمر: «قرآناً عربياً غير ذى عِوَج لعلهم يتقون».

مثال لهذا الفارق:

وبما أن الأمر قد اشتبه على بعض الناس حتى ضلوا فيه أو كادوا نمثل للفرق بين الأسلوب وبين المفردات والتركيب بمثالين حسيين أحدهما صناعة الحياطة، والآخر صناعة الصيدلة أو تحضير العقاقير والأدوية: فالخياطون يختلفون فيما بينهم اختلافاً بعيداً ما بين خامل ونابه فى صنعته، وضعيف وبارع فى حرفته. وهذا الاختلاف لم يجىء من ناحية مواد الثياب المخيطة، ولا من ناحية الآلات والأدوات والطرق العامة التى تستخدم فى الخياطة. إنما جاء الاختلاف من جهة الطريقة الخاصة التى اتبعت فى اختيار هذه المواد وتأليفها واستخدام قواعد هذه الصناعة فى شكلها وهندستها. وكذلك الصيادلة يختلفون فيما بينهم نباهة وخمولا وبراعة وقصورا. لا من حيث مواد الأدوية وعناصرها، ولا من حيث القواعد الفنية العامة فى تركيبها، بل من حيث حسن اختيار هذه المواد، ودقة تطبيق هذه القواعد فى تحضير العقاقير والأدوية، حتى لقد نشاهد أن مزاج الجيد منها وأثره ونفعه، يختلف بوضوح عن مزاج الردىء منها وأثره وضرره. وقل مثل هذا فى كل ما حولك من صناعات يختلف فيها الصانعون ومصنوعاتهم جودة ورداءة مع اتحاد مواد الصناعة الأولى وقواعدها العامة فى الجميع.

كذلكم البيان اللغوى فى أية لغة ، ما هو إلا صناعة، موادها وقواعدها واحدة فى المفردات والتراكيب، ولكن البيان يختلف بعد ذلك باختلاف الطرائق والأساليب ،وإن شئت فقل: يختلف باختلاف الأذواق والمواهب التى انتقت هذه المفردات اللغوية، واصطفت تلك الجمل التركيبية . حتى إنك لترى أهل اللغة الواحدة، يؤدون الغرض الواحد بوجوه مختلفة من المفردات، ومذاهب شتى من التراكيب، يتفاوت حظها من الجودة والرداءة، ومن الحسن والدمامة، ومن القبول والرد، بمقدار ما بينهم من اختلاف فى طرائق اختيارهم لما اختاروه من مواد اللغة إفراداً وتركيباً، ولما لاحظوه من المناسبات مع هذا الاختيار، فإذا سلم ذوق المتكلم وسمت حاسته البيانية، حسن اختياره، وسما كلامه ، سمواً قد يأخذ عليك حسك ويملك قبلك ولبك وإذا فسد ذوق المتكلم وانحطت حاسته البيانية، ساء اختياره، ونزل كلامه ، نزولا قد تتقزز منه نفسك ، ويتأذى به سمعك ، وربما فررت منه وأنت تتمثل بقول الشاعر :

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عوى وصوّت إنسانٌ فكدت أطير

بيان ذلك فى اللغة العربية :

بيان ذلك فى لغتنا المحبوبة العربية ، أن مفرداتها منها متآلف فى حروفه ومتنافر ، وواضح متأنس ، وخفى غريب، ورقيق خفيف على الأسماع، وثقيل كريه تمجه الأسماع، وموافق لقياس اللغة ومخالف له . ثم من هذه المفردات عام وخاص، ومطلق ومقيد ،ومجمل ومبين، ومعرف ومنكر، وظاهر ومضمر، وحقيقة ومجاز . وكذلك التراكيب العربية، منها ما هو حقيقة ومجاز، ومنها متآلف الكلمات ومتنافرها ، وواضح المعانى ومعقدها . وموافق للقياس اللغوى والخارج عليه، ومنها الاسمية والفعلية، والخبرية والإنشائية، وفيها النفى والإثبات ، والإيجاز والإطناب ، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل ، إلى غير ذلك مما هو مفصل فى علوم اللغة وكتبها .

ثم إن ما يؤيده معهود اللغة من المتنوعات المذكورة وما أشبهها، هو المسلك العام الذى ينفذ منه المتكلمون إلى أغراضهم ومقاصدهم. ولكن ليس شىء من هذه المتنوعات بالذى يحسن استعماله إطلاقا، ولا شىء منها بالذى يسوء استعماله إطلاقا، أى فى كافة الأحوال وجميع المقامات. بل لكل مقام مقال، فما يجمل فى موطن قد يقبح فى موطن آخر، وما يجب فى مقام قد يمتنع فى مقام آخر، ولولا هذا لكان الوصول إلى الطرف الأعلى من البلاغة هينا ولأصبح كلام الناس لونا واحدا وطعما واحدا. ولكن الأمر يرجع إلى حسن الاختيار من هذه المتنوعات بحسب ما يناسب الأحوال والمقامات، فخطاب الأذكياء غير خطاب الأغبياء. وموضوع العقائد التى يتحمس لها الناس غير موضوع القصص. وميدان الجدل الصاخب غير مجلس التعليم الهادى، ولغة الوعد والتبشير غير لغة الوعيد والإنذار إلى غير ذلك مما يجعل اختيار المناسبات عسيرا ضرورة أن الإحاطة بجميع أحوال المخاطبين قد تكون متعسرة أو متعذرة ومما يجعل اللفظ الواحد فى موضع من المواضع كأنه نجمة وضاءة لامعة، وفى موضع آخر كأنه نكتة سوداء مظلمة.

ولعلمائنا — أكرمهم الله — أذواق مختلفة فى استنباط الفروق الدقيقة بين استعمال حرف أو كلمة، مكان حرف أو كلمة. ومن السابقين فى حلبة هذا الاستنباط الخطيب الإسكافى المتوفى سنة ٤١٢ هـ فى كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل) وهاك مثالا منه يفيدنا فيما نحن فيه، إذ يتحدث عن سر التعبير بالفاء فى لفظ (كلوا) من قوله سبحانه فى سورة البقرة: « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم » وعن سر التعبير بالواو لا بالفاء فى لفظ « كلوا » أيضا، لكن من قوله سبحانه فى سورة الأعراف: « وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم » مع أن القصة واحدة، ومدخول الحرف واحد؟ قال رحمه الله:

« الأصل أن كل فعل عطف عليه ما تعلق به تعلق الجواب بالابتداء، وكان الأول مع الثانى بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثانى على الأول بالفاء، ومنه « وإذ قلنا

ادخُلوا هذه القرية فكُلُوا » فإن وجود الأكل متعلق بالدخول والدخول موصل إلى الأكل فالأكل وجوده معلق بوجوده بخلاف « وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القريةَ وكلُوا » لأن السكنى مقام مع طول لبث ، والأكل لا يختص وجوده بوجوده ، لأن من يدخل بستاناً قد يأكل منه مجتازاً . فلما لم يتعلق الثانى بالأول تعلق الجواب بالابتداء ، وجب العطف بالواو دون الفاء » اهـ .

تفاوت القوى والقدر :ـ

ولا ريب أن القوى والقدر تتفاوت تفاوتاً بعيداً فيما نعرف من الأحوال ومناسباتها ، وأن ميدان الاختيار فسيح ملىء بشتى الألوان والصور للمفردات ومركباتها. فماذا عسى أن تبلغ قدرة الإنسان فى استعراض كل هذه الألوان والصور ، وفى إقامة ميزان دقيق بينها ، تمهيداً لحسن الاختيار ، على ضوء تلك الأحوال المقتضية لما ينبغى أن يكون منها! هنا ينفسح المجال ثم ينفسح ، فما يهتدى إليه متكلم قد يغفل عنه متكلم ، وما يتيقظ له كاتب قد يغفل عنه كاتب، وما يدركه شاعر قد يفوت شاعراً آخر، بل ما يدركه الإنسان الواحد فى موضع قد يخطئه فى موضع سواه ، وهكذا .

وليس من غرضنا هنا أن نستقصى الأحوال والمناسبات، ولا أن نضرب الأمثال والشواهد لكل حال وما يناسبها، فلذلك محله من علوم اللغة وكتبها كما قلنا. ولكن الذى نريد أن نضع يدك عليه فى هذا المقام، هو أن أسلوب أى كلام بليغ، معناه صورته الفنية أو طابعه الخاص ، أو مزاجه الشخصى الذى تهيأ له برعاية صاحبه لجملة الأحوال ومناسباتها فى هذا الكلام. وأنه على حسب ما تحتوى أساليب الكلام من الأحوال والمناسبات ، يتفاوت هذا الكلام فى درجات البلاغة علوا ونزولا، وفى حظه عند السامعين رداً وقبولا. وأنه لم يظفر الوجود بكلام إلهى ولا بشرى بلغ الطرف الأعلى فى البلاغة ؛ ووصل إلى قمة الإعجاز من هذه الناحية ، غير القرآن الكريم ؛ لأن منشىء هذا الكتاب هـــو وحده الذى تعلقت إرادته بأن تكون معجزة نبى الإسلام من هذا الطراز لحكمة شرحناها وقد نعرض لها فيما يأتى ولأنه سبحانه هو الذى انتهت إليه الإحاطة بجميع أحوال الخلق وحده

ولأنه عز سلطانه هو القادر وحده . على تضمين كلامه كل المناسبات التي اقتضتها تلك الأحوال الكثيرة التي لم يحط ولن يحيط بها سواه ! . ومن الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق وفيها الخفي الذي لا يعلمه من يعلم السر وأخفى ؟ ثم من ذا الذي يستطيع أن يحيط بكل أحوال الخلق؛ وهم أجيال متعددة، منهم من لم يخلقوا وقت نزول القرآن، ومنهم من لم يعرفوا لنا إلى الآن ؟ بعد بضعة عشر قرنا من نزول هذا القرآن. وأنت خبير بأن القرآن هو كتاب الساعة الذي يخاطب الأجيال كافة ؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها . فلا غرو أن يضمنه منزله كل ما تحتاج إليه الأمم على اختلاف أجيالها من المناسبات الملائمة لأحوالهم ، وليس ذلك فى قدرة أحد إلا العليم بأسرار الخلق وخفيات السموات والأرض « قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض » « تنزيلًا ممن خلق الأرضَ والسموات العُلَى * الرحمنُ على العرشِ استوَى * له ما فى السمواتِ وما فى الأرض وما بينهما وما تحتَ الثَّرى * » .

ومن شواهد ما نذكر، أننا نلاحظ فى كثير من ألفاظ القرآن أنها اختيرت اختيارا يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار ، وذلك فى الألفاظ التي تمر بها على القرون والأجيال ، منذ نزل القرآن إلى اليوم فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره، ويلائم ذوقه ، ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال ، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة ، وكان ذلك قدحا فى أنه كتاب الدين العام الخالد، ودستور البشرية فى كل عصر ومصر. فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعا لحاجات الجميع، وافيا تجارب الجميع، ملائما لأذواق الجميع ، متفقا ومعارف الجميع ، مما يدل دلالة واضحة ، على أنه كلام الله وحده، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدا .

ولعل لنا عودة لمثل هذا الكلام فى فرصة أخرى . فلنمسك القلم عن الجولان فى هذا الميدان . ولنرجع عودا على بدء إلى أسلوب القرآن ولنذكر شيئا من خصائص

أسلوب القرآن ومزاياه التى انفرد بها . وكانت هى السر فى إعجازه اللغوى أو البلاغى أو الأسلوبى .

خصائص أسلوب القرآن :

إن الخصائص التى امتاز بها أسلوب القرآن . والمزايا التى توافرت فيه حتى جعلت له طابعا معجزا فى لغته وبلاغته ، أفاض العلماء فيها بين مقل ومكثر، ولكنهم بعدأن طال بهم المطاف ، وبعد أن دميت أقدامهم ، وحفيت أقلامهم ،لم يزيدوا على أن قدموا إلينا قلا من كثر وقطرة من بحر ، معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء ، وأن ماخفى عليهم فلم يذكروه أكثر مما ظهر لهم فذكروه ، وأنهم لم يزيدوا على أن قربوا لنا البعيد بضرب من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين . أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآنى وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمر استأثر به منزله الذى عنده علم الكتاب .

وإذن فلنذكر نحن بدورنا شيئا من خصائص أسلوب القرآن ، على وجه التمثيل والتقريب أيضا ... ومالا يدرك كله لا يترك أقله .

الخاصة الأولى :

مسحة القرآن اللفظية . فإنها مسحة خلابة عجيبة ، تتجلى فى نظامه الصوتى ، وجماله اللغوى .

١ ـ ونريد بنظام القرآن الصوتى ، اتساق القرآن وائتلافه فى حركاته وسكناته ، ومداته وغناته ، واتصالاته وسكتاته ، اتساقا عجيبا ، وائتلافا رائعا ، يسترعى الأسماع ويستهوى النفوس ، بطريقة لايمكن أن يصل إليها أى كلام آخر من منظوم ومنثور . وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية ، وهى مرسلة على وجه السذاجة

فى الهواء ؛ مجردة من هيكل الحروف والكلمات ، كأن يكون السامع بعيدا عن القارىء المجود ، بحيث لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزا بعضها عن بعض ، بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة المؤلفة من المدات والغنات، والحركات والسكنات، والاتصالات والسكتات ، نقول : إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية الساذجة يشعر من نفسه ولو كان أعجميا لا يعرف العربية ، بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب ، يفوق فى حسنه وجماله كل ماعرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر، لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملها، والطبع أن يمجها ، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافى فى القصيدة الواحدة غالبا وإن طالت ، على نمط يورث سامعه السأم والملل ، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل، لأنه يتنقل فيه دائما بين ألحان متنوعة، وأنغام متجددة، على أوضاع مختلفة يهز كل وضع منها أوتار القلوب ، وأعصاب الأفئدة .

وهذا الجمال الصوتى أو النظام التوقيعى ، هو أول شىء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن ، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء أكان مرسلا أم مسجوعا ، حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر؛ لأنهم أدركوا فى إيقاعه وترجيعه لذة ، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة ، لم يعرفوا شيئا قريبا منها إلا فى الشعر، ولكن سرعان ماعادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا ، حتى قال قائلهم ـ وهو الوليد ابن المغيرة ـ : « وماهو بالشعر » معللا ذلك بأنه ليس على أعاريض (١) الشعر فى رجزه (٢) ولا فى قصيده . بيد أنه تورط فى خطأ أفحش من هذا الخطأ ، حين زعم فى ظلام العناد

(١) جمع عروض على غير قياس كأنهم جمعوا عريضا . وهو ميزان الشعر أو الجزء الذى فى آخر النصف الأول من البيت ؟ مختار .

(٢) الرجز ضرب من الشعر وزنه مستفعلن ست مرات . وزعم الخليل أنه ليس بشعر وإنما هو أنصاف أبيات أو أثلاث ؟ قاموس .

والحيرة أنه سحر ، لأنه أخذ من النثر جلاله وروعته، ومن النظم جماله ومتعته ووقف منهما في نقطة وسط خارقة لحدود العادة البشرية ، بين إطلاق النثر وإرساله وتقييد الشعر وأوزانه . ولو أنصف هؤلاء لعلموا أنه كلام منثور لكنه معجز ليس كمثله كلام ،لأنه صادر من متكلم قادر ليس كمثله شيء . وما هو بالشعر ولا بالسحر، لأن الشعر معروف لهم بتقفيته ووزنه وقانونه ورسمه ، والقرآن ليس منه ؛ ولأن السحر محاولات خبيثة لا تصدر إلا من نفس خبيثة ، ولقد علمت قريش أكثر من غيرهم طهارة النفس المحمدية وسموها ونبلها ، إذ كانوا أعلم الناس به وأعرفهم بحسن سيرته وسلوكه، وقد نشأ فيهم وشب وشاب بينهم . هذا إلى أن القرآن كله ، ما هو إلا دعوة طيبة لأهداف طيبة، لا محل فيها إلى خبث ورجس ، بل هي تحارب السحر وخبثه ورجسه ، وتسمه بأنه كفر ، إذ قال : «ولكنَّ الشياطينَ كفروا يعلِّمونَ الناسَ السحرَ . وما أُنزِل على الملكينِ ببابلَ هارُوتَ ومارُوتَ وما يعلِّمانِ من أحدٍ حتى يقولا : إنما نحنُ فتنة فلا تكفر » .

ثم إن السحر معروف المقدمات والوسائل ، فليس بمعجز ، ولا يمكنه ولن يمكنه أن يأتي في يوم من الأيام بمثل هذا الذي جاء به القرآن .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله (بكسر القاف وفتح الباء) . قال الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له وكاره . قال : وماذا أقول ؟ فوالله مافيكم من رجل أعلم مني بالشعر لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن . والله مايشبه الذي يقوله شيئا من هذا . ووالله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ،وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ماتحته ! قال أبو جهل للوليد: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه فقال الوليد: دعني أفكر. فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره. وفي ذلك نزل

قوله تعالى «ذرنى ومَن خلقتُ وَحيدا * وجَعلتُ له مالًا ممدودًا وبنين شهودًا * ومهّدتُ له تمهيدًا * ثم يطمعُ أن أزيد * كلاَّ إنه كان لآياتنا عنيدا * سأرهقهُ صَعُودا * إنه فكّر وقدّر * فقتل كيفَ قدّر * ثم قُتل كيف قدّر * ثم نظرَ * ثم عَبَس وبَسَر * ثم أدبَر واستكبر * فقالَ إن هذا إلا سحرٌ يؤثر * إنْ هذا إلا قولُ البشر *» رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط البخارى. فانظر إلى الرجل حين أرسل نفسه على سجيتها العربية، وبديهتها الفطرية كيف أنصف فى حكمه، حين تجرد ساعة من عناده، وكفره، وقال: والله ما يشبه الذى يقوله شيئا من هذا إلى أن قال: وإنه ليحطم ما تحته. ثم انظر إلى الرجل حين غلبت عليه شقوته، وعاوده عناده وتعصبه، كيف قاوم فطرته وأكره نفسه على مخالفة شعوره ووجدانه وقال ما قال بعد أن حار وذهب كل مذهب فى ضلاله وحيرته، على نحو ما يصور القرآن تلك الحيرة والمقاومة والاستكراه بقوله: «إنه فكّر وقدّر» الخ. نسأل الله الحماية والهداية بمنه وكرمه. آمين.

٢ — ونريد بجمال القرآن اللغوى تلك الظاهرة العجيبة التى امتاز بها القرآن فى رصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيبا دونه كل ترتيب ونظام تعاطاه الناس فى كلامهم. وبيان ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة، تشعر بلذة جديدة فى رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض فى الكلمات والآيات هذا ينقر وذاك يصفر. وهذا يخفى وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، إلى غير ذلك مما هو مقرر فى باب مخارج الحروف وصفاتها فى علم التجويد. ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس فى هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة، الجامعة بين اللين والشدة، والخشونة والرقة، والجهر والخفية، على وجه دقيق محكم، وضع كلا من الحروف وصفاتها المتقابلة فى موضعه بميزان حتى تألف من المجموع قالب لفظى مدهش، وقشرة سطحية أخاذة امتزجت فيها جزالة البداوة فى غير خشونة، برقة الحضارة من غير ميوعة، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة. ولقد وصل هذا الجمال اللغوى إلى قمة الإعجاز، بحيث

لو داخل فى القرآن شىء من كلام الناس لاعتل مذاقه فى أفواه قارئيه ، واختل نظامه فى آذان سامعيه .

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوى ، وذاك النظام الصوتى، أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية، كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى . وذلك أن من شأن الجمال اللغوى والنظام الصوتى، أن يسترعى الأسماع، ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال فى كل إنسان، إلى هذا القرآن الكريم . وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفى آذانهم ، ويعرف بذاته ومزاياه بينهم، فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقا لقوله سبحانه : « إنا نحنُ نزَّلنا الذكرَ وإنَّا له لحافظونَ » .

الخاصة الثانية :

إرضاؤه العامة والخاصة. ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم ، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته ، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضى عقولهم وعواطفهم. وكذلك الخاصة إذا قرءوه أو قرئ عليهم ؛ أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته، وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدى كلام ليس كمثله كلام لا فى إشراق ديباجته ولا فى امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر، فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء، لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة لم يرض العامة لأنهم لا يفهمونه وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة، لم يرض الخاصة لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم .

الخاصة الثالثة :

إرضاؤه العقل والعاطفة . ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معاً،

ويجمع الحق والجمال معا . انظر إليه مثلا وهو فى معمعان الاستدلال العقلى على البعث والإعادة فى مواجهة منكريهما، كيف يسوق استدلاله سوقا يهز القلوب هزا، ويمتع العاطفة إمتاعا، بما جاء فى طى هذه الأدلة المسكتة المقنعة، إذ قال الله سبحانه فى سورة فصلت « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى . إنهُ على كل شيء قديرٌ » . وإذا قال فى سورة ق: « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ زوجٍ بهيج * تبصرةً وذكرى لكلِّ عبدٍ منيبٍ * ونزّلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد * والنخلَ باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ * رزقًا للعبادِ وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلكَ الخروج » . تأمل فى الأسلوب البارع ، الذى أقنع العقل وأمتع العاطفة فى آن واحد ، حتى فى الجملة التى هى بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل ، إذ قال فى الآية الأولى: إن الذى أحياها لمحيي الموتى وفى الآيات الأخيرة « كذلك الخروج » يا للجمال الساحر، ويا للإعجاز الباهر الذى يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا بأنصع الأدلة وأمتع المعروضات ، فى هذه الكلمات المعدودات ! .

ثم انظر إلى القرآن وهو يسوق قصة يوسف مثلا، كيف يأتى فى خلالها بالعظات البالغة، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة، على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة، إذ قال فى فصل من فصول تلك الرواية الرائعة « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلّقتِ الأبوابَ ، وقالت هَيتَ لك . قال معاذَ الله إنه ربى أحسنَ مثوايَ ، إنه لا يفلح الظالمون » . فتأمل فى هذه الآية كيف قوبلت دواعى الغواية الثلاث ، بدواعى العفاف الثلاث، مقابلة صورت من القصص الممتع جدا لا عنيفا بين جند الرحمن وجند الشيطان، ووضعتهما أمام العقل المنصف فى كفتى ميزان! وهكذا تجد القرآن كله مزيجا حلوا سائغا، يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية ، ويوجه العقول والعواطف معا جنبا إلى جنب لهداية الإنسان وخير الإنسان ! .

وهل تسعد بمثل هذا فى كلام البشر؟ لا ، ثم لا . بل كلامهم إن وفى بحق العقل بخس العاطفة حقها ، وإن وفى بحق العاطفة بخس العقل حقه ، وبمقدار ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر ، حتى لقد بات العرف العام يقسم الأساليب البشرية إلى نوعين لا ثالث لهما : أسلوب علمى وأسلوب أدبى : فطلاب العلم لا يرضيهم أسلوب الأدب ، وطلاب الأدب لا يرضيهم أسلوب العلم . وهكذا تجد كلام العلماء والمحققين فيه من الجفاء والعرى ، مالا يهز القلوب ويحرك النفوس ، وتجد فى كلام الأدباء والشعراء من الهزال والعقم العلمى مالا يغذى الأفكار ويقنع العقول ؛ ذلك لأن القوى العاقلة والقوى الشاعرة فى بنى الإنسان غير متكافئة . وعلى فرض تكافئها فى شخص فإنهما لا تعملان دفعة واحدة بل على سبيل البدل والمناوبة . فكلام الشخص إما وليد فكرة ، وإما وليد عاطفة ، وإما ثوب مرقع يتألف من جمل نظرية تكون ثمرة للتفكير ومن جمل عاطفية تكون ثمرة للشعور . أما أن تأتى كل جملة من جمله جامعة للغايتين معا ، فدون ذلك صعود السماء . وكيف يتمنى ذلك للإنسان ، وهو لم يوهب القوتين متكافئتين ، ولو تكافأتا لديه فإنه لا يستطيع أن يوجههما اتجاها واحد فى آن واحد متقارنتين « ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » أما القرآن فإنه انفرد بهذه الميزة بين أنواع الكلام ، لأنه تنزيل من القادر الذى لا يشغله شأن عن شأن ، والذى جمع بين الروح والجسد فى قران ، « فتبارك الله رب العالمين » .

الخاصة الرابعة :

جودة سبك القرآن وإحكام سرده[1] . ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره ، مبلغا لا يدانيه فيه أى كلام آخر ، مع طول نفسه ،

---

(١) يقال درع مسرّدة ومسرودة أى منسوجة متداخلة حلقها بعضها فى بعض فالمراد هنا أن القرآن مترابط الأجزاء متناسب تناسبا قويا .

وتنوع مقاصده وافتنانه وتلوينه فى الموضوع الواحد . وآية ذلك أنك إذا تأملت فى القرآن الكريم ؛ وجدت منه جسما كاملا تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه ولمحت فيه روحا عاما يبعث الحياة والحس على تشابك وتساند بين أعضائه . فإذا هو وحدة متماسكة متآلفة ، على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة . فبين كلمات الجملة الواحدة من التآخى والتناسق ، ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ، ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات . وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتابا سوىّ الخلق حسن السمت ، « قرآناً عربيًّا غيرَ ذِى عوجٍ » . فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتلعب بالعقول والأفكار ، على حين أنها مؤلفة من حلقات ، لكل حلقة منها وحدة مستقلة فى نفسها ذات أجزاء ، ولكل جزء وضع خاص من الحلقة ، ولكل حلقة وضع خاص من السبيكة ، لكن على وجه من جودة السبك وإحكام السرد ، جعل من هذه الأجزاء المنتشرة المتفرقة ، وحدة بديعة متآلفة ، تريك كمال الانسجام بين كل جزء وجزء ، ثم بين كل حلقة وحلقة ثم بين أوائل السبيكة وأواخرها وأواسطها .

يعرف هذا الإحكام والترابط فى القرآن ، كل من ألقى باله إلى التناسب الشائع فيه ، من غير تفكك ولا تخاذل ، ولا انحلال ولا تنافر بينما الموضوعات مختلفة متنوعة ، فمن تشريع إلى قصص إلى جدل إلى وصف إلى غير ذلك . وكتب التفسير طافحة ببيان المناسبات ، فنحيلك عليها ، ونكتفى بمثل واحد نضربه مع الاختصار والاقتصار .

هذه سورة الفاتحة ، تأمل كيف تترابط وتتناسق فى حسن تخلص من معنى إلى معنى ومن مقصد إلى مقصد : لقد افتتحت متوجة « باسم الله » كما يتوج القاضى كل حكم من أحكامه باسم جلالة الملك ، لإعلان الجهة التى يستمد منها نفوذه فى صدور أحكامه ، ثم انتقل الكلام فيها سريعا إلى الاستدلال على أن الاستعانة إنما هى به تعالى وحده ، وذلك بإضافة الاسم إلى لفظ الجلالة الذى هو اسم الذات الجامع لصفات الكمال ، وبوصف لفظ الجلالة بأنه

« الرحمن الرحيم » . ثم انتقل الكلام إلى إعلان أنه تعالى مستحق للمحامد كلها، مادام أنه المستعان وحده بالدليل. ثم انتقل الكلام إلى تدعيم هذا الاستحقاق بأدلة ثلاثة جرت على اسم الجلالة مجرى الأوصاف فى مقام حمده. « الحمد للهِ ربِّ العالمينَ * الرحمن الرحيم * مالكِ يومِ الدّين * » . ثم انتقل الكلام إلى إعلان وحدانيته ، فى ألوهيته وربوبيته « إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نستعينُ » ما دام أنه هو المعين وحده، ومستحق المحامد كلها وحده. ثم انتقل الكلام فى براعة إلى بيان المطمح الأعلى للإنسان، وأن هذا المطمح الأعلى هو الهداية إلى الصراط المستقيم، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى هذا المطمح عن طريق أحد إلا عن طريق الله وحده، بقرينة ما سبق من أدلة التوحيد والتمجيد قبله. « اهدِنا الصراطَ المستقيم » ثم انتقل الكلام من حيث لا تشعر أو من حيث تشعر ، إلى تقسيم الخلق بالنسبة إلى هذه الهداية ثلاثة أقسام ، تنبيهاً وإغراء على المقصود، وتحذيراً وتنفيراً من الوقوع فى نقيض هذا المقصود « صِراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهمْ ولا الضالين » . وإذا الناس أمام عينيك بين منعم عليه بمعرفة الحق واتباعه ، ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به ، وضال رضى أن يعيش عيشة الأنعام ؛ فى متاهة الجهالة والحيرة والضلال ، لا يكلف نفسه عناء البحث عن الحق ليتشرف بمعرفته ويسعد باتباعه . ثم تنظر فى سورة البقرة ، فإذا هى وما بعدها ترتبط بالفاتحة ارتباط المفصل بالمجمل. فالهداية إلى الصراط المستقيم صراط من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، تشرحها سورة البقرة وما وليها من سور القرآن . حيث جاءتنا بتفاصيل هـــذه الهداية ، فى بيانٍ كامل ، وعرض شامل .

أما بعد ، فقد يظن بعض الجهلة ، أن هذه الوحدة الفنية البيانية فى القرآن، أمر تافه هين ، لا يسمو إلى حد التنويه به ، فضلا عن أن ينظم فى عداد ما هو مناط للإعجاز . ولأجل الرد على هؤلاء، نطلب منهم أن ينظروا نظرة فاحصة فى كلام البلغاء وحملة الأقلام فإن لم يكن عندهم نظر ولا ذوق، فليستمعوا إلى حكم نقدة البيان وصيارفته عليهم، بأنهم

كثيراً ما يخطئون فى تنظيم أغراضهم إذا قالوا بل يأتون بها شتيتاً مفككا غير متماسك ولا متجاذب، مما يعاب الشعراء من أجله بسوء التخلص حين ينتقلون من غرض إلى غرض فى القصيدة الواحدة ومما يضطر الكتاب والعلماء والمؤلفين إلى تلافى هذا النقص ، بما يستخدمون فى تنقلاتهم بين أغراضهم ، من أسماء الإشارة وأدوات التنبيه والحديث عن النفس وكثرة التقسيم والترقيم والتبويب والعنونة ولفظ أما بعد نحو : هذا، وإن، ألا، وإن قلنا كذا ونقول كذا ، ينقسم الكتاب إلى مباحث . المبحث الأول فى كذا الخ، ينقسم هذا المبحث إلى نقاط أولها كذا الخ . ملاحظة . تنبيه . فذلكة . أما بعد الخ .

هذا فى كلام البشر . أما كلام ملك القوى والقدر . فإنه على تنوع أغراضه . وطول نفسه فى سوره وآياته . ينتقل من مقصد إلى مقصد وينقلك أنت معه بين هذه المقاصد . غير مستعين بوسائل العجز المذكورة . بل بطريقة سحرية قد تشعر بها وقد لا تشعر . وحسبك أن تنظر فى المثال الآنف الذى قدمناه لك فى سورة الفاتحة ، وحبذا أن تنظر فى أطول سور القرآن وهى سورة البقرة فإنك ستطرب وتعجب . وسيذهب بك الطرب والعجب إلى حد الذوق البالغ لهذا اللون من الإعجاز القاهر . وأدلك على كتاب النبأ العظيم فقد أجاد فى بيان هذا اللون وأبدع . وأشبع العقول والقلوب وأمتع بما عرض من التناسب والترابط بين آحاد هذه السورة !

الخاصة الخامسة :

براعته فى تصريف القول ، وثروته فى أفانين الكلام ، ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة ، بمقدرة فائقة خارقة ، تنقطع فى حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء . ولسنا هنا بسبيل الاستيعاب والاستقراء ، ولكنها أمثلة تهديك ، ونماذج تكفيك .

ا ـ منها تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية :

١ ـ الإتيان بصريح مادة الأمر ، نحو قوله سبحانه : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

٢ ـ والإخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين ، نحو « كتب عليكم الصيام » .

٣ ـ والإخبار بكونه على الناس نحو « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » .

٤ ـ والإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه ، نحو « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » أى مطلوب منهن أن يتربصن .

٥ ـ والإخبار عن المبتدأ بمعنى يطلب تحقيقه من غيره، نحو « ومن دخله كان آمنا » أى مطلوب من المخاطبين تأمين من دخل الحرم .

٦ ـ وطلب الفعل بصيغة فعل الأمر، نحو « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » أو بلام الأمر نحو « ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » .

٧ ـ والإخبار عن الفعل بأنه خير : « ويسألونكَ عنِ اليتامَى : قل إصلاح لهمْ خيرٌ » .

٨ ـ ووصف الفعل وصفا عنوانيا بأنه بر ، نحو « ولكن البر من اتقى » .

٩ ـ ووصف الفعل بالفرضية ، نحو « قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم » أى من بذل المهور والنفقة .

١٠ ـ وترتيب الوعد والثواب على الفعل ، نحو « مِنْ ذا الذى يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً ، فيضاعفه له وله أجرٌ كريمٌ » .

١١ ـ وترتيب الفعل على شرط قبله نحو « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » .

١٢ ـ وإيقاع الفعل منفيا معطوفا عقب استفهام نحو : « أفمن يخلقُ كمن لا يخلقُ . أفلَا تذكرون » أى تذكروا .

١٣ ـ وإيقاع الفعل عقب ترج ، نحو « ولعلكم تشكرون » .

١٤ ـ وترتيب وصف شنيع على ترك الفعل ، نحو « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

ب ـ ومنها تعبيره عن النهى بالوسائل الآتية :

١ ـ الإتيان فى جانب الفعل بمادة النهى ، نحو « إنما ينهاكم اللهُ عن الذينَ قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم » .

٢ ـ والإتيان فى جانبه بمادة التحريم ، نحو « إنما حرم ربى الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمونَ » .

٣ ـ ونفى الحل عنه ، نحو « لا يحلُّ لكم أن ترثوا النساء كرها » .

٤ ـ والنهى عنه بلفظ لا ، نحو « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن » .

٥ ـ ووصفه بأنه ليس برا ، نحو « وليسَ البرُّ بأن تأتُوا البيوت من ظُهورها » .

٦ ـ ووصفه بأنه شر ، نحو « ولا تحسبن الذين يبخلونَ بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شرٌّ لهم » .

٧ ـ وذكر الفعل مقرونا بالوعيد ، نحو « والذينَ يكنزون الذهبَ والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم » الخ .

٨ ـ وذكر الفعل منسوباً إليه الإثم ، نحو « فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمهُ على الذينَ يُبدّلونَه » .

٩ـ ١٥ ونظم الأمر فى سلك ما هو بالغ الإثم والحرمة ، والإخبار عن الفعل بأنه رجس ، ووصفه بأنه من عمل الشيطان، والأمر باجتنابه ورجاء الفلاح فى تركه، وترتيب مضار مؤذية على فعله ، والأمر بالانتهاء عنه فى صورة الاستفهام . ونمثل لهذه الطرق كلها ، بتحريم الخمر والميسر فى قوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا إنمَا الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ ، فاجتنبوهُ لعلكم تفلِحونَ * إنما يريدُ الشيطانُ أن يُوقعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ فى الخمرِ والميسرِ ويصدَّكم عن ذكرِ الله وعن الصلاةِ : فهلْ أنتم منتهونَ ؟ » .

ج ـ ومنها تعبيره عن إباحة الفعل بالطرق الآتية :

١ ـ التصريح فى جانبه بمادة الحل ، نحو « أحلّت لكم بهيمة الأنعام » .

٢ ـ والأمر به مع قرينة صارفة عن الطلب ، نحو « وكلوا واشربوا » .

٣ ـ ونفى الإثم عن الفعل ، نحو « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » .

٤ ـ ونفى الحرج عنه ، نحو « ليسَ على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريض حرجٌ » أى فى ترك القتال . أو فى الأكل من البيوت[1] .

٥ ـ ونفى الجناح عنه فى غير ماادعى فيه الحرمة ، نحو «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا ، إذا مااتقوا وآمنوا وعملوا الصالحاتِ » الخ[2] . أما ما ادعى

(١) تجد هذا النص الكريم فى سورة الفتح عقب توعد من يتخلف عن القتال فى قوله سبحانه «قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم» الخ. ثم تجد هذا النص الكريم أيضا فى سورة النور نازلا بسبب وهو أن المسلمين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو ووضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والمريض والأعرج وعند أقاربهم ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتحرجون ويقولون . . نخشى ألا تكون نفوسهم بذلك طيبة .

(٢) نزلت فيمن تعاطى شيئاً من الخمر والميسر قبل التحريم . فقرر لهم أن ذلك كان مباحا لهم .

فيه الحرمة فإن نفى الجناح عنه يصدق بوجوبه ، نحو « فمن حجّ البيتَ أو اعتمرَ فلا جناح عليه أن يطّوف بهما » .

٦ ـ وإنكار تحريمه فى صورة استفهام ، نحو « قل منْ حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » .

٧ ـ والامتنان بالشىء ووصفه بأنه رزق حسن، نحو «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذونَ منه سكراً ورزقاً حسناً » .

وهكذا تجد القرآن يفتنّ فى أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعددة ، بين إنشاء وإخبار ، وإظهار وإضمار ، وتكلم وغيبة وخطاب ومضى وحضور واستقبال ، واسمية وفعلية ، واستفهام وامتنان ، ووصف ، ووعد ووعيد إلى غير ذلك. ومن عجب أنه فى تحويله الكلام من نمط إلى نمط . كثيرا ما تجده سريعا لا يجارى فى سرعته . ثم هو على هذه السرعة الخارقة لا يمشى مكبا على وجهه ، مضطربا أو متعثرا، بل هو محتفظ دائما بمكانته العليا من البلاغة ، « يمشى سويًّا على صراط مستقيم » .

ولقد خلع هذا التصرف والافتنان ، لباسا فضفاضا من الجدّة والروعة على القرآن، ومسحه بطابع من الحلاوة والطلاوة، حتى لا يمل قارئه ، ولا يسأم سامعه ، مهما كثرت القراءة والسماع . بل ينتقل كل منهما من لون إلى لون ؛ كما ينتقل الطائر فى روضة غناء من فنن إلى فنن ؛ ومن زهر إلى زهر .

واعلم أن تصريف القول فى القرآن على هذا النحو ؛ كان فنا من فنون إعجازه الأسلوبى كما ترى ، وكان فى الوقت نفسه منة يمنها الله على الناس؛ ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر فى القرآن والإقبال عليه قراءة وسماعا ؛ وتدبرا وعملا ، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة وسفه نفسه . اقرأ إن شئت قوله سبحانه : فى سورة الإسراء : « ولقد صرّفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ؛ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً »

وقوله سبحانه فى سورة الكهف : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناسِ من كل مثلٍ ، وكان الإنسانُ أكثرَ شىء جدلا » وقوله سبحانه فى سورة الرعد : « كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ » .

الخاصة السادسة :

جمع القرآن بين الإجمال والبيان. مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان فى كلام واحد للناس! بل كلامهم إما مجمل وإما مبين[1]. لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان. وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان، ولكن القرآن وحده هو الذى انخرقت له العادة، فتسمع الجملة منه وإذا هى بينة مجملة فى آن واحد، أما أنها بينة أو مبيَّنة (بتشديد الياء وفتحها) فلأنها واضحة المغزى وضوحا يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة، فإذا أمنعت النظر فيها لاحت منها معان جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحا، وكلما أمنعت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار، بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد على حد قول القائل.

« يزيدُك وجههُ حُسنا إذا مازدته نظرا »

ولهذا السر وسع كتاب الله جميع أصحاب المذهب الحضر من أبناء البشر، ووجد أصحاب هذه المذاهب المختلفة والمشارب المتباينة، شفاء أنفسهم وعقولهم فيه، وأخذت الأجيال المتعاقبة من مدده الفياض ما جعلهم يجتمعون عليه ويدينون به. ولا كذلك البشر

---

(١) المجمل ما له دلالة غير واضحة ، فخرج المهمل والمبين . والمبين ما لا خفاء فيه لا ماوقع إليه السياق. مثال الأول لفظ القرء ولفظ مختار، وقوله تعالى: « إلا ما يتلى عليكم » لأن الأول متردد بين الحيض والطهر ، والثانى بين الفاعل والمفعول والثالث مجهول معناه قبل نزول آية (حرمت عليكم الميتة) . والمبين نحو : والسارق والسارقة فاقطعوا - و - حرمت عليكم أمهاتكم .

فى كلامهم ، فإنهم إذا قصدوا إلى توضيح أغراضهم ، ضاقت ألفاظهم ولم تتسع لاستنباط وتأويل . وإذا قصدوا إلى إجمالها ، لم يتضح ما أرادوه ، وربما التحق عندئذ بالألغاز وما لا يفيد .

والأمر فى هذه الخاصة ظاهر غنى بظهوره عن التمثيل . وحسبك أن ترجع إلى كتب التفسير ، ففيها من ذلك الشىء الكثير « ولا ينبئك مثل خبير » .

الخاصة السابعة :

قصد القرآن فى اللفظ مع وفائه بالمعنى . ومعنى هذا أنك فى كل من جمل القرآن ، تجد بيانا قاصدا مقدرا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية ، دون أن يزيد اللفظ على المعنى ، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق . ومع هذا القصد اللفظى البرىء من الإسراف والتقتير ، تجده قد جلى لك المعنى فى صورة كاملة ، لا تنقص شيئا يعتبر عنصرا أصليا فيها أو حلية مكملة لها ، كما أنها لا تزيد شيئا يعتبر دخيلا فيها وغريبا عنها . بل هو كما قال الله : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) .

ولا يمكن أن تظفر فى غير القرآن ، بمثل هذا الذى تظفر به فى القرآن ، بل كل منطيق بليغ مهما تفوق فى البلاغة والبيان ، تجده بين هاتين الغايتين ، كالزوج بين ضرتين : بمقدار ما يرضى إحداهما يغضب الأخرى . فإن ألقى البليغ باله إلى القصد فى اللفظ وتخليصه مما عسى أن يكون من الفضول فيه ، حمله ذلك فى الغالب على أن يغض من شأن المعنى ، فتجىء صورته ناقصة خفية ، ربما يصل اللفظ معها إلى حد الإلغاز والتعمية . وإذا ألقى البليغ باله إلى الوفاء بالمعنى وتجلية صورته كاملة ، حمله ذلك على أن يخرج عن حد القصد فى اللفظ ، راكبا متن الإسهاب والإكثار ، حرصاً على ألا يفوته شىء من المعنى الذى يقصده ولكن يندر حينئذ أن يسلم هذا اللفظ من داء التخمة فى إسرافه وفضوله ، تلك التخمة التى تذهب ببهائه ورونقه ، وتجعل السامع يتعثر فى ذيوله ، لا يكاد يميز بين زوائد المعنى وأصوله .

وإذا افترضنا أن بليغا كتب له التوفيق بين هاتين الغايتين ـ وهما القصد فى اللفظ مع الوفاء بالمعنى ـ فى جملة أو جملتين من كلامه ، فإن الكلال والإعياء لابد لاحقا به فى بقية هذا الكلام ، وندر أن يصادفه هذا التوفيق مرة ثانية، إلا فى الفينة بعد الفينة، كما تصادف الإنسان قطعة من الذهب أو الماس فى الحين بعد الحين ،وهو يبحث فى التراب أو ينقب بين الصخور .

وإن كنت فى شك فسائل أئمة البيان وصيارفته : هل ظفرتم بقطعة من النثر ، أو بقصيدة من الشعر ، كانت كلها أو أكثرها جامعا بين وفاء المعنى وقصد اللفظ ؟ . هاهم أولاء يعلنون حكمهم صريحا بأن أبرع الشعراء لم يكتب له التبريز والإجادة ، والجمع بين المعنى الناصع واللفظ الجامع إلا فى أبيات معدودة من قصائد محدودة. أما سائر شعرهم بعد، فبين متوسط وردىء. وهاهم أولاء يعلنون حكمهم هذا نفسه أو أقل منه ،على الناثرين من الخطباء والكتاب .

وإن أردت أن تلمس بيدك هذه الخاصة، فافتح المصحف الشريف مرة ، واعمد إلى جملة من كتاب الله، وأحصها عددا، ثم خذ بعدد تلك الكلمات من أى كلام آخر، وقارن بين الجملتين ، ووازن بين الكلامين ، وانظر أيهما أملأ بالمعانى مع القصد فى الألفاظ؟ ثم انظر أى كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها بما هو خير منها فى ذلك الكلام الإلهى؟ وكم كلمة يجب أن تسقطها أو تبدلها فى ذلك الكلام البشرى ؟ إنك إذا حاولت هذه المحاولة، فستنتهى إلى هذه الحقيقة التى أعلنها ابن عطية فيما يحكى السيوطى عنه وهو يتحدث عن القرآن الكريم إذ يقول : «لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد» اهـ. وذلك بخلاف كلام الناس مهما سما وعلا، حتى كلام رسول الله ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم، وأشرقت نفسه بنور النبوة والوحى، وصيغ على أكمل ما خلق الله ، فإنه مع تحليقه فى سماء البيان ، وسموه على كلام كل إنسان، لا يزال هناك بون بعيد بينه وبين القرآن . وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم !.

تعليق وتمثيل :

يحلو لى أن أسوق إليك هنا كلمة قيمة، فيها تعليق وتمثيل لما نحن بصدده، وهى لصديقنا العلامة الجليل الشيخ محمد عبدالله دراز فى كتابه (النبأ العظيم) الذى اقتبسنا منه فيما يتصل بإعجاز القرآن كثيرا .

« قلنا : إن القرآن الكريم يستثمر دائما برفق أقل مايمكن من اللفظ ، فى توليد أكثر مايمكن من المعانى . أجل : تلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوى فيها مواضع إجماله التى يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله التى يسمونها مقام الإطناب . ولذلك نسميه إيجازاً كله ، لأننا نراه فى كلا المقامين لايجـــاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف ميلا ما. ونرى أن مراميه فى كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه ولا بما يساويها ، فليس فيه كلمة إلا هى مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى .

دع عنك قول الذى يقول فى بعض الكلمات القرآنية : إنها « مقحمة » وفى بعض حروفه إنها « زائدة » زيادة معنوية . ودع عنك قول الذى يستخف كلمة التأكيد فيرمى بها فى كل موطن يظن فيه الزيادة لايبالى أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيده أو لاتكون ، ولا يبالى أن يكون بالموضع حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به . أجل: دع عنك هذا وذاك؛ فإن الحكم فى القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها ، إنما هو ضرب من الجهل ـ مستورا أو مكشوفا ـ بدقة الميزان الذى وضع عليه أسلوب القرآن .وخذ نفسك أنت بالغوص فى طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح، فإن عمى عليك وجه الحكمة فى كلمة منه أو حرف، فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون، ولكن قل قولا سديداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف قل: « الله أعلم بأسرار كلامه، ولا علم لنا إلا بتعليمه » ثم إياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن استجلاء تلك الأسرار

قائلا : « أين أنا من فلان وفلان » كلا ، فرب صغير مفضول قد فطن إلى ما لم يفطن له الكبير الفاضل ، ألا ترى إلى قصة عمر فى الأحجية المشهورة[١] فجد فى الطلب (وقل ربِّ زِدنى علماً) فعسى الله أن يفتح لك بابا من الفهم تكشف به شيئا مما عمى على غيرك ـ والله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلماتِ إلى النُّور .

ولنضرب لك مثلا قوله تعالى : « لَيْسَ كمثله شىء » .

أكثر أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف بل على وجوب زيادتها فى هذه الجملة ، فراراً من المحال العقلى الذى يفضى إليه بقاؤها على معناها الأصلى من التشبيه؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية التشبيه عن مثل الله ، فتكون تسليما بثبوت المثل له سبحانه : أو على الأول محتملة لثبوته وانتفائه ، لأن السالبة كما يقول علماء المنطق تصدق بعدم الموضوع ، أو لأن النفى ـ كما يقول علماء النحو ـ قد يوجه[٢] إلى المقيد وقيده جميعا . تقول: ليس لفلان ولد يعاونه ، إذا لم يكن له ولد قط ،أو كان له ولد لا يعاونه. وتقول (ليس محمد أخاً لعلى) إذا كان أخاً لغير علىّ أو لم يكن أخاً لأحد . وقليل منهم من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها، إذ رأى أنها لا تؤدى إلى ذلك المحال لا نصا

---

(١) قرأ النبى ﷺ قوله تعالى: « ألم تر كيف ضربَ اللهُ مثلًا كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ الآية ٢٤ من سورة إبراهيم «١٤» وقال: « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها لمثل المسلم . فحدثونى ما هى ؟ » فخفى على القوم علمها ، وجعلوا يذكرون أنواعا من شجر البادية . وفهم ابن عمر أنها النخلة، وكان عاشر عشرة هو أحدثهم سنا، وفيهم أبو بكر وعمر . فقال ﷺ : « هى النخلة » الحديث رواه الشيخان . وفى القرآن : « ففهمناها سليمان » الآية ٧٩ من سورة الأنبياء «٢١» .

(٢) لعل تمام الكلام : أو لأن النفى ـ كما يقول علماء النحو ـ قد يوجَّه إلى القيد وحده وقد يوجه إلى المقيد وقيده جميعا الخ .

ولا احتمالا ، لأن نفى مثل المثل يتبعه فى العقل نفى للمثل أيضاً . وذلك أنه لو كان هناك مثل لله . لكان لهذا المثل مثل قطعا وهو الإله الحق نفسه ، فإن كل متماثلين يعد كلاهما مثلا لصاحبه ، وإذاً لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل ، وهو المطلوب .

وقصارى هذا التوجيه ـ لو تأملته ـ أنه مصحح لا مرجح ، أى أنه ينفى الضرر عن هذا الحرف ، ولكنه لا يثبت فائدته ، ولا يبين مسيس الحاجة إليه . ألست ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء، وأنه إن كان قد ازداد به شيئاً فإنما ازداد شيئاً من التكلف والدوران وضربا من التعمية والتعقيد . وهل سبيله إلا سبيل الذى أراد أن يقول هذا أخو فلان . فقال: هذا ابن أخت خالة فلان ؟ فمآله إذاً إلى القول بالزيادة التى يسترونها باسم التأكيد . ذلك الاسم الذى لا نعرف له مسمى هاهنا ، فإن تأكيد المماثلة ليس مقصوداً ألبتة ، وتأكيد النفى بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان .

ولو رجعت إلى نفسك قليلا لرأيت هذا الحرف فى موقعه محتفظا بقوة دلالته، قائماً بقسط جليل من المعنى المقصود فى جملته ، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى أو لتهدم ركن من أركانه . ونحن نبين لك هذا من طريقين أحدهما أدق مسلكا من الآخر:

﴿ الطريق الأول ﴾ وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور : أنه لو قيل (ليس مثله شىء) لكان ذلك نفياً للمثل المكافىء ، وهو المثل التام المماثلة فحسب ؛ إذ أن هذا المعنى هو الذى ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه. وإذاً لدب إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام ، أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها ، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء ، أو للكواكب وقوى الطبيعة، أو للجن و الأوثان والكهان، فيكون لهم بالإله الحق شبه ما فى قدرته أو علمه، وشرك ما فى خلقه أو أمره فكان وضع هذا الحرف فى الكلام إقصاء للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها ، كأنه قيل : ليس هناك شىء يشبه أن يكون مثلا لله، فضلا عن أن يكون مثلا له على الحقيقة ، وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى على حد قوله تعالى (فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرْهما) نهياً عن يسير الأذى صريحاً ، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى .

﴿ الطريق الثانى ﴾ وهو أدق مسلكا : أن المقصود الأول من هذه الجملة ـ وهو نفى الشبيه ـ وإن كان يكفى لأدائه أن يقال (ليس كالله شىء) أو (ليس مثله شىء) لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمى إليه الآية الكريمة . بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم ، تريد فى الوقت نفسه أن تلفتك إلى وجه حجته وطريق برهانه العقلى .

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفى عن امرئٍ نقيصة فى خلقه فقلت : « فلان لا يكذب ولا يبخل » أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها ـ فإذا زدت فيه كلمة فقلت (مثل فلان لا يكذب ولا يبخل) لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله مبرأ من تلك النقائص ، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلى ، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك ؛ لوجود التنافى بين طبيعة هذه الصفات وبين ذلك النقص الموهوم .

على هذا المنهج البليغ وضعت الآية الكريمة الحكيمة قائلة : (مثله تعالى لايكون له مثل) تعنى أن من كانت له تلك الصفات الحسنى وذلك المثل الأعلى ، لا يمكن أن يكون له شبيه ، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه ؛ فلا جرم جىء فيها بلفظين كل واحد منهما يؤدى معنى المماثلة ليقوم أحدهما ركناً فى الدعوى. والآخر دعامة لها وبرهانا. فالتشبيه المدلول عليه (بالكاف) لما تصوب إليه النفى تأدى به أصل التوحيد المطلوب، ولفظ (المثل) المصرح به فى مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب .

واعلم أن البرهان الذى ترشد إليه الآية على هذا الوجه برهان طريف فى إثبات وحدة الصانع : لا نعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله فكل براهينهم فى الوحدانية قائمة على إبطال التعدد بإبطال لوازمه وآثاره العملية ، حسب ما أرشد إليه قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

أما آية الشورى المذكورة فإنها ناظرة إلى معنى وراء ينقض فرض التعدد من

أساسه : ويقرر استحالته الذاتية فى نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار ، فكأننا بهـا تقول لنا : ـ

إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التى تقبل التعدد والاشتراك والتماثل فى مفهومها ، كلا ، فإن الذى يقبل ذلك إنما هو الكمال الإضافى الناقص. أما الكمال التام المطلق الذى هو قوام معنى الإلهية فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والاثنينية ؛ لأنك مهما حققت معنى الإلهية حققت تقدما على كل شىء وإنشاء لكل شىء (فاطر السموات والأرض) ، وحققت سلطانا على كل شىء ، وعلوا فوق كل شىء ، (له مقاليد السموات والأرض) . فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان فى هذه الصفات لتناقضت ، إذ تجعل كل واحد منهما سابقا مسبوقا ومنشئًا منشأ ، ومستعليا ، مستعلى عليه أو لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد فيهما ، إذ تجعل كل واحد منهما بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقا ولا مستعليا ، فأنى يكون كل منهما إلٰها ، وللإلٰه المثل الأعلى ؟ !

أرأيت كم أفدنا من هذه (الكاف) وجوها من المعانى كلها شاف كاف . فاحفظ هذا المثال ، وتعرف به دقة الميزان الذى وضع عليه النظام الحكيم حرفا حرفا » اهـ .

وهو كلام جد نفيس ، فاحرص عليه .

الشبهات الواردة على أسلوب القرآن

تنمر أعداء الله على القرآن ، وألقوا فى طريق الإيمان به حبالا وعصيا من التخييلات والأوهام . من ذلك شبهات لفقوها ووجهوها إلى أسلوبه . وهى مع التوائها وخبثها تراها مفضوحة منقوضة فى هذا الكتاب ، (بالجزء الأول ، من ص ٧٢ ـ ٧٤ ومن صفحة ١٩٩ ـ ٢٣٢ بالطبعة الثانية) فارجع إلى ذلك هناك ، والله يتولى بتوفيقه هدانا وهداك وهو حسبنا ونعم الوكيل .

المبحث السابع عشر

فى إعجاز القرآن وما يتعلق به

إعجاز القرآن مركب إضافى، معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به. فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به. والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به. ولكن التعجيز المذكور ليس مقصودا لذاته، بل المقصود لازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذى جاء به رسول صدق. وكذلك الشأن فى كل معجزات الأنبياء، ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز، ولكن للازمه وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون عن الله. فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات، إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر، لحكمة عالية، وهى إرشادهم إلى تصديق من جاء بها ليسعدوا باتباعه فى الدنيا والآخرة.

ولقد تناولنا فى المبحث الثالث من هذا الكتاب، الكلام على المعجزة ماهى؟ وعلى الفرق بينها وبين السحر وغيره، وعلى وجه دلالتها على تأييد الحق وتصديق الرسل، مع ضرب الأمثال ونقض الشبهات. فارجع إلى ذلك هناك (ص ٥٦ ـ ٨٤ من الجزء الأول).

وقبل أن نخوض فى موضوعنا هـذا، ننبهك إلى أننا سنختص سيدنا محمداً ﷺ بالذكر فى نفى نسبة القرآن إليه، وذلك للتنصيص من أول الأمر على ما يشبه محل النزاع أو موضع الاشتباه عند كثير من أشباه الناس. ولأنه إذا كانت طبيعة القرآن تأبى أن ينسب إلى أفضل الخلق على أنه من تأليفه، فأحر بها أن تأبى نسبته إلى غيره بالطريق الأولى.

ومتى سلم الدليل على أن القرآن كلام الله وحده، سلمت نبوة نبى الإسلام، وسلم كل ماجاء به القرآن؛ وسلم الإسلام كله بل سلمت الأديان الصحيحة والكتب الإلهية كلها؛

لأنه لم يبق على وجه الأرض شاهد مقبول الشهادة إلا هذا الكتاب الذى أنزله الله مقرراً لنبوة الأنبياء السابقين وأديانهم ، ومصححاً لأغلاط اللاغطين فيها والمحرفين لها: «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » .

« الله أكبر ؛ إن دينَ محمد   وكتابَه أهدى وأقومُ قيلا
لاتذكروا الكُتبَ السوالفَ عنده   طلع الصباحُ فأطفِئ القِنديلا »

وجوه إعجاز القرآن

الناظر فى هذا الكتاب الكريم بإنصاف، تتراءى له وجوه كثيرة مختلفة من الإعجاز، كما تتراءى للناظر إلى قطعة من الماس ألوان عجيبة متعددة بتعدد مافيها من زوايا وأضلاع، ومختلفة باختلاف ما يكون عليه الناظر وما تكون عليه قطعة الماس من الأوضاع. وسنبدأ بما نراه سليما من المطاعن ، ثم نقفى بما لا يسلم فى نظرنا من طعن .

الوجه الأول : لغته وأسلوبه

أما الوجه الأول فلغته وأسلوبه ، على نحو ما فصلناه فى المبحث السابق . وبيان ذلك أن القرآن جاء بهذا الأسلوب الرائع الخلاب ، الذى اشتمل على تلك الخصائص العليا التى تحدثنا عنها والتى لم تجتمع بل لم توجد خاصة واحدة منها فى كلام على نحو ما وجدت فى القرآن وكل ما كان من هذا القبيل فهو لاشك معجز ، خصوصا أن النبى ﷺ تحدى به فأعجز أساطين الفصحاء ، وأعيا مقاويل البلغاء ؛ وأخرس ألسنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان . وذلك فى عصر كانت القوى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز فى هذا الميدان، وفى أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق فى هذه الناحية ! . وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن ، فغيرهم أشد عجزاً وأفحش عيا .

وها قد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا، أدوار مختلفة

بين علو ونزول ، واتساع وانقباض ، وحركة وجمود ، وحضارة وبداوة ، والقرآن فى كل هذه الأدوار واقف فى علياته ، يطل على الجميع من سمائه ، وهو يشع نوراً وهداية ، ويفيض عذوبة وجلالة ، ويسيل رقة وجزالة ويرف جدة وطلاوة . ولا يزل كما كان غضًّا طريًّا يحمل راية الإعجاز ويتحدى أمم العالم فى يقين وثقة قائلا فى صراحة الحق وقوته ، وسلطان الإعجاز وصولته : « قل لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتونَ بمثلهِ ، ولو كانَ بعضهمْ لبعض ظهيراً » .

القدر المعجز من القرآن

ومن عجيب أمر هذا القرآن وأمر هؤلاء العرب ، أنه طاولهم فى المعارضة ، وتنازل لهم عن التحدى بجميع القرآن إلى التحدى بعشر سور مثله ، ثم إلى التحدى بسورة واحدة من مثله ، وهم على رغم هذه المطاولة ، ينتقلون من عجز إلى عجز ، ومن هزيمة إلى هزيمة ، وهو فى كل مرة من مرات هذا التحدى وهذه المطاولة ، ينتقل من فوز إلى فوز ، ويخرج من نصر إلى نصر .

تصور أنه قال لهم فى سورة الطور أول ما تحداهم : « أم يقولونَ تقوله؟ بل لا يؤمنونَ * فليأتوا بحديثٍ مثلهِ إن كانُو صادقينَ * » . فلما انقطعوا مد لهم فى الحبل وقال فى سورة هود : « أم يقولون افتراه؟ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبُوا لكم فاعلموا أنما أُنزلَ بعلم الله وأن لا إله إلا هُوَ . فهل أنتم مسلمون ؟ » . فلما عجزوا هذه المرة أيضاً ، طاولهم مرة أخرى ، وأرخى لهم الحبل إلى آخره ، وقال فى سورة البقرة : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإنْ لم تفعلوا ولَنْ تفعلوا فاتقوا النار التى وَقودُها الناس والحجارةُ أُعدّت للكافرينَ * » فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع ، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر ، فلم يفعلوا ولن يفعلوا . ودحضت

حجتهم وافتضح أمرهم ، وظهر أمر الله وهم كارهون .

بهذا يتبين لك أن القدر المعجز من القرآن هو ما يقدر بأقصر سورة منه ، وأن القائلين بأن المعجز هو كل القرآن لا بعضه وهم المعتزلة والقائلين بأن المعجز كل مايصدق عليه أنه قرآن ولو كان أقل من سورة ، كل أولئك بمنأى عن الصواب ، وهم محجوجون بما بين يديك من الآيات .

معارضة القرآن

وهل أتاك نبأ الخصم إذ هموا أن يعارضوا القرآن؟ فكان ما أتوا به باسم المعارضة ، لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكة مخجلة : أخجلتهم أمام الجماهير وأضحكت الجماهير منهم . فباءوا بغضب من الله وسخط من الناس . وكان مصرعهم هذا كسباً جديداً للحق ، وبرهاناً مادياً على أن القرآن كلام الله القادر وحده ، لا يستطيع معارضته إنسان ولا جان . ومن ارتاب فأمامه الميدان .

يذكر التاريخ أن مسيلمة الكذاب ؛ زعم أنه أوحى إليه بكلام كالقرآن . ثم طلع على الناس بهذا الهذر : « إنا أعطيناك الجماهر * فصل لربك وجاهر » وبهذا السخف : « والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزاً » . وأنت خبير بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة فى قليل ولا كثير ، وأين محاكاة الببغاء من فصاحة الإنسان؟ وأين هذه الكلمات السوقية الركيكة ، من ألفاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالية؟ وهل المعارضة إلا الإتيان بمثل الأصل فى لغته وأسلوبه ومعانيه أو بأرقى منه فى ذلك ؟

يقول حجة الأدب العربى ، فقيدنا الرافعى عليه سحائب الرحمة : إن مسيلمة لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية الصناعة البيانية ؛ إذ كانت هذه الناحية أوضح من أن يلتبس أمرها عليه ، أو أن يستطيع تلبيسها على أحد من العرب ، وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى ظنها أهون عليه وأقرب تأثيراً فى نفوسهم . ذلك أنه رأى معرب تعظم

الكهان فى الجاهلية ، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق الذى يزعمون أنه من كلام الجن ، كقولهم : « ياجليح . أمر نجيح . رجل فصيح : يقول لا إله إلا الله » ـ البخارى فى المناقب : إسلام عمر فكذلك جعل يطبع مثل هذه الأسجاع فى محاكاة القرآن، ليوهمهم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد ، كأنما النبوة والكهانة ضرب واحد . على أنه لم يفلح فى هذه الحيلة أيضا، فقد كان كثيرون من أشياعه يعرفونه بالكذب والحماقة ويقولون : إنه لم يكن فى تعاطيه الكهانة حاذقاً ولا فى دعوى النبوة صادقا وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم : « كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر » .

ويروى التاريخ أن أبا العلاء المعرى وأبا الطيب المتنبي وابن المقفع، حدثتهم نفوسهم مرة أن يعارضوا القرآن، فما كادوا يبدءون هذه المحاولة حتى انتهوا منها بتكسير أقلامهم وتمزيق صحفهم ؛ لأنهم لمسوا بأنفسهم وعورة الطريق واستحالة المحاولة . وأكبر ظنى وظن الكاتبين من قبلى، أنهم كانوا يعتقدون من أعماق قلوبهم بلاغة القرآن وإعجازه من أول الأمر، وإنما أرادوا أن يضموا دليلا جديداً إلى مالديهم من أدلة ذاقوها بحاستهم البيانية ، من باب « ولكن ليطمئن قلبي » . ويا ليت شعرى، إن لم يتذوق أمثال هؤلاء بلاغة القرآن وإعجازه فمن غيرهم ؟ !

وتحدثنا الأيام القريبة أن زعماء البهائية ، والقاديانية وضعوا كتباً يزعمون أنهم يعارضون بها القرآن ، ثم خافوا وخجلوا أن يظهروها للناس ، فأخفوها ولكن على أمل أن تتغير الظروف ويأتى على الناس زمان تروج فيه أمثال هذه السفاسف ، إذا ما استحر فيهم الجهل باللغة العربية وآدابها ، والدين الإسلامى وكتابه . ألا خيبهم الله وخيب ما يأملون .

فى القرآن آلاف المعجزات

علمنا من قبل أن القرآن يزيد على مائتى آية وستة آلاف آية . وعلمنا اليوم أن حبل التحدى قد طال حتى صار بسورة، وأن السورة تصدق بسورة الكوثر وهى ثلاث آيات

قصار، وأن مقدارها من آية أو آيات طويلة له حكم السورة، وأن لأسلوب التنزيل سبع خواص لا توجد واحدة منها على كمالها فى أى كلام آخر، كما بسطنا القول فى ذلك بالمبحث الآنف . . . فيخلص لنا فى ضوء هذه الحقائق أن القرآن مشتمل على آلاف من المعجزات لا معجزة واحدة كما يبدو لبعض السذج والسطحيين؟. وإذا أضفنا إلى هذا ما يحمل القرآن من وجوه الإعجاز التالية، تراءت لنا معجزات متنوعات شتى تجل عن الإحصاء والتعداد وسبحان من يجعل من الواحد كثرة ومن الفرد أمة! « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم. إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » . «لو أنزلنا هَذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتهُ خاشعاً متَصَدِّعا من خشيةِ اللهِ ». «ولو أنَّ قرآنا سُيِّرَتْ بهِ الجبالُ أو قُطِّعت بهِ الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى » أى لكان هذا القرآن ! .

معجزات القرآن خالدة

وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من هذه المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول عليه الصلاة والسلام . بل هو قائم فى فم الدنيا يحاج كل مكذب ، ويتحدى كل منكر ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام وسعادة بنى الإنسان . ومن هذا يظهر الفرق جليًا بين معجزات نبى الإسلام ﷺ ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكى الصلاة وأتم السلام. فمعجزات محمد فى القرآن وحده آلاف مؤلفة ، وهى متمتعة بالبقاء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها . أما معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم ، وماتت بموتهم ، ومن يطلبها الآن ، لا يجدها إلا فى خبر كان ، ولا يسلم له شاهد بها إلا هذا القرآن؟. وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل وما صح من الأديان كافة . قال تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ مصدقاً لما بينَ يديهِ من الكتابِ ومهيمناً عليه ». وقال عز اسمه: «آمنَ الرسولُ بما أُنزلَ إليه من ربهِ والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ باللهِ وملائكتهِ وكُتبهِ ورُسله . لا نفرِّق بينَ أحدٍ من رُسله » .

حكمة بالغة في هذا الاختيار

وهنا نقف هنيهة ، لنعلم أن حكمة الله البالغة قضت أن تكون معجزة الإسلام باقية بجانبه تؤيده وتعززه إلى قيام الساعة ، حتى لا يكون لأحد عذر في ترك هذا الدين الأخير ، الذي هو خاتمة الأديان والشرائع . لذلك اختار سبحانه أن تكون معجزة الإسلام شيئا يصلح للبقاء ، فكانت دون سواها كلاما يتلى في أذن الدهر ، وحديثا يقرأ على سمع الزمان. وكان من أسرار الإعجاز فيه بلوغه من الفصاحة والبيان مبلغا يعجز الخلق أجمعين. وكان من عدله تعالى ورحمته ، أن اللغة التي صيغت بها هذه المعجزة ، هي اللغة العربية دون غيرها من اللغات ؛ لأن اللغة العربية حين مبعث الرسول ﷺ ، كانت قد بلغت لدى الشعب العربي أوج عظمتها من الاعتناء بها ، والاعتداد بالنابغين فيها ، والاعتزاز بالجيد منها. وكان هذا الشعب العربي قد استكملت له حينذاك ملكة في النقد والمفاضلة ، تؤهله بسهولة ويسر ، للحكم على جيد الكلام وزيفه ، ووضع كل كلام في درجته من العلو أو النزول وترجع براعتهم في هذه الناحية إلى أنهم كانوا قد وقفوا عليها حياتهم ، والتمسوا من ورائها عظمتهم . وعلقوا عليها آمالهم .

ولا يغيبن عنك أن هذا الشعب العربي كان مطبوعا أيامئذ على الصراحة في الرأي ، لا يعرف النفاق ولا الذبذبة. وكانوا فوق ذلك شجعانا يأنفون الذل ويعافون الضيم ، مهما كلفتهم سجاياهم هذه من بذل مال وسفك دم . فلما نزل القرآن لم يسع هذا الشعب الحر الصريح الأبي المتمهر في لغته ، إلا أن يلقي السلاح من يده ، ويخضع لسلطان هذا التنزيل وبلاغته . ويدين له ويؤمن به ، عن إدراك ووجدان ، بعد أن ذاق حلاوته ولمس إعجازه وحكم بملكته العربية الناقدة وصراحته المعروفة السافرة ، وشجاعته النادرة الفائقة ، أن هذا الذكر الحكيم ، لا يمكن أن يكون كلام مخلوق من البشر ولا غير البشر ، إنما هو تنزيل من حكيم حميد .

بهذه الشهادة ينجح العالم كله

شهادة هذا شأنها، وهذا شأن من شهد بها، جديرة أن ينجح بها العالم حين يتلقاها بالقبول، كما يتلقى بالقبول شهادة لجان التحكيم فى هذا العصر، ثقة منه بأنهم فنيون يحسنون المقارنة والموازنة، واطمئنانا إلى أنهم عادلون لا يعرفون المحاباة والمداهنة. بل شهادة أولئك العرب أزكى وأطهر، وأحكم وأقوم؛ لأنها صدرت عن أعداء القرآن حين نزوله، بعد محاولات، ومصاولات، مخضتهم مخضا عنيفا، وأفحمتهم إفحاماً مريراً. « والفضل ما شهدت به الأعداء ».

أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوى

ومما يفيد فى هذا المقام ويدفع التلبيس، أن تعرف بعد ما بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوى الشريف. ولا أدل على ذلك من أن بين يدى التاريخ إلى يوم الناس هذا آلافا مؤلفة من كتب السنة، تملأ دور الكتب فى الشرق والغرب، وتنادى كل من له إلمام وذوق فى البيان العربى: أن هلم لتحس بحاستك البيانية، المدى البعيد بين أسلوبى القرآن والحديث، ولتؤمن عن وجدان بأن أسلوب التنزيل أعلى وأجل من أسلوب الأحاديث النبوية، علوًّا خارقا للعادة، خارجا عن محيط الطاقة البشرية، وإن بلغ كلام الرسول ﷺ فى جودته وروعته وجلالته، ماجعله خير بيان لخير إنسان.

غير أن هذه الفوارق - كما قلنا - فوارق فنية لا يدركها إلا الذين أوتوا حظًّا عظيما من معرفة اللسان العربى والذوق العربى. ولقد نزل القرآن أول ما نزل، على أمة العرب وهم مطبوعون على اللغة الفصحى، منقطعون لإحيائها وترقيتها. وكانوا يتفاضلون بينهم بالتفوق فى علو البيان وفصاحة اللسان، حتى بلغ من تقديسهم لهذا أنهم كانوا يقيمون المعارض العامة للتفاخر والتفاضل بفصيح المنظوم وبليغ المنثور، وحتى إن القبيلة كان يرفعها بيت

واحد من الشعر يكون رائعاً فى مدحها ، ويضمها بيت يكون لاذعا فى ذمها . ولقد كان هؤلاء العرب يعرفون نبي الإسلام ويعرفون مقدرته الكلامية من قبل أن يوحى إليه ، فلم يخطر ببال منصف منهم أن يقول : إن هذا القرآن كلام محمد ، وذلك لما يرى من المفارقات الواضحة بين لغة القرآن ولغة الرسول عليه الصلاة والسلام .

يضاف إلى هذا أنه لم يعرف فى نشأته بينهم بالخطابة ولا بالكتابة ولا بالشعر ، ولم يؤثر أنه شاركهم فى معارضهم وأسواقهم العامة التى كانوا يقيمونها للتسابق فى البيان . بل كان مقبلا على شأنه . زاهدا فى الظهور ميالا إلى العزلة . وكل مااشتهر به قبل النبوة أنه كان صادقاً لم يجربوا عليه كذبا ، أميناً ماخان أبداً ، ميمون النقيبة عالى الأخلاق علواً ممتازاً ! . فهل يعقل أن رجلا سلخ عهد شبابه وكهولته على هذا النمط ، يجىء فى سن الشيخوخة فينافس العالم كله ويتحداه بشىء من لدنه ، وهو الذى مانافس أحداً قبل ذلك ولا تحداه ، بل كان من خلقه الحياء والتواضع وعدم الاستطالة على خلق الله ؟ . ثم هل يتصور أن هــــذا الإنسان الكامل يتورع عن الكذب على الناس فى صباه وشبابه وكهولته ، ثم يجىء فى سن الشيخوخة فيكذب أفظع الكذب على الله ؟ « ومن أظلم ممن افترَى على اللهِ كذباً أو قالَ أوحى إلىَّ ولم يوحَ إليه شىءٌ ومنْ قال سأنزل مثلَ ما أنزلَ اللهُ ؟ » .

ألا إن وجود القرآن كلاما متلوًّا لم ينقص كلمة ولا حرفا ، لرحمة واسعة من الله بعباده لم تتسن لأى كتاب فى أمة ، غير هذا الكتاب الذى ينهل الظامئون من بحره الروى فى كل عصر ، ويأوى المتصفون إلى هديه الربانى فى كل مصر ، ويكتسب بمــــا فيه من سمـــات الألوهية أتباعا فى كل أفق ، مصداقاً لقوله سبحانه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهـــم أنه الحق » ولقوله صلى الله عليه وسلم « ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنمـــا

كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله تعالى إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» رواه الشيخان.

الوجه الثانى طريقة تأليفه

وبيان ذلك أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل مفرقا منجما على أكثر من عشرين عاما، على حسب الوقائع والدواعى المتجددة، كما تقدم بيانه فى المبحث الثالث من هذا الكتاب، وكان الرسول ﷺ كلما نزل عليه نجم من تلك النجوم قال: ضعوه فى مكان كذا من سورة كذا. وهو بشر لايدرى (طبعاً) ماستجىء به الأيام، ولا يعلم ماسيكون فى مستقبل الزمان، ولا يدرك ماسيحدث من الدواعى والأحداث، فضلا عما سينزل فيها. ثم مضى العمر الطويل والرسول على هذا العهد، وإذا القرآن كله بعد ذلك يكمل ويتم، وينتظم ويتآخى ويأتلف وينسجم، ولا يؤخذ عليه شىء من التخاذل والتفاوت، بل كان من ضروب إعجازه مافيه من انسجام ووحدة وترابط، حتى إن الناظر فيه دون أن يعلم بتنجيم نزوله، لايخطر على باله أنه نزل منجما، وحتى إنك مهما أمعنت النظر وبحثت، لاتستطيع أن تجد فرقا بين السور التى نزلت جملة والسور التى نزلت منجمة، من حيث إحكام الربط فى كل منهما. فسورة البقرة مثلا وقد نزلت بضعة وثمانين نجما فى تسع سنين[1]. لا تجد فرقا بينها وبين سورة الأنعام التى نزلت دفعة واحدة كما يقول الجمهور[2] من حيث

---

(١) وجه نزولها فى تسع سنين أنها جمعت بين مانزل فى مبادئ السنة الثانية للهجرة، كآيات تحويل القبلة وآيات تشريع صوم رمضان وبين آخر القرآن نزولا على الإطلاق، وهو آية «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» التى ورد أنها نزلت قبل وفاته ﷺ بتسع ليال فقط.

(٢) رواه الطبرانى موقوفا على ابن عباس ورواه أبى بن كعب مرفوعا بسند ضعيف.

نظام المبنى ودقة المعنى وتمـــام الوحدة الفنية وإذا قرأت سورة الضحى وسورة اقرأ وسورة الماعون، لا تشعر بفارق بينها وبين كثير من السور القصار مثلها من حيث الإحكام والوحدة والانسجام كذلك، على حين أن تلك السور الثلاث نزلت كل واحدة منها مفرقة على نجمين ! فقل لى بربك : هل يجوز فى عقل عاقل أن يكون هذا القرآن كلام محمد أو غير محمد، مع ماعلمت من هذا الانفصال الزمانى البعيد بين أول ما نزل وآخره، ومع ما علمت من ارتباط كل نجم بحادثة من أحداث الزمن ووقائعه، ومع ماعلمت من أن ترتيب هذه النجوم فى القرآن ليس على ترتيب هذا النزول الخاضع للحدثان، بدليل أن أول ما نزل من القرآن إطلاقا ـ وهو صدر سورة اقرأ ـ مدون بالمصحف فى أواخره، وبدليل أن آخر ما نزل منه إطلاقا ـ وهو آية « واتقوا يوماً ترجعونَ فيه إلى اللهِ » ـ مدون بالمصحف فى أوائله ؟؟

إن كنت فى شك من أن هذا الكتاب المحكم الرصين قد جاء فى طريقة تأليفه معجزة، فاجمع أهل الدنيا يظاهر بعضهم بعضا، واطلب إليهم أن يؤلفوا لك كتابا فى حجم سورة البقرة لا فى حجم سور القرآن كله، لكن على شرط أن تكون طريقة تأليفه هى الطريقة التى خضعت لها سورة البقرة، من الارتباط بأحداث الزمن ووقائعه، ومن وضع هذه النجوم مبعثرة غير مرتبة فى الكتاب بترتيب الأحداث والوقائع ثم من تمام هذا الكتاب أخيراً على وحدة فنية تربط بين بداياته ونهاياته وأوساطه وسائر أجزائه ؟ فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا ؛ فاطلب إليهم أن يعمدوا مثلا إلى حديث النبى ﷺ، وهو ما هو فى روعته وبلاغته وطهره وسموه، وقد قاله الرسول ﷺ فى أوقات مختلفة، واسألهم بعد ذلك هل فى مكنتهم أن ينظموا من هذا السرد الشتيت الماثل أمامهم، كتاباً واحداً يصقله الاسترسال والوحدة كالقرآن، من غير أن ينقصوا منه أو يتزيدوا عليه أو يتصرفوا فيه ؟؟ ذلك ما لن يكون ولا يمكن أن يكون، ومن حاوله من الخلق فإنما يحاول العبث العابث، وسيخرج إلى

الناس من هذه المحاولة بثوب مرقع، وكلام مشوش، ينقصه الترابط والانسجام، وتعوزه الوحدة والاسترسال، وتمجه الأسماع والأفهام!

إذن فالقرآن الكريم تنطق طريقة تأليفه، بأنه لا يمكن أن يكون صادراً إلا ممن له السلطان الكامل على الفلك ودورته، والعلم المحيط بالزمن وحوادثه، والبقاء السرمدى حتى يبلغ مراده وينفذ مشيئته. ذلكم الله وحده الذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض والذى يعلم الغيب فى السموات وفى الأرض، والذى لا يذوق الموت ولا تأخذه سنة ولا نوم لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه. « والله غالبٌ على أمرهِ ولكنَّ أكثر النـاسِ لا يعلمونَ ».

الوجه الثالث علومه ومعارفه

وبيان ذلك أن القرآن قد اشتمل على علوم ومعارف فى هداية الخلق إلى الحق. بلغت من نبالة القصد، ونصاعة الحجة وحسن الأثر وعموم النفع، مبلغاً يستحيل على محمد ـ وهو رجل أمى نشأ بين الأميين ـ أن يأتى بها من عند نفسه. بل يستحيل على أهل الأرض جميعاً من علماء وأدباء وفلاسفة ومشترعين وأخلاقيين، أن يأتوا من تلقاء أنفسهم بمثلها.

هذا هو التنزيل الحكيم، تقرؤه فإذا بحر العلوم والمعارف متلاطم زاخر، وإذا روح الإصلاح فيه قوى قاهر. ثم إذا هو يجمع الكمال من أطرافه. فبينا تراه يصلح ما أفسده الفلاسفة بفلسفتهم، إذ تراه يهدم ما تردى فيه الوثنيون بشركهم. وبينا تراه يصحح ما حرفه أهل الأديان فى دياناتهم، إذ تراه يقدم للإنسانية مزيجاً صالحاً من عقيدة راشدة ترفع همة العبد، وعبادة قويمة تطهر نفس الإنسان، وأخلاق عالية تؤهل المرء لأن يكون خليفة الله فى الأرض، وأحكام شخصية ومدنية واجتماعية تكفل حماية المجتمع من الفوضى والفساد، وتضمن له حياة الطمأنينة والنظام والسلام والسعادة.. ديناً قيما يساوق الفطرة، ويوائم الطبيعة، ويشبع حاجات القلب والعقل، ويوفق بين مطالب الروح والجسد، ويؤلف بين مصالح الدين والدنيا، ويجمع بين عز الآخرة والأولى! كل ذلك فى قصد واعتدال،

وببراهين واضحة مقنعة تبهر العقل وتملك اللب . والكلام على هذه التفاصيل يستنفد مجلداً بل مجلدات ، فلنجتزىء هنا بأمثلة وإشارات ، ولنختترها فى موضوع العقائد التى هى واحدة فى جميع أديان الله بحسب أصلها قبل التعريف . ولنتعرض فى هذه الأمثلة إلى شىء من المقارنة بين تعاليم الإسلام وتعاليم اليهود والنصارى على عهد نزوله، ثم إلى شىء من رد القرآن عليهم وتصحيحه لأغلاطهم وفضحه لأباطيلهم ، ومقصدنا من هذا قطع ألسنة خراصة ، زعم أصحابها أن تعاليم القرآن استمدها محمد من بعض أهل الكتاب فى عصره ثم نسبها إلى ربه ، ليستمد من هذه النسبة قدسيتها « كبرت كلمة تخرج من أفواههم. إن يقولون إلا كذباً » .

١ ـ أمثلة من عقيدة الإيمان بالله :

١ ـ جاء القرآن بالعقيدة فى الله بيضاء نقية ، نزهه فيها عن جميع النقائص ، ونص على استحالة الولد وكل ما يشعر بمشابهة الخالق بالمخلوق ، ووصف الله بالكمال المطلق ، ونص على وحدانيته فى ربوبيته ووحدانيته فى ألوهيته، بمعنى أنه أحد فى تدبير خلقه وأحد فى استحاقة العبادة دون غيره ، ألم تر أنه يقول: «ليس كَمِثْلِهِ شىء وهو السميعُ البصيرُ» ويقول « وقل الحمدُ للهِ الذى لم يتخذ ولداً ، ولم يكنْ لهُ شريكٌ فى الملكِ ، ولم يكن له ولىٌّ من الذلِّ وكبره تكبيراً » ويقول: « قل أغيرَ الله أتخذ وليًّا فاطرِ السمواتِ والأرضِ وهوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ » . ويقول : « قل من بيدهِ ملكوتُ كل شىء وهو يجيرُ ولا يجارُ عليهِ ؟ إن كنتم تعلمونَ » . ويقول : « فلا تدعُ مع الله أحداً » ويقول: «ولا تدع من دُونِ الله ما لا ينفعُكَ ولا يضركَ ، فإن فعلتَ فإنك إذَنْ من الظالمينَ * وإن يمسَسْكَ الله بضرٍّ فلا كاشفَ له إلا هُو ، وإن يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لفضلهِ، يصيبُ به من يشاء من عبادهِ وهوَ الغفورُ الرحيم » ويقول : « إن الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً إنهُ هو الغفورُ الرحيمُ » ويقول « ومن يغفرُ الذنوب إلَّا الله ؟ » ويقول « قل لا أقولُ لكم عندِى خزائنُ اللهِ ولا أعلم الغيب ولا أقولُ لكم إنى مَلَكٌ» . ويقول : «والذين تدعونَ من دونه ما يملكونَ من قطمير *

إن تدعوهم لا يسمعوا دُعاءكم ، ولو سَمِعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامةِ يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير * يأيها الناسُ أنتم الفقراء إلى اللهِ ، والله هو الغنيُّ الحميدُ » ويقول : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونهِ ، فلا يملكون كشْفَ الضرعنكم ولا تحويلا * أولئكَ الذين يدْعونَ يبتغونَ إلى ربهمُ الوسيلة أيهم أقربُ ، ويرجون رحمتهُ ويخافون عذابهُ ؛ إن عذابَ ربك كان محذورا » إلى غير ذلك وهو جد كثير .

٢ ـ وضل اليهود بعد موسى فعبدوا بعلا ، وزعموا فى عهد من عهودهم مازعمت النصارى من أن لله ابنا ، وشبهوا الله تعالى بالإنسان فنعتوه بأنه تعب من خلق السموات والأرض فاستراح يوم السبت وركبوا رءوسهم فقالوا إنه سبحانه ظهر فى شكل إنسان وصارع إسرائيل فلم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه . إلى غير ذلك من أغلاطهم وفضائحهم .

٣ ـ وضل النصارى بعد عيسى ، فذهبوا إلى عقيدة معقدة من التثليث وصارت كنائسهم من عهد قسطنطين كهيا كل الوثنية الأولى وخلعوا على رجال كهونتهم ما هو حق الله وحده من التشريع والتحليل والتحريم ، حتى تعزى بهم وثنيو العرب ورأوا أنهم أمثل من هؤلاء المسيحيين فى الوثنية ، « ولما ضُرِبَ ابنُ مريمَ مثلًا إذا قومك منهُ يصدُّون * وقالوا : أآلهتنا خير أم هو؟ ثم احتجوا على شركهم بأنهم ما سمعوا دعوة التوحيد الذى جاء به الإسلام فى الملة الآخرة ، « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشىء يراد * ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة » أى النصرانية .

٤ ـ فانظر مدى البون الشاسع بين الحق الذى جاء به القرآن فى هذا الباب ، وبين الباطل الذى جاء به هؤلاء ! وهؤلاء ! على أن كتاب الله لم يكتف بذلك ، بل رد على المبطلين ببراهينه الساطعة وأدلته القاطعة . استمع إليه وهو يقول : «قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . ويقول :

« يأهلَ الكتابِ لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على اللهِ إلا الحق . إنما المسيح عيسى بنُ مريم رسول الله وكلمتهُ ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه ، فآمنوا بالله ورُسله ولا تقولوا ثلاثةٌ ، انتهوا خيراً لكم إنما الله إلهٌ واحدٌ . سبحانه أن يكونَ له ولد ؛ له مافى السمواتِ وما فى الأرضِ . وكفى بالله وكيلًا * لن يستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً لله ولا الملائكةُ المقربونَ . ومن يستنكفْ عن عبـــادتهِ ويستكبرْ فسيحشرُهم إليهِ جميعاً » ويقول : « ما المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ قد خلتْ من قبلهِ الرسلُ وأمهُ صدِّيقةٌ ، كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآياتِ ثم انظرْ أنى يؤفكونَ * قل أتعبدونَ من دون الله ما لا يملكُ لكم ضرًّا ولا نفعاً والله هو السميعُ العليمُ * قل يأهلَ الكتاب لا تغلوا فى دينكم غيرَ الحق ، ولا تتبعوا أهواءَ قومٍ قد ضلوا من قبلُ وأضلوا كثيراً وضلُّوا عن سواء السبيل » . ويقول : « بديعُ السمواتِ والأرضِ أنى يكونُ له ولدٌ ولم تكنْ له صاحبةٌ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » ويقول فى نفى التعب الذى افتراه اليهود على اللهِ : « ولقدْ خلقنا السمواتِ والأرض وما بينهما فى ستةِ أيامٍ ، وما مسَّنا من لُغوب » . ويقول نعياً عليهم فى عبادة بعل : « أتدعونَ بعلًا وتذرونَ أحسنَ الخالقين * اللهَ ربكم وربَّ آبائكم الأوَّلين * » ويقول نعياً عليهم فى فرية أخرى : « وقالت اليهودُ يدُ الله مغلولةٌ . غُلَّتْ أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداهُ مبسوطتانِ يُنفقُ كيف يشاء » ويقول فى نفى البنوة التى زعموها لله هم والنصارى « وقالت اليهودُ عزيرٌ ابنُ اللهِ ، وقالتِ النصارى المسيحُ ابنُ اللهِ . ذلك قولهم بأفواههم ، يُضاهِئُونَ قولَ الذين كفروا من قبلُ . قاتلهم اللهُ أنى يؤفكونَ * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللهِ والمسيحَ ابنَ مريمَ . وما أُمروا إلا ليعبدُوا إلهاً واحداً لا إلهَ إلا هوَ سبحانهُ عما يشركون * يريدونَ أن يُطفِئُوا نورَ الله بأفواهِهم . ويأبى اللهُ إلَّا أن يتم نورَهُ ولو كرهَ الكافرون * » .

ب ـ أمثلة من عقيدة البعث والجزاء :

١ ـ جاء القرآن بعقيدة البعث بعد الموت واضحة شاملة للروح والجسد ، عادلة لا ظلم

فيها ولا محاباة، مقسطة لا شفاعة هناك بالمعنى الفاسد ولا فداء ، عامة لا فضل لجنس ولا لطائفة ولا لشخص إلا بالتقوى. اقرأ إن شئت قوله سبحانه: « والله أنبتكم من الأرضِ نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً » وقوله : « أيحسبُ الإنسانُ أن يُتركَ سُدى؟ ألم يك نطفةً من منى يُمنى * ثم كان علقةً فخلق فسوّى * فجعل منهُ الزّوجين الذكرَ والأنثى * أليسَ ذلكُ بقادرٍ على أن يحيي الموتى ؟ ! » وقوله: « ونضعُ الموازينَ القسط ليومِ القيامةِ فلا تُظلمُ نفس شيئاً . وإن كانَ مثقال حبةٍ من خردلٍ أتينا بهاَ . وكفى بنا حاسبينَ » وقوله : « فمن يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يره * ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يره * » . وقوله : « واتقوا يوماً لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يقبلُ منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ ولا هم ينصرون * » وقوله: « فإذا نُفِخ فى الصور فلا أنسابَ بينهمْ يومئذ ولا يتساءلون » .

٢ ـ وضل اليهود فزعموا أنهم الشعب المختار من بين شعوب الأرض ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة هى مدة عبادتهم العجل أربعين يوما .

٣ ـ وضل النصارى فزعموا أيضاً أنهم أبناء الله وأحباؤه وذهبوا مذهب الهنود فى كرشنة أنه قتل وصلب ليخلص الإنسان ويفديه من الخطيئة ، فهو المخلص الفادى الذى يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه ، وهو الأقنوم الثانى من الثالوث الإلهى الذى هو عين الأول والثالث وكل منهما عين الآخر. كذلك قال الهنود فى كرشنة، ثم جاء مخرّفة النصارى فتابعوهم على هذا الخيال الفاسد، الذى تأباه العقول والطباع، ولا يتفق وعدل الله وحكمته فى الجزاء والمسؤولية . ولم يستطع الخابطون فى الضلال أن يروجوه فى ضحاياهم إلا بترويضهم عليه من عهد الصغر ، وتنشئتهم على سماعه واعتقاده من غير بحث ولا نظر ، بل قالوا : « اعتقد وأنت أعمى » .

٤ ـ وضل نساك النصارى فتابعوا الهنود أيضاً ، فى احتقار اللذات المادية ، وفى

تربية النفوس على الحرمان وتعذيب الجسد ، وزادوا الطين بلة فقالوا : إن البعث روحانى مجرد عن إعادة الجسم ، مخدوعين بتلك النظرية الفلسفية الخاطئة وهى احتقار اللذات المادية وذمهم إياها بأنها حيوانية. وغاب عنهم أنها لا تكون نقصا إلا إذا سخر الإنسان عقله وقواه لها ، وأسرف فيها إسرافا يشغله عن اللذات العقلية والروحية القائمة على العلم النافع والعمل الصالح . أما إذا اعتدل فيها ووفق بين المطالب الروحية والجسمية ، فتلك مفخرة للإنسان وميزة لنوع الإنسان، بها صار عالما عجيبا جمع بين روحانية الملائكة وجثمانية الحيوان والنبات ، وقد خلقه الله فى الدنيا مظهراً من مظاهر إبداعه واقتداره ، فكيف ينقص ملكوت الآخرة هذا المظهر العجيب ، على حين أن الآخرة هى دار العجائب والغرائب ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟! » وإن الآخرة لهىَ الحيوانُ لو كانوا يعلمونَ » .

٥ — وكذلك ضل متطرفة اليهود فعكسوا الأمر ، وأفرطوا فى حب المادة حتى أحلوا لأنفسهم جمعها من أى طريق، وبالغوا فى استنزاف دماء العالم بالربا وأكل أموال الناس بالباطل وظنوا أن لا جناح عليهم إذا رزءوا أى عنصر غريب عنهم « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » .

٦ — ولكن القرآن قد جاء يرد هؤلاء وهؤلاء إلى جادة الاعتدال ، ووقف موقفاً وسطا يرجع إليه المغالى وينتهى إليه المقصر ، فأعلن عقيدته فى وضوح على نحو ما ذكرنا. وتناول أخطاءهم المذكورة بالإصلاح والتقويم فقال فى معرض الرد على أنهم الشعب المختار : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم . والله عليم بالظالمين * » وقال فى هذا المعرض أيضا : « يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارَفوا . إن أكرمكم عندَ الله أتقاكمْ . إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ » وقال أيضا : « ليس بأمانيِّكم ولَا أمانىِّ أهل الكتاب . من يعمل سوءاً يجزَ به ولا يجدْ له من دون اللهِ وليًّا ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحاتِ

من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ ، فأولئكَ يدخلونَ الجنة ولا يُظلمونَ نقيرا * » . وقال في معرض الرد على فرية أنهم أبناء الله وأحباؤه : « وقالت اليهودُ والنصارى نحنُ أبناء الله وأحباؤه قل : فلم يعذبكم بذنوبكم . بل أنتم بشرٌ ممن خلق . يغفر لمن يشاء ويعذبُ من يشاء ، ولله ملكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وإليه المصير * » وقال في تفنيد ما زعموه من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة : « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ * بلى من كسبَ سيئةً وأحاطتْ به خطيئته فأولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ أولئكَ أصحابُ الجنة هم فيها خالدون * » . وقال في تكذيب ما زعموا من قتل عيسى وصلبه : « وما قتلوهُ وما صلبوهُ ولكن شُبِّه لهم . وإن الذينَ اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه ما لهم به من علم إلا اتباعَ الظن . وما قتلوهُ يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته . ويوم القيامة يكونُ عليهم شهيداً * » . وقال في دحض عقيدة الفداء : « ولا تزرُ وازرةٌ وزر أخرى . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى . إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة . ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه . وإلى الله المصير * » .

وقال : « من عملَ صالحاً فلنفسه ، ومن أساءَ فعليها . وما ربك بظلام للعبيد » ونزلت سورة المسد تسجل العذاب على عم من أعمام أفضل الخلق محمد ﷺ . وذكر القرآن ما ذكر في ابن نوح ولم يطب القرآن نفسا بضلالة « اعتقد وأنت أعمى » بل حث على النظر والتفكر وحاكم العقائد والتعاليم الإسلامية إلى العقول السليمة ، ونعى على المقلدين تقليدا أعمى . والأمر في هذا أظهر من أن تساق له أمثلة .

وعالج القرآن شبهة احتقار اللذات المادية بالمعنى الذي أرادوه ، فقال : « قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » وقال : « يأيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن اللهَ لا يحبُّ المعتدينَ * وكلوا مما رزقكم اللهُ حلالًا طيبا واتقوا اللهَ الذي أنتم به مؤمنونَ * » وذم الرهبانية ومبتدعيها فقال :

«ورهبانية ابتدعوها، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها».
وعاب على اليهود خيانتهم وظلمهم للشعوب فقال: «ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً . ذلك بأنهم قالوا ليسَ علينا فى الأميين سبيلٌ . ويقولون على اللهِ الكذب وهم يعلمون * بلى من أوفى بعهدهِ واتقى فإن الله يحب المتقينَ * إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يومَ القيامةِ ، ولا يزكيهم ، ولهمْ عذابٌ أليم * » . وقال : «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا » . وقال: « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطلِ وتُدلوا بهاَ إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموالِ الناس بالإثمِ وأنتمْ تعلمون».. إلى غير ذلك من آيات كثيرة فى هذه المواضيع .

والذى نريد أن تفطن له هنا ، هو أن هداية القرآن كما رأيت هداية تامة عامة صححت معارف الفلاسفة المكبين على البحث والنظر كما صححت معارف الأميين ومن لا ينتمى إلى العلم بسبب . وصححت أغلاط أهل الكتاب من يهود ونصارى ، كما صححت أغلاط مؤلهة الحجر وعبدة الوثن. وإذن فليس يصح فى الأذهان شىء إذا قيل إن هذه الهدايات القرآنية ليست وحيا من الله، وإنما هى نابعة من نفس محمد الأمى الناشىء فى الأميين . وليس يصح فى الأذهان شىء إذا قيل إنه ﷺ قد استقى هذه الهدايات من بعض أهل الكتاب الذين لقيهم فى الجزيرة العربية ، ولو صح هذا لكانوا هم أولى منه بدعوى الرسالة والنبوة . وكيف يصح هذا والقرآن هو الذى علمهم ماجهلوا من حقائق دينهم ؟ وهل فاقد الشىء يعطيه ؟ . وحسبك ما قدمناه لك من تلك الأمثلة التى تتصل بأساس الأديان وصميم العقائد، والتى تريك بالمنظار المكبر أن القرآن جالس على كرسى الأستاذية العليا للعالم كله يعلم اليهود والنصارى وغير اليهود والنصارى ، لا على مقعد التلمذة الدنيا يتلقف من هؤلاء وهؤلاء .

فإن لم يكفك ما سمعت، فدونك القرآن تصفحه وتجول فى آفاقه وناهيك مثل قوله: « يأهل الكتابِ قد جاءكم رسولُنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتابِ ويعفوا عن كثيرٍ . قد جاءكم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مبين * يهدى به الله من اتَّبع رضوانَه سُبلَ السلام . ويخرجهم من الظلماتِ إلى النورِ بإذنه ، ويهديهم إلى صراطٍ مُستقيم » ومثل قوله : « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولُنا يبينُ لكم على فترةٍ من الرسل أنْ تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ . فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ والله على كل شيء قديرٌ » .

وإن شئت أكثر من هذا فتأمل كيف أعلن الحق فى صراحة أن بيانه لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه هو من مقاصده الأولى ، إذ قال فى سورة النحل : «وما أنزلنا عليكَ الكتابَ إلا لتبينَ لهمُ الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمةً لقوم يؤمنونَ » هكذا قدم أنه بيان لما اختلف فيه الكتابيون ، قبل أن يقول : وهدى ورحمة لقوم يؤمنون!

وكذلك قال فى سورة النحل : « إن هذا القرآن يقصُّ على بنى إسرائيلَ أكثر الذى هم فيه يختلفون * وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين * إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيزُ العليمُ * فتوكل على الله إنك على الحق المبين » .

لقد لفت القرآن نفسه أنظار الناس إلى هذه الناحية من الإعجاز وأقام الدليل على أنه كلام الله ولا يمكن أن يكون كلام محمد ، إذ قال جلت حكمته فى سورة العنكبوت : « وكذلك أنزلنا إليكَ الكتابَ ، فالذين آتيناهم الكتابَ يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمنُ به . وما يجحدُ بآياتنا إلا الكافرُونَ * وما كنت تتلوا من قبله من كتابٍ ولا تخطه بيمينكَ ، إذن لارتاب المبطلونَ * بل هو آيات بيناتٌ فى صدورِ الذين أوتوا العلم . وما يجحدُ بآياتنا إلا الظالمون * » وإذ قال سبحانه مرة أخرى فى سورة الشورى. وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ . ولكن جعلناهُ نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدى إلى صراطٍ مستقيمٍ * صراطِ اللهِ الذى له ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ . ألا إلى اللهِ تصيرُ الأمور » .

ويرحم الله البوصيرى فى قوله :

« كفاك بالعلم فى الأمىِّ مُعجزةً فى الجاهلية والتأديبِ فى اليُتُم »

صلى الله عليه وسلم ، ومجد وعظم ، وشرف وكرم ، ورزقنا كمال الإيمان به وكمال اتّباعه ، آمين .

الوجه الرابع وفاؤه بحاجات البشر

ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة، تفى بحاجات البشر فى كل عصر ومصر، وفاء لا تظفر به فى أى تشريع ولا فى أى دين آخر. ويتجلى لك هذا إذا استعرضت المقاصد النبيلة التى رمى إليها القرآن فى هدايته، والتى نعرض عليك من تفاصيلها ما يأتى:

أولا : إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد وما بينهما تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر .

ثانيا : إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكى النفوس ويغذى الأرواح ويقوم الإرادة ويفيد الفرد والمجموع منها .

ثالثا : إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلهم وتنفيرهم من رذائلها، فى قصد واعتدال وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط .

رابعا : إصلاح الاجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم ومحو العصبيات وإزالة الفوارق التى تباعد بينهم. وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد من نفس واحدة ومن عائلة واحدة أبوهم آدم وأمهم حواء ، وأنه لا فضل لشعب على شعب ولا لأحد على أحد إلا بالتقوى . وأنهم متساوون أمام الله ودينه وتشريعه ، متكافئون فى الأفضلية وفى الحقوق والتبعات من غير استثناءات ولا امتيازات . وأن الإسلام عقد إخاء بينهم أقوى من إخاء النسب والعصب . وأن لسانهم العام هو لسان هذا الدين ولسان كتابه: (لغة العرب). وأنهم أمة واحدة يؤلف بينها المبدأ ولا تفرقها الحدود الإقليمية ولا الفواصل

السياسية والوضعية ؛ « وإن هذه أمتكم أمةً واحدةً ، وأنا ربكم فاتقون » .

خامسا : إصلاح السياسة أو الحكم الدولى، عن طريق تقرير العدل المطلق والمساواة بين الناس ، ومراعاة الفضائل فى الأحكام والمعاملات من الحق والعدل والوفاء بالعهود والرحمة والمواساة والمحبة ، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والكذب والخيانة والغش وأكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والربا والتجارة بالدين والخرافات .

سادسا : الإصلاح المالى عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع، ووجوب إنفاقه فى وجوه البر وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعى المشروع .

سابعاً : الإصلاح النسائى عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية .

ثامنا : الإصلاح الحربى عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الإنسانية فى مبدئها وغايتها، ووجوب التزام الرحمة فيها والوفاء بمعاهداتها ، وإيثار السلم عليها ، والاكتفاء بالجزية عند النصر والظفر فيها .

تاسعا : محاربة الاسترقاق فى المستقبل وتحرير الرقيق الموجود بطرق شتى، منها الترغيب العظيم فى تحرير الرقاب ، وجعله كفارة للقتل وللظهار ، ولإفساد الصيام بطريقة فاحشة، ولليمين الحانثة ، ولإيذاء المملوك باللطم أو الضرب .

عاشراً : تحرير العقول والأفكار، ومنع الإكراه والاضطهاد وللسيطرة الدينية القائمة على الاستبداد والغطرسة . « فذكر إنما أنتَ مذكر * لست عليهم بمسيطر » .

دليل على هذا الوجه من الإعجاز :

والدليل على هذا الوجه من إعجاز القرآن، أن غير المسلمين كانوا ولا يزالون حائرين يبحثون عن النور، وينقبون عما يفى بحاجتهم فى كثير من نواحى حياتهم ،حتى اضطروا تحت ضغط هذه الحاجة وبعد طول المطاف وقسوة التجارب، أن يرجعوا إلى هداية القرآن من حيث يشعرون أو لا يشعرون وإليك شواهد على ذلك :

١ ـ أمريكا حرمت الخمر أخيراً ، ولكنها فشلت ولم تنجح لأنها لم توفق إلى الطريقة الحكيمة التى اتبعها الإسلام فى تحريم الخمر .

٢ ـ أمريكا أباحت الطلاق ، وإن كانت قد أسرفت فيه إلى درجة ضارة .

٣ ـ أسبانيا أصدرت حكومتها قانوناً بمنع البغاء الرسمى فى بلادها ، وبمنع النساء من البروز على الشواطىء فى ثياب الاستحمام .

٤ ـ مصلحو أوروبا يرفعون أصواتهم بضرورة الرجوع إلى مبدأ تعدد الزوجات، حتى بعض نسائهم طالبن بهذا .

٥ ـ اليهود يطالبون أيضاً بتعدد الزوجات وقد تزعم هذه الحركة يهودى اسمه مورشه ليكفر مان ، وبرهن على أن ذلك من أحكام الدين اليهودى . وطلب إلى اليهود إلغاء قرار الحاخام غرشون الذى تعدى حدود الدين اليهودى بإبطاله الزواج بأكثر من واحدة وأصبح له أتباع كثيرون .

٦ ـ زعيم فرنسا نادى غداة هزيمتها فى الحرب القائمة الآن يقول : إن سبب انهيار دولتهم هو انغماسهم فى الشهوات الجنسية ، وإسرافهم فى المفاسد والمفاتن .

الوجه الخامس

موقف القرآن من العلوم الكونية

ومعنى هذا أن القرآن روعيت فيه بالنسبة إلى العلوم الكونية اعتبارات خمسة ، لا يصدر مثلها عن مخلوق ، فضلا عن رجل أمى نشأ فى الأميين ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

(أولها) أنه لم يجعل تلك العلوم الكونية من موضوعه، وذلك لأنها خاضعة لقانون النشوء والارتقاء ، وفى تفاصيلها من الدقة والخفاء ما يعلو على أفهام العامة. ثم إن أمرها بعد

ذلك هين بإزاء مايقصده القرآن من إنقاذ الإنسانية العاثرة ، وهداية الثقلين إلى سعادة الدنيا والآخرة . فالقرآن ـ كما أسلفنا فى المبحث الأول ـ كتاب هداية وإعجاز، وعلى هذا فلا يليق أن نتجاوز به حدود الهداية والإعجاز. حتى إذا ذكر فيه شىء من الكونيات، فإنما ذلك للهداية ودلالة الخلق على الخالق . ولا يقصد القرآن مطلقا من ذكر هذه الكونيات أن يشرح حقيقة علمية فى الهيئة والفلك أو الطبيعة والكيمياء ، ولا أن يحل مسألة حسابية أو معادلة جبرية أو نظرية هندسية ، ولا أن يزيد فى علم الطب بابا ولا فى علم التشريح فصلا، ولا أن يتحدث عن علم الحيوان أو النبات أو طبقات الأرض إلى غير ذلك .

ولكن بعض الباحثين طاب لهم أن يتوسعوا فى علوم القرآن ومعارفه ، فنظموا فى سلكها مابدا لهم من علوم الكون ، وهم فى ذلك مخطئون ومسرفون ، وإن كانت نيتهم حسنة وشعورهم نبيلا ، ولكن النية والشعور مهما حسنا لايسوغان أن يحكى الإنسان غير الواقع ، ويحمل كتاب الله على ماليس من وظيفته ، خصوصا بعد أن أعلن الكتاب نفسه هذه الوظيفة وحددها مرات كثيرة . منها قوله سبحانه : « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقينَ » ومنها قوله جلت حكمته : « قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانهُ سبلَ السلام ويخرجهم من الظلماتِ إلى النور بإذنه ويهديهمْ إلى صراطٍ مستقيم » .

ومما يجب التفطن له أن عظمة القرآن لا تتوقف على أن ننتحل له وظيفة جديدة ، ولا أن نحمله مهمة ماأنزل الله بها من سلطان ؛ فإن وظيفته فى هداية العالم أسمى وظيفة فى الوجود، ومهمته فى إنقاذ الإنسانية أعلى مهمة فى الحياة! وما العلوم الكونية بإزاء الهدايات القرآنية؟ أليس العالم الآن يشقى بهذه العلوم ويحترب وينتحر؟ ثم أليست العلوم الكونية هى التى ترمى الناس فى هذه الأيام بالمنايا وتقذفهم بالحمم ، وتظهر لهم على أشكال مخيفة مزعجة، من مدافع رشاشة ، ودبابات فتاكة، وطائرات أزازة، وقنابل مهلكة ، وغازات

محرقة ، ومدمرات فى البر والبحر وفى الهواء والماء ؟ . وما أشبه هذه العلوم للإنسان بعد تجرده من هدى الله ووحى السماء ، بالأنياب والمخالب للوحوش الضارية والسباع الوالغة فى أديم الغبراء !! .

(ثانيها) أن القرآن دعا إلى هـذه العلوم فى جملة ما دعا إليه من البحث والنظر ، والانتفاع بما فى الـكون من نعم وعبر . قال سبحانه : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » . وقال جل شأنه : « وسخر لـكم مافى السمواتِ وما فى الأرض جميعا منه ، إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفـكرون » .

(ثالثها) أن القرآن حين عرض لهذه الـكونيات أشعرنا أنها مربوبة له تعالى ومقهورة لمراده ، ونفى عنها ماعلق بأذهان كثير من الضالين الذين توهموها آلهة وهى مألوهة ، وزعموها ذات تأثير وسلطان بينما هى خاضعة لقدرة الله وسلطانه « إن الله يمسكُ السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » . وكذلك أشعرنا القرآن أنها هالـكة « كلُّ شىء هالكٌ إلا وجهه » « وما قدرُوا الله حق قدْره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطوياتٌ بيمينه » « يوم تُبدَّل الأرضُ غير الأرض والسموات » .

(رابعها) أن القرآن حين يعرض لآية كونية فى معرض من معارض الهداية، يتحدث عنها حديث المحيط بعلوم الـكون، الخبير بأسرار السموات والأرض ؛ الذى لا تخفى عليه خافية فى البر والبحر ، ولا فى النجوم والـكواكب ، ولا فى السحاب والمـاء ، ولا فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد . وذلك هو الذى بهر بعض المشتغلين بالعلوم الـكونية ؛ وأوقع من أوقع منهم فى الإسراف واعتبار هذه العلوم من علوم القرآن .

(خامسها) أن الأسلوب الذى اختاره القرآن فى التعبير عن آيات الله الـكونية ، أسلوب بارع جمع بين البيان والإجمال فى سمط واحد ، بحيث يمر النظم القرآنى الـكريم

على سامعيه فى كل جبل وقبيل ، فإذا هو واضح فيما سبق له من دلالة الإنسان وهدايته إلى الله ، ثم إذا هو مجمل التفاصيل ، يختلف الخلق فى معرفة تفاريعه ودقائقه ، باختلاف مالديهم من مواهب ووسائل وعلوم وفنون .

ولنضرب لذلك مثلا : تلك الآية الحكيمة وهى قوله عز اسمه : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . فإنها مرت على بنى الإنسان منذ نزلت إلى الآن ، ففهموا منها جميعا أن الله تعالى يدل على قدرته وإبداعه وكماله بأنه خلق من الأشياء متنوعات مختلفة الأشكال والخصائص . لكنهم اختلفوا بعد ذلك. فالأوائل يؤثر عنهم أن الزوجين فى الآية الكريمة ، هما الأمران المتقابلان تقابلا ما . لا بخصوص الذكورة والأنوثة ؛ روى عن الحسن أنه فسر الزوجين بالليل والنهار والسماء والأرض، والشمس والقمر ، والبر والبحر، والحياة والموت ، وهكذا عدد أشياء وقال: كل اثنين منها زوج، الله تعالى فرد لا مثيل له . . أما المتأخرون ففهموا أن الزوجين فى الآية ، هما الأمران المتقابلان بالذكورة والأنوثة ، ويقولون : إنه ما من شىء فى الوجود إلا منه الذكر والأنثى ، سواء فى ذلك الإنسان والحيوان والجماد وغيرها مما لا نعلم، ويستدلون على ذلك بقوله سبحانه : « سبحانه الذى خلقَ الأزواج كلها مما تنبتُ الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون » . ويقولون : إن أحدث نظرية فى أصول الأكوان تقرر أن أصول جميع الكائنات تتكون من زجين اثنين ، وبلسان العلم الحديث (الكترون وبروتون) .

ولا أحب أن نتوسع فى هذا، فبين أيدينا أمثلة كثيرة ومؤلفات جمة، تموج وتضطرب باستنباط علوم الكون من القرآن ، أو بتفسير القرآن وشرحه بعلوم الكون. وأحدثها فيما أعلم كتاب تحت الطبع الآن ألفه شاب فاضل مثقف وسماه (بين القرآن والعلم) وضمنه شتيتا من الأبحاث المختلفة فى الاجتماع وعلم النفس وعلم الوراثة والزراعة والتغذية وفيما وراء الطبيعة ، مما لا يتسع المقام لذكره، ومما لا نرى حاجة إليه ، خصوصا بعد أن تبين لنا أن العلوم الكونية خاضعة لطبيعة الجزر والمد ، أن أبحاثا كثيرة منها لا تزال قلقة حائرة بين

إثبات ونفى. فما قاله علماء الهيئة بالأمس ينقضه علماء الهيئة اليوم . وما قرره علماء الطبيعة فى الماضى يقرر غيره علماء الطبيعة فى الحاضر . وما أثبته المؤرخون قديماً ينفيه المؤرخون حديثاً وما أنكره الماديون وأسرفوا فى إنكاره باسم العلم، أصبحوا يثبتونه ويسرفون فى إثباته باسم العلم أيضا، إلى غير ذلك مما زعزع ثقتنا بما يسمونه العلم ، ومما جعلنا لا نطمئن إلى كل ماقرروه باسم هذا العلم، حتى لقد ظهر فى عالم المطبوعات كتاب خطير من مصدر على محترم عندهم ، له خطورته وجلالته وشأنه ، فصدع هذا الكتاب بناء علمهم وزلزل أركان الثقة به ، بعد أن نقض بالدليل والبرهان كثيراً من المقررات والمسلمات التى يزعمونها يقينية . ثم انتهى بقارئه إلى أن هـذا الكون غامض متغلغل فى الغموض والخفاء ، ومن هنا سمى تأليفه (الكون الغامض) . وهذا المؤلف هو السير جيمس جينز .

فهل يليق ـ بعد ذلك كله ـ أن نبقى مخدوعين مغرورين بعلمهم الذى اصطلحوا عليه وتحاكموا إليه ، وقد سجنوه وسجنوا أنفسهم معه فى سجن ضيق هو دائرة المادة ، تلك الدائرة المسجونة هى أيضاً فى حدود ماتفهم عقولهم وتصل تجاربهم، وقد تكون عقولهم خاطئة وتجاربهم فاشلة ؟ ؟ ! ثم هل يليق بعد ذلك كله أن نحاكم القرآن إلى هذه العلوم المادية القلقة الحائرة بينما القرآن هو تلك الحقائق الإلهية العلوية القارة الثابتة ، المتنزلة من أفق الحق الأعلى الذى يعلم السر وأخفى ؟ !

ألا إن القرآن لا يفر من وجه العلم . ولكنه يهفو إلى العلم ويدعو إليه ويقيم بناءه عليه ، فأثبتوا العلم أولا ووفروا له الثقة وحققوه، ثم اطلبوه فى القرآن فإنكم لا شك يومئذ واجدوه . وليس من الحكمة ولا الإنصاف فى شىء أن نحاكم المعارف العليا إلى المعارف الدنيا ، ولا أن نحبس القرآن فى هذا القفص الضيق الذى انحبست فيه طائفة مخدوعة من البشر ، بل الواجب أن نتحرر من أغلال هذه المادة المظلمة ، وأن نطير فى سموات القرآن حيث نستشرف المعارف النورانية المطلقة ، والحقائق الإلهية المشرقة ، وأن نوجه اهتمامنا دائما إلى استجلاء عظات هذا التنزيل وهداياته الفائقة ، وألا نقطع برأى فى تفاصيل

مايعرض له القرآن من الكونيات إلا إن كان لنا عليه دليل وبرهان لاشك فيه ولا نكران ، وإلا وجب أن نتوقف عن هذه التفاصيل ، ونكل علمها إلى العالم الخبير ، قائلين ماقالت الملائكة حين أظهر الله لهم على لسان آدم مالم يكونوا يحتسبون : «سبحانكَ لاعلمَ لنا إلا ماعلَّمْتنا . إنكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ » .

كلمة فى الموضوع :

والآن يروقنى أن أنقل لك مقتطفات قيمة للعلامة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش فى هذا الموضوع لكن بتصرف قليل :

١ ـ ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث فى الشئون الكونية والمسائل العلمية والفنية ، على النحو المألوف فى الكتب الخاصة الموضوعة فيها .

٢ ـ لما جاء القرآن الكريم كان فى جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطىء بالكونيات أضعاف ما كان منها لدى بنى إسرائيل عند ما أخرجهم موسى ﷺ من مصر ، فكان من الحكمة الإلهية أن يتنزل على محمد ﷺ فى سبيل تصحيح تلك العقائد والمعلومات أضعاف ماتنزل على موسى فى سفر التكوين . والحكمة البالغة فى ذلك أن الدعوة إلى توحيد الخالق وتقرير الحق من العقائد وقبول مايلى ذلك من الشرائع والأخلاق، ما كانت لتجد سبيلها إلى قلوب عرفت للأجرام العلوية فى ألوهيتها وتزاوجها وما كان من أثرها فى تكوين هذه الكائنات ونظامها، ماقررته العقلية القديمة فى بلاد مصر والإغريق، وما بثته فى جزيرة العرب وماحولها أساطير الأشوريين والبابليين والكلدانيين. إذن كان لزاماً أن يسترعى القرآن انتباه الناس إلى وجه الخطأ فى عقائدهم ، وأن يشككهم فى الباطل الذى اتبعوه ، لأنهم وجدوا عليه آباءهم ، وأن يطلقهم بذلك من الحجر الذى أشقاهم وألحقهم بالأنعام من الحيوان .

٣ ـ كانت إذن مهمة القرآن الحكيم التى أرادها لتمهيد السبيل إلى التعريف بالخالق جل شأنه ، أن يعين العقول بضرب الأمثال ، لِمَ تفكر؟ وفيم تفكر؟ وكيف تفكر؟ فهو فى جهاده هذا كان يخطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة، ويرسم الخطوط الأساسية للصور كى يملأها الرسام بما يلزم لها من الألوان والظلال ومعالم الجمال .

٤ ـ لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الأمثال ، فى بيان بعض غوامض الحقائق الكونية ، بل جاء فى ذلك بحقائق أمر الأميين وغير المحصلين بالتسليم بها والتفويض فيها ، كما أمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوه الصواب فيها . ثم نصح الفريقين أن يعترفا بعجز عقولهم وألا يقطعا بشىء فيما لا تبلغه أبحاثهم وسعيهم ، بل يتهمون أنفسهم بالعجز والقصور ؛ ويسألون أهل الذكر فيما لا يعلمون ، أو يكلون أمر ما لا يدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

٥ ـ أن المسيحيين حينما ثاروا فى وجه العلم ونظام الحكم ثوراتهم التجديدية فى أوربة ، لم يكونوا ليشبهوا فى شىء من مواقفهم تلك أحداً من الشعوب الإسلامية ،فإنما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر ثورتهم الدموية ، أن رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان ، وقرروا للكنيسة فلسفة حرموا على الناس حتى استيضاح ما غمض عليهم منها . ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها ، ولو اعتمد فى رأيه على الحس والمعاينة . حتى لقد كان منهم ميلانشتون وكيرمونينى اللذان رفضا أن ينظرا إلى السماء بالآلة المقربة (تلسكوب) وقد روى عن غاليلو أن من تلاميذ المذهب الارسطاطالى من كانوا ينكرون وجود أجسام علوية مرئية بالفعل، وأنهم كانوا يعتبرون فلسفة أرسطو كتلة واحدة لاتقبل التفكيك، إذا نقض منها حجر انهار سائر بنيانها على أثره . فكان ذلك سبب مغالاتهم فى التمسك بها والحرص عليها مجتمعة » .

ثم قال فى تعدد الأرضين :

« لم يذكر القدماء شيئاً فى أمر تعدد الأرضين سوى ما نقله ابن سينا عن قدماء حكماء الفرس من أن هنالك أراضى كثيرة غير أرضنا . وما زال الرأى السائد بين سائر الحكماء والفلاسفة ، يقول بعدم تعددها ، حتى جاء غاليلو المتوفى سنة ١٦٤٢ بمناظيره المكبرة والمقربة وكذلك من جاءوا بعده ، فأثبتوا بمشاهداتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها أراض كأرضنا ، وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء والخلائق والعمران ولم يعتمدوا فى هذا التجويز إلا على الحدس والظن ، فإن مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد.

أما القرآن فقد صرح بتعدد الأرضين فى آية « اللهُ الذى خلقَ سبعَ سمواتٍ ومِنَ الأرضِ مثلَهُنَّ » ففى تفسير أبى السعود (من مفسرى القرن التاسع للهجرة) أن الجمهور على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض ، وفى تفسير النيسابورى أنها سبع أرضين ما بين كل واحدة منها إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام[1] ، وفى كل أرض منها خلق - إلى أن قال - وهم يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويشهدون الضياء منها . ومن أصرح الآيات فى أن السيارات أراض مأهولة آية الشورى : « ومن آياته خلقُ السموات والأرض وما بثَّ فيهما منْ دابة » إذ المراد بالسموات هنا السيارات على ما يأتى لنا من التأويل . ومن الآيات

(١) مسألة تقدير المسافات التى بين السيارات مثلا بمسيرة خمسمائة عام يفسرها الشهرستانى بالدابة تسير فرسخاً إسلامياً فى كل ساعة على ما هو المعروف ومصطلح عليه فى سائر الكتب الإسلامية ، مما يبلغ مجموعه نحو ١٦ ميلا تقريبا . وهو قريب جداً من تقديرات المتأخرين للمسافات الفاصلة بين السيارات كما يقول ذلك الأستاذ الشهرستانى فى كتابه المسمى (الهيئة والإسلام) ص ٩٠ ج أول .

(ومما يجدر ذكره أن الشهرستانى هذا ليس هو صاحب الملل والنحل بل هو أحد مجتهدى الشيعة المعاصرين لنا . واسمه هبة الله) .

البينة فى هذا الموضوع قوله تعالى: « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدتِ السموات والأرض ومن فيهنّ ، بل أتيناهم بذكرهم فهمْ عن ذكرهم معرضون » :

ومن قصرت عقولهم استبعدوا وجود الحيوان فى الأجرام السماوية . ولكن نفى الزمخشرى والبيضاوى وغيرهما استبعاد أن يخلق الله فيها صنوفا من الحيوان يمشون فيها مشى الإنسان على الأرض ؛ فالله خالق كما قالوا : « ما نعلم وما لا نعلم » اهـ ما أردنا نقله.

الوجه السادس

سياسته فى الإصلاح

ومعنى هذا أن القرآن انتهج طريقاً عجيباً فى إصلاحه ، وسلك سياسة حكيمة وصل بها من مكان قريب إلى ما أراد من هداية الخلق ، فتذرع بجميع الوسائل المؤدية إلى نجاح هذا الإصلاح الوافى بكل ما يحتاج إليه البشر . مما يدل بوضوح على أن القرآن فى سياسته هذه لا يمكن أن يصدر عن نفس محمد ولا غير محمد .

وبيان ذلك من وجوه :

(أولها) مجىء هـذا الكتاب منجما ، ومخالفته بذلك سائر كتب الله الإلٰهية ، بعداً بالناس عن الطفرة ، وتيسيراً لتلقيهم إياه وقبولهم ما جاء به ، على نحو ما بينا فى أسرار التنجيم بالمبحث الثالث من هذا الكتاب .

(ثانيها) مجىء هذا الكتاب بذلك الأسلوب الشائق الرائع الحبيب إلى نفوسهم ، ليكون لهم من هذا الأسلوب دافع إلى الإقبال عليه والاستئناس بما جاء من تعاليمه وإن كانت مخالفة لما مردوا عليه من قبل .

(ثالثها) مجىء هذا الكتاب على غير المعهود فى تأليف القوانين والعلوم والفنون والآداب، من بناء تقسيمها وتبويبها على الموضوعات بحيث يختص كل باب من الكتاب بموضوع معين ، ويختص كل فصل من فصول هذا الباب بمسألة أو مسائل وهكذا .

فأنت تجد فى الغالب كل سورة من سور القرآن جامعة لمزيج من مقاصد وموضوعات، يشعر الناظر فيها بمتعة ولذة؛ كلما تنقل بين هذه المقاصد فى السورة الواحدة، كما يشعر الآكل باللذة والمتعة كلما وجد ألوانا شتى من الأطعمة على المائدة الواحدة . وإذن ففى هذا النمط الذى اختاره القرآن فائدتان : دفع السأم والملل عن الناظر فى هذا الكتاب ، وانقياد النفوس إلى هداياته بلباقة من حيث لا تحس بغضاضة . يضاف إلى هذا ما نلمحه من الوحدة الفنية فى السورة أو القطعة الواحـــدة ، ومن وفاء القرآن بجميع الاصطلاحات البشرية، على رغم هذا الانتشار القاضى فى العادة بعدم الانسجام وبفوات شىء أو أشياء من مقاصد التأليف وأغراض المؤلفين. حتى ليبدو ذلك وجهاً جديداً من وجوه الإعجاز، يؤمن به عن خبرة وإحساس كل من ابتلى بتأليف أو مزاولة آثار المؤلفين ! .

(رابعها) تكرار ما يستحق التكرار من الأمور المهمة، حتى يجد سبيله إلى النفوس النافرة والطباع العصية ، فتسلس له القيادة وتلقى إليه السلم ، مثال ذلك تقرير القرآن لعقيدة التوحيد واستئصاله لشأفة الشرك ، بوساطة الحديث عنهما مراراً وتكراراً: تارة يصرح وأخرى يلوح . وتارة يوجز وأخرى يطنب. وتارة يذكر العقيدة مرسلة وأخرى يذكرها مدللة . وتارة يشفعها بدليل واحد وأخرى بجملة أدلة. وتارة يضرب لها الأمثال وأخرى يسوق فيها القصص . وتارة يقرنها بالوعد وأخرى بالوعيد . وهلم .

(خامسها) مخـــاطبة العقول والأفـكار ، ودعوته إلى إعمال النظر وطلب الدليل والبرهان، ونعيه على من أهملوا العقول واستمرءوا التقليد الأعمى ، وركنوا إلى الجمود . اقرأ قوله سبحانه : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ». وقوله: « إن شرَّ الدوابِّ عندَ اللهِ الصمُّ البكم الذين لا يعقلون » وقوله: « لهم قلوبٌ لا يفقهونَ بهَا، ولهم أعينٌ لا يبصرونَ بهَا، ولهم آذنٌ لا يسمعونَ بها . أولئك كالأنعامِ بل همْ أضل . أولئك هم الغافلونَ » .

وهكذا كثيراً ما نسمع فى القرآن أمثال قوله سبحانه « أفــلا يسمعون ـ قليلا ما تذكَّرون ـ أنى يؤفكون ـ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ـ أفلا ينظرونَ إلى الإبل كيفَ خلقت، وإلى السماء كيف رُفعت، وإلى الجبالِ كيف نُصبتْ، وإلى الأرضِ كيف سُطِحَتْ » « قل انظروا ماذا فى السمواتِ والأرض » إلى غير ذلك مما يرفع كرامة الإنسان، ويحاكم أهم الأمور حتى العقيدة فى الله تعالى إلى العقول، ليصل المرء من وراء ذلك إلى اقتناع الضمير واطمئنان القلب وبرد اليقين وحرارة الإيمان !.

(سادسها) استغلاله الغرائز النفسية استغلالا صالحا بعد أن يهذبها بالدليل ويصقلها بالبرهان. هذه غريزة التقليد والمحاكاة فى الإنسان مثلا قد نأى بها القرآن عن احتذاء الأمثلة السيئة من الجهلة والفسقة، وذهب بها إلى مقام أمين من وجوب اتباع الأمثلة الطيبة والتأسى بمن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين « وحسن أولئك رفيقاً ». « لقد كان لكم فى رسولِ الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكرَ الله كثيراً »، « قل إن كنتم تحبونَ الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم »، « أولئكَ الذين هدى الله فبهداهم اقتَدِه ».

وهذه غريزة حب البقاء والعلو فى الإنسان، قد نأى بهــا القرآن أيضاً عن الظلم والبغى، وذهب بها إلى حيث الدفاع عن النفس والعرض والدين والوطن، وقاد بها عباد الله إلى الحق والخير، إذ وعدهم حياة ثانية فيها الخــلود والبقاء، وفيها الملك الواسع والاستعلاء العادل « وإذا رأيت ثَمَّ رأيتَ نعيماً ومُلْـكا كبيراً ».

وهكذا دخل القرآن على الناس من هذا الباب فقادهم من غرائزهم حتى ناط أوامره بمصالحهم، ونواهيه بمفاسدهم، وجعل ذلك قاعدة عامة قال فيها: « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ». « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإنْ أسأتم فلها ».

وإن أردت تفصيلا وتمثيلا فانظر إلى تلك المقارنة الرائعة بين المؤمن والمشرك إذ يقول سبحانه: « ضرب الله مثلًا رجلًا فيه شركاء متشاكسون ورجلًا سلما لرجل.

هل يستويان مثلًا ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » . فأنت ترى فى هـذه الآية الكريمة أن المشرك مع معبوديه، مثله مثل عبد اشترك فيه شركاء متنازعون مختلفون، كل واحد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه فى أعمال شتى ، وهـو متحير متعب مجهود لا يدرى أيهم يرضى بخدمته ؟ وعلى أيهـم يعتمد فى حاجاته ؟ ولا يدرى ممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقه ؟ . فهمه شَعاع ، وقلبه أوزاع . أما المؤمن فمثله مثل عبد له سيد واحد ، فهمه واحد وقلبه مجتمع وضميره مستريح وعمله مريح . « أأرباب متفرقونَ خيرٌ أم الله الواحدُ القهّار ؟ » !

وإن أردت مثالا ثانيا فاستمع إلى القرآن وهو يقول فى فريضة الصلاة : « إن الإنسانَ خُلق هلوعا * إذا مسَّه الشر جزوعا * وإذا مسه الخيرُ منوعاً . إلا المصلِّينَ » الخ . وقوله : « ألا بِذكر اللهِ تطمئنُّ القلوب » .

وإن أردت أمثلة أخرى فاقرأ قوله سبحانه فى فرض الزكاة : « خُذْ منْ أموالهمْ صدقةً تطهرهم وتزكِّيهمْ بهاَ » وفى فرض الصيام : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . وفى فرض الحج : « وأذن فى الناسِ بالحجِّ يأتوك رجالًا وعلى كل ضامرٍ يأتينَ منْ كل فج عميق . ليشهدوا منافعَ لهم » الخ . وفى عموم الإيمان والعمل الصالح : « منْ عملَ صالحاً منْ ذكرٍ أو أُنثى وهوَ مؤمنٌ فلنحيينَّهُ حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

(سابعها) ترتيبه الأوامر والنواهى ترتيبا يسع جميع الناس، على تفاوت استعدادهم ومواهبهم . فالأوامر الدينية درجات: هذا إيمان، وهذا إسلام، وهذا ركن، وهذا فرض وهذا واجب، وهذا مندوب مؤكد، وهذا مندوب غير مؤكد . والمناهى كذلك درجات: هذا نفاق ، وهذا شرك ، وهذا كفر ، وهذه كبيرة وهذه صغيرة، وهذا مكروه تحريما، وهذا مكروه تنزيها . . وما وراء هذه الأوامر والنواهى فمباحات ، لكل أن يأخذ وأن يدع منها ما شاء .

ولاريب أن وضع التشريع على هذا الوجه، فيه متسع للجميع. وفيه إغراء للنفوس الضعيفة أن تتشرف باعتناق الإسلام ولو فى أدنى درجة من درجاته. حتى إذا أنست به وذاقت حلاوته، تدرجت فى مدارج الرقى، فمن إيمان إلى إسلام إلى أداء ركن إلى أداء فرض إلى أداء واجب إلى أداء مندوب مؤكد إلى أداء مندوب غير مؤكد. ومن ترك نفاق إلى ترك شرك وكفر إلى ترك كبيرة إلى ترك صغيرة إلى ترك مكروه تحريما إلى ترك مكروه تنزيها إلى ترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس. ومن مجرد أداء للنوافل إلى زيادة فيها وإكثار منها، حتى يصل العبد إلى ذلك المقام الذى جاء فيه عن الله تعالى: « ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به؛ ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه.

على ضوء هذه السياسة الشرعية الحكيمة التى نزل بها القرآن، كان ﷺ يتدرج بالأقوام رويداً رويداً، كما كان يتساهل معهم تأليفاً لقلوبهم واستمالة لهم إلى اعتناق الدين على أى وجه. ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن نصر بن عاصم الليثى عن رجل منهم أنه أتى النبى ﷺ فأسلم على أن يصلى صلاتين (لا خمساً) فقبل منه وجاء فى رواية أخرى: على ألا يصلى إلا صلاة فقبل. وعن وهب قال: سألت جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت فقال: اشترطت على النبى ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبى ﷺ يقول بعد ذلك « سيتصدقون ويجاهدون » رواه أبو داود. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: « أسلم » قال أجدنى كارها قال: « أسلم وإن كنت كارها » رواه أحمد. قال الشوكانى فى نيل الأوطار بعد أن سرد هذه الأحاديث: « فيها دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الإسلام منه وإن شرط شرطاً باطلا ».

والمراقب لنزول القرآن وسير التشريع الإسلامى، يرى من مظاهر هذه السياسة

البارعة المعجزة شيئاً كثيراً ، وحسبك أن يبتدئ الأمر بتقرير عقيدة التوحيد ، وألا تفرض الصلوات الخمس إلا بعـــد عشر سنوات تقريباً من البعثة ، ثم سائر العبادات بعضها تلو بعض . أما المعاملات فلم يستبحر الأمر فيها إلا بعد الهجرة . وقل مثل ذلك في المنهيات . ولعلك لم تنس التدرج الإلهي الحكيم في تحريم الخمر .

(ثامنها) مجيء القرآن بمطالب الروح والجسد جميعاً ، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر . وفي ذلك آيات كثيرة تقدم التنويه بها في مناسبات أخرى ، من أجلها كان المسلمون أمة وسطاً بين من تغلب عليهم المادية والحظوظ الجسدية كاليهود ، ومن تغلب عليهم النواحي الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس كالهندوس والنصارى في تعاليمهم ، وإن خالفتها الكثرة الغامرة منهم .

(تاسعها) مجيء القرآن بمطالب الدنيا والآخرة جميعا ، عن طريق التزام تعاليمه وهداياته التي أجملنا مقاصدها فيما سبق ، لا عن طريق الاعتقادات الخاطئة والأماني الكاذبة والتواكل وترك العمل . والآيات في هذا المعنى أظهر من أن تذكر .

(عاشرها) مجيء القرآن بالتيسير ورفع الحرج عن الناس : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » - « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » - « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . « فمن اضطر في مَخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفورٌ رحيمٌ » .

« من كفرَ باللهِ من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبُهُ مطمئنٌ بالإيمان » وهذا باب واسع وضع منه علماؤنا قواعد عامة كقولهم : المشقة تجلب التيسير ، والضرورات تبيح المحظورات . ثم فرعوا عليها فروعا وسعت ولا تزال تسع الناس أجمعين . والحمد لله رب العالمين .

الوجه السابع أنباء الغيب فيه

ومعنى هذا أن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم لمحمد ﷺ بها، ولا سبيل لمثله أن يعلمها مما يدل دلالة بينة على أن هـذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب، لا يعقل أن يكون نابعا من نفس محمد ولا غير محمد من الخلق. بل هو كلام علام الغيوب وقيوم الوجود، الذي يملك زمام العالم «وعندهُ مفاتحُ الغيبِ لا يعلمها إلا هو ويعلمُ ما فى البرِّ والبحرِ».

من ذلك قصص عن الماضى البعيد المتغلغل فى أحشاء القدم. وقصص عن الحاضر الذى لا سبيل لمحمد إلى رؤيته ومعرفته فضلا عن التحدث به. وقصص عـن المستقبل الغامض الذى انقطعت دونه الأسباب، وقصرت عن إدراكه الفراسة والألمعية والذكاء.. وسر الإعجاز فى ذلك كله أنه وقع كما حدث وما تخلف. وجاء على النحو الذى أخبر به فى إجمال ما أجمل وتفصيل ما فصل. وأنه إن أخبر عن غيب الماضى صدقه ما شهد به التاريخ. وإن أخبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء. وما جدّ فى العالم من تجارب وعلوم. وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالى وما تجىء به الأيام.

غيب الماضى:

أما غيوب الماضى فى القرآن فكثيرة، تتمثل فى تلك القصص الرائعة التى يفيض بها التنزيل، ولم يكن لعلم محمد بها من سبيل.

منها قصة نوح التى قال الله فيها: «تلك من أنباء الغيبِ نوحيها إليك. ما كنتَ تعلمها أنتَ ولا قومكَ من قبل هذا.

ومنها قصة موسى التى يقول الله فيها: «وما كنتَ بجانبِ الغربى إذ قضينا

إلى موسى الأمر . وما كنتَ من الشاهدينَ * ولكنا أنشأنا قرونا فتطاولَ عليهمُ العمرُ . وما كنتَ ثاوياً فى أهل مدينَ تتلوا عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين * وما كنتَ بجانبِ الطور إذ نادينا ولكنْ رحمة من ربك ؛ لتنذرَ قوماً ما أتاهم من نذيرٍ من قبلكَ لعلهم يتذكرون * » .

ومنها قصة مريم وفيها يقول الله : « ذلكَ من أنباء الغيبِ نوحيهِ إليك . وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيهم يكفلُ مريم . وما كنتَ لديهم إذ يختصمونَ * » .

غيب الحاضر :

أما غيب الحاضر فنزيد به ما يتصل بالله تعالى والملائكة والجن والجنة والنار ونحو ذلك ، مما لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم سبيل إلى رؤيته ولا العلم به ، فضلا عن أن يتحدث عنه على هذا الوجه الواضح ، الذى أيده ما جاء به الأنبياء وكتبهم عليهم الصلاة والسلام . وأمثلة هذا الضرب كثيرة فى القرآن ، لا تحتاج إلى عرض ولا بيان .

ومنه أيضا ما فضح الله به المنافقين فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم مما كان قائما بهم وخفى أمره عليه كقوله : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبهِ وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرثَ والنسلَ والله لا يحبُّ الفساد * وكقوله فى مسجد الضرار الذى بناه المنافقون : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبونَ » .

وسورة التوبة فيها من هذا الضرب شىء كثير .

ومن غيب الحاضر أو الماضى ما جاء فى طى القرآن من حقائق ومنافع ومبادئ لم يكشف عنها إلا العلم الحديث . وسيأتى التمثيل له .

غيب المستقبل :

وأما غيب المستقبل ، فنمثل له بأمثلة عشرة :

﴿ المثال الأول ﴾ إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون فى بضع سنين من إعلان هذا النبأ الذى يقول الله فيه : « غُلبت الروم * فى أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين . لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ . ويومئذٍ يفرحُ المؤمنونَ. بنصرِ الله ينصر من يشاء وهو العزيزُ الرحيمُ * وعد الله ، لا يخلف الله وعده، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمونَ » .

وبيان ذلك أن دولة الرومان وهى مسيحية كانت قد انهزمت أمام دولة الفرس وهى وثنية، فى حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤م فاغتم المسلمون بسبب أنها هزيمة لدولة متدينة أمام دولة وثنية ، وفرح المشركون وقالوا للمسلمين فى شماتة العدو : إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد غلبهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم. فنزلت الآيات الكريمة يبشر الله فيها المسلمين بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار فى بضع سنين ، أى فى مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وتسع . ولم يك مظنونا وقت هذه البشارة أن الروم تنتصر على الفرس فى مثل هذه المدة الوجيزة . بل كانت المقدمات والأسباب تأبى ذلك عليها ؛ لأن الحروب الطاحنة أنهكتها حتى غزيت فى عقر دارها ، كما يدل عليه النص الكريم : « فى أدنى الأرض ». ولأن دولة الفرس كانت قوية منيعة وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة . حتى إنه بسبب استحالة أن ينتصر الروم عادة أو تقوم لهم قائمة ، راهن بعض المشركين أبا بكر على تحقق هذه النبوءة . ولكن الله تعالى أنجز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة ٦٢٢ م الموافقة للسنة الثانية من الهجرة المحمدية .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الآية نفسها حملت نبوءة أخرى، وهى البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيزٍ فى هذه الوقت الذى ينتصر فيه الروم؛ «ويومئذ يفرحُ المؤمنون

بنصرِ الله » ! ولقد صدق الله وعده فى هذه كما صدقه فى تلك. وكان ظفر المسلمين فى غزوة بدر الكبرى واقعا فى الظرف الذى ظفر فيه الرومان . وهكذا تحققت النبوءتان فى وقت واحد ، مع تقطع الأسباب فى انتصار الروم كما علمت ، ومع تقطع الأسباب أيضاً فى انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة ؛ لأنهم كانوا أيامئذ فى مكة فى صدر الإسلام والمسلمون فى قلة وذلة ، يضطهدهم المشركون ولا يرقبون فيهم إلًّا ولا ذمة . ولكن على رغم هذا الاستبعاد أو هذه الاستحالة العادية ، نزلت الآيات كما ترى تؤكد البشارتين وتسوقهما فى موكب من التأكيدات البالغة التى تنأى بهما عن التكهنات والتخرصات . وإن كنت فى شك فأعد على سمعك هذه الكلمات : « بنصر الله ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرَّحيم * وعد الله ، لا يخلفُ اللهُ وعدَهُ ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ثم ألست ترى معى أن هذه العبارة الكريمة : « فى بضع سنينَ » قد حاطت هاتين النبوءتين بسياج من الدقة والحكمة ، لا يترك شبهة لمشتبه ولا فرصة لمعاند ؛ لأن البضع كما علمت من ثلاث إلى تسع . والناس يختلفون فى حساب الأشهر والسنين : فمنهم من يؤقت بالشمس ومنهم من يؤقت بالقمر . ثم إن منهم من يجبر الكسر ويكمله إذا عد وحسب ، ومنهم من يلغيه . يضاف إلى ذلك أن زمن الانتصار قد يطول حبله ، فتبتدئ بشائره فى عام ولا تنتهى مواقعه الفاصلة إلا بعد عام أو أكثر . ونظر الحاسبين يختلف تبعا لذلك فى تعيين وقت الانتصار : فمنهم من يضيفه إلى وقت تلك البشائر ومنهم من يضيفه إلى يوم الفصل ، ومنهم من يضيفه إلى ما بينهما . لذلك كله جاء التعبير بقوله جلت حكمته : « سيغلبون فى بضع سنين » من الدقة البيانية والاحتراس البارع بحيث لا يدع مجالا لطاعن ولا حاسب . وظهر أمر الله وصدق وعده على كل اعتبار من الاعتبارات وفى كل اصطلاح من الاصطلاحات . « ومن أصدقُ من اللهِ قيلًا » ؟ ! .

﴿ المثال الثانى ﴾ إنباء القرآن بأن الله عاصم رسوله وحافظه من الناس ، لا يصلون إليه بقتل ، ولا يتمكنون من اغتيال حياته الشريفة بحال ، وذلك فى قوله عز وجل : « واللهُ

يعصمك من الناس ». ولقد تحققت نبوءة القرآن هذه، ولم يتمكن أحد من أعداء الإسلام أن يقتله عليه الصلاة والسلام، مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم ومع أنهم كانوا يتربصون به الدوائر ويتحينون الفرص للإيقاع به والقضاء عليه وعلى دعوته؟ وهو أضعف منهم استعداداً وأقل جنوداً. فمن الذى يملك هذا الوعد وتنفيذه إذن إلا الله الذى يغلب ولا يغلب، والذى لا يقف شىء فى سبيل تنفيذ مراده «وهوَ القاهرُ فوقَ عبادِهِ»؟. وإن لم تصدقنى فسل التاريخ والمؤرخين، كم من الملوك والأمراء والفراعين ضرجت الأرض بدمائهم، وهم بين جنودهم وخدمهم وحشمهم !؟

فهل يمكن بعد هذا أن يكون القرآن الذى احتوى ذلك الضمان من كلام محمد وهو من قد علمت ضعفه وقوة أعدائه يومئذ؟ حتى لقد كان يتخذ الحراس قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت إذا ثقته واعتداده بها أعظم من ثقته واعتداده بمن كانوا يحرسونه. وسرعان ما صرف حراسه وسرحهم عند نزول الآية قائلا: « أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » كما رواه الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى. وكذلك روى مسلم فى صحيحه عن جابر قال: « كنا إذا أتينا فى سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلما كنا بذات الرقاع نزل نبي الله تحت شجرة وعلق سيفه فيها. فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أتخافنى؟ قال: لا، قال من يمنعك منى؟ قال: « الله يمنعنى منك. ضع السيف » فوضعه. ومما يجدر التنبيه له أن هذا الأمن كان فى الغزوة التى شرعت فيها صلاة الخوف!

ومن شواهد حماية الله لرسوله وإنجازه له هذا الوعد، ما ورد عن على رضى الله عنه قال كنا إذا احمر البأس وحمى الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه.

ومن أبلغ الشواهد على ذلك أيضا ما ثبت من أنه ﷺ فى يوم حنين حين أعجبت المسلمين كثرتهم وأدبهم الله بالهزيمة حتى ولوا مدبرين، أنزل سبحانه سكينته على رسوله،

حتى لقد جعل يركض بغلته إلى جهة العدو ، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجامها يكفها إرادة ألا تسرع. فأقبل المشركون إلى رسول الله ﷺ . فلما غشوه لم يفر ولم ينكص، بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول: « أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب » كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه : فوالله ما نالوا منه نيلا ، بل أيده الله بجنده ، وكيف أيديهم عنه بيده » رواه الشيخان .

﴿ المثال الثالث ﴾ ما جاء في معرض التحدى بالقرآن، من قوله سبحانه: « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ». وقوله: « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » فإن ماتراه في هاتين الآيتين من القطع بانتفاء قدرة المخاطبين وجميع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قد تناول أطواء المستقبل (والمستقبل غيب) لا يملكه محمد ولا مخلوق غيره، ومع ذلك فقد تحققت نبوءة القرآن ولا تزال متحققة، حيث انقرضت طبقة المخاطبين به دون أن يستطيعوا معارضة أقصر سورة منه ، ومضت بعدهم أجيال وأجيال من عرب وأعجام ، وكلهم قد باءوا بالعجز ولم يستطيعوا المعارضة إلى اليوم ، مع وجود أعداء للإسلام في هـذه العصور المتأخرة ، أكثر وأقدر وأحرص على هدم بناء هذا الدين من أولئك الأعداء الأولين .

لاحظ مع هذا مايثيره مثل هذا التحدى الطويل العريض الجرىء ، من الحمية الأدبية التى تبعث روح المنافسة على أشدها فى نفوس من يتحداهم . ثم لاحظ أن المتأخرين من الناقدين لا يعييهم فى العادة أن يستدركوا على السابقين، إما نقصاً يعالجونه بالكمال ، أو كمالا يعالجونه بما هو أكمل منه. وإذا فرضنا أن واحداً قد عجز عن هذا فمن البعيد أن تعجز عنه جماعة . وإذا عجزت جماعة فمن البعيد أن تعجز أمة. وإذا عجزت أمة فمن البعيد أن يعجز جيل . وإذا عجز جيل فمن البعيد أن تعجز أجيال ، فكيف يصدر إذن مثل هذا التحدى عن رجل يعرف مايقول، فضلا عن رجلا عظيم، فضلا عن رسول كريم، فضلا عن محمد أفضل المرسلين ؟ ! . وهل يمكن أن يفسر هذا التحدى الجرىء الطويل العريض

إلا بأنه استمداد من وحى السماء ، واستناد إلى من يملك السمع والأبصار، وحديث عمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ؟!

﴿ المثال الرابع ﴾ ماجاء من التنبؤ بمستقبل الإسلام ونجاحه نجاحا باهراً ، فقد أخبر القرآن والمسلمون فى مكة قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ـ بأن الإسلام سيظهر ويبقى، وأن كتابه سيكتب له الحفظ والخلود منفرداً بهذه الميزة عن سائر كتب الله . اقرأ إن شئت قوله تعالى فى سورة الرعد « كذلك يضربُ اللهُ الحقَ والباطل فأما الزَّبدُ فيذهب جُفاءً. وأما ماينفعُ الناسَ فيمكثُ فى الأرض» . وفى سورة إبراهيم « ضربَ اللهُ مثلا كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابتٌ وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كلَّ حين بإذن ربها » وفى سورة الحجر : « إنا نحنُ نزَّلنا الذكر وإنا لهُ لحافظونَ .

أجل فى هذه السور الثلاث المكية ، قطع القرآن هذه العهود المؤكدة بتلك اللغة الواثقة ، والإسلام يومئذ فى مكة مدفوع مضطهد ، والمسلمون قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ، وليس هناك من بواسم الآمال مايلقى ضوءاً على نجاح هذا الدين الوليد ، ولئن التمست هذه الآمال فى نفس الداعى من طبيعة دعوته، فما كانت لتصل إلى هذا الحد من اليقين والتأكيد. ولئن وصلت إلى هذا الحد مادام صاحبها حيًّا يتعهدها بنفسه ويغذيها بنشاطه ، فليس لديه من العوامل مايجعله يثق بهذا النجاح بعد موته، مع ماهو معروف بأن المستقبل ملىء بشتيت المفاجآت، والليالى من الزمان حبالى مثقلات، والتاريخ لايزال يقص علينا وعلى الناس نبأ من قتل من الأنبياء ، وما ضاع أو حرف من كتب الله ووحى السماء وما حبط من دعوات الحق ونهض من دعوات الباطل... كل ذلك قد كان ومحمد ﷺ لم يكن فى يوم من الأيام بالرجل الأخرق الذى يسير مع الأوهام، أو يطير مع الخيال ، أو يطلب المجد عن طريق الأحلام المكذوبة والآمال المعسولة . بل كان معروفا منذ نشأته، بتواضعه ورجاحة عقله واتزانه ودقته ، حتى لقد كان يتثبت فى كلامه ويتحرى إلى أن لقب واشتهر بأنه الصادق الأمين، وجاء القرآن نفسه يشهد بأنه ﷺ كان قبل نبوته

لا يطمع فى نبوة ولا يأمل فى وحى ؛ « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك » . وكذلك لم يكن بعد نبوته بالذى يضمن بقاء هذا الوحى وحفظه ؛ « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليكَ ثم لا تجدُ لك به علينا وكيلًا * إلا رحمةً من ربك إنَّ فضله كان عليك كبيرا * » .

فلا مناص إذن من أن تكون تلك البشارات المؤكدة والعهود الموثقة ، صادرة من أفق غير أفقه ، آتية من مالك قاهر لا راد لحكمه معبرة عن مراد من يملك العالم ويحكمه فى ماضيه وحاضره ومستقبله !

ومما يؤيد صدق هذه التنبؤات ، أن الإسلام لقى من ضروب العنت مراراً وتكراراً ، فى أزمان متطاولة وعهود مختلفة ، ما كان بعضه كافياً فى محوه وزواله ، ولكنه على رغم أنف هذه الأعاصير العاتية بقى ثابتاً يسامى الجبال ، شامخاً يطاول السماء . وكذلك اتى كتابه العزيز ولا يزال يلقى من الهمز واللمز والطعن والسباب والمحاولات القاتلة ، مالا يتصوره إنسان فى أى زمان ، ومالم يلق كتاب قبله من الكيد والتضليل والبهتان ، ومع ذلك كله فالقرآن هو القرآن ، لا يزال جالسا على عرشه فى سمائه ، يمد العالم كله بحرارته وضيائه ، ولم تنل منه هذه المحاولات إلا كما ينال نباح الكلاب من عاليات السحاب .

﴿ المثال الخامس ﴾ تنبؤ القرآن بأن المستقبل السعيد ينتظر المسلمين فى وقت لم تكن عوامل هذا المستقبل السعيد مواتية ، ثم إذا تأويل هذا النبأ يأتى على نحو ما أخبر القرآن ، فى أقصر مايكون من الزمان ! أجل ، إننا لنقرأ فى سورة الصافات المكية : « وإن جندنا لهمُ الغالبون » وفى سورة غافر المكية أيضا « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياةِ الدنيا ويوم يقومُ الأشهاد » وكذلك نقرأ فى سورة النور المدنية « وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعَمِلوا الصالحات ليَستخلفنَّهم فى الأرضِ كما استخلفَ الذينَ من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً » على حين أن سجلات التاريخ لا تزال تحفظ بين طياتها ما يشيب الوليد من ألوان الاضطهاد والأذى الذى أصاب الرسول وأتباعه

فى مكة والمدينة ، على عهد نزول هذه الوعود المؤكدة الكريمة . حتى لقد كان أكبر أمانى المسلمين بعد هجرتهم وتنفسهم الصعداء قليلا ، أن يسلم لهم دينهم ويعيشوا آمنين فى مهاجرهم كما يدل على ذلك ما صححه الحاكم عن أبى بن كعب قال : « لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة. وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا: « أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ » فنزلت الآية. وكذلك روى ابن أبى حاتم عن البراء قال: « نزلت هذا الآية ونحن فى خوف شديد (أى قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ») الخ . . هكذا كان حال الصحابة أيام أن وعدهم الله ما وعد ، وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهى رغم هـذه الحال المنافية فى العادة لما وعد ، فدالت الدولة لهم ، واستخلفهم فى أقطار الأرض ، وأورثهم ملك كسرى وقيصر ، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً. يالها نبوءة تأبى عادة أن يتحدث بها إلا من يملك تحقيقها ، ومن يخرق ـ إن شاء ـ عادات الكون ونواميسه من أجلها . « إن تنصروا اللهَ ينصركم ويثبت أقدامكم » . « ولينصرن الله من ينصرُه . إن الله لقوىٌّ عزيز ».

﴿ المثال السادس ﴾ تنبؤ القرآن بأن الرسول وأصحابه وقد كانوا بالمدينة، سيدخلون مكة آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، إذ قال سبحانه : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ؛ لتدخلنَّ المسجدَ الحرام إن شاءَ الله آمنينَ محلقين رءوسكم ومقصِّرين لا تخافون » ثم وقع هذا التنبؤ كما أخبر ، مع أن ظروفه لم تكن تسمح به فى مجرى العادة فدل ذلك على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام محمد ولا مخلوق سواه ، بل هو كلام القادر على أن يبلغ مراده ويخرق العادة .

ولزيادة البيان نذكر أن الرسول ﷺ رأى فى نومه كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، فقص رؤياه على أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها من عامهم . ثم خرجوا محرمين يسوقون الهدى إلى مكة لا يقصدون حرباً ، وإنما يقصدون عمرة ونسكا . ولكنهم ما كادوا يبلغون الحديبية حتى صدتهم قريش وأبت

عليهم ما أرادوا . وكادت تكون حرب لولا أن الرسول رضى بصلح بينه وبينهم وإن كان قاسيا ، إيثاراً منه للمسالمة وحبا للسلام العام . ثم قفل راجعا على أن يؤدى نسكه فى العام القابل نزولا على مواد هذا الصلح القاسى . وعز ذلك على أصحابه ، واتخذ المنافقون منه حطبا لنفاقهم ومادة لدسهم ولمزهم ، فقال عبد الله بن أبى رأسهم : والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام . ولكن على رغم هذا وعلى رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود وتقطيعهم الأرحام ، نزلت الآية الكريمة تحمل هذا الوعد بل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة ، وهى دخول مكة وأداء النسك والأمن على أنفسهم من قريش حتى يتحللوا ويقفلوا راجعين إلى المدينة وقد أنجز الله وعده فتم الأمر على أكمله فى العام الذى بعد عام الحديبية . « ويأبى الله إلا أن يتمَّ نورهُ ولو كرهَ الكافرونَ » ! .

﴿ المثال السابع ﴾ تنبؤ الكفار بهزيمة جموع الأعداء فى وقت لا مجال فيه لفكرة الحرب ، فضلا عن التقاء الجمعين وانتصار المسلمين وانهزام المشركين وذلك قوله سبحانه فى سورة القمر المكية : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » وأنت خبير بأن الجهاد لم يشرع إلا فى السنة الثانية للهجرة . فأين ما يتنبأ به القرآن إذن ؟ إنه لا بد أن يكون كلاما تنزل ممن يعلم الغيب فى السموات والأرض . أما محمد الرجل الأمى فأنى له ذلك إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم ؟ . روى ابن أبى حاتم وابن مردويه أن عمر رضى الله عنه جعل يقول حين نزلت هذه الآية : أى جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقولها .

﴿ المثال الثامن ﴾ تنبؤ القرآن فى مكة بهذا المستقبل الأسود الذى ينتظر كفار قريش ، ثم وقوع ذلك كما تنبأ . اقرأ قوله سبحانه : « فارتقبْ يومَ تأتى السماء بدخانٍ مبين * يغشى الناسَ هــذا عذابٌ أليم * ربنا اكشفْ عنا العذبَ ؛ إنا مؤمنونَ * أنّى لهمُ الذكر وقد جاءهم رسولٌ مبينٌ * ثم تولوا عنه وقالوا معلَّم مجنونٌ * إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدونَ * يومَ نبطشُ البطشةَ الكبرى إنا منتقمونَ * » : وسبب نزول هذه

الآيات أن أهل مكة لما تمردوا على رسول الله ﷺ واستعصوا ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، أى بالجوع والقحط الشديدين، عسى أن يتوبوا ويؤمنوا بالله ورسوله . فأجابه الله بهذه الآيات . وفيها عند التأمل خمسة تنبؤات :

(أولها) الإخبار بما يغشاهم من القحط وشدة الجوع ، حتى ينظر الرجل إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان .

(ثانيها) الإخبار بأنهم سيضرعون إلى الله حين تحل بهم هذه الأزمة : « هـذا عذابٌ أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » .

(ثالثها) الإخبار بأن الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلا .

(رابعها) الإخبار بأنهم سيعودون إلى كفرهم وعتوهم .

(خامسها) الإخبار بأن الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى وهو يوم بدر .

ولقد حقق الله ذلك كله ما انخرم منه ولا نبوءة واحـدة ، فأصيبوا بالقحط حتى أكلوا العظام ، وجعل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من شدة جوعه وجهده ثم قالوا متضرعين ذلك الذى حكاه الله عنهم : « هذا عذاب أليمٌ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » . ثم كشف الله عنهم هذا العذاب قليلا ، ثم عادوا إلى كفرهم وعتوهم . ثم انتقم الله منهم يوم بدر فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون وأديل للمسلمين منهم ! .

أرأيت ذلك كله ؟ وهل يمكن أن يصدر مثله من مخلوق ؟ كلا بل هـو الله العزيز الحكيم .

(المثال التاسع) تنبؤ القرآن بهذا المستقبل المظلم الأسود، المضروب على اليهود بوجه مؤكد مؤبد، ثم تحقق هذا النبأ كاملا عاما يتناول القرون والأجيال من عهد نزول القرآن

لم ينخرم مرة من المرات فى يوم واحد من الأيام . اقرأ مانزل فى شأنهم من قوله سبحانه فى سورة آل عمران : « لن يضروكم إلا أذى . وإن يقاتلوكم يُوَلُّوكم الأدبارَ . ثم لاينصرون* ضُربتْ عليهم الذلة أينما ثُقفوا إلا بحبل منَ الله وحبل منَ الناس. وباءوا بغضبٍ منَ الله. وضرِبت عليهم المسكنة ». ثم انظر كم تنبؤًا فى هذا النظم الكريم، وضعه الله كأنه الأغلال فى عنق هذا الشعب الماكر اللئيم؟ ألست ترى فيه أنهم لا يستطيعون أن ينالوا من المسلمين بالحرب والقتل والأسر؟ إنما ضررهم أذى بالغدر وبسوء الاستغلال والمكر. وعلى فرض أنهم يقاتلون المسلمين، فسيلوذون حينئذ بالفرار، ويولون الأدبار، ولا سبيل لهم فى المستقبل إلى الانتصار ثم إن الذلة قد ضربت عليهم كما يضرب الحجر على السفهاء لايستطيعون الفكاك إلا إن دخلوا فى عهد من الله أوعهد من الناس ثم إن المسكنة وهى خوف الفقر قد ضربت عليهم كذلك، فهم أشد الشعوب خوفا من الفقر، ولذلك كانوا أشدها طمعاً وشرهاً فى جمع الدنيا، لايعرفون القناعة وإن غرقوا فى المال إلى أم رءوسهم ، ولا يتورعون عن الجرى وراء الدنايا بأحط الوسائل، وإن كانوا يملكون الآن ما يقرب من نصف ثروة العالم!.

ثم اقرأ فى شأن هذه الطائفة قول الله تعالى فى سورة الأعراف : « وإذ تأذن ربك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوءَ العذابِ » . وخبرنى ألست تقرأ فى هذا النص الكريم ، صكا مسجلا بعبودية هؤلاء وذلتهم إلى الأبد ؟ ثم ألست ترى أن تداول القرون والأحقاب من لدن نزول القرآن إلى اليوم لم يزد هذا التنبؤ إلا تصديقا وتحقيقا، ما خرمه مرة وإنما أشبعه إعجازا وتأييداً؟. إن كنت فى شك فسل التاريخ قديمه وحديثه ، أو فاستمع إلى صوت المآسى الماثلة القريبة ، ثم قل : صدق الله . ما القرآن إلا كلامه ، وما محمد إلا عبده ورسوله ! .

وإليك مثالا آخر فى شأن هؤلاء أبدع فى الإعجاز وأروع .

(المثال العاشر) تحدى القرآن لأعداء الله اليهود فى شىء يظهر أنه سهل بسيط، وأنه

كان فى متناول قدرتهم وفى دائرة استطاعتهم ، ومع ذلك انصرفوا عنه وعجزوا . فدل هذا التحدى مع الانصراف والعجز، على أن القرآن كلام من يستطيع تصريف القلوب وتحريك الألسنة ، وهو الله وحده . أما محمد صلوات الله وسلامه عليه فمحال أن يقامر بنفسه وبدعوته ويتحدى بهذا الأمر الظاهرة سهولته،وهو بشر لايعلم الغيب ولا يستطيع أن يقلب القلوب ولا أن يعقد الألسنة .

وبيان ذلك أن اليهود زعموا أنهم هم الشعب المختار من بين شعوب الخلق،وادّعوا أن الدار الآخرة وقف عليهم وخالصة لهم من دون الناس، فخاطب الله رسوله فى سورة البقرة يرد عليهم ويتحداهم بقوله : « قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عندالله خالصةمن دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * » ثم قال:« وَلن يتمنوه أبداً بما قدمتْ أيديهم . والله عليم بالظالمين » ، فأنت ترى هذا النظم الكريم يبطل مزاعم اليهود بطلب يبدو لكل ناظر أنه هين ، وهو أن يتمنوا الموت لو كانوا صادقين فى ادعائهم أن نعيم الآخرة وقف عليهم . ولقد كان بمقدور اليهود فى العادة أن يقولوا ولو بألسنتهم : نحن نتمنى الموت ، كى تنهض حجتهم على محمد ويكبتوه . لكنهم صرفوا فلم يقولوا، ولم يستطع أحد أن يقول إنى أتمنى الموت . وعلى ذلك قامت الحجة عليهم ، وبان كذبهم فى كبريائهم وغرورهم . وبلغ من أمر القرآن معهم أنه نفى عنهم هذا التمنى نفيا يشمل آباد المستقبل فقال : « ولن يتمنوه أبداً » .

وها قد مضى على نزول القرآن قريب من أربعة عشر قرنا،وماتمنى أحد منهم الموت لو كانوا صادقين . بل أعلن القرآن فى السورة نفسها مبلغ حرصهم على الحياة وأملهم فيها فقال : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة . وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر . والله بصير بما يعملون » . فكان ذلك علماً جديداً من أعلام النبوة ، لأنه تنويه بغيب حاضر،لم يكن يعلمه محمدولاقومه.

خبرنى ـ بربك ـ هل يتصور عاقل أن محمداً وهوفى موقف الخصومة الشديدة من اليهود ، تطوع له نفسه أن يتحداهم هذا التحدى من عنده فى لغة الواثق الذى لا يتردد، والآمن الذى لا يخاف المستقبل؟ وهل كان يأمن أن يرد عليه واحد منهم فيقول : إنى أتمنى الموت؟ وهنا تكون القاضية، فتنقطع ـ لاقدر الله ـ حجة الرسول، ويظهر عجزه، وتفشل دعوته ، أمام قوم هم من أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، ومن أحرصهم على إفحام الرسول وتعجيزه .

فصدور هذا التحدى من رجل عظيم كمحمد ، ثم استخذاء هؤلاء وانصرافهم عن الرد عليه وعن إسكاته وهو فى مقدور أقل رجل منهم، ثم تسجيل هذا الاستخذاء عليهم فى الحال بقوله : « ولتجدنهم أحرص الناسِ على حياة » وفى الاستقبال بقوله : « ولن يتمنوه أبداً » : كل أولئك أدلة ساطعة على أن القرآن كلام علام الغيوب، قاهر الألسنة ومقلب القلوب . وهى أيضاً براهين قاطعة على أن محمداً لا يمكن أن يكون مصدر هذا الكتاب ولا منبع هذا الفيض، بل قصاراه أنه مهبط هذا التنزيل، وأنه يتلقاه من لدن حكيم عليم .

(المثال الحادى عشر) وهو من عجائب هذا الباب، أن القرآن عرض لتعيين بعض أحداث جزئية ، تقع فى المستقبل لشخص معين ، ثم تحقق الأمر كما أخبر . هذا هو الوليد ابن المغيرة المخزومى يقول الله فيه : « سنسمه على الخرطوم » أى سنجعل له علامة على أنفه يعرف بها وقد كان ، ففى غزوة بدر الكبرى خطم ذلك الرجل بالسيف أى ضرب به أنفه ، وبقى أثر هذه الضربة سمة فيه وعلامة له ! ولعلك لم تنس أن الوليد هو الذى نزل فيه « ذرنى ومن خلقت وحيدا » وما بعدها من الآيات التى ذكرناها قبلا . وهو أيضاً الذى نزلت فيه هنا هذه الآيات من سورة القلم : « ولا تطع كلَّ حلَّاف مهين * همّازٍ مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عُتُل بعدَ ذلكَ زنيم * أن كانَ ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطيرُ الأولينَ * سَنسمُه على الخرطوم * » . نعوذ به تعالى من الكفر والعناد وسوء الأخلاق ، ونسأله الإيمان الكامل والعمل الصالح والخلق الفاضل ، آمين .

على هامش الوجه السابع

فى هذا الوجه من الإعجاز على ما شرحنـــا ومثلنا ، معجزات كثيرة لا معجزة واحدة ، لأن كل نبأ من أنباء الغيب معجزة . فانظر ما عدة تلك الأنباء ، يتبين لك عدد تلك المعجزات .

وإنه ليروعك هذا الإعجاز إذا لاحظت أن هذه الكثرة الغامرة لم تتخلف منها قط نبوءة واحدة ، بل وقعت كما أنبأ على الحال الذى أنبأ . ولو تخلفت واحدة لقامت الدنيا وقعدت ، وطبل أعداؤه ورقصوا فرحاً بالعثور على سقطة لهذا الذى جاءهم من فوقهم ، وتحداهم بماليس فى طوقهم . وسفه معبوداتهم ومعبودات آبائهم . ولو كان ذلك لنقل وتواتر ما دامت هذه الدواعى متوافرة على نقله وتواتره كما ترى .

ويزيد فى أمر هذا الإعجاز أن المتحدث بهذه الأنباء الغيبية أمى نشأ فى الأميين ، وأن من هذه الأنباء ما كان تحديا وإجابة لسؤال العلماء من أهل الكتاب ، كما سألوه ﷺ عن أصحاب الكهف وذى القرنين وعن الروح ونحوها ، وأجابهم عما سألوا وهم يعلمون أنه غيب بالنسبة إليه ، ليست لديه وسيلة عادية للعلم به . ولم يؤثر عنهم أنهم كذبوه فى شيء مما أخبر تكذيبا يستندون فيه إلى دليل ، بل هـــو الذى كان يكذبهم فيما حرفوه ، ويرشدهم إلى حقيقة ما بدلوه ، ويتحداهم بما فى أيديهم إذا جادلوه . وإليك شاهداً على ذلك :

قالت اليهود مرة للنبى ﷺ : إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها. فقال عليه السلام : كان ذلك حلالا لإبراهيم فنحن نحله. فقالت اليهود: إنها لم تزل محرمة فى ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام .فنزل تكذيبا لهم، وتحديا بالتوراة التى عندهم : « كل الطعامِ كان حلًّا لبنى إسرائيلَ إلا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسهِ من قبل أن تنزل التوراة : قل فأتوا بالتوراةِ فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن افترى على الله

الـكذبَ من بعدِ ذلك فأولئك همُ الظالمون * قل صدق الله. فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً. وما كانَ من المشركين * » .

يضاف إلى ما ذكرنا أن النبي ﷺ كان يخفى عليه وجه الصواب فى بعض ما يعنيه من الشؤون ويهمه من الأمور فـكان يتوقف تارة كما توقف فى حديث الإفك مدة حتى نزل الوحى ببراءة عائشة زوجه وبنت صديقه . وكان يجتهد ويخطىء تارة أخرى ، كما حدث فى أسرى بدر على ماسيأتى . فلو كانت هذه الأنباء الغيبية نابعة من نفسه ولم تـكن من ربه ، لـكان الأحرى به أن يعرف وجه الصواب فى أمثال تلك الشؤون والمهام، مع أن أسباب العلم فيها أقرب إلى اليسر والسهولة من تلك الغيبيات التى تقطعت أسبابها العادية جملة ومع أن الرسول قد آلمه ما أصابه من جراء عدم علمه بأمثال تلك الشؤون والمهام. وإلى ذلك يشير القرآن فى قوله : « قل لا أملكُ لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاءَ الله . ولو كنتُ أعلم الغيب لاستـكثرتُ من الخـيرِ وما مسَّنِيَ السوء إن أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنونَ » .

معجزات يكشف عنها العلم الحديث

ويتصل بما ذكرنا من أنباء الغيب ، نوع طريف لم يكشف عنه إلا العلم فى العصر الحديث . وكان قبل ذلك مخبوءاً فى ضمير الزمن ، خفيًّا على المعاصرين لنزول القرآن ، حتى صاغ أعداء الله من هذا الخفاء شبهة . ولفقوا منه تهمة، وما علموا أن جهلهم لا يصح أن يكون حجة « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » . وإليك أمثـلة ثلاثة من هذا النوع :

١ ـ معجزة يكشف عنها التاريخ الحديث :

قال العلامة صاحب مجلة الفتح الغراء : فى سورة التوبة نقرأ هذه الآية الـكريمة :

« وقالت اليهودُ عزيرٌ ابن الله . وقالت النصارى المسيحُ ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يُضاهِئون قولَ الذين كفروا من قبلُ قاتلهم الله، أنى يؤفكون » ؟ فصدر هذه الآية وهو جملة « وقالت اليهودُ عزيرٌ ابن الله » يتضمن من وقائع التاريخ وحقائق العلم، أمراً لم يكن أحد يعرفه على وجه الأرض فى عصر نزول القرآن .

ذلك أن اسم عزير ،لم يكن معروفا عند بنى إسرائيل إلا بعد دخولهم مصر واختلاطهم بأهلها واتصالهم بعقائدها ووثنيتها. واسم عزير هو (أوزيرس) كما ينطق به الإفرنج أو (عوزر) كما ينطق به قدماء المصريين، وقدماء المصريين منذ تركوا عقيدة التوحيد وانتحلوا عبادة الشمس ، كانوا يعتقدون فى عوزر أو أوزيرس أنه ابن الله . وكذلك بنو إسرائيل فى دور من أدوار حلولهم فى مصر القديمة، استحسنوا هذه العقيدة عقيدة أن أوزيرس ابن الله. وصار اسم أوزيرس أو عوزر (عزير) من الأسماء المقدسة التى طرأت عليهم من ديانة قدماء المصريين. وصاروا يسمون أولادهم بهذا الاسم الذى قدسوه كفرا وضلالا. فعاب الله عليهم ذلك فى القرآن الحكيم ، ودلهم على هذه الوقائع من تاريخهم الذى نسيه البشر جميعاً .

إن اليهود لا يستطيعون أن يدعوا فى وقت من الأوقات أن اسم عزير كان معروفا عندهم قبل اختلاطهم بقدماء المصريين وهذا الاسم فى لغتهم من مادة (عوزر) وهى تدل على الألوهية، ومعناه الإله المعين. وكانت بالمعنى نفسه عند قدماء المصريين فى اسم عوزر أو أوزيرس الذى كان عندهم فى الدهر الأول بمعنى الإله الواحد، ثم صاروا يعتقدون أنه ابن الله عقب عبادتهم للشمس. واليهود أخذوا منهم هذا الاسم فى الطور الثانى عندما كانوا يعتقدون أن أوزيرس ابن الله .

فهذا سر من أسرار القرآن ، لم يكتشف إلا بعد ظهور حقيقة ما كان عليه قدماء المصريين فى العصر الحديث. وما كان شىء من ذلك معروفا فى الدنيا عند نزول القرآن ! حتى إن أعداء الإسلام كانوا يصوغون من جهلهم بهذه الحقيقة التاريخية شبهة يلطخون بها وجه الإسلام ويطعنون بها فى القرآن، فقال اليهود منهم : إن القرآن يقول لنا ما لم نقل

فى كتبنا ولا فى عقائدنا وأتى دعاة النصرانية منهم بماشاء لهم أدبهم من السب والطعن والزراية بالقرآن ودين الإسلام ونبى الإسلام ! . » اهـ بتصرف طفيف .

٢ ـ معجزة يكشف عنها الطب الحديث

كتب العلامة المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل (باشا) فى مجلة الأزهر الغراء يقول فى مقال له تحت عنوان : (الطب وصيام شهر رمضان) : « من الناس من يتوهم أن فى صيام رمضان ـ وهو من أركان الإسلام ـ مضرة تلحق بالصائم،لما يصيب الجهاز المضمى خاصة وغيره عامة؛ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب. وهذاخطأ؛ لأن ماذهبوا إليه ليس من الصيام فى شيء، ولكنه من ترك الاعتدال فى طعام الإفطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله فى وقت الإفطار،لأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقيمات لأنه لاضرر من الجوع فى حد ذاته .

وبما أن الصيام يستعمل طبيا فى حالات كثيرة ، ووقاية فى حالات أكثر . وأن كثيرا من الأوامر الدينية لم تظهر حكمتها وستظهر مع تقدم العلوم ، رأيت من الواجب على أن أكتب عما ظهر طبيا للآن من فوائد هذه الأوامر. وإيضاح آيات قرآنية لأبين معناها الذى لا يظهر إلا لمن بحث عنها فى نور الطب الحديث . وسأبدأ بالصيام .

الصيام :

للصيام فوائد فى ثلاث جهات: (أولاها) وأهمها الجهة الروحية وهذه أتركها لعلماء الدين والمتصوفة منهم.(ثانيها) الجهة الأخلاقية وهذه أتركها لعلماء الأخلاق. ومن السهل البرهنة على أن الصيام يعود الإنسان النظام والقناعة ، وطاعة الرؤساء ، والصبر وكبح شهوات النفس ، وحب الخير والصدقة ، وغير ذلك من الفضائل.(وثالثها) وأقلها أهمية الجهة المادية أو الصحية ، وهى محل بحثنا .

لقد ظهر أن الصيام يفيد فى حالات كثيرة ، وهو العلاج الوحيد فى أحوال أخرى. وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض شتى .

فالعلاج يستعمل فى :

١ ـ اضطرابات الأمعاء المزمنة المصحوبة بتخمر فى المواد الزلالية والنشوية . وهنا ينجح الصيام وخصوصا عدم شرب الماء بين الأكلتين وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما فى صيام رمضان ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر . وهذه الطريقة هى أنجع طريقة لتطهير الأمعاء .

٢ ـ زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة. فالصيام أنجع من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار فى الطعام ، والاكتفاء بالماء فى السحور .

٣ ـ زيادة الضغط الذاتى . وهو آخذ فى الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ففى هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة . خصوصا إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعى لمثله .

٤ ـ البول السكرى . وهو منتشر انتشار الضغط . ويكون فى مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوبا غالبا بزيادة الوزن فهنا يكون الصيام علاجا نافعا ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ويهبط السكر فى العادة بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعى فى حالات البول السكرى الخفيف . وبعد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعى بكثير. ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات فى الغذاء أهم علاج لهـذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين ، خصوصا إذا كان الشخص يزيد على الوزن الطبيعى ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ ـ التهاب الكلى الحاد والزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ ـ أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ ـ التهاب المفاصل المزمنة خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن، كما يحصل عند السيدات غالبا بعد سن الأربعين، وقد شوهدت حالات تتمشى فى شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

ورب سائل يقول: ولكن الصيام فى كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب فى كل مرض على حدته ، والصيام الذى كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . . . وهذا صحيح، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هى الوقاية من هذه الأمراض ، وخصوصاً الأمراض التى مر ذكرها تحت رقم ١ ر ٢ ر ٣ ر ٧

وهذه الأمراض كلها تبتدئ فى الإنسان تدريجاً، بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذى يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها ولكن من المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هى فى الصيام : بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعـــراض المرض بوضوح . وقد ظهر بإحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكرى ، وزيادة الضغط الذاتى للدم ، والتهاب المفاصل المزمن ، وغير ذلك . ومع قلة الوزن الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها . وهذا هو السر فى أن شركات التأمين لا تقبل تأمينا على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تثقل كلمـــا زاد الوزن . والصيام مدة شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض .

وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف. فقد انتشرت فى أوربة أكثر من الأول وفى مصر يكاد يكون البول السكرى وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وهو قليل جداً فى الفقراء .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر فى الصيام فى الإسلام أشد منه فى الأديان

السابقة ، لأن الإسلام ـ وهو آخر الشرائع السماوية ـ جاء فى زمن نحتاج فيه إلى الوقاية من أمراض تزداد كلما ازداد الترف » اﻫ رحمة الله عليه .

٣ ـ معجزة يكشف عنها علم الاجتماع

كتب العلامة مدير مجلة الأزهر الغراء تحت عنوان : (معجزات القرآن العلمية ـ القرآن يضع أصول علم الاجتماع قبل العلم بأكثر من ألف سنة) مقالا ضافيا نقتطف منه ما يلى :

« لما جاء الإسلام وشرع أهله فى إحياء موات العلم ونقل كتبه القيمة إلى لغتهم ، نظروا فى كل شىء مستهدين بالأصول الأولية للقرآن الكريم ، كقوله تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وقوله : « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه. وما ننزله إلا بقدر معلوم » فأدركوا على وجه عام أن لكل شىء فى هذا الوجود نظاما يجرى عليه كما فعل بعض المؤرخين ، وخاصة ابن خلدون . ولكن المعارف التى كانت قد جمعت عن الأمم ، لم تكن تكفى لتكوين علم خاص بها . وتلت هذا الدور نهضة أوربا . فادخر الله هذا السبق للفيلسوف الفرنسى الكبير (أوجست كومت ١٧٩٨ ـ ١٨٥٣) واضع أصول الفلسفة الوضعية فإنه أول من جعل للاجتماع علما ووضعه فى رأس جميع العلوم البشرية لشرف موضوعه من ناحية ، ولأنه لا يتسنى إلا لمن يأخذ من كل علم بطرف ، لتشعب بحوثه ، واستنادها على جملة المعارف البشرية .

فعلم الاجتماع البشرى أحدث العلوم وضعاً ، ولكنه أشرفها موضوعا ، إذ يعرفنا على أى الأصول تقوم الجماعات ، وبأيها تحفظ وجودها وترتقى ، وما هى عوامل التأليف التى تقوى وجودها ؟ وعوامل التحليل التى تفصم عرا ألفتها؟. وهذه كلها معارف عالية ضرورية للمجتمع ضرورة علمى قوانين الصحة والطب لآحاده .

ثم ذكر من قواعد علم الاجتماع : أن الإنسان لا يستطيع أن يؤثر فى المجتمع لمجرد رأى

يبدو له فى إصلاحه. ولكن ذلك لا يكون إلا إذا فهم الكافة سداد هذا الرأى وعملوا به. عند ذاك يوجد فى المجتمع ميل جديد للتحول عن الجهة التى يراد تحويله منها، إلى الوجهة التى يريده على أن يكون عليها. وهذا كله مصداق لقوله تعالى: « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فمعنى الآية أن الأمة التى تريد أن يحول الله عنها حالا لا ترضاه لمجتمعها، يجب عليها أن تغير من نفسيتها أولا. فإن فعلت حول الله عنها ما تكره، ووجه إليها من نعمه ما تحب. وهذا وحده معجزة علمية للقرآن كان يجب أن يعقد لها فصل خاص، وأن يشاد بذكرها أعظم إشادة! فكشف هذا السر يجعلنا ندرك سر تنبيه القرآن على وجوب الدعوة إلى المعروف والنهى عن المنكر - وبعد أن ساق أدلة عن الكتاب والسنة على ذلك قال:

القرآن أثبت أن للاجتماع نواميس ثابتة قبل أن يتخيلها أعلم علماء الأرض تخيلا وقد رأيت أن تعيين تلك النواميس والتحسس عما خفى منها هو الشغل الشاغل اليوم لفلاسفة الاجتماع. فقال: « سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً ». وقال تعالى « فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا ». « سنة الله التى قد خلت من قبل. ولن تجد لسنة الله تبديلا ».

ولم يكتف الكتاب بهذا وحده. ولكنه قرر أيضا أن الجماعات كالآحاد، لها آجال لا تستطيع أن تتعداها. وهو ما هدى إليه علم الاجتماع بعد أن وجد أن وجوه الشبه بين الفرد والمجتمع واحدة، فقال تعالى: « ولكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ». وقد تكرر مثلها فى سور كثيرة من القرآن الكريم.

فالذى يتأمل فى سبق القرآن الكريم العالم كله أكثر من عشرة قرون فى وضع أصول العلم الاجتماعى، ويكون من غير أهل هذا الدين، يدهش كل الدهش، ولا يكاد يصدق عينيه. وسندأب نحن من جهتنا على تجلية الأصول العلمية مستخرجين إياها من

الكتاب الكريم ، ليتحقق العالم أنه على مايقوله مؤحيه سبحانه وتعالى : « ما فرّطنا في الكتابِ من شيء » .

وبذلك يتضح سر نهضة المسلمين التى حصلت لهم زعامة العلم والحكمة فى العالم فى سنين معدودة ، فإنهم لو كانوا بدءوا حياتهم العلمية على النحو الذى تبدؤها به كل أمة ، ما استطاعوا أن يبزوا الأمم التى تقدمتهم فى هذا السبيل بقرون كثيرة . ولكنهم لبدئهم إياها مستنيرين بهذه الأصول القرآنية العالية ، بلغوا منها أوجاً فى مدى قصير لم تبلغه أمة فى آماد طويلة . وعلى المسلمين اليوم أن يدركوا هذا الأمر الجلل ، وأن يجعلوا كتابهم نبراسا لهم فى اقتباسهم العلم عن الأمم الغربية ، ليبلغوا منه ما بلغه أسلافهم فى عهدهم الأول ، ويزيدوا عليه ماهدى إليه البشر فى العصور الأخيرة » اهـ .

الوجه الثامن آيات العتاب

ومعنى هذا أن القرآن سجل فى كثير من آياته بعض أخطاء فى الرأى على الرسول ﷺ ؛ ووجه إليه بسببها عتابا نشعر بلطفه تارة وبعنفه أخرى . ولا ريب أن العقل المنصف يحكم جازما بأن هذا القرآن كلام الله وحده ، ولو كان كلام محمد ماسجل على نفسه هذه الأخطاء وهذا العتاب ، يتلوهما الناس بل ويتقربون إلى الله بتلاوتهما حتى يوم المآب .

الخطأ فى الاجتهاد ليس معصية :

وننبهك فى هذه المناسبة إلى أن هذا الخطأ ليس معصية ، حتى يقدح ذلك فى عصمة الرسول ﷺ ، إنما هو خطأ فحسب ، بل هو من نوع الخطأ الذى يستحق صاحبه أجرا ، لأنه صادر عن اجتهاد منه . والاجتهاد الصالح ـ وهو بذل الجهد فى الاطلاع والبحث والموازنة والاستنتاج ـ مجهود شاق يبذله صاحبه لغرض شريف ، فليس من الإنصاف حرمانه من المكافأة متى كان أهلا للاجتهاد وإن أخطأ ، لأن الإنسان ليس فى وسعه أن يكون معصوما

من الخطأ . بل المجتهد يخطىء بعد أن يبذل وسعه فى طلب الصواب وهو يتمنى ألا يخطىء بل وهو يخشى أشد الخشية أن يخطىء ، والله تعالى يقول : « لا يكلفُ اللهُ نفساً إلا وُسعها » وعلى هذا قررت شريعتنا السمحة أن المجتهد له أجر إن أخطأ وأجران إذا أصاب . روى الجماعة كلهم حديث « إذا حكم الحاكم فى شيء فاجتهد ثم أصاب فله أجران . وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد » بل كان النبى ﷺ يعطى أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة ، ويقول للواحد منهم : « وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك ؛ فإنك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه .

ولا ريب أن الرسول ﷺ كان فى موضع الإمامة الكبرى للخلق فكان من حكمة الله أن يجتهد ليقلده الخلق فى الاجتهاد ، وأن يخطئ فى بعض الأمور لئلا يصرفهم خوف الخطأ فى الاجتهاد عن الاجتهاد ، مادام أفضل الخلق على الإطلاق قد أخطأ ومع خطئه لم يمتنع عن الاجتهاد ، بل عاش طوال حياته يجتهد فى كل ما لم ينزل عليه فيه وحى حتى يتقرر فى الناس مبدأ الانتفاع بمواهب العقول وثمار القرائح ، ويتحرر الفكر البشرى من رق الجمود والركود . . ثم كان من حكمة الله أيضا أن يقف رسوله على وجه الصواب فيما أعوزه فيه الصواب ليعلم الناس أنه ليس كأحدهم ، ولا أن اجتهاده كاجتهادهم بل اجتهاده حجة دونهم ، لأنه ﷺ مؤيد من لدن ربه ، يتولاه مولاه دائما حتى لا يقره على خطأ فى الأمور الاجتهادية . وهنا يزداد الذين آمنوا إيمانا به ، وثقة بكل ما صدر عنه . ثم يقتدون به فى وجوب الخضوع للحق إذا ظهر ، كما كان الرسول يخضع له ويعلنه ويعلن خطأه فيما أخطأ فيه لا تأخذه العزة بالإثم ، ولا تلويه العظمة عن حق، بل هنا سر العظمة وسر النهضة وسر تربية الأمة بالقدوة . « لقدْ كانَ لكم فى رسولِ الله أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكَرَ الله كثيراً » .

إنما العار الجارح لكرامة البشر ، أن يجمد الإنسان فلا يجتهد وهو أهل للاجتهاد ، أو يجمد المجتهد على رأيه وإن كان عظيما بعد أن يستعلن له خطؤه، مع أن الرجوع إلى الحق فضيلة ، والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل . والكمال المطلق لله وحده .وفى الحديث : « كل بنى آدم خطاء . وخير الخطائين التوابون » .

يضاف إلى ماذكرنا من الحكم والأسرارفى أخطاء الرسول الاجتهادية،أمر آخرله قيمته وخطره ، وهو إقامة أدلة مادية ناطقة على بشرية الرسول وعبوديته ، وأنه ـ وهو أفضل خلق الله ـ لم يخرج عن أن يكون عبداً من عبيد الله ، يصيبه من أعراض العبودية مايصيب العباد، ومن ذلك خطؤه فى الاجتهاد، وبذلك لايضل المسلمون فى إطرائه ،ولا يغلون فى إجلاله ، كما ضل النصارى فى ابن مريم.ولقد نبه الرسول ﷺ إلى ذلك فقال : « لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » رواه البخارى وقال : « إنما أنا بشرٌ مثلكم . وإن الظن يخطىء ويصيب . ولكن ما قلت لكم قال الله فلن أكذب على الله » رواه أحمد وابن ماجه . وقال ﷺ « إنما أنا بشر . وإنكم تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » رواه مالك والشيخان وأصحاب السنن .

وخلاصة القول أن فى هذا المقام أمورا ثلاثة :

(أولها) أن خطأ الرسول ﷺ لم يكن من جنس الأخطاء المعروفة التى يتردى فيها كثير من ذوى النفوس الوضيعة، كمخالفة أمر من الأوامر الإلهية الصريحة ،أو ارتكاب فعل من الأفعال القبيحة . إنما كان خطؤه عليه الصلاة والسلام فى أمور ليس لديه فيها نص صريح ، فأعمل نظره وأجال فكره وبذل وسعه ولكن على رغم ذلك كله أخطأ .

(ثانيها) أن الله تعالى لم يقر رسوله على خطأ أبدا، لأنه لو أقره عليه لكان إقراراً ضمنيا بمساواة الخطأ للصواب والحق للباطل مادامت الأمة مأمورة من الله باتباع الرسول فيما يقول ويفعل. ولكان فى ذلك تلبيس على الناس وتضليل لهم عن الحق الذى فرض الله عليهم اتباعه . ولكان ذلك مدعاة إلى التشكك فيما يصدر عن الرسول ، ضرورة أنه على هذا الفرض قد يجتهد ويخطىء ولا يرشده الله إلى وجه الصواب فيما أخطأ. وهذه اللوازم كلها باطلة لا محالة ، فبطل ملزومها وثبت أن الحكيم العليم لا يمكن أن يقر القدوة العظمى على خطأ أبدا ، بل أن يبين له وجه الصواب . وقد يكون مع هذا البيان لون من ألوان العتاب لطيفا أو عنيفا ، توجيها له وتكميلا ، لا عقوبة وتنكيلا .

(ثالثها) أن الرسول كان يرجع إلى الصواب الذى أرشده إليه مولاه دون أن يبدى غضاضة ، ودون أن يكتم شيئا مما أوحى إليه من تسجيل الأخطاء عليه ، وتوجيه العتاب إليه ، وفى ذلك ـ لا ريب ـ أنصع دليل على عصمته وأمانته ، وعلى صدقه فى كل مايبلغ عن ربه ، وعلى أن القرآن ليس من تأليفه ووضعه ، ولكنه تنزيل العزيز الرحيم .

آيات العتاب نوعان :

أما بعد فإن العتاب الموجه للرسول فى القرآن على نوعين نوع لطيف لين ونوع عنيف خشن . ولنمثل لها بأمثلة ثلاثة :

(المثال الأول) قوله تعالى فى سورة التوبة : « عفاَ اللهُ عنك . لم أذنت لهمْ حتى يتبينَ لكَ الذينَ صدقوا وتعلم الكاذبين » وذلك أنه عليه السلام كان قد أذن لبعض المنافقين فى التخلف عن غزوة تبوك حين جاءوا يستأذنون ويعتذرون ، فقبل منهم تلك الأعذار . أخذا بظواهرهم، ودفعا لأن يقال إنه لا يقبل العذر من أصحاب الأعذار، ولكن الله تعالى عاتبه كما ترى ، وأمره بكمال التثبت والتحرى، وألا ينخدع بتلك الظواهر، فإن من ورائها أسفل المقاصد « والله أعلمُ بما يبيتون » ولعله لم يخف عليك لطف هذا العتاب بتصدير العفو فيه خطابا للرسول من رب الأرباب ! .

(المثال الثانى) قوله تعالى: « ما كانَ لنبى أن يكون له أسرَى حتى يُثْخِنَ في الأرض تريدونَ عرضَ الدنيا واللهُ يريدُ الآخرة واللهُ عزيزٌ حكيمٌ * لولا كتاب من الله سبقَ لمسَّكم فيما أخذتم عذابٌ عظيمٌ * فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا. واتقوا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ * » وذلك أنه وقع فى أسر المسلمين يوم بدر سبعون من أشراف قريش. فاستشار الرسول أصحابه فيهم. فمنهم من اشتد وأبى عليهم إلا السيف. ومنهم من رق لحالهم وأشار بقبول الفداء منهم. وكان ﷺ مطبوعا على الرحمة، ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما، فرجح بمقتضى طبعه الكريم ورحمته الواسعة رأىَ من أشار بقبول الفداء عسى أن يسلموا أو يخرج الله من أصلابهم من يعبده ويمجده، ولينتفع المسلمون بمال الفدية فى شؤونهم الخاصة والعامة. ولكن ما لبث حتى نزلت الآيات الكريمة المذكورة. وفيها تسجيل لخطأ ذلك الاجتهاد المحمدى. فلو كان القرآن كلامه صلى الله عليه وسلم ما سجل على نفسه ذلك الخطأ!.

أمر آخر: فى هذه الآيات ظاهرة عجيبة، هى الجمع بين متقابلات لا تجتمع فى نفس بشر على هذا الوجه، فصدرها استنكار للفعل « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثْخن فى الأرض ». وعقب هذا الاستنكار عتاب قاس مر وتخويف من العذاب « تريدون عرضَ الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ * لولا كتاب من الله سَبَقَ لمسكم فيما أخذتم عذابٌ عظيم » وفى أثر هذا الاستنكار والعتاب والتخويف إذن بالأكل، ووصف له بالطيب والحل، وبشارة بالمغفرة والرحمة لمن أكل « فكلوا مما غنمتم حلالًا طيباً. واتقوا اللهَ. إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ » ومن ذلك يعلم أن نظم هذه المتقابلات فى سلك واحد بهذه الصورة لآمر واحد ومأمور واحد، لا يمكن أن يصدر من نفس بشرية هكذا من غير فاصل بين الإنكار والإذن، ولا بين المدح والذم. ولا بين الوعيد والوعد؛ لأن من طبيعة البشر أن يشغلهم شأن عن شأن، ولا يجتمع لهم فى أمر واحد ووقت واحد خاطران متقابلان، ولا حالان متنافيتان. كالغضب والرضا والاستهجان

والاستحسان . بل إذا تواردا على النفس فإنما يردان متعاقبين فى زمنين . وإذا تعاقبا فاللاحق منهما يمحو السابق . وإذا محاه لم يبق معنى لإثباته وتسجيله، بل من الطبعى تركه والإضراب عنه ، خصوصا إذا كان هذا الخاطر الأول وإعلانا لتخطئة المتكلم ونقده ولومه ، كقبول الفداء فى هذا المقام وأكله .

فلا جرم أن هذه الظاهرة تأبى هى الأخرى إلا أن تكون دليل إعجاز ، وبرهان صدق على أن هنا نفسيتين مختلفتين : نفسية لا يشغلها شأن ، ولا تتأثر ببواعث الغضب والرضا كما يتأثر الإنسان . ونفسية أخرى نسبتها إلى الأخرى نسبة المأمور من آمره ، والمسود من سيده ، لكن مع الحب والقرب . فهذه الآيات الكريمة ليست إلا كلام سيد عزيز يقول لعبده الحبيب : أخطأت فيما مضى وما كان لك أن تفعل، ولكنى عفوت وغفرت وأذنت لك بمثله فى المستقبل !

(المثال الثالث) قوله عز وجل : « عَبَس وتولَّى * أن جَاءه الأعمى * وما يدريكَ لعله يزكى * أو يذكر فتنفعهُ الذكرى * أما مَن استغنى * فأَنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما مَنْ جاءك يسعى * وهو يخشى * فأَنت عنه تلهى * كلا إنها تذْكرة » وذلك أن النبى ﷺ كان مشتغلا ذات يوم بدعوة أشراف من قريش إلى الإسلام ، وإذا عبد الله بن أم مكتوم يجىء ويسأل الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان عبد الله رجلا أعمى تشرف بهداية الإسلام من قبل ، ولم يقدر تشاغله ﷺ بدعاية هؤلاء الصناديد الذين كان النبى ﷺ حريصا على هدايتهم كل الحرص ، وكان يستميلهم ويتألفهم إليه طمعاً فى أن يسلموا، فلا يلبث جماهير العرب أن تقتدى بهم فى إسلامهم. وفى أى شىء جاء هذا الصحابى يسأل ؟ إنه مسلم ، فطبيعى أنه لم يسأله عن الإسلام. بل جاء يستزيده من الهداية والعلم ويقول : « يا رسول الله علمنى مما علمك الله » .

وجد الرسول نفسه بين قوم غلاظ مشركين يدعوهم إلى الإسلام ، ورجل وديع مسلم يستزيده من العلم فآثر الإقبال على أولئك الصناديد . وعبس فى وجه ابن أم مكتوم هذا وأعرض عنه ، لا احتقاراً له وغضا من شأنه ، ولكن حرصاً على هداية هؤلاء خوفا

من أن تفوت هذه الفرصة السانحة لدعوتهم . فأنزل الله على رسوله تلك الآيات السالفة، يعاتبه فيها ذلك العتاب القاسي الخشن ، ويفهمه أن حرصه على الهداية ما كان ينبغي أن يصل به إلى حد الإقبال الشديد على هؤلاء الصناديد وهم عنه معرضون ، ولا إلى حد الإعراض العابس في وجه هذا الضعيف الأعمى وهو عليه مقبل .

وكأني بك تحس معي حرارة هذا العتاب . وذلك لتقرير مبدأ من المبادىء العالية، هو الإعراض عن المعرضين مهما عظم شأنهم ، والإقبال على المقبلين مهما رق حالهم « واصبر نفسكَ معَ الذين يدعون ربهم بالغَداةِ والعشي يريدونَ وجْهَهُ . ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريدُ زينةَ الحياة الدنيا . ولا تُطعْ مَنْ أغفلنا قلبهُ عن ذِكرنا واتبعَ هواهُ وكانَ أمرهُ فُرُطا » ولعلك تلمح معي من وراء هذا العتاب ، رحمة الرسول بأعدائه وإخلاصه لدعوته ، وتفانيه في وظيفته ، وحرصه على هداية الناس أجمعين . زاده الله شرفا على شرفه وعزًّا على عزه، آمين .

الوجه التاسع

ما نزل بعد طول انتظار

ومعنى هذا أن في القرآن آيات كثيرة تناولت مهمات الأمور ، ومع ذلك لم تنزل إلا بعد تلبث وطول انتظار . فدل هذا على أن القرآن كلام الله لا كلام محمد، لأنه لو كان كلام محمد ما كان معنى لهذا الانتظار فإن الانتظار في ذاته شاق وتعلقه بمهمات الأمور يجعله أشق ، خصوصاً على رجل عظيم يتحدى قومه بل تحدى العالم كله ! .

ولبيان هذا الوجه نمثل بأمثلة خمسة :

(أولها) حادث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، نزل فيه قول الله تعالى « قدْ نرى تقلب وجهك في السماء . فلنولينك قبلةً ترضاها . فول وجهك شطر المسجد الحرام . وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » فأنت تفهم معي من هذه الآية أن محمداً ﷺ

كان يتحرق شوقا إلى تحويل القبلة إلى الكعبة ، ومن أجل ذلك كان يقلب وجهه فى السماء تلهفا إلى نزول الوحى بهذا التحويل . ولقد طال به الأمر سنة ونصف سنة وهو يستقبل بيت المقدس، فلو كان القرآن من وضعه لنفّس عن نفسه وأسعفها بهذا الذي تهفو إليه نفسه ويصبو إليه قومه لأن الكعبة فى نظرهم ، هى مفخرتهم ومفخرة آبائهم من قبلهم .

(ثانيها) حادث الإفك ، وهو من أخطر الأحداث وأشنعها ، لم ينزل القرآن فيه إلا بعد أن مضى على الحادث قرابة أربعين يوما . على حين أنه يتصل بعرض الرسول وعرض صديقه الأول أبى بكر . وقام على اتهام أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق ورميها بأقذر العار وهو عار الزنى . فلو كان القرآن كلام محمد ما بخل على نفسه بتلك الآيات التى تنقذ سمعته وسمعة زوجه الحصان الطاهرة ؛ ولما انتظر يوما واحداً فى القضاء على هذه الوشايات الحقيرة الآثمة ، التى تولى كبرها أعداء الله المنافقون . اقرأ قوله سبحانه « إن الذينَ جاءوا بالإفك عصبة منكم ـ إلى قوله ـ أولئكَ مبرءونَ مما يقولون لهم مغفرةٌ ورزق كريم » فى سورة النور . ثم حدثنى بعد قراءتها : ألم يكن الواجب على محمد ﷺ أن يعجل الحكم بهذه البراءة لو كان الأمر إليه ، خصوصا أنه قد علم الناس وجوب الدفاع عن العرض ولو بالنفس ؟ ثم أخبرنى : ألا ترى فارقا كبيراً بين هذه اللغة الجريئة القاطعة ، المنذرة والمبسرة ، التى صيغت بها آيات البراءة ، وبين لغة الرسول الحذرة المتحفظة التى رويت عنه فى هذه الحادثة؟ إن كنت فى شك فأمامك آيات البراءة . وهاك كلمتين مما أثر عنه فى هذا الأمر الجلل : ورد أنه قال حين طال الانتظار وبلغت القلوب الحناجر : « إنى لا أعلم إلا خيرا » . وورد أنه قال قبيل الساعة التى نزلت فيها آيات البراءة : « ياعائشة ، أما إنه قد بلغنى كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله » .

فهل يجوز فى عقل عاقل أن يكون صاحب هذا الكلام هو صاحب آيات البراءة؟

دع عنك الأسلوبين ولكن تأمل النفسيتين المتميزتين فى الكلامين ، تميز السيد من المسود ، والعابد من المعبود !

(ثالثها) ماورد من أن النبى ﷺ سئل عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح. فقال لسائليه: « ائتونى غداً أخبركم » ولم يقل : إن شاء الله فأبطأ عليه الوحى حتى شق ذلك عليه وكذبته قريش وقالوا : ودعه ربه وقلاه أى تركه ربه وأبغضه ، فأنزل الله : « والضحى * والليل إذا سجى * ماودعكَ ربك وما قلى » ثم نهاه مولاه أن يترك المشيئة مرة أخرى! إذ قال له فى سورة الكهف: « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله . واذكر ربكَ إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقربَ من هذا رشدا » . ولما نزل جبريل بعد هذا الإبطاء والتمهل قال له ما حكاه الله عنه فى سورة مريم : « وما نتنزل إلا بأمر ربك . لهُ ما بينَ أيدينا وما خلفنا وما بينَ ذلكَ . وما كانَ ربكَ نسيا » . يعنى أن عدم الإسراع بالنزول لم يكن سببه إعراض الله عنه كما يزعمون . بل كان لعدم الإذن به لحكم بالغة، قد عرضنا لبعضها فى الكلام على أسرار تنجيم القرآن بالجزء الأول . وحسبك هنا أن يستدل المنصف بهذا الإبطاء والتراخى على أن القرآن تنزيل العزيز الرحيم لا كلام النبى الكريم .

(رابعها) ماورد من أنه لما نزل قوله سبحانه: « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » انخلعت قلوب الصحابة وذعروا ذعراً شديداً ؛ لأنهم فهموا من هذه الآية أن الله تعالى سيحاسبهم على كل مايجول بخاطرهم ولو كانت خواطر رديئة، ثم سألوا فقالوا: يارسول الله ، أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها ، فقال لهم النبى ﷺ « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم :سمعنا وعصينا؛ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غُفرانك ربنا وإليك المصير» فجعلوا يقولونها ويضرعون إلى الله بها حتى أنزل ـ تقدست أسماؤه ـ الآية الأخيرة من سورة البقرة وهى : «لا يكلف الله نفساً إلا وُسعهاَ» إلى آخر السورة. فسكنت نفوسهم واطمأنت قلوبهم، وفهموا أنهم لا يحاسبون إلا على مايقع تحت اختيارهم

وفى دائرة طاقتهم من نية وعزم وقول وعمل . أما خلجات الضمائر العابرة ، وخطرات السوء ولو كانت كافرة . فلا يتعلق بها تكليف، لأنها ليست فى مقدور العبد، والقرآن يقول : « لا يكلفُ اللهُ نفساً إلا وسعهاَ » .

فأنت ترى أن النبى ﷺ لم يبين لهم هذا البيان حين سألوه،لأنه لم يوح وقتئذ إليه. ولو كان من وحى نفسه كما يقول الأفاكون لأسعف أصحابه بالآية الأخيرة ، وأنقذهم من هول هذا الخوف الذى أكل قلوبهم لا سيما أنهم أصحابه وهو نبيهم ، ومن خلقه الرحمة خصوصاً بهم « بالمؤمنينَ رءوفٌ رحيمٌ » . وأيضاً لو كان يملك هذا الكلام لعاجلهم بالبيان ، وإلا كان كاتما للعلم : « وكاتم العلم ملعون . فأين يذهبون ؟ » .

(خامسها) ورد أن كبير المنافقين عبد الله بن أبى لما توفى ، قام إليه النبى ﷺ فكفنه فى ثوبه وأراد أن يستغفر له،فقال له عمر:أتستغفر له وتصلى عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ : إنما خيرنى ربى فقال: « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم. إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وسأزيده على السبعين ، ثم صلى عليه . فأنزل الله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » فترك الصلاة عليهم .

اقرأ الرواية بتمامها فى الصحيحين، ثم نبئنى: هل يعقل أن يكون القرآن كلام محمد مع ما ترى من أنه ﷺ فهم فى الآية الأولى غير ما فهم عمر ثم جاءت الآية الثانية صارفة للرسول عن فهمه ومؤيدة لعمر ؟ أفما كان الأجدر به لو كان القرآن كلامه أن يكون هو أدرى الناس بمراده منه وأعرفهم بحقيقة المقصود من ألفاظه، وأن يجىء آخر الكلام مؤيداً لما فهمه هو لا لما فهمه غيره ؟ لكن الواقع غير ذلك، فقد سبق إلى فهمه ﷺ أن كلمة (أو) فى الآية الأولى للتخيير، وفهم عمر أنها للمساواة وفهم الرسول أن المراد بكلمة (سبعين) حقيقة العدد المعروف فى العشرات بين الستين والثمانين، وفهم عمر أنها للمبالغة للتحديد فلا مفهوم لها. ولما كان ما فهمه الرسول جاريا على أصل الوضع فى معنى (أو) وفى معنى (سبعين مرة

تمسك برأيه ، خصوصا أن فيه رحمة برجل من الناس وإن كان منافقا ، وكان ﷺ مطبوعا على الرحمة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

الوجه العاشر

مظهر النبي ﷺ عند هبوط الوحي عليه

وبيان ذلك أن النبي ﷺ كان في أول عهده بالوحي، يتعجل في تلقفه ،ويحرك لسانه بالقرآن من قبل أن يفرغ أمين الوحي من إيحائه إليه، وذلك للإسراع بحفظه والحرص على استظهاره حتى يبلغه للناس كما أنزل . وكان عليه الصلاة والسلام يجد من ذلك شدة على نفسه فوق الشدة العظمى التي يحسها من نزل الوحي عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن جسمه ليثقل بحيث يحس ثقله من بجواره ، وحتى أن وجهه ليحمر ويسمع له غطيط. روى مسلم « أنه ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه الشريف » فاقتضت رحمة الله بمصطفاه أن يخفف عنه هذا العناء فأنزل عليه في سورة القيامة : « لا تحرك بهِ لسانكَ لتعجل بهِ . إن علينا جمعهُ وقرآنه * فإذا قرأناهُ فاتبع قرآنه * ثم إنَّ علينا بيانه * » . وبهذا اطمأن الرسول ثقة بأن الله قد تكفل له بأن يجمع القرآن في صدره ، وأن يقرأه على الناس كاملا لا ينقص كلمة ولا حرفا، وأن يبين له معناه فلا تخفى عليه خافية منه . وكذلك قال الله في سورة الأعلى : « سنقرئك فلا تنسى » وقال له مرة ثالثة في سورة طه : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه . وقل رب زدني علما » .

ألا ترى في هذا كله نورا يهدي إلى أن القرآن كلام الله وحده، ومحال أن يكون كلام محمد ، وإلا لما احتاج إلى هذا العناء الذي كان يعانيه في نزول القرآن عليه ،ولكان الهدوء والسكون والصمت أجدى في إنضاج الفكرة وانتقاء ألفاظها لديه ، ولما كان ثمة من داع إلى أن يُطمأن على حفظه وتبليغه وبيان معانيه! . أضف إلى ذلك أن هذه الحال

التى كانت تعروه ﷺ عند الوحى ، لم تكن من عادته فى تحضير كلامه لا قبل النبوة ولا بعدها ، ولم تكن من عادة أحد من قومه. بل كان ديدنهم جميعا تحضير الكلام فى نفوسهم وكفى !

الوجه الحادى عشر

آية المباهلة

وذلك أن القرآن دعا إلى المباهلة ـ وهى مفاعلة من الابتهال والضراعة إلى الله بحرارة واجتهاد ، فأبى المدعوون وهم النصارى من أهل نجران، أن يستجيبوا لها وخافوها ولاذوا بالفرار منها ، مع أنها لا تكلفهم شيئا سوى أن يأتوا بأبنائهم ونسائهم ويأتى الرسول بأبنائه ونسائه، ثم يجتمع الجميع فى مكان واحد يبتهلون إلى الله ويضرعون إليه ، بإخلاص وقوة ، أن ينزل لعنته وغضبه على من كان كاذبا من الفريقين . قال سبحانه فى سورة آل عمران: «فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم، فقل تعالوْا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهلْ فنجعل لعنةَ اللهِ على الكاذبين * إنَّ هذا لهو القصصُ الحقُّ . وما منْ إله إلا الله . وإن اللهُ لهوَ العزيزُ الحكيم * » .

« ورد أنه عليه السلام لما دعاهم إلى المباهلة قالوا : حتى ننظر ، فقال العاقب وكان ذا رأيهم : والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمداً نبى مرسل، وما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم. ولئن فعلتم لتهلكن. فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضنا للحسين آخذا بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه وعلىّ خلفها وهو يقول : « إذا أنا دعوت فأمنوا » . فقال أسقف نجران: يامعشر النصارى ، إنى لأرى وجوها لوسألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها . فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى!. فقالوا: ياأبا القاسم، رأينا ألا نباهلك فصالحهم النبى ﷺ على ألفى حلة كل سنة. فقال عليه السلام: «والذى نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران. ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير» .

وإنما ضم الأبناء والنساء وإن كانت المباهلة مختصة به وبمن يكذبه ، لأن ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حتى جرؤ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته إن تمت المباهلة. وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على قرب مكانهم ومنزلتهم. وفيه دليل على صحة نبوة النبي ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق أو مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك » اهـ من تفسير النسفي.

ونقول: أليس هذا دليلا ماديا على أن هذا القرآن كلام القادر على إنزال اللعنة وإهلاك الكاذب. ثم أليس قبول محمد لهذه المباهلة مع امتناع أعدائه دليلا على أن صدقه في نبوته كان أمراً معروفا مقرراً حتى في نفوس مخالفيه من أهل الكتاب. وإلا فلماذا نكصوا على أعقابهم ولاذوا بالفرار من المباهلة (تأمل كلمة العاقب وأسقف نجران في الرواية الآنفة). لكنه الحقد والكبرياء أكلا قلوبهم، فحسدوه أن آتاه الله النبوة دونهم مع أنه أمي وهم أهل كتاب. وكبر عليهم أن يؤمنوا به ويدينوا له فتضيع رياستهم وتنحط منزلتهم في نفوس العامة . والحسد والكبر من الحجب الكثيفة التي تحول بين المرء وسعادته ، فالحسود لا يسود، والمتكبر مخذول لا يسترشد ولا يتوب؛ « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق. وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلًا . وإن يروا سبيلَ الغي يتخذوهُ سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ٭ » . معاذاً بك اللهم من مقتك وغضبك، ومن كل ما يؤدي إلى مقتك وغضبك ، آمين .

الوجه الثاني عشر

عجز الرسول عن الإتيان ببدل له

وذلك أن أعداء الإسلام طلبوا من النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو أن

يبدله ، فلم يفعل ، وماذاك إلا لأن القرآن ليس كلامه ، بل هو خارج عن طوقه ، آتٍ من فوقه، ولو كان كلامه لاستطاع أن يأتى بغيره وأن يبدله حين اقترحوا عليه، وحينئذ يكتسب أنصاراً إلى أنصاره، ويضم أعواناً إلى أعوانه، ويكون ذلك أروج لدعوته التى يحرص على نجاحها ، لكنه أعلن عجزه عن إجابة هذه المقترحات وأبدى تخاوفه إن هو أقدم على هذا الذى سألوه ، وتنصل من نسبة القرآن إليه مع أنه الفخر كل الفخر ، وألقمهم حجراً فى أفواههم بتلك الحجة التى أقامها عليهم ، وهى أنه نشأ فيهم لا يعرف ولا يعرفون عنه ذلك الذى جاء به وهو القرآن .

اقرأ - إن شئت - هاتين الآيتين من سورة يونس: « وقالَ الذينَ لا يرجونَ لقاءنَا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله. قل مايكونُ لى أن أُبدله من تلقاءِ نفسى . إن أتبعُ إلَّا مايوحي إلى. إنى أخاف إن عصيتُ ربى عذابَ يومٍ عظيمٍ * قل لوشاءَالله ماتلوتهُ عليكم ولاأدراكم به فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلونَ؟ » والمعنى: أن القرآن فوق طاقتى وليس من مقدورى، وما أنا إلا ناقل له أتبع مايوحى إلى منه. وإنى أخاف سطوة صاحب هذا الكتاب إذا أنا تلاعبت بنصوصه أو غيرت فيه. فالقرآن كلامه، ولو أراد ألا أكون رسولا بينه وبينكم ، ما كانت لى حيلة إلى أن أتلو هذا الكتاب عليكم وتأخذوه عنى، فقد نشأت بينكم ومكثت أكثر من أربعين سنة قبل نزوله - وهو عمر طويل - وأنتم لا تعرفون منى هذا الاستعداد الأعلى، ولا تسمعون منى مطلقا مثل هذا الكلام المعجز، ولم تأخذوا على قط أنى كذبت مرة على عبد من عباد الله، فكيف أكذب على الله بعد هذا العمر الطويل؟ (أفلاَ تعقلونَ)؟ يالها كلمة فيها من لذعة التعنيف والتخجيل بمقدار مافيها من لفت النظر إلى قوة الدليل ! !

الوجه الثالث عشر
الآيات التي تجرد الرسول من نسبتها إليه

وذلك أنك تقرأ القرآن فتجد فيه آيات كثيرة ، تجرد الرسول محمداً ﷺ من أن يكون له فيها حرف أو كلمة، وتصفه بأنه كان قبل نزول القرآن لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان وتمتن عليه بأن الله آتاه الكتاب والحكمة بعد أن كان بعيداً عنهما وغير مستعد لهما ولم يكن عنده رجاء من قبل لأن يكون منهل هذا الفيض ولا مشرق ذلك النور. اقرأ قوله سبحانه فى سورة النساء : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة. وعلمك مالم تكن تعلم . وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً » . وقوله فى ختام سورة الشورى: وكذلك أوحينا إليكَ رُوحاً من أمرنا . ما كنتَ تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » : وقوله فى سورة القصص : « وما كنتَ ترجو أن يلقى إليكَ الكتابُ إلا رحمة من ربك » .

بل كان ﷺ يخاف انقطاع هذا المدد الفياض عنه، فإذا فتر الوحى عراه من الحزن على فترته والتلهف على عودته ، ما يجعله يمشى فى الشعاب والجبال كأنه يتلمسه ، حتى لقد كاد يتردى مرة من شاهق وهو يطلبه ! . وأكثر من هذا أنه كان يخشى أن يتفلت منه شىء أثناء إيحائه إليه لولا أن طمأنه الله عليه (كما تقدم شرحه فى الوَجه العاشر) وأكثر من هذا وذاك أنه كان يخاف أن ينزع الله من قلبه ما أنزل عليه وحفظه إياه، « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذى أوحينا إليكَ ثمّ لا تجدُ لك به علينا وكيلا * إلا رحمةً من ربكَ ؛ إنّ فضلهُ كان عليكَ كبيراً » .

قل لى - وربك - هل يتصور منصف على وجه الأرض أن القرآن كلام محمد؛ بعد ما قصصنا عليك من هذه الآيات التى تجرده من إنشائه ووضعه، بل تجرده من رجاء نزوله عليه قبل مبعثه ، ومن رجاء بقائه لديه بعد نزوله عليه ؟ وهل يصح فى الأذهان أن أحدا

يبتكر بعبقريته أمراً هو مفخرة المفاخر ومعجزة المعجزات ، ثم يقول للعالم فى صراحة : ليس هذا الفخر فخرى ، وما هو من صنعى ، وما كان لدى استعداد أن آتى بشىء منه ، وأنتم تعرفوننى وتعرفون استعدادى من قبل ؟

ألا إن هذا يخالف العقل والمنطق ، ويجافى العرف والعادة ، وينافى مقررات علم النفس وعلم الاجتماع ، فإن النفوس البشرية مجبولة على الرغبة فى جلائل الأمور ومعاليها ، مطبوعة على حب كل ما يخلد ذكرها ويرفع شأنها ، لا سيما إذا كان ذلك نابعا منها وصادراً عنها ، وكان صاحب هـذه النفس صدوقا ما كذب قط ، رافعا عقيرته بزعامة الناس ودعوتهم إلى الحق . وليس شىء أجل شأنا ولا أخلد ذكرا من القرآن الكريم ، الذى جمع الله به شمل أمة ، وأقام به خير ملة ، وأسس به أعظم دولة ؛ فما كان لمحمد أن يزهد فى هذا المجد الخالد ، ولا أن يتنصل من نسبته إليه لو كان من وصفه وصنعه ، وهو يدعو الخلق إلى الإيمان به وبما جاء به !

وأى وجه لمحمد فى أن يتنصل من نسبة القرآن إليه وهو صاحبه ؟ إنه إن كان يطلب الوجاهة والعلو والمجد ، فليس شىء أوجه له ولا أعلى ولا أمجد من أن يكون هذا القرآن كلامه ، وإن كان يطلب هداية الناس ، فالناس يسرهم أن يأخذوا الهداية مباشرة ممن يعجز الجن والإنس بكلامه ، ويتحدى كل جيل وقبيل ببيانه ، ويقهر كل معارض ومكابر ببرهانه . ولو كان القرآن من تأليف محمد لأثبت به ألوهيته بدلا من نبوته ، لأن هذا القرآن لا يمكن أن يصدر إلا عن إله كما بينا فى الوجوه السالفة للإعجاز ، وإذن لكانت تلك الألوهية أبلغ فى نجاح دعوته ، وأرجى فى ترويج ديانته ، لأن الناس تبهرهم الألوهية أكثر مما تبهرهم النبوة ، ويشرفهم أنهم أتباع إله أكثر من أن يشرفهم أنهم أتباع رسول لم يخرج ولن يخرج يوما من أرض العبودية ، ولم يرتق ولن يرتقى يوما إلى سماء الربوبية .

« العبد عبد وإن تعالى والمولى مولى وإن تنزل »

ولهذا كان أعداء الرسل كثيراً ما يعظم عليهم أن يخضعوا لرجل منهم ، كما كانوا يعجبون أن يوحى إلى بشر مثلهم ويقترحون أن يروا الله جهرة أو تنزل لهم الملائكة عيانا .

فلو كان محمد صاحب هذا التنزيل، لخرج عن مستوى الخلق جملة، ولظهر فى أفق الألوهية، يطل على العالم بعظمة تنقطع دونها الأعناق وتخضع لها الرقاب، وأن يحقق كل ما اقترحه معارضوه من الآيات، ولكنه اعترف بعبوديته حينذاك، وتبرأ من حوله وقوته إزاء هذا الكتاب وغيره من المعجزات وخوارق العادات. اقرأ فى سورة الإسراء: « وقالوا: لن نؤمنَ لكَ حتى تفجرَ لنا من الأرضِ ينبوعاً * أو تكونَ لكَ جنةٌ من نخيلٍ وعنبٍ فتفجِّرَ الأنهارَ خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً أو تأتى باللهِ والملائكةِ قبيلًا * أو يكون لكَ بيتٌ من زخرفٍ أو ترقى فى السماء. ولنْ نؤمنَ لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه. قل: سبحانَ ربى، هل كنتُ إلا بشراً رسولًا »؟.

الوجه الرابع عشر تأثير القرآن ونجاحه

ومعنى هذا أن القرآن بلغ فى تأثيره ونجاحه مبلغاً خرق به العادة فى كل ما عرف من كتب الله والناس. وخرج عن المعهود فى سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام. وبيان ذلك أن الإصلاح العام الذى جاء به القرآن والانقلاب العالمى الذى تركه هذا الكتاب، ما حدث ولم يكن ليحدث فى أى عهد من عهود التاريخ قديمه وحديثه إلا على أساس من الإيمان العميق القائم على وجدان قوى، بحيث يكون له من السلطان القاهر على النفوس، والحكم النافذ على العواطف والميول، ما يصد الناس عن نهجهم الأول فى عقائدهم التى توارثوها، وعباداتهم التى ألفوها، وأخلاقهم التى نشأوا عليها، وعاداتهم التى امتزجت بدمائهم، وما يحملهم على اعتناق هذا الدين الجديد الذى هدم تلك الموروثات فيهم، وحارب تلك الأوضاع المألوفة لديهم.

وهذا الأساس الذى لا بد منه، تقصر عنه فى العادة جميع الكتب التعليمية التى يؤلفها العلماء والمصلحون، وتعجز عن إيجاده كافة القوانين البشرية التى يضعها القادة والمشترعون، لأن قصارى هذه الكتب والقوانين ـ إذا وفقت ـ أن تشرح الحقائق وتبين الواجبات،

لا أن تحمل على الإيمان والإذعان، وتدفع إلى العمل بوحي هذا الإيمان. وإذا فرض أن يؤمن بها أصحاب الاستعداد السليم، فإيمانهم مجرد حينئذ من قوة الدفع ودفعة التحويل. ولا سبيل في العادة إلى التأثير بها على الجماهير ونجاحها فيهم نجاحا عاما إلا بأمرين: أحدهما تربية الأحداث وترويضهم عليها علما وعملا من عهد الطفولة. والآخر قوة حاكمة تحمل الكبار على احترامها حملا بالقوة والقهر، ومع هذا وذاك، فتربية الصغار على هذا الغرار هيهات أن تكون تربية استقلالية؛ بل هي تقليدية تفقد الدليل والبرهان، وكذلك إجبار الكبار هيهات أن يصل إلى موضع الإذعان والوجدن !.

لكن القرآن الكريم وحده، هو الذي نفخ الإيمان في الكبار والصغار نفخا، وبثه روحا عاما، وأشعر النفوس بما جاء فيه إشعارا، ودفعها إلى التخلي عن موروثاتها ومقدساتها جملة، وحملها على التحلي بهديه الكريم علما وعملا، على حين أن الذي أتى بهذا القرآن رجل أمي لا دولة له ولا سلطان، ولا حكومة ولا جند، ولا اضطهاد ولا إجبار، إنما هو الاقتناع والرغبة والرضا والإذعان، «لا إكراهَ في الدِّين قد تبينَ الرشدُ من الغيِّ». أما السيف ومشروعية الجهاد في الإسلام، فلم يكن لأجل تقرير عقيدة في نفس، ولا لإكراه شخص أو جماعة على عبادة، ولكن لدفع أصحاب السيوف عن إذلاله واضطهاده، وحملهم على أن يتركوا دعوة الحق حرة طليقة، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

هذا الأساس الذي وضعه القرآن وحده هو سر نهضته، وإن شئت فقل هو نار ثورته، بل هو نور هدايته، والروح الساري لإحياء العالم بدعوته، وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذي هو النفوس والمشاعر، وملك القلوب والعقول، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزوله إلى اليوم، يخشون بأسه وصولته، ويخافون تأثيره وعمله، أكثر مما يخافون الجيوش الفاتحة والحروب الجائحة، لأن سلطان الجيوش والحروب لا يعدو هيا كل

الأجسام والأشباح ، أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى حرائر النفوس وكرائم الأرواح ، بما لم يعهد له نظير فى أية نهضة من النهضات !.

ولقد أشار القرآن نفسه إلى هذا الوجه من وجوه إعجازه، حين سمى الله كتابه روحاً من أمره بقوله : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرِنا » وحين سماه نوراً بقوله : « قد جاءكم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ » وحين وصف بالحياة والنور من آمن به فى قوله: « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله من الظلمات ليس بخارج منها ؟ » . وفى قوله : « منَ عملَ صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينهُ حياةً طيبةً » . وفى قوله : « يأيها الذينَ آمنوا استجيبوا للهِ وللرّسولِ إذا دعاكم لما يحييكم » .

هذا التأثير الخارق أو النجاح الباهر الذى نتحدث فيه ، أدركه ولا يزال يدركه كل من قرأ القرآن فى تدبر وإمعان ونصفة، حاذقا لأساليبه العربية ، ملما بظروفه وأسباب نزوله . أما الذين لم يحذقوا لغة العرب ولم يحيطوا بهذه الظروف والأسباب الخاصة ، فيكفيهم أن يسألوا التاريخ عما حمل هذا الكتاب من قوة محولة غيرت صورة العالم ، ونقلت حدود الممالك ، عن طريق استيلائها على قلوب المخاطبين به لأول مرة استيلاء أشبه بالقهر وما هو بالقهر ، وأفعل من السحر وما هو بالسحر ، سواء فى ذلك أنصاره وأعداؤه ، ومحالفوه ومخالفوه ! وماذاك إلا لأنهم ذاقوا بسلامة فطرتهم العربية بلاغته، ولمسوا بحاستهم البيانية إعجازه؛ فوجد تياره الكهربائى موضعاً فى نفوسهم لشرارة ناره، أو لهطول غيثه وانبلاج أنواره !.

تأثيره فى أعدائه :

أما أعداؤه المشركون ، فقد ثبت أنه جذبهم إليه بقوته فى مظاهر كثيرة ، نذكر بعضها على سبيل التمثيل :

(المظهر الأول) أن هؤلاء المشركين مع حربهم له ، ونفورهم مما جاء به ، كانوا يخرجون فى جنح الليل البهيم يستمعون إليه والمسلمون يرتلونه فى بيوتهم. فهل ذاك إلا لأنه استولى على مشاعرهم ، ولكن أبى عليهم عنادهم وكبرهم وكراهتهم للحق أن يؤمنوا به « بل جاءهم بالحقِّ وأكثرهم للحقِّ كارهونَ » .

(المظهر الثانى) أن أئمة الكفر منهم كانوا يجتهدون فى صد رسول الله ﷺ عن قراءته فى المسجد الحرام وفى مجامع العرب وأسواقهم، وكذلك كانوا يمنعون المسلمين من إظهاره ، حتى لقد عالهم من أبى بكر أن يصلى به فى فناء داره ، وذلك لأن الأولاد والنساء كانوا يجتمعون عليه يستمتعون بلذة هذا الحديث ويتأثرون به ويهتزون له ! .

(المظهر الثالث) أنهم ذعروا ذعراً شديداً من قوة تأثيره ونفوذه إلى النفوس على رغم صدهم عنه واضطهادهم لمن أذعن له . فتواصوا على ألا يسمعوه ، وتعاقدوا على أن يلغوا فيه إذا سمعوه ، « وقال الذينَ كفروا لاتسمعوا لهذا القرآنِ والغوا فيهِ لعلكم تغلبونَ » ! .

(المظهر الرابع) أن بعض شجعانهم وصناديدهم ، كان الواحدُ منهم يحمله طغيانه وكفره وتحمسه لموروثه، على أن يخرج من بيته شاهراً سيفه، معلنا غدره ، ناوياً القضاء على دعوة القرآن ومن جاء بالقرآن ، فما يلبث حين تدركه لمحة من لمحات العناية ، وينصت إلى صوت القرآن فى سورة أو آية ، أن يذل للحق ويخشع، ويؤمن بالله ورسوله وكتابه ويخضع . وإن أردت شاهداً على هذا فاستعرض قصة إسلام عمر وهى مشهورة. أو فتأمل كيف أسلم سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس هو وابن أخيه أسيد بن حضير ، رضى الله عنهم أجمعين . وإليك كلمة قصيرة عن إسلام سعد وأسيد فيها نفع كبير :

تروى كتب السيرة أن رسول الله ﷺ وهو فى مكة قبل الهجرة ، أرسل مع أهل المدينة الذين جاءوا وبايعوه بيعة العقبة ، مبعوثين جليلين يعلمانهم الإسلام وينشرانه

فى المدينة ، هما مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم رضى الله عنهما ، وقد نجح هذان فى مهمتهما أكبر نجاح ، وأحدثا فى المدينة ثورة فكرية أو حركة تبشيرية جزع لها سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس ، حتى قال لابن أخيه أسيد بن حضير : ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا فتزجرهما . فلما انتهى إليهما أسيد قال لهما : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ ثم هددهما وقال : اعتزلا إن كانت لكما فى أنفسكما حاجة . رضى الله عن مصعب فقد تغاضى عن هذا التهديد وقال لأسيد فى وقار المؤمن وثباته : أو تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره . ثم قرأ مصعب القرآن وأسيد يسمع ، فما قام من مجلسه حتى أسلم ، ثم كر راجعاً إلى سعد فقال له : والله ما رأيت بالرجلين بأسا . فغضب سعد وذهب هو نفسه ثائراً مهتاجا ، فاستقبله مصعب بما استقبل به أسيدا وانتهى الأمر بإسلامه أيضا ، ثم كر راجعا فجمع قبيلته وقال لهم : ما تعدوننى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا . فقال سعد : كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا . فأسلموا أجمعين ! .

تأثير القرآن فى نفوس أوليائه :

تلك مظاهر لفعل القرآن بنفوس شانئيه ، فهل تدرى ماذا فعل بهم بعد أن دانوا له وآمنوا به وأصبحوا من تابعيه ومحبيه ؟ لعلك لم تنس ما فعل القرآن بعمر وسعد وأسيد الذين نوهنا بهم بين يديك . ألم يعودوا من خيرة جنود الإسلام ودعاته من يوم أسلموا ، بل من ساعة أسلموا ؟ وهناك مظاهر أربعة لهذا الضرب أيضا .

﴿ المظهر الأول ﴾ تنافسهم فى حفظه وقراءته فى الصلاة وفى غير الصلاة ، حتى لقد طاب لهم أن يهجروا لذيذ منامهم من أجل تهجدهم به فى الأسحار ، ومناجاتهم العزيز الغفار . وما كان هذا حالا نادراً فيهم ، بل ورد أن المار على بيوت الصحابة بالليل كان يسمع لها دويا كدوى النحل بالقرآن ! . وكان التفاضل بينهم بمقدار ما يحفظ أحدهم من القرآن ! . وكانت

المرأة ترضى بل تغتبط أن يكون مهرها سورة يعلمها إياها زوجها من القرآن ؟ .

﴿ المظهر الثانى ﴾ عملهم به وتنفيذهم لتعاليمه ، فى كل شأن من شؤونهم تاركين كل ما كانوا عليه مما يخالف تعاليمه ويجافى هداياته . طيبة بذلك نفوسهم ، طيعة أجسامهم، سخية أيديهم وأرواحهم ، حتى صهرهم القرآن فى بوتقته، وأخرجهم للعالم خلقا آخر مستقيم العقيدة ، قويم العبادة ؛ طاهر العادة ، كريم الخلق ، نبيل المطمح ! .

﴿ المظهر الثالث ﴾ استبسالهم فى نشر القرآن والدفاع عنه وعن هدايته . فأخلصوا لله وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه وهو مدافع عنه، ومنهم من انتظر حتى أتاه اليقين وهو مجاهد فى سبيله مضح بنفسه ونفيسه . ولقد بلغ الأمر إلى حد أن الرسول ﷺ كان يرد بعض من يتطوع بالجندية من الشباب لحداثة أسنانهم. وكان كثير من ذوى الأعذار يؤلمهم التخلف عن الغزو حتى يضطر الرسول أن يتخلف معهم جبراً لخاطرهم ، ويرسل سراياه وبعوثه بعد أن ينظمها ويزودها بما تحتاجه ولا يخرج معهم . روى مالك والشيخان أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ماقعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً . ولكن لا أجد سعة فأحملهم. ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » ! .

﴿ المظهر الرابع ﴾ ذلك النجاح الباهر الذى أحرزه القرآن فى هداية العالم. فقد وجد قبل النبى ﷺ أنبياء ومصلحون، وعلماء ومشترعون ، وفلاسفة وأخلاقيون ؛ وحكام ومتحكمون ، فما تسنى لأحد من هؤلاء بل ما تسنى لجميعهم أن يحدثوا مثل هذه النهضة الرائعة التى أحدثها محمد فى العقائد والأخلاق، وفى العبادات والمعاملات ، وفى السياسة والإدارة وفى كافة نواحى الإصلاح الإنسانى . وما كان لمحمد ولا لألف رجل غير محمد أن يأتوا بمثل هذا الدستور الصالح الذى أحيا موات الأمة العربية فى أقل من عشرين سنة ، ثم نفخ فيهم من روحه فهبوا بعد وفاته ينقذون العالم ففتحوا ملك كسرى وقيصر ، ووضعوا رجلا

فى الشرق ورجلا فى الغرب، وخفقت رايتهم على نصف المعمور فى أقل من قرن ونصف قرن من الزمان .

أفسحر هذا ؟ أم هو برهان عقلى لمحه المنصفون من الباحثين فاكتفوا من محمد ﷺ بهذا النجاح الباهر دليلا على أنه رسول من رب العالمين .

هذا فيلسوف من فلاسفة فرنسا يذكر فى كتاب له مازعمه دعاة النصرانية من أن محمداً لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى ، ثم يفند هذا الزعم ويقول: « إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أواهاً متألها ، فتفعل قراءته فى جذب الناس إلى الإيمان به مالم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين » !

أجل : لقد صدق الرجل ، فإن فعل القرآن فى نفوس العرب كان أشد وأرق وأبلغ مما فعلت معجزات جميع الأنبياء . وإن شئت مقارنة بسيطة فهذا موسى عليه السلام قد أتى بنى إسرائيل بآيات باهرة من عصا يلقيها فإذا هى ثعبان مبين، ومن يد يخرجها فإذا هى بيضاء للناظرين . ومن انفلاق البحر فإذا هو طريق يابسة يمشون فيها ناجين آمنين، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة فى مصر وفى طور سينا مدة التيه. فهل تعلم مدى تأثير هذه الهدايات فى إيمانهم بالله ووحدانيته ، وإخلاصهم لدينه ونصرة رسوله ؟ إنهم ما كادوا يخرجون من البحر بهذه المعجزة الإلهية الكبرى ويرون بأعينهم عبدة الأصنام والأوثان، حتى كان منهم ما حكاه الله فى القرآن : « وجاوزنا ببنى إسرائيلَ البحرَ فأتوْا على قوم يعكفونَ على أصنام لهم . قالوا يا موسى اجعلْ لنا إلها كما لهمْ آلهة . قال إنكم قومٌ تجهلونَ * إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملونَ * قال أغيرَ الله أبغيكم إلهًا وهو فضّلكم على العالَمينَ * » .

ثم لما ذهب موسى إلى مناجاة ربه واستخلف عليهم أخاه هارون عليهما السلام ، نسوا الله تعالى وحنوا إلى ماوقر فى نفوسهم من الوثنية المصرية وخرافاتها. فعبدوا العجل كما تحدثت سورة الأعراف بذلك: « واتخذ قومُ موسى من بعده من حُليهم عجلاً جسداً له

خوارٌ . ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا . اتخذوه وكانوا ظالمينَ * ولما سُقِطَ في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين * » .

ولما دعاهم موسى إلى قتال الجبارين ودخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، أبوا وخالفوا وفضلوا القعود والاستخذاء، على الجلاد والنزول إلى ميادين الجهاد، قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارينَ . وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلانِ من الذين يخافونَ أنعمَ الله عليهما ادخلوا عليهم الباب. فإذا دخلتموهُ فإنكم غالبون . وعلى اللهِ فتوكلوا إن كنتم مؤمنينَ * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً مادموا فيها فاذهبْ أنتَ وربكَ فقاتِلا إنا هٰهنا قاعدون * » ! .. هؤلاء أصحاب موسى فانظر إلى أصحاب محمد كيف تأثروا بالقرآن حتى ليحدث التاريخ عنهم أنهم قطعوا شجرة الرضوان؛ وهي تلك الشجرة التاريخية المباركة التي ورد ذكرها في القرآن. وماهذا إلا لأن الناس تبركوا بها ، فخاف عمر إن طال الزمان بالناس أن يعودوا إلى وثنيتهم ويعبدوها، فأمر بقطعها ووافقه الصحابة على ذلك ! .

وكذلك يذكر التاريخ أن محمداً ﷺ استشار أصحابه حين عزم على قتال المشركين في غزوة بدر فقالوا: « والله لو استعرضت بنا هذا البحر (يريدون البحر الأحمر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد . إنا لا نقول لك ماقال قوم موسى لموسى: «اذهبْ أنتَ وربكَ فقاتلاَ إنا هٰهنا قاعدونَ » : ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ! . هكذا كانوا يفضلون مصافحة المنايا في ميادين الجهاد، ويتهافتون على الغزو طمعا في الاستشهاد ! وهكذا حرصوا على الموت فوهبهم الله الحياة، وأتقنوا صناعة الموت فدانت لهم الملوك وعنت الكماة ! : «ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه. إن الله لغني عن العالمين ». « ولينصرنَّ الله منْ ينصرهُ . إنّ اللهَ لقويٌّ عزيزٌ ».

وجوه معلولة

ذكر بعضهم وجوها أخرى للإعجاز ، ولكنها لا تسلم في نظرنا من طعن، لأن منها

ما يتداخل بعضه فى بعض ، ومنها مالا يجوز أن يكون وجها من وجوه الإعجاز بحال .

ونمثل لهذا الذى ذكروه بتلك الأوجه العشرة التى عدها القرطبى ، وهى :

١ ـ نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود .

٢ ـ أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب .

٣ ـ جزالته التى لا تمكن لمخلوق .

٤ ـ التصرف فى الألفاظ العربية على وجه لا يستقل به عربى .

٥ ـ الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان ، كوعد المؤمنين بالنصر وغير ذلك .

٦ ـ الأخبار عن المغيبات المستقبلة التى لا يطلع عليها إلا بالوحى .

٧ ـ ماتضمنه القرآن من العلوم المختلفة التى بها قوام الأنام .

٨ ـ اشتماله على الحكم البالغة .

٩ ـ عدم الاختلاف والتناقض بين معانيه .

١٠ ـ الإخبار عن الأمور التى تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله بما لم تجر العادة بصدوره ممن لم يقرأ الكتاب ولم يتعلم ولم يسافر إلى حيث يختلط بأهل الكتاب .

فإن المتأمل فى هذه الأوجه يلاحظ أن أسلوب القرآن العجيب يشمل جزالته التى لا تمكن لمخلوق، ويشمل التصرف فى الألفاظ العربية على وجه لا يستقل به عربى. ويلاحظ أيضا أن الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان كوعد المؤمنين بالنصر ينضوى تحت مضمون الإخبار بالمغيبات ، وكذلك الأمور التى تقدمت من أول الدنيا إلى وقت نزوله تنتظم فى سلك الإخبار بالمغيبات . ويلاحظ كذلك أن الاشتمال على الحكم البالغة، وعدم الاختلاف والتناقض بين معانيه ، لا يصلح واحد منها أن يكون وجها من وجوه الإعجاز ، لأنهما لا يخرجان عن حدود الطاقة ، بل كثيراً ما نجد كلام الناس مشتملا على حكم وسليما من التناقض والاختلاف .

وبعضهم جعل وجه الإعجاز فى القرآن هو الفصاحة وحدها ، وذلك غير سديد أيضا،

لأن مجرد الفصاحة دون مراعاة لمقتضى الحال ، أمر لا يخرج بالكلام عن المعهود في مقدور البشر. فكثيرا ما يكون الكلام البشري فصيحا لكن تعوزه الخصائص والنكات الزائدة التي هي مناط بلاغته في أقل درجاته فضلا عن إعجازه .

شبهة القول بالصرفة

ومن الباحثين من طوعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو الصرفة أي صرف الله العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية ، وضربوا لذلك مثلا فقالوا: إن الإنسان كثيرا ما يترك عملا هو من جنس أفعاله الاختيارية ومما يقع مثله في دائرة كسبه وقدرته ، إما لأن البواعث على هذا العمل لم تتوافر ، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه فأقعد همته وثبط عزيمته وإما لأن حادثا مفاجئا لا قبل له به قد اعترضه فعطل آلاته ووسائله وعاق قدرته قهرا عنه ، على رغم انبعاث همته نحوه وتوجه إرادته إليه . فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن، لم ينشأ من أن القرآن بلغ في بلاغته حد الإعجاز الذي لا تسمو إليه قدرة البشر عادة ، بل لواحد من ثلاثة :

(أولها) أن بواعث هذه المعارضة ودواعيها لم تتوافر لديهم .

(ثانيها) أن صارفا إلهيا زهدهم في المعارضة فلم تتعلق بها إرادتهم ولم تنبعث إليها عزائمهم ، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعي .

(ثالثها) أن عارضا مفاجئا عطل مواهبهم البيانية ، وعاق قدرهم البلاغية، وسلبهم أسبابهم العادية إلى المعارضة على رغم تعلق إرادتهم بها وتوجه هممهم إليها .

بهذا التوجيه أو نحوه يعزى القول بالصرفة إلى أبي إسحاق الإسفرايني من أهل السنة والنظام من المعتزلة ، والمرتضى من الشيعة . وأنت إذا تأملت هذه الفروض الثلاثة التي التمسوها أو التمست لهم ، علمت أن عدم معارضة العرب للقرآن لم يجيء من ناحية إعجازه البلاغي في زعمهم . بل جاءت على الفرضين الأولين من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه

المعارضة ، ولو أنهم حاولوها لنالوها . وجاءت على الفرض الأخير من ناحية عجزهم عنها لكن بسبب خارجى عن القرآن ، وهو وجود مانع منعهم منها قهرا . ذلك المانع هو حماية الله لهذا الكتاب وحفظه إياه من معارضة المعارضين وإبطال المبطلين . ولو أن هذا المانع زال لجاء الناس بمثله ، لأنه لا يعلو على مستواهم فى بلاغته ونظمه .

تفنيد هذا القول

وهذا القول بفروضه التى افترضوها ، أو بشبهاته التى تخيلوها، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق والواقع .

(أما الفرض الأول) فينقضه ما سجل التاريخ وأثبت التواتر ، من أن دواعى المعارضة كانت قائمة موفورة ودوافعها كانت ماثلة متآخذة ، وذلك لأدلة كثيرة :

(منها) أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه ؛ ثم سجل العجز عليهم وقال بلغة واثقة إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ولن يفعلوا ولو ظاهرهم الإنس والجن . فكيف لا تثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا ولو كانوا أجبن خلق الله ؟ .

(ومنها) أن العرب الذين تحداهم القرآن كانوا مضرب المثل فى الحمية والأنفة وإباء الضيم . فكيف لا يحركهم هذا التحدى والاستفزاز ؟ .

(ومنها) أن صناعتهم البيان ، وديدنهم التنافس فى ميادين الكلام . فكيف لا يطيرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة ؟ .

(ومنها) أن القرآن أثار حفائظهم وسفه عقولهم وعقول آبائهم ، ونعى عليهم الجمود والجهالة والشرك . فكيف يسكتون بعد هذا التقريع والتشنيع ؟ .

(ومنها) أن القرآن أقام حربا شعواء على أعز شىء لديهم وهى عقائدهم المتغلغلة فيهم ، وعوائدهم المتمكنة منهم ، فأى شىء يلهب المشاعر ويحرك الهمم إلى المساجلة أكثر من هذا ؟ مادامت هذه المساجلة هى السبيل المتعين لإسكات خصمهم لو استطاعوا .

(وأما الفرض الثانى) فينقضه الواقع التاريخى أيضا . ودليلنا على هذا ماتواترت به الأنباء ، من أن بواعث العرب إلى المعارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوسهم ، ونالت منالها من عزائمهم . فهبوا هبة رجل واحد يحاولون القضاء علىَ دعوة القرآن بمختلف الوسائل ؛ فلم يتركوا طريقا إلا سلكوه ، ولم يدعوا بابا إلا دخلوه .

لقد آذوه ﷺ وآذوا أصحابه ، فسبوا من سبوا ، وعذبوا من عذبوا ، وقتلوا من قتلوا .

ولقد طلبوا إلى عمه أبى طالب أن يكفه ، وإلا نازلوه وإياه .

ولقد قاطعوه وقاطعوا أسرته الكريمة لا يبيعون لهم ولا يبتاعون ولا يتزوجون منهم ولا يزوجون ، واشتد الأمر حتى أكلت الأسرة الكريمة ورق الشجر .

ولقد فاوضوه أثناء هذه المقاطعة التى تلين الحديد مفاوضات عدة وعرضوا عليه عروضا سخية مغرية ، منها أن يعطوه حتى يكون أكثرهم مالا ، وأن يعقدوا له لواء الزعامة فلا يقطعوا أمراً دونه ، وأن يتوجوه ملكا عليهم إن كان يريد ملكا ، وأن يلتمسوا له الطب إن كان به مس من الجن . كل ذلك فى نظير أن يترك هذا الذى جاء به . ولما أبى عليهم ذلك عرضوا عليه أن يهادنهم ويداهنهم ، فيعبد آلهتهم سنة ويعبدون إلهه سنة . فأبى أيضا ونزل قول الله : « قلَ أفغيرَ اللهِ تأمرونى أعبدُ أيهاَ الجاهلونَ » ونزلت كذلك سورة الكافرون .

ولقد صادروه وصادروا أصحابه فى عبادتهم ، وانبعث شقى منهم فوضع النجاسة على ظهره ﷺ وهو يصلى . وخنقه طاغية من طواغيتهم لولا أن جاء أبو بكر فدفعه وقال: «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبيناتِ من ربكم وإن يكُ كاذباً فعليه كذبه؟»

ولقد اتهموه ﷺ مرة بالسحر ، وأخرى بالشعر ، وثالثة بالجنون ، ورابعة بالكهانة . وكانوا يتعقبونه وهو يعرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم ، فيبهتونه ويكذبونه أمام من لا يعرفونه . ولقد شدوا وطأتهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا من وطنهم ، ويتركوا أهلهم وأولادهم وأموالهم فرارا إلى الله بدينهم .

ولقد تآمروا على الرسول أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، لولا أن حفظه الله وحماه من مكرهم وأمره بالهجرة من بينهم .

ولقد أرسلوا إليه الأذى بعد ذلك فى مهاجره ، فشبت الحرب بينه وبينهم فى خمس وسبعين موقعة ، منها سبع وعشرون غزوة وثمان وأربعون سرية .

فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله : إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ونبى القرآن ، وإنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل زاهدين فى النزول إلى هذا الميدان ؟

وهل يصح مع هذا كله أن يقال: إنهم كانوا فى تشاغل عن القرآن غير معنيين به ولا آبهين له ؟

وإذا كان أمر القرآن لم يحركهم ولم يسترع انتباههم ، فلماذا كانت جميع هذه المهاترات والمصاولات ؟ مع أن خصمهم الذى يزعمون خصومته قد قصر لهم المسافة ، ودلهم على أن سبيلهم إلى إسكاته هو أن يأتوا بمثل أقصر سورة مما جاءهم به ! أليس ذلك دليلا ماديا على أن قعودهم عن معارضة القرآن ، ليست إلا بسبب شعورهم بعجزهم عن هذه المعارضة واقتناعهم بإعجاز القرآن ؟ وإلا فلماذا آثروا الملاكمة على المكالمة ، والمقارعة بالسيوف على المعارضة بالحروف ؟ !

وقد يظن جاهل أن حماستهم فى خصومتهم هذه، ليس مبعثها شعورهم بقوة القرآن وإعجازه، وإنما مبعثها بغضهم لمحمد وأصحابه. ولكن هذا الظن يكذبه ما هو مقرر تاريخيا، وثابت ثبوتا قطعيا، من أن محمدا ﷺ وأصحابه لم تكن بينهم وبين هؤلاء عداوة قبل نزول القرآن ، بل كانوا أمة واحدة وقبيلة واحدة ، وكان الرسول وأصحابه من أحب الناس إليهم لدماثة أخلاقهم . وللرحم الماسة التى بينهم .

وقد يظن آخر أن حماسة قريش فى خصومتهم للنبى وأتباعه، إنما كان مبعثها مجرد المخالفة فى الدين ، بقطع النظر عن إعجاز هذا القرآن الكريم . وهذا ظن خاطئ أيضا

لأمرين: أحدهما أنه كان بين المشركين فى جزيرة العرب يهود وأهل كتاب يخالفونهم فى الدين ، فما أرّث ذلك بينهم حربا ولا أوقد لخصومتهم نارا، على مثل ما كان بينهم وبين محمد. والآخر أنه كان يوجد بين العرب حنفاء من مقاويل الخطباء وفحول الشعراء، كأمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة، فما كان هذا ليثير حفائظهم ولا ليقفهم موقف الخصومة منهم. بل رضوا بتحنفهم ومخالفتهم لدينهم ودين آبائهم، وزادوا على ذلك أن سجلوا كلامهم فى التوحيد وشعرهم فى التنزيه والتمجيد، لأنهم لم يجدوا فى هذا المنظوم والمنثور مثل ما وجدوا فى القرآن من شدة التأثير وقوة الدفع. ذلك الكتاب الذى جاءهم من فوقهم، وكان له شأن غير شأنهم ور أو افيه من مسحة الألوهية ما جعله روحا من أمر الله يتحرك به كل من سمع صوته، ويهتز له كل من شام برقه، ولا سبيل إلى وقف تياره وأثره، إلا بالوقوف فى وجهه والحيلولة بين الناس وبينه. روى أبو داود والترمذى أن الرسول ﷺ قال : « ألا رجل يحملنى إلى قومه فإن قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى » فتأمل كلمة « أن أبلغ كلام ربى » ولم يقل : منعونى أن أتلو أو أعمل فى نفسى بكلام ربى، لأن التلاوة والعمل من غير استعلان بالقرآن ونشر له، كان لا يؤثر على قريش كثيرا إنما الذى كان يحز فى نفوسهم ويقض من مضاجعهم، هو نشر هذا النور الذى يكاد يخطف الأبصار ، وإعلان هذا الكتاب الذى يجذب القلوب والأفكار . وكان من تأثيره وفتحه وغزوه للنفوس ما ألمعنا إليه فى إسلام عمر وسعد وأسيد !

(وأما الفرض الثالث)فينقضه ما هو معروف من أن العرب حين خوطبوا بالقرآن قعدوا عن معارضته، اقتناعا بإعجازه وعجزهم الفطرى عن مساجلته. ولو أن عجزهم هذا كان لطارئ مباغت عطل قواهم البيانية، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة بمقتضى تلك الدوافع القوية التى شرحناها ففوجئوا بما ليس فى حسبانهم؛ ولكان ذلك مثار عجب لهم. ولأعلنوا ذلك فى الناس ليلتمسوا العذر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن فى ذاته، ولعمدوا إلى كلامهم القديم فعقدوا مقارنة بينه وبين القرآن يغضون بها من مقام القرآن وإعجازه، ولكانوا بعد

نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، ولأمكننا نحن الآن وأمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر أن يتبينوا الكذب في دعوى إعجاز القرآن . وكل هـذه اللوازم باطلة ؟ فبطل ما استلزمها وهو القول بالصرفة بناء على هذه الشبهة الهازلة .

ثم ألم يكف هؤلاء شهادة أعداء القرآن أنفسهم في أوقات تخليهم من عنادهم، كتلك الشهادة التي خرجت من فم الوليد « والفضل ماشهدت به الأعداء » ؟ .

ثم ألم يكفهم ماف القرآن من وجوه الإعجاز الكثيرة التي دللنا عليها فيما سبق ؟ والتي لا تزال قائمة ماثلة ناطقة إلى يومنا هذا ولا تزيدها الأيام وما يجد في العالم من علوم ومعارف وتجارب إلا وضوحا وبيانا ؟ ! .

إني لأعجب من القول بالصرفة في ذاته، ثم ليشتد عجبي وأسفي حين ينسب إلى ثلاثة من علماء المسلمين الذين نرجوهم للدفاع عن القرآن، ونربأ بأمثالهم أن يثيروا هذه الشبهات في إعجاز القرآن ! .

على أنني أشك كثيراً في نسبة هذه الآراء السقيمة إلى أعلام من العلماء ويبدو لي أن الطعن في نسبتها إليهم ، والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم ؛ أقرب إلى المعقول ، وأقوى في الدليل، لأن ظهور وجوه الإعجاز في القرآن من ناحية، وعلم هؤلاء من ناحية أخرى ، قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأي الآثم إليهم .

ولقد عودنا أعداء الإسلام أن يفتروا على رسول الله وعلى أصحابه وعلى الأئمة والعلماء ، فلم لايكون هذا منه ؟

على أن الحق لايعرف بالرجال، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال. وها قد طاش هذا الرأي في الميزان ، فلنرده على قائله أيا كان .

« وليس كلُّ خلافٍ جاء معتبراً   إلا خلافٌ له حظٌّ من النظر »

وأحب أن تلتفت إلى أن هذه الشبهة قد أثارها أعداء الإسلام فيما أثاروا وصوبوا منها سهما طائشاً إلى القرآن وإعجازه. فلنكتف بنقضنا لها هنا عن إعادتها بين ما سنذكره فى دفع الشبهات هناك إن شاء الله .

دفع الشبهات الواردة فى هذا المقام

لقد كان ما ذكرناه من وجوه الإعجاز الأربعة عشر ، كافيا للقضاء على كل شبهة ، ولرد كل فرية ومحو كل تهمة. لولا أن المخذولين من أعداء الإسلام وجدوا آذانا صاغية من نفوس عزيزة علينا ، وفئات متعلمة تعلما مدنيا ، فتأثروا بدجلهم ، ثم رضوا أن يكونوا أبواقا لهم ، يرددون شبهاتهم ، على تلاميذنا فى الجامعات والمدارس ، ويطلقون بخورهم على جماهيرنا فى المطبوعات والأندية والمجالس. لهذا كان من واجبنا أن نحشد قوانا لتطهير الجو الإسلامى من هذه الجراثيم الفتاكة والمطاعن الجارحة الهدامة ، وألا نكتفى عند المناسبة بذكر أحد المتلازمين عن الآخر ، اللهم إلا إذا كان الأمر ظاهراً لا يحتاج إلى تنبيه. أما عند الحاجة فقد نكرر ما سبق لنا ذكره ، ولكن بمقدار الحاجة من غير إكثار .

ونلفت نظرك إلى ما أسلفناه من الكلام على الوحى بين مثبتيه ومنكريه، بالمبحث الثالث من هذا الكتاب (ص ٥٧ ـ ٨٤) من الجزء الأول ، وإلى ما حواه هذا الكلام من أدلة علمية عقلية ، ومن تفنيد شبهات عشر تتصل بإعجاز القرآن عن قرب أو بعد .

ثم نلفت نظرك أيضاً إلى نقض تلك الشبهات الست التى أثيرت حول المكى والمدنى من القرآن (ص ١٩٨ ـ ٢٣٢ بالجزء الأول) .

ونرشدك إلى أننا راعينا عند كلامنا على أسلوب القرآن وإعجازه تفصيلات

وتوجيهات ، نعتقد أن فيها غناء عن دفع كثير من الشبهات فاحرص عليها ، ثم اشدد يديك على ما يلقى إليك .

الشبهة الأولى ودفعها :

يقولون : إن محمداً ﷺ لقى بحيرا الراهب فأخذ عنه وتعلم منه . وما تلك المعارف التى فى القرآن إلا ثمرة هذا الأخذ وذاك التعلم .

وندفع هذا (أولا) بأنها دعوى مجردة من الدليل ، خالية من التحديد والتعيين . ومثل هذه الدعاوى لاتقبل مادامت غير مدللة ، وإلا فليخبرونا ما الذى سمعه محمد من بحيرا الراهب ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟ .

(ثانيا) أن التاريخ لا يعرف أكثر من أنه ﷺ سافر إلى الشام فى تجارة مرتين، مرة فى طفولته ومرة فى شبابه. ولم يسافر غير هاتين المرتين ،ولم يجاوز سوق بصرى فيهما. ولم يسمع من بحيرا ولا من غيره شيئا من الدين . ولم يك أمره سرًّا هناك بل كان معه شاهد فى المرة الأولى وهو عمه أبو طالب، وشاهد فى الثانية وهو ميسرة غلام خديجة التى خرج الرسول بتجارتها أيامئذ . وكل ما هنالك أن بَحيرا الراهب رأى سحابة تظلله ﷺ من الشمس ، فذكر لعمه أن سيكون لهذا الغلام شأن ، ثم حذره عليه من اليهود . وقد رجع به عمه خوفا عليه ولم يتم رحلته . كذلك روى هذا الحادث من طرق فى بعض أسانيدها ضعف . ورواية الترمذى ليس فيها اسم بَحيرا . وليس فى شىء من الروايات أنه ﷺ سمع من بحيرا أو تلقى منه درسا واحداً أو كلمة واحدة ، لا فى العقائد ولا فى العبادات ولا فى المعاملات ولا فى الأخلاق . فأنى يؤفكون ؟ .

(ثالثا) أن تلك الروايات التاريخية نفسها تحيل أن يقف هذا الراهب موقف المعلم المرشد لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه بشره أو بشر عمه بنبوته، وليس بمعقول أن يؤمن

رجل بهذه البشارة التي يزفها ، ثم ينصب نفسه أستاذاً لصاحبها الذى سيأخذ عن الله ، ويتلقى عن جبريل ويكون هو أستاذ الأستاذين ، وهادى الهداة والمرشدين ! وإلا كان هذا الراهب متناقضا مع نفسه .

(رابعا) أن بحير الراهب لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامى المعجز ، لـكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم .

(خامسا) أنه يستحيل فى مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته ، ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف، بحيث يصبح أستاذ العالم كله، لمجرد أنه لقى مصادفة واتفاقا راهبا من الرهبان مرتين. على حين أن هذا التلميذ كان فى كلتا المرتين مشتغلا عن التعليم بالتجارة ، وكان أميا لا يعرف القراءة والـكتابة، وكان صغيراً تابعاً لعمه فى المرة الأولى، وكان حاملا لأمانة ثقيلة فى عنقه لا بد أن يؤديها كاملة فى المرة الثانية؛ وهى أمانة العمل والإخلاص فى مال خديجة وتجارتها .

(سادسا) أن طبيعة الدين الذى ينتمى إليه الراهب بحيرا ، تأبى أن تـكون مصدراً للقرآن وهداياته . خصوصا بعــــد أن أصاب ذلك الدين ما أصابه من تغيير وتحريف .

وحسبك أدلة على ذلك ما أقمناه من المقارنات السابقة بين تعاليم القرآن وتعاليم غيره. وما قررناه من الوفاء فى تعاليم القرآن دون غيره، وما أشرنا إليه من أن القرآن قد صور علوم أهل الـكتاب فى زمانه بأنها الجهالات ثم تصدى لتصحيحها وصور عقائدهم بأنها الضلالات ثم عمل على تقويمها . وصور أعمالهم بأنها المخازى والمنكرات ثم حض على تركها. فارجع إلى ما أسلفناه ، ثم تذكر أن فاقد الشىء لا يمكن أن يعطيه ، وأن الخطأ لا يمكن أن يكون مصدراً للصواب ، وأن الظلام لا يمكن أن يكون مشرقا للنور .

(سابعا) أن أصحاب هذه الشبهة من الملاحدة يقولون: إن القرآن هو الأثر التاريخى

الوحيد الذى يمثل روح عصره أصدق تمثيل . فإذا كانوا صادقين فى هـذه الـكلمة فإننا نحاكمهم فى هـذه الشبهة إلى القرآن نفسه ، وندعوهم أن يقرءوه ولو مرة واحـدة بتعقل ونصفة ، ليعرفوا منه كيف كانت الأديان وعلماؤها وكتابهـا فى عصره ؟ وليعلموا أنها ما كانت تصلح لأستاذية رشيدة ، بل كانت هى فى أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة ! . إنهم إن فعلوا ذلك فسيستريحون ويريحون الناس من هـذا الضلال والزيغ ، ومن ذلك الخبط والخلط . هدانا وهداهم الله فإن الهدى هداه . « ومن لم يجعلِ اللهُ لهُ نورا فما له من نور » .

(ثامنا) أن هذه التهمة لو كان لها نصيب من الصحة، لفرح بها قومه وقاموا لها وقعدوا، لأنهم كانوا أعرف الناس برسول الله، وكانوا أحرص الناس على تبهيته وتـكذيبه وإحباط دعوته بأية وسيلة لـكنهم كانوا أكرم على أنفسهم من هؤلاء الملاحدة فحين أرادوا طعنه بأنه تعلم القرآن من غيره لم يفكروا أن يقولوا إنه تعلم من بحيرا الراهب كما قال هؤلاء ، لأن العقل لا يصدق ذلك والهزل لا يسعه . بل لجأوا إلى رجل فى نسبة الأستاذية إليه شىء من الطرافة والهزل، حتى إذا مجت العقول نسبة الأستاذية إليه لاستحالتها، قبلتها النفوس لهزلها وطرافتها، فقالوا: إنما يعلمه بشر، وأرادوا بالبشر حدادا روميا منهمكا بين مطرقته وسندانه ، ضالا طول يومه فى خبث الحديد وناره ودخانه ، غير أنه اجتمع فيه أمران حسبوهما مناط ترويج تهمتهم أحدهما: أنه مقيم بمكة إقامة تيسر لمحمد الاتصال الدائم الوثيق به ، والتلقى عنه. والآخر غريب عنهم وليس منهم، ليخيلوا إلى قومهم أن عند هذا الرجل علم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم ، فيكون ذلك أدنى إلى التصديق بأستاذيته لمحمد. وغاب عنهم أن الحق لا يزال نوره ساطعا يدل عليه ، لأن هذا الحداد الرومى أعجمى لا يحسن العربية ، فليس بمعقول أن يكون مصدراً لهذا القرآن الذى هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية. « لسان الذين يلحدونَ إليه أعجمىٌّ. وهذا لسانٌ عربىٌّ مبينٌ » ! .

الشبهة الثانية ودفعها :

يقولون : نحن لا نشك فى صدق محمد فى إخباره عما رأى وسمع . ولكنا نعتقد أن نفسه هى منبع هذه الأخبار، لأنه لم يثبت علميا أن هناك غيبا وراء المادة يصح أن يتنزل منه قرآن أو يفيض عنه علم أو يأتى منه دين . ثم ضربوا لذلك مثلا فقالوا : إن الفتاة الفرنسية (جان دارك) الناشئة فى القرن الخامس عشر الميلادى ، قد حدث التاريخ عنها أنها اعتقدت ـ وهى فى بيت أهلها بعيدة عن التكاليف السياسية ـ أنها مرسلة من عند الله لإنقاذ وطنها ودفع العدو عنه ، واعتقدت أنها تسمع صوت الوحى الإلهى يحضها على القتال والجهاد . وانطلقت تحت هذا التأثير فجردت حملة على أعداء وطنها وقادت الجيش بنفسها فقهرتهم ثم دارت الدائرة فوقعت أسيرة وماتت ميتة الأبطال فى ميدان النزال ولا يزال ذكرها يتلألأ نوراً ويعبق أريجا ، حتى لقد قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن .

ونادفع هذه الشبهة بأمور :

(أولها) تلك الأدلة العلمية التى أقمناها هناك على إثبات الوحى الإلهى الحقيقى لا الوحى النفسى الخيالى ، مع دفع الشبهات الواردة عليه (بالمبحث الثالث من هذا الكتاب) .

(ثانيها) هذه الأدلة الأربعة عشر التى أقمناها وجوها لإعجاز القرآن فى هذا المبحث ؛ فنى كل وجه منها دفع كاف لهذه الشبهة عند التأمل والإنصاف ، لأن الإنسان محدود القوى والمواهب ، فلا يستطيع أن يخرق النواميس الكونية العادية. وما ذكرناه من وجوه إعجاز القرآن فيه أربعة عشر دليلا على خرق القرآن للنواميس الكونية المعتادة . وخرقها لا يملكها إلا من قهر الكون ونواميسه ، وكان له السلطان المطلق على العالم وما فيه ، وهو الله وحده لا محمد ولا غير محمد لا بالعقل الباطن ولا الظاهر ، لا بالوحى النفسى ولا الانفعال العصبى .

(ثالثها) أن الدارس لتاريخ هذه الفتاة يعلم أن أعصابها كانت ثائرة لتلك الانقسامات الداخلية التي مزقت فرنسا ، والتي كانت تراها وتسمعها كل يوم بين أهلها وفي بلدها (جوارد ورمى) مع ماشاع في عهدها من خرافات كان لها أثرها في نفسها وعقلها ومخها . من تلك الخرافات أن فتاة عذراء ستبعث في هذا الزمن تخلص فرنسا من عدوها . يضاف إلى هذا أن الفتاة كانت بعيدة الخيال تسبح فيه يقظة ومناما ، وتتوهم منذ حداثتها بأنها ترى وتسمع مالم تر ولم تسمع حتى خيل إليها أنها دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها . ولما تعدى البرغنيور على قريتها التي ولدت فيها قوى عندها هذا الخيال حتى صار عقيدة إلى غير ذلك مما يدل على أن الفتاة كانت أعصابها متهيجة تهيجا ناشئا عن تألمها من الحال السياسية السيئة في بلادها ، وعن تأثرها بالاعتقادات الخرافية التي سادت زمنها .

وليس هذا بدعا ، فكم رأينا وسمعنا أصحاب دعايات عريضة يعتمدون فيها على مثل هذه الخيالات الباطلة ، كالذين قاموا باسم المهدى المنتظر يدعون ويحاربون ، وكغلام أحمد القادياني والباب البهائي الذين أقام كل منهما نحلته الباطلة على أوهام فارغة .

لكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يك عصبيا ثائراً مهتاجا . بل كان وقوراً متزن العقل ثابت الفؤاد قوى الأعصاب . يثور الشجعان من حوله وهو لا يثور ، ويشطح الناس ويسرفون في الخيال وهو واقف مع الحجة يكره الشطح والإسراف في الخيال ؛ بل يحارب الإسراف في الخيال وما يستلزمه ، ويرد هؤلاء المسرفين إلى حظيرة الحقائق ويحاكمهم إلى العقل . ألم تر إلى القرآن كيف يذم الشعراء الذين يركبون مطايا الخيال إلى حد الغواية ويقول : « والشعراءُ يتبعهمُ الغاوُونَ * ألم تر أنهم في كلِّ وادٍ يهيمونَ * وأنهم يقولونَ ما لا يفعلونَ * إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وذكروا اللهَ كثيراً وانتصروا من بعدِ ما ظلموا » .

وانظر كيف ينفى القرآن أنه شعر وأن الرسول شاعر فيقول : « وما علمناه الشعرَ وما ينبغى له . إنْ هوَ إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ * لينذرَ منَ كان حيًّا ويحق القولُ على الكافرينَ * » .

وتأمل ما جاء فى صحيح مسلم وغيره من أنه ﷺ أبى على عائشة أم المؤمنين أن تقول فى شأن صبى من الأنصار جىء به ميتا ليصلى عليه طوبى لهـذا لم يعمل شرًّا فقال ﷺ : « أو غير ذلك ياعائشة ؟ إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم » . مع أن أطفال المسلمين يعلم الله أنهم فى الجنة ، لكن توقف الرسول وإباءه على عائشة أن تقول هذا، كان قبل أن يعلمه الله ذلك . فلم يسمح لها أن تسير مع الوهم أو الظن مادام الأمر غيبا ، ولا يعلم الغيب إلا الله .

وتدبر مارواه البخارى من أنه لما توفى عثمان بن مظعون رضى الله عنه قالت أم العلاء - امرأة من الأنصار - رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله فقال ﷺ : « وما يدريك أن الله أكرمه » ؟ فقالت : بأبى أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله ؟ قال : أما هو فقد جاءه اليقين . والله إنى لأرجو له الخير . والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى » . قالت: فوالله لا أزكى أحداً بعده أبداً ، وكذلك يقول القرآن الكريم : « قل ما كنت بدعاً من الرسل . وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحَى إلىَّ . وما أنا إلا نذيرٌ مبينٌ » .

فهل يعقل أن يقاس صاحب هذه الدقة البالغة والتثبت الدقيق بفتاة خفيفة سابحة فى أوهامها غريقة فى أحلامها ؟ ! .

(رابعها) أن تلك الفتاة : جان دارك ، لم تأت ولا بدليل واحد معقول على صدق أوهامها وتخيلاتها التى تزعمها وحياً وحديثاً من الله إليها . لكن محمداً ﷺ له على وحيه

الذى يدعيه ألف دليل ودليل ، كما سبق بيانه . فأين الثرى من الثريا ؟ وأين الظلام من النور ؟ .

(خامسها) أن هذه الفتاة المائجة الثائرة لم تكن صاحبة دعوة إلى إصلاح ولا ذات أثر باق فى التاريخ . إنما كانت صاحبة سيف ومسعرة حرب فى فترة من الزمن ، لغرض مشترك بين الإنسان والحيوان وهو الدفاع عن النفس والوطن بمقتضى غريزة حب البقاء؛ ثم لم تلبث جذوتها أن بردت ، وحماستها أن خمدت .

« كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر »

فأين هذه الآنسة الثائرة من أفضل الخلق فى دعوته الكبرى، وأثره الخالد فى إصلاح أديان البشر وشرائعهم وأعمالهم وأخلاقهم، وفى إنقاذ الإنسانية العانية وتجديد دمها بدينه الجديد الذى قلب به أوضاع الدنيا ، ونقل بسببه العالم إلى طور سعيد ، بل إلى الطور السعيد الذى لولاه لدام يتخبط فى الظلمات، ولبات فى عداد الأموات ! ؟ « أو من كانَ ميتاً فأحييناهُ وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلماتِ ليسَ بخارج منها؟! »

الشبهة الثالثة ودفعها :

يقولون : إنه ﷺ كان يلقى ورقة بن نوفل فيأخذ عنه ويسمع منه ، وورقة لا يبخل عليه لأنه قريب لخديجة زوج محمد . يريدون بهذا أن يوهموا قراءهم وسامعيهم بأن هذا القرآن استمد علومه من هذا النصرانى الكبير الذى يجيد اللغة العبرية ويقرأ بها ماشاء الله .

وندفع هذه الشبهة بمثل مادفعنا به ماقبلها . ونقرر أنه لا دليل عندهم على هذا الذى يتوهمونه ويوهمون الناس به، بل الدليل قائم عليهم؛ فإن الروايات الصحيحة تثبت أن خديجة ذهبت بالنبى ﷺ حين بدأه الوحى إلى ورقة ، ولما قص الرسول قصصه قال :

هذا هو الناموس الذى أنزل الله على موسى. ثم تمنى أن يكون شابا فيه حياة وقوة ينصر بهما الرسول ويؤازره حين يخرجه قومه . ولم تذكر هذه الروايات الصحيحة أنه ألقى إلى الرسول عظة أو درس له درساً فى العقائد أو التشريع ولا أن الرسول كان يتردد عليه كما يتوهمون أو يوهمون . فأنى لهم مايقولون ؟ وأى منصف يسمع كلمة ورقة هذه ولا يفهم منها أنـه كان يتمنى أن يعيش حتى يكون تلميذاً لمحمد ، وجنديا مخلصاً فى صفه ينصره ويدافع عنه فى وقت المحنة ؟ . ولـكن القوم ركبوا رءوسهم على رغم ذلك ، وحاولوا قلب الأوضاع وإيهام أن ورقة هو الأستاذ الخصوصى الذى استقى منه محمد دينه وقرآنه : ألا ساء ما يحكمون ؟ .

الشبهة الرابعة ودفعها :

يقولون : إن إعجاز القرآن للبشر عن أن يأتوا بمثله، لا يدل على قدسيته وأنه كلام الله . وشاهد ذلك أن لـكل متأدب أسلوبا خاصا به يتبع استعداده الأدبى ومزاجه الشخصى . وهذا الأسلوب الخاص يستحيل على غيره أن يأتى بمثله ضرورة اختلاف مواهب المتأدبين وأمزجتهم. ومع هذا فإعجاز كل أسلوب لغير صاحبه، وعجز كل متأدب عن الإتيان بأسلوب غيره ، لم يضف على الأساليب البشرية شيئا من القدسية وأنها كلام الله . فـكذلك القرآن يزعمون أنه كلام محمد ويعترفون بإعجازه على هذا النحو .

وندفع هذه الشبهة (أولا) بوجوه الإعجاز التى بسطناها سابقا غير وجه الإعجاز بالأسلوب .

(ثانيا) أن هذه الشبهة مغالطة ، فإن التحدى بالقرآن ليس معناه مطالبة الناس أن يجيئوا بنفس صورته الـكلامية ومنهاجه المعين الذى انفرد به أسلوبه ، حتى ترد هـذه الشبهة. بل معناه مطالبة الناس أن يجيئوا بـكلام من عندهم أيا كانت صورته ومزاجه، وأيا كان نمطه ومنهاجه ، ولـكن على شرط ألا يطيش فى الميزان، إذا قيس هو والقرآن

بمقياس واحد من البيان، بل يظهر أنه يماثله أو يقاربه فى خصائصه، وإن كان على صورة بيانية غير صورته . هذا هو مايتحداهم به الرسول ، وهو القدر الذى يتنافس فيه البلغاء عادة فيتماثلون أو يتفاضلون ، مع احتفاظ كل منهم بمنهاجه الخاص ونمطه المعين .

ومثال ذلك أن يتبارى قوم فى العدو والجرى إلى هدف واحد، ويرسم لكل واحد من هؤلاء المتبارين طريق معين بحيث لا يمشى أحدهم من طريق صاحبه ، ولا يضع قدمه فى موضع قدم أخيه. بل يمشى فى طريقه هو غير مزاحِم ولا مزاحَم،ويسير موازيا لقرنه فى المبدأ وفى الاتجاه، ثم يمضون جميعا إلى الهدف المشترك الذى إليه يتسابقون، وإذا هم بعد ذلك بين سابق مبرز ، ولاحق متخلف . ومساو متكافئ . دون أن يكون اختلاف طرقهم قادحا فيما يكون بينهم من هذا التفاضل أو التماثل . بل يعرف التناسب بينهم بمعرفة نسبة ما قطعه كل من طريقه إلى ذلك الهدف المشترك . . . كذلك المتنافسون فى ميدان البيان ، يختار كل منهم طريقته التى يستمدها من مزاجه الشخصى واستعداده الخاص للوصول إلى الغاية البيانية العامة . ثم هم بعد ذلك يتفاوتون أو يتعادلون، بمقدار وفائهم بخصائص البيان أو نقصهم منها . فالمدعوون إلى معارضة القرآن إن افترضتهم أكفاء لنبى القرآن فسيأتون بمثل ماجاء به ، وإن افترضتهم أعلى منه كعبا فسيأتون بأحسن مما جاء به ، وإن افترضتهم دونه فلن يشق عليهم أن يأتوا بقريب مما جاء به ، مع احتفاظ كل منهم بنمطه فى الكلام ومنهجه فى البيان . لكن شيئا من هذه المراتب الثلاث لم يكن . فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن ولا بما يعلوه ولا بما يقرب منه ، لا بالنسبة إليه كله ، ولا بالنسبة لعشر سور ،ولا بالنسبة لسورة واحدة من مثله، لا منفردين ولا مجتمعين ولو كان معهم الإنس والجن وكان بعضهم لبعض ظهيراً . يضاف إلى ذلك أنهم كانوا أئمة البيان ونقدة الكلام . وكانوا أهل إباء وضيم يحرصون على الغلبة فى هذه الحلبة من معارضة القرآن .

أليس ذلك بدليل كاف على أن هذا الكتاب تنزيل العزيز الرحيم ولا يمكن أن يكون كلام محمد ولا غير محمد من المخلوقين ؟ !

الشبهة الخامسة ودفعها :

يقولون : إن عجز النـاس عن الإتيان بمثل القرآن ، ماهو إلا نظير عجزهم عن الإتيان بمثل الـكلام النبوى . وإذن فلا يتجه القول بقدسية القرآن وأنه كلام الله ، كما لا يتجه القول بقدسية الحديث النبوى وأنه كلام الله ! .

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن الحديث النبوى إن عجز عامة الناس عن الإتيان بمثله ، فلن يعجز أحد خاصتهم عن الإتيان ولو بمقدار سطر واحد منه . وإذا عجز أحد هؤلاء الممتازين عن مقدار سطر واحد منه نفسه ، فلن يعجز عن مقدار سطر واحد من مماثله القريب منه . وإن عجز أن يأتى بسطر من هذا المثل وهو وحده ، فلن يعجز عنه إذا انضم إليه ظهير ومعين أيا كان ذلك الظهير والمعين . وإن عجز عن هذا مع الظهير والمعين أيا كان ، فلن يعجز الإنس والجن جميعا أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً كما قال القرآن .

ذلك شأن الحديث النبوى مع معارضيه . أما القرآن الـكريم فله شأن آخر ، لأن أحداً لا يستطيع الإتيان بمثل أقصر سورة منه لا هو وحده ولا مع غيره ولو اجتمع من بأطرافها من الثقلين .

وإنما قلنا إن الحديث النبوى لا يعجز بعض الخواص الممتازين أن يأتى بمثله ، لأن التفاوت بين الرسول وبلغاء العرب مما يتفق مثله فى مجارى العادة بين بعض الناس وبعض فى حدود الطاقة البشرية ، كالتفاوت بين البليغ والأبلغ والفصيح والأفصح والحسن والأحسن . وليس هذا التفاوت بالأمر الشاذ الخارق للنواميس العادية جملة ، بحيث تنقطع الصلة بين الرسول وسائر البلغاء جميعا ، لاختصاصه من بينهم بفطرة شاذة لا تمت إلى سائر الفطر بنسب إلا كما ينتسب النقيض إلى النقيض والضد إلى الضد ، كلا بل إن هذا القول باطل من وجهين :

(أحدهما) أنه يخالف المعقول والمشاهد ، لمـا هو معروف من أن الطبيعة الإنسانية

العامة واحدة، ومن أن الطبائع الشخصية يقع بينها التشابه والتماثل، في شيء أو أشياء، في واحد أو أكثر، في زمن قريب أو أزمنة متطاولة، في كل فنون الكلام أو في بعض فنونه. (والآخر) أنه يخالف المنقول في الكتاب والسنة، من أن البشرية قدر مشترك بين الرسول وجميع آحاد الأمة. ولا ريب أن هذه البشرية المشتركة وجه شبه يؤدي لا محالة إلى المماثلة بين كلامه و كلام من تجمعه بهم رابطة أو روابط خاصة على نحو ما قررنا. أليس الله يقول: «قل سبحان ربي! هل كنت إلا بشراً رسولًا؟» ويقول: «قلْ إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إليّ» ثم أليس الرسول يقول في الحديث الآنف «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ» الخ، ويقول لرجل رآه فامتلأ منه فرقا ورعبا: «هون عليك فإني لست بملك. إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»!.

(ثانيا) أننا نجد تشابها بين كلام النبوة و كلام بعض الخواص من الصحابة والتابعين، حتى لقد نسمع الحديث فيشتبه علينا أمره: أهو مرفوع ينتهي إلى النبي ﷺ؟ أم موقوف عند الصحابي؟ أم مقطوع عند التابعي؟ إلى أن يرشدنا السند إلى عين قائله.

ومن أوتي حاسة بيانية يدرك هذا الشبه كثيرا كلما كان صاحب البيان المشابه تصله بالرسول صلات قوية، كتلك الصلات أو العوامل المتآخذة التي توافرت في علي بن أبي طالب حتى مسحت بيانه مسحة نبوية، وجعلت نفسه في الكلام من أشبه الأنفاس بكلام رسول الله إن لم يكن أشبهها.

أما القرآن وما أدراك ما القرآن، فلن تستطيع أن تجد له شبيها أو ندا، لأن الذي صنعه على عينه لن تستطيع أن تجد له شبيها أو ندا!. فكيف يقاس القرآن بالحديث في هذا المقام؟ أم كيف يجمع بينهما في قران؟.

(ثالثا) أن القرآن لو كان كلام محمد كالحديث الشريف، لكان أسلوبهما واحدا؛ ضرورة أنهما على هذا الفرض ـ صادران عن شخص واحد، استعداده واحد ومزاجه واحد، لكن الواقع غير ذلك، فأسلوب القرآن ضرب وحده تظهر عليه سمات الألوهية التي تجل عن المشابهة

والمماثلة ، وأسلوب الحديث النبوى ضرب آخر لا يجل عن المشابهة والمماثلة ، بل هو محلق فى جو البيان يعلو أساليب الناس فى جملته دون تفصيله ؛ ولا يستطيع بحال أن يصعد إلى سماء إعجاز القرآن ! . فإن افترضت أنه عليه الصلاة والسلام كان له أسلوبان مختلفان: أحدهما يحضره ويتعمل له وهو ما سماه بالقرآن ، والآخر يرسله ولا يحضره وهو ما سمى بالحديث: إن افترضت ذلك فانظر علاج الشبهة العاشرة فى المبحث الثالث من هذا الكتاب (ص ٧٨ ـ ٨٤ من الجزء الأول) فإن فيه شفاء ما فى نفسك ، والله يكتب العافية لى ولك .

الشبهة السادسة ودفعها :

يقولون : إن أنباء القرآن الغيبية ، لا تستقيم أن تكون وجها من وجوه الإعجاز الدالة على أنه كلام الله بل هو كلام محمد استقى أنباءه من أهل الكتاب فى الشام وغيرها ، أو رمى فيه الكلام على عواهنه فصادف الحقيقة اتفاقا ، أو استنبط الأنباء برأيه استنباطا ثم نسبها إلى الله .

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن أكثر أنباء الغيب التى فى القرآن لم يكن لأهل الكتاب علم بها على عهده .

(ثانياً) أنه صحح أغلاطهم فى كثير من هذه الأنباء فليس بمعقول أن يأخذها عنهم وهو الذى صححها لهم ! .

(ثالثاً) أن أهل الكتاب فى زمنه كانوا أبخل الناس بما فى أيديهم من علم الكتاب .

(رابعاً) أنه لو كان لهذه الشبهة ظل من الحقيقة لطار بها أهل الكتاب فرحا ، وطعنوا بها فى محمد وقرآنه ، ولطبل لها المشركون ورقصوا . لكن شيئاً من ذلك لم يكن، بل إن جلة من علماء أهل الكتاب آمنوا بهذا القرآن ، ثم لم يمض زمن طويل حتى أعطت قريش مقادتها له عن إيمان وإذعان .

(خامسا) أن محمدا كان رجلا عظيما بشهادة هؤلاء الطاعنين. وصاحب هذه العظمة البشرية يستحيل أن يكون ممن يرمى الكلام على عواهنه خصوصاً أنه رجل مسؤول فى موقف الخصومة بينه وبين أعداء ألداء. فما يكون له أن يرجم بالغيب ويقامر بنفسه وبدعوته، وهو لا يضمن الأيام وما تأتى به مما ليس فى الحسبان.

(سادساً) أنه على فرض رجمه بالغيب جزافا من غير حجة، يستحيل فى مجرى العادة أن يتحقق كل ما جاء به مع هذه الكثرة. بل كان يخطىء ولو مرة واحدة، إما فى غيوب الماضى أو الحاضر أو المستقبل. لكنه لم يخطىء فى واحدة منها على كثرتها وتنوعها.

(سابعاً) أن هذه الأنباء الغيبية ليست فى كثرتها مما يصلح أن يكون مجالا للرأى، ثم إن ما يصلح أن يكون مجالا للرأى أخبر محمد ﷺ فى بعضه بغير ما يقضى به ظاهر الرأى والاجتهاد. انظر ما ذكرناه تحت عنوان أنباء الغيب من هذا المبحث. وتأمل نبوءة انتصار الروم على الفرس وانتصار المسلمين على المشركين فى وقت لم تتوافر فيه عوامل هذا الانتصار كما بينا سابقاً.

الشبهة السابعة ودفعها:

يقولون: إن ما تذكرونه من علوم القرآن ومعارفه وتشريعاته الكاملة، لا يستقيم أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز. فهذا سولون اليونانى وضع وحده قانونا وافياً كان موضع التقدير والإجلال والطاعة؛ وما قال أحد إنه أتى بذلك معجزة ولا إنه صار بهذا التشريع نبيًّا.

وندفع هذه الشبهة (أولا) بأن البون شاسع بين ما جاء به القرآن وما جاء به هذا القانون السولونى اليونانى. ونحن نتحداهم أن يثبتوا لنا كماله ووفاءه بكافة ضروب الإصلاح البشرى على نحو ما شرحنا سابقاً بالنسبة إلى القرآن الكريم.

(ثانيا) أن الفرق بعيد بين ظروف محمد ﷺ التى جاء فيها بالقرآن وظروف سولون التى وضع فيها القانون . وهذا الفرق البعيد له مدخل كبير فى إثبات هذا الوجه من الإعجاز بالنسبة إلى محمد ﷺ دون سولون : فمحمد كان أميًّا نشأ فى الأميين ، أما سولون فكان فيلسوفا نشأ بين فلاسفة ومتعلمين ، بل هو أحد الفلاسفة السبعة الذين كان يشار إليهم بالبنان فى القرن السابع قبل الميلاد المسيحى . . .

ومحمد ﷺ لم يتقلد قبل القرآن أعمالا إدارية ولا عسكرية ، بل جاءه القرآن بعد أن حببت إليه الخلوة والعزلة ، أما سولون فقد تولى قبل وضعه القانون أعمالا إدارية وعسكرية ، وانتخب فى عام ٥٩٤ قبل الميلاد (أرجونا) أى رئيساً على الأمة بإجماع أحزابها، وقلدوه سلطة مطلقة ليغير ماشاء من نظم البلاد وقانونها الذى وضعه (زرا كوت) من قبله . فوضع لهم نظاما جديداً أقرته الأمة حكومة وشعباً وقررت اتباعه والعمل به عشر سنين .

فهل يجوز حتى فى عقول المغفلين أن تقام موازنة ويصاغ قياس مع هذه المفارقات الهائلة بين محمد الأمى الناشىء فى الأميين ، وسولون الفيلسوف والحاكم والقائد والزعيم والناشىء فى أعظم أمة من أمم الحكمة والحضارة ؟ !

(ثالثاً) أين ذلك القانون الذى وضعه أو عدله سولون ؟ وما أثره وما مبلغ نجاحه؟ بجانب قانون القرآن الجامع ودستوره الخالد وأثره البارز ونجاحه المعجز! ثم ماقيمة قانون وضع تحت تأثير تلك الظروف ومات وأصبح فى خبر كان ، بجانب القرآن الذى جاء فى ظروف مضادة جعلته معجزة بل معجزات، ثم حى حياة دائمة لا مؤقتة، ولا يزال يزداد مع مرور العصور والقرون جدة وحياة وثباتاً واستقراراً ، حتى أصبح كثير من الأمم المتحضرة تستمد منه، وقررت مؤتمرات دولية اعتباره مصدراً من مصادر القانون المقارن فى هذا العصر ، إلى غير ذلك مما أشرنا إليه قبلا ؟ !

خلاصة

والخلاصة أن القرآن من أية ناحية أتيته، لا ترى فيه إلا أنواراً متبلجة وأدلة ساطعة على أنه كلام الله. ولا يمكن أن تجد فيه نكتة من كذب، ولا وصمة من زور، ولا لطخة من جهل. وإني لأقضى العجب من هؤلاء الذين أغمضوا أعينهم عن هذه الأنوار، وطوعت لهم أنفسهم اتهام محمد ﷺ بالكذب، وزعموا أن القرآن من تأليفه هو لا من تأليف ربه، مع أن الكاذب لا بد أن تكشف عن خبيئته الأيام والمضلل لا مناص له من أن يفتضح أمره ويتهتك ستره.

« ثوب الرياء يَشِفُّ عما تحته فإذا التحفْتَ به فإنك عارِ »

فيأيها اللاعبون بالنار الهازئون بقوانين العقل والمنطق، العابثون بمقررات علم النفس وعلم الاجتماع. الغافلون عن نواميس الكون وأوضاع التاريخ، الساخرون بدين الله وكتابه ورسوله. كلمة واحدة أقولها لكم فاعقلوها: معقول أن يكذب الكاذب ليجلب إلى نفسه أسباب العظمة والمجد، وليس بمعقول أبداً (حتى عند البهائم) أن يكذب الصادق الأمين ليبعد عن نفسه أعظم عظمة وأمجد مجد. ولا شيء أعظم من القرآن ولا أمجد، فكيف يتنصل محمد ﷺ منه ولا يتشرف بنسبته إليه لو كان من تأليفه ووضعه؟!

يميناً لا حنث فيها، لو أن محمداً كان كاذبا لكذب في أن ينسب هذا القرآن إلى نفسه، على حين أنه ليس من إنشائه ورصفه. كيما يحرز به الشرف الأعلى، ويدرك به المقام الأسمى، لو كان ينال شرف ويعلو مقام بالافتراء والكذب! . ولكن كيف يكذب الصادق الأمين ومولاه يتوعد ويقول: « ولوْ تقوَّلَ علينا بعض الأقاويل * لأخذْنا منه باليمينِ * ثمَّ لقطعنا منهُ الوَتين * فما منكم منْ أحدٍ عنهُ حاجزينَ * وإنه لتذكرةٌ

للمتقينَ * وإنا لنعلم أنَّ منكم مكذبين * وإنه لحسرةٌ على الكافرينَ * وإنه لحق اليقين * فسبحْ باسمِ ربكَ العظيم * »

ومن أعجب العجب أن نسمع أمثال تلك الشبهات الساقطة فى محيطنا الإسلامى؛ على حين أن طوائف كثيرة من علماء الإفرنج فى هذه العصور الأخيرة، قد أعلنوا بعد دراستهم للقرآن ونبى القرآن : « إن محمداً كان سليم الفطرة، كامل العقل ، كريم الأخلاق، صادق الحديث ، عفيف النفس، قنوعا بالقليل من الرزق، غير طموع فى المال ولا جنوح إلى الملك . ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر والمباراة فى تحبير الخطب وقرض الشعر. وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات الوثنية ،ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية، كالخمر والميسر وأكل أموال الناس بالباطل. وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد النبوة جزموا بأنه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه، من رؤية ملك الوحى ،ومن إقرائه إياه هذا القرآن، ومن إنبائه بأنه رسول من الله لهداية قومه وسائر الناس » . ولقد وصل الأمر ببعض هؤلاء الباحثين الأجانب ، أن أعلن هذه الحقيقة : « لو وجدت نسخة من القرآن ملقاة فى فلاة ، ولم يخبرنا أحد عن اسمها ومصدرها ، لعلمنا بمجرد دراستها أنها كلام الله ، ولا يمكن أن تكون كلام سواه » .

كلمة الختام

أما بعد : فإن الكلام فى إعجاز القرآن طويل ، وعلاج جميع الشبهات التى لفقها أعداء الإسلام أطول . حتى لقد اطلعت على رسالة خبيثة أسموها (كتاب حسن الإيجاز فى إبطال الإعجاز) فوجدتها قد حملت من الأكاذيب والأراجيف ، ومن اللف والدوران ، أشكالا وألوانا فى الصحيفة الواحدة . وعقيدتى أن ما بسطناه فى هذا المبحث وما يتصل به ، فيه الكفاية لمن أراد الهداية . ولو أننا استقصينا وجوه الرد على مثل هذه الرسالة لاقتضانا الأمر كتابا كبيراً كاملا ، على حين أنها هى لا تزيد على اثنتين وعشرين صفحة من القطع الصغير . ثم أنى لنا ذلك الرد المسهب الآن ؟ وأزمة الورق طاحنة ، وأدوات الطباعة عزيزة ، حتى لقد اضطررنا من أجل هذا ، أن نقف فى الكتابة عند هذا الحد (بالطبع) ولقد كنا نود أن نمضى قدما حتى نأتى على قصص القرآن وأمثاله وجدله ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات . وعسى أن يكون خيراً .

نحمده سبحانه أن كتب لنا التوفيق فى هذه المحنة حتى انتهينا إلى هذه الغاية ، ونستغفره ونتوب إليه من كل خطأ وزلل . ونسأله القبول والمزيد والتعجيل بتفريج الكروب ، وأن يصلح الحال والمآل لنا وللسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها .

رجاء

ونرجو من كل مطلع على هذا الكتاب أن يتفضل فيدعو لنا بالخير، وأن يزودنا بملاحظاته واستدراكاته، فإن الدين النصيحة؛ والمؤمنون بخير ما تناصحوا.

وليعلم القارئ الكريم أننا لا نزعم لأنفسنا الكمال. ولكن قصارانا أننا نحاول الكمال، وأن نؤدى رسالتنا فى هذه الحياة كما يجب. أما الكمال المطلق فهو لله تعالى وحده.

« وتمتْ كلمة ربك صدقاً وعدلًا . لا مُبدِّل لكلماتهِ . وهو السميع العليم » .

« سبحانَ ربكَ ربِّ العزةِ عما يصفونَ * وسلامٌ على المرسلينَ * والحمدُ للهِ ربِّ العالمين * » .

وصلى الله على أفضل خلقه، وخاتم رسله، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأصحاب الحقوق علينا أجمعين، آمين آمين.

وكان الفراغ من طبع هذه المذكرات فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٦٢ هـ الموافق لشهر يونيه ١٩٤٣ م.

فهرس الجزء الثاني

من مناهل العرفان

صفحة	الموضوع
٢	المبحث الثاني عشر فى التفسير والمفسرين وما يتعلق بهما
٣	التفسير ومعناه
٤	التأويل ومعناه
٦	فضل التفسير والحاجة إليه
١٠	أقسام التفسير
١٢	التفسير بالمأثور
١٤	المفسرون من الصحابة
١٦	تفسير ابن عباس
١٨	الرواية عن غير ابن عباس من الصحابة
١٩	المفسرون من التابعين وطبقاتهم ونقد المروى عنهم
٢٣	ضعف الرواية بالمأثور وأسبابه
٢٦	ملحوظة فى ثلاثة من الأعلام
٢٨	تدوين التفسير بالمأثور وخصائص الكتب المؤلفة فى ذلك
٢٩	تفسير ابن جرير
٢٩	« أبى الليث السمرقندى
٣٠	الدر المنثور فى التفسير بالمأثور
«	تفسير ابن كثير
«	« البغوى
«	« بقى بن مخلد

صفحة	الموضوع
٣١	أسباب النزول للواحدى
«	الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس
«	طرق المفسرين بعد العصر الأول
٣٣	التفسير المحمود والتفسير المذموم
٣٤	ميزان المدح والذم
٣٥	غلطة التعصب للرأى (وهو موقف حميد مفيد)
٣٧	مثال من أمثلة هذا التعصب
٣٨	مثال خلق الأفعال بين أهل السنة والمعتزلة
٤٣	واجبنا إزاء الخلافيات
٤٤	تحذير
«	سماحة الإسلام ويسره
٤٥	حديث لحجة الإسلام
٤٧	تحقيق للأستاذ الإمام
٤٩	التفسير بالرأى الجائز منه وغير الجائز
٥١	العلوم التى يحتاج إليها المفسر
٥٤	الاختلاف فى جواز التفسير بالرأى
«	أدلة المانعين
٥٨	أدلة المجيزين
٥٩	منهج المفسرين بالرأى
٦١	قانون الترجيح عند الاحتمال
٦٢	أوجه بيان السنة للقرآن
٦٣	التعارض بين التفسير بالرأى والتفسير بالمأثور
٦٥	أهم كتب التفسير بالرأى

صفحة	الموضوع
٦٦	تفسير الجلالين
٦٧	تفاسير البيضاوى والفخر الرازى وأبى السعودى
٦٨	تفاسير النيسابورى ، والنسفى ، والخطيب
٦٩	تفسير الخازن
»	تفاسير الفرق المختلفة
٧٠	« المعتزلة
»	كتاب الكشاف
٧٤	« تنزيه القرآن عن المطاعن
»	تفاسير الباطنية
٧٦	« الشيعة
٧٧	مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار
٧٨	التفسير الإشارى
٧٩	ملحوظة فى معنى الظهر والبطن والحد والمطلع
٨١	شروط قبول التفسير الإشارى
٨٢	أهم كتب التفسير الإشارى
»	تفسير النيسابورى
٨٤	« الألوسى
٨٥	« التسترى
٨٦	« ابن العربى
٨٩	نصيحة خالصة فى الموضوع
٩٠	كلمة قيمة لحجة الإسلام الغزالى فى الموضوع
٩١	الشطح
٩٢	الطامات

الصفحة	الموضوع
٩٥	التلبيس فى إطلاق لفظ الحكمة
٩٦	تفاسير أهل الكلام
٩٧	مزج العلوم الأدبية والكونية بالتفسير وسببه
١٠٠	آثار هذا الامتزاج
١٠١	شروط لابد منها
١٠٤	كلمة ختامية
١٠٦	نهاية القول
١٠٧	المبحث الثالث عشر فى ترجمة القرآن وحكمها تفصيلا .
«	أهمية هذا المبحث .
١٠٩	الترجمة فى اللغة .
١١٠	الترجمة فى العرف .
١١١	تفسير الترجمة
١١٣	مالا بد منه فى الترجمة مطلقا .
«	مالا بد منه فى الترجمة الحرفية .
١١٤	فروق بين الترجمة والتفسير .
١١٨	الترجمة والتفسير الإجمالى بغير لغة الأصل .
١١٩	تنبيهان مفيدان .
١٢٠	الترجمة ليست تعريفاً منطقيا .
١٢٠ ـ ١٣١	القرآن ومعانيه ومقاصده .
١٢١	المراد بالقرآن هنا .
«	معانى القرآن نوعان
١٢٣	مقاصد القرآن الكريم .
١٢٤	هداية القرآن .

صفحة	الموضوع
١٢٨	إعجاز القرآن
١٢٩	التعبد بتلاوة القرآن
١٣١ ـ ١٣٩	حكم ترجمة القرآن تفصيلا
١٣١	حكم ترجمة القرآن بمعنى تبليغ ألفاظه .
١٣٢	حكم ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغته العربية .
١٣٣	حكم ترجمة القرآن بمعنى تفسيره بلغة أجنبية .
»	أمور مهمة .
١٣٧	فوائد الترجمة بهذا المعنى .
١٤٠ ـ ١٥٣	دفع الشبهات الواردة على جواز هذه الترجمة .
»	دفع شبهة استلزامها للترجمة العرفية الممنوعة .
١٤١	« استلزامها لما يتعذر الوفاء به .
»	« عدم الحاجة إليها .
١٤٣	حكم ترجمة القرآن بمعنى نقله إلى لغة أخرى .
١٤٤	الحكم على هذه الترجمة بالاستحالة العادية .
١٤٧	الحكم على هذه الترجمة بالاستحالة الشرعية .
١٥٣	دفع الشبهات الواردة على منع هذه الترجمة .
»	نقض استدلالهم بأن تبليغ الإسلام إلى الأجانب واجب .
١٥٥	نقض استدلالهم بأن الرسول كاتب عظماء الأجانب يدعوهم إلى الإسلام.
١٥٧	نقض استدلالهم بقياس هذه الترجمة على التفسير .
»	» » بإمكان نقل المعانى الأصلية للقرآن .
١٥٨	» » بأن الذين ترجموا القرآن أخطئوا .
١٥٩	» » برواية أن سلمان الفارسى ترجم ماترجم .
١٦٠	حكم قراءة الترجمة والصلاة بها .

صفحة	الموضوع
١٦٠	مذهب الشافعية .
١٦١	مذهب المالكية .
١٦٢	مذهب الحنابلة .
«	مذهب الحنفية .
١٦٤	توجيهات وتعليقات .
«	كلمة للإمام الشافعى .
١٦٥	كلمة للمحقق الشاطبى .
١٦٨	كلمة لحجة الإسلام الغزالى .
١٦٩	موقف الأزهر من ترجمة القرآن الكريم .
١٧٢	فذلكة هذا المبحث .
١٧٣	المبحث الرابع عشر فى النسخ .
«	أهمية هذا المبحث .
١٧٥	النسخ فى اللغة .
١٧٦	النسخ فى الاصطلاح .
١٧٧	توجيهات أربعة .
١٨٠	ما لا بد منه فى النسخ .
«	الفرق بين النسخ والبداء .
١٨٤	الفرق بين النسخ والتخصيص .
١٨٦	النسخ بين مثبتيه ومنكريه .
١٨٧	أدلة ثبوت النسخ عقلا وسمعا .
«	ا . أدلة جواز النسخ .
١٩٠	ب . أدلة وقوع النسخ .
١٩٤	حكمة الله فى النسخ .

صفحة	الموضوع
١٩٨	دفع شبهات المنكرين لجوازه عقلا .
«	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم البداء أو البعث .
١٩٩	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم الجهل أو تحصيل الحاصل
«	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم تحصيل الحاصل أو ما هو فى معناه
٢٠١	دفع اعتراضهم بأن النسخ يستلزم اجتماع الضدين .
٢٠٢	شبهات المنكرين للنسخ سمعا ودفعها .
«	شبهة العنانية والشمعونية ودحضها .
٢٠٤	شبهة النصارى ودحضها .
٢٠٦	شبهة العيسوية ودحضها .
٢٠٧	شبهة أبى مسلم ودحضها .
٢٠٩	طرق معرفة النسخ .
٢١١	قانون التعارض .
٢١١	ما يتناوله النسخ .
٢١٤	أنواع النسخ فى القرآن .
٢١٦	دفع شبهات المانعين لنسخ التلاوة أو الحكم دون الآخر .
«	ا ـ دفع شبهتهم بأن التلاوة والحكم متلازمان .
«	ب ـ دفع شبهتهم بأن نسخ الحكم دون التلاوة يستلزم تعطيل الكلام الإلهى .
٢١٧	دفع شبهتهم بأن نسخ الحكم دون التلاوة يوقع فى اللبس .
٢١٨	دفع شبهتهم بأن نسخ التلاوة دون الحكم يوقع فى اللبس أيضا.
«	دفع شبهتهم بأن نسخ التلاوة دون الحكم عبث .
٢٢٠	النسخ ببدل وبغير بدل .
٢٢١	شبهة المعتزلة فى منع النسخ بغير بدل ودفعها .
٢٢٢	نسخ الحكم يبدل أخف أو مساو أو أثقل .

صفحة	الموضوع
٢٢٣	شبهات المانعين للنسخ ببدل أثقل ودفعها .
«	نقض استدلالهم بأن فى ذلك تزهيداً فى الطاعة وتثبيطا عن الواجب .
٢٢٥	نقض استدلالهم بآية « ويضع عنهم إصرهم » .
«	نقض استدلالهم بآيات التخفيف فى القرآن .
٢٢٦	نقض استدلالهم بآية « مانسخ » .
٢٢٧	نسخ الطلب قبل التمكن من امتثاله .
«	أدلة المثبتين لهذا النوع من النسخ .
٢٣٠	شبهات المنكرين لهذا النوع ودفعها .
«	دفع قولهم إنه عبث .
٢٣١	دفع قولهم إنه يستلزم أحد محالين .
«	دفع قولهم إنه يستلزم الجمع بين الضدين .
٢٣٢	دفع نقضهم للاستدلال بقصة ذبح إسماعيل .
٢٣٤	دفع نقضهم للاستدلال بنسخ فريضة الصلوات الخمسين .
٢٣٦	النسخ فى دورانه بين الكتاب والسنة .
«	نسخ القرآن بالقرآن .
٢٣٧	نسخ القرآن بالسنة .
٢٣٧	مقام جوازه .
٢٤١	دفع الاعتراض بالسنة الاجتهادية والآحادية .
٢٤٢	مقام وقوعه .
٢٤٤	نسخ السنة بالقرآن .
«	دليل جوازه وأدلة وقوعه .
٢٤٥	دفع الاعتراض باحتمالين واهيين .
٢٤٦	نقض استدلال المانعين بآية « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس » .

الصفحة	الموضوع
٢٤٧	نسخ السنة بالسنة .
«	أدلة الجمهور على عدم جواز نسخ السنة المتواترة بالآحادية شرعاً .
٢٤٨	أدلة أهل الظاهر على جواز هذا النسخ شرعا .
٢٤٩	نسخ القياس والنسخ به .
٢٥٠	أدلة المانعين له مطلقا .
٢٥١	دليل المجوزين له مطلقا .
«	دليل المفصلين فيه وهم الجمهور .
٢٥٢	نسخ الإجماع والنسخ به .
٢٥٣	المجوزون له ومناقشتهم فى هذا التجويز .
«	موقف العلماء من الناسخ والمنسوخ .
٢٥٤	منشأ غلط المتزيدين تفصيلا .
٢٥٥	الآيات التى اشتهرت بأنها منسوخة .
٢٥٦	آية « ولله المشرق والمغرب » .
٢٥٧	« « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت » .
٢٥٨	« « وعلى الذين يطيقونه فدية » .
٢٥٩	« « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » .
٢٦٠	« « يسألونك عن الشهر الحرام » .
٢٦١	« « والذين يتوفون منكم » .
٢٦٢	« « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه » .
٥٦٢	« « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » .
٢٦٣	« « وإذا حضر القسمة أولو القربى » .
«	« « والذين عقدت أيمانكم » .
٢٦٤	« « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » .

الصفحة	الموضوع
٢٦٤	آية « يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » .
٢٦٥	« « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » .
»	« « يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم » .
»	« « إن يكن منكم عشرون صابرون » .
٢٦٦	« « انفروا خفافا وثقالا » .
»	« « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة » .
٢٦٧	« « يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم » .
»	« « لا يحل لك النساء من بعد » .
٢٦٨	« « يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول » .
٢٦٩	« « وإن فاتكم شىء من أزواجكم »
»	آيات « يأيها المزمل » . . إلخ .
٢٧٠	المبحث الخامس عشر فى محكم القرآن ومتشابهه .
»	المعنى اللغوى .
٢٧١	القرآن محكم ومتشابه .
٢٧٢	المعنى الاصطلاحى .
»	آراء العلماء فى معنى المحكم والمتشابه .
٢٧٥	نظرة فى هذه الآراء .
٢٧٦	آراء أخرى .
٢٧٨	منشأ التشابه وأقسامه وأمثلته .
٢٨١	أنواع المتشابهات .
٢٨٢	هل فى ذكر المتشابهات من حكمة ؟
٢٨٦	متشابه الصفات .
»	الرأى الرشيد فى متشابه الصفات .

صفحة	الموضوع
٢٩٠	تطبيق وتمثيل .
٢٩١	إرشاد وتحذير .
٢٩٣	دفع الشبهات الواردة فى هذا المقام .
«	نقض قولهم : إن نفى الجهة عن الله يستلزم عدم وجود الله .
٢٩٦	نقض شبهتهم فى وجوب تأويل اللفظ بدليل
٢٩٧	نقض قولهم إن إنزال المتشابه لا يتفق وهداية الخلق .
٢٩٨	نقض قولهم إن ذكر المتشابه لا يليق بالحكيم .
٢٩٩	نقض قولهم إن وجود المتشابه مع المحكم يستلزم أحد محذورين
٣٠٠	نقض قولهم إن السلف والخلف وقعوا فى محذور التأويل جميعا .
٣٠٢	المبحث السادس عشر فى أسلوب القرآن الكريم .
«	الأسلوب فى اللغة .
٣٠٣	الأسلوب فى الإصلاح .
	معنى أسلوب القرآن .
«	الفرق بين الأسلوب وبين المفردات والتراكيب .
٣٠٤	مثال لهذا الفارق .
٣٠٥	بيان ذلك فى اللغة العربية .
٣٠٧	تفاوت القوى والقدر .
٣٠٩	خصائص أسلوب القرآن .
«	(١) مسحة القرآن اللفظية .
٣١٣	(٢) إرضاؤه العامة والخاصة .
«	(٣) إرضاؤه العقل والعاطفة .
[illegible]	(٤) جودة السبك وإحكام السرد .

صفحة	الموضوع
٣١٨	(٥) براعته فى تصريف القول .
٣٢٣	(٦) جمع القرآن بين الإجمال والبيان .
٣٢٤	(٧) القصد فى اللفظ مع الوفاء بالمعنى .
٣٢٦	تعليق وتمثيل .
«	الشبهات الواردة على أسلوب القرآن .
٣٣١	المبحث السابع عشر فى إعجاز القرآن وما يتعلق به .
٣٣٢	وجوه إعجاز القرآن .
«	الوجه الأول : لغته وأسلوبه .
٣٣٣	القدر المعجز من القرآن
٣٣٤	معارضة القرآن .
٣٣٥	فى القرآن آلاف المعجزات .
٣٣٦	معجزات القرآن خالدة .
٣٣٧	حكمة بالغة فى هذا الاختيار .
٣٣٨	بهذه الشهادة ينبجح العالم كله .
«	أسلوب القرآن وأسلوب الحديث .
٣٤٠	الوجه الثانى : طريقة تأليفه .
٣٤٢	الوجه الثالث : علومه ومعارفه .
٣٤٣	أمثلة من عقيدة الإيمان بالله .
٣٤٥	أمثلة من عقيدة البعث والجزاء .
٣٥١	الوجه الرابع : وفاؤه بحاجات البشر .
٣٥٣	الوجه الخامس : موقف القرآن من العلوم الكونية .
٣٥٨	كلمة فى الموضوع .
٣٦١	الوجه السادس : سياسته فى الإصلاح .

صفحة	الموضوع
٣٦٧	الوجه السابع : أنباء الغيب فيه .
»	غيب الماضى .
٣٦٨	غيب الحاضر .
٣٦٩	غيب المستقبل
٣٨١	على هامش الوجه السابع .
٣٨٢	معجزات يكشف عنها العلم الحديث .
»	معجزة يكشف عنها التاريخ .
٣٨٤	معجزة يكشف عنها الطب .
٣٨٧	معجزة يكشف عنها علم الاجتماع .
٣٨٩	الوجه الثامن : آيات العتاب .
٣٨٩	الخطأ فى الاجتهاد ليس معصية (وهو بحث نفيس)
٣٩٢	آيات العتاب نوعان .
٣٩٥	الوجه التاسع : مانزل بعد طول انتظار .
٣٩٩	الوجه العاشر : مظهر النبى عند نزول الوحى عليه .
٤٠٠	الوجه الحادى عشر : آية المباهلة .
٤٠١	الوجه الثانى عشر : عجز الرسول عن الإتيان ببدل له .
٤٠٣	الوجه الثالث عشر : الآيات التى تجرد الرسول من نسبة القرآن إليه
٤٠٥	الوجه الرابع عشر : تأثير القرآن ونجاحه .
٤٠٧	تأثير القرآن فى أعدائه .
٤٠٩	تأثير القرآن فى أوليائه .
٤١٢	وجوه معلولة فى الإعجاز .
٤١٤	شبهة القول بالصرفة .
»	دفع هذه الشبهة بفروضها الثلاثة .

صفحة	الموضوع
٤٢٠	دفع الشبهات الواردة فى هذا المقام .
٤٢١	(١) دفع شبهة أن النبي تعلم من بحيرا الراهب .
٤٢٤	(٢) دفع شبهة أن نفسه ﷺ هى منبع الوحى
٤٢٧	(٣) دفع شبهة أنه تعلم من ورقة بن نوفل
٤٢٨	(٤) دفع شبهة أن إعجاز القرآن لا يدل على أنه كلام الله، بل هو كلام محمد.
٤٣٠	(٥) دفع شبهة قياس القرآن على الكلام النبوى .
٤٣٢	(٦) دفع اشتباههم فى أن أنباء الغيب وجه من وجوه إعجازه .
٤٣٣	(٧) دفع اشتباههم فى أن علوم القرآن ومعارفه وجه من وجوه إعجازه.
٤٣٥	خلاصة المبحث
٤٣٧	كلمة الختام .
٤٣٨	رجاء .